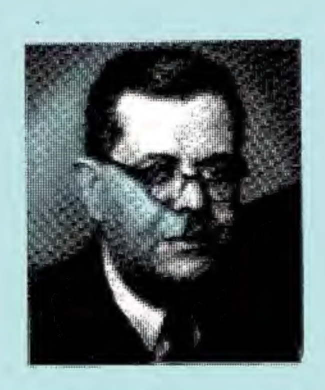
مذكّرات محمّد عزّة دروزة



سِجِلٌ حافِلٌ

بمسيرة الحركة العربيّة والقضيّة الفلسطينيّة
خلال قرن من الزمن

1305 هـ ـ 1404 هـ / 1887 م ـ 1984 م

المجلّد الأوّل





مذكرات محمد عزة دروزة

سجل حافل

بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية
خلال قرن من الزمن

1305 هـ - 1404 هـ / 1887 م - 1984 م

المجلد الأول



المجلد الأول

النشأة والبيئة والنشاط الوطني في أواخر العهد العثماني
جمعية العربية الفتاة والحكومة العربية في سورية
(العهد الفيصلي)، مسيرة النضال الوطني الفلسطيني حتى 1936.

الطبعة الاولى 1993

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت. لبنان

مذكرات محمد عزة دروزة

1



بسم الله الرحمن الرحيم

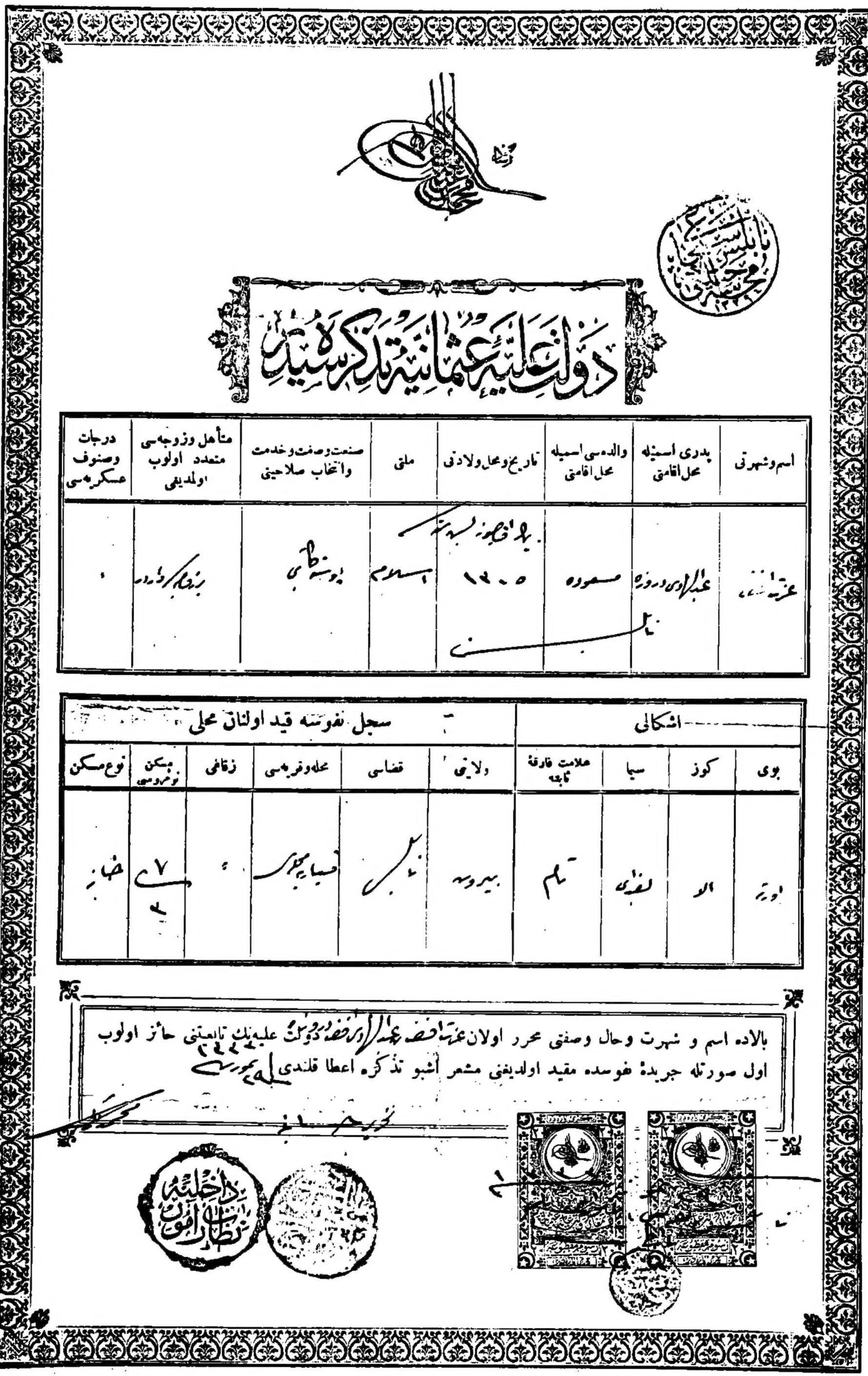


لا نستطيع أن نغفل الإطار التاريخي الذي جرى فيه كل حدث، وعاصر كل مرحلة، فإذا أردت أن تصدر حكماً على زعيم أو على مرحلة فضعها في إطارها التاريخي الذي عاصرته، وبين المؤشرات التي أثرت فيه ثم أصدر حكماً عليها.
فكل مرحلة لها ضروراتها، ولا بد دائماً قبل إصدار الأحكام من تصور الظروف التاريخية التي جرت فيها الأحداث ووضعها في الاعتبار، ثم إصدار الأحكام على ضوء هذه الظروف، وليس على ضوء ما توفر لنا الآن من فرصة معايشة نتائج القرارات والأحداث، ويفترض على كل من يتصدى للنقد والتقييم التقيد به.



محمد عزة دروزة





دولت عليهٔ عثمانيه تذكرهٔ سيدر

اسم وشهرتى	پدرى اسميله محل اقامتى	والدهسى اسميله محل اقامتى	تاريخ ومحل ولادتى	ملتى	صنعت وصفت وخدمت وانتخاب صلاحيتى	متأهل وزوجهسى متعدد اولوب اولمديغى	درجات وصنوف عسكريهسى
عزة افندى	عبد الهادى دروزه	مسعوده	١٣٠٥ نابلس	اسلام	[illegible]	[illegible]	

اشكالى				سجل نفوسه قيد اولنان محلى					
بوى	كوز	سيما	علامت فارقهٔ ثابته	ولايتى	قضاسى	محله وقريهسى	زقاقى	مسكن نومروسى	نوع مسكن
اورته	الا	لطيف	تام	بيروت	نابلس	[illegible]		٧	خانه

بالاده اسم و شهرت وحال وصنعتى محرر اولان عزة افندى عبد الهادى دولت عليهنك تابعيتنى حائز اولوب اول صورتله جريدهٔ نفوسده مقيد اولديغنى مشعر اشبو تذكره اعطا قلندى

داخليه نظارت امورى

شهادة ميلاد عزة دروزة في 1305هـ وتذكرة جنسية عثمانية .

تعريف بصاحب المذكرات :
محمد عزة دروزة :

ـ ولـد في نـابلس 1305هـ ـ 1887م/ وتـوفي في دمشق 1404هـ ـ 1984.

كان محمد عزة دروزة أحد الذين واكبوا السياسة العربية منذ مطلع هذا القرن، ولم يكن مراقباً للأحداث أو شاهد عيان لتطوراتها فحسب، بل كان في خضم الحركة الوطنية في مواجهة الإنتداب والصهيونية ، لعب دوراً قيادياً ومحركاً في الأحداث، دون ضجة أو إثارة، وعمل على دعم الكفاح المسلح وتأييد الحركات الجهادية.

واتخذ نضاله شكلاً وحدوياً تجاوز ظروف التجزئة والحدود المصطنعة، وشارك في تأسيس ونشاط الجمعيات والأحزاب الاستقلالية العربية الوحدوية النضالية في سورية ـ جنوبها وشمالها ـ قبل 1920 وفي فلسطين بعد 1920، وسيرته الذاتية لا تنفصـل عن مسيرة الحـركة الـوطنية النضـالية والاستقـلالية والوحدوية.

وحياته في عمقها واتساعها وإشعاعها تكاد تكون ظاهرة فريدة، فقد عاش زهـاء قرن من الـزمان لا ينقـطع عن الجهد والسعي والعـطاء يناضـل ويفكر ويكتب، فكان بذلك شاهد عصره أحداثاً ووقائع سياسية وفكرية وحضارية في الوطن العربي، كما ارتاد كل مجالات الفكر أديباً وصحفيـاً وناقـداً ومترجمـاً ومؤرخاً وعالم دين، فألف في القرآن والحديث، وفسّر القرآن الكريم، وعالج موضوعات إجتماعية ،وكتب في التاريخ العربي حديثه وقديمه بـروح العالم المحقق المسؤول قومياً، وأرخ للقضية الفلسطينية، وكتب في الرواية والمسرح والصحافة، وفي النقد والترجمة، وكان الإلتزام الفكري والمنهجية العلمية من سماته البارزة، شديد الإيمان بدينه، كثير الاعتزاز بقوميته، ملتزماً جانب الحق في إنسانية رحبة لا تعرف التعصب ولا الهوى.

وهو من الرواد القلائل في النهضة العربيـة الحديثـة الذين أدركـوا سر

الترابط الأزلي بين الإسلام والعروبة لغة وفكرة وثقافة وإرثاً حضارياً، «فعز العروبة من عز الإسلام، وعز الإسلام من عز العروبة». وما دام عز الإسلام وانتشاره تحت رايتهم ووحدتهم، فكلما كانوا أقوياء متحررين من العوائق كان ذلك خدمة للإسلام ونشره وقوته.

وقد دوّن كل ما شهد وشارك وتيسّر له الإطلاع عليه في مذكرات مفصلة ـ بأسلوب صادق متميّز بعيد عن الانفعال والعبارات الإنشائية ـ تغطي حقبة قرن من الزمن. ومن واقع مشاركته القيادية الفاعلة الناشطة، إذ ظل عضواً عاملاً مناضلاً بارزاً في أبرز التنظيمات والتجمعات السياسية والفكرية التي نشطت دفاعاً عن القومية ومقاومة الانتداب والاستيطان الصهيوني، عاملاً في صمت على أداء دوره الوطني، غير متطلع إلى جاه أو سلطة أو نفوذ، مركزاً جهده واهتمامه حول الأهداف الوطنية والقومية، لم يبدله طول العمر رغم تراجع الصحة أو تبدل الأحوال وتقلبها ، ولم يسبق لأيٍ من رجال الرعيل الأول وقيادييه الذين شاركوا في المسيرة ، أن دونوا أحداثها بهذا الشمول.

ونشر المذكرات يكشف جوانب خفية من القضية الفلسطينية بخاصة والقضايا العربية بعامة، تهم جميع الدارسين مطالعتها والاستفادة منها، وهي تغطي حقبة حياته (97 عاما) في خضم العمل الوطني النضالي مشاركة وفعالية، وإسهاماً في صنعه وصيانته.

وهي تشتمل على ملاحظاته اليومية على الأحداث والشؤون الشخصية والعائلية والحزبية والوظيفية والمحلية والعالمية الهامة، وإن الطبيعة الحميمة لهذه المذكرات إلى جانب المركز المتميز لكاتبها من واقع المسؤولية الوطنية، تجعلها من أندر المصادر وأوثقها، إذ يتعذر الاشتباه بمرامي مؤلف المذكرات واتهامه بتمجيد شخصه أو الحيد عن الموضوعية والانصاف.

ولو جال القارىء معنا على محاصيل بيدر عالمنا الكبير لتحقق بنفسه عمق وشمولية وأهمية وموضوعية الإرث الأدبي والسياسي والفكري والديني الذي أغنى به مكتبتنا العربية بشكل خاص، والعالمية بشكل عام، خاصة فيما يتعلق بهذه المرحلة الهامة من تاريخ أمتنا والتي أريد لها أن تطمس عن عمد أو غير عمد ليتحقق حلم الغزو وطموحاته.

ثبت بمؤلفات محمد عزة دروزة

1 ـ الكتب الإسلامية:

ـ عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة (صور مقتبسة من القرآن الكريم).

الطبعة الأولى. مكتبة ومطبعة دار اليقظة / دمشق 1365/ 1946.

الطبعة الثانية، (منقحة) مكتبة ومطبعة دار اليقظة/ دمشق 1384/ 1964.

ص/ 847.

ـ سيرة الرسول ﷺ صورة مقتبسة من القرآن الكريم.

الطبعة الأولى (جزء واحد) مطبعة الاستقامة/بالقاهرة 1367/1948.

طبعة ثانية (جزآن) المكتب التجاري/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة/ 1384 ـ 1465.

جزء أول ص 357 جزء ثاني ص 469.

طبعة ثالثة (جزآن) طبع على نفقة سمو أمير قطر بمناسبة إنعقاد المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية 1400 هـ.

جزء أول ص 352/ جزء ثاني ص 471.

ـ القرآن والمرأة ص 64 طبعة أولى ـ المطبعة العصرية/ صيدا 1951.

ـ القرآن والضمان الاجتماعي ص34 طبعة أولى ـ المطبعة العصرية/ صيدا 1951.

ـ القرآن واليهود ص 160 طبعة أولى بإشراف المرحوم الشيخ/ مصطفى السباعي صاحب مجلة حضارة الإسلام/ بدمشق 1367/ 1949.

ـ القرآن المجيد (مقدمة للتفسير الحديث) ص 305 طبعة أولى/ المطبعة العصرية صيدا 1952.

طبعة ثانية المطبعة العصرية صيدا.

ـ التفسير الحديث (حسب النزول) 12 جزء.

الطبعة الأولى/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة ـ عيسى البابي الحلبي (1381 ـ 1961/ 1962/ 1963).

ـ الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة.

الطبعة الأولى ـ جزء واحد ـ دار إحياء الكتب العربية/القاهرة 1376 ـ 1956.

الطبعة الثانية ـ جزآن ـ دار إحياء الكتب العربية/القاهرة 1967 ـ 1969.

الطبعة الثالثة ـ جزآن ـ دار المكتب الإسلامي/بيروت 1386 ـ 1966.

ـ المرأة في القرآن والسنة.

الطبعة الأولى. المطبعة العصرية/ صيدا 1388/ 1967.

الطبعة الثانية. المطبعة العصرية/ 1397/ 1976.

الطبعة الثانية (منقحة) المطبعة العصرية/ صيدا 1400/ 1980 ص259.

الطبعة الرابعة. دار الجليل/ دمشق 1985 ص267.

ـ الإسلام والاشتراكية. (ص250).

الطبعة الأولى. المطبعة العصرية/ صيدا 1388/ 1968.

ـ القرآن والمبشرون. ص (463).

الطبعة الاولى المكتب الاسلامي/ دمشق 1392 ـ 1972.

الطبعة الثانية. المكتب الاسلامي/ دمشق.

الطبعة الثالثة. المكتب الاسلامي/ بيروت 1399/ 1979.

ـ القرآن والملحدون، ص (427).

طبعة أولى، المكتب الإسلامي/ دمشق 1393/ 1973.

طبعة ثانية، دار قتيبة/ دمشق 1400/ 1980.

ـ الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث.

طبعة أولى ـ ص381 دار اليقظة/ دمشق 1395/ 1970.

طبعة ثانية ـ المكتبة والمطبعة العصرية/ بيروت ـ صيدا 1988.

ـ اليهود في القرآن الكريم، ص146.

طبعة أولى، المكتب الإسلامي/ بيروت 1400 ـ 1980.

طبعة ثانية، دار الجليل 1983.

- **القواعد القرآنية والنبوية في تنظيم الصلات بين المسلمين وغير المسلمين** ص115 .
طبعة أولى ، دار الجليل/ دمشق 1982 .

غير مطبوعة :

- **القواعد الإسلامية الدستورية في شؤون الحياة.**
- **مجموعة مقالات إسلامية نشرت في مجلات إسلامية في الكويت ـ** عمان . دمشق بعد 1965

* * *

2 ـ الكتب الفلسطينية :

- **كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الإنكليزية، مطبعة دار الايتام** الاسلامية/ القدس 1349/ 1931 .
نشرت مقالات في جريدة الجامعة العربية ثم جمعت في كتاب .
- **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها .**
الطبعة الاولى جزآن ص 850 المطبعة العصرية/ صيدا 1961 .
الطبعة الثانية، جزآن المطبعة العصرية/ صيدا .
الطبعة الثالثة، جزآن دار الجاحظ للطباعة/ دمشق 1984 .
(على نفقة منظمة التحرير الفلسطينية ـ دائرة الاعلام والثقافة) .
- **مأساة فلسطين**، ص132 .
الطبعة الاولى ، دار اليقظة العربية/ دمشق 1379/ 1959 .
- **فلسطين وجهاد الفلسطينيين**، ص108 .
نشرته الهيئة العربية العليا ـ دار الكتاب العربي/ القاهرة 1379/ 1959 .
- **قضية الغزو الصهيوني**، ص72 .
الطبعة الاولى ، ملحق لمجلة الوعي الإسلامي في الكويت 1970 .
- **في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة**، ص524 .
طبعة أولى ، جزء أول المكتبة العصرية/ صيدا 1973 .
جزء ثاني ، (تحت الطبع) .

- عبرة من تاريخ فلسطين، ص120 .
طبعة أولى . المكتبة العصرية صيدا/ 1978 .

- صفحات مغلوطة ومهملة من تاريخ القضية الفلسطينية وصلتها بالحركة القومية العربية. المكتبة العصرية/ صيدا 1978 .

- العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني والحديث ومراحل الصراع .
جزآن : الأول 251 طبعة أولى 1979 . دار الكلمة للنشر/ بيروت .
الثاني 290 طبعة أولى 1980 دار الكلمة للنشر/ بيروت .

- سبعة وتسعون عاماً في الحياة (سيرة ذاتية) مذكرات وتسجيلات (تحت الطبع) .
ص (298) جزء أول (مئة عام فلسطينية) المركز الجغرافي الفلسطيني/ دمشق. (1887/ 1918) والجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار 1984 .
ص220 جزء ثاني (1918/ 1920) طبعة اولى، مطبعة ص.ق/ دمشق 1986 الأجزاء التالية (تحت الطبع .)

غير مطبوعة :

- مجموعة مقالات سياسية نشرت في مجلات وصحف في دمشق وغيرها حول القضية الفلسطينية. (بعد 1973).

***

3 ـ الكتب التاريخية :

- مختصر تاريخ العرب والإسلام، الجزء الأول والثاني (493ص) طبعة أولى وثانية وثالثة المطبعة السلفية/ بمصر 1923 ـ 1925، الجزء الثالث (غير مطبوع).

- دروس التاريخ القديم (خاص بالمبتدئين) ص203 .
الطبعة الأولى / المطبعة السلفية/ القاهرة 1350/ 1932 .
الطبعة الثانية/ مطبعة دار الأيتام الإسلامية/ القدس 1936 .
الطبعة الثالثة/ مطبعة دار الأيتام الإسلامية/ القدس 1936 .

- دروس التاريخ المتوسط والحديث (للمدارس الابتدائية) ص239.
الطبعة الأولى / المطبعة السلفية/ القاهرة.
الطبعة الثانية/ مطبعة الترقي/ دمشق 1957/ 1938.
- دروس التاريخ العربي (من أقدم الأزمنة الى الآن) ص370.
الطبعة الأولى / المطبعة السلفية/ القاهرة/ «1348».
الطبعة الثانية/ «1350».
الطبعة الثالثة/ المكتبة الوطنية العربية/ حيفا لصاحبها محمود يوسف الصفدي وشركاه مطبعة الصداقة/ دمشق 1352.
طبعات متعددة/ دار الأيتام الاسلامية/ القدس،
ومطبعة الترقي / دمشق.
الطبعة العاشرة/ مطبعة الترقي/ دمشق 1939.
- تاريخ الجنس العربي في مختلف الاطوار والادوار والاقطار من أقدم الأزمنة. (8 أجزاء).
طبعة أولى/ المطبعة العصرية/ صيدا 1958/ 1964.
طبعة ثانية/ المطبعة العصرية/ صيدا.
- العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي.
الطبعة الأولى/ 3 أجزاء دار اليقظة العربية/ دمشق 1960/ 1961.
الطبعة الثانية/ 3 أجزاء فصلت 8 أجزاء المكتبة العصرية/ صيدا 1401/ 1981.
الجزء التاسع المكتبة العصرية/ صيدا 1403/ 1983.
- عروبة مصر - قبل الإسلام وبعده.
الطبعة الاولى / دار الكتب القومية/ القاهرة 1961 عدد ممتاز رقم 81 و89.
الطبعة الثانية/ المطبعة العصرية/ صيدا 1963 ص199.

* * *

4 - الكتب القومية:

- حول الحركة العربية الحديثة (6) أجزاء.
الطبعة الأولى / المطبعة العصرية/ صيدا 1951 - 1952.

طبعة ثانية/ المطبعة العصرية/ صيدا (الأجزاء 4 ـ 5 ـ 6) 1961 .
ـ مشاكل العالم العربي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ص267 .
نال جائزة من الجامعة العربية .
الطبعة الأولى/ دار اليقظة العربية/ دمشق 1952 .
ـ الوحدة العربية .
(نال الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة 1961).
الطبعة الأولى ـ المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر/ بيروت 1376/ 1957 .
ـ نشأة الحركة العربية الحديثة .
(الجزء الأول من سلسلة حول الحركة العربية الحديثة منقحاً ومفصلاً ص510).
طبعة أولى/ المكتبة العصرية/ صيدا 1971 .
ـ الوحدة العربية (مختصر) تحت الطبع .

* * *

5 ـ مواضيع مختلفة:

ـ رواية تمثيلية «وفود النعمان على كسرى أنو شروان» .
الطبعة الاولى/ مطبعة صبرا/ بيروت (1331هـ ـ 1911م).
ـ رواية تمثيلية السمسار وصاحب الأرض 1913 مثلت في نابلس ـ مفقودة .

ـ رواية تمثيلية عبد الرحمن الداخل 1923 مثلت في نابلس ـ مفقودة .

ـ رواية تمثيلية آخر ملوك العرب في الأندلس 1925 مثلت في نابلس ـ مفقودة .

ـ دروس في فن التربية (القسم النظري) تأليف جبرائيل كمبايره GAB-RIAL COMPAYRE مترجم عن الإفرنسية (1918) نشر ملحقاً بمجلة التربية والتعليم في بغداد 1928 ومجمع في كتاب (232ص).

- تركيا الحديثة

الطبعة الأولى/ مطبعة الكشاف/ بيروت 1365/ 1946. ص(355).

- بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى.

تأليف جان بيشون (بالإفرنسية) مترجم للتركية حسين جاهد يالشين معرب عن التركية.

الطبعة الأولى/ مطبعة الكشاف/ بيروت 1946. ص149.

- تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم: (ص549)

الطبعة الأولى/ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها - مصر 1377/ 1958.

الطبعة الثانية/ المكتبة العصرية للطباعة والنشر/ صيدا 1389/ 1969.

طبعة شعبية/ الدار القومية للطباعة والنشر/ مطابع شركة الاعلانات الشرقية. كتاب «اخترنا لك» رقم 83 - 85 - 87 1960/ 1961.

- الجذور القديمة لاحداث بني إسرائيل واليهود وسلوكهم واخلاقهم.

الطبعة الأولى/ مكتبة أطلس/ دمشق 1388 - 1969 ص101.

غير مطبوعة.

- «دولة الأثينيين» لأرسطو.

مترجم عن التركية باذن من مترجمها الاستاذ باي بورد - أنقرة 1943 مطبعة المعارف.

- رواية روفائيل/ تأليف لامارتين/ مترجمة عن الإفرنسية 1918 (غير مطبوع).

- مقالات صحفية في جريدة «الحقيقة» بيروت لصاحبها كمال عباس 1908 - 1911.

- مقالات في مواضيع مختلفة نشرت في مجلات عربية مختلفة.

- محاضرة «التقليد» القيت في نادي جمعية الشبان المسلمين 1928.

- محاضرات أدبية/ اجتماعية/ تاريخية/ تربوية القيت على طلاب مدرسة النجاح الوطنية/ نابلس.

* * *

توصيف موجز لمؤلفات محمد عزة دروزة حسب تسلسل تأليفها...

رواية وفود النعمان على كسرى أنوشروان: وهي توسيع للرواية التي يرويها صاحب «العقد الفريد». وكانت بسبب تسجيل الوعي العربي القومي وما أخذ يثور في صدور شباب العرب من المطامح القومية والرغبة في النهضة وتبوء العرب المكانة اللائقة بهم كأصحاب أمجاد عريقة من تاريخ العرب والإسلام، وقد طبعت هذه الرواية في مطبعة صبرا/ بيروت 1331هـ (1911م) وقد مثلتها في نابلس على مسرح البلدية فرقة مدرسة النجاح الوطنية ومدن فلسطينية أخرى في السنتين الأوليين من الاحتلال الإنكليزي 1923/ 1924.

رواية السمسار وصاحب الأرض: وقد كتبها في 1913 بأسلوب مسرحي للتمثيل، لما عظم البلاء من مطامع اليهود في حيازة الأراضي العربية في فلسطين وشرائها من العرب بكل وسيلة ممكنة مندفعين في ذلك وراء الفكرة الصهيونية، وقد هدف من الرواية الى شرح أساليب اليهود وإغراءاتهم والتنبيه على خطر السماسرة الذين كانوا يساعدونهم على مآربهم، وقد مثلتها فرقة مدرسة النجاح الوطنية في نابلس على مسرح البلدية، ومدن فلسطينية أخرى في السنتين الأوليين من الاحتلال الإنكليزي لفلسطين، وكان أن استعارها أحد النوادي لتمثيلها وضاعت.

رواية عبد الرحمن الداخل: وقد كتبها في 1924 ومثلتها فرقة مدرسة النجاح الوطنية في نابلس. وكان أن استعارتها نوادٍ فلسطينية أخرى ومثلتها وضاعت أثناء ذلك.

رواية **«آخر ملوك العرب في الاندلس»**: كتبها في 1925 ومثلتها الفرقة كذلك. وكان أن استعارتها نوادٍ في مدن فلسطينية أخرى ومثلتها وضاعت أثناء ذلك.

العمل الصحفي: وفي أثناء ممارسته الوظيفية في العهد العثماني/ في دائرة البريد والبرق في بيروت/ شارك في تحرير جريدة (الإخاء العثماني) التي كان يصدرها محمد شاكر الطيبي، كما كان يترجم للجريدة عن الصحف التركية، مقالات سياسية واجتماعية واقتصادية، مما كان له صلة بالبلاد العربية، كما كتب في جريدة الحقيقة التي كان يصدرها كمال بن الشيخ عباس رئيس الكلية الإسلامية العلمية في بيروت مقالاً أسبوعياً اجتماعياً وأخلاقياً ووطنياً، وكذلك في جريدة الكرمل التي كان يصدرها نجيب نصار في حيفا، وجريدة فلسطين التي كان يصدرها عيسى العيسى في يافا.

ترجمة روفائيل وكتاب دروس في فن التربية: وفي هذه الاثناء قوى معرفته باللغة الافرنسية، التي كان تعلم مبادئها في «المدرسة الاعدادية» فترجم عن الفرنسية كتابين أحدهما كتاب «رافائيل» للامارتين والثاني القسم النظري من كتاب «دروس في فن التربية» للأستاذ جبرائيل كمبايرة وقد طبع في 1928/ 1929 ملحقاً بمجلة التربية والتعليم التي كان يصدرها ساطع الحصري في بغداد، ثم صدرت في كتاب مستقل بمعرفة المجلة. أما الكتاب الأول «رافائيل» فلم يطبع لأنه اطلع على ترجمة مطبوعة سابقة له لأحد الكتاب اللبنانيين.

كتاب مختصر تاريخ العرب والإسلام: في أثناء ممارسته رئاسة ومديرية مدرسة النجاح الوطنية في نابلس ألف كتاب «مختصر تاريخ العرب والاسلام» في ثلاثة أجزاء ليكون كتاباً مدرسياً.

الأول: من تاريخ العرب قبل الإسلام وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين والأمويين.

الثاني: من تاريخ العرب في الأندلس والدولتين العباسية والفاطمية.

الثالث: من تاريخ الدول العربية والاسلامية بعدها الى العصر الحاضر.

وقد كتبه بأسلوب قومي أبرز فيه النواحي الحضارية والاجتماعية والثقافية والإسلامية بالإضافة إلى الوجود والنشاط السياسي.

وقد طبع الأول والثاني ثلاث مرات في 1926/ 1928 في المطبعة السلفية لصاحبها محب الدين الخطيب، وكان كتاباً مدرسياً للمدارس

الفلسطينية والأردنية. أما الجزء الثالث فلم يطبع وظل مخطوطاً.

محاضرات في الأخلاق والاجتماع: وفي أثناء ممارسته رئاسة ومديرية مدرسة النجاح الوطنية في نابلس كان له في كل أسبوع درس عام يلقي فيه محاضرة في الأخلاق والاجتماع على طلاب الصفوف الثانوية، وظل مواظباً على ذلك طيلة توليه رئاسة ومديرية المدرسة، والتي امتدت خمس سنوات (وقد جمعت هذه المحاضرات ولكنها لم تطبع).

وفي أثناء ذلك كتب مقالات عديدة اجتماعية وتربوية وأخلاقية ونقد وتعليق ومشاركة أو مداخلة لكتب وآراء وأفكار كانت موضوع وحديث الساعة آنئذ، نشرت في مجلات الكشاف في بيروت، والزهراء في القاهرة، والمرأة الجديدة في القاهرة، كما كان يكتب مقالات سياسية في صحف فلسطين وبخاصة جريدة الجامعة العربية واللواء في القدس، والجامعة الاسلامية والدفاع والحياة في يافا، والكرمل في حيفا ومجلة العرب في القدس.

كما كان يدعى لإلقاء محاضرات في الاجتماع والأخلاق والتربية في فلسطين (مدرسة الفرندز) رام الله وجمعية (الشبان المسيحيين) القدس، ونوادي وجمعيات الشبان المسلمين في نابلس والرملة وفي يافا وحيفا وعكا و...

كتب دروس «التاريخ العربي من أقدم الأزمنة حتى الآن»، «التاريخ القديم» «التاريخ المتوسط والحديث».

وفي 1930 كتب كتابه «دروس التاريخ العربي من أقدم الأزمنة حتى الآن» وهو كتاب مدرسي للصفوف الابتدائية بأسلوب مبسط وقومي، كان يدرس في جميع المدارس العربية الوطنية الخاصة في فلسطين، ويعتمد لدى مدرسي التاريخ في المدارس العربية الحكومية ومدارس العراق والأردن، وقد طبع عشر طبعات آخرها في 1939. ثم كتب في 1932 كتابين مدرسيين آخرين بالإسلوب نفسه وللصفوف الابتدائية أيضاً. «دروس في التاريخ القديم» و«دروس في التاريخ المتوسط والحديث» كان لهما كذلك القبول والانتشار نفسه في فلسطين والأردن والعراق.

كتب «عصر النبي ﷺ، بيئته قبل البعثة» و«سيرة الرسول ﷺ» و«الدستور والقرآن في شؤون الحياة».

في حزيران 1939 إعتقلته السلطات الافرنسية في سورية (دمشق)، وفي فترة اعتقاله في سجن المزة (دمشق) ومن ثم في سجن القلعة (دمشق)، أتم حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ووضع أصول كتبه القرآنية الثلاثة «عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة من القرآن الكريم» و«سيرة الرسول ﷺ من القرآن الكريم» و«الدستور القرآني في شؤون الحياة من القرآن الكريم» وكان القرآن الكريم سند الكتب الثلاثة. وقد جاءت فريدة في بابها، وكان الكتابان الأولان بخاصة أصح صورة لبيئة النبي وعصره قبل البعثة وبعدها، وفيها كثير من الصور الاجتماعية والدينية والعقلية والسكانية التي لم يكن متنبَّهاً لها وعلى جانب عظيم من الإشراق والروعة والقوة، وقد ألحق بالثاني فصلاً في مراحل وتطور التشريع القرآني، وجاء في جزئين: الأول في السيرة النبوية في العهد المكي، والثاني في السيرة النبوية في العهد المدني، وكان الأول (عصر النبي) أربعة أبواب، باب في الإقليم والسكان ومعايشهم. (ب) وباب في الحياة الاجتماعية. (ت) وباب في الحياة العقلية. (ث) وباب في الحياة الدينية. أما الكتاب الثالث ففيه فصل خاص في شرح نظرة القرآن الكريم للحياة. ثم (أ) باب في النظام السياسي تفرعت عنه خمسة فصول (1) في نظام الدولة الأساسي في القرآن (2) في نظام الدولة المالي (3) في النظام القضائي (4) في النظام الجهادي (5) في النظام التبشيري. ثم (ب) باب في النظام الاجتماعي تفرع عنه: (1) فصل في التفاوت الاجتماعي. (2) فصل في الحرية والإخاء والمساواة. (3) فصل في نظام الأسرة والآداب السلوكية. (4) فصل في مبادىء إجتماعية عامة. ثم (ث) باب في النظام الأخلاقي تفرع عنه: (1) فصل في الأخلاق والصفات الشخصية. (2) فصل في إصلاح المسلم ومعالجته روحياً. وقد لخص في آخر كل فصل محتويات الفصل في قواعد.

وقد طبع الكتاب الأول (عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة) في دمشق طبعة اولى سنة 1946 لدى دار اليقظة، وجاء في 517 صفحة. وطبعة ثانية منقحة في 1964 جاءت في 848 صفحة.

وطبع الكتاب الثاني (سيرة الرسول ﷺ) في القاهرة/ المكتبة التجارية الكبرى سنة 1949 في جزئين بلغت صفحاتهما 710 صفحة، ثم طبعة جديدة منقحة في دار إحياء الكتب العربية في القاهرة سنة 1965 في جزئين بلغت صفحاتها 830 صفحة. ثم طبعة ثالثة على نفقة سمو أمير قطر بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية سنة 1400هـ في جزئين بلغت صفحاتها 823 صفحة. ثم طبعة رابعة بواسطة المكتبة والمطبعة العصرية/بيروت ـ صيدا 1986.

وطبع الكتاب الثالث، (الدستور القرآني في شؤون الحياة) طبعة أولى في سنة 1956 في دار إحياء الكتب العربية في القاهرة، وبلغت صفحاته 604 صفحة ثم نقح وصدر بعنوان (الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة) في دار إحياء الكتب العربية في القاهرة في جزئين في شرح وتجلية ما احتواه كتاب الله وسنة رسوله في مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية والأخلاقية والأسرية والعقلية مع الإيجاز غير المخل، وتم طبع الجزء الأول في 1966 وجاء في 584 صفحة، والجزء الثاني في 1969 وجاء في 498 صفحة، وطبع طبعة ثالثة في جزئين لدى المكتب الإسلامي في بيروت سنة 1981.

التفسير الحديث:

عندما هاجر الى تركية لاجئاً 1941 ـ 1945 انكب على المطالعة والتأليف، وارتاد مكتبات الأستانة (أستانبول) وبورصة، المتعددة والمليئة بالكتب الإسلامية، وفي علوم القرآن والحديث من مطبوعة ومخطوطة، واستعان بالله لمعاودة ما بدأه خلال فترة اعتقاله وسجنه في دمشق 1939 ـ 1941، فكتب أولاً مسودات تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب نزول السور، وقدم السور المكية على السور المدنية حتى يكون قارئه في جو نزوله وتطوره مما لم يسبق اليه، مع اعتقاده أن ذلك لا يخل بقدسية ترتيب المصحف الشريف لأن التفسير عمل علمي وليس مصحفاً للتلاوة، وقد استفتى بعض أفاضل العلماء وأفتوه بصحة ذلك، وقد حرص في أسلوب التفسير على تجلية مبادىء القرآن وقواعده وتلقيناته، لأنها هي أم الكتاب، وعلى أن تظل فصول القرآن الأخرى

من قصص وجدال وحجاج ومشاهد الكون والحياة الأخرى والملائكة والجن في نطاق ما وردت من أجله وهو تدعيم المحكمات دون شرح وتفصيلات لذاتها يخرجها من هذا النطاق، ويجعل القرآن بسببها عرضة للجدل والأخذ والرد، دون ما ضرورة ولا طائل. مع تعليقات مسهبة أو مقتضبة على الموضوعات المهمة من كل ذلك، ثم على الروايات المروية بشأنها تأييداً وتفنيداً.

وقد طبع هذا التفسير بعنوان «التفسير الحديث» بعد تنقيحات وتصحيحات أدخلت على المسودات نتيجة لمطالعات واطلاعات جديدة، في دار إحياء الكتب العربية في القاهرة خلال 1961 ـ 1963، وجاء في إثني عشر جزءاً بلغت صفحاتها 3576 صفحة.

وبعد إنجاز طبعه أعاد النظر فيه ثانية وهيأ نسخة منقحة جديدة أضاف إليها إضافات، وأجرى فيها تصحيحات مهمة، وباشرت المكتبة والمطبعة العصرية في بيروت وصيدا سنة 1981 بإعادة طبعه منقحاً إلا أن الاعتداء الصهيوني الغادر على لبنان في 1982 وما تبع ذلك أخر إنجاز الطبع، ولا يزال التفسير المنقح مخطوطاً.

القرآن المجيد:

وكتب مسودة كتاب القرآن المجيد الذي أراده أن يكون بمثابة مقدمة للتفسير، شرح فيه مختلف المسائل القرآنية وأساليب التفسير والطريقة المثلى في تفسير القرآن، وهي التي جعلها خطته في كتابه التفسير الحديث. وقد طبع هذا الكتاب طبعة أولى في المطبعة العصرية في صيدا سنة 1952، وجاء في 305 صفحات.

حول الحركة العربية الحديثة: وفي أثناء هجرته في تركيا كتب مسودات كتاب **«حول الحركة العربية الحديثة»** الذي جاء مزيجاً من ذكرياته ومشاهداته وممارساته في الدرجة الأولى. ولما عاد الى سورية 1945 نقح هذه المسودات وهيأها للطبع وطبعت في ستة أجزاء 1951 ـ 1953 في المطبعة العصرية في صيدا، وبلغ عدد صفحاتها 1331 صفحة، واقتصر **الجزء الأول** على انبعاث الحركة العربية الحديثة في زمن الدولة العثمانية والنشاط القومي العربي والجمعيات العربية والثورةالعربية ونتائجها، ثم سيرة الحكم الفيصلي في دمشق

الى سقوطه في تموز 1920. واحتوى **الجزء الثاني** تاريخ الانتداب والاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان وشمال أفريقيا، وصور النضال العربي ضده الى أن أحرزت سورية ولبنان استقلالهما وجلا الإفرنسيون عنهما. واحتوت الأجزاء **الثالث والرابع والخامس** على تاريخ الإنتداب الإنكليزي والصهيوني في فلسطين وصوره المختلفة وصور النضال العربي ضده الى سنة 1950، وتكاد تكون هذه الأجزاء أوفى كتاب في مراحل القضية الفلسطينية. واحتوى **الجزء السادس** بحوثاً في مشاكل البلاد العربية السياسية والاجتماعية والثقافية ومعالجتها. وقد أعيد طبع **الأجزاء الثالث والرابع والخامس** في سنة 1961 في المطبعة العصرية في صيدا، وصدر قسم من نسخها بعنوان «قضية فلسطين في مختلف مراحلها»، لأنه لمح أن الناس قل ما ينتبهون الى أن هذه الأجزاء بعنوانها الأول تحتوي على ما آحتوته من تفصيل مراحل قضية فلسطين.

وقد أتم تنقيح الجزء الأول من كتاب حول الحركة العربية الحديثة بإيضاحات وبيانات مسهبة للمواضيع التي جاءت مقتضبة قبل الدستور العثماني وبعده، وفي صدد أحوال بلاد العرب وتاريخ الدولة العثمانية والجمعيات العربية، وقد طبع هذا الجزء طبعة أولى بعنوان «نشأة الحركة العربية الحديثة» في المكتبة العصرية/ صيدا في 1971 وجاء في 510 صفحة.

كتاب تركية الحديثة:

وفي أثناء هجرته الى تركية كتب مسودات كتاب «تركية الحديثة» ضمنه استعراضاً لحالة الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، والحركة الكمالية عسكرياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، وآثارها ومآثرها في أحوال الدولة التركية الجديدة، وانطباعاته عنها خلال هجرته، وقد طبع في 1946 في مطبعة الكشاف في بيروت وبلغت صفحاته 355 صفحة.

بواعث الحرب العالمية الأولى:

وترجم كتاب «عوامل الحرب العالمية الأولى» عن ترجمة تركية للكاتب التركي «حسين جاهد يالشين» عن كتاب بالإفرنسية للكاتب الإفرنسي «جان پيشون»، وبنوع خاص ما له علاقة من هذه العوامل بأحوال الدولة والبلاد

العربية، ولاتصاله بفصول الرواية الاستعمارية التي تمثل على مسرح بلادنا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد طبع هذا الكتاب في مكتبة الكشاف في بيروت 1946 وجاء في 149 صفحة.

كتابا الدعوة الإسلامية ونظام الأثينيين:

وترجم كتابين آخرين عن التركية:

1) **تاريخ الدعوة الإسلامية للمستشرق الإنكليزي «أرنولد توماس»** وفيه بحوث وفصول صادقة في ظروف وسيرة الدعوة الإسلامية وانتشارها في مختلف أنحاء الأرض.

2) **نظام الأثينيين / لأرسطو**

ولم يطبع أياً من الكتابين المذكورين لأنه علم أنهما سبق أن ترجما وطبعا من قبل.

القرآن واليهود:

وفي 1949 ومن وحي نكبة فلسطين كتب كتاباً عن أحوال وأخلاق اليهود في القرآن تتضمن ما احتواه القرآن من صور لذلك ولمواقف اليهود من الدعوة الإسلامية في الحجاز ومواقف النبي ﷺ والمسلمين منهم. وطبع الكتاب في دمشق 1949 بإشراف المرحوم الشيخ مصطفى السباعي/ صاحب مجلة حضارة الإسلام. وجاء في 160 صفحة.

القرآن والمرأة:

وفي 1950 كتب رسالة «القرآن والمرأة» ضمنها شرحاً موجزاً لما في القرآن من شؤون المرأة وعناية القرآن بها. وقد طبع في المطبعة العصرية في صيدا في 1950 وجاءت في 64 صفحة.

القرآن والضمان الاجتماعي:

وفي 1950 كذلك كتب رسالة في «القرآن والضمان الاجتماعي» شرح فيها بإيجاز عناية القرآن بالفئات الضعيفة، وطبعت في المطبعة العصرية في صيدا 1950 وجاءت في 34 صفحة.

مشاكل العالم العربي:

في سنة 1951 أعلنت الجامعة العربية عن مسابقة على كتاب «في مشاكل العالم العربي ومعالجتها» فأعاد نظره في الجزء السادس من كتابه «حول الحركة العربية الحديثة» المقتصر على هذه المشاكل ووسعه وأرسله الى الجامعة فنال جائزة عليه.

وقد احتوى الكتاب فصلاً في المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تفرع عنه بحوث في مشاكل الجهل والفوارق الطائفية والمذهبية، وتنوع المدارس والمناهج، والأفكار المسمومة وميوعة الأخلاق وضعف التربية العربية، وضعف الوعي العام والتنظيم الشعبي ومشاكل المرأة ومشاكل القرابة والعمال، وضعف استثمار إمكانيات وثروات البلاد العربية وسوء توزيعها، ومعالجات لكل ذلك، وفصلاً في المشاكل السياسية تفرع عنه بحوث في علاقة الدول العربية ببعضها، والوحدة العربية ومشكلة فلسطين، وقضايا البلاد العربية الأخرى ومعالجات لكل ذلك. وقد طبع الكتاب في دمشق بدار اليقظة 1952 جاء في 270 صفحة.

كتاب الوحدة العربية.

وفي سنة 1954 أعلنت الجامعة العربية عن مسابقة على كتاب يكتب في الوحدة العربية وما يقف في طريقها من عقبات وكيفية التغلب عليها، فكتب كتاباً وأرسله. وقد منحته الجامعة مئة دينار تعويضاً واعتذرت عن قبوله، وقد لمح أن ذلك كان بسبب ما تضمنه الكتاب من إدانة للحكومات وبخاصة للنظام الملكي الذي يعرقل تحقيق الوحدة.

وأبدى المؤتمر الإسلامي في القاهرة استعداده لطبعه، ثم جرى تبدل في إدارة المؤتمر فتحرجت الإدارة الجديدة عن طبعه للسبب نفسه، واعتذرت بعد أن تم الاتفاق بين المؤلف والمؤتمر، ودفع المؤتمر التعويض المتفق عليه. وأخيراً اتفق المؤلف مع المكتب التجاري للنشر والتأليف في بيروت على طبعه فطبع سنة 1958 في مطبعة الكشاف، وجاء في 721 صفحة كبيرة: وفي الكتاب مباحث مسهبة عن أحوال البلاد العربية جغرافياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، وعن عناصر الوحدة العربية التي تبرر الوحدة بينها أشد ما تبرره

عناصر الوحدة في أي بلد آخر تاريخياً ولغوياً وروحياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، ثم على المحاولات والجهود المبذولة في سبيل الوحدة، ثم عن العقبات الخارجية والداخلية التي تقف في طريقها ومعالجاتها وعن الاستعمار الذي منيت به بلاد العرب، وكان من عوائق وحدتها. وما كان نضال البلاد العربية ضده. واستعراض الأمثلة التاريخية والدستورية في البلاد الموحدة. وترجح السير في عملية الوحدة على مرحلتين اولاهما اتحادية تتناسب مع حالة البلاد الراهنة مع مقترحات دستورية للدول العربية المتحدة. وثانيهما وحدة تامة تأتي مع الوقت. وقبل أن يتم طبع الكتاب قامت الوحدة بين مصر وسورية والاتحاد بين العراق والأردن فألحق في الكتاب ملاحق بذلك.

وقد نال الكتاب الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية للجمهورية العربية المتحدة في سنة 1961 .

كتاب تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم.

وفي سنة 1956 كتب من وحي النكبة أيضا كتابا في «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم» لم يسبق في ما احتواه من شرح سوءات هذا التاريخ التي سجلتها أسفار اليهود، جاء قوياً وفيه العجب العجاب الذي قلما يخطر بالبال وينتبه له الناس من تلك السوءات التي تنطوي فيها الجذور التي جعلت بني إسرائيل واليهود من بعدهم قبيلاً فريداً في المجتمع الإنساني منذ ثلاثة آلاف عام الى الآن. وقد طبع هذا الكتاب بواسطة مطبعة ومكتبة نهضة مصر سنة 1957 وجاء في 334 صفحة كبيرة.

ولقد راق هذا الكتاب للجنة القومية للتأليف والنشر في الجمهورية العربية المتحدة فطبعته طبعة شعبية في ثلاث حلقات من حلقاتها وهي 81 و82 و85 في سنة 1961 ، ووزعته على نطاق واسع. وقد أدخل عليه تنقيحات وضم اليه «رسالة القرآن واليهود» بعد ادخال تنقيحات عليها أيضاً، وطبع الكتابان من جديد في مجلد واحد بعنوان «تاريخ بني إسرائيل واليهود وأحوالهم وأخلاقهم من أسفارهم ومن القرآن» في المطبعة العصرية في صيدا سنة 1969 وجاء المجلد في 560 صفحة كبيرة.

كتاب مأساة فلسطين.

وفي سنة 1959 طلبت منه دار اليقظة في دمشق رسالة موجزة عن قضية فلسطين بمناسبة ذكرى نكبتها فكتب الرسالة بالعنوان المذكور، وطبعت بمعرفة الدار المذكورة، وجاءت في 131 صفحة من القطع الصغير.

كتاب جهاد الفلسطينيين.

ولقد كثر اللغط الموحى به من اليهود وأنصارهم عن تقصير الفلسطينيين والطعن فيهم، فكتب رسالة بهذا العنوان شرح فيها بالوثائق والحقائق ما كان من عظم جهاد الفلسطينيين وتضحياتهم وصمودهم ونضالهم مع أقوى قوتين عالميتين الصهيونية والامبراطورية البريطانية. وانتصارهم عليها المرة بعد المرة. ثم ما كان من شدة حرص الفلسطينيين على أراضيهم، وكون معظم ما اختاره اليهود من أراضي فلسطين هي من أراضي الدولة التي منحتها لهم الحكومة الانكليزية أو أملاك غير فلسطينيين أو إقطاعيين فلسطينيين وحسب، وأن ما اشتراه اليهود من هؤلاء كان قليلاً لا يكاد يبلغ ربع ما دخل في حيازتهم مع ذلك.

وكون ما اختاره اليهود رغم جهودهم ومساعدة طواغيت الإنكليز لهم لم يكد يبلغ أكثر من 7٪ من مجموع الأراضي الزراعية و2٪ من مجموع أراضي فلسطين. وقد طبعت هذه الرسالة في القاهرة بواسطة الهيئة العربية العليا سنة 1960 وبلغت صفحاتها 106.

كتاب عروبة مصر قبل الإسلام وبعده.

وفي سنة 1960 كتب كتاباً بهذا الاسم من وحي الوحدة التي تمت بين مصر وسورية، أثبت فيه قدم وأصالة عروبة مصر في التاريخ القديم والحديث، حتى إنها أصفى فيها من غيرها، وأورد ما ثبت في الآثار والمدونات ما كان من موجات متلاحقة من جزيرة العرب قبل الإسلام إلى مصر منذ أقدم الأزمنة ومآثرها فيها، ثم ما كان من مثل ذلك بعد الإسلام، بحيث يمكن إن يقال أن جل سكان مصر قديماً وحديثاً هم من الجنس العربي في دور عروبته غير الصريحة ثم في دور عروبته الصريحة. وشرح الأسباب التي كانت تحجب

الرؤية عن المصريين لإدراك حقيقة عروبتهم، وما كان من زوال الحجاب بعد الثورة ثم بعد الوحدة. وقد طبع الكتاب من قبل لجنة التأليف والنشر القومية في الجمهورية العربية المتحدة في حلقتين في سنتي 1960 و1961، ثم طبع طبعة جديدة في المطبعة العصرية سنة 1963 بلغ عدد صفحاته 200 من القطع الكبير.

سلسلة كتاب تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار.

في سنة 1956 وبعدها عكف على كتابة مسودات هذا التاريخ الذي توخى فيه ربط حلقات هذا التاريخ القديمة والحديثة معاً، وقبل الإسلام وبعده، وأبرز آثار ومآثر هذا الجنس في كل البلاد التي حلت فيها موجاته. وقد انطلق من فكرة عدم صحة التسمية السامية لهذه الموجات وترجيع تسميتها بالجنس العربي، لأنها جاءت من الجزيرة العربية. ولا سيما أنها كانت متشاركة مع من بقي في هذه الجزيرة وبمقياس واسع في اللغة والأفكار والعقائد والتقاليد. وشرح ذلك في مقدمة الجزء الأول. وقد قسم الى ثلاثة أقسام أو أدوار: الأول تاريخ الجنس العربي قبل العروبة الصريحة من أقدم الأزمنة التاريخية. والثاني تاريخ هذا الجنس بعد العروبة الصريحة أي حينما صارت اللغة العربية الصريحة لغة له. والثالث تاريخ هذا الجنس في الإسلام. واقتصر الجزء الأول على تاريخ هذا الجنس في الجزيرة العربية الى ما قبل الميلاد المسيحي. والثاني على تاريخ الموجات العربية الجنس الى وادي النيل ومآثرها فيه. والثالث والرابع على مثل ذلك في بلاد العراق والشام (أي سورية ولبنان والأردن وفلسطين). وقد كانت الآثار الحجرية والنقوش ثم المدونات القديمة من المستندات الرئيسة لهذه الأجزاء.

والخامس على تاريخ الجنس العربي في الجزيرة والعراق والشام ومصر في (دور العروبة الصريحة قبل الإسلام). وكانت الآثار ثم القرآن الكريم والروايات من مستندات هذا الجزء. والسادس والسابع والثامن على تاريخ الجنس العربي في الاسلام (السادس لعهد النبي ﷺ والسابع لعهد الخلفاء الراشدين والثامن لعهد الخلفاء الامويين) وقد حرص المؤلف على تمحيص الروايات ووضع الأمور المختلف عليها في العهود المذكورة الثلاثة في نصابها

الحق، مع شرح توخى فيه حسن العرض وإبراز مآثر هذه العهود. والثامن بنوع خاص جاء أوفى ما كتب حديثاً في تاريخ أعظم الدول العربية شأناً وسلطاناً وساحة ملك. وما جرى فيها من أحداث جسام داخلية وخارجية. وقد تم تنقيح المسودات تباعاً وطبعت خلال السنين 1958 ـ 1963 في المطبعة العصرية في صيدا وبلغ عدد صفحاتها 2860.

وعند المؤلف مخطوطات لأجزاء ثلاثة تكملة للسلسلة: واحد في عهد العباسيين، وثانٍ في عهد الأمويين في الأندلس وملوك طوائفها، وثالث في تاريخ جزيرة العرب في العهد الإسلامي. وهي في حاجة الى تنقيحات وتمحيصات إذا فسح اللّه في العمر وواتت الصحة.

كتاب العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي.

ولقد كان في مخطوطة تاريخ العهد العباسي فصل في العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي التي بدأت في القرن الهجري الثالث، وامتدت الى نهاية الدولة العثمانية. وقد رأى المؤلف أن هذا الموضوع يستحق توسيعاً واهتماماً لأن قراء هذا التاريخ يشعرون بفراغ من ناحية التاريخ السياسي للعرب والعروبة في هذه الحقبة. فأفرده في كتاب خاص ووسعه حتى صار كتاباً كبيراً أسماه بالاسم المذكور في العنوان وصار ثلاثة أجزاء كبار. وقد قصر الجزء الأول على تاريخ الدول والإمارات والمشيخات الإقطاعية العربية والقبائل العربية وتموجاتها في هذه الحقبة في جزيرة الفرات وجنوبها من بلاد الشام ثم في لبنان. والجزء الثاني على مثل ذلك في أنحاء سورية الأخرى أي سورية الحاضرة والأردن وفلسطين ثم في العراق. والجزء الثالث على مثل ذلك في وادي النيل ـ أي مصر والسودان والصومال ثم شمال أفريقيا أي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى. وألحق بكل جزء جزءاً شرح فيه مراحل توطد السيادة العربية الحديثة في جميع هذه البلاد. وقد طبعت الأجزاء الثلاثة في دمشق بواسطة دار اليقظة خلال سنتي 1961 ـ 1963 وبلغت صفحاتها 1042. وقد جاء الكتاب بمثابة موسوعة شاملة بقدر الإمكان للدول والإمارات والمشيخات والقبائل العربية من القرن الهجري الثالث إلى القرن الهجري

الرابع عشر في جميع البلاد المقدسة من الخليج الى المحيط، وسد فراغاً مهما في بابه، وطبع الكتاب طبعة ثانية بواسطة المكتبة والمطبعة العصرية في صيدا سنة 1981 وجزأه على ثمانية أجزاء، وأضاف اليه جزءاً تاسعاً في تاريخ جزيرة العرب (حجازها وعسيرها ويمنها وسواحلها الشرقية والغربية) صدر في 1983.

كتاب الإسلام والاشتراكية.

وفي سنة 1966 كتب كتاباً بهذا العنوان شرح فيه ما يلهمه كتاب الله وسنة رسوله من أسس اقتصادية تمنع الاستغلال والاحتكار والغصب والتبذير، وتتيح الفرص المتكافئة للجميع مما يصح أن تسمى أسس الاشتراكية في الاسلام، مع شرح ما تتميز به بالنسبة لاسلوب الاقتصاد الحر الرأسمالي، وبالتثبيت لاسلوب الاشتراكية المفرطة التي تعرف بالشيوعية والتأميم والقطاع العام على هدى الإسلام. مع شرح عناية القرآن بالطبقات الضعيفة والعاجزة وإلزام الدولة بمساعدتها، وأصول الحكم الصالح في الإسلام التي يجب أن تسير فيها الدولة الاشتراكية الإسلامية. وقد طبع هذا الكتاب في سنة 1968 في المطبعة العصرية في صيدا جاء في 250 صفحة كبيرة.

كتاب الجذور القديمة لسلوك وأخلاق وأحداث بني إسرائيل واليهود واستطراداً الى الموقف الحاضر.

وفي سنة 1968 كتب رسالة وجيزة بالعنوان المذكور شرح فيها الجذور القديمة التي يستوحيها بنو إسرائيل واليهود في سلوكهم وأحداثهم واستطراداً الى ما كان من عدوانهم على البلاد العربية والأخطار المحدقة بجميع العرب وبلادهم ومن معهم، وواجب العرب المحتم إزاءهم الذي هو مقاومتهم ومناضلتهم حتى يتم تقويض دولتهم المجرمة وتعود فلسطين الى حظيرة العروبة وسيادتها مهما طال الزمن وعظمت التضحيات، وقد طبعت الرسالة بواسطة مكتبة أطلس في دمشق سنة 1969 وجاءت في 100 صفحة صغيرة.

رسالة قضية الغزو الصهيوني.

طلبت مجلة الوعي الإسلامي في الكويت من المؤلف مقالاً مركزاً فيه شرح لقضية الغزو الصهيونية وأسبابها وحاضرها ومستقبلها، فكتب هذه الرسالة

فيها شرح لذلك وواجب العرب والمسلمين تجاه هذه الغزوة. وأصدرتها مجلة الوعي ملحقاً خاصاً في سنة 1970 وجاءت في 70 صفحة صغيرة.

كتاب القرآن والمبشرون.

أطلع المؤلف على كتاب لمبشر سمى نفسه الاستاذ حداد فيه تجاوز سوء فهم وأدب بالنسبة للقرآن والرسالة الاسلامية فكتب هذا الكتاب. وقد بدأه بفصل طويل فيه دراسة بعنوان التوراة والإنجيل في القرآن والواقع، شرح فيه مدى ما يتداوله اليهود والنصارى من الأسفار المسماة بالعهد القديم والعهد الحديث، ووضع أمر ذلك في نصابه الحق. وهي دراسة فريدة في بابها ومحكمة، ثم أتبعه بفصول فيها ردود على تخرصات المبشر وأمثاله ومحاكاتهم في صور القرآن والرسالة النبوية وعيسى عليه السلام والنصرانية بأسلوب قوي محكم. وقد طبع من قبل المكتب الإسلامي في دمشق وبيروت سنة 1972 و1979 وجاء في 468 صفحة.

كتاب القرآن والملحدون.

اطلع المؤلف على كتاب (نقد الفكر الديني) لصادق العظم فيه كذلك تجاوز وسوء فهم وأدب بالنسبة للقرآن والرسالة الاسلامية والنبوة المحمدية. وفيه بحوث قوية وهي تضع كل ذلك في نصابه الحق المقنع، وفيه بحوث فريدة في بابها في مفاتيح فهم القرآن ومحكماته ومشتبهاته وشرح موجز لتقديرات القرآن المحكمة في مختلف شؤون الحياة، يبرز فيها بما فيها من قوة وروعة وأحكام وسمو وضمان لسعادة الانسان والانسانية ومصالح الانسان والإنسانية، وقد طبع في دمشق من قبل المكتب الإسلامي أيضا في سنة 1973 وصفحاته 427 ودار قتيبة في دمشق 1980.

كتاب في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة.

كتب المؤلف منذ 1948 وما يزال يكتب مقالات وبحوثاً كثيرة، وأرسل رسائل عديدة وتلقى رسائل عديدة وكتب ردوداً عديدة وأبحاث ومنشورات، وتقابل مع شخصيات عديدة، وبذل نشاطاً كبيراً في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية، وسجل كثيراً من ذلك. وقد رأى أن ينشره في كتاب فكان هذا

الكتاب المجموعة الاولى في صدد قضية فلسطين. وقد نشرته المكتبة العصرية وجاء في 512 صفحة.

كتاب الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث.

كتب المؤلف هذا الكتاب من وحي حرب رمضان تشرين الأول 1973، وقد احتوى شرحا شاملاً فيه حرارة وحيوية لمبادىء الجهاد في الإسلام، وضرورة تنبه المسلمين لها. ثم شرحاً فيه حرارة وحيوية كذلك للوقائع الجهادية في زمن النبي ﷺ، وقد طبع بإشراف دار اليقظة والتأليف في دمشق سنة 1975 وجاء في 432 صفحة والمكتبة العصرية في صيدا 1988.

كتاب عبرة من تاريخ فلسطين القديمة.

كتب مقالات عديدة نشرتها له مجلة صوت فلسطين ومجلة الطلائع وجريدة البعث في دمشق في تاريخ الغزوة الاسرائيلية القديمة والصهيونية، ودراسات في أسفار العهد القديم في صور الوعود المزعومة للإسرائيليين في فلسطين، وقد نشرتها له مجموعة المكتبة العصرية في سنة 1979 وجاءت في 120 صفحة من القطع الصغير.

كتاب صفحات مغلوطة ومهملة من تاريخ القضية الفلسطينية:

كتب نقداً لكتاب أنيس الصائغ المعنون بعنوان «القضية الفلسطينية والقومية العربية» وقد نشرته المكتبة العصرية بالعنوان المذكور أعلاه سنة 1979 وجاء في 76 صفحة من القطع الصغير.

الجزء الأول من كتاب «العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث ومراحل الصراع من المعتدي وأهل البلاد وما جاورها»:

هذا الجزء مقصور على شرح أحوال شرق الأردن وغربه وقصة العدوان الإسرائيلي القديم وسيرته ومصيره وقد نشرته دار الكلمة للنشر في بيروت في سنة 1979 وجاء في 252 صفحة واشتمل الجزء الثاني على مراحل الصراع بين العرب والصهيونيين في القرن العشرين في فلسطين، وبينها وبين الدول

العربية وحتمية استمراره حتى ينتصر العرب وتزول إسرائيل، وقد طبع طبعته الأولى في 1980 وجاء في 288 صفحة.

مخطوطة رسالة موجزة عن الوحدة:

كانت وزارة الثقافة السورية في عهد الوحدة السورية المصرية طلبت من الكاتب وضع رسالة موجزة عن الوحدة ومقوماتها وضرورتها لطبعها طبعة شعبية وتوزيعها في نطاق (الجمهورية العربية المتحدة) واستجاب الكاتب وكتب رسالة في نحو «250» صفحة من القطع الوسط، وقدمها للوزارة ودرستها الوزارة ووافقت على طبعها ودفعت للكاتب الجزء الاول من التعويض المتفق عليه. ولكن الوزارة لم تطبعها، ثم كان الانفصال المشؤوم في أيلول 1961 فبقيت المخطوطة في خزانة الوزارة ونسخة منها في خزانة الكاتب.

مخطوطة المجلد الثاني في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية:

وهي رسائل ومقالات ودراسات في صور الوحدة العربية من سنة 1948 الى سنة 1975 وهي قيد الطبع.

* * *

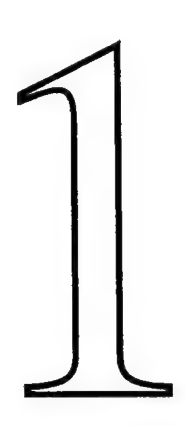


سبعة وتسعون عاماً في الحياة

1305 ـ 1404هـ / 1887 ـ 1984م

مذكرات وتسجيلات

محمد عزة دروزة



نشأة الكاتب وأسرته وأحوال بيئته في طفولته وفتوته ممتدة الى ما قبلهما والأحداث الخاصة والعامة التي عاشها وسجلها الى نهاية الدولة العثمانية في البلاد العربية مع شيء عن بعض الشخصيات التي عرفها وعايشها أثناء ذلك

المقدمة

1 ـ ظروف إعادة تدوين المذكرات:

بعد أن انتهينا من توسيع القسم الاول من الجزء الأول من كتابنا حول الحركة العربية الحديثة الذي يتناول نشأة هذه الحركة وسيرها في زمن الدولة العثمانية الى الحرب العالمية الأولى ونشرناه في كتاب (نشأة الحركة العربية الحديثة)، أخذنا نتهيأ لإتمام توسيع القسم الثاني من الجزء المذكور الذي يتناول سيرة هذه الحركة في أثناء الحرب العالمية الأولى الى عهد الملك فيصل في سورية وكتبنا جذاذات[1] عديدة له.

ثم كانت حرب رمضان 1393هـ المباركة بين العرب والصهيونيين على جبهتي سورية ومصر، فانفعلنا بأحداثها انفعالاً شغلنا عن الاستمرار في كتابة الجذاذات، وأخذنا من جهة ننشر مقالات وبحوثاً ونرسل رسائل في صدد المواقف التي ترتبت على نتائج تلك الحرب. وخطر لنا من جهة ثانية أن نكتب من وحي الحرب والانفعال بها كتاباً في الجهاد في سبيل الله وكتاباً آخر في مراحل الصراع بين أهل فلسطين وما جاورها ضد الغزاة الإسرائيليين قديماً والصهيونيين حديثاً للعبرة وتقرير حتمية استمرار الصراع بين الصهيونيين والعرب الى النهاية التي ينتصر بها العرب ويطردون بها الغزاة الحديثين كما طرد أسلافهم الغزاة القدماء، وانتهينا منها والحمد لله في أوائل عام 1395هـ 1975م.

وحينئذ أردنا أن نستأنف كتابة الجذاذات لتوسيع القسم الثاني من الجزء الأول من «حول الحركة العربية» ولكن ابني «زهيراً» وأبناء أخي بل وبعض المشتغلين بالعلم والحركة العربية اقترحوا أن أدع ذلك وأن أكتب مذكراتي وذكرياتي كما فعل بعض أمثالي حينما طعنوا في السن، وقالوا لي إن ذلك يغني عن ذلك التوسيع لأن معظم ما يتناوله القسم الثاني سيكون في هذه المذكرات، بالإضافة الى ما يمكن أن يزاد عليها من صور كثيرة مما مارسناه وشاهدناه وسمعناه وعشناه في الحقبة السابقة للحرب العالمية الأولى واللاحقة لها الى آخر العهد الفيصلي، ثم فيها بعد ذلك على امتداد العمر والحياة.

2 ـ بدء التدوين للمذكرات ومواصلته وحصيلته وتوقفي عنه:

ولقد كنت بدأت في سنة 1932 بكتابة ترجمة حياة لي وما شاهدت وسمعت في أيام طفولتي وفتوتي من الذاكرة. ثم اغتنمت فرصة فراغي حينما اعتقلني الانكليز سنة 1936 في صرفند وقضيت نحو مئة يوم فيه (حزيران ـ تشرين أول) أثناء الإضراب الطويل، فتابعت الكتابة، وصار من ذلك أولاً سبعة دفاتر صغيرة بحرف دقيق وقلم رصاص تناولت فيها كذلك

---

(1) جذاذات: قطع صغيرة من الورق.

ومن الذاكرة ما مارسته وسمعته أيام فتوتي وشبابي وكهولتي ووظائفي في الدولة العثمانية وفي عهد الانتداب من مختلف الشؤون السياسية وغير السياسية، وكتبت كذلك في المعتقل سبع كراسات أخرى فيها أخبار المعتقل وأخبار الاضراب والثورة السياسية والحركة الوطنية، وكنت قبل أن اعتقل طلبت من «زهير» أن يسجل أحداث الإضراب والثورة من الصحف فكتب كراستين وكتبت كراسة ثالثة، ولما خرجت من المعتقل تابعت الكتابة، فكتبت ثلاث كراسات فيما جرى بعد خروجي، ورحلت الى بغداد والرياض بمهمة في أواخر سنة 1936، ثم رحلت لأداء الحج في أوائل سنة 1937 فكتبت ما جرى معي في الرحلتين في دفتر، ولما أقمت في دمشق في سنة 1937 تابعت الكتابة وكتبت ثلاثة عشر دفتراً فيها تفصيلات متنوعة عما جرى بعد الإضراب في فلسطين وخارجها في سياق العمل الوطني مع سيرة ثورة فلسطين التي كنت متولياً أمرها في دمشق.

ثم نزحت إلى تركية في أواسط سنة 1941 وبقيت فيها الى أواخر 1945، فكتبت فيها ثلاثة وعشرين دفتراً فيها كثير مما حدث في أثناء سجني في دمشق حزيران 1939 ـ مارس 1941 وبعده وقبل نزوحي الى تركية، إضافة الى كثير مما شاهدت وسمعت وقرأت من أحداث عربية وعالمية ومعالم أثناء اقامتي في تركية، ولما عدت من تركية وكانت قضية فلسطين في حالة تفجر وغليان عربياً ويهودياً وإنكليزياً واستمر ذلك الى أن تمت النكبة بقيام دولة اليهود في سنتي 1947 ـ 1948، فدونت بعض المشاهدات والممارسات والأحداث في دفاتر وأوراق أخرى، ثم اشتد علي مرض المرارة وصار معي يرقان واخذت إلى المستشفي الامريكي في بيروت حيث أجريت لي عملية استئصال المرارة، وخرجت منهكاً من المرض الجسماني واندلاق بطني واشتداد صممي، بالإضافة إلى ما كان ألمّ بي من آلام نفسية نتيجة النكبة الكارثة، (فزهقت)[1] وتوقفت عن التدوين للاحداث التي بدأت منذ سنة 1932، واستمر ذلك بدون انقطاع تقريباً الى سنة 1948. ولعل من أسباب توقفي عن التدوين أيضاً أني كنت عنصراً فعالاً شديد النشاط والمشاركة طيلة المدة السابقة ومنذ وعيت في ما كان من نشاطي ومشاركاتي وممارساتي في وظائفي: دوائر البريد في زمن الدولة العثمانية، وفي مدرسة النجاح، وفي مأمورية أوقاف نابلس، ومديرية الاوقاف الاسلامية العامة في زمن الانتداب، وفي مجال الحركة العربية والوطنية الفلسطينية في الزمنين، فلم أعد بعد سنة 1948 عنصراً فعالاً كما كنت قبل ذلك، ولم أعد أمارس عملاً جسمانياً، ولقد حدثت في سنة 1961 وبعدها وأنا مقيم في دمشق أحداث أثارت انفعالي وأعني بها أحداث انفصال الوحدة السورية المصرية وحادث ثورة 8 آذار 1963 ضد ذلك، وما تبع ذلك من مواقف، وحادث انفجار حرب 1967، فجعلني ذلك أدون جذاذات كثيرة عن هذه الأحداث، وأسجل تعليقات عليها زادت عن الألفين، وكان محصل كل ذلك خمسين دفتراً وكراسة والف جذاذة منفصلة.

3 ـ استئناف العمل بعد إلحاح:

ولقد اقتبست من هذه المدونات كثيراً مما

(1) كلمة عامية فلسطينية معناها مللت.

كتبته في كتبي المطبوعة (حول الحركة العربية الحديثة) و(مشاكل العالم العربي) و(الوحدة العربية)، مضيفاً الى ما وعته الذاكرة ولم أدونه. وبقي كثير منها لم ينشر فيه الكثير من الصور والشؤون الاجتماعية والسياسية والمعيشية والوظائفية التي عشتها أو مارستها في مختلف فترات حياتي، فرأيت أن أستجيب إلى الإلحاح وأشتغل في اعادة كتابة ما دونته بخط واضح مضيفاً إليه كل ما قد يثيره تداعي الذكريات من صور وتفصيلات أخرى، فكان حصيلة ذلك هذه الجذاذات التي جعلت كل مئة منها تقريباً في مغلفة والتي تنوعت منها الصور تبعاً لتنوع صور الحياة.

4 ـ مدى نشاطي بعد توقفي عن تدوين المذكرات وحصيلته :

وأريد أن أستدرك أمراً وهو أني وإن كنت توقفت عن التدوين في دفاتر بعد سنة 1948، والذي عدت إليه في جذاذات خلال 1962 ـ 1968 فاني قضيت الثلاثين عاماً بعد عودتي من تركية في نشاط قلمي وذهني عظيم متواصل أسفر عنه 38 كتاباً في /58/[1] جزءاً منفرداً مما كنت سودته أثناء سجني في دمشق بحكم من المحكمة الإفرنسية العسكرية في سنتي 1939 و1940 بسبب الثورة، ثم أثناء هجرتي الى تركية مما انبثق في ذهني أن أكتبه من كتب جديدة قرآنية وتاريخية وإسلامية واجتماعية، ثم مما كتبته بعد هجرتي من كتب قرآنية وتاريخية وإسلامية. وقد كنت أشتغل إلى سنة 1975 بسبيل ذلك ست ساعات في اليوم، أربعاً في الصباح واثنتين بعد العصر، حتى استطعت أن أنجز هذا القدر الكبير من الكتب التي طبعت وبلغ عدد صفحاتها عشرين ألفاً، فضلاً عن مخطوطات أربع كتب أخرى لم تطبع بعد، وكنت إلى هذا أتابع الأحداث العامة منفعلاً ومراقباً وممارساً أحياناً، فكتبت بحوثاً ومقالات

(1) كان نشر لي قبل ذلك رواية في كتاب، ومقالات عديدة في زمن الدولة العثمانية ثم في كتب تاريخية مدرسية وكتاب في فن التربية في عهد الانتداب الانكليزي وقبل سجني.
أولاً ـ طبع كتابنا الجزء الأول والجزء الثاني من العدوان الاسرائيلي والصهيوني سنة 1980. ووقف الكلام في الجزء الثاني عند تعثر مفاوضات الحكم الذاتي بين السادات والصهيونيين. بعد توقيع معاهدة الصلح المنفرد. وكان ذلك في مايس 1977. وقد رأينا أن نسجل ما يجري وما يقال حول القضية بعد هذا التاريخ في جذاذات الى تشرين ثاني 1980. حيث أصبت بنزيف في عيني فاستعنّا بالله وصرنا نملي جذاذات فيما نسمع عما يقال ويجري ونعلق عليه. وظللنا على هذا المنوال الى اليوم، تشرين الثاني 1981، وسنتابع إن شاء الله فتكون هذه الجذاذات من مذكراتنا التي تسجل أحداثاً تاريخية من أحداث قضيتنا وتكون جزءاً من أجزاء المذكرات.
ثانياً ـ لقد جمعت أجزاء كتابنا حول الحركة العربية الحديثة الستّة في أوائل الخمسينات. ومن هذه الأجزاء ما هو عائد لزمن الدولة العثمانية ومنها ما هو لزمن الاحتلال الإنكليزي والفرنسي في فلسطين وسورية إلى الحرب العالمية الثانية. ومنها ما هو عائد الى القضية الفلسطينية اثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها وكثير مما جاء في هذه الأجزاء مما عشناه وشاهدناه وسمعناه وشاركنا فيه فهي والحالة هذه جزء من مذاكراتنا.

وفي اجزاء مذكراتنا الآتية أشياء كثيرة من ذلك. ولكن ذكر في سياقها جوانب وتفصيلات لم ترد في الأجزاء المطبوعة. كما أن الجزء الخامس خاصة لم يرد في أجزاء مذكراتنا الآتية.

ثالثاً ـ المجلد الذي طبع في المطبعة العصرية سنة 1973 بعنوان في سبيل قضية فلسطين هو في الحقيقة من مذكراتنا. وكذلك المخطوطة التي ذكرنا أنها لم تطبع. وهي بعنوان المجلد الثاني : في سبيل قضية فلسطين.
رابعاً ـ لقد ذكرنا في المتن أننا نكتب وننشر مقالات اسلامية وسياسية من بعد سنة 1973. وقد ظللنا على ذلك الى أواخر 1980. فصار لدينا من ذلك مجموعتان كبيرتان هما أيضاً في عداد مذكراتنا.

في قضية فلسطين والوحدة العربية وقضايا الإسلام الأخرى كانت تنشر لي في المجلات والصحف، بالإضافة إلى ما كنت أتبادله مع الشخصيات من رسائل وأجريه من مقابلات. وكانت حصيلة ذلك مجلداً ضخماً في مختلف شؤون قضية فلسطين من سنة 1948 الى سنة 1972، طبعته المطبعة العصرية في صيدا. ومجلداً آخر في صدد الوحدة العربية من سنة 1948 الى سنة 1972 ما يزال مخطوطاً، ونحو سبعين مقالاً وبحثاً في قضية فلسطين بعد سنة 1973، ونحو سبعين مقالاً في الشؤون الإسلامية منذ سنة 1957، ونحو خمسين حديثاً أذيعت لي من إذاعتي دمشق ومكة في سنتي 1954 ـ 1956 مما قد أعود الى تفصيله عندما أصل في اعادة تدوين المذكرات الى ظروفه التاريخية.

وكان اعتكافي في البيت وغدوي عنصراً غير فعال في الأحداث العامة، وعاهة سمعي التي جعلتني في شبه عزلة عن الناس، مما فجر فيّ هذا النشاط وأعانني عليه ولله الفضل ومنه كان المدد والعون.

وهكذا أكون قد قضيت اثنين وأربعين عاماً من حياتي أي من سنة 1906 الى سنة 1948 وأنا عنصر فعال واسع النشاط في مختلف الحقب التي سبقت سنة 1948 في الوظائف والرحلات والحركات العربية والوطنية المتنوعة في زمن الدولة العثمانية وبعدها في لقاءات مع كثير من الشخصيات العربية، وتعاوني وتعايشي معها، ودونت معظم صور ذلك في مدوناتي، ولما بلغت الستين من عمري لم أعد عنصراً فعالاً في هذه المجالات كما كنت قبل سنة 1948، ولم أدون من أحداث ما بعد 1948 إلا قليلاً وفي مناسبات انفعالية بسبب ذلك، لكن هذا لم يمنع والحمد لله من تفجّر طاقتي في الشطر الثاني من حياتي وبخاصة منذ سنة 1946 في نشاط علمي وثقافي وقلمي متواصل إلى اليوم (1982)، وبسبب ذلك كله عنونت مذكراتي بعنوان (خمسة وتسعون عاماً في الحياة).

5 ـ تداعي الذكريات أثناء إعادة التدوين:

ومن عجيب ما جرى معي أن ذاكرتي حينما أخذت أكتب الجذاذات الجديدة أخذت تتكشف عن مخزونات عجيبة كثيرة كانت منسية تحت طبقات الأحداث المستجدة، وصارت تبرز لي من صور الحياة الجزئية والأحداث التي سمعناها أو عشناها، والمشاهد التي لا أتبينها في طفولتي وفتوتي حتى بالأسماء والأيام والأمكنة. وظهر لي بذلك معجزة الذاكرة الإنسانية التي هي مسجلة لكل ما يقع عليها من صاحبها وتسمعه أذنه ويمارسها بنفسه صغيرة أو كبيرة، تافهة أو مهمة، جزئية أو كلية. وكل ما في الأمر أنها تنسى أو تستر بطبقات أحداث مستجدة، ولكنها تكون قابلة للظهور إذا ما أثيرت وتركت على سجيتها بالتداعي والمناسبات أو خلا صاحبها من مشاغل قائمة ولو مؤقتاً.

6 ـ تدوين انطباعي عن كثير من الأشخاص الذين عرفتهم أو ماشيتهم وصادفتهم واعتذار عما يمكن أن أكون قد أخطأت فيه:

ولقد وجدت في دفاتري أشياء كثيرة عن كثير ممن عرفتهم من الشخصيات أو عايشتهم أو تعاملت أو تعاونت أو تصادقت أو انسجمت أو اختلفت معهم. وكتبت أثناء إعادة تدوينها شيئاً كثيراً من مثل ذلك توارد إلى ذهني وذاكرتي، وأنا لم أقصد فيما كتبته عن الشخصيات التي كتبت عنها تراجم أو تاريخاً وثائقياً لهم، وإنما تسجيل ما كان في ذهني من انطباعات وذكريات

ومواقف ومسموعات عنهم. ولذلك فقد يكون فيها ثغرات كثيرة من حياتهم وأعمالهم غابت عني. وإلى هذا فقد أكون فيما سجلت مخطئاً في النقل والتأويل والتعليل والوصف والأحداث. فالعصمة لله وحده مع توكيد لأمر مهم وهو أني لم أتأثر فيما سجلت بصداقة وكراهية وحقد، ولم أقصد مدحاً لأجل المدح ولا تشويهاً ولا إساءة ولا قدحاً[1]. وإنما قصدت تقرير ما كان في ذهني وانطباعاتي والله على ذلك شهيد. وأفوض من يشرف على طبع هذه المذكرات بحذف أي عبارة يراها نابية او فيها جنف[2] أو مجافاة لما يعلمه من الحق والحقيقة ولما يثق به ممن يعلمون الحق والحقيقة.

7 ـ ليست المذكرات تاريخاً وثائقياً:

وقد يكون في هذه المدونات مقتبسات كثيرة من الصحف، ولكن كثيراً منها هو من الذاكرة، ومع أني استطعت بمساعدة ما دونته في الدفاتر والجذاذات وبما انثال من ذاكرتي من صور وأحداث وشؤون لم أكن دونتها أن أسجل معظم ما عشته ومارسته وشاهدته وسمعته من مختلف الشؤون الخاصة والعامة والشخصية السياسية والوطنية والاجتماعية والمعيشية إلى الستين من عمري، اي الى سنة 1948، أما بعد ذلك فيكون خطوطاً عامة لأنه سيكون من الذاكرة إلا ما دونته في الجذاذات أو سجلته في المقالات مع التسجيل، لأن ما دونت لا ينبغي أن يعد تاريخاً وثائقياً، ومن المحتمل ان يكون قد غابت عني أمور كثيرة من مختلف تلك الشؤون نتيجة نسيان أو غفلة أو عدم سماع أو مشاهدة والاحاطة لله وحده، ومن المحتمل أيضاً أن يكون في ما دونت أخطاء أو أغلاط أو التباسات في الأسماء والأعلام والتواريخ والأحداث والوقائع والعصمة لله وحده.

8 ـ خلو المذكرات من الوثائق والصور وبعض أسباب ذلك:

ومن المؤسف أن تخلو مذكراتنا من أصول ووثائق عينية قديمة، ولقد بدأ نشاطنا السياسي والاجتماعي والأدبي منذ إعلان الدستور العثماني سنة 1908، فقد اندمجنا في كثير من التنظيمات السياسية والوطنية والاجتماعية في زمن الدولة العثمانية وبعدها، وكنا في بعضها اللولب، وظللت على ذلك النشاط إلى سنة 1948 التي أجرينا فيها عملية جراحية، وصارت حالتنا الصحية غير مساعدة لنا على النشاط الجسماني والاندماج في تلك التنظيمات والنشاط فيها، ولقد نشر لنا في هذه الحقبة كثير من المقالات الأدبية والسياسية والاجتماعية في مختلف الصحف والمجلات الفلسطينية وغير الفلسطينية، ولقد ألقينا فيها أيضاً كثيراً من المحاضرات والخطب السياسية والاجتماعية في اجتماعات ومناسبات متنوعة، وكتبنا بالطبع المقالات والمحاضرات والخطب، ولا بد من أنها بقيت في حوزتنا زمناً ما. ولقد كتبنا كثيراً من الرسائل والمذكرات إلى مقامات هامة رسمية وغير رسمية وإلى أصدقاء وغير أصدقاء في شؤون سياسية واجتماعية ووطنية وشخصية، ولا بد من أننا احتفظنا بأصول ومسودات ما كتبنا، وبأصول ما تلقيناه زمناً ما، ولقد أخذت لنا صور كثيرة مع أصدقاء وغير أصدقاء وأقارب وغير أقارب ورسميين وغير رسميين في مناسبات متنوعة منذ شبابنا. ولا بد من أن نكون أخذنا نسخاً من ذلك، ولقد ذكرنا في ثنايا تسجيلاتنا

(1) اساءة ولا ذماً.

(2) ميل.

بعد الإضراب خاصة أننا احتفظنا بقصاصات كثيرة فيها بيانات أو خطب أو تصريحات أو مقالات، وقد ضاع كل ذلك أو جله، حتى شهادتنا المدرسية وحتى كتب الجوائز التي كنا نأخذها من المدرسة ويكتب اسمنا عليها بالتقدير.

ولقد تنقلنا نحن وأسرتنا منذ انبثاق الحرب العالمية الأولى كثيرا من نابلس الى بيروت ومن نابلس الى دمشق ومن دمشق الى نابلس ومن نابلس الى دمشق، وكنا في تنقلاتنا نضع بعض متاعنا وكتبنا وأوراقنا عند أقاربنا وأصدقائنا، فكان ذلك من أسباب ذلك الضياع، ولقد ملأنا حقيبة كبيرة بالأوراق والدفاتر حينما اشتدت مضايقة الإفرنسيين لنا في دمشق سنة 1938 ووضعناها عند صديقنا رشيد الحسامي، وسجنا ثم لجأنا الى تركية وسلمها في غيابنا للأمير عبد السلام الشهابي، لأنه رأى ذلك أضمن لها. ومات الأمير في غيابنا، ولما عدنا بحثنا عنها فلم نعثر على أثرها، ولقد جاءنا في سنة 1973 كاتب من مركز أبحاث منظمة التحرير في بيروت وطلب منا أن نعطيه ما لدينا من أوراق قديمة تتعلق بالقضية ليأخذ المركز صورها فوجدنا في خزانتنا لفافة كبيرة كانت الأسرة استطاعت أن تحتفظ بها بعد سجننا مع الدفاتر التي سجلنا فيها الأحداث، ولم يكن يدور في خلدنا إعادة تدوين المذكرات والدفاتر فأعطينا للموظف اللفافة، وكان فيها كثير من القصاصات والبيانات. وصارت حرب لبنان 1975ـ 1977 فانشلّت حركة المركز، وبعد أن هدأت في ربيع سنة 1977 وكنا بدأنا بإعادة التدوين كتبنا للمركز أن يعيد الينا اللفافة فلم نحظ بجواب ولا نعرف مصيرها. . والى هذا كله فاننا كثيرا ما كنا نكتفي بنشاطنا الآني والمتحول وندع ما يرد الينا من رسائل وما نكتبه في سجلات ومحاضر وما يكون هناك من وثائق لكتّاب تحت يدينا أو نسلمها لمن يخلفنا في عملنا اذا كان انتخابياً، ولا نحتجز شيئا منها لأنها ليست لنا، وانما هي للتنظيم الذي كنا نشغل سكرتيرياته.

وقد يكون الى هذا كله أن فكرة المؤرخ والحرص على المخطوطات والوثائق كانت تنقصنا أيضا، فكان ذلك من أسباب ذلك الضياع.

ومن الطريف أن نذكر أن بعض معارفنا في أثناء الوظيفة أي قبل ستين عاما، وبعض من تعرفنا عليه وتعاملنا معه من أعضاء المؤتمر السوري أي قبل خمس وخمسين سنة، أبرزوا لنا في زيارتهم لنا في دمشق في الخمسينات والستينات بعض رسائل لنا اليهم. حيث يكون بلغ الحرص في بعضهم على الاحتفاظ بها برغم عدم أهميتها تاريخيا بل وشخصيا، وقد أبرز لنا بعض الباحثين في الوثائق العربية القديمة صورا شمسية لعدد من رسائلنا وما خطته يدنا من قرارات. وقد قرأنا في بعض الكتب خبر مقالات نشرت لنا قبل خمسين عاما وأكثر، وبعض رسائل تلقيناها ورسائل كتبناها قبل أربعين عاما، حيث يدل ذلك على نفس الدلالة.

ولقد أخبرنا غير واحد من أصدقائنا واخواننا أن كثيراً من أصول الوثائق والتقارير والقرارات والمحاضر والخطب والمقالات والرسائل بخطنا وتوقيعنا موجود في ملفات (أرشيفات) الهيئة العربية العليا ومركز أبحاث فلسطين ومركز الدراسات العربية وحوزة بعض المشتغلين بالحركة الوطنية والكتابة عنها، حيث تسربت اليهم من طرق وظروف متنوعة.

9ـ تدوين أحوال بيتنا وطفولتي وفتوتي وما قبلهما:

لقد تناولنا في دفاتر مذكراتنا القديمة وبخاصة في سياق الفترة الأولى كثيرا من صور الحياة الممتدة الى ما قبل ولادتنا مما سمعناه وشاهدنا آثاره وامتداداته. ولقد انكشف لنا بالتداعي صور كثيرة أخرى من ذلك، ولقد سجلنا في الدفاتر القديمة كذلك صوراً وأحداثاً كثيرة شخصية وخصوصية في مختلف الفترات.

تدوين الجزئيات والخصوصيات وأحوال البيئة في المذكرات:

وقد توقفنا لحظة لتقرير ما اذا كان يحسن أن نورد كل شيء كان في تلك الدفاتر وما انكشف لنا من أشياء مماثلة أخرى بالتداعي مهما كانت تافهة أو مطولة أو جزئية (أو نابلسية) أو شخصية، أو أن نكتفي بالمهم منها مع التركيز على الشؤون العامة والسياسية الأخرى، وقد جنحنا الى ترك الأمر على سجيته وأن نسجل معالم نابلس وغيرها مهما بدا في بعضه من تطويل، ومهما بدا في بعضه من تفاهة وجزئيات غير مهمة، فإنه أخذ بالتضاؤل والتطور، فيكون في تسجيله فائدة تاريخية واجتماعية وأثرية أيضاً.

وقد لا يكون لمن يقرأ هذه المذكرات من الكهول جديدا لأنهم عاشوه ورأوه، ولكن كثيرا منه سوف يكون لمن هم الآن في سن الفتوة جديدا وطريفا. والقراء بعد، ذوو أمزجة مختلفة، فقد يكون منهم من يرى في ما سجلناه طرافة وفائدة، أما من لم ير فيه ذلك فيستطيع أن يتجاوزه الى ما سواه. هذا وفضلاً عن هذه الجزئيات والتفصيلات التي قد يراها البعض تافهة أو حشواً زائداً لا تشغل من كل جزء الا بضع ورقات وليس في هذا ما تضيق به العين والنفس.

وكل أو جل ما كتبناه وما ثار في ذاكرتنا من جديد هو على كل حال صور من الحياة منطبق على العنوان الذي اخترناه «خمسة وتسعون عاماً في الحياة»، ولو كان بعض ذلك مما لا يهم الناس كثيرا، ولكن الحياة تشهد أشياء كثيرة والذاكرة ترسم صوراً كثيرة قد يظن صاحبها أنها هامة لأنها جزء من حياته.

والى هذا فإن كثيراً مما سجلناه من عادات وتقاليد البيئة هو ما كان في بيئتنا الأصلية (نابلس) وما جاورها. غير أننا نعتقد أنها كانت عامة الممارسة في البيئات المشابهة لبيئتنا بل في كل البيئات العربية لأنها متشابهة اجمالاً، وهذا ما يجعل فائدتها أوسع شمولا.

10ـ مشاهدات وانطباعات:

وقد لا يكون في كثير مما سجلناه من ذكريات وتقاليد وعادات وأصوات سياسية وغير سياسية جديداً على قارىء هذه المذكرات من معاصرينا، بل ومن الأجيال التالية لنا. فمعاصرونا يعرفون كثيرا من ذلك. وفي المدونات المطبوعة شيء كثير منه لا بد لأجيالنا التالية أن يقرأوها، ولكن ذلك لم يمنعنا من تدوين ما دوناه باسلوبنا كذكريات مشاهدة وممارسة ومسموعة، وهي في نفس الوقت جزء من أحداث الحياة، وهذا متسق مع عنوان المذكرات.

11ـ ذكريات ومذكرات:

وتنبيه آخر نرى أن ننبه عليه، وهو أننا لا نكتب تاريخا وثائقيا. وانما ذكريات ومذكرات وبسبب ذلك فإنه قد يكون فيما كتبنا ثغرات في الأسماء والتواريخ والنصوص والوثائق

والمصادر، ولكننا لم نر ذلك مقللا من فائدة ما دوناه في اعتقادنا لأنه مسموعات وممارسات ومشاهدات شخصية.

وبعد فإننا نرجو أن يتحقق في ما سجلناه ما توخيناه من فوائد تاريخية وسياسية واجتماعية ونرجو أن يكون فيه النفع والعبرة لقارئه. ونأمل ممن يقرأ هذه المذكرات أن يغض عما قد يجده من نقص أو حشو أو تطويل أو خطأ، والعصمة والكمال لله وحده عز وجل

ونرجو من الله الرحمة والمغفرة وهو الغفور الرحيم.

ولقد رأينا أن نضع رؤوس أقلام للمواضيع على اختلافها، حيث ظننا أن ذلك يثير في القارىء رغبة أكثر فيما يراه مثيرا أو مفيدا من المواضيع، ولعل هذه الرؤوس تكون فهرستنا في آخر كل جزء، فتكون مرجعا للمتتبع أو الراغب في الوقوف على أمر أو معرفته، ونرجو أن يكون فيما فعلنا صوابا وفائدة.

12 ـ تجزئة المذكرات ومحتويات الأجزاء:

وقد جزأنا المذكرات إلى أجزاء متقاربة في الحجم ومناسبة في الموضوع.

وفي **الجزء الأول** الذي بين يدي القارىء تسجيل لعهد طفولتي إلى تخرجي من المدرسة الإعدادية مع ما كان في ذهني من أحوال البيئة في طفولتي وفتوتي ممتد إلى ما قبلها، ثم تسجيل للأحداث الخاصة والعامة التي عشتها في آخر الدولة العثمانية.

وفي **الجزء الثاني** تسجيل لحقبة فيصل في بيروت وفلسطين وسورية والأحداث الخاصة والعامة التي عشتها الى نهاية عهد فيصل.

وفي **الجزء الثالث** تسجيل لنشاطي بعد حقبة فيصل ومديريتي لمدرسة النجاح ومأموريتي لأوقاف نابلس والأحداث الخاصة والعامة التي كانت في مدتي العملية اللتين امتدتا عشر سنين.

وتسجيل لنشاطي في مديرية الأوقاف الإسلامية العامة والأحداث الخاصة والعامة التي عشتها في هذه الفترة التي امتدت خمس سنين.

وفي **الجزء الرابع** تسجيل لأحداث الإضراب البطولي الفلسطيني العظيم.

وفي **الجزء الخامس** تسجيل لما كان من أحداث خاصة وعامة في الفترة التي قضيتها بعد الإضراب في فلسطين إلى أن خرجت من فلسطين في الخامس من أيلول 1937.

وفي **الجزء السادس** تسجيل لما كان من أحداث بعد خروجي من فلسطين الى مجيء لجنة التقسيم الى فلسطين وتفصيل للثورة المستأنفة في فلسطين منذ أواخر سنة 1937.

وفي **الجزء السابع** تسجيل لما كان من أحداث منذ وصول لجنة التقسيم الى إعلان رفض التقسيم في أواخر سنة 1938 وتفصيل للثورة التي بلغت ذروتها.

وفي **الجزء الثامن** تسجيل لما كان من أحداث بعد إلغاء التقسيم الى أن سجنت في دمشق في أواسط سنة 1939.

وفي **الجزء التاسع وما بعده** تسجيلات لما كان من أحداث خاصة وعامة إلى سنة 1948 حيث أجريت لي عملية المرارة وانقطع نشاطي الجسماني السياسي، ثم تسجيل لما كان من نشاطي الفكري والسياسي والقلمي بعد سنة 1948.

دمشق ـ محمد عزة دروزة

* * *

الفصل الأول

النشأة والبيئة الى تخرجي من المدرسة الاعدادية

ولادتي وأسرتي :

وجدت تسجيلا لتاريخ ولادتي في دفتر لأبي وهو ليلة السبت الموافق لتاريخ 11 شوال 1305هـ. وحسب أن هذا يصادف لأواخر حزيران أو أوائل تموز سنة 1887م.

ووالدي هو عبد الهادي بن درويش بن ابراهيم بن حسن دروزة. ولم أسمع من جدي أو أقاربي اسما لوالد حسن أو أنه كان له أخوة وأعمام، فهو حسب ما عرفت منهم رأس الأسرة الأول الوحيد الذي تفرعت عنه وأقدر ولادته عام 1150هـ. ولحسن ابن آخر غير ابراهيم هو خليل، ومن ابراهيم وخليل تتفرع الأسرة.

وقد كان لابراهيم خمسة أولاد هم: حسن ودرويش ومصطفى وبدوي وعبد الله. وقد أدركت جدي درويش ومصطفى وعبد الله شطرا من فتوتي بل الى أوائل شبابي. أما بدوي، وهو والد أمي، (واسمها مسعودة) فلم أدركه. أما حسن فقد مات في حياتي ولكن لا أذكر اني رأيته إلا على مغسلة الموت في دار دروزة الغربية المجاورة لجامع (البيك) وكان أشقر الوجه واللحية وطويل اللحية، وربما كان عمري آنذاك خمس أو ست سنوات. وأم حسن هذا غير أم درويش وأخوته الآخرين، فهي شقراء من بيت (غباين) ولذلك جاء ابنه أشقرا وذريته من بعده.

وكان لخليل ولدان هما: محمد وحمد لم أدركهما ولكني أدركت أولادهما، وأولاد محمد هم: خليل ورشيد ومحمود، وأولاد حمد هم: يوسف وصالح وعبد الفتاح وداوود. وكان لحسن بن إبراهيم شقيقة شقراء أيضا تزوجها محمد بن خليل فكانت الشقرة في ذريتهما أيضاً. أما أم يوسف زوجة حمد فهي شقيقة جدي درويش وإخوته فكانت ذريته غير شقراء.

وقد مات جدي درويش في سنة 1327هـ ـ 1909م بعد أن عمر خمسا وتسعين سنة، فتكون ولادته في الثلث الأول من القرن الثالث عشر هجري، وبناء على ذلك يمكن أن تكون ولادة حسن الأكبر أواسط القرن الثاني عشر.

وقد نما فرعا حسن. فقد كان عدد أفرادهما قبل خمسين سنة نحو مئة وخمسين. وهم اليوم من 1401هـ ـ 1981م. يزيدون عن 600 نسمة. ربعهم في نابلس ونحو نصفهم في عمان والربع الرابع في الشام والعراق والسعودية والمهجر.

وقد أطلعني رامز آغا النمر على محضر شرعي تاريخه 1170هـ يذكر أن من شهوده ـ فخر التجار خضر بك دروزة ـ ومعنى هذا أن هذا الرجل ولد في الربع الأول من القرن الثاني عشر أي قبل حسن الأكبر ببضعة عقود. ولا أدري هل هو والده أو عمه أو أخوه، ثم لا أدري

هل مات عقيماً أو أنه تفرعت منه أسرة أخرى تلقبت بلقب جديد غير لقب دروزة، وهذا شيء مألوف في نابلس وغيرها. ولا أدري هل لقب (فخر التجار) و(بك) هما مما أغدقه كاتب المحضر على خضر أو كان لسبب واقعي آخر. وعلى كل حال فهما يدلان على أنه كان ذا ثراء ووجاهة تجارية. وأنا أعرف بضعة أشخاص من الأسرة كان لهم محلات تجارية ومنهم أبي وعمه عبد الله، فكان لهما محلات تجارية في خان التجار يتعاطيان تجارة الأقمشة، مع القول إن حالة هؤلاء التجار الذين أعرفهم رقيقة وكان في العائلة من فيه عوز وعسر أيضاً، وكان ذلك في العقود الخمس الأولى من حياتي، ثم أخذت تتبدل الحال الى أحسن بصورة عامة وصار يظهر في العائلة أثرياء ذوو وجاهة تجارية وهذا واقع الآن 1981.

ولقد سمعت من جدي تعليلا للقب دروزة وهو من الدرازة أي الخياطة (خياط ـ دراز)، وقد يكون هذا صحيحا بسبب اشتغال جد من الأجداد بالخياطة، وقد يكون اللقب نبزاً وهو مألوف في أسر نابلس وغير نابلس.

وقد سمعت من جدي أن أصل الأسرة هو من حمولة الفريحات من قرية كفرنجه من جبل عجلون، جاء أحدها الى نابلس وسكن فيها في أوائل القرن الحادي عشر.

حالة الأسرة:

ولقد كانت صفة التدين كما وعيت في طفولتي غالبة على الأسرة، ولم يعرف واحد من شبابهم بفسق أو سكر أو خلاعة بقوة هذه الصفة وجوّها.

ضآلة النقد في أيدي الناس:

على أنه لم يكن في نابلس على وعيي في طفولتي وفي فتوتي فروق كبيرة في طبقات الناس ومعايشهم. فالفرق قليل بين المتوسطين في الطبقة ولو كانوا متفاوتين في الثروة، وهؤلاء هم أكثر الميسورين نسبيا. وأعرف أنه كان لأبي وجده وعم أبي وأولاد عمومي الآخرين معارف كثيرون ممن هم أوسع منهم ثروة وأظهر منهم أسرة، ولم يكونوا يفرقون منهم كثيراً في المعيشة من مأكل وملبس ومظهر وأثاث بيت فرقا يتناسب مع فروق الثروة واسم الأسرة. ومع أن أبي وجدي وبعض أعمام أبي وأبناء أعمامه كانوا لا يعدون من أرباب الثروة بل ولا من المتوسطين فيها، فان ملابسهم ومعيشتهم لم تكن أقل تجملا من غيرهم الذين يفوقونهم في الثروة.

وباستثناء بعض الأسر الغنية كثيراً الذين كان لهم مصابن (معامل صابون) ويقرضون الفلاحين وصغار التجار بالربا، فإن صاحب الألف ليرة ذهبية والخمسمائة كان يعد ذا ثروة. ولم يكن اذ ذاك الا الليرة الذهبية مقياساً والمجيديات الفضة.

الخانات والدكاكين التجارية في نابلس:

وبمناسبة لقب (فخر التجار) الذي لقب به خضر دروزة في محضر المحكمة الشرعية على ما سبق ذكره أقول: إنه حسب وعيي عن أبي عن جدي أن لقب تاجر وتجار في نابلس كان على الأغلبية يطلق على أصحاب المخازن التجارية للمنسوجات والملبوسات، وكانت هذه المخازن في نابلس محصورة أو شبه محصورة في خان يسمى (خان التجار) وسط نابلس في الشارع الشمالي الممتد من شرق المدينة الى غربها، وهو سوق مسقوف على جانبيه دكك عالية بنحو ذراع بعرض ذراع، ثم باب المخزن

الذي هو في نحو ثلاثة أذرع عرضاً وأربعة أو خمسة طولاً وثلاثة ارتفاعاً، والمخازن على جانبي السوق شمالاً وقبلة، وبينهما شارع مبلط طوله نحو مائة متر وله بوابتان كانتا تغلقان في الليل وتفتحان في النهار، ثم صارتا مفتوحتين دائماً لأن التجار اكتشفوا نقصاً في بضائعهم. وظهر أن حراس الخان كانوا قد قلدوا مفاتيح للمخازن صاروا يسرقون منها البضائع في الليل. وفي وسط الخان من الشمال سوق آخر مسقوف وعلى جانبيه دكاكين وعلى سطوحها غرف أمامها ممرات ويصعد اليها بدرج، وفي وسط السوق مكان فسيح ذو بوابة سماوي وسقوف تربط فيه الدواب، وكانت تسمى مثل هذه الأمكنة خان الدواب أيضاً. وفي جانب السوق الجانبي هذا عين ماء ومصلّى، وكان هذا السوق غير نافذ ثم فتح على السير في الخمسينات أو الستينات من القرن العشرين، وفي آخر خان التجار من الشمال أيضاً سوق جانبي آخر على جوانبه الأرضية مخازن وعلى سطوحها غرف يصعد اليها بدرجين متقابلين غربي وشرقي، وأمام الغرف العلوية ممرات وأمام المخازن الأرضية ساحة وحوض ماء، وللسوق بوابة كالخان ولكن فيه خان للدواب كالسوق الوسطاني في الخان، وكان هذا السوق يسمى وكالة، وعلى ظهر السوق الجانبي الثاني قامت المدرسة الابتدائية الكبيرة الرسمية التي كانت وحيدة في نابلس، ويصعد اليها بدرج في آخر الخانات من الناحية الشمالية الغربية، وبالمناسبة نقول إنه يوجد خارج خان التجار من الغرب وقريباً منه سوق ببوابة أيضاً مماثلة للسوق الجانبي الغربي في الخان. ويسمى وكالة.

كما يوجد سوق مماثلة في آخر الشارع الطويل الشمالي لناحية الغرب أكبر قليلاً ويسمى كذلك وكالة، وفي سقف خان التجار كوى عديدة للضوء، وعلى سطوح مخازنه الشمالية والجنوبية غرف أيضاً لها شبابيك صغيرة مطلة على الخان ولكنها كانت لدور سكن مداخلها في خارج الخان ووراءه. وأذكر في فتوتي أنه كان في الغرف القبلية أسر يهودية، وكان أبناء وبنات هذه الأسرة يطلون على خان التجار من الشبابيك، وقد عرفت هذه الغرف باسم (حوش اليهود) ومدخله من الخارج. وقد نزح اليهود عن نابلس في زمن الدولة العثمانية وصارت غرف الحوش خربة وقد استأجر التجار بعضها لخزن السلع والأشياء المهملة. وفي وسط الخان من الناحية القبلية مخرج ببضع درجات يذهب منه الى جامع النصر والشارع الطويل القبلي ومدخل حوش اليهود على جانب منه.

وكلمة خان تركية قديمة، وهي على الأرجح مختصرة من كلمة (خانة) التركية بمعنى منزل. وفي الدول العربية في المشرق والمغرب أمثال كثيرة لهذه الخانات، وهي في أصلها معدة على الأرجح لنزول القوافل التجارية حيث تجد القافلة فيها أماكن لدوابها ومخازن لبضائعها لعرضها على تجار وأهل المدينة التي تأتي اليها. وكانت تطلق على منازل تبنى في الطرق التجارية لتنزل فيها القوافل التجارية للراحة، ويكون فيها مخازن للبضائع وغرف للنوم ومكان لربط الدواب وماء ومصلى، ويكون لها سور وأبراج وحراس وأبواب تغلق.. الخ. وتجمع على خانات. وكان يبنى في المدن أيضاً خانات مثل هذه لنزول القوافل التجارية وأصحابها حينما يصلون الى المدن، ولها نماذج متنوعة. وفي المدن القديمة خانات من نموذج خان نابلس، والراجح أن الوكالات أنشئت في

الأصل لنزول القوافل التجارية، ثم صارت أماكن لتجار المدينة وخزن بضائعهم، واتخذت بعض دكاكين الوكالات والسوق الجماعية لأصحاب صناعات متصلة بأعمال التجار كالخياطة والسروجية وغزل الخيوط وصنع الزنانير وخزن البضائع، واتخذت بعض غرفها منازل للفقراء والغرباء.

وكان لأبي وجدي معاً مخزن قرب المدخل الشرقي لبيع السلع والمنسوجات والملبوسات الفلاحية على الأكثر. وكان للحاج عبد الله أخ جدي مخزن آخر مزيج للبضاعة الفلاحية والمدنية أيضاً، أما لقب فخر التجار لخضر دروزة فقد يدل على أنه كان تاجراً كبيراً، مع التنبيه على أن كتاب المحاكم الشرعية من عاداتهم أن يغدقوا الألقاب جزافاً على شهود المحاضر الشرعية، فهذا عين الأعيان وهذا صاحب المجد وهذا سني المقام وهذا عالم الزمان. وهذا أمير الأمراء وفخر العظماء الخ.. وقد قرأت كثيراً من هذه الألقاب في كثير من المحاضر الشرعية القديمة لأناس لم يكونوا يستحقونها أو يمارسونها فعلاً. أما لقب (بك) فقد يدل على أن خضر كان محظياً من أصحاب السلطة وكان لقب (بك) يطلق على أصحاب السلطة والموظفين وكبار وأصحاب الرتب، فألحقها به كاتب المحضر.

أحياء وشوارع نابلس:

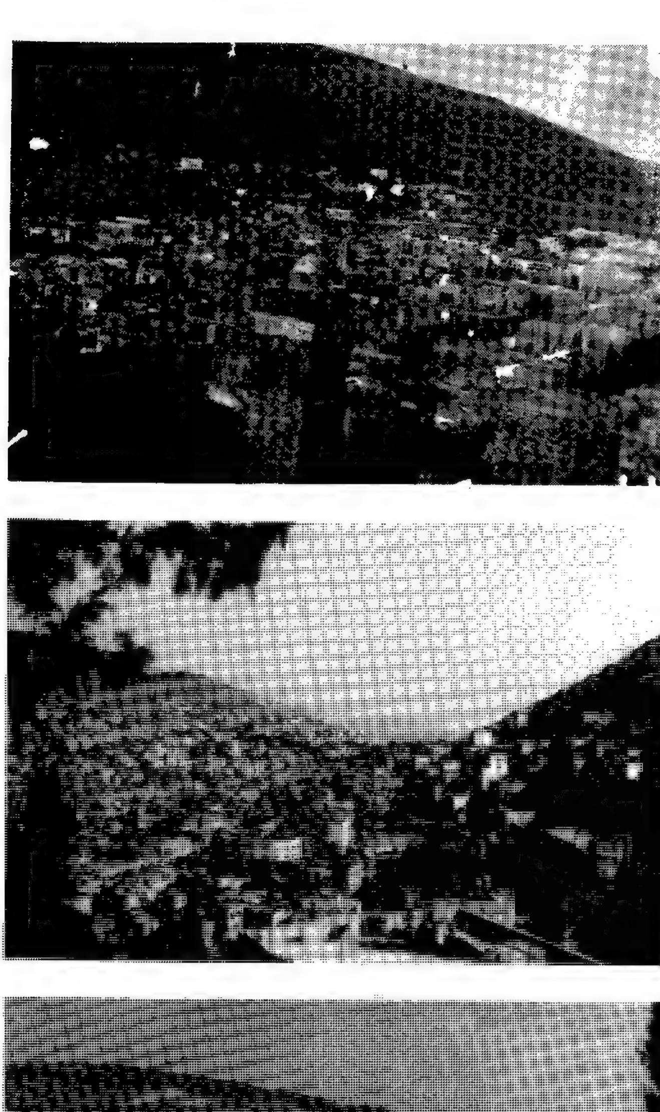
وخان التجار هو شارع صغير في وسط المدينة من الناحية الشمالية مستقل من حيث أن له بوابتين تغلقان وتفتحان، ومتصل بما قبله وما بعده شرقاً وغرباً من الشارع الطويل، وكانت المدينة قسمين شمالي وجنوبي، وفي القسم الجنوبي أحياء القيسارية (وهذا حيناً أو حارتنا كما نسميها)، وأحياء أو حارات العقبة والقريون والياسمينة، والحارات القبلية هذه مرتفعة عن مستوى شوارع المدينة عن الأحياء الشمالية من المدينة، وكلها يصعد اليها صعوداً وفي درجات عريضة أو بارتفاع متدرج دون درجات، وكأنما بنيت في قسم من الجبل القبلي. ثم يأتي بعد هذه الأحياء شارع ممتد من وراء الجامع الكبير شرقاً الى ما بعد جامع عاشور غرباً، ويذهب منه إلى المساكن الجديدة ومحلة الشويطرة في الشمال والمساكن الجديدة والمقبرة الغربية في الجنوب.

وفي الجهة الشمالية التي من وراء الشارع الطويل الشمالي حارة الحبلة، ومن ورائها المقبرة الشرقية ثم الحارة الغربية، وحارة الحبلة أكبر أحياء المدينة، وكما صار في قسم المدينة الغربي صار في قسمها الشرقي، أي بنيت مساكن ومخازن جديدة خارج البوابة.

ويأتي أمام حي الحبلة وحي الغرب الشماليين شارع ممتد من وراء الجامع الكبير شمالاً شرقياً إلى البوابة الغربية في آخر العمار القديم، وبعد هذه البوابة تأتي الحارة الجديدة التي سميت بالشويطرة.

وخان التجار هو جزء من الشارع الشمالي الطويل، والشارعان يلتقيان في الشرق عند مدخل الجامع الكبير الشرقي، ويصبحان شارعاً واحداً من باب الجامع الى البوابة الشرقية للمدينة.

وليست البوابة الغربية التي ينتهي اليها الشارع الشمالي الطويل والبوابة الشرقية التي ينتهي إليها الشارع الممتد عند باب الجامع الكبير والمتجه نحو الشرق هما البوابتان





مدينة نابلس

الوحيدتان، فإن على كل مدخل من مداخل المدينة التي يدخل الداخل من خارجها الى الأحياء الشمالية والجنوبية بوابات أيضاً، وكان لها أبواب كانت تغلق في الليل أو في حالة خطر هجوم على المدينة، ولم تعد تغلق في عهد طفولتي وفتوتي. ولكنها ما زالت قائمة وان تهدم بعضها أو بقي منه رسوم.. والظاهر أنه استعيض بهذه البوابات عن سور للمدينة، وهذا الطراز أيضاً كان مألوفاً في المدن القديمة التي لم يكن لها سور. أما التي كان لها سور فبواباتها في جدران السور. وربما بلغ طول المدينة من البوابة الشرقية الى البوابة الغربية نحو كيلو متر ونصف، وقد امتد العمار بعدهما الى نحو كيلو متر من الشرق ومثله من الغرب أيضاً، أما عرضها فربما بلغ ألفاً ومائتي متر من الطرف القبلي من نهايتي حارتي القريون والياسمينة الى نهاية حارتي الحبلة والغرب، وقد امتد العمار خارج بوابات الحراسات من الشمال والجنوب أيضاً نحو كيلو متر، وفي الأربعينات من القرن لم يكن كثيفاً ولكنه أصبح كثيفاً نوعاً في السبعينات، فقد جئت نابلس زائراً في سنة 1964 فرأيته قد كثر، وبخاصة في الجبل الشمالي، وصار فيه طرق وشوارع وحوانيت، كما رأيته قد كثر من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب حتى امتد الى ناحية بلاطة وعسكر (وهما قريتان قريبتان من نابلس الى الشرق)، والى ناحية رفيدية (وهي قرية قريبة من نابلس الى الغرب).

وفي نهايات الحارات القديمة المحاذية للشارعين مخارج وطرق عديدة اليهما، وعلى جانبي الشارعين الطويلين وعلى جانبي الشارع الممتد من باب الجامع الكبير الى البوابة الشرقية باستثناء قسم يمتد نحو مائتي متر من وراء الجامع الكبير القبلي الى ساحة السرايا، وقسم آخر يمتد من سوق الصاغة في الغرب الى آخر امتداد الشارع غرباً حوانيت ودكاكين صغيرة وكبيرة لمختلف الأشياء، من سمانة وعطارة وخضرة وفواكه ولحمة وحلويات وحلاقة وحذائين ونجارة وحدادة وصاغة وتنجيد وخياطة وبياعين للسلطات والمقليات والخبز والدخان والتنباك وشراب السوس والخروب وصنع الزلابية ورش الكنافة والقطايف، وبيع المنسوجات والملبوسات والأغراض المفضلة بذلك للفلاحين وغيرهم، بالإضافة الى خان التجار المتخصص بذلك.

في مزيج وخلط عجيبين على تسمية قسم من شرق الشارع الشمالي وقسم من غربه باسم سوق العطارين، أنه أكثر العطارين في هذين القسمين، وفي نهاية الشارع المتحد عند البوابة الشرقية محلات واسعة لبيع الحبوب من قمح وشعير وعدس وحمص الخ... كانت تسمى بازارات وهي جمع كلمة بازار التركية التي تعني السوق أو البيع، ومثل ذلك قرب نهاية الشارع من الغرب أيضاً. وكان في وسط الشارع بعض محلات لهذه الحبوب، ويقطع الشارعين على الطريق طرق عديدة من الشمال الى الجنوب، وبعض هذه الطرق كانت شوارع على جانبيها دكاكين وحوانيت صغيرة وكبيرة متنوعة الممارسة كما هو شأن ما على جانبي الشارعين، ويسمى الشارع الذي فيه باب جامع البيك باسم (سوق الشوائية) لأن بياعي اللحم المشوي كانوا فيه، وأكثف هذه الشوارع هو الشارع الذي يقطع الشارعين من ناحية الغرب ويسمى باب المصلبة، في الطرف الثاني لجهة حارة الياسمينة شارع طويل آخر على جوانبه الحوانيت. وبالإضافة الى حوانيت الشوارع فإن

في الحارت أيضاً بعض الحوانيت التي تبيع أغراض الأكل من سمانة وخضرة وفاكهة والأغراض البيتية المتنوعة الأخرى، حيث يتناول المستعجلون حاجاتهم منها، ولكنها معدودة ومحدودة.

وكان في بعض الحارات أماكن لغزل الصوف وحياكة عباءات منه بخيوط غليظة بيضاء وحمراء طولانية وغير سابغة وغير فضفاضة تسمى (بشوت) ومفردها (بشت)، ولا أدري من أين جاءت التسمية، وكان يلبسها الحجارون والفلاحون حينما يباشرون أعمالهم في الشتاء فلا تعيقهم عنها، وكان فيها أيضاً حوانيت ودكاكين، ومن المحتمل أن تكون تسمية المصلبة آتية من ذلك لأن الشارعين قاطعان شمالاً جنوباً للشارعين الطويلين الشرقي والغربي في هذه النقطة كالصليب، وليس في قلب المدينة إلا ساحة واحدة هي التي أمام جامع النصر وأمام سرايا الحكومة، وقد أقيم في وسطها منارة الساعة كتذكار عثماني، وعلى بعض جوانبها الشرقية مقهى وبعض الحوانيت.

ويقوم على جوانب كل سطوح الحوانيت والدكاكين في الشارعين الطويلين وفي الشوارع التي تقطعها منازل سكنية أيضاً مداخلها من الشوارع أو من ناحية الحارات، ومحلات لغزل الشعر الأسود وحياكة نسيج غليظ منه يصنع منه بيوت شعر للبدو وفراشهم، وكان فيها محلات لضرب القطن وتهيئته للغزل أو لحشو الفراش، وصار فيها محلات لنسج أقمشة يصنع منها ثياب للفلاحين وتسمى صايات أو ديما مثل الذي يصنع في دمشق.

ومعظم أصحاب الحوانيت في الشوارع من رقيقي الحال، وكان يوجد بعض تجار كبار أغنياء يجلبون كميات كبيرة من البضائع المتنوعة كالسكر والأرز والقهوة والبهارات والأخشاب والحديد والمسامير والزجاج وأدوات الصناعات وزيت الاضاءة الذي كان يسمى (كاز) والمنسوجات القطنية والحريرية من دمشق ومصر وبعض أنحاء أوروبا رأساً، أو بطريق بيروت، فيبيعونها لأصحاب الحوانيت بالتقسيط.

بساتين ومياه نابلس:

وكان خارج المدينة القديمة من شمالها وجنوبها بساتين كثيرة لأنواع عديدة من الخضراوات والفواكه، وكانت خضراواتها كالكوسا والخيار والباذنجان والبندورة تكاد تكفي حاجتها. والفواكه التي في بساتينها هي القراصية والتوت والخوخ والسفرجل على الأغلب ولا تكفي حاجتها، وكان الفلاحون يجلبون التين والعنب والمشمش والبطيخ والشمام من مزارعهم، وكذلك الحبوب فكانت تأتيها من القرى. أما اللحوم فكانت تأتيها بطريق ما يعرف (بالجلب)، حيث كان أحياناً يأتي بدو بكمية من الماعز والضأن ويذهب أحياناً ناس إلى مضارب البدو فيجلبون ذلك، والسمن يأتي من البدو ومن القرى، والجبن والحليب واللبن والبيض والدجاج من القرى كذلك..

وفي جبلها الشمالي كروم كثيرة لثمرة (الصبر)، وكان (صبر) نابلس مكوراً مشهوراً بطعمه ولذته، وكان باعته متجولين. منهم من كان صاحب كرم ومنهم من كان (ضامن) كرم أي يجني ثمره مقابل مبلغ معين، وكانت الثمرات توضع في أقفاف، وكان باعتها

يجلسون وراءها ويضعون أمامهم كراسي صغيرة فيجلس الناس عليها ويأكلون الثمر الذي يقشره البائع لهم، ومنهم من كان يأكله بالخبز. ومنهم من كان يأخذه مقشراً أو بشوكه بدون تقشير. ويحتاج التقشير الى براعة لأن شوك الصبر كثير ومؤذ ومؤلم . .

ونابلس ذات مياه كثيرة، وجميع مياهها تتفجر من الجبل القبلي وهي عذبة وعيونها عديدة وأعلاها العين المسماة (برأس العين) وهي في سفح جبلي من ناحية الجبل القبلي للغرب، وقد بني لها بناء قديم يأتي الماء اليه في قناة حجرية من جوف السفح، ثم تجري المياه في أقنية حجرية قديمة مكشوفة ومستورة وفي أقنية فخارية مستورة الى شرق المدينة وغربها. ويدار عليها بعض طواحين القمح أيضاً. وفي نهاية حارة الياسمينة عين ماء تسمى (العسل) ولا أعرف يقيناً هل هي من أقنية رأس العين أو من نبع خاص في جوف الأرض، ويأتي بعدها أمام جامع الساطون عين هي على الأرجح من عين العسل في قناة خاصة، وفي الحارة التي تسمى حارة القريون التي هي من ناحية الجبل القبلي أيضاً عين قديمة في قاع بناء ضخم عجيب، ويقوم عليه دور سكنية وله مدخل صغير وينزل الى العين بدرجات عريضة ربما كان عرضها شرقاً لغرب نحو 15 متراً على شكل متدرج (انفتياتر)، وربما كان العمق من الباب الى العين نحو عشرين متراً، وعلى سطح العين مصلى ومحراب، والراجح أن الحارة سميت باسم العين، ولا أدري مما جاءت التسمية وأعتقد انها افرنجية قديمة. ويأتي ماؤها من جوف الأرض ومن ناحية الجبل، وتجري في أقنية أخرى مستورة الى غرب المدينة وشرقها وشمالها، ويتفرع عنها ساقية وعيون عديدة: أولها (عين البساط) وهي على السطح لأن الأرض تنحدر حتى تصبح في مستوى عمق (عين القريون)، ثم (عين الست) أمام السراي، ثم (عين السلة) في الشارع الشمالي الشرقي، ثم (عين الكأس) في منطقة الجامع الكبير، ثم عين (السقاية) في الشارع الشمالي الشرقي كذلك. وهذه سميت كذلك لأن السقائين يملؤون قربهم التي يحملونها الى البيوت منها، ويعلقون قربهم أثناء راحتهم في جدارها.

وفي الشارع القبلي الطويل قرب جامع البيك عين تسمى (عين حسين) ينزل اليها بدرجات الى عمق 5 أو 6 أمتار، ومن المحتمل أن تكون من ماء القريون أو رأس العين أو من نبع خاص يجري في باطن الأرض ويتفجر عندها. وقرب جامع الحنبلي عين يملأ السقاؤون في الغرب قربهم منها. وفي خارج المدينة شرقاً (عين دفنة)، والراجح أنها من نبع خاص يأتي من جوف الأرض في قناة قديمة. وفي الغرب من ناحية الشمال عين تسمى (بيت الماء)، لأنه بنى عليها بناء وفوقه مصلى، وعين تسمى (عين الفؤاد)، وعين تسمى (عين الصبيان)، وعين تسمى (عين الكفير)، وجميعها على الأرجح من ماء يجري اليها من جوف الأرض، والمياه تأتيها من ناحية الجنوب حيث تكون هي الأخرى من مجمع المياه العظيم تحت الجبل القبلي فتتفجر منه حسب مستويات الأرض . .

والى هذا فإن في المدينة قناة ماء قديمة، يسير فيها رجل منحني، ممتدة من أقصى شرق المدينة في عمق خمسة أو أربعة أمتار أو أقل حسب مستوى الأرض، عليها فتحات آبار،

ويستخرج الناس الماء منها بالدلاء والبكرات. وبعض هذه الفتحات في داخل دور سكن، وبعضها في الشوارع والدباغات وبعضها في دكاكين. .

وهناك عينان أخريان في الشرق في طريق المقام المسمى بالعامود هما (التنور) و(أميرة)، وتتفجر مياههما في موسم الشتاء لأيام معدودة. حيث يبدو أن الماء في مجمع الجبل من ناحيتهما يفيض عن حده في الشتاء الكثير فتتفجر العيون نتيجة لذلك. ويجري الماء الى مساجد المدينة من عيون رأس العين والقريون والعسل، ويسيل فائض الماء في المجارير الى البساتين خارج المدينة من شمالها الى بساتينها الجنوبية، فيأتيها الماء في أقنية من رأس العين لأنها في طريقها، ويجري ماء هذه العيون في أقنية حجرية وفخارية مستورة الى بعض البيوت الكبيرة بمقادير وحصص معينة ولكنها قليلة، أما باقي البيوت فيحمل السقاؤون الى كثير منها الماء بالقرب المدبوغة المصنوعة محلياً من جلد الماعز ويتقاول أرباب البيوت معهم بشهريات على قربة يومياً أو أكثر، والقربة تعدل ملء تنكتين أو ثلاث تنكات. والفقراء تذهب نساؤهم ورجالهم في الليل والنهار الى المساقي والعيون فيملأون جرارهم الفخارية. وقد تطور الحال في الأربعينات وما بعدها فصار الماء يجمع ويوزع على البيوت في أقنية حديدية. .

مدابغ نابلس:

وكان في نابلس بضع مدابغ لتحضير قرب السقائين، والمدبغة بستان قليل الشجر يأتي إليه ماء وفيه عدة أحواض وأقنية موصلة بينها، ويوضع في الأحواض ورق شجر العفص والجوز وقشرهما، ويجري الماء على الأحواض واحد بعد آخر فيتحلل بذلك ما فيها حتى يصبح في النهاية أحمر قانياً ودابغاً. ويشتري أصحاب المدابغ جلود الماعز ويخيطونها حتى تصبح مثل كيس له فتحة العنق وزينات في طرفيه فتملأ بالماء القاني الدابغ وتنشر للشمس ويغير ماؤها كل يومين أو ثلاثة حتى يتم تماسكها ودبغها، ويوضع في طرفها سلسلة معدنية وحبل قوي فيشتريها السقاؤون ويستعملونها، واذا انفرطت خياطتها خيطوها ثانية، ويظلون يستعملونها الى ان تتشقق فيشترون غيرها. .

سكان نابلس:

والأكثرية الكبرى لسكان نابلس مسلمون سنيون وأكثرهم على المذهب الحنفي، وفيهم من هم شافعي أو حنبلي المذهب، ولا أعرف أتباعاً للمذهب المالكي، وليس في نابلس طوائف إسلامية غير السنيين. ومن سكانها من يعود وجوده الى مئات السنين، ومنهم من جاء من قرى قريبة منذ عشرات السنين. .

وكان عدد سكانها المسلمين في طفولتي نحو/ 15000/، ثم صارت حينما تركتها سنة 1932 نحو/ 25000/ ولما عدت اليها سنة 1964 زائراً قيل لي ان سكانها المسلمين قاربوا المئة ألف منهم نحو أربعين ألف من لاجئي الأرض التي احتلها اليهود سنتي 1947 و1948 وأكثرهم يعيش في مخيمات ثم في بيوت صغيرة وبائسة في سهل عسكر وسهل عين بيت الماء. .

وكان ومايزال فيها طوائف من النصارى والروم الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت، والأولون هم الأكثر، وسمتهم واسماؤهم عربية، ثم يأتي بعدهم في العدد الكاثوليك ثم البروتستانت، ولم يكن يزيد عددهم حينما

تركت نابلس عن خمسمائة في ما أظن. وحينما زرتها علمت أنهم لم يزدد عددهم كثيراً بنسبة زيادة المسلمين، ومن الأسر العريقة أسرة عبد النور وأسرة القرة وأسرة الخوري. وكان مايزال فيها طائفة من السامريين. ومنذ مئات السنين كانت هذه الطائفة محصورة في نابلس وظلت كذلك. وهم بقايا نسل القبائل الآشورية التي سكّنها الملك الآشوري (اسرحدون) في القرن السابع قبل الميلاد في الأقسام الوسطى والشمالية من فلسطين التي كانت تسمى مملكة (اسرائيل) بعد ان أزال هذه المملكة وسبى الاسرائيليين منها الى بلاده، وقد اعتنقوا الديانة الموسوية منذ ذلك الوقت، ويلتزمون بأحكام التوراة دون التلمود ويعتبرون جبل جرزيم (جبل نابلس القبلي) مقدساً ويقيمون فيه فصحهم. وكان لهم في الزمن القديم معبد فيه على ما تذكره أسفار قديمة. وكان السامريون كثيرين في زمن الحكم الروماني وقبله وفي زمن الحكم الاسلامي العربي وبعده، وقد أفنتهم الحروب الأهلية بينهم وبين اليهود والنصاري في زمن الرومان خاصة. وعددهم إبان فتوتي وشبابي كان نحو مائتين ولم يكونوا يزيدون كثيراً عن ذلك حينما تركت نابلس سنة 1932 وحين زرتها سنة 1964. ويغلب عليهم الفقر، وسحناتهم باهتة، وحاول بعضهم بعد الاحتلال الاتصال باليهود والحركة الصهيونية، وحاول بعض اليهود والصهيونيين الاتصال بهم ولكن هذه المحاولات لم تكن جادة أو ذات أثر سياسي أو اجتماعي أو ديني. وعندهم رقوق قديمة بها الأسفار الخمسة من العهد القديم التي يعتقدون بها فقط مبرومة على اسطوانة، ويزعمون أنها من عهد قديم جداً، ولكن الحقيقة انها لا ترقى الى أكثر من ألف عام. وكانوا يسكنون حياً غرب جنوب المدينة القديمة يسمى باسمهم، وبيوتهم بائسة، ثم تصدعت في زلازل سنة 1927 فاشتروا أرضاً خارج المدينة وفي جنوبها الغربي أيضاً وبنوا مساكن جديدة صحية. .

وكان في نابلس في طفولتي بضع أسر يهودية تسكن في ما يسمى بحوش اليهود المطلة شبابيكه على خان التجار من ناحية القبلة، والذي مدخله قرب الدرج الذي يخرج من وسط خان التجار قبلة الى جامع النصر والشارع القبلي الطويل، ثم رحلت ولم يعد فيها أحد من اليهود. .

طراز بيوت نابلس، والبيوت وفرشها واضاءتها: .

إن معظم بيوت نابلس متماثلة وهي مبنية بالحجارة البيضاء التي تستخرج من مقالع الجبلين ، وكان في طفولتي وفتوتي مقالع في الجبل الشمالي ، وينقشها النقاشون وهم صنف من المشتغلين بنحت الحجارة ونقش بعض الأشكال في وسطها ثم تسوية أطرافها. وتكون الحجارة متنوعة حسب المقاييس التي يعينها معلمو البناء وتبنى بالملاط الذي كان خليطاً من الكلس والتراب. ولم يكن الاسمنت معروفاً. وكان مخططو البيوت هم معلمو البناء ولم يكونوا مهندسين، وكان التخطيط على الأغلب مدخل ثم غرفة في أحد جانبيه للضيوف والعزاء والفرح تسمى (ديواناً)، ثم ساحة مسقوفة مفتوح منها واجهة أمامها ساحة سماوية، وعلى جوانب الساحات غرف ثم مرافق وفي طرف منها درج حجري إلى طابق علوي مبني على الطابق التحتاني، وأمام كل غرفة ساحة سماوية، وأحياناً بين غرفة وأخرى متقابلتان ساحة مسقوفة مفتوحة احدى واجهاتها ومطلة

على الساحة السماوية، وكان مثل هذه الساحات تسمى ايواناً فواحاً ثم مرافق، وقلما يكون طابق ثالث. ويكون في الطابق الثاني درج للسطح لنشر الغسيل عليه. وشبابيك الغرف على الجادات والطرق الخارجية. .

واتخاذ غرفة واحدة لسكن وحدة تامة من الأسرة كان أمراً مألوفاً سائداً، لا فرق في ذلك بين الأغنياء والمتوسطين والفقراء، حيث كان في كل بيت غرف عديدة وفي كل غرفة وحدة تامة من الأسرة (الزوج والزوجة والأولاد). وكان في طرز بناء الغرف مكان للتوسعة حتى تستوعب الغرفة أكثر حاجات الأسرة التي تسكنها. ففيها تجويف واسع نحو نصف متر أو أقل، وعرضه نحو مترين وارتفاعه نحو مترين يسمى (قوساً)، ويصنع النجارون في أسفله خزانة خشبية عرضانية بأبواب عديدة توضع فيها كثير من أغراض المونة والطبخ والصحون والملابس، وتصف على ظهرها الفرشات واللحف في النهار، ويغطى (القوس) بشرشف، وكانت تسمى هذه الخزانة (مصندرة) لا أعرف من أين اسمها. وفي الليل تفرش الفرشات في أرض الغرفة في جانب بعضها وتصف المخدات فوقها وينام أفراد الأسرة واحد في جانبه الآخر، وفي الصباح ترفع وتوضع في (القوس). ولم يستعمل معظم الناس الأسرّة الا في أوائل القرن الحاضر. ويكون في الغرف تجويفات أخرى أصغر يصنع لها النجارون أبواباً فتكون خزائن (مصندرات) للثياب والأغراض، وينزل فوقها فجوة يوضع فيها (السراج) والمصابيح فيما بعد والأغراض الزجاجية وغير الزجاجية التي لا توضع في الخزائن، وبالإضافة الى ذلك يصنع النجارون للغرف (سدة خشبية) في أحد جوانبها ترتفع عن أرض الغرفة نحو مترين بعرض متر أو متر ونصف، ويصنع لها سلم خشبي صغير الى الفتحة التي تنزل فيها كباب، ويوضع فيها أكياس المونة وتنكات الزيت والجبنة وجرار الزيتون وغير ذلك، وفي كل غرفة حوض في جانب بابها يسمى (مستحماً) بعمق ربع متر وعرض متر وطول متر أو أقل يكون له مجرى متصل بالمرحاض. ويوضع في جانبه جرار الماء وأباريق الماء، وكان أغلبها من الفخار ومن الجرار ما هو كبير يسمى (زيرا)، ويكون الحوض للوضوء وتغسيل الأيدي وغسل الصحون والأغراض الخفيفة والاغتسال السريع أيضاً، أما المرافق الكبيرة أي المراحيض والمطابخ فتكون مشتركة بين سكان الغرف، وتتعدد حسب سعة البيوت وكثرة السكان والغرف، وكان يصف على جوانب الغرف (جنبيات) منجدة بالقطن متنوعة الطول بعرض نصف متر، ويوضع فوق حافتها من ناحية الجدار مساند من قش أو مخدات منجدة، فتصبح الغرفة بعد رفع الفراش غرفة جلوس. ثم صار بعضهم يصنع الى هذا (دكاك) خشبية يسمونها (دواشك) أو (كراوتيات) ولا أعرف من أين التسمية، مرتفعة عن الأرض نحو نصف متر بعرض متر، فتوضع عليها الجنبيات والمساند. ثم صار الناس يضعون المقاعد المعروفة (بالكنبايات) والمنجدة فوق الخشب بالقماش أو المخمل والمحشوة بالقطن أو القش، كما صاروا يستعملون الأسرة للنوم. وكان ذلك في بدء الأمر من حظ الميسورين والمتوسطين حينما صار في امكانهم الاستقلال في دور أو استعمال أكثر من غرفة لأسرتهم الخاصة.

وكانت الإضاءة قبل طفولتي بل وفي أيامها الأولى بواسطة سراج الزيت التي كانت من زجاج يصنعها الفواخرة. وكان الزيت يوضع

فوق شيء من الماء ويوضع فيه فتيل قطني ويشعل، وكان الميسورون يشعلون أكثر من سراج في الغرفة أو تكون سراجهم وفتائلها كبيرة، كما كانوا يشعلون الشمع أيضاً. وقد ذكرنا ما كان من إضاءة المساجد بالسراج، وأذكر أنه كان يوضع في جانبي الغرفة ثم صار يأتي مصابيح توضع على الخزائن والشبابيك طويلة القامة نوعا ما زجاجية ومعدنية. وكانت أنواعاً ومنها ما هو للزينة وله أغلفة زجاجية ملونة كبيرة. وكانت هذه توضع على صناديق ثياب تصنع على غير طريق الصناديق أي بجوارير إضافية، وتكون مرتفعة متراً وأكثر، وعلى ظهرها لوح خشبي مدهون أو بلاطة مرمرية، ويركز على حافتها من الجدار مرآة كبيرة، وكانت تسمى (بيرو)، وكان هذا في البدء من حظ الميسورين والمتوسطين كما هو شأن الأسّرة والكنبايات المنجدة. وصار يأتي أيضا ما كان يسمى النجفات أو الثريات ونمرها في الإضاءة (10 أو 15)، وتعلق في سقف الغرف. وكان تأتي مصابيح معدنية بمثل هذه القوة فتوضع على البيرو، ثم صار يأتي ما كان يسمى (اللوكسات). وهي أجهزة معدنية توضع على فتحاتها أغلفة رقيقة مخرمة تسمى (قمصاناً)، ولها مفتاح تنفخ به فيصعد الكاز الملتهب بقوة الضغط الى القمصان فيصبح ضوءاً أبيض ساطعاً دون فتيل.

وكانت شوارع المدن قبل أجهزة النفط المصفى تسبح في ظلام، فلما ظهرت هذه الأجهزة صارت بلديات المدن تصنع أجهزة مصنوعة بشكل خاص في داخل ما يسمى قناديل كانت تصنع من زجاج في أطر من التنك وتعلقها في أركان الشوارع وتتقاضى من الأهالي ضريبة تنويرات. ولقد كان الوجهاء والميسورون اذا خرجوا من بيوتهم في الليل لزيارة بيت آخر أو لقضاء مهمة أو تعزية أو تهنئة أو للمسجد يحمل خدمهم قناديل ويسيرون أمامهم في الأزقة والشوارع فيسيرون على ضوئها. وظل هذا الأسلوب مستمراً بعد أن صارت البلديات تعلق القناديل، لأنها لم تكن تعلقها في جميع الشوارع والأزقة والطرقات. وكانت أرضية الغرف في الشتاء تغطى بالحصر والسجاد. وقد تكون السجادات فوق الحصر بالنسبة للميسورين والمتوسطين، وقد تكون الحصر فقط بالنسبة للفقراء وهم الأكثرية. وكانت الحصر تصنع محلياً على أنوال في القرى والمدن بأشكال وأنواع ومقاييس متعددة، وصار يأتي من مصر وغيرها في فترتي فتوتي وشبابي حصر متنوعة مصنوعة صناعة جيدة وملونة بالألوان، وتكاد تغني عن السجاد. فأقبل المتوسطون على استعمالها. أما في الصيف فتكون عارية، وكانت الأرضية والجدران الداخلية للغرف تغطى بطبقة من الكلس الأبيض ممزوج بنشارات من الكتان ومصقول جيداً بالصابون. وفي فتوتي صار يصنع بلاط من الاسمنت ملوّن ومشكل وأبيض في قوالب فتغطى به أرضية الغرف. وكان هذا أولاً من حظ الميسورين، أما أرضية ساحات الدور وبين الغرف والمرافق فكانت تبلط ببلاط حجري ينحت رقيقاً، وبعض الدور الكبيرة كانت تبلط بالرخام أيضاً.

الدور الكبيرة الإقطاعية في نابلس:

وعلى ذكر الدور الكبيرة أقول إنه كان في نابلس بيوت كثيرة فيها عشر غرف أو أكثر مثل بيوتنا، وتسكن فيها وحدات الأسر الكثيرة العدد، وفيها بالاضافة الى ذلك بضعة بيوت

ضخمة للأسر الاقطاعية القديمة، أي آل عبد الهادي وطوقان والنمر وقاسم. وهذا وصف لها كما ظل عالقاً في ذهني.

فعلى الشارع القبلي الممتد من الشرق الى الغرب بيت كبير لفرع سليمان عبد الهادي، مدخله في الشارع بوابة صغيرة نوعاً وتؤدي الى ساحة أرضية فيها بعض الغرف والمرافق، ثم درج كبير الى ساحة واسعة مكشوفة فيها بركة كبيرة وحولها غرف متقابلة بينها أواوين فواحة، وهذا القسم كان للاستقبال وكان يسمى (سلاملك)، ثم مدخلان الى جناحين للحريم فيهما غرف عديدة متقابلة بينها أواوين فواحة وأرضية لساحات مبلطة بالحجارة المنقوشة الرقيقة وتسمى بلاطاً، وأظن أن بعض الغرف والأواوين مبلطة بالرخام، وأظن أن في الأواوين دك أو مصاطب حجرية للجلوس في الصيف يوضع عليها جنبيات ومساند، ولجناحه الغربي مدخل من الخارج في طريق قاطع مرتفع بين الشارع وحارة القريون كانت تسمى (حبس الدم)، وكان فيه مكان مغلق يمكن أنه كان في السابق سجناً، ويظهر أن بعضه أو السلاملك فيه حديث البناء، وكان سكنا لعبد الكريم اليوسف السليمان، وكان في فتوتي لوجه وأبرز آل سليمان بل آل عبد الهادي وايوانه مطروق عامر. أما الأجنحة الأخرى فكان يسكنها في طفولتي وشبابي فرع عبد الغني السليمان وفرع قاسم السليمان وفرع عبد الحليم السليمان، وقد كنت أتردد على دواوينهم أيضاً. وعلى نفس الشارع بعد نحو مائة وخمسين متراً أو أكثر بيت آخر لآل عبد الهادي يسكنه فرع الراغب، ولكنه ليس في ضخامة الأول، ولآل عبد الهادي بيتان آخران، واحد ضخم في حارة الياسمينة له مدخل بوابة ضخمة على الشارع أمام جامع الساطون، ثم درج كبير ثم مدخل الى سلاملك ومداخل الى أجنحة أخرى. وكان يسكنه فرع الحسين، وآخر ضخم هو الآخر في حارة القريون على الشارع الممتد بين هذه الحارة وحارة الياسمينة، ولعله أضخم بيوتهم وأوجهها، ويسكنه فرع عبد الرحيم وفرع عبد الرحمن، وله مدخل كبير نوعا ما في الشارع يدخل منه على الدرجات الى ساحة سماوية فيها غرف وأمامها أواوين فواحة، ولها دكك أو مصاطب حجرية، وهذا هو السلاملك. ثم مداخل لأجنحة أخرى للحريم فيها غرف متقابلة، وبينها أواوين ولها دكك حجرية ومساحاتها وأواوينها مبلطة ببلاط حجري، والغرف أو بعضها ببلاط رخام، وأظن أن في ساحة السلاملك حوض ماء كبير، ولآل عبد الهادي بيوتاً أخرى بالأجرة عادية يسكنها بعض أسرهم.

ولآل طوقان بيت ضخم فخم هو أكبر وأضخم أمثاله في نابلس، وبوابته الضخمة في جهته الشرقية في وسط زقاق ضخم مسقوف طوله نحو خمسين متراً وعرضه نحو عشرة أمتار، وله بوابتان واحدة على الشارع القبلي الطويل الممتد من الشرق الى الغرب، وواحدة على طريق بين حارتي القريون والغرب، وكانت بوابة الزقاق تغلق في أيام الفتن فضلاً عن بوابة البيت فيصبح البيت قلعة أو حصنا. وفي مدخل البيت أو الحصن ساحة سماوية حولها غرف للخدم والدواب، ثم درج عريض الى ساحة سماوية واسعة فيها بركة كبيرة وحولها غرف متقابلة ذات أواوين فواحة ومصاطب حجرية وهي (السلاملك)، ثم مداخل لأجنحة فيها غرف مماثلة للحريم والزقاق المسقوف المذكور يمتد نحو خمسين متراً، ثم يمتد البناء من ناحية الشرق نحو عشرة أمتار، أي أن طول جبهة الدار

من جهة الشرق نحو ستين متراً وللدار جناح غربي وله مدخل خاص في الشارع على بعد أمتار من بوابة الشارع يصعد منه بدرج الى ساحة فيها غرف أمامها ايوان فواح فيه مصاطب حجرية. ثم يذهب من الساحة الى قسم الحريم الذي يصعد عليه بدرجات. وهذا الجناح مسكن للفرع الذي يلقب (بالآغا) من بيت طوقان، أما القسم الضخم الشرقي فهو مسكن الفرع الذي كان يسمى بلقب (طوقان)، والأول كان يسمى (بالآغا) فقط، فهو الغالب ويلحق به أحياناً (طوقان)، وكان ذكور القسم الضخم يتلقبون بلقب (البيك)، والراجح أنهم من نسل الذين صارت لهم مناصب حكم في نابلس وخارجها. وعرض الزقاق كما قلنا نحو عشرة أمتار، وعرض القسمين الشرقي والغربي من المساكن لا يقل عن ثلاثين متراً غير عرض الزقاق الذي يقوم بعض الغرف والأجنحة عليه، فيكون عرض البناء أربعين وطوله ستون، أي أن هذا البناء أو الحصن كان يشغل نحو (2500) متراً مربعاً، وربما كان أكثر. وسكانه قليلون نسبياً، مع التنبيه على أن هناك أسراً أخرى يقال أنها متفرعة أصلاً من آل طوقان تسكن في بيوت عادية أخرى مثل بيت عبد الرزاق وبيت العثمان وبيت خليفة وبيت الخواجة.

وكان لآل النمر بيتان في حارة الحبلة واحد في داخلها وهو الأكبر، والذي عليه المسحة الاقطاعية بارزة أكثر، وأمامه ساحة واسعة يقوم في جانبها الشمالي بوابة كبيرة تؤدي الى غرف واسطبلات، ثم ساحة سماوية ثم غرفتان كبيرتان أمامهما ايوان فواح في مصاطب حجرية ثم حوض ماء عليه سقف، وإحدى واجهتيه مفتوحة، وحوله رصيف حجري يمكن أن يوضع عليه جنبيات ومساند للجلوس في الصيف وهذا هو (السلاملك)، ثم فيه مدخل للحريم تحتاني وفوقاني فيه أجنحة وغرف عديدة، أما البيت الثاني فهو قريب من الشارع الشمالي الطويل من الشرق إلى الغرب وأقرب إلى الشرق منه إلى الغرب، وهو أيضاً كبير وله بوابة، وفيه ساحة أرضية فيها بعض الغرف والمرافق، ثم درجات واحد إلى ساحة في غرفة كبيرة وغرفة صغيرة هي (السلاملك)، واحد الى الحريم فيه غرف عديدة.

وبيت القاسم وهو من البيوت الاقطاعية، بيتان واحد في حارة القريون وهو قديم وله بوابة وفيه مدخل فيه (سلاملك)، ثم جناحات تحتية وفوقية للحريم، وليس فيه ضخامة وفخامة البيوت الأخرى، وثان في طريق مخرج للشارع الشمالي الطويل في جهة الشرق أكثر من الغرب وقريب من المخرج، وهو حديث البناء فيه سلاملك مؤلف من غرفة كبيرة وغرفة أو اثنتان للخدم، ثم مدخل للحريم وجميعه أرضي، وله بوابة كبيرة، وكان يسكنه زعيما آل قاسم في طفولتي وفتوتي وهما أمين القاسم وعبد الهادي القاسم، والنفوذ الاقطاعي لآل قاسم، وأصل مساكنهم في قضاء جماعين وقرية سلفيت التي هي مركز قضاء جماعين.

ومن البيوت الكبيرة أكثر من غيرها من غير بيوت الإقطاعيين بيت آل التميمي، وهو قريب من الشارع الشمالي الطويل وقرب خان التجار، ويقوم على حمام عام لهم ثم على زقاقين مسقوفين، بالإضافة الى أرض أخرى يقوم عليها أيضاً، وله مدخلان واحد شرقي يدخل منه الى ساحة واسعة فيها بركة واسطبل وغرف، ثم غرفة ايوان كبيرة، وقرب مدخلها مدخل يدرج الى الطابق العلوي للحريم، وفيه غرف عديدة بين بعضها أواوين فواحة. ومدخله الغربي فيه

تحتاني، فيه غرفتان للاستقبال، ثم درج لجناح الحريم وفيه غرف عديدة. وكان الجناحان ينفذان على بعضهما ثم سدا، واستقل فرع من الأسرة في جناح وفرع ثان من الأسرة في جناح، وأقدر أن مساحة البيت المربعة لا تقل عن ألف وخمسمائة متر مربع، ولعله أكبر بيت من نوعه.

ومن البيوت الكبيرة أكثر من غيرها بيت الحاج حسن النابلسي وأولاده في حارة القريون، وبيت الحاج بدوي عاشور في آخر الشارع القبلي الطويل من جهة الغرب، وبيت الغزاوي (عبده) في مطلع حارة القسارية في الشرق قرب الشارع الكبير المتحد.

ولقد ترددت على دواوين كثيرة من البيوت التي ذكرتها، ومنها ما كنت أتردد عليه مع أبي، ومنها ما صرت أتردد عليه في شبابي، وكان لي معارف وأصدقاء من أهلها، ومنهم من تعاونت معهم في الشؤون الوطنية والسياسية والاجتماعية على ما سوف يرد في مناسباته.

حمامات نابلس وعاداتها:

ولا أستطيع أن أجزم إن كان في البيوت الإقطاعية الكبيرة حمامات خاصة أم لا، ولكن الذي أعرفه أن رجال هذه الأسر ونساءها كانوا يذهبون الى الحمامات العامة للاستحمام.

ولقد كان في نابلس حمامات عامة عديدة في طفولتي وشبابي ممتدة الى ما قبلها وتكاد تكون متماثلة في تخطيط بنائها. وهي حمام (الدرج)، ولعلها سميت بذلك لأن في جانبها درج طويل يذهب منه الى حارة العقبة، ويدخل من بابها الى قاعة واسعة ذات سقف عال مقبب ومضيئة، وحولها مصاطب حجرية، وفي جدران الأرضية تجاويف لوضع الأحذية. وفي وسطها بركة كبيرة نوعاً، وهذه القاعة هي (المشلح الصيفي)، ويدخل منها الى قاعة أضيق ومعتمة، وينفذ اليها الضوء في النهار من ثقوب في السقف مغطاة بقطع الزجاج السميك، وحولها مصاطب حجرية، وهذه هي (المشلح الشتوي)، ثم يدخل منه الى داخل الحمام، وفيه غرف صغيرة عديدة حول ساحة فيها أواوين فواحة، وفي الغرف والساحة أجران حجرية أو مرمرية ينزل اليها الماء الساخن والبارد من مجار في الجدران، وهذه الغرف والساحة مقببة أيضاً، وينفذ اليها الضوء في النهار من ثقوب في سقوفها مغطاة بقطع الزجاج السميك كذلك. وفي صدر داخل الحمام بناء بابه فتحة ضيقة مرتفعة، وفيه مرجل نحاسي تشعل تحته النار من (الزبل) من مكان خارج الحمام يسمى (القميم)، ويجري إليه الماء البارد من قناة، ثم تجري منه المياه الساخنة في أقنية الأجران، وهذا هو تخطيط الحمامات بصورة عامة. وحمام (الخليلي) وهي في طريق يخرج من الشارع الشرقي ممتد الى حارة الحبلة، وقد تعطلت في فتوتي واهملت. وحمام (بيدره) وهي في الشارع القبلي الطويل، ولها بوابتان ومشلحها الصيفي مرتفع وعلى أعمدة. ويبدو أن هذه الحمامات قديمة نوعاً. وحمام (الريش) وهي على نفس الشارع من جانبه القبلي وبعيدة عن حمام (بيدرة) بنحو عشرين متراً، وتبدو أنها أجد أو جدد مدخلها. وحمام (التميمي) تحت دار التميمي، ولها باب فخم ومشلحها الصيفي يقوم على أعمدة وهي قريبة من الشارع الشمالي الطويل، يدخل منه اليها بدهليز، وقرب خان التجار. وحمام (القاضي) وهي على الشارع القبلي الطويل قرب بيت الآغا طوقان. وحمام (الساطون) وهي في نهاية حارة القريون التي تبدأ بها حارة الياسمينة وقرب جامع الساطون.

وكانت الحمامات تفتح للرجال من الفجر الى الظهر، ثم تكون للنساء، وكان بعضها يخصص يوماً بطوله للرجال فيكون فرصة لمن لا يستطيع أن يأتي قبل الظهر.

وفي أوقات الرجال كانت المصاطب تفرش بالجنبيات القطنية والقشية ثم تغطي بمناشف وشراشف ووراءها المساند، ويرفع كل ذلك في أوقات النساء حيث يأتين بأبسطة صغيرة يفرشنها على المصاطب.

والرجال يأخذون معهم ثياباً داخلية نظيفة فقط، أما المناشف و(الوزرات) وهذه الكلمة اسم لخرقة سميكة مقلمة تعطى للرجال ليستروا بها نصفهم التحتاني وقت الاغتسال، فكانت الحمامات تقدمها، وكان بعض الوجهاء والمتأنقين يأتون من بيوتهم بمناشفهم ووزراتهم الخاصة في (بقج)، والبقجة قطعة نسيج سميك مربعة توضع الأغراض فيها وتلف أطرافها الأربعة عليها فتصبح (صرة) مربعة.

أما النساء فيأتين بمناشفهن ووزراتهن الخاصة مع ثيابهن الداخلية والخارجية، ومعهن كذلك أبسطتهن (جمع بساط)، يسمونه بساط الحمام لفرشها على المصطبة العارية، وكانت الأنيقات والموسرات يتأنقن (بالبقج) التي يصررن بها ثيابهن ومناشفهن، فتكون من المخمل أو الحرير الملون المطرز بأنواع من التطريز.

وكان خدم الحمام يقفون أمام الرجال حينما (يشلحون)ثيابهم، فيلفون قسمهم التحتاني بمنشفة والفوقاني بأخرى، ورؤوسهم بثالثة، ويقدمون لهم القباقيب الخشبية ويرافقونهم الى الداخل حيث يخلعون عنهم المناشف ويضعون على قسمهم التحتاني الوزرات، ومن الرجال وبخاصة الفقراء من يغسل نفسه بنفسه بصابونة وليفة منه أو من الحمام، بعضهم من يغسله المغسّل فيفرك جلده بالكيس بعد مكث قليل على بلاط الحمام الحار أو على مصطبة (للعرق)، وبعد المدلّك يدخل الخلوة ويجلس حول الجرن فيها أو حول جرن في الساحة فيغسله المغسّل. ويكون في جانب الأجران طاسات نحاسية صغيرة مسطحة كالصحن، فيغرف الرجل بها الماء من الجرن ويصبه على نفسه. وبعض الحمامات يربطون هذه الطاسات بسلسلة بالحائط حيث يخافون على ما يظهر أن تسرق، وبعد الانتهاء يأتي الخادم بالمناشف فيلف واحدة منها على وسط الرجل التحتاني وأخرى على القسم الفوقاني وثالثة على رأسه ويرافقه الى المشلح، وهنا يغير له المناشف. وقد تغير المناشف أكثر من مرة، وكان يراد تكريمهم أو يطمع بهم.

وكان الخدم وأصحاب الحمامات الذين يسمون باسم المعلم يعلقون المناشف والوزرات على حبال منصوبة في سقوف المشالح لتنشف بعد التنشف بها، ثم يسحبونها للتنشف بها ثانية بعد أن تكون قد جفت، ويستعملون في التعليق والسحب قصبات بوص طويلة ببراعة، وتقدم الحمامات لمن يريد القهوة أو الشاي والليمونادة بعد الاغتسال.

ولم يكن أجر الاغتسال محدداً، وانما كان كما يقال (على المروءة) واجرة الحمام غير أجرة المغسّل، وأقل أجرة لكل منهما كانت قرشاً، والقرش، هو جزء من (125) جزءاً من الليرة الذهبية العثمانية[1] وطبعاً كان هناك من يدفع

---

(1) قيمة الليرة العثمانية الرسمية (100) وهذا يقال له صاغ أو مليم ولكنها في السوق كانت بمائة وخمسة وعشرين قرشاً ويقال لها (شوررلا) والكلمة ضد (مليم).

ضعف هذا بل أضعافه.

وأكثر النساء كن يغسلن أنفسهن بأيديهن والموسرات والوجيهات تغسّلهن غسالات، وعلى من لا يغسله مغسّل أن يدفع أجرة الحمام لصاحبه وحسب. وكان صاحب الحمام في أوقات الرجال، وامرأته أو أمه أو أخته في أوقات النساء. والمغسّلات هنا على الأغلب قابلات ومولدات ويسمين (دايات)[2]، ولكل أسرة أو امرأة قابلتها أو (دايتها). وكانت حمامات النساء محرمة على الصبيان اذا ما بلغت أعمارهم السابعة فما فوق، ويقضي الرجال ساعة أو ساعة ونصفاً على الأكثر في الحمام، أما النساء فمعظمهن يقضين طيلة بعد الظهر أي عدة ساعات، وقد يبقين الى ما بعد الغروب، ويأخذن معهن طعاماً متنوعاً، ومنهن من تأتي (بأركيلتها) وجهاز قهوتها، ومنهن من تأتي بالدربكة ويغنين أدواراً وأغاني جماعية، وتغني صاحبات الصوت الجميل وينقرن على الدربكة أو على طاساتهن ويصفقن بأيديهن، وهكذا تكون فرصة الحمام للنساء نزهة وتسلية بل عرساً.

والشائبات (كبيرات السن) يصبغن شعر رؤوسهن بمجبول الحناء فيصبح شعرهن أشقر أو أسود حسب قوة الحناء ونوعها، والفقيرات يأتين ببعض غسيلهن ويغسلنه في الحمام مع الثياب التي تكون عليهن أيضاً. وفترات الذهاب للحمام مختلفة باختلاف الناس، فمنهم من يذهب مرتين في الشهر، ومنهم من يذهب مرة واحدة بنوع خاص بالنسبة للنساء، حيث كن يذهبن في الغالب بعد الطهر من الحيض، وأغلب النساء يغسلن ثياب الأسرة وملاحفها وشراشفها، وما يحسن غسله قبل يوم الحمام أو في صباحه، وكن يغسلن في أطباق عميقة واسعة من الفخار تسمى (سفل)، تصنع في الفواخير أو يصنعها القرويات، فيجلسن وراءها على الأرض أو على مقاعد صغيرة من الخشب تسمى مفارم، ثم صار الموسرون والوجهاء يغسلون في أطباق كبيرة من النحاس.

وكان الفقراء يستعملون في غسيلهم أو في المرة الأولى (وكانوا يسمونها التم الأول) صابوناً مزيجاً من الصابون والطين الأحمر يسمونه (جلز)، ويكون خشناً فيحت الوسخ ثم يغسلون الغسيل (تماً) ثانياً بالصابون، وبعض البيوت يصنعون قطع الصابون بأيديهم، ويسمون هذه القطع من الصابون الصرف جلزا أيضاً، حيث كان أصحاب المصابن يهدون أصدقاءهم وأقاربهم وبعض الأسر الفقيرة التي لهم صلة ما بها حينما يطبخون طبخات الصابون بعض الصابون اللزج قبل نشفانه من مخامر من الخشب، فتقطع الأسر هذا اللزج قطعاً ثم تعرض للهواء فتجف وتستعمل.

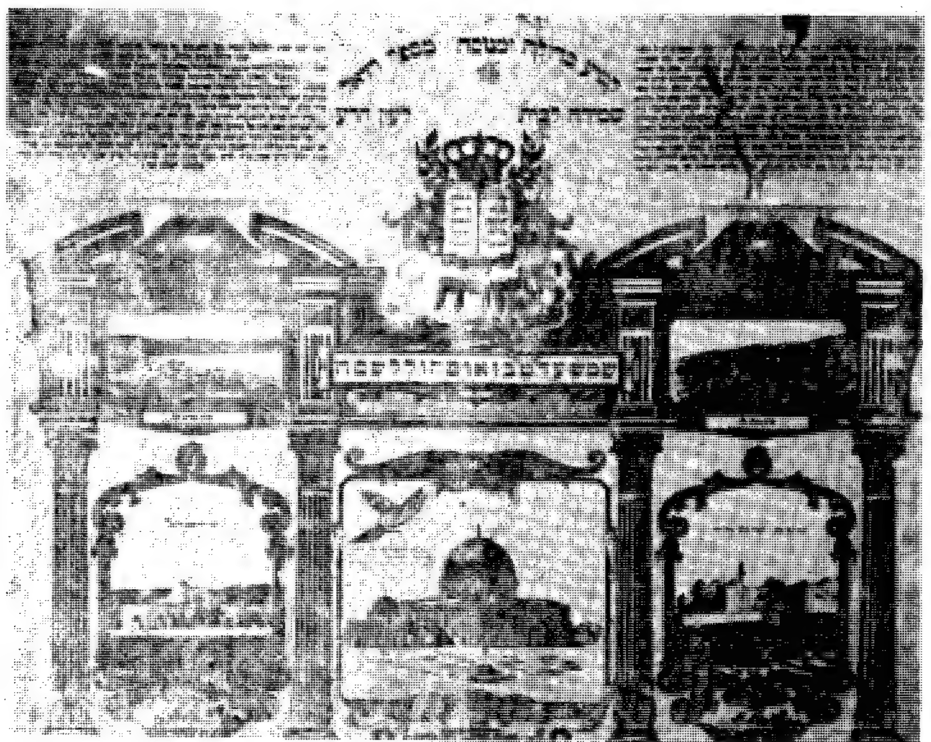
مساجد نابلس:

وفي نابلس مساجد عديدة وأكبرها هو ما يسمى الجامع الكبير في الشرق، وعند بوابته يفترق الشارعان الطويلان الجنوبي والشمالي، وأمام البوابة يتحدان ويكونان شارعاً واحداً الى بوابة المدينة الشرقية، وجداره الشمالي على الشارع الشمالي والجنوبي على الشارع الجنوبي، وربما بلغ طوله من هذه البوابة الى آخر مرافقه وملحقاتها التي هي الميضأة وما يسمى المرستان، وهو جامع صغير ملحق نحو مائة وخمسين متراً، وعرضه نحو أربعين متراً،

(2) داية كلمة تركية معناها خالة.



صورة وضعها اليهود للمسجد الأقصى المبارك وفوقه الكلمات والرسوم العبرانية والشعار اليهودي .



مطامع اليهود في فلسطين والمسجد الأقصى وقبة الصخرة صورة وصفها اليهود لمواقع فلسطينية والمسجد الأقصى وقبة الصخرة تجسيداً لمطامعهم وفوقها كلمات ورسوم عبرانية والشعار اليهودي .

والبوابة قد تدل على أنه قديم بعض الشيء. وبعد البوابة ساحة فيها بركة ماء ورواق وقسم مكشوف، ثم يدخل الى حرمه بدرجتين. وحرمه كان يقوم على عضائد مبنية مستور فيها بعض الأعمدة، وكان في آخر الحرم مصطبة مرتفعة. وللجامع عندها بوابة أخرى هي بوابته الغربية الشمالية، وخارج الحرم للشمال ساحة فيها حوضان للوضوء. وقسم منها مستور وقسم منها مكشوف، وفي وسط الساحة بوابة ثالثة كبيرة على الشارع الشمالي الطويل، وفي طرف هذه الساحة الشرقي غرفة للإمام، وعلى طرفها الشمالي غرفة أخرى للأئمة، ويصعد من هذه الساحة بدرج الى المئذنة من ناحية والى غرف أخرى فوق الغرف المذكورة. منها غرفة كبيرة للمدرس. وغرف صغيرة لطلاب العلم الديني من القرى يبيتون فيها. وبين هذا البناء وبين الحرم والساحات ممر بين الشارع القبلي والشارع الشمالي فيه عين ماء يسمى الكأس، يملأ الناس جرارهم والسقاؤون قربهم منها، وفي غرب الممر الميضأة من جهة الجنوب وجامع صغير ملحق يسمى المرستان. وكلمة مرستان فارسية تعني محل مختلي العقل، وكانت تطلق على المستشفيات. وفي هذا الملحق رواق مستور فيه محراب، ورواق مفتوح وبركة ماء تحت سقف وغرفة الأئمة الحنابلة، وقبل مدخل المرستان مطلع بدرج الى غرف صغيرة عديدة مبنية على بعض جوانب المرستان لطلاب العلم القرويين، وكان المصلون يتوضؤون من برك المسجد بالغرف ويتسخ ماؤها، فصنع مأمور الأوقاف الحاج نمر حماد على إحدى البرك بركة عالية ووضع على دوائرها حنفيات وأمام الحنفيات حجارة جلوس ومجار للماء الوسخ، فصار الناس يتوضؤون من الحنفيات، ولما استلمت مأمورية الأوقاف سنة 1927 بعده عملت حنفيات على دائرة البركة الثانية ثم على دوائر برك المساجد الأخرى التي كان المصلون يتوضؤون منها بالغرف وتتسخ مياهها نتيجة للوضوء.

هذه حالة المسجد وما كان عليه في فتوتي وشبابي، وقد أدخل على حرمه بعض الاصلاحات، ويظهر أن مستوى الأرض من شرق الجامع صارت أعلى من حرمه. فصار ينزل الى هذا الحرم بدرجات، وبقي مستواها في مستوى الحرم في الناحية الشمالية منه، وفي آخرها صار المستوى أوطأ، فصار يصعد الى الممر بدرجات. ويسمى الجامع باسم الجامع العمري أيضاً ولا أعرف سبب التسمية، وأستبعد أن يكون مبنى في أيام الفتح الإسلامي الأول، ولكن ربما كان مسجد قديم في زمن الفتح فانهدم فبني فيما بعد هذا المسجد مكانه.

وعلى بعد نحو مائة وخمسين متراً من الجامع الكبير الجامع المسمى بجامع النصر، وهو أيضاً وسط الشارعين مثل الجامع الكبير، ولكن جداره القبلي فقط في الشارع القبلي ولا حوانيت فيه، أما جداره الشمالي فمتصل بأبنية أخرى تقع وراء الشارع الشمالي الطويل، وأمام الجامع ساحة كبيرة فيها منارة تذكارية عثمانية حديثة البناء، وفي رأسها ساعة كبيرة، وفي الجانب الشرقي من الساحة بعض حوانيت جديدة أيضا، ومن جملتها حانوت كبير يستعمل كمقهى. وحرم هذا الجامع ينزل اليه من البوابات الثلاثة الشرقية والغربية والشمالية بدرجات عديدة، فهو أعمق من مستوى الأرض بنحو ثلاثة أو أربعة أمتار، وقد يدل هذا على أن مستوى الأرض ارتفع عن مستوى الحرم لأن المعقول أنه كان في مستوى الأرض حين بنائه.

ويبلغ طول الحرم نحو خمسين متراً وعرضه نحو خمسة وعشرين، وله ملحق في جانبه الشمالي في مستوى الأرض فيه قاعة كبيرة تسمى مسجد البكري بمحراب، وفيها درج ينزل منه الى الحرم، ولها باب أمامه ساحة مسقوفة كرواق وكساحة مكشوفة عليها جدار، وفي الساحة المسقوفة باب للحرم ينزل اليه بدرجات عديدة، وفيه باب آخر الى سدة علوية داخل الحرم في نحو عشرين متراً طولاً وثلاثة أمتار عرضاً. وقد قامت على عضائد في أرض الحرم، وهيأة الملحق تدل على انه جديد، وربما لا يعود إلى أكثر من مائة سنة، وأرجح أن السدة الداخلية جديدة مثله. وفي الجانب الغربي الشمالي من هذا الملحق مدخل مكشوف للمسجد في مستوى الأرض، وعلى جانبه غرفة للمدرس والإمام، ثم حوض ماء تحت السقف للوضوء. وفي جانبها درج يصعد منه الى المئذنة التي قامت على سطح هذا السقف، وفي الجانب الشرقي الشمالي الميضأة ومدخلها من الخارج وهي وراء جدار الملحق، ولا أعرف سبب تسميته بجامع النصر.

وبدلالة عمق حرمه عن مستوى الأرض ممكن أن يكون قد بني قبل بضع مئات من السنين، ويمكن أن يكون بني بعد الانتصار في الحرب الصليبية فسمي باسمه. وقد تصدع المسجد وهدم بعض جوانبه في زلزال عام 1927 وكنت إذ ذاك قد توليت إدارة أوقاف نابلس، فأتممت هدمه وبنيت على أرضه القبلية والشرقية والغربية مخازن، ثم درج الى سطحها الذي عزمنا على إنشاء المسجد فوقه، وقد تم ذلك بعد خروجي من فلسطين.

وعلى بعد نحو خمسين مترا من جامع النصر يأتي الجامع المسمى بجامع البيك، وجداره القبلي في الشارع القبلي الطويل، وأمامه سوق قاطع بين الشارعين الشمالي والقبلي الطويلين. أما جداره الشمالي فمتصل ببنايات يأتي بعدها الشارع الطويل الثاني وله بابان: باب للحرم مباشرة وباب لساحة بعضها مكشوف وعلى بعضها رواق. ويمكن أن يكون طول الحرم والساحة أيضاً ـ لأنهما متوازيان ـ نحو ثلاثين متراً، أما عرض الحرم فيمكن أن يكون 20 أو 25 مترا، وعرض الساحة أقل قليلا، وفي جانب من الساحة حوض ماء الوضوء مسقوف. وفي جانب آخره غرفة للامام والمدرس، وفي جانب باب الساحة من السوق مطلع الى غرف صغيرة للطلاب الدينيين القرويين مثل ما في الجامع الكبير. والمئذنة بعد هذه الغرف، وفي الرواق باب للحرم. وميضأة الجامع منفصلة عنه، فهي في الجانب الشرقي من السوق القاطع.

والراجح أن هذا المسجد بني في عهد غير بعيد ربما لا يعود الى أكثر من مئة وخمسين سنة، وهيأته تدل على ذلك، ويمكن أن يكون أحد زعماء آل طوقان الذين كانوا يلقبون بلقب البيك قد بناه من ماله فسمي باسم (البيك).

وعلى بعد نحو خمسين متراً من جامع البيك الجامع المعروف بجامع الحنبلي، وأمامه من جهة الشرق سوق قاطع بين الشارعين الطويلين، وله باب منه، وله باب آخر في الشارع الشمالي الطويل، وعلى جوانب جداره من هذا الشارع حوانيت من شرق الباب وغربه، أما جدرانه القبلية فمتصلة بأبنية عديدة يأتي بعدها الشارع القبلي الطويل. وطول حرم هذا الجامع وعرضه مثل طول وعرض حرم جامع البيك. وأمام الحرم ساحة قسم منها مكشوف وقسم منها برواق، وفي جانب الرواق غرفة للامام والمدرس، وفي جانب من الساحة

حوض للوضوء، ومن الرواق درج للمئذنة، وفي الرواق بابان للحرم، ويبدو شبه كبير بينه وبين جامع البيك باستثناء غرف الطلاب، فليس فيه غرف مثله، ولعل أحدهما نسخ عن الآخر، وميضأة الجامع منفصلة أيضاً مثل جامع البيك، وهي في الشارع الشمالي من ناحيته الشمالية، وأئمة هذا الجامع وسدنته من آل الحنبلي، وتسميته من ذلك على ما أظن، وهيئته تدل على عدم قدمه كثيراً، ولا أدري هل كان له اسم آخر ثم غلب اسم أسرة أئمته وسدنته عليه.

وبعد نهاية الشارع القبلي الطويل قنطرة هي بمثابة بوابة للمدينة، ويأتي بعدها مسجد يسمى جامع الخضر[1]، (وقد اشتهر بمسجد عاشور)، وهو حديث بناه الحاج بدوي عاشور الوجيه الثري قرب بيته الذي هو في جوار القنطرة، وهو حرم وطوله نحو 15 متراً أكثر قليلاً وعرضه كذلك، وله باب واحد شمال الشارع. وفي قرنة منه محل للوضوء ومرقاة للمئذنة، وفي جانب جداره من الخارج ميضأة صغيرة. والمسجد ملاصق لدير البروتستانت، ويجوز أن يكون الدير أقدم منه وان يكون باني المسجد بناه حتى يكون بيته مجاوراً لمسجد لا لدير.

وبالإضافة الى هذه المساجد في امتداد الشارعين الطويلين هناك مساجد أخرى في الحارات، ومنها في حارة القريون مسجد يسمى جامع التينة، وهو يأتي في الطريق من الشمال الى الجنوب قبل القريون، وله حرم وساحة مكشوف بعضها، وعلى بعضها رواق فيه باب للحرم. والحرم في نحو عشرين متراً طولاً وخمسة عشر عرضاً، ومن فوقه غرفة الى الامام يدخل إليها من الخارج، وحوض ماء جانب الساحة من ناحية الباب، وينزل اليه بدرج في عمق نحو أربعة أمتار أو خمسة لأن ماءه يأتي من القريون، وعين القريون عميقة كما ذكرنا قبل، وعمق مكان الحوض أقل من عمق مكان عين القريون لأن الأرض تنحدر من أعلى الى أسفل، وهيأة المسجد تدل على أنه حديث البناء أي قبل نحو مائة سنة.

وفي نهاية حارة القريون غرباً مسجد اسمه جامع الساطون، ولا أعرف من أين التسمية، وله حرم وساحة يدخل للحرم من باب ناحية الشرق، ويدخل إلى الساحة من باب من ناحية الشمال، والباب الأول وجداره على شارع طويل ممتد من ناحية عين العسل مع شيء من التعرض الى الشارع الطويل القبلي، وينتهي في المكان المسمى بالمصلبة الذي ذكرناه قبل، وطول حرمه نحو خمسة وعشرين مترا وعرضه نحو خمسة عشر وطول ساحته نحو عشرين في عشرة، وقسم منها مكشوف وقسم عليه رواق فيه باب الى الحرم. وميضأة المسجد في جانب جداره الشمالي، ومدخلها من الخارج، ومئذنته تقوم على جانب من سطح الرواق. ولم أعد أذكر إن كان في المسجد غرفة للإمام والمدرس ولكن أرجح ذلك.

وفي نهاية الشارع لجهة الغرب زاوية اسمها

---

(1) الراجح أن هذا المكان كان زاوية للخضر فحوّل الى مسجد. والخضر شخصية غير معروفة الهوية بصورة يقينية ويقال إنه نبي ويقال إنه العبد الصالح الذي وردت قصته مع موسى عليهما السلام في سورة الكهف، ويقال إنه من رجال ذي القرنين دخل معه بلاد الصين ووجد عيناً اسمها عين الحياة فشرب منها فكتب له البقاء بلا موت الى آخر الحياة. وله زوايا عديدة في البلاد الاسلامية. وفي بعض المدن اكثر من زاوية فيها محراب وليس فيها قبر. وفي نابلس، في حارة القيسارية مقام أو زاوية باسم زاوية الخضر وفي حارةالياسمينة مقام اسمه (الخضرة) والراجح أنها من هذا الباب أيضاً اهـ قلت: انظر «الزهر النضر في نبأ الخضر» للحافظ ابن حجر العسقلاني (م).

مسجد الخضرة فيها مقام يتبرك به وتذهب النساء للدعاء عنده للحبل، وهو في غرفة، وفي جانب منها رواق فيه محراب وله مئذنة، وهذا ما جعلنا نسلكه في المسلك، ويدخل اليه في مدخل طويل المقام في جانبه، وفيه مسكن للسدنة وهم من آل شرف، وفي المقام يحفظ بيارق وطبول لطريقة أظن أنها الرفاعية، والسدنة هم مشايخها، وسمعت ان النساء والفلاحين يراجعونهم ويأخذون منهم حجباً.

وفي حارة الحبلة من ناحيتها الشرقية الشمالية وقرب بوابتها للبر مسجد يسمى جامع الأنبياء، ويدخل اليه من باب شمالي الى ساحة مكشوفة، ثم رواق مسقوف فيه محراب، وليس له حرم، وفي جانب الرواق للغرب غرفتان فيهما ثلاثة قبور كتب عليها اسماء ثلاثة أولاد من أولاد يعقوب عليه السلام لم أعد أذكرها، ومن هنا جاءت التسمية لأن أولاد يعقوب هم الأسباط الذين تفيد النصوص القرآنية أنهم أنبياء، ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحي الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسحق ويعقوب والأسباط﴾ سورة النساء. وفي مدخله لناحية الغرب غرفة لقيّم المسجد وسدنته من بيت فيضي، والناس يأتون لزيارة الأنبياء والتبرك بهم ويعطون بعض الصدقات للسادن، وفي المدخل لجهة الشرق بئر ماء وهو أحد آبار القناة الطولية الأرضية التي ذكرنا خبرها قبل، وعليه فرزة وبكرة ودلو، ثم تأتي المنارة، وليس لهذا المسجد منبر وقد لا يكون تسميته جامعاً صحيحاً، بل هو مقام لقبور الأنبياء في جنبه رواق فيه محراب، وهذا شأن مسجد الخضرة أيضاً.

وفي شرق المدينة وخارجها مقام آخر عند سفح الجبل القبلي اسمه (العامود)، فيه ساحة مكشوفة وأمامها رواق مسقوف فيه محراب، وفي جانبها غرف قبور يقال أنهم لأنبياء أو شهداء، غير معروفي الهوية والأسماء، والناس يذهبون لزيارتهم وينذرون لهم، ويذبحون القرابين ويأكلونها عندهم. وفيه غرفة على باب المدخل للسدنة، وفيه شبه حديقة فيها قبور بعض آل طوقان، وفيه بئر ماء مطر، وسدنة المقام أسرة تعرف باسم العامودي، وسمعت أن النساء والفلاحين يراجعون ويأخذون حجباً منهم أيضاً.

وما دمنا ذكرنا هذه الأماكن فلا بأس من ذكر أماكن من بابها في قلب المدينة، ففي الشارع القبلي الطويل زاوية تعرف بزاوية الكيلاني كانت في يد بعض بني زيد، فيها قاعة ومحراب بدون قبور، وهي بين جامع النصر والجامع الكبير. وزاوية تسمى زاوية الشيخ بدران في الشارع نفسه في جانبه الشمالي قرب جامع البيك فيها قاعة ومحراب، وفي جانبها قبر لرجل صالح يقرأ الناس عنده الفاتحة ويعلقون شرائط على شباكه، وكانت القاعة في طفولتي كتاباً لشيخ اسمه الشيخ سعود العكر. وزاوية ثالثة في الشارع نفسه على جانبه القبلي قرب ملتقى شارع المصلبة، فيها قبر لصالح وقاعة فيها محراب، وكانت هي الأخرى في طفولتي كتّاباً. وزاوية رابعة في حارة القسارية قرب بيتنا، وهي قاعة بدون قبر تعرف بمقام الخضر وفيها محراب. وكانت في طفولتي كتّابا لشيخ اسمه الشيخ ابراهيم الدرويش. وزاوية خامسة قرب مخرج الشارع الشمالي لجهة البئر تسمى زاوية سعد الدين، فيها ساحة مكشوفة ثم رواق فيه محراب، وكانت في يد شيخ من دار سعد الدين، وكان فيها بيارق وطبول للطريقة السعدية، وكان الفلاحون يأتون الى الشيخ

فيكتب لهم حجبا. وفي الزاوية غرفة سرداب في عمق الأرض ينزل اليها بدرج كان يحبس فيها المجانين والمصروعين يؤتى بهم من القرى للشيخ فيقيدهم ويسوقهم لأجل اخراج الجن منهم، وكان الشيخ يلف عمة صوفية بيضاء على طربوش مغربي ويجلس على دكة من الخشب في وسط القاعة، فيأتي الفلاحون فيقبلون يده ويجلسون تحته ليكتب لهم الحجب. وفي طريق مسجد الأنبياء زاوية أو مقام باسم (الشيخ مسلم) ينزل اليه بدرجات، فيه قبر له شاهد معمم بلون أخضر يسمونه الشيخ مسلم، وفي جواره بيت اسرة الصمادي، ويقال انه جدهم. والله أعلم.

وفي ذروة من الجبل الشمالي مقام عماد الدين، وهو بناء مسور فيه ساحة سماوية فيها بئر ماء ورواق مسقوف وغرفة فيها قبر يقال أنه لقائد اسلامي في الحروب الصليبية اسمه عماد الدين وغرفة جانبية للزوار، ويزور الناس المقام وينذروا له. وتذبح ذبائحهم ويطبخونها ويأكلونها. وفي ذورة من الجبل القبلي مقام الشيخ غانم، وهو بناء يصعد اليه بدرج فيه غرفة للزوار وأخرى فيها قبر لصالح بهذا الاسم، والمكان الذي فيه هذا المقام في المنطقة التي يقيم السامريون فيها عيد فصحهم السنوي، ويقيمون فيها تحت الخيام اسبوعاً أو اسبوعين في الربيع حيث يكون وقت هذا العيد، وهم يعتقدون بقدسية هذا الجبل دون قدسية هيكل سليمان في القدس، وكان لهم في القديم معبد عليه تهدم ولم يقم غيره، وفي الجبل بعض آثار يقال بأنها آثاره.

ولقد أنشيء بعد خروجي من نابلس مساجد أخرى منها مسجد أنشأه المرحوم الحاج نمر النابلسي خارج المدينة في ناحيتها الشمالية الشرقية، ومنها مسجد أنشأته الحاجة عفيفة ملحس في سفح الجبل الشمالي قرب بيت أبيها، وقد زرت المسجدين حينما زرت نابلس سنة 1964 وصليت فيهما. والأول واسع نوعاً ومبني بناء حسناً طول حرمه نحو 25 متراً وعرضه 15 وأمامه ساحة، وفي جانب هذه الساحة قبر الحاج نمر، وله منبر ومئذنة وتقوم فيه صلاة الجمعة، والثاني صغير يمكن أن يكون طوله 15 متراً وعرضه 10 أمتار، وفيه كذلك منبر ومئذنة وتقام فيه صلاة الجمعة أيضاً. ومنها مسجد أقامه للحاج معزوز المصري.

فرش المساجد وإضاءتها :

وحرم المساجد التي تقام فيها الجمعة تفرش في الشتاء بالسجاجيد وفي الصيف بالحصر، وساحاتها المكشوفة تفرش في غير وقت المطر. وفي الصيف يصلي فيها الناس بدلاً من الداخل، وغالباً ما يصلون على بلاطها.

وكانت المساجد تضاء بزيت الزيتون، حيث يعلق في سقوفها دوائر حديدية فيها أماكن توضع فيه سرج زجاجية صغيرة يملأ نصفها بالماء والنصف الآخر بالزيت، ويوضع فيه فتائل قطنية، وقبيل المغرب يدور أحد خدمة المسجد على الدوائر وعلى كتفه سلم خشبي أي ثلاث ركائز، وفي يده مشعل بالزيت فيشعل به السرج. وبعد أداء صلاة العشاء يدور وفي يده عصاة منقورة فينفخ فيها على السرج ويطفئها، ويفعل مثل ذلك قبيل الفجر. وفي بعض الدوائر الحديدية عشر سرج، وفي بعضها أقل، وكان يوضع شمعات غليظة اسطوانية بطول متر أو أكثر في جانبي المحاريب لإشعالها في المواسم والأعياد، وظل الأمر كذلك شطراً في طفولتي وشطراً من فتوتي، ثم استبدل به بإشعال

المصفى النفطي المسمى (كازاً)، وكانوا يأتون بأجهزة زجاجية ومعدنية من أجله متنوعة الحجوم وقوة الإضاءة، فتعلق في سقوف المساجد. الى أن صارت الكهرباء تعم وصارت تضيء المساجد بدلاً منه.

معابد النصارى والسامريين في نابلس :

والشيء بالشيء يذكر، فقد كان للنصارى الأرثوذكس كنيسة في الناحية الغربية من الشارع الطويل القبلي، وكان أيضاً في امتداد هذا الشارع بعد بوابة عاشور وفي القسم الجديد من عمارات المدينة دير أو كنيسة للبروتستانت، وكان وراء حارة الغرب خارج المدينة دير أو كنيسة للاتين متصل بالبساتين شمالاً، وقد هدم هذا الدير لأنه صار في وسط شارع جديد عامر. وكان هذا الهدم متأخراً وأنا بعيد عن نابلس، وقد أقامت الطائفة اللاتينية لها ديراً آخر. أما السامريون فالذي أذكره أنهم كانوا يتخذون غرفة في دار كاهنهم كنيساً للصلاة العامة في حيهم القديم في حارة الياسمينة، وقد أقاموا كنيساً خاصاً بهم في حيهم الجديد خارج المدينة.

بيوت ومساجد القرى:

واستطراداً من ذكر بيوت ومساجد نابلس المدينة، أذكر أني زرت في فتوتي وشبابي قرى كثيرة من قرى نابلس وغيرها. وكان معظمها من الطين المخلوط بالتبن والكلس والحور أحياناً. ويسور الفلاح على قطعة أرض سوراً يعلو مترين بالطين ويجعل فيه باباً كبيراً له باب من خشب مزلاجه من خشب أيضاً، وفي ركن من أركان هذا السور يبني غرفة أو اثنتين أو ثلاثاً من الطين المذكور، ويسقفها بسعف الشجر على أعمدة من الشجر، ثم يغطي السطح بالطين أيضاً ويترك لكل غرفة فتحة شباك في أعلاها ويترك في جدران كل غرفة فجوات لوضع الأغراض البيتية، ويجعل قبواً تحت الغرف مدخله من الداخل للحمار أو (الكديش) أو البقرة، وبعض الغنمات يداريها بخاصة في الشتاء. وفي ركن آخر من السور قبة اسطوانية من الطين صغيرة لها شق كمدخل هي الطابون الذي يخبز الفلاح فيه عجينه، ويسخن الطابون بنار من القش وروث الدواب بعد تجفيفه.

والقرى التي لا يكون فيها عين ماء نبع يحفر الفلاح في أرض سوره حفرة مكلسة بطين فخاري لتكون مجمع ماء الشتاء ليشرب هو وأسرته ودوابه منه. ولم يكن في هذه البيوت كنف لقضاء الحاجة فيقضي أهلها حاجتهم في أطراف السور أو خارجه. ولم يكن في القرى شوارع بطبيعة الحال، وانما طرق ترابية، وأسوار البيوت متلاصقة وأبوابها متقابلة، والميسورون فقط هم الذين يبنون بيوتاً حجرية على طريقة نابلس غرف أمامها أواوين، وفي كل قرية زرتها رأيت بيوتاً حجرية عديدة، ومنها ما هو بطابق ومنها ما هو بطابقين، ولكنها على نفس الطريقة. ويكون لها أبواب وشبابيك حسنة مثل المدينة نوعاً ما، ويكون فيها كنف لقضاء الحاجة بدون مجار، لها حفرة تحت المرحاض تنظف من حين الى حين، وكان في كل قرية مسجد بشكل ما، ومن هذه المساجد ما يكون زاوية أو محل قبر رجل صالح في جانب مساحة مكشوفة بعضها مسقوف وبعضها هو المسجد، وأكثرها مبني بالحجر، وفي ساحة المسجد بئر شتاء وعليه دلو لتناول الماء، وتغطى بعض ساحة المسجد بالحصر، وفيه مصباح للضوء في العتمة.

ومن القرى التي زرتها ما يبلغ عدد أهلها 2000 و3000 مثل طوباس وعنبتا وقباطية وأم

الفحم. أما باقيها فالعدد يتراوح بين الثلاثمائة وألف، وكان يوجد في كل قرية حانوت أو أكثر حسب حجمها يبيع أصحابها أشياء متنوعة مما يحتاج اليه أهل القرية بصورة عاجلة، وهم يجلبون معظم ما يحتاجون اليه من أكسية وغيرها من المدن بأنفسهم على الأعم الأغلب.

مشايخ وعلماء نابلس الدّينيون :

لقد وعينا ورأينا في طفولتنا وفتوتنا الأولى ثم في شبابنا عدداً غير يسير من المشايخ وعلماء الدين في نابلس، كان كثير منهم ذوي وظائف في المساجد.

ومن أقدم ما نذكر في طفولتنا الشيخ أمين أبو الهدى مفتي نابلس، وكان مشرق الوجه أبيض بشوشاً ذا لحية بيضاء كثة مربوعاً وله عمامة كبيرة بيضاء على طربوش مغربي. وكان له اسم وحرمة وهيبة. ومثله في كل هذا الشيخ عباس الخماش إلا أنه كان أطول منه، وكان الإثنان متنافسين في البروز في مجتمع نابلس ولدى السلطات، والثاني كان سياسياً وله زعامة سياسية. ولما مات الأول ترشح الثاني للافتاء فلم يوفق لاعتبارات سياسية محلية وحكومية، وعين للافتاء الشيخ حسين هاشم، وكان في نابلس بعض الأحداث في صدد هذه المسألة سنشرحها فيما بعد، وقد خلّف الأول ابناً اسمه ابراهيم من جيلنا، ولما كبر اعتمر العمامة وتمشيخ، وكان أديباً وخطيباً واشتغل في التعليم، وكان للأول ايضاً أخ اسمه الشيخ مكي وهو ناصع الوجه أبيض اللحية مكور العمامة، وكان مبصراً في المدرسة الابتدائية الكبيرة أثناء طفولتي ووجودي في هذه المدرسة. وكلمة مبصر كانت تستعمل في مقام مراقب.

ولقد كان في بيت الخماش علماء آخرون منهم الشيخ أحمد. وعمل في القضاء مدة في بلاد الأتراك، وعاد فأقام في نابلس، وكان له درس عام في جامع النصر يكتظ عليه الناس وينحو فيه نحواً صوفياً. وصار له بسب ذلك اسم وحرمة. وفي عهد الدستور العثماني سنة 1908 رشحته الحكومة للنيابة عن نابلس، وقضى دورة ناقصة ولم يحقق الأمل المنشود في نيابته. ومنهم الشيخ محمود وكان مدرساً في جامع الساطون، وكان ذا هيبة ولحية بيضاء. ومنهم الشيخ خضر وكان خطيب هذا الجامع، وقد وعيته أكثر.

وكان من بيت هاشم الشيخ حسين المذكور، وكان ضئيل الجسم نحيفه. وأخوه الشيخ منيب واشتغل في القضاء مدة غير قصيرة ووصل فيه الى درجة عالية. وكان أصولياً وفقيهاً مجيداً، وفي آخر عهد الدولة العثمانية صار مفتياً وعاش الى ما بعد الاحتلال. ومنهم الشيخ رشيد والشيخ داود وهما أخوان وكانا مدرسين في جامع النصر ولهما فيه غرفة. وقد صار الثاني قاضياً في مدينة جنين مدة ما. ومنهم الشيخ محمد، ولم يكن يشتغل بالعلم بل كان يشتغل بالتجارة. وله مخزن في الوكالة المجاورة لخان التجار. ومن شباب بيت هاشم الشيخ فهمي وهو من جيلنا، وقد درس مدة في الأزهر وكان أديباً وشاعراً وذا روح مرحة. وقد عملنا معاً في مدرسة النجاح. ثم صار ذا حظوة لدى الأمير (والملك) عبد الله، وصار قاضياً ووزيراً وسفيراً وعاش طويلاً. ومن شبابه الشيخ نمر.

وكان من بيت صوفان عدد من المشايخ والعلماء، وهم أصلاً من قرية كفر قدوم، ولذلك ينعتون أيضاً بلقب القدومي، وكبيرهم في طفولتي وفتوتي الشيخ عبد الله وكان يقال انه فقيه محدث، وكان ذا وجه مشرق ولحية بيضاء،

وذهب فجاور في المدينة المنورة وقتاً ما ثم عاد فهرع الناس للسلام عليه والتبرك منه، وكنت من المسلمين عليه، وكان عمري 15 سنة تقريباً، وهو صموت ذو هيبة. وقد كتب رسالة عن رحلته. ومنهم الشيخ موسى وكان مدرساً في الجامع الكبير يقرأ حصة من حديث البخاري ويكتظ مجلسه بالسامعين، وترددت عليه أكثر من مرة. ولا بأس في نطقه وحسن شرحه. وكان متضلعاً بالعربية ايضاً وله حلقة درس في (المرستان) الملحق للجامع الكبير، وله ولبني صوفان غرفة فيه، وكان يعقد مجلساً تدريسياً فيه لطلاب العلم القرويين وغيرهم، وقد ترددت على هذا المجلس وقتاً ما، وكان الشيخ موسى ميسور الحال دون سائر علماء بني صوفان. ومنهم الشيخ يوسف ولد الشيخ عبد الله، وكان الأول اماماً في جامع البيك، والثاني خطيباً فيه. ومنهم الشيخ عبد الكريم ابن الشيخ موسى، وكان اشتغاله بالتكسب والعمل الاقتصادي أكثر امتداداً لما كان من أبيه.

وكان من بيت الخياط عدد من المشايخ منهم الشيخ مصطفى، وكان مدرساً في الجامع الكبير وله غرفة علوية، وكان ذا سمعة حسنة. وقد ترددت على غرفته في طفولتي وقرأت عليه بعض دروس الفقه الحنفي في كتاب اسمه العيني. وخلفه في وظيفة الدرس في الغرفة ابنه الشيخ فياض، وقد درس مدة في الأزهر. ومنهم الشيخ توفيق وكان اماماً في جامع البيك ويشتغل في التجارة. ومنهم الشيخ محمد ومات في شبابه، وكان يقال انه كان نبيهاً وعالماً. ومنهم الشيخ عبد الرحيم وأظن أنه تعمم من أجل العسكرية، وقد مات تحت أنقاض الهدم في الزلزال 1927.

ومن بيت الصمادي الشيخ عبد العال، وكان اماماً للشافعية في الجامع الكبير وله فيه غرفة. ولهم ابن عم هو الشيخ سليمان، منفتح على الحياة.

وكان من بيت التميمي عدد من المشايخ منهم الشيخ بكر وكان مدرساً في الجامع الكبير وله غرفة فيه. وكان نيراً نبيهاً وقد ألف كتاباً أسماه (السيف الصقيل) جادل فيه النصارى. وقد درس العلم خارج نابلس، وفي ذهني انه درس على علماء دمشق. والشيخ فؤاد ابنه وقد أرسله أبوه الى الأزهر فقضى مدة قصيرة وعاد. ومنهم الشيخ راغب وكان له وظيفة في جامع الكبير هي الدعاء ليلة النصف من شعبان، التي كانت تسمى الشعلة، وتروي الأحاديث بأنها التي تقسم فيها الأرزاق والأعمار للسنة الجديدة. وكان رئيس كتاب المحكمة الشرعية وذا خبرة بشؤون وأعمال المحكمة. وعين قاضياً لحمص في زمن الدولة العثمانية بناء على علمه وخبرته. ومنهم الشيخ صالح أخو الشيخ راغب. وأظن أنه صار قاضياً لناحية ما في سورية، وهم أصلاً من الخليل من ذرية تميم الداري وجاء جدهم قاضياً لنابلس وأقام هو وذريته من بعده فيها.

وكان من بيت تفاحة عدد من المشايخ منهم الشيخ محمد، وكان في طفولتي معلماً في المدرسة الابتدائية الكبيرة، وظل يعلم في المدارس الى ما بعد الاحتلال الانكليزي ويعلم القرآن والعلوم الدينية. وكان له وظيفة تدريس في الجامع الكبير وصار خطيباً له. وله فرقة وهي التي كانت للمفتي الشيخ أمين أبي الهدى، وفي زمن الاحتلال عينه المجلس الاسلامي وكيلاً للمفتي وقد صار أخيراً مفتياً لنابلس. ومنهم الشيخ خضر وكان اماماً في الجامع الاسلامي وكيلاً للمفتي وقد صار أخيراً مفتياً لنابلس.

ومنهم الشيخ خضر وكان اماماً في الجامع الكبير وله غرفة، ومنهم الشيخ سليمان، ومنهم الشيخ رفعة، ولم تكن له وظيفة في مسجد ولكنه كان نقيباً للأشراف وعضواً في مجلس الإدارة لوظيفته، وكان يلف عمامة خضراء كبيرة.. وكان شديد التطرف في الولاء للدولة العثمانية ضد الحركة العربية ورجالها، وكان يخطب في المناسبات العامة والرسمية فيلقي عبارات حماسية.

وكان من بيت الشرابي الشيخ عبد العظيم، وكان كبير الجسم كث اللحية كبير العمامة. وكان إماماً ومدرساً في الجامع الكبير وله غرفة فيه. وكان من وظائفه في الجامع قراءة ورد السحر في رمضان في حلقة من الناس قد اشتركت فيها في طفولتي. ومات وأنا في الطفولة، وقد خلفه في كل ذلك ابن أخيه الشيخ سليمان، وكان قصير القامة ضئيل الجسم طويل اللحية، وقد قرأت عليه في غرفته بعض أحاديث البخاري. ومنهم الشيخ حافظ وقد ورثهما في الوظيفة وكان أنيقاً أكثر منهما، وكان ماهراً في تصليح الساعات ويتكسب من ذلك.

ومن بيت فتيان الشيخ بكر وابنه الشيخ حسن، وكان لأسرتهم لقب آخر هو (خير الدين). وكان الأول خطيباً في جامع النصر ذاهيبةٍ حسنة وهيبة ووقار ولحية بيضاء، ولما مات خلفه في الخطابة ابنه. وكانا يحرصان على لبس الجبة الفضفاضة التي كانت تسمى (بنشا)، يرتقيان المنبر للخطابة ويلبسانها في قاعة المسجد الخارجية الجديدة التي ذكرتها ويخرجان منها الى الحرم بمهابة ووقار، وكان المتصرفون العثمانيون يصلّون الجمع وصلاة الأعياد في هذا المسجد ، ويهدون الخطيب كل سنة بنشاً جديداً. وننوه على أن بعض خطباء المساجد الأخرى كانوا ايضاً يلبسون بنشاً حينما يرتقون المنابر، ومنهم من يخطب في جبته الاعتيادية، وكان الشيخ حسن معلماً في المدرسة الابتدائية الكبيرة حينما درست فيها طفولتي.

ومن بيت حنون الشيخ أمين وابن أخيه سعيد، وكانا مدرسين وإمامين في جامع الحنبلي ولهما غرفة فيه. والثاني ورث الأول في الوظيفتين والغرفة، ولا أقدر أن أقوّم علم الأول لأنه مات في فتوتي، أما الثاني فقد وعيته في شبابي المتقدم. وكان نيرا نبيها حسن العلم والفهم. وكان للشيخ أمين ابن اسمه الشيخ زكي لم يكن عالما دينيا وانما كان ينشد النشائد في حفلات المولد النبوي بصوت جهوري وحسن.

وكان من بيت طوقان الشيخ عبد الله. وكان كبير الجثة والعمة، وكان له دكان تجارة في خان التجار يبيع المنسوجات الحريرية والقطنية للمدنيين، وكان يعرف التركية فيزوره بعض كبار الموظفين الأتراك للشراء ولقضاء الوقت، ولا أقدر أن أقوّم علمه لأنه مات في فتوتي. ومن هذا البيت (فرع الآغا)، كان الشيخ محمد وهو كبير الجثة والهامة. كان حافظاً خبيراً في علم التجويد ومعلماً للقرآن والتجويد في المدرسة الابتدائية الكبيرة في زمن طفولتي.

ومن بيت زيد الشيخ علاء الدين، والشيخ محمد مفيد، وهما اخوان. وكان لهما دكان في الخان يبيعان ما كان يبيعه الشيخ عبد الله طوقان ويعرفان التركية مثله ويجلس عندهم الموظفون الأتراك، وصار أولهما عضواً في مجلس الإدارة. وكان للثاني ابن اسمه الشيخ وجيه أرسله أبوه الى الآستانة وتخرج من مدرسة علمية شرعية. وكان وسيماً طويل القامة أنيقاً

وذكياً ونشيطاً، وقد عينته الحكومة مفتياً لمسلمي الفلبين حينما راجعوها وطلبوا منها ذلك، وكان له جهد ونشاط وتوفيق في عمله، ومات في الولايات المتحدة. ومن بيت زيد الشيخ علي والشيخ حسن، وكانا كتّاباً في المحكمة الشرعية وخبراء في الأحوال الشخصية الشرعية. ومن هذا البيت الشيخ صدّيق. وكان خطاطاً بارعاً. وكان يعلم الخط في المدارس وتعلمته منه في المدرسة الابتدائية ثم الرشدية . وكان له لوحات مخطوطة بديعة.

ومن بيت الغزاوي الشيخ شكري والشيخ عبد الرحمن. وأظن انهما قضيا مدة في الأزهر. وكانت حالتهما المادية حسنة. ومنهم مطيع والشيخ إسماعيل وأخ له اسمه الشيخ عبد الرحمن غير الأول، وكانوا وظلوا يشتغلون بالتجارة والكسب، وكان لهذه الأسرة اسم آخر هو الذي يحبونه وهو (عبده).

ومن بيت صلاح الشيخ عبد الله وأولاده والشيخ مصلح الذي كان مفتيا لنابلس والشيخ محمد والشيخ يوسف والشيخ عادل، والأول مات في فتوتي وكان يقال انه ذو علم حسن، والأخرون وعيتهم في شبابي وهم متفتحون. وكانت حالتهم ميسورة.

ومن بيت زعيتر الشيخ محمد وأولاده الشيخ منيب وطاهر والشيخ رضا وحافظ وصدقي وابن عمهم الشيخ عمر، والأول هو مدير المدرسة الابتدائية الرسمية الوحيدة في طفولتي، وكان نحيلاً قصيراً نوعاً ما ذا لحية كثة، صارم التقاطيع حاسماً حازماً محترماً فقد وطدّ خوفه في قلوب المعلمين والطلاب معاً، وظل مديراً الى قبيل إعلان الدستور، ثم طلب منه ومن سائر المعلمين أن يدخلوا في الامتحان لإثبات الأهلية فاستنكف واستقال. وله كتاب شرح فيه قصيدة البوصيري الشهيرة التي تتلى في مختلف المناسبات، وابنه الشيخ منيب وقد أنشأ مدرسة خاصة وأنشأ حلقة ذكر وأوراد، وكتب قصة مولد نبوي بأسلوب حسن، وكان ذلك في فتوتي، وكان بعض أقاربي منتسبين للحلقة فانضممت اليها. وقد صار قاضيا ومفتيا في شرق الأردن. وأخوه الشيخ رضا كان معلماً في مدرسة أبيه ثم ترك واستقل بأمور نفسه ولم يشتغل بالعلم. وابن عمهم الشيخ عمر كان ذكياً نشيطاً سياسياً حسن الخط والرسم. وكان في شبابي موظفاً في وظيفة محرر المقاولات (كاتب عدل) وصار له أهمية بروز وسوف يأتي ذكر ذلك فيما بعد.

ومن بيت عرفات الشيخ عمرو والشيخ صادق، والأول درس مدة في الأزهر وهو أنيق متفتح يحب الحديث في السياسة والاجتماع ويبدي آراء ومحاكمات.

ومن بيت العنبتاوي الشيخ صادق، وكان له ولأبيه محل تجاري في خان التجار، ومن بيت الكخن الشيخ أمين وهو من جيلنا، وأرجح أنه تعمم وطلب العلم للخلاص من الجندية، ومن عائلتنا الشيخ رضا بن الحاج خليل والشيخ عبد القادر بن الحاج يوسف، وهما من جيلنا وقد تعمما وطلبا العلم للخلاص من الجندية وليسا من العلم الديني في شيء. والشيخ حافظ ولم يكن يشتغل بالعلم، وانما كان قارئا للقرآن عذب الصوت والتجويد وكان متعمما.

ومن بيت السوار الشيخ صالح، وكان إماماً في الجامع الكبير في طفولتي وكان رجلاً صالحاً. ومن بيت فاش الشيخ محمد وكان طويل القامة معلماً في المدرسة الابتدائية للقرآن والتجويد. ومن بيت المر الشيخ أحمد. ومن بيت الخاروف الشيخ عبد الله وكانا معلمين في المدرسة الابتدائية أيام طفولتي ووجودي فيها،

وأذكر أن الثاني كان وسيماً أنيقاً. ومن بيت أبي غزالة الشيخ عارف وهو الآخر كان معلماً في المدرسة وإماماً في جامع النصر. ومنهم شيخ شاب اسمه الشيخ صدّيق يحسن ادارة الأطفال وتعليمهم. وقد كان معلماً لهم في النجاح أيام وجودي فيها، ومن زملائه في هذه المدرسة الشيخ زكي أبو الهدى وكان إماماً في جامع الخضر (عاشور) وقارئاً وهو حافظ وذو صوت حسن. والشيخ أسعد شرف وكان حافظاً ذا صوت حسن، وأظن أنه كان مؤذناً في مسجد ما.

ومن بيت الداري الشيخ نمر وكان جسيم الجسم لا بأس في علمه وكان نبيهاً نير العقل متجدداً اصلاحياً، وكان يحفظ الشعر ومتحمساً للمتنبي وينظم الشعر أيضاً، وكان ذواقاً للموسيقى طروباً بها. وقد نشط وبرز بخاصة بعد إعلان الدستور وتعاونت معه، وسيرد كلام عنه في مناسبات آتية.

ومن بيت البسطامي الشيخ أحمد وكان هو الآخر نبيهاً نيراً متفتحاً وديناً وشاعراً وحسن الحديث ولا بأس في علمه وفهمه، وكان التلميذ الأثير للشيخ بكر التميمي واشتغل في التعليم في مدارس الحكومة بعد الاحتلال أمداً ما. وكانت له وظيفة تدريس في الجامع الكبير. وكان له ابن اسمه محمد طلب العلم كأبيه وصار أديباً وعالماً.

ومن بيت الحنبلي الشيخ طه، وكان ضئيل الجسم رفيع الصوت حافظاً للقرآن والتجويد، وكان إماماً في جامع الحنبلي وعلم القرآن والتجويد، والعلوم الدينية في مدارس الحكومة قبل الاحتلال وفي أثنائه. وخلفه في وظيفته في المسجد ابنه الشيخ راضي، وكان شاباً فتعمم وتعلم بعض الشيء. وكان من بيت الحنبلي مشايخ آخرون منهم الشيخ فؤاد، والشيخ مصطفى، والشيخ أنيس، والشيخ سعيد، والشيخ أحمد. ومنهم من كان قارئاً في المسجد، ومنهم من كان مؤذناً. ومن بيت فيضي الشيخ إبراهيم وكان إمام جامع الأنبياء وسادن المقامات فيه، ويلف لفة صوف بيضاء، والشيخ هاشم وكان مؤذناً في الجامع الكبير.

ومن بيت العبوة الشيخ حسني وهو من جيلنا، وقد ذهب الى الأزهر مدة وعاد قوياً في اللغة العربية ولا بأس في علومه الدينية. وكان حسن الحديث والجدل، وقد مارس التعليم قبل الاحتلال وفي أثنائه. ومن بيت الحجاوي الشيخ عبد الفتاح، وكان رجلاً صالحاً ولا بأس في علمه، وكان له حانوت في باب السرايا يبيع فيه الكتب والطوابع والأدوات الكتابية. ومن بيت الخفش الشيخ صالح، ذكي خفيف الروح، وكان له حانوت فيه كتب وروايات يستأجرها الطلاب وغيرهم لمطالعتها بأجرة زهيدة، ومن بيت البيطار الشيخ رشيد وكان خطيباً في الجامع الكبير ورئيساً لكتاب المحكمة الشرعية بعد الشيخ راغب التميمي ثم صار قاضياً، وكان له ابن أخ اسمه الشيخ نسيب وكان شاباً أنيقاً درس في الآستانة وكان نبيهاً ذكياً أيضاً، وقد صار كاتباً في المحكمة الشرعية ثم قاضياً. ومن بيت عبد المجيد الشيخ فارس وقد قضى مدة في الأزهر وعاد متمصراً في حركاته ولغته وكان صاحب مكتبة.

ومن بيت الطاهر الشيخ حافظ وكان ضريراً حافظاً مجوداً للقرآن يقرأ في الجامع الكبير سورة الكهف. والشيخ راضي وقد درس مدة في الأزهر وعاد، وهو ذكي ونشيط. وأظن أنه صار معلماً في مدرسة ابتدائية، ومن بيت العثماني الشيخ حافظ. ومن بيت كنعان الشيخ كنعان

والشيخ رشدي.

ومن نماذج رجال العلم الديني الفريدة الحاج نمر النابلسي، فقد درس العلم الديني في الأزهر ولا بأس في علمه، وكان صبيح الوجه حسن الحديث، واقتنى مكتبة. وكان يتردد على ديوانه رجال العلم وتكون ندوة علمية، وحصل على إجازة بتدريس عام في رمضان في جامع الساطون، وسمعت منه إلقاءه وشرحه الحسنين. ولكنه كان وظل متطربشا ويلبس البدلة الإفرنجية، ويشتغل في نفس الوقت في صبانة[1] أبيه وصبانته فيما بعد، وقد لبس العمة والجبة في آخر أيامه وابتنى مسجداً ودفن فيه.

ومن بابه شاب في بيت رزق المصري اسمه عبد الرؤوف ويكنى (بأبي رزق)، وقد درس في الأزهر وعاد متفتحاً، وكان يكتب في الصحف وألف كتاباً أو أكثر في ألفاظ القرآن، وظل مع ذلك متطربشاً وحليقاً ويكتسي البدلة. ومن بيت السائح ويدعى هذا البيت ببيت حمامة أيضاً الشيخ عبد الحميد، وهو من شباب المشايخ في وقته، وقد درس في الأزهر ثم في مدرسة القضاء وتخرج منها بإجازات. وكان لامع الذهن حسن السمعة والحديث والعلم واستمر في التوسع حتى صار عالماً مرموقاً، وقد علّم في النجاح ثم صار كاتباً في المحكمة الشرعية ثم قاضياً ثم رئيس محكمة الاستئناف الشرعية، وصار وزيراً ونشط نشاطاً كبيراً في الحركة السياسية والوطنية والإسلامية والعلمية.

ومن بابه الشيخ رامز مسمار، وكان مثله أزهرياً ثم خريج مدرسة القضاء ثم كاتباً في المحكمة الشرعية ثم صار قاضياً، وكان حسن العلم قوي الجدل وطني النزعة والنشاط.

ومن بابهما الشيخ حلمي الادريسي، فقد درس في الأزهر أيضاً وكان حسن العلم والسمة والنشاط وصار كاتباً في المحكمة الشرعية ثم واعظاً ثم قاضياً.

ومن بيت عرموش الشيخ عبد الحليم، وهو شاب في وقت الاحتلال تردد على حلقات المشايخ واقتبس شيئاً من العلوم الدينية، وكان وطنياً وكان يسير في المظاهرات والى جانبه خوري يسمى أبونا حنا، كان هو الآخر وطنياً وكان الاهتمام بهذه الصورة بقصد توكيد تضامن المسلمين والنصارى في مقاومة الانتداب والسياسة الصهيونية.

وقد أكون نسيت أسماء أخرى يصح أن تكون في هذه السلسلة.

صور من الأزياء والملابس وأغطية الرأس والأحذية وصباغها في المدن للرجال والنساء:

وكان العلماء والمشايخ يتعممون بعمائم بيضاء من قماش رقيق يسمى (يانس)، يلفونه على طرابيش طويلة لها شرابات حريرية سوداء مبرومة تكوى على قوالب نحاسية حامية، ولونها أحمر فاتح أو غامق. ومنهم من يلف اليانس على طرابيش قصيرة تسمى مغربية وشراباتها كثيفة منقوشة، وكانوا يرسلون ذقونهم ويلبسون فوق ثيابهم جببا[1] من قماش صوفي متنوع، وننبه على أن التعمم[2] ولبس الجبب وإرسال الذقون لم يكن محصوراً في العلماء والمشايخ، بل كان سائداً لمن يبلغ الأربعين بل وقبلها، فجميع رجال أسرتي ومعظمهم غير عالم بل ومنهم الأميون كانوا يتعممون ويرسلون ذقونهم،

(1) الصبانة: معمل الصابون.

(1) جبباً: جمع جبة وهي ثوب طويل.

(2) التعمم: لبس العمامة.

وهذا شأن الكثير من رجال نابلس ممن بلغ الأربعين وقبلها، ومع أن كثيراً منهم كان يتعمم بالعمائم البيضاء على طرابيش طويلة أو مغربية، ويلبسون جبا كالمشايخ، فإن منهم من كان يلف على طربوشه الطويل أو المغربي قماشا أبيضا مطرزا بالحرير الأصفر وهو الذي يعرف (بالأغباني)، وأعرف من طفولتي وفتوتي أن هذه المطرزات كانت تأتي من دمشق، ولقد ذهبت الى دمشق سنة 1906 فرأيت معظم الرجال حتى الشباب منهم يلفون عمائم أغبانية على الطرابيش الطويلة.

وحتى كان بعض رجال الدين والمشايخ يتخذون عمائمهم من الأغباني، وهذا لا يزال الى الآن، حيث يدل ذلك على أن لف العمائم الأغبانية في نابلس كان مستورداً من دمشق. ومن الراجح أن لف العمائم أيضاً هو الذي كان سائداً قبل ذلك. وأستثني من زي العمائم رجال بيوت النمر وطوقان وعبد الهادي وقاسم الكبار، فإنهم لم يكونوا يعتمرون بالعمائم الا من ذكرت من مشايخ بيت طوقان الآغا سابقاً، وانما كانوا يلبسون الطرابيش الطويلة. وأعرف واحداً من دار النمر كبير السن كان يلبس طربوشاً مغربياً بدون عمة. أما فتيان سائر الأسر وشبابها فكانوا يلبسون الطرابيش الطويلة.

وكان جميع الناس مشايخ وغير مشايخ باستثناء رجال بيوت عبد الهادي والنمر وطوقان وقاسم يلبسون تحت الجبب (الساقويات) ثوبا يسمى (قنباز) لا أعرف من أين تسميته، مفتوح من الأمام، ولكن أحد شقيه ينطوي على الثاني ويتزنرون عليه بزنانير متنوعة من الأغباني أو قماش عجمي يسمى كشمير أو قماش حريري أو قطني أو من جلد يسمى (كمرا) ولا أعرف من أين تسميته، ويكون فيه جراب لوضع الدراهم، وبعض هذه الأكمار تنسج من خيوط صوفية ملونة غليظة أيضاً. والقماش الذي كان يصنع منه القنابيز هو على الأغلب من صنع دمشق، وكان حريرياً وقطنياً ومزيجاً منهما، وكانت تأتي من دمشق قطعاً مطوية بمقدار القمباز وليست أثواباً كبيرة. وتنسج على الأنوال بهذه المقادير، وكانت تطوى مربعات توضع عليها دمغة ورقية فيها اسم صاحب نولها. وكانت القطنية منها تسمى (ديماية) والحريرية (صاية) أو (شاهية) وجلها بل وكلها مقلمة.

وكان بعضهم يلبس في الصيف رداء أقصر من الرداء الذي ذكرناه ويسمى (جاكيت)، كما كان بعضهم يلبس في الصيف بدل الرداء (مدربيات) قطنية وحريرية خفيفة. وكانت (القنابيز) تصنع من قماش قطن أبيض صنع البلاد الأوروبية آنذاك يسمى (بفتا)، وهذا يكون في الصيف، وكان بعضهم في الشتاء ولا سيما الموسرون يلبسون (قنابيز) من جوخ صنع البلاد الأوروبية ويلبسون تحتها في الشتاء كذلك سراويل من جوخ أيضاً.

وكان بعض العلماء والمشايخ والذين يلبسون الجبب من غيرهم يلبسون بدلاً من القنابيز تحت الجبب سراويل من جوخ وفوقها صدريات.

وكانوا يلبسون في الشتاء فوق ذلك عباءات. وهي أنواع منها ما كان من وبر جمال ثمين أصفر غامق، ومنها ما كان من صوف أقل درجة وقيمة من الوبر. والتنوع بحسب القدرة والطبقة، وصار بعضهم يصنع عباءات من جوخ أوروبي سوداء وبنية. وكان بعض الميسورين يلبسون فراء أو جبا مبطنة بالفرو المتنوع الناعم، وقيمتها ونوعها يختلف باختلاف الثروة والوجاهة. وصار التجار في طفولتي وفتوتي يجلبون من أوروبا بواسطة تجار بيروت لفحات

صوف سوداء وبنية مقلمة بأقلام بيضاء سميكة عرضها ذراع طولها ذراع توضع فوق الأكتاف أو تلف حول العنق، ومنها صغير للأطفال والأولاد، وكان بعضهم يلف بدلا من ذلك شالات كشميرية صوف نعجية أو شالات صوفية بيضاء داكنة.

وكان من الميسورين من يلبس في الصيف عباءات خفيفة تسمى غاشية فوق الساقو المدربة أو بدونهما لها قبات مقصبة.

وكما استثنيت رجال بيت النمر وبيت القاسم وبيت عبد الهادي وبيت طوقان من زي العمائم استثنيتهم أيضاً من زي القنابيز والساقويات والمدربيات، أو أستثني أكثرهم بحيث كان معظمهم شباباً وكباراً في طفولتي وفتوتي، وبعدهما طبعاً يلبسون البنطلون فوقه صدرية ثم فوقهما الجاكيت. وقلت أكثرهم لأني كنت أرى في طفولتي بعضهم يلبس القنباز وفوقه الساقو، وأرجح أن الجميع كانوا يلبسون القنابيز والعمائم، ولما ترك السلطان عبد المجيد في أواسط القرن التاسع عشر العمة ولبس الطربوش والبنطال والصدرية والجاكيت، وصار الموظفون يلبسون مثل ذلك صار رجال الأسر البارزة الإقطاعية يقلدونهم في هذا الزي أيضاً، ولقد كان هذا الزي يسمى (افرنجي) وهذه التسمية دليل على أنه مستورد وحديث، ويكون الزي السابق أي العمة والقمباز والجبة أو الرداء أو العباءة فوقه هو الذي كان سائداً قبله الى أمد غير قصير قبله.

وكان الذين يلبسون (الزي الافرنجي) يلبسون قمصاناً بيضاء على الغالب وملونة أحياناً ذات أكمام وقبات يابسة بالنشاء وقمصان متنوعة الجنس واللون طويلة أو قصيرة مربوطة، وكانت القمصان تأتي في الغالب من الخارج منشاة. وحينما تغسل تعالج محلياً بالنشاء في البيوت أو عند صناع متخصصين لذلك، وكانوا يضعون أزرارا في أكمامهم متنوعة الأجناس وكانوا يتأنقون فيها، ومنهم من كان يتخذها من الذهب والفضة. وكثيراً ما تكون الصدرية من قماش من غير قماش البنطلون والجاكيت، وكثيراً ما يكون البنطلون من قماش غير قماش الجاكيت والصدرية، وكان هذا وذاك من باب الأناقة، وكانوا يربطون ساعاتهم بسلاسل ذهبية وفضية على صدرياتهم. وكانوا من باب الأناقة أيضاً يحملون عصيا رفيعة أو غليظة نوعاً ما ذات قبضات يتأنقون في أشكالها. ومنها ما يكون مطعماً بالذهب وفضة أو عاج.

وكانوا في الشتاء يلبسون فوق الجاكيت رداءً سميكاً طويلًا يسمونه (بالطو) من قماش صوفي. وصار يأتي من الخارج في فتوتي وشبابي قبات وأكمام ملونة أو بيضاء مصنوعة من مادة لا تحمل وسخاً ويمسح الوسخ عنها بالماء دون أن يؤثر عليها. حيث تظل يابسة لامعة. وكانت الأكمام توضع على أكمام القمصان. وكانت البدلات الإفرنجية والأردية والجبب تصنع من قماش صوفي متنوع الجنس واللون والثمن كان يجلب من أوروبا بواسطة تجار من بيروت، وكانوا متخصصين بتفصيل وخياطة البدلات التي كان يلبسها - في أيام طفولتي وما قبلها - الموظفون وأبناء الأسر الأرستقراطية، وكان خياطون مختصون لتفصيل وخياطة القنابيز والأردية والجبب.

وكان الرجال يلبسون تحت القنابيز والبدلات قمصاناً وسراويل يخيطها خياطون أو تخاط في البيت، وكانت القمصان مفتوحة الأكمام، والسراويل مفتوحة عند الكعبين. وكان الميسورون يلبسون فوق القميص القطني

قمصاناً وسراويل من الصوف، وصار أكثر الذين يلبسون البدلات يضيقون فتحات السراويل ويزمونها بخيط أو شريط من قماش أو بأزرار تنطبق على الجوارب، ومنهم من كان يجعل للجوارب تعليقة في الساق، وصار يأتي في طفولتي وفتوتي قمصاناً وسراويل قطنية وصوفية خالصة مصنوعة على ماكنات خاصة من الخارج.

والأحذية التي كانوا ينتعلونها أنواع، منها ما هو من جلد مدبوغ محلياً النعل جلد بقر أو إبل والوجه جلد ماعز أو ضأن، والحذاء من هذا النوع يسمى (صرماية)، والأعم الأغلب أن الوجه كان مصبوغاً بالأحمر. وهو خفيف على المشي ولكنه لا يتحمل ركاً ولا مدة طويلة. ومنها ما هو من جلد مدبوغ في الخارج. ويمكن أن يكون النعل والوجه من نفس الحيوانات ولكنهما مصنوعان صناعة حسنة وقوية وسميكة نوعاً ما. والأعم الأغلب أن الوجه كان أسود أو بنياً أو غامقاً. وكانت الأحذية من هذا الجلد أنواعاً أيضاً منها ما هو مفتوح وبسيط ويستر القسم الأمامي من القدم، وهذا كان يسمى (كندرة)، ثم صار يصنع كنادر تستر كل ظهر القدم (مقفولة) وكانت تسمى (صباطا) أو (نصف بوطين)، منها ما له بزايم تربط وتقفل بها. ومنها ما له قطعة مطاط على طرفيه. ثم صار يصنع صبابيط طويلة نوعاً تستر القدم الى ارتفاع عشرة سنتمترات أو أكثر. وكانت تسمى (بوطين) ومنها ما كان يقفل ببزايم، ومنها ما يكون له قطعة مطاط على طرفيه. ويلبس الميسورون في الشتاء بواطين رقيقة الجلد والنعل، ويدخل قسمها الأرضي في كنادر مسطحة تخلع عند الصلاة وتلبس في المشي، ويمسح المصلي على ظهر البوطين كخف دون أن يغسل رجله وتسمى (كالوش)، وكل هذه الأنواع بكعب خلافاً للصرماية فليس لها كعب.

وكان الذين يلبسون هذه الأنواع يلبسون جوارب أيضاً. وبعضهم يلبس في الشتاء جوارب صوفية رقيقة وسميكة. السميكة تصنع من خيوط غليظة، ويوضع لها أحياناً جلد رقيق من تحتها فتصبح خفاً يجوز المسح فوقه للصلاة بدلاً من غسل الرجل. وكل هذه الأنواع كانت تصنع محلياً وكان التجار يأتون (بصرامي) مصنوعة من الشام أيضاً، والفقراء يلبسون (صراميهم) أو كنادرهم المفتوحة بدون جوارب أحياناً كثيرة وخاصة في الصيف، وكانت الجوارب تجلب على الأكثر من دمشق حيث تصنع فيها على ماكنات بأشكال وألوان وخيوط متنوعة. وكان التجار يجلبون من أوروبا جرابات أيضاً بواسطة تجار بيروت، وقد قلنا أن جلود ونعال (الصرامي) تصنع أحياناً محلياً، ونقول إنه كان بعض مدابغ في نابلس لذلك أيضاً، منها واحدة خارج البوابة الغربية، وأخرى في بعض بساتين نابلس، وهذه المدابغ تختلف طبعاً عن مدابغ قرب السقائين. حيث تعالج جلود الماعز والضأن والحمير والبقر والجمال والبغال لتذهب رائحتها وما علق فيها من دهن لتتماسك وتصبح قابلة لصناعة وجوه (الصرامي) ونعالها. وتزيل الدباغات دهن الجلود بالسكاكين، ثم تعالجها بالملح والشبة وبعض أعشاب ومواد عضوية أخرى، وتغسل بالماء الممزوج بكل ذلك مرة بعد مرة وتنشر في الشمس حتى تتماسك كما قلنا وتصبح صالحة لما هيئت له، وكانت هذه الدباغات تعالج مصارين الضأن والماعز فتغسلها بمحلول ذلك المزيج وتدلكها وتمطها ثم تجففها وترسلها الى الخارج ليصنع منها أوتار الآلات الموسيقية العربية.

هذا ومن صور الأزياء التي كانت. أن بعض الذين ينتسبون الى العترة النبوية كانوا يلفون عمائم خضراء، وأن بعض الذين ينتسبون الى الطرق الصوفية يلبسون عمائم صوفية بيضاء داكنة، ورأيت بعضهم يلف عمامة حمراء، وان بعض رجال السامرة كانوا يلفون عمائم حمراء، أما شبابهم فكانوا يلبسون الطرابيش الطويلة، ومن رجالهم من كان يلبس طرابيش. ورأيت أكثر رجالهم في عيد الفصح في جبل الطور يلفون عمائم حمراء وبيضاء وأغباني أيضاً. أما رجال النصارى فكانوا في طفولتي وفتوتي يلبسون طرابيش طويلة، عدا رجال دينهم الذين كانوا يلبسون ثياب الخوارنة المعروفة أي جبب سوداء فضفاضة، وعلى رؤوسهم قلنسوة سوداء طويلة، عدا رجال الدين البروتستانتي فإنهم كانوا لا يلبسون زي الخوارنة ولهم زي كاسم قاتم مع قبة بيضاء منشاة.

ومن صور الأزياء أن معلمي البناء والمشتغلين بالحجارة من قلع ونحت ونقش كانوا يلبسون سراويل بيضاء فضفاضة ويضعون فيها قنابيزهم، وفوق السراويل صداري ثم أردية قصيرة في أثناء العمل أو بدون ذلك، يضعون على رؤوسهم عمائمهم أغبانية على طرابيش مغربية، ومنهم من كان يحتفظ بزيه هذا في غير أوقات العمل، ومنهم من كان يلبس في غير أوقات العمل وخاصة أيام الجمع والأعياد القنابيز أيضاً. ومعظم الملبوسات التي ذكرتها كانت تقص وتخاط بواسطة خياطين في نابلس، وكان أكثرهم للثياب العربية أي القنابيز والسراويل والجبب والساقويات، ولم يكن في طفولتي وفتوتي الا خياطان للزي الأفرنجي. ثم كثر هؤلاء باتساع نطاق لبس هذا الزي.

كذلك كان في نابلس صناع أحذية عديدون يصنعون الأحذية التي ذكرت أنواعها من جلد ونعل محليين أو مجلوبين، وكانت الطرابيش تأتي من أوروبا ثم تكوى وتوضع لها الشراريب من قبل صناع خصوصيين عندهم قوالب نحاسية تحمى على النار، ومعظم الخياطين العرب يقصون ويخيطون الأقمشة التي يأتي بها أصحابها. أما الخياطون الافرنج فيكون عندهم أقمشة صالحة للزي متنوعة الألوان والأجناس.

وكان التجار يجلبون الطرابيش ويبيعونها لمن يريد بدون كي، وصاحبها هو الذي يأخذها للكوي، أما صناع الأحذية فيكون عندهم جميع ما يحتاجون اليه من جلد ونعل وغيرهما، والأسعار تختلف بحسب الأنواع والمهارة. فأنا مثلاً عملت بدلة في فتوتي بثلاث ليرات ذهبية وكندرة بنصف مجيدي، والمجيدي خمس الليرة، وطربوشاً بربع مجيدي، وهناك من يكلفه هذا ضعف الثمن. وكان معظم الذين يلبسون الزي الافرنجي يحلقون ذقونهم ولا يرسلونها. وكذلك الشباب الذين يلبسون الزي العربي الا بعض المتقدمين في السن والمنصب. غير أن هؤلاء لا يتركونها كثة بل يهذبونها مع شعور رؤوسهم في الشهر مرة. والذقون الكثة محصورة بالمشايخ والعلماء ولكن ليس جميعهم. وكان بعض الذين يحلقون ذقونهم يحلقونها بأيديهم بالموس في بيوتهم وبخاصة الموظفين والضباط، والباقون يترددون على الحلاقين كل يومين أو ثلاثة مرة لحلق ذقونهم بالإضافة الى تهذيب شعور رؤوسهم. وأجرة الحلاقين على المروءة، ولا تقل أجرة حلاقة الذقن عن قرش وشعر الرأس عن قرشين، ومنهم من يدفع مضاعفاً. وكان كثير من الشباب والموظفين الضباط يعتنون بتربية شواربهم وبرمها، وبعضهم كان يعمل لها طرفين رفيعين

معقفوين الى الأعلى أحياناً، ويدهنونها بدهون يسمونه (قوزماتيك) حتى تبقى ماسكة. وفي نابلس حوانيت حلاقة عديدة منها ما كان حسن الفرش وأنيق في عمله. وكان بعض الشباب والوجهاء يترددون على هذه الحوانيت ويقضون وقتاً في الحديث عن شؤون الساعة من سياسة وغير سياسة، وكان الحلاقون جعبة أخبار الناس نتيجة لذلك.

أما النساء فكن يلبسن الفساتين من حرير وقطن، وكان قماشها على الأغلب من صنع أوروبي. ومن تحت الفساتين قمصاناً وسراويل طويلة، ويلففن رؤوسهن وشعورهن بخمار رقيق قطني أو حريري أبيض أو بمناديل قطنية وحريرية ملونة. وكانت المناديل وقماش الخمار من صنع أوروبي أيضاً. وكان بعضهن يصنعن (دنادش) يسمونها (أوية)، وكانت العجائز يلبسن تحت الخمار طرابيش صغيرة. ورأيت بعضهن صافات على أطراف هذه الطرابيش قطعاً نقدية تسمى غازية أو غوازي. وتعدل قيمتها ربع ليرة ذهبية، وسميت كذلك نسبة للسلطان الذي صدرت باسمه، وكان يلقب الغازي. واذا خرج النساء من البيوت يلبسن الملاءات الحريرية أو القطنية، وكانت العجائز خاصة يلبسن ملاءات بيضاء سابغة تسمى (ازارا)، وأرجح أن الأزار كان هو السائد قبل ثم استبدل بألوان أخرى. ثم أخذت أزياء الخروج تميل الى الأناقة. ولم تتوار الأزر البيضاء والملاءات السابغة الفضفاضة الا في العقد الثالث والرابع، وكانت البنات يخرجن بالملاءات حال ما يبلغن بل وقبل ذلك. وكان نقاب الوجه عاماً الى الربع الأول من القرن العشرين، ثم أخذت بعض السيدات في بعض المدن الكبرى يخرجن سافرات أو نصف سافرات مع احتفاظهن بالملاءات، وكنت من أول من شجع على رفع النقاب، وجعلت زوجتي أم زهير ترفعه في بيروت سنة 1918م 1333هـ. ونقل ذلك بعض أناس الى نابلس وصار بعض الناس فيها يتناولوننا بالنقد والتجريح. وكان النساء يلبسن كنادر يصنعها الحذائون في نابلس مع الجوارب المتنوعة النسائية، وكن جميعهن الى ما بعد الثلث الأول من القرن يتخمرن في البيوت فضلاً عن خارجها أي يغطين رؤوسهن بالخمار (اليانس الأبيض) أو المناديل الحريرية والقطنية. وقلما ترى امرأة مكشوفة الشعر في البيت وبخاصة أمام الرجال، ولو كانوا رجالهن من أزواج وآباء وأعمام وأخوال. سواء أكان ذلك حينما يجتمعون معاً أم على الأكل، وكان الاختلاط مع ذلك قاصراً على المحارم على الأكثر، فلا تظهر المرأة سافرة على غيرهم. مع التنبيه على أن هذا كان يتسع على الأكثر في الأسر الساكنة في غرف دار واحدة، حيث كانت النساء تظهرن سافرات الوجه دون الشعر والأذرع والسيقان المكشوفة على أقاربهن ولو كانوا من غير المحارم أو بني الأعمام والعمات والأخوال والخالات. وقلما كانت النساء يخرجن من بيوتهن الا في حالات الضرورة ومناسبات العزاء والأعراس والى الحمامات والمقابر وأحياناً الى البر في موسم الربيع، وقد تمضي الشهور دون أن تزور المرأة أهلها ان كانوا غرباء عن الأسرة أو في بيوت أخرى، وكان أهل البنات المتزوجات في بيوت غريبة يستضيفون بناتهم في بعض المواسم وفي شعبان ورمضان ورأس السنة خاصة، فتكون فرصة لهن للخروج، ويقمن في بيوت أهلهن يومين أو ثلاثة، وكانت استضافة شعبان تسمى (شعبونية)، واستضافة رمضان تسمى

(تشخيتــة)، ولا أعـرف سبب هــذ التسميــة العجيبة، وكان أهل البنات يصنعن لهن الأكلات المشتهاة مثل الكبة والقباوات المحشوة واللخنة الملفوفة الخضراء والكنافة الخ . . . وكان أهل البنات يتفقدون بناتهن في شهر رمضان فيرسلون اليهن هــدايـا من النقــل (أي الجــوز واللوز والملبس والفستق والقضامة) ومن الفواكه، ومن المعتاد ارسال الكعك الناشف المقطع الذي لا يزال يصنعه الصناع، وكان يسمى (قرشلة).

ويذهب الرجال الى بيوت بناتهن المتزوجات غـربـاء في الأعيـاد الكبيـرة في عيـدي الفـطر والأضحى فيعيدون عليهن ويعطونهن عيـديات نقدية حسب القدرة واليسر. ويقدم الزوج وأهله وزوجته للمعيدين الفـواكه والحلويـات. وكان كثير من النساء يخطن ثيابهن بأيديهن، ومع ذلك كانت بعض نساء متخصصات بخياطة الثياب النسائية، وقلما كانت امرأة في نابلس تأتي الى تاجر أو بـائع لتشتـري حاجتهـا من الكسوة أو حاجات البيت. وكان الرجال يتولون ذلك.

وبالنسبة لأغراض كسوتهن فقد كانوا أحياناً يرسلون الأقمشة مع صبيان التجار الى البيوت يرينها ويخترن ما يـروق لهن، وأحيانـاً يشتري الـرجال لهن حـاجاتهن بـأذواقهن. وصـار في فتوتي شخصان يحملان أقمشة نسائية وحاجات نسائية وبيتية أخرى ويدوران في الأزقة وينادیان على مـا معهما، فكـانت النسـاء يستـدعينهمـا ويشترين منهما أحياناً.

ولم يكن نشاط نسبي للمرأة في نابلس الى وقت متأخر في فتوتي إلا الدايـات القابـلات، ومعلمات قلائـل اشتغلن في التعليم بمدرسـة للبنات أنشئت في أواخر القرن التاسـع عشر، وبعد ذلك تعددت مدارس البنـات فصار عـدد المعلمات أكثر، وكان نساء أصحـاب البساتين يساعدن رجالهن في عملهم في البساتين سقاية وزرعاً وتعشيباً وقطعاً وتوضيباً، وفي فتوتي اتخذ تاجر اسمه الحاج يوسف التكروري محـلاً في غرفة في بيته لبيع الحـاجات النسـائية أنسجـة قطنية وحريرية للفساتين والملاءات والشلحات ومناديل وخمر وغوايش وعطور وكنادر وجرابات وحـاجات البيـوت الفـراشيـة وغيـر الفـراشيـة الخ . . . فصارت النساء يأتين الى بيته ويشترين ما يحتجن اليه منه، وكانت امرأة هي التي تتولى ذلـك، وكان يسكن في بيتنـا الجديـد قبل أن نسكنه، وقد قلده أبي فهياً في غرفة نومنـا في البيت القديم رفوف ملأها بمثل تلك الأغراض، فكانـت النساء يأتين أيضاً ويشترين حاجاتهن. وكانت أمي وأختي تتوليـان ذلك، ثم قلدهمـا آخرون فكثرت محلات بيع النساء في البيوت.

كانت هذه العملية وسيلة الى دخولي الكثير من بيوت نابلس في مختلف حاراتها، حيث كان النســاء من مختلف الحـارات والأسـر يـأتين فيشترين ما يردن من أغراض، ومنهن من تدفع نقـداً ومنهن من تأخـذ بالـدين أو يدفعن شيئـاً ويسجل عليهن الباقي. فكان أبي يعطيني قائمة بأسماء المدينات لأذهب في أيام الجمع وأطلب الدين. وكان أبي يذهب معي أولاً ليدلني على البيوت حتى اعتدت، ولمـا كبرت صـار أخي محمد علي يتولى ذلك.

هـذا وكـانت النصـرانيـات والسـامـريـات النـابلسيات يتـزيين بزي المسلمـات ويغـطين أنفسهن بـالأزر والملاءات حينمـا يخرجن ولا يخرجن سافـرات الى وقت متأخـر من فتوتي، وكن يـذهبن الى الحمـامـات مـع المسلمـات أيضاً.

صور من الأزياء والملابس في القرى:

أما في قرى نـابلس فكان الـرجال يلبسـون

قنابيز من قماش قطني على الأغلب، ومزيج من قطن وحرير أحياناً، ويسمى القماش الأول ديما والثاني صايات. ويصنع هذا القماش قطعاً، لكل قنباز قطعة، وتكون فاتحة الألوان ومخططة خطوطاً طولانية، ويخيطها خياطون في نابلس. ومنهم من كان يلبس ثوباً (أي من غير شق) كالقنباز من قماش مصبوغ، وأكثر ما يكون هذا وقت العمل، ومن تحت سراويل وقمصاناً وأحياناً بدون سراويل. والثياب المصبوغة قماشها أوروبي وتصبغ بالنيلة الزرقاء في مصابغ في نابلس، حيث كان فيها بضعة حوانيت للصباغة، فيها أجران حجرية عديدة تذاب فيها النيلة مع الملح والشبّة وتجري من جرن الى جرن حتى تصبح صالحة للصباغة، ويغرق فيها القماش مدة ثم يأخذه الصباغون وينشرونه في الخلاء حتى يجف. ويصبغ الصباغون بالاضافة الى الأقمشة خيطان الصوف التي تحاك بها البشوت التي ذكرنا وصفها سابقاً.

وأحياناً كثيرة يأتي القماش مصبوغاً بالنيلة من دمشق صباغة أكثر إتقاناً. ويلبسون فوق القمباز أو الثوب عباءات خفيفة في الصيف سميكة في الشتاء، وتأتي على الأغلب مصنوعة من دمشق من الصوف، منها ما يكون لونٌ واحد داكن أو أسود، ومنها ما يكون مقلماً أبيض وأسود، وكان هذا يسمى ارحيباوي. وكان كثير منهم ولا سيما في وقت العمل في الشتاء يلبسون عباءات أو أردية قصيرة سميكة غير فضفاضة تسمى (بشت) مصنوعة من صوف غليظ ملون أحمر وأبيض يصنع بعضها في نابلس وبعضها يجلب مصنوعاً من دمشق، ويضعون على رؤوسهم الكوفيات القطنية سوداء وبيضاء ومزيجة اللون. والميسورون منهم يستعملون بدلاً من الكوفيات في الشتاء اللفحات السوداء التي ذكرناها قبل.

ويثبتونها بالعقالات (وهي حبال مبرومة من صوف المرعز الأسود تكون غليظة ورفيعة ويكون الحبل مزدوجاً وله ذؤابة طويلة من ورائه تنسدل على ظهر لابسه). وتسمى الكوفيات (حطات) جمع (حطة) وأغلبها مصنوع في أوروبا. وهناك حطات حريرية سوداء وبيضاء تصنع في دمشق ويلبسها الميسورون، ويكون فيها خيوط أو شرحات مقصبة أي خيوط عليها ذوب معدني من قصدير أو نحاس مصبوغ بالأبيض فيشبه الفضة وبالأصفر فيشبه الذهب. والغالب أن ما نقرأه عن نسيج ذهبي وفضي أصلي هو من هذا الباب أيضاً، حيث تذاب الفضة والذهب بالحرارة ثم يغطي بذوبهما خيطان من حرير أو قطن، وأكثرهم كان في قراهم حفاة والقليل منهم من كان يلبس حذاء. والميسورون يلبسون أحذية من جلد ونعل أوروبيين مثل أحذية أهل نابلس، أما معظم من كان يلبس أحذية منهم فيلبسون الصرامي الحمراء والجلدية، ولها زي مختلف عن زي الصرامي التي كان يلبسها بعض أهل المدينة تسمى (مداسات)، وتشبه البوط القصير وتصنع أسمك من (صرامي) المدينة، وبعض الوجهاء والشيوخ في القرى يلفون عمائم، إما على طرابيش أو على طواقي، منها ما هو من قماش اليانس الأبيض الذي يلفه المشايخ وغيرهم في نابلس، ومنها قماش سميك ومخطط وحريري وقطني بنوع خاص وهذه تكون حمراء أو بيضاء، ويلفها بنوع خاص أهل القرى القريبة من جبل القدس.

ولحظنا في فتوتنا أن أهل قرى جبل الخليل كانوا يلفون عمائم مماثلة، وعرفنا أن اختلاف الألوان هو بسبب اختلاف نعرة القيسية واليمنية، وهذه النعرة قديمة كانت بين قبائل اليمن

والحجاز في ظروف تناحرهم وتفاخرهم، وتجددت في زمن الدولة الأموية بسبب التنافس والحرب بين عبد الله بن الزبير والأمويين حيث كان معظم أنصار ابن الزبير حجازيين ينتسبون الى قبائل قيس، ومعظم انصار الأمويين يمنيين لأنهم أخوالهم، ثم استمرت تظهر حيناً وتخفت حيناً. ولما استشرى حكم الإقطاع في جبل لبنان ومناطق نابلس والقدس والخليل قويت وظلت قوية الى زوال حكم الاقطاع باستعلاء قوة الدولة العثمانية، وكان في الأصل بعض الزعماء ينتسبون الى قبائل يمنية وبعضها الى قبائل حجازية. والحجازيون نصرتهم قيسية فصار أنصار الزعماء يعتنقون نعرة زعمائهم ويلتزمونها، ولو لم يكونوا فعلاً من أصل يمني أو حجازي، ولقد خفت النعرة بعد سقوط الاقطاع، ولكن بعض آثاره بقي في مناطق قرى جبل الخليل والقدس بخاصة ومنها الثياب، حيث يلبس اليمنيون الألوان البيضاء وعباءات وعمائم وقنابيز ومداسات ولفحات وكوفيات وعقل، ويتخذ القيسيون اللون الأحمر لهذه الملبوسات. ومن الطريف أن القيسيين لم يكونوا يصنعون من الحليب (مهلبية) وإن اليمنيين لم يكونوا يأكلون (دبسا). فلما خفت النعرة وصار الطرفان يتعايشان ويتواصلان بعد الجفاء والقطيعة صار يصنع (مهلبية) ويوضع على وجهها (دبس) ويسمى ذلك (قيس ويمن)، كأنه رمز الى ذلك التعايش والتواصل المستجدين.

وكانت النساء القرويات يلبسن ثوباً غير مشقوق مصنوعاً من الديما أو قماش آخر أو من بفت مصبوغ، وتحته قميص أو ما شابه القميص وسروال، ويضعن عباءات أو ثوباً مشقوقاً من الديما على رؤوسهن كجلباب، وبعضهن حينما يأتين الى المدينة يلبسن ما يشبه فساتين المدينة قماشاً وخياطة، وحينما تزف البنت يصنع لها ثوب غير مشقوق من الحرير يسمى (كمخ)، يصنع على الأغلب في دمشق مقلم بالأبيض والأحمر ويسمى عثماني وجنزيري أيضاً، وصرن يصنعن ثوب الزفاف من المخمل الأحمر أو الأزرق المصنوع في أوروبا ويمشين على الأكثر في القرية والحقل حافيات، وحينما يجئن الى المدينة يلبسن الصرامي والمداسات، ويلففن رؤوسهن تحت الجلباب بمناديل سميكة، وفي قرى جبل القدس يكون خمار (اليمنيات) أبيض دائر حريري ملون ويسمى (حياري). ويكون خمار (القيسيات) أحمر من الحرير يسمى (شنبر). وهن في القرى والمدينة سافرات الوجه، وكثير منهن يضعن على رؤوسهن تحت الخمار عصابة اسمها (الصمادة) شبيهة بطاقية، ويصففن على دائرها قطع معدنية من عملات لم تعد تتداول في السوق منها الذهبي وهو الغوازي التي ذكرناها سابقاً ومنها الفضي المزيج بالنحاس وذو لون أبيض ويسمى (وزري)، والاسم معدل على الأرجح من (وزيري) نسبة الى وزير صدرت في عهده، وقيمة القطعة واحد من العشرين من الليرة، وحجمها أكبر من الليرة المعدنية، ومنها ما هو صغير نصف وزري، والوزريات وأنصافها مجوفات بالصنعة حتى يركب الواحد على الآخر، ويثقب الغازي والوزري ويخيط على دائرة الطاقية أو الصمادة، والميسورات يعصبن رؤوسهن فوق الصمادة بعصابات حريرية ملونة بالأبيض والأحمر ومقصبة في أطرافها ودوائرها.

وكانت المرأة القروية عاملة نافعة الى جانب الرجال ووحدها في الحقول والكروم ومختلف الأعمال الأخرى، فضلاً عن الأعمال البيتية التي

تقوم بها وحدها مع الحشمة التامة في اجتماعات الرجال وأشغالهم ومجالسهم.

شيء من العملة النقدية التي كانت متداولة:

والعملات القديمة التي أدركتها هي هذه الوزريات وأنصافها، ثم المجيديات الفضية، والراجح أنها منسوبة الى السلطان عبد المجيد، والواحدة أكبر وأسمك من الليرة المعدنية وقيمتها خمس الليرة الذهبية. ونصف المجيدي وربع المجيدي، ثم (البشلك)، والكلمة تركية معناها (ذات الخمسة)، وهي عملة نحاسية فيها قليل من الفضة، وهي في حجم السوزري وقيمتها نصف قيمته ولها أنصاف، والظاهر أنها كانت بخمسة قروش ثم تدنت قيمتها. وكان هناك عملات نحاسية سميكة بحجم المجيدي والوزري اسم الواحدة (قبق) أو (عرنيط)، والاسم الأول هو على الراجح روسي ومكتوب عليها (40) بارة والأربعون بارة هي قيمة قرش واحد، وكلمة (بارة) بمعنى الجزء أصلاً، والقرش واحد من مائة من الليرة، ثم تدنت قيمته حتى صارت ست بارات، ولها نصف، وكانت عملة نحاسية أخرى أصغر اسمها (سحتوت)، منها ما قيمته بارة واحدة ومنها ما قيمته بارتان، وألغيت هذه العملات النحاسية في فتوتي وصدرت بدلاً عنها عملات من الفضة والنيكل، وكانت الفضية تسمى (برغوث) بحجم نصف الليرة، ولها نصف بحجم ربع الليرة، وقيمة البرغوث قرشان، وكانت من النيكل تسمى (متليكا)، وكل ثلاثة تساوي قرش في السوق، وكل أربعة تساوي قرش في الخزانة الحكومية، حيث كان للعملات قيمة رسمية وسوقية، وتسمى الرسمية (صاغ) و(أميري)، والسوقية (شوروك) أو مغشوشة، ومعنى الصاغ (التام او السليم) ومعنى (الشوروك) الواهي، وكانت عملة ذهبية عثمانية، أي صادرة باسم السلاطين العثمانيين، وحجمها بحجم نصف الليرة الفضية، وقيمة الصاغ مائة قرش، والشوروك (125) في نابلس وأقل قليلاً في دمشق وبيروت، وقيمة المجيدي السوقية في نابلس (25) قرشاً وأقل قليلاً في دمشق وبيروت. وفي الخزانة الرسمية (20) قرشاً، وكانت الليرات الذهبية الانكليزية والافرنسية متداولة أيضاً، وكان سعر الانكليزية في سوق نابلس (135) قرشاً والافرنسية (114) قرشاً وفي دمشق وبيروت أقل قليلاً.

شيء عن اهتمام الناس للتموين لبيوتهم في مختلف الأنواع:

كان الميسورون والمتوسطون يخزنون مؤنهم من القمح لسنة حيث يشترون حاجتهم في الموسم، وكان مقياس وحدة القمح (الطبة) ووزنها عشرون رطلاً على ما ظل في ذهني، وقيمتها تتراوح في فتوتي بين الثلاثين والأربعين قرشاً، ويؤتى بالقمح الى البيوت فتغربله النسوة بالغربال ثم يتممن تنقيته من الحصى باليد ويعبأ بعد ذلك في الأكياس. وفي كل شهر يرسل كيس منه الى الطاحونة. وكثير من المتوسطين يأخذون قمحهم شهرياً أيضاً، وكانت الطواحين الى نهاية القرن التاسع عشر تدور بالماء أو بالدواب، وفي حالة الماء كان يسلط الماء كشلال من مرتفع على دولاب مكوز في وسطه حجري الرحى الضخمين اللذين كانا يصنعان من صخر صلد أو صوان، فيدور الدولاب ويدور بدورانه الحجران. ويلقم الحجران القمح من فتحة فوقهما وينزل طحيناً من أطرافهما الى صندوق، ويعبأ الطحين في الكيس ويرسل الى

صاحبه أو يأخذه صاحبه. واذا لم يكن ماء يربط حمار أو بغل بدولاب حجري الرحى فيدور ويدور الحجران. وأنا أعرف طاحونة ماء كانت تحت قناة من أقنية رأس العين يصب في مثل البئر فيكون شلالاً مسلطاً على الدولاب. وكان في نابلس مطاحن على الدواب. وكان في جهة الغور في شرق نابلس تبعد نحو خمسة عشر كيلو متراً ينابيع مياه غزيرة تسمى (الباذان) يدار عليها طواحين أيضاً، وكان في القرى طواحين عديدة معظمها تدور بالدواب، وفي فتوتي صار تأتي موتورات تدور بالبخار، وصارت تحل محل الدواب والماء في إدارة حجار رحى الطواحين.

وحينما يعود القمح المطحون الى البيوت ينخل بالمنخل لتنقيته من النخالة. أما الفقراء فيشترون طحينهم يومياً. وكان معظم الناس بل كلهم يعجنون طحينهم في بيوتهم في أوان خشبية مدورة ومقعرة يسمونها (باطية)، ويخمر بالخميرة وينتظر ساعتين أو ثلاثاً حتى يخمر ثم (يقرّص) أي يقطع قطعاً بحجم القبضة، ويرش عليها طحين ثم تصف على (طبليات) خشبية مرشوشة بالطحين أيضاً، فيحملها الأولاد أو الخدم الى الفرن. وكان في نابلس أفران عديدة معظمها في الحارات، وهي قبو مستطيل معتم على الأكثر في جدار من جدرانه تجويف له فتحة مربعة، وفي داخل التجويف قسمان قسم للنار وقسم مبلط لوضع عجين الخبز. فيتناول الفران قطع العجين ويرقها حتى تصبح رغيفاً ويضعها على (مطرحة) طويلة من الخشب ويقذف بأرغفة العجين على البلاط الحامي ويقلبها حتى تستوي فيخرجها ويقذف بغيرها وهكذا. وكان الأولاد يأتون بالبيض (ليفقسه) الفران لهم في بعض الأرغفة، ويؤكل ساخناً لذيذاً، وكانوا يضعون قطعاً من الجبن في أرغفة العجين مع شيء من السمن فيؤكل ساخناً لذيذاً. وكانت الأفران تشعل بوقود يسمى (النتش)، وهو نبات بري شوكي ينبت في الجبال والبراري فيذهب العامل مع حمار فيقطعه حينما يصير يابساً ويحمله على الحمار ويأتي به للفرانة فيشترونه ويخزنونه في (بوايك) تابعة للأفران. وكان بعض الفرانة وغيرهم يصنعون خبزاً على حسابهم ويبيعونه للفقراء والغرباء. وكان بعضهم يصنع كعكاً أو (كماجاً) للبيع، وهي عجين مرقوق بأسلوب خاص مرشوش عليه السمسم او القزحة ينتفخ ويحمر بعد الخبز. ويكون لذيذاً ولا سيما حينما يكون ساخناً، وترسل البيوت الى الأفران على الصواني عجيناً محشواً بالسبانخ الملتوت بالزيت والمزيج بالبصل المقلي والسماق، وهو ما كان يسمى (سنبوسك). وعجيناً محشواً باللحم المفروم مع الصنوبر الملتوت بالسمن وهو ما كان يسمى (صفيحة). وترسل البيوت إلى الأفران أيضاً صواني الخضار المشكلة التي تسمى (كواج)، وكانوا يسمونها (صينية). كما ترسل صواني الكعك والمعمول والخبز الملتوت بالسمن المرشوش بالسمسم والقزحة المسمى (فتوتا)، والكعك الصغير الملتوت بالسمن المسمى (قظماظا)، وترسل اليها قدور اللحم والأرز التي يوضع فيها الحمص، ويكون كل ذلك بالفرن ألذ. وأكثر ما يصنعون القدور للنزهات التي يسمونها (شطحات) و(سيران)، ويضعون اللحم والحمص مع الماء أولاً في القدور ويقذفونها للأفران الى أن تستوي نصف استواء، ثم يخرجونها ويضعون عليها الأرز بعد غسله ونقعه وقتاً بالماء، ولما يستوي القدر

يخرج من الفرن ويرش بالسمن وهي أكلة لذيذة.

وفي شبابنا الأول جاء أرمني لنابلس فأنشأ فرناً حديثاً واسعاً نظيفاً ومرتباً في الشارع القبلي لجهة الغرب، وكان يوقده بالحطب ويصنع خبزاً بالقوالب ضخماً يسمونه (افرنجياً) حسن الاستواء، ويصنع معجنات حلويات. وصار الحلوانيون يرسلون اليه صواني البقلاوة والفطاير المتنوعة.

وكانوا يهتمون لخزن الجبنة أيضاً، حيث كان الميسورون بل والمتوسطون يشترون الكمية التي يحتاجون اليها في الصيف والشتاء. وفي موسم الربيع يقطعونها قطعاً بمقدار نصف الكف ويملحونها ويكبسونها اياماً ثم يغلونها ثم يضعونها في تنكات أو جرار. ويضعون عليها ماء مملحاً مغلياً يسمونه (مرش)، وكان هناك قرى مشهورة بجودة صنع الجبنة من حليب الغنم ويكون ثمنه أكثر قليلاً. والجبن يباع برطل برّاوي على الأكثر، وهو يزيد مائة درهم على الرطل العادي، حيث يكون (1000) درهم في حين أن العادي هو 900 درهم، وكان سعر رطل الجبنة في فتوتي عشرة قروش، وكانوا وبنوع خاص الأسر الفقيرة وهي الكثرة الساحقة، يهتمون بتتبيلة الزعتر وتسمى (دقة)، حيث ينشفون الزعتر ويهرسونه ويملحونه ويضعون فيه السماق والسمسم، ومنهم من يضع شيئاً من الكراوية ويكون (ادام) فطورهم وفطور أولادهم. ومن الطريف أنهم كانوا يحثون أولادهم عليه بقولهم انه (يساعدهم على الحفظ)، فكان الأولاد يلتهمونه بينما كانوا يذهبون للمدارس، حتى بدون خبز. وكانوا لأجل التوفير يقولون لهم إن الجبن يولد في بطونهم الدود ليقللوا من التهامه.

وكان معظم البيوت يصنعون الشعيرية الرفيعة من العجين فيفتلونها وينشفونها وقد يحمصونها ويخزنونها ويطبخونهامخلوطة بالأرز وبالعدس، ويصنعون أحياناً منها أكلة برأسها بماء البندورة والبصل، وعلى ذكر ماء البندورة نقول إن البيوت كانت تهتم لصنع رب البندورة وخزنه لاستعماله في طبخات متنوعة، وكانوا يشترون البندورة حينما تحمر وتكثر وترخص حتى يصبح ثمن الرطل قرشاً أو أقل، فيشتري الواحد عشرين رطلاً أو أكثر، (يفغشونها) وينقونها من البذر والقشر، ثم يضعونها في حلل مغطاة بالقماش على أسطح المنازل معرضة للشمس حتى تجمد قليلاً، ثم يعبئونها في أوان زجاجية أو فخارية، ومنهم من كان يصنع مثل هذا الصنيع بالرمان ليكون لهم منه (رب الرمان) لاستعماله في طبخات متنوعة أيضاً. وكانوا كذلك يهتمون لصنع المخللات وحفظها في أوان فخارية وزجاجية واستعمالها (اداماً) أو مع الأكل، وكانوا يصنعون المخللات من الخيار والقثاء والباذنجان واللفت والجزر فينظفونها و(يشقونها) ويضعون عليها الماء والخردل والليمون. وكانوا يصنعون من الباذنجان (مكدوساً) وهو باذنجان محشو بلب الجوز والثوم معاً. ومما كانوا يهتمون لخزنه الزيتون الأسود والأخضر. وكانوا (يشقونه) ويضعون عليه الملح والزيت فيسمى (رصيعاً). وكانوا يبقونه بدون شق ويضعونه في ماء (مكلس) وقتاً ما حتى يستوي ويسمونه (مكلس)، وكانوا يأكلون الزيتون هذا مثل المخلل (ادما) برأسه أو مع الطعام.

وكانوا يهتمون بمونة الزيت ويهتمون ليكون قليل العكر والحموضة، وهناك زيت مونة جيد يسمى (أفغيش) ينقى الحب ويغسل وينشر على

السطح وقتاً ما ويغلى بماء ساخن ثم يرهص رهصاً خفيفاً، فيكون ما ينزل منه من الزيت خالياً من الوسخ والحموضة الشديدة، والزيت يباع بالجرة. ووزن ما في الجرة سبعة أرطال براوية. وكان السعر يتراوح بين السبعين والستين قرشاً، وكان موسم الزيتون يتقلب بين الشح والخصب سنة بعد سنة، وكان موسم الشح يسمى (شلتونة) وموسم الخصب يسمى (ماسية)، والفرق في السعر حسب الخصب والشح. ولقد كان في منطقة نابلس التي تشمل قرى أقضية جنين وطولكرم وجماعين كروم زيتون كثيرة، وكان في القرى الكبيرة التي يكثر حولها كروم الزيتون معاصر للزيتون تسمى (بد)، وهي مكابس من حجري رحى يتحرك الفوقاني منهما بمحرك آلي فيرتفع ويوضع بين الحجرين قفف مملوءة بالزيتون الذي يكون قد قطف ونشر على السطوح أياماً لترطيبه بالندى، ثم ينزل الحجر الفوقاني ويكبس القفف كبساً شديداً بواسطة المحرك، فينزل الزيت من طرفي حجري الرحى الى أقنية ثم الى أحواض، ويعبأ بقرب مدبوغة تسمى (خروقاً)، وأكثر محصول زيت المنطقة يشتريه أصحاب معامل الصابون في نابلس حيث وجد فيها منذ القديم عدد من هذه المعامل تسمى (مصابن) جمع (مصبنة) نتيجة لكثرة كروم الزيتون. والنوى الذي يتكسر أثناء الرهص يعبأ في أكياس ويشتريه أصحاب المصابن أيضاً. فيكون وقوداً شديد الحرارة لطبخ الصابون، ويظل يحتفظ بقوة حرارية بعد طبخ الصابون، حتى إن الناس يشترونه أو يطلبونه أو يستهدونه من المصابن، فيكون فرشة تحت الفحم في المناقل يزيد في الحرارة ويحفظ نار الفحم من الذوبان السريع ويسمونه (دقا)، وسيأتي فيما بعد شرح لصناعة الصابون في المصابن ونشاط أصحابها.

وكانوا يهتمون بمونة (المعقود) من السفرجل والعنب والقراصية والمشمش. والقراصية تشبه الكرز الأسود حجماً ونوى إلا انها أشد حموضة منه، وكانت هذه الفواكه تقطف وتغلى ثم يعقد عليها السكر وتحفظ في أوان فخارية أو زجاجية. وكانوا يهتمون بمونة البرغل الذي كثيراً ما يصنعونه في البيوت. فيغلون القمح وينشرونه فيكون برغلاً فيطحنون بعضه للكبّة ويجرشون بعضه للمجدرة.

وبمونة السمنة التي يحرصون على أن تكون من النوع الجيد من حليب الغنم أو البقر، وكان في مناطق نابلس والبلقاء بدو يربون الغنم والبقر ويصنعون من حليبها السمن ويأتون به في أوعية من جلد تسمى (ظروفا) فيشتريه البائعون ويخزنونه، وكان سعر رطل السمن يتراوح بين الخمسة عشر والعشرين قرشاً حسب الجودة والموسم، وكان هناك زيت آخر اسمه (السيرج) وهو مستخرج من السمسم، وكان في نابلس بضعة معاصر لعصر السمسم شبيهة بطاحونة القمح ويدور رحاها بالدواب. حيث يلقم الحجران حب السمسم من انبوب فتهرسانه ويخرج لزجاً هو ما يسمى (الطحينة)، ثم تعصر الطحينة بالدوس ويكون العصير هو السيرج، وما بقي بعد العصر يسمى (كسبة)، يبيعه بعض الجوالة في الأحياء للفقراء ويكون (ادماً) لأن فيه بقية من السيرج، وكان يقلى بالسيرج عجين ليصنع منه ما يسمى أقراص الزلابية، وهي رقيقة، ويكون حجمها أكبر من الرغيف، ويعمل منه ما يسمى (قرص بالثوم) حيث يخلط بالعجين غير الخامر ثوم ويفقس عليه بيض ويكون القرص أكبر حجماً من الرغيف وهو أكلة لذيذة. وكذلك الزلابية التي كانت تؤكل بالسكر

أو الدبس أو حلاوة القرع. وكان السامريون بخاصة يكثرون من استعمال السيرج في مآكلهم، وسعره مثل الزيت وأحياناً أقل وأحياناً أكثر.

وكان أصحاب معاصر السمسم يبيعون الطحينة بدون عصر، حيث كان في نابلس اناس يصنعون منها حلاوة الطحينية بطبخها مع السكر ومعالجتها ببعض أنواع الدقيق، وحيث كانت الطحينة تدخل في مآكل عديدة مطبوخة وغير مطبوخة أيضاً.

وللسمسم زميل أسود هو القزحة التي كانت تسمى (حبة البركة) أيضاً، وكانت هي الأخرى تهرس ثم يستخرج منها زيت يستعمل في علاجات عديدة، وكان يباع مهروسا بدون عصر أيضاً كالطحينة، فيطبخ بالسكر ويوصف أكله للمرضعات لأنه مدرّ للحليب، ويحفظ فيكون مونة مثل المربيات، ويصنع منه فطائر بإضافة بعض الدقيق إليه، ويخبز على صوان في الأفران. وكان يصنع بمزيج الطحينة ومهروس القزحة والسكر طبخة لذيذة وتسمى (البقباقة).

وكان غلة القزحة أقل من السمسم، فكان الناس يشترونها ويطبخونها في بيوتهم، وكان في كثير من البيوت مطحنة يد صغيرة وهي حجرا رحى صوّان صغيران مدوران محبباً السطح كأحجار الرحى العادية، وكان التحتاني ثابتاً والفوقاني متحركاً له مقبض يحرك به وفيه فتحة يوضع فيها الحب فتهرس حبات القزحة، وينزل من طرفي الحجرين لزجاً بزيتها، ويستعمل أهل البيوت هذه المطاحن أو مطاحن مماثلة لهرس السمسم وجرش العدس والبرغل أيضاً.

والشيء بالشيء يذكر، فقد كان في كثير من البيوت مطاحن صغيرة لحب البن حيث يحمص ثم يطحن فيها، وكانت نوعين: واحد خشبي كالعلبة له فتحة يلقم منها الحب وينزل في وعاء في العلبة، وآخر معدني اسطواني يلقم وينزل في وعاء فيه.

الحلويات النابلسية:

كان في نابلس بضعة محلات لصنع الحلويات، مثل محل أباظة ومحل ابسيس ومحل الفلاحة ومحل الجاسر، وهذه المحلات قريبة من بعضها وهي في الشارع القبلي للغرب بعد جامع النصر. وأنواع الحلويات التي كانت تصنع في نابلس هي الكنافة والبقلاوة والشعيبيات والفطائر والمعمول، وهي من عجين منخل تنخيلاً خاصاً، يرق بعد جفافه على لوح أو بلاطة ثم يبسط في صوان طبقتين بينهما حشو قلب لوز أو جوز أو صنوبر مهروس ممزوج بالسكر الناعم، والبقلاوة أصلب وأصغر، والشعيبيات وتسمى أيضاً (النمورة) أهش وأكبر وتحشى بالجبن أيضاً وتسقى البقلاوة والشعيبيات بالسكر المعقود (القطر) بعد استوائها بالفرن. والفطاير نوع من الشعيبيات ولكنها أكبر، وتصنع كل واحدة لحدتها، وتطوى بأسلوب خاص تربيعي، وتصف بعد ذلك على صوان وترسل الى الفرن، وبعد الاستواء تسقى هي الأخرى بالسكر المعقود، وبعضهم يرش السكر عليها دقيقاً. والنار التي تسوى عليها هذه الحلويات أهدأ من نار الخبز. ومن الحلوانيين من كان له فرن خاص لحلوائه، ومنهم من يتفق مع بعض الأفران لتكون النار أهدأ لحلوائه.. ولذلك فرح الحلوانيون حينما أنشأ الأرمني فرنه، لأن فيه المواصفات التي كانوا يتحرونها[1]. أما المعمول فهو دقيق سميد

(1) يتحرونها: ينشدونها أو يريدونها.

معجون بالسمن ومحشو بالجوز أو اللوز أو الفستق الممزوج بدقيق السكر وبحجم القبضة ومخرم السطح تخريماً خاصاً، ويصف على صوان مدهونة بالسمن، ويرسل الى الفرن وبعد استوائه يرش بدقيق السكر أيضاً.

والكنافة هي خيوط عجين يرش من جهاز له ثقوب على صينية نحاسية كبيرة تسمى (صدر)، موضوعة على موقد فيه نار حامية، حتى تستوي الخيوط استواءً أولياً. ثم تفرك وتفتت مع السمن على نار خفيفة، ثم يفرش الفتات على صوان نحاسية مدهونة بالسمن، وعلى الأكثر يجعل الفتات طبقتين، فيوضع على الطبقة الأولى حشو جوز الهند أو لوز أو جبن ينقع بالماء أولاً، حتى تذهب ملوحته ثم يفتت. وحشو الجبن هو الأكثر. ثم توضع على الحشو طبقة من الفتات، وتوضع الصينية على نار حجر وتدار أطرافها حتى يكون الاستواء عاماً لكل طرف، بالإضافة الى الوسط، وتزرق أثناء تدويرها بالسمن، وتكون كأنها قليت به. وبعد ذلك تقلب على صينية أخرى، ويصير القسم السفلي الذي كان موالياً للنار فوق والقسم الفوقاني تحت، ثم يرش السكر المعقود، وأحياناً يمزج الفتات بحبات من الصنوبر. ويصنع كل حلواني من الكنافة بالجبن كل يوم صينيات عديدة، ويقبل الناس على أكلها في محلاتهم وهي ساخنة وفي كل وقت.

وليس الحلوانيون فقط هم الذين يصنعونها، بل معظم بيوت نابلس تصنعها، وهي أكلة الحلو الشعبية التي تتقنها نابلس. وقد اشتهرت بها. وأهل نابلس يتقنونها ويتنافسون ويتندرون في اتقانها، ويأكلونها صباحاً وظهراً ومساءً وفي السهرات والسيرانات وفي المآتم والأفراح، ويتهادونها ويأكلونها مع الطعام ولوحدها، ويبدأون طعامهم بها أو بغيرها من الحلواء قبل تناول اللحوم والخضار، وظلوا على ذلك الى شبابي، بل منهم من ظل على هذه العادة الى ما بعد ترك معظم الناس لها وتأخيرهم الحلواء الى ما بعد اللحوم والخضار. والكنافة على الأعم الأغلب تحشى بالجبن بعد تحليته، وأحيانا تحشى بفتت الجوز واللوز والفستق والصنوبر وأحياناً لا تحشى. وصار الحلوانيون يصنعون في فتوتي كنافة يسمونها استانبولية، وكنافة يسمونها (مدلوقة)، والأولى هي خيوط عجين مع سمن يرش فوق الصدر النحاسي الموضوع على الموقد، والذي ترش عليها الكنافة العادية، ولكن خيوطها تبقى جامدة لا تفتت فتا بل تبسط على الصواني خيوطاً قصيرة طبقتين تحشى بينهما بالجبن المحلى أو قلوب الجوز واللوز والفستق وتقلى مع السمن، ثم تقلب ويرش عليها السكر المعقود، ويصنعون من خيوط الكنافة الاستانبولية مبرومات طويلة تبسط على دائر الصينية بعد حشوها بالجبن والقلوب، وتقلى بالسمن حتى تحمر وترش بالسكر المعقود بعد ذلك ويسمونها (بورمة) أو مبرومة. والمدلوقة هي عجين كنافة عادية تسوى على النار بالسمن دون أن تقلى، ثم تبسط على الصواني أو في (الجاطات) وتحلى بالسكر المعقود. ويوضع على وجهها قشطة الحليب طبقة سميكة نوعاً ما، أو قلوب الجوز واللوز والفستق. والبيوت تصنع هذه الأنواع الثلاثة أيضاً.

والقطايف عجين من عجين الكنافة يصب وهو لزج على رخامة موضوعة على موقد تحته نار قطعاً كالكف، وبعد أن تستوي كخبز رقيق تحشى بفتيت الجوز واللوز والفتسق والصنوبر الممزوج بدقيق السكر أو بالجبن بعد تحليته،

ويوضع على صوان نحاسية تدهن بالسمن وترسل الى الأفران حتى تستوي، ثم يصب عليها السكر المعقود. وبعضهم يقليها بعد الفرن بالسمن، وبعضهم يكتفي بما وضع بين الصواني وبين القطع من السمن الذي يكون قد تشرّبت به الأقراص وهي في الأعم صنع البيوت. وتصنع خاصة في رمضان، وقلما يصنعها الحلوانيون للبيع. وكانوا يصنعون في البيوت أكلات متنوعة من الحليب بالسكر، منها مهلبية الحليب بالنشا ومهلبية الحليب بدقيق الأرز ومهلبية الحليب بالأرز الحب، وكانوا يصنعون على هذه الأكلة أحياناً أرزاً مفلفلاً على حدة ويأكلون الأكلتين معاً ويسمونها (بحتيتة)، وكانوا يصنعون مهلبيات بالسكر من عصير التوت الشامي ويسمونها (توتيّة)، ومن عصير البرتقال ويسمونها (برتقالية). وكانوا يضعون هذه المهلبيات على مهلبيات حليب أيضاً. وكانوا يصنعون في البيوت (العوامة)، وهي عجين مرق مقلي بالزيت ثم يغطس في السكر المعقود، وكانوا في نابلس يسمونها (لقمة)، ولم تسمى عوامة الا مؤخراً. ويصنعون كذلك (عبابيل التوت)، وهي سميد معجون بالسمن والسكر مخبوز في الفرن، وتقطع قبل خبزها قطعاً بمقدار الاصبعين، وتقلم بآلة خشبية خاصة حتى يصبح ظهرها مقلماً بأقلام عميقة كأنها مجروحة.

وقد ذكرنا قبل أنه كان في نابلس من يصنع حلاوة الطحينة، ونقول هنا إنه كان فيها من يصنع حلاوة القرع أيضاً، حيث يقشر القرع الأصفر ويقطع قطعاً صغيرة وطويلة ويعقد عليه السكر، ويوضع عليه بعد ذلك قلب الجوز. وأكلها لذيذ مع الزلابية، ويصنعون معها حلاوة بيضاء تكون قاسية، وأظن أنها سكر ونشا، ويمزجون بها عشبة لا أذكر اسمها. ويضعون في قلبها قبل أن تجمد قلب الجوز وتكون لذيذة بدورها. ويصنع في البيوت أكلة أخرى هي (الكلاّج) وهو عجين مرق رخو يرصع بصورة خفيفة باليد على ظهر صينية محمية على النار حتى ينشف، فيكون كالمناديل، فيبسط على الصواني طبقتين وتحشى بالجبن أو القشطة، وتقلى على النار أو تسوى بدون قلي ثم تقطع بالسكين كل قطعة بمقدار الكف، ويصنع منها مبرومات كالكنافة الاستانبولية أيضا، وصار يأتي في شبابي من دمشق لفافات كلاج أبيض ناصع فيصنع به ما يصنع بالكلاج النابلسي، أو يعمل صرراً محشوة بالقلوب مغلية بالحليب غلياً خفيفاً. ويصنع الفلاحون في طوابينهم أكلة حلو اسمها المشلتت وهو عجين مرقوق رقاً رقيقاً يقلونه بعد خبزه بالزيت، ثم يتبلّونه بالسكر الناعم أو الدبس. وبالمناسبة أذكر أنهم يصنعون في طوابينهم أكلة لذيذة أخرى اسمها المسعَّن أو المسخّن، حيث يسوون الدجاج بعد تنظيفه ثم يلفونه بخبز ملتوت بالزيت الكثير ومتبل بالبصل المقلي والسماق، ويلفون ذلك بورقة أو خرقة أو يسخنونه ثانية في الطابون. وقد أكلت الأكلتين لأول مرة في قرية بيتا على بعد نحو 15 كيلومتراً من شرق نابلس، عند عميل لأبي وجدي اسمه حمدان. وكان عمري عشر سنين وقد ذهبت مع جدي.

شيء عن مطاعم نابلس ومحلات الطعام الجاهز بأنواعه:

ولم يكن في نابلس مطاعم واسعة مستعدة يؤمها الناس بدون حرج، في طفولتي وفتوتي، بل وفي شبابي، وقد أنشأ واحد مطعماً في شبابي في حانوت في الشارع الطويل القبلي،

ولكنه ظل متواضعاً يقضي حاجة الغرباء والمستعجلين بأطعمة متنوعة مطبوخة تعطى لهم في صحون موائد في الحانوت. وإنما كانت حوانيت صغيرة يشوي أصحابها اللحم قطعاً ومفتوتاً (كفتة)، حسب الطلب على مواقد خاصة في حوانيتهم، فيأخذها الناس ويأكلونها في محلاتهم، وكان في الحوانيت بعض مناضد وكراسي متواضعة ووسخة، فيأكل الفلاحون والغرباء ما يروق لهم من اللحمة عليها، وكان بعض أصحاب هذه الحوانيت يطبخون طبخاً أرزاً وخضاراً باللحم ومحشياً، فيتناولها الفلاحون والغرباء داخل الحوانيت أيضاً، وكانت هذه الحوانيت بالدرجة الأولى في شارع قاطع بين الشارعين الطويلين أمام جامع البيك ويسمى سوق الشواية، وكان في هذا السوق حانوت كبير معتم صاحبه من عائلة فلاحة يصنع فطاير خاصة بالسكر والجبن أو باللحم بعجين مرقوق وتكون لذيذة، وكان في حانوته لوح خشبي على قوائم وأمامه مقعد خشبي طويل، فيأكل الناس الفطاير عليها رغم الوسخ والعتمة أو يأخذونها الى محلاتهم. وفي هذا المحل تنور عليه صدر نحاس كبير لرش الكنافة أيضاً فيما أذكر، وفي نابلس محل أو محلان آخران لرش الكنافة والقطايف.

وبالإضافة الى محلات شوي اللحم فهناك شواؤون (للمعاليق) ليس لهم حوانيت وإنما يجلسون في زوايا بعض الشوارع وأمامهم منقل نار ومفرمة خشب وأسياخ واناء كبير فيه قطع (المعاليق)، فيجلس الناس أمامهم على كراسي صغيرة واطئة فيشوون لهم قطع المعاليق على الأسياخ ويأكلونها ساخنة متبلة بالسماق والملح وتكون لذيذة، وينادي الشواؤون هؤلاء على شوائهم بهتاف (تع معلق) أي (تعال وكل المعلاق)، وليسوا أصحاب حوانيت بل متنقلون.

والى هذا فقد كان هناك بضعة حوانيت في نقاط متعددة في الشارعين الطويلين يصنع أصحابها السلطات المتنوعة كالباباغنوج (باذنجان مشوي ومهروس وممزوج بالطحينة)، وحمص مغلي ومهروس ممزوج بالطحينة أيضاً المسمى في دمشق (بالمسبحة)، وحب الفول اليابس الذي يغلي في قدور نحاسية أو جرار فخارية ويدمس مع الزيت والثوم، والكوسا باللبن، والباذنجان باللبن، وسلطة البندورة، ومقليات ومتبلات الباذنجان والقرنبيط والبندورة، ومخللات الخيار والقثاء والباذنجان واللفت والجزر. وتوضع في أوان فخارية كبيرة تسمى (لقان)، وهي مخروطية عميقة ضيقة في أسفلها وتتسع في أعلاها، وعند أصحاب الحوانيت أوان فخارية كالصحون مخروطية عميقة في أسفلها وتتسع في أعلاها أيضاً.

وما تزال هذه الأواني مستعملة وخاصة الصغيرة يقدم فيها المسبحة والمدمس في دمشق، فيسكبون من اللقانات الكبيرة بمغرفة خشبية كبيرة للشارين، فيتناول هؤلاء ما فيها مع الخبز على مقاعد خشبية طويلة داخل الحوانيت، أو يأخذون اللقانات الصغيرة الى حوانيتهم ومحلاتهم، ويصنع بعض أصحاب هذه الحوانيت أكلة بالحليب يسمونها (مقيقة) وهي حليب مغلي مضاف اليه عصير خروب أخضر ويوضع عليها السكر دقيقاً، ويبيع بعضهم الحليب المغلي وحده، ويصنع بعضهم في الشتاء خاصة السحلب، وهو حليب مغلي مضاف الى عشبة المحلب. وأكلات الحليب هذه تكون في حلل نحاسية كبيرة توضع على مواقد حجرية، ثم صارت توضع على

البريموسات الكبير التي تجري بمصفى البترول المسمى بـالكـاز، ويكـون في بعض هـذه الحوانيت حلة نحاس كبيرة قائمة على موقد نار أو بريموس كبير فيها مقادم غنم ومرقة وقبوات محشية، وفيها مقعد خشبي طويـل أمامـه لوح خشبي طويل أيضاً، فيدخل الفلاحون والعمال والغرباء، فيصب لهم البائع في لقان أو زبدية مرقة يفتون فيها خبزاً ويأخـذون بعض المقادم والقبوات ينثرون أرزها فتكون فتة روس دسمة.

واستطراداً نقول إنه كان في نابلس محلان أو ثلاثة يصنع أصحابها شراب السوس والخروب، ومنهم أسـرة الخـراز، وكـانـوا يفتتـون عـروق السـوس وقرون الخـروب ويلفـون الفتيت في خرقة يضعونها في اناء معدني، ويضعون عليه الماء ويجري الماء في إناء آخر، ثم يأخـذونه ويصبونه مرة ثانية ومرة ثالثة ورابعة حتى يصطبغ ويصير أحمر قـانياً فيكـون الشراب، ويبيعـونه للشاربين، وكان هنـاك من يصنع الشـراب في قربة ومعهم طاسات نحاسية صغيرة يدقون عليها وهم يتجولون في الشوارع والأزقة، فيقبل عليهم الأولاد والكبـار فيتنـاولـون منهم الـشـراب بالطاسات مقابل سحاتيت نحاسية.

الفواخير في نابلس والأواني الفخارية:

وعلى ذكر لقانات الفخار أقول إنه كان في نابلس بضع فواخير لصنع الأواني الفخارية في حارة الياسمينة، حيث كان أصحابها يهـرسون الفخار حتى يصبح دقيقاً ويعجنونه ويصنعون منه على أجهزة ودواليب بدائية أوان فخارية متنوعة منهـا الصحـون الكبيـرة والصغيـرة المسمـاة لقانات. ومنها أباريق ماء بزعابيل، وجـرار ماء صغيرة وكبيرة، ومنها أوان كان يملأها القرويون بالحليب واللبن ويأتون لبيعها في نابلس تسمى (بقاليل) اسطوانية الشكل لها فتحة واسعة وهي جمع (بقلولة)، وكانت تسع نحو رطل، ومنها ما كان كبيراً يسع رطلين ويسمى (حالوبة). وننبه على أنه كان يأتي من الخارج الى نابلس أوان فخارية مثل الذي كان يصنعه فواخيريو نابلس، ولكن أحسن صنعاً ومدهونة بدهان ملون لماع يجعلها ملساء، وهذا هو غير الصحون والزبادي القيشـانية التي هي في أصلهـا فخار مـدهـون بـدهان أبيض متقن الصنـع، التي كـانت هي الأخرى تأتي من الخارج.

والـذين يشتغلون في الأسـواق والحـوانيت والأعمال من أهل نابلس كانـوا يتناولـون على الأغلب وجبـة غذاء خفيفـة حيث هم، وقلمـا يذهبون إلى بيوتهم لذلك، فيأكلون خبزاً وجبناً أو كعكاً مع الزعتر، أو خبزاً مع تين أو عنب أو بطيخ أو صبر أو مع متبلات أو مع صحن سلطة أو حـمص أو لحـم مشـوي من الحـوانـيت المـذكورة، أو يـرسل اليهم من البيـوت وجبة الغذاء الخفيفة من هذه الأنواع، أو تكون معهم حينما يخرجون في الصباح، أما الطبيخ فيأكلونه على وجبة العشاء حينما يفرغـون من أعمالهم ويعودون الى بيوتهم قبيل المغرب، وهذا وقت العشاء للأسر وللولائم معاً في طفولتي وفتوتي.

المـآكل المتنـوعة في نـابلس لمختلف الفئات وعادات نابلس في ذلك:

والطبخ اليومي من حظ الميسورين. وكـان أنواعاً كثيرة. أرز بالسمن، وخضار على أنواعها باللحم، ومحشيات الكـوسا والبـاذنجان وورق العنب والملفـوف واللخنة الخضـراء، والخيار والقثاء واللفت والجزر، ولم يكن يحشى الخيار والقثاء فيما عدا نابلس، والثـاني يطبـخ باللبن والأول يقلى بالسمن، وكلتا الأكلتين لذيذتان، ويعمل خروف محشي وأضلاع محشية ودجاج محشي، ويعمـل أصناف عـديدة. ومن اللحم

والدجاج محمر أو مقلياً ومشوياً، والبيض في صور متنوعة من الأطعمة السائدة، ويؤكل مقلياً ومشوياً، ومع اللحم والبصل والصنوبر ويسمى هذا (مفركا)، ومع اللحم والبصل والصنوبر والسبانخ أو البندورة يسمى هذا (غزّالة)، ومع العجين والثوم وزهرة القرنبيط ويسمى هذا (مشاطا)، ويعمل عجة بالعجين وبدون العجين وبالثوم مع العجين وهو الذي يسمى (قرص بتوم). ومن الأطعمة السائدة (الصينية)، وهو الذي يعرف بدمشق باسم (كواج) المؤلف من أنواع الخضرة وقطع اللحم والبصل، وكانت ترسل الصواني الى الأفران، وقد تطبخ هذه الطبخة في البيوت أيضاً، ومن الأطعمة السائدة كبة البرغل المحشوة بمفروم اللحم والصنوبر. ومن هذه الكبة ما يكون مقلياً أو على صوان، ومنها ما يكون مطبوخاً باللبن. وكان يصنع من دقيق الأرز كبة ويطبخونها باللبن والطحينة محشوة باللحم والصنوبر وتسمى (أرنبية).

ومن الأكلات الدسمة أكلة (الروس)، وهي قبوات محشوة باللحم والصنوبر والأرز ومسلوقة ومعها فتة من لحم رأس الخاروف والمقادم، ومنها أكلة (المفتول) وهو الذي يسمى في المغرب العربي (الكسكس)، وكان في نابلس يسمى أيضاً (كسكسون)، وهو حبات من البرغل والملح والدقيق تحبب على الغربال وتنشف، ثم تطبخ في مصفاة على بخار ماء في قدر تحتها على النار، ويؤكل معها يخنة مع الحمص والبصل والمطبوخة بالدجاج. وتطبخ الملوخية بالدجاج وباللحم. ومن المآكل اللحوم المحمرة والمشوية والمطبوخة. وكذلك الدجاج والمعاليق والكلاوي وبيض الغنم. وكان يأتي أحياناً من يافا سمك طازج يصنع فيه أكلة الصيادية أو يؤكل مقلياً أو طاجناً مع البندورة، وكان يطبخ العدس واللوبيا الجافة والفول الجاف أيضاً باللحم. أما الفاصولية اليابسة والطرية الطازجة فلم تكونا معروفتين في طفولتي، وإن صارتا تعرفان وتطبخان في فتوتي وشبابي، ويلحظ أني لم أذكر المعكرونة وذلك لأنها لم تكن من الأكلات التي كان يطبخها ويأكلها النابلسيون في طفولتي وفتوتي، وكانت كالفاصولية اليابسة مما يأكله ويطبخه الموظفون الغرباء، ثم صارت في شبابي من جملة ما يطبخ ويؤكل، وهذا ما كان شأن البطاطا أيضاً. ومن عاداتهم العامة عصفرة الأرز، فلم يكونوا يأكلون الأرز الا معصفراً أي يضعون العصفر في الماء المغلي الذي يوضع فيه الأرز عند طبخه فيصبح الأرز أصفر وذا نكهة لا بأس بها.

والفواكه والحلويات تؤكل مع الطعام وفي غير أوقات الطعام أيضاً، والصبر والتين والمشمش والتوت غالباً ما كان يؤكل في الصباح ومع الخبز بمثابة (كسر صفرة).

ومن الحق أن أذكر أن الميسورين الذين يطبخون يومياً لم يكونوا مسرفين، وكانوا يكتفون في الأيام العادية بصنف أو صنفين، أما في ولائمهم فتكون الأصناف متعددة. ويأكلون مع أنواع الطبيخ أنواع الحلويات التي وصفناها قبل والتي كان أكثرهم يتناولها الى وقت متأخر من فتوتي قبل الطبخ، ويتناولون أنواع الفواكه حسب الموسم التين والتوت والصبر والعنب والبطيخ والشمام والمشمش والدراقن والبرقوق في الصيف. والبرتقال والليمون في الشتاء، وكان الشمام والبطيخ يأتي من ناحية طولكرم، والبرتقال والليمون من ناحية يافا، والصبر من جبل نابلس الشمالي، والعنب والتين والمشمش من بساتين نابلس وقراها المجاورة. والمتوسطون يطبخون مثل هذه المآكل، ولكن

ليس يومياً، ويأكلون الطبخة على يومين، ويصنعون للأيام الأخرى أكلات أقل كلفة مثل (المجدرة) بالبرغل والزيت والعدس مع اللبن والسلطة و(المصفّية)، وهي أكلة رز ولبن مطبوخ مع قرنبيط أو فول بلحم وبدون لحم، وخضروات بالزيت مطبوخة ومقلية، وكانوا يسمون الأيام التي لا يأكلون فيها طبيخاً (شلتونة)، والأيام التي يأكلون فيها طبيخاً (ماسية)، وهذان اصطلاحان يطلق أولهما على موسم الزيتون غير الخصب، وثانيهما على الموسم الخصب. أما الفقراء فقد لا يطبخ الواحد منهم طبخة لحم وخضار وأرز في الشهر أكثر من مرة، وبقية الأيام تمشي بأكلات عادية خفيفة، جبن وزيت وزيتون ولبن وسلطات ومقليات ومقبلات ومخللات وحلاوة طحينية الخ.. ومن أهم أكلاتهم في الشتاء خاصة شوربة العدس التي يفت فيها الخبز ويؤكل معها الفجل، وكان بياعو الفجل يعرضون على فجلهم (الفجل يا راعي العدس)، وكان من رؤوس الفجل يبلغ طوله ربع متر وغلظه خمسة سنتمرات.

ولم يكن الناس يعنون كثيراً بالفطور الذي يسمى (كسر صفرة)، وكانوا يتناولون على الأكثر أو أكثرهم قطعة خبز مع جبنة وزيت وزعتر، أو مع صحن حمص، وقد يتناولون تيناً أو صبر، وقد يتناولون في الصباح فنجان قهوة بالسكر أو فنجان شاي، وقد يكون شأن الميسورين أحسن ولكن العناية بالفطور عامة قليلة بالنسبة للجميع.

وكان معظم الناس بل كلهم أولا يتناولون طعامهم وهم جلوس على الأرض، ويضعون الخبز وأواني الطعام على الحصيرة أو على شرشف أو على منضدة خشبية واطئة مدورة يسمونها (ميدة) من (المائدة)، وكان الجميع يتناولون من الآنية والأطباق مباشرة بأصابعهم وأيديهم أو بملاعق خشبية صارت فيما بعد معدنية، ثم صاروا ـ وبخاصة الميسورون ـ يضعون أواني الطعام على موائد مصفوف حولها الكراسي، وظلوا مع ذلك الى وقت متأخر من شبابي يتناولون من إناء واحد، ثم صاروا يضعون لكل واحد صحناً خاصاً يغرف اليه من آنية الطعام الكبيرة، ثم صاروا يستعملون الشوكات والسكاكين مع المعالق، وظل مع ذلك عامتهم على الطريقة القديمة الى أمد غير بعيد، ولعل منهم من يفعل ذلك الى اليوم. وكانوا يشربون من الأباريق مباشرة، ثم صاروا يشربون بالكاسات جماعياً ثم أفرادياً، وكان الرجال يأكلون في البيوت وحدهم والنساء يقمن على خدمتهم مع الأولاد، ولم يبدأ الأكل الجماعي في الأسرة نساء ورجالا وأولاداً الا في وقت متأخر من بدء شبابي.

مآكل القرى:

أما القرى فقد زرت كما قلت سابقاً كثيراً منها، وأقول إن حياتها المعيشية بائسة كمساكنها، وأكثرهم يعيشون على خبز الذرة والشعير والبصل والزيتون واللبن والحليب والسلطة والعدس والفجل والبرغل وما ينتج عندهم من خضروات وفواكه، وليس في القرى الصغيرة لحامون، وكل أمرها أن واحداً يذبح رأس غنم أو ماعز في الأسبوع، فيشترون لحمها ويطبخونه. وكثيراً منهم يربّون دجاجاً فيتدسمون[1] به وببيضة من آن لآخر، ويمكن أن يستثنى الميسورون منهم من هذا الوصف العام بعض الشيء.

---

(1) يأكلون دسماً.

الخضراوات والفواكه:

لقد ذكرنا قبل أنه في نابلس بساتين يزرع أصحابها أو مستأجروها فيها أنواع الخضروات، وكان فيها بساتين فيها بعض أشجار الفاكهة ولكن ذلك لم يكن ليكفي حاجة المدينة، وكانت غالية نوعاً أيضاً، فكانت القرى القريبة من نابلس تسد الحاجة من ذلك.

وكان القرويون وخاصة النساء يأتين في الصباح الباكر إلى نابلس يحملن (القراطيل) و(الجون) التي فيها أنواع الخضراوات والفواكه وأواني الحليب واللبن، والقراطيل جمع (قرطل) وهو سلة من أعواد رفيعة من الشجر مشبكة على شكل سلة عرضانية أكثر منها طولانية ولها مقبض. والجون جمع (جونية) وهي إناء من قش مبروم كالأصابع مدور بعمق نحو ربع متر، جدرانه وقاعه من هذا القش المبروم، ويكون فيها المشمش والعنب والتين والبندورة والقرنبيط والخيار والباذنجان والفقوس (القثاء) والكوسا وعرائس الذرة الصفراء، ويكون معهن صرر قماش فيها نباتات برية مثل الزعتر والصناب وهذا نبات خردلي الطعم يوضع في اللبن وورق ملفوف يسمى (لسينة)، وآخر يسمى لخنة خضراء غير الملفوف المعروف، والخبيزة وسنابل حب بري اسمها (السيبعة)، وغير ذلك حسب المواسم، كما كن يحملن في جونهن بقاليل الحليب واللبن وحالوباتهما، وقد شرحنا ماذا تعني البقلولة والحالوبة في مكان سابق.

وكان في ناحية البوابة الشرقية من المدينة دكاكين خاصة، يستقبل أصحابها نساء القرى الشرقية اللاتي يأتين بهذه الأشياء ويتولون بيعها بالعمولة. وكانت بعض القرويات يجلسن في قرن الشارع ويبعن أغراضهن بأنفسهن بدون واسطة، وكان في القاطع المسمى بالمصلّبة في غرب المدينة دكاكين يتولى أصحابها كذلك نسوة القرى الغربية، وكان في وسط الشارع الشمالي بعض دكاكين تستقبل نسوة القرى الشمالية اللاتي يأتين بأغراض مماثلة، فكان الناس يزدحمون على هذه الدكاكين لأخذ حاجاتهم اليومية من اللبن والحليب والخضرة والفاكهة، وكان الى هذا دكاكين متخصصة لبيع الخضرة والفاكهة أيضاً، يأخذ الناس حاجاتهم منها في الصباح وغير الصباح، وكانت بعض القُرى تجيد تحضير اللبن والحليب أكثر من غيرها، وكانت قرية صغيرة تسمى عصيرة الشمالية بخاصة، وهي تقع وراء الجبل الشمالي بعد مسافة من مقام عماد الدين مشهورة بلبنها خاصة، وكانت (بقلولتها) تباع بضعفين أو أكثر من سعر غيرها، وكان سعر (بقلولة) اللبن بقرش أو قرش ونصف أو قرشين، فكانت تباع بزيادة قرش عن غيرها. أما الحليب فكان أرخص قليلاً من اللبن مع تفاوته وجودته.

وكان التين أنواعاً وأحسنها يسمى (العدلوني)، ومن جيدها نوع يسمى (الخضاري) أو (الخضراوي)، وكان رطل التين يتراوح بين القرش والثلاثة حسب الموسم والكثرة والجودة. وكان العنب أنواعاً وأحسنها يسمى (الزيني)، وهو طويل أصفر رقيق القشرة، وكان سعر العنب أعلى. ولم يكن في القرى القريبة من نابلس كروم عنب كثيرة وجيدة الأصناف، وكان ذلك في قرى تبعد بضع ساعات عن نابلس في طريق القدس مثل سنجل وسلواد وقرى تابعة للقدس أخرى، فكان أصحاب الكروم يأتون بعنبهم معبأة في أوعية قشية تسمى (السلال) واحدها (سل) مدورة وعميقة نحو نصف متر أو أقل ومغطاة بورق

العنب. وكان يأتي عنب من دمشق أحياناً في أوعية خشبية تسمى (سحاحير) جمع سحارة[1].

أما البطيخ والشمام والبرتقال والليمون فكان من محصول قرى بعيدة نوعاً عن نابلس في جهات طولكرم ويافا، حيث تكون مقاثي البطيخ والشمام وبساتين البرتقال والليمون، فيؤتى بمقادير منها في مواسمها الى نابلس محملة على جمال ودواب وينزلونها في خان له ساحة واسعة على الشويترة. وكان يؤتى به في الليل فيذهب الناس في الصباح فيشترونه. وكان سماسرة بالعمولة يتولون بيعه. منهم من يشتريه لبيته ومنهم من يشتريه لبيعه في مخزنه، وكان كثير من الناس يشترون كميات من البطيخ والشمام ويخزنونها ويتناولونها في مختلف الأوقات وبخاصة بعد نهاية الموسم.

شيء عن أحوال التجار ونشاطهم وشؤون التجارة في نابلس وأسفار التجار التجارية:

وتجار خان التجار كما قلنا يتعاطون بيع المنسوجات على أنواعها، وقلة منهم يبيعون المنسوجات التي يستعملها أهل المدينة فقط، وأكثرهم يجمع بين المنسوجات التي يستعملها أهل المدينة وأهل القرى، وأكثرهم يشتغل بحاجات كسوة أهل القرى بالدرجة الأولى، ومنهم من كان يهيء كسوة أهل القرى جاهزة من قنابير وصداري وقمصان وسراويل، وبعضهم يحسن التفصيل فيفصل ذلك ثم يرسله للنساء في البيوت ويخيطنه، وبعضهم يرسل الأقمشة للخياطين فيفصلونها ويخيطونها. وكان أبي وزملاء آخرون ممن كانوا يهيئون هذه الأكسية ويبيعونها جاهزة، وكان أبي وجدي يفصل القماش بيده ويرسله الى نسائنا ونساء جيراننا ليخطنه، وكان من التجار من يبيع للطارئين، ومنهم من كان له عملاء ومنهم من يجمع بين هذا وذاك، وكان أبي وزملاء آخرون من هذا النوع، وكان العملاء الفلاحون على الأغلب يأخذون أكسيتهم بالدين لموسم العنب والتين والزيت أو القمح والشعير. وطبعاً كان الثمن يزيد على البيع النقدي بنسبة المدة. وكانوا يكتبون سندات على الفلاحين بهذا الدين، ويعينون فيها وقت السداد، وحينما يحل الموسم المعين للسداد يأتي العملاء فيبيعون محاصيلهم الموسمية ويسددون ديونهم.

وكان أصحاب الحوانيت يذهبون الى قرى عملائهم في المواسم المحددة لاستيفاء ديونهم. وكان لأبي وجدي عملاء في قرية حجة وقرية بيتا وقرية أومرين، الأولى تقع غرب نابلس وتبعد نحو عشرين كيلو متراً والاثنتان الأخريان تقعان شرقها على نفس المسافة، وكان جدي وأبي يذهبان في المواسم الى هذه القرى لاستيفاء ديونهم وذهبت أكثر من مرة معهما. ومما جرى أن أبي أزمع مرة الذهاب الى قرية حجة فطلبت منه أن يأخذني فأبى، وكنت اذ ذاك في السنة التاسعة من عمري فذهبت وقتها الى قرية رفيدية التي كانت تبعد عن نابلس نصف ساعة وفي طريق قرية حجة، ووقفت في الطريق حتى أقبل هو والحاج أنيس التميمي الذي كان له عملاء أيضاً في قرية حجة، واتفق هو وأبي على الذهاب اليها حيث كانا صديقين حميمين، وكان كل منهما راكباً فرساً فرآني ولم يكن بد لأبي من أخذي معه. ولما صارت الدنيا عتمة ولم أعد للبيت قلقت أمي وجدي. وكان لنا جيران من دار السائح عندهم خيل فركب اثنان منهم وجاءا الى قرية حجة للسؤال عني ووصلا بعد العشاء، ولما عرفا أني مع أبي

(1) السحارة: صندوق الخشب.

عادا مسرعين الى نابلس لتطمين أمي وجدي.

وكان تعامل التجار مع الخارج وجلب البضائع يتم من بيروت ودمشق على الأعم والأغلب. فمن بيروت المنسوجات الافرنجية على اختلافها قطنية وصوفية وحريرية. ومن دمشق المنسوجات والمصنوعات الوطنية التي كانت رائجة جداً، حتى تكاد تكون جميع ملبوسات الفلاحين والمتوسطين والفقراء من المدنيين منها من الرأس الى القدم عدا القماش القطني الأبيض الذي كان يسمى (بفت)، أو غير الناصع البياض الذي كان يسمى (مالطي) أو (منصوري) أو (خام)، والذي كان يصنع منه القمصان والسراويل وتبطن به المنسوجات الدمشقية، ويكون ملاحف وأغطية قطنية للفرش حيث كان هذا القماش يجلب على الأكثر من بلاد الانكليز. وكان أنواع من البفت تصبغ بالنيلة الزرقاء في مصانع محلية ويصنع منه الفلاحون والبدو أثواباً.

وكان تاجران أو ثلاثة في بيروت ومثلهم في الشام هم عملاء تجار نابلس المعتمدين، وكانوا يسمون (الجرّيدة)، ففي بيروت مصباح قريطم ثم ابن أخيه توفيق، وأناس من بيت الزعني ومن بيت الشريف وبيت الغندور. وفي دمشق من بيت الحفار ومن بيت منصور ومن بيت خطاب ومن بيت تويان. وكان للدمشقيين هؤلاء أو بعضهم أنوال يحاك عليها لحسابهم قطع القماش التي تخيط ثياباً والتي كانت تسمى (صايات) و(ديما)، والتي كان يصنع منها قنابيز المدنيين والفلاحين في الدرجة الأولى في ألوان وتقليمات متنوعة، وكل قطعة تكون بمقدار الثوب وتكون متفاوتة في الجودة والسعر والنسج، ويكون بعضها قطناً صرفاً وفي بعضها خيوطاً حريرية، وكان أصحاب الأنوال يضعون عليها أوراقاً مختومة بأسمائهم. وكان أجودها مصنوعات (حسن الحفار) وما كان يصنع في دمشق ويصنع منه القنابيز المدنية خاصة الصايات المسماة الشاهيات. وأكثر مادتها حرير مع القطن. وكانت متنوعة الألوان والتقليمات متفاوتة الجودة والسعر أيضاً، وكان يصنع في دمشق وحلب حطات الحرير التي يغطي الفلاحون بها رؤوسهم ويضعون فوقها العقال متنوعة الألوان والتخطيطات متفاوتة في الجودة والسعر أيضا. والجوارب الصوفية والقطنية المتنوعة، والصرامي (جمع صرماية وهي الأحذية الجلدية الخفيفة) والجزمات وهي كذلك أحذية جلدية من مرغوبات البدو خاصة.

وحلاوة القرع الصفراء، وحلاوة بيضاء، والحلويات الناشفة والمشبكات الفستقية التي كانت تأتي بعلب خشبية زاهية الخ...

وكان لكل من (جرّيدة) بيروت ودمشق معتمدون في نابلس لجمع ثمن البضائع التي يرسلونها الى التجار حسب طلبهم. وكان الجمع أسبوعياً حيث يدفع التجار ما يكونوا جمعوه من مبيعاتهم نقداً ذهبياً الى المعتمدين، وكان هؤلاء يرسلون ما تجمع معهم من ذلك في البوسطة (صرة نقدية) اذ لم يكن مصارف في نابلس في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين.

وكان تجار نابلس يطلبون ما يحتاجون اليه من بضائع بقوائم يرسلونها الى العميل الذي يتعاملون معه في دمشق وبيروت. وهؤلاء يشترون ما ليس من مصنوعاتهم من محلات أخرى مقابل عمولة لهم، ويضعون البضائع فيما يسمونه (فردة) أو (حزمة)، حيث يفردون كيسين أو ثلاثة، ويضعون البضائع بعضها على بعض صفا متناسقاً ثم يلفونها ويربطونها ربطاً محكماً

بالحبال الرفيعة (المصيص)، ويكتبون عليها اسم طالبها. وكان هناك أناس مختصون بالتعبئة واللف يسمونهم (عكامين)، وكانت حزم البضائع ترسل من دمشق مع جمالة من حوران أو من أهل فلسطين يقطعون المسافة بين دمشق ونابلس في ثلاثة أو أربعة أيام. أما حزم، بضائع بيروت فترسل أولاً بحراً الى يافا ويكون لجرّيدة بيروت وكلاء في يافا أو معتمدون، فيستلم هؤلاء حزم البضائع من المرفأ الذي تكون قد نزلت فيه من البحر، ويرسلونها مع الجمالة الى نابلس. وكان الجمالة الذين يحملون البضائع من يافا من العريش على الأكثر ويسمونهم حرافشة وهم يقيمون في يافا لهذا العمل.

وكان تجار نابلس الذين يتعاملون بالأقمشة والبضائع الشامية والبيروتية متفاوتين في السعة والطلب، فالأغنياء والذين لهم عملاء كثيرون يطلبون بضائع كثيرة، والمتوسطون يطلبون بضائع قليلة. وكان من أصحاب الحوانيت التجارية في الخان من لا يطلب ولا يتعامل مع بيروت ودمشق لضعف حاله، فيأخذ ما يحتاج اليه أو ما يقدر على بيعه في حانوته من التجار الكبار الذين يأتون ببضائع كثيرة، ويدفع الثمن للتاجر أسبوعياً أو شهرياً حسب الحال.

وكانوا يسافرون على الأغلب الى بيروت ومنها الى دمشق عن طريق يافا فيركبون البغال مع البوسطة عن طريق عزون، ويقطعون المسافة في يوم ونصف، وذلك قبل أن تعبد الطريق بين نابلس ويافا وتجري فيها المركبات. وقد سافرت في طفولتي الى يافا فبيروت (1898م) بهذه الطريقة مع جدي على ما سوف أشرح أسبابه بعد، وفي فتوتي عبّدت الطريق فصار الناس يركبون المركبات بدلاً من البغال، ويقطعون المسافة في نحو تسع ساعات عن طريق طولكرم. وكانت المركبات التي صاروا يركبونها ذات مقاعد خشبية تسع ستة أشخاص أو ثمانية، مستطيلة الشكل وتسمى الكروسات أميركية، وكان لها سقف خشبي، وكان هناك مركبات صغيرة تسع لثلاث وأربع ركاب أحياناً خمسة تسمى (حنتور) أعلى سعراً من الكروسات وأسرع جرياً. وكما سافرت الى يافا فبيروت بالطريقة الأولى في طفولتي، سافرت في بدء شبابي بالطريقة الثانية مع أبي، وسأشرح أسبابه فيما بعد أيضاً.

ولم يكن في يافا مرفأ تقف على حافته البواخر، وكانت تقف على بعد كيلومتر أو أكثر في عرض البحر، وكان في المياه القريبة للبر من بحر يافا صخور تسمى (قرانيط)، وبسبب ذلك أيضاً لم تكن تتقدم كثيراً نحو البر. فكان المسافرون يركبون من الميناء زوارق يسمونها (فلوكة) توصلهم الى الباخرة في عرض البحر، وكانت أجرة الراكب فيها بشلك أو ربع مجيدي حسب التيسير، أما أجرة الباخرة فكان مجيدياً وربعاً درجة ثالثة أي على ظهر الباخرة. وهي الطريقة التي سافرت بها مع أبي وجدي، وكان أغلب الركاب العرب والنوابلسية هم من ركاب الدرجة الثالثة، وكانوا يفرشون تحتهم (بطانيات) وينامون عليها تحت السماء. وكان في البواخر قمرات ومخادع درجة ثانية ودرجة أولى فيها أسرة معلقة بالجدران ومغاسل وماء. وأجرتها مضاعفة ضعفين أو ثلاثة. ويستأجرها الأغنياء والإفرنج وكبار الموظفين، وفي سفراتي في طفولتي وبدء شبابي لم يكن رصيف بيروت قد قام أيضاً، وكانت البواخر تقف في عرض البحر مثل يافا. فكانت فلوكات بحارة بيروت تأتي الى الباخرة فينزل اليها الركاب وتوصلهم الى الميناء، ويدفعون أجرة مثل أجرة فلوكات

يافا. وقلما كان المسافرون الى يافا فبيروت ينامون في يافا، حيث يصلون في أوقات الصبح فيسرعون الى قطع تذكرة الباخرة ويركبونها. أما في بيروت فكانوا ينزلون في الفنادق التي نزلنا بها في سفرتي، والتي اعتاد تجار نابلس النزول فيها كانت على البرج حول السراي. وكانت عادية وربما من درجة ثالثة وأكثر، وأجرة المبيت (بشلك) أو ربع مجيدي للشخص. وكان في البرج قهوة كان التجار والنوابلسية يجتمعون فيها في الصباح فيتناولون فطورهم ويدخنون أراكيلهم الصباحية قبل أن يسرحوا للتجول وشراء البضائع، وكان سوق الطويلة مجالهم في الدرجة الأولى، لأن مخازن المنسوجات الافرنجية على اختلافها كانت فيه. وكانوا يزورون المخزن بعد المخزن، وينتقون ما يريدون ويساومون عليه، ويربطون ما يحتاجون اليه ويطلبون ارساله الى محلات عملائهم (الجرّيدة)، وهؤلاء يتولون دفع الثمن لأجَل معين، ويقيدونه على عملائهم بعمولة معينة، وكان أصحاب المخازن يفضلون بالبيع النقدي وينقصون من الثمن اغراء للشارين، وكان بعض هؤلاء يشترون بالنقد مقابل انقاص السعر.

وكان من أشهر مقاهي بيروت على البحر مقهى الحاج داود، التي هي في الأساس من أتفه وأقذر المقاهي وأكثرها هلهلة بكراسيها الخشب القش، وموائدها المعراة، وكان التجار النابلسيون يأتون اليها لتدخين الأركيلة وأكل السمك والكبة، وهاتان من أكلات بيروت المشهورة.

وكان التجار بعد أن يقضوا حاجاتهم في بيروت يسافرون الى دمشق بالسكة الحديدية، وكانت المسافة تقطع في نحو ثماني ساعات، وقد سمعت أنه كان قبل السكة الحديدية، في القرن التاسع عشر، واسطة نقل من بيروت الى دمشق تسمى (داليجانس)، وهي عربات كبيرة تجرها بضعة بغال. وكان أكثر التجار يعودون من دمشق الى بيروت، ويركبون البحر الى يافا، لأن السفر من دمشق الى نابلس بطريق حوران كان شاقاً وخطراً. وكانوا في دمشق ينزلون في الخانات والفنادق العادية في السنجقدار والدرويشية. وكان من أشهر هذه الفنادق فندق دار الفرح وفندق دار السرور، وهي عمارات شامية جميلة مؤلفة من عدة طوابق فيها الساحات المكشوفة والأحواض بالنوافير، وأشجار الليمون والياسمين والحلزون، وهذان الفندقان كانا لعلية القوم والميسورين نوعاً ما. وأجرة المبيت فيها ربع مجيدي. أما أجرة الفنادق الأقل درجة والتي كان يؤمها غالباً النوابلسية في نصف هذه القيمة. وكان في أسواق دمشق بعض المطاعم وشوائي اللحوم وحوانيت المقبلات والمقليات والسلطات فيؤمها التجار ويتناولون طعامهم فيها. وكانت الوجبة تكلف الواحد منهم ثلاثة قروش أو خمسة على الأكثر. ويفعل التجار في دمشق ما يفعلونه في بيروت، فيدورون في الأسواق يعاينون البضائع ويساومون ويربطون ما يحتاجون اليه، ويحولونه مع الثمن على الجرّيد العميل أو يدفعونه نقداً. وكانت المساومة مع تجار دمشق أشق منها مع تجار بيروت، حيث كان هؤلاء يعلنون أسعار محددة قلما تكون زائدة عن الحد والحق، وقليلاً ما ينزلون عنها. أما في دمشق فعلى الأكثر يطلب صاحب السلعة الثمن مضاعفاً، ثم تكون المساومة حتى ينتهي الثمن الى حده المعقول.

وكان الجرّيدة الدمشقيون يدعون عملاءهم الى السيران. وقد ذهبت مع أبي الى الربوة، حيث دعاه عبد الرحمن منصور عميله مع

أعمامي الى سيران وركبنا حنتوراً. وأخذ منصور معه بساطاً و (صفيحة)، وكانوا يسمونها (لحمة بعجين) وقطايف (عصافيري)، وفواكه وبراد شاي وابريق قهوة، وجلسنا على شاطىء من شطآن نهر بردى في الربوة. وأكلنا وقضينا وقتاً ممتعاً. وكان جرّيدة دمشق وبيروت يأتون الى نابلس لزيارة عملائهم واستيفاء ديونهم وتلقي طلباتهم من البضائع في السنة مرة أو مرتين. وكان العملاء يدعونهم بدورهم الى بيوتهم أو الى سيران في بعض أماكن النزهة المشرفة من الجبل القبلي أو الشمالي، فيأخذون بدورهم البسط والمناضد والأراكيل وجهاز الشاي والقهوة، وكانت أكلة السيران النابلسي على الأعم قدرة رز باللحم والحمص المشوي على الفرن التي وصفناها سابقاً، والى جانبها اللبن أو قلاية البندورة وأحياناً محشي ورق العنب والخيار، والكنافة بالجبن والفواكه، وأحياناً يعزمونهم[1] الى بيوتهم. وكان التجار والدمشقيون يعزمونهم أحياناً الى بيوتهم أيضاً.

ولقد كان في نابلس بضعة تجار ميسورين نوعاً ما يتولون جلب ما يسمى (مال القبان)، أي الأرز والسكر والبن والنفط المصفى للإضاءة الذي كان يسمى (كازاً)، والبهارات وما الى ذلك، ويبيعه لأصحاب الحوانيت الصغيرة التي كانت كثيرة منشورة في مختلف مواقع وشوارع المدينة لبيع هذه الأشياء للمستهلكين من أهل المدينة والقرى. وكان التجار يبيعون ذلك لأصحاب الحوانيت ويتقاضون الثمن دفعات أسبوعية على الأكثر، كما كان فيها بضعة تجار ميسورين يتولون جلب الأخشاب والزجاج وأدوات النجارة الأخرى من مسامير وأقفال وسكاكر وشناكل الخ.. ويبيعونها للنجارين الذين كان لهم محلات عديدة في نابلس، يسدون حاجة أهل المدينة والقرى، منهم من كان يشتغل في مسائل الأبواب والشبابيك، ومنهم من كان يشتغل بصنع الأدوات المنزلية الأخرى من خزائن وصناديق ومقاعد وموائد الخ.. وبضعة تجار ميسورين يتولون جلب الجلود المدبوغة لوجوه الأحذية ونعالها وحاجات الأحذية والسروج، ويبيعونها لصناع الأحذية وصناع السروج. وكان في نابلس محلات عديدة لهؤلاء وهؤلاء يسدون حاجة أهل المدينة والقرى. وكان في نابلس بضعة محلات لبيع الأدوات المنزلية من صحون وأدوات وكاسات ومصابيح وما الى ذلك.

وكان الأرز يجلب من مصر ومن بلاد آسيوية أخرى. وكان الأرز المصري هو الأجود وكان أجوده ما يسمى الرشيدي. وكان أرز مصر يأتي في زكائب من القش المنسوج تسمى الواحدة قفة، تزن نحو عشرين رطلاً، وكان يأتي بزكائب صغيرة نصف قفة وربع قفة. وكان على الأرز المصري غبار، وكان هذا ميزة له. وفي ذهني أن ثمن قفة الأرز الرشيدي كان نحو ثمانين قرشاً. وكان نوع من الأرز يأتي من آسيا بدون غبار، ولم يكن جيداً في الطبيخ مثل المصري والرشيدي. وكان يأتي بزكائب من الخيش وزن الزكيبة نحو عشرين رطلاً كذلك. وفي ذهني أنه كان يباع بستين قرشاً. وكان الفلاحون يأخذونه، وكان يستعمل في طبخات الحليب واللبن التي ذكرنا أنواعها سابقاً. وكان السكر يأتي من آسيا وأميركا. وكان يأتي منه قوالب اسطوانية يسمون الواحد (رأساً)، ووزنه نحو رطل ونصف، ويأتي قطع أيضاً صغيرة وكبيرة، ولم يكن سكر ناعم في فتوتي الأولى، وكان سعر رطل السكر خمسة

---

(1) يعزمونهم: يدعونهم.

قروش. وكان الكـاز يأتي من أميـركا وأوروبـا والـذي من أوروبا يـأتي من روسية ورومـانيا، وكان يأتي بتنكـات مختومـة عليها مـاركاتهـا، وكانت تنكة الكاز حسبما في ذهني تزن خمسة أرطال وتباع بعشرة قروش. وكـانت الأخشاب والزجاج وحـاجات النجـارة الأخرى تـأتي من أوروبا وكذلك الجلود المدبوغة. وباستثناء مصر فإن تجار الأشياء الأخرى كانوا يوسطون تجاراً في يافا أو بيروت لجلب البضائع التي يتعاملون بها. أما مصر فكانت بضائعها تأتي بطلب من التجار مباشرة، حيث كان تجار نابلس يتعاملون مع تجار مصر.

وكان تجار خان التجار يجلبون أجواخاً من بيروت، ولكن ما يجلبونه هـو لحاجـات جبب المشايخ وسراويلهم والأردية المعروفة (بالساقو) التي كـان يلبسها النـاس فـوق القنـابيـز. أمـا الأقمشـة الصـوفيـة التي تـصلح لـلبـدلات الافـرنجيـة، فقـد كـان الخيـاطـون يجلبـونهـا لحسابهم من بيروت، وكـان في نابلس لهؤلاء بضعة محلات يفون الحاجة. وكان ثمن وكلفة البدلة تتراوح بين أربع ليرات وعشر ليرات ذهبية حسب النوع وجودة الصنعـة. وبطبيعـة الحال كانت محلات خياطة الألبسة العربية أكثر، لأن الأكثرية الكبرى من الرجال في المدينة والقرى كانت تكتسي هذه الأكسية أي القنابيز والجبب والسـراويـل والأرديـة الفـوقـانيـة والقمصـان والسراويل الخ. . .

ونذكر بالمناسبة أنه كان بضعة حدادين في نـابلس يصنعون بـطريقتهم البدائيـة كثيـراً من الأدوات للحاجات المدنية والقرى، مثل حداد الخيـل والفؤوس والمجارف وسكـك الفلاحـة والأقفال والمزالج وأبواب المخـازن والشناكـل الـخ. . حيث يحمـون النـار وينفخـون عليهـا بمنافيخ كبيرة ويطرقون الحديد بعد إحمائه حتى يصير كالنار قابلاً للتطريق والتشكيل. وكذلـك كـان في نابلس بضعـة محلات لصنـع حلوس الدواب وعدتها. وبضعة محلات لتنجيد الفرش واللحف والمقاعد. وبضعة محلات متخصصة بالعطارة العلاجية وبمثابة صيـدليات وصفيـة، حيث يجمعـون منهـا أعشـابـاً طبيـة متنوعـة ومشروبات طبية متنوعة، وكان الناس يراجعونهم فيصفون لهم الوصفات ويصنعون العلاج، لأنه لم يكن في طفولتي صيدلية ما في نابلس، وفتح شخص في فتـوتي من بيت أبي غـزالـة أول صيـدلية فيهـا وكان لثـلاثة أشخـاص من أسرة (العبوة) ثلاثة محلات متخصصة بذلـك بنوع خـاص، وكان كـذلـك بضـع محـلات لصنـع الأدوات التنكيـة التي كانت رائجـة من أباريق وكيلات ومصابيح وغلايات شاي الخ. . . لسد حاجة المدن والقرى. وبضع محلات للعقادين الذين يصنعون عقل الرؤوس والزنانير وحاجات تـزيينية أخـرى للفلاحين. وكـان بعض التجار يجلبـون لهؤلاء الصنايعيـة[1] مادتهم الخـاميـة الأولى من أوروبا بواسطة تجار من يافا أو بيروت أو دمشق.

هذا وحسب تقديري المستند الى الـظواهر والمسموعات، فإن تجار خان التجار وغيـرهـم من الـذين كانـوا يشتغلون بالأشغـال التجاريـة وجلب البضـائع ويبيعـونها لم يكـونـوا واسعي الشـراء. وكان قصـارى ما يبلغ اليـه رأس مال أغناهم ثلاثة آلاف ليرة ذهبية وهم أفراد. وكان يعد هذا المبلغ ثـروة كبيرة. وكثيـر منهم كان يتـراوح رأس مالهم بين الخمسمـائة والألف، وكان هذا أيضاً مبلغاً مهماً، بل منهم كثير من لم

(1) الصنايعية: اصحاب الصناعات والمهن.

يكن يزيد رأس ماله عن مائة ليرة. وكانت حالته ماشية ومنهم أبي، حيث كان النقد قليلاً ويمكن تدبير الأمور بالقليل منه أيضاً. وكان أبي برأس ماله المحدود يتعامل مع بيروت ودمشق، وكان حجم تعامله الشهري في حدود الخمسمائة ليرة ذهبية في الشهر يجلب بهذه القيمة بضائع ويبيعها خلال شهر، وكان معدل ربحه 15٪ أي أنه كان يربح نحو سبع ليرات في الشهر، وهذا المبلغ ساتر وكافل لمعيشة متوسطة في ذلك الوقت. وطبعاً كان من التجار من حجم تعامله ضعفين أو أكثر وربحه مضاعف ومعيشته ميسرة ومربحة بنسبة ذلك.

وفي أسرتنا بعض أشخاص لهم حوانيت بقالة وغزل وحالتهم مثل حالة أبي وعمه والحاج محمود، منهم الحاج يوسف ومنهم الحاج حسن والباقون فقراء كادحون، بينهم من كان له حوانيت هزيلة أو خياطون أو عمال بناء أو مستخدمون في البلدية، وفي حوانيت أخرى أو يشتغلون في القرى الخ . . .

شيء عن صناعة الصابون والصبانات وأصحابها في نابلس:

وكان في نابلس أثرياء أكبر ثروة وهم أصحاب المصابن، وكانوا معدودين، منهم من كانت ثروته خمسة آلاف، ومنهم عشرة ومنهم عشرون، وتصل ثروة بعضهم الى الخمسين أو أكثر. وهم الحاج حسن النابلسي وأولاده، وهم أغنياء يضرب بهم المثل، وكانت تقدر ثروتهم بنحو مائة ألف ليرة ذهبية وكان لهم صبانتان. والحاج محمود النابلسي، وكانت له صبانة، والحاج بدوي عاشور وكانت له صبانة، والحاج يوسف التميمي وأخوته وكانت لهم صبانتان. والحاج سعيد كنعان وأخوته وكانت لهم صبانة. والحاج سعيد عبد المجيد (السيحاني) وكانت له صبانة، والحاج محمد عبده (الغزاوي) وأخوته وكانت لهم صبانتان، وكان لرجل لم أعد أذكر اسمه من دار منكو (العدسة) صبانة، وفي ذهني أنه كان لبيت الخياط أو لعارف الخياط صبانة أيضا. ولبيت العمر صبانة، وجميع هؤلاء في طفولتي وفتوتي وما قبلها وأعرفهم شخصياً.

وأنشأ حافظ آغا طوقان وأخوة عبد الفتاح في فتوتي صبانة جديدة، ولقد استمر انشاء المصابن بعد ذلك، وممن أنشأ مصابن جديدة أحمد الشكعة وطاهر المصري وعمر العالول والشيخ عمرو عرفات. والصبانة التي أنشأها الشيخ عمرو سماها معملا لأن طبخة الصابون فيها كانت بمعدل ربع أو خمس طبخات المصابن الأخرى، ولعل أناساً أنشأوا معامل أخرى لا أعرفهم . . .

وكان جل أصحاب المصابن يداينون الفلاحين وصغار التجار والكسبَة نقوداً بالربا، وكانوا يسمون ذلك (فائظ)، بالإضافة إلى عمليات الصابون، مع التنبيه على أن الدين بالفائظ للفلاحين لم يكن قاصراً عليهم، بل كان تجار آخرون يفعلون ذلك لأن ذلك كان عملية مربحة حيث كانت الفائدة حسب الزبون تتراوح بين 15 و35٪ سنوياً، وكان التجار يبيعون بضائعهم ديناً (فائظ) أيضاً، حيث يزيدون الفائظ على سعر البيع النقدي والنسبة العالية غالباً ما تكون للفلاحين، والمدة أحياناً. تكون أقل من سنة بالنسبة لهؤلاء، لأنهم يستدينون في الخريف ويدفعون في موسم الغلال والبيادر ويدفعون في الصيف، ومنهم من يأخذ في الربيع ويدفع في الخريف في موسم الزيت.

ومعظم الصبانات قديمة على ما يبدو من هيئتها، ولا أعرف يقيناً هل أصحابها الذين ذكرتهم مستجدين أم ورثوها هي والصنعة عن

آبائهم أو تملكوها من أصحاب صنعة تخلوا عنها لسبب ما.

والصبانة حوش طويل عالي السقف نوعاً ما، لا يكاد يكون له نوافذ مضيئة، وعلى سطحه بناء مسقوف بدون غرف مشرع النوافذ مشرقها. والأول لطبخ الصابون والثاني لنشره وتجفيفه وتوضيبه. وأبواب الصبانات بوابات كبيرة لتسهيل دخول أحمال الزيت وخروج أحمال الصابون، وفي مدخل كل منهما قرنة أو غرفة لتكون مكتباً لصاحب الصبانة وخزانته وكاتبه وزواره.

وفي داخل كل منها بئر أو أكثر لخزن الزيت الذي يستلمه صاحب الصبانة من الفلاحين، ومن هؤلاء من يبيع زيته في موسمه نقداً بالسعر الذي يوافقه. ومنهم من يكون باع زيته وأخذ الثمن سلفاً بسعر أقل من سعر الموسم. ومنهم من يكون مديناً ويورد الزيت سداد الدين بالسعر الحاضر. ويأتي الفلاحون بالزيوت في قرب جلدية تسمى (ضروف) محملة على حمير أو بغال، فتدخل الى داخل الصبانة وتنزل خروجها عند البئر، ويكون على البئر عمال موكلون بالاستلام والكيل، وكان البيع والشراء بمقياس الجرة، ويكون على رأس كل بئر منصة خشبية وتحتها جرة نحاسية سعتها سعة الجرة القياسية، فيوضع الضرف على المنصة ويصب منه الزيت الى الجرة حتى تمتلىء. ويهتف العامل للكاتب بالعدد لضبط عدد الجرات، ثم يصب ما فيها في البئر، والبئر يستوعب ألف جرة، ومنها ما يستوعب أكثر، ويظل الشراء والتخزين مستمرين طيلة الموسم، لأن الزيت يخرج تباعاً من الآبار الى الطبخ أسبوعياً، وفي كل صبانة تنور للنار كبير قطره نحو ثلاثة أمتار، وله فتحة يوضع فيها القش ونوى الزيتون المكسر الذي يكون شديد الحرارة، ويركب على التنور بالملاط اللاصق حلة نحاسية سميكة نوعاً ما قطره نحو ثلاثة أمتار كذلك وعمقها نحو متر ونصف وهي مطبخ الصابون، وتطبخ طبخة بعد طبخة، وكل طبخة تأخذ 200 أو 250 جرة، ويوضع في الزيت أثناء غليانه في الحلة مادة كاوية، وكانت هذه المادة في طفولتي وفتوتي وما قبلها طبعاً تسمى (القلى)، وهي رماد متحجر لعشب صحراوي يلتقطه البدو ويحرقونه ويعبئون رماد المتحجر في أكياس ويأتون به الى نابلس على الجمال فيشتريه أصحاب الصبانات. وكان البدو بعد أن يبيعوا ويقبضوا يشترون حاجاتهم من أكسية وغيرها من المدينة فيكون لأهلها موسم. وكان أناس يلتفون على البدو ويتوسطون بينهم وبين أصحاب المصابن، وبينهم وبين أصحاب الحوانيت في بيعهم وشرائهم. ويأخذون عمولات من أصحاب الصبانات والحوانيت ويسمون (دعيقيّة).

وفي فتوتي وأول شبابي صار أصحاب المصابن يستعملون (الصودا) التي كانوا يجلبونها بالبراميل لأنها أرخص وأقل غلبة، والقلى رهن بالبدو وهم ليسوا مضمونين دائماً، وكان يقال إن صابون القلى أشد تنظيفاً من صابون الصودا، وظل بعض أصحاب المصابن الى عهد متأخر من فتوتي على استعمال القلى والتنويه بذلك، ومقاضاة ثمن أغلى من ثمن المطبوخ بالصودا، ولا أعرف فنياً حقيقة الأمر، ويكون على رأس الحلة النحاسية التي يغلى فيها الزيت والكاوي عمال في أيديهم مطارح خشبية طويلة يحركون الطبخة باستمرار، وتستمر عملية كل طبخة نحو أسبوع حتى تصبح المادة صابوناً لزجاً، ثم تخفف النار ويعبأ اللزج بسطول (جمع سطل) من خشب كانوا يسمونها

مخامر (جمع مخمر)، ويحملها العمال الى السطح حيث يفرشونه على الأرض حتى يجف، ثم يقطع المفروش بآلات حديدية حادة كالحربة أو السيف قطعاً طولانية وعرضانية بحجم الكف، ويرشونها بمادة حمراء وأظنه العرقسوس ليكون بمثابة زينة، وتختم القطع بخاتم خشبي عليه اسم صاحب الصبانة، ثم يبنون من القطع بعد أن تجف نوعاً صوامع مشبكة على أرضية السطح يتخللها الهواء حتى يتم جفافها وتصبح صالحة للاستعمال، فتعبأ في أكياس وتعد للبيع والشحن الى الخارج، حيث كان معظم الصابون النابلسي يشحن الى مصر بالدرجة الأولى، وإلى مدن فلسطين وسورية ولبنان أيضاً، وكان العمال الذين يحملون مخامر الصابون اللزج يلبسون قمصاناً طويلة سميكة فوق ثيابهم ليتقوا بها الطبخ اللزج فيعلق هذا بالقمصان ويحته العمال فيكون فتيت صابون يأخذونه ويجعلون منه قطعاً يسمونها جلزا مدورة بمقدار القبضة، أو يبيعونها لأناس يجبلونها كذلك، ويستعملونها في الغسل والغسيل، وكان من عادة أصحاب المصابن أن يهدوا بعض المخامر من الصابون اللزج بعض أقاربهم وأصدقائهم وأنسبائهم فيصنعون منها جلزا.

وكان أصحاب المصابن يبذلون جهدهم لترويج صابونهم في مصر والمدن العربية الفلسطينية والسورية الأخرى، وأذكر أن مصابن الحاج حسن النابلسي والد الحاج نمر وإخوته وكان أغنى أغنياء نابلس، استطاعت أن تسبق غيرها في شهرة صابونها وبخاصة في مصر، وصار اسم صابون حسن نابلسي هو المشهور المطلوب. وسجلت ماركة خاصة له في مصر، وكانت ترفع الدعوى على كل مقلد لها. وكان سعر صابونها أعلى قليلاً من غيرها. وصار بعض أصحاب المصابن الأخرى يسمون أسماء أبنائهم (حسن)، ويختمون صابونهم بخاتم فيه حسن مع اسم الأسرة للترويج.

وكانت بعض الصبانات تطبخ في السنة عشر طبخات، وبعضها أكثر أو أقل، وكان يقال إن طبخة الصابون كانت تربح خمسين ليرة ذهبية، وكانت كلفة الطبخة بنحو (225) ليرة ذهبية، وكان رطل الصابون بنحو خمسة عشر قرشاً، وقد يبدو الربح زهيداً الآن ولكنه عظيم في ذلك الوقت، ومهما كثرت نفقات معيشة أصحاب الصبانات فإنهم لم يكونوا ينفقون أكثر من نصف أرباحهم من الصابون، وكانوا يتعاطون أعمالاً تجارية أخرى وبخاصة في الحبوب من قمح وشعير وسمسم الخ . . .

شيء عن التنزه والنزهات والسمر والتصييف واللهو في نابلس:

كان كثير من رجال نابلس كهولاً وشباباً يذهبون في موسم الصيف الى أماكن نزهة في الجبلين المحيطين بنابلس من شمالها وجنوبها، فيقضون بعض النهار في الأكل واللهو والسمر. وكان في الجبلين أماكن عديدة صالحة لذلك منها كروم زيتون وتين في سفح الجبل القبلي لناحية الغرب فوق ينابيع رأس العين التي ذكرناها في مناسبة سابقة، ومنها مكان فسيح في سفح هذا الجبل لناحية الشرق قريبة كذلك من تلك الينابيع، وأمام مغارة عظيمة المدخل عميقة في داخل الجبل واسعة في أولها ضيقة في عمقها وسقفها مرتفع كثيراً. كانت في الأصل مقلع حجارة ثم توقف القلع منها، وفي جدرانها تجاويف تمتلىء بنقاط ماء ترشح من صخر فوقها فتكون عذباً فراتاً ولكن ليست ينبوعاً وليست كثيرة الماء، وكان ذلك المكان يسمى

(باب الميرد). وكان أهلنا ونحن صغار يقولون لنا إن في داخل المغارة باب وطريق يصل الى القدس، ومنها كروم زيتون وتين في سفح الجبل نفسه لناحية الشرق وتسمى (كروم عاشور)، وكان في الجبل القبلي الذي كان فيه كروم صبر كثيرة أماكن صالحة أيضاً. منها مكان مثل باب الميرد، في وسط الجبل مكان فسيح أمامه مغارة كبيرة كانت تسمى (مغارة مرعي) وهي الأخرى مقطع حجارة. مع التنبيه على أن مغارة باب الميرد أعظم وأفخم وأعمق.

ومنها كروم زيتون وصبر في ناحية الغرب من سفوح هذا الجبل مشرفة من بعيد على ينبوع الماء المسمى (بيت الماء)، وكانوا يسمون النزهات التي يستمتعون بها في الصيف في هذه الأماكن وأمثالها (غدا)، وهذه الكلمة مقابل كلمة (سيران) التي يستعملها الدمشقيون للنزه المماثلة، حيث يهيء الجماعة طعاما حسب ما يشتهون ويأخذون معهم أبسطة وزرابي وجنبيات فرش وأجهزة القهوة والشاي والأراكيل ووسائل اللهو مثل طاولة الزهر وأحجار الدومينو وورق اللعب الذي يسمونه (شدّه)، فيأكلون ويشربون ويتسلون، والأكثر كانوا يصعدون الى نزهاتهم قبل الظهر ويبقون الى المساء، ويكون الطعام على الأغلب قدور الرز باللحم والحمص المشوية بالفرن حسب الطريقة التي شرحناها سابقاً، وتسمى الأكلة (قدرة)، ويأكلونها مع اللبن أو (قلاية البندورة) ويوصون الحلوانية على صواني الكنافة بالجبن فيرسلونها اليهم، وأحياناً يصنعونها في الجبل أيضاً مع فواكه الموسم، وأحياناً يصنعون مع القدور طعاماً آخر غير القدور، وكثيراً ما يكون هذا الطعام محشي الخيار وورق العنب، وكثير ما يأخذ الناس ضيوفهم الغرباء في الصيف الى مثل هذه النزهات.

ومما أذكره أن أبي وصديقه الحميم الحاج أنيس التميمي كانا يقضيان وقتاً أكثر من سحابة نهار، حيث كانا يرسلان فراشاً لقضاء عدة ليال في ساحة مغارة مرعي، فيقضيان الليل وينامان وينزلان في الصباح الى أشغالهما ويعودان مساء الى مصيفهما هذا، ويهيئان في بيوتهما ما يريدان من الطعام، ويرسلانه مع بعض رجالهما، وقد قضيت معهما برهة من البرهات، وكان جميل ابن الحاج أنيس وهو من جيلي أيضاً معنا، وكان يأتينا في الصباح من أصحاب كروم الصبر المجاورة للمغارة (قراطيل) فيها (أكواز) الصبر المرشوشة بالندى والناضجة فنأكلها بلذة، وصبر نابلس مشهور من تكويره وحلاوته ولذته.

وكروم الصبر في الجبل الشمالي كثيرة في معظم أنحائه، وهي مملوكة، وأحياناً يرعاها أصحابها ويقطفونها ويبيعونها، وأحياناً يؤجرون كرومهم لمستأجرين اعتادوا ذلك. وتقطف الأكواز في الصباح الباكر وترص في سلال رصاً اسطوانياً هرمياً، ويحملها أصحابها ويجلسون وراءها في نقاط عديدة من الشوارع شرقاً وغرباً على كراسي قش صغيرة، ويأتي الناس اليهم فيجلسون على كراسي قشية أمامهم، فيقشر لهم البائع الصبر ويتناولونه ويأكلونه مع الخبز أو بدون الخبز، وأحياناً يأخذون ما يريدون مقشوراً الى بيوتهم أو مقلوع الشوك أو بشوكه أيضاً، وشوك الصبر مؤذ ولذلك يكون مع البائعين ملاقط خاصة لقلع الشوك الذي ينغرز في أصابعهم أو أصابع زبائنهم.

وكروم الصبر تكون أيضاً مصايف ومتنزهات صيف لأصحابها أو مستأجريها وأقاربهم وأصدقائهم. ويكون في كل كرم ساحة فيها

كوخ من خشب أو قش أو حجارة للنوم أحياناً ولحفظ الفراش والأكل والأدوات أحياناً، حيث كان الأكثر ينامون تحت السماء. وقد اعتاد محمد الفتياني أن ينصب كوخاً خشبياً في ذروة الجبل الشمالي للشرق ذات مناظر خلابة، ليقضي طول الصيف فيه، يصعد بعد العصر على حمار له أبيض، وينزل في الصباح. وهو من القدس وله أخت متزوجة من الحاج بكر حماد، فجاء وتوطن في نابلس في مناسبة ذلك، وكان ذكياً حصيفاً ناضجاً ذلق اللسان أنيقاً في ملبسه ومأكله ومظهره، وكان يندمج في بعض الحركات الحزبية المحلية، وصار له من كل ذلك اعتبار، وقد عينته البلدية مفتشاً على الأسواق والأسعار، فزاد ذلك في اعتباره وساعده على الحياة المتجملة المتألقة، وكان يرسل الى الوجهاء والأغنياء وكبار الموظفين دعوات لقضاء ليلة في كوخه، وكان الناس يلبون دعوته. ولقد عمّر هذا الرجل طويلاً حتى بلغ العاشرة بعد المائة، وهو محتفظ بنشاطه ووعيه وعاداته واعتباره.

ولقد صيفنا نحن وأصدقاؤنا حافظ طوقان، وفريد العنبتاوي، وفائق العنبتاوي، والدكتور مصطفى بشناق، وجميل التميمي، والحاج شافع عبد الهادي، وعثمان الخياط سنوياً لبضع سنين خلال سني1924 ـ 1928 في هذا الجبل، حيث أقمنا بيوتاً خشبية في ساحة مرتفعة منه ذات موقع خلاب، واستأجرنا طباخاً وخادماً لخدمتنا وتهيئة طعامنا، وكنا نصعد بعد العصر وننزل في الصباح لأعمالنا. وكان لكل اثنين بيت، وكنا نزيل البيوت في آخر الصيف ونحتفظ برفوفها ثم ننصبها في أول الصيف التالي، وكنا ندعو أصدقاءنا. وقد قلدتنا جماعات أخرى في نفس التنزه فكانوا ينصبون بيوتاً خشبية يقضون فيها صيفياتهم، وستأتي تعريفات بأصدقائنا المذكورين في مناسبات آتية.

الحاج أنيس التميمي وزواجي من ابنته لائقة:

وصديق أبي الحميم الحاج أنيس التميمي الذي ذكرته، من الشخصيات التي تظل حاضرة في صفحات طفولتي وفتوتي لا تنسى، ولقد كان جسيماً وسميناً كبير الرأس والوجه أحمر أبيض له ذقن خفيفة ضاربة للشقرة، ويضع على كتفيه في الصيف عباءة بيضاء خفيفة، وفي الشتاء عباءة سميكة فوق القمباز. وكان سمح اليد والنفس عف اللسان رضي الخلق وفياً بسيطاً وكان ميسوراً. كان شريكاً في التجارة والمصبنة مع أخيه الحاج يوسف، ثم تفاسخا فاتخذ محلاً في الخان الجديد قرب السراي لبيع بعض البضائع قائمة، وللاجتماع بأصدقائه في الوقت نفسه، وكانت الصداقة بينه وبين والدي رحمهما الله وثيقة، وكانا من جيل واحد، وقد توفي الحاج قبل أبي بنحو خمس عشرة سنة. توفي أبي سنة 1928 بينما توفي هو في سنة 1913.

ومن عجيب الأقدار أن هذه الصلة تجددت بزواجي الثاني سنة 1946 بابنته المرحومة لائقة.

شيء عن دواوين نابلس:

كان للأسر الوجيهة والبارزة في عهد طفولتي وفتوتي وشبابي ممتد الى ما قبلي دواوين ينسهر فيها الجيران والأصدقاء. وفي كل حارة[1] دواوين عديدة حسب ما فيها من أسر بارزة ووجيهة وعريقة، ومعظم الدواوين أجنحة

(1) حارة: الحي بلغة أهل نابلس.

منفصلة عن سكن الأسرة ومنها، ما هو مثل ديوان التميمي، ساحة سماوية لسهر الصيف، وقاعة لسهر الشتاء مع غرف للطعام والخدم والقهوة، ومنها ما ليس له ساحة. ومنها ما له مدخل خاص وغير متصل في السكن، ومنها ما مدخله مع مدخل السكن ومتصل بالسكن بشكل ما. وزوار هذه الدواوين يكثرون ويقلون حسب حالة أصحاب الدواوين من اليسر والبروز والنشاط وكثرة الأسرة والصلات بالناس. ويقدم للرواد فيها القهوة المرة على الأغلب والأراكيل والسجائر. وديوان التميمي مما كان عامراً كثير الرواد. ومن الدواوين التي كانت في حارتنا ديوان بيت السايح، ولهم اسم آخر هو (بيت حمامة)، وديوان الحاج داود الخياط. ثم ديوان بيت الغزاوي ولهم اسم آخر هو (عبده)، وكان عامراً مطروقاً لأن أصحابه كانوا ميسورين. وفي حارة الحبلة ديوانان لبيت الأغا (النمر) واحد في وسطها وهو كبير، وواحد قريب من الشارع الطويل الشمالي لجهة الشرق. وكان الديوانان مطروقين عامرين. وفي الحارة نفسها ديوان لبيت العنبتاوي قريب من الشارع الطويل الشمالي لجهة الشرق، وديوان لبيت العدسة (منكو)، وآخر لبيت الشافعي، وآخر لبيت الشكعة الذين لهم اسم آخر (حسن زهرة)، وآخر لبيت قناديلو، وآخر لبيت شاهين. وفي الحارة ديوان أمين القاسم وأخيه عبد الهادي وهو عامر مطروق.

وفي الشارع القبلي لجهة الشرق ديوانان لبيت عبد الهادي، واحد لبيت عبد الغني في الدار الكبيرة ومدخلها في الشارع، وثان لبيت عبد الكريم اليوسف ومدخله في طلعة حبس الدم. والديوان الأخير عامر ومطروق أكثر. وفي الشارع القاطع بين الشارعين المسمى (حوش السل) ديوان لبيت الخياط. وفي حارة العقبة ديوان أحمد العمد وهو مطروق، وفي حارة القريون ديوانان لبيت هاشم، وديوان لبيت قاسم، وديوان لبيت عبد الرحيم عبد الهادي الكبير، وإن كان ديوان عبد الكريم مطروقاً عامراً وديوانان لبيت طوقان، واحد للدار الكبيرة دار البيك وواحد لدار الآغا، ومدخل هذا في الشارع القبلي لجهة الغرب، وفي حارة الغرب والياسمينة دواوين عديدة منها ديوان لبيت أبي غزالة، وديوان لبيت العطعوط، وديوان لبيت الداري، وديوان لبيت حماد، وديوان لبيت محمد الحسين عبد الهادي، وديوان لبيت الخماش، وديوان لبيت الجوهري، وديوان لبيت عاشور، وديوان لبيت كنعان، وديوان للحاج حسن حماد، وديوان للشيخ عمر زعيتر، وديوان للحاج محمود النابلسي، وديوان لبيت الخماش، وديوان الحاج سعيد عبد المجيد (السيحاني) ولعلي نسيت أو جهلت دواوين أخرى. ومن هذه ما هو مطروق عامر، ومنها ما ليس كذلك، ومنها ما كان ثم أقفل أو أهمل.

وكانت الأسمار في الدواوين تدور على شؤون المعيشة والمأكولات والأسعار والأعمال الخاصة، وأخبار الناس ونوادرهم وقصص قديمة مدنية وفلاحية الخ. وقلما كان يتطرق السمار الى السياسة وأعمال الحكم، ويكون للمشايخ في هذا أثر اذا حضروا، حيث كانوا يجولون جولات دينية. وكانت تقام صلاة المغرب وصلاة العشاء أحياناً في الدواوين جماعة، وتقرأ في ليالي الجمعة قصيدة البرده للبوصيري بأسلوب الذاكرين.

وأكثر من كان يؤم الدواوين هم من ذوي السن المتقدمة نوعاً ما، والمتوسطون المتجملون من الجيران والأصدقاء والمعارف.

ولقد كان أبي يسهر في ديوان التميمي على الأغلب وكنت أذهب معه في فتوتي، وكان يتردد على ديوان أمين القاسم الذي كان قريباً من دار التميمي، وقد ذهبت معه أكثر من مرة الى هذا الديوان. وأمين القاسم هو من آل القاسم الإقطاعيين الذين شرحت تاريخهم في الجزء الثاني من كتابي العرب والعروبة، وكان عضواً في مجلس ادارة متصرفية نابلس، وكان هذا قبل اعلان الدستور العثماني بسنين عديدة. ويمكن كان عمري حينما ذهبت مع أبي 12 سنة، وكان ذا نفوذ وبروز في لواء نابلس، وبنوع خاص في قضاء جماعين الذي كانت فيه عصبته وعشيرته. ولما توظفت في دائرة البريد في سنة 1907 صرت أتردد على ديوان بيت الغزاوي الذي كان في حارتنا، وعلى دواوين عبد الكريم اليوسف، والحاج نمر النابلسي بن الحاج حسن، والحاج حسن حماد وتوفيق عبد الغني عبد الهادي، ودار الراغب عبد الهادي، ودار عبد الرحيم عبد الهادي، ودار هاشم، وكان عمري بين 19 ـ 23 سنة. وفي سنة 1914 خرجت من نابلس بوظيفة أخرى مما سوف أشرحه بعد.

شيء عن المقاهي في نابلس والأراكيل والتنباك وسجاير التتن والدخان والتبغ:

وكان في الحارات بالإضافة الى هذه الدواوين مقاه أيضاً (جمع مقهى) يؤمها الشباب والعمال والفقراء لشرب القهوة والشاي وتدخين الأراكيل[1]. ولعب الدومينو والشدّة وطاولة النرد. وكان في كل حارة مقهى، وأكثر مقاهي الحارات في قرن مظلمة وحالتها مزرية وكراسيها من القش الواطي، ومناضدها واطئة وسخة. والأجرة زهيدة. ويسمون التعميرة (نفساً)، ويكون في الدواوين شخص خاص عنده عدد أكبر منها يهيئها لتدخينها من الزوار.

وفي المقاهي عدد كبير منها كذلك، وقلما يخلو بيت من عدد منها. وكان يتعاطاها في البيوت الرجال والنساء معاً. وللتنباك مصدران: مصدر سوري ويسمى لاذقاني وكان على الأغلب يزرع في جبال اللاذقية، ومصدر ايراني ويسمى العجمي وهذا أحسن وأغلى، وكان هنا بضعة حوانيت مختصة ببيعه، تجلب أوراقه الكبيرةاللاذقانية والعجمية ثم تفرطها وتفركها بالغربال ويبيعونه بالوزن، وكثير من المدخنين الميسورين يجلبون مؤنتهم من العجمي سنوياً ويحفظونها في بيوتهم ويأخذونها فيما بعد يفرطونها ويفركونها ويعبئونها في أكياس صغيرة ساحلية أو قماش، ويحملونها معهم لتدخينها في بيوتهم أو أماكن عملهم التجارية وغير التجارية، أو في المقاهي والدواوين، والذين لا يحملون مونة يعبىء لهم خادم القهوة (النفس) من عنده، وكان في خان التجار قهوة وشخص خاص للأراكيل يطلبها التجار ليدخنونها في دكاكينهم. وحينما يذهب المتنزهون الى نزهات يأخذون معهم أراكيلهم، بل وحينما يسافرون الى القرى يأخذون معهم أراكيلهم.

ولا يفوتنا أن نذكر أن تدخين سجاير الدخان التي يسمونها (تتن) كانت أوسع انتشاراً، وهي أسهل وتستعمل في كل مكان وظرف بدون كلفة ومشقة كالأراكيل. وقد كان للدخان (التتن) مصدران: رسمي هو دائرة الريجي (ادارة حصر الدخان) وهي دائرة شبه رسمية لبيع الدخان محصور فيها وريعها مرصود لسداد ديون الدولة. وهذه الدائرة تشرف على زرع الدخان ولا تسمح

---

(1) الأراكيل جمع أركيلة وهذه الكلمة مصرية من أصل تركي فارسي أو مزيج وهي (نار كله) أي الورد الناري.

بزرعه إلا بشروط وتشتري الصالح منه وتتلف غير الصالح وتقلع المزروع بغير اذنها، ولها بوليسها الخاص يسمى (الوردبانية) لأجل ذلك، وتساعدها الحكومة على ذلك. وله أنواع تتفاوت أسعاره حسب جودته ومصدره. وكان يأتي معبأ في علب من الورق، وكثير من الناس يدخنون الدخان (البلدي المهرب)، الذي يزرع خلسة ويحصد خلسة وهو دخان غليظ وشديد وسعره رخيص. ومعظم شاربي سجاير التتن لهم علب متنوعة الأجناس يضعون فيها سجايرهم أو دخانهم الذي يلفونه بأيديهم، ولم يكن التنباك داخلاً في الحصر مثل التتن. ثم أدخل في الحصر وصارت دائرة الريجي تبيعه معبأ بعلب من الورق مفروطاً ومفروكاً من نوعية العجمي واللاذقاني، ولم يمنع هذا الميسورين بل وغيرهم من جلب أوراق التنباك العجمي واللاذقاني والتمون بها وفرطها وفركها وتدخينها. ولم تكن المقاهي في نابلس تقدم مسكرات وتكتفي بالقهوة والشاي. وكان في نابلس حانوت لمسيحي في السوق الغربي قرب المصلبية يبيع أنواعها من عرق وانبيت (الغالب أنه تحريف عن النبيذ اسماً ولكنه شديد الكحول) وكونياك، ولم يكن الويسكي ولا البيرة معروفين في طفولتي. وفي الحانوت مائدة أو اثنتان يجلس حولهما بعض الزبائن الذين هم من المسيحيين، وكان من المسلمين من يتعاطى المنكرات، ولكنهم كانوا قلة من بعض شباب العوام (القبضايات). ومن بعض الموظفين من أتراك وعرب، وكانوا يتسترون أي يتعاطون في بيوتهم أو خلواتهم، وأحياناً يذهبون الى نبع ماء أو مكان تنزه في زا وية جبلية أو بستان، وحينما كان يظهر انسان في حالة السكر كان يقابل بالزراية والاستهجان، وكل ما تقدم كان مثله في المدن المماثلة لمدينة نابلس.

الكراكوز والحكواتية وصندوق العجائب :

وفي بعض مقاهي الحارات والشوارع كان ينصب أحياناً شاشات الكراكوز[1] ومناضد الحكواتية وكلمة (كراكوز) تركية بمعنى (ذو العين السوداء)، وكانت تطلق في أصلها على شخصية دمية من جلد. ويكون أمامها دمية أخرى من جلد اسمها (عيواظ)، وهي على الغالب تركية وربما أصلها (إيواز)، وإن لم أعرف معناها تماماً. وتنصب شاشة الكراكوز على خشبة رقيقة، وتركز على منضدة وراءها، ويكون على المنضدة فانوس أو أكثر من الشمع أو الزيت، ثم صار من الكاز (البترول)، ويقف وراء الشاشة شخص ذكي ذلق اللسان ومعه دمى صغيرة تمثل حيوانات وبني آدم. فيحركها حركات متنوعة وينطق بكلمات وأصوات متناسبة مع هذه الحركات وأصحابها، تجلب انتباه الناس وتضحكهم وتثير فيهم العبرة بالأمثال والحكايات التي يسوقها الرجل. ويعطي الناس للكراكوزاتي بخاشيش تافهة يكتفي بها، وصار اسم صاحبها أو اسم العملية (كراكوز).

أما الحكواتية فكانوا أشخاصاً يجلسون على مقعد فوق منصة ويتلون قصص عنتر والزير وبني هلال وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة وغيرها من أمثالها، بلهجة خطابية معبرة ترافقها حركات من يده ووجهه، فينجذب السامعون اليها ويندمجون في أحداث القصص ويتحمسون لها. ويعطي السامعون للحكواتي بخاشيش تافهة أيضاً.

وكان بعضهم يعمل صندوقاً يسمونه (صندوق

(1) كلمة كراكوز معربة عن التركية أصلها (قره كوز Kara Koz) أي العين السوداء.

العجائب) في داخله صور مشهورين من عرب وغير عرب ملفوفة على اسطوانة، وله من الخارج فتحات عليها زجاج مكبر للصورة، فيجلس الصبيان على مقعد خشبي واطىء أمام الصندوق، ويأخذ صاحبه يحرك الصور داخلها فتنفرد واحدة بعد أخرى فيتفرجون عليها وصاحب الصندوق يتكلم عما يراه الصبيان بحماس مشوق.

شيء عن سهرات الشباب ومواويلهم وألعابهم في السهرات:

وبالاضافة الى سهرات الدواوين وسهرات المقاهي، كان الشباب يقيمون سهرات في البيوت أيضاً، حيث يدعو الواحد منهم رفاقه إلى بيته فيحتفلون مع بعضهم وتدور عليهم القهوة. ويغني بعض ذوي الأصوات الجميلة والرنانة واحداً بعد آخر (الموالات) التي كانت تسمى البغدادية والابراهيمية، وهي أغنيات عشق وحب وفروسية بأصوات عالية ونبرات حماسية نافذة شجية. ومن أغنياتهم مواويل (العتابا) و(الميجنا)، وحينما ينتهي المغني من مواله ينشد الجميع أنشودة حماسية عامة مع التصفيق والضرب على الدربكة. والدربكة اناء فخاري اسطواني فارغ يغطي وجهه بجلد مشدود شداً قوياً فيصير ذا رنة حينما يضرب عليه باليد. وقد يطلب الشباب من بعضهم أن يرقصوا فيرقص بعضهم وبيده عصا أو سيف رقصة شباب حماسية ليس فيها غنج وتخنث. وعلى ضرب الدربكة والتصفيق أيضاً.

وإلى سهرات المواويل والرقص فقد كان الشباب يسهرون سهرات ألعاب أيضاً، وكان أهم ألعابهم في هذه السهرات لعبة (الخاتم)، وكان من أجهزة هذه اللعبة فناجين نحاسية منقوشة ومصنوعة بشكل هرمي ولها صينية نحاسية منقوشة أيضاً، فيأخذها واحد ويخبىء تحت فنجان من الفناجين خاتم وتقدم الصينية لحلقة الشباب، فيتصدى أحدهم لتخمين وجود الخاتم تحت أي فنجان، ويقلب كل فنجان لا يخمن الخاتم تحته قائلاً ليس الخاتم هنا حتى لا يبقى الا الفنجان الذي يكون تحته الخاتم فيكون فائزاً وتستأنف اللعبة. أما إذا رفع فنجاناً على ظن أن الخاتم ليس تحته وكان تحته فيعد مغلوباً وتنشد له أنشودة المغلوب فيها شيء من السخرية، ويقوم هو بصف الفناجين وتقديمها لمتحدٍّ آخر، ويظل عالقاً به الى أن يعلق بغيره وهكذا.

ويلعب الشباب في سهراتهم لعبات أخرى منها (الغميضة)، وهي التي تغطي عيون شخص ويطلب منه أن يمسك من يلمسه، ويظل يدور ويدور الشباب حوله إلى أن يتمكن من الامساك بشخص يلمسه فتعصب عينا هذا بدلاً منه وهكذا. ومنها لعبة (البقجة) أو (الطابة) في الحلقة، (وكلمة بقجة هي على الأغلب تركية بمعنى ربطة ثياب)، حيث يصطف الشباب حلقة دائرية جلوساً ويقف واحد منهم خارج الحلقة، فيقذف رئيس اللعبة الطابة لمن بعده، وهذا لمن بعده، والواقف يجتهد ليلحق الطابة ويمسكها من يد القاذف أو المقذوفة اليه، ويظل يدور فوق رؤوس المتحلقين وراء الطابة الى أن يتمكن من الامساك بها، وحينئذ يقوم الذي مسكت منه ليدور حول الحلقة وراء الطابة المقذوفة ويجلس الواقف السابق محله، ويظل الثاني يدور حتى يمسكها من ثالث وهكذا.

وكانوا يلعبون في سهراتهم ـ وفي المقاهي أيضاً ـ بالورق الذي كان يسمى (شدّة) كما ذكرنا قبل، ومن ألعابهم بالورق لعبة (الباصرة)

يكسب فيه الذي معه ورقة مماثلة لما يرمي رفيقه الأوراق التي أمامه. وورقة (الصبي) في هذه اللعبة تأخذ جميع الورق وتسمى (قشاشاً). ومنها لعبة (الاسكامبيل) وهي التي يعين فيها لون من ألوان الورق الأربعة ليكون هو السلطان الذي (يأكل) غيره.

شيء من ألعاب الصبيان في الحارات:

وكان الصبيان يلعبون في حاراتهم في النهار ألعاباً متنوعة منها لعبة (الطابة)، وهي كرة صغيرة محشوة بخرق من القماش ترمي باليد مسافة 15 أو 20 متر، فيلقفها الواقف في الطرف الآخر، ويكون المغلوب هو العاجز عن لقفها. ومنها لعبة (الدوس) وهي حجارة تكون في حجم الكف وشكله أو أكبر قليلاً، ويتنافس اللاعبون في رمي الحجر الدوس إلى المسافة التي يستطيعون رميه اليها، ويكون الغالب هو الذي يرمي الى المسافة الأبعد ـ ورمي الدوس باليد، وأحياناً تقوم الأقدام محل الأيدي في تحريكه، ويكون الغالب من يستطيع أن يرسله بقدمه الى مسافة أبعد.

ومن ألعابهم الحجرية (العلم)، فينصب فريقان متلاعبان حجارة كل في ناحية، ثم يأخذ كل من الفريقين وبالدور رمي حجارة مدببة من مسافة 20 أو 15 متراً على الأحجار المنصوبة، وهي التي تسمى (علماً)، وتكون الغلبة لمن يستطيع إصابة الأعلام وقلبها أكثر من غيره وقبل غيره. ومن ألعابهم لعبة يسمونها (عَنَّة)، حيث يقف في الحلبة ولد على رجل واحدة وينط ليصيب برجله هذه غيره من الذين هم في الحلبة. وهؤلاء يهاجمونه ثم يهربون منه لئلا يصيبهم. وتكون الغلبة على من يصاب، حيث يدخل الحلبة وينط على قدم واحدة ويتعرض لهجوم الأولاد، ويلاحق هو الأولاد بدوره ليصيب أحدهم برجله وينزل في الحلبة بدلاً منه. ومن ألعابهم (القفز) وهذه لعبة مباراة بين الأولاد يكون الفائز فيها من تكون قفزته أوسع من غيره، وكان بعضهم يقفز مترين وثلاثة أمتار كأنما كان يطير طيراً، ويتحضر القافزون للقفز فيركضون من مسافة ما قبل المكان المعد لبدء القفز.

ومنها لعبة (الفشقتين والنطة) وهي مباراة بدون فرقاء متنافسين، (فيفشق) اللاعب (فشقتين)، ثم ينط (يقفز) بعدهما نطة أي (قفزة)، والفائز من تكون المسافة (فشقتين ونطة) أوسع من غيره، وكان بعضهم يقطع في (فشقتين ونطة) ستة أمتر وأكثر. ويتحضرون (للفشق) والقفز من مسافة بعيدة، حيث يركضون فيصبحون أكثر استعداداً للفشق والقفز من نقطة البدء.

ومن ألعابهم لعبة النط عن ظهور بعضهم. حيث يقترعون فيما بينهم على من ينحني ليقفز الآخرون عن ظهره، فالذي تقع عليه القرعة ينحني على أربعة (قدميه ورجليه) كوقفة (الدابة). ويقفز الآخرون عن ظهره، ويتحضرون للقفز كذلك من مسافة بعيدة، فيأتون ركضاً ثم يقفزون، وشرط الفوز هو أن يقفز القافز بدون أن تحتك قدماه بجوانب المنحني. فاذا احتكت عد مغلوباً وصار ملزماً بالانحناء للنط عن ظهره، وقام المنحني الأول ليكون مع القافزين الآخرين. وأحياناً يصطف اثنان وثلاثة وأربعة، وكل منهم بعيد عن جاره متر أو مترين فيقفز القافز الأول على الثاني ثم على الثالث ثم على الرابع.

ومنها (المباطحة) أو (المصارعة)، حيث يتحدى واحد الآخر بذلك، أو يدعو واحد آخر (للمباطحة) فيشتبك الاثنان ويتعاركان حتى

يتمكن أحدهما من (بطح) الآخر على الأرض. وبهذه المناسبة أعترف أني لم أكن أشترك كثيراً في ألعاب أولاد الحارة، وكنت على الأكثر محايداً أو متفرجاً. ومن ألعابهم (قبة الحمام)، فيقف ستة أو سبعة بمحاذاة بعضهم في شبه دائرة ويتماسكون بالأيدي، ويجعلون رؤوسهم بمحاذاة بعضها، فيصبحون كالقبة، ويقف آخرون مثل عددهم متحفزين للقفز للركوب على ظهورهم، ويكون شخص يدور حول القبة ليحمي أفرادها من النط على ظهورهم أو ظهر أفراد القبة، وتبدأ المعركة حامية بين الحامي والمتحضرين للقفز والركوب، فاذا استطاع أحدهم أن يقفز ويركب على ظهر الحامي أو على ظهر أحد أفراد القبة صار فائزاً بطلاً، واذا استطاع الحامي منعه والامساك به التزم بأن يكون محل الحامي لحماية أفراد القبة، وصار الحامي في صف المتبارين للركوب.

لعبة السيف والترس:

وكان بعض الشباب يلعبون لعبة السيف والترس. وهي لعبة يلعبها اثنان متقابلان في يد كل منهما سيف[1]، وفي يده الثانية ترس من جلد محشو بقش أو خرق. ويأخذ كل منهما يهاجم الآخر بالسيف ويتقي ضربته بالترس. وكان يقام مواكب للفرجة على ذلك، وكان يشترك أكثر من لاعبين، وكانت المباراة تحتدم ثم يتقدم شيخ الشباب أو غيره ممن لهم وجاهة بين الشباب فيفصل بين المتبارين... وكانت هذه اللعبة تمارس في المهرجانات والزفاف.

طيارات الورق:

وكان الصبيان في أيام الصيف والربيع يندفعون لصنع طيارات الورق وتطييرها صغيرة وكبيرة، ويركّبون الورق الرقيق الملون على دائرة مضلعة من البوص، ويجعلون لها ميزاناً مثلثاً من الخيطان حتى تندفع وتعلو بانتظام. ومنهم من كان يتأنق فيصنعون لطياراتهم أذناب طويلة، ويربطون بها أحياناً فانوساً من الورق من شمعة، وتعلو الطيارات حتى تصل الى مسافة 200 و 300 متر في السماء. وكانت تربط بخيوط القنب القوي، وأكثر ما كانت الهواية تمارس بعد العصر الى المغرب أو بعده بقليل، ثم يسحب صاحب الطيارة الخيط ويلفه على الوتد الذي في يده، فتنجذب الطيارة شيئاً فشيئاً عائدة من رحلتها الفضائية.

عادة اقتناء الخيل والمسابقة:

وكان أكثرية أهل نابلس يقتنون الخيل منها الأصائل ومنها الكدش لقضاء مصالحهم. وكانت عائلتنا من الجملة حتى لقد كان في بيتنا الكبير غرفة يسمونها (بيت الخيل)، وكان شباب البيوتات الميسورة والبارزة يقتنون الخيل للأبهة والسباق، ويتخذون لها السرج والعدد واللجم والركائب المفضضة. وكانوا يقيمون فيما بينهم سباقاً خارج المدينة في الساحة بين ما كان يسمى (القشلة) و(الدبوية) في شرق المدينة. وهذه الأسماء لعمارات عسكرية كان يقيم فيها جند وضباط ويخزن فيهما السلاح والملابس للجند. والقشلة من قشلاك، وقشلاك بالتركية بمعنى مكان الشتاء والدبوية بمعنى المخزن. وأكثر ما كان سباق الخيل في الأعياد، حيث يكون الناس بعطلة لأعمالهم، فيخرج أصحاب الخيل للسباق والناس للفرجة.

ألعاب النور (الغجر):

وكان يأتي الى نابلس أحياناً جماعة من النور

(1) وفي بعض الأحيان قضيب خيزران.

ليقوموا ببعض الألعاب أمام الناس. من ذلك المشي على الحبل، حيث كانوا ينصبون في ساحة الوكالة التي في نهاية الشارع الطويل الشمالي للغرب حبلاً على ارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار، وعلى طول 20 و30 متراً، ثم تمشي عليه امرأة أو رجل. وفي يد الماشي عمود من الخشب لأجل التوازن، فيجتمع الناس كباراً وصغاراً ويدفعون دخولية بعض السحاحيت النحاسية للفرجة على ذلك. وتكون مع الجماعة أحياناً دب أو قرد أو حمار مدرب، فيقوم أمام المتفرجين بألعاب متنوعة وهذا هو (السيرك) القديم.

الشباب في موسم النبي موسى وقوافل حجاج النصارى:

وكان لشباب مدينة نابلس دور ووجود مهمان في الموسم الاسلامي السنوي الذي كان يسمى موسم النبي موسى أو علم النبي موسى. وكان لشباب مدن القدس والخليل والرملة ويافا وبعض القرى المهمة من قرى القدس والخليل دور ووجود مهمان في هذا الموسم أيضاً. وكان هذا الموسم يصادف موسم الفصح النصراني. وكان في مكان بين القدس وأريحا مقام للنبي موسى وقبر يسمى باسم (قبة)، فكان كل من شباب المدن والقرى المهمة يحملون علماً باسم مدينتهم أو قريتهم ويأتون به في موكب الى القدس قبيل بدء الموسم. كان علم كل مدينة أو قرية يستقبل من شباب القدس حاملين علمهم، ومن شباب من جاء الى القدس بأعلامه من الشباب استقبالاً حماسياً حافلاً، وهكذا يكون في القدس تجمع اسلامي عظيم، وتقوم المهرجانات والعروضات. وشباب كل مدينة أو قرية مهمة حول علمها. ثم ينزل الجميع بأعلامهم الى مقام النبي موسى، حيث يقيمون بعض الليالي، وقبل يوم الفصح النصراني يخرج الجميع ثانية من المقام بمهرجان عظيم الى القدس ويطوفون في الشوارع ويأتون للصلاة في الحرم الشريف، ويظل الموسم والتجمع الاسلامي الى ان ينتهي عيد الفصح الذي كان يأتي لشهوده حجاج من نصارى البلاد المجاورة والأوروبية معاً.

وكان يأتي في هذه المناسبة قوافل فيها المئات من روسية بالبواخر الى يافا، ثم يمشون على الأقدام الى القدس، وكنا نخرج للفرجة على هذه القوافل ونحن أطفال، وكان فيها الصغار والكبار والذكور والإناث، وهيأتهم فقيرة وفلاحية. وكان يأتي أيضاً من أوروبة حجاج في هذا الموسم أغنياء بواسطة شركة (كوك) السياحية ليمروا بنابلس وبئر السامرية ثم بالناصرة وطبريا، وهي الاماكن التي كان المسيح عاش أو تجول فيها. ولم يكن في هذه المدن فنادق في البدء، فكانت الشركة تنصب لهم خيام في خارج المدن وتجهزها بالأسرة والطباخين والأدوات اللازمة، وكانوا يأتون من يافا الى نابلس ثم الى القدس ثم الى الناصرة وطبريا راكبين على خيل لأنه لم يكن كروسات[1] في بدء الأمر. وهذا الذي أقوله قبل بدء القرن الحاضر. ثم أنشأت شركة ألمانية فنادق في يافا ونابلس والقدس والناصرة وطبريا وحيفا، فصار الحجاج الأغنياء من النصارى ينزلون فيها. وأعظم أيام موسم الفصح ما كان يسمى (سبت النور)، حيث يجتمع آلاف النصارى في كنيسة القيامة وحولها حاملين الشموع، فيشعلونها من النور الذي يخرجه

(1) كروسات: عربات.

الراهب من القبر بزعمه في كنيسة القيامة. وكان شباب الأعلام الاسلامية يرجعون يوم الجمعة السابق ليوم سبت النور من النبي موسى بزفات عظيمة في موكب عظيم، ينشدون الأناشيد والأهازيج ويطوفون الشوارع فيكون التجمع الاسلامي الأكبر الذي يكون في التالي له، وهو سبت التجمع النصراني الأكبر (سبت النور).

رحلتي مع جدي في هذا الموسم الى القدس والخليل وذكرياتي عن ذلك:

وهذا الموسم قديم، والراجح أنه من بقايا ترتيبات السلطات الاسلامية قبل الدولة العثمانية وفي ظروف الحروب الصليبية وبعدها، حيث رأت هذه السلطات أن يتجمع المسلمون من كل صوب كما يتجمع النصارى، فتظهر قوتهم ويقظتهم، ويمتد الموسم أسبوعين ويتفرق النصارى والمسلمون بعدها، ولا يقتصر التجمع على الشباب والاشتراك في المواكب الحماسية، فكثير من اليهود أيضاً كانوا يذهبون في أسبوعي الموسم الى القدس للفرجة والزيارة والنزهة.

أذكر أني ذهبت في طفولتي لهذا الموسم مع جدي، وكان عمري عشر سنين أو أقل، وقد جاء جدي ومعه الحاج خليل دروزة أبو رضا الى المدرسة الابتدائية التي كنا فيها، فأخذ أذناً لي ولرضا، وكان أكبر مني قليلاً ولكنه طفل مثلي. فطرنا فرحاً، وقد ركبت أنا خلف جدي على بغل وركب رضا خلف أبيه على بغل، وخرجنا من نابلس بعد الظهر فبتنا أولاً في خان اسمه (خان اللبن) على بعد ثلاثة ساعات من نابلس وقربه قرية بإسمه. وفي الصباح صعدنا جبلاً صعباً، وكانت قافلتنا مؤلفة من عشرين راكباً أو عشرة أبغال، ووصلنا الى البيرة، وهناك نزلنا في خانها قرب ينبوع ماء وبتنا، وفي الصباح سرنا نحو القدس، وكان بعض أهل القدس يؤجرون غرفاً في بيوتهم للزوار في الموسم، فاستأجر جدي ورفاقه غرفة، وصرنا نتجول معهم في القدس وزرنا الحرم، فدهشنا من مسجدي الصخرة وساحة الحرم المبلطة، ورأينا الصخرة المسورة بسور من الخشب وتحتها غار يدخل اليه من باب ضيق، وكان يقال أن الصخرة معلقة بين السماء والأرض، حيث كانت تهم أن تطير لاحقة بالنبي محمد ﷺ، حينما وقف عليها وعرج من فوقها الى السماء كما تروي الروايات. وفي داخل الغار بعض رسوم ونقوش وكتابات، وفي بعض أمكنة من مسجد الصخرة بعض رسوم ونقوش، وكان يقال إن ذلك يرمز الى مسامير الجنة ومسامير جهنم وإلى أهل الجنة وأهل النار. ونزلنا الى مقام النبي موسى راكبين على حمير. وأكلنا من الطبيخ الذي كان يوزع من قبل المشرفين على المقام والموسم. وذهبنا من القدس الى مدينة الخليل. ومررنا ببيت لحم وزرنا كنيسة مهد المسيح، وتفرجنا على البرك التي كان يقال لها برك سليمان في الطريق، وكانت ركائبنا حميراً. والمكاري أي صاحب الحمير من الخليل، فوصلنا في الليل وأقسم المكاري على أن ننزل في داره، فنمنا عنده وتعشينا، وأذكر أننا أكلنا محشياً من الورق (اللسينة) وطبيخ عنب، وكان أهل الخليل يصنعون طبيخ العنب المربى ويحفظونه للشتاء ويبيعون منه. وزرنا الحرم الابراهيمي العظيم وقبور الأنبياء فيه، وتفرجنا على مصانع الزجاج المحلية في الخليل التي كان صناعها من أهل الخليل.

وكانوا يصنعون أواني زجاجية مثل صحون وأباريق ومسارج بأشكال متنوعة بدائية، وكانوا يصهرون قطع الزجاج المكسر الذي يجمعونه

حتى يصير مائعاً، ثم ينفخون فيه ويشكلونه حسب ما يريدون، وكان بعض الذين يشهدون موسم النبي موسى وبخاصة أهل المناطق الغربية يذهبون الى الرملة، حيث كان يقام فيها موسم آخر اسمه موسم روبين، وكان هناك مكان يسمى مقام النبي روبين، وفيه قبر يسمى باسمه، والمتبادر أن هذه تتمة للموسم الأول حيث يأخذ الحجاج النصارى الآتون من الخارج بالعودة الى يافا لركوب البواخر، فرأت السلطات الاسلامية أن يبقى تجمع اسلامي ويقظة اسلامية قرب يافا الى أن يغادر حجاج النصارى البلاد.

مشايخ شباب الحارات ومنافساتهم:

ولقد كان لكل حارة في نابلس شيخ شباب يسمعون له ويؤيدونه. ويبذل هو جهده في مساعدتهم ويكون له شيء من الجاه عند الكبار، وكان يتجمل في ثيابه وفي سيرته، ويبذل مروءته فيستحق الاحترام والمحبة ولو كان فقيراً. وكان لحارات نابلس الشرقية شيخ شباب عام، وكذلك لحاراتها الغربية، وكان شيخ شباب الحارات الشرقية التي حارتنا منها علي ويحيى سليم قندح المصري أبو سليمان، وكان فارع الطول يعنى بثيابه وشواربه. وكان يحضر السهرات مع رفاقه الشباب ويرقص بالسيف ويغني المواويل البغدادية والابراهيمية، ولما مات شغر مكانه أمداً ما، ثم صارت مشيخة شباب الحارات الشرقية في شبابي لأسعد بلعوط المصري، وكان بدوره متجملاً يبذل جهده ومروءته على فقر فيه. أما الحارات الغربية فكان شيخ شبابها في فتوتي شاب اسمه حسن الشنتير، وكان متجملاً أبيض الوجه قوي البنية. وكان يلمح شيء من التناقض بين شباب الحارات الشرقية والحارات الغربية، وكل منهم معتز بحاراته مستهتر بحارات وشباب الآخرين، وأحياناً كان يحدث تصادم وتهاتر في اجتماع بلدي عام أو في المواسم والمهرجانات العامة، فيتدخل الكبار للفصل والاصلاح، وكان هذا التنافس يسري الى الصغار ويصل الأمر بينهم الى التواعد على التراشق بالحجارة خارج المدينة، وفي المكان الذي يعرف بتل المرطون بين المستشفى الوطني وجامع الحاج نمر النابلسي الآن. وكان الصبيان يستعملون في التراشق المقلاع وهو مشغول من خيطان صوف فيه موضع لحجر مدور وله ذؤابتان تلوحان في الهواء ثم يقذف بالحجر منها بقوة التلويح، فيذهب مسافة أبعد من مسافة رمي اليد، وكثيراً ما يقع جرحى من التراشق، ثم يأتي الشباب الكبار فيفصلون بين المتراشقين الصغار ويصالحونهم.

أما في موسم النبي موسى فكان شباب نابلس يداً واحدة اتجاه المدن الأخرى وأعلامها، يهتمون بإبراز اسم نابلس وعلمها وموكبها اهتماماً كبيراً.

قهوة الشيخ قاسم الجديدة وحديقة البلدية ومسرحها:

ولقد شهدت في فتوتي الأولى كل ما تقدم، وشهدت عهد الحكواتية والكركوزاتية[1]، وألعاب النور من حبل ودب وحمار وقرد، وحياة الدواوين القديمة، ثم شهدت تطوراً في أوائل القرن الحاضر، حيث قامت مقاه أنظف من الأولى في وسط المدينة في كراسيها ومكانها وخدماتها، منها قهوة (فطوم) وقهوة (الشيخ

(1) التي شرحتها آنفاً.

قاسم) قرب ساحة السراي وجامع النصر، ومنها (قهوة الهموز) في الجانب الغربي الأخير من الشويترة خارج بوابات المدينة. وصار الناس المتوسطون المتعلمون يجلسون فيها لشرب القهوة والشاي ولعب النرد والدومينو والورق، ثم أنشأت البلدية حديقة سمتها (المنشية) في الشويتيرا أيضاً، وصار فيها مقهى يجلس الناس فيها، وصارت الطبقات الوجيهة تجلس أيضاً، وأقيم في جانبها صالة عليها مسرح صار يعرض فيها أفلام السينما الصامتة، ويمثل على مسرحها تمثيليات تقويمية يقوم بها شباب هواة من طلاب المدارس، وكل هذا كان في عهد الدولة العثمانية وانكشف عهد الدواوين بعض الشيء حيث صار كثير منها غير مطروق، ولم يبق مطروقاً عامراً إلا الدواوين التي أصحابها ميسورون وبارزون، مثل ديوان التميمي والنابلسي وعاشور وحماد وعبد الكريم اليوسف والغزاوي الخ.

أول فيلم سينمائي صامت في نابلس:

وعلى ذكر السينما، أذكر أن أول فيلم سينمائي رأيته، ولعل أول شريط جاء الى بلاد الشام وجاء الى نابلس عرض في ديوان التميمي الذي اعتاد أبي التردد عليه، وكنت أتردد عليه أحياناً معه، وقد أثار دهشة الجميع وبخاصة حينما رأوا بحراً تتحرك مياهه، وتصل أمواجه الى الساحل وتعود أمام أعينهم، وكان عمري اذ ذاك عشرين أو أكثر قليلاً. ثم صار يأتي من آن لآخر أفلام سينما صامتة كانوا يسمونها (باندوميها)، ولا أذكر أني رأيت في شبابي سينما صامتة، وهذه صارت بعد أن صار عمري 30 أو أكثر. وأول رواية تمثيلية مثلت في نابلس رواية امرؤ القيس ابن حجر الكندي حينما قتل أباه وذهب الى القسطنطينية للاستنجاد بملك الروم حسب ما تروي الروايات. وقد مثلت على مسرح البلدية بعد قليل من إعلان الدستور العثماني سنة 1909 أو 1910، ومثلها بعض شباب المدارس الذين كانوا أو كان منهم من يدرس في بيروت وعلى رأسهم شاب وسيم فصيح اللهجة بهي الطلعة هو مهيب بن أديب النابلسي، ورصد الريع للجمعية العلمية التي تأسست في نابلس، وكنت من مؤسسيها وسكرتيرها، وكان عمه الحاج نمر أميناً لصندوقها، وبلغ صافي الريع ثلاثين جنيهاً. وكان هذا مبلغاً مهماً وضعناه في البنك الألماني وديعة. وقد أفلس البنك وأغلق فضاع المبلغ.

أول مرة سمعت الفونوغراف في نابلس وشكله الغريب:

وما أذكره من الأوليات أولية سماعي للفونوغراف الذي يسميه الفصحاء (الحاكي)، وأول ما كان منه هو أسطوانات تدور على آلة وتتفرع منها برابيش مطاط يضعها المستمعون في آذانهم، فيسمعون الأصوات وحدهم. وأول من أحضر هذه الآلة وصار الناس يسمعون الأصوات بها نجيب مزنّر، الذي كان وكيل شركة مكنات سنجر للخياطة، وكان عمري يوم ذهبت الى مخزنه وجلست الى الآلة ووضعت البربيش في أذني 12 سنة، ثم تطورت الآلة فصارت صناديق يدور على وجهها اسطوانات سوداء، تدور على خطوطها المرتسمة عليها كدوائر ابرة، ويوضع على الصندوق بوري لتقوية الصوت.

التدين في نابلس وأثره فيّ:

مر في الفقرات السابقة شرح لمساجد نابلس وأحوالها ومشايخ نابلس وعلمائها في أيام فتوتي

وشبابي، وفي هذه الفقرة شيء عن الأحوال والمظاهر الدينية في تلك الفترة.

لقد كان التدين غالباً عاماً في نابلس، أي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وقبل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ببضع سنين. فالمساجد تكون غاصّة في أوقات الصلاة جميعها يؤمها الشيوخ والكهول والشباب والفتيان معاً دون النساء، ويؤدون الصلوات التي لا يصلونها في المساجد في بيوتهم والأماكن الأخرى بانتظام. وكان أبي وأعمامه وسائر أقاربي كبارهم وشبابهم اجمالاً يواظبون على الصلاة في المساجد وفي البيوت.

وقد أثّر ذلك فيّ كما كان يؤثر في الصبيان والفتيان أمثالي. فكنت في فتوتي الأولى متديناً مواظباً على أداء الصلوات حتى كنت أحياناً أستيقظ في الليل فأصلي تهجداً. وأنزل في الفجر الى الجامع الكبير لأصلي صلاة الصبح مع الجماعة، وكنت أهتم لذلك بخاصة في أيام رمضان، حيث كان الشيخ عبد العظيم الشرابي إمام الحنفية في الجامع يقرأ ورد السحر في حلقة من المتدينين، ثم صار يقرأه بعد موته الشيخ سليمان الشرابي خليفته في الإمامة وكنت في حلقتيهما وحفظ الورد وتوابعه.

انتسابي للطريقة النقشبندية:

وكان في نابلس مأمور نفوس تركي من سيواس شيخ في الطريقة النقشبندية، ويقيم في بيته حلقة ذكر وأوراد للطريقة، ويلبس عمة خضراء كالتاج، وكان وجهه نيراً ولحيته بيضاء، فانتسبت الى طريقته وصرت أحضر حلقات ذكره مدة ما، ثم أنشأ الشيخ منيب زعيتر حلقة ذكر وأوراد كان بعض أقاربي وأصحاب لي ولهم يحضرونها، فصرت أحضرها أيضاً، وكان مما جرى عليه في حلقات قراءة الصمدية أي سورة ﴿قل هو الله أحد﴾، حيث كان من المأثور أن من يقرأها مائة ألف مرة يعتق من النار، فكان المواظبون على الحلقات يقرأونها في مختلف أوقاتهم ويحصون عدد المرات التي يقرأونها، ويخبرون في كل جلسة الشيخ بالعدد فيسجله، وحينما يبلغ العدد مائة ألف يقترع على اسم من أسماء المشتركين في الحلقات والقراءة، وحينما يعرف الاسم يهب القارئون ثواب ما قرأوه له، ويهتف الشيخ بعد ذلك باسمه قائلاً إنه عتيق الرحمن، وقد كان لاسمي نصيب في إحدى المرات.

الاهتمام برمضان وبرّ النساء فيه وفي الأعياد:

وكان رمضان بخاصة موسم صلاة وعبادة وتدين وأكل أيضاً، حيث يكون معظم الناس صائمين ولا يجرؤ أحد على التظاهر بالإفطار، ومن يفعل ذلك يلقى رد فعل شديد ضرباً وتعزيراً، وكان المصلون يؤدون ويداومون على صلوات التراويح العشرين، وعلى صلاة الفجر، وكان معظم الناس القادرون والمتوسطون يخرجون زكاة الفطر قبل نهاية رمضان. كما كان الأغنياء اعتادوا على توزيع زكاة اموالهم في رمضان، وكان الأغنياء والميسورون الوجهاء يقيمون في رمضان ولائم افطار لاقاربهم واصدقائهم وتابعيهم وللمشايخ والفقراء، بحيث كان رمضان موسم اطعام للآخرين أيضاً. وكان الأطفال يخرجون بعد المغرب الى الاسواق وساحات المدينة، وبخاصة ساحة السراي حاملين فوانيس ملونة من ورق وزجاج، وفيها شموع مضاءة فتكتظ الاسواق والساحات بهم وبمن هم اكبر منهم، ويكون الباعة والجوالون بينهم يبيعون مختلف انواع المأكولات الخفيفة من عوّامة وخس

وفاكهة وقضامة وفستق الخ . . . . وكان للصبيان والبنات مدائح ينشدونها في رمضان حينما يذهبون الى الاسواق بعد المغرب، حاملين فوانيسهم، وحينما يعودون الى بيوتهم.

ومما كان من عادات رمضان ان الذين لهم بنات واخوات متزوجات من غرباء وفي بيوت خاصة يذهبون الى زيارتهم في الليل، ويأخذون لهم او يرسلون اليهم هدايا من الجوز واللوز والبندق والكعك الناشف الذي كان يسمى (قرشلة)، وما يزال موجودا يصنعه اصحاب المخابز ـ وفواكه الخ . . .

ويوم عيد رمضان يسرع الناس الى المساجد صباحاً بثياب العيد، ويهرع الاولاد بدورهم الى ابواب المساجد ثم الى الساحات للعب بالعاب متنوعة، كان بعض الناس يصنعونها من اخشاب وكراسي دوارة وغير ذلك. وبعد صلاة العيد يذهب الناس الى المقابر، وبعد زيارة الاموات يعودون الى بيوتهم فيأكلون طبيخاً في غير وقت الغداء، وعلى غير العادة. ثم يخرجون لمعايدة بعضهم في الدواوين والأسواق، وتكون الاسواق معطلة الا من الباعة المتجولين بالحلويات الخفيفة والفواكه، وكان بعضهم يعقد السكر مع الليمون ويصبغه ويرش عليه الجوز واللوز ويسمى (كتير)، فيقبل الاولاد عليه. ويوزع الكبار عيديات للصغار. ومن العادات ذهاب الرجال الى بيوت بناتهم وأخواتهم المتزوجات من الغرباء، فيزورونهن ويعيدونهن ويعطونهن دراهم عيدية، ويقدم الأصهار الى أصهارهم الحلويات والفواكه.

وكل ما كانوا يفعلونه في عيد رمضان مما تقدم كانوا يفعلونه في عيد الاضحى.

الاهتمام للحج وشيء عن الحج الشامي والحج المصري ومشاهد وعادات متنوعة في سياق الحج:

وبعد عيد رمضان يأخذ الذين عزموا على اداء فريضة الحج بالاستعداد للسفر، وكان يذهب العشرات بل المئات احياناً من نابلس وجبالها، وكان الحجاج قبل ولادتي يذهبون براً مع ركب الحج الشامي الرسمي، وهذا الركب من ترتيب الدولة العثمانية وما قبلها، ويكون للركب رئيس يسمى امير الحج، ويكون معه قوة عسكرية لحماية الركب، ويحمل امير الحج مبالغ من المال كانت تسمى (صرة)، وهي المبالغ التي يوزعها الامير باسم الدولة على زعماء قبائل البدو في طريق الحج، وعلى سدنة الحرم المكي والحرم المدني وعلى مصالح وترميمات وفرش هذين الحرمين، وعلى فقراء مكة والمدينة.

ويجتمع في دمشق وما جاورها آلاف الحجاج من جميع بلاد الشام والبلاد الإسلامية والآسيوية والأوربية، ليذهبوا مع الركب الذي يسير من دمشق الى حوران الى شرق الاردن الى معان الى تبوك الى مداين صالح الى المدينة المنورة ثم الى مكة المكرمة ثم يعود بنفس الطريق.

وكان الحجاج يركبون الجمال في سفرهم هذا، ويكون على كل جمل قفتان خشبيتان يسميان هودجان[1] يجلس فيهما الراكبان، إما زوج وزوجته او رفيقان، ويكون مع الحجاج اكياس واخراج فيها مؤونة كثيرة معدة من خبز وجبن وزبيب وحلاوة وتمر وارز وسمن وزيت وعدس وبرغل واوان للطبخ أيضاً، لأن المسافة كانت

(1) قلت الهودج: للعروس، أما ما يركب فيه الحاج فيسمى محارة (م).

من دمشق الى المدينة تقطع في نحو عشرين يوماً او مرحلة، وقد انشأت الدولة احواضاً للماء كبيرة في طريق الحج من دمشق حتى المدينة، وينزل الركب في مراحله عندها فيستقي ويملأ قربه واوانيه حتى تكفيه للمرحلة التالية. وقد انشأت الدولة في جانب الاحواض خانات ليرتاح الحجاج فيها ايضاً، وما تزال آثار او اعيان الاحواض الكبيرة والخانات قائمة في هذه الطريق، وكثيراً ما كان يتعرض ركب الحجاج لاعتداءات البدو في الطريق حيث يهاجمونهم في الطرق وفي الليل، ويسلبونهم، وقد يجرحونهم او يقتلونهم.

وكان من العادة ان يقعد الذي ينوي الحج ليلة السفر في بيته، فيأتي لوداعه أقاربه وأصدقاؤه، ومنهم من يخرج لوداع الحجاج الى خارج المدينة وهم يدعون لهم بالحج المبرور والعودة السالمة. حتى لقد كانوا كما سمعت يؤذنون للحجاج ويصلون عليهم صلاة الغائب من شدة الخوف عليهم، لما كانوا يتوقعون لهم من متاعب وأخطار. وصار الحجاج منذ صار في مكة وبلاد الغرب مراكز برق يرسلون برقيات لأهلهم حال نزولهم من عرفات، يطمئنونهم بسلامتهم، وكثيراً ما كان يأتي نعي بعضهم، إما بسبب الوباء الكوليرا التي كانت تلم بالحجاز في هذا الموسم بسبب قدوم الحجاج من بلاد نائية يكون فيها هذا الوباء، واما بسبب مرض او طارىء آخر.

وكان الحجاج حينما يعودون يستقبلهم الناس بالترحاب ويذهبون للسلام عليهم ويقبلونهم ويدعون لهم: (حج مبرور وسعي مشكور)، ويطلبون منهم الدعاء لله بالمغفرة لأن دعاء الحاج يكون مقبولا لأنه راجع من عند الله، وقد سقطت ذنوبه حسب العرف الشائع، ويجيبهم الحاج بالدعاء بالرحمة والمغفرة. ويدار على المستقبلين تمر الحج وماء زمزم للبركة، ويأتي الحجاج بهدايا الحج المتنوعة من مسابح (جمع مسبحة) وطاسات ومناديل وتمر وحناء ولادن وكافور وصوان نحاسية محفور عليها اشكال هندسية الخ... فيرسلون منها الى بيوت الاقارب والاصدقاء. وكان الاصدقاء يرسلون الى الحجاج حينما يعودون هدايا تسمى (حمولة)، من اكياس من ارز وسكر وتنكات من سمن وزيت وارطال من القهوة. وكثيراً ما يعزم الجيران الحاج الى بيتهم حين عودته، ويكونون قد خاطوا له كسوة حسنة مؤلفة من ثياب داخلية وقنباز حريري ورداء من الجوخ او عباءة وزنار وحذاء وطربوش، وعمة وجبة للمشايخ الخ... وكثيراً ما كان الحجاج حينما يعودون يطلقون ذقونهم بعد ان كانوا اعتادوا حلاقتها. وكثيراً ما كانوا يُعزمون من جيرانهم واقاربهم للغداء او العشاء.

وهكذا يكون الحج موسم حركة ونشاط في الذهاب والإياب وكانت غيبة الحج تمتد نحو ثلاثة اشهر.

ثم صار بعض الأغنياء الميسورين في وعيي وقبيل ذلك يذهبون الى الحج بحراً، وحيث يركبون الباخرة من يافا إما رأساً بباخرة تذهب الى جدة خصيصاً، واما الى السويس حيث يركبون باخرة منها الى جدة. ويعودون بنفس الطريقة، وكل ما يكون عليهم من مشقة سفر هو السفر من مكة الى المدينة لزيارة قبر الرسول ﷺ، وهي زيارة يحرص على ادائها كل الحجاج.

وبالمناسبة نقول ان ركباً للحج آخر يسمى ركب الحج المصري يتحرك من ارض مصر نحو الحجاز، ويشترك فيه حجاج مصر والبلاد

الاسلامية والافريقية، وكل ما ذكرنا في صدد الركب الشامي وسيرته ومسيرته ومتاعبه وطريقه هو شأن هذا الركب مع زيادة، وهي ان هذا الركب يحمل عادة كسوة جديدة من الحرير المطرز بالذهب والفضة للكعبة المشرفة.

الاهتمام لعيد ولادة النبي والليالي المباركة:

وكان لتلاوة قصة المولد النبوي أبهة واهتمام، وكانت من العادة في يوم ذكرى ولادة النبي ﷺ ان تزين المدينة ويعيد الناس، وقد شهدت اكثر من مرة في طفولتي وفتوتي الأولى دكاكين الاسواق وهي مزينة بالبسط واللوحات وشقف الحرير والكراسي ليلاً ونهاراً وبخاصة في الليل. والناس يمرون بينها ويجلسون ويدار عليهم الملبس واحياناً الشربات. وكان يمشي في الليل مواكب لمختلف الصناعات، حدادين وخبازين ونجارين ومنجدين وسروجية، وغيرهم وغيرهم من الصناع على مركبات تجرها الدواب، وهم يباشرون صناعاتهم، حتى الخبازون كانوا يصنعون شبه فرن تشتعل فيه النار وهم امام بيت النار يرقون العجين ويقذفونه فيه. والاسواق مزدحمة مبتهجة، وفي كل مسجد حلقة لقراءة قصة المولد. وكان يقام حفل رسمي يحضره المتصرف والموظفون في جامع النصر وقت الظهر، ويدار على الناس في نهاية قراءة القصة ماء الورد وقراطيس الملبس. وكان الناس ينذرون قراءة الموالد اذا ما تحقق لهم مطلب او وُلِدَ لهم ولد، أو تزوج أحدهم او شفي مريض من مرضه، او عاد غائب من غيبة طويلة. وكان اناس متخصصون في قراءة قصة المولد واناشيده، ويكون ذلك على الاغلب في الليل، ويدار على الناس كذلك قراطيس الملبس وماء الورد. ويكون فرح وخشوع معاً. وكان كثير من الناس وبخاصة النساء ينذرون قراءة مولد على المآذن لأن ذلك اقل كلفة واسرع، فيدفعون للمؤذن مبلغاً زهيداً فيصعد الى المئذنة بعد المغرب ويشعل سرجها ويقرأ قصة المولد واناشيده بصوت مرتفع يسمعه الناس، واحياناً يكون معه بعض المساعدين، وكان كل الناس يحتفلون ويعيدون في ذكرى ولادة النبي ﷺ، وكانوا يعيدون ويحتفلون في اول شهر محرم وهو اول السنة الهجرية. ولكن حفاوتهم بعيد المولد النبوي اعظم واروع واشمل. ومن عاداتهم في عيد اول السنة (المحرم) ان يقدموا ارغفة خبز من السميد المعروك بالسمن، ويزينوها بالسمسم وحبات القزحة. ويسمون هذه الارغفة (فتوت) و(عيدي)، وهي لذيذة على شدة دسامتها. ويصنعون كذلك معها صواني بالسميد والسمن، ويقطعونها قبل ادخالها للفرن بالسكين بحجم قطع البقلاوة او اصغر قليلاً يسمونها (قظماط)، والكلمة في اصلها على الارجح تركية معربة من (بكسماط)، وكانت تطلق على الخبز والكعك الناشف ليكون زاداً للعسكر، ولكن (قظمات) المحرم اصغر، وهو من السميد المعروك بالسمن. وكانوا يرسلون ارغفة الفتوت وقطع (القظمات) هذه الى بناتهم المتزوجات في غير أسرتهم هدية رأس السنة ومعها جوز ولوز وبندق الخ... وكان يقام في المساجد **ليلة السابع والعشرين من شهر رجب** بعد المغرب حفلات يحتشد فيها المسلمون لإحياء **ذكرى الإسراء والمعراج النبويين**، الذين يرون انهما تما في مثل هذه الليلة، ويقرأ شيخ في الحفلة قصة الاسراء والمعراج ثم يدعو ويبتهل ويشاركه المجتمعون في الدعاء والابتهال.

وليلة اخرى يحتفل بها المسلمون هي **ليلة النصف من شعبان ويسمونها ليلة الشعلة**.

ويروى ان الله تعالى يقسم أرزاق الناس واعمارهم للسنة الجديدة في هذه الليلة، واعرف في وظائف الاوقاف وظيفة شخص له مرتب سنوي زهيد باسم وظيفة دعاء ليلة النصف من شعبان، ويبتهل المسلمون بعد صلاة المغرب في المساجد وفي رأسهم احد المشايخ في هذه الليلة الى الله بأن يتغمدهم برحمته وتيسيره.

وليلة اخرى يحتفل بها المسلمون هي ليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان، وهي الليلة التي نزل بها الوحي والقرآن لأول مرة على النبي ﷺ في غار حراء، ويكثرون من الدعاء فيها، ويردون ان الله يستجيب لمن يدعو فيها، وكان دعاؤه في الليلة المحققة.

عادة قراءة قصيدة البردة وسفري مع جدي الى بيروت من نتائج ذلك وما كان من مشاهد الرحلة:

وكانوا يهتمون لقراءة قصيدة البوصيري كل ليلة جمعة، وأحياناً كل ليلة اثنين وليلة جمعة بعد صلاة المغرب وفي البيوت وفي بعض الدواوين وبعض المساجد، وهي قصيدة طويلة في مدح النبي ﷺ وشمائله ومعجزاته وابتهالاته، كنا نحفظها ونحن صغار ومطلعها:

أمِنْ تذكّرِ جيرانٍ بذي سلَمٍ
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وكانوا يتلونها في الجنازات وراء نعش الميت بأسلوب الأوراد الذي يفقدها معانيها الجميلة البليغة، وكثيراً ما قرأناها في بيتنا أو بيت أحد أعمامنا في حلقة صغيرة أو كبيرة.

وأذكر بهذه المناسبة حادثاً مهماً في طفولتي سجلت ذكرياته في دفتري الأول وأنا أنقله مع التركيز؛ فقد كان مدير مدرستنا الابتدائية الشيخ محمد زعيتر الذي سوف يأتي ذكره، يأخذ تلامذة الصفوف الأخيرة لقراءة هذه القصيدة كل ليلة جمعة بعد المغرب في جامع النصر، وكان جدي الحاج درويش - رحمة الله عليه - يأخذني الى الجامع للاشتراك في الحلقة حسب تنبيه المدير، وينتظرني حتى نفرغ من القصيدة ونصلي العشاء، فيعود بي الى البيت.

وفي إحدى المرات صارت (طوشة) وخناقة بضجة شديدة في الساحة التي أمام الجامع والتي هي أمام سراي الحكومة أيضاً. وخرج جدي للاستطلاع وعرفت فيما بعد أنه كان تنافس على منصب الافتاء الذي شغر بوفاة المفتي الشيخ أمين أبي الهدى في أوائل القرن الرابع عشر هجري، أو قبل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، والذي ذكرته قبل، بين الشيخ حسين هاشم والشيخ عباس الخماش. وكانت الحكومة ضالعة مع الأول، وسرى التنافس الى الأنصار من الشباب وتضاربوا، وقبضت الحكومة على بعضهم وحبستهم في الحبس الموجود في عمارة سراي الحكومة. وجاء أنصارهم وهاجموا السراي ورجموها بقصد تخليصهم، وتدخلت الشرطة وصارت (طوشة) كبيرة في ساحة السراي، وأطلق رصاص وقبض على عدد من الناس، واتهم كل من الشيخ حسين والشيخ عباس خصمه وأنصاره بالهجوم، وصارت قضية مهمة ورأت الحكومة أن يكون نظر القضية في محكمة الجزاء في بيروت، حتى لا يقع اضطراب وتضارب بين الأنصار في نابلس أثناء المحاكمة، ولا يكون تشويش من أحد عليها. وقد كتب اسم جدي الذي كان خرج للاستطلاع كشاهد، وأرسلت اليه دعوة للذهاب الى بيروت لأداء الشهادة أمام المحكمة فيها، فطلبت منه أن يأخذني معه (1898م)، وكان عمري 10 أو 11 سنة، فوافق وأخذني

معه، وقد ركبنا من نابلس الى يافا على بغل مع البوسطة، لأنه لم يكن اذ ذاك طرق معبدة ولا مركبات. وكان سفرنا بعد العصر، وسرنا في الليل بطريق عزون، والمسافة بين نابلس ويافا على البغل (12) ساعة وقد أردفني جدي وراءه، ونعست ووقعت على الأرض، وهذه ثاني رحلة لي في طفولتي، الأولى كانت الى القدس موسم النبي موسى، وقد شرحت ما كان فيها، ومن الصدف أن تكون كل من رحلتي هاتين في طفولتي في مناسبة لها صلة بالأحوال الدينية.

ومن يافا ركبنا في مينائها قاربا وكان يسمى (شختور) الى الباخرة التي كانت واقفة على مسافة بعيدة ما عن الميناء، لأنه لم يكن رصيف على البحر يقف على ساحله للبواخر، وكان بين الساحل وعرض البحر صخور كانوا يسمونها (قرانيط)، فكانت البواخر لا تقترب من الساحل بسبب ذلك.

وقد بتنا في البحر على ظهر الباخرة حيث فرش الركاب عباءاتهم وحراماتهم على أرض سطح الباخرة. وقد وصلت الباخرة مياه بيروت بعد طلوع الشمس من اليوم التالي. ووقفت هي أيضاً في عرض البحر بعيدة عن الساحل لأنه لم يكن قد انشيء رصيف عميق على الساحل لتقف البواخر عليه. وجاء بحارة بيروت (بشخاتيرهم) فنقلونا من الباخرة الى الساحل، ولقد كانت بيروت مدينة كبيرة جداً بالنسبة لنابلس والقدس اللتين أعرفهما، ولكنها لم تكن على ما صارت اليه الآن من فخامة وسعة لا في شوارعها ولا في حوانيتها ولا في فنادقها، وكان يسير في شوارعها ترامواي. وتضاء بالغاز ذي النور الأبيض المقارب للزرقة يجري في أنابيب ويشتعل حالما تفتح الحنفية ويمسها لهيب الكبريت، وكانت بعض الأماكن تضاء بالكهرباء أيضاً لأن الترامواي كان يسير بالكهرباء. وكانت المواصلات في الشوارع بالإضافة الى الترامواي تتم بالعربيات الصغيرة التي كانت تسمى واحدتها (حنتورا)، ويجرها حصان أو حصانان، ويكون فيها مقعدان متقابلان تستوعب ثلاثة الى خمسة ركاب، وهي قفص جلدي يرتفع وينزل، ولم تكن السيارات قد جاءت الى بيروت بعد. وقد نزلنا في فندق عادي لم أعد أذكر اسمه في ساحة البرج التي تسمى الآن أيضاً ساحة الشهداء. وكان في وسط الساحة منارة عالية في رأسها ساعة كبيرة، وحديقة فيها مقهى ومطعم، وعلى أطراف الساحة دكاكين لباعة الحلو والدخان ومقاهي ومطاعم وغير ذلك، وفنادق أخرى من نوع الفندق الذي نزلنا فيه. وقد قضينا في بيروت اسبوعاً، ورمدت عيناي ولم أهنأ بالرحلة كثيراً. وقد عدنا من بيروت بنفس الطريق والأسلوب الذي جئنا به بعد أن أدى جدي شهادته أمام المحكمة. وتتمة للكلام السابق أذكر نقلاً عن دفتري القديم ان الذي فاز بالافتاء بعد أن خفت حدة التنافس هو الشيخ حسين، رغم أن الشيخ عباس كان أقوى منه شخصية وشعبية. وكان فوزه بتعضيد من الحكومة. وقد عينت الحكومة الشيخ عباس قاضياً لحمص، فكان في ذلك ارضاء وإبعاداً له في آن واحد.

ذكرياتي عن المفتي الشيخ أمين أبو الهدى وشيء عن الافتاء:

والمفتي الذي شغر الافتاء بموته أي الشيخ أمين أبو الهدى مات في طفولتي، وكنت واعياً بعض الشيء، وكنت أراه في الجامع الكبير الذي كانت له فيه غرفة، وكنت أذهب للصلاة

فيه مع أبي وجدي أو وحدي، وكان وسيماً أبيض الوجه مليء الجسم أبيض اللحية كثها بشوش الوجه جهَوري الصوت، وكان الناس يحبونه ويهابونه، وكان مالئاً للأذهان وحديث الناس. ولقد كان الشيخ عباس أيضاً في مثل هذه الصفات. أما الشيخ حسين فكان نحيفاً خافت الصوت لا يوحي بهيبة ولا أبهة، والمفتي في ذلك الوقت عضو في مجلس إدارة المتصرف. ولعل الحكومة عاضدته لأنه في تلك الصفات هيناً ليناً خلافاً للشيخ عباس القوي الشخصية والهيبة.

تعيين الشيخ نمر الداري للافتاء خلفاً للشيخ حسين:

ومات الشيخ حسين في سنة 1911 على ما أذكر، فعينت الحكومة محله الشيخ نمر الداري، وبعد أربع سنين اعتقلته وسجنته وحاكمته في المحكمة العرفية مع كثيرين آخرين بسبب الحركة العربية على ما سوف يأتي شرحه في مكان آخر من هذا الجزء، مع كلمة عن هذا الشيخ المستنير فعينت الحكومة الشيخ منيب هاشم مفتياً.

تعيين الشيخ منيب هاشم للإفتاء بعد الشيخ نمر:

وهو أخو الشيخ حسين، وكان يعمل في القضاء الشرعي خارج البلاد، وصار ذا درجة عالية من المركز، وكان فقيهاً متزناً واسع العلم وحسن الفهم، وقد تقاعد وعاد الى نابلس فملأ المنصب علماً وهيبة أكثر من أخيه، وظل في المنصب الى ما بعد الاحتلال الانكليزي ببضع سنوات. وقد زرته في شبابي أكثر من مرة، وتحدثت معه في شؤون دينية وسياسية بعد الاحتلال.

جمعية الشيخ عباس والحاج توفيق حماد:

ومما سجلته في دفتري القديم وأنقله مع التركيز وفيه تتمة للاستطراد، أن الشيخ عباس الخماش كان رأس كتلة من رجال بعض الأسر البارزة الموسرة وغير الاقطاعية، ونقصد بالإقطاعية الأسر التي كانت لزعمائها الحكم والبروز والنفوذ في القرون الأخيرة، والتي منها أسر طوقان وعبد الهادي والنمر وآل قاسم، (والتي شرحنا تاريخها في الجزء الثاني من كتابنا العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي)، وقد تكتل أولئك الرجال تحت زعامة الشيخ عباس كمنافسين ومناوئين للأسر الإقطاعية، وكانت كتلتهم أو بروزهم بمثابة الطبقة البرجوازية التي ظهرت في أوروبا في القرون الأخيرة لمناوأة الأسر الاقطاعية. وكانت كتلة الشيخ عباس تسمي نفسها جمعية، ويعرفها الناس بهذا الاسم أيضاً. وكان من أعضائها أو أركانها الحاج توفيق حماد، الذي صارت له الزعامة على الكتلة بعد الشيخ عباس، وكان هذا رئيس كتاب قلم المتصرفية، ويكتب ويتكلم التركية بالاضافة الى العربية، مع القول ان معرفته للغتين معرفة عادية تقليدية.

وقد استطاع في ظل هذه الزعامة أن يدحر بشير طوقان الرجل الذي كان له البروز والنشاط من آل طوقان الإقطاعيين، عن رئاسة البلدية ويحل محله فيها. وكان بشير من أنصار الشيخ حسين هاشم، وعضده في تولي منصب الافتاء دون الشيخ عباس، نتيجة لما كان من موقف الشيخ عباس وكتلته من آل طوقان والأسر الاقطاعية. ولقد أظهر الحاج توفيق حماد في منصب رئاسة البلدية كفاءة وقدرة على التنظيم، وأشعر الناس بقوته وصرامته وكفاءته، وكان متديناً وذا لحية خفيفة شقراء. وكان له موقف

مناوىء لجمعية الاتحاد والترقي مؤيد للسلطان عبد الحميد الثاني بعد إعلان الدستور، وعلى ما سوف نشرحه بعد. وصار مرة عضواً في مجلس الادارة، وانتخب بعد الدستور العثماني مرتين لعضوية مجلس النواب العثماني. ولقد اندفع بحماس في سبيل انشاء مستشفى وطني اسلامي بعد قيام المستشفى الانكليزي التبشيري في نابلس، وأسس جمعيته وجمع تبرعات كثيرة لأجل ذلك، وقد بدأ عمله هذا وهو في رئاسة البلدية وباسمها، ثم استمر عليه حتى تم انشاء المستشفى وتجهيزه وفتحه للمرضى، فكان ذلك من حسناته، وزاد من مكانته، وقد ظل ذا بروز قوي بقية أيام الدولة العثمانية، ثم في زمن الاحتلال الانكليزي بعدها. وصار في هذا الزمن رئيساً للجمعية الوطنية التي قامت وقام أمثالها في فلسطين سنة 1918 لمناوأة الصهيونية والاستعمار الإنكليزي، والتي كانت تسمى الجمعية الإسلامية المسيحية، وكنت أنا عضواً فيها وسكرتيراً لها، وتعاونّا معاً نحو عشر سنين، وكانت ثقافته متوسطة محباً للرسم، وقد توفي رحمه الله في أواسط العقد الرابع، وسيأتي كلام عنه في مناسبات تالية.

كلمة عن الشيخ عمر زعيتر:

ولقد كان ينتسب الى هذه الجمعية عدد من رجالات نابلس وجنين وطولكرم، ادركت بعضهم في فتوتي وبعضهم في شبابي، وتعرفت عليهم وتعاونت مع بعضهم، ومنهم الشيخ عمر زعيتر وكان متعمماً. وكان في زمن الدولة العثمانية مأمور مقاولات او ما يسمى اليوم (كاتب عدل). ثم صار عضواً في مجلس الادارة وعضواً في مجلس العموم للولاية في بيروت، ثم وكيلاً لرئيس بلدية نابلس، وكان رئيس البلدية حيدر طوقان. وقد حصلت اختلاسات في البلدية، فسحبت يد الرئيس للتحقيق، وعين الشيخ وكيلاً. وجاء الاحتلال الانكليزي وهو يمارس رئاسة البلدية، واستطاع ان يبقى فيها رغم مساعي حيدر للعودة اليها، وبرز كزعيم قوي في نابلس بل في فلسطين اثناء المدة القصيرة التي عاشها في زمن الانكليز. وكان قوي الشخصية فيه دهاء وحيوية، ويستطيع ان يقضي مآربه بدهائه، ولعله كان من اقوى اعضاء الجمعية عقلاً ودهاءً ونشاطاً، أو أقواهم، ويفوق في ذكائه ودهائه الحاج توفيق، واستطاع بهما ان يكون مقبولاً لدى الحركة الوطنية ولدى الانكليز معاً. وقد توفي في اواسط العقد الثالث (1924) رحمة الله عليه. وكانت له جنازة مهيبة سار فيها اهالي نابلس ووفود من بلدان فلسطين. وسيأتي عنه كذلك كلام آخر في مناسبة آتية. مع القول ان الاثنين كانا الركنين القويين الاساسيين في هذه الجمعية.

كلمة عن الحاج بدوي عاشور والشيخ عارف الجوهري:

وكان من أعضاء الجمعية الحاج بدوي عاشور، وهو ثري وجيه سمح اليد والوجه. وكان بذلك ذا اعتبار في البلد وبين رفاقه.

ومن أركان الجمعية ايضاً الشيخ عارف الجوهري، وكان مأمور اوقاف نابلس موظفاً حكومياً حيث كانت الاوقاف من جملة اعمال ووظائف الدولة.

أعضاء آخرون للجمعية:

وكان ممن ينتسب اليها الحاج عبد الحليم كنعان، الحاج يوسف التميمي، الحاج محمد علي الخياط وطاهر كمال، وهم رؤساء اسر بارزة وموسرة في نابلس.

كلمة عن حسن الشكعة واحمد العمد:

وكان ممن ينتسب اليها ايضاً في نابلس الحاج محمد حسن الشكعة، والحاج أحمد العمد، ولم يكن لأسرتيهما بروز وثراء بعد كالأولين، ولكن كان لهما نشاط وحيوية وصلات بالقرى ووسط البلد.

كلمة عن الحاج عبد الهادي القاسم:

وكان ممن يحسب من اعضاء الجمعية الحاج عبد الهادي القاسم عبد الهادي وهو والد رفيقنا وصديقنا عوني، الذي سوف نتكلم عنه كثيراً في هذه المذكرات. وكان من اذكى الشيوخ وأكثرهم نطاقة عربية وأحسنهم حديثاً، وكان راوية شعر وذواقة شعر وأدب، ويظهر أنه كان مطلعاً اطلاعاً غير يسير على الأدب والتاريخ العربيين، وكان عنده مراجع عديدة لذلك. واذكر اني استعرت منها كتاب الاغاني وقرأته في شبابي الاول. وكان ملماً بالقوانين أيضاً. وقد أهّله ذلك ليكون موظفاً (مستنطقاً) في بيروت، ويعادل هذا الاصطلاح اليوم (قاضي تحقيق)، ولكن الذي لحظته انه لم يكن ذا اثر قوي في سير الجمعية ونشاطها، وكان هناك شباب من بعض الاسر البارزة يلتفون على الجمعية ايضاً، منهم فريد العنبتاوي، وفريد عتمة، والحاج سعيد كمال. وقد تعرفت بفريد العنبتاوي وتعاونت معه وتوثقت بيني وبينه صداقة حميمة منذ بدء الاحتلال، واستمرت الى ان توفي رحمة الله عليه في اواسط العقد السابع. وكان قوي النباهة المعياً، وكنت أنا وبعض اصدقاء ورفاق آخرين في انسجام تام، وسوف يأتي كلام عنه في مناسبات تالية.

سعيد باشا وحافظ باشا المحمد:

وكان من اركان الجمعية في جنين سعيد باشا المحمد عبد الهادي، ثم بعد وفاته أخوه الذي خلفه في الزعامة حافظ باشا المحمد، ومعهما ابن اخيهما سليم الأحمد، والأولان واحد بعد الآخر هما اللذان كان لهما البروز والنفوذ والثراء والصولة في قضاء جنين، والثاني اي سليم كان مثقفاً ألمعياً فكان بمثابة يد لهما، وبخاصة لثانيهما وموحياً وموجهاً له. ولقد كان لهذا بسبب صفاته المذكورة، نشاط ايام اشتداد الحركة العربية بعد الدستور. واختاره حزب اللامركزية الذي تأسس في مصر سنة 1912 معتمداً له في جنين. وفي أثناء الحرب العالمية الاولى اشتدت نقمة رجال الاتحاد والترقي الذين كان الحكم في الدولة العثمانية في يدهم على رجال الحركة العربية، واخذوا يطاردون من عرفوا نشاطهم وانتسابهم لحزب اللامركزية والتنظيمات العربية الأخرى. ويحاكمونهم ويحكمون عليهم ويعدمونهم، وكان سليم رحمه الله من الجملة حيث اعتقل ثم حوكم وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه في جملة الشهداء الأولين في آب 1915.

ويظهر ان الذين فكروا في إنشاء الجمعية رأوا في سعيد المحمد ثم في أخيه بعده حافظ قوة، فضموهما اليهم ليكون لهم اليد في قضاء جنين رغم ما في ذلك من مفارقة، لأن آل عبد الهادي يحسبون من الاقطاعيين، وكان سعيد ثم حافظ بدرجة اوسع قوي النفوذ والاقطاعية والاستغلال لهما، وكانت ابوابهما مفتوحة للقادمين والرائحين، فكان ذلك مما اسبغ عليهما اسماً وصيتاً وسواغاً. ومن المظاهر المفارقة في الموقف ان سعيداً ثم اخيه حافظاً بعده لم يريا بأساً في الانضمام الى مثل هذه الجمعية المناوئة للاقطاعية، ولقد كانا على ما يبدو مطمئنين لمركزيهما وقوتهما، فرأيا ان

تناغمهما مع جمعية نابلس التي كانت تنشط بنوع خاص ضد غير آل عبد الهادي من الاقطاعيين مصلحة لهما، ويلوح لي انه كان لسليم الاحمد الذكي الالمعي المثقف يد في التوفيق في هذه المفارقات.

وكان للجمعية ركن قوي في قضاء طولكرم، وهو عبد الرحمن الحاج ابراهيم زعيم الطيبة، وكانت اسرته مع اسرة اخويه قد انتقلا الى طولكرم، وقد برز واستلم رئاسة بلدية طولكرم مدة طويلة، وكان ركناً قوياً للجمعية في هذا القضاء لتنفيذ خطط وزعامة الجمعية، وكان المعياً وداهيةً وناعماً في آن واحد.

ما كان من تشاد بين الجمعة وآل القاسم وطوقان:

ولقد كان بقية رجال الأسر الاقطاعية في نابلس وجنين وجماعين. وكان من أقواهم في نابلس بشير طوقان. وكانت رئاسة البلدية في عهدته، فانبرت له الجمعية ونافسته ودحرته عن الرئاسة، وحل الحاج توفيق حماد محله. ولم يكن من آل النمر من يتطلع الى نفوذ وصولة او ينشط في سبيل ذلك، فلم يكن تنافس بينهم وبين الجمعية. ولقد كان من آل عبد الهادي عدد غير قليل من الرجال غير سعيد وحافظ وسليم، ففي جنين كان من ابرزهم حيدر عبد الرحمن، ومحمد الحسين. غير أن سعيداً ثم حافظاً مع سليم، كانوا الأقوى، والأنفذ، وقد تناغمت المصلحة بين هؤلاء وبين الجمعية، ولم يكن تنافس جدي بين الآخرين وبينهما.

وكانت حالتهم في الأعمال حسنة، ولكنهم لم يكونوا متضامنين من جهة، ولم يكونوا مندمجين في حياة نابلس من جهة أخرى، فلم يستطيعوا بل لم يحاولوا نتيجة لذلك فرض صولة ونفوذ للأسرة في نابلس، وكان عبد الكريم اليوسف يحاول شيئاً من ذلك، ولكنه لم يحقق ما أراد. وكان أكثرهم ثقافة وذكاء هو الحاج عبد الهادي القاسم عبد الهادي، وابراهيم القاسم السليمان، والأول تفاهم مع الجمعية وصار منها، والثاني لم يكن آبهاً[1] لبروز أسروي، ومن أجل ذلك لم يكن تنافس جدي بين الجمعية وبين آل عبد الهادي ايضاً.

وبقي رجال آل القاسم استثناء من ذلك، لأنهم كانوا أقوياء وأصحاب نفوذ أو عصبية وصولة في قضاء جماعين. وكانت الزعامة لأمين واخيه عبد الهادي، وقد استطاع الاول وهو الأكبر أن يصير عضواً في مجلس ادارة المتصرفية في نابلس، والثاني ان يصير عضواً في مجلس ادارة القائمقامية في سلفيت التي كانت مركز قضاء جماعين. وصار هذا نتيجة للمركزين صاحب صولة وهيبة في هذا القضاء، فانبرت الجمعية لمناوأة الأخوين، وصارت ترسل الشكايات ضدهما الى المتصرفية والولاية والوزارة تشرح فيها ما هو واقع من تسلطهما على اهل القضاء، حتى نجحت في استصدار قرار من الوزارة بإلغاء القضاء وتحويله الى ناحية، وبذلك ضربت نفوذ آل القاسم ضربة شديدة.

نفوذ الجمعية وقوتها وأساليبها ومداخلاتها:

وهكذا لمع نجم الجمعية كما قلنا، وغدت صاحبة النفوذ القوي في جميع لواء نابلس، واستمرت تتمتع بهذا النفوذ وتستغله امداً غير قصير في زمن الدولة العثمانية، وجمد امامها الاقطاعيون او اندحروا. ونتيجة لموقف الجمعية من حركة الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد

(1) آبهاً: مهتماً.

الحميد على ما سوف نشرحه في مناسبة اخرى، فقد أيدت الحكومة بعد الدستور بشير طوقان ونصبته قائمقاماً على جنين، ولكن حياته لم تطل. ثم أيدت بعده حيدر طوقان الذي كان موظفاً في البنك الزراعي حتى ضمنت له الفوز بمقعد عضوية المجلس النيابي، ولكن هذه الفترة لم تدم لأن الجمعية عادت ففرضت نفسها نتيجة للظروف السياسية، واستطاعت ان تدحر حيدر عن العضوية، وتمكن الحاج توفيق منها مما سوف نزيده شرحاً في مناسبة ثانية.

وكان اعضاء الجمعية الرئيسيون والثانويون وانصارهم يتضامنون في مختلف المواقف ويبذلون جهدهم في تحقيق مآربهم ومطالبهم. ولقد كانت مراكز انتخابية في مراكز المتصرفية والاقضية مثل عضويات مجالس الادارة ورئاسة وعضويات البلديات ومنصب الافتاء وعضويات محاكم التجارة والحقوق، يترشحون ويرشحون لها انصاراً لهم ويبذلون جهودهم لتعيين انفسهم او ذويهم او اوليائهم فيها.

ولقد كانت ضريبة الأعشار في عهد الاقطاع التزاماً في يد الإقطاعيين، وهذا هو مركزهم الرسمي، حيث كانوا يتعهدون للدولة بمبلغ مقطوع من ضرائب اقطاعهم يجبونها من الاهالي بفروق كبيرة تعوض عليهم. فلما الغي الاقطاع صارت الدولة تعلن اعشار القرى للالتزام بطريق المزايدة، ويرسو التزام كل قرية على من يتعهد بالمبلغ الاكبر، وينشط المتعهد في جباية اعشار القرية وتقديم ما تعهد به. وتساعده الدولة بالدرك، ويكون في الاعم والاغلب رابحاً. وكان المتعهدون يحتاجون الى كفالات والى انصار واولياء ذوي كلمة لدى السلطات، وكان اعضاء الجمعية يبذلون جهدهم لضمان ذلك لهم ولأوليائهم.

الطريقة الشاذلية وما دار حولها من أخبار واشاعات:

وأعود بعد هذا الاستطراد الى السياق الذي عقدت عليه النبذة، فأنقل من دفتري ما سجلته من أخبار وذكريات عن طريقة دينية كانت لها ضجة في نابلس أيام حياتي وهي الطريقة الشاذلية. ومما سمعته ان منشئها رجل مغربي اسمه الشيخ علي اليشرطي، جاء من بلاد المغرب وسكن في قرية ترشيحا في قضاء صفد، واخذ يبشر بطريقته، واستطاع ان يستهوي لها كثيراً من المريدين، ثم انتقل الى عكا واتخذها مركزاً له واخذ يبشر بطريقته فيها، واستطاع ان يستهوي كثيراً من أهلها وينشىء فيها زاوية اتخذها مركزاً للحفلات واجتماع المريدين وسكناً له. ولم يلبث ان اخذت طريقته تتجاوز منطقة عكا، ووصلت الى منطقة نابلس حيث صار له مريدين كثيرون في قرى ام الفحم وعرابة وطوباس وطلوزة وسرطه وطمون. وكان في نابلس اسر عديدة ينتسب بعض افرادها اليها.

وكان ينتشر حول اسم الشيخ وطريقته اخبار وحوادث واشاعات مختلفة، فالشيخ ولي من اولياء الله الكبار. واحياناً يقال ان الله حل فيه. وطريقته قائمة على افناء الشخصية فناءً تاماً. واعتبار جميع ابنائها شخصاً واحداً وروحاً واحدة، ومن واجب كل منهم التضحية في سبيل الوحدة بكل شيء من مال ونفس. وكان من مريديه اناس اغنياء وزعوا ثرواتهم على الشيخ وابناء الطريقة واصبحوا فقراء.

الطريقة البهائية وما كان حولها من أخبار:

ومن هذا الباب طريقة دينية أخرى كانت في عكا في نفس الظرف الذي كانت فيه طريقة

الشاذلية نشيطة، وقد سجلت عنها في دفتري القديم بعض المعلومات والذكريات، وانقلها هنا مع التركيز، وهي الطريقة (البهائية). ومما سمعته أن رجلاً فارسياً جاء مع جماعة له من بلاد ايران مطروداً أو مطارداً من سلطانها بسبب حركة تمردية قام بها، وأنه كان يتلقب بلقب الباب. وقد سمحت له الدولة العثمانية بالإقامة في عكا، ولقب الباب منصب في الباطنية. صاحبه يكون وسيطاً أو باباً للوصي، والوصي هو كذلك لقب منصب في الباطنية، صاحبه النائب الحي الظاهر للإمام المهدي الغائب أو المختفي الى أن يحين وقت ظهوره. والباب هو صاحب النشاط في الأتباع يجمع الزكاة منهم، ويبلغهم ما يقتضي باسم الوصي. . .

ومات هذا بعد مدة من اقامته في عكا، فخلفه في منصب الباب خليفة من جماعته كان مرشحاً لذلك. ولكن هذا الخليفة تجاوز التقاليد، فزعم أن الروح الإلهية حلت فيه، وسمى نفسه البهاء، وصار يدعو لنفسه فصارت له طريقة عرفت بالبهائية. وكان معظم مريدي هذه الطريقة من جماعة الفرس الذين جاءوا مع الباب وأولادهم مع قليل من العرب، وكان يذكر عن البهاء انه يفسر القرآن تفسيراً من شأنه الغاء التكاليف التعبدية وإيجاز الإخلاص والفناء لشخصه المتوحد بالذات الالهية، ومات البهاء. ولكن مريديه لم يعترفوا بموته، وقالوا إنه ارتفع، وأقاموا له في بستان سموه البهجة بعيد قليلاً عن عكا مقاماً فخماً صار محجاً للمريدين.

وقد زرت هذا المقام في الثلاثينات أثناء ممارستي لمديرية الأوقاف، فرأيت المعاملة فيه عجيبة من حيث التقديس ومحاولة التأثير على الزوار. فلا يسمح لأحد بالدخول الا بعد خلع نعله من مسافة لا تقل عن عشرة أمتار من المقام، وحينما يدخل الزائر يرى مقاماً مفروشاً بأثمن السجاد وجدرانه مزينة بأبدع اللوحات الخطية في أثمن الاطارات، واسم البهاء مكتوب بأشكال متنوعة بأسلوب يقرأ فيها الاسم كأنه (الله) أو يا (الهي البهاء)، ولمست في ما كان موجوداً من السدنة والمريدين انهم يعتقدون فعلاً أن الروح الالهية قد حلت في البهاء أو اتحد بها. وليس في المقام قبر وانما ثريات مزينة بالزهور وتزيينات كهربائية ملونة إذا انيرت أخذت بالأبصار. وهناك جناح يسمى دار الضيافة مفروش بالسجاد الثمين، وفيه غرف للنوم ولوحات مخطوطة بديعة وثريات ثمينة ومكتبة تحتوي كل ما قيل وكتب عن البهاء والبهائية، والمأثورات عن البهاء، وقد صار ابنه عباس خليفة له، وورث ثروة طائلة كانت في حيازة أبيه، ومخطوطات لأبيه فيها تفسيراته للقرآن وتعليماته وأقواله وأقوال باطنية أخرى مليئة بالألغاز. ويستقبل العباس زائريه بوقار كبير ويحدثهم بأحاديث غامضة قابلة للتأويلات المتنوعة. ويوزع على زائريه ومعارفه ومريديه والموظفين والأعيان هدايا من الشاي وغيره، وكان يقبل الناس على زيارته.

وقد ملأ جو عكا بوجوده وصار بيته مزارا لمختلف فئات الناس، وقد أدخل تطويراً على طريقته بحيث انها لم تعد باطنية اسلامية بل صارت دعوة الى وحدة دينية تتسع لمختلف النحل، وتستطيع كل نحلة أن تحتفظ في نطاقها بطقوسها الخاصة وتمارسها أيضاً انطلاقاً من فكرة وحدة الوجود ووحدة الانسانية وغيرها، وبشر بنفسه كرسول لهذه الوحدة وبابها. ويظهر ان هذا التطوير قد استهوى كثيراً من الناس، حيث صارت البهائية عقيدة مئات الألوف من مختلف النحل، ولا سيما في أمريكا، ولقد قام

العباس بزيارة لأميركا قبل الحرب العالمية الأولى، فاستقبله الآلاف من المريدين بأعظم مظاهر الاستقبال. وفي أثناء هذه الحرب انتقل من عكا الى حيفا واتخذها مقراً وابتنى لنفسه مسكناً فخماً، وأقام لأتباعه مساكن في جواره، وأنشأ فيها في جانب من مسكنه بناء له ثلاثة مداخل لمعتنقي البهائية من المسلمين والنصارى واليهود، وفي كل مدخل معبد خاص لكل نحلة حسب طقوسها. ثم تنفتح هذه المداخل على بهو عام ليلتقي فيه أهل هذه النحل متوحدين بوحدة العقيدة البهائية. ولقد صار مقره محجاً للزائرين في حيفا أيضاً من مختلف النحل والفئات والأجناس، وظل هو يبدو امامهم مهيباً غامضاً مستهوياً ملغزاً في هيأته ولباسه وكلامه ومظاهره. ومعتنقوا البهائية يؤدون اليه زكاة أموالهم، فكان له من ذلك مورد عظيم كان يساعده على مظاهره الفخمة المتنوعة، ومات العباس بعد الحرب فدفن في مدفن خاص في سفح الكرمل بدون قبر، وانما مصطبة مرتفعة قليلاً في غرفة مزينة باللوحات الثمينة مفروشة بالسجاد الثمين مضاءة بالكهرباء الوهاجة.

وخلفه خلفاء ظلوا وما يزالون يرعون الدعوة ومريديها، ولكنهم لم يكونوا من عياره. وقد حرمت البهائية في البلاد الاسلامية لشذوذها عن النصوص القرآنية الصريحة.

شيء من عادات الزواج واستطراد الى زواجي وحياتي الزوجية الأولى وأولادي وحياتهم:

إن كثيرا من عادات الزواج التي كانت في طفولتي ممتدة الى ما قبل لا تزال جارية، غير أن كثيراً منها أخذ يتضاءل ويُترك أيضاً.

ولقد كان التزاوج كثيراً بين الأقارب الذين كانوا على الأغلب يعيشون في بيت واحد على ما شرحنا قبل، وكثيراً ما كان الآباء يرشحون أطفالهم من بنين وبنات لبعضهم، وينشأ الأطفال وهم على ذلك، ثم يتم الأمر وفقاً لذلك دون أي اعتبار أو اهتمام للميل والهوى والرغبة بل وللشكل. ولا يكون كل هذا مانعاً ولا موضع رد وأخذ لدى الولد أو البنت حينما يكبرون ويصبحون صالحين للزواج.

ولقد كان التبكير[1] في الزواج للبنات والبنين هو الغالب. فما أن يتجاوز الصبي والبنت سن البلوغ قليلاً حتى يفكر الأهل في أمر تزويج الصبي، وحتى تكون البنت مطلوبة أو مخطوبة. ولقد كانت قرابات الأزواج ووحدة السكن وسهولة الزواج نفقة وكلفة وعملاً، ثم قصد صيانة الشباب ودمجهم في الكسب والعمل، وتبكير الإنجاب والتربية والتنشئة من المشجعات والمسهلات لذلك.

الخطبة ومراسمها:

ولما لم يكن للصبيان والبنات حينما يصبحون صالحين للزواج شأن في تزويج أنفسهم لأزواج من أقاربهم، فلم يكن لهم شأن في زواجهم من غرباء أيضاً. فالقرار في ذلك أولاً وأخيراً للآباء. ولم يكن في طفولتي وما قبلها للصبيان والبنات دور ما إلا استماع الخبر والموافقة على ما يتم على الأغلب والأعم مع بعض أوصاف العريس للعروس أو العروس للعريس.

وكان الكلام يبدأ بزيارة ام الولد لبيت البنت مع بعض أقاربها ومعاينة (البنت) التي تكون سمسارات قد ذكروها ووصفوها للأم مسبقاً. فإذا ما أعجبت البضاعة جرى الكلام أولاً مع أم الفتاة، فإذا صار الجواب ايجابياً انتقل الكلام

(1) التبكير: الزواج المبكر.

الى الرجال. فإذا صار الجواب إيجاباً عين موعد لما كان يسمى (لفيه) أو طلب، حيث كان أبو الولد يدعو وجهاء حيه وبعض وجهاء أحياء أخرى، ويذهبون بعد المغرب الى بيت أهل البنت على موعد معين سلفا. وهناك يتكلم أكبر الوجهاء قائلاً للوالد أو الولي جئناك يا أبا فلان لنطلب كريمتك لفلان.. ويصف هذا الفلان أي الصبي وأسرته بالصفات الطيبة، فيجيب الوالد أو الولي ان لنا الشرف بالطلب والبنت خدامة للمطبخ. وتدار بعد ذلك على المدعوين أقداح الشراب والقهوة وينصرفون. ومن العادة أن تقدم القهوة أولاً فيقول الوجيه الكبير لا نشرب حتى يجاب الطلب، ثم يقول لقد جئناك يا أبا فلان الخ على ما ذكرناه من قبل. وتشرب الشربات والقهوة بعد إجابة الطلب.

مراسم كتب الكتاب وتقييد المهر:

ثم تجري بعد ذلك المفاوضات بين أهل العريس والعروس على المهر، وكان المهر بين الغرباء يتراوح في عهد طفولتي وما قبلها بين خمسين ومائة ليرة ذهبية مقبوضة، ومثلها مؤجلة حسب الأسر وحالتها المادية والاجتماعية. مع ما يسمى فرش بيت، ويكون مؤلفاً من فرشة ولوازمها وبساط وصندوق للثياب ومقاعد للجلوس وطاسة حمام وأوان أخرى، ويكون ذلك ملكاً للعروس.

وبعد ذلك يعين موعد آخر لكتب الكتاب على يد المأذون الشرعي، ويدعى الوجهاء والأقارب من الطرفين. ويكلف محارم البنت بأخذ وكالتها. وغالباً ما يكون أبوي العريس والعروس هما المتعاقدان نيابة عن الصبي والبنت. وأحياناً يكون العريس هو المتعاقد مع الأب أو الوكيل، ويلقنهما المأذون الشرعي ما ينبغي أن يقولاه فيرددانه ويبدأ بالكلام لأبي العروس فيقول له: قل له زوجتك وأنكحتك ابنتي أو موكلتي فلانة بمهر قدره... ثم يقول للعريس قل له قبلت وتزوجت بنتك فلانة أو موكلتك بمهر قدره... ويلقي المأذون قبل تلقين هذا الحوار خطبة قصيرة يبدأها بآية سورة النساء ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبعث منهما رجالاً كثيراً ونساء..﴾ ثم بالحديث النبوي (تناكحوا وتناسلوا وتكاثروا فإني مباهٍ بكم يوم القيامة..).

وعادة يجهز أهل العروس بنتهم إذا كانوا ميسورين من جيبهم، ويبقون المهر بكامله لبنتهم، ويشترون لها به صيغة ذهبية. واذا لم يكونوا ميسورين ينتقون من مهرها ما يكسونها به ويشترون بباقيه صيغة، ولم تكن كلفة الكسوة تكلف ربع أو ثلث المهر أو الصيغة على الأكثر.

وكان يقام حفلة أخرى بعد كتابة الكتاب تسمى حفلة (تقبيض المهر)، حيث يذهب أهل العريس وأقاربهم الى بيت العروس ويدفعون المهر الواجب دفعه معجلاً لوالدها أو وكيلها، وقلما ترى الفتاة فتاها أو الفتى فتاته قبل الدخلة. وكل منهما مع حظه.

حمام الزواج:

ثم يعين يوم للدخلة، وقبل ذلك بيومين يكون يوم (الحمام) للنساء، وفي يوم الدخلة يكون يوم الحمام للرجال.

ويستأجر أهل العروس حماما من بابها من الصباح للظهر، أو من الظهر للمساء، ويعزمون أقاربهم وجيرانهم وأهل العريس.

ليلة الحنة:

وتكون بعد ذلك ليلة (الحناء)، حيث تجبل

الحنـاء وتحشى بها أيـدي العروس وأقـدامهـا وأيـدي من يريـد من النسـاء أيضـاً، وتـزجـج الأصابع بدهان أسود اسمه النقوف. ثم يأتي يوم العرس، حيث يأتي أهل العريس وأقاربهم الى بيت العـروس ليتسلموهـا. فيتغدون عنـد أهل العـروس، وتكـون العـروس قـد لبست ثـوب العرس وتزينت، فتخرج معهم ومعها أهلها الى بيت العـريس. وكان بعض الأولاد والحمـالين يحملون أغـراضها من صنـدوق وبقـج وأثـاث وأوان الـخ.... قـطعـة قـطعـة في مـوكب استعراضي. وكان حينمـا تخرج العـروس من بيتها يراق وراءها ابريق ماء ويكسر، كأنما يرمز بذلك الى ان ماءها جرى نحو مكان آخر.

ليلة العرس:

وحينمـا تصـل العـروس الى بيت العـريس تعطى ورقة تين أو جوز كبيرة خضراء عليها قطعة عجين طـرية، فتلصقهـا في باب دار العـريس كأنما يرمز بذلك الى أنها صارت جزءاً من أهل الدار، ويكون قد هيء في ساحة من ساحات بيت العـريس مكـان تنصب فيـه دكـة خشبيـة وحولها كراسي. وتكون الدكة مزينة بـالشرائط الملونـة والـزهـور، فتجلس العـروس ويجلس الأقارب والصديقات حولها، أو يقفن، وتكون (جنكية) و(هذه كلمة كانت تطلق على المغنية المحترفة) قاعدة أمامها (نقرزان)[1] و (هذه أداة من الفخار مدورة مفتوحة الطرفين ارتفاعها نحو ربـع متر مشـدود على وجههـا جلد مـدبـوغ، وطرفها الثاني رقيق مركوز الى الأرض)، فتنقر على الجلد بقضيب رفيع بإيقاع خاص فيكون له صدى موسيقي. وفي جانبها مساعدة تدق على (الدربكة) و (هذه أيضاً أداة فخارية أطول وأدق عنقاً مشدود عليها كذلك جلد ويدق عليها باليد بـايقاع خـاص)، (كذلـك فيكـون لهـا صـدى موسيقي)، وفي جانب آخر مساعدة أخرى في يدها (دف) تضرب عليه بيدها بنفس الايقاع مع غناء وترديـد مناسبـات مع الايقـاع يشترك فيـه الحاضرون. انتظاراً للعريس.

تلبيس العريس والعروس:

ويكون العريس في ذلك اليوم قد ذهب الى الحمام مع أصدقائه وأقاربه للاستحمام، وأحياناً يستأجر الحمام خلوة صباحية، وكثيراً مـا يعزم أحد الجيران أو أحـد أصدقـاء العريس ليلبس عنده ثوب العرس، ويخرج من بيتـه الى بيت العرس، وكثيراً مـا كان العـازم مهيئاً للعـريس كسوة جديدة مؤلفة من قنباز حريري وطربـوش وحذاء وزنار ورداء وجرابات وثياب داخلية مما اعتاد هو وأمثـاله أن يلبسـه، ويتغدى العـريس وأصدقاؤه في بيت هذا العازم، وتكون مثل هذه العزيمة كدين يرده العـريس وأهله في مناسبـة مماثلة لصاحبها أو من يلوذ به.

وبعد أن يلبس العريس ثيابه يخرج من البيت مع أصدقائه، ويكون جميع شباب الحي وغيره والأولاد قد تجمعوا، فيسير بينهم في زفة تنشد فيها الأناشيد المتنوعة، ويكون الموكب كبيراً أو صغيراً حسب قيمة العـريس والعروس وأهلهم وعلاقاتهم. ويلعب احياناً اثنـاء سير المـوكب لاعبو السيف والترس، حتى يصل الموكب الى بيت العريس، فيدخل هذا على السـاحة التي فيها النساء مع العروس التي تكون جالسة على عرشها أو كرسيها كما ذكرنا قبلاً، وتكون عادة مغـطاة الـوجـه بخمـار أبيض رقيق، فيجلس العريس قربها وتغني المغنيات والنساء ويرقّصن العـروس أمام عـريسها، ثم يـدخل معهـا الى

---

(1) نقرزان: لعله يقصد الطبل.

غرفة، وفي الليلة الأولى لا يمسها بل يكتفي برفع غطاء وجهها ورؤيته الذي يغلب أن لا يكون قد رآه من قبل، ثم يقبلها ويعطيها نقوطاً نقدياً حسب قدرته. ويصلي بعضهم قرب عروسه ركعتين، ثم يخرج الى محل في بيته أو في بيت من يدعوه من جيرانه لاستقبال الناس الذين يأتون بعد المغرب لتهنئته ومباركته افراداً وجماعات. ومن مختلف الفئات والأحياء حسب معارفه وعلاقاته ومعارف أهله وأهل العروس وعلاقاتهم، ويقدم للمهنئين القهوة والسجاير والأراكيل والشراب احياناً. وعلى الأغلب يكونون قد استأجروا أو (ربطوا) صاحب مقهى لأجل ذلك. وفي الليلة الثانية يدخل العريس على عروسه ويخرج على الأغلب عقب افتضاضها لتدخل أمها ومن يلوذ بها لرؤية دم البكارة والطمأنينة به. ويبقى أهل العروس وأقاربهم ثاني يوم بعد الدخلة فيتغدون ويعودون ويكون العرس قد انتهى.

والطعام الذي يطبخ في العرس ارز وخضار ولحم ومحاش وكنافة.

نقوط العروس:

وكان من العادات أن (ينقط) أقارب العروس الرجال والنساء بنتهم (العروس) بنقوط نقدي يوم الدخلة وقبل أن تذهب الى بيت العريس وكل حسب استطاعته. وكان النقوط يتراوح بين الليرة الذهبية والمجيدي بل ونصف المجيدي. وكان من العادات أيضاً أن يرسل أصدقاء العريس وأصدقاء أبويه ومعارفهم وجيرانهم هدايا تسمى (حمولة)، وتكون عادة كيس ارز أو كيس سكر أو تنكة زيت أو تنكة سمن أو كيس طحين الخ... وتكون هذه الحمولة ديناً واجب الأداء لأصحابها في المناسبات المماثلة على العريس وأبيه.

ومعظم ما تقدم يجري للعريس والعروس ولو كانوا أقارب وفي بيت واحد. لأن في البيت اسراً عديدة، وكل أسرة شخصية مستقلة فيه مع التخفيف من كل ذلك في هذه الحالة. ويكون قد هيء للعروسين غرفة في البيت فيستقلان فيها مع ما يكون من جهاز أتت به العروس واتمه العريس. ولم يكن ذلك في طفولتي وقبلي شيء كثير. فلم تكن الأسرة شائعة والفرشات تفرش على الأرض فوق بساط أو حصير. وصندوق ثياب في قرنة، وبعض الأغراض الأخرى في قرنة وفجوة من فجوات البيت التي تسمى (أقواساً) والتي وصفناها سابقاً. وصار من العادة أن يكون في الغرفة دكة خشبية طويلة مرتفعة نحو نصف متر يسمونه (دوشك)، يوضع عليها جنبيات منجدة بالصوف ومخدات منجدة بالقش والصوف، ويغطى كل ذلك بغطاء أبيض أو ملون. وقد قيل لي أنه كان في السابق غرفة واحدة تجمع الأب والأم والأولاد الآخرين ثم العروسين الجديدين أيضاً، وان الغرفة كانت في الليل تقسم بستار أو شرشف فينام العروسان على فرشتهما وراءه.

استضافة العروس:

ومن العادة أن تستضاف العروس بعد العرس بشهرين أو ثلاثة في بيت أبيها وأهلها ليومين أو ثلاثة، ويعزمون العريس وأهله على الطعام مرة أو أكثر. ويظل أهل العروس يقومون بواجبات متنوعة نحو بنتهم. ففي الأعياد يذهبون فيعيدونها بالنقود ويؤنسونها بوجودهم، وفي المواسم يرسلون اليها الهدايا من فواكه ومكسرات وحلويات وغير ذلك. وفي شعبان يعزمونها ليوم أو يومين ويسمون ذلك

(شعبونية)، وفي رمضان يعزمونها كذلك ويسمون ذلك (تخشيته).

شقاق الحماة والكنة:

ويقع صدام بين الكنة والحماة لأسباب متنوعة، فإن الحماة كانت وظلت تعتبر ابنها لها والكنة تابعة. والكنة تريد أن تكون شخصية قائمة وشريكة. والحماة تريد أن تكون الكنة في ذلك الوقت هي الشغيلة في البيت كنساً ومسحاً وغسلاً وطبخاً، والكنة لم تزل فتاة غضة لم تعتد ذلك فيقع تقصير أو تباطؤ. والكنة تحاول أن تستهوي زوجها بمختلف المواقف والزينة. والحماة تخشى أن يؤدي ذلك الى استغراقه فيها الى درجة تخليه عن أمه وعدم البنوّة لها.. الخ. وتتكرر الخناقات والمشاداة لهذه الأسباب، وكثيراً ما تحرد البنت وتأتي الى بيت أهلها، ثم تجري المفاوضات للمصالحة فتعود، وأحياناً تصل الأمور الى عقد ثم الى افتراق. واحياناً يعتاد الطرفان على بعضهما ويتوافقان.

رضاعة الأولاد من امهاتهم:

والعادة العامة أن ترضع الأم أولادها، وما يجري الآن من تغذية الأطفال بالحليب الاصطناعي لم يكن في وقت طفولتي وما قبلها. وكان يغلى الكراوية ويضاف اليها السكر وتعطى للمرضعات، حيث كان يقال أنها تساعد على إدرار الحليب. وكانت تغطي الكراوية هذه بقلوب الجوز واللوز والبندق، ويقدم للمهنئين بالمولود أيضاً، ويسمى المغلي. ومن العادة أن ترضع الأم ولدها سنة على الأقل وقد تزداد الى سنتين. واذا كان حليبها غير دار فترضعه مرضعة مأجورة أو متطوعة، وكانت تدهن حلمة ثدي الأم بعصير مادة الصبر المرّة حتى يعاف مذاقها الطفل ويمتنع عن الرضاعة، وبهذه الطريقة كان يفطم الطفل.

مراسم الختان:

وختان الأولاد الذكور يجري احياناً في السنة الأولى واحياناً بعد سنتين أو ثلاث، واحياناً يكون موسم ختان عام، فيختن أولاد كثيرون في وقت واحد. إما في موعد ذكرى مولد النبي ﷺ، أو بسبب مجيء ختانين ماهرين في وقت دون وقت. وفي هذه الحالة يكون موكب كبير وزفة عظيمة، ويركب الأولاد على خيل وقد لبسوا ثياباً جديدة وزينت رؤوسهم وأعناقهم بالشرائط والزهور والقلائد، ويسير الموكب بهم من أول المدينة الى آخرها.

شيء عن عادات الموت والعزاء والجنائز:

وشأن العادات وقت الموت كشأن عادات الزواج، منها ما يزال ومنها ما أخذ يخف أو يزول. ومن العادات أن أهل الميت كانوا يعملون حينما يموت الميت (حلاوة طحين) ويوزعونها على الناس المجتمعين من أقارب وغير أقارب عن روحه قبل الغسل والدفن. ثم كانوا يعملون له قبل ذلك (سقوط صلاة)، فيأتي شيخ ويحسب جميع الصلوات المفروضة على الميت منذ بلوغه ويعين لكل صلاة ثمناً. ثم يؤتى بصرة فيها عملة فضية أو ذهبية، ويكون المال ملك واحد من الأقارب أو الأصدقاء، فيعطي الصرة للشيخ قائلاً له اني وهبتها لك. ويقول الشيخ وأنا قبلتها منك. ثم يرتب الشيخ حلقة من بضعة أشخاص من فقراء يستحقون الصدقة. فيعطي الصرة لمن هو على يمينه، ويقول له وهبتها لك صدقة اسقاط صلاة عن فلان الفلاني، فيقول هذا قبلتها منك على ذلك. ثم يعطي هذه الصرة لمن هو على يمينه ويقول له ما قيل له ويقول هذا ما قاله الأول. وهكذا تدور الصرة بين هؤلاء الأشخاص مرتين أو ثلاثة بمقدار ما يكون على الميت من

صلوات، وبمقدار ثمن هذه الصلوات. فاذا كان عمره بعد البلوغ خمسين سنة فيكون عليه (18250) يوماً في كل يوم خمس صلوات، فاذا قدر للصلاة الواحدة صدقة خمسة قروش فيكون المطلوب (456250) قرشاً، فاذا كان في الصرة قيمة ثلاثة آلاف قرش، فيجب أن تدور الصرة خمس عشرة مرة على عشرة أشخاص، وإن كانوا أكثر فأقل، وإن كانوا أقل فأكثر. ثم يعيد آخر واحد من الفقراء الصرة هبة منه الى الشيخ، ويعيدها الشيخ هبة منه الى الذي اعطاه اياها أولاً. واحياناً تدور الصرة بين الشيخ وبين كل شخص من فقراء الحلقة فقط، وبعد ذلك يعطي أهل الميت الشيخ وفقراءه صدقات زهيدة اجرة هذه العملية السخيفة التي كان المشايخ يسوغونها.

ثم يباشر بغسل الميت وتكفينه، وهناك اشخاص مخصوصون لذلك. والاكفان تختلف قيمةً وجنساً حسب الميت. وكان في المكان المسمى (مرستان) الذي في جانب الجامع الكبير مكان فيه توابيت ومغسلات وقف من اهل الخير. وكان اناس متخصصون لحملها، فيأتون بمغسلة وتابوت ويضعونهما في باب بيت الميت. وقد يصنع للميت اذا كان غنياً تابوت ومغسلة جديدة ويصبحان وقفاً خيرياً الى جانب ما كان في المرستان، ويتولى الغسل والتكفين اناس متخصصون كذلك، ويوضع في التابوت صرر من الحنوط والكافور وغير ذلك لرشها على الجثة حين تقبر. ويغطى التابوت بشال كشمير، ويوضع على رأسه عمة الميت او طربوشه، ويخرج به من البيت في موكب صغير اولاً الى المسجد للصلاة عليه. وبعد الصلاة يسير موكب الجنازة الى الجبانة وامام النعش المهللون والمكبرون. واحياناً كثيرة يقرأون وهم سائرون قصيدة البوصيري: (أمن تذكر جيران بذي سلم...) الطويلة باسلوب مطاط. ويكون الموكب كبيراً او صغيراً حسب مقام الرجل. وكثير من الناس يشتركون في التشييع للثواب، سواء أكان لهم صلة او معرفة ام لم يكن. ولذلك تكون الجنازات على كل حال حافلة نوعاً ما، ولو كان الميت غير مشهور او غير غني. ويتبادل الناس تطوعاً حمل التابوت. ويكون الحاملون اربعة، فيأتي واحد ويقول لأحدهم آجرك الله ثم يحل محله لبضع دقائق، ويأتي واحد لثانيهم وواحد لثالثهم وواحد لرابعهم، وهكذا يستمر التبادل الى ان يصل الموكب الى الجبانة. ويفعلون هذا للثواب ايضاً.

واذا كان للميت شأن ديني أو اجتماعي تسير في جنازته اعلام الطرق الصوفية مع رجالاتها، ويعلن المؤذنون موته من فوق المآذن. ويدعون له بالرحمة بصيغة معينة. وبعد الدفن يجلس شيخ يقول كلاماً موجهاً للميت، كأنما يلقنه بما ينبغي ان يقوله حينما يجيء الملكان اليه بعد دفنه حسب ما هو مأثور مشهور ليسألاه عن دينه ونبيه وربه، ويطلب له من الله الرحمة. ثم يصطف أهل الميت صفاً طويلاً. وكان أقارب الميت الأقارب والأباعد والاصهار معاً يحرصون على أن يكونوا في الصف، ويصطفّ المشيعون وراء بعضهم في شيء من الزحام للتعزية، فيقول المتقدم لأحد المصفوفين (عظّم الله أجركم) وللثاني (رحم الله ميتكم) وللثالث (أحسن الله عزاءكم). ويكرر ذلك من أول للرابع فالخامس والسادس. وهكذا، ويفعل الذي وراءه مثله وهكذا. ويكون جواب الذين في الصف لكل واحد (شكر الله سعيكم).

وبعد الدفن توزع صدقات زهيدة عن روح

الميت للفقراء والمغسلين والذين اتوا بالمغسلة والتابوت، ويتزاحم هؤلاء واحياناً يضربون بسبب تزاحمهم او طمعهم لأكبر قدر من الصدقات. واحياناً يكون جار الميت ميسوراً فيعزم اهله على الغداء ان كان الدفن وقت الظهر او العشاء ان كان وقت العصر. ويذهب أهل الميت والمعزون إلى بيت الداعي من المقبرة بعد نهاية مراسم العزاء في المقبرة. وهذه العزيمة دين على أهل الميت يؤدونه لأصحابه في حالة موت أحد منهم. واذا لم يعزم أحد أهل الميت فكان من العادة ان يواسيهم أهل حارتهم بغداء أو عشاء مشترك يسمونه (طبقاً)، ويكون في كل حارة بيت فيه قاعة كبيرة يؤخذ أهل الميت إليها. ويرسل مختار الحارة لبيوت أهلها الميسورين قليلاً او كثيراً خبراً ليرسلوا (طبقاً)، ويكون الطبق من حواضر البيت على صينية معدنية، وطبق قشي عليه صحون عديدة فيها زيتون وجبنة ولبنة ولبن وعسل ودبس وبيض مقلي او مشوي وسلطات ومربيات، مع عدد من ارغفة الخبز، وتصف صحون الاطباق على مدار القاعة، ويجلس أهل الميت وأهل الحارة معاً حولها، فيأكلون منها ويرسل بعضها الى بيت الميت ليأكل منها اهله ايضاً. وكان في حارتنا (القيسارية) بيت للشيخ ابراهيم الدرويش ابي زعرور وهو شيخ كتاب في الوقت نفسه، فيه قاعة فسيحة كان من المعتاد ان يجتمع أهل الميت لأكل الطبق فيها، وقد ذهبت في طفولتي وفتوتي اكثر من مرة إليها حاملاً طبقاً من بيتنا، وكنت اتناول الطعام مع الناس ايضاً فيها.

وكان من العادات ايضاً ان يرسل الميسورون قليلاً او كثيراً من جيران واصدقاء أهل الميت طعاماً مطبوخاً لبيت الميت لأجل النساء والرجال لطيلة ثلاثة أيام، لأن العزاء يمتد هذه المدة. والنساء يترددن على بيت الميت، ورجال الميت يقعدون في البيت لاستقبال المعزين، وتكون حوانيتهم في هذه المدة مغلقة ان كانت لهم حوانيت، ويكونون متوقفين عن العمل ان كان لهم عمل يدوي ما. ويكون الطعام حلة[1] أرز مفلفل بالسمن، وحلة خضار باللحم أو حلة محشي، او صينية كنافة، فيأكل اهل الميت ومن يكون عندهم من الجيران والاصدقاء. وهذا الطعام دين على أهل الميت يؤدونه لمرسليه حينما يموت لهم ميت. وكان جدي وأبي يكتبون أسماء المرسلين حينما كان يموت لنا ميت ونوع الطعام الذي يرسلونه في بعض دفاتر تجارتهم للذكرى، وكنت أقرأ ذلك. وكان جدي وهو كبير الأسرة الكبيرة يحرص على الوفاء، فيجمع من بعض الميسورين من الأسرة كلفة الطعام. وكان للأسرة فرن يؤجره جدي، فكان يرصد اجرته ايضاً لسداد مثل هذه الديون الإجتماعية مع سداد ضريبة البيوت السكنية.

ويجلس اهل الميت للعزاء قبل الدفن، ثم ليالي ثلاث بعد الدفن، فيأتي الناس للعزاء صباحاً يوم الموت قبل الدفن ثم يأتون ليلاً. وكثيراً ما يأتي الواحد في الليالي الثلاث. ويقدم في الليل للمعزين القهوة والسجائر والاراكيل، وكثيراً ما يستأجر اهل الميت صاحب مقهى وادواته لأجل ذلك اذا ما كانوا ميسورين. ولا يكون المعزون من الاصدقاء والمعارف والجيران فقط، بل يأتي مختلف الناس من مختلف الاحياء للثواب ايضاً. وكان في مدخل دارنا الكبيرة غرفة نسميها (اوضه) برانية مخصصة لاستقبال الناس في الافراح والعزاء.

---

(1) حلة تعني طنجرة كبيرة.

ومثل هذه الغرفة البرانية موجودة في معظم الدور الكبيرة على ما شرحته قبل لاجل هذا الغرض. وكان الناس يجلسون على الارض على جنبيات منجدة طويلة، على اطرافها للحائط مخدات منجدة، (ثم صار الناس يضعون دكات خشبية مرتفعة نحو نصف متر عن الارض تسمى (دوشك)، فتوضع تلك الجنبيات والمخدات المنجدة فوقها)، ويعمل للميت (صباحية) ثلاثة ايام، حيث يذهب اهله واقاربه واصدقاؤه بعد صلاة الفجر الى المقبرة، فيقرأون قرآناً ويدعون له جماعياً، ثم ينزلون الى بيت الميت فيشربون القهوة.

ويعمل له في الليلة الاولى بعد الدفن (تهليلة) بعد صلاة المغرب، حيث يجتمع عدد من المشايخ والفقراء وغيرهم في حلقة في بيت الميت، فيسبّحون ويهللون مئات المرات بصوت مرتفع جماعياً، ثم يدعو الشيخ الكبير منهم للميت ويترحمون عليه ويهبون ثواب ما سبّحوه وهللوه له، ويعطى للمشايخ والفقراء صدقات في هذه الليلة. ثم يعمل للميت في الليلة الثالثة (دلائل)، حيث يأتي المشايخ المتخصصون بذلك مع بعض الفقراء فيقرأون ختمة قرآن ثم فصولاً من كتاب يسمونه دلائل الخيرات، فيه صيغ صلوات على النبي ﷺ وادعية وابتهالات، ثم يهللون ويسبحون جماعياً، ويدعو الشيخ في النهاية للميت، ويهب الناس ثواب ما قرأوه له ويترحمون عليه، ويوزع على المشايخ والفقراء صدقات، ويقدم ليلة الدلائل صواني الكنافة بعد اتمام العزاء والدعاء، واحياناً تكون هذه الصواني التي كانت تسمى (دبسيات) جمع دبسية و(صدور) جمع صدر و(صدورة) ايضاً، مما ارسله الاصدقاء والجيران في ايام العزاء، واحياناً يتكلف اهل الميت فيصنعون الكنافة أو يجلبونها من الكنفانية اذا لم يكن بقي مما ارسله الناس ما يكفي لليلة الدلائل. ويعمل للميت (اربعين) عند مرور اربعين يوماً على موته، حيث يجتمع مشايخ وقراء قرآن، فيقرأون ختماً ويهللون ويسبحون جماعياً ويدعون للميت ويهبون ثواب ما قرأوه له. ويصنع اهل الميت ذلك اليوم للمشايخ والفقراء والاصدقاء والاقارب طعاماً يتناولونه عشاء.

وفي اول عيد وفي اول رمضان يجلس اهل الميت ليلاً فيأتي الاصدقاء او الجيران لتسليتهم في هذه المناسبة، ولكن ليس بكثرة كليلة العزاء.

وفي اول عيد بخاصة يزين القبر ويوضع عليه ملبس وزهور، ويجتمع عدد كبير من الاقارب والاصدقاء عند القبر في الصباح، فيقرأون سور قرآنية ويترحمون عليه. وقد يأتي الناس إلى بيت الميت في يوم العيد فضلاً عن ليلته.

وكان للنساء دور مهم في الموت، حيث يكثرن الندب واللطم، وهناك نساء خصيصات للنواح والندب يقدن الحركة ولا سيما اذا كان الميت عزيزاً. وحينئذ كثيراً ما يلطخ النساء وجوههن وايديهن بالسخام الاسود ويتشحن بالسواد، ويذهبن جماعات الى المقبرة كل مساء وفي كل مناسبة، ويحددن فلا يلبسن ثياباً مفرحة ولا يتطيبن ولا يخرجن لزيارة ما مدة طويلة.

شيء عن الطبابة في نابلس والأطباء البلديين واساليب معالجاتهم في طفولتي ممتداً الى ما قبل ذلك:

لم يكن في نابلس في طفولتي ممتداً الى ما قبلها على ما سمعت وعلمت طبيب يحمل شهادة طب جامعية حديثة، وكل ما كان في طفولتي ثم في صباي، ثلاثة أشخاص كانوا

يطببون الناس واحد في القسم الشرقي في نابلس واثنان في قسمها الغربي.

والاول هو عبد الله شقير (ابو رضا)، والآخران هما ابو عاهد ابو غزالة، وراغب ابو غزالة، وكان للأول دكان في السوق الشرقي الشمالي في مقعدان خشبيان لجلوس الزوار والمرضى. وبعض رفوف عليها بعض زجاجات، وحقن للشرج وبعض ادوات جراحية. وفي ناحية من داخل الدكان مستورة بستارين خشب مكان فيه منضدة وبعض أوان وأدوات لصنع بعض العلاجات. وكان لكل من الاثنين الآخرين وهما اخوان غرفة في الطابق التحتاني من بيت كبير لأسرتهما في حارة الغرب القريبة من حارة الياسمينة، وفي الطابق ديوان الأسرة ايضاً. والغرفتان متجاورتان، وفي كل منهما بعض الرفوف والاواني للعلاجات، وكان لكل من الأخوين زبائن خصوصيون.

وكان كل من الثلاثة يسأل المريض الذي يعاينونه عن حالته ثم يذكرون له اسم مرضه حسب تخمينهم، ويصفون له علاجاً ليأخذه من العطارين ويصنعونه له. وكان وصفهم للأمراض ومعالجاتهم وفق ما يسمى تذكرة داوود الطبية المتداولة المطبوعة، ووفق كتب قديمة اخرى، ووفق التجارب والمشاهدات والمأثورات المتداولة. ومما أذكره مثلاً أنه صار في ساقي انتفاخ يسير في فتوتي، فأخذني أبي الى شقير فقال مرض (الفيل)، ثم صنع لي دهوناً دهنت بها ساقي أياماً وأوصاني بلفها بقماش، وقد زال الانتفاخ فعلاً. وكانوا يذهبون الى البيوت اذا لم يستطع المريض ان يأتي الى محلهم. وكانت الأجرة على التيسير، ويدفع المريض واهله ما يراه دون مفاصلة ولا تعقيد، وغالباً يكون زهيداً محمولاً.

وكثيراً ما كانوا يصفون الفصد الدموي وهو المعروف قديماً بالحجام في حالة الحميات، ويفصدون المريض بأنفسهم بجرح في شحمة اذنيه او يده او ظهره. وفي النزلات كانوا كثيراً ما يصفون (كاسات هوا)، وهي اقداح زجاجية صغيرة لها فتحة ضيقة فتشعل ورقة سميكة بالكبريت وتوضع فيها، ثم تلصق فتحتها على الظهر والورقة مشتعلة، وتبقى حتى تنطفىء الورقة ويتورم محل اللصق فترتفع، ويمسح مكانها بزيت واحياناً يفصد الجلد. واحياناً يكون سحب الدم من الجسم بواسطة (دود العلق) حيث يكون عندهم إناء كبير فيه (علق) حي صغير، فيخرجون منه عدداً ويسلطونه على الظهر فيمتص ما شاء من دمه وقتاً ما حتى تصبح العلقة أغلظ مما كانت مرتين او ثلاثاً. وكانوا يصفون علاج الدود كثيراً لمن يشكو مغصاً في بطنه. وكان اسم العلاج (الخريساني) بزر صغير، ويبقى الشارب منقطعاً عن الاكل يوماً كاملاً، ثم يأخذ مسهلاً إما زيت خروع او ملح انكليزي او (سنامكي)، ومن العجيب ان الناس كانوا يكثرون من اخذ هذا العلاج، ومنهم من يكرر اخذه كل سنة، وانهم كانوا ينزلون دوداً كثيراً من بطونهم به..

وكانوا يصفون للدمامل عجينة معروكة بالزيت، او بصلة مشوية ويربطونها على الدمل حتى يستوي ويتفجر صديده او يفجر بجرحه. وكان الكي بالنار مما يمارس خاصة في الجراحات، فاذا ظل جرح ناغرا وخشي عليه من الغرغرينة يكوى مكانه بحديدة محماة في النار الى درجة الاحمرار، ويربط مكان الكي بعد دهنه بالزيت. وفي مرات كثيرة تنجح العملية ويلتئم الجرح. ومما كان من صور الكي العجيبة طريقة لمعالجة اوجاع المفاصل

(النقرس والروماتيزم)، حيث كانوا يضعون صوفة فيها بصة نار على الذراع او الساق حتى يلتهب مكانها وينحفر حفرة صغيرة يسيل منها الدم، وبعد ذلك يضعون في هذه الحفرة حبة حمص ملفوفة بورقة عنب ويربطونها، وفي كل يومين او ثلاثة يفكون الرباط ويستخرجون الورقة التي تكون قد امتلأت بنزيف الدم والصديد، ويضعون ورقة بديلة جديدة فيها حبة حمص جديدة ويربطونها، وهكذا يظل الجرح مستمراً ينزف بالدم والصديد، وتبدل ورقاته شهرين او ثلاثة حتى يقال لصاحبه كاف، فيوضع على الجرح لفيحة كتان او عجينة ملتوتة بالزيت بدون حمص، فيلتئم الجرح، وكثيراً ما يخفف وجع المفاصل بهذه الطريقة.

وكانوا يصفون لبخات بذر الكتان وبذر الخردل للنزلات، ويجعلونها مثل قرص الرغيف ويضعونها على صدور وظهور المرضى... وتكون معالجة هؤلاء الاطباء ناجعة احياناً، وتكون بدون جدوى فيستمر المرض ويتفاقم حتى يقضي على صاحبه.

وكانت الدعاية بمهارة ابي عاهد وبخاصة راغب ابي غزالة اقوى منها بمهارة شقير، ولكن ذلك لم يكن يغطي على اسم شقير الذي كان يتعصب له اهل القسم الشرقي من المدينة وهو القسم الاكبر، ويعتبرونه طبيبهم المفضل.

خراج أم زهير وتطوره وجراحته:

ومما جرى معنا أن أم زهير بعد زواجنا بسنة صار لها ورم في طرف ثديها الأيمن، فأحضرنا شقير لها فقال انه دمل، ووضع عليه لبخة، ثم جاء بعد يومين ومعه موس جراحي فشق الدمل وخرج مادة بيضاء لزجة لا تشبه صديد الدمامل. ولم يكن الموس معقماً لأنه لم يكن يعرف التعقيم فتلوث الجرح وتفاقم، وأخذناها الى المستشفى الانكليزي الذي كان انشىء قبل قليل من زواجنا، فقال جراحه ان الجرح ملوث ويوشك أن يعمل غرغرينا، ولم يمكن تفادي ذلك الا بعملية جراحية استؤصل بها قسم كبير من الثدي، وأقامت أم زهير نحو عشرة أيام في المستشفى حتى تحسنت نوعاً ما. بل ولقد ظل أثر ذلك فيها فكان الورم يعودها في ذراعها الأيمن مدة بعد مدة، وظل يعاودها الى أن جاءتها نوبة حادة ونحن في دمشق في أوائل سنة 1938، فكان في ذلك قضاء الله فيها رحمها الله.

ولقد كان عند شقير صبي مساعد اسمه جعارة، فلما مات معلمه ظل يمارس الطب مكانه، وظل أهل القسم الشرقي من البلد يراجعونه فيطببهم على طريقة معلمه في المكان وفي البيت حتى سمى نفسه (دكتوراً).

العطارون بمثابة الصيادلة:

وكان في نابلس الى هؤلاء بضع دكاكين عطارة فيها أعشاب ومشروبات وأملاح وبذورات وغير ذلك مما يتعاطاه الناس في معالجات أمراضهم المتنوعة، ومما يصفه أولئك الأطباء أيضاً. فكان الناس يراجعون أصحابها ويصفون لهم أمراضهم ويأخذون منهم مواد علاجية لها، وهكذا كانت هذه الدكاكين دكاكين طب وصيدلة معاً. وكان أشهرهم بنو العبوة، حيث كان لهم ثلاثة أو أربعة محلات في أماكن مختلفة من شوارع المدينة شرقاً وغرباً.

معالجات الأسنان:

أما الأسنان فكان المتولي لمعالجتها بالخلع على الأعم والأغلب الحلاقون أو بالأحرى بعضهم. وكان أشهرهم في ذلك في نابلس (صدّيق سقف الحيط)، وهو من الشخصيات

التي لا تنسى بضخامة الجثة والرأس وقوة الصوت واليد. وبعض الحلاقين كانوا يتعاطون فصد دم الناس ويركبون لهم (علق) لامتصاص الدم من أجسادهم أيضاً.

معالجات العيون:

وكان مرض العيون يعالج بلصقة بصلة مشوية أو بالكحل. والكحل ذرور من بعض أحجار معينة. وكان نساء آل الحبش في شرق المدينة يعالجن ومتخصصات بتحضير أنواع عديدة من هذا الكحل وبمعالجة الرمد أيضاً. وكان في بيتهن غرفة معتمة للزوّار الرمدانين، وكانوا يأتون اليهم من المدينة والقرى، وغالباً ما كانوا يشفون بعد المواظبة أياماً على التكحيل.

معالجات الأمراض العقلية:

أما الأمراض العقلية والعصبية حسب التسمية الصحيحة، فكان يعالجها في نابلس بعض مشايخ الطرق في زواياهم، حيث كان السائد ان هذا المرض هو مس من الجان، فيحاول الشيخ إخراج الجني من المريض، فيكبله بالحديد أو الحبال ويحبسه ويجلده، ويدوم ذلك مدة طويلة حتى يهدأ أو يموت. وكان في نابلس زاوية لمشايخ دار سعد الدين بها قبو في أرض ينزل اليه بدرج كأنه بئر، يضعون فيه المريض المجنون بعد تكبيله وضربه. وكان هؤلاء المشايخ وآخرون من نوعهم يكتبون حجباً للناس الذين يراجعونهم بسبب وجع في رؤوسهم أو حالة عصبية فيهم فيعلقونها في رقابهم. وكانت النساء يراجعنهم فيأخذن منهم حجباً لكسب محبة أزواجهن أو الإفساد بين هؤلاء الأزواج وأهلهم.

أول طبيب رسمي في نابلس:

ولقد ظل هذا الحال طيلة صباي بل شطراً من شبابي. ولقد جاء في صباي طبيب جامعي اسمه الدكتور جرجي دعدس، وفتح عيادة في بيته الذي كان في آخر الشارع الغربي الطويل. وكانت كشفيته اذا ذهب الى بيت المريض ربع مجيدي، واذا جاء المريض اليه نصف ذلك. وهذا أكثر مما كان يدفعه الناس لأولئك الأطباء ولكنه ليس أكثر كثيراً. ومع ذلك بقي الإقبال على الأطباء المذكورين بسبب الشهرة والعادة أكثر مما هو بسبب فرق الكشفية.

ولقد ساير بنو أبو غزالة الزمن، فأرسلوا أبناءهم لكليات الطب الجامعية في الآستانة، وتخرج بعضهم أطباء وبعضهم صيادلة، وتعاطوا مهنتهم في نابلس، ثم أخذ آخرون يحذون حذوهم، فصار عدد الأطباء والصيادلة والجامعيين يكثر ويسدون الفراغ وتتحسن الأمور عن ذي قبل.

شيء عن المستشفى الانكليزي:

وعلى ذكر المستشفى الإنكليزي أقول ان هذا المستشفى انشىء في زمن الدولة العثمانية وقبل الحرب العالمية الأولى بسنين عديدة من قبل جمعية تبشيرية انكليزية في محلة الشويطرة أي الحي الجديد خارج المدينة غربا. وكان فيه قسم مجهز بالاسرة للنوم، وجراح ماهر وعيادة لمعاينة المرضى وطبيب للأمراض الداخلية. وكان يؤخذ من المريض قرش واحد مقابل تذكرة يأخذها الناس من شباك في باب المستشفى. ولكن يشترط أن يحضر من يريد المعاينة ويحصل على ورقتها موعظة تبشيرية يلقيها قس بروتستانتي بالعربية في الصباح الباكر، ثم يخرج من مكان الموعظة الى حيث عيادة الطبيب، وكان في ذلك عنت وتعقيد، فضلاً عن أن المسلمين لم يهضموه بحال. ولقد أثار ذلك

وجهاء نابلس، وحفز الحاج توفيق حماد في عهد رئاسة البلدية قبل إعلان الدستور العثماني على تأليف جمعية لانشاء مستشفى وطني إسلامي تابع للبلدية، وتم تأليف الجمعية وجمعت تبرعات حسنة وباشر بإنشاء المستشفى البلدي المعروف في سفح الجبل الشمالي، حتى قام وجهز بالاسرة والأدوات، وأتى له بجراح وطبيب داخلي، وسد به فراغ مهم في طبابة المدينة، وخلص به المسلمين من عنت المبشرين ومكرهم. وقد شهدت تدشين المستشفى وسمعت خطبة الحاج توفيق الافتتاحية. جزاه الله ورفاقه المتبرعين خيراً.

مظاهر وأبهة الحكومة والدولة في نابلس:

كانت أبهة الحكومة ظاهرة في أيام طفولتي الى ما قبلها. فالمتصرف وهو أكبر موظف اداري في نابلس مذ يخرج من بيته صباحاً الى أن يصل إلى السراي في وسط المدينة والناس يقفون له يحيونه برفع الأيدي، وأمامه ووراءه بعض أنفار من البوليس. وحينما يقترب من السراي تتهيأ فرقة من البوليس في بابها وتصطف يميناً وشمالاً لأخذ السلام له. وقبيل وصوله يصرخ المناوب بكلمة (بوسطة)، لأجل الاصطفاف وأخذ السلام. وكان يرابط دائماً على باب السراي نفرا بوليس لأخذ السلام للموظفين الكبار في باب السراي، وكان حينما يأتي والي لزيارة نابلس، أو حينما يأتي متصرف جديد يخرج الناس لاستقباله الى مسافة (500) متر خارج المدينة غرباً، وينتظرونه ساعات مع كبار الموظفين والدرك البوليس، ويخرج ابناء المدارس أيضاً لاستقباله ويصطفون له، وينشدون نشائد الترحيب به. وقد خرجت مراراً وأنا في المدرسة الابتدائية مع مئات من التلامذة، ثم وأنا في المدرسة الرشيدية، ثم وأنا في المدرسه الاعدادية خلال عشر سنين 1895 ـ 1905 لهذا الغرض.

البدلات الرسمية في الأعياد وأبهة الرتب والنياشين:

وفي أيام الأعياد الدينية كعيدي رمضان والأضحى والأعياد الرسمية كيوم ذكرى مولد السلطان أو يوم ذكرى جلوسه، يقام احتفال، فيأتي المتصرف وكبار الموظفين الى جامع النصر القريب من السراي، والذي كان وما يزال أمامه ساحة واسعة، مرتدين بدلات رسمية بحسب رتبهم وعليهم نياشينهم، ويأتي أصحاب الرتب والنياشين من العلماء والوجهاء مرتدين كذلك بدلات رسمية، وواضعين النياشين أو الياقات المذهبة، ويخرج الموكب بأبهة وفخامة من داخل الجامع الى السراي، حيث يستقبل المتصرف في بهو المتصرفية وفيها وفود المهنئين.

وكانت هذه المظاهر مما يفتح شهية الوجهاء وتجعلهم يسعون جهدهم للحصول على الرتب والنياشين.

وقد سمعت وعرفت أن بعضهم دفع مبالغ كبيرة لنيل رتبة أو نيشان أو لقب (بك)، ليكون له (قرص في مثل هذا العرس).

وصف سراي الحكومة في نابلس أيام طفولتي وفتوتي ودوائرها:

وكانت جميع دوائر الحكومة في نابلس مجموعة في المحل الذي كان يسمى (سراية)، وهو بناء مجمع كبير في مطلع حارة القريون وسط المدينة له بوابة كبيرة، وفي طابقه الأول غرف للبوليس والدرك الراكب والماشي. ثم فيه السجن الذي كان كالحوش، دارا سماوية وعلى



ـ الهيئة التأسيسية للمستشفى الوطني الاسلامي نابلس 1328هـ/1905م .الجالسون من الشمال : الحاج عبد الحليم كنعان ـ الحاج طاهر كمال ـ الحاج توفيق حماد رئيس الجمعية ـ الحاج محمد علي حمود الخياط .الواقفون من الشمال : الحاج طاهر الحجاوي ـ حيدر طوقان ـ كمال الدين عرفات .

جنباتها الأربعة غرف صغيرة وكبيرة لحبس الناس المحكومين على اختلاف عقوباتهم. وله باب عليه بوابة حديدية صغيرة، وبوابة أخرى كبيرة بعدها، وعليه سجانون من الدرك. وفي داخله سجانون للمراقبة. وفي جانب الطابق الأول غرف للتوقيف أي للذين يوقفون في جرم مشهود أو غير مشهود ولم يحكم عليهم بعد، وتسمى (نظارة)، ثم يصعد من هذا الطابق الواسع الى طابق ثان بدرجين عريضين متقابلين كل منهما يذهب الى جناح كبير على جوانبه غرف، وأمامه ممشى مبلط عريض مطل على ساحة السجن.. وكان في الجناح الغربي المحاكم، ومنها محكمة بدائية للجزاء، ومحكمة بدائية للحقوق، ومحكمة بدائية للتجارة، ثم صار محكمة صلح فيها قاضٍ منفرد.

وكانت كل محكمة في قاعة كبيرة نوعاً ما تتسع لسدة يجلس فيها القضاة، وساحة فيها مقاعد خشبية للمتقاضين والشهود، وكان يسمح لمن أراد أن يدخل ويشهد المحاكمة حين جريانها كمتفرج عابر أيضاً. وكان هناك غرفة أو قاعة باسم دائرة الإجراء فيها مأمورها وكاتبها، وغرفة باسم كاتب العدل الذي كان يسمى (مأمور مقاولات)، وغرفة للمستنطق الذي يحقق مع المدعى عليهم بقضايا جزائية ويسمع لهم، وللشهود لهم أو عليهم، ثم يأتي بعدها في صدر الجناح للجنوب غرفة واسعة لدائرة النفوس، ثم دائرة فيها قاعة للقاضي الشرعي، وغرفة كتاب المحكمة الشرعية ومدير صندوق الأيتام. وكان هذا الصندوق مؤسسة لودائع الأيتام الذين لا ولي لهم، ولهم أموال، وكانت المؤسسة تنمي هذه الأموال بالدين للناس بفائدة 9٪ مقابل رهن عقاري تحت رعاية القاضي الشرعي، حيث يسمح هذا بالقول ان رعاة الشرع وجدوا مسوغا ما لمثل هذا العمل الذي يبدو انه ربا.

وكان السلطان يتلقب بلقب خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، وكان له مشيخة إسلام ودار فتوى، فيرسل اليهما بواسطة كتابه ودوائره ووزرائه الاستفتاءات في الأمور، ويأخذون منها فتوى بالعمل اذا ما كان هناك مسوغ شرعي له.

وتأتي بعد هذه الدائرة دائرة فيها قاعة كبيرة لرئيس البلدية، فيكون مكتبه ومجلسه فيها، ويعقد فيها المجلس البلدي حينما يجتمع للنظر في أمور البلدية.. وفي جانب القاعة غرفة لجلاوزة البلدية، وغرفة أخرى لصندوق البلدية وكتابها.

ثم يبدأ الجناح الشرقي، وفيه غرف لقائد الدرك الماشي والراكب، ولمدير الأوقاف، وللبنك الزراعي، وهذا أنشيء حديثاً في طفولتي لمداينة الفلاحين والمزارعين لقاء كفالات ورهوناً بفائدة 9٪ إنقاذاً لهم من المرابين الذين كانوا يأخذون منهم في المائة 20 و 30 و 40 احياناً ربا لسنة واحدة. ولا بد أن تكون دولة الخلافة قد وجدت مسوغاً شرعياً لمثل هذا العمل الذي يبدو أنه ربا أيضاً.

وفي الساحة غرفة كبيرة لدائرة (الويركو)، وكلمة (الويركو) تركية بمعنى (ضريبة)، وكان يراد بها ضرائب العقارات. وفيها بضعة مناضد لعدد من الكتاب مع رئيس لهم. ثم قاعة كبيرة مخصصة للمحاسبة أي جمع الأعمال الحسابية للمتصرفية، وعلى رأسها رئيس يسمى (محاسبجي). وفي القاعة مناضد عديدة للكتاب، وفيها مخدع أو غرفة داخلية للرئيس، ثم غرفة لدائرة الطابو أي تسجيل العقارات، يجلس فيها المدير وكتاب الدائرة معاً، ثم قاعة

فيها قلم تحريرات المتصرفية، ويكون فيها مدير القلم وكتابه. وقاعة اخرى كبيرة هي بهو المتصرف، حيث يكون فيها مكتبة، ويجتمع فيها مجلس ادارة المتصرفية أيضاً.. ويكون على بابها بوليس كحاجب. وموظفو هذه الدوائر من رؤساء ومرؤوسين كانوا مزيجاً من عرب وترك وشركس وارناؤوط واكراد. وكان الشركس والأرناؤوط والأكراد منهم مشتركين، وبعض الكتاب كانوا من النصارى العرب، وكان في بعض الدوائر أفراد من السامريين أيضاً.

اللغة التركية هي لغة الدواوين:

وكانت المعاملات والكتابات والأوراق باللغة التركية، وكان الموظفون العرب وكتابهم في هذه الدوائر قد تعلموا التركية قليلاً أو كثيراً وصاروا يتكلمون ويكتبون بها.

وفي سن شبابي وقبل اعلان الدستور سنة 1908، كان المتصرفان الأخيران لنابلس دمشقيين عزيز العظمة ثم أمين الطرزي، وأعلن الدستور في زمن هذا، وسرحه الاتحاديون الذين سيطروا على الدولة بعد اعلان الدستور فور اعلانه، وعاد الى دمشق، حيث جاء متصرف تركي، ولم يأت حتى نهاية حكم الدولة الى نابلس الا متصرفون اتراك.

عضوية المحاكم الانتخابية:

وكان الموظف الرسمي في المحاكم قبل اعلان الدستور هو الرئيس فقط، وكان لكل محكمة اعضاء مع الرئيس ينتخبون من الأهالي انتخاباً لمدة معينة، ثم يجدد الانتخاب وفق أصول محددة، وكان يحصل تنافس بين وجهاء المدينة على هذه العضوية التي كانت تتضمن الوجاهة والمرتب والمنافع المادية.

الاهتمام بالوظائف مع رواتبها الزهيدة:

ولم يكن مرتب المتصرف يزيد عن أربعين ليرة ذهبية في الشهر، ومرتب المحاسب عن عشرين، ومرتب مدير التحريرات عن 15 ليرة، ومرتب رؤساء المحاكم عن 15، والقاضي الشرعي كذلك، ومرتبات الموظفين والكتاب الثانويين أقل فأقل، حتى يصل المقدار احياناً الى مائة قرش (ليرة واحدة). ومع ذلك فقد كان هناك من يرغب فيها ويسعى للتوظف فيها، ومنهم من كان في حاجة اليها. وكان هناك اناس من أهل البلد يسعون للتوظف ولو في وظيفة تافهة ولو لم يكن في حاجة الى مرتبها. وكان هؤلاء من أبناء الأسر البارزة. لأن الوظيفة كانت تضمن على كل حال وجاهة ومنافع مادية متنوعة. بل وكثيراً ما كان يدفع الراغب في الوظيفة ولو كانت ثانوية ومرتبها زهيداً رشوة لمن في يدهم الترشيح والتعيين.

وقد كان كثير من الوظائف الثانوية في نابلس يشغلها موظفون عرب من نابلس ومن أسر مرموقة رغم تفاهة مرتبات اكثرها. وممن كانوا في وظائف في دوائر نابلس من الأسر النابلسية اذكر في فتوتي الحاج توفيق حماد، والحاج حسن حماد، والحاج نمر حماد، وشاكر الجوهري، وعارف الجوهري، ومحمد القاسم، وفريد عتمة، وحيدر طوقان، وحسن عناب، وطاهر الحجاوي، وأسعد زيد، والشيخ عمر زعيتر، وآخرون ذهبوا من ذاكرتي من آل عبد الهادي وغيرهم. وكان يأتي أتراك وشركس وارناؤوط وأكراد لوظائف ثانوية يتراوح مرتبها بين 200 ـ 400 قرش في الشهر، وكانوا مع ذلك يستطيعون أن يعيشوا بذلك. ومنهم من كان متزوجاً حيث كانت المعيشة من مسكن

وملبس ومأكل رخيصة على ما شرحناه في أماكن سابقة.

مجلس إدارة المتصرفية ومهماته:

وكان للمتصرفية مجلس ادارة لتقرير الأمور الهامة، يجتمع في بهو المتصرف وتحت رئاسته في الأسبوع مرة أو أكثر. وهذا المجلس مؤلف من نوعين من الأعضاء: نوع ينتخب انتخاباً من الأهالي لمدة معينة ثم يتجدد انتخابهم، ونوع يكون لأصحاب وظائف معينة، فكل من يكون فيها يكون عضواً، وهؤلاء هم المحاسب ومدير قلم التحريرات والقاضي الشرعي والمفتي ونقيب الأشراف ورئيس الطائفة السامرية ورؤساء الطوائف النصرانية، ويكون تنافس بين وجهاء المدينة حينما تكون انتخابات للعضوية من الأهالي، لأنها كانت كذلك تضمن الوجاهة والمنافع المتنوعة، مع التنبيه على أن هذه العضوية بدون مرتب.

مجلس البلدية وعضوياتها وانتخاباتها:

وكانت البلديات انتخابية، رئيسها واعضاؤها لكل مدة معينة، ثم يتجدد انتخابهم وينتخبهم دافعو الضرائب البلدية، وضرائب البلدية هذه غير ضرائب الحكومة، وهي ضرائب على الشوارع والانارة والتنظيفات والحراسة والماء.. الخ. ولم يكن كل فرد في البلد يدفع هذه الضرائب، بل كان يدفعها القادرون من الرجال البالغين، خلافاً لضرائب الحكومة التي يتوجب دفعها على كل من تستحق عليه ذكوراً واناثاً وصغاراً وكباراً. فالعقار الذي يترتب عليه ضريبة ملكية الجميع، فتكون ضريبته على الجميع وهكذا.

وكان لرئيس البلدية فقط مرتب، لأنه كان بمثابة موظف دائم، أما الأعضاء فلا مرتب لهم، ويظلون يمارسون أعمالهم الأخرى من تجارة وصناعة الخ.. وكان يحصل تنافس بين الوجهاء على رئاسة البلدية وعضويتها، لأنها تضمن الوجاهة والمنافع المتنوعة، وكان الرئيس يعين بقرار من المتصرف وتصديق من الوالي من بين الأعضاء. وأظن أن مرتب الرئيس كان عشر ليرات، ولكن مركزه كان مهماً حكومياً وبلدياً. وكان من أعمال البلديات الإشراف على نظافة البلدة وإنارتها وطرقها وحوانيتها وصناعاتها ومراقبة الأسعار وتنظيم ذلك.

البوليس والدرك الخيالة:

وكان البوليس والدرك تابعين للمتصرفية، الأول لأجل المدينة والثاني لأجل الخارج. ومن الثاني ما كان خيالاً. ووظيفة البوليس والدرك هي تأمين الأمن وملاحقة المجرمين وتبليغ أوامر الحكومة والمحاكم وتنفيذها.

وكان للبلدية بوليس أو شبه بوليس تابع لها، ومنها مرتبهم لأجل تأمين الخدمات المتنوعة للبلدية، وكانوا يسمون (شاويشية) مفردها (شاويش). وهذه كلمة تركية كانت تطلق على رئيس عدد من الجنود أقل رتبة من ضابط.

الرتب العسكرية والتجنيد والقرعة والجندية النظامية والرديفة:

وكانت دائرة البرق والبريد في نابلس في بناية خارجية عن السراي، لها مدير وموظفون عرب وغير عرب، ومرتباتهم من المقادير الزهيدة. وكان يقيم في نابلس كتيبة عسكر نظامية على رأسها (ينباشي) (ومعنى الكلمة رأس الألف) وهو قائد طابور. ويعاونه ضباط عديدون برتب (قول آغاسي) ويوزباشي وملازم أول وملازم ثاني. ويقابل الينباشي اليوم (المقدم)، و(القول آغاسي) (الرائد)، واليوزباشي (الرئيس)، وكان

يقيم في نابلس أيضاً هيئة طابور للرديف ـ وكلمة (رديف) كانت تطلق على الذين ينهون خدمتهم الجندية الاجبارية ويسرحون، ويظلون مقيدين للاستدعاء للخدمة حين الطوارىء. وحينما تكون طوارىء حرب أو حركة حربية تنشط هيئة طابور الرديف، وتستدعي المقيدين وتجندهم مجدداً. والخدمة الإجبارية المذكورة مدتها خمس سنين، وكانت إجبارية على كل شاب حينما يبلغ العشرين من عمره. وهناك حالات اعفاء مثل اصحاب العاهات والأمراض المزمنة، والذين يكون أباؤهم ميتين أو يكونون متزوجين بزوجات غريبة وطلاب العلم الديني. وكان يعفى أيضاً الذين ينتسبون الى العترة النبوية. وأعرف في طفولتي أن بعض الأسر بذلت جهدها وأثبتت أمام المحكمة الشرعية أنها تنتسب الى العترة النبوية ولها حق الاعفاء.

وفي كل سنة ينعقد مجلس قرعة وتبحث حالة الدفعة من الشباب الذين بلغوا العشرين من العمر، ويساق للجندية من لا يستحق الإعفاء، ويرسلون الى المراكز التي تعين لهم في البلاد العربية أو التركية، القريبة أو البعيدة، وكان يجوز للقادرين أن يدفعوا بدلاً نقدياً مقابل هذه الخدمة الإجبارية مقداره خمسون ليرة ذهبية، ويكون الشاب مع ذلك مجبراً على أن يتعلم ثلاثة أشهر على الحركات والأعمال والحياة الجندية في قطعة عسكرية في بلده أو في بلد قريب آخر. وحينما تنتهي مدة الخدمة الاجبارية يقيد الشاب (رديفاً) لمدة عشر سنين، ويجند ثانية اذا ما احتاجت الدولة الى جنود جدد غير الذين في الخدمة النظامية. وبعد العشر سنين يقيد الرجل (متحفظاً) لمدة عشر سنين اخرى. ويستدعون حين الطوارىء أيضاً، ويكون هؤلاء على الأعم متولين للخدمات الخفيفة غير الحربية الفعلية من نقل وتموين وحراسة الخ . . . .

واعرف في طفولتي عدداً من شباب أسرتي اخذوا للجندية الاجبارية وأرسلوا الى بلاد بعيدة تركية وعربية، ومنهم راغب بن عطا الذي أرسل الى اليمن وقد فر من الخدمة وقضى بضعة أشهر تائهاً ضائعاً، ثم وصل الى نابلس واختفى فيها، ثم هاجر الى دمشق هو ومعه أبوه وأمه، وفتح حانوت بقالة في باب القلعة التي كان فيها السجن أيضاً. ومات أبوه وأمه وزوجته في دمشق.

ومما أذكر ان عمي سليم طلب للرديف في ظل ثورة جبل الدروز، فدبر له جدي بدل شخصي حيث كان ذلك جائزا، وكان هذا البدل من قرية من قرى نابلس، ووافق على الذهاب محل عمي مقابل الفي قرش دفعها له جدي. ولما جاءت قرعتي دفعت بدلا نقديا خمسين ليرة ذهبية وذهبت الى يافا، حيث قضيت ثلاثة اشهر اتعلم الاعمال والحركات والحياة العسكرية في قطعة عسكرية نظامية فيها.

وقد تبدل كثير مما تقدم في عهد صباي وشبابي. ومن ذلك الغاء عضويات المحاكم الانتخابية، وجعل هذه العضويات وظائف رسمية ثابتة، وتعيين موظفين لها كانوا من جسم القضاء الرسمي. ومن ذلك تنزيل مدة الخدمة النظامية الإجبارية الجندية الى سنتين ونصف، والغاء البدل الشخصي للرديف، واجازة دفع بدل نقدي.

ولقد كان في نابلس في طفولتي وصباي بعض معاهد علم حكومية. وسوف اذكر ذلك في سياق ذكر الاحوال العلمية والتعليمية في نبذة اخرى.

التطورات في الحكم:

واكتفي بما تقدم من مظاهر الحكم والحكومة، واقول ان هذه التشكيلات التي ذكرتها حديثة نوعا ما. اي انها لا تمتد الى اكثر من الثلث الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت البلاد تحكم قبل ذلك بواسطة حكام الإقطاع تحت اشراف الولاة العثمانيين والجيش العثماني في مراكز الولايات، وفي بدء النصف الثاني من القرن المذكور قويت يد الدولة وتنظيماتها الحديثة في العاصمة والولايات والمتصرفيات، فصارت تنشىء دوائر حكومية متنوعة، وتصبح لهذه الدوائر وموظفيها السلطة والهيمنة على البلاد، وهمدت او ضعفت حركة الحكم الإقطاعي الذي كان يتمثل برؤساء اسر وعصبيات وقبائل وعشائر نافذين بصفتهم ملتزمين للضرائب، اي انهم رسميا كانوا يتعهدون بدفع مبالغ عن المناطق التي يهيمنون عليها، ويتولون الحكم والسلطة فيها، ويجبون ضرائبها فيدفعون ما تعهدوا به لخزينة الدولة، ويأخذون الفرق الذي يكون احياناً كبيراً.

ذكرياتي عن زيارة إمبراطور الألمان لفلسطين:

هذا ومما لا يزال في ذاكرتي من زمن طفولتي ومتصل بالحكومة، زيارة إمبراطور الألمان لدمشق والقدس بعدها، حيث اذكر انه كان لهذا الخبر (رنّة وطنّة) اهتمام كبير في دوائر الحكومة والناس، وقد علمت فيها بعد ان امبراطور الالمان تودد للسلطان عبد الحميد الثاني وهو السلطان الجالس على عرش الدولة قبل ولادتي، واستمرت ولايته الى سنة 1909م، وان السلطان تجاوب معه لأن بريطانية وفرنسا كانتا قد اعتدتا على بعض بلاد الدولة واحتلتها مثل مصر وتونس والجزائر، وان روسيا كانت تطمع في بعض بلادها، وكانت من قبل قد استولت على بعضها فعلا في الشرق الشمالي من الأناضول مثل قارص والقريم، في حين لم يقع من الالمان عدوان بعد، فرآى السلطان ان الموادّة مع إمبراطور الألمان قد يعود بالقوة على دولته. وكان اهتمام الحكومة بالزيارة عظيما على ما كان يتحدث به الناس امامنا.

ومن المشاهد التي لا أنساها في فتوتي زحف الجراد في نابلس (سنة 1910/ 1911)، حيث جاء تيار جراد عظيم من الشرق، فملأ السهول المجاورة لنابلس، وضرب الناس بالتنك ليثيروه ويجعلوه يرحل دون ان يفقس، فلم يجدِ ذلك وباض في السهول ودبت الحياة في الفقس، وأخذ يزحف كالسيل من السهول الى شوارع المدينة وبيوتها. ويزحف على الجدران ثم يزحف منها الى داخل البيوت ثم يخرج من الابواب زاحفا في الشوارع. واعلنت الحكومة والبلدية مكافآت لمن يملأ الاكياس منه. وملأ الناس آلاف الاكياس، ومنهم من اكله مشويا ومقليا، ومنهم من قدمه للبلدية والحكومة وأخذ المكافأة، ولكن كل ما فعلوه لم يخفف سيله العرم العظيم، وكان منظراً مذهلاً حقاً حيث الجدران والطرق والشوارع كانت مغطاة به، وهو يتحرك ويموج ويأكل كل ما يجده أمامه من طعام وورق وخضرة. وظل الناس في جهد وبلاء عشرة ايام الى ان صار يطير، ولم يكن بعد قد بلغ للفقس ثانية فصار يطير ويتبدد.

شيء عن التعليم والمدارس والكتاب:

لقد درست دراستي الابتدائية في مدرسة الشيخ محمد زعيتر الابتدائية الحكومية او شبه الحكومية من سنة 1895 الى سنة 1900. وبهذه المناسبة اقول انه لم يكن في نابلس

مدرسة حكومية قبل عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي جلس سنة 1291هـ - 1876م، لأن التنظيمات الحكومية الحديثة وهيمنة الحكومة لم تكن قائمة موطدة، وكل ما كان كتاتيب يتعلم فيها الاطفال، يقوم على كل منها شيخ محدود العلم والعقل، واكثر ما كانت هذه الكتاتيب في مقامات فيها قبور بعض الصالحين، ويكون لها ساحة فيها محراب فيجلس الطلاب فيها، وعلى الاكثر تكون معتمة ورطبة. وكان اكبر واشهر ما استمر قائما من هذه الكتاتيب الى زمن طفولتي الواعية كتّاب الشيخ مسعود، وهذا اسم صاحبه، وهو من بيت (العكر). وكان الكتّاب في وسط المدينة في الشارع الجنوبي الممتد من الشرق الى الغرب في زاوية كبيرة في جانبها قبر يسمى الشيخ بدران. وينزل الى قاع الزاوية بدرجتين او ثلاث في الارض، ولها شباك كبير على الشارع يرى القبر منه، وعليه تكويرة عمامة مصبوغة بالأخضر وغطاء اخضر مكتوب عليه بعض الآيات وصيغة الشهادة. وكان يتسع لنحو مائة طالب. والشيخ مسعود هو شيخ الكتّاب في طفولتي اي سنة 1305هـ وما بعدها بقليل.

ولا ادري هل كان هناك كتّاب قبله لشخص آخر خلفه فيه، وان كان هذا هو الارجح، وكان الأطفال يجلسون على حصر مهترءة على الارض (كوما) وصف وراء صف و(كومة وراء كومة)، واعمارهم مختلفة من ابناء السادسة وما فوق الى الخامسة عشرة، وفي ايديهم الواح من التنك باطار خشبي يكتبون عليها دروسهم من الهجاء والقراءة وآيات القرآن، يكتبها لهم الشيخ وتلامذته المتقدمون على غيرهم في السن والمعرفة. وكان الطلاب على الاغلب يعلم بعضهم بعضا. وكانوا يرددون ما يقوله شيخهم ترديداً جماعياً، ويهتزون على اليمين وعلى الشمال، وفي جانبه عصي مختلفة الطول، كان واحدها يسمى (مساسا)، كل منها لنكز او دعر طالب في صف او كومة ما، الطويل للبعيد والقصير للقريب. وكان يوجه اليهم الشتائم والنعوت البذيئة، ويصرخ ويقسو في ضرب من تكثر حركاته او شقاوته.

وكان أهل الطلاب يرسلون للشيخ أجرة أسبوعية عن طفلهم، بعض القروش، وهدايا من المأكولات الناشفة كالكعك والخبز والبيض والبطيخ والبرتقال والارز والسكر الخ. . . واكثر ما كان الطلاب يتعلمون في هذه الكتاتيب القراءة والكتابة والقرآن. وحينما يتم الطالب قراءة القرآن في سنتين او ثلاث او اربع كان يترك الكتّاب. ومن اليقين انه لا يكون اكثر من قارىء او كاتب بسيط وشبه امي. وقد يبقى معه شيء من القرآن محفوظا لأن هذا مما كان يعتنى به اكثر، وكل ما كان يتم الطالب قراءة جزء بل سورة يرسل الشيخ جوقة من الطلاب الى اهله ينشدونهم نشيد التبريك، ويأخذون هدية منهم للشيخ، ويكون الحفل والتبريك اعظم حينما يختتم الطالب القرآن.

وكان في نابلس في ايام طفولتي الواعية عدة كتاتيب في نفس الصورة، وانما اقل سعة وشهرة، وبعضها في الحارات وبعضها في الاسواق، وكان في حارتنا (القيسارية) غرفة رطبة معتمة تسمى مقام الخضر ليس فيها قبر وانما كان فيها محراب، فكانت كتّابا للشيخ من اهل الحارة اسمه الشيخ ابراهيم الدرويش. وقد كانت مفتوحة في كل ايام السنة، وكنت اذهب اليها في اثناء الصيف في طفولتي حين تعطل المدرسة الابتدائية التي ذكرت سابقا أني تعلمت فيها.

ولقد علمت أن هذه المدرسة الابتدائية قد أحدثت قبل ولادتي بنحو عشرين سنة، وظلت الكتاتيب قائمة بعدها لأنها لم تكن تستوعب الا نحو 700 ـ 800 طالب، وكان مثل هذا العدد موزعا على الكتاتيب. وواضح من هذا ان نطاق القراءة والكتابة والمعرفة كان ضيقا ضعيفا قبل ولادتي، وبعض الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة والحساب وكانوا على شيء من المعارف الأخرى، إنما كان يعلمهم معلمون خصوصيون. ولكن هذا كان كذلك ضيق النطاق محدودا. ويمكن ان يعد امثال هؤلاء في نابلس قبل ولادتي على الأصابع، ويكونون مشهورين مثيرين للعجب. وكان بعض أبناء الأسر الميسورة يذهبون الى مدارس في بيروت انشئت في القرن التاسع عشر للتعليم الحديث من قبل جمعيات تبشيرية، ولكن ذلك كان ايضا في نطاق محدود ضيق. وممن عرفت انه ذهب الى هذه المدارس إبراهيم القاسم عبد الهادي، الذي سوف اذكره في مناسبة آتية ذكرا أوسع.

رحلة بعض الشباب الى مصر والشام لطلب العلم الديني:

وكان يذهب بعضهم الى مصر ودمشق لتلقي العلوم الدينية والعربية، فيقضون بضع سنين ويعودون، وقد قبسوا بعض هذه العلوم واحضروا معهم بعض كتبها، ويكونون قد تأهلوا بعض الشيء لوظائف المساجد من امامة وخطابة ووعظ، ويتعلم بعض الشباب هذه العلوم منهم في حلقات دراسية ايضا. وكل هذا كان كذلك محدودا ضيق النطاق.

حالة التعليم البائسة في القرى:

وكانت القرى في كل ما تقدم اشد بؤسا، فبعضها ليس فيه كتّاب وليس فيه قارىء وكاتب، وبعضها فيه كتّاب هو في الغالب في مسجد القرية، ولا يوجد مسجد في كل قرية. وفي بعضها غرف رطبة هي المسجد وشيخ بائس يسمى خطيباً يقرأ ويكتب ويحفظ بعض القرآن وبعض الامور الفقهية، ويمزج الصحيح بكثير من الخرافات والبدع. وهؤلاء الخطباء الذين هم ائمة المساجد ومعلمو الاطفال يعيشون على صدقات اهل القرية في طعامهم اليومي، ويعطيهم اهل القرية في موسم الحبوب ما تيسر، ونادراً ما كان في قرية ـ في طفولتي ما قبلها ـ متعلم احسن القراءة والكتابة. ومثل هؤلاء من ابناء الميسورين تيسر لهم معلمون خصوصيون، ومع ذلك فالأطفال في القرى لم يكونوا يقبلون على التعليم حتى ولو وجد في قريتهم كتّاب، بحيث يمكن القول ان الامية في القرى ايضا كانت هي العامة السائدة.

وكانت الكتاتيب في المدينة على سوئها للأطفال الذكور فقط، ولم يكن للبنات اي نصيب من تعليم. ونادرا جدا ان تكون بعض النساء يقرأن ويكتبن، ويكون ذلك بواسطة معلمين خصوصيين.

أول مدرسة رسمية في نابلس وشيء عنها وعن مديرها الشيخ محمد زعيتر ومعلميها وبنائها:

وأول مدرسة حكومية أو شبه حكومية في نابلس هي المدرسة الابتدائية الكبيرة المذكورة، وكان مكانها فوق خان التجار من الناحية الغربية الشمالية، ودرجها في الطرف الغربي الشمالي من الخان، ومديرها في زمن طفولتي الشيخ محمد زعيتر، ولا أعلم هل هو أول مدير لها منذ إنشائها أم كان لها مدير سابق. ولكني أعرف انه كان مديراً لها قبل طفولتي بسنوات عديدة. وان معظم الجيل السابق

لجيلي ممن كان له حظ التعليم قد تعلم فيها في عهده. وقد قامت هذه المدرسة في أوائل عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي أعلن الحكم الدستوري في أول حكمه ثم ألغاه. وكان يشرف عليها لجنة معارف تختار الحكومة أعضاءها، وتكون تحت نظرها وتوجيهها، وينفق عليها من ريع ما يسمى الأوقاف المندرسة، ومن ضريبة كانت تسمى ضريبة المعارف تجبى مع بعض الضرائب الأخرى بواسطة الحكومة، ومن مساعدة من خزينة الحكومة. وكانت الأوقاف المندرسة أيضاً مما هو في عهد مأمورية الأوقاف التي كانت وظيفة حكومية. ولذلك قلت إن هذه المدرسة حكومية أو شبه حكومية، وكان أعضاء اللجنة تختار من وجهاء البلدة ومستنيريها.

وقسم من المدرسة كما قلت مبني فوق مخازن خان التجار علويا، وكان لها جناح أرضي من الشرق ينزل اليه بدرج مسور، وأظن أنه كان متصل بأرض خلاء خارج المدينة. وفي هذا الجناح دورة مياه المدرسة، وأمامها ساحة واسعة لتجول الأولاد أثناء التنفس، لأن الساحة التي في القسم العلوي لا تكفي لذلك. وقد أنشىء في جانب من هذه الساحة غرف جديدة على الطراز الحديث لاستيعاب طلاب أكثر. وفي القسم العلوي قاعات ثلاثة الواحدة تسمى (قاووش)، وهي كلمة تركية بمعنى القاعة، وفيها بعض الغرف الحجرية والخشبية، وفي وسطها بركة ماء، وفي وسط الساحة الشرقية أيضاً بركة ماء، وكان الطلاب يجلسون على الأرض التي كانت مغطاة بألواح خشبية مهترئة يسرح فيها الجراذين. وكان يوضع أمامهم مساند خشبية طويلة يقعد وراءها عشرة طلاب، مرتفعة نحو نصف متر وأكثر حسب قعدتهم، يضعون عليها كتبهم ومحابرهم وأقلامهم.

وكانت مدة الدراسة في المدرسة أربع سنين، يدخلها الطالب وعمره سبع سنين أو أكثر قليلاً، ويرتقي من صف الى صف سنوياً بعد الامتحان الذي يكون شفوياً آخر السنة، ويعطى الناجح في السنة الأخيرة شهادة الدراسة الابتدائية.

وكان لطلاب كل سنة عدة فصول، في كل فصل أربعون أو خمسون طالباً، وكان في المدرسة ثلاثة قواويش كبيرة يتسع بعضها لفصل، وبعضها لثلاثة فصول، بل وفي بعضها الكبير أربعة فصول.

والفصول متجاورة ولكل منها شخصية خاصة، وكان يعلم في المدرسة القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والقرآن والتجويد، ثم صار في زمني يعلم بعض مبادىء الجغرافية والتاريخ و(الأشياء)، والكلمة الأخيرة كانت تعني بعض مبادىء العلوم الكيميائية والفيزيائية ونحوها. وكان يهتم لتجويد الخط، حتى كان للخط معلم خاص جيد الخط، وكان المعلمون يقعدون على مقاعد خشبية كبيرة من نوع المقاعد التي يجلس عليها بعض وعاظ المساجد.

وكان الطلاب يحملون ألواحاً من التنك بإطارات خشبية، ويكتبون عليها بالحبر. ثم صارت ألواحهم من النوع الأسود الجديد الاردوازي مع قلمه الخاص، ثم صار يعطى للطلاب كتب مطبوعة للقراءة وأجزاء قرآنية، وكان يوضع قرب مقعد المعلم لوح خشبي أسود لكتابة الدرس والامثولة بالطباشير، وكانت كتابة الحبر بأقلام من البوص الرفيع. (يبرون) رؤوسها بالموسى ويشقون رأس (البري) وكانت (البريات) متنوعة. منها الرفيع ومنها الغليظ حسب حروف الكتابة التي يراد كتابتها. ولون البوص في أصله أبيض. ويوضع أحياناً في

الكلس فيصير لونه بنياً محروقاً ويسمونه (شحماني)، وكانوا يضعون الحبر في (دوايات) صغيرة زجاجية أو فخارية أو معدنية، ويضعون في (الدوايات) قطعة قطن أو صوف أو شعر، ويغرسون الأقلام فيها فلا يعلق عليها حبر كثير يسقط على الورق. وكان هناك (دوايات) نحاسية لها ذراع مجوف يوضع فيها أقلام البوص، ولها غطاء يقفل على التجويف وغطاء يفتح ويغلق على فتحة وذراعها وفتحتها منقوشة بنقوش هندسية حفرا، ولم يكن دفاتر وكراسات، وكان الورق صفائح بيضاء بدون خطوط، وأحياناً داكنة اللون وتقسم حسب المقتضى.

وكانت الحروف أنواعاً، نوعاً يسمى رقعة، ونوعاً يسمى فارسياً، وتكتب الحروف رفيعة أو غليظة. وكل هذا حسب تعليم المعلم، ولقد ظلت أقلام البوص التي تبرى برياً مستعملة مدة غير قصيرة في المدارس وفي أيدي الخطاطين والناس بعد اختراع الريشات المعدنية الصغيرة التي تركب على أعواد رفيعة كالبوص، والتي كان رأسها متنوع البري رفيع وغليظ، ورقعة وفارسي، ولم تعم هذه الريشات وتحلّ محل أقلام البوص الا مؤخراً استمراراً على العادة وتعصباً لها.

وممن أذكرهم من معلمي هذه المدرسة الشيخ عبد العظيم آغا طوقان، الذي كان يعلم القرآن والتجويد، ومنهم الشيخ عارف أبو غزالة، والشيخ محمد تفاحة، والشيخ عبد الله الخاروف، والشيخ أحمد المر، والشيخ محمد فاش، والشيخ حسن خير الدين. وكان المدير الشيخ محمد زعيتر قوي الشخصية حازماً يلقي الرهبة والهيبة في قلوب الطلاب والمعلمين معاً على ضآلة جسمه. وكان له عمامة كبيرة ولحية كثة وصوت جهوري رنان يرسله حينما يكثر صخب الأولاد في الفصول وفي فترات الدروس، فيكون كالزلزال وتجمد الأصوات وترتجف الأوصال. وكان الأطفال يرتعبون حينما يرونه في الشارع، فلا يجرؤون أن يمشوا في طريق هو فيها. وكان مجلسه ومكتبه في وسط القاووش يجلس فيها المعلمون في الفترات بين الدروس. ولم يكن له دروس، وانما كان مراقباً عاماً للمدرسة والطلاب، ويكون في مجلسه هذا أكثر الوقت، وكان أحياناً يأتيه ضيف من معارفه زائراً، فإذا كان ممن يحسن احترامه وكان الطلاب في فصولهم في القاووش ضرب بعصاه الرفيعة على مقعد ضربة شديدة، فيهب جميع طلاب الفصول في القاووش واقفين احتراماً للزائر.

عقوبات الطلاب:

وكان يعاقب الطلاب المذنبين بشكوى من المعلمين أو الطلاب بالضرب بالفلقة، وهي قطعة حبل يربط بها قدما الولد ثم يحمله ولد آخر، ويكون رأسه وراء ابط حامله ورجلاه مرفوعتان في الهواء، فيأخذ المدير بضربهما بالسوط وهو فرع رفيع من الشجر. ومن طريف ما أذكر أن بعض الطلاب كانوا يصطادون الجراذين ويذبحونها ويدهنون باطن أقدامهم بدمها، بزعم أنها تخفف ألم السوط، وكان المدير يضرب الطلاب أحياناً بالسوط على كف أيديهم. وكان الضرب بالفلقة للمدير فقط، أما الضرب على الأكف فكان المعلمون أيضاً يمارسونه. ولم يكن الضرب هو العقوبة الوحيدة التي كان يعاقب المدير بها المذنب، فقد كان يعاقبه بأمره بالركوع والوقوف على (صابونة ركبته) ورفع يده مدة طويلة، وكان التوقيف مدة

ما بعد انصراف الطلاب مساء نوعاً من العقوبة أيضاً، وكان يرافقه أحياناً شيء آخر، حيث كان المدير يجلس على كرسي خشبي كبير في الساحة المؤدية الى درج المدرسة (حينما يأزف وقت تسريح الموقوفين)، فيمرون أمامه سلسلة متصلة واحد بعد آخر، فكان يوجه لكل واحد كلمة توبيخ وتقريع مختلفة عن الأخرى كأنما يتلو وردا.

ونادرا ما كنت أعاقب وأحبس بعد الانصراف. وكنت مجتهداً وحسن السلوك. وقد نلت شهاداتي الابتدائية بدرجة (عليّ الأعلى) في كل درس. وأظن أن ذلك كان سنة 1898 والراجح أني دخلت المدرسة وعمري سبع سنين وقضيت فيها أربع سنين.

غلبة المظهر الديني على المدرسة:

وكان المظهر الديني في المدرسة قوياً، فكانت الدروس تبدأ وتختم بصيغة صلاة على النبي ﷺ، وكان يشدد على الأولاد لأداء الصلاة، وكانت المدرسة تهتم كثيراً لتعليم القرآن وتجويده. وكانت تحتفل في آخر كل سنة بالختم القرآني، فقد كان الطلاب يختمون القرآن في السنة الأخيرة التي سوف يتركون المدرسة بعدها. فكان في آخر كل سنة احتفال، وكان كل ولد (خاتم) يزين كرسياً.

كرسي وزفاف ختم القرآن:

وتزيين الكرسي (من نوع الكراسي التي توضع عليها المصاحف للقراءة في المساجد)، بالفوانيس والأشرطة الحريرية المتنوعة والزهور، ويضع المصحف فيه في كيس حريري ويلبس ثياب جديدة. وفي المدرسة تكون جلسة ختم قرآنية، ويكون أهل الخاتمين وجيرانهم وأصدقائهم مجتمعين في المدرسة، وفي الشارع يلتقفون ولدهم وكرسيه، وأحياناً يحملونه على أكتافهم وأحياناً يأتون له بفرس ويركبها. وتنتظم زفة كبرى يحتشد فيها المئات بل الألوف، وينشد فيها الأناشيد والأهازيج، وتسير في الشوارع الى الحارات، حيث يذهب كل ولد مع أهله وجيرانه الى بيته، فتدور على الذين جاءوا معه الشربات ويوزع عليهم الملبس، ويكون يوم الختامة في نابلس يوماً مشهوداً. وكان أهل الأولاد يتزايدون في تزيين كراسي أولادهم حسب يسرهم وعسرهم. ولكنهم جميعاً يبذلون جهدهم ليكون لولدهم كرسيه وموكبه.

ومن مظاهر تدين المدرسة أن المدير كان يصحب طلاب الصفين الأخيرين من المدرسة كل ليلة جمعة الى جامع النصر لقراءة قصيدة البوصيري، وصلاة المغرب والعشاء، وكنت أذهب في السنتين الأخيرتين لذلك. وكان جدي يأتي بي من البيت ثم أعود معه. وقد ألّف المدير كتاباً شرح فيه معاني القصيدة وطبعه في مطبعة بيروت وباعه للطلاب، واشتريت نسخة منه بربع مجيدي حسب السعر الذي عينه له.

وكان في المدرسة دكان فيه ما يجب أن يشتريه الأولاد أو يلزمهم من دفاتر وأقلام ومأكولات مسلية، وكانت أجرتها تدفع لصندوق لجنة المعارف. وقد عرفت فيما بعد أن مرتب المدير كان خمسمائة قرش، وأن مرتبات المشايخ والمعلمين كانت تتراوح بين مائة قرش وثلاثمائة قرش.

لجنة المعارف واستقالة الشيخ محمد وتعيين وديع الزعبي مديراً مكانه:

ولقد كان الشيخ محمد محترما مهابا عند الناس جميعهم خاصتهم وعامتهم، ولا سيما أنه

كان يعد شيخاً مربياً لجيلين أو ثلاثة أجيال منهم. ولقد بقي على رأس المدرسة الى سنة إعلان الدستور 1908م، وقد تألفت عقب ذلك لجنة معارف جديدة فيها بعض رجال نيرين مثل الحاج حسن حمّاد، والشيخ نمر الداري، وإبراهيم القاسم عبد الهادي، فرأت اللجنة أن تتأكد من صلاحية المدير والمعلمين العلمية والتعليمية، وقررت دعوتهم الى الامتحان حتى يذهب الجاهل أو غير الآهل ويؤتى بالأكفاء الصالحين، وقد أبى الشيخ أن يتقدم للامتحان واستقال. وعينت اللجنة مكانه شاباً متعلماً من الناصرة اسمه وديع الزعبي.

وعلمت فيما بعد أن عدداً من الأشخاص تقدموا للامتحان لأجل المديرية، وكان هذا أنجحهم، وقد اصطنع الوقار المقتضى لمديرية المدرسة، وكان له ذقن مخروطية على الطريقة الافرنسية، ويتكلم العربية الفصحى مع شيء من التقعر. واشترك بعض المعلمين القدماء في الامتحان، وامتنع بعضهم واستقال كما فعل المدير. ومن القدماء من نجح وبقي ومنهم من سقط وأخرج، وأخذت حالة المدرسة بعد ذلك تتحسن فعلاً، لأنه جاءها معلمون جديرون أكثر نباهة وأهلية. وبالإجمال ان حالة التعليم الابتدائي أخذت تتحسن ونطاقها يتسع بعض الشيء في نابلس وفي بعض القرى في عهد لجنة المعارف الجديدة. ولا بد من أن يكون انشىء في مراكز أقضية جنين وطولكرم وجماعين لجان معارف جديدة بعد الدستور، وأن تكون حالة التعليم الابتدائي في هذه المراكز والقرى التابعة لها قد تحسنت واتسعت عن ذي قبل، وأن يكون هذا شأن المدن الأخرى.

شيء عن الحاج حسن حماد وابراهيم القاسم والشيخ نمر الداري:

وعلى ذكر اسماء الحاج حسن حماد والشيخ نمر الداري وابراهيم القاسم عبد الهادي اقول، ان هؤلاء الثلاثة صاروا أصدقائي بعد إعلان الدستور، وتعاونت معهم في سبيل الحركة العربية والوطنية والعلمية على ما سوف اشرحه فيما بعد. وكانوا اسن مني بطبيعة الحال، ويمكن ان يكونوا اكبر مني بخمس عشر سنة او عشرين. وكان الشيخ نمر الداري عالماً دينياً لابأس في فصاحته العلمية وأديباً وشاعراً مولعاً بالمتنبي حتى كان يحفظ ديوانه. وحينما مات الشيخ حسين هاشم سنة 1912 انتخب للافتاء مكانه، وبقي في المنصب ثلاث سنين ثم اعتقل وعين مكانه الشيخ منيب هاشم اخو الشيخ حسين، وكان اعتقاله بسبب انتسابه لحزب اللامركزية على ما سوف يأتي شرحه في مناسبة اخرى، وكان جسيم البنية وذا ذوق موسيقي. ومما اذكره ان مصرياً متقاعداً مهندساً جاء وسكن نابلس بعد الدستور، وكان عنده فونوغراف وإسطوانات للشيخ يوسف المنيلاوي المغني المشهور وغيره، فكان يذهب للسهر عنده واستماع الاسطوانات وقد ذهبت معه انا ايضاً اكثر من مرة. وبعد الاحتلال صار عضواً في محكمة الاستئناف الشرعية التي كانت تابعة للمجلس الاسلامي الشرعي الذي قام بعد الاحتلال، وظل في هذه الوظيفة حتى توفاه الله الى رحمته في سنة 1924م.

وكان ابراهيم القاسم عبد الهادي نير العقل ذكي القلب جريئاً في قول الحق صلباً في الرأي والحق مع بساطة في السمت والحياة، حسن الاطلاع على الكتب العربية والحديثة الميسورة، وقد تصادقت وتواثقت معه أكثر من

غيره، وكنا منسجمين في كل موقف وطني وسياسي في زمن الدولة العثمانية، ثم استمرت صداقتنا تواثقاً وانسجاماً وتعاوناً في زمن الاحتلال، وصرت ممن يثق بهم ويطمئن الى عقولهم وقلوبهم ومواقفهم، وقد اعتقل هو الآخر مع الشيخ نمر بسبب حزب اللامركزية في زمن الدولة العثمانية ثم افرج عنه. وفي آخر حياته اصيب بالشلل وقعد في البيت، وكنت ازوره الى ان توفاه الله الى رحمته سنة 1936 وسيأتي عنه كلام في مناسبات آتية.

وكان الحاج حسن حماد ايضاً نير العقل حسن الفهم والاطلاع، وان لم يكن اطلاعه العلمي مضارعاً لاطلاع الشيخ نمر وابراهيم القاسم. ولكنه كان يتميز عليهم بأنه كان يعرف التركية والاعمال والقوانين الحكومية. وكان رئيس كتاب دائرة الطابو، وكان حسن السمة والهيئة أنيقاً، وفي نطقه تأتأة خفيفة. وقد تصادقت وانسجمت وتعاونت معه في زمن الدولة العثمانية على ما سوف يأتي شرحه فيما بعد. ولقد كان هو الآخر متهماً بحزب اللامركزية، وقد طاردته السلطات التركية العثمانية ولكنه استطاع ان يختفي حينما علم بأنه مطلوب، فنجا من الاعتقال ومن الشنق لأنه حكم عليه غيابياً بذلك دون الاثنين، لأن تهمته كانت أشد على ما سوف يأتي شرحه فيما بعد. ولقد اختفى نحو ثلاث سنين في دمشق. وبعد الاحتلال انشغل اكثر بشؤونه الاقتصادية والزراعية، ولم يكن له مشاركة جادة في الحركة الوطنية الى ان توفاه الله في الاربعينات على ما بقي في ذهني رحمة الله عليه.

اول مدرسة للبنات في طفولتي.

واعود بعد هذا الاستطراد الى موضوع الحالة التعليمية، فأقول اني لم أسمع أنه كان للبنات مدارس قبل ولادتي. واذكر أن مدرسة ابتدائية أنشئت لهن في نابلس في طفولتي من قبل لجنة المعارف التي كانت تشرف على المدرسة الابتدائية للذكور قبل الدستور، ويمكن أن نكون أول مدرسة للبنات في نابلس ومنطقتها. وكان محلها في عمارة يقال لها (الدرويشية) في حارة القريون قرب بيت آل هاشم، وفي مطلع ما بعد بيت عبد الكريم اليوسف عبد الهادي المسمى بطريق حبس الدم. واذكر أن اختي عريفة التي هي اكبر مني ببضع سنين دخلت هذه المدرسة لفترة ما. وقد ذهبت معها مرة أو مرتين وأنا طفل في السادسة من عمري.

دخولي للمدرسة الرشيدية والإعدادية في نابلس:

وبعد ان اخذت الشهادة الابتدائية عام 1898 دخلت المدرسة الرشيدية، وكان مكانها في عمارة دار عبد المجيد (السيحاني) في الشارع القبلي الممتد من الشرق الى الغرب، وفي مدخل طريق سراي الحكومة وحارة القريون. وكانت طابقين في الأول دورة المياه وغرفة او غرفتين وفي الثاني بضع غرف. وكان فيها خمسة صفوف ومديرها تركي معمم اسمه نوري افندي، وبعض معلميها أتراك وبعضهم عرب.

ولا أعرف يقيناً متى أنشئت، ولكن البوادر قد تدل على أنها أنشئت بعد قليل من إنشاء المدرسة الابتدائية الرسمية، ليذهب الذين يتمون الدراسة في هذه المدرسة اليها لإتمام دراستهم او الاستمرار في الدراسة. ومن الجائز والحالة هذه ان يكون عمر هذه المدرسة حينما دخلت فيها عشرين سنة او اكثر. وان يكون

أربعة أو خمسة إجيال قبلي ممن انهوا دراستهم في المدرسة الابتدائية ودخلوها وتخرجوا منها. ولقد كان بعض رجال من الأجيال قبلي من نابلس يعرفون التركية وكانوا موظفين في دوائر حكومة نابلس وخارجها، فالمتبادر انهم كانوا تخرجوا من هذه المدرسة وتأهلوا للوظيفة. وقد كان من اغراض الدولة في انشاء مثل هذه المدرسة في البلاد العربية تهيئة رجال متعلمين يعرفون اللغة التركية ويكونون موظفي حكومة.

وكان في المدرسة حين دخلتها نحو مائتي طالب. وكان يقبل من يحصل على الشهادة الابتدائية بدرجة جيدة، مع التنبيه على ان معظم طلاب المدرسة الابتدائية من رفاقي الذي تخرجوا معي وكان بعضهم ناجحاً بدرجة جيدة انصرفوا الى الاشتغال مع آبائهم او بأشغال أخرى للكسب دون متابعة للدراسة. وهذا كان شأن الأجيال السابقة لي ممن تخرجوا من هذه المدرسة كما هو المتبادر من عدد طلاب المدرسة الرشيدية، واذكر انه كان في الصف الأخير من هذه المدرسة شباب كبار اكبر مني بأكثر من سبع سنين، مثل بشير الشرابي، وحلمي الراغب عبد الهادي، وعلاء الدين حلاوة، ووجيه زيد، وعبد الفتاح ملحس، وآخرون لم اعد اذكرهم، وكنت انا بالنسبة لهم طفلاً صغيراً.

التعليم العالي في الدولة:

وقد تيسر لبعضهم أن يذهب بعد هذه المدرسة الى الآستانة ويتمم دراسته في مدارسها العالية، ومنهم بشير الشرابي الذي تخرج من كلية الحقوق، وعبد الفتاح ملحس وعلاء الدين حلاوة من دار المعلمين العالية، ووجيه زيد من مدرسة القضاة الشرعيين. وكانت دراسة وشهادة المدرسة الرشيدية تعادل دراسة وشهادة الثانوية المتوسطة والاعدادية التي تسمى اليوم (بروفيه)، حيث يكون على المتخرج منها ان يدرس سنتين أخريين في ثانوية اعلى، فيحصل على شهادة الدراسة الثانوية الكامل، ويتسنى له ان يدخل في مدرسة عالية، وكان في مراكز الولايات مدارس ثانوية فيها صفان سادس وسابع. فيذهب اليها المتخرجون من المدرسة المتوسطة، ثم بعدها يدخل مدرسة عالية، وكان بعض الذين يتخرجون من المدرسة المتوسطة في نابلس يذهبون الى بيروت لإتمام دراستهم الثانوية، ثم الى الآستانة للدراسة العليا. وبعضهم يذهب الى الآستانة فيتمم فيها دراسته الثانوية ثم يدخل المدرسة العالية.

وكان في الآستانة من ايام طفولتي مدارس عالية عديدة (ملكية)، وهذه لتخريج الموظفين الإداريين كالقائم مقام ثم المتصرف. و (حقوقية) لتخريج القضاة وموظفي المحاكم، و (طبية) و (بيطرية) و (هندسية) و (دار المعلمين) و (قضاة شرعيين) و (عسكرية) لتخريج الضباط.

وقد أنشئت في الظروف التي بدأ فيها تطور وتجدد في الدولة العثمانية، وقامت فيها دوائر حديثة، صارت تدير امور البلاد والامن والمحاكمات ادارة نظامية بدلاً من الحكم الاقطاعي بعد منتصف القرن التاسع عشر او في ثلثه الأخير. وقد أنشئت في هذه الظروف مدارس ابتدائية ورشيدية وثانوية في مراكز المتصرفيات والقائمقاميات. وكان التعليم في المدارس الرشيدية والثانوية فضلاً عن العالية باللغة التركية. اي ان المواد العلمية كالتاريخ والجغرافية والحساب والكيمياء والفيزياء والهندسة والطبيعيات والعلوم المدنية كانت

تعلم باللغة التركية من كتب تركية، بل كان صرف اللغة العربية ونحوها وقواعدها تعلم باللغة التركية من كتاب اسمه المشذب، فضلاً عن انه كان لتعليم اللغة التركية حصص عديدة لقواعدها وادبها وقراءتها، وكانت كتب التعليم الابتدائي هذه تؤلف وتطبع في العاصمة (الآستانة) وترسل الى جميع انحاء الدولة، ويعلم منها للطلاب على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم، حيث كان في بلاد الدولة اتراك وعرب وشركس وأرناؤوط وأكراد وأرمن وروم الخ. . والذي اعتقده ان هذه الطريقة لم يكن يقصد بها قبل اعلان الدستور العثماني سنة 1908 تتريك الجنسيات الأخرى كما قد يقال او كان يظن، وان فكرة التتريك قد انبثقت في رؤوس الترك القوميين بعد إعلان هذا الدستور، حيث قويت بعده النعرة الطورانية في هؤلاء القوميين، وانبثق من ذلك فكرة إعلاء الجنس التركي على الأجناس الأخرى، ودمج هذه الأجناس في الجنسية التركية وعدم ابقاءها على جنسيتها، وانما القصد كما قلنا قبل هو تهيئة رجال متعلمين لوظائف الدولة التي كانت لغتها ولغة دواوينها واوراقها ومعاملاتها ومحاكمها اللغة التركية، ولم يكن قبل الدستور مدارس كثيرة. وكان الذي يدخل المدارس المحدودة التي كانت موجودة هو العدد الاقل من الاولاد، اما الاكثر فكان يبقى امياً. ولا يكون في تعليم هذا العدد الاقل اللغة التركية محصل في صدد تتريك الأمة العربية.

انتقالنا الى بناية المدرسة الاعدادية الجديدة وشيء عن أحوالها وأساتذتها وامتحاناتها وسيرتي فيها:

ولم أقض في بناية المدرسة الرشيدية التي ذكرتها الا سنة واحدة، ثم انتقلت المدرسة الى البناية الجديدة التي انشئت خارج المدينة في قسم من الأرض التي كان يرمى فيها رماد الصبانات، وكانت تسمى تل المرطون. وهي قرب المستشفى البلدي، وأظنها صارت المدرسة الغزالية بعد الاحتلال الانكليزي، ثم صارت مكتبا للحاكم الانكليزي، وقد انشئت لتكون مدرسة حقاً خلافاً للبناية الأولى التي لم تكن صالحة لذلك، وقد جعل لها ساحات فضاء كبيرة، وفي داخلها صفان من الغرف الحسنة أمامهما بهو واسع طولاني في وسطه بركة ماء. وفي مدخلها غرفة للمدير والمعلمين، وصارت تدعى المدرسة الاعدادية، وظلت خمس صفوف، وظلت شهادتها اعدادية متوسطة (بروفيه)، لا بد لمن يريد الدراسة العالية أن يدرس سنتين ثانويتين أخريين في مركز الولاية أو في العاصمة، وكان يقال إن الصفوف الثلاثة الأولى منها رشدية، والصفين الأخيرين اعداديان. ولكن الاسم كان (اعدادية)، وجاءها مدير جديد اسمه علي رضا، وكان تركيا ونيرا وحازما ودمثا معا. ثم بدل بعد سنتين بمدير تركي آخر اسمه سعيد على ما بقي في ذهني لم يملأ فراغ سابقه. وبعد سنة بدل بمدير معمم ارناؤوطي الجنسية اسمه عبد الرحيم، وكان حازماً ولكنه لم يكن في علم ودماثة علي رضا، وجاء هذا وانا في آخر سنة في المدرسة.

وكان معلمو المدرسة مزيجاً من عرب وترك، ومن الأتراك من كان معمما ويدرس مع ذلك دروسا مدنية كالجغرافية والتاريخ والرسم، ومنهم مدنيون لتعليم الرياضيات والطبيعيات واللغة التركية، وكان من معلمي العرب من يعلم هذه العلوم أيضاً باللغة التركية. وكان يعلم في الصفين الأخيرين من المدرسة لغتان غير العربية

والتركية هما الإفرنسية والفارسية. ولقد كانت اللغة التركية ملآى بالمفردات والتركيبات الفارسية، فرأى القائمون على التعليم ضرورة لتعليم هذه اللغة أو شيء منها لطلاب المدارس الاعدادية. وقد رأوا كذلك ضرورة لتعليم طلاب المدارس لغة أجنبية انسجاماً مع فكرة التجديد وتوسيع الافق العلمي، فاختاروا اللغة الافرنسية وقرروا بدء تعليمها من الصف الرابع الاعدادي، وظلت اللغة العربية تعلم بالكتب التركية، وظل الاهتمام قويا باللغة التركية، وكانت المدرسة تحرص على ان يتكلم الطلاب بالتركية حتى يحذقوها تعلما وتكلما. وكانت تدير بينهم ما عرف باسم (سينيال) وهي خشبة بحجم ثلاثة أصابع كان يعطيها لأول مرة المبصر[1] ـ وهذا اسم مراقب الطلاب ـ لمن يسمعه يتكلم بالعربية، ويأمره أن يتنصت على الآخرين، فيعطيها بدوره لمن يتكلم بالعربية، وهذا بدوره يجتهد لتخرج من يده، فتثبت على غيره ويعطيها لمن يتكلم بالعربية وهكذا تدور الدائرة. وكانت (السينالات) عديدة، وكانت ادارة المدرسة في آخر النهار تعاقب من تكون الخشبة معه بالحجز نصف ساعة أو أكثر بعد انصراف الأولاد مساء، ويسمى (توقيف). وكان الموقوفون يعاقبون أحياناً بكتابة خمسين أو مئة سطر من كتاب أو شعر أو قطعة حكمية أو أدبية. ولقد أدى ذلك الى أن كثيراً من الطلاب وأنا منهم صاروا يحسنون تكلم وكتابة اللغة التركية وقراءة كتبها، كما صار عندهم أساس لا بأس به في اللغة الإفرنسية. وأما الفارسية فلم يكن لها اهتمام كبير، ولم يكن لها بالتالي مثل هذا الأثر في الطلاب، وان كانوا صاروا يرددون بعض أبيات من شعر السعدي الذي كان يقرأ كتاب له اسمه (گلستان)، وصاروا يفهمون معاني الألفاظ والتركيبات الفارسية في اللغة التركية. أما اللغة العربية فلم يكن الحظ كبيراً في تعلمها تعلماً حسناً يستطيع الطالب أن يتكلمها ويكتبها صحيحة، بسبب الطريقة التي كان يعلم بها، وان كان الطالب المجتهد صار يعرف قواعدها ونحوها وصرفها معرفة لا بأس فيها. وكان ذلك لي ولأمثالي المدخل لتحسين معرفتنا وإحساننا للغة العربية فيما بعد.

وكان الطلاب يعاقبون لذنوب أخرى يقترفونها مثل المشاجرة والمهاترة فيما بينهم، أو المشاكسة للأساتذة أو التقصير في الواجبات المدرسية أو التأخر في الحضور صباحاً الخ... وكان هناك لصاحب الذنب الكبير نوعاً ما عقوبة تسمى الحجز ليوم الجمعة، حيث كان يعلن مساء كل خميس قبل انصراف الطلاب أسماء من استحقوا هذا العقاب، فيأتون صباح الجمعة الى المدرسة ويقضون ثلاث ساعات محجوزين، وكان يعطى للمحسنين في دروسهم وواجباتهم وسلوكهم ورقات مذهبة منها ما يسمى (أفرين)، وهي كلمة فارسية بمعنى مرحى، وهي التي عربها العوام بكلمة (عفارم)، ومنها ما يسمى (تحسين) وهي أرقى وأكبر حجماً. ومنها ما يسمى (امتياز) وهي أرقى وأكبر، وكان الطلاب بأمر من المدرسة يحتفظون بهذه الجوائز الى آخر السنة ويقدمونها لادارة المدرسة فتعطيهم يوم توزيع الجوائز كتبا جائزة مقابل ذلك، وسيأتي شرح لذلك اليوم فيما بعد.

ومن المعلمين العرب الذين لا تنسى صورتهم محمد أبو غزالة. ولقد كان يعلم كل شيء يطلب منه. الجبر والهندسة والعربية

(1) المبصر: الناظر.

والدين، وكان أتم دراسة إعدادية في بيروت، وكـان شديـداً مرهـوبـاً يخـافـه الـطلاب أشـد الخوف. وكان يعاقب أحياناً بالضـرب وأحيانـاً بالتوبيخ والتقريع الشديد، وأحياناً بصوت رنان مرعب. وكان المبصر يستعين به أحياناً كثيرة في فترات التنفس بين الدروس ووجود الطلاب في الساحة الداخلية أو الخـارجية، وحينمـا يكون صخبهم أو هيصتهم شديدة، فما أن يطل بوجهه حتى تخمد الأصوات وتنقطع الأنفاس حتى لو ألقيت ابـرة لسمعت رنينهـا. وكـان اذا غضب احمر وجهه واشتدت عصبيته.

ولقد عانينـا في هذه المـدرسة في السنتين الأولين مشكلة الملابس، فقد كان معظم تلامذة المدرسة الابتدائية في الرشيدية وقبلها الكتاتيب ومعظم أطفال نابلس يلبسون مثل آبائهم قنابيز صايات شغل الشام. ويتزنرون بزنار قشـاط أو قمـاش، ويلبسون سـراويل مفتـوحـة القـدمين مخيطة من قماش أبيض منه الناصع وكان يسمى (بفتا) ومنه الداكن وكان يسمى (مالطيا)، والأول أغلى، وينتعلون الصـرامي الجلديـة الـرقيقـة الحمراء والكنادر العادية بـدون جرابـات، ولم يكن يلبس البـدلات البنـطلون والجـاكيـت والصـدريـة التي كـانت تسمى (افـرنجيـة) الا المـوظفون والضبـاط والجنود وأولاد الاتـراك، والذين هم في الصفوف المتقـدمة من تـلامذة المدرسة الرشيدية الكبار. فلما انتقلنا الى بناية المـدرسـة الاعـداديـة الجـديـدة طلبت ادارة المدرسة من جميع الطلاب أن يلبسـوا بدلات وجـرابات وكنـادر. وعـظم ذلـك على الأولاد والآباء، حتى أن بعض الأولاد تركوا المدرسة بسبب ذلك. وصنع لي أبي بدلة وصنعـوا لي سروالاً بزمة وأزرار لأجل أن تثبت الجرابات، وهيأ لي قميصاً بقبـة (وقمطة)، وفعـل كثيرون مثل أبي لأولادهم. ولكن ما أن خرجنا من بيوتنا الى المدرسة بهذا الزي وكذلك ما أن عدنا الى بيـوتنا حتى أخـذ الشباب العـوام والأولاد بـل الرجال في الشوارع والأزقة والحارات يوجهون العبـارات الاستهـزائيـة لنـا لـزينـا الافـرنجي الجديد. وكنا نركض في الشوارع والأزقة حتى نصل الى بيوتنا ونسارع الى خلع البدلة ولبس القنباز لكي نستطيع أن نخرج ونتجول. وكنا في الصبـاح نخرج من بيـوتنا ببـدلاتنـا ركضـاً تقـريباً، ونختـار الطرق الخـالية نـوعـاً مـا من الناس. وكان الغمز واللمز للبدلات وللسراويل المزممة والمزررة الأقدام معاً. وظل الأمر كذلك سنتين حتى اعتدنا واعتاد الناس.

ولما جئت الى هذه المدرسة وضعت في آخر مقاعد السنة الأولى. ولما جـرى النقل للسنـة الثـانية رفعت نتيجـة للفحص، فصـرت ثـاني طلاب الصف ترتيباً وجلوساً في المقعد الأمامي الأول. ثم صرت الأول في السنة الثالثة وكذلك في السنة الرابعة، وكان الثاني في السنتين الثالثة والرابعة رفيق التميمي، وقد أخذ مني في السنة الخـامسـة الـرتبـة الأولى وصـرت الثـاني في الترتيب، غير انه لم يتم سنته فقد أخرجه أبوه من المدرسة أثناء السنة بل في أولها، وأرسله الى الآستانة ليكون مع اخوته الذين كان ارسلهم قبله اليها ليتم دراسته فيها، فصرت بذلك أول الصف بقية السنة.

ومن صبيانيات المدرسة أني ورفيق التميمي كنا نعلم الطلاب الآخرين من صفنا، وبخاصة في أيام الامتحانات السنوية التي كانت المدرسة تعطي الأولاد أياما عديدة للاستعـداد والدرس اثناءها، فكنت انا اجتمع مع فريق من الطلاب للدراسة، وكان رفيق يجتمـع مع فـريق آخر. فصار فريقي يتعصب لي وفـريقه يتعصب لـه،

حتى صار الصف فريقين متنافسين متناظرين. وكان فريقي الاكثر والأقوى، وكانت الامتحانات سنوية فقط، وكانت شفوية وجاهية امام الممتحنين، وكان يعطي لكل مادة ايام عديدة للأستعداد، وكان يدعى بالإضافة الى معلم المادة شخصان او ثلاثة من المعلمين او ممن لهم المام بالمادة من موظفين وضباط وعلماء في المدينة، ويدخل الطلاب واحد بعد الآخر ويوجه اليهم المعلم أو أحد الاشخاص الأسئلة ويستمعون الى جواباتهم. ثم يخرج الطالب ويقرر الممتحنون له العلامة المناسبة حسب جوابه.

وكانت العلامة التامة (عشرة)، وتوصف بوصف (عليّ الاعلى)، وهذا الوصف يوصف به من أخذ (تسعة) ايضا، ثم توصف الثمانية والسبعة (أعلى)، وبعدها (وسط)، وكانت ادارة المدرسة تفرض على الميسورين من الطلاب إحضار طعام غذاء للممتحنين الذين كانوا يسمون (مميزين) ايضا، حث كانت تطلب كل يوم من ثلاثة أو اربعة من الطلاب الميسورين إحضار أنواع من الطعام لغذاء المميزين. وكان يقام في آخر السنة حفلة لتوزيع المكافآت على الطلاب الناجحين المستحقين لها. وتوزيع الشهادات على طلاب السنة الأخيرة الناجحون، وكانت المكافآت كتبا متنوعة وكانت تقدم في هذا الحفل كتب مقابل أوراق الاستحسان التي كانت تعطى اثناء السنة للطلاب المجتهدين وحسني السلوك على ما ذكرت قبل. وكنت في آخر كل سنة من السنين الاربع التي قضيتها احصل على علامات (عليّ الأعلى)، وعلى عدد من الكتب مكافأة على اجتهادي ونجاحي، ثم على ما جمعته وقدمته من اوراق الاستحسان التي كنت احصل على كثير منها اثناء السنة.

وقد كانت ادارة المدرسة تهتم لنجاح حفلة توزيع الجوائز والشهادات في آخر السنة، فتدعو اليها المتصرف وكبار الموظفين والضباط والعلماء والوجهاء واولياء الطلاب وبخاصة الذين سوف يأخذون شهاداتهم. وكانت المدرسة تكلف الاول من السنة الاخيرة في كل سنة ليلقي خطبة في الحفلة، وقد كتبت لي المدرسة خطبة بالتركية فيها مدح بالسلطان والحكومة وتنويه بالعلم والمدارس وحث على مكارم الأخلاق الإسلامية وألقيتها. واعطتني المدرسة ساعة فضية جائزة بالإضافة الى جوائز الكتب العديدة الأخرى.

ولقد كان إلمامي بالتركية حينما تخرجت من المدرسة (1321هـ - 1903م) حسناً، ثم قويتها بالمطالعة المستمرة في مختلف الكتب ومختلف المواضيع، حتى صرت أُحسن الحديث واندمج في أي محيط تركي أثناء وظائفي منذ سنة 1907، وأهّلني ذلك لاكون كاتبا مُنشئاً في ديوان باشمديرية البرق والبريد وكاتباً للجنة الباشمديرية. ومع أن عهدي بالتركية، حديثا وكتابة، قد انقطع بعد نهاية الدولة العثمانية، فقد ظللت فيها قويا كما ثبت لي حينما لجأت الى تركية سنة 1941، أي بعد عهد الدولة العثمانية، وبكلمة أخرى بعد انقطاع عهدي بثلاث وعشرين سنة، حيث اندمجت في المحيط التركي وكنت اتكلم مع الاتراك بسهولة، وتعلمت بسرعة الحروف التركية الجديدة، وصرت اقرأ واكتب بها. وظللت فيها قويا رغم انقطاع طويل آخر كما ثبت لي حينما كلفت في سنة 1973 من حكومة قطر (الخليج العربي) بترجمة وثائق تركية قديمة معقدة الكلمات والاسلوب، حيث فهمتها وترجمتها ترجمة صحيحة وجيدة. وأنا الآن استطيع ان

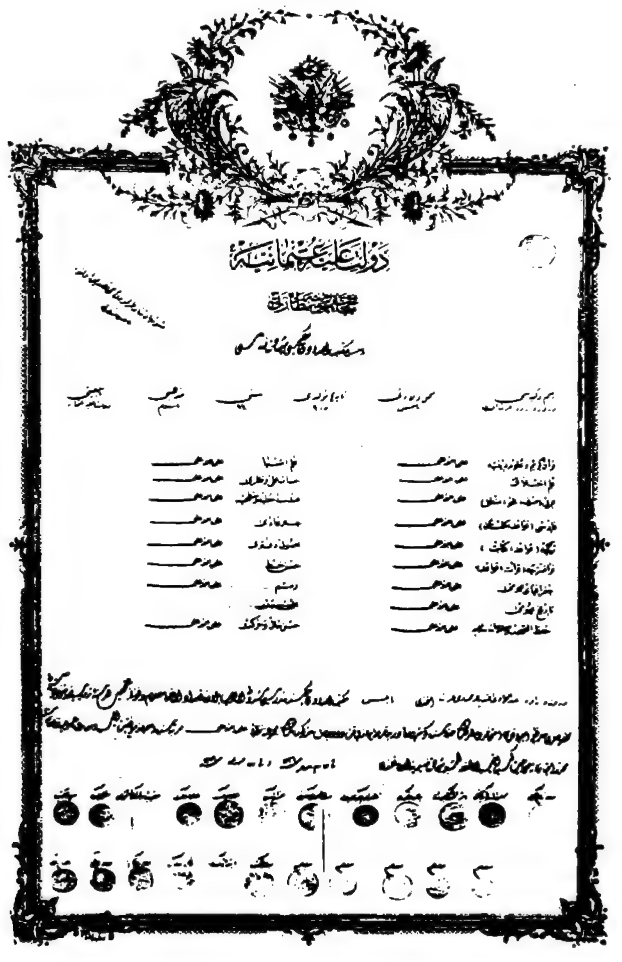
أقرأ وافهم كل كتاب تركي بسهولة.

وكان ما تعلمته من الإفرنسية في المدرسة اساسا لا بأس به، وكنا نأخذ في السنين الثلاث الأخيرة فيها حصتين في الاسبوع. وقد صرت ملما بقواعدها وحفظت كثيرا من مفرداتها. ولما عينت موظفا للبريد في بيروت سنة 1915 قويت ذلك الأساس وصرت احسن القراءة والفهم، ثم جربت جهدي في الترجمة، وترجمت كتاب (رافائيل) للكاتب الشهير لامارتين، والقسم النظري من كتاب (دروس في التربية) للاستاذ كمبايره. وقد اطلع على الترجمة الاولى عمر الفاخوري الذي تعرفت به في بيروت، وشهد بأني كنت موفقا. واطلع على الترجمة الثانية ساطع الحصري وهو مشهور في تزمته وشح شهادته وشهد بمثل ذلك واقترح طبعها ملحقا في مجلة كان يصدرها في بغداد في سنة 1925 وتم ذلك. وكان يبقى كمية من مطبوع الملحق فجمعها وجعل منها بضع مئات لكتاب ارسل الي بعض نسخه. وما تزال نسخة منها محفوظة في مكتبتي.. اما الترجمة الاولى (رافائيل) فلم اطبعها لأن الكتاب كان قد ترجم وطبع في مصر على ما علمت بعد ذلك. ورغم انقطاعي الطويل فما زلت استطيع ان اقرأ في أي كتاب افرنسي وان افهم 20 ـ 30٪ مما أقرأ وإن كان الحديث علي فيها صعباً، وكان صعباً عليّ من قبل أيضا.

اما العربية فكان حظنا منها في المدرسة تعلم القواعد وحفظ بعض قصائد من الشعر القديم، وبعض المقطوعات النثرية الادبية القديمة. وكنت اثناءالمدرسة اقرأ كتبا عربية متنوعة روايات وغير روايات، وبعد المدرسة واظبت على ذلك باستمرار، واستطعت أن اقرأ كثيرا مما وقع لي في برهة السنين العشر التي قضيتها في نابلس بعد تخرجي من المدرسة، وقبل ان اخرج منها موظفا الى بيروت سنة 1914م من كتب قديمة وحديثة وادبية واجتماعية ونثرية وشعرية. وقد واظبت فترة ما على مجلس تعليم عربي كان يعقده الشيخ موسى القدومي في مرستان الجامع الكبير، فكان ذلك من اسباب تمكني من القواعد حتى صرت بذلك كله احسن القراءة والكتابة العربية مبكرا، وقد ولعت بما كان ينشره (المؤيد) المصري للمنفلوطي من نظرات، حتى كنت انسخها في كراسات خاصة، وكذلك بما كان ينشر لمصطفى الرافعي ولشعراء مصر، فأفادني كل هذا واثمر مقالات عديدة كتبتها ونشرت لي في جريدة الحقيقة التي كان يصدرها كمال عباس في بيروت في سني 1910 ـ 1911 في مواضيع ادبية واجتماعية وسياسية. كما كتبت رواية وفود النعمان على كسرى انو شروان التي اقتبست فكرتها من كتاب الكواكبي (ام القرى)، والتي قرأت نصها في الأغاني وطبعتها في بيروت سنة 1911 ايضا، وظل ولعي في المطالعة العربية والكتابة العربية مستمرا، وكان منه ما كان لي منذ سنة 1922 من كتب وكتابات.

اما الفارسية فلم يكن تعليمها جيدا كالإفرنسية، فلم يبق منها الا الأثر الضئيل، بالإضافة الي ان صرت اعرف معنى معظم الكلمات والتركيبات الفارسية التي ترصعت بها اللغة التركية، والتي كانت كثيرة جداً فيها.

* * *



الشهادة الاعدادية العثمانية بنجاح محمد عزة دروزة سنة 1321هـ

الشهادة الابتدائية العثمانية بنجاح محمد عزة دروزة سنة 1314هـ

الفصل الثاني

من تخرجي من المدرسة الإعدادية الى آخر زمن الدولة العثمانية في بلادنا :

تخلفي عن اتمام الدراسة خارج نابلس:

لقد ذهب بعض رفاقي في الصف بعد حصولهم على الشهادة الى بيروت والآستانة لاتمام الدراسة الاعدادية والدخول في مدرسة عالية. ومنهم مصطفى البشناق الذي أتم دراسته في كلية الطب في الآستانة وصار طبيباً، وتوفيق النمر الذي أتم دراسته في كلية الحقوق وتأهل ليكون محاميا نظاميا وقاضيا. وكان رفيق التميمي قد ذهب كما ذكرت سابقاً أثناء السنة الى الآستانة ليتم دراسته فيها. وممن كان من رفاقي وذهب الى الآستانة صدقي ملحس، الذي درس الطب، ورضوان ملحس الذي درس الحقوق، وعوني عبد الهادي الذي دخل في المدرسة الملكية العالية، وأحمد قدري الترجمان الذي كان والده ضابطا في نابلس وغيرهم.

وكان قبل وصولي الى السنة الخامسة وتخرجي من المدرسة قد تخرج ثلاثة أو أربعة أفواج منها، ومنهم من ذهب أيضا الى بيروت والآستانة. وكان بعض طلاب المدرسة الرشيدية في بنايتها القديمة قد أتم الدراسة فيها، وذهب كذلك الى بيروت والآستانة.

التحاقي بدائرة البرق والبريد:

وكانت حالتنا المادية لا تسمح على الأرجح بإرسالي، لأن الطالب كان يكلف أهله في السنة ما لا يقل عن خمسين ليرة ذهبية. وكان هذا المبلغ كبيرا بالنسبة لحالة أبي. وقد خطر لباله أن يلحقني بعمل حكومي، بعد أن نجحت في المدرسة نجاحا باهرا، فكان حظي الالتحاق بدائرة البرق والبريد تلميذا بدون أجر للتمرن والتدرب. ويسمون التلميذ بالتركية (شاكرد)، وكان في نابلس تركي اسمه صائب أفندي وظيفته تلقيح مصل الجدري معمم، وكان يتردد على أبي ففاتحه في أمري، فاقترح عليه الحاقي بتلك الدائرة، وقال إنه يعرف المدير ويستطيع أن يكلمه ويجعله يقبلني (شاكردا). وكان هذا المدير تركيا مثله اسمه عثمان أفندي وجهه مجدر وعيونه حولاء فيها بياض، وذو لحية كثة ووجه أسود. وكان ذا عقل وحصافة، وكان له مركز محترم بين أقرانه الموظفين بسبب ذلك. وقد كلمه ووافق والتحقت بالدائرة بالصفة المذكورة بعد نحو شهرين من تخرجي من المدرسة (1321هـ) (1903م).

جهدي لتلافي ما فاتني من الدراسة:

ولقد كان الطلاب الذين يذهبون الى بيروت والآستانة يأتون في عطلة الصيف، فيكون لهم موسم في نابلس يذهب الناس للسلام عليهم ويسمعون منهم الاحاديث عن مدارسهم وحياتهم.. ولقد كنت أنا متفوقا في المدرسة فحفزتني حالتهم على تلافي ما ضاع علي من

فرصة اتمام الدراسة في المدارس مثلهم، بالقراءة والمطالعة والدراسة، وكنت وأنا في المدرسة بدأت أقرأ روايات وكتب أخرى في أوقات الفراغ والعطل، حتى لقد كان جدي وإخوته وأبناء عمه الكبار حينما يسهرون يستدعونني لأقرأ لهم بعض الكتب والقصص. وكان في نابلس دكان للشيخ صالح الخفش فيها كتب وروايات للأجرة، فكنت أستأجر منه وأقرأ. وبعبارة أخرى كان عندي رغبة واندفاع للقراءة قبل تخرجي من المدرسة، فاندفعت بعدها بذلك الحافز وصرت أقرأ ما يقع في يدي من كتب مختلفة عربية وتركية وأدبية وشعرية وتاريخية وروايات ورياضيات وحقوق واقتصاد. . . الخ. وصرت في موسم مجيء الطلاب من الخارج أذهب للقائهم سواء من كنت أعرفه ومن لم أكن أعرفه قبلا، وأتداول معهم الأحاديث المتنوعة وأسمع منهم وأسمعهم. وكان ذلك أحيانا في حضور آبائهم وغيرهم، حتى لقد كنت ندا لهم بل ومتفوقا على بعضهم مما كان يرضي غروري ويسد ما أجد من ثغرة سوء حظي في عدم ذهابي لإتمام الدراسة خارج نابلس.

استطراداً الى ذكر من كنت التقي بهم من الشباب:

واستطرد فأقول إن أكثر من كنت التقي بهم من الطلاب العائدين من الخارج في أوقات العطل قبل الدستور وبعده، وأتداول معهم الأحاديث والأفكار أولاد الشيخ راغب التميمي، وكانوا خمسة أكبرهم أمين وهو يكبرني بنحو ست سنين، ومحمد علي ويكبرني بسنتين أو ثلاث، ورفيق وكان من سني، وزكي وكان أصغر بسنتين أو ثلاث، ورشدي وكان أصغر بعشر سنين، وكان أبوهم متفتحاً. وقد أرسل أولاً أكبرهم، ثم أرسل في السنة التالية محمد علي، وأرسل معه شقيقة له استأجر لهم بيتاً وأخذت ترعاهم ووفرت كثيراً من المصروف، فحفز ذلك الشيخ على إرسال رفيق ثم زكي ثم رشدي قبل أن يتموا الدراسة في المدرسة الاعدادية في نابلس، وأكثر ما كان لقائي وأحاديثي مع محمد علي ورفيق وزكي لتقاربنا في السن، وكان بيتهم قريباً من دكان أبي، وكان في بيتهم غرفة ديوان تحتانية فكنت أتردد عليهم حينما يعودون من العطلة.

أمين التميمي:

أما أمين فقلما تداولت معه قبل الحكم الفيصلي في دمشق، لأنه أكبر مني ببضع سنين، ولقد تخرج هو من المدرسة الملكية التي تؤهل خريجيها للوظائف الادارية، ثم صار معاوناً للوالي، ثم قائم مقام في أماكن عديدة في بلاد العرب والترك، ثم مفتشاً ملكياً.

وحينما انتهت الحرب جاء الى دمشق واندمج في حركتها الجياشة الفيصلية العربية وعين مساعداً للحاكم العسكري رضا باشا الركابي، ثم صار يعين معاوناً لرئيس الوزارة حينما صار الحكم مدنياً استقلالياً الى أن انتهى حكم العهد الفيصلي على ما سوف نشرحه بعد فعاد الى نابلس. وكنا في دمشق إبان هذا العهد قد تعارفنا وتصادقنا وتعاونا، واستمر ذلك حينما اجتمعنا في نابلس بعد العودة واندمجنا معاً في الحركة الوطنية ضد الانكليز والصهيونية، واستمر تواثقنا وتعاوننا الى آخر حياته. وكان فيه شيء من الرسمية والصرامة والجفاء والرغبة في فرض الرأي وشيء من الحدة، والراجح أنه كسب ذلك من الوظائف الإدارية التي مارسها في عهد الدولة العثمانية، وكانت وظائف رأسية

على مرؤوسين. وقد اختير في سنة 1921 من المؤتمر الفلسطيني الرابع عضواً في الوفد الفلسطيني الأول الى لندن، ثم صار عضواً في المجلس الاسلامي الشرعي الأعلى. ولما انفجرت ثورة فلسطين ثانية في خريف سنة 1937 ووضعت حكومة فلسطين الانكليزية يدها على المجلس، عزلته مع الحاج أمين الحسيني ومعي، وكنت مديراً عاماً للأوقاف، وأبقت الأعضاء الموالين لها.

ومنذئذ انضم الى الحاج أمين وذهب مع الوفد الفلسطيني سنة 1939 الى لندن. ولما نشبت الحرب العالمية الثانية سافر مع الحاج أمين الى العراق، ونشبت في العراق أثناءها ثورة عرفت بثورة رشيد عالي الكيلاني، وكان الحاج أمين وأمين التميمي والفلسطينيون مندمجين فيها لأنها كانت ضد الانكليز. ولما استطاع الإنكليز بمساعدة الأمير عبد الله اخماد الثورة طاردوا مع الحكومة العراقية التي كانت موالية لهم الفلسطينيين، وصاروا يعتقلون من يقدرون على اعتقاله. واعتقلوا أمين التميمي ونفوه هو وجمال الحسيني، ومعهم ناجي السويدي وأمين رويحة الى روديسيا في جنوب أفريقيا، وكانت مستعمرة لهم، وتوفي هناك سنة 1943 ودفن رحمة الله عليه.

محمد علي التميمي:

ولم أر محمد علي بعد تخرجه من مدرسة الحقوق إلا في دمشق في العهد الفيصلي، وكان قد عين بعد تخرجه في وظائف قضائية متنوعة، ثم جاء الى دمشق في هذا العهد، وعين مديراً للأمن العام. وتوثقت الصداقة بيننا واستمرت، ولما سقط العهد الفيصلي جاء الى حيفا وسكن فيها وفتح مكتب محاماة. وكان يبذل جهده في الحركة الوطنية دون اندماج شديد، وكانت أخلاقه رضية، وقد توفي قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية رحمة الله عليه.

زكي التميمي:

وتخرج زكي من المدرسة الملكية مثل أخيه أمين، وصار معاوناً للوالي في بيروت، والتقيت به فيها على ما سوف أذكره بعد، وعين في بعض الوظائف الادارية. وبعد نهاية الحرب جاء الى دمشق فعين في وظيفة ادارية (قائمقام)، وكان مشاركاً في الحركة الوطنية في عهد فيصل دون اندماج شديد، ولما سقط هذا العهد جاء الى فلسطين وسكن في حيفا واشترك مع أخيه في المحاماة، ثم عينته الحكومة قاضياً. وبعد النكبة جاء الى دمشق وسكن فيها واندمج بعد ذلك في الحركة الوطنية خارج فلسطين مع الهيأة العربية العليا التي كانت برئاسة الحاج أمين الحسيني. وكان أخوه رفيق ممثلاً لهذه الهيئة في دمشق، فلما مات حل محله فيها. ثم انتقل الى بيروت وظل يشتغل في سبيل الحركة مع الحاج أمين في نطاق الهيئة العربية العليا الى أن توفاه الله سنة 1973 رحمة الله عليه.

رفيق التميمي:

أما رفيق فقد ذهب الى فرنسة قبل أن يأخذ شهادة مدرسة عالية من الآستانة، ضمن بعثة حكومية عثمانية، وانتسب الى كلية التاريخ والأداب في جامعة السوربون، وحصل على إجازة فيها واشترك وهو في باريس مع بعض شباب العرب في تأسيس جمعية (العربية الفتاة) السرية القومية العربية الاستقلالية الوحدوية التي كانت وراء مؤتمر باريس العربي، وكان لها نشاط سري قوي واسع، وانتسب اليها عشرات

من شباب العرب القوميين، ثم كان لها نشاط قوي في عهد فيصل في دمشق، وقد كتبنا نبذة مفصلة عن نشوء الجمعية وعن المؤتمر العربي في باريس في كتابنا (نشأة الحركة العربية الحديثة)، فلم نر ضرورة الى تكرار شيء كثير عنها هنا. وقد عاد رفيق بعد أخذه الاجازة الى البلاد العثمانية وعين مديراً لمدرسة ثانوية تجارية في بيروت.

والتقيت به فيها مراراً لأني عشت فيها سنتين متواليتين 1916 ـ 1918، وكان عضواً في الهيأة المركزية لجمعية الفتاة السرية، وأعرف أن أخويه زكي ومحمد علي كانا انتسبا الى هذه الجمعية قبل نهاية الحرب العالمية الأولى، والراجح أن ذلك بترشيحه. أما أمين فإنه انتسب الى الجمعية في عهد فيصل.

وفي أواخر الحرب العالمية انتقلت الهيأة المركزية الى دمشق وانتقل هو اليها. وخرج فيها مع بعض رفاقه ملتحقاً بالأمير فيصل الذي كان يقود كتائب الثورة العربية الهاشمية الشمالية، وبعد بضعة أسابيع عاد مع هذه الكتائب ومع فيصل الى دمشق، وعينه فيصل ممثلاً له لدى سلطات الاحتلال الإفرنسية في بيروت، وكان حصل على توكيل من مدينة الخليل ليكون ممثلاً عنها في المؤتمر السوري العام. ولكنه لم يشترك وينشط فيها كثيراً. وكان عضواً في الهيأة المركزية لجمعية الفتاة، وكنت أنا أيضاً عضواً فيها وسكرتيراً لها، فتعاونا تعاوناً وثيقاً، وكان نشيطاً متحمساً صلبْ المواقف، وبعد سقوط حكم فيصل عاد الى فلسطين مع من عاد، واشتغل في الكلية الإسلامية التي أنشأها المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى في القدس، ثم عين من قبل حكومة الانتداب مديراً للمدرسة الثانوية في يافا، ففتر نشاطه الظاهري في الحركة الوطنية. ولكنه ظل مشاركاً ملماً بها.

وقد ظل في هذه الوظيفة الى ما بعد الحرب، ثم انتدب عضواً في الهيأة العربية العليا لفلسطين سنة 1946 وكنت أنا أيضاً فيها، واستقلت أنا منها لأسباب سوف ترد فيما بعد، وظل هو متعاوناً فيها مع الحاج أمين رئيسها.

وعين ممثلاً لها في دمشق، وظل في هذا العمل الى أن توفاه الله سنة 1954. رحمة الله عليه. وكان أفقه العلمي ونشاطه العلمي والسياسي والقومي أوسع من أخوته، ولقد عهد اليه والي بيروت عزمي بك مع رفيق له من حلب اسمه بهجة، بكتابة كتاب عن سورية الطبيعية أي ما يسمى اليوم سورية ولبنان والأردن وفلسطين تاريخياً وجغرافياً واجتماعياً واقتصادياً. وتولى هو كتابة القسم التاريخي والجغرافي، ورفيقه القسم الآخر، وكان الكتاب جزئين، وكتب المؤلفان كتابهما باللغة التركية وترجم الى العربية بقلم آخر، وجاء كتاباً شاملاً فريداً في بابه. وله كتاب في الحروب الصليبية ولعل له مؤلفات أخرى.

رشدي التميمي:

بقيت كلمة عن رشدي الأخ الخامس والأصغر لإتمام الحلقة، فلقد تخرج هذا طبيباً في أواخر الحكم العثماني. وبعد قليل سقطت فلسطين في يد الاحتلال الانكليزي، فجاء وسكن حيفا الى جانب أخويه محمد علي وزكي وفتح عيادة طبية فيها. وكان له نشاط ومشاركة في الحركة الوطنية فيها. وبعد النكبة خرج من فلسطين ثم عين طبيباً في السعودية ثم تقاعد وسكن بيروت، وصلاتي به قليلة سابقاً ولاحقاً. وينسب بعضهم الى الأخوة الخمسة حب

المسايرة مع من يشتغلون معه اذا كانوا أصحاب قوة ونفوذ، ومع أن فيَ هذا شيئاً من الصحة إلا أن هناك مبالغة في ذلك، ولم يصل الأمر فيهم الى انحراف ما عن الخط القومي والوطني من جهة أخرى على كل حال.

حسني اسكندر عبد الهادي:

ومن أولئك الشباب حسني اسكندر عبد الهادي، وكان قد تخرج من كلية الحقوق في الآستانة وكان ألمعيا حجاجا[1] يحسن الكتابة في اللغة التركية واللغة العربية ويكتب مقالات في حقوق الدول وعلم السياسة في صحف تركية وعربية. ولا أعرف يقيناً أنه تقلد عملاً حكومياً أو ألف كتباً وطبعها. وكان بيت أبيه قرب بيت الشيخ راغب التميمي، وكان فيه غرفة ديوان تحتانية، فكان الشباب يلتقون معه فيها وتنعقد بهم معه ندوة علمية وسياسية. وكنت من المترددين عليه بدوري والمعجبين به وهو يكبرني ببضع سنين، وقد توفي رحمة الله عليه في حيفا في الثلاثينات. واشتغل في حيفا بالمحاماة، وكان يكتب بعض المقالات الانتقادية، ولم أعرف له أي نشاط اندماجي في العمل السياسي بعد الاحتلال.

صالح الصمادي:

ومنهم صالح الصمادي، وقد تخرج من كلية الحقوق في الآستانة، وكان له نشاط حماسي في سبيل الحركة العربية أثناء دراسته، واشترك في تأسيس المنتدى الأدبي. وكان يكتب مقالات قومية في مجلة لسان العرب التي كانت تصدر في الآستانة، وفي الصحف العربية الأخرى. وكان شديد الحماس للعروبة حتى كان رفاقه يسمونه (شيخ العرب)، وكان له جهد قوي في زمن الحكم العثماني ضد النشاط الصهيوني، كان ينم عن إدراك المخاطر للحركة الصهيونية. وصار ضابط احتياط في الحرب العالمية الأولى، وتعرض لمطاردة الأتراك فهرب والتحق بالثورة الهاشمية العربية، وتعرض بسبيل ذلك لمخاطر جسيمة. ثم جاء الى دمشق وعمل موظفاً في العهد الفيصلي. وبعد هذا العهد جاء الى الأردن، وظل شديد الحماس للقومية العربية والحركة الوطنية، وشارك في النشاط الوطني واشتغل موظفاً، ولكن ذلك لم يخفف حماسه ونشاطه وتعرض بسببه للمطاردة في الأردن أيضاً. واشتغل بسبيل ذلك في الصحافة الأردنية. وكان خطيباً حماسياً وشاعراً وكاتباً وحجاجا. وقد توفي في سنة 1933 في الأردن بضربة غادر لئيم في ليلة من الليالي، دبرها له أعداءه أعداء العروبة والقومية الوطنية رحمة الله عليه.

رشدي ملحس:

ومنهم رشدي صالح ملحس، وكان من شباب المنتدى الأدبي، وهو لم يتمم دراسة جامعية، وشارك في اصدار وتحرير جريدة (الاستقلال) بدمشق في العهد الفيصلي. وهو قومي وطني مخلص دؤوب، وان لم يكن في درجة الصمادي في الأدب والعلم والشعر والخطابة والحماس. وقد جاء الى نابلس وأقام فيها واشتغل في إحياء النادي العربي فيها في زمن الاحتلال الإنكليزي، ثم التحق بالملك عبد العزيز الى السعودية، وصار كاتباً خاصا محظيا عنده الى أن توفاه الله تعالى في الخمسينات رحمة الله عليه.

يوسف عبد الكريم عبد الهادي:

ومنهم يوسف عبد الكريم عبد الهادي، وكان

---

(1) حجاجاً: صاحب حجة ومنطق.

يدرس في المدرسة السلطانية في الآستانة، ونال شهادتها، وليست هي مدرسة جامعية على ما بقي في ذاكرتي. وكان يجيد الافرنسية بالاضافة الى التركية والعربية، ويكتب بعض المقالات الأدبية والسياسية في الصحف والمجلات. وكان ألمعياً حجاجاً، ولكنه لم يكن قوي الإحساس والاندماج في الحركة العربية التي كانت قوية بعد اعلان الدستور، مقابل ما كان من قوة النعرة التركية والرغبة عند القوميين الترك في الاستعلاء العنصري، على ما شرحته في كتاب (نشأة الحركة العربية الحديثة)، وكانت أمه تركية. وكان أبوه صاحب مركز بين الناس وديوانه عامر. وكنت أتردد عليه وألتقي بيوسف وأتداول معه أنا وغيري من الشباب في جانب من الديوان، وكان يميل الى الأبحاث الفلسفية ويصطنع أفكار فلاسفة الغرب وأقوالهم، وقد اختلف هو وأخوته على مسائل الميراث بعد ابيهم فقتله أحدهم، وأظن أن ذلك كان سنة 1933.

حافظ كنعان:

ومنهم حافظ كنعان، وقد درس بدوره الطب في الآستانة وتخرج طبيباً، وهو أصغر مني قليلا، وقد تصادقنا في أثناء دراسته وكنا نلتقي في العطل ونتكاتب حينما كان يسافر الى الآستانة. وكان نشيطاً ذكياً ذا روح قومية عربية ذواقة للأدب أيضاً. وفي أثناء الحرب صار طبيباً في الجيش، وبعد نهاية الحرب جاء الى نابلس وفتح عيادة وصار من أعمدة الحركة الوطنية فيها، وكانت عيادته مركزاً من مراكزها، وكان ممن انتسب الى جمعية الفتاة العربية أثناء الحرب، وكنت أنا كذلك، وكنت في بيروت حين احتل الانكليز نابلس، فعدت منها وجددنا عهد الصداقة الوثيقة والتقينا في نطاق جمعية الفتاة في نفس الوقت، وتعاونا تعاوناً وثيقاً، وقد توفاه الله سنة 1920 وأنا في دمشق ابان العهد الفيصلي رحمة الله عليه.

رؤوف قاسم عبد الهادي:

ومنهم رؤوف بن قاسم عبد الرحمن عبد الهادي، وهذا أيضاً صار صديقا حميما لي نلتقي كثيرا أثناء العطل، ونتكاتب، وكان ذكياً حجاجا، وأظن أنه لم يتمم دراسة عالية، وقد التحق بالثورة الهاشمية التي نشبت في حزيران عام 1916 ضد الدولة العثمانية على ما سوف أشرحه بعد، ولكن لم يبرز ولم ينشط، وعاد الى فلسطين وأقام فيها دون بروز ونشاط. وبالمناسبة أذكر أن أبا رؤوف قاسم عبد الهادي كان ألمعياً ملماً بالسياسة يحب الكلام فيها. وكان ابنه الكبير روحي قد تخرج وعين قنصلاً في أوديسا فكان يأتي الى البوسطة ليودع له رسالة ويتلقى رسالة، ويجلس عندي حينما صرت مأموراً للبريد، حتى صار بيني وبينه صداقة ما رغم ما كان ذلك من فارق السن الكبير بيننا. ولكنه لم يكن شديد الحماس ولا ذا نشاط في الميدان الوطني العربي.

مصطفى البشناق:

ومنهم مصطفى البشناق الذي كان في صفي ومن رفاقي الخصوصيين، وقد تخرج من كلية الطب وصار طبيباً موظفاً في زمن الدولة العثمانية، وفي زمن الاحتلال الانكليزي فتح عيادة واشتغل في الطب وكنا أصدقاء في المدرسة، وكنا نلتقي كلما عاد ونتحدث. واندمجنا معا في زمن الاحتلال الانكليزي في الحركة الوطنية، وكنا منسجمين متعاونين متواثقين في النشاط الوطني. وكان صلبا قوياً ذا

عواطف اسلامية، فإنه ليس عربيا في أصله، وأبوه جاء من بلاد البشناق في زمن الدولة العثمانية مع جماعات من البشناق حينما استولت النمسا على هذه البلاد التي كانت من بلاد الدولة العثمانية، حيث أنفوا أن يكونوا تحت حكم النمسا غير المسلمة. وقد أقطعت الدولة الجماعة التي جاءت الى نابلس أراضي قرية يانون، وكان أبوه من جملتهم أو من رؤوسهم، وكنية عائلته (لقشيش)، وأنزلت الدولة جماعة أخرى من البشناق في اراضي قرية قيسارية التابعة لحيفا. وكان من عمدة مدرسة النجاح التي صرت مديراً لها، وكان يعضدني ويؤيد مطالبي. وقد صرت بعد مديرية المدرسة مأموراً للأوقاف ثم مديراً عاماً للأوقاف، فعينه المجلس الاسلامي خلفاً لي في مأمورية الأوقاف. وقد ظل أثناء الحرب مبعداً إلى مصر، ثم عاد إلى نابلس، وكان نشيطاً أميناً وبقي صلباً في مواقفه الوطنية، وبعد النكبة بقي في نابلس التي ضمت الى المملكة الأردنية الهاشمية وصار عضواً في المجلس النيابي الأردني، وظل مع ذلك على خط وطني مستقيم، واشترك في المؤتمر الفلسطيني في حزيران 1964 الذي انبثق عنه منظمة التحرير الفلسطينية، وكان مؤيدا لها وظل على نشاطه واستقامته الى أن توفاه الله سنة 1971 رحمة الله عليه.

صدقي ملحس:

ومنهم صدقي ملحس، وقد تخرج بدوره طبيباً في أواخر عهد الدولة العثمانية، وكنت ألتقي به وأتداول معه أثناء العطل، وكان ذا روح عربية قومية، وعرفت فيما بعد أنه كان ممن ينتسب الى جمعية الفتاة، وقد فتح عيادة في نابلس أثناء الاحتلال الإنكليزي، وتوثقت الصلة بيننا وكان صلباً في مواقفه، وكان حاد الطبع شديد التزمت والتشاؤم.

حسن المحمد الداود عبد الهادي:

ومنهم حسن بن محمد الداود العبد الهادي، وكان درس مدة في الآستانة ثم ترك وأقام في نابلس بقية أيام الدولة العثمانية، وكنا نلتقي كثيراً وكان ذكياً أنيقاً، ولكنه لم يكن ذا نشاط وحماس قومي.

شباب آخرون:

وكان هناك شباب آخرون من جيلي كانوا يدرسون في مدارسة الآستانة ويعودون في العطل فألتقي بهم وأتداول الأحاديث معهم، ولكن لم تتوثق صلة صداقة حميمة بيني وبينهم، منهم رضوان ملحس، وعبد الغني الجوهري، وتوفيق النمر، وعبد الغني صادق عبد الهادي، وكلهم تخرجوا من مدرسة الحقوق وصاروا قضاة ثم محامين في نابلس في زمن الدولة العثمانية والاحتلال الإنكليزي، وماتوا في وقت مبكر بعد هذا الاحتلال رحمة الله عليهم.

بعض أسماء الجيل الأكبر مني:

وكان هناك جيل أكبر من جيلي درس وتخرج من الآستانة، منهم بشير الشرابي، وعلاء الدين حلاوة، ووجيه زيد، وعبد الفتاح ملحس، ومحمد فاش، وزهدي الخماش وغيرهم. وكانوا يأتون في العطل ولكن لم أكن ألتقي بهم بسبب فارق السن، ولم يكن لأحد منهم نشاط وحماس وبروز في مجال الحركة العربية التي كنا نلتقي في مجالها مع أناس أكبر منا، مثل إبراهيم القاسم، وحسن حماد، والشيخ نمر

الداري الذين مر ذكرهم.

تنبيه على أن ما كتبته عنهم هو انطباعات وليس تاريخاً وثائقياً.

هذا وأرى من واجبي أن أنبه على أن ما سردته من أحوال وصفات وسيرة الذين كنت ألتقي بهم أو أعرفهم هو انطباعات في ذهني وذاكرتي ومواقفي معهم أو صلتي بهم. وأنه قد لا يكون احتوى على كل ما ينبغي أن يقال أو يسجل عنهم مما لم أكن أعرفه ولم أر ضرورة الى ايراده. فأنا لا أكتب تاريخاً وثائقياً وانما مذكرات. وما أوردته عنهم هو من هذا الباب. وما قلته ينسحب على كل من ورد ذكرهم من أشخاص في هذه المذكرات سابقاً ولاحقاً، رأيت أن أكتب لأسباب مختلفة وأذكر انطباعاتي عنهم ومواقفي معهم أو صلتي بهم. وأرجو القارىء أن يتذكر ذلك كلما قرأ ما كتبته عن أحوال الأشخاص ومواقفهم وسيرتهم.

***

تعلمي استقبال واعطاء الكلام على الآلة البرقية وشيء عن ذلك:

بعد هذا الاستطراد أقول إني حينما دخلت دائرة البرق بدأت بتعلم الدق على الآلة المبرقة. وقد أعطوني قبل ذلك أبجدية الحروف البرقية الرمزية، وهي أبجدية من وحدات تتألف من نقاط وخطوط كل وحدة ترمز الى حرف. فالألف مثلاً هو نقطة وخط (.ـ)، والباء (ـ. . .)، والتاء (. ـ ـ)، والحاء (. . . .)، والدال (ـ. .) الخ. على ما بقي في الذاكرة، وكانت الرموز تسمى رموز مورس نسبة الى عالم اخترعها حينما اخترع الآلة المبرقة التي تسمى باسمه أيضاً. والموظف يجلس أمام ماكنة، وعلى بعد قليل أمامها آلة تشبه الشاكوش على خشبة، فيحركها بيده رفعاً وانزالاً، وإذا أراد أن تكون الحركة (نقطة) دق بسرعة رفعاً وانزالاً. واذا أراد أن تكون (خطاً) كبس أكثر. وهذه الآلة متصلة بالأسلاك الممتدة بين بلد وآخر. وبسبب ذلك تحرك حالاً في البلد الآخر الماكنة التي أمام الموظف بدقات الخطوط والنقاط، فيسمعها ويسجلها بسرعة بحروف عادية، ويؤلف جملها بذلك، التي قد تكون عربية وقد تكون تركية، لأن الرموز هي لحروف فقط.

وعلى الماكنة جهاز دولابي ملفوف عليه شريط رفيع أزرق، فيدور هذا الدولاب ويدخل الشريط في طباعة تطبع الرموز المدقوقة خطوطاً ونقاطاً فيقرأها الموظف وينقلها كلمات عادية، وتحفظ هذه الأشرطة أياماً في لفائف للمراجعة اذا اقتضى الأمر. والماهرون لا يستعملون الأشرطة، ويحولون الخطوط والنقاط التي يسمعونها الى كلمات مباشرة بعد سماعها. وقد حفظت الرموز في برهة أسبوع حفظاً تاماً، ثم أخذت أتمرن على دقها، ثم أخذت أتمرن على سماع الدق الآلي من البلد الآخر. وفي برهة شهرين صرت أستطيع الإرسال (الدق) والاستقبال معاً، وصرت ماهراً ومستغنياً عن ادارة دولاب الشريط، وأتلقى الدقات وأحولها مباشرة الى كلمات أسجلها على الورقة التي كانت ورقة رسمية في نموذج مطبوع. وكان الماهرون يدقون أو يتلقون في الدقيقة عشرين كلمة وصرت منهم أيضاً في برهة شهرين آخرين. وصار المأمورون الموظفون يعتمدون عليّ في العمل البرقي اعتماداً كلياً، وكنت أنجز عنهم كثيراً من عملهم.

أما التيار الكهربائي الذي كان يمد الآلة المرسلة والآلة المستقبلة، فكان يحصل من تركيب كيماوي. ولقد كان في كل مركز برق

صندوق خشبي كبير توضع فيه أقداح مربعة زجاجية كبيرة بين الثلاثين والخمسين، يتسع الواحد منها ليترين ماء، فتملأ الأقداح بالماء ويوضع في ماء كل قدح قبضة من النشادر البيضاء، ويوضع في كل قدح لوحتان سوداويتان هما في الغالب تركيب كيماوي موصل كهرباء، وفي رأس كل منها شريط نحاسي يربط كل قدح بالقدح الذي قبله، والقدح الذي بعده. ويكون في رأس آخر الأقداح شريط يربط به الآلة المرسلة من جهة والآلة المستقبلة من جهة أخرى، فيتم التفاعل الكهربائي وتشتغل الآلات وتغسل الأقداح كل أسبوع أو أسبوعين، ويزال ما علق على جدرانها من النشادر، ثم يجدد ماؤها ونشادرها وهلمجرا.

وكانت الأسلاك الممتدة بين نابلس وجنين شمالاً، وبين نابلس ويافا غرباً، وبين نابلس والسلط شرقاً. وكان على الجهة الأولى ثلاثة خطوط وعلى الثانية خطان وعلى الثالثة خط. لأن جهة جنين كانت تتصل ببيسان من جهة، وبالناصرة ثم بعكا ثم ببيروت من جهة أخرى، فكان العمل يحتاج الى عدة خطوط في آن واحد. أما جهة يافا فإنها كانت متصلة بالقدس من جهة، وبغزة من جهة أخرى، فكان الخطان يسدان حاجتها. ولم يكن من ناحية السلط الا دمشق، فكان الخط الواحد يسد الحاجة.

وكان على كل خط من الخطوط الثلاثة الممتدة إلى بيت جنين ويافا والسلط (شاويش) لإصلاح الخط حينما يعطل، وكثيراً ما كان التعطل في موسم الشتاء، فيركب الشاويش دابة على نفقته ويذهب للبحث عن محل الخراب وإصلاحه. وكان مرتب شاويش جهة جنين ثلاثمائة قرش، ومثله جهة يافا، ومرتب جهة السلط (250). وربما خرج الشاويش في شهور الشتاء ثلاث مرات وأربعاً في الشهر أو أكثر أحياناً. أما في شهور الصيف فقد يمر شهر أو اثنان دون خروج.

وكانت أجرة البرقيات بالكلمات، وأجرة الكلمة في داخل الولاية ربع قرش، ويكون الحد الأدنى للبرقية خمسة قروش، ولو كانت أقل من عشرين كلمة. وكانت أجرة الكلمة لولاية سورية من مراكز ولاية بيروت ومنها نابلس نصف قرش، والحد الأدنى عشرة قروش، ولو كانت أقل من عشرين كلمة. وكانت أجرة الكلمة للولايات الأخرى ومنها الآستانة قرش واحد، والحد الأدنى عشرة قروش ولو كانت لبرقية أقل من عشر كلمات. وكان بعض التجار يرسلون برقيات الى مصر أيضاً، وكان لها تعرفة خاصة نسيت مقدارها.

وبالممارسة صرت أستطيع أن أفك الآلة المرسلة وأعيدها، وأرسم الآلات وما كان يربط بينها من أسلاك تتلقى التيار الكهربائي، وصار لي مهارات في ذلك، حتى لقد تعطلت ماكنات مركز جنين بسبب الطقس الشتوي الشديد، فأرسلني المدير لإصلاح العطل وأنا تلميذ بدون أجر.

ترشيحي لمأمورية برق في دمشق:

ولقد أعلن في أوائل سنة 1906 أي بعد انتسابي تلميذاً ببضعة أشهر عن وظيفة شاغرة في مركز برق دمشق، فرشحني المدير لها فجاءت موافقة مبدئية وطلب من المدير ارسالي الى دمشق لمواجهة مديرها وامتحاني وتجربتي.

رحلتي مع أبي الى دمشق عن طريق بيروت سنة 1906 وذكريات متنوعة عن هذه الرحلة:

سافرت مع أبي وكان مزمعاً على السفر لعمله التجاري كالمعتاد على ما شرحته قبل. وذهبنا

من نابلس الى يافا، وهذه المرة في عربية لأن الطريق عبدت بعض الشيء بين يافا ونابلس بطريق طولكرم. والعربية التي ركبناها كانت تسمى كروسة أميركانية. وهي ذات قفص خشبي مربع، وفيها مقاعد طولانية ثلاثة يتسع الواحد منها لراكبين أو ثلاثة، ومسقوفة بخشب وتجري على أربع عجلات حديدية، ويجرها حصانان. وقد توقفت فترة في طولكرم ثم في مكان فيه يسمى (الفروخيات) يجري به نهر صغير لإراحة الدواب وإطعامهم، وقد أعطاني المدير مذكرة لوكالة شركة البواخر الخديوية لتعطيني تذكرة سفر مجانية على الباخرة، حيث كان اتفاق بينها وبين دائرة البريد على ذلك. وكان مثل هذا الاتفاق أيضاً بينها وبين شركات بواخر أخرى، ونمت في الباخرة في قمرة نوم فيها أربعة أسرة معلقة لأربعة ركاب، أما أبي ورفاقه فناموا على سطح الباخرة بعد أن فرشوا بعض العباءات والبسط، وهذا ما كان يفعله معظم الركاب توفيراً للأجرة، ولأن أجرة السطح أقل من أجرة القمرة بنحو خمسين في المائة. ووقفت الباخرة في مياه بيروت بعيدة عن الميناء كالمرة السابقة، لأنه لم يكن بعد قد أنشىء رصيف، وجاءت بحارة بيروت بفلوكاتها فنزلنا اليها ووصلنا الى الميناء. ومنها ذهبنا الى ساحة البرج، حيث كانت توجد فنادق عديدة فنزلنا في احداها، وقد كان ذلك ما فعله جدي في سفرته الأولى على ما ذكرت سابقاً.

وقد قضينا بضعة أيام في بيروت اشترى أبي في أثنائها ما يحتاج اليه مخزنه من بضائع. وكانت هذه البضائع في الأغلب منسوجات أوروبية متنوعة الألوان والأجناس، حيث كان تجار بيروت يجلبونها من مصانع أوروبا ويبيعونها لتجار منطقة البلاد الشامية، ومن هذه المنسوجات ما كان للمدنيين ومنها ما كان للقرويين، ومنها ما كان قطنياً ومنها ما كان صوفياً أو حريرياً، ومنها ما كان يصلح للفساتين النسائية والقنابيز الرجالية، ومنها ما كان للسراويل والقمصان والبطانيات والأغطية والعمائم، وهذه كانت إما بيضاء ناصعة تسمى (بفتا)، وإما داكنة تسمى (مالطيّاً)، ومنها رقيق داكن يسمى (منصوريا)، ومنها رقيق أبيض يسمى (يانسا)، وهذا كان للعمائم ووشاحات العجائز. أما الملون فكان مزهراً أو مخططاً، وكان القطني منها الذي يصلح للفساتين النسائية يسمى (يمنياً).

ومن الأقمشة الحريرية نوع بألوان متنوعة بدون خطوط وزهور سميك نوعاً ما كان يسمى (مخملا)، ويصلح لفساتين النساء في المدن وأحياناً في القرى. ومن المنسوجات الحريرية الرقيق الملون المزهر والمخطط الذي كان يصلح كذلك للفساتين. ومن المنسوجات الصوفية نوع رقيق يصلح للفساتين والقنابيز منه المخطط ومنه غير المخطط، ونوع سميك بألوان داكنة يصلح للأردية والجبب والبدلات والسراويل، وكل هذه المنسوجات كانت في وحدات تسمى الواحدة منها (توبا)، ويكون طولها نحو 40 أو 50 متراً أو يردا.

ومن المنسوجات التي كانوا يشترونها المناديل للنساء المدنيات والقرويات يلفون بها رؤوسهن، وكوفيات للقرويين يضعونها على رؤوسهم وفوقها العقال، ولفحات صوفية يضعها الناس في الشتاء على رقابهم وظهورهم، وكانت هذه البضائع تباع بالدزينة. ومما كان يشتريه تجار نابلس من بيروت من المصنوعات الأوروبية أساور نسائية من الزجاج بأشكال ومقاييس متنوعة، وكانت تسمى (غويشيات أو غوايش)،

وجرابات رجالية ونسائية متنوعة الأشكال والمقاييس أيضا. وأقمصة وسراويل جاهزة مصنوعة بالآلات. وكل هذه كانت تباع بالدزينات أيضا.

وقد ذهب أبي الى محل العميل الذي كان يتعامل معه في بيروت واسمه مصباح قريطم، وكان محله في بناية عالية في المنطقة التي تسمى اليوم سوق الأرمن وراء البرج للغرب، وذهبت معه وكان في البناية غرف عديدة فيها أكوام البضائع المذكورة، فاختار منها ما شاء ووضعه في مكان ثم ذهب وذهبت معه الى السوق المسمى بسوق الطويلة، حيث كان فيه مخازن عديدة فيها أنواع كثيرة من البضائع، وقد اشترى أبي منها ما أحب مما لم يجده عند عميله، ودفع ثمن بعضه نقداً وحول ثمن بعضه على العميل حيث كان هذا معتاد. والعميل يدفع للتجار الثمن بعد ثلاثة أشهر، ويحاسب التاجر ويضيف عليه عمولة 3٪، ثم يتقاضى قيمة ما يأخذه التاجر منه وما يحوله عليه من البضائع بدفعات أسبوعية يدفعها التاجر لوكيله في نابلس، وكان وكيله في ذلك الوقت الحاج محمد الشرابي وأولاده، وكان لهم محل تجاري في خان التجار، وكانوا يرسلون ما يقبضونه أسبوعياً الى بيروت ليرات ذهبية في صرر بواسطة دائرة البريد.

وكانت كل البضائع التي يشتريها التجار من بيروت بأنفسهم أو يطلبونها من نابلس بالبوسطة تحزم في بناية العميل من قبل عمال خصوصيين في أكياس من الخيش حزمات مربعة أو مستطيلة بعرض وطول وارتفاع متر ونصف تقريباً، ويكتب عليها اسم التاجر، وتشحن بالبواخر الى يافا فيستلمها وكيل العميل فيها، ويستأجر جمالاً كانت على الأكثر لجماعات من العريش ويسمون (عرائشية)، تحملها وتوصلها الى نابلس فيستلمها أصحابها ويدفعون للجمالة أجرتهم حسب تعريف الوكيل.

هذا وفي أثناء إقامتي في بيروت هذه المرة لاحظت أشياء جديدة لم أرها في سفرتي السابقة مع جدي، أو لم ألحظها، فقد تحسنت الشوارع وبخاصة الطريق الى الميناء، وكانت في المرة الأولى شبه خراب. وكانت الإضاءة بالكهرباء أوسع انتشاراً، وكانت ساحة البرج التي تسمى اليوم ساحة الشهداء أيضاً أكثر عمراناً ونشاطاً. وذهبنا الى قهوة الحاج داوود التي تغدينا فيها. وكانت من معالم ومنتزهات بيروت. ولم يكن ما قام اليوم في جهتها وفي منطقة الزيتونة قربها من مقاه ومخازن وفنادق ومطاعم، حيث كانت المنطقة شبه منعزلة وموحشة، ومن العجيب أن هذه القهوة حافظت على هيكلها القديم وأثاثها البائس مع ما تم من تقدم عظيم في بيروت وفي منطقة القهوة وفي كل شيء.

وما رأيته وكان عجيباً بالنسبة لي المخازن التي كانت تسمى مخازن (عمر أفندي)، أو (اورزدى بك)، وكان في جادة على طريق الميناء في عمارة كبيرة ذات أبواب واسعة ومؤلفة من طوابق، وفيها قاعات ودهاليز عديدة. وكان يباع فيها جميع ما يحتاج اليه الانسان من مصنوعات قماشية ومعدنية وخشبية وفخارية صيني وزجاجية على اختلاف الأنواع والأشكال والمقاييس، وكان لكل نوع من البضاعة قاعة خاصة وموظفون خاصون يبيعون ولا يقبضون، وانما يعطون الفواتير للشاري دون البضاعة ويرسلون البضاعة مع عمالهم لدائرة الصندوق التي هي قريبة من الأبواب، فيذهب الشاري فيدفع ويستلم ما اشتراه. وكانت الأسعار

محدودة ولا مساومة فيها، ولما ذهبت الى القاهرة في سنة 1920 رأيت مثلاً لهذه المخازن وباسمها، ولما ذهبت الى الآستانة في سنة 1941 رأيت مثيلاً لها وباسمها أيضاً، حيث كانت مخازن لشركة كبيرة أجنبية والغالب أنها يهودية، دامت مدة طويلة فعالة، وقد كثر نوع هذه المخازن في المدن الكبرى، وكانت نادرة وعجيبة في زمننا الأول.

وكانت دائرة البرق والبريد حينما جئت الى بيروت هذه المرة في مكان قديم مهلهل في المنطقة التي فيها الآن تمثال رياض الصلح، ثم نقلت الى بناية كبيرة في ساحة البرج مؤلفة من طوابق عديدة، وهي التي اشتغلت فيها حينما نقلت وظيفتي في سنة 1916 إلى بيروت على ما سوف أذكره لاحقاً. ومما لحظته أيضاً أن تجار بيروت كانوا يذكرون أسعار بضاعتهم كلمة واحدة، ولا يقبلون مساومة، ويقولون أنها أسعار محددة ويسمون ذلك (بريفيكس)، وقصارى ما كانوا يقبلون به نتيجة الحاح المشترين وعاداتهم في السوم تنزيل واحد أو اثنين في المائة، ومقابل الدفع نقداً أو شراء كمية مهمة من البضاعة.

وبعد أن قضينا أياماً في بيروت وأتم أبي ورفاق رحلتهم من مشترياتهم، سافرنا الى دمشق بالسكة الحديدية التي قطعت المسافة في نحو ثماني ساعات، وكانت أبواب مخادع القطار التي يجلس فيها الركاب تفتح رأساً على الافريز، فيدخل منه الراكب الى المخدع أو يخرج منه الى الشارع، ولم يكن للقطار مدخل عام وممر أمام المخادع، كما هو المعتاد في القطارات الحديثة. ومن العجيب أن هذا النوع من القطارات لا يزال مستعملاً الى الآن على خط سكة الحديد بين دمشق وبيروت.

وفي دمشق نزلت أنا وأبي وعم أبي الحاج عبد الله وابن عمهم الحاج محمود، وكانوا معنا في الرحلة، في بيت عطا أبي الراغب دروزة، وقد ذكرت قبل أن الراغب وأباه هاجرا الى دمشق وفتحا محلاً للبقالة فيها، وكانوا يسكنون في بيت شامي في ناحية العمارة. وثاني يوم ذهبت أنا وأبي الى دائرة البرق والبريد، وكانت في ساحة المرجة، وقدمنا الكتاب الذي معنا للمدير فأمر هذا أحد كبار موظفي البرق بامتحاني فامتحنني في الإرسال والاستقبال، ونلت اعجابه بمهارتي، وحينئذ أخبر المدير أبي بأنه قرر تعييني مأموراً للبرق في مركز دمشق بمرتب أربعمائة قرش، وكان هذا المرتب جيداً في ذلك الوقت. وكان كثير من الموظفين لا يحصلون الا على مرتب بثلاثمائة قرش أو أقل قليلاً، وذهبنا من دائرة البرق على أن أعود وأستلم عملي في نوبة ثاني يوم. وقد استأجر لي أبي غرفة في خان (علي باشا) واشترى فرشة ولوازمها وبعض اللوازم الاخرى. وفي اليوم التالي ذهبت واستلمت العمل في نوبة، حيث كان موظفو البرق فريقين يبقى كل فريق طوال (24) ساعة في المركز في الشغل، ثم يخرج فيستريح (24) ساعة ويحل محله الفريق الآخر. وقد سلمني كبير المأمورين خط المدينة المنورة. وأخذت أتلقى من مراكزها البرقيات، وكان أكثرها من قائد الجيش للقيادة العامة في الآستانة العاصمة، أو من محافظة المدينة لوزير الداخلية أو الصدر الأعظم في الآستانة كما كان أكثرها بالأرقام التي كانت تسمى شيفرة، وكان كل رقمين يقابل حرفاً. والأرقام متعددة (675) مقابل الياء و(966) مقابل الخاء وهلمجرا. وكانت أحياناً خمسة أرقام وأحياناً رقمين. وكان للشيفرة مفتاح محفوظ عند كل دائرة مرسلة

ودائرة مستقبلة من دوائر الحكومة في العاصمة والملحقات.

وكان لكل مفتاح اسم خاص يذكر في اول البرقية، ومن ذلك (برق الشمس) و (الكوكب الدري) و (قمر السماء)، وقد لبثت أتلقى هذه البرقيات طول الليل وأتعبني ذلك كثيراً وفي الصباح جاء أبي ليراني فوجد آثار الإرهاق والتعب الشديد على وجهي فدخل على المدير وأخبره أنه قرر عدم ابقائي، واعتذر له بصغر سني وعدم تحملي التعب الشديد، وقبل المدير العذر وهكذا انسحبت من العمل. وقد بقينا في دمشق بعد ذلك أياماً اشترى فيها أبي ورفاقه ما أحبوه من البضائع الشامية، وكان عميله في دمشق عبد الرحمن منصور. وكان مخزنه في شارع مدحت باشا، ومما كان يشتريه تجار نابلس من بضائع دمشق (الصايات) القطنية والحريرية المتنوعة، وكلمه (صايا) كانت تطلق على وحدة ثوب قماش منسوج في دمشق بطول عشرة أذرع. وكان من هذه الصايات ما يصلح للقنابيز الرجالية في المدينة، وللقنابيز الرجالية والنسائية في القرى. ومنها العباءات التنوعة الأجناس والالوان للمدنيين والقرويين، والكوفيات الحريرية للقرويين والشنابر، وهي من نوع الطرحات للنساء القرويات يتخمرن بها، والجزم والصرامي الحمراء والصفراء للمدنيين والقرويين والبدو، والجرابات المتنوعة، وكل هذا من مصنوعات دمشق. وكان فيها معامل كثيرة لهذه المنسوجات. وكان عند عميل أبي بعض هذه البضائع، وكان له صانع فاختار من عنده ما أحب. وطاف في الاسواق واشترى منها ما لم يجده عند العميل.

وكانت دمشق مدينة هامة وكبيرة بالنسبة لنابلس، ولكنها بالنسبة الى اليوم تعد صغيرة ومختصرة، فكان العمل والجد والنشاط فيها متركزا في سوق مدحت باشا وسوق الحميدية والدرويشية والسنجقدار والمرجة وباب الجابية وباب السنانية كما هو اليوم. اما الاقسام الأخرى فكانت قليلة الحركة والحشد والنشاط، وبيوت المسلمين كانت على الاغلب في حارات متصلة بهذه الأماكن من شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، كالعمارة والبحصة والقنوات وباب الجابية، وكان حي الميدان شبه منقطع عن مركز التجمع والحشد. وكذلك حي الصالحية والمهاجرين والأكراد، وكذلك حي القصاع وباب توما، وسكان الحيين الأخيرين غالبيتهم نصارى وهما في أنحاء سوق الشام القديم، وفيهما كنائس النصارى ومدارسهم ومراكز بطاركتهم ورهبانهم.

وكان يسير في شوارع الشام الترامواي، من حي المهاجرين الى الميدان، قاطعاً شوارع دمشق الرئيسية بين هذين الحيين، وكان فرع عنه يسير في طريق العمارة وباب توما الى دوما أيضاً، وكان في الجملة من أهم وسائل المواصلات. وكانت الحناتير الصغيرة التي يجرها الخيل كثيرة تجري في مختلف الشوارع والى المنتزهات الخارجية، فكانت هي الاخرى وسيلة مهمة للمواصلات. وكانت الكهرباء وسيلة انارة واسعة في الشوارع والبيوت الى جانب مصابيح البترول في كثير من بيوت الفقراء بل وغيرهم. ولم ألحظ في دمشق مطاعم فخمة ولكن فيها محلات كثيرة لشي اللحوم وبيعها مشوية، ولعمل الصفيحة التي كانت تسمى (لحمة بعجينة) كما هو اسمها اليوم، والتي كانت من الأكلات المشهورة المرغوبة. وكان فيها محلات كثيرة لصنع أنواع الحليب وبيعه، فضلاً عن ما كان فيها من أماكن كثيرة لبيع

الخضار والفواكه التي كانت كثيرة جداً.

وكان أبي وأقاربه من رفاق رحلته يأكلون في هذه المحلات في النهار وينامون في بيت ابن عمهم أبي الراغب، وقد عزمنا عميلنا منصور على سيران في الربوة. وجلسنا على أبسطة أتى بها فوق مرتفع مشرف على الماء. ولم يكن اذ ذاك الا مقهاه بلدية متواضعة وقليلة، وذهبنا راكبين الحناتير وأكلنا في السيران لحمة بعجين وقطايف عصافيري، كان العميل هيأها في بيته مع انواع من الفاكهة الشامية الكثيرة لاسيما المشمش والخوخ والجرنك.

وفي الشام كما في بيروت يحزم عمال العميل البضائع التي يشتريها عملاؤهم من محلاتهم او محلات اخرى في حزمات مربعة في أكياس من الخيش، ويكتبون أسماء أصحابها عليها. ويحملها الجمالة الحورانيون على جمالهم حتى يوصلونها الى نابلس براً في مدة يومين او ثلاثة، حيث يستلمها أصحابها ويدفعون الأجرة للجمالة. وكان التجار يدفعون ثمن بعض ما يشترونه ويقيد العميل الباقي عليهم. وما يكون ثمنه لتجار آخرين يأخذ العميل عليه عمولة. ثم يرسل التاجر القيمة دفعات أسبوعية يدفعها إلى وكيل العميل فيرسلها ليرات ذهبية صرة في البريد، وكان وكيل عميلنا في نابلس أحمد عرفات أبو توفيق.

وبعد أن أتم أبي ورفاقه أشغالهم عدنا الى نابلس بالسكة الحديدية الحجازية التي اهتم لانشائها السلطان عبد الحميد، وكان منها فرع يمتد بين حيفا ودمشق بطريق درعا، وفرع من درعا الى الجنوب، فيذهب الى عمان ثم الى معان ثم الى المدينة المنورة، ونزلنا في محطة العفولة بين بيسان وحيفا، ومنها ركبنا كروسة اميركانية وعدنا الى نابلس، وقد استغرقت رحلتنا نحو خمسة وعشرين يوماً في الطرق وفي بيروت وفي دمشق.

وكالتي لمديرية البرق والبريد في بيسان سنة 1907 وذكريات ومعلومات متنوعة عن ذلك:

وعدت بعد رجوعنا من الرحلة الى دائرة البرق والبريد، واعتذرت للمدير عن عدم بقائي في دمشق وقبل المدير عذري، واستأنفت جهدي في الدائرة بلا راتب. وفي أوائل سنة 1907 أرسلني المدير بأمر من رئاسة المديرين الى بيسان وكيلاً، حيث كان مدير هذا المركز قد نقل ولم يعين آخر مكانه. ومدير مركز بيسان هو الموظف الوحيد المسؤول عن عمل المركز بالاضافة الى موزع وشاويش خط، وقد قضيت وكيلاً في هذا المركز نحو خمسين يوماً. وكانت بيسان مركز مديرية (الجفتلك) والكلمة تعني المزرعة. وكانت أراضي ناحية بيسان من أملاك السلطان عبد الحميد، وتدار باسمه كمزرعة من مزارع السلطان. وكان مديرها مرتبط بادارة جفالك السلطان المسماة (الجفالك الهمايونية) في الآستانة. لانها لم تكن المزرعة الوحيدة للسلطان، وكان له من نوعها مزارع عديدة في فلسطين وسورية وغيرهما، من جملة ذلك جفتلك الفارعة بين نابلس والسلط في الغور، وكان هناك قبيلة بدوية مزارعة ومزارعون آخرون من نابلس وسراية للمأمور، وليس هنا مدينة كما هو شأن بيسان.

وبعد ان خلع السلطان سنة 1909 صارت جفالكه ملكاً للدولة، وسميت (الأراضي المدورة)، وبيسان قرية كبيرة وقد شق فيها حديثاً شوارع على جوانبها حوانيت لمختلف الحاجات. ويتبع المديرية قرى عديدة. وكان في بيسان جالية نابلسية تعمل في هذه الحوانيت

من عائلات الصاحب والحلبوني وحجازي وفخر الدين وقادري وغيرهم، كما كان فيها جالية من الناصرة منهم نصارى ومنهم مسلمون أيضاً، وكان بعضهم ينام ويأكل في دكانه بدون أسرة، ولبعضهم بيوت وأسر يعيشون معها.

وقد جئت من نابلس الى بيسان راكباً حصاناً عن طريق وادي البادان وطوباس مع قافلة فيها عدد من الدواب المحملة والمركوبة ذاهبة من نابلس الى بيسان، وفي الطريق واد ضيق نسيت اسمه قيل لي أن قطاع الطريق يترصدون فيه السابلة ويسلبون من يستفردون به أو يستضعفونه، وأذكر في هذه المناسبة.أنه كان في طريق نابلس ـ القدس واد اسمه (عيون الحرامية)، وفي طريق نابلس ـ يافا واد اسمه وادي عزون يترصد قطاع الطرق فيهما السابلة ويشلحون من يستفردون به ويستضعفونه. وفي طريق البادان نبع ماء ساخن أو فاتر يذهب الناس للاغتسال والاستشفاء فيه اسمه (المالح)، ويتجمع الماء الذي يترشح من أرضه في بركة بدائية، فينزل الناس فيها ويستحمون. والمستحمون يحملون معهم خياماً وطعاماً وما هم في حاجة اليه لأن المكان قفر. وأذكر أن أبي وأمي وبعض أصدقائهم ذهبوا مرة الى المالح واقاموا أسبوعاً. وقيل لي إن في مكان ما في غور الاردن بئر ماء حار جداً يشوي اللحم يستخرج ماؤه بالدلاء. والمنطقة بركانية وآثار البراكين ظاهرة.

وفي الشمال من المالح ولو بعيداً حمامات الحمة الحارة الكبريتية، وحمامات طبريا الحارة الكبريتية أيضاً، وقد تعارفت وتصادقت في بيسان مع أفراد الجاليتين النابلسة والناصرية، ومع مأمور الريجي إبراهيم مطر من طبريا، وكلمة (الريجي) تطلق ومازال على مؤسسة احتكار الدخان. وكانت هذه المؤسسة شبه رسمية وايراداتها مرصودة على ديون الدولة. وكان ابراهيم رجلاً ناعماً دمثاً ديناً يطلق ذقنه. وكان بعض النوابلسية والنواصرة قد استملكوا بعض الاراضي واستأجروها واشتغلوا بالزراعة ايضاً بالاضافة الى عملهم التجاري. وتعارفت مع بعض وجهاء القرية ومنهم آل التهتموني.

وفي بيسان مسجد قديم أثري نوعاً ما، وعلى بعد ثلاثة كيلومترات من المدينة محطة سكة حديد حيفا دمشق التي هي فرع من السكة الحجازية التي ذكرناها قبل. وقد جاء أبي لزيارتي وكان الموسم شتاء، وعلمت منه أنه صادفه زخة مطر شديدة في الطريق مع زوبعة شديدة حتى صار في خطر، وكانت قرية طوباس قريبة من المكان الذي كان فيه، فسارع الى الالتجاء اليها ونجا وأقام بضع ساعات الى أن هدأت العاصفة والزخة.

تعييني مأموراً لبريد نابلس وذكرياتي عن مختلف شؤون الدائرة:

كان مأمور بريد نابلس من أسرة آل عبد الهادي، واسمه الحاج بهاء الدين عبد الرحيم. فسعى ليكون مديراً لمركز برق وبريد بيسان الشاغر، وكان معاش الوظيفة يفوق معاشه في نابلس، ودفع ما فيه النصيب للمدير في نابلس وللباشمديرية في بيروت بواسطة المدير يعني مدير المركز. وكان مرتب وظيفته في نابلس (300) قرش، فسعى أبي في سبيل تعييني مكانه ودفع ما فيه النصيب أيضاً للمدير وللباشمديرية بواسطته، وأظن المقدار ثلاثين ليرة ذهبية، وتم تعييني للوظيفة في أواسط عام 1907، وكان عمري اذ ذاك 18 أو أكثر قليلاً. وكان لا بد من تقديم كفالة عقارية لأني كنت سأستلم طوابع ومالاً. فكفلني بعض رجال من

عائلة البظ لهم كروم زيتون مسجلة عليهم في قرية سلفيت، والذي كفلني هو الحاج محمد وأخوته، (أبناء خالة أمي)، ومعنى الكفالة العقارية ان العقارات المسجلة على أصحابها الكفلاء يؤشر عليها أنها مرصودة للكفالة الفلانية، فلا يستطيع صاحبها التصرف فيها الا بعد فك الكفالة بصورة رسمية، وتظل العقارات المسجلة كرهن للاستيفاء ما يمكن أن يدخل في ذمة المكفول مما في يده من مال الدولة، ولقد ظللت في هذه الوظيفة الى أواخر سنة 1914 وصرت قبلها وكيلاً للمدير بضعة أسابيع، ثم نقلت الى وظيفة رئيس الطوابع في دائرة بريد بيروت.

وبعد نحو ستة أشهر من تعييني لمأمورية بريد نابلس، تزوجت من ابنة عم والدي فاطمة بنت قاسم دروزة، وأنجبت منها أولادي بقي منهم على قيد الحياة زهير وسلمى ونجاح وردينة. وتوفيت في دمشق عام 1938 (1357هـ).

ولقد كان العمل الذي عينت له هو مباشرة استقبال وإرسال بريد الرسائل وبيع الطوابع لها، ولم يكن متعبا، فدواب البوسطة كانت تأتي وتذهب ثلاث مرات في الأسبوع بين يافا ونابلس وبين جنين ونابلس وبين السلط ونابلس، وازدحام الناس يكون يوم مجيء بوسطة يافا بالدرجة الأولى، لأنها البوسطة التي تأتي برسائل الخارج من مصر والآستانة وبيروت وأوروبا، وكانت رسائل هذه الجهات تذهب من هذا الطريق أيضاً. أما أيام بوسطة جنين والسلط فهي قليلة الزحام لأن مداها قاصر على منطقتها، والأيام الأربعة التي لا تأتي بوسطة فيها ولا تذهب فلا عمل لي فيها تقريباً. ولم يكن الدوام اليومي المستمر كموظف واجباً ومطلوباً. لأنه لا يكون مراجعات من أحد لدائرة البريد في غير أيام البوسطة. ولكني كنت أذهب يومياً الى الدائرة لترتيب عملي لأيام البوسطة من جهة، ومساعدة موظفي البرق في عملهم البرقي، ومساعدة المدير في أعماله الكتابية الشهرية لأنه هو المطلوب منه تحضير نتائج أعمال المركز وحساباته كل شهر، وإرسال اللوائح والنتائج للباشمديرية في بيروت.

وكان يشتغل في قسم البرق ثلاثة موظفين بالتناوب، وتكون الأشغال أحياناً كثيرة، فيحتاجون الى مساعدتي في ارسال واستقبال البرقيات. وكان مرتب أحد الثلاثة (250) قرشاً وهو تركي من سيواس، ومرتب واحد (300) قرشاً وهو من خربوط، ومرتب واحد (300) قرشاً وهو عربي من عكا، وكان مرتب المدير (800) قرشاً. وكان عمل الصرّاي صرر الدراهم المرسلة والواردة بواسطة البريد من عمل المدير، فهو الذي يستلم الصرر من أصحابها اذا كانت مصرورة ويشرف على صرها إذا أراد بعضهم أن يصر دراهمه في البوسطة.

وكان الصرّ في قطع سميكة من القماش الأبيض، وتزمّ وتغلق فتحتها بالشمع الأحمر، ويختم الشمع بخاتم صاحب الصّرة اذا كان هو الذي صرّها وأتى بها مصرورة، وبخاتم صاحب الصرّة والمدير اذا كان جاء بدراهمه لتصرّ بمعرفة البوسطة. وكان يوضع على فتحة الصرّة أيضاً شريط معدني مربوط بقطعة من الرصاص تختم بخاتم البريد، ويكون للصرّة ذنب من قماش يكتب عليه اسم المرسل اليه وقيمة ما في الصرّة، أو يكتب ذلك على جسم الصرّة. ويعطي المدير وصلاً لصاحب الصرّة باستلامها مع قيمتها، وأكثر ما كان يرسل في الصرر ليرات ذهبية عثمانية وانكليزية وافرنسية، وأكثر من كان يرسل الصرر المصرورة أمين صندوق المالية

ووكلاء تجار دمشق وبيروت، حيث كان الأول يرسل كل أسبوع عدداً من الصرر فيها ما جمع من الجباية الى مركز الولاية، وحيث كان الآخرون يرسلون كل أسبوع عدداً من الصرر فيها ما جمعوه من التجار لحساب موكليهم على ما ذكرنا قبل.

وكان أمين الصندوق يرسل صرر المالية للأقضية أيضاً لدفع مرتبات الموظفين والضباط، حيث كان مركز المتصرفية يجبي القدر الأكثر من الضرائب المتنوعة، ولا يستطيع بعض الأقضية جمع ما تحتاج اليه من ضرائبها المحلية. وكان آباء الطلاب الذين يدرسون في بيروت أو الأستانة يرسلون الى ابنائهم مصروفاتهم الشهرية صررا بالبريد. وكان أناس آخرون يرسلون دراهم للآخرين. وهؤلاء هم أكثر من كان يأتي بدراهمه لتصرها له البوسطة، وكان أمين الصندوق وآخرون يرسلون صرراً ودراهم مجيديات فضية أيضاً.

وكان هناك متعهدون لنقل البوسطة بين نابلس والمدن الثلاث. وتجري مناقصة سنوية ويتم التلزيم السنوي لمن يكون عطاءه أقل، وكان العطاء الشهري يتراوح بين 1500 و2000 قرشاً لنحو (75) مشوار ذهاباً وإياباً. وكانت دابة واحدة تكفي لحمل بريد كل جهة، وكان المتعهدون على الأكثر من عائلة ستيتية، وكان لهم دواب عديدة يؤجرونها للركاب ذهاباً وإياباً وبخاصة جهة يافا. وكان كثير من الناس يعطونهم رسائلهم وصررهم مقابل أجرة أقل من أجرة البوسطة ليافا ولجنين، وهذا كان ممنوعاً في شروط الالتزام ومترتباً عليه غرامات مع المتعهد تكون ضعف أجرة البريد. وكان شاويشية المركز بأمر من المدير أو بدون أمر يرابطون أحياناً خارج المدينة لتفتيش المتعهدين وضبط ما يكونون حملوه للناس من رسائل وصرر، لأنه كان يعطى رسمياً في المائة عشرين من الغرامة التي ترتب على المتعهدين في حالة ضبط هذه الممنوعات منهم، وكثيراً ما كانوا يضبطون منهم رسائل وصرر ثم يأتون بهم وبما ضبطوه الى الدائرة حيث تنظم في حقهم محاضر وترتب عليهم الغرامات، وتعاد الصرر والرسائل الى أصحابها. وأحياناً كان المتعهدون يدفعون للشاويشية إكراميات ويفلتون من الغرامات.

وكان المتعهدون يستلمون من مركز بريد الرسائل الذي كان في عهدتي، صرر الرسائل العادية، وفي قفلة رباطها قطعة رصاص تختم بخاتم البريد. ويستلمون من المدير صرر الدراهم ويوقعون على دفاتر الاستلام، وتوضع صرر الرسائل وصرر الدراهم في أكياس جلدية على شكل الاخراج، وتختم قفلة هذه الأكياس بقطعة رصاص تختم بخاتم البريد، ويوقعون على الدفاتر بما يستلمون. وحينما يوصلون البريد الى المركز المرسل اليه يسلمونه للمأمور والمدير كل حسب اختصاصه، ويأخذون منهم توقيعاً بالاستلام.

ذكرياتي عن جريمة اختلاس في صرر البريد وقعت أثناء وظيفتي:

ومما جرى وأنا مأمور بريد نابلس أن أمين صندوق مالية نابلس أحضر إلى المدير يوماً ما عدداً من الصرر مكتوب على كل منها أنها تحتوي 100 ليرة ذهبية عثمانية، وقد صرها في دائرته وختم بخاتمه على شمعها الأحمر. واستلمها المدير وأعطاه وصلاً، وأمر بوضع الرصاصة وختمها كالمعتاد، ثم سلمت في المساء للمتعهد، وكانت مرسلة الى مالية بيروت. وكان ذلك بعد إعلان الدستور، وفي

زمن مدير اسمه حلمي أفندي من سيواس.

وبعد بضعة أيام جاءت برقية بالشيفرة الى المتصرف من بيروت تخبره أن الذي ظهر في الصرر هو أرباع مجيدية فضية، وليست ليرات ذهبية، وربع المجيدي الفضي بحجم الليرة الذهبية. وأرسل المتصرف ليلاً شرطة الى بيت المدير فاعتقلوه وشرطة الى بيتي فاعتقلوني، وشرطة الى بيت أمين صندوق مالية نابلس فاعتقلوه. وقد بت في السراي معتقلاً في غرفة مأمور الأوقاف. وفي الصباح عرف المتصرف انه ليس لي علاقة بعمليات الصرّ، فأمر بإخلاء سبيلي وبقي المدير وأمين الصندوق معتقلين. وكان هذا يدعي أن الذي وضعه في الصرر ليرات ذهبية، وقرر المدير أن الصرر جاء بها أمين صندوق مالية نابلس مختومة بخاتمه، وعرف من بيروت أنها وصلت سليمة مختومة بهذا الخاتم، فأخلي سبيل المدير مع اعتباره مقصراً، حيث كان يجب عليه التحري أكثر وسحبت يده عن العمل وجرت المحاكمة لأمين الصندوق، وثبت فيها أنه اختلس مبلغاً من المال فأراد التغطية عليه بهذه الطريق، وحكم عليه بالحبس خمس عشرة سنة مع تقرير تغريمه المال المسروق.

وكان موزع البريد في زمني (علي بكري) وهو رجل ذكي ونشيط وذو روح خفيفة وكان مرتبه (150) قرشاً، ولكنه كان يحصل على مثل هذا الراتب وأكثر من البخاشيش التي كان الناس يعطونها له، وبخاصة آباء الطلاب والبعثات التبشيرية والمستشفى الانكليزي، وكان هذا الموزع يوزع البرقيات أيضاً بالإضافة الى البريد، ثم عين مساعداً له هو (مطيع ملحس) براتب مائة قرش، وكانت أجرة الرسالة التي تزن 15 غراماً قرشاً حكومياً (صاغاً) وهو أربعة بشاليك، وكان القرش السوقي (المغشوش) ثلاثة بشاليك، وتكون الأجرة مضاعفة اذا كانت الرسالة مسجلة، ويزاد نصف الأجرة على كل 15 غراماً زائدة عن 15 غراماً الأصلية. أما أجرة الجريدة وبطاقات العيد فكانت ربع قرش، وكذلك المطبوعات العادية التي لا يزيد وزنها عن (50) غراماً، وتضاعف عن (50) غراماً زائدة وكسورها. أما أجرة الصرر النقدية فكان لها تعرفة خاصة لم أعد أتذكرها.

وكان قبل إعلان الدستور العثماني في تموز 1908 يأتي كل يوم تبليغ برقي للمدير فيه أسماء صحف ومجلات ممنوعة من الدخول الى بلاد الدولة، منها العربية ومنها الأجنبية اللغة. ومن العربية ما كان يطبع في مصر، ومنها ما كان يطبع في أميركا أو أوربا. وهذا عام لجميع مراكز برق وبريد الدولة، حيث كان ينشر في هذه الصحف والمجلات فصول وأخبار ومقالات ضد الدولة والسلطان وأسلوب الحكم في الدولة وما كان يقع فيها من شذوذ وظلم. وكان حقاً يقع شيء كثير من ذلك في الدولة من رشوات ومحسوبيات واختلاسات وتجسس واعتقالات بدون حق أو جرم صحيح، وتعذيب ونفي وتوظيف موظفين بدون كفاءات وشهادات وتصرفات متنوعة مخالفة للقوانين وقوانين كيفية الخ... وكان السلطان أعلن دستوراً حينما جلس على العرش سنة 1876م، وصار للدولة مجلس نواب ومجلس أعيان لمراقبة الحكم ثم ألغاه وشرد أعضاءه، فذهب كثير منهم الى أوروبا وأسسوا الجمعيات، وصاروا يصدرون المجلات والصحف باللغات العربية والتركية والأجنبية، ويكتبون المقالات ضد الدولة وسوء تصرفات الحكم والحاكمين والسلطان فيها. وكان مثل ذلك يكتبه كتاب في مصر منهم

مصريون ومنهم شاميون. ومثل ذلك يكتبه كتاب عرب في أميركا الشمالية والجنوبية. والشيء الذي كان يرد الى نابلس من ذلك قليل، ويأتي شيء أحياناً من مصر أو من أوروبا وأميركا فكنا نحبسه ولا نوزعه، ولقد كنت أغتنم الفرصة فأقرأه. وكان من ذلك جرائد المؤيد والمقطم والأهرام في مصر، وبعض صحف المهاجرين في أميركا، وكنا نلمس ما نراه ونسمعه من أحوال الحكم والموظفين وشذوذهم صحة ما كان يكتب في هذه الصحف والمجلات، وبدأنا نتحسس بالحس الوطني القومي.

حادث وشاية سياسية أثناء وظيفتي في نابلس وذكرياتي عن ذلك:

ومما جرى وأنا في دائرة البريد قبل الدستور وفيه تأييد لذلك وله أمثال كثيرة، أن شخصاً كان يشتغل في المحاماة زعل[1] على مأمور الإجراء أسعد زيد، فجاء إلى الدائرة وقال للمدير إن عندي إخبارية فيها مؤامرة وخيانة للدولة، وطلب أن يفتح له خط البرق بين نابلس و(المابين) (مقر السلطان) لإعطاء الإخبارية، وهدد المدير بالمسؤولية العظمى. فخاف المدير وسأل الباشمدير في بيروت، وسأل الباشمدير الوزراة في الآستانة، وأخبرت الوزارة (المابين) بالأمر، فصدر أمر من باشكاتب السلطان بفتح الخط بين (المابين) ونابلس، وفوجئنا بمأمور البرق في (المابين) يكلم مأمور البرق في نابلس، ويطلب تلقي ما يريد أن يلقيه المخبر، وحينئذ تقدم المحامي وطلب إخبار المابين عن لسانه أنه علم أن جماعة من نابلس يتخابرون مع الإنكليز لأجل جلب السلاح والقيام بثورة ضد الدولة، وأنه مستعد لإبراز الدليل إذا سمح له بمراقبة رسائل البريد. فأمروا المدير بالسماح له بذلك، فصدع للأمر وجاء المحامي في صباح يوم مجيء بوسطة يافا، ودخل غرفة البريد، ولما فتحنا ربطة رسائل يافا صار يدقق في العناوين ثم شك في إحدى الرسائل وقال هذه هي المطلوبة، وكانت الرسالة بعنوان أسعد زيد من يافا، ففتحناها فإذا هي بإمضاء (شلبي السامري)، وكان هذا أديباً متحركاً من الطائفة السامرية في نابلس، وقرأنا الرسالة وكان شلبي يخاطب أسعد زيد فيها قائلاً أن كمية السلاح المطلوبة المؤلفة من بنادق وذخيرة لها قد وضعت في الصناديق وحملت على الباخرة (الفلانية)، ولم أتذكر الاسم المذكور فيها، وأنها ستصل الى ناحية مياه أبي زابورة في اليوم (الفلاني)، وهذه المياه بين حيفا وقرب قرية قاقون، وانه يجب الإيعاز لجماعتنا في قاقون وما جاورها ليرسلوا رسلهم الى المحل المعين، وحينما يرون ضوءاً متحركاً من باخرة في عرض البحر يرسلون شختورة اليها لاستلام الصناديق. ووضعنا الرسالة في ظرف وختمناه بالشمع وأرسله المدير الى المتصرف، وأخبر الباشمدير بما جرى، وسارع المتصرف فأرسل برقية بالشيفرة الى المابين حسب الأمر، وبعد بضع ساعات جاء الأمر من الآستانة باعتقال أسعد زيد والتحقيق معه، فاعتقل وحقق معه وأنكر الرجل معرفته بشلبي السامري أو أي علاقة له بمثل هذه الأمور، وكان رجلاً بسيطاً معروفاً أنه لا نشاط سياسي له ولا حركات، وأرسل المتصرف افادته ولم يكن الكتاب ليكون دليلاً صحيحاً على علاقته. ولكن الآستانة أمرت بنفي الرجل الى سيواس رغم ما هو ظاهر من تلفيق غبي. ولم يطلب من المحامي إثبات دعواه. ولعله كان عميلاً سرياً للسلطة واجب التصديق وواجب

(1) زعل أي تألّم وغضب (الوسيط).

الحماية، (ولم أذكر اسم المحامي احتراماً لاسم اسرته التي فيها كثير من الطيبين والمخلصين والوطنيين).

وقد حصلت حوادث أخرى من هذا الباب في نابلس قبل الدستور، من ذلك ان شخصاً من آل الهواش من اللاذقية نفي الى نابلس بتهمة مماثلة على الأغلب، وأمر بابقائه معتقلا فوق النفي فحبس في حبس التوقيف في السرايا. وكان الحاج طاهر كمال متزوجاً من سيدة من اللاذقية، فطلب آل هواش من أهلها ان يكتبوا لأنسبائهم ليقدموا الى ابنهم المعتقل ما قد يكون في حاجة اليه من مصروف وعون مادي. وعلم بذلك بوليس من نابلس فجاء الى الحاج طاهر والحاج سعيد أخيه، وكان لهما مخزن فاتورة نسائية في خان التجار الجديد قرب ساحة السراي، وهددهم بالوشاية وأراد (ابتزازهم)، فرفضوا فكتب اخبارية للمتصرف اتهمهم فيها بالاتصال بالمنفي المعتقل. وكان المتصرف دمشقياً ومرتشياً فاستدعاهم وهددهم (وابتز) منهم خمسين ليرة ذهبية. ومن طريف ما وقع أن هذا المتصرف نقل الى مثل وظيفته في طرابلس الشام، وبعد مدة قصيرة أعلن الدستور وقامت ضجة عظيمة في كل مكان ضد الموظفين المرتشين الذين كانوا يمارسون وظائفهم في هذا الوقت، فذهب الحاج سعيد الى طرابلس وهدد المتصرف بالفضيحة واسترجع دراهمه منه.

ومن ذلك أنه جاء الى نابلس سنة 1907 شخص أصله من قرية طلوزة، صار له حظ، فصار شاويشاً في المابين ورقي الى رتبة يوزباشي وأرسل الى نابلس لمراقبة نشاط المتحركين السياسيين ضد الدولة والسلطان والحكم، وأظهر للناس أنه شيء مهم. وعرف الناس أنه جاسوس للسلطان. وكان يكتب برقيات بالشيفرة الى المابين ويتلقي برقيات شيفرة من المابين وعرف هذا فازداد الخوف منه. وقبل اعلان الدستور جاء أمر بنفي بعض أشخاص نيرين منهم أحمد حلمي عبد الباقي وكان مديراً للبنك الزراعي، وضابط تركي اسمه أمين، وعبد الفتاح ملحس من معلمي المدرسة الاعدادية، وآخرين لم أعد أذكرهم، فقبض عليهم وسيقوا مخفورين الى منفاهم في الأناضول. وشاع أن هذا النفي كان بوشاية من ذلك الضابط الطلوزي الذي علم أن هؤلاء الجماعة كانوا مجتمعين ليلة في مكان كان فيه حفلة مولد، وحدس[1] أن اجتماعهم انماكان ضد الدولة، ومن الطريف أن المنفيين لم يكادوا يصلون الى دمشق حتى أعلن الدستور فعادوا احراراً الى نابلس، وقد قامت بعد اعلان الدستور ضجة بهدلة ومطاردة للضابط الطلوزي جعله يفر من نابلس ويتوارى عن الناس.

وفي طفولتي علمت أن محامياً من نابلس اسمه عمر الجوهري كان عنيف اللسان كثير التحرك والانتقاد، فوشى به واشي فنفي الى أرضروم ولبث منفياً بضع سنين الى أن أعيدت له حريته وعاد الى بلده بعد اعلان الدستور، وذهب الناس للسلام عليه وكنا من الجملة.

ذكرياتي عن زيارة جرجي زيدان لنابلس:

ومما لا أزال أذكر من أحداث كان لها رنة في نابلس في بداية وظيفتي في البريد زيارة جرجي زيدان لنابلس. وكان هذا قد اشتهر وصار له اسم محترم علمي وأدبي بمجلة الهلال التي كان يصدرها في مصر وينشر فيها مقالات وأبحاثاً في تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، وفي التمدن الاسلامي وفي الشؤون الاجتماعية

(1) حدس: خمّن ـ ظن.

والتاريخية الاخرى، واشتهر فيما اشتهر فيه خاصة بالروايات التاريخية الاسلامية العديدة. حتى ليصحّ أن يعد من الرواد في كل ذلك برغم ما صار يعرف من ثغرات وأخطاء في كتاباته وأفكاره نتيجة لتقدم العلم والبحث العلمي، وكانت مجلته تصل الى نابلس ويتداولها الناس ويكون لها وله في نفوسهم وقع ونحن من الجملة. وأظن أنه نزل في بيت الحاج نمر النابلسي، وكان صابون أبيه مشهور في مصر، وكان هو متفتحاً نيراً عنده مكتبة ويقرأ الكتب وطلق اللسان ووسيم الشكل ويربي ذقناً خفيفة، وكان قد حصل على اجازة تدريس ديني، فكان يلقي دروساً دينية في رمضان ويلبس طربوشاً على ما ذكرت قبل، وكان له ديوان مطروق يتردد عليه النيرون والأصدقاء، وكنت ممن يتردد عليه أيضاً. ومن المحتمل أن يكون قد التقى بجرجي زيدان سابقاً في مصر ودعاه للنزول عنده، أو أشير على هذا بذلك من اناس يعرفون حالة وصفة الحاج نمر. وتوافد الناس للسلام على زيدان ولقائه، وكنا من الجملة، وتزلفت به بعض الأسر الإقطاعية القديمة لعله يشيد بها في كتاباته. وأخذه كاهن السامرة الى محلتهم وأراه الرقوق الجلدية القديمة التي عندهم، المكتوب عليها أسفار بالعهد القديم باللغة العبرانية القديمة والتي يزعمون أنها توراة موسى ومن عهد قديم جداً، ويتبجحون للزوار بذلك، وتوراة موسى ضائعة كما أثبتنا ذلك في بحوثنا، وما هو متداول هو ما يسمى أسفار العهد القديم، كتبها كتاب مختلفون في ظروف مختلفة فيها كثير من الأكاذيب والمفارقات والمبالغات (انظر كتابنا القرآن والمبشرون)، وأظن أنه كسفهم وقال أن هذه الرقوق لا ترتقي الى أكثر من ألف عام.

وإتماماً لسيرة الحاج نمر أقول أنه في الستينات لبس عمة بيضاء وأنشأ مسجداً في نابلس ووصى بأن يدفن في جانب منه. وقد نفذت وصيته، وفي سنة 1964 زرت نابلس وزرت المسجد وصليت به وقرأت الفاتحة لروحه رحمة الله عليه، وسيرد ذكره في مناسبة آتية أخرى.

ذكرياتي عن حادث وفاة الشيخ محمد عبده:

ولقد كان هناك في نفس الظرف حادث كان له رنة في نابلس أيضاً، وهو وفاة الشيخ محمد عبده مفتي مصر في سنة 1906، وكان عالماً إصلاحياً مجدداً، وقد اشترك باسلوب ما في ثورة (عرابي سنة 1881 ضد استبداد الخديوي وتدخلات الانكليز والافرنسيين)، واعتقل ونفي الى بيروت ثم عاد الى مصر وبرز وعين مفتياً عاماً لها، وكان ذا شخصية قوية مؤثرة حتى قيل أنه لم يره أحد ولا يسمع منه الا نزل فيه أثراً اشراقياً، وكان لاسمه دوي في أنحاء البلاد الاسلامية والعربية فيما كان ينشره من مقالات وأبحاث، ويجيب عليه من أسئلة استفتائية بأجوبة جريئة. وفيما كان يدعو اليه من تجديد مع الالتزام بالاسلام الصحيح، وفيما كان عليه من أفق واسع ونشاط علمي عظيم، وكنا في بدء شبابنا نسمع به ونقرأ له بعض المقالات والكتب والفتاوى، وكان لوفاته رنة اسى في بلاد العرب والاسلام ومن جملتها نابلس[1].

إعلان الدستور العثماني وشيء عن ظروف ذلك:

في يوم الاثنين على ما ظل في ذاكرتي

---

(1) كتبنا ترجمة له في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة وللسيد رشيد رضا مجلد ضخم في سيرته وجهوده وأفعاله.

بتاريخ 4 تموز 1324 و24 جمادي الأولى 1326 هجرية صحيحة[2]، الذي يوافق تاريخ 24 تموز 1908 ميلادية، تلقينا برقية تعميم من والي بيروت الى متصرف نابلس، يخبر فيها أن السلطان عبد الحميد (البادشاه الأعظم خاقان البرين والبحرين وأمير المؤمنين وسلطان المملكة العثمانية)، تفضل وأصدر ارادته السنية باعادة أحكام (القانون الأساسي)، وهذا هو الذي سمي (الدستور)، وهذه الكلمة فارسية تعني (طريق الدولة) فيما أظن. وقد أمر الوالي المتصرف في التعميم اعلان ذلك للناس واظهار الفرح والابتهاج والدعاء للسلطان بالنصر والتأييد، وقد أخبرنا موظفو البرق من مركز بيروت بناء على ما تلقوه من موظفي برق مركز العاصمة أن الجيش العثماني في (الرومللي)

(وهذه الكلمة كانت تعني بلاد الدولة في الجنوب الغربي الاوروبي الذي كان يسمى البلقان أيضاً) تحرك حركة تمردية وطلب من السلطان اعلان الدستور ليكون الحكم في الدولة على أساسه، وهدد بالزحف على العاصمة إن لم يفعل، وأن السلطان لما تأكد أن الأمر جد وأن التمرد أقوى في الجيش، ورأى أنه لا يستطيع اخماد ذلك بالقوة رضخ للطلب وأمر باعادة حكم (الدستور) القانون الاساسي الذي كان أعلنه حينما جلس على العرش سنة 1876م ـ 1291هـ ثم ألغاه، وفيه مواد كثيرة تمنع الحكم الكيفي وتجعل حكم القانون موطداً، وتعاقب من ينحرف عن ذلك، وتمنح الناس حرية القول والكتابة والخطابة وتأليف الأحزاب والجمعيات المتنوعة في نطاق القانون، وتجعل الوظائف ثابتة في التعيين والممارسة للقانون ولأصحاب الأهلية، وتقضي بأن يكون مجلس نواب ينتخبه الشعب لسن القوانين ومراقبة سير الحكم والحكومة، (في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة نشرنا جميع مواد هذا القانون).

وقد جرت حين إعلان الدستور سابقاً انتخابات وقام مجلس نواب، وبدأت حالة الدولة تسير في نطاق القوانين وتتحسن أمورها، ولكن الدولة دخلت في حرب مع روسية وانهزمت وصار النواب ينتقدون الحكومة ويتهمونها بالخيانة والضعف، فاصدر السلطان ارادته بالغاء العمل بالقانون الاساسي واغلاق مجلس النواب واعادة الامور الى ما كانت عليه من الحكم الكيفي الشاذ الذي لا مراقب ولا مشاركة فيه للشعب، وقد تشرد أعضاء المجلس كما ذكرنا، وذهب كثير منهم الى أوروبا وصاروا ينشرون المقالات ضد حكم الدولة الشاذ، ويؤسسون الجمعيات، وصار لهذه الجمعيات فروع في داخل الدولة، وتركزت أكثر ما يكون في الرومللي. واستطاعت ان تدخل فيها كثير من ضباط الجيش الذين تمردوا الآن وطلبوا من السلطان اعادة الحكم بالقانون الاساسي وانذروه بالزحف ان لم يفعل، وقد أخبرنا موظفو البرق في بيروت عن موظفي البرق في العاصمة أن العاصمة والرومللي في فرح عظيم، وأن الهياج عظيم، وأن ضابطا اسمه أنور وآخر اسمه

---

(2) كانت الدولة العثمانية قبل نحو خمسين سنة من هذا التاريخ أرادت التوفيق بين حساب السنة الشمسي والقمري وعدد أيام السنة في الأول (365) يوماً وكسور وفي الثاني (354) يوماً وأيسر على حساب السنة الشمسية فجعلت أول شهور هذه السنة مارس (آذار) وكانت السنة الهجرية إذ ذاك هي (1280) ومع الزمن صار الفرق بين الحساب الميلادي الشمسي والحساب القمري سنتين. وسنة 1324 تركية وتعادل 1326 هجرية صحيحة، وحيث كانت السنة تبدأ في مارس فيكون تموز موافقاً لشهر جمادي الأولى.

نيازي كانا من أكثر الضباط نشاطا وتأثيرا في حركة الجيش التمردية، وأن وراء هذه الحركة جمعية اسمها (الاتحاد والترقي) كانت تأسست في أوروبا وأسست فروعاً لها في داخل الدولة، وكانت قوية في الروမللي وخاصة في (سلانيك)، وهي مدينة ومركز ولاية بهذا الاسم، ومنها الضابطان المذكوران وغيرهما من ضباط أتراك وغير أتراك، وفيها رجال سياسيون غير ضباط ومن كانت تذكر أسماؤهم من هؤلاء طلعة وجاويد وحسين جاهد وجمال وناظم ونسيم مزراحي (وهذا الأخير يهودي من سلانيك) الخ. . وأن الجمعية أعلنت نفسها في العاصمة حالا بعد اعلان الدستور، وانشأت ناديا صار مركز حركة عظيمة، وأنها صارت المحرك والموصي بما يجب على رجال الحكومة أن يعملوه في الدولة، واتخذت النادي مركزا لها. وصار كأنه هو مركز الدولة ومصدر الحكم الحقيقي، وأن شعار (حريّت - مساوات - اخوّت - عدالت) صار هو الشعار الذي يردده جميع الناس، وصار هذا الشعار يكتب على شرائط حريرية بلون أبيض وأحمر، وهو لون علم الدولة ويعلقها المتحمسون على صدورهم.

وأعلن المتصرف الخبر على الناس باعلانات رسمية، وصرنا نذيع ما تلقيناه من ايضاحات وأخبار من موظفي مركز بيروت نقلا عن مراكز العاصمة، فصارت نابلس تجيش بالابتهاج وزينت ورفعت الاعلام، وكان في نابلس بعض ضباط أتراك متحمسين جدا لهذه الحركة، وكان من أشدهم حماساً ونشاط ضابط يوزباشي (رئيس في الاصطلاح العربي اليوم) اسمه أمين، وكان في نابلس بعض موظفين أميريين من عرب وغير عرب بينهم وبين هؤلاء الضباط صداقة، فصارت كتلة منهم محركة للابتهاج والنشاط، وقدمت الشرائط الحريرية المكتوب عليها الشعار المذكور، وصارت توزعها وصار الناس يعلقونها على صدورهم ويرددونها بألسنتهم.

وبعد أيام قليلة أخذت ترد الجرائد من الآستانة وغيرها فيها تفصيلات لما وقع وذكرنا خلاصته. ولقد كانت بوادر يقظة عربية ومطالبة بالحقوق العربية في الدولة، وشعور بما كان من ظلم واستبداد ومشادة ورشوة في الدولة منذ مدة ما قبل إعلان الدستور (مما فصلناه في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة (ص56 ـ 182))، فكانت اخبار إعلان الدستور وأهدافه المعلقة، مثيرة للحماس والابتهاج والآمال في صلاح الدولة، وزوال الفساد والجاسوسية والاستبداد ونيل الحقوق والحرية والمساواة في الطبقة الواعية من العرب في نابلس وغيرها. ولقد سارع الضابط التركي أمين الذي ذكرناه آنفا ورفاقه، فأنشأوا نادياً ملاصقاً لبناية دائرة البرق والبريد في بوابة نابلس الشرقية وزينوه بالأعلام والشرائط الحمراء والبيضاء المكتوب عليها شعار (حريتّ ـ مساوات ـ أخوّت) وسموه نادي الاتحاد والترقي، واعتبروا أنفسهم فرعا لجمعية الاتحاد والترقي، ومنهم من ادعى أنه كان من أعضائها سراً وصاروا يدعون الناس الى النادي ويحثوهم على الانتساب لعضويته ولعضوية الجمعية معا. وأبرق الضابط أمين باسم فرع جميعة الاتحاد والترقي وناديها في نابلس لمركز الجمعية العام وناديها في العاصمة بتأسيس فرع للجمعية ونادي في نابلس، وجاء من المركز العام موافقة وتفويض وتشجيع. وصار الفرع يرسل للمركز برقيات في شؤون مختلفة وعن الحالة في نابلس ولا يدفع أجرتها،

وسأل المدير من الباشمديرية عن ذلك، فأمر بقبول برقيات الفروع بدون أجرة. وعلمنا أن المركز يرسل برقياته لفروع الجمعية التي تأسست في أنحاء الدولة بدون أجرة، وأن هذه الفروع ترسل برقيات الى المركز والى بعضها بدون أجرة أيضا كأنما أصبحت من مؤسسات الدولة والحكومة.

مظاهر نشاط جمعية وأندية الاتحاد والترقي:

وقد صار الناس يلمسون ان جمعية الاتحاد والترقي ونواديها في العاصمة والخارج هي المحرك والمحور في الدولة، فصاروا يرسلون شكاواهم ضد الموظفين الذين يرون انهم فاسدون، وضد الشذوذ الذي يرونه في سير الحكم وما يريدونه من مطالب ويحبون تقديمه من اقتراحات الى الجمعية وناديها بعرض حالات رسمية في نابلس وبرقيات لمركز العاصمة، وعلمنا من موظفي برق المراكز الأخرى ان هذا كان شأن الناس عندهم. وكان كثير من الشباب والرجال يجتمعون في نادي نابلس فينشدون الأناشيد الحماسية ويخطب الخطباء خطب تنوير وتوعية. وقد انتسبت أنا وكثير غيري من موظفين وغير موظفين وعرب وغير عرب للنادي والجمعية، واندمجنا في الحماس والابتهاج، وكان ممن اندمج في ذلك ابراهيم القاسم عبد الهادي الذي ذكرت بعض صفاته في نبذة سابقة وكان يخطب في الجماهير.

خطب ونشاط إبراهيم القاسم عبد الهادي في مناسبة إعلان الدستور وشيء عنه:

كان يخطب في الجماهير في ساحة السراي بلغة قريبة للعوام مع فصاحتها، وبأسلوب بسيط فيشرح لهم معنى الدستور وإبعاد إعلانه وآثاره وما يمنحه من الحرية والاخوة والمساواة والعدل، مع منعه للفساد والرشوة والمحسوبية والجاسوسية، وكنت ألتقي به كثيراً في النادي، وأصبحنا منذ ذلك الوقت أصدقاء منسجمين كل الانسجام متعاونين أقوى التعاون في الأيام التي كنا فيها في نابلس فيما بقي من أيام الدولة العثمانية، وخاصة في سياق معارضة الاتحاديين وتأييد الحركة الإصلاحية والمؤتمر العربي وانشاء حزب اللامركزية والجمعية العلمية الخ... مما سوف أزيده شرحاً. ثم بعد الحرب في أيام الاحتلال الانكليزي سواء في سياق الحركة الوطنية المناوئة لهذا الاحتلال والصهيونية، أم حينما صرت مديراً لمدرسة النجاح وكان هو من مؤسسيها مما سوف أزيده شرحاً كذلك. وكان قوي الحجة جريئاً في قول ما يراه حقا وواجبا بدون مداورة ولا مداهنة. وكان يثق بي ويؤيدني في مواقفي، ولم أذكر اني اختلفت معه في شيء أو موقف أو فكر. وقد أصيب بالشلل سنة 1933 وكنت أزوره، وظل محتفظاً بصفاء فكره وسعة أفقه ونضوج عقله الى أن توفي سنة 1936، وكان قليل الاهتمام بالمادة والهندام يكتفي بالبسيط مع النظافة، وكان يربي ذقناً خفيفة رحمة الله عليه.

برقية جمعية الحاج توفيق حماد في تلك المناسبة:

ومن طريف ما كان أن جمعية الشيخ عباس التي ذكرنا خبرها في نبذة سابقة، والتي صار الحاج توفيق رئيساً لها قبيل إعلان الدستور بعد الشيخ، أرسلت لمركز جمعية الاتحاد والترقي العام في الأستانة برقية باللغة التركية بتوقيع (جمعية نابلس) عقب اعلان الدستور، ومعرفة كون جمعية الاتحاد والترقي محور الحركة

والنشاط في الدولة ترحب فيها بالعهد الدستوري الجديد، وتقول انها كانت تنشد الحكم الصالح المستقيم وتناوىء الاقطاعيين والمستبدين والمنحرفين، وتتمنى توطيد الحرية والمساواة والاخوة والعدالة وسيادة القانون، مع الدعاء الحار للسلطان أمير المؤمنين وخليفة النبي وظل الله في الأرض على منته بالدستور، وتسجيل أعظم الولاء والإخلاص له وللدولة العثمانية والخلافة الاسلامية العثمانية. وأنا قرأت البرقية وكانت طويلة تملأ صفحة كبيرة مما يسمى (فولسكاب)، وعليها توقيع (جمعية نابلس)، وأظن أن الذي سلمها لدائرة البرق الشيخ عمر زعيتر. وجاءها جواب من مركز الجمعية بالشكر مع طلب توحيد المساعي مع الجمعية وناديها في نابلس، لتوطيد ورعاية الاخوة والمساواة والحرية والعدالة والقانون. ووقفت صلتها بالمركز عند ذلك حيث استمر الاتصال بين المركز والفرع الذي قام في نابلس، ومن المحتمل أن يكون المركز استشف من البرقية هوية أصحابها أو شدة ارتباطهم بالسلطان الذي قامت جمعيتهم بانقلاب ضده ولعلهم سألوا الفرع عن هوية الجمعية وتلقى جواباً بأنها تكتل محلي قديم، وأنها لا تمت الى شعارات وأهداف العهد الجديد بصلة صادقة جادة. وبعد قليل كانت حركة من السلطان ضد جمعية الاتحاد والترقي فوقفت جمعية الحاج توفيق في جانبه مؤيدة له ومحرضة على الجمعية، فأدى ذلك الى انفجار الموقف بين الطرفين على ما سوف نشرحه بعد.

المتصرف أمين الطرزي:

وكان في نابلس حينما أعلن الدستور متصرف من دمشق اسمه أمين الطرزي. وكان مستقيماً ولكنه ضعيف أو لين، فطلب منه نادي الجمعية أن يرحل فرحل، وكتب النادي للمركز العام بذلك وطلب ارسال متصرف قومي، فجاء متصرف جديد تركي اتحادي. وهكذا صار في نابلس الحكم الرسمي منسجماً مع النادي والجمعية، ومن الجائز أن يكون مثل هذا جرى في البلاد الأخرى.

انفجار غضب الناس على الجواسيس والمرتشين:

ولم يتأخر غضب الناس على من عرفوا بالجاسوسية والرشوة والقسوة ومطاردة الأحرار والتضييق على حرية الناس والصحافة، أن انفجر في الآستانة وصاروا يطاردونهم ويسقطونهم ويعتدون عليهم ويضطرونهم الى الهرب والاختفاء. ومن كبار رجال العرب الذين ركز عليهم في الآستانة عزة العابد الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد، والذي كان يقال إنه أقوى رجل له حظوة وكلمة عنده، والشيخ أبو الهدى الصيادي الذي كان السلطان يتخذه شيخاً له، والذي كان له بدوره كلمة وحظوة لديه، وكان كثير من كبار الحكام الأتراك أيضاً ممن ركز عليهم، وسرى ذلك بسرعة البرق الى خارج الآستانة، ومن الجملة نابلس، فانفجرت النقمة على الضابط الطلوزي الذي كان عرف انه جاسوس السلطان، واتهم بالوشاية ضد الضابط أمين ورفاقه واعتدي عليه وسارع الى الهروب والاختفاء، وممن انفجرت النقمة في نابلس عليه رئيس محكمة الجزاء الذي كان متهماً بالرشوة وآخرين غيره من الأتراك، فسارعوا الى مغادرة نابلس هرباً، وعلمنا من موظفي برق بيروت وعكا ويافا والقدس ان شيئاً من ذلك كان في مدنهم أيضاً.

وكان من تأثير ذلك أن انقطعت ولو لفترة ما الرشوة، وأن دب الحماس والنشاط أو الأصح الخوف في الموظفين، وأن تحسنت معاملاتهم للناس على ما أحسسناه في نابلس، ولا بد من أن يكون ذلك في المدن الأخرى.

الحكومة الجديدة في الأستانة ونشاطها:

وتألفت في الآستانة حكومة جديدة لم يدخلها رجال جمعية الاتحاد والترقي، لأنهم كانوا شباباً غير معروفين، ولكنهم هم الذين رشحوا رجال الحكومة ووقفوا من ورائهم يراقبونهم ويحركونهم. وعزل كثير من رؤساء الدوائر في الآستانة، وكثير من الولاة والمتصرفين والقائمقامين ورؤساء الدوائر في الولايات والمتصرفيات والأقضية، وعين مكانهم اناس متحمسين للدستور والحكم الجديد، وصارت جمعية الاتحاد والترقي في العاصمة والفروع تأخذ من الموظفين يمين الإخلاص لها وللدستور وتقديم أعضاء لها. ومنهم من انتسب للجمعية عن اخلاص وصدق، ومنهم من انتسب انتهازاً لمصلحته ومداراة الموقف. وسمح لصحف ومجلات مصر الممنوعة بدخول بلاد الدولة.

مساهمة الصحف والأدباء والشعراء العرب في هذه المناسبة:

صرنا نقرأ في الصحف مقالات عن الدستور وفوائده والآمال المعلقة عليه في تحسين أحوال الدولة وقوتها، ونشرت صحف مصر قصائد في مدح الدستور والثناء على السلطان وعلى جمعية الاتحاد لكبار الشعراء مثل شوقي وحافظ ابراهيم وولي الدين يكن وغيرهم. كما صرنا نقرأ فيها أخباراً أو بحوثاً سياسية واجتماعية وأدبية مصرية وعالمية.

وسمح كذلك للصحف العربية التي كانت تصدر في أميركا والتي فيها مثل ذلك، وتبدلت حالة صحف بيروت وصارت تطرق مثل هذه المواضيع بعد أن كانت قاصرة على أخبار الحكومة والبلاد العادية والتزلف للوالي وكبار الموظفين، وأخذ يصدر منها صحف جديدة قوية الأسلوب وطنية الهدف تنتقد ما يجب نقده من ظواهر وأعمال وتحذر وتنبه وتدعو الى الجد، ومن ذلك جريدة المفيد والرأي العام.

وكذلك الحال بالنسبة لصحف الآستانة التي كانت قاصرة على الأمور العادية وأخبار الدولة والتزلف للسلطان ورجاله ورجال الحكم وكبار الموظفين، حيث تغير أسلوبها وأخذت بدورها تطرق مواضيع عديدة سياسية واجتماعية وتهدف الى التوعية وتنتقد وتنبه، وصدرت صحف جديدة للاتحاديين ونصيرهم من المستقلين. ومما اشتهرت فيها (طنين) للاتحاديين، وكان يصدرها حسين جاهد أحد كبارهم، و (تصوير أفكار) و (سياسة) و (إقدام)، ومنها ما كان يتخذ موقف المعارضة للاتحاديين وموقف النقد وموقف التنبيه والتحذير والتوعية. فكان كل هذا مما يزيد وعي الشباب وانفعالهم واندماجهم في العهد الجديد وأنا من الجملة.

ولعي بقراءة الصحف واستمراره الى الآن:

وقد ولعت بقراءة الصحف، وكنت بدأت ذلك خلسة قبل إعلان الدستور كما ذكرنا سابقاً، واستمر ذلك بقية عمرنا، حتى لم يكد يمر يوم لا نقرأ فيه جريدة الا أيام السجن، ونحس يوم لا نقرأ فيه جريدة بضياع شيء ما أو نقص ما يقلقنا. ومما لا شك فيه أن متابعة قراءة الصحف مهما كانت، تجعل الذهن متنبهاً متابعاً للأحداث العامة والخاصة والسياسة وغير

السياسة المحلية والخارجية، وتجعل صاحبه يشعر أنه يعيش في خضم الحياة الإنسانية العامة. ومما كان من أحداث خارجية انفعل بها الناس ومن الجملة نابلس.

إعلان النمسا ضم البوسنة والهرسك وغضب الناس عليها:

بعد قليل من إعلان الدستور أعلنت النمسا ضم ولايتي البوسنة والهرسك، وكانت هاتان الولايتان من أملاك الدولة العثمانية ومحتلتين عنوة وبغيا من النمسا مع اعترافها بتابعيتهما للدولة، فالظاهر أن النمسا حسبت أن حالة الدولة قد تتحسن وتقوى ويجعلها ذلك تطالبها بالجلاء عن الولايتين، فأعلنت ضمهما اليها واعتبرتهما جزءاً من دولتها. وقد أثار ذلك موجة استنكار واحتجاج في أنحاء الدولة العثمانية، وانبثقت دعوة الى مقاطعة النمسا وبخاصة طرابيشها التي كان يلبسها معظم أهل مدن الدولة من موظفين وغير موظفين، وقد شاركت نابلس في ذلك، وأذكر أن مركز الاتحاد والترقي الذي قاد حركة الاستنكار والاحتجاج طلب من الحكومة المسارعة الى إنشاء معامل طرابيش للاستغناء عن طرابيش النمسا. ومن ذلك تحريك اليونان لجزيرة كريت واثارتها بقيادة زعيمها فنزيلوس، وكانت الجزيرة تحت سيادة الدولة العثمانية رسمياً. فأريد بالتحرك انهاء هذه السيادة وانضمام الجزيرة الى دولة اليونان، والمتبادر ان ما جعل اليونان تحرك الجزيرة هو حسبان تحسن حالة الدولة العثمانية وغدوها قادرة على تقوية سيادتها وقبضتها على الجزيرة أيضاً.

إعلان الجبل الأسود استقلاله وغضب الناس:

ومن ذلك مسارعة الجبل الأسود الى إعلان استقلاله، وكان هو أيضاً تحت سيادة الدولة العثمانية الاسمية. وقد انفعل الناس ومن الجملة نابلس، وأعلنوا استنكارهم واحتجاجهم. وعبر بعض شعراء لبنان عن ذلك بقصائد منها قصيدة لشبلي الملاط في صدد حركة النمسا مطلعها:

الا من يبلغ النمسا كلاما
نسجله ونورثه البنينا

وقصيدة لشاعر آخر في صدد حركة كريت مطلعها:

أَظَنَّ بنو اليونان ان سيوفنا
تثلمن أم أخنى علينا التناحر

وقصيدة لخليل المطران في صدد حركة الجبل الاسود مطلعها:

طغت أم الجبل الاسود
على حكم فاتحها الأيد

انتخابات مجلس النواب:

وبعد نحو شهر وردت الأوامر من العاصمة بإجراء انتخابات لمجلس النواب، وكان حسب الدستور نائب واحد لكل متصرفية فيها خمسون ألفا أو أقل. وكان حظ متصرفية نابلس في هذا الظرف عضوا واحدا، وحظ متصرفية القدس ثلاثة، وكانت متصرفية نابلس تابعة لولاية بيروت هي ومتصرفيات عكا واللاذقية، في حين كانت متصرفية القدس تسمى (متصرفية مستقلة) وتابعة لوزارة الداخلية بمثابة ولاية. وكانت أقضيتها الخليل ويافا وغزة.

وكان الانتخاب بحسب الدستور، وقانون الانتخاب على درجتين. انتخاب أولي يشترك فيه كل رجل بلغ الخامسة والعشرين من عمره، ولم يكن مجرما أو فاقدا حقوقه المدنية بموجب حكم. وكانت دائرة انتخابية في كل منطقة فيها

عدد من الناخبين. فينتخب منتخبو كل دائرة مندوبا يسمى ناخبا ثانويا، والمنتخبون الثانويون ينتخبون عضو المجلس النيابي.

ترشيح الشيخ أحمد الخماش وشجاعته:

ولقد رشحت جمعية الاتحاد والترقي لنيابة نابلس الشيخ أحمد الخماش، وكان هذا الرجل قاضيا شرعيا ثم تقاعد، وكان يحسن التركية لأنه تعلم في الآستانة وعمل قاضيا في بعض البلاد التركية، وكان يلقي دروسا في رمضان خاصة في جامع النصر في التصوف الاسلامي وتكون حلقة مستمعيه كبيرة. وكانوا معجبين بأقواله أو منبهرين بها، وكان كثير منها غامضة ومعميات فيحسبون الرجل من عظماء العلماء. ولقد لقي ترشيحه عند الناس قبولاً واقبالاً. وحلف يمين الإخلاص لجميعة الاتحاد والترقي وتم انتخابه بيسر. وظهر فيما بعد انه لم يكن له أي مشاركة في أي موقف سياسي وعمل تشريعي، وأنه كان دائم السكوت والانصات حتى صار مضرب مثل. ولقد أخذ يقع بعد سنة بين شباب العرب والترك ثم بين رجال الحكم من الفريقين نواب وغير نواب ملاسنات ومباينات في صدد حقوق العرب في الدولة ولغة العرب وموظفي العرب في سياق ما أخذ يظهر من شباب ورجال الترك من رغبة في توطيد الاستعلاء العنصري التركي في الدولة، فكتبت جريدة كان يصدرها إبراهيم النجار باللغة العربية في الاستانة اسمها (لسان العرب) نبذة عن نشاط ومواقف نواب العرب في المجلس النيابي مع صور كل منهم، نشرت من الجملة صورة الشيخ وكتبت تحتها (لا شغل له الا التسبيح وهو صامت صمت ابو الهول ازاء كل ما يجري في المجلس).

ولقد استغلت جميعة الاتحاد ما كان له من اسم، وتأكدت من ناحية أخرى انه لن يثير لها أي تعب وغبار، وأنه سيكون من المصوتين لكل مشروع اقتراح تقدمه فرشحته وأنجحته. وقد ظهر أن الجمعية فعلت هذا في متصرفيات وولايات عربية أخرى.

أعضاء نابلس في مجلس ولاية بيروت وشيء عن ذلك:

وكان مقتضى الدستور ان ينعقد في مركز الولاية مجلس ولاية مؤلف من مندوبين من المتصرفيات ينتخبهم الناخبون الثانويون أيضا،

وكان لمتصرفية نابلس مندوبان، وجرى انتخاب بعد قليل من انتخاب الشيخ أحمد، وتم انتخاب كل من الحاج حسن حماد وإبراهيم القاسم عبد الهادي لهذين المركزين، وكانا من أعضاء لجنة المعارف ومن النيرين في عقولهم وهممهم على ما ذكرته سابقا، وكان من مهمات هذا المجلس تشجيع وتوسيع وتحسين شؤون التعليم والطرق والصناعة والتجارة والزراعة،

ووضع ميزانية لذلك وتوزيعها على المتصرفيات لانفاقها على هذه الشؤون، وقد بذلا جهدهما في سبيل شؤون متصرفية نابلس وكانا متميزين من مندوبي المتصرفيات الاخرى على مسا علمته، ومما ذكره لي ابراهيم انهم كانوا في المجلس يتكلمون ويتداولون باللغة العربية ويترجم مترجم ما يقال في المجلس للوالي

حينما يكون حاضراً. وان الوالي تضايق من ذلك، فقال إنه يجب ان لا يأتي عضو الى المجلس إلا ويكون ملما بالتركية حتى لا يضيع الوقت في الترجمة، فقال له ابراهيم لإن يتعلم (واحد) العربية اسهل من ان يتعلم العشرات التركية والبلاد عربية في لغتها ولحمها ودمها فأفحمه القول، وكان يعنيه بكلمة (واحد).

شيء عن ثورة المشايخ ضد الدستور والولاء للسلطان:

وفي 31 مارس 1325هـ 1909م أبلغ موظفو البرق في العاصمة زملائهم في بيروت وغيرها خبر قيام حركة ضد جمعية الاتحاد والترقي والدستور وحكمه، بقيادة مشايخ دينيين على رأسهم شيخ اسمه (درويش وحدتي)، وأنهم استطاعوا أن يكسبوا تأييداً وأنصارا من كثير من المتدينين ومن ضباط الجيش في الآستانة، وان مطالبهم إلغاء الدستور وفض مجلس النواب وطرد جماعة الإتحاد والترقي الذين وصفتهم الحركة بالكفر والإلحاد، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية دستورا للدولة. وأنهم قتلوا بعض الوزراء والنواب، وأن رجال جمعية الاتحاد والترقي قد اختفوا، وان السلطان عبد الحميد استجاب لمطالبهم فأعلن وقف العمل بالدستور، وأمر بفض المجلس النيابي وعزل الحكومة التي كان وراءها الاتحاديون، وعين حكومة جديدة، وتعهد بأن تكون الشريعة الاسلامية هي دستور الدولة الوحيد.

وفي ثاني يوم عرف أن الحكومة الجديدة عزلت الولاة والمتصرفين الاتحاديين والموالين لهم وعينت ولاة ومتصرفين جددا موالين للسلطان، وأمرت بإطلاق مائة طلقة من المدافع ابتهاجا بهذا الحدث العظيم، وأمر الولاة والمتصرفون الناس باظهار الفرح والابتهاج بما وقع واعلان تأييد السلطان خليفة رسول الله أمير المؤمنين. وبدا بما يشبه اليقين أن السلطان كان وراء هذه الحركة، لأنه لم يهضم حركة تمرد الجيش في الروملي وإرغامه على اعلان الدستور.

تحليف الناس في نابلس للولاء للسلطان عبد الحميد، ونشاط الحاج توفيق حماد في صدد ذلك:

ومما كان في نابلس في صدد هذا الأمر آن الحاج توفيق حماد وجمعيته أو جماعته سارعوا الى اعلان تأييد الحركة والسلطان، وأخذوا يعقدون الاجتماعات ويحلفون الناس على المصحف بتأييد السلطان والشريعة الإسلامية، ويصفون جماعة الاتحاد بالكفر والالحاد، وبأنهم اعتدوا على مقام الخلافة الاسلامية.

وكان الحاج توفيق على رأس هذه الحركة ومعه رفاقه، وكانوا في كل ليلة يعقدون اجتماعا في احدى الدور الكبيرة في احدى الحارات ويستدعون الناس لليمين. وكان الناس يستجيبون لهم بداعي العاطفة الإسلامية، وقد شهدت أكثر من اجتماع من هذه الاجتماعات، ولمست الحماس الديني الذي أثارته جمعية الحاج توفيق. ولا بد من أن يكون شيء من ذلك جرى في غير نابلس من المدن العربية والتركية في مختلف أنحاء الدولة، لأن عواطف الناس الدينية قوية سهلة الإثارة.

تحرك الجيش من الروملي بقيادة عمر محمود شوكت وزحفه وخلع السلطان :

وتحرك جيش الروملي هذه المرة أيضا وزحف بقيادة محمود شوكت باشا الذي يوصف بوصف (الفاروقي)، الذي عرف فيما بعد أنه مستعرب من أكراد العراق أصلا ثم تترك. ودخل الجيش الزاحف الى الآستانة دخول الفاتح الظافر، وأخذ يطارد رجال حركة المشايخ من مشايخ وغير مشايخ، ويعتقل ويقتل بعضهم. ودعا أعضاء مجلس النواب والأعيان الى اجتماع مشترك، وجعلهم يقررون خلع السلطان

عبد الحميد وتعيين أخيه محمد رشاد مكانه، وعين السلطان الجديد وزارة جديدة رشحها الاتحاديون وكان فيها بعض أركانهم.

سفر بعض أعضاء الاتحاد والترقي من نابلس وغيرها:

ومما أذكره أن مركز الاتحاد والترقي في الأستانة أرسل خبرا سريعا للفروع بالزحف على الأستانة من كافة أنحاء البلاد، حتى يكون الزحف عاما من الجيش وغير الجيش، وان نحو عشرة أشخاص من نادي وجمعية الاتحاد والترقي في نابلس حملوا (البواريد) وسافروا نحو دمشق قاصدين الأستانة وعلى رأسهم اليوزباشي أمين، ومنهم أحمد حلمي عبد الباقي مدير البنك الزراعي، وعبد الفتاح ملحس أحد اساتذة المدرسة الإعدادية وهو نابلسي، وراغب شاهين وهو نابلسي ايضا.

موقف الحكومة الجديدة من الحاج توفيق وجمعيته:

ولم يكادوا يصلوا دمشق حتى كان جيش محمود شوكت قد انهى الأمر فعادوا. وقد عزلت الحكومة الجديدة الولاة والمتصرفين الذين عينتهم الحكومة السابقة، وعينت جددا موالين لها أو أعادت القدماء الموالين، وطلبت من متصرف نابلس ابعاد الحاج توفيق حماد وبعض رفاقه من نابلس الى بيروت، كما أبعد منهم حافظ المحمد وعبد الرحمن الحاج ابراهيم ركينتهم في جنين وطولكرم، وظلوا بضعة اشهر في بيروت متغيبين تحت المراقبة، وعين متصرف نابلس بشير طوقان قائمقاما لجنين لمحاربة نفوذ حافظ المحمد وجمعية الحاج توفيق فيها، وكان الحاج توفيق نافسه في رئاسة بلدية نابلس واستطاع بتعضيد جمعيته ان يدحره عنها ويحل محله فيها على ما ذكرناه قبل.

انتخابات جديدة لمجلس النواب وترشيح حيدر طوقان ومناصرة الحكومة له:

وبعد مدة من قمع حركة المشايخ قررت الحكومة حل المجلس النيابي وإجراء انتخابات جديدة، وكان الحاج توفيق ورفاقه قد عادوا من منفاهم فرشح نفسه للنيابة، لكن الحكومة الاتحادية استمرت على نهجها له. وأمرت المتصرف بايجاد منافس وانجاحه، وكان بشير طوقان قد توفي فشجع المتصرف ابن عمه حيدر على ترشيح نفسه. وكان هذا كاتبا في البنك الزراعي متخرجا من المدرسة الرشيدية، ويعرف اللغة التركية، وساعده المتصرف مساعدة فعالة حتى أنه لم يتورع عن كسر صناديق الانتخاب وملئها بأوراق فيها اسمه، وكان ذلك علنا مشهورا عرفناه يقينا، ولم يبد من حيدر أي نشاط وأثر في نيابته الا أنه احضر معه في عودة من عوداته في العطلة قارورة فيها شعرة من شعرات النبي ﷺ كما يقال، وكان له بسبب ذلك استقبال فخم واسم، ولم يتجدد انتخابه في الدورة التالية التي كانت بعد سنتين، لأن الحاج توفيق فاز عليه على ما سوف نشرحه بعد، ولكنه ظل يحاول التحرك وتحركه الحكومة الاتحادية والمنافسون للحاج توفيق وجمعيته، ثم عينه الاتحاديون في أثناء الحرب رئيسا للبلدية. وفي آخر عهد الدولة وقعت اختلاسات في البلدية فسحبت يده وعين وكيلا لرئاسة البلدية الشيخ عمر زعيتر على ما ذكرنا قبل، وجاء الاحتلال الانكليزي والشيخ في رئاسة البلدية، وبذل حيدر جهده مع الإنكليز واستعان باليهود في سبيل العودة الى الرئاسة ولكنه أخفق نتيجة لقوة وسعي الشيخ عمر، وسوف يأتي كلام آخر عن ذلك في مناسبات تالية.

شيء عن نشاط المتصرف فتحي ضد جمعية الحاج توفيق وتأليف كتلة مضادة لجمعيته:

ولقد كان المشرف على الانتخابات التي أنجح فيها حيدر، متصرف تركي اتحادي اسمه فتحي، وقد استمر في مناوأة الحاج توفيق وجمعيته، وشجع على تأليف هيأة مضادة لهم كان على رأسها الحاج محمد عبده وكان هذا غنيا سمح اليد. وكان له ولأخوته صبانتان وديوان مفتوح مطروق، وعمارات كثيرة في الحي الشرقي، حتى أنهم يكادون يكونون أكثر أهل نابلس تعميرا وبيوتا، وكانت دائرة البرق والبريد ونادي الاتحاد والترقي من جملة ذلك بالاضافة الى عمارات ودكاكين كثيرة في منطقتها فضلا عن غيرها. وقد نفخ فتحي فيه وجعله يجمع حوله كتلة مناوئة للحاج توفيق وجماعته.

كان من رأسها بالاضافة الى الحاج محمد عبده، حيدر طوقان بعد أن صار نائبا، وكان منها الشيخ رفعت تفاحة نقيب أشراف نابلس، وكان هذا الرجل كثير الحركة يخطب في المناسبات خطبا حماسية. وكان شديد التفاخر بالتعلق بالدولة والحكام، وكان منها الحاج نمر النابلسي وعبد الكريم اليوسف وآخرون ممن كانوا يحقدون على الحاج توفيق وجماعته ويرغبون في البروز أو التزلف للحكومة، ولقد توفي في هذا الظرف مفتي نابلس الشيخ حسين هاشم، وتطلع الشيخ نمر الداري لهذا المنصب فانضم الى هذه الكتلة ليناله، وقد ناله فعلا بتأييدها وتأييد المتصرف.

ومما أذكره أن الشيخ نمر كان كما قلت قبل شاعرا أو ناظما للشعر، نظم قصيدة مدح وشكر فيها شيخ الاسلام الذي عينه مفتيا، وكان اسمه خيري وجعل مطلع قصيدته:

خيري بل خير الناس
جميعاً أنت على التحقيق

وكان يرددها على مسامع زواره وأصدقائه كأنما أتى بالبليغ المعلق. على أن قلبه وروحه ظلا محتفظين باستقامتهما وعروبتهما، ولم يمنعه المنصب من ان ينتسب الى حزب اللامركزية الذي تأسس سنة 1912 للمطالبة بحقوق العرب في بلاد الدولة والدفاع عنها. وأدى ذلك الى فقد منصبه واعتقاله على ما سوف نشرحه بعد. ولما اعتقل فقد منصبه فحل محله فيه الشيخ منيب هاشم، أخ الشيخ حسين، الذي كان قاضيا كبيرا وعالما فقيها كبيرا أيضا، وكان قد تقاعد وعاد الى نابلس. وصارت الكتلة تنافس الحاج توفيق وجماعته في التزامات الاعشار التي كانت تدر أرباحا كثيرة على الملتزمين، وتكسب وجاهة ونفوذا على الفلاحين، وترسل الشكايات ضدهم وضد الموظفين الموالين لهم، وتنافسهم في المناصب الانتخابية مثل عضوية مجلس الادارة ورئاسة وعضوية البلدية وعضوية المحاكم التي كانت انتخابية.

إبراز الحاج محمد عبده وشيء عنه:

وفي هذا الظرف جرت انتخابات مجلس ادارة المتصرفية، وكان العضو السابق أحد جماعة الحاج توفيق، وأظنه الحاج بدوي عاشور، فدفع المتصرف الحاج محمد عبده لمنافسته وأنجحه، وصار هذا يلبس جبة سوداء سابغة، وبالغ في فتح ديوانه ويده وخزانته وصار رئيس الكتلة اسما وفعلا.

وكان الحاج توفيق حماد رئيسا للبلدية، فأمر فتحي باجراء انتخابات جديدة، وجعل الحاج محمد عبده ينافسه، وساعده على دحره عن الرئاسة والحلول محله فيها. وصارت تروى

النوادر عن أعماله وتصرفاته في البلدية، لأن عضوية الادارة لا تشفي ولا تكشف الشخصية كالبلدية، ولم يكن هو في عمله وخبرته أهلا لمثل هذا المنصب.

وما فعله فتحي ضد الحاج توفيق انتزاعه رئاسة جميعة المستشفى البلدي، الذي ذكرنا ما كان من جهده في جمع التبرعات له وانشائه حينما كان رئيساً للبلدية، ففتر هذا الجهد مدة ما.

شيء عن الانقلاب ضد حكم الاتحاد والترقي، وانتخاب الحاج توفيق حماد وأمين عبد الهادي للنيابة:

وفي سنة 1912 صار انقلاب ضد حكم الاتحاديين قام به الحزب المعارض لهم المسمى (حزب الحرية والائتلاف) في ظرف كانت حالة حكم الاتحاديين مرتبكة بسبب حرب البلقان التي انهزمت فيها جيوش الدولة في المرحلة الأولى منها، نجح الانقلاب وحلت حكومة الحزب المعارض محل الحكومة الاتحادية. وقد عزلت هذه الحكومة الولاة والمتصرفين الاتحاديين ومن جملتهم متصرف نابلس فتحي، وعينت ولاة ومتصرفين موالين لها، وحلت مجلس النواب وأمرت بإجراء انتخابات نيابية جديدة، وقد ترشح الحاج توفيق ونجح. ثم انحل المجلس وجرت انتخابات جديدة، وكان صار للواء نابلس مقعدان في المجلس النيابي، فترشح الحاج توفيق وترشح معه أمين الأحمد عبد الهادي ونجحا أيضاً.

شيء عن أمين الأحمد عبد الهادي:

وأمين هذا هو ابن أخ حافظ المحمد عبد الهادي، وأخو سليم عبد الهادي أحد شهداء جمال. وقد مر ذكرهما سابقاً. وقد تخرج أمين من المدرسة الملكية، وكان حين ترشيحه قائم مقاماً للناصرة، فكان ترشيحه وانتخابه سائغاً. ولقد كان حكومياً وحسب، فلم يبد منه نشاط سياسي ولا اجتماعي كأخيه سليم. وفي بدء الاحتلال الإنكليزي أظهر ميلا أو ولاء للانكليز، وصار يدعو الى التفاهم معهم، وصار له نتيجة لذلك مركز عندهم، حتى انهم عينوه عضواً في المجلس الاستشاري الذي انشأوه حينما صارت ادارة الحكم مدنية بدلاً من العسكرية، ثم عينوه في المجلس الشرعي الاسلامي الذي انشأه المسلمون في زمن الاحتلال على ما سوف نشرحه بعد، وظل محتفظاً بميوله وصفته الحكومية الى أن توفي في الخمسينات رحمة الله عليه. وكان حسن السمت حسن الحديث والفهم، وسوف يأتي ذكره في مناسبات أخرى.

وبعد عزل المتصرف فتحي خمدت حركة وكتلة الحاج محمد عبده، لأنهما كانتا في الحقيقة مسنودتين به، ولم يكن لهما قوة ذاتية، ولم يكن فيها رجال أقوياء في شخصياتهم ومواقفهم كما هي الحال في جماعة الحاج توفيق.

شيء عن حلول قرعتي العسكرية ودفعي البدل وذهابي ليافا للتمرين العسكري:

ومما كان من أحداثي الشخصية بعد إعلان الدستور، أن قرعتي للجندية النظامية قد حلت في أواخر (1908)، فدبرنا خمسين ليرة ذهبية بالدين من الحاج محمد عبده، ودفعنا البدل. وكان من النظام ـ كما ذكرت قبل ـ أن يتعلم دافعوا البدل ثلاثة أشهر الحركات العسكرية المتنوعة في قطعة عسكرية نظامية، وأرسلت الى قطعة في يافا واستأجرت غرفة أو سريرا في فندق، وكنا نذهب نهاراً الى القشلة فنتعلم الحركات العسكرية المتنوعة بإمرة ضابط تركي،

وكان التعليم صورياً أكثر منه جديا، وفي هذه الرحلة ركبت السيارة لأول مرة وكانت ملكا لنابلسي اسمه محمد سعيد الأدهم، وكان سائقها ألمانياً، وكانت تسير على بترول الإضاءة العادي وهو أحسن وأصفى من المازوت، ولكن البنزين أحسن وأصفى منه.

وفاة جدي لأبي الحاج درويش وشيء عنه:

وفي غيابي في يافا (1908/ 1909) توفي جدي لابي الحاج درويش، وكان يحبني وأحبه كثيراً، وكان شديد الرعاية لي والاهتمام بي، وقد أخذني في صغري الى موسم النبي موسى والى بيروت على ما شرحته سابقاً، وقد عمر كثيرا أكثر من كل أخوته الذين كان أكبر منهم، ومات بعدهم عن نحو خمس وتسعين عاما. وكان طويل القامة أبيض الذقن غير كثة. أبيض اللون يتعمم بعمة بيضاء على طربوش مغربي، ويلبس جبة على قنباز ويتدثر في الشتاء بالعباءة.

وكان شبه أمي فلا يقرأ ولا يكتب، وكل ما هناك أ ، تعلم كتابة اسمه. وكان ذكيا نشيطا خفيف الظل والروح ثاقب الفكر، وكان يستطيع أن يقص الاقمشة القطنية ويفصل منها قنابيز وسراويل وقمصانا للفلاحين ويركب أزرار الصداري ويخيط بعض الشيء. وكان مع أبي في المخزن التجاري.

كان محترما في الحارة ولدى الجيران والمعارف، وقد ظل يحتفظ بصفاء ذهنه ونشاطه ووعيه الى آخر حياته. ولقد كان يذهب ماشيا أحيانا الى قرية بيتا حيث كان له عملاء فيها ليتقاضى ما عليهم، والمسافة نحو 10 أو15 كيلومتر وهو في سن السبعين، وكان حينما سافر الى بيروت للشهادة وأخذني معه فوق الثمانين رحمة الله عليه رحمة واسعة.

وفاة مصطفى كامل رئيس الحزب الوطني:

ومن أحداث سنة 1908 وفاة مصطفى كامل رئيس الحزب الوطني في مصر، وكانت أخبار حزبه وخطبه ورحلاته تنشر في صحف مصر، ويرى الواعون في نابلس وغيرها في مصطفى كامل وحزبه حركة وطنية عظيمة ضد الاحتلال الانكليزي الذي ابتليت به مصر في سنة 1883. وصارت مصر نتيجة له تحت السيطرة الانكليزية فعلا رغم أنها ظلت اسماً تابعة لسيادة الدولة العثمانية. وأخذ أهلها يقاسون الشدائد منها، ويحاولون الانتفاض ضدها، فكان لخبر وفاته وما جرى له من موكب عظيم وما رثي به من قصائد بليغة وما ذكر من مآثره وجهاده من أثر في الواعين في نابلس ما يزال راسخا في ذهني.

احاديث طلاب الآستانة عن اعلان الدستور وانقلاب المشايخ ومواقف القوميين الترك وأثر ذلك فينا:

وفي موسم عطلة صيف سنة 1909 عاد الطلاب من الآستانة وحدثونا بما جرى ويجري في الآستانة من أحداث، وقد حدثونا عن حركة المشايخ بما يتطابق إجمالا مع ما شرحناه، وقالوا أنها كانت شديدة. وكان أنصار هذه الحركة يشتدون في البحث عن الاتحاديين والقتل لمن يظنونه منهم، وأن الاتحاديين بدورهم بعد زحف محمود شوكت وخلعه للسلطان أخذوا يطاردون رجال هذه الحركة ويفتكون بمن يظنونه منهم، حتى إن كثيرا من المشايخ حلقوا ذقونهم ولبسوا البدلات الافرنجية للاستخفاء.

وحدثونا فيما حدثونا به أن في صفوف الاتحاديين الكبار عددا من يهود سلانيك، وعددا آخر من مسلمي يهود سلانيك الذين كانوا يسمون (الدونمة)، وأن لهم نفوذا كبيرا في

الجمعية، وأن روح العنصرية التركية أخذ يشتد في شباب الترك والاتحاديين، وصار يوحي لهم بأنهم أصحاب الدولة والسلطان، وأن لهم الحق في أن يكونوا متفوقين في المناصب والمظاهر على العناصر الأخرى ومن جملتها العرب، وأنهم كانوا يصفون العرب بأوصاف بذيئة تحقيرية، وأنه كان يقع بين شباب العرب ورجالاتهم وبين شباب الترك ورجالاتهم مهاترات ومشادات بسبب ذلك. كما حدثونا عن جمعية الاخاء العثماني الذي أنشأها شفيق المؤيد ورفاقه من نواب العرب لتأييد الحقوق والمطالب العربية وعن نشاطها. وعن المنتدى الادبي الذي أنشأه شباب العرب في الآستانة للغرض نفسه وعن نشاطه أيضاً[1]. وقد سرت إلينا الروح القومية العربية وواجب المطالبة بالحقوق العربية في الدولة من هذه الأحاديث، وصرنا نؤيد ذلك وننشر بين الشباب أن العرب نصف الدولة أو أكثر، وأن اللغة العربية هي التي يجب أن تكون لغة الحكم والتعليم في بلاد العرب، وأن الموظفين في بلاد العرب يجب أن يكونوا من العرب، وأنه يجب أن يكون للعرب نصيب متناسب مع عددهم في الوزارات والرئاسات والمجالس المتنوعة في العاصمة ومن الجملة مجلس النواب والأعيان. ولقد استمرت هذه الأخبار تصل الينا من القادمين من الآستانة في العطل ونلمسها من لهجة الصحف التركية والعربية وبخاصة صحف بيروت ومصر، فيزدادا وعينا واندماجنا في الحركة العربية والحديثة.

ولقد حدثونا فيما حدثونا به من الوقائع المهمة من ذلك خبر مشادة بين طلعة وكان من أعظم البارزين الاتحاديين، وبين شفيق المؤيد مبعوث دمشق بسبب حقوق العرب والمطالبة بها، فقال طلعة كلمة نابية ضد العرب في سياق ذلك، فما كان من شفيق إلا أن أهوى بصفعة على وجهه وقع من جرائها على الأرض.

ومن ذلك خبر تطاول جريدة الإقدام التركية على العرب في مناسبة ثورة اليمن الامامية الزيدية على السلطات العثمانية، وهياج شباب العرب وقذفهم عمارة الجريدة بالحجارة.

ومن ذلك خبر اعتقال عزيز المصري وكان ضابطاً كبيراً في الجيش ومن الاتحاديين، ولكنه أخذ يصارحهم بوجوب الارعواء[2] والتسليم بحقوق العرب والمطالب العربية ، وعواقب الغلو في فكرة الاستعلاء العنصري التركي في الدولة، ويجمع ضباط العرب ويعمل على تكتيلهم في تنظيم سياسي عرف فيما بعد أنه (حزب العهد) (الذي فصلنا خبره في كتابنا المذكور في ذيل سابق). وأنهم دبروا له تهمة اختلاس كاذبة فاعتقلوه وحكموا عليه بالإعدام، وكان لذلك رد فعل قوي في صفوف شباب العرب ورجالاتهم. وظلت الحالة متوترة بسبب قضيته الى أن تدخلت مصر وتدخلت الحكومة البريطانية التي كانت تحتل مصر، فأطلق سراحه وأخرج الى مصر.

ومما كانوا يحدثونا به اشتداد النعرة الطورانية في شباب الترك، وتغيير كثير منهم أسمائهم بأسماء تركية قديمة، وانشائهم نواد سموها بأسماء تركية قديمة لنشر الروح التركية الطورانية المستهدفة إعلاء العنصر التركي على العناصر

(1) في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة تفصيل عن هذه المؤسسات العربية من ذاكرتنا ومن بعض الوثائق فلم نر إيراد تفصيل آخر هنا (انظر ص 350 وبعدها من ذلك الكتاب).

(2) الأرعواء: الكف عن العنصرية التركية.

الأخرى، وانشائهم الأناشيد في تمجيد جنكيزخان وعده معادلاً للنبي ﷺ (جدنا جنكيزخان مثل جد الحسين)، وهذا ترجمة من مقطع من نشيد (جد مز جنكيزخان بزم. جد مز جد الحسين بزم). ويصلون عليه حين ذكره، كما يصلي المؤمنون على النبي. وأنهم فعلوا مثل هذا باسم هولاكو (والتن آي) وغيرهما، وتأليف عالم ديني اتحادي اسمه (عبيد الله) كتاباً عنوانه (قوم جديد)، اعتبر فيه طلعة وأنور وجاويد وأمثالهم في مقام أبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة، وواجب الترضي عنهم حين ذكرهم. وفسر فيه القرآن تفسيراً يفرغ أركان الإسلام من مضمونها، وغمز فيه بالعرب وأخلاقهم وأنسابهم وتاريخهم ورجالاتهم.

وكانوا يحدثوننا عن ما كان يقع بين شباب العرب وشباب الترك بسبب ذلك في المدارس والأندية والاجتماعات من تشاد وتشاتم وتضارب.

فتورنا عن الاتحاد والترقي:

وكان نتيجة لما تنوقل من مواقف الاتحاديين ومحاولات العنصريين الأتراك تجاه العرب وحقوقهم في نفسي ونفس آخرين من نابلس أثر أدى إلى فتور علاقتنا بنادي الاتحاد والترقي وجمعيته ورجالاته، وتفكيرنا وسيرنا تفكيراً عربياً وقومياً. وما فكرنا فيه انشاء حمعية علمية عربية تهتم لنشر وتقوية التعليم العربي. وقد أنشأناها فعلاً وكنت أنا سكرتيرها والحاج نمر النابلسي أمين صندوقها، وإبراهيم القاسم والحاج حسن حماد والشيخ نمر الداري وكامل هاشم من أعضائها. ومن الجائز أنه كان معنا في الجمعية آخرون من مستنيري الشباب والكهول النابلسيين، وإن لم تسعف الذاكرة بذكرهم حين إعادة تدوين المذكرات.

شيء عن كامل هاشم أحد زملائنا فيها:

وكامل هاشم كان من الشباب الملمين بالأدب العربي منفتح الذهن ويحسن الكتابة بالعربية بعض الشيء، ويحفظ الشعر ويكتب مقالات أدبية وسياسية أحياناً، وكان أسن مني وإن كان أصغر من الثلاثة الأولين. وكان فيه شيء مما يسمى (قبضايات)، وهذه الكلمة كانت وما تزال تطلق على الشباب أصحاب النشوة والنخوة والحركة والقوة بين أقرانهم، ويكون لهم هيبة وحرمة ويتحاشى الناس الاختلاف معهم، وهي أصلها كلمة تركية (قباداي)، وكان يعاشر عوام الشباب ويحيا حياتهم أيضاً، وقد انسجمنا معه هو الآخر وصار صديقا لنا كالثلاثة إبراهيم وحسن والشيخ، وتعاونا معه في زمن الدولة العثمانية (ثم في زمن الإنكليز)، حيث كان عضواً في الجمعية الوطنية التي سميت بالجمعية الاسلامية المسيحية من جهة، وعضواً في عمدة مدرسة النجاح التي كانت تسمى مؤسسين من جهة أخرى. وكان يؤيدني فيما كنت أقترحه من أمور حينما كنت مديراً للمدرسة المذكورة على ما سوف أشرحه بعد. وظلت صداقتنا مستمرة الى أن توفاه الله في الثلاثينات رحمة الله عليه. وأعود بعد هذا الاستطراد الى الكلام عن الجمعية العلمية فأقول:

رواية تمثيلية لمنفعة الجمعية العلمية:

إننا حصلنا على رخصة بها من الحكومة في سنة 1910، ولقد مثل بعض شباب من نابلس رواية عربية على مسرح منشية البلدية، وكان أبرزهم وأذكاهم مهيب بن أديب النابلسي، وكان من تلامذة الكلية الإسلامية العباسية في بيروت، وكان جميلاً ذكياً لبق الحديث جم

النشاط، فاستقطب رفاقه، وتعاون في ذلك مع عزيز بن الحاج عبد الهادي القاسم عبد الهادي، الذي كان مشلولاً ومعتكفاً في غرفة قرب غرفة ديوان أبيه، وكان نشيطاً أديباً متحركاً. فكان الشباب يترددون عليه. واتفق مع مهيب ورفاقه على تمثيل الرواية التي أظن أنها رواية السجين، وكانت تدريباتها تجري في غرفة عزيز، وقد تم الاتفاق بين جمعيتنا وبينهم على رصد قسم من ريع الرواية للجمعية، وكان نحو ثلاثين ليرة ذهبية، وأودعنا المال في البنك الألماني الذي كان أنشىء في نابلس، وأخذنا نبذل الجهد في جمع التبرعات وضمها الى هذا المبلغ، وقررنا إنشاء مدرسة خصوصية يكون التعليم فيها قومياً باللغة العربية. وكان هذا من متطلعات الحركة العربية ومطالبها.

حصولي على رخصة بإنشاء مدرسة وتعثر التنفيذ:

وكنت قدمت باسمي طلباً للمتصرف بالترخيص بإنشاء المدرسة، ولم تكن وظيفتي في البريد مانعاً قانونياً لنشاطي هذا، وقد قدمت الطلب بيدي للمتصرف فتحي. فحدق بي كثيراً وقال لي لماذا تكون ذنباً للحاج توفيق وجماعته، فأجبته أنني لست ذنباً لأحد. وإنما أنا مع آخرين غيري يحبون العلم وخدمة أمتهم وبلادهم. وقد أرسل طلبي للولاية. وبعد بضعة أشهر جاء الجواب بالترخيص بفتح المدرسة، وكان الحاج نمر النابلسي قد وعد بدفع مبلغ كبير تبرعاً لهذا العمل فنكص ونكث وتعثر المشروع. وظل المبلغ القليل المجمع في البنك الألماني الذي أفلس وأغلق أبوابه بعد سنتين(1).

---

(1) نبذة صحفية عني في جريدة المفيد لسنة 1911.

هذا وبعد إعادة تدوين ما تقدم بنحو سنة ونصف تلقيت في مارس 1977 رسالة من الأستاذ أكرم زعيتر المقيم في بيروت نبذتين منقولتين من جريدة المفيد التي كانت تصدر في بيروت في زمن الدولة العثمانية واحدة بتاريخ 11 تشرين الثاني 1911 وثانية بتاريخ 29 تشرين الثاني 1911 والأولى بتوقيع فارس السخن من نابلس جاء فيها (شاب من شباب نابلس يحق لكل عربي متنور أن يفخر بمثله كيف وهو ذلك الشاب المفكر عزت دروزة الذي يسعى سعياً حثيثاً لاحياء اللغة العربية وبث روح الوطنية وينبه أفكار الشبيبة للعلم ويحرض كبار القوم لافتتاح المعاهد العلمية ولقد نهض في أثناء العطلة المدرسية وجمع شمل بعض متنوري التلامذة النابلسيين وأحيا ثلاثين ليلة معهم بالتمرن لشخص رواية وفاء العرب الشهيرة وقد توفق لتمثيلها ليلتين وقد أثرت كلمات وأفعال ذلك الفتى الغيور المتشبث في نفوس بعض متنوري كبار قومه فنهضوا وشكلوا جمعية وطنية لتقوم بالمشاريع الخيرية وصمموا على افتتاح مدرسة أهلية راقية واستخدموا قواهم لجمع اعانة يضمنونها لما جمعه المومى اليه عزت رفعت من ريع الرواية كي يكون مبلغاً كافياً لمصاريف المدرسة. حقق الله الآمال.

نبذة صحفية أخرى في صدد إنشاء جمعية للتعليم.

والنبذة الثانية (بدون توقيع) فيها ذكر للجمعية مع ذكر أشياء ليست في ذاكرتي. وفي مقدمة هذه النبذة أن المنتدى الأدبي قرر بذل الجهد لتوحيد التعليم في البلاد العربية وأن رئيسه قام برحلة في البلاد العربية أسفرت عن تأليف لجان لذلك. ومن جملتها نابلس حيث تألفت هيأة مؤسسة وهيأة ادارية وأعضاء الأولى عبد الكريم عبد الهادي والشيخ نمر الداري ووحيدر طوقان وتوفيق حماد وكامل هاشم وكمال الدين عرفات وحافظ طوقان. وأعضاء الثانية شاكر هاشم وعفيف عبد الهادي وعزت دروزة وعفيف الحسن وراغب شاهين وعبد اللطيف خماش ومحمد كنعان وعبد الغني عبد الهادي والحاج طاهر الحجاوي والحاج سعيد كمال ورفيق أبو العز (أبو غزالة على الأرجح). وأن الهيئتين تعهدتا بدفع ستين ليرة مساهمةً. فرأيت أن أثبت النبذتين ملحقاً بكلامي السابق. ولقد ذكرت في مناسبة أخرى أن عبد الكريم الخليل جاء لنابلس في هذا الظرف واشترك في اجتماع احتجاجي خطابي ضد نشاط الصهيونيين أقمناه في منشية بلدية نابلس ولكني لا أذكر أنه سعى في تأليف الهيئتين ولقد كنت من أبرز من كان يتحرك في نابلس من الشباب شهادة نبذة فارس السخن ولو كان له سعي لكنت أول من يعرف به =

تسجيل اعتزازي لتوالي انتداباتي للسكرتيريات في المؤتمرات واللجان:

وعلى ذكر سكرتيريتي للجمعية أسجل باعتزاز أني بعد هذا كنت أرشح دائماً للسكرتيريات في الهيئات السياسية والوطنية التي كنت أنشط في نطاقها في مختلف الظروف وحتى في عملي الرسمي الحكومي. وكان من أول ذلك بعد سكرتيرية الجمعية العلمية أن صرت سكرتيراً لفرع حزب الحرية والائتلاف الذي أنشأناه في نابلس في زمن الدولة العثمانية، ثم صرت سكرتيراً لمجلس رئاسة مديرية البرق والبريد في بيروت سنة 1916، وكان يشرف على أعمال ووظائف وموظفي نحو سبعين مركز برق وبريد في ولايتي سورية وبيروت ومتصرفية القدس، ثم رشحت وصرت سكرتيراً للجمعية الاسلامية المسيحية التي أنشأناها في بداية الاحتلال الانكليزي 1918، ورشحت وصرت سكرتيراً للمؤتمر الفلسطيني الأول الذي انعقد في القدس 1919، ورشحت وصرت سكرتيراً للمؤتمر السوري العام الذي انعقد في دمشق 1919- 1920، ورشحت وصرت سكرتيراً للجنة الدستور التي عينها هذا المؤتمر. ورشحت وصرت سكرتيراً للهيئة المركزية لجمعية العربية الفتاة في دمشق ولحزب الاستقلال وللجمعية الفلسطينية في دمشق في السنتين المذكورتين، وعدت الى نابلس فعدت لسكرتيرية الجمعية الوطنية الإسلامية المسيحية، ورشحت وصرت سكرتيراً للمؤتمر الاسلامي العام الذي إنعقد في القدس 1931، وسكرتيراً للجنة المركزية لإعانات

ويتحدث معه من أجله والأشخاص الذين وردت أسماؤهم في نبذة المفيد الثانية البارزين المتحركين النيرين في نابلس وكانوا شباباً وكهولاً ويجوز أن يكونوا سموا في سياق حركة تأسيس الجمعية ودعوا الى اجتماع وان لم أعد أذكر ذلك ولكن المؤكد لدي انهم لم يكن لهم اسهام عملي في الجمعية وكنت انا سكرتيرها ولولبها والعامل الأول فيها وكان المساهمون في نشاطها الفعلي هم الذي ذكرتهم قبل. ولقد أورد الأستاذ أكرم شيئاً في الجرائد عن رحلة عبد الكريم الخليل ونشاطه في سبيل تأليف اللجان العلمية وقد وجه الى نابلس وغيرها والى مصر فيكون ذلك حقيقة وان لم أعد أذكرها وتكون قد انطمست من ذاكرتي.

ومن هذا الباب أخبار قرأها الأستاذ أكرم في مجلة النبراس التي كان يصدرها الشيخ مصطفى الغلاييني في بيروت حيث ذكر خبر رحلة الى نابلس انتدبته لها جمعية الاتحاد والترقي في بيروت التي يظهر أنه من أركانها بقصد إصلاح بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في نابلس وحيث جاء في سياق رحلته أنه كان في نابلس جمعية الإخاء الوطني تضم عدداً وفيراً من رجالات وشباب نابلس ولها ناد تقام فيها الحفلات وتلقى الخطب وأنها أنشأت صندوقاً اقتصادياً للمشاريع الخيرية وأنه كان الى هذا جمعية وناد باسم نهضة التمثيل برئاسة السيد عزيز عبد الهادي وأنه زار نادي الاخاء وخطب فيه وأنا أذكر حقاً حادث قدوم الغلاييني بعد سنتين أو ثلاث من اعلان الدستور الى نابلس وتردد على نادي جمعية الاتحاد والترقي. ولكن لا أذكر أنه كان ما ذكره من جمعيات وأندية واجتماعات وكان المفروض أن ذلك لا يمكن أن يكون وأنا في عزلة وغفلة عنه وأنا من أبرز عناصر الشباب وأنشطهم حينئذ. ولقد ذكرت أن عزيز عبد الهادي كان مشلولاً في غرفة يتردد عليه بعض الشباب واستطاع بالتعاون مع مهيب نابلسي ورفاقه أن يحضر تمثيل رواية في نابلس كان بعض ريعها لجمعيتنا العلمية ولقد كان بعض شباب الأسر البارزة النيرين يلتقون مع رفاقهم في دواوين في بيوتهم ومن ذلك ديوان آل هاشم وديوان آل حسين عبد الهادي وديوان آل الداري وديوان آل الخماش وقد يكون بعض الشباب أخذوا الغلاييني الى أحد هذه الدواوين وعلى كل حال فإما أن يكون خبر الغلاييني تزويقاً صافياً أو يكون مما انطمس من ذاكرتي. وقد يكون مثل ذلك جرى في حوادث عديدة كلية وجزئية وعامة وخاصة على كثرة ما دعته ذاكرتي من تفاصيل ودقائق وجزئيات وأحداث. وجل من لا ينسى.

المنكوبين سنة 1936، وسكرتيراً للجنة العربية العليا سنة 1936، وسكرتيراً عاماً لمؤتمر بلودان العربي سنة 1937. وهذه من المظاهر الفريدة. وأسجل باعتزاز أني لم أكن في سكرتيرياتي كاتب جلسة ومحضر فقط، بل كنت لولباً محركاً ونشيطاً ملاحظاً ومنظماً للعمل الكتابي والتنفيذي. والراجح أن هذه المزية التي أحمد الله على فضله علي بها هي التي كانت تجعل رفاقي يسندون الي السكرتيرية ويقدرون عملي وينسجمون معي.

شيء عن الحزب المعارض للاتحاد والترقي وانشائنا فرع له في نابلس:

وأعود الى السياق فأقول، إن جماعة من نواب المجلس النيابي عرب وغير عرب أنشأوا في أوائل سنة 1910 حزباً لمعارضة جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تهيمن على الدولة وتحاول أن تحتكر الحكم وتسير وفق ما تراه.

وكان إسم الحزب (الحرية والائتلاف)، وكان من منهاجه أن يكون حكم الولايات لا مركزياً أي تكون شؤون التعليم والتجارة والصناعة والزراعة والطرق من اختصاص الولايات، وليست مركزية تسيرها الوزارة في العاصمة، وأن يكون التعليم في البلاد بلغة أهلها، والموظفون في البلاد من أهلها، وأن يكون لكل جنس من الأجناس المنضوية في الدولة العثمانية مناصب ومراكز في العاصمة وفي مجلس النواب والأعيان، وما يتناسب مع عدده، وكل هذا مما صار من المطالب العربية أيضاً، فقررنا في نابلس إنشاء فرع لهذا الحزب، وأنشأناه فعلاً في أوائل سنة 1912، وكان رئيس هذا الفرع توفيق عبد الغني عبد الهادي وهو رجل نير كان قائم مقاماً وتقاعد ويعرف التركية بالإضافة الى العربية وقوانين الحكومة. وكنت سكرتيراً لهذا الفرع، وكان إبراهيم القاسم والحاج حسن حماد وكامل هاشم من أعضائه، وأنا الذي قدمت طلباً بالرخصة وحصلت عليها من الحكومة، وصنعت عند صانع أختام ختماً للفرع. وصرنا نجتمع في بيت رئيسه ونكتب احتجاجات أو نقدم مطالب حسب مقتضى الحال، ونرسل برقيات لتأييد مركز الحزب الرئيسي الذي كان رئيسه العام (الميرالاي محمد صادق)، وكان هذا تركياً اتحادياً ثم انشق عن الاتحاديين مع جماعة من رفاقه لما لمسوه في أركان الاتحاديين مثل طلعة وجمال وجاويد وجاهد من فكرة التحكم والاستعلاء العنصري وأسسوا هذا الحزب.

ولم تكن وظيفتي في البريد مانعة قانونية لنشاطي في هذا الحزب، لأن الدستور ضمن لجميع الناس حرية التجمع، ولم يكن في القوانين السائدة منع للموظفين من المشاركة في ذلك. ولقد استطاع هذا الحزب أن يقوى وأن يقوم بانقلاب ناجح ضد الاتحاديين، وأن يستلم الحكم فترة قصيرة في ظرف حرب البلقان التي ذكرتها قبل، ونذكرها بعد في ظل حكمها القصير. ولقد ظهرت في أثناءه الحركة الاصلاحية في بيروت وغيرها، وحزب اللامركزية في مصر. ومات مشروع امتياز الأصفر الذي كان يرمي الى استعمار اليهود لغور الأردن على ما سوف نشرحه بعد.

وحي وظروف كتابتي وطبعي لرواية وفود النعمان:

وفي هذه الظروف انبثقت في ذهني كتابة رواية (وفود النعمان على كسرى انوشروان)، والرواية في أصلها من روايات كتاب الأغاني

لـلأصفهاني، وهي مختصـر في هذا الكتـاب فـوسعتها، وكنت قـد قـرأت كتـاب أم القـرى للكواكبي، وفيه فكرة مؤتمر اسلامي عربي في مكــة للنــظر في شؤون وأحــوال المسلميـن والعرب، فضمنت هذه الفكرة في الرواية التي كتبتها وجعلتها عـربية قـومية، وسـألت مطبعـة ثمـرات الفنون في بيـروت عن كلفـة طبعهـا، وأخبرتني أن خمسمائة نسخة منها تكلف خمس ليـرات ذهبيـة، فـدبـرت المبلغ وأرسلتـه مـع مخطوطة الرواية فطبعتها وأرسلت إليّ نسخها، فبعت بعضها ووزعت أكثرهـا. وحينما صـرت مديراً لمدرسة النجـاح في سنة 1922 عـدلت صيغة الروايـة وجعلتها تمثيليـة، ومثلتها فـرقة التمثيل التي أنشأتها في المدرسـة على مسرح قهــوة الشيـخ قــاسم بنـابلس. وقــد استعـار المخطوطة بعض الأندية وضاعت.

مقالات الى جريدة الحقيقة في بيروت وظروفها ومداها:

وفي سنتي 1911 و1912 حاولت أن أقلد المنفلوطي الـذي كان يكتب مقـالاتـه بعنـوان نـظرات وتنشرهـا له المؤيـد بمـواضيـع أدبيـة وإجتمـاعية وأخـلاقية، وكـان لها وقـع عـظيم لماكان عليه أسلوبها من قوة ونفوذ، فكتبت مقالاً اجتمـاعيـاً وأرسلتـه الى جـريـدة الحقيقـة في بيروت، وكان يصدرها كمال بن الشيخ أحمـد عباس الأزهري رئيس الكلية الاسلامية العلمية في بيروت فنشرتها. وسرني ذلك فصرت أكتب كل أسبوع مقـالاً اجتماعيـاً وأخلاقيـاً أو وطنياً وأرسله الى جريدة الحقيقة فتنشره، وأظن أني كتبت نحو عشرين مقالاً ولم أحتفظ مع الأسف بنسخ الجرائد ولا بأصول المقالات[1].

---

(1) ولقـد رجوت الأستـاذ أكـرم زعيتـر ان يبحث في ملفـات الحقيقـة عن هذه المقـالات وقد رأيتـه يبحث في ملفات الجرائد الأخرى ويستخرج نتفاً ويرسل إلي ما له علاقة بي وبذل جهده فاستطاع أن يعرف عناوين وتواريخ المقالات وهذا هو المثبت الذي أرسله لي في كتابه 1977/8/2 أثبته شاكراً له جهده.

1 ـ أهل البر والإحسان ـ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ـ 21 تشرين الثاني 1910 الصفحة 1.

2 ـ احتقـار الذي هـو أدنى دعـوة الى الـرفق بـالإنسـان الضعيف وبث روح الرحمة. 10 نيسان 1911 صفحة 1.

3 ـ المعلمون ـ 8 أيار 1911 صفحة 2.

4 ـ حالتنا ـ 4 آب 1910 صفحة 2.

5 ـ التمثيل وفوائده ـ تمثيل رواية سجن الظلم صفحة 1.

6 ـ ما هي السعادة 26 ايلول 1910 صفحة 1 افتتاحية.

7 ـ التضامن والوفاق 30 تشرين الثاني 1910 صفحة 2.

8 ـ التربية الاجتماعية ـ المبدأ ـ 23 أيار 1911 صفحة 2.

9 ـ التربية الاجتماعية ـ قول الشرف ـ 5 حزيران 1911 صفحة 1.

10 ـ نحو الدستور في ثلاث سنوات 7 آب 1911 صفحة 2.

11 ـ الانتخابات النيابية، المجلس النيابي، اخدموا الوطن بالحق والعلم ولا تهدموه بالتمويه والجهـل شباط 1912 صفحة 1.

12 ـ الانتخابات النيابية ـ المقال الثاني 5 شباط 1912 صفحة 2.

13 ـ الانتخابات النيابية المقـال ـ الثالث ـ ألقـوا مقاليـد الـوطن لمن يحفظه من الأمنـاء ولا تتركـوه مشاعـاً تنهشه الأعراض وتجتاحه الأهواء 12 شباط 1912 صفحة 2.

14 ـ الثابت ـ المقال الرابع 15 شباط صفحة 1.

15 ـ الثابت ـ المقال الخامس 22 شباط صفحة 1.

أعدى العداوة عداوة المرء لنفسه وأعدى عداوة المرء لنفسه يسلم شؤونه الأغبياء الأغرار.

16 ـ الانتخابات النيابية ـ المقال السادس.

17 ـ الانتخابات النيابيـة ـ المقال السابع ـ الطفيلي الوقح 11 آذار 1912.

18 ـ الانتخابات النيابية ـ المقال الثامن 28 آذار 1912.

19 ـ أجب داعي الحق أيهـا النشء الثابت 15 نيســان 1912 افتتاحية.

شيء عن ذكرياتي عن نشاط الصهيونيين ونشاط العرب المضاد له:

ولقد صرنا نعرف مما كان ينقله لنا طلاب الآستانة حين عودتهم، أن بين أركان الاتحاد والترقي أفراد من اليهود، ولهم تأثير كبير في مركز الجمعية وشؤونها، وأنهم استطاعوا أن يستصدروا قراراً برفع الحظر عن شراء اليهود للأراضي وعن هجرتهم الى فلسطين وإقامتهم فيها. و كان هذا أو ذك محظورين قبل إعلان الدستور بأمر من السلطان عبد الحميد نتيجة للشكايات التي رفعها عرب فلسطين إليه، ونبهوا فيها على نشاط اليهود ومطامعهم في فلسطين والأخطار التي سوف تحيق بهم إذا ترك هذا النشاط والمطامع دون منع وردع، ولقد كان هرتسل الزعيم اليهودي الصهيوني الذي سعى ونجح في عقد مؤتمر لليهود في بال سنة 1897 قرر إقامة دولة يهودية في فلسطين، والسعي في زيادة الهجرة اليها وتملك الأراضي فيها، زار بعد ذلك المؤتمر السلطان وطلب منه أن يبيع فلسطين لليهود، أو يسمح لهم بالهجرة إليها والتملك والتوطن فيها مقابل مساعدات يقدمها اليهود للدولة، وقد رفض السلطان رفضاً باتاً وأمر بتشديد الرقابة على نشاط اليهود والحظر السابق لهجرتهم الى فلسطين واقامتهم وتملكهم فيها، فلما تم خلع السلطان سعى اليهود مع رجالاتهم في جمعية الاتحاد والترقي لرفع ذلك الحظر، وتم ذلك في الفترة الأولى من حكم جمعية الاتحاد والترقي على ما ذكرناه آنفاً.

وكان عيسى العيسى أصدر جريدة في زمن الدستور في يافا هي (فلسطين)، ونجيب نصار أصدر جريدة في حيفا هي (الكرمل)، فكانت الجريدتان تذكران ما يقوم به اليهود من نشاط وما يمكن أن يكون لذلك من خطر محذرتين منبهتين مطالبتين من الدولة أن تعيد الحظر السابق، وكانت الكرمل أشد في ذلك، حتى أنها نشرت ترجمة كتاب (الدولة اليهودية) لهرتسل، وقرارات مؤتمر بال وأقوال وتصريحات زعماء اليهود التي كانت تكشف مطامع اليهود في فلسطين ونشاطهم العظيم في سبيل ذلك.

ولقد صرنا نسمع في نابلس بعد خلع السلطان عبد الحميد واستتباب الهيمنة والسلطة لجمعية الاتحاد والترقي عن ازدياد النشاط اليهودي في شراء الأراضي في منطقة يافا وحيفا، ومن الجملة مرج بن عامر قرب الناصرة. وسمعنا أخبار صدام بين الفلاحين في قرية العفولة وبين اليهود الذين جاءوا للاستيلاء على الأراضي بعد شرائها ومعهم الموظفون الذين جاءوا لمساعدتهم على الاستلام والاستيلاء، وعلمنا بعد ذلك أن قائمقام الناصرة شكري العسلي الدمشقي (أحد رجالات العرب) اعترض على بيع مرج ابن عامر، لأن القرى التي فيه كان يسكنها فلاحون متصرفون في أراضي هذا المرج تصرف زراعة واستغلال منذ مئات السنين، وقال إنهم أصبحوا أصحاب حق مكتسب ولا يجوز إخراجهم منها. وقام خلاف بينه وبين والي بيروت الذي كان في جانب وجوب تنفيذ البيع وتسليم الأرض لليهود، وإن الوالي شكى من معاكسته لوزارة الداخلية فعزلته.

وبذلك تمت مرحلة من مراحل تملك اليهود لهذا المرج الذي كانت أراضيه وقراه في ملكية آل سرسق البيروتيين الذين اشتروها من الدولة بالمزاد العلني، لأن أصحابها ومزارعيها القدماء خافوا من تسجيلها على أنفسهم في وقت التسجيل تفادياً من الضرائب والجندية، فصارت محلولة بدون صاحب مسجلة عليه، فوضعتها

الدولة للبيع في المزاد واشتراها آل سرسق، وهذا شأن أكثر القرى والأراضي التي كانت في ملك ملاك من بيروت ودمشق، والتي اشتراها اليهود منهم في زمن الدولة العثمانية أيضاً. وواضح أن موقف العسلي كان حقاً وشرعياً لأن الفلاحين هم أصحاب الأرض سابقاً وأصحاب اليد حاضراً، وكان النيّرون الواعون في يافا والقدس وحيفا اللامسون مباشرة لنشاط اليهود ومطامعهم يرسلون الاحتجاجات وينشروها وينشرون المقالات والنبذ التحذيرية في جريدتي (فلسطين) و(الكرمل)، وقد سرى ذلك الى نابلس، فصرنا نحن أيضاً نرسل الاحتجاجات والشكايات والتحذيرات، ولقد رشح شكري العسلي بعد عزله عن قائمقامية الناصرة للنيابة عن دمشق فنجح، وأثار هو وروحي الخالدي نائب القدس وغيرهما من نواب فلسطين وبلاد العرب مسألة النشاط والمطامع اليهودية في فلسطين، وانتقدوا تساهل السلطات الحكومية في ذلك.

ولكن تأثير ذلك بقي ضعيفاً في المرحلة الأولى، لأن رجالات اليهود كانوا أقوياء في جمعية الاتحاد والترقي التي كانت هي المهيمنة، فخففوا من تأثير الحملات العربية، ولقد طمع اليهود في استعمار غور الأردن الذي تبلغ مساحته مئات آلاف الدونمات، والذي يجري فيه نهر الأردن، بالإضافة الى ما فيه من مياه أخرى، والذي يعتبر من الأراضي الخصبة، فدفعوا سمساراً في بيروت اسمه نجيب الأصفر، فطلب امتيازاً بذلك، وسارت المعاملة. وعلم بذلك العرب وصحفهم بالأمر، فثارت ثائرتهم وصحفهم، وأقاموا ضجة كبيرة وعقدوا اجتماعات احتجاجية في مدن فلسطين من جملتها نابلس. وأذكر أن بعض رفاقنا أخذ رخصة بعقد اجتماع احتجاجي في منشية بلدية نابلس وكانوا يسمونه (ميتنج) (meeting)، واجتمع الناس وكنت من الجملة، وخطب الخطباء وقرروا ارسال برقيات احتجاجية على المشروع وعلى نشاط اليهود. وأظن أن ذلك في أواخر سنة 1911، وأن عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي في الآستانة وبعض شباب المنتدى كانوا في نابلس واشتركوا في الاجتماع والخطابة والاحتجاج.

وفي أواخر سنة 1911 تحركت امارات البلقان ضد الدولة، وكانت بلغارية تحت السيادة العثمانية فأعلنت تمردها عليها، وكان في الروملي ولايات عثمانية مجاورة لليونان وفيها كثير من اليونانيين، فاعتدت اليونان عليها لأجل ضمها اليها. وكانت ولايات عثمانية أخرى مجاورة للصرب فاعتدت دولة الصرب عليها لأجل ضمها اليها وهكذا نشبت الحرب بين الدولة العثمانية من جهة وبلغاريا واليونان وصربيا معاً من جهة أخرى، وكانت هذه الدول مؤيدة سراً وعلناً ومادياً وسياسياً من بعض دول أوروبا، وقد تكشفت الجولة الأولى ودحرت الجيوش والسلطات الحكومية العثمانية فارتبكت حالة الدولة واشتد الحرج والنقد ضد حكومة الاتحاديين، وكان من نتيجة ذلك أن أمرت هذه الحكومة بالتريث في مشروع الأصفر وبإعادة شيء من الحظر السابق الذي ألغي عن هجرة اليهود وتملكهم مراعاة للعواطف العربية المتأججة ضد ذلك في هذه الظروف، ولقد قام الحزب المعارض (حزب الحرية والائتلاف) في هذا الظرف بانقلاب ضد هذه الحكومة وأسقطها وحل محلها في الحكم في أواسط سنة 1912، فمات مشروع الأصفر بالمرة كما تأكدت أوامر الحظر وقوته.

وحي وظروف كتابتي لرواية السمسار وباعة الأرض:

ولقد كانت تبلغنا أخبار نشاط السماسرة العرب وأساليبهم الخبيثة في إقناع أصحاب الأراضي ببيع أراضيهم لليهود، فانفعلت بذلك وكتبت رواية تمثيلية عنوانها (السمسار وبائع الأرض)، وأدرت الكلام والحوار فيها على خبث السماسرة وجهدهم ونجاحهم على محاولات اليهود في استرداد المال الذي دفعوه ثمن الأرض، متمثلاً في محاولة بنت الشاري وسميتها (كوزيت) إغراء ابن البائع وسحب كثير من المال الذي أخذه أبوه من أبيها، وقد مثلت هذه الرواية على مسرح المنشية في بداية الاحتلال في نابلس، ثم استعارها بعض الأندية ومثلتها وضاعت المخطوطة. ولقد أوردت الدكتورة خيرية القاسمية في كتابها (صدى النشاط الصهيوني 1908ـ 1918) نص كتاب أرسلته أنا الى صاحب الكرمل فيه بناء على جهوده في تنوير الشعب بمطامع اليهود وأخطار حركتهم على البلاد وتأييده وتشجيعه. وهو من آثار ذلك الانفعال بدون ريب. ولعلي كتبت مقالات ورسائل من باب ذلك نشرت لي في الصحف، ولعل مقالاتي لجريدة الحقيقة ما هو من هذا الباب، وهكذا أسجل باعتزاز أني أسهمت في الصراع ضد الصهيونية منذ وعيت وبدأت بالنشاط السياسي.

ذكريات عن عدوان ايطالية على ليبية أو طرابلس الغرب:

ومما كان من أحداث هامة في حقبة الدستور وكان لها أثر في نابلس وغيرها من بلاد العرب وانفعلنا بها، عدوان الدولة الايطالية على طرابلس الغرب في خريف عام 1911، وقد قوبل هذا العدوان بموجة من الاحتجاج والاستنكار في مختلف أنحاء بلاد الدولة ومن جملتها نابلس، وصارت تؤلف جمعيات لجمع الإعانات وإرسالها إلى أهل طرابلس الذين انبروا لمقاومة الغزو متضامنين مع قوات الدولة العثمانية، وكنت من الذين انفعلوا بهذه الحركة وأيدوها وشاركوا فيها.

مقالات الأمير شكيب أرسلان وشيء عنه:

ومما أذكره في هذه المناسبة مقالات بليغة الأسلوب فصيحة جداً كانت تنشرها جريدة المؤيد بتوقيع (ش) وعنوان (لسعادة الكاتب الكبير)، وقد عرفنا بعد أنها بقلم الأمير شكيب أرسلان، وهي أول ما قرأته له وتدل على قوة قلمه وسعة اطلاعه. وكان فيها تعريف ببلاد طرابلس الغرب وتاريخها وأهميتها، وإستنكار شديد لعدوان الطليان ودعوة الى الجهاد ضدهم ومساعدة أهلها والمدافعين عنها.

وأستطرد الى ذكر شيء عنه فأقول إنه من الطائفة الدرزية من جبل لبنان (التي شرحنا نشأتها وعقائدها في الجزء الأول من كتابنا «العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي» ونكتفي بالإشارة إلى ذلك) وكان سليماً صادق الإيمان قائماً بواجباته الإسلامية مدافعاً عن الإسلام ومبادئه وأهدافه. ولم تكن تلك النسبة الا من قبيل التاريخ والجغرافية بالنسبة إليه، وهو من أسرة تنتسب الى الملوك التنوخيين قبل الإسلام، وكان لها إمارة في لبنان بعد الإسلام (مما فصلنا ذلك أيضاً في كتابنا المذكور). وهو واسع الاطلاع على التاريخ والأدب والتراث الإسلامي والعربي والغربي. وله مؤلفات وأبحاث قيمة في ذلك. وهو كاتب فصيح طويل النفس حتى لقب بأمير البيان. وهو

كذلك شاعر كبير له قصائد بليغة في أغراض متنوعة، وأخوه نسيب شاعر كبير، وأخوه عادل شاعر وكاتب أيضاً. ولم يكن مؤيداً لحركة مطالبة رجال العرب وشبابهم بالحقوق العربية في الدولة العثمانية، وكان يحذر من مغبة ما يجره ذلك من عداء بين الترك والعرب يكون ضرره على الطرفين معاً. وكان يدعو الى الأناة وعدم الغلو في المطالبة، وكان في ذلك على خلاف مع أكثرية رجال العرب وشبابهم. وظل على موقفه الى ما بعد إعلان الحرب منسجماً مع الاتحاديين، رغم ما كان من جمال باشا ومن الاتحاديين من مطاردات شديدة لرجال وشباب العرب وشنق عدد كبير منهم ونفي عدد عظيم من أسرهم الى الأناضول، وكان موقفه في نظري غير مصيب،(وقد شرحت ذلك في كتابي (نشأة الحركة العربية الحديثة) شرحاً يغني عن تكراره)، وسيأتي كلام عن ذلك أيضاً في مناسبات آتية.

وبعد الحرب عاد فوقف قلمه وجهده على قضايا العرب والمسلمين، وصار من رجالاتهم المحترمين من الجميع المشار اليهم بالبنان، وقد التقيت به في دمشق ثم في فلسطين بعد الحرب أكثر من مرة، وهو حسن الحديث قوي الحجة فصيح بليغ واسع الاطلاع صلب في رأيه ومواقفه، ويكتب بخط خاص وحرف كبير وجميل وطريف وفريد، وقد قضى معظم حياته بعد الحرب في أوروبا وفي سويسرا خاصة يجاهد ويكتب ويدافع عن قضايا العرب والاسلام. وله تآليف عديدة وهوامش واسعة وعظيمة الفائدة على كتاب حاضر العالم العربي الذي ترجمه عجاج نويهض عن الانكليزية الى العربية في الأربعينات، وقد عمر ثمانين عاماً أو أكثر، واحتفظ بوعيه وصفاء عقله ونشاطه حتى آخر عمره. ومرض في أوروبا وجيء به الى بيروت حيث توفي ودفن في 1946. رحمة الله عليه.

رحلتي الى بيروت في سنة 1912 وأسبابها وذكرياتي عنها:

وفي سنة 1912 سافرت الى بيروت بإجازة بسبب قضية لأخي محمد علي، فقد دخل بعد إنهائه المدرسة الابتدائية للمدرسة الإعدادية. واتفقت مع أبي على ارساله الى مدرسة دار المعلمين في بيروت. وكان بعض رفاقه وغيرهم قبله قد ذهب اليها وكان ذلك في سنة 1911 وكان عمره نحو خمس عشرة سنة، وكانت المدرسة حكومية داخلية ينام الطلاب ويأكلون ويتعلمون مجاناً ولا يتكلف الطالب إلا بمصروفه الشخصي، وكان نحو نصف ليرة ذهبية في الشهر، وكنا نرسله اليه في البريد أو محولاً على عميل أبي. ولقد كان للحركة العربية المطالبة بالحقوق العربية والمنشأة مع الأتراك وجمعية الاتحاد والترقي في سبيلها، والتي كان لها آثار وصدى انفعال في نابلس، على ما ذكرته قبل، شيء من الأثر في نفسه في نابلس، ثم قامت في ظروف وجوده في بيروت الحركة الإصلاحية البيروتية (التي فصلتها في كتابي (نشأة الحركة العربية الحديثة)، والتي سيأتي كلام آخر عنها في مناسبات آتية) فانفعل أخي وبعض رفاقه في المدرسة بهذه الحركة، وتزعم فريقاً من الطلاب بسبيلها، وصار يقع بين فريقه من ناحية وبين بعض الطلاب الترك ومعلمي المدرسة من ناحية مشادات ومهاترات، وقد عاقبته المدرسة بالطرد لسبعة أيام كإنذار نهائي له. وعلمت بذلك فأخذت إجازة وسافرت الى بيروت وكان فيها زكي التميمي، وأنا أعرف زكي في نابلس وكان في وظيفة معاون والي تمهيداً لتعيينه قائمقاماً

لأنه تخرج من المدرسة الملكية العالية على ما ذكرت قبل. فبحثت عنه واجتمعت به، وبطريقه تعرفت واجتمعت مع معين الماضي وعادل العظمة وكانا مثله معاونين للوالي تمهيداً لتعيينهم للقائمقاميات، وقصصت عليهم قصة أخي وكانوا منفعلين بالحركة العربية والإصلاحية. وقد بذل الثلاثة جهودهم حتى سويت مشكلة أخي وعاد الى مدرسته، وظل منسجماً فيها. وقد طلب الثلاثة مني تأييد الحركة الإصلاحية في نابلس فوعدتهم بذلك.

أخي محمد علي:

استطرد في هذه المناسبة لأتمم الكلام عن أخي محمد علي فأقول انه كان أصغر مني بسبع أو ثمان سنوات، وكان شديد الشكيمة حديدي المزاج منذ صغره، وحينما صار فتياً انفعل بالحركة العربية وظل منفعلاً بالتيار العربي، وكان ما ذكرناه عنه في المدرسة.

وفي سنة 1915 نقلت مدرسته الى دمشق بمناسبة الحرب، وكان على وشك التخرج من المدرسة، والتقيت به في دمشق فأخبرني أنه وردت أوامر بتجنيدهم للخدمة الاحتياطية التي كان يجند فيها شباب المدارس العالية ليصبح الطلاب ضباطاً احتياطيين في الجيش. وكان شباب العرب أخذوا ينفرون من الخدمة العسكرية في ظل الحكومة القائمة التي تتنكر للحقوق العربية والتي أخذت تطارد شباب العرب وتعتقلهم وتحاكمهم، فطلبت منه أن يختفي، وكنت اذ ذاك في وظيفة تسمى مأمور احتياط جوال على الشواغر في مراكز البرق والبريد، وكانت لي كلمة مسموعة عند رئيس المديرين. فكتبت له برقية أرشح أخي فيها لوظيفة في دائرة البرق. إذ كان أثناء وجوده في المدرسة الإعدادية في نابلس يتردد على دائرة البرق والبريد ويتدرب الضرب على الآلة، وصار ذا مهارة لابأس فيها. كما كان موظفو البرق والبريد يستثنون من الجندية. وتلقيت في ثاني يوم جواب رئيس المديرين بالموافقة على تعيينه مأموراً الى يافا، فسلمته البرقية وطلبت منه السفر سراً الى يافا دون التعريج على نابلس، فلما بحثت دائرة التجنيد والمدرسة عنه كان قد استلم الوظيفة وتحصن بها عن الجندية، ثم نقلناه الى نابلس، ثم نقلناه مديراً لمديرية مركز جنين، وقد استحضرت الى بيروت قسماً من الأسرة (زوجتي أم زهير ووالدي وشقيقتي وابني زهير الذي كان يحبو)، وقسم من الأسرة بقي معه (والدتنا وابنة عم لنا) الى نهاية الحرب. وبعد ذلك اشتمل شملنا في نابلس.

وفي 1920 جاء أخي الى دمشق وكنت فيها عضواً في المؤتمر السوري وفي الهيئة المركزية للجمعية العربية الفتاة التي كانت صاحبة النشاط والتأثير في عهد فيصل، على ما سوف أشرحه بعد، واختارته الجمعية لعضويتها كما كانت تفعل مع أمثاله من الشباب القوميين النشيطين. وذلك الوقت عينت الحكومة الانكليزية هربرت صموئيل اليهودي أول مندوب سامي لفلسطين. وأثار ذلك غضب الحركة القومية في فلسطين ودمشق، فعهدت إليه الهيئة المركزية للجمعية العربية الفتاة بتدبير عملية احتجاجية مسلحة على حدود فلسطين، فأدى المهمة بواسطة بعض أشخاص وطنيين على حدود سمخ، فكانت أولى الحركات المسلحة ضد الاحتلال والصهيونية، وكان المخطط لها أن تستمر، ولكن قصر عهد فيصل وتوتر حالة دمشق مع الإفرنسيين وسقوط العهد الفيصلي حال دون ذلك.

وعلى أثر سقوط العهد الفيصلي عدنا جميعنا إلى نابلس. وقد عملنا مع بعض رفاقنا بالتجارة وأسسنا شركة تجارية، كما تقدم أخي لتأدية إمتحان للحصول على أهلية التعليم، فحصل عليها وتعين نتيجة لذلك مديراً لمدرسة وقفية في نابلس (مدرسة العرفان). اندمجت في 1927 - 1928 بمدرسة النجاح الوطنية، وصار معلماً فيها الى 1932، كذلك فقد بدأت بعد الاحتلال مباشرة حركة المناوأة للصهيونية وللاحتلال الإنكليزي في فلسطين. فانفعل بها أيضاً وقام مع رفاقه بإنشاء النادي العربي الذي كان بؤرة ومظلة الحركة الوطنية في نابلس، وكان لولبها. ونشط نشاطاً كبيراً يقيم الحفلات والمهرجانات ويغذي الاضرابات والمظاهرات في المناسبات المتنوعة، وقد تعرض نتيجة لذلك لمطاردات واعتقالات ومحاكمات عديدة، وسجن من قبل السلطة، ولما أنشأنا حزب الاستقلال الفلسطيني في 1932 انتمى إليه عضواً عاملاً، وكان أحد أعضاء فرع الحزب في نابلس.

وفي أواخر 1932 قررنا أن الأفضل والأضمن لنا جميعاً أن يستقيل من المدرسة ويذهب لإنشاء عمل تجاري في عمان. وكان بعض أهل نابلس وبعض أقاربنا قد أخذوا ينشؤون أعمالاً تجارية في عمان، التي صارت بعد قيام الإمارة فيها مجالاً للنشاط التجاري، وقد دبرنا رأس مال متواضع للعمل ديناً من البنك العربي وصندوق الأيتام. وسددته مشاهرة من ريع كتب مدرسية كانت لي يتولى أمر طبعها وتوزيعها السيد محمود عيسى (الصفدي) صاحب المكتبة في حيفا. ولقد ظل أخي ينفعل بالحركة الوطنية، وكان متضامناً في ذلك مع الدكتور صبحي أبو غنيمة وعادل العظمة والدكتور محمد حجازي وطاهر الجقة والدكتور قاسم ملحس وصدقي القاسم وغيرهم. وكان يتعرض للتنكر من جانب السلطات الاردنية الانكليزية، لأن حركة المناوأة في فلسطين كانت تنعكس على شرقي الاردن أيضاً.

وفي سنة 1937 اشتدت حركة الكفاح في فلسطين، واشتد انعكاسها على الأردن، واشتد نشاط وإنفعال أخي فيها، فألجأته السلطات إلى الخروج من عمان فخرج منها إلى دمشق، حيث كنت فيها أمارس إدارة الثورة الفلسطينية بعد أن اشتعلت في أواخر 1937. وقد كان مساعداً لي في كثير من الأعمال، وقام ببعض المهمات الخطيرة بسبيل ذلك. ولقد كان يأتيني بعض المال من كتبي المدرسية وخاصة من كتاب دروس التاريخ العربي الذي قررته حكومة العراق آنذاك، فكان يشتغل ببعض أشغال تجارية ببعض هذه المبالغ، ويرسل بعضها إلى عمان لتقوية المحل التجاري فيها الذي ترك فيه ابني عمه بديعاً وأخاه.

وظل الأمر على هذا المنوال الى أواسط 1939، حيث توتر الجو في أوروبا منذراً بحرب عالمية ثانية، وكانت فرنسا وبريطانيا في صف واحد. فضغطت بريطانيا على فرنسا التي كانت تحتل سورية بقمع أسباب استمرار الثورة في فلسطين. وكنا نتمتع بشيء من الحرية في العمل في ظل الحكومة الوطنية القائمة في سورية آنذاك. وكانت الحالة في ذلك الوقت قد أخذت تسوء، فاعتقلتني السلطات الإفرنسية واعتقلته معي، ثم أفرجت عنه دوني، ولكنها أرسلته إلى تدمر لإقامة إجبارية، ثم أبقته تحت مراقبتها وترصدها، وظللت في السجن وظل هو تحت الترقب والترصد إلى أن استسلمت فرنسا للألمان وعقدت الهدنة بينها، فانفرج الأمر

بعض الشيء في سورية وأطلق سراحي، وخف الترصد عن أخي. ولكنا ما لبثنا أن فوجئنا بالغزوة الإنكليزية الى سورية، وكان الانكليز قد اعتقلوا في العراق وفلسطين كثيراً من رجال الحركة، فاعتقدنا أننا إذا وقعنا في يد القوات الانكليزية فسيكون مصيرنا الاعتقال والنفي، ففضلنا اللجوء الى تركيا أنا وهو في أواسط 1939، وبقينا هناك خمسين شهراً ثم عدنا الى دمشق. وفي أثناء ذلك بارك الله في العمل التجاري في عمان، وعقدنا شراكة بين أخي وبين ابني عمه، كما أنشأ أخي محلاً تجارياً في دمشق صار فرعاً ثانياً للعمل التجاري في عمان، وفي سنة 1965 أنشأت الشركة فرعاً ثالثاً في بيروت استلم إدارته ابن أخي مجاهد. وفي غضون ذلك أخذ يطرأ على أخي أعراض أمراض متنوعة في عينيه وأمعائه، وأجريت له عملية جراحية وظلت حالته تسوء إلى أن وافاه أجله في آذار 1969، وكانت فجيعتي فيه عظيمة، لأنه كان لي أكثر من صديق وأكثر من أخ، فقد عشنا معاً حياة هانئة منسجمة في نابلس وفي دمشق يضرب بها المثل. وحينما صار يعاني أمراضه فاتحني في أمر الشركة التجارية، وقال لي إنه يجب أن يكون جميع أولادي وأولاده سواء، فحبذت له ذلك لأننا كنا شيئاً واحداً في كل شيء، وهكذا جاءت وصيته على هذا النحو.

ولقد كان أخي متفتحاً متحرراً باراً شفوقاً متأجج العاطفة، يحب الخير ويعمل ما يقدر عليه، وكان شديداً في الحق وقومياً مستقيماً في تعامله محباً للمطالعة ذواقاً للأدب. رحمة الله عليه رحمة واسعة.

***

ولقد أصبح معين الماضي وعادل العظمة أصدقاء حميمين لنا بعد نهاية الحرب، وتواثقنا وتعاونا في العمل الوطني في مختلف الظروف، وظلت صداقتنا وعلاقتنا بهما وثيقة، وهذا شيء عنهما جرياً على ما سرنا عليه. وقد كنا كتبنا قبل شيئاً عن زكي التميمي ثالث الاثنين الذين التقينا بهم في رحلتنا الى بيروت.

عادل العظمة:

وعادل هو دمشقي ابن عزيز الذي كان متصرفاً في نابلس قبل إعلان الدستور، وقد رأيته في نابلس في عطلة صيفية جاء اليها مع أخيه نبيه، ولم أتعرف به إذ ذاك، فقد كانت رؤيتي لهما عابرة في خان التجار في دكان الشيخ عبد الله طوقان الذي كان يبيع منسوجات تصلح للمدنيين رجالاً ونساء، ويتقرب للموظفين بسبيل ذلك، ويأتون اليه فيجلسون في دكانه، وكان يعرف شيئاً من التركية. وكان نبيه بلباس عسكري لأنه كان يدرس في مدرسة عسكرية، بينما كان عادل في لباس مدني.

وكانت المرة الأولى التي التقيت به وتحدثت معه في بيروت. وقد تخرج من المدرسة الملكية وصار معاوناً للوالي، حسب العادة، للتدريب والاستعداد لوظيفة إدارية، ولقد كان العرب في هذا الظرف يكثرون الكلام عن التعليم باللغة العربية كمطلب من مطالبهم المهمة، فأرادت الحكومة أن تستجيب لهم شيئاً ما، فأنشأت مدرسة ثانوية عربية وعينت عادلاً مديراً لها، ولم أره غير هذه المرة في زمن الدولة العثمانية، ولا أعرف ماذا كان من أمره في السنين الست التي ظلت الدولة العثمانية صاحبة السلطان في بلادنا. ولم يكن ممن طاردتهم السلطات من شباب ورجال الحركة العربية، حيث قد يفيد هذا أنه لم يكن منه حركات ومواقف في هذا السبيل. والتقيت به في زمن

حكم فيصل في دمشق سنة 1919، حيث جئت اليها مندوباً عن نابلس للمؤتمر السوري العام الذي سوف يأتي الكلام عنه بعد. وكان موظفاً في حكومة فيصل، وكان ينشط كسائر الشباب في مجال الحركة العربية، وقد ضمته جمعية العربية الفتاة الى عضويتها في هذا العهد، وتعارفنا وتصادقنا في ظلها. وهو ذكي ألمعي خفيف الروح حسن المعشر. وانكشفت فيه مع الظروف فيما بعد روح كفاحية وثورية. ولما سقط الحكم الفيصلي هاجر الى عمان وعمل موظفاً ردحاً ما، ثم افتتح في عمان مكتباً للمحاماة وبرز كعنصر من عناصر الحركة الوطنية فيها، وفي أثناء الثورة السورية 1925 ـ 1927 نشط نشاطاً كبيراً في خدمتها ومساعدتها في عمان، وظل بعدها محامياً وعنصراً في الحركة الوطنية الأردنية. وكان في أغلب الأحيان يقود حركة المعارضة مع رفاق أردنيين له، وحينما عقدت الكتلة الوطنية في دمشق معاهدة التحالف الاستقلالية مع فرنسة سنة 1936 ترك عمان وعاد الى دمشق وعين مديراً في وزارة الداخلية، وفي سنة 1937 جئنا نحن الى دمشق وأخذنا على عاتقنا تأجيج الثورة الفلسطينية للمرة الثانية على ما سوف يأتي شرحه بعد، فساعدنا في جهودنا مساعدة فعالة.

وحينما نقضت فرنسة تلك المعاهدة وأخذت تطارد الوطنيين، غادر دمشق الى بغداد وحاول أن يهيىء ثورة في سورية ضدها. ولكن الحرب العالمية الثانية ما لبثت أن نشبت، فحال ذلك دون محاولته. وفي سنة 1941 قام رشيد عالي الكيلاني ورفاقه الضباط وغير الضباط بحركتهم الثورية ضد الانكليز فاندمج فيها، ولما تغلب الانكليز على هذه الثورة خرج من العراق وأصيب في الخروج فوزي القاووقجي بجروح بليغة من قصف انكليزي، فأخذه في طائرة الى أوروبا للمداواة، ولبث فيها مدة ثم جاء إلى الآستانة حيث أقام بقية مدة الحرب فيها. وكنا نحن فيها أيضاً نازحين عن سورية على ما ذكرت قبل، وعشنا معاً نحن وهو وأخوه نبيه وأخي محمد علي وغيرهم. ولما انتهت الحرب عدنا معاً الى سورية، وكانت قد قامت فيها حكومة جمهورية مستقلة برئاسة شكري القوتلي، فاندمج فيها وعين محافظاً للاذقية، وكان نشيطاً حازماً في عمله هنا، ثم انتقل محافظاً بحلب ثم عين وزيراً للداخلية، وأخذت تقع انقلابات عسكرية في سورية منذ سنة 1949. وكان أولها انقلاب حسني الزعيم ضد شكري القوتلي، وكان حسني رئيس أركان أو قائد الجيش فأسقط شكري وصار هو رئيس الجمهورية، ثم قام سامي الحناوي وهو ضابط كبير في الجيش بانقلاب ضد الزعيم فأسقط حكمه، وتم الاتفاق بعد ذلك على قيام حكم شرعي مدني، فجيء بهاشم الأتاسي رئيساً مؤقتاً للجمهورية، ودخل عادل وزير دولة في الحكومة التي قامت في هذا العهد، واتجهت النية والعزيمة في رجاله نحو إقامة اتحاد عراقي سوري، وكان لعادل جهد قوي في هذه الحركة، ولم يلبث أن قام أديب الشيشكلي أحد كبار ضباط الجيش بانقلاب ضد هذا العهد لتعطيل تلك العزيمة بتحريض ممن لم يكن يريد قيامها من ملوك العرب، فانسحب هاشم من الحكم، وقامت حكومة جديدة وخرج عادل من سورية وأقام لاجئاً في لبنان، ومرض وتوفي فيه في عام 1953 رحمة الله عليه، وأنا أسن منه ببضع سنين. وقد كنت أثناء الانقلابات فيها في دمشق بدون نشاط، وظلت صداقتنا مستمرة وكنا نلتقي من حين إلى حين في المدة التي قضاها في سورية، وزرناه مرتين في بيروت.

نبيه العظمة:

ولقد صرنا أصدقاء حميمين مع أخيه نبيه أيضاً، فصار من المفيد أن نذكر عنه شيئاً استطراداً في هذه المناسبة، فنقول إنه أكبر منه ببضع سنين وأكبر مني بسنة أو سنتين، وقد إنتسب إلى الكلية الحربية في الآستانة وتخرج منها وصار ضابط في الجيش. وهو ذو إرادة قوية وشخصية قوية وعنيد، ويميل إلى فرض نفسه ورأيه وينجح في ذلك أحياناً، ولكنه لم يكن مرناً تتقبله النفس ولا واسع الأفق كأخيه عادل. وثقافته المدنية ضيقة. وقد تقلد بعض الأعمال الإدارية في أثناء الحرب وأثبت كفاءة وإستقامة وروح ضبط وتدبير وصار له تقدير وحرمة. وأظن أنه لم يصل إلى أكثر من بينباشي (مقدم). وبعد نهاية الحرب اندمج في العهد الفيصلي والحركة العربية وعين مديراً للأمن العام في حلب، وكان ذا نشاط وكفاءة وعزم. ولم يكن لنا حظ التعرف عليه أثناء هذا العهد، لأنه لم يكن يقيم في دمشق أثناء إقامتنا فيها، وإنما تعرفنا عليه وتعاونا وتصادقنا بعد سقوط الحكم الفيصلي، وكان ممن خرجوا من دمشق الى عمان وممن حكم عليهم الافرنسيون بالاعدام غيابياً. وتعرفنا به في عمان حيث جئنا وأقمنا فيها نحو شهر حينما جاء إليها الأمير عبد الله على ما سوف نشرحه بعد. ورجعنا نحن الى فلسطين وبقي هو في عمان يعمل في الحكومة حيناً ومعارضاً لها حيناً وكان قوياً نشيطاً دؤوباً دائماً مع صرامة.

واختلف هو وإخوانه الاستقلاليون المتواجدون في عمان مع الأمير بسبب تصرفاته ومواقفه السياسية وغير السياسية التي رأوها غير سليمة، واشتدت معارضتهم له فشكاهم الأمير إلى والده الملك حسين، فاستدعاهم الى مكة، ولم يكن لهم مناص من الذهاب فذهبوا وأقاموا في مكة إلى أن وقع الهجوم السعودي على الحجاز، وأحدق الخطر بمكة والعرش الهاشمي حيث غادروها.

وجاء نبيه الى فلسطين وعاش فيها ونشط نشاطاً كبيراً أثناء الثورة السورية 1925 - 1927، ثم استمر في فلسطين إلى سنة 1936، وكان يندمج معنا في جهودنا في سبيل الحركة الوطنية الفلسطينية والعربية، وصار سكرتيراً مساعداً في مكتب المؤتمر الاسلامي، ولكنه لم ينسجم انسجاماً تاماً مع رئيسه الحاج أمين واستقال. وكان له نشاط ناضج في معرض تجاري صناعي أقيم في فلسطين سنة 1932 باسم (المعرض العربي) بمسعى أحمد حلمي عبد الباقي مدير بنك الأمة وغيره، أثبت فيه قدرته على التنظيم وحزمه في الادارة والعمل. وحينما أنشأنا حزب الاستقلال في فلسطين كان من محبذي انشائه، وإندمج معنا في كل مواقفنا كأنه أحد مؤسسي الحزب، ولكنه لم يكن معدوداً رسمياً، كذلك لأنه كان سورياً وضيفاً.

واشترك في المؤتمر العربي الذي عقد في القدس، وقرر عقد مؤتمر عربي عام وانتخب لجنة تحضيرية لذلك، وكان مندمجاً في نشاط هذه اللجنة كأنه واحد منها. وحينما كان الاضراب الطويل في فلسطين سنة 1936 إعتقلته السلطات الانكليزية في صرفند معنا، ومع كثير غيرنا، لما كان يبدو منه من نشاط جم في سبيل الحركة الوطنية القومية، ولما إنتهى الإضراب سرح. وعاد إلى سورية اذ كانت أبرمت المعاهدة الافرنسية السورية عام 1936، وأعلن العفو عن المحكومين والمبعدين. وأخذ ينشط في العهد الجديد، وقد أنشأ أول جمعية دفاع عن فلسطين عقب عودته، وأخذ ينشط في سبيل قضيتها.

وقد اتفقت معه اللجنة العربية العليا على عقد مؤتمر عربي عام لرفض قرار التقسيم، فبذل جهداً كبيراً حتى انعقد هذا المؤتمر في بلودان في ايلول 1937، وأثبت مرة أخرى كفاءته للادارة وحزمه في العمل، ولما استؤنفت الثورة ثانية في فلسطين في الشهر نفسه أخذ ينشط في سبيلها ويجمع التبرعات لها، وكنت جئت إلى دمشق وأقمت فيها من أجل تأجيج الثورة، فتعاونت معه تعاوناً قوياً مع نشاطه في سبيل القضية الاستقلالية السورية في العهد الاستقلالي.

كما كان له في 1938/1939 جهد ونشاط بارزين في موضوع إسكندرون، وقرار عصبة الأمم باجراء إستفتاء فيها، حيث عمل بدأب وعنف مع أهالي المنطقة وشبابها القومي العربي لاستمرارية تابعيتها إلى سورية وعدم فصلها أو ضمها إلى تركية.

ولما نقضت فرنسة المعاهدة السورية الاستقلالية التي عقدتها مع سورية، وقام ذلك العهد نتيجة لها، نشط مع كثير من رجال وشباب الحركة الوطنية في سورية في المناوأة والاحتجاج وإثارة المظاهرات، فاعتقلته السلطات الافرنسية مع عدد من رفاقه وحاكمته وحكمت عليه بالسجن مدة طويلة قضى نحو سنة ونصف منها في سجن دمشق وحلب، ثم أفرج عنه بعد استسلام فرنسة سنة 1940 فعاد إلى نشاطه الوطني. ولما غزت القوات الإنكليزية والديغولية سورية 1941، غادر سورية لاجئاً إلى تركية، حيث أقام فيها إلى أواسط سنة 1945، وكنا فيها نتبادل الأفكار والجهود ونتعايش بصورة حميمة. وعاد في أواسط سنة 1945.

وكان قد قام في هذه الأثناء عهد وطني استقلالي جديد برئاسة شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، وسعد الله الجابري رئيساً للحكومة فعاد إلى نشاطه. وصار وزيراً للدفاع لفترة قصيرة أو كلف بذلك أو أراد ذلك - لم أعد أذكر الأمر يقيناً - ولكنه لم ينسجم معهما انسجاماً تاماً، واستمر ينشط حراً بدأبه الصارم الدؤوب.

وفي عهد انقلاب سامي الحناوي ضد عهد حسني الزعيم الذي قام في سنة 1949 بانقلاب ضد عهد القوتلي، نشطت الحركة في سبيل وحدة عراقية سورية فاشترك في نشاطها. ولما قام الشيشكلي بانقلابه ضد انقلاب الحناوي سنة 1951 غادر دمشق مع أخيه عادل إلى بيروت، حيث أقاما فيها الى أن قامت حكومة شرعية جديدة سنة 1955 برئاسة شكري القوتلي، وكان أخوه قد مات قبل قليل فعاد نبيه وأقام في دمشق ونشط أثناء الوحدة السورية المصرية التي قامت سنة 1958، ولكن أقل من المعتاد. وكان من أشد المتألمين من انفصام الوحدة الذي كان في أيلول 1961، وكان له موقف قوي أو صرخة داوية ضد ما كان يجري في عهد الانفصال تمثلت في برقية شديدة أرسلها الى رئيس عهد الانفصال نساظم القدسي . ثم اعتكف في بيته يزوره اصدقاؤه ويجتر معهم ما كان من نشاطه في مجال الحركة الوطنية والعربية. ثم مرض طويلاً نوعاً ما وزرناه في خلال ذلك ثم توفي سنة 1972. رحمة الله عليه. ولم يكن منضماً إلى جمعية الفتاة قبل عهد فيصل وانضم اليها في هذا العهد. وكان وظل شديد الاخلاص لأهدافها دائب السعي والجهد في سبيلها في مختلف المجالات.

معين الماضي:

وفي صدد معين الماضي نقول إنه من أسرة

الماضي التي كان لها مشيخة إقطاعية في منطقة حيفا وأصلهم من الحجاز ثم من قرية أجزم التابعة لحيفا، وهي أسرة كبيرة. وقد تخرج من المدرسة الملكية العالية أيضاً، وجاء في هذا الظرف 1912/1911 معاوناً لوالي بيروت للتدرب والتمرن، وأظن أني أسن منه ببضع سنين. ولقد انفعل بالحركة العربية وهو في الآستانة، وظل منفعلاً فيها. وكان نشيطاً في المنتدى الأدبي ومع الشباب العربي، وإنتسب إلى جمعية العربية الفتاة، وعين في بعض وظائف إدارية في نطاق ولاية بيروت، ثم لرئاسة بلدية عكا. وحينما أخذ جمال باشا يطارد شباب العرب ورجالاتهم أثناء الحرب بلغه أن اسمه يذكر، فتوجس وذهب الى دمشق واختفى في بيت أسرة نصرانية في باب توما، إلى أن انتهت الحرب ودخل فيصل دمشق في تشرين الأول 1918، فظهر واندمج في الحركة الجياشة الجديدة التي قامت في دمشق، وأرسل إليه توكيل من حيفا ليكون من ممثليها في المؤتمر السوري العام.

وحينما جئت من نابلس في حزيران 1919 الى دمشق مندوباً للمؤتمر السوري العام التقينا معاً، وصرنا منذئذ أصدقاء حميمين، وتعاونا في أثناء الحكم الفيصلي في نطاق جمعية العربية الفتاة وفي نطاق المؤتمر السوري، واشتركنا معاً في جمعية فلسطين التي أنشأناها في سورية للكفاح في سبيل فلسطين مما سوف نزيده شرحاً في مناسبات تالية.

وبعد سقوط العهد الفيصلي عدنا جميعاً الى فلسطين، واندمج هو في حركة حيفا الوطنية. وقد انتخبه المؤتمر الفلسطيني الرابع سنة 1921 عضواً في الوفد الفلسطيني الأول الى لندن، واشترك بعد ذلك في جميع مؤتمرات فلسطين. وكانت له غلطة وطنية بعد عودته من لندن، اذ قرر المؤتمر الخامس مقاطعة انتخابات المجلس التشريعي الذي عرضته الحكومة البريطانية لأنه كان مستند الى صك الانتداب ووعد بلفور. وكان قرار المقاطعة إجماعياً واشترك فيه، ثم بدا له الرجوع عنه وترشيح نفسه للانتخابات بمساعدة وتحريض بعض الموالين للسلطات الانكليزية، وقد ذهبت أنا مع وفد من نابلس الى حيفا لاقناعه بالرجوع عن الترشيح ونجحنا في ذلك، وكان فشل الانتخابات وشمول المقاطعة أمرين مؤكدين. واستمر انسجامنا بعد ذلك.

وكان من مؤسسي حزب الاستقلال الذي أنشأناه معاً في سنة 1932 لتصحيح مسار الحركة الوطنية على ما سوف نشرحه بعد، واشترك في المظاهرات الغير مرخصة التي أقمناها احتجاجاً على تصرفات الانكليز. ولما اعتقل عوني عبد الهادي ممثل حزب الاستقلال في اللجنة العربية العليا التي تألفت للاشراف على الاضراب الطويل سنة 1936 حل محله لفترة قصيرة. ثم ذهب بالاتفاق مع الحاج أمين الحسيني الى بغداد، وبذل جهده في تهيئة وتجهيز حملة فوزي القاووقجي لتقوية الثورة التي نشبت في فلسطين في ظروف الاضراب، وكان لهذه الحملة أثر عظيم. وذهبنا معا الى بغداد والرياض في سنة 1937 لشرح مبررات قرار اللجنة العربية العليا بمقاطعة اللجنة الملكية مما سوف نشرحه بعد.

وبعد إعلان الحكومة البريطانية تقسيم فلسطين وانشاء دولة يهودية في سنة 1937 جاء الى دمشق، وكنت أنا فيها وتعاونا في أوليات ثورة سنة 1937 العارمة، وحرضت بريطانيا السلطات الافرنسية عليه فأخذت هذه تشتد في

مراقبته فتوجس وغادر دمشق الى الاسكندرونة لاجئاً في الدولة التركية. ولما لجأنا نحن بدورنا الى تركية ذهبنا الى الآستانة سنة 1941 جاء هو وأقام في الآستانة معنا، ثم عدنا الى سورية وعاد هو بعدنا بقليل، وتعاونا في أثناء حرب التقسيم سنة 1947 وبعدها، وصرنا معاً أعضاء في الهيئة العربية العليا لفلسطين، وكنا منسجمين. وظللنا كذلك نبذل معاً ما نقدر عليه من جهد في سبيل فلسطين والوحدة العربية في دمشق، الى أن مرض وتوفي سنة 1956.

ونسب اليه بعضهم العنجهية والنفخة وهم يبالغون في ذلك، ولعل الحق أن يقال أنها (أكابرية)، فكانت في نظر شانئيه عنجهية ونفخة. وهو حسن المعشر سمح اليد زكي القلب وقوي البنية ووسيم الشكل طويل القامة يشعرك بشخصيته ويجعلك تحبه وتحترمه رحمة الله عليه.

* * *

زيارتي لكلية الشيخ عباس في بيروت:

وأعود بعد هذا الى سياق رحلتي الى بيروت فأقول إني زرت الكلية الاسلامية العلمية التي كان أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهري قبل عشر سنين وصار رئيساً لها، وصار لها اسم حسن، وكانت ابتدائية وثانوية وفيها قسم داخلي حيث كان يؤمها شباب من خارج بيروت، وكان في وقت زيارتي فائق العيوشي وأخوه فهمي من جنين ومهيب النابلسي من نابلس وغيرهم لم أعد أذكرهم. وقد اجتمعت مع الشيخ عباس وحدثته عن جمعيتنا العلمية وعزيمتنا على انشاء مدرسة عربية في نابلس، وأظهر استعداده لمساعدتنا في البرامج والكتب.

شيء عن فائق العنبتاوي وأبيه فريد:

وممن التقيت بهم في هذه الرحلة فائق بن فريد العنبتاوي، وكان يتمم دراسته الثانوية في المدرسة الإعدادية في بيروت، كان يبدو عليه النجابة والذكاء والنباهة وحسن الاطلاع والفهم. وقد صرنا أصدقاء واجتمعنا في نابلس مراراً حينما كان يأتي في العطلة، ثم استمرت صداقتنا بعد الاحتلال الإنكليزي وتعاونا خاصة مع والده في العمل الوطني، وكان هذا ذكياً نشيطاً عاقلاً قوي الشخصية، وانسجمنا معاً في كل المواقف، وظلت صداقتنا وثيقة مستمرة مع الأب والابن الى النهاية. وقد ظلا في نابلس بعد النكبة مستقيمين على الخط الوطني، وصار فائق نائباً في مجلس النواب الأردني، وكان يقود حركة المعارضة، وصار أبوه عضواً معيناً في مجلس النواب دون انحراف. وكانت حالتهما الاقتصادية قبل النكبة حسنة، وكان لهما محل تجاري للأقمشة وكان رائج السوق حسن الربح، وأقاما بيتاً كبيراً في خارج المدينة ناحية الغرب وصار لهم ديوان مطروق. وأنشأوا بيارة في جهات طولكرم أنفقوا عليها مبلغاً عظيماً، وقد خسروها في النكبة لأنها ظلت في القسم المحتل، فكانت خسارتهم كبيرة وتضعضعت حالتهم الاقتصادية، ولكنهم ظلوا صابرين متجملين ينشطون باستقامة وصلابة في سبيل القضية الفلسطينية والمواقف الوطنية. ومات الابن قبل الأب في سنة 1961، ولم يلبث الأب أن لحق به بعد قليل وقد عمر حتى زاد على الثمانين محتفظاً بصفاء عقله وكامل وعيه رحمهما الله. وأسرتهما في نابلس كبيرة ومعظم رجالها ميسورون على العموم، وفيها كثير من المتعلمين والبارزين.

لقائي بالمهندس المصري حلمي وشيء عنه:

وفي أثناء عودتي من بيروت الى نابلس التقيت في الباخرة بمهندس مصري اسمه حلمي، قال لي إنه معيّن لدائرة أشغال نابلس، وأخذ يسألني عن أحوال المدينة، وشعرت فيه بشيء من (الوحشة) فهونت عليه، وصرت رفيقاً له في الرحلة وسافرنا معاً من يافا الى نابلس وأنزلته في بيتنا، وأقام عندنا أياماً فهدأ روعه، ثم دبر لنفسه مسكناً واندمج في عمله، وكان مستقيم السيرة ذو أخلاق حسنة. وظللنا أصدقاء وقد ضمته عمدة مدرسة النجاح اليها فصار من مؤسسيها، وتعاونا معاً لأني صرت من مؤسسيها ومديراً لها، وقد كان يؤيدني فيما اقترحه من اقتراحات وأطلب من قرارات في شؤون المدرسة.

الحركة الإصلاحية في بيروت وموقف الحكومة منها:

ولقد أخبرت رفاقي ابراهيم القاسم والحاج حسن حماد والشيخ نمر الداري وكامل هاشم بالحركة الجياشة الاصلاحية في بيروت، وبرغبة الشباب العرب المتعلمين فيها بتأييدها، واتفقنا على الدعوة لها وتأييدها.

وقد ظهرت بوادر النجاح لهذه الحركة لفترة قصيرة حينما تخلى الاتحاديون عن الحكم نتيجة للانقلاب الذي قام به ضدهم حزب الائتلاف والحرية، ولتفاقم حرب البلقان واندحار الجيوش العثمانية، وقد حل رجال ذلك الحزب في الحكم وأظهروا عطفهم للحركة الاصلاحية لأنها منسجمة مع برامج حزبهم الذي شرحناه قبل. ولكن ذلك لم يؤد الى ثمرة ايجابية لأن الاتحاديين قاموا بعد قليل بانقلاب مضاد دموي ضد الحكم المعارض ونجحوا وعادوا الى الحكم، وحسنوا بعض الشيء الموقف في الجبهة الحربية، وجعلوا البلقانيين يقفون عند حدود أدرنة بعد أن كانوا يهددون في زحفهم العاصمة. واختلف البلقانيون فيما بينهم، ونشب قتال نتيجة لذلك، فكان هذا مما حسن الموقف بالنسبة للحكم الاتحادي. ولقد وقف الاتحاديون بعد أن هدأ روعهم من ناحية الموقف الحربي من المطلب الاصلاحية العربية موقف المتعنت، وألغوا الجمعيات الإصلاحية في بيروت ودمشق، وحبسوا بعض العناصر النشطة في بيروت التي تزعمت حركة الإضراب والاحتجاج على ذلك الموقف، (وقد فصلنا ذلك في كتابنا نشأة الحركة العربية وهذا ما يجعلنا نكتفي بهذا الايجاز دون التفصيل) الذي كنا نعيش في جوه وننفعل به في نابلس.

ذكريات عن المؤتمر العربي في باريس سنة 1913:

وقد جعل موقف الاتحاديين هذا بعض الشباب العربي يدعون إلى مؤتمر عربي خارج البلاد العثمانية لرفع الصوت بحرية بالمطالب والحقوق العربية، وانعقد المؤتمر فعلاً في باريس في حزيران 1913، وأرسلت إليه برقيات تأييدية في كل أنحاء البلاد ومن جملتها نابلس، وكانت برقية نابلس موقعة بتوقيع رفاقنا الأربعة. وأنا الذي كتبتها وأسجل هذا للواقع. وقد ألحوا عليَّ بعدم توقيعها لأني كنت موظفاً، والمؤتمر منعقد ضد الحكومة القائمة التي كانت متجهمة للحركة، ولقد وعدت هذه الحكومة بالاستجابة الى بعض المطالب التي قررها المؤتمر، ثم نكصت[1] وأدخلت أصابع فسادها بين رجال المؤتمر، فكان ذلك من أسباب فتور وخلاف

---

(1) نكصت: رجعت عما وعدت به.

ظهر بينهم واستغلته في فرض ما تريد من اصلاحات شكلية (مما فصلنا في كتابنا «نشأة الحركة العربية الحديثة» ولم نر ضرورة ايراده مفصلاً هنا).

ذكريات عن نشوء حزب اللامركزية في مصر ومحاولاتنا انشاء فرع له في نابلس:

ولقد كان بعض رجال العرب السوريين النازحين عن سورية إلى مصر اندمجوا في حركة المطالبة بالحقوق العربية وأيدوها، ثم أنشأوا في ظروف بروز حزب الائتلاف والحرية العثماني حزباً باسم اللامركزية، منهاجه متطابق لمنهاج ذلك الحزب، وكان رئيسه رفيق العظم (المؤرخ العالم)، وسكرتيره حقي العظم، ومساعد سكرتيره محب الدين الخطيب، ومن أعضائه السيد رشيد رضا (العالم الإسلامي الشهير) وإسكندر عمون (الحقوقي الشهير). وغيرهم، وأخذ يسهم في تأييد المطالب العربية، ويطلب من الحكومة العثمانية جعل الحكم في الدولة لامركزياً يسمح لكل ولاية بالاهتمام بشؤونها المحلية من تعليم وزراعة وتجارة وصناعة وطرق. . . الخ، بدون مركزية العاصمة التي كانت تعيق تنفيذ هذه الشؤون. ويكون لها مجلس منتخب من أهلها يشترك في التخطيط والتشريع والتنفيذ، واستجاب لدعوة الشباب العرب الى مؤتمر باريس لرفع الصوت حراً بالمطالب العربية، وأيدتها وانتدبت أحد كبار أعضائها الشيخ عبد الحميد الزهراوي لرئاسة المؤتمر (على ما فصلناه في كتابنا المذكور)، فلما نكصت الحكومة الاتحادية عن ما وافقت عليه من قرارات المؤتمر، ودست بين رجاله وأثارت الخلاف والفساد (على ما فصلناه في ذلك الكتاب).

أخذ هذا الحزب يشتد في الدعوة ويسعى في تأليف فروع له في داخل البلاد العربية، تنشط في المطالبة والحركة في سبيلها، فانفعلنا نحن في نابلس بهذه الدعاية، وفكرنا في إنشاء فرع للحزب في نابلس، واجتمعت أنا وابراهيم القاسم وحسن حماد والشيخ نمر الداري وكامل هاشم في بيت الأخير لبحث ذلك، وكنت آنئذ وكيلاً لمدير البرق والبريد، وكان ذلك في صيف عام 1914، وقررنا مبدئياً إنشاء الفرع والاتصال بمصر بطريقة ما بسبيل ذلك، وأعلنت حالة الطوارىء (السفر برلك) أي النفير العام فتوقفنا قليلاً. وبعد قليل نقلت أنا من نابلس الى بيروت على ما سوف يأتي شرحه، ولقد كان الأربعة رفاقي من جملة من أرادت اعتقالهم زبانية جمال باشا حينما قرر هذا ملاحقة ومطاردة رجال الحركة العربية ورجال حزب اللامركزية بنوع خاص سنة 1915، وكان استطاع أن يحصل على بعض وثائق هذا الحزب وأسماء أعضائه، فقبضت على إبراهيم والشيخ نمر وكامل وساقتهم الى ديوان الحرب في عاليه، وفلت حسن حماد من قبضتهم على ما ذكرنا سابقاً. ويتبادر من هذا أن الأخوان الأربعة عادوا بعد توقف قليل الى تنفيذ عزيمتهم، وقرروا انشاء الفرع في نابلس، وكنت قد غادرتها فكانوا في ذلك وحدهم بدوني.

استدراك لأكرم زعيتر عن ذلك وتعليقي عليه:

ولقد أخبرني أكرم زعيتر أن عوني عبد الهادي وكان في نابلس عام 1913 كتب لمحب الدين الخطيب، الذي كان سكرتيراً مساعداً لحزب اللامركزية كتاباً ذكر له فيه أنه اتفق مع خمسة أشخاص في نابلس على إنشاء فرع للحزب، وهم والده الحاج عبد الهادي وقريبه

توفيق عبد الغني والحاج حسن حماد وإبراهيم القاسم وكامل هاشم، وأنه رأى أصل الكتاب المذكور بخط عوني بين أوراق محب الدين، وازاء الحقيقة اليقينية المتمثلة في اجتماعي أنا والأربعة إبراهيم وحسن وكامل والشيخ نمر في صيف عام 1914 لأجل تأسيس فرع للحزب نرجح أن الذين كتب عنهم عوني لم يتصلوا بمركز الحزب، وان مركز الحزب لم يتصل بهم، وأن كتابة عوني ظلت بدون نتيجة، وان تأسيس فرع الحزب تأخر الى ما بعد صيف عام 1914، وأن الأربعة الذي اجتمعنا بهم هم الذين اتصل أمرهم الى الحزب وتم الاتفاق بينه وبينهم على ان يكونوا أعضاء فرع الحزب في نابلس، بدليل ان الحاج عبد الهادي وتوفيق عبد الغني لم يكونا في عداد المعتقلين، وبالتالي لم تكن اسماؤهما مسجلة كأعضاء لفرع الحزب، وان الأسماء المسجلة هي أسماء الاربعة الذي اعتقلت السلطة ثلاثة منهم وفلت رابعهم منها.

وقد علم مما أذيع من الوثائق ان الحاج حسن كان عميد او معتمد الحزب في نابلس، واعتبر جرمه اشد وحكم عليه بالاعدام حينما جرت محاكمة المعتقلين وجاهياً والفارين غيابياً، وقد حكم بالإعدام على من عرف أنهم عمداء أو معتمدون للحزب مثله، ومنهم سليم الأحمد عبد الهادي ابن أخي حافظ المحمد الذي كان عميداً او معتمداً للحزب في جنين. ومن عجائب ما كان ان الحاج توفيق حماد وكان محتفظاً بصفة النيابة في المجلس النيابي وعم الحاج حسن، أقنع ابن أخيه حين علم ان السلطات التركية تبحث عنه لاعتقاله مثل إبراهيم القاسم وكامل هاشم والشيخ نمر الداري بتسليم نفسه، لأنه رأى هو الأنسب والاولى بالنسبة لمركزه في الدولة، وصحبه الى دمشق بطريقهما الى عاليه حيث كان مركز الديوان الحربي العرفي الذي جرت محاكمات المتهمين أمامه، ومكان معتقل المعتقلين.

وحينما وصلا عاليه قرأ خبر صدور أحكام الديوان على المتهمين وجاهياً وغيابياً، وكان اسم الحاج حسن من جملة المحكومين بالاعدام وهم الذين حكم عليهم وشنقوا في القافلة الأولى في آب 1915 في بيروت، فهرب الى دمشق وتسلل الى بيت دمشقي يعرفه أو دله عليه صديق واختفى فيه ثلاثة اعوام ونيفاً، أي الى أن عفى عنه جمال باشا الصغير. أما رفاقه الثلاثة فقد حكم عليهم بالسجن مدة ما ثم أطلق سراحهم. وحينما صدر الإعفاء خرج من مخبئه وسافر إلى نابلس وانشغل منذئذ بأموره التي ارتبكت بعض الشيء أثناء اختفائه، حيث كان له أراضي في قرية تياسير عدا عليها المزارعون استغلالاً لتهمته وغيابه الطويل، فكان ذلك مما شغله عن النشاط السياسي الفعال خلافاً لابراهيم القاسم وكامل هاشم الذين كانا عضوين عالمين في الجمعية الوطنية والعمل السياسي، وظللنا على صداقتنا به بقية المدة التي عاشها، وأظن أنه توفي في الأربعينات رحمة الله عليه.

كلمة عن عوني عبد الهادي:

وبمناسبة ذكر عوني عبد الهادي فهو ابن الحاج عبد الهادي القاسم، عبد الهادي الذي ذكرنا صفاته في سياق ذكرنا جمعية الحاج توفيق حماد، وكان من سني وفي صفي حينما كنا في الصف الثالث الاعدادي، ثم أرسله أبوه لاتمام دراسته في الأستانة ودخل المدرسة الملكية ثم غادرها قبل اتمام دراسته فيها، وسافر الى باريس ودرس الحقوق في جامعة باريس،

وحصل على إجازة، ثم أخذ يتهيأ للحصول على دكتوراه في الحقوق، فنشبت الحرب العالمية وتعثر في ذلك. وكان من مؤسسي جمعية (العربية الفتاة) التي أنشأها بعض الشباب العرب في باريس سنة 1913، والتي ذكرناها في سياق كلمتنا عن رفيق التميمي، ثم كان من جملة اللجنة التحضيرية الداعية الى المؤتمر العربي في باريس الذي ذكرناه قبل. وقد بقي في باريس أثناء الحرب، واشتغل في بعض الوظائف لتأمين حياته، لأن طريق المدد اليه كان مسدوداً، وهذا مما عثّر دراسته الدكتوراه..

ولما انتهت الحرب وجاء الأمير فيصل الى باريس لعرض قضية العرب والدفاع عن حقوقهم وتثبيتها أمام مؤتمر الصلح بالنيابة عن والده الملك حسين، صار سكرتيراً له. وجاء الى دمشق مع فيصل، وظل سكرتيراً له طيلة المدة التي قضاها في دمشق، والتقينا به فيها وجددنا به عهدنا، ثم صار صديقاً حميماً لنا وظلت صداقتنا مستمرة الى النهاية.

وتعاونا في مختلف المواقف والظروف في دمشق ثم في فلسطين، ولقد كانت مشاركته في النشاط العربي في دمشق أثناء الحكم الفيصلي من خلال سكرتيريته لفيصل. وبعد سقوط الحكم جاء الى عمان وصار سكرتيراً للأمير عبد الله، ثم انتقل الى فلسطين وأنشأ مكتباً للمحاماة فيها، ومنذئذ أخذ يشارك في الحركة والمواقف الوطنية مشاركة فعالة. وصار سكرتيراً للجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني السابع مع اثنين آخرين، وأنشأنا معاً حزب الاستقلال سنة 1932 وكان سكرتيراً عاماً له. وشارك في نشاط هذا الحزب مشاركة فعالة، ومشى في المظاهرات وسجن بسببها. وصار ممثلاً لحزب الاستقلال في اللجنة العربية العليا التي قامت لرعاية إضراب فلسطين الطويل، وسكرتيراً لها، واعتقلته السلطات في جملة من اعتقلتهم في صرفند، وظل معتقلاً الى قبيل نهاية الاضراب، ثم خرج واستأنف نشاطه في اللجنة العليا سكرتيراً، وذهبنا معاً الى بغداد والرياض وفداً من اللجنة لشرح مبررات قرار مقاطعة اللجنة للّجنة الملكية، وخرج من فلسطين قبل انفجار ثورة سنة 1937 فنجى بذلك من الاعتقال، لأن السلطات اعتقلت من كان في فلسطين من اعضاء اللجنة العربية ونفتهم الى سيشل، وظل ينشط في سبيل القضية في مصر وأوروبا، وكان من أعضاء الوفد الفلسطيني الذي اختارته اللجنة الى لندن سنة 1939، وبقي خارج فلسطين نشيطاً في سبيل القضية الى سنة 1943، حيث سمحت له السلطات بالعودة.

واشترك في نشاط الأحزاب الى ان كانت النكبة فخرج وأقام مدة في دمشق، ثم ذهب الى مصر ثم عاد الى عمان وزيراً للخارجية ثم سفيراً للاردن في مصر، ثم صار رئيساً للجنة القوانين في جامعة الدول العربية الى أن توفاه الله في سنة 1970 ودفن في مصر رحمة الله عليه.

وقد ظل محافظاً على خطه القومي العربي الوحدوي وصفاء ذهنه وبديهيته وبروزه كزعيم من زعماء الحركة العربية والفلسطينية، وكان بينه وبين الحاج أمين الحسيني بروداً وتضاداً وتشاداً لأنه كان ينتقد الحاج، وكان هذا لا يطيق ذلك، فكان يتسقط غلطاته ويستغلها في الحملة عليه. واستغل صلة ما له بمأساة وادي الحوارث حتى التصقت باسمه، وظلت تشوهه، ولقد ألممت بهذه المسألة إلماماً وافياً وسجلت ظروفها وإجراءاتها في دفتري القديم في مناسبة تأليف لجنة تحقيق من قبل اللجنة التنفيذية

للمؤتمر السابع، لتحقيق ما نسب الى أعضاء هذه اللجنة من علاقات بيع وانتقال أراضي عربية لليهود عل ما سوف يأتي شرحه بعد. وقد رأيت أن أثبت ما سجلته.

وأصل القضية بأن أمير عرب وادي الحوارث الذي كانت أرض الوادي مسجلة على اسمه، استدان من آل التيان البيروتيين مبلغاً من المال ورهنهم الأرض المسجلة عليه، وفوضهم ببيعها لاستيفاء دينهم اذا لم يدفعه حينما يطالبون به او يستحق أداؤه، واخذ آل التيان مبلغاً من المال من شركة افرنسية يهودية ورهنوها الارض وفوضوها بالبيع حسب التفويض الذي لهم اذا لم يدفعوا الدين في وقته. وكان ذلك في زمن الدولة العثمانية. وفي زمن الاحتلال الانكليزي طلب ورثة المسترهن الإفرنسي المال، ورفعت قضية على آل التيان بالدين، وكان عوني وكيلاً لآل التيان. وخسر ورثة المسترهن القضية في المحكمة الابتدائية ثم كسبوها في الاستئناف، حيث قضت هذه المحكمة ببيع المرهون لسداد الدين. وطرحت الارض للبيع بالمزايدة حسب الاصول ورست على المؤسسة القومية اليهودية للارض، وسارت عملية التنفيذ بواسطة دائرة الاجراء والبوليس معها، حتى بلغت نهايتها في اجلاء البدو عن الارض واستلام اليهود لها. وكان فؤاد أخو عوني وهو محام وفي مكتب أخيه كشريك أيضاً على ما أظن ممثلاً لآل التيان في هذه العملية، وظل يغدو ويروح مع خانكين وكيل الشركة اليهودية في كل مراحلها، والقضية كما هو ظاهر قضية دين قضت المحكمة ببيع المرهون لوفائه، ووكالة عوني لآل التيان فيها وكالة حقوقية. وكل قضية من هذا النوع تنتهي الى بيع المرهون اذا لم يدفع الدين، ووكالة المحامي لا تقدم ولا تؤخر. والمزايدة في البيع حرة يدخلها عرب ويهود. ومما قاله عوني في بيان أذاعه حينما أثارت الصحف هذه القضية ووجهت اليه تهمة فيها أنه لو كانت الوكالات محظورة وطنياً لوجب الامتناع عن كل قضية مماثلة، سواء أكانت بين اليهود العرب أو بين اليهود أنفسهم، لأن كل حكم بثبوت دين ووفائه قد تنتهي الى طرح المرهون للبيع، والمؤاخذة حينئذ لا تنحصر في المحامي بل تشمل كل عربي يرفع قضية على عربي، ويطلب فيها الحجز على ملكه وأرضه وطرحه للبيع في المزايدة، لأن اليهود يمكن أن يدخلوا في المزايدة. وهذا لم يقل به أحد ومازال المحامون وسائر العرب يقومون به ويفعلونه. وكل هذا صحيح موضوعياً.

ولقد أذاع أخوه فؤاد بياناً حينما حُمل عليه لأنه مثّل آل التيان في عملية التنفيذ، ذكر أن ذلك لم يكن يقدم الأمر، وان عدم تمثيله لم يكن ليمنع إتمام العملية، وقد يكون هذا صحيحاً موضوعياً أيضاً. والغالب أنه كان لعوني أتعاب محاماة عند آل التيان، وأن آل التيان كانوا سوف ينالون مبالغ جديدة نتيجة للمزايدة، فكان تمثيل فؤاد في العملية لضمان استيفاء هذه الأتعاب.

ومهما يكن عن صحة أقوال عوني وفؤاد موضوعياً فإن واقع إجلاء البدو عن الأراضي التي كانوا يزرعونها طيلة عشرات السنين أو مئاتها بالقوة كان شديداً، وكان تمثيل فؤاد لآل التيان بهذا الشكل هو الذي أثار الاشمئزاز والمرارة في النفوس، وكان المنطق الوطني يقضي على عوني وهو رجل قضية ونضال وطني وزعيم عربي أن يستقيل من الوكالة حينما بلغ الأمر الى طرح الأرض للمزايدة، لأنه لا بد من انه يعلم أن اليهود سيكونون الأقوى في الموقف

وسيظفرون بالأرض حتى لا يلتصق اسمه بهذه العملية مهما كان أثره فيها سلبياً، وكانت استقالته ستمنع فؤاد تلقائياً من تمثيله لآل التيان بالصورة التي مثلهم فيها الى جانب خانكين وأثار مرارة الناس واشمئزازهم. وهذه هي غلطة عوني التي استغلها الحاج أمين وخصومه الآخرون.

ومن العجيب الذي سجلته في دفتري أن إعلانات الإجراءات الرسمية للمحاكمات كانت تنشر في جريدة الجامعة العربية، التي كان يصدرها منيف الحسيني، والتي كانت بعد ذلك مسرحاً للحملة التجريحية على عوني بسبب القضية، ولكنه لم يكن اذ ذاك تضاد وتشاد بين عوني والحاج أمين، فجرت الأمور عادية دون توقف وتجريح. فلما قام التشاد والتضاد قامت حملة التجريح والاتهام.. وأن استغلالاً لغلط عوني لعدم الانسحاب من الوكالة. والذي نعتقده ان الحاج أمين وجماعته لم يكن ليخفى عليهم أن وكالة عوني وعدم انسحابه منها ليس لهما أثر ايجابي حقيقي في إنجاز العملية، وانها كانت ستنجز على كل حال، وبالتالي لا مبرر الى اتهام عوني بتسهيل انتقال الارض العربية لليهود، وأن الاعتبارات الشخصية كانت هي الدافع للاستغلال والحملة. والحاج رحمة الله عليه يتأثر كثيراً بهذه الاعتبارات على ما ذكرناه في الكلمة التي كتبناها عنه.

وينسب الى عوني عدم الجد الصميمي في ما يباشره من أعمال عامة، والطموح للبروز كزعيم بدون ذلك الجد الجاد، والسخرية بالغير والتعالي والتعالم والنسيان والذهول، وقد يكون شيء من كل ذلك صحيحاً. ولكن فيما يقولونه مبالغة كبيرة، فليس على وطنيته واخلاصه وجده في العروبة وأهدافها غبار. وهو ذكي أديب ألمعي لامع وذواقة النكتة وخفيف الروح، ولعل كل ذلك كان يجعله يرى نفسه ويقدرها بالنسبة لكثير من الناس تقديراً استدعي تلك النسبة والفخر، والعصمة لله وحده.

حادث اغتيال ولي عهد النمسا ونشوب الحرب العالمية الاولى:

في أواخر حزيران 1914 وثب فدائي صربي على ولي عهد النمسا الذي كان يزور البلاد أو الدولة الصربية وقتله، لأن النمسا كانت تحتل أقساماً من بلاد الصرب عنوة وأهلها ناقمون عليها، ففرضت النمسا على دولة صربيا شروطاً شديدة فرفضتها، فأعلنت عليها في آخر تموز الحرب وسارعت روسية فأعلنت الحرب على النمسا انتصاراً لصربيا، وسارعت ألمانيا فأعلنت الحرب على روسية تضامناً مع النمسا، وسارعت بريطانيا وفرنسا فأعلنتا الحرب على ألمانيا والنمسا تضامناً مع روسية، وتابعتهما إيطاليا ايضاً. وتتابعت الدول الاوروبية الثانوية حتى سارع بعضها فأعلن تضامنه مع روسية والمتضامنين معها ضد ألمانيا والنمسا، فكانت الحرب العالمية الاولى التي امتدت الى الحادي عشر من تشرين الثاني سنة 1918.

موقف الحكومة التركية من الحرب:

ونحب أن ننبه قبل الاستمرار في الكلام على أننا لا نكتب تاريخاً لهذه الحرب، وانما نكتب انطباعاتنا وخلاصات وجيزة عن أسبابها وسيرها، ونقول بعد هذا التنبيه إن الدولة العثمانية وقفت متربصة مدة ما مع ظواهر تدل على أنها ستكون مع النمسا والمانيا، نظراً لما كان من اعتداءات سابقة من روسية وبريطانية وفرنسا وايطاليا على أجزاء من بلادها التي كانت تابعة لها تماماً أو تحت سيادتها، مثل اعتداء

روسية في اقتطاعها القريم والقارس والاردهان والقفقاس في شرقي شمال الاناضول، واعتداء بريطانيا واحتلالها سواحل جزيرة العرب الشرقية والجنوبية ومصر والسودان، واعتداء فرنسا واحتلالها تونس والجزائر والمغرب، واعتداء إيطاليا واحتلالها ولاية طرابلس الغرب (التي تسمى اليوم ليبيا) وتشجيع روسية ولايات البلقان العثمانية ضد الدولة، وتشجيع بريطانيا اليونان لتحريكها كريت وغيرها من بلاد الدولة، ثم نظراً لما تلمسه من نوايا ومطامع عدوانية من هذه الدول نحو أجزاء أخرى من بلادها، مثل مطامع فرنسا في سورية، وبريطانيا في العراق وشرق الأردن وفلسطين، وروسيا في الولايات الشرقية من الأناضول، وإيطاليا في قسم من جنوب الأناضول، واليونان في قسم من غرب الاناضول، ودول البلقان في تصفية ما بقي لها من أملاك وولايات في البلقان.

ولقد حاولت بريطانيا وفرنسا تطمين الدولة العثمانية وحملها على الوقوف حيادية، وطلبت الحكومة العثمانية تعهدات خطية شاملة من جميع الحلفاء بما فيها روسية باحترام حدود وسيادة الدولة ثم الموافقة خطياً على إلغاء الامتيازات التي كانت تتمتع بها فرنسا وبريطانيا وروسيا وايطاليا في بلادها، والتي كانت تسمى امتيازات أجنبية، وفيها اخلال بسيادة الدول مثل عدم محاكمة رعاياها فيما يرتكبونه من جرائم ويستحق في ذممهم من حقوق أمام محاكمها، وعدم جواز اعتقال أحد من رعاياها وفرض ضرائب عليهم، وعدم جواز زيادة رسوم الجمارك إلا بموافقتها الخ... فرفضت إعطاء التعهدات الخطية بذلك، وكانت ألمانيا قبل الحرب بعشرين سنة أخذت تتودد اليها وتظهر لها الإخلاص، فانعقد بين الطرفين أواصر صداقة. وجاء الإمبراطور الألماني على ما ذكرته من قبل، فزار الأستانة ثم بلاد الشام تمتيناً لهذه الصداقة، ومنحته الدولة امتيازاً بمد خط حديدي طويل يصل الى بغداد، ثم الى الكويت، وطلبت منه مدربين لجيشها، وبكلمة ثانية انعقدت أواصر الصداقة والتعاطف والتعاون بينها وبين ألمانيا.

ولقد انقسم أعضاء الوزارة التركية التي كان معظم أعضائها من الاتحاديين إزاء الموقف، فبعضهم كان يرى الاستجابة الى تطمين فرنسا وبريطانيا والوقوف حيادياً، وبعضهم كان يرى أن تطمين فرنسا وبريطانيا هو شكلي، وأن مطامعهما ومطامع حلفائهما ونياتهم قائمة ثابتة، وأن الأفضل الانحياز لجانب ألمانيا والنمسا. وكان هذا الفريق هو الأقوى فتغلب رأيه. ولكن الوزارة اتفقت على عدم المسارعة الى إعلان الحرب والتظاهر بالحياد مع إعلان النفير العام استعداداً للمراحل والطوارىء.

إعلان النفير العام (سفر برلك) وذكرياتي عن ذلك:

كان إعلان النفير العام في أول آب 1914، وكنت آنئذ وكيلاً لمدير البرق والبريد، وكنا مجتمعين في بيت كامل هاشم نتحدث في السياسة وفي انشاء فرع حزب اللامركزية أنا والحاج حسن حماد وابراهيم القاسم والشيخ نمر وصاحب البيت. فجاء موزع البرق والبريد علي بكري يخبرنا بورود الأوامر بإعلان (السفر برلك)، وهو ما عنينا به بكلمة النفير العام. وقد أعلن ذلك في صباح اليوم التالي بالأبواق والطبول، وعلقت على الجدران منشورات بخط كبير يعلوها رسم العلم العثماني بالحبر الأحمر ومعنونة بكلمة (سفر برلك) بخط كبير بالخط

الأحمر أيضاً، وفيها إعلان للإدارة العرفية وأمر للناس من سن العشرين الى سن الأربعين بمراجعة دوائر التجنيد بدون تريث، وإنذار للمتخلفين بالمحاكمة العسكرية والعقوبات الشديدة. وشعر الناس وكأن القيامة قد قامت واهتزوا اهتزازاً شديداً، وأخذت دوائر التجنيد الأمر بالجد، ودارت دورياتها العسكرية في الشوارع تأمر الناس بالذهاب الى (الدبوية) وهي مركز تلك الدوائر خارج المدينة شرقاً، وأخذ ورقة منها بإثبات الوجود، وتنذر باعتقال كل من لا يكون معه هذه الورقة في ظرف أسبوع. وأرسلت السلطات دركاً راكباً الى القرى ومعهم المناشير لتسليمها للمخاتير لتعليقها والعمل بموجبها، فقامت القيامة في القرى مثل قيامة المدينة. والقيامة متمثلة بالآلاف المؤلفة من أهل المدن والقرى في جميع بلاد الدولة الشاسعة الواسعة الذين هم بين العشرين والأربعين المدعوين الى التوجه في خلال أسبوع الى مراكز التجنيد لتسجيل حضورهم وتقديم تذاكرهم وأخذ وثائق تثبت ذلك، وما رافق ذلك من رعب وخوف وتخويف في جميع أهل المدن والقرى في جميع أنحاء الدولة، حيث يمكن للمرء أن يستوعب خطورة الحالة وأثرها.

ولقد كان في نابلس مركزان للتجنيد واحد لأهل المدينة والقرى التابعة لها، وواحد لقرى قضاء جمّاعين. ولكل مركز ضباطه الخاصون برئاسة ضابط برتبة بينباشي (مقدم)، وكان المطلوبون أصنافاً عديدة منهم النظاميون الذين هم في سن 20ـ 25، والمفروض أن هؤلاء في الخدمة، ولكن كان كثير منهم خارج الخدمة لأسباب عديدة، حيث كان المعفيون القانونيون الذين ذكرناهم سابقاً، ومنهم المؤجلون بسبب المرض، ومنهم دافعو البدل النقدي، فكان على هؤلاء أن يراجعوا ويثبتوا أحوالهم ويأخذوا وثائق، ومن المدعوين من انتهت خدمته النظامية وسجل رديفاً، ومن انتهت خدمته كرديف وسجل مستحفظاً على ما شرحناه سابقاً أيضاً، وكان هؤلاء هم الجمهور الأعظم وسنهم بين 25 و40. وصار الناس يندفعون من المدينة والقرى مذعورين خائفين ذاهلين عن أعمالهم الى مراكز التجنيد ليأخذوا وثائق بحضورهم وحالتهم حتى يبرزوها للدوريات التي كانت تجوب الشوارع والقرى وتسأل كل شخص عن وثيقته وتعتقل بعد أسبوع كل من لا يحمل وثيقة، واكتفت دوائر التجنيد في المرحلة الأولى بالتسجيل وإعطاء الوثائق المؤقتة مع التنبيه بانتظار الأوامر والاستعداد لتلبيتها فوراً، فكان هذا مما هدأ روع الناس بعض الشيء منتظرين ما سوف تأتي به الأيام والأخبار مع التحسب والتخوف، لأن الأخبار كانت تأتي باشتداد المعارك بين جيوش الدول الأوروبية وبازدياد التوتر بين الدولة العثمانية والحلفاء، وقوة البوادر على أن الدولة سوف تنضم الى الحرب في جانب الألمان. ولقد كان للدولة بارجتان في مصانع بريطانية فجمدتها بريطانية، وكان في مياه الدولة بوارج ألمانية قبل الحرب فطلب الحلفاء من الدولة تجريدها من السلاح واعتقال ملاحيها إذا كانت حقاً حيادية، كما أعلنت وطلبت منها اعفاء بعثة التدريب الألمانية وإعادتها الى ألمانيا، مما كان يدل على احتمالات ازدياد التوتر.

ولقد كان الموظفون ممن أوجب عليهم المراجعة وأخذ الوثائق مثل غيرهم فذهبت فيمن ذهب وأخذت وثيقة. وكان سني قد تجاوز الخدمة النظامية وصرت في صنف الرديف، ثم

وردت بعد أسبوع أوامر تستثني جميع العاملين في دوائر البرق والبريد والضرائب (الويركو) والشرطة والدرك ورؤساء المحاكم ومعلمي المدارس من التجنيد، لأنهم في خدمات ضرورية للدولة كالتجنيد فاعطيت للمستثنين وثائق بذلك.

وبعد شهر أخذت دوائر التجنيد تستدعي بعض صفوف الرديف وتجندهم وتشكل منهم كتائب وتجهزهم وترسلهم الى الخارج، فكان في هذا إيذان بقرب اندماج الدولة مع الحرب وزاد في الهواجس والمخاوف.

فصل عن ظروف الحرب العالمية وحالة العرب فيها ونشاط القوميين ومداه والثورة الهاشمية وموقف الحكومة التركية:

وأريد أن أتوقف هنا عن سرد ما جرى لي من أحداث بعد اعلان النفير العام، لأورد فصلاً كنت اعددته للقسم التالي من توسيع الجزء الأول حول الحركة العربية الذي صدر قسمه الأول في مجلد بعنوان (نشأة الحركة العربية الحديثة)، ليكون تمهيداً لما كان من أمر الحركة العربية وتطورها في ظرف النفير العام، ثم في ظروف اشتراك الدولة العثمانية في الحرب لجانب ألمانيا وحلفائها، والفصل مركز ولكنه مركز في كل ذلك. ولقد رأيت في اثباته هنا فائدة ما دمت قد انصرفت عن ذلك التوسيع، وانصرفت لاعادة تدوين مذكراتي وتسجيلاتي على ما شرحته في مقدمة المذكرات. فقد أكون أوردت في سياق ما جرى لي من أحداث اشارات عديدة فيها أشياء كثيرة مما جاء في هذا الفصل، غير اني لم أر هذا مانعاً من إثبات الفصل لأنه متسلسل ومركز، وهذا هو الفصل:

إن الحرب العالمية الأولى كانت فترة حاسمة في تطور الحركة العربية، ويمكن أن يقال إن رجال الحركة العربية في بدء هذه الفترة كانوا في حالة تطلع إلى ما يمكن أن يكون نتيجة الحرب لبلادهم من نتائج تحقق بها آمالهم القومية بعد أن خاب كل أمل لهم من ارعواء الاتحاديين، ولمحوا سوء نياتهم حين علموا ما قرروه من مطارتهم وتشريدهم، واستعمال اليد الحديدية في بلادهم بعد أن تراجعوا عن الموقف الملائم الذي وقفوه أثناء مؤتمر باريس وعقبه (على ما فصلناه في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة تفصيلاً يغني عن التكرار). ولقد كان الاتحاديون بدورهم في حالة توقع لوقوف رجال الحركة العربية منهم موقف المستغل للفرصة الذي لا يوليهم ولاء. وفي حالة تهيؤ للبطش والقمع كما أشرنا إلى ذلك أيضاً. وكان لكل من حالتي الطرفين وتطورهما أثناء الحرب أثر في سير هذه الحركة.

وإني لأذكر أنه لم يسعني إلا أن أهتف لصديق من الأصدقاء خشية دخول الدولة العثمانية الحرب بالمثل العربي القديم (فلح لو كان له رجال)، ثم قلت له سوف يكون تحت السلاح ما لا يقل عن مائة ألف جندي عربي، وعن ألف ضابط، وأرى هذه الفرصة عظيمة للعرب يملون فيها مطالبهم أو يحققون بها إستقلالهم وحريتهم.

وفي كتاب الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد - الجزء الأول مسألة عن عبد الكريم الخليل مؤرخة في 6 آب 1914 أي بعد بضعة أيام من إعلان الدولة العثمانية النفير العام، فيها ما يفيد معنى التوقع التركي والتطلع العربي معاً، حيث يقول فيها إن الحكومة قد طلبت منه السفر الى سورية لجمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب

الفتور بين العناصر العثمانية، وأنها وعدته بشد أزره وإجابته الى كل المطالب العادلة التي تطالب بها الأمة العربية بلسان أحرارها. وهذا ما يوجب علينا أن نكون يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها، لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا، والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأناً وأعلى مقاماً، حيث يفيد هذا أن الحكومة العثمانية التي كان الاتحاديون على رأسها كانت تتوقع تحركاً من العرب اغتناماً لفرصة الحرب فأرادت تفادي ذلك.

واغتنم عبد الكريم الخليل الفرصة بدوره فأخذ منهم وعدا باجابة مطالب الأمة، ومن ذلك التطلع العربي كما جاء في مذكرات الدكتور أحمد قدري عضو الهيأة المركزية لجميعة الفتاة عند إعلان النفير العام، حيث قال في مذكراته: إن احتمال دخول الدولة العثمانية الحرب واحتمالات تطور هذه الحرب أوجد في شباب العرب وفي جمعية الفتاة توتراً وتطلعاً للاستقلال، وقد قررت الجمعية مع قرارها وجوب إشتراك العرب في الدفاع عن الدولة وعن بلاد العرب إذا ما هددها خطر، إرسال مندوب إلى مصر لاستطلاع رأي سياسيي العرب فيها عما هو كائن ومما هو محتمل، ووقع إختيارها على الشيخ كامل القصاب من أعضائها، وسافر بحراً ثم عاد منها، حيث يفيد هذا إن المندوب ذهب إلى مصر بعد نشوب الحرب في أوروبا وقبل دخول الدولة العثمانية فيها، وكانت كل الظواهر تدل على أنها سوف تدخل فيها إلى جانب الحلف الألماني النمساوي، كما كنا نشعر بذلك ونرى بوادره.

ومما ذكره الدكتور أن السلطات اشتبهت بالشيخ كامل عند عودته فاعتقلته، ثم بذلت الجهود حتى أمكن إطلاق سراحه، فسارع إلى مغادرة سورية وحل في مصر حيث بقي فيها إلى نهاية الحرب، ولم يذكر الدكتور في مذكراته الرأي الذي حمله الشيخ كامل من مصر من السياسيين العرب الذين كان المقصود منهم سياسيي سورية، بخاصة رجال حزب اللامركزية الذين توطدت الصلات التعاونية بينهم وبين جمعية الفتاة عبر مؤتمر باريس (على ما شرحته في كتاب نشأة الحركة العربية الحديثة).

ومن ذلك التطلع، كتب أرسلها حقي العظم سكرتير عام حزب اللامركزية المقيم في مصر الى رجالات سورية، وقد نشر منها نص كتابين، واحد موجه لكامل هاشم وواحد موجه الى سيد شكري في كتاب (إيضاحات)، الذي أصدره جمال باشا السفاح باللغة التركية وترجم الى العربية في سنة 1916، لتبرير ما فعله بأحرار العرب ورجالاتهم وأسرهم من مطاردات واعتقالات ومحاكمات وإعدامات وتشريدات.

وفي الكتابين تنبيه لرجال العرب الذين أرسلت اليهم الكتب ليفكروا بالوسائط التي تحقق استقلالهم إذا ما دخلت الدولة الحرب، بحيث يكون في ذلك نهايتها، وحيث يمكن أن تتعرض لخطر الاحتلال والوقوع في بلاء أشد إذا لم يتنبهوا من الآن لما يجب عليهم فعله لدرء الخطر وتحقيق الأمل، وليجيبوا على اسئلته الواردة في الكتاب عن إمكانياتهم المادية والعسكرية، وعما إذا كان في الامكان ارسال مندوب الى مصر لتلقي التعليمات، واستقبال مندوب من مصر لاعطاء التعليمات.

وكتاب كامل هاشم أرسل قبل نشوب الحرب أو قبل دخول الدولة فيها، وكتاب (سيد شكري) أرسل بعد نشوبها، وان كان لا يمكن التكهن أنه

قبل دخول الدولة فيها على ما يمكن فهمه من النصين.

وما يمكن أن يعد من ذلك التطلع، ما ذكره الدكتور أحمد قدري أيضاً في مذكراته عن إتصاله بياسين الهاشمي، الذي كان رئيس أركان حرب فخري باشا قائد فيلق الموصل ووكيل قائد الجيش الرابع، وبرضا الركابي الذي كان قائد موقع دمشق أثناء الحرب، وضمهما الى الجمعية مما فيه صورة لتطلعات الجمعية البعيدة نحو حركة عسكرية ما في سورية، وهو ما كان من توقعات مصر أيضاً على ما يدل عليه نصوص كتب حقي العظم المذكورة أيضاً.

وما يتصل بهذا أن رضا الركابي اقترح على جمعية الفتاة ضم الأمير نواف الشعلان أحد أركان عشيرة الآرْوَلَة التي كانت تنزل في بادية الشام اليها، لما يمكن أن تلعبه هذه العشيرة الكبيرة من دور ما في مثل ذلك الظرف، وقد ذكر الدكتور أحمد قدري أن الجمعية أرسلت فائز الغصين البدوي الأصل والمحامي في دمشق الذي كان منضماً إلى الجمعية إلى مضارب عشيرة الآرْوَلَة لإحضار الأمير نواف، وقد أحضره وتم ضمه إلى الجمعية، واشتبهت السلطات بفائز فاعتقلته ثم نفته الى خارج سورية، ولكنه نجا في الطريق إلى منفاه وهرب إلى الحجاز.

ولقد كان التوقع الذي قد بدأ في مطلع سنة 1914 فيما كان من قرار الاتحاديين تفريق شمل ضباط العرب وإبعادهم عن البلاد العربية وتشديد القبضة على هذه البلاد إثر حادث عزيز علي المصري، وتأسيس حزب العهد (شرحناه في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة شرحاً يغني عن التكرار).

ولقد ذكر جمال باشا في مذكراته المترجمة الى اللغة العربية في سياق ذكر تعيينه قائداً عاماً للجيش الرابع وحاكماً عاماً لبلاد الشام أن (أنور) وزير الحربية العثمانية أخبره أن أنباء واردة من سورية تدل على وجود هياج داخل البلاد العظيمة، مضافاً اليه النشاط العظيم الذي يبديه شباب العرب القوميون ضد حكومة الاتحاد والترقي، وإن قائد الجيش في بلاد الشام زكي باشا، وكان يُعرف بالحلبي، ضعيف عن مواجهة هذا الموقف، فضلاً عن أنه لا يريد بذل الجهد في إعداد حملة السويس المقررة، ويطالب بنجدات كبيرة لحماية سورية ضد انزال قوات معادية محتمل. وإن الاختيار وقع عليه - على جمال - لأنه الرجل الذي يمكنه سد الفراغ ومواجهة الموقف بعزمه وحزمه، وقال جمال في مذكراته أنه وافق على ذلك بشرط أن تبقى وزارة البحرية في عهدته على أن يكون أنور وكيلاً عنه فيها. حيث يفيد هذا أن الاتحاديين كانوا يشعرون بأن رجال الحركة العربية لا بد أن ينتهزوا فرصة الحرب لمضاعفة نشاطهم، فقرروا إرسال هذا السفاح لمواجهتهم..

ولقد ذكر عزيز بك مدير استخبارات الجيش الرابع في مذكراته المترجمة الى العربية والتي ذكرنا خبرها وثنينا عنها في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة، ما جاء في مذكرات جمال، حيث قال إن زكي باشا قائد الجيش الرابع كان قائداً شريفاً محباً للعثمانيين وحيادياً، ولم يكن هذا يروق للقابضين على زمام السلطة الذين كانوا يريدون أن يكون على رأس هذا الجيش والبلاد التي شملها بسيطرته شخصية قوية قادرة على تنفيذ مؤامراتهم بالقضاء تماماً على الفكرة العربية ورجالها معاً، فقرروا استبدال جمال باشا به واستصدروا إرادة السلطان بذلك في 13

تشرين الثاني 1914.

ومما ذكره جمال في مذكراته أن أنور باشا ضم إليه الشيخ أسعد الشقيري والأمير شكيب أرسلان وعبد الرحمن اليوسف وآخرين من وجهاء العرب ليساعدوه ويشيروا عليه. وهؤلاء هم من رؤساء الفئة العربية الثالثة المناوئة للحركة العربية ورجالها من الفئتين الثانية والثالثة مما شرحناه في كتابنا نشأة الحركة العربية شرحاً يغني عن التكرار، حيث يبدو أن الاتحاديين يعرفون أحوال العرب وفئاتهم، وكان تحسبهم من الفئتين الأولى والثانية، فرأوا أن يكون الى جانب جمال في بلاد الشام زعماء الفئة الثالثة المتعاونين معهم المناوئين للفئتين، وقد ظل بعض هؤلاء ورفاقهم في الفئة الثالثة ملازمين لجمال مؤيدين له متضامنين في كل موقف من مواقف طغيانه وبغيه وقسوته. بل ومحرضين على ذلك أيضاً على ما سوف يأتي شرحه بحجة التضامن مع دولة الخلافة وتأييدها.

ومما ذكره جمال باشا في مذكراته أن خلوصي بك والي دمشق سلمه يوم وصوله وثائق مهمة صودرت من القنصلية الفرنسية، وفيها ما يدين عدداً من اللبنانيين والسوريين من مسلمين ومسيحيين، وتدل حسب قوله دلالة واضحة على أن الثوار العرب (يقصد الإصلاحيين ورجال الحركة العربية) كانوا يعملون تحت حماية فرنسية بل بارشادها ولمصلحتها، وأنه رأى أن إتخاذ إجراءات قضائية ضد هؤلاء الخونة في الحال ربما عرض الوحدة الاسلامية للخطر، وكان ذلك غاية الجهود الحكومية، حيث يمكن أن يقول مسلمون في بلاد أخرى إن الأتراك تملكهم سورة الانتقام من العرب لتحقيق سيادة الأمة الطورانية، فقرر أن لا ينبس ببنت شفة في الوقت الحاضر، غير أنه رأى تسليم وثائق تدين نخله المطران البعلبكي، وقد اعتقل وحوكم وأدين بالأشغال الشاقة المؤبدة وأرسل إلى ديار بكر لقضاء مدة سجنه هناك، وفي الطريق قتله الحراس بزعم أنه حاول الفرار أثناء السفر.

ومما ذكره جمال في مذكراته في سياق ذكر الوثائق، أن فيها أدلة قوية تدين كلا من الأمير عبد القادر الجزائري وكيل مجلس النواب (نائب مجلس النواب)، وأخاه عمر، وشفيق المؤيد، وعبد الحميد الزهراوي، ويحيى الأطرش، وعبد الوهاب الانكليزي، وشكري العسلي، ورشدي الشمعة وغيرهم من وجهاء العرب. وقال إنه ظن أنهم سوف يقلعون عن غيهم فقرر عدم اتخاذ اجراءات ضدهم[1]. غير أن المستفاد من مذكرات عزيز بك أن هذا التأجيل كان لتأمين ما انبثق في ذهن جمال من خديوية على مصر وسورية. حيث يذكر هذا في مذكراته أن جمالاً حين رأى نفسه صاحب السلطان القوي الرهيب في جميع بلاد الشام وتحت إمرته جيش جرار وأموال طائلة ووسائل كثيرة، ظن أنه قادر فعلاً على غزو مصر، وأنه بمجرد غزوه لها تثور، وحينئذ يكون في مقدوره أن ينادي بنفسه خديوياً على مصر وسورية وعلى الأقل على سورية، فجعله هذا يجنح الى مداراة رجال الحركة العربية ومهادنتهم، وقد اهتم من جهة أخرى لترتيب المشايخ وكسب عطفهم وتسخيرهم لمآربه. وقد قرب اليه بسبيل ذلك

---

(1) تبين على أنه ليس في كتاب إيضاحات الذي أصدره جمال لتبرير جرائمه في أحرار العرب ومن جملتهم الأشخاص الذين ذكرهم شيء ما يدين الزهراوي والعسلي والانكليزي والشمعة وكل ما هناك أسماء وردت في أوراق القنصلية ومقابلة جرت بين السفير الافرنسي وشفيق المؤيد وبعض وجهاء المسيحيين ليس فيها ما يدين حقا.

الشيخ عبد الكريم الحسني والشيخ بدر الدين الحسني وابن هذا الشيخ تاج والشيخ النحاس والشيخ عبد الرحمن الأنصاري والشيخ مجدي الخطيب والشيخ عبد القادر الخطيب، وصار يغدق عليهم من الأموال السرية ماجعلهم فعلاً تحت طوعه ومسخرين لمآربه. وكل هذا مستفاد من مذكرات عزيز بك.

ولقد ذكر جمال في مذكراته أنه بناء على السياسة التي اختطها بعدم التحرش برجال الحركة العربية، وبذل الجهد في حفظ الجامعة الإسلامية، استدعى عبد الكريم الخليل بعد وصوله لسورية وغمره بالبشاشة والإحسان، واجتمع بواسطته ببعض زعماء الثورة العربية (هذه عبارته والمقصود على الأرجح رجال الحركة العربية والإصلاحية) وفي مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وعبد الغني العريسي ومحمد كرد علي، وبسط لهم خطة الدولة، وقال لهم إذا خرجت الدولة منصورة فإن العالم الاسلامي كله يتحرر، وطلب منهم التعاون فأقسموا على الاخلاص ما دامت الحرب قائمة وعدم إقامة عراقيل في طريقه. ومن الجائز اعتبار تقرب جمال لما سماهم زعماء الثورة العربية من نفس الحافز الذي ذكره عزيز بك. ونحن نذكر أن طموح جمال لخديوية مصر وسورية وتقريبه لعبد الكريم الخليل حتى صار من أخصائه لفترة ما بسبيل ذلك، مما كان يذاع ويقال، وكنا نسمعه ونلمحه.

ولقد جاء في منشور أذاعه عبد الغني العريسي حينما فرّ الى البادية مطارداً من جمال، أن جمالاً أسرّ الى عشرات من كبار الشعب السوري أنه يريد الاستقلال لسورية، وألمح مرات عديدة في الولائم الخاصة التي كانت تقام له الى استقلال سورية، حتى لقد حث بعض النافذين على شق عصا الطاعة على الدولة بسبيل ذلك، فوثق به كثيرون، واستطاع بذلك أن يعرف نيات ودخائل رجال العرب. وفي هذا تأييد لما قاله عزيز بك عن مطامح جمال ومصالحه، وكون تقربه الى رجال الحركة العربية في خطواته الأولى مستوحاة من ذلك، وبسبيل التمهيد لتحقيق تلك المصالح. ولم يقلب جمال ظهر المجن[1] لرجال سورية الذين أظهر لهم الود والبشاشة، وأراد اتخاذهم مطية لتحقيق مصالحه الذاتية، الا بعد اخفاقه في حملة السويس، ولمسه في العرب الشماتة به، وتيقنه من أن مصالحه ومطامعه لا يمكن أن تتحقق. وقد بدأ بمطاردة رجال الحركة العربية بعد مدة قصيرة من اخفاق حملة السويس الأولى على ما سوف يأتي شرحه بعد، حيث يكون في هذا قرينة أو شاهد مؤيد[2].

---

(1) قلب ظهر المجن: عبارة مشهورة وهي تعني التحول من الصداقة إلى العداوة.

(2) ومع ذلك فإن عزيز بك ذكر بعض الأحداث التي تدل على أن جمال لم يتخل عن مطامعه وإنما أراد تحقيقها عن طريق العرب حيث ذكر أن الافرنسيين لمحوا مطامح جمال فاتصلوا به وتجاوب معهم وطلب منهم الاعتراف بخديويته على جميع المناطق التي كان يشملها سلطانه أي جميع سورية الطبيعية وكيليكيا طيلة حياته مع تعهده بالاستعانة برؤوس أموالهم ومستشاريهم وقد عرضوا أن يسحب القوات العثمانية من الساحل حتى ينزلوا هم قوات إلى الساحل وبعد ذلك يعلنون اعترافهم بخديويته فلم يقبل ذلك لأنه خشي غدرهم فيكون بين نارين، نارهم ونار أهل البلاد الناقمين عليه. وقال لهم أنه يستطيع أن يفرض قبضته على البلاد ويجعل أنصاره ينادون به أميراً دون ما حاجة إلى احتلال إفرنسي. وحينما يتم ذلك يعلن استقلاله عن السلطنة ويضع يده في يدهم فيكون لهم موالياً ويكونون له سنداً. فلم يقبلوا بدورهم هذا الشرط ووقفت المفاوضات عند هذا الحد، وفي هذه الأثناء ظهرت في الأفق جاسوسة يهودية اسمها ناتاليا داود فينش استانبولية النشأة فاتصلت به وأخبرته أن الجمعية الصهيونية ترغب في مفاوضته وجرت =

ومما ذكره جمال في مذكراته بعد ذكره استدعاء عبد الكريم الخليل، وطلب منهم التفاوض ومعاهدتهم له على الإخلاص، أنه أقام حفلة دعا اليها الاصلاحيين وسمح لهم بالقاء الخطب والقصائد في تمجيد العرب وحثهم على العلم والنهوض، وأنه ألقى هو خطبة طويلة أكد فيها محبة الأتراك للشعب العربي وأجلالهم له وللغته، واستعداده لمساعدتهم على تحقيق أمانيهم، وقال لهم فيها إن الأتراك اذا كانوا يهتمون لاحياء قوميتهم فليس في ذلك تعارض، وإن التحالف والتضامن يجب أن يسود الشعبين الاسلاميين الكبيرين. وناشد الشبان بالتعاون وبعدم السماح للمحاولات الشيطانية التي يقوم بها أعداء الدين والدولة لبذر بذور الشقاق، وحذرهم من عواقب التخاذل والشقاق، لأن ذلك يؤدي الى استعبادهم وتفتيتهم.

وفي كل هذا ينطوي توقع تركي كما هو ظاهر، ولقد ذكر جمال فيما ذكر في مذكراته أن شباب العرب ألقوا في الحفلة نشيد (نحن جند اللّه شبان البلاد)، فكاد سقف المكان أن يتحرك فوق رأسه من قوة وشدة وحماس المنشدين..

بينه وبين الجمعية المفاوضات في مجريين، الأول أن تتوسط الجمعية في عقد صلح شريف بين الدولة والحلفاء يضمن سيادتها واستقلالها، والمجرى الثاني أن يعترف هو بحق اليهود في إنشاء كيان لهم في فلسطين، مقابل مساعدته على خديويته على سورية ودفع مبلغ مائة ألف جنيه ذهبي له للاستعانة بها على أموره وكيانه الجديد.

ولم تسفر المفاوضات في المجريين عن نتيجة إيجابية، فالجمعية الصهيونية لم تستطع أن تقوم بالوساطة المطلوبة بالنسبة للشق الأول، وطلبت مقابل مساعدته على خديويته ومساعدته المالية أن يكون اعترافه بكيانهم في فلسطين خطياً فلم يوافق.. وهذا كله مستفاد من مذكرات عزيز بك.

وفيه تعريض شديد بالترك ونقضهم العهد وتحريض للعرب على رفع الأعلام والبنود والسيوف وقطع الرؤوس.

والتطلع العربي والتوقع التركي ملموسان في هذا الموقف الذي كان في مطلع ممارسة جمال مهمته.

ولقد ذكر أحمد قدري في مذكراته حفلة جمال ونشيد الشباب لذلك النشيد، ثم قال إن جمال استاء من هذه المظاهرة العربية وتناسى ما قاله في خطابه، ورغم اصراره على السفر مع حملة قناة السويس وتوجيه معظم جهوده لإنجاح هذه الحملة، فقد أصدر أمره بحل كتيبة تدريب الضباط الاحتياط العرب. وكانت تدعى (الخدمة المقصورة)، وتتألف من شباب المدارس العالية المدنية سواء منهم الذين أتموا دراستهم فيها أو ما يزالون يتدربون على العمليات العسكرية ويكونوا ضباطاً في الجيش، مما أوحت به ظروف ومقتضيات النفير العام في دخول الدولة في الحرب، ولقد كان يجتمع في نطاق هذه الكتيبة في دمشق أكثر من مائتي شاب عربي مثقف كانوا أو كان أكثرهم من الفئة القومية المتحمسة التي كان غيظها فائراً على الاتحاديين الترك لمناوأتهم للمطالب العربية. وكان وجودهم في دمشق مجتمعين يسبغ على الحركة العربية معنى قوياً من معاني التطلع العربي بطبيعة الحال، مما فطن له جمال وجعله يسارع الى تفريق شملهم.

ولقد كان هناك تفكير بإمكان حركة مضادة عسكرية في سورية، ولكن السلطات التركية التي يمكن أن تكون حدست ذلك عمدت الى بعثرة ضباط وجنود العرب في فرق وكتائب بعيدة عن بلاد العرب، وصارت في مواجهة الجيوش الروسية والبلقانية التي حاربتها الدولة بدخولها

للحرب، فذهب ذلك الامكان بدداً.

ومن مظاهر التطلع العربي الهامة التي كان لها آثار إيجابية عملية حاسمة دون غيرها، ما ظهر من شريف مكة الحسين بن علي قائد الثورة العربية الكبرى أثناء الحرب وملك الحجاز نتيجة لها، من مطامح، وما كان من اتصالاته بالانكليز بسبيل تحقيق هذه المطامح، وما اصطبغت هذه المطامح به من صبغة قومية أثناء الاتصالات صار بها تلك الآثار الايجابية لعملية حاسمة.

ولقد كان بدء ذلك قبل الحرب. غير أن ملابساته ومضاعفاته استمرت واتسعت أثناء الحرب، حتى بلغت ذروتها، وصارت أهم الأحداث القومية العربية، ومن المفيد الإلمام بها من بدايتها. وبرغم ما يمكن أن يصفها بعضهم بوصف المطامح الفردية أو الشخصية، فإنها بما كان لها من نتائج صارت من الأحداث القومية في تاريخ الحركة العربية التي دخلت بها هذه الحركة في ظروف الحرب في مرحلة جديدة، ولقد كان الشريف حسين متغيباً في الأستانة هو وأولاده نتيجة لما قام بينه وبين شريف مكة السابق الشريف عون من تناظر ومكائد، جعلت عون يشكوه، وجعلت سلطات الأستانة تبعد الحسين وأولاده من مكة وتحتفظ بهم شبه منفيين في الأستانة، مع ترتيب مرتب للحسين يكفيه مع أسرته، وتسميته في منصب صوري كأنما هو أحد رجال الدولة، فلما أعلن الدستور عزلت الحكومة الاتحادية الشريف عونا الذي كان طاغية جباراً ومكروهاً، فترشح الشريف حسين للمنصب وصدرت الارادة السلطانية بتعيينه أميراً لمكة.

ولقد كان من المعتاد أن يكون في مكة أمير هاشمي باسم شريف مكة ينظر في شؤون الحج والقبائل، ووال من قبل الحكومة ينظر في شؤون الولاية الإدارية والعمرانية والتنظيمية، وجيش مرابط على رأسه قائد يعاون الوالي في مهماته، وأحياناً يكون هو نفسه الوالي بالاضافة الى قيادة الجيش. ولقد كان الحسين ذا شخصية قوية وحرص وطموح وعناد[1]، فأخذ يوطد منذ تعيينه للامارة مركزاً يحقق له طموحه في نصيب واف من الحكم والسلطان، وشعر الاتحاديون الذين كان زمام الحكم في أيديهم، فصاروا يوصون ولاتهم وقواد جيشهم بشدة مراقبته وبذل الجهد في الحد من مطامحه. وصار تصرّف الولاة والقواد وفق هذه التعليمات، وشكى الشريف فلم تجد شكواه، فكظم غيظه متربصاً.

وفي سنة 1912 سقطت حكومة الاتحاديين وخلفتها وزارة الائتلافيين المعارضين برئاسة كامل باشا (على ما شرحناه في كتابنا نشأة الحركة العربية)، فجاء الشريف بها بشكوى، وكان بين العرب والائتلافيين تعاطف (على ما شرحناه كذلك في ذلك الكتاب). فسحبت الحكومة الجديدة الوالي والقائد والاتحاديين، وعينت والياً وقائداً جديداً أسمه منيف باشا، فسار على نهج المسايرة وحسن التعامل مع الشريف، ولم يطل استبعاد الاتحاديين عن

---

(1) يروي طاهر العمري مؤلف كتاب مقدرات العراق في الجزء الأول أن الشريف حسين رشح نفسه في زمن عبد الحميد لإمارة مكة فأظهر السلطان تخوفه وقال أنه لن يكتفي بالإمارة بل يطمح إلى أكثر من ذلك وسيهدد يوماً عرشي. ولما بلغه تعيينه بعد خلعه قال لقد خرجت الحجاز من يدنا واستقل العرب وتشتت ملك آل عثمان بتعيين هذا الرجل للإمارة ويا ليته يكتفي بالإمارة وباستقلال العرب ولكنه سوف يعمل بدهائه إلى أن ينال مقام الخلافة العظمى ولا يذكر المؤلف مصدراً والكلام على كل حال مما كان يتداول ويدل على طموح الشريف ودهائه ولقد تحقق ما كان يخمنه السلطان عبد الحميد بشكل ما على ما سوف يأتي شرحه.

الحكم حيث استطاعوا اسقاط حكومة الائتلافيين واستعادة زمام الحكم لأيديهم في أوائل سنة 1913، فعزلوا منيف باشا وعينوا بديلاً منه للولاية والقيادة فريقاً أسمه وهيب باشا، وزودوه بقوة عسكرية جديدة وتعليمات مشددة ضد الحسين. ويتبادر لنا أن هذا متصل أيضاً بما كان من الموقف المنشود الذي اعتزموا وقوفه ضد الحركة العربية ورجالاتها على ما أشرنا اليه في مطلع هذه النبذة، وكان مظاهره مراوغتهم ثم نقضهم الاتفاق الذي اتفقوا عليه مع زعماء المؤتمر العربي في باريس (على ما شرحناه في كتابنا المذكور)، وأخذوا يسيرون في تنفيذه، حيث يتبادر أنهم حسبوا أن قسوة ومطامح الشريف حسين قد تكون معوقة لهم أو محبطة لخططهم، وأن يكون بالنسبة اليهم والي الحركة العربية مركز قوة يتجه اليه رجالها ويعتمدون عليه ويحركونه معهم.

ولقد كان هو وأولاده في الآستانة حين أعلن الدستور، وحين بدر من الاتحاديين الطورانيين بوادر الرغبة في التفوق والاستعلاء العنصري، وحين انفعل شباب العرب بذلك وانبروا الى المناوأة من جهة، وإبراز وجودهم والمطالبة بحقوقهم والدفاع عنها من جهة أخرى، ثم كان أبناؤه عبد اللّٰه وفيصل بعد تعيينه أميراً لمكة نواباً في مجلس النواب العثماني عن مكة وجدة، فلا بد من أن يكونوا جميعاً متأثرين منفعلين بمدى الحركة العربية والمطالب العربية ومواقف الاتحاديين منها. ولقد أوردنا في كتابنا الذي ذكرناه نص برقية أو نداء موجه من الكتلة النيابة العربية إلى الشريف حسين يشكون فيها ما يلقاه رجالات العرب والحركة العربية والمطالب العربية من تهجم ومناوأة، ويطلبون منه القيام بحركة ما بسبيل مساعدتهم وتأييدهم وتحقيق الأهداف العربية، ويعدونه بالمبايعة اذا ما أقدم على الاستجابة والعمل، ولا بد من أن يكون الاتحاديون قد لاحظوا كل ذلك، فأرادوا أن يضربوا الحسين قبل أن يتاح له توجيه ضربة ما اليهم.

ويسجل عبد اللّٰه بن الحسين الأمير والملك في الأردن في مذكراته ما لاحظه وتأثر به من مداخلات الاتحاديين والانتخابات وإخراجهم من يريدون من النواب العرب الممالئين لهم، وسنهم القوانين لمصلحة العنصر التركي، وضمان هيمنة هذا العنصر على العناصر الأخرى، وصرف 80٪ من الاموال على البلاد التركية مع أن سكانها لا يكادون يبلغون نصف سكان المملكة، وكون أكثرية الوزراء من الترك وما في كل ذلك من إجحاف في حقوق العرب، حيث لا يكون لهم في الدولة وزن هام كمظاهر احساس بما كان يحسه من غبن للعرب وتعد للترك بسبيله.

ويفصل كذلك ما كان من وهيب من تصرف مثير منذ وصوله إلى مكة، حيث أخذ يشتد في تطبيق قانون الولايات والانتقاص من حقوق وامتيازات الامارة، وحيث أخذ يعد العدة لتنفيذ مشروع مد السكة الحديدية من المدينة إلى مكة. وما كان من معارضة الحسين لمواقف وهيب وانعكاس هذه المواقف على أهل الحجاز، حيث هاجوا وانقطعت السابلة بين الساحل والداخل، وامتنع الناس عن بيع مواد غذائية لجيش وهيب.

ومما قاله عبد اللّٰه في مذكراته أنه التقى في الاسكندرية في طريق سفره الى الآستانة بالصدر الأعظم السابق فريد باشا، فقال له ماذا تفعل وكيف تترك والدك والآستانة أرسلت وهيباً مزوداً بالقوة والتعليمات بعزل والدك، ثم يطلعه على ما كان من وهيب من تصرف مثير منذ وصوله الى

مكة، حيث أخذ يشتد في تطبيق قانون الولايات والانتقاص من حقوق وامتيازات الإدارة، وحيث أخذ يعد العدة لتنفيذ مشروع مد السكة الحديدية من المدينة الى مكة، وما كان من معارضة والده لهذه المشاريع وانعكاس هذه المواقف على أهل الحجاز، حيث رأوا في ذلك عدوانا عليهم وقطعا لأرزاقهم، فهاجوا وانقطعت السابلة بين الداخل والخارج، وامتنع الناس عن بيع مواد الغذاء لجيش وهيب، ووقع اعتداء على مدير الجندرمة والدفتردار وبعض رجال الدولة، وتأزم الموقف، وشكا الحسين الى الصدارة وشكا وهيب بدوره من الحسين ومواقفه، ولم تنفرج الأزمة الا بجواب من الصدر الأعظم سعيد حليم لوالده يطمئنه فيه أن لا اختلال بحقوق الامارة وبامتيازات الحجاز، وأن الحكومة لا تلح على مد السكة الحديدية.

ويقول عبد الله إن والده أبرق له وهو في الأسكندرية بالاسراع إلى الأستانة، فلما وصل ذهب فوراً الى الصدر الأعظم، فطمأنه هذا مرة أخرى ونفى الاشاعات التي انتشرت عن عزل والده أو انتقاص حقوقه، كما طمأنه عن رضا الخليفة عنه. وذهب الى طلعت باشا بعد سعيد حليم وكان وزير الداخلية فطمأنه بأن الأزمة انحلت، ونفى له بدوره ما شاع من نية الحكومة بعزل والده، ثم ذهب وقابل أنور باشا فقابله هذا بشيء من التهجم وعاتبه على وقوف أبيه في وجه المشاريع الإصلاحية ومناوأة الوالي، وقال له إن ذلك أثار استياء الخليفة والمخلصين، وكان موقفه من أنور مماثلاً لموقفه منه، وشكى له سوء تصرفات وهيب، وآثار ما يعتزمون عمله على رزق البدو الذين يعيشون من اجارة بيعهم للحجاج وبين له حسن نيات والده.

واجتمع ثانية بطلعت باشا بقصد تعديل موقف أنور العاتب المتجهم، فوجده متغيراً عما كان عليه أمس، وعاتبه وأنذره وقال له معرباً أن تمديد الخط الحديدي من المدينة الى مكة ومن مكة الى جدة وينبع ضروري، وأن والده اذا ساعد على ذلك خصصت له ثلث دخل الخط، وجعلت الامارة له مدى الحياة ولأولاده من بعده، ووضعت تحت إمرته القوة الكافية لتأمين التنفيذ واستجابت لمطالبه، ووضعت تحت يده مليون ليرة ذهبية ينفقها على العربان، وإن رفض فلا وداد ولا بقاء. وطلب منه حمل هذه الشروط والسفر مع شيخ الاسلام خيري أفندي لمباشرة وضع أساس الخط، وإن رفض فلا محل لعتب. وعاد عبد الله الى مكة ونقل الى أبيه ما فعله وما سمعه.

ولكن والده رأى من وراء شروط طلعت وأقواله مكائد، فلم يستجب ولم يجب. وفي هذا الظرف اندلعت شرارة الحرب الأوروبية فتوقف كل شيء، ولكن الحكومة طلبت من الشريف متطوعة من البدو لتقوية الجبهات العثمانية، فأخذ الشريف يراوغ ويماطل، ولما دخلت الدولة الحرب ألحت الحكومة على ارسال المتطوعة، وطلبت منه تأييد ما أعلنه الخليفة من الجهاد المقدس، فأخذ يراوغ ويماطل كذلك لأنه ظل مرتاباً بنياتها، وجعل هذا الاتحاديين يستشعرون الخطر من ناحيته ويوصون وهيباً بالوقوف موقف الشدة التي تصل الى الفتك بالشريف وأولاده والقضاء على الامارة الهاشمية في مكة وجعل الحجاز ولاية عادية مثل سائر الولايات. وقد تحقق الشريف من ذلك من مكاتبات سرية وقعت في يد الامير علي بن الحسين بين وهيب والحكومة الاتحادية، وأرسل الشريف حسين ابنه فيصلاً الى الآستانة سنة 1915 معاتباً شاكياً، فطيبت

الحكومة خاطره ورأت حل الأزمة في سحب وهيب من الحجاز فسحبته.

غير أن كل ما كان أوجد في نفس الشريف وأولاده قناعة بسوء نيات الاتحاديين نحوهم ونحو امتيازاتهم وكيانهم في مكة، ولم يروا في سحب وهيب تغييراً جذرياً وانما مداراة للموقف المتأزم وما كانت الحكومة فيه من حرج الحرب وظروفها، وكانوا قد بدأوا بالاتصال بالإنكليز فصمموا على المضي في ذلك. وكان ما بدا من الاتحاديين من تجهم ونيات سوء ضد الحركة العربية ومطالبها ورجالها بعد مؤتمر باريس منذ اعلان النفير العام، وما كان من مطاردات واعتقالات ومحاكمات وإعدام القافلة الأولى من الشهداء في آب 1915 مما أيد ما قام في نفوسهم من قناعة بسوء نيات الاتحاديين ومما شجعهم على المضي في اتصالاتهم بالإنكليز ومما صبغ حركتهم بالصبغة القومية، وجعلها أعظم حركة قومية عربية ايجابية في وقتها كان لها آثار بعيدة المدى في كيان الأمة العربية ومستقبلها.

ولقد كانت الاتصالات بين الهاشميين والانكليز مثيرة وفي أولها عابرة، وأول من باشرها عبد الله بن الحسين (عاهل الأردن فيما بعد)، وقد فصل ذلك في مذكراته حيث ذكر أن أولها كان في سنة 1913، حيث كان يمر بمصر في طريقه الى الحجاز من الآستانة، وقد نزل في هذه السنة ضيفاً على الخديوي عباس في قصر القبة، وجاء اللورد كتشنر المندوب السامي لزيارة الخديوي، فاقترح عباس على عبد الله البقاء والتعرف على اللورد وتم ذلك. وجاء اللورد ثاني يوم الى قصر القبة ومعه الجنرال ستورس، فزار عبد الله وأبلغه شكر حكومته لوالده على سهره على راحة الحجاج والأمن، وطلب منه تبليغ ذلك لوالده وتبليغه أيضاً أن الحكومة البريطانية لا ترضى بأي تغيير في حالة الحجاز وبالإمارة، حيث يفيد هذا أن الانكليز كانوا على علم بما يبيته الاتحاديون من نيات ضد الشريف، فأرادوا أن يصطنعوا يداً لهم لدى الشريف على النحو الذي فعلوه، وظلوا يفعلونه إزاء أمراء الجزيرة مثل أمير الكويت وابن السعود وغيرهما، فضلاً عن ما كان لهم من وجود احتلالي في سواحل جزيرة العرب الشرقية والجنوبية.

واقترح الخديوي عليه رد الزيارة واستشار من قبيل الاحتياط المندوب السامي العثماني رؤوف باشا فلم ير بأساً فتمت الزيارة، واختلى اللورد بعبد الله ولمح له بما يفيد أن حكومته محيطة بما في نيات الاتحاديين من احداث تغييرات سياسية في الحجاز، وسأله اذا كان ذلك سوف يصيب مركز والده وهل يرضى بذلك، فسأله عبد الله بدوره عما إذا كان الإنكليز مستعدين لمساعدة والده اذا أراد أن يقف موقفاً دفاعياً عن البلاد المقدسة في حالة عزم الحكومة الاتحادية على تغييرات سياسية خطيرة، فقال له ان الصداقة التقليدية بيننا وبين الدولة العثمانية لا تتيح لنا التدخل في شؤونها الداخلية، فقال له عبد الله متعجباً، انكم تكيفون مواقفكم كما تشاؤون، وأن في جوابه مفارقة لأنه يعرف أنهم تدخلوا في شؤون الدولة في مناسبات عديدة حينما كانوا يرون ذلك ضرورياً. ومن ذلك موقفهم من قضية الكويت حينما أراد الألمان جعل منتهى الخط الحديدي في الكويت، فتدخلوا ومنعوا ذلك، فكان جواب كتشنر له أنك صريح وخطر، وسأبلغ حكومتي ما سمعت.

ويذكر عبد الله بعد هذا أنه حينما سافر في

أواخر سنة 1914 الى الآستانة في أثناء الأزمة التي قامت بين والده ووهيب مر بمصر كعادته، وكانت الدولة أعلنت النفير العام، فأرسل كتشنر اليه الجنرال ستورس برسالة موجهة منه الى سفير بريطانيا في الآستانة يطلب منه أن يأمر بوضع بارجة حربية تحت أمرة الأمير اذا احتاج اليها، قائلاً للامير أن اللورد يرجوك أن تقبل منه هذه الخدمة وتسلم الكتاب لكاتب السفارة الذي سوف يأتي لمقابلتك في أزمير، وقال له على لسان اللورد أنه لا بد لك أن تعلم أنه اذا دافع سمو الشريف عن حقوقه في الحجاز فالحكومة البريطانية وان لم يكن ليس لها حق في التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية لأنها دولة صديقة، فإنها لا ترضى أبداً عن قيام حركات تسببها الحكومة العثمانية ضد الأمن والسلام في بلاد الحج، وطلب منه ابلاغ ذلك لوالده، وقال له في صدد البارجة أن الأمور معرضة للتأزم، وأنه قد يحتاج اليها لأجل العودة الى بلاده، حيث ينطوي في كل هذا ما كان يحاوله الانكليز من مد اليد واغتنام الفرص لتوثيق صلاتهم بالشريف واصطناعه للمستقبل.

ويقول الأمير في مذكراته إنه لما عاد الى الحجاز بعد اندلاع شرارة الحرب بين المحورين الألماني ـ الروسي، وإعلان الدولة العثمانية النفير العام، اطلع والده على حقائق الأمور فكتب والده رسالة الى السلطان رشاد شرح فيها الحالة السياسية الأوروبية حسب ما يراها، وحذره من الدخول في الحرب وبخاصة الى جانب الألمان، لأن بلاد الدولة معرضة على أوسع قياس لهجمات روسية وبريطانية وفرنسية وإيطالية من البر والبحر، فتغدو في أسوأ المواقف حرجاً وخطراً. وتعجز عن الدفاع ولا يجدي الاركان الى حمية أهل البلاد الذين ليسوا منظمين ولا مسلحين، واستحلفه بالله بأن لا تدخل الدولة الحرب، وقال له اني اعتقد في كل من يرى دخول الحرب الى جانب الالمان عدم تمييز أو خيانة كبرى. ولقد أرسلت الحكومة العثمانية على ما يذكره عبد الله برقية للشريف حينما اعتزمت الدخول في الحرب الى جانب المحور الألماني تستشيره. فقال للوالي وهيب انه ليس خائناً حتى يشير على الدولة بالدخول في حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، وبخاصة ضد روسية وبريطانيا وفرنسا المحيطة بالبلاد العثمانية، التي تستطيع أن توقع فيها أعظم الأضرار، وأنه أرسل رأيه هذا للسلطان، وأنه يكرر نصحه لإبلاغه للحكومة، وأنه يعتبر الدخول في الحرب خيانة للأمانة على الأمة، واذا كان ولا بد من ذلك فيجب على الأقل التأخر حتى تستكمل عدتها وتخزن ما هي في حاجة اليه، وتجلب ما تحتاج اليه من سلاح. ويجب عليها بنوع خاص تزويد جيوشها في الحجاز واليمن والبصرة والشام بالعدة والسلاح ووسائل الدفاع، حتى يمكن الصمود ضد الهجمات البحرية.

وقال عبد الله أن والده تلقى جواباً من الصدر الأعظم بأن الدولة فكرت في كل شيء وهي تشكر لسيادته نصائحه.

ويذكر عبد الله في سياق الاتصالات الهاشمية الانكليزية أن رسولاً من مصر اسمه علي جاء الى الحجاز وقابله في الطائف، وكان يحمل كتاباً له من الجنرال ستورز الكاتب الشرقي في دار المندوبية السامية البريطانية يقول فيه:

(بما أن الدولة العثمانية ضربت صداقتها التقليدية مع بريطانية بعرض الحائط فإن هذه ترى نفسها في حل من الروابط التي كانت

تربطها بها منذ القديم، فهل أنتم وسمو والدكم ما زلتم على رأيكم الأول في القيام بما يؤدي إلى استقلال العرب استقلالاً تاماً، فاذا كنتم وسموه على هذا الرأي الى الآن فان بريطانيا العظمى على إستعداد لامداد الحركة الوطنية العربية بكل ما هي في حاجة إليه).

ولم يكن للرسالة تاريخ، ولا يذكر عبد الله تاريخاً لوصولها. وهي صريحة بأنها أرسلت بعد دخول تركية الحرب إلى جانب المحور الألماني. وكان دخولها في أوائل تشرين الثاني 1914، ونستطرد فنقول أن في كتاب (الثورة العربية الكبرى وثائق وأسانيد) لمؤلفه سليمان موسى نص لهذه الرسالة. ويقول مؤلف الكتاب أنه نسخة طبق الأصل للرسالة الأصلية، وبأنه ينشر لأول مرة، فيكون ما ذكره عبد الله مادة وليس نصاً وليس في الكتاب شيء مهم عن امارة الشريف حسين وحقوقها في الحجاز وحمايته الخ . . .

وهذا هو النص منقول من ذلك الكتاب لأنه لم ينشر في جملة ما نشر من مكاتبات حسين ـ الانكليز في مصادر أخرى مثل كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس، والمجلد الأول من الوثائق الأساسية الذي أصدرته أمانة جامعة الدول العربية:

«حضرة الحسيب النسيب سلالة الأشراف صدر الجلال والسيادة المبجل السيد الشريف عبد الله صاحب الفضيلة والمقام الأسمى والاحترام والوقار الكلي.

بعد فائق التحيات والقيام بواجب شكركم نعرض أننا قد وافقنا على ما أبديتموه من الأسباب ونحن ازاء ذلك نعترف بأنكم وزنتم كامل مطالبكم بقسطاس العدل والانصاف فبناء عليه قد أحطنا صاحب الفخامة والأبهة جناب اللورد كتشنر علماً بفحوى تحيتكم الغراء وكان جوابه عليها كالآتي:

سلامي وتحيتي إلى حضرة الحسيب النسيب الشريف ابن الشريف سليل البيت المكرم الذي أشرق نوره من أفق البطحاء السيد الشريف عبد الله شرف الله الديار الإسلامية، وبكامل أفراد عائلته الموقرة حفظها الله وبعد.

فإن الذي رأيناه أصبح صحيحاً وتم الآن وهو أن ألمانية قد اشترت الحكومة التركية بالمال غير ملتفتة الى الاتحاد الانكليزي الفرنسي الروسي المتكفل بابقاء المملكة العثمانية على ما كانت عليه من عدم التجزئة لو داومت تركيا على الحياد ابان هذه الحرب.

إن الحكومة التركية قد اكتسبت يداها أعمالاً حربية ضد إرادة مولانا السلطان لغزو الديار المصرية بدون أن يحملها أحد على العداء وكان كل ذلك بضغط ألمانيا عليها وهي اليوم حاشدة فرقاً مسلحة متبوعة بعساكر من الأتراك في العقبة لغزو الديار المصرية ومع كل هذا فإن الغاية الوحيدة التي يطلبها العرب ألا وهي الحرية قد أصبحت اليوم نفس ما تسعى وراءه دولة بريطانيا العظمى أيضاً. فلو أن سيادتكم وكافة العربان تساعد انكلترة في مثل هذه المحاربة والنزاع الذي اضطرتنا تركيا بنفسها إليه فإن إنكلترا تعدكم وعداً صريحاً بأن لا تتدخل في الأمور الدينية وما عداها بأي صفة كانت ثم ان دولة بريطانية العظمى لمناسبة وضعها تجلة واحترام قدسية مقام صاحب الشرف والسيادة والدكم الأمير حسين الشريف المحفوف بالعناية الالهية تضمن استقلال وكافة حقوق وامتيازات وسلطة اشراف سيادة الشريف ضد كل عداء وتجاوز خارجي وعلى الأخص فيما يقوم به العثمانيون من العداء ضد سيادته. واننا لغاية يومنا هذا قد

حمينا الاسلام وصادقناه في شخص الأتراك ولكننا من الأن فصاعداً ستكون حمايتنا للإسلام وصداقتنا له باسم العرب الأشراف وعسى الله أن يمن على المؤمنين بخليفة عربي الأصل والحسب والنسب ويشرف على البقعتين المباركتين بيت الله الحرام والمدينة المنورة وبذلك يبدل يومئذ ربك الشر بالخير، فلو استحسن شريف سيادتكم توصيل بشائر شروق شمس حرية العرب المطلقة لكافة أتباعكم ومحاسيبكم في جميع الأقطار والبلدان أو بالأحرى في جميع أنحاء المعمورة كان ذلك هو المستحسن لدينا.

وتقبلوا في الختام فائق الاحترام اللائق بالمقام الشريف[1]».

12 ذو الحجة سنة 1332

1 تشرين الثاني 1914

بكل مودة قلبية وصداقة أخوية محضة
أخوكم المخلص على الدوام
ستورز

ويلحظ أن تاريخ الرسالة المذيل هو 1 تشرين الثاني 1914، مع أن تركية لم تكن دخلت الحرب في هذا اليوم وانما بعده بيومين أو ثلاثة على ما تجمع عليه المصادر بين أيدينا، ولا نستطيع أن نقطع بالأمر، وان كنا نميل الى اعتبار هذه الرسالة وثيقة فيها اعتبار بأن تركية في أول تشرين الثاني عدت في حالة حرب مع المحور الروسي ـ البريطاني. والرسالة تشير الى أن عبد الله كان أبدى للورد كتشنر وستورز حين لقائه بهما بعض ما يجيش في صدره من آمال قوية عربية استقلالية، مع أن عبد الله لم يذكر ذلك في مذكراته صراحة، وكل ما يفيد كلامه انما كان في صدد النشاز القائم بين والده والسلطات الاتحادية، وسؤال من عبد الله عن إمكان مساعدته إذا أراد الأتراك مد اليد لوالده أو لحقوقه بأذى، ووعد مطاط من الإنكليز على ما مر ذكره. ولا ندري هل عبد الله نسي أن يذكر ما يفيده نص الرسالة، لأننا نستبعد أن يذكر ستورز مهما ذكره من أقوال ونسبتها اليه دون أن تكون هذه الأقوال قد قيلت فعلاً.

ونعود الى السياق فنذكر أن عبد الله قال في مذكراته إنه لم يبتهج براسلة ستورز لما فيها من خطر لو عرف أمرها أو سقطت في يد غير أمينة وتفوه ناقلها بشيء أو باع نفسه قبل أن تصل الرسالة اليه. وقال أنه عرض الرسالة على والده فقال له اكتب لهم بوصول الرسالة، وقال لهم أنه على غير استعداد البتة في الوقت الحاضر للمطالبة بحقوق العرب، واصرف الرسول راضياً مكرماً ففعل. ويقول عبد الله أن الرسول عاد بعد شهر برسالة ثانية من ستورز ومعها رسالة من مكماهون، ويرجو ستورز في رسالته للأمير أن يقدم رسالة مكماهون لوالده، وكان فيها صيغ تكريم وتبجيل وبيان لحسن نية بريطانيا نحو العرب، وذكر أنها قد تحولت عن تقاليدها الودية مع تركية، ويقول عبد الله بعد هذا أن مراسلات مكماهون الحسين المتبادلة تتابعت بعد ذلك الى نهايتها.

وليس في المصادر التي نشرت نصوص هذه المراسلات ذكر لرسالة لمكماهون هذا للشريف حسين، والملك عبد الله لا يورد نصها مع الأسف. ومن المعقول أن تكون قد أرسلت أو وصلت في كانون الأول 1914 أو الثاني

(1) هذه حاشية كاتب كتاب (وثائق وأسانيد): هذا النص نسخة طبق الأصل عن الرسالة الأصلية وهو ينشر لأول مرة ـ (الثورة العربية الكبرى) ـ وثائق وأسانيد تأليف سليمان موسى ص 15 ـ 16.

1915، ما دام الملك يقول في مذكراته أن الرسول عاد بعد شهر يحملها.

وأولى الرسائل المنشور نصوصها في المصادر مؤرخة بتاريخ 14 تموز 1915 من الشريف حسين لمكماهون، فتكون والحالة هذه بمثابة جواب على رسالة مكماهون المذكورة التي ذكرها عبد الله ولم يورد نص لها في مذكراته ولا في المصادر الأخرى. وهذه نقطة مهمة في نظرنا مؤيدة لتلك الرسالة.. وننبه على أن انطونيوس في كتابه يقظة العرب يذكر خبر رسالة ستورز الى الأمير عبد الله قبل دخول تركية الحرب، وخبر رسالة ثانية منه بعد دخولها الحرب، مع أن الملك عبد الله لا يذكر في مذكراته وصول رسالة من ستورز قبل دخول تركية الحرب، وانطونيوس لا يذكر مصدرا ولا يورد نص الرسالتين. ولقد قال إنه اجتمع بالملك حسين وولديه عبد الله وفيصل وتحدث معهم، فلعل ما ذكره كان حصيلة عن ذلك. وفي سياق ذكره ظروف الرسالة الأولى يذكر أن عبد الله أفاض في الحديث مع ستورز حين لقائه به في مصر قبل الحرب، وأنه حدثه بإسهاب عن أهداف الحركة العربية وأماني قادتها وازدياد دواعي يأسهم من تركية، بالاضافة الى ما ذكره لكتشنر من خطورة الحالة في الحجاز وما يعد ضد والده من خطط، واضطرار والده لمواجهة ما لا مفر منه من قطيعة نهائية بينه وبين الأتراك، وأنه طلب مساعدة والده بكمية من الرشاشات.

ويستمر انطونيوس فيقول إنه لما اندلعت الحرب وأعلنت تركية التعبئة مع الحياد الظاهر الذي لم يكن يخفي ميولها نحو المحور الألماني واحتمال انضمامها اليه بقوة، طلب ستورز من كتشنر الذي عين وزيراً للحربية تفويضاً بمتابعة الاتصال بالأمير عبد الله للتأكد منه عن الاتجاه الذي يسير اليه العرب في حالة دخول تركية للحرب، ففوضه فأرسل رسوله علي المصري يحمل رسالته الأولى الى الأمير، وعاد يحمل جواب الأمير، وكان ذلك قبل نهاية شهر تشرين الأول 1914، أي قبل دخول تركية للحرب. وقد سأل ستورز في رسالته الأولى من الأمير عبد الله عن موقف والده اذا دخلت تركية الحرب الى جانب الألمان، وهل يناصر قضية تركية أو يناصر بريطانيا العظمى عليها. ومع أن الأمير لا يذكر أن ستورز ذكر في رسالته ما يمكن أن يعود على الشريف في حالة مناصرته بريطانيا العظمى، فإن سياق كلامه يفيد أن في الرسالة وعوداً بمساعدة بريطانيا على استقلال العرب في حالة مناصرة الشريف لها، حيث يقول أن الشريف الوالد تشاور مع أولاده في صدد رسالة ستورز، وكان رأي الأمير فيصل عدم التورط لما للانكليز والافرنسيين من مطامع في العراق وسورية، ولعدم استعداد العرب استعداداً كافياً لثورة مجدية كما ينتظر منهم، في حين كان من رأيه (أي الأمير عبد الله) أن رفض عرض كتشنر ليس صواباً، وأن الصواب هو التفاوض مع الانكليز لمعرفة المقصود بهذا العرض، وهل يعتبر ضماناً كاملاً لاستقلال العرب؟ ثم تم الاتفاق على التريث من جهة ارسال وفود الى بلاد الشام والعراق وكبار حكام العرب، لمعرفة حقيقة الشعور القومي وسبر أغوار الزعماء عن مدى الاستعداد للثورة من جهة، والإجابة على الرسالة إجابة متحفظة من جهة. وأن الأمير عبد الله حمل الرسول بناء على ذلك رسالة قال فيها ان والده راغب في الوصول الى تفاهم مع بريطانية، ولكنه غير قادر على تغيير موقف الحياد الذي يفرضه عليه مركزه الديني في الاسلام. وألمح الى أنه قد يستطيع أن يقود

أتباعه الى الثورة اذا ما اضطره الاتراك الى ذلك، على شرط أن تتعهد انكلترا بتقديم مساعدة فعالة.

وكل هذا لم يرد في مذكرات عبد الله، وانما هو كلام انطونيوس الذي استخلصه من أحاديثه على ما ذكرناه آنفاً.

أما في صدد الرسالة الثانية فإن انطونيوس يقول أن ستورز أبرق بفحوى جواب عبد الله الى كتشنر، وأن كتشنر بناء على نصيحة قائد القوات البريطانية في مصر بوجوب التقرب من العرب المحيطين بمكة واليمن وتأليبهم على الأتراك أبرق إلى ستورز بنص رسالة جوابية يرسلها لعبد الله، فيها اشارة الى دخول تركية الحرب، ووعد قاطع للحسين في حالة وقوفه هو وأتباعه في جانب بريطانيا ضد تركية بضمان بقائه في منصب شريف مكة، واحتفاظه بجميع حقوقه في هذا المنصب وامتيازاته، وحمايته من كل اعتداء خارجي، ومساعدة العرب عامة على مساعيهم لنيل حريتهم، وفيها تلميح الى أن بريطانيا مستعدة للاعتراف بخلافته اذا بويع فيها. ويقول انطونيوس أن هذه الرسالة وصلت الى عبد الله في 16 تشرين الثاني 1914، فأشاعت في نفسه الرضاء بالنسبة لموضوع الحجاز، ولما فتحته من أبواب بالنسبة للولايات العربية الأخرى. وأن الشريف حسين فهم منها فهماً قاطعاً برغم ما في عبارتها من مطاطية، أنها دعوة الى جميع العرب للقيام بالثورة، وانطونيوس لا يورد نصوصاً وانما يورد فحوى. ونرجح أن هذه الرسالة هي نفس الرسالة التي أورد الملك عبدالله نصها في مذكراته، برغم ما يبدو من تباين. ونرجح أن النص الذي أورده عبد الله هو فحوى المذكرة وليس النص.

ومن هنا كان التباين الذي يظهر بين فحوى انطونيوس وفحوى مذكرات عبد الله ويقول انطونيوس أن عبد الله بتوجيه من والده أرسل جواباً لستورز قيد به أباه قيداً صريحاً قاطعاً بتحالف سري مع انكلترا، مع ذكره بعدم مقدرة أبيه على المجاهرة بأي عمل عدائي للأتراك قبل استكمال المعدات اللازمة، ومع طلبه الإمهال بعض الوقت، وبوعد الكتابة ثانية في الوقت المناسب. ووصل الجواب الى القاهرة في أوائل كانون الأول 1914، وكان هذا نهاية الفصل الأول من الاتصالات الانكليزية العربية التي استؤنفت بعد ثمانية أشهر عبر ما عرف بمراسلات مكماهون الحسين، وأنطونيوس لا يذكر رسالة مكماهون الى الشريف حسين التي ذكرها عبد الله في مذكراته، وقد وقفنا عند هذه الرسالة واعتبرناها مهمة وملنا الى تصديقها، لأن مراسلات مكماهون الحسين يكون فيها حلقة مفقودة بدونها.

وفي الجزء الأول من كتاب (مقدرات العراق السياسية) لطاهر العربي، الذي كانت كتابته وطبعه (1924 و1925) أسبق من كتاب انطونيوس، ذكر لاتصالات الهاشميين والانكليز. ومما روي أن الشريف حسين هو الذي أوعز لابنه عبد الله بمقابلة كتشنر سنة 1914، ومفاوضته في مستقبل الحجاز والعرب، فنورد ذلك بشيء من التحفظ.

(في كتاب الثورة العربية لأمين سعيد ج1) أخبار فيها شيء من المباينة وشيء من التوافق، فهو يذكر ما كان من لقاءات عبد الله الأولى مع كتشنر وستورز في مصر، ثم يذكر أن الأمير التقى بستورز في أواخر شهر آب 1914 في طريق عودته الى الحجاز بسبب اندلاع الحرب الأوروبية، فسلمه ستورز كتاباً فيه شكر من الحكومة الانكليزية للشريف لحسن قيامه بخدمة

الأماكن المقدسة وسهره على راحة الحجاج، وفيه جملة (انها لا تعارض في رجوع الخلافة للعرب)، وهذه الجملة بخاصة لم يرد لها ذكر في مذكرات عبد الله، وانما جاء ذكرها بأسلوب آخر في كلام ساقه انطونيوس نسبة لأحاديثه مع عبد الله وفيصل. ثم يذكر خبر رسول ستورز علي المصري، والرسالة التي أرسلها معه الى الأمير عبد الله في أواخر شهر أيلول 1914 أي بعد اندلاع الحرب الأوروبية وقبل دخول تركية فيها يقول فيها أن اللورد كتشنر وزير الحربية أمره أن يسأل عما اذا كان هو ووالده على رأيهما الأول والخاص بالدفاع عن حقوق العرب، ويخبره أنه صار في استطاعة حكومته أن تقدم لهم المساعدات اللازمة بسبب عزم الحكومة التركية على الدخول في زمرة الأعداء وخرق تقاليد الصداقة القديمة بين البلدين. ثم يقول أمين سعيد إن الأمير لم يشأ اطلاع والده على هذا الكتاب لما يعرف من صلاته واخلاصه للدولة ونفوره من الاتصال بكل ما هو أجنبي، فصرف الرسول من دون جواب. ولكن الرسول عاد بعد أسبوعين يحمل كتاباً آخر من ستورز هذا نصه:

(بما أن الترك عزموا عزماً نهائياً على دخول الحرب في جانب الألمان، وبما أن الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب فإني آسف لترككم كتابي بدون جواب وآمل في الاسراع بارسال الرد عليه).

وحينئذ أطلع عبد الله والده على الكتابين وسأله بماذا يجيب فقال له ضاحكاً: (في الصيف ضيعت اللبن) فكتب له هذه الجملة وعاد الرسول بها الى القاهرة.

ثم يقول أمين سعيد أن ستورز أرسل كتاباً ثالثاً مع الرسول نفسه يقول فيه إن الأتراك قد دخلوا الحرب الى جانب الأعداء، فنحن على أتم استعداد لمساعدة شريف مكة في قضيته وتقديم كل ما يريد من مساعدة. فأطلع الأمير والده عليه فقال له ليس في استطاعتي أن أعمل شيئاً قبل أن أستشير العرب وأسألهم رأيهم، فكتب الأمير الى ستورز طالباً الامهال واعداً بتقديم اقتراحات معينة في المستقبل.

ويقول أمين سعيد إن الحسين انصرف خلال هذه الفترة الى درس الموقف، وأرسل ابنه فيصلاً الى بلاد الشام وتركية للاتصال بالناس والاطلاع على الأحوال. وعاد فيصل فاطلع والده وأخوته على ما اطلع عليه. وعقد الحسين وأولاده في شهر أكتوبر 1915 مؤتمراً قرروا فيه إعلان الثورة بالاتفاق مع الإنكليز، ومع أن رحلة فيصل كانت على ما ذكره انطونيوس الذي نعتقد أنه أوثق، قبل بدء المفاوضات مع الانكليز التي بدأت في 14 تموز 1915، لأن أولى رسائل الحسين تضمنت مذكرة فيها مطالب العرب التي وضعها رجال الجمعيات العربية على ما سوف يأتي ذكره. ونرجح أن في ما ذكره أمين سعيد شيئاً من الخطأ والخلط والتقديم والتأخير، وأنه كان يستند الى المسموعات ومنشورات الصحف أكثر منه الى وثائق وثيقة خطية. ومما يذكره أمين سعيد أن ستورز اتصل بأقطاب حزب اللامركزية في مصر قبل دخول تركية الحرب، وسألهم عن خططهم فيما لو دخلت تركية الحرب، وماذا يكون موقفهم لو عمل الحلفاء على استقلال بلاد العرب، وهل يستطيع العرب مؤازرتهم بالنهوض بأعباء استقلالهم؟ فأجابوه بأنهم يتمنون استقلال وعودة غابر مجدهم اذا كان لا بد من انهيار الدولة العثمانية، وهم على استعداد لتأييد حركة ترمي الى الاستقلال العربي، مهما كان شأنها.

وقال أمين سعيد إنه تم بعد ذلك الاتفاق بينهم وبين ستورز على أن يكتبوا شروطهم لعرضها على الحكومة البريطانية بواسطة كتشنر، حتى اذا وافقت عليها أعلنت رسمياً على أن تتعهد هذه الحكومة بحمل حلفائها على قبول تعهدها حتى لا يكون ثمة مجال للطمع في الأقطار العربية. وفي مقابل ذلك تتعهد الهيئات العربية السياسية بالسعي لايقاد الثورات في البلاد العربية لشل حركة الجيش العثماني، ثم كتبوا شروطهم وأرسلها كتشنر الى لندن، وكان من مقتضى ما تم الكلام والاتفاق عليه أن يرسلوا رسلاً موثوقين الى البلاد العربية لدرس الحالة للاتصال بزعمائها ومفكريها. وبناء على ذلك أرسلوا محب الدين الخطيب مساعد السكرتير العام لحزب اللامركزية الى البصرة، والشيخ محمد القلقيلي أحد أبناء فلسطين وكان يعمل صحفياً في مصر الى سورية وفلسطين، ولم يكد محب الدين يصل الى البصرة حتى احتلها الانكليز 23 تشرين الثاني 1914، فاشتبهت فيه السلطات الإنكليزية التي لا علم لها بمهمته واعتقلته، وبقي معتقلاً عشرة أشهر ثم أعادته الى مصر دون أن يتمكن من الاتصال بأحد. وكذلك كان شأن الشيخ القلقيلي الذي عاد مسرعاً خوفاً من الاعتقال، لأن بوادر دخول تركيا الحرب قد بدرت. ومن جهة أخرى فإن الحكومة البريطانية أدخلت تحويرات على بيان السياسيين وشروطهم لم يرضوا عنها، فانقطعت المفاوضات بينهم وبين هذه الحكومة.

ولم يورد أمين سعيد نص البيان أو الشروط العربية المقدمة للإنكليز، ولم يذكر مصدراً لما أورده. ونرجح أن فيه كثيراً من الحقيقة وأن الشروط لا بد من أنها كانت في صدد وجوب الاعتراف باستقلال البلاد العربية الخاضعة للسلطنة العثمانية استقلالاً تاماً، بحيث يمكن أن يكون هذا من تلك التطلعات العربية أيضاً.

وفي كتاب (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) لأنيس صايغ، انه كان لعزيز علي المصري تأثير في حمل أقطاب اللامركزية على التشدد في المطالب، وأنه خشي انزلاقهم مع الانكليز، فأوعز إلى أعوانه في حزب العهد في سورية والعراق ومصر بالتصلب مع الإنكليز وعدم التعهد لهم بشيء ما لم يحصلوا على وعد أكيد باستقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً في وحدة كاملة مستقلة، ويذكر الصائغ أن الانكليز اتصلوا بعزيز فطلب منهم ذلك التعهد الصريح مع عدم إشراك الجنود الافرنسيين في الجبهة السورية والجنود الانكليز في الجبهة العراقية، لما يعرف من مطامع فرنسا وانكلترا في سورية والعراق، ومع تحشيد أهل البلاد العربية في القطرين للحركة الاستقلالية والجهاد في سبيلها، وتظاهر الانكليز بالموافقة. وبينما كان يستعد عزيز للسفر الى العراق للتحضير للثورة والتحشيد لها أذيع نبأ احتلال الإنكليز للبصرة، فعد ذلك نقضاً منهم وانقطعت الصلة بينهم وبينه. فكان ذلك مما جعلهم يتجهون نحو الشريف حسين ليكون بديلاً في تحقيق مآربهم في اثارة العرب.

ومما ذكره أنيس الصائغ أن عزيز المصري مع أنه أرسل رسائل الى رجال العهد والفتاة في سورية يشير فيها عليهم بالتمهل، فإنهم كانوا قد بدأوا الاتصال بالشريف حسين وأرسلوا أحد وجهائهم فوزي البكري اليه ليعرض عليه فكرة الثورة على الأتراك، ووصل هذا الى مكة في كانون الثاني 1915، وكانت رسائل كتشنر وستورز أخذت ترد على الشريف فرأى الأمر

جداً. ومع أن الشريف لم يربط نفسه بشيء مع وفد سورية فإنه قرر ايفاد ابنه فيصل الى سورية والآستانة لدرس الأمور والاتصال بأصحاب الشأن. ووصل فيصل الى دمشق في مارس 1915، ونزل في دار البكري واتصل منها برجال الحركة العربية، ثم سافر الى الآستانة التي طلبت منه تحضير متطوعة من البدو للاشتراك في حملة السويس. وعاد الى دمشق، فاجتمع ثانية برجال الحركة في نيسان 1915، فسلموه برنامجاً قومياً يتضمن اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية، والغاء كافة الامتيازات الممنوحة للأجانب مقابل تأييد العرب للحلفاء، ومبايعة الشريف حسين كناطق باسمهم وقائد للثورة، على أن تعقد معاهدات اقتصادية وعسكرية بين الانكليز والمملكة العربية الجديدة بعد الحرب، يعين فيها صلة الدولتين ببعض ومساعدات الانكليز لها. وقد عاد فيصل الى الحجاز في حزيران 1915 حاملاً البرنامج وما سمعه من رجال الحركة حسب ما طلب منه والده، فقرر هذا الاتصال بالانكليز بسبيل ذلك.

وكانت رسالته ومذكرته الأولى لمكماهون في 14 تموز 1915 هي التي تضمنت البرنامج القومي الذي سلمه رجال الحركة لفيصل، ولا يذكر الصائغ مصدراً. ونرجح أن فيها ذكر كثير من الحقائق التي لا تزال عالقة في أذهاننا مما سمعناه أثناء الحرب، وان كان شيء نتحفظ به فهو مبالغته في إبراز نشاط وقوة تأثير عزيز علي المصري، وتصويره بأنه كان زعيم الحركة العربية في مصر وسورية والعراق. ويقول فيما يقوله إن اختيار الإنكليز للحسين كان ابن الصدفة. وفي هذا تبسيط وتجوز، فالحسين كان أبرز زعماء العرب وصاحب أقوى مركز ديني فيهم لا يضارعه في ذلك أي زعيم. وهو وحده القادر على الحركة المؤثرة، ذا عزم وقدر. وقد رأينا أن انكلترا في سنة 1913 انما اتجهت اليه دون غيره ادراكاً منها لذلك، ويحاول الصائغ تصوير مصالح الحسين الذاتية الشخصية، ووصفه عقليته البدوية التعصبية والانتقاص من عواطفه ومصالحه القومية، نعتقد أنه في كل ذلك متجن تجنياً كثيراً.

بدأ جمال السفاح حملة مطاردة لرجال الحركة العربية في أوائل شهر حزيران 1915، حيث اعتقل القافلة الأولى التي أعدمها في آب 1915 في بيروت على ما سوف يأتي شرحه بعد، ونعتقد أن إقدام الشريف حسين على إرسال مذكرته الأولى في 14 تموز 1915 التي تضمنت البرنامج القومي في دمشق لفيصل متأثر بذلك قليلاً أو كثيراً.

وشيء آخر نرى الصائغ يخطىء فيه حيث يبدو لنا، وهو قوله إن الانكليز بدلاً من أن يتصلوا بالشعب مباشرة اتصلوا بالهاربين السوريين في مصر، ونسي أن هؤلاء الهاربين هم أقطاب حزب اللامركزية الذين كان نشاطهم منظماً يملأ فراغ الحركة العربية، وكانوا هم الوسيلة للشعب لأنهم ورفاقهم هم الواعون من الشعب، ولم يذكر كيف يمكن الاتصال بالشعب مباشرة وإثارته على الدولة، ولا سيما أن الشعب كان ضعيف السوعي، وكانت الدعاية[1] قد جعلته يستنيم لحكم الترك وخلافتهم.

وفي كتاب (الثورة العربية) لامين سعيد ج1،

---

(1) أي الدعاية إلى الجامعة الإسلامية التي رفع لواءها السلطان عبد الحميد.

خبر قدوم فيصل الى سورية وسفره الى الآستانة لأول مرة، وقد ذكر أن من أسباب هذه السفرة أيضاً ابلاغ رجال الدولة شكوى والده من وهيب والي وقائد الحجاز، حيث عثر بعض رجال الأمير على حقيبة فيها مكاتبات سرية كانت تدور بين هذا الوهيب والآستانة في صدد الفتك بالشريف وأولاده، والقضاء على استقلال الحجاز القومي، وتنفيذ ما يراد من خطط وتدابير فيها لم يحل دون تنفيذها سوى إعلان الحرب واشتغال الدولة بها عن كل ما عداها. وقد زار الأمير فيصل الصدر الأعظم وأطلعه على الوثائق التي وجدوها، وقابل طلعة وأنور وحدثهما بما حدث به الصدر. فطيبوا خاطره وأصدروا أمراً بنقل الوالي القائد من الحجاز ارضاء له ولوالده.

ويؤرخ أمين سعيد هذه السفرة التي ذكر في سياقها ما تقدم في شهر أيلول 1915، ومع أن الأمير عبد الله لم يورد هذا الخبر في مذكراته، فإننا سمعناه في عهد الحكم الفيصلي، بل وفي أثناء الحرب من الدكتور أحمد قدري على ما سوف يأتي بعد، ونرجح أنه صحيح مع تحفظاتنا في صدد تاريخ سفرة فيصل المذكورة، التي نرجح أن تاريخها الصحيح هو ما ذكره انيس الصائغ أي شهر مارس 1915.

ونذكر أننا سمعنا أن فيصل عاد مرة ثانية الى دمشق ثم الى الآستانة في أواخر سنة 1915، فمن المحتمل أن يكون هذا هو سبب الالتباس في التاريخ.

ونقف الآن عند هذا الحد من نظرة التطلع العربي والتوقع التركي بسبب ظروف اندلاع الحرب الأوروبية، واعلان تركية النفير العام ثم دخولها الحرب سيأتي في ثنايا مذكراتنا ومسجلاتنا ومسموعاتنا وتعليقات حول كل ما تقدم.

* * *

نقلي عقب إعلان النفير العام الى بيروت وذكرياتي عن هذه الوظيفة وإقامتي في بيروت:

وأعود الى تدوين ما جرى لي بعد إعلان النفير العام، فأقول إنني إذ لم أكن قد جندت فقد كنت شبه مجند، إذ أني تلقيت بعد إعلان النفير بمدة وجيزة أمراً بنقلي الى بيروت بوظيفة رئيس بيع الطوابع (باش كيشة) في دائرة بريد بيروت براتب ستمائة قرش، وهو ضعف مرتبي الذي كنت أتقاضاه في نابلس، ولم أكن طلبت هذه الوظيفة ولا غيرها، وكنت أطمع في تثبيتي في مديرية مركز نابلس التي كانت شاغرة وكنت أمارسها بالوكالة، وكنت المؤهل الوحيد لها بين موظفي مركز نابلس، ولم أعرف الباعث على هذا النقل والترقية، وأرجح أن يكون ذلك بسبب ما تعرفه دوائر حكومة نابلس من ميولي العربية ونشاطي، فهي تعرف بأنني كنت سكرتير حزب الحرية والائتلاف المعارض للحكومة الاتحادية، وأني طلبت رخصة لمدرسة عربية، وأشرفت على تمثيل رواية قومية، وألفت رواية قومية، وكنت أكتب مقالات سياسية وقومية، ونشطت أثناء حركة الاصلاح ومؤتمر باريس، فاقترحت إبعادي من نابلس بعد إعلان النفير العام، وكانت الحكومة تتهيأ للاستفادة من ظروف النفير العام ثم الحرب للتضييق على نشاط المتحركين في القضية العربية، بل وبدا هذا منها بعد ما انتهى مؤتمر باريس على ما ورد في وثائق عديدة وشرحته في كتابي نشأة الحركة العربية وذكرت شيئاً منه في فصل التوقع والتطلع، فنفذت اقتراحها.

ولم يكن بد من الامتثال فسافرت وحدي

بطريق يافا فالبحر فبيروت، واستلمت وظيفتي الجديدة التي كانت هينة جداً، ومهمتي فيها استلام كمية من الطوابع من المدير مقابل سند استلام وتوزيعها على الموظفين الذين يتعاملون مباشرة مع الناس ومحاسبتهم على مبيعاتهم وقبض ثمنها وتسليمه للمدير يومياً. وكان الدوام من الصباح الى وقت الظهر، وقد استأجرت غرفة مفروشة في بيت عجوز من بيت البستاني في الخندق الغميق بليرة ونصف في الشهر أي ربع مرتبي، وكانت الليرة ذات قيمة ذهبية مائة قرش. وفي الغرفة سرير جيد ومقعد وكراسي ومنضدة وبساط، وفي البيت ثلاث غرف أخرى للأجرة وصاحبته تنام هي وفتاة من قريباتها في غرفة في جانب الباب، وكان تحت البيت مدرسة للصبيان وساحة، وتعاملت مع مطعم قريب فكنت أتناول الغداء فيه بخمسة قروش يومياً أي ليرة ونصف في الشهر، وهيأت (نواشف) من جبن وزيتون ومربى ولبنة للفطور والعشاء في الغرفة، وكلفني هذا أيضاً نحو ليرة في الشهر، وبقي في يدي نحو ليرتين للنفقات المتنوعة الأخرى وكان هذا مجزياً، ولقد كان أبي يحصل على نحو ثلاثة أرباع مرتبي في نابلس، فحرم من ذلك ولكنه تحمل لأنه كان يكسب معيشته من عمله التجاري ولو لم يكن متوسعاً فيه.

ذكريات الحياة والصداقة:

وسعيت أولاً لرؤية أخي في مدرسته واطمأننت عليه، وصار يأتي يوم الجمعة وهو عطلة له اليّ فنقضي وقتنا معاً، وقد صرت أدفع له مصروفه الشهري من الليرتين اللتين تبقيان معي.

وكان أكثر موظفي البريد في مركز بيروت عرباً، وكلهم بيروتيون، فصاروا كلهم أصدقاء. غير أن الصداقة المستمرة الحميمة توطدت بخاصة بيني وبين محمد الداعوق وكيل المدير، وعبد الحفيظ التنير رئيس قسم الطرود، وكان لهما صديق بيروتي في مركز البرق اسمه توفيق شاهين، فصار صديقاً حميماً لي مثلهما، وكنا نلتقي كل يوم تقريباً بعد الغداء على تواعد، فنتنزه في ضواحي بيروت وأطراف جبل لبنان نزهات لذيذة وكانت ثقافتهم ضيقة. وهذا شأن معظم موظفي البرق والبريد، فهم موظفون آليون يؤخذون بدون مؤهلات علمية. وقد صرت بينهم بما كان من قراءاتي السابقة التي ظللت مستمراً عليها نجما ومرجعا وفيلسوفا. وكان معظم الموظفين الآخرين يرونني كذلك أيضاً. فكان يطمئن مزاجي ويجعلني أستزيد من القراءة لأجل أن أبقى مرجعا ومعلما، وكانت أحاديثنا تدور على التاريخ الإسلامي والعربي وعلى حقوق العرب في الدولة والحركة العربية التي تجمدت في مناسبة الحرب، وعلى أحوال العالم وما سوف ينتج عن الحرب من نتائج وتغييرات، وكان عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس يصدران جريدة المفيد التي كان لها دور نشيط في تأييد الحركة العربية وصار لهما عبرها اسم ومركز مرموقان، وكان عبد الغني من خطباء مؤتمر باريس، وذهبت الى إدارة الجريدة وتعرفت عندهما على الأمير عارف الشهابي، وكان بدوره يذكر كعلم من أعلام الحركة العربية، وعلمت فيما بعد أن للعريسي والشهابي يداً أولى في تأسيس وتنمية جمعية الفتاة التي نوهت بما صار لها من حيز وخطورة في مناسبة سابقاً، ولم يطل عهدي بهم، وبالتالي لم تنعقد بيني وبينهم صداقة حميمة، فقد خرجت بعد شهرين من تعرفي بهم في

وظيفة جوالة على ما سوف أذكره بعد، وفي أثناء تجوالي قبض على العريسي والشهابي من قبل زبانية جمال وكانا هربا من شنق الدفعة الأولى من شهداء العرب في آب 1915، وكليهما لم ينجوا وسيقا الى المحاكمة ثم الى المشنقة مع الدفعة الثانية في مارس 1916، وصارا من شهدائنا الخالدين. ولم ألتقِ بثالثهم فؤاد حنتس، فقد كان قد توفي قبل ذلك بمدة.

وتعرفت كذلك على عمر حمد، وكان قد شدا الشعر يافعاً، وقرأت له بعض المقطوعات في صدد الحقوق العربية وموقف الاتحاديين منها، وصار له اسم في مجال الحركة العربية. وعلمت فيما بعد أنه كان منتسباً الى جمعية الفتاة، ولقد طورد بعد خروجي من بيروت وفر مع العريسي والشهابي ثم قبض عليه وحوكم وشنق معهما أيضاً رحمة الله عليه، فكان عهدي به قصيراً. وتعرفت أيضاً على عمر الفاخوري وأحمد المناصفي، وكانا من شباب بيروت النيرين وصديقين لعمر حمد، ولما عدت مرة ثانية الى بيروت في أواخر 1916 التقيت بهما أكثر من مرة وأطلعتهما على ترجمتي لكتاب رفائيل على ما ذكرته قبل، ولم أر عمر بعد ببيروت التي تركتها في خريف عام 1918، ولكني كنت أقرأ له بعض أبحاث قومية واجتماعية، وعاش الى ما بعد الثلاثينات وصار من أعلام الفكر العربي، ولقد التقينا بالمناصفي في دمشق في عهد فيصل، وعرفت أنه ممن كان ينتسب الى جمعية الفتاة ولكن لم يكن له نشاط فعال، وكان موظفاً ولم يكن بيني وبينه صلة حميمة، ثم افترقنا بعد الشام فلم أعد ألتقي به، وعلمت أنه نزح الى بغداد وتوظف فيها سكرتيراً لنوري السعيد.

وجاء أبي إلى بيروت بعد شهرين من مجيئي إليها لزيارتي وقضاء مصالحه التجارية، ونزل في غرفة في البيت الذي كنت فيه، وكان أخذ يلم بعينه مرض وبياض، فذهبنا الى طبيب عيون استاذ في الجامعة الأميركية اسمه (وبستر)، وعاينه ورتب له علاجاً وطلب منه أن يعود بعد سنة للمعاينة مرة أخرى، وكان مع أبي الحاج فتح الله ابن عمه، وكان يشتغل في التجارة مع صنعة العقادة بالخيوط الحريرية، وكان يتردد عَليّ حلمي الفتياني وهو نابلسي ابن محمد الفتياني صاحب الصيفية الجبلية الذي ذكرت قصته سابقاً، وكان يعمل بوليسا في بيروت يأتيني بالأخبار المتنوعة، وجاء مرة فأخبرني أن الشيخ كامل القصاب ركب الباخرة وسافر الى مصر بصفته تاجراً مغربياً وقد أبرز هوية مغربية وكان متزييا بزي مغربي، وأن سفره هذا كان بتدبير ومعرفة عبد الغني العريسي وعارف الشهابي، وأنه حمل رسالة شفوية باسم رجال الحركة العربية في سورية الى رجال الحركة في مصر في مناسبة الظروف التي تمر بالبلاد، والتي ينتظر أن تمر بها، ومما قاله لي حلمي أنه ساعد في تلفيق الهوية وتهريب الشيخ كامل، وقد تحقق لي فيما بعد صحة ما نقله لي حلمي، حيث سمعت خبر سفره بمهمته القومية من الدكتور أحمد قدري في سنة 1916 أثناء لقائي به في سيناء على ما سوف أذكر بعد، كما ذكره الدكتور في مذكراته التي نشرها في سنة 1950، وكان الدكتور عضو الهيئة والمركز لجمعية الفتاة، وكان الشيخ من أعضاء الجمعية.

الشيخ كامل القصاب:

وبمناسبة ذكر الشيخ كامل القصاب أقول إني تعرفت عليه في العهد الفيصلي، وصار بيني

وبينه صداقة حميمة وتعاونا وانسجمنا في مختلف المواقف والظروف الى النهاية، وكان من الشخصيات العربية النشيطة فصار من المفيد تسجيل شيء عنه. لقد كان هذا الرجل رجل دين، وبضاعته الدينية لا بأس فيها، وكان حافظاً للقرآن ويعتمّ بعمّة (أغبانية صفراء) شأن كثير من علماء الدين في دمشق الى اليوم، وكان مع ذلك من ذوي الروح العربية القومية ومنتسباً الى جمعية الفتاة ومن الساعين في سبيل تحقيق المطالب والحقوق العربية والناقمين على الاتحاديين لمواقفهم المتعنتة من ذلك، وكان أنشأ في دمشق مدرسة حديثة ابتدائية وثانوية لتعليم العلوم بالعربية وتنمية الروح القومية، وكانت مدرسة في البزورية قرب قصر العظم الأثري الكبير. وقد رأى رجال جمعية الفتاة تحميله رسالة شفوية لرجال الحركة في مصر، فوكل المدرسة لمن يعتمد عليه وسارع لأداء المهمة مجازفاً مخاطراً، وكان إذ ذاك كهلاً لم يتجاوز الأربعين، ولكنه عاد واعتقل ثم أفلت، وخرج من دمشق أثناء الحرب وبقي خارج البلاد طيلة مدة الحرب يسعى مع رجال الحركة العربية في مصر وغيرها في سبيل الحقوق العربية.

ولما أعلن الملك حسين (شريف مكة حينئذ) الثورة على الدولة العثمانية في حزيران 1916 على ما سوف نشرحه بعد، ذهب وآخرون إليه، ولكنهم اختلفوا معه لأن ذهنية الملك وذهنيتهم لم تنسجما، ورجع من مكة ناقماً على الحسين وألف مع آخرين من رجال سورية في مصر حزباً سموه حزب الاتحاد السوري لأجل العمل على استقلال سورية، وفي تصورهم أن يكون خارج نطاق سلطان الملك حسين، وكان من هذا الحزب مسلمون ومسيحيون، ومن الأولين رفيق العظم وعبد الرحمن شهبندر ومن الآخرين ميشيل لطف الله واسكندر عمون، ولما دخل الأمير فيصل دمشق مع رجال ثورته مع الكتائب الانكليزية على ما سوف نشرحه بعد، جاء الشيخ والشهبندر والعظم وعمون الى دمشق، وجرت محاولات توفيق بينهم وبين فيصل تنجح مرة وتتعثر مرة. ولما جئت الى دمشق في حزيران 1919 ممثلاً لنابلس تعرفت عليه، ومنذئذ صرنا أصدقاء متعاونين كما قلت في مختلف المواقف والظروف. وقد عاد الى مدرسته وزرتها أكثر من مرة، وكان لها أثر ونشاط لا بأس فيهما، وقد نشط الشيخ في عهد فيصل نشاطاً كبيراً وألف جمعية كبيرة سميت (اللجنة الوطنية) للدفاع عن سورية تجاه المطامع والدسائس الافرنسية. ولما سقط العهد الفيصلي خرج مع غيره وجاء إلى عمان، وكان اسمه في عداد الذين حكمت فرنسا عليهم غيابياً بالاعدام، وأرسل اليّ دعوة لأنضم الى رجال الحركة العربية الذين تجمعوا في عمان في ظروف قدوم الأمير عبد الله، وذهبت ولم أطل اقامتي، حيث عدت الى نابلس وظل هو مع غيره في عمان مدة أخرى، واختلف مع عبد الله كما اختلف مع أبيه. وجاء إلى حيفا ووثق صلاته بالملك عبد العزيز آل سعود، وصار بمثابة وكيل له في فلسطين، وكان الواسطة بينه وبين رجال الحركة العربية والفلسطينية فيما تقتضيه ظروف العمل ومما سوف يأتي شرحه بعد، وذهب مع وفد اللجنة العربية العليا الى الرياض، وكنا في عداد هذا الوفد. وظل في فلسطين الى أن عقدت المعاهدة بين الكتلة الوطنية وفرنسا، وأعلن عفو عام عن المحكومين وهو من الجملة فعاد اليها وكان قد تقدم بالسن، فأقام فيها دون نشاط كبير

كعادته الى أن توفاه الله 1952 . وقد التقينا مراراً في دمشق في ظروف إقامتي فيها من سنة 1937 وما بعد، وقد يكون له بعض التناقض في المواقف ولكنه كان على كل حال من الشخصيات العربية المخلصة لقوميتها ودينها أشد الاخلاص، والتي شغلت حيزاً كبيراً في الحركة العربية رحمة الله عليه.

كتاباتي في جريدة الإخاء العثماني في بيروت:

ومما جرى معي أثناء إقامتي في بيروت هذه المرة أني تعرفت بأحمد شاكر الطيبي وهو من قضاء طولكرم، وقرية الطيبة أصلا، وكان يصدر في بيروت جريدة الإخاء العثماني، (وهو والد عفيف الطيبي نقيب الصحافة في لبنان في الستينات) وقد طلب مني أن أترجم له فصولا وشذرات عن الصحف التركية من أخبار وأحوال الدولة والحركة العربية، فلبيت طلبه للتسلية والمران، وكانت جريدته أسبوعية ونصف أسبوعية، وصرت أترجم له شذرات وفصولا في تلك المواضيع فينشرها في جريدته بدون توقيع، وظللت أفعل ذلك نحو ثلاثة أشهر الى ما بعد إعلان الحرب، حيث عينت بوظيفة أخرى وخرجت من بيروت بعد اقامة مدتها ستة أشهر على ما سوف أشرحه بعد.

* * *

دخول الحكومة التركية في الحرب وحركة الزحف على القناة:

وبعد قدومي لبيروت بنحو شهر وبتدقيق أكثر في تشرين الثاني 1914 دخلت الدولة الحرب الى جانب ألمانيا وحلفائها، وكان هذا متوقعا، وصارت جميع بلاد الدولة في حالة حرب، وصرنا نتابع الأخبار ونتوقع التوقعات المتنوعة. ولقد بدأت الحركات الحربية في أراضي الدولة وحدودها فور دخولها الحرب، حيث أخذت جيوشها تشتبك بالجيوش الروسية في شرق الأناضول، كما جاءت حملة انكليزية الى البصرة من ناحية الهند ونزلت الجيوش الانكليزية على أراضي العراق الجنوبية، وصارت الاشتباكات تقع بين القوات الإنكليزية والقوات العثمانية هنا أيضا، وقد قررت الدولة بالاتفاق مع حلفائها طبعا فتح جبهة نحو مصر لازعاج الانكليز وتعطيل قسم من جيوشهم في الحقيقة ولطرد الإنكليز من مصر وإعادة السيادة العثمانية عليها كما كان يقال، فكان ما يسمى حملة القناة.

وقد هيأ هذه الحملة جمال باشا الذي كان وزيراً للبحرية، وعين قائدا عاما بصلاحية واسعة لجميع بلاد الشام، (ولايات بيروت وحلب وسورية ومتصرفية القدس) عقب دخول الدولة الحرب بأيام بعنوان (القائد العام للجيش الرابع)، مع احتفاظه بوزارة البحرية. وقد جاء الى دمشق في الخامس من كانون الأول 1914، ولم يلبث أن أثار الرعب في الناس بما أظهر من صرامة وشدة في سبيل تهيئة الحملة وحشد ما يمكن من طاقات، وقد أقام اجتماعا كبيراً حاشداً في الجامع الأموي بعد أيام من مجيئه وخطب مبشراً بفتح مصر، وخطب خطباء آخرون داعين مؤيدين. وبعد أن تمت الاستعدادات وأقيمت مراكز التموين في سيناء تقدمت الكتائب الأولى للقناة من ناحية الاسماعيلية، وركبت الطلائع الزوارق لاجتياز القناة، وكانت المدافع والقوات الإنكليزية ترقبه، فما أن صارت الزوارق تجري في الماء حتى أمطرت عليها النار فغرق من غرق وأسر من أسر وفشلت الحملة وكان ذلك في 21 شباط 1915.

موقف جمال من الحركة العربية القومية:

ولقد كان جمال من أشد الحاقدين على الحركة العربية والمناوئين لها، وكان الاتحاديون قد وعدوا المؤتمر العربي الذي انعقد في باريس بالاستجابة الى مطالبهم ثم أخلفوا وعدهم، وقامت حالة توتر بين الطرفين. واشتد حزب اللامركزية في الدعوة للمطالب العربية والعمل على انشاء فروع للحزب بسبيل ذلك على ما ذكرنا سابقاً وفصلناه في كتابنا (نشأة الحركة العربية الحديثة)، فلما أخفقت حملة القناة ظن جمال أن رجال الحركة العربية سوف يشمتون ويستغلون الموقف للتشويش، فقرر تهيئة ضربة شديدة ترهبهم.

ومما قرأناه في مذكرات عزيز بك التي نشرت ترجمتها في سنة 1938 بواسطة عمر أبي النصر، وكان هو رئيس استخبارات جمال. وفي كتاب الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد (الجزء الأول) أن حكومة الاتحاديين اختارت جمالا لمهمة القضاء على الحركة العربية ورجالها اغتناما لفرصة الحرب، حتى لا يكون منهم تشويش على الدولة إبان الحرب، وحتى تكون الدولة قد انتهت من هذه الحركة بعد الحرب ليتصرفوا في الدولة تصرفا طورانيا، ومما قرأناه في مذكرات عزيز أيضا أن جمالا نفسه كان يحقد على رجال حزب اللامركزية حقدا شديدا، لأنهم كانوا متضامنين مع حزب الحرية والائتلاف المعارض الذي قام بانقلاب ضد حكومة الاتحاديين، ولقد صار جمال حاكما عسكريا في الآستانة بعد أن نجح الاتحاديون في ازاحة حزب الحرية والائتلاف عن الحكم الذي صار لهم لفترة قصيرة نتيجة لانقلابهم، فأخذ يطارد ويبطش بمن تطاله يده من رجال هذا الحزب. ولما علم أن حزب اللامركزية العربي كان متضامنا مع هذا الحزب سرى هذا الى رجاله، فكان ما كان منه من عملية ارهابية شديدة ضدهم حينما تولى الحكم في سورية، وبعد اخفاق حملة القناة. ولقد كان أكثر من طاردهم واعتقلهم وحاكمهم وبطش بهم من رجالات العرب هم ممن ينتمون الى حزب اللامركزية. وعلى كل حال فإن جمالاً قرر إنزال ضربة شديدة إرهابية بعد إخفاق حملة القناة، ويمكن أن يكون قد جاء بهذه النية، وكان اخفاق الحملة مما جعله يباشرها بكل عنف وقسوة، ولقد كان والي بيروت (كبس)[1] قنصلية فرنسا، وصادر منها بعض الأوراق والوثائق فسلمها الوالي لجمال، وكان قد وصل الى يد رجال من الحكومة الاتحادية أوراق مسروقة من مكتب حزب اللامركزية في مصر، فارسلت اليه أيضا، فكانت هذه وتلك مما اتكأ عليه في ضربته الإرهابية، ومما فعله جمال تمهيدا لهذه الضربة ارسال الضباط العرب والجنود العرب الذين كانوا في حملة القناة بعد اخفاق الحملة الى جبهة جناق قلعة (الدردنيل) وهو مدخل بحر مرمرة من ناحية البحر الأبيض، واستبدال ضباط وجنود أتراك بهم في كتائب جيشه، وكان في سورية مئات من الخريجين من الجامعات قد جندوا ليكونوا ضباطا، وسميت دورة تجنيدهم باسم (الخدمة المقصورة)، وكان معظمهم ممن تشرب الروح القومية واندمجوا في الحركة العربية، وكانت دمشق جياشة بهم وبأناشيدهم القومية فألغى جمال الدورة وشتت شمل ضباط الخدمة المقصورة الى خارج بلاد الشام.

* * *

(1) كبس: داهم وفتش.

تسمية الأمير شكيب وعبد العزيز الشاويش والشيخ أسعد الشقيري وعبد الرحمن اليوسف مساعدين لجمال:

وما سمعناه وقرأناه في مذكرات جمال وعزيز أن الحكومة الاتحادية أرفقت جمالا بالشيخ عبد العزيز شاويش والأمير شكيب أرسلان والشيخ أسعد الشقيري وعبد الرحمن اليوسف، وأوصته بأن يكونوا مستشارين له، وكان هؤلاء من الموالين لهذه الحكومة والمناوئين للحركة العربية ورجالها، للإستعانة بهم على اثارة عواطف المسلمين العرب، ومعظم العرب كانوا مسلمين، لتأييد الدولة والدعاية ضد الحركة العربية واظهارها بأنها حركة معادية للخلافة الاسلامية يحركها المستعمرون (مما ألممنا به في كتابنا نشأة الحركة العربية)، وكانوا يعقدون الاجتماعات في المدن ويخطبون في الناس بذلك، وقد شهدنا في بيروت اجتماعا خطب فيه عبد العزيز شاويش والأمير شكيب بوجوب تأييد الدولة والانصراف عن أي مطلب آخر.

وكان اجتهادهم أن الدولة الآن في حالة حرب، وأن جميع الناس والعرب في الجملة يجب أن يؤيدوها ولا يشوشوا عليها.

الشيخ عبد العزيز الشاويش:

ولقد كتبنا كلمة عن الأمير شكيب، ونقول في صدد الشيخ عبد العزيز الشاويش على ما سمعناه إنه مغربي مقيم في مصر وخطيب مفوه وواسع الثقافة الاسلامية، فلما أعلن الدستور جاء الى الآستانة واندمج في العهد الجديد منسجما مؤيدا للاتحاديين، ويمكن أن يكون موقفه منهم ثم موقفه من الحركة العربية عن حسن نية، ولا أعرف له مواقف ضارة ولم يكن بيني وبينه لقاء أو معرفة.

عبد الرحمن اليوسف:

وعبد الرحمن اليوسف دمشقي كردي مستعرب، وكان أخوه سعيد ثم هو من بعده يتقلدان منصب إمارة الحج ومندمجين في الدولة العثمانية قبل الدستور، واستمر هو كذلك بعد الدستور وصار عضوا في جمعية الاتحاد والترقي، وكان نائبا عن دمشق ثم عضواً في مجلس الأعيان فيما يرد بذهني، وهو واسع الثراء قليل الثقافة بسيط أو ساذج ولكنه كان شديد الاندماج في الاتحاديين، ولم أعرف له مواقف ضارة متعمدة.

وفي عهد فيصل كان ممثلا منتخبا لدمشق في المؤتمر السوري العام الذي اجتمع في حزيران، وصار نائب رئيس للمؤتمر، وقد تعرفنا به في هذا المجال وتعاونا ولكن لم تنعقد بيننا صداقة حميمة، وكان من الذين يميلون الى التساهل والتفاهم مع الإفرنسيين وعدم الغلو في مقاومتهم، ولما غزا القائد الافرنسي غورو دمشق وأسقط العهد الفيصلي كان في الوزارة التي قامت وانسجم مع العهد الإفرنسي، وخرج لتهدئة أهل حوران وجمع الغرامة التي فرضها الإفرنسيون عليهم، فهاجوا عليه وعلى زميله علاء الدين الدروبي رئيس الوزارة وقتلوهما.

الشيخ أسعد الشقيري:

والشيخ أسعد الشقيري من عكا وهو عالم ديني وخطيب مفوه بالعربية والتركية وذكي ومتحرك، وقد اندمج في الدولة قبل الدستور حتى صار عضوا في مجلس التدقيقات الشرعية، ولما أعلن الدستور انسجم مع الاتحاديين، ولما جاء جمال الى سورية قائدا عاما جاء معه بناء على توصية الآستانة واندمج معه كل الاندماج وصار من أقرب المقربين اليه

والموالين له. وعينه جمال مفتيا لجيشه، وكان صاحب هيبة ومكانة، واشتد في شجب الحركة العربية ورجالها.

ومما ذكره عزيز في مذكراته أنه أخبر جمال بما يقوم به رضا الصلح وعبد الكريم الخليل من نشاط في جبل عامل بناء على ما سمعه من كامل الأسعد زعيم جبل عامل، واقترح عليه أن يستدعي هذا ويسمع منه، واستدعاه وأيد له الخبر، فسارع في إصدار الأوامر باعتقالهما ثم في مطاردة واعتقال رجال الحركة، حيث يفيد هذا أنه كان له اصبع في ما كان من ضربة جمال الشديدة للحركة العربية ورجالها.

وقد ذهب بعد شنق القافلة الأولى من شهداء العرب الذين شنقوا في آب 1915 الى الآستانة على رأس وفد عربي اسلامي من مختلف أنحاء بلاد الشام بحجة زيارة وتهنئة الجيش العثماني في الدردنيل، وبقصد الدفاع عن موقف جمال وشدته، وخطب أكثر من مرة أمام السلطان وغيره شاجبا لرجال الحركة مؤيدا لجمال كما هو مسجل في كتاب (رحلة الوفد) المطبوع بالعربي في ذلك الوقت، والذي كتبه محمد كرد علي ومحمد الباقر ومحمد على الإنسي ورابع نسيت اسمه، وكانوا مرافقين للوفد كصحافيين. وظل على خطه هذا الى نهاية الدولة العثمانية، ثم عاد الى عكا فاعتقله الانكليز مدة ما، ولم يلبث بعد أن سرح أن اندمج في سياسة مناوئة للحركة الوطنية، ومع الأمير عبد الله الذي كانت سياسته موالاة الإنكليز والاعتراف بالواقع اليهودي، واندمج بالتبعية مع أولياء هذه السياسة في فلسطين الذين كانوا يعارضون تطرف الحركة الوطنية، ويعارضون رجال هذه الحركة وبخاصة الحاج أمين الحسيني الذي كان أبرز زعمائها ولا سيما بعد أن صار رئيسا للمجلس الإسلامي الشرعي الأعلى، وصار من أركان المعارضة التي كانت تعني موالاة الانكليز ومناوأة التطرف العربي المزعوم، وصار رئيسا أو ركنا من أركان حزب أوحى بإنشائه الإنكليز شق الحركة الوطنية، وصار يناوىء تطرفها المزعوم حينما تصدت الحركة لرفض الدستور القائم على وعد بلفور وصك الانتداب ومقاطعة المجلس التشريعي، ونجح في ذلك وسمي للسخرية باسم (الحزب الوطني عام 1922) على ما شرحته في الجزء الثالث من كتابي (حول الحركة العربية).

وقد التقيت به في نابلس سنة 1923، وجاء على رأس وفد من الشمال للشكوى من تصرف الحاج أمين الحسيني والمجلس الاسلامي بميزانية الأوقاف دون رقيب بزعمهم، ولتحريض رجال نابلس عليهم. وقد سألتهم عن ميزانية المجلس الإسلامي وميزانية الحكومة فقالوا إن الأولى أربعون ألفا والثانية خمسة ملايين، فقلت لهم أليس من العجيب أن تقيموا الدنيا وتقعدوها على المجلس والحاج أمين على ميزانية تافهة جزء من مائة وعشرين جزءا من ميزانية الحكومة، والمسلمون لا يدفعون من أكياسهم شيئا فيها، وتتركوا الحكومة تتصرف بتلك الميزانية الضخمة وهي تجبى منهم دون اهتمام بمراقبتها وانتقادها. فكان في ذلك إفحام وإسكات، وقد ظل على هذا الخط طيلة المدة التي عاشها الى أن مات في الخمسينات على ما أظن. غفر الله له.

مطامح جمال للاستقلال والخديوية في مصر وسورية وما كان في صدد ذلك:

ونعود بعد هذا الاستطراد الى السياق فنقول إن مما سمعناه أن جمالاً كان يترسم في نفسه أن

يصبح خديوياً على مصر وسورية معاً، وأنه قرب اليه من رجال الحركة العربية عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي، والدكتور عبد الرحمن شهبندر ومحمد كرد علي صاحب جريدة المقتبس للتأنيس والاستعانة بهم في ترويج هذا الأمر، في حالة نجاح حملة القناة، في الأوساط العربية القومية، وإنه أسرّ بنيته لعبد الكريم الخليل ووعد بأن يكون العرب في دولته عماداً وسنداً، وطلب من عبد الكريم أن يفاتح بعض زعماء العرب القوميين وذوي النفوذ بذلك لكسب تأييدهم، وأنه فاتح كامل الأسعد زعيم جبل عامل الشيعي وكان عبد الكريم شيعياً أيضاً.

ولقد قرأت نص منشور أذيع لعبد الغني العريسي الذي طارده جمال في جملة من طاردهم، وقد نشر في سلسلة أجزاء (الحرب العظمى) التي نشرها عمر أبو النصر في بيروت في تشرين الأول 1950[1]، حيث جاء هذا المنشور مصدقاً لذلك الذي سمعناه. ولما فشلت الحملة وعزم جمال على ضرب رجال الحركة العربية كان عبد الكريم من أوائل المعتقلين والمضروبين خشية نشره نيته فتعشى به قبل أن يتغدى به حسب المثل المضروب، وقد استطاع الشهبندر الذي يظهر أنه أحس بنية السوء عند جمال نحو رجالات العرب، أن يهرب عبر الصحراء الى العراق فنجا بدمه، ثم سافر الى مصر واندمج في الحركة العربية ونشاطها فيها، أما محمد كرد علي فانه نافق نفاقاً شديداً كسب به عطف جمال والحظوة لديه، وظل متمتعاً بهما الى ان انتهت الحرب. وكنا نقرأ مقالاته في المقتبس التي كانت تذهب في التزلف والنفاق لجمال ورفاقه، وكان هؤلاء يكتفون بأقل منه كثيراً.

اتصال زعماء الصهيونية بجمال:

وفي مذكرات عزيز بك خبر آخر يعضد خبر مطامح جمال لخديوية مصر وسورية أو احداهما، حيث يذكر أنه تم اتصال بينه وبين زعماء الصهيونية في فلسطين وعرضوا عليه استعدادهم لتأييده وتعضيده في ذلك ودفع مائة ألف جنيه ذهباً له لانفاقها في سبيل ذلك شريطة أن يوافق على استعمارهم لفلسطين وقيام حكومة ذاتية لهم فيها، ولم تتم الصفقة لأنهم طلبوا منه عهداً مكتوباً بذلك فلم يجرأ عليه.

إخبارية كامل الأسعد لجمال عن نشاط رجال الحركة العربية وبدء اعتقالاتهم:

ومما سمعناه أن كامل الأسعد أخبر الشيخ أسعد الشقيري بما حدث بعبد الكريم الخليل، وإن الشيخ أوصل ذلك الى أنور باشا وزير الحربية، وأن هذا جاء الى سورية ليتحقق من ذلك، وأن جمال بعد أن رأى أن نياته قد

---

(1) من الجدير بالذكر أن فكرة جمال في إعلان نفسه خديوياً في سورية ومصر أو في الشام حسب الممكن ظلت تراوده حتى بعد فشل حملة القناة وبعد شنق القافلة الأولى من الشهداء حيث أذاعت الثورة الروسية الاشتراكية بعد ان اندلعت في تشرين الأول 1917 فيما أذاعته من أسرار الحلفاء رسائل عديدة فيها عرض من جمال على الحلفاء باستعداده إعلان الثورة على الحكم القائم في الدولة وعقد صلح منفرد معهم إذا اعترفوا بسلطته على الدولة مع منح الولايات العربية والأرمنية والكردية استقلالاً ذاتياً وبقائها متحدة في السلطنة تحت حكمه الشامل وكان ذلك في تشرين الأول 1915 أي بعد إخفاق حملة القناة وشنق القافلة الأولى للشهداء وفيها موافقة من روسية وفرنسا على ذلك وتحفظ من بريطانيا لأنها كانت تتفاوض مع العرب وقطعت شوطاً كبيراً في هذا المجال. والرسائل المنشورة تؤيد ما قيل وما نشره العريسي (انظر في كتاب الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ج 1 ص 65 وبعدها).

فضحت قبل إتمام الاستعداد لتنفيذها زعم أنه أراد اختبار مدى إخلاص رجال العرب الذين التفوا حوله، ومعرفة الرجال الذين يرومون الانفصال عن الدولة، مع أنه كان حقاً يرمي الى تحقيق مطامحه والاتصال بالحلفاء لعقد صلح منفرد معهم على أساس الاعتراف به سلطاناً أو خديوياً على سورية على الأقل، ولقد بدأ جمال في مطاردته لرجال الحركة العربية في شهر نيسان 1915، وكان عبد الكريم الخليل ورضا الصلح وابنه رياض من أول المعتقلين، وقد قرأنا في مذكراته ومذكرات عزيز بك رئيس استخباراته أن الشيخ أسعد جاء الى جمال فقال له استدع كامل الأسعد زعيم جبل عامل فإن عنده معلومات عن تحركات رجال الحركة العربية في هذا الجبل، وأن جمالاً استدعى كامل الأسعد فأخبره أن عبد الكريم ورضا الصلح ورياض ابنه يعقدون الاجتماعات المريبة في جبل عامل، فسارع حالاً الى العمل واعتقلهم ثم أصدر أمره باعتقال كل رجال الحركة العربية وخاصة المنتسبين الى حزب اللامركزية، والذين وردت أسماؤهم في الأوراق المسروقة من مكتب الحزب، وفي الأوراق المصادرة من القنصلية الافرنسية في بيروت.

ولا نرى فيما تقدم تناقض جوهري فكله وارد محتمل، وكله كان منطلقاً لجمال فيما أقدم عليه من حركة ارهابية قاسية، ولقد أثار بحركة الاعتقالات موجة ذعر شديدة في البلاد. لقد اعتقل عدد كبير من رجالات العرب المسلمين والمسيحيين وسيقوا الى سجون في عاليه في جبل لبنان، وأنشأ في هذه المدينة ديوان حرب للتحقيق معهم ومحاكمتهم.

محمد الشنطي وأوراق حزب اللامركزية:

ومما سمعناه أن محمد الشنطي وهو من قلقيلية هو الذي سرق أوراق حزب اللامركزية وسلمها لسفير تركية في اليونان، فأرسلها هذا الى أنور وأرسلها أنور الى جمال. ومما سمعناه كذلك أن محمد استطاع أن يكسب ثقة حزب اللامركزية، وأن الحزب عيّنه مندوباً عاماً متجولاً له، وسلم بعض الوثائق واللوائح بأسماء أعضاء الحزب ومعتمديه، وأنه تزلف للسلطات الاتحادية بتسليم هذه الوثائق واللوائح ونال حظوة ومرتباً حسناً لديها ولدى جمال.

ومما سمعناه أن محمداً هذا جاء الى دمشق في أثناء حركة الاعتقالات، وصار يتصل برجال الحركة العربية ويهددهم ويبتز منهم الرشاوى، وأن الحاج سعيد الشوا وكان ممن له مكانة في نفس جمال ذهب الى جمال وأخبره بما يفعله الشنطي، فأمر جمال باعتقاله ومحاكمته. ولقد كان من المحكوم عليهم بالاعدام وشنقوا في القافلة الثانية.

* * *

ذكرياتي عن تقليدي وظيفة مدير جوال مارس - آذار 1915:

لقد كانت حملة القناة وإخفاقها وبدء حركة الاعتقالات وأنا في بيروت، ثم عينت لوظيفة جوالة اسمها (مأمور احتياط). وكانت الباشمديرية ترسلني الى المراكز التي يعزل مديرها أو يقال أو ينقل أو يمرض لأقوم مقامه الى أن يأتي جديد أو يشفى المريض. والمدة التي قضيتها في وظيفة بيروت ستة أشهر، وأظن أني باشرت عملي الجديد في شهر مارس 1915 وقضيت فيه نحو عشرة أشهر، ثم عينت لوظيفة (مأمور تفتيش) على مراكز البرق والبريد المدنية في سيناء، وقد قضيت في هذه الوظيفة نحو عشرة أشهر أيضاً، ثم عدت الى بيروت بوظيفة كاتب في ديوان الباشمديرية وظللت فيها

الى نهاية الحرب مما سوف أزيده شرحاً بعد، وقد زيد مرتبي في وظيفة مأمور الاحتياط ليرة ونصف فصار (750)، وكانت وسائل النقل وأجرة المبيت في الفنادق أثناء السفر على الإدارة ونفقتي في المراكز علي.

ذهابي الى طبريا بهذه الوظيفة وشيء عن المدينة وأهلها وحمّاماتها:

ومع أن الليرة العثمانية التي صار يصدر مقابلها ورق بنكوت، قد أخذت قيمتها تقل عن القيمة الذهبية، فقد كانت حينما نقلت تعدل ثلاثة أرباع قيمتها، بحيث كان مبلغ (15) قرشاً يكفي لأجرة نوم في فندق متوسط، وثمن طعام في اليوم. وأول مدينة ذهبت اليها في وظيفة الاحتياط كانت طبريا. وأظن أن ذلك في أواخر مارس 1915، وقد أقمت فيها نحو شهرين، وجاء أبي لزيارتي والاستحمام في حمامات طبريا، وذهبت معه الى هذه الحمامات أكثر من مرة، وهي تبعد عن المدينة نحو كيلو متر ونصف، ويذهب الناس اليها مشاة او بالعربيات (الكروسات)، وفيها حمّامات قديمة وحديثة، ومن الأولى حمام سليمان وهي بركة في بناء مسقوف عليه قبة وقائم على أعمدة، ومياه طبريا زرنيخية او كبريتية، وهي حارة جداً. وقد أنشيء حديثاً مخادع صغيرة للأشخاص، وقد قيل لي وقتها انه يوجد على مسافة الى شمالها حمامات حارة مثلها. وهي حمامات الحمة على ما عرفناه بعد ذلك. وطبريا تحت مستوى البحر بنحو (150) متراً أو (200)، ثم يعمق الغور حتى يصل المستوى الى (350) متراً عند البحر الميت، وجميع المنطقة بركانية، وظواهر ذلك بارزة، فلا غرو أن يكون فيها هذه المياه الحارة المعدنية. وقد ذكرت قبل مياه المالح ومياه حارة أخرى، أخبرت عنها في الغور. وكان في طبريا نابلسي مسيحي اسمه صليبا الخوري موظف في المالية ولطيف المعشر، وكان قبل الوظيفة صاحب حانوت في خان التجار قرب حانوت أبي، فكان بينهما صداقة فألح عليه أن ينزل عنده، وقد قضى في ضيافته مدة عشرة أيام وهي المدة التي أمضاها في طبريا.

شيء عن آل الطبري وعن طاهر الطبري:

وقد تعرفنا في طبريا على آل الطبري، وكان زعيمهم سعيد، وله الديوان العامر المطروق، وكان نافذ الكلمة بين المسلمين والمسيحيين واليهود وكأنه زعيم المدينة وزعيمهم معاً. وكان مرجعاً لمشاكلهم وقضاء مصالحهم، وكان مضيافاً بشوشاً غير متكلف سمح اليد والنفس وكنت أتردد على ديوانه، وسعيد هذا والد الشيخ طاهر الذي خلف أباه في زعامة طبريا ردحاً من الزمن، ووالد صدقي، وقد كان طاهر معنا ممثلاً لطبريا في المؤتمر السوري العام وصار قاضياً بطبريا فيما بعد وكان وطنياً مخلصاً يبذل جهده في الحركة الوطنية ابان الاحتلال الانكليزي، وقد ظل بعد النكبة في طبريا ونقل الى الناصرة فيما اظن ومات في الستينات، وظل على خطه القديم. وكان أخوه صدقي إذ ذاك طالباً في المدرسة، ولما كبر اندمج في الحركة الوطنية والنشاط الوطني، وكان على خط قويم هو الآخر ولايزال حياً يعيش الآن في عمان. وكان قبل ذلك مديراً لمركز من مراكز وكالة غوث اللاجئين المنكوبين في القنيطرة، وعاش ردحاً من الزمن في دمشق، وكنا أصدقاء متوادين.

ومما حصل معي في طبريا أن معلم الرياضيات في المدرسة الرشيدية مرض، فكلفني مديرها أن أملأ فراغه أياماً ففعلت،

وكان صدقي وفائز ابن عمه من جملة التلامذة.

لقائي بالقس جمس المتحول عن اليهودية:

كذلك مما حصل معي في طبريا، أني تعرفت على قس اسمه (جمس) أخبرني أنه كان يهودياً وأنه ترك اليهودية وتنصر. وكان يذكر لي كثيراً من سوء أخلاق اليهود وسيرتهم حالياً وتاريخياً، ويقول لي إن ذلك هو الذي جعله يترك اليهودية ويتنصر، وقد أبدى القس المتنصر استعداده لتعليمي اللغة العبرية، وباشرت فعلاً بتلقي بعض الدروس ولكن الوقت لم يطل بي.

ومعظم مسلمي طبريا فقراء صيادون. وكان سمك طبريا المعروف بالمشط يرسل الى أنحاء فلسطين ويدر على الصيادين رزقاً حسناً.

آل العاقل في طبريا:

ومن الأسر البارزة في طبريا آل العاقل، وكان يوسف العاقل رفيق الشيخ طاهر في تمثيل طبريا في المؤتمر السوري، وقد تعرفنا عليه وتعاونا معه، ولابأس في عقله وأخلاقه، وكان خطه قوياً.

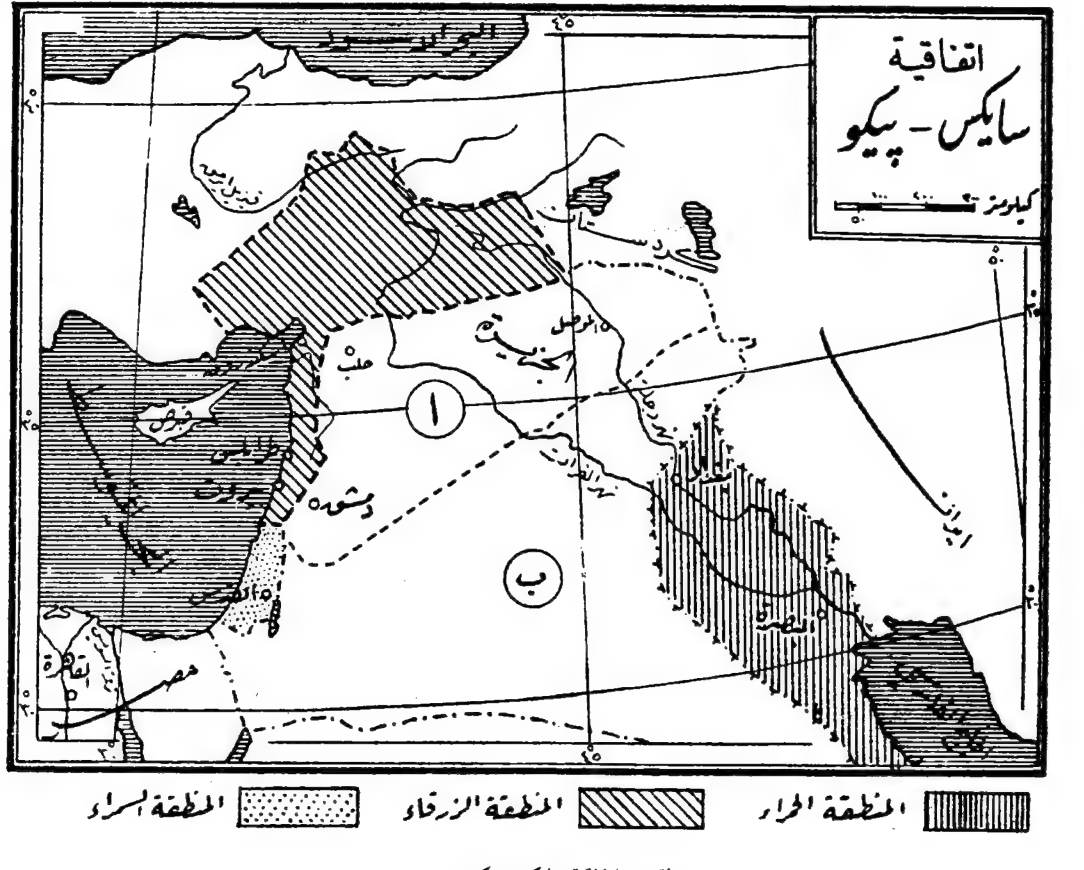
واليهود في طبريا يمكن أن يكونوا نصف أهلها أو ثلثهم وفيهم شرقيون (سفارديم) وغربيون (شكناز)، ويسكنون أحياء خاصة بهم وكثير منهم فقراء تعساء. وجلهم يتعلمون العربية، وكانوا يأتون الى سعيد الطبري لحل مشاكلهم فيما بينهم والاستعانة به على قضاء مصالحهم.

لقائي مع عبد الوهاب الإنكليزي في طبريا:

وربما بلغ عدد سكان طبريا حينئذ خمسة او ستة آلاف نسمة. ومما كان وأنا في طبريا قدوم عبد الوهاب الانكليزي اليها وكان مفتشاً ملكياً أي للتفتيش على الموظفين الإداريين وغيرهم، وقد كان قدومه للتحقيق في شكايات ضد القائمقام. وأقام بضعة أيام وتعرفت عليه وصاحبته. وكنت أمشي معه مشاوير خارج طبريا بعد العصر، وكنا نتحدث عن الحركة العربية والتوقعات أثناء الحرب وبعدها، وهو اكبر مني سناً بعشر سنين أو أكثر، وكان مستاء من عدم ارعواء الاتحاديين ومتشائماً من تحقيق أي حقوق في ظلهم، وكان يقول ليس بد من البتر والانفصال بعد أن كان منهم ما كان. وقد حدثته عن روايتيّ وفود النعمان وبائع الارض والسمسار فسره ذلك، وكان مما جعله ينفتح علي. وكان متحسباً من عواقب الحرب على العرب إذا انتصر الألمان، وكان يطنب فيما يعرفه من شدة حقد الاتحاديين وشباب الترك على العرب والحركة العربية، ويصف من كان يأمل بحسن العاقبة معهم بعد الحرب من رجال العرب بالبلاهة أو حسن النية، حيث كان بعض رجال العرب يذكرون ما يسمعون من الاتحاديين من تأمل بالخير اذا ظل العرب والترك متضامنين في أثناء الحرب، وقال إن من رجال الحركة العربية الذين يقولون بهذا عبد الكريم الخليل، وأنه كان من أول من وجّه جمال باشا ضربته لهم واعتقله. ولم يكن بعد قد حوكم وأعدم. وكان عبد الوهاب متخوفاً من اتساع حركة الاعتقالات ووخيم عواقبها لأنه يعرف شدة حقد الاتحاديين على رجال الحركة العربية وسوء نيتهم نحوهم. وكان هو نفسه قلقاً، وقد صدق حدسه فإن حركة الاعتقالات اتسعت، وكان هو ممن طالته وأثارت ما أثارته من الرعب بين رجالات العرب وأوساطهم، ثم كان من الذين أعدموا في قافلة الشهداء الثانية. وقد لمست فيه عقلاً رزيناً وذهناً لامعاً واطلاعاً واسعاً رحمة الله عليه.

ذهابي الى اربد بنفس الوظيفة وشيء عنها:

وبعد طبريا كلفت بالذهاب الى اربد بسبب



خريطة تبين اتفاقية سايكس بيكو

مرض مديرها، وذهبت أولاً الى نابلس وقضيت يومين ولمست توتر الجو وشدة التحسب، وقد دعيت صفوف عديدة من الرديف وأرسلت الى جبهات الحرب في أوروبا وشرق الأناضول والعراق، وقد بدأت الدولة في فرض ما يسمى تكاليف حربية اضافية نقداً او حبوباً وغلات وجبايتها بشيء من الحزم والتخويف.

ثم خرجت من نابلس الى محطة المسعودية وهي محطة جديدة أنشئت حديثاً لتصل خط الحديد من العفولة الى بئر السبع بطريق اللد، وتبعد عن نابلس نحو خمسة كيلومترات، وركبت القطار الى درعا حيث نزلت واستأجرت بغلاً الى اربد، والمسافة أربع أو خمس ساعات على مشي البغل، وكانت إربد قرية كبيرة على هضبة، ومناظرها جميلة وفي بعض مناطقها غابات طبيعية. وفي طرف منها على طريق عمان بركة ماء كبيرة من برك الحج التي ذكرتها قبل، وكان يأتيها ماء من نبع وتملأ في الشتاء حتى تصبح بحيرة صغيرة، ويمكن أن يكون طولها مائة متر وعرضها خمسين وعمقها مترين وأحجارها ضخمة، وقد تهدم بعض أضلاعها وتوقف الماء الجاري اليها، وكانت اربد مركز قضاء، وفيها قائمقام وتابعة للواء البلقاء أو الكرك، واللواء تابع لولاية سورية، وكانت الصلات الاقتصادية قوية بين هذه المنطقة التي منها ناحية عجلون وبين نابلس، وكانت نابلس قبل الدستور بمدة ما مركزاً لمتصرفية البلقاء واربد وعجلون مرتبطين بها، ثم انفك ارتباطهما من نابلس، وقامت في شرق الأردن متصرفية مركزها الكرك تابعة لولاية سورية، وصارت نابلس متصرفية تابعة لولاية بيروت، ولم أقم في اربد إلا أسبوعاً حيث شفي المدير، وكلفت بالذهاب إلى مأدبا لأن مديرها مقال.

ذهابي الى مأدبا بنفس الوظيفة وشيء عنها وأهلها وعن فسيفساء كنيستها:

ركبت بغلاً من إربد الى عمان والمسافة خمس ساعات على مشي البغل فيما بقي في ذهني، وفي الطريق جمح بي البغل وأوقعني على الأرض ولكن الله سلم، وركبت من عمان القطار الذاهب إلى معان فالمدينة المنورة، ونزلت في محطة (زيزاء) تبعد عن مأدبا بنحو كيلومترين، وكانت مأدبا مركز مدير ناحية، وفي منطقتها قبائل بدوية أهمها بنو صخر لها ماشية وتزرع بعض أجزاء من الأرض وتعيش في بيوت الشعر عشائر عشائر حسب تقسيمات القبيلة وحمولاتها. وشيخها الأكبر مثقال الفايز. وقد تعرفت عليه في عهد الحكم الفيصلي وما بعده، وهو ذكي وجدّي وفيه دهاء وخبث، وأظن أنه كان أعور، وكان أحياناً يماشي الحركة الوطنية في عهد الأمير عبد الله الذي قام بعد سقوط عهد فيصل، وأحياناً يماشي الأمير حسب ظروفه ومصالحه.

ومأدبا قرية ومعظم سكانها نصارى. ويبدو أنهم أصيلون منحدرون من نصارى العهد الغساني قبل الإسلام مع طوائف جديدة طارئة. وفي أرض كنيستها خريطة فلسطين وشرق الأردن بفسيفساء حجرية بيضاء وسوداء وحمراء، يمكن أن تكون مساحتها عشرة أمتار مربعة، وعلى بعض مواقعها كتابات بخط رومي أو يوناني قالوا أنها أسماء المواقع. والمبادر أنها صنعت في عهد الحكم اليوناني أو الروماني الذي خلف اليوناني. والأول قام في شرق الأردن وفلسطين منذ القرن الرابع قبل الميلاد، واستمر الى القرن الأول قبل الميلاد، ثم قام الثاني الذي استمر الى الفتح الإسلامي مع ممارسة الحكم أو السلطان العربي في ظل ملوك

بني غسان الذين كان حكمهم شاملاً لحوران وأطراف دمشق وشرق الأردن وبعض أجزاء من غرب الأردن وبخاصة من ناحية صحراء النقب تحت السيادة الرومانية، وكان الحكم في هذه البلاد قبل الحكم اليوناني لدولة الأنباط التي كان مركزها مدينة اسمها سلع، وهو ما يسمى اليوم (البتراء). ولم يتوار حكم الأنباط في الحكم اليوناني بل ظل تحت السيادة اليونانية، ثم ظل ردحاً تحت السيادة الرومانية (على ما فصلناه في الجزء الخامس من كتابنا تاريخ الجنس العربي).

ونصارى مأدبا مضيافون أنيسون، وقد زرت بعضهم في بيوتهم وهي نظيفة ونساؤهم محتشمات، ومع الأسف لم أعد أذكر أسماء من تعرفت عليهم منهم، وكانت مدة إقامتي في مأدبا قصيرة ولم تزد عن اسبوع حيث جاءها مدير جديد.

ذهابي الى غزة بنفس الوظيفة وشيء عنها:

وكلفت بعدها بالذهاب الى غزة لمساعدة مديرها ومأموريها الذين ازدادت أعمالهم بسبب حملة القناة وما بعدها. فإن الحكومة العثمانية لم تنفض يدها من سيناء بعد إخفاق تلك الحملة، وظلت قواتها منتشرة فيا وتتظاهر بالاستعداد لحركة عبور جديدة، واكتفت القوات الانكليزية في هذه المرحلة بإحباط عملية عبور القناة وتركت القوات العثمانية مستولية على جميع سيناء، وكانت تنشيء مراكز للتموين والنقل. وجاء في أواسط سنة 1915 بعض ضباط ألمان وتولوا أو شاركوا في الحركات العسكرية، فكان كل ذلك مما أبقى منطقة سيناء وغزة وما بعدها من مراكز على الساحل في حركة ونشاط. وغزة شبيهة بنابلس مدينة قديمة مثلها ومماثلة لها في شوارعها ودكاكينها وحياتها الاجتماعية والمعيشية. والساحل يبعد عن مركز المدينة بنحو كيلومترين، وبينهما رمال، ولها ميناء عادي ولا يمخر منها الا مراكب شراعية تنقل الغلات والفواكه بين موانيء البحر الأبيض العربية، وإلا مراكب أو شخاتير صيادي سمك، وإذا جاءت أحياناً باخرة فتقف بعيدة عن الساحل وتنقل الشخاتير أو الفلوكات وما فيها أو ما يراد أن يشحن فيها. وفي غزة خان مثل خان تجار نابلس ولكنه كان معطلاً ودكاكينه خربة ومغلقة. وفيها جامع كبير يسمى العمري. ومساجد وحمامات عديدة، ولكن حمامات نابلس أحسن خدمة وأوفر ماء. والمدينة قسمان يفصل بينهما فاصل منحدر، الأعلى البحري والثاني يسمى محلة الشجاعية، وهي محلة كبيرة يمكن أن تعدل ثلث المدينة بنايات وسكانا، ومعظم أهل هذه المحلة يشتغلون بالزراعة في أراض واسعة حولها، في حين أن معظم أهل القسم الأول يشتغلون بالتجارة والصناعة والبحر صيداً ونقلاً.

وقد أقمت في فندقها في القسم الأول، وكنت أدفع أجرة الغرفة خمسة قروش وأنفق على طعامي نحو عشرة قروش.

ولهجة أهل غزة في القسمين لهجة مصرية بدوية خشنة نوعاً، ولهجة محلة الشجاعية خاصة أشد في ذلك كله. والراجح من أهلها في القسمين مصريو الأصل من زمن ابراهيم باشا وقبله وبعده. وكثير منهم بدوي الأصل.

كلمة عن الحاج سعيد الشوا وأولاده:

وكان زعيم الشجاعية إذ ذاك الحاج سعيد الشوا، وهو رجل بدوي السحنة قوي الشخصية له أراض واسعة وأسرته كبيرة ونفوذه قوي في جميع غزة ومنطقتها أو بالأحرى كان أقوى نافذ

فيها. ويتعاون مع السلطات فيقوي بذلك نفوذه ويقوى نفوذ السلطات معاً.

وكان للحاج سعيد أولاد عديدون هم عادل أكبرهم، ورشدي الذي كان إذ ذاك طالبا في كلية الحقوق في الآستانة ومندمجاً في الحركة العربية، وعلمت بعد إنه كان ممن انتسب الى جمعية الفتاة أثناء الحرب، وقد اعتقل ضمن من اعتقل من شباب ورجال الحركة العربية. وكان شيء من الانسجام والتعاون قائماً بين الحاج سعيد وجمال باشا، حيث كان هذا يستعين بذلك على عمليات النقل والتموين، ويبذل الحاج سعيد جهده في تلبية مطالب جمال، وبفضل ذلك نجا رشدي وسرّح بعد قليل من اعتقاله. وقد رويت ما كان منه في صدد محمد الشنطي وشكواه عليه لجمال باشا، وكان ذلك سبباً لاعتقال الشنطي وإعدامه، وإذا صح السبب الذي سمعناه لذلك فتكون الشكوى والنتيجة في محلهما.
محلهما.

وكان ديوان الحاج سعيد مفتوحاً مطروقاً، وكان مضيافاً، وقد ترددت عليه أكثر من مرة، وصار شيء من الاستئناس بيني وبين الحاج سعيد، وقد تعرفت برشدي إبان الحكم الفيصلي، وكان ممثلاً لغزة في المؤتمر السوري العام، وكان مواقفه مثل مواقف العروبيين الاستقلاليين في المؤتمر، وهو محبوب ولهجته مصرية وبدوية وغزاوية معاً. وظللت على تعارفي وصداقتي معه ومع ابيه الى النهاية. وقد ظل أبوه محتفظاً بقوة نفوذه بقية زمن الدولة العثمانية. وقد التقيت به في مؤتمر فلسطين الأول الذي انعقد في القدس في أوائل سنة 1919، وكان من مندوبي غزة ومعه محمد الصوراني وخليل بسيسو من وجهاء القسم الأول، وكان موقفه في المؤتمر مستقيماً عروبياً وحدوياً على ما سوف أشرحه أكثر بعد. ولما جرت الانتخابات لعضوية المجلس الشرعي الاسلامي سنة 1922 فاز وصار عضواً مع الشيخ مراد عن حيفا، وعبد اللّه الدجاني عن يافا، وعبد اللطيف صلاح عن نابلس، برئاسة الحاج أمين الحسيني، وظل يحتفظ بعضويته بعد انتهاء مدتها بالتعيين من قبل الحكومة على ما سوف أشرحه بعد ذلك. وكان شديد الانسجام مع الحاج أمين وعضده الأقوى. وقد التقيت به كثيراً أثناء عضويته في المجلس، ولم يلبث أن مات في العشرينات رحمة اللّه عليه.

صداقتي مع الشيخ شكري الحسيني والشيخ محي الدين عبد الشافي وشيء عن كل منهما:

وقد تعرفت أثناء إقامتي في غزة بالشيخ شكري الحسيني، وحسني خيال، والشيخ محي الدين عبد الشافي، وكانوا أكبر مني سناً وكانوا يبدون واسعي الأفق نيري العقل حسني الاطلاع على المعارف القديمة والحديثة متفتحين للحياة غير متزمتين، وقد انسجمنا معاً وانعقدت بيننا صداقة استمرت الى النهاية، وكنا نجتمع كل يوم تقريباً فنتداول في مختلف الشؤون السياسية والأدبية والاجتماعية وتوقعات المستقبل وفي حالة العرب والمسلمين وجمود العلماء المسلمين وتناحرهم، وفي حالة المرأة الإسلامية وشللها ووجوب تحررها ووجوب التجديد والتجدد الخ. والتقيت بهم مرة اخرى بعد بضعة أشهر، حيث جئت الى غزة مرة ثانية في سياق وظفتي (مأمور تفتيش) على مراكز البرق والبريد، فجددنا عهدنا لبضعة أيام. وكنا نتكاتب حينما افترقنا.

وقد توفي أولا الشيخ شكري، وأظن أن ذلك بعد قليل من الاحتلال أو قبيله، وقد أتى الشيخ

محي الدين عبد الشافي بابنه عبد الحق ثم بابنه حيدر إلى مدرسة النجاح ليلتحقا بالمدرسة حينما كنت مديرها، والتقيت به في ظروف زيارته للمدرسة ورفقته لولديه، وكان ولداه مجتهدين متميزين على رفاقهما، ثم صار عضواً في المجلس الشرعي الإسلامي محل الحاج سعيد معيناً من الحكومة، والتقيت به كثيراً لأني كنت مديراً عاماً للأوقاف، ولم يكن منسجماً مع الحاج أمين، وكان ينتقده ويعارضه كثيراً في أكثر المواقف والمقترحات، ولم يكن موقفه بعيداً عن السداد، وكان يغلو فيه أحياناً أكثر من اللازم مما سوف نزيده شرحاً بعد، وقد ظللت على انسجامي وصداقتي معه، وكان آخر عهدي به في سنة 1937 حيث خرجت من فلسطين ولم أره بعدها. ولقد ظل عضواً في المجلس بعد أن وضعت السلطات الإنكليزية يدها على المجلس، وعزلت الحاج أمين وعزلتني وعزلت زميلاً له في العضوية هو أمين التميمي، حيث ظل حائزاً على ثقتها، وبقي عضواً هو وزميلان آخران هما أمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي على ما سوف أشرحه بعد أيضاً، الى أن وافاه أجله بعد الحرب العالمية الثانية بسنين قليلة رحمة الله عليه.

أما حسني خيال فقد التقيت به مرة ومرتين في غزة حينما كنت أجيء اليها في ظروف وظيفة مدير الأوقاف العامة، ولكنه كان لقاء عابراً وقصيراً ولم أعد أره، وقد عمر وصار من زعماء غزة البارزين، واحتفظ بخط وطني وقويم الى أن وافاه أجله هو الآخر في أوائل السبعينات رحمة الله عليه.

وممن تعرفنا عليه فهمي الحسيني وهو خريج من كلية الحقوق، وكان ذكياً كاتباً ضليعاً في العلوم الحقوقية، وكان يكتب في الصحف وله تآليف في الحقوق، وهو ذكي حجاج. واشتغل في القضاء ثم في المحاماة، وكان ينافس على رئاسة البلدية ونالها بعض الفترات.

وتعرفنا على الشيخ عارف الحسيني وكان مفتياً وكان عروبياً وحدوياً. وكان ممن اعتقلهم وأعدمهم جمال مع ابن له من شباب العرب اسمه مصطفى رحمة الله عليهما.

أسر بارزة في غزة منها العلمي وأبو خضرة وبسيسو والصوراني:

ومن الأسر البارزة في غزة أسر أبي خضرة وبسيسو والصوراني والعلمي والبورنو، وقد تعرفنا على بعض رجالها ومنهم عاصم بسيسو، وكان من شباب الحركة العربية والمنتدى الأدبي، وأبوه خليل وكان من وجهاء غزة وذا عقل راجح، وقد كنا معاً في مؤتمر القدس الأول الذي عقد سنة 1919 وتعاونا، وكان موقفه عروبياً وحدوياً مستقيماً. ومنهم محمد الصوراني وكان من وجهاء غزة وممثلاً لها أيضاً في مؤتمر القدس المذكور وذا عقل راجح وخط مستقيم، ولم تنعقد صداقة حميمة ومستمرة ولقاءات كثيرة بيننا وبين هؤلاء. وتعرفنا على موسى الصوراني ابن محمد، وبرز في الوجاهة بعد أبيه وانعقدت بيننا وبينه صداقة وتعاون فيما بعد. وتعرفنا على رأفة البورنو وكان شاباً ذكياً عروبياً وانعقدت صداقة بيننا وبينه، ولكن صداقتنا مع الثلاثة الأولين ومع رشدي كانت أقوى. وأسرة الحسيني في غزة ليست قريبة من أسرة الحسيني في القدس، وإن كان النسب النبوي يجمع بينهما. وأسرة العلمي في غزة أسرتان يجمعهما الاسم دون النسب، وواحدة منهما قريبة لأسرة العلمي في القدس، وفيها علماء وأثرياء وأصحاب وجاهة. وأخرى تحمل

الاسم ولكنها ليس لها بروز ووجاهة مثل الأولى. وقد اشتهر منها فيما بعد يوسف الذي كان زميلاً لأخي أبي الحكم (محمد علي) في دار المعلمين في بيروت وصديقاً، ثم صار صديقاً حميماً لنا، وأثرى وصار من وجهاء غزة هو واخوه رمضان.

صيد الفر في سواحل غزة:

وكان لسواحل غزة وشمالها بقليل وجنوبها الى سواحل شمال أفريقية موسم (فرّ). والفر هو الطير السمن وقريب من حكمه يأتي أسراباً كبيرة من السواحل الأوروبية حينما يبدأ الخريف ويبرد الجو الأوروبي الى السواحل الجنوبية والشرقية الجنوبية للبحر الأبيض طلباً للدفء في بلاد هذه السواحل التي يكون طقسها دافئاً نوعاً ما في الشتاء، وينصب الغزيون وغيرهم على السواحل شباكاً من الخيوط شبيهة بشباك الصيد فيقع الكثير من الفر فيها.

ذهابي الى خان يونس وشيء عنها:

وبعد أن قضيت نحو شهر في غزة طلب مني أن أذهب الى خان يونس، حيث كان مدير مركزها مريضاً فذهبت وقضيت فيها بضعة أيام، وخان يونس تبعد عن غزة الى الشمال نحو ثلاثين كيلومتراً وطريقها رملي، وقد ذهبت اليها راكباً جملاً وهذا واسطة الركوب والنقل السائدة أكثر في هذه المنطقة، وهي قرية كبيرة، ومثل غزة تبعد عن الساحل كيلومتر ونصف، وفيها بقايا قلعة مهمة كبيرة يسمونها قلعة يونس أو خان يونس (وكلمة خان كانت تطلق على عمارات كثيرة تنزل فيها القوافل في المدن والطرق على ما ذكرت قبل)، وينسبونها الى والي أو حاكم قديم نوعاً ما، ومن أسرها البارزة بيت الفرا. وكانت إقامتي قصيرة فلم يكن بيني وبين احد من أهلها تعارف وثيق.

ذهابي الى شمسكين وشيء عنها وخبر اعتقال أصدقائي في نابلس ابراهيم القاسم والشيخ الداري وكامل هاشم وتحسباتي من ذلك:

ثم بُلّغت أمراً بالذهاب إلى (شمسكين)[1] واسمها اليوم (شيخ مسكين) في حوران. وركبت من غزة عربة (كروسة) الى يافا، وعرجت الكروسة على مجدل عسقلان ساعة أو بعض الساعة لإراحة الدواب وتناول الطعام، وهي مدينة قديمة وصغيرة وبعيدة عن الساحل نحو كيلومتر ونصف مثل غزة وخان يونس، ثم استأنفت الكروسة سيرها الى يافا. وكنت مزمعاً على المرور بنابلس لقضاء يوم أو يومين، ولكن سمعت في يافا أن السلطات اعتقلت رفاقي الشيخ نمر الداري وابراهيم القاسم وكامل هاشم، وانها تبحث عن الحاج حسن حماد الذي اختفى، فرأيت أن لا أمر بنابلس، وأرسلت لوالدي خبراً بالبرق بذلك، وطلبت منه أن يرسل لي بعض الدراهم حيث تحسبت أن يأتي علي الدور، فقررت في نفسي الفرار من (شمسكين) الى جبل الدروز الذي كان قريباً، والذي كان يجد فيه من يخاف من السلطات معصماً إذا لجأ اليه لأن أهله مسلمون ويحمون نزيلهم، والسلطات تتحاشى التحرش بهم واثارتهم، وكان لهم ثورات عنيفة ازعجتها في ما سبق، وقد لجأ غير واحد من رجالات العرب الى الجبل أثناء الحرب فسلم من المصادرة ونجا، ولقد حسبت أن اعتقال رفاقي هو وشاية من بعض الجواسيس، وهم يعرفون أني كنت رفيقاً لهم في كل موقف، فلابد من أن يكونوا ذكروني في تقاريرهم، ولكن ظهر فيما بعد أن اعتقالهم كان بسبب ورود اسمائهم بين الأسماء المكتوبة في الأوراق المسروقة من حزب اللامركزية كأعضاء في الحزب، وكان

---

(1) واسمها في «معجم البلدان» سمكين.

الحاج موصوفاً في القائمة بأنه معتمد للحزب في نابلس والثلاثة أعضاء، ولم يكن اسمي وارد لأني خرجت من نابلس قبل الإنشاء الفعلي لفرع الحزب على ما ذكرته قبل، وقد ركبت القطار من يافا الى اللد ومن اللد الى العفولة ومن العفولة ركبت قطار حيفا ـ درعا ـ دمشق حيث نزلت في محطة ازرع في حوران، ومنها ركبت دابة الى (شمسكين). وقد أرسل لي أبي عشرين ليرة ذهبية مع الحاج فتح الله، وقابلني في محطة المسعودية وأنا في طريقي الى العفولة، وسلمني المبلغ وأخبرني أن الناس كانوا يظنون أني من جملة المطلوبين لأنهم يعرفون شدة انسجامي مع المعتقلين، ولكن السلطات لم تسأل عني فاطمأنت نفسي نوعاً ما.

ذهابي الى ازرع بالوظيفة وشيء عنها:

(وشمسكين) قرية حورانية كبيرة فيها مدير ناحية وفيها آثار قديمة غسانية ورومانية، وقد قضيت فيها نحو اسبوعين، ولم يبدر ما يجعلني انفذ عزيمتي على الفرار الى جبل الدروز، ثم أمرت بالذهاب الى ازرع وكيلا للمدير، لأن المدير السابق قد نقل. ولم يأت جديد محله، ومركز البرق والبريد في ازرع على المحطة وفي المحطة بنايات سكن ودكاكين جديدة. وفيها دمشقيون وحورانيون. أما قرية أو مدينة أزرع فهي تبعد عن المحطة نحو كيلو مترين في مكان مرتفع، وازرع في مركز ناحية أيضاً والمدير ودوائر الحكومة في بنايات المحطة.

المشاهد المؤلمة للأرمن المنفيين من الأناضول:

ومن المشاهد التي شهدتها والتي لا تنسى في أثناء اقامتي في ازرع طوائف النازحين أو المجليين[1] الأرمن، فقد كان الأرمن في أيام السلطان عبد الحميد وما قبله ينشطون ضد الدولة في سبيل حقوقهم الوطنية في الولايات الشرقية والوسطى من الأناضول الذين كان عددهم فيها كبيراً، وكانوا يقومون بأعمال إرهابية فدائية ويزعجون السلطات التركية، ولهم تشكيلات سياسية وقومية تحركهم، وكان من وراء هذه التشكيلات ومحركيها أيضاً روسية وبعض الدول الأوروبية الأخرى، وقد اضطرت الدولة بعد الدستور الى منح بعض الولايات الشرقية الأرمنية امتيازات ادارية خاصة بضغط من روسية، ولقد تحسبت حكومة الاتحاديين من حركات ونشاط وتشكيلات الأرمن وتحريكات الروس لها ابان الحرب من جهة، وأرادت أن تغتنم فرصة الحرب من جهة أخرى، فعزمت على تصفية المشكلة الأرمنية قبل نهاية الحرب، وكان الاتحاديون بل الدولة تعتبرها من المشاكل الخطيرة محلياً وأوروبياً وقد سارت بسبيل ذلك على أسلوبين، اسلوب تصفية جسدية لأكثر عدد ممكن من الأرمن، وأسلوب تصفية تشتيتية لمن لا يصفى جسدياً.

وقد أقدمت السلطات على أعمال في غاية القسوة في الأسلوبين، فقتلت مئات الآلاف بأيدي الجنود الأتراك المجاورين للأرمن بتحريضها في ولايات بتليس ووان وخربوط وما جاور حلب شرقاً وغرباً من ولايات فيها ارمن كثيرون، ثم أجلت الآلاف منهم عن مواطنهم في هذه المناطق في حالة تقشعر لها الأبدان. وقد روى لنا المشاهدون والسامعون أن السلطات كانت تسوق المجليين قوافل بدون ركائب ولا زاد، فيسقط منهم الآلاف موتى من الجوع والتعب، ويصل الباقون الى مكان

(1) المجليين: من الجلاء: المبعدين.

التجمع في أنحاء سورية ولبنان في حالة يرثى لهـا من التعب والجـوع والمـرض، ونهـب جيـرانهم مـا وجـدوه في بيـوتهم من أثـاث واحتلوها، وكانوا في الطريق يتعرضون بالإضافة الى القتل لسرقة ما كانوا حملوه معهم من اثاث وحلي ومال أو مصادرتـه ونهبه عنـوة، وكان لا يصل من القافلة الى المكان المعين لها الا ثلثها والباقون يقعـون مـوتى من الجـوع والتعب أو بأيدي الدرك الذين كانوا يـرسلون معهم. وقد جاء منهم الألاف الى حوران، وجاء المئات الى ازرع، ولـم يكن قـد أعـد لهم مـأوى فكـانـوا يؤمرون بافتراش الأرض، وقد رأيناهم في حالة تبكي الجماد هزالاً وهلهلة ثياب واهتراء أحذية. وكـان يعـطى لهم بعض الحبـوب والـزيـوت فيوقدون النار من حطب وعشب ويطبخون مـا يعطى لهم في صفائح التنك، وينامون على ما قدروا أن يحملوه أو يحتفظون به من حرامـات وبسط خفيفـة أو على حصـر مهتـرئـة أو على التـراب، وكان بعضهم قـد استطاع أن يحتفظ ببعض الحلي واللفحـات الحريـرية والأبسـطة فكانوا يبيعـونها بـأبخس الأثمان، وقـد هتكت أعراض كثير من بناتهم وانتحر كثير من رجالهم ونسائهم تخلصاً من الشقاء الرهيب، وأسلم كثير من نسائهم وبناتهم وتزوجن بمسلمين من المدن والقرى، وكان الناس يطلبون البنات والصبيان للخدمة في بيوتهم فكان كثير منهم يتسابقون الى الرضاء والقبول، ولا شك ان كل هذا كان شأن إخوانهم الأخرين في المناطق الأخرى.

انتقام الأرمن من رجال الاتحاديين:

ولقد عاد كثير من الأرمن الذين بقـوا احياء الى بلادهم بعد الحرب، ومنهم من ذهب الى الجمهورية الأرمنيـة التي أنشأهـا الروس بعـد ثورتهم الاشتراكية، وبقي ما يقارب المائة الف واكثر في لبنان وسورية، فأقامـوا وما يـزالون. ونموا وكثروا واستعـربوا وانـدمجوا في الحيـاة العربية، ولكن كثيـراً منهم ظل محتفـظاً بلغته وعاداته وتنظيماته. وعلى كل حال فإن الأتراك قد نجحوا في تخطيطهم لحل مشكلتهم بالنسبة لبلادهم، فلم تعد هذه المشكلة قائمة فيها بعد الحـرب. ولقد انتقم فـدائيو الأرمن لـدمـائهم فتعقبوا أثناء الحـرب وعقبها رجـال الاتحاديين الـذين خططوا لنكبتهم، واستـطاعوا أن يقتلوا عـدداً منهم في أوروبا وآسيـا منهم انور بـاشا وطلعة باشا وجمال باشا وناظم بك وغيرهم.

وأعـود الى السياق، فـأقول إني قضيت في ازرع نحو اربعين يوماً، وزرت قريـة أو مدينـة ازرع اكثر من مرة، وفي طريقها أعمدة ورؤوس أعمدة قديمة، وفي القريـة بعض آثار غسـانية رومانية، ولكنها غير هامة. وقد التقيت فيها مرة بضابط من طرابلس الشام اسمه أمين المقدم، وكان عروبياً وحدوياً متحمساً للمطالب العربية سـاخـطاً على الأتـراك، فـالتقيت بـه بعض الساعات وهي المرة الوحيدة التي لقيته.

وقد زارني الحاج فتح الله دروزه للاطمئنان عليّ وقضى عندي اياماً وشهد مشـاهد الأرمن معي، وأعـطيته الليـرات الـذهبيـة لإعـادتهـا لوالدي، وكان ابن عمي راغب الذي كانت له دكان بقالة في دمشق يرسـل لي ما أطلبـه من مآكل وأغراض أخرى.

ذهابي الى النبك في الوظيفة:

ولما جاء مدير جديد لأزرع كلفت بالذهاب الى النبك للقيام بمهمة مديرها المنقول، وجئت الى دمشق في أواسط آب 1915 وقضيت فيها أياماً، ونزلت في فندق دار الفرح في السنجقدار وهو بناء شامي في عدة طوابق، ورأيت في شرفة الطابق الثالث المطلة على ساحة البناء السماوية عـارف الشهابي وعبـد الغني العريسي، ولكن الظروف كانت متوترة ولم اجتمع بهم.

الحاج حسن حماد
حكم عليه بالإعدام
في 21 آب 1915

شنق القافلة الأولى من الشهداء في 21 آب 1915 وما كان من أمر الحاج حسن حماد:

في 21 آب 1915، وكنت في دمشق، شنق الفريق الأول من رجال الحركة الوطنية بحكم من الديوان الحربي العرفي في عاليه في بيروت، وأعلنت الصحف أسماءهم وأسماء عدد كبير من المحكومين بالإعدام والسجن، وكان حكم كثير منهم بل أكثرهم غيابياً، لأنهم كانوا إما خارج سورية أصلاً أو مختفين في سورية حينما استشعروا بالخطر مذ بدأت حركة الاعتقالات واستمرت، وقد علمت وأنا في دمشق بقصة الحاج حسن حماد ومجيئه مع عمه للاستسلام واختفائه بعد أن قرأ اسمه في عداد المحكوم عليهم بالإعدام غيابياً والتي ذكرتها سابقاً. وكانت الدفعة الأولى المشنوقة من المسلمين بتهمة الانتساب لحزب اللامركزية ونشاطهم فيه. وهم: عبد الكريم الخليل، وصالح حيدر، ومسلم عابدين، ونايف تللو، ومحمد المحمصاني، ومحمود المحمصاني، ومحمود العجم، وسليم عبد الهادي، ونور الدين القاضي، وعلي الأرمنازي. ولقد حكم بالإعدام على حافظ السعيد، والشيخ سعيد الكرمي، وكانا معتقلين وأبدل حكمهما بالمؤبد، ومات الأول في سجنه وأفرج عن الثاني قبل انتهاء الحرب، وكان يقضي حكمه المؤبد في قلعة دمشق.

أحكام غيابية كثيرة ضد رجالات العرب أيضاً:

ولقد حكم غيابياً على عدد كبير بالإعدام مسلمين ونصارى، من أشهرهم رفيق العظم، وحقي العظم، والشيخ رشيد رضا، وداود بركات، وفارس نمر، وشلبي شميل، وخليل المطران، ونجيب عازوري، والفرد عازوري، وخليل أبو اللمع، وسليم ثابت، وقسطنطين يني، وشكري غانم، وعزت العابد، وعزيز علي المصري، وأمين مجيد أرسلان، وحسن حماد.

ولم يكن المحكومون هم كل المعتقلين، فقد بقي عدد منهم قيد التحقيق والمحاكمة.

ولقد كان لأخبار شنق الشهداء والأحكام الأخرى وقع الصاعقة في الناس، وأثارت الرعب والدهشة في جميع أنحاء البلاد، وزاد في ذلك استمرار مطاردة الغائبين والمشبوهين واعتقال من تقع اليد عليهم وسوقهم الى عالية للتحقيق والمحاكمة، واشتدت صرامة جمال وإرهابه بما كان يحيط نفسه به من مظاهر الجبروت والغطرسة في رحلاته ومنزله ومقابلاته وأوامره.

شيء عن بلدة النبك:

وبلدة النبك التي طلب مني أن أذهب اليها واقعة بين دمشق وحمص، وتبعد عن دمشق بالدابة اثني عشر ساعة وبالعربية سبع ساعات، وهي مرتفعة كثيراً عن سطح البحر، ومناخها في الصيف بارد. وبينها وبين دمشق طريق معبد نوعاً ما تسير عليه العربيات التي تجرها الدواب، وأكثر ما يسير عليه منها الاسطوانية الطويلة التي لاتزال ترى في القرى، ويجلس الراكب فيها القرفصاء أو ممدداً. وأكثر الركاب

فلاحون ومعهم أغراض كثيرة في أكياس وبقج حزمات وسحاحير، وقد صعب عليّ الذهاب فيها، وعثرت على عربية حنتور كانت تسير بين دمشق والنبك وأجرتها ثلاثة أضعاف الاسطوانية، ففضلتها. وأظن أني دفعت مجيديا أجرة، وهو مبلغ باهظ في ذلك الوقت، ويعدل خمس الليرة الذهبية. ووقفت العربية في قرية القطيفة للاستراحة، وهي قرية كبيرة ومركز ناحية، ثم واصلنا السير حتى وصلنا بعد المغرب، وكنا خرجنا من دمشق نحو الساعة العاشرة صباحاً (الساعة غروبية)، ونزلت في مركز البريد الذي كان في بناية قروية ولكنها كبيرة ونظيفة وفيها بضع غرف. والنبك مدينة قروية أهلها فلاحون وفيها بيوت قروية وحديثة ودكاكين، وفيها نبع ماء بارد أقيم في جانبة مقهى منتزه، وهي مركز قضاء وعلى رأسها قائمقام.

وكان القائمقام فيها في هذا الوقت الأمير إسماعيل الشهابي، وقد ذهبت وسلمت عليه وتعرفت به واستأنسنا ببعضنا وتواثقنا وصرنا نلتقي ونتحدث في الشؤون والتوقعات العربية والسياسية، وكان دمثاً ليناً قوياً فيه أريحية وكرم خلق، وعلمت بعد أنه كان منتسباً لجمعية الفتاة، وكان شديد الاسى من الإعدامات والأحكام، وشديد النقمة على الاتحاديين وشديد التحسب منهم، وهو اول شهابي صارت بيني وبينه صداقة حميمة لأنه لم يكن انعقد بيني وبين عارف مثل هذه الصداقة، فقد كان لقاؤنا عابراً.

ثم تعرفت على شهابيين عديدين ومعظمهم على شاكلته قوميون ذوو أخلاق كريمة وأريحيّة ولين ودماثة، وصار لي منهم اصدقاء حميمون ومنهم الأمير بهجة والأمير فائز وهذا أخو الأمير إسماعيل، ومنهم الأمير مصطفى وهو أخو الامير عارف، وقد تعرفت بهم أثناء العهد الفيصلي وانعقدت بيني وبينهم أواصر الصداقة والتعاون طيلة هذا العهد، واستمرت الى أن ماتوا رحمهم الله. سيأتي كلام عنهم في مناسبة آتية ومنهم الأمير ناظم والأمير أحمد وهما ولدا الامير اسماعيل، والأمير عبد السلام، وقد تعرفت به حينما اقمت في دمشق سنة 1937 وما بعدها، وتوثقت أواصر الصداقة بيني وبينهم وأنا أسن منهم، وما زلنا ننعم بصداقة الأخوين لأنهما احياء، اما الثالث فقد توفاه الله الى رحمته اثناء الحرب العالمية الثانية.

والأمراء الشهابيون هم أبناء أمراء حاصبيا وراشيا منذ زمن الاقطاع القديم، واستمرت امارتهم الى أواخر عهد الاقطاع، ولهم املاك وبيوت واقارب في المدينتين الى الآن مع أن كثيراً منهم اقاموا في دمشق. والأمراء الشهابيون الذين كانوا أمراء لبنان هم من فرع الإمارة الحاصبانية، وقد صارت امارة لبنان لأحدهم الذي كان ابن بنت أمير لبنان المعني الذي مات بدون خلف ذكر، فأتوا به ونصبوه اميراً عليهم خلفاً لجده المعني. والأمراء الذين ظلوا في سورية وفي حاصبيا وراشيا أو في دمشق سنيون رغم أن منطقتهم كانت غالبيتها درزية، وفيها طائفة من النصارى، وقد تنصر الفرع الذي صارت له الامارة في لبنان نتيجة لتنافس بينهم، ورغبة كل من المتنافسين كسب النصارى الموارنة الذين كانوا اكثرية في منطقة حكمهم (وكل هذا فصلناه في الجزء الأول من كتابنا العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي).

قائد الدرك الشركسي والبحث عن فائز الغصين وكلمة عنه:

وكان في النبك قائد درك شركسي الجنس

تركي النشأة اتحادي النزعة، فحذرني الامير اسماعيل منه، ويظهر انهم كانوا مرتابين في الأمير إسماعيل أو غير واثقين فيه، فكانت المخابرات السياسية والمهمة تجرى مع الضابط وليس معه، وقد اعطاني مفتاح شفرة وطلب مني أن افك البرقيات الرقمية التي ترد اليه ليكون على علم بما يجري، وكنت أفعل واخبره بما يأتي. وبعد نحو أسبوعين جاءت برقية رقمية ففككتها فاذا فيها أمر البحث عن فائز الغصين في أنحاء قرية أو مركز اسمه (القريتين) في جهة تدمر، والتي فيها مضارب عرب الرولة التابعين لنوري الشعلان، والقبض عليه، فأخبرت بذلك الأمير، فطلب مني أن أخبر بأسلوب ما موظف في مركز برق دمشق اسمه على ما بقي في ذهني، فؤاد الحنبلي، ليخبر الأمير عارف بذلك، ففعلت، ولقد ارسل الضابط الشركسي دركاً الى ناحية القريتين ومضارب الرولة للبحث عن فائز ولكنه كان قد غادر المكان فنجا[1].

وفائز بدوي من عرب اللجاه في جبل الدروز، وقد تيسر له الذهاب الى الآستانة ودرس الحقوق، وهو لين دمث ولا أعرف له نشاطاً كبيراً في العهد العثماني، ولا في العهد الفيصلي ولا بعدهما، ولكن انتسابه للفتاة واستجابته لقضاء المهمة الخطيرة واستطاعته الإفلات من قبضة الاتراك والخلاص من منفاه بمجازفة في الفرار الى الحجاز، يدلان على قوة عزم وروح قومية، وله مؤلف عن رحلته وعن ما فعله الإفرنسيون في سورية، وقد اشتغل قاضياً ثم محامياً في العهد الاستقلالي، وعمر طويلاً ومات في السبعينات رحمة الله عليه ولم يكن لي صلة به وثيقة.

بلدة يبرود:

هذا وعلى مقربة من النبك قرية اسمها يبرود، ومعظم اهلها نصارى ومنهم مغتربون كثيرون، وهي اكثر تمدناً واناقة من النبك إجمالاً، وفيها كذلك نبع ماء بارد ومناخها جميل، وقد ذهبت اليها أكثر من مرة.

اعتقال عبد الغني العريسي والامير عارف الشهابي وعمر حمد وتوفيق البساط:

وفي أثناء إقامتي في النبك سمعت خبر اعتقال عبد الغني العريسي وعارف الشهابي وعمر حمد وتوفيق البساط في منطقة مداين صالح، وكانوا في طريقهم الى الحجاز حيث استشعروا بالخطر بعد اعلان الاحكام وتنفيذ حكم الاعدام فيمن هو معتقل، ولاسيما أنهم رأوا السلطات مستمرة في مطاردة رجال الحركة العربية، فدبروا امرهم وهربوا مختفين قاصدين الحجاز، ولما وصلوا مسافة بعيدة ظنوا انهم صاروا في نجوة، فأرادوا ان يركبوا القطار الى المدينة من بعض المحطات التي قيل انها مدائن صالح، فاشتبه بهم بعض موظفي الحكومة برغم انهم كانوا في زي بدوي، واعتقلوهم وأرسلوهم مخفورين الى دمشق، ومنها أرسلوا إلى ديوان الحرب في عاليه للتحقيق والمحاكمة مع كثير من الذين بقوا قيد ذلك من المعتقلين، واعتقلوا من جديد، وقد كان وقع الخبر عليّ وعلى الامير إسماعيل شديداً.

---

(1) قرأت شيئاً عن ذلك في مذكرات الدكتور أحمد قدري حيث كانت جمعية الفتاة التي كان الدكتور عضواً في هيأتها المركزية طلبت من عضوين في الجمعية هما رضا الركابي وطاهر الجزائري أن يطلبا من فائز السفر لمضارب الشعلان والإتيان بالأمير نواف الشعلان لادخاله في الجمعية وكان هو عضواً في الفتاة فسافر الى مضارب الرولة وعرف بذلك بعض الجواسيس فوشوا به وقد اعتقلته السلطات ونفته الى ديار بكر واستطاع أن يفر من منفاه الى الحجاز.

رحلة العلماء والوجهاء من بلاد الشام الى الآستانة لتأييد أعمال جمال باشا برئاسة الشيخ أسعد الشقيري :

وفي أثناء إقامتي في النبك قرأت خبر ذهاب وفد من علماء ووجهاء بلاد الشام لزيارة جبهة (جناق قلعة) أو (الدردنيل)، التي كان الحلفاء يركزون عليها لاقتحامها واقتحام بحر مرمرة الى الآستانة بحراً، والتي صمدت امامهم وأثار صمودها الحماس وتقديم الهدايا للضباط والجنود والتعبير لهم عن عواطف أهل بلاد الشام نحوهم. وقد ظهر من سياق اخبار هذا الوفد ان القصد الصحيح لذلك هو مدح جمال وسيرته وتبرير ما فعله برجال الحركة العربية من مطاردات واعتقالات وأحكام وإعدام، حيث ذاع أن الآستانة لم تكن راضية عن الغلو في ذلك[1]. وكان الوفد برئاسة الشيخ اسعد الشقيري، وفيه عدد كبير من علماء ووجهاء مختلف انحاء بلاد الشام، وسار في صحبته اربعة صحافيين هم حسين الحبال صاحب جريدة أبابيل، ومحمد الباقر صاحب جريدة البلاغ في بيروت، وعبد الباسط الأنسى صاحب جريدة الاقبال، ومحمد كرد علي صاحب جريدة المقتبس في دمشق، وسافر الوفد في 15 ايلول 1915، وكان الصحافيون يرسلون اخبار الوفد فتنشرها صحفهم ويقرأها الناس. وقد اصدر الصحافيون بعد ذلك كتاباً اسموه البعثة العلمية الى دار الخلافة، وطبعوه في اواخر سنة 1916 في بيروت.

وفي الوفد من دمشق المفتي أبو الخير عابدين، وعبد المحسن الأسطواني، وعطا العجلاني. ومن حماه احمد الكيلاني، والمفتي توفيق الاتاسي. ومن حوران محمد الزعبي، ومحمد الحلبي. ومن بيروت المفتي مصطفى نجا. ومن طرابلس الشام عبد الكريم عويضة. ومن اللاذقية محاسن الأزهري. ومن عكا إبراهيم العكي، وعبد الرحمن عزيز. ومن حيفا المفتي محمد مراد، وعبد الرحمن الحاج. ومن نابلس رفعت تفاحة نقيب الأشراف. ومن حلب بدر الدين النعساني وعبد اللطيف الخزندار. ومن عنتاب المفتي عارف. ومن القدس المفتي طاهر ابو السعود، والشيخ علي الريماوي. ومن يافا الشيخ سليم اليعقوبي. ومن جبل لبنان عبد الغفار تقي الدين، وكان في حاشية جمال الشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ تاج الدين الحسني من دمشق، والشيخ حبيب العبيدي مفتي الموصل. فانضموا الى الوفد بالإضافة الى الشيخ أسعد الذي كان عنوانه (مفتي الجيش الرابع)، وقد يكون بعض اعضاء الوفد أحرجوا إحراجاً حيث لم يكن في إمكانهم التنصل حينما دعوا، ولكن منهم من كان ضالعاً في الزلفى لجمال وتأييده.

وقد زار الوفد الدردنيل وقدم الهدايا وبلغ عواطف وتحيات وشكر بلاد الشام، واحتفي به في الآستانة كثيراً. وقد استقبله السلطان وولي

---

(1) أخبرني أمين التميمي بعد نهاية الحرب وكان منشأ للملكية وعهد إليه بالبحث في المسألة الأرمنية أنه بينما كان يبحث في بعض الملفات أعطاه أحد الموظفين ملفاً عن القضية العربية وأنه رأى في الملف برقيتين متبادلتين بين طلعة رئيس الوزراء وبين جمال وترجمة نص برقية طلعة هي (إن خليل بك وزير العدلية ناقم ويقول إن جمالاً قد نفذ حكم الإعدام برجال العرب بدون استصدار الإرادة السنية (السلطانية) التي يجب أن تصدر بذلك قبل التنفيذ وترجمة نص برقية جمال هي (انك تعرف كم هو خليل بك متحذلق ومسألة استصدار الإرادة يمكن تدبيرها في أربع وعشرين ساعة) وهذا ما يمكن أن يكون قرينة على ما ذاع عن الاستياء وعدم الرضاء.

العهد ورئيس الوزراء، وأولموا لهم الولائم. وأقام الوفد بدوره وليمة لرئيس الوزراء ورجال الدولة، وكان بعض الاعضاء يلقون الخطب والقصائد تدور على إعلان شدة تمسك العرب وأهل بلاد الشام بالدولة وعرش السلطان والخلافة والأخوة التركية العربية، والغمز برجال الحركة العربية وتهوين شأنهم وشأن حركتهم وشتمهم ومدح جمال في سيرته وحزمه واصلاحاته وأياديه البيضاء على البلاد والعباد، وكل هذا الامر كان بيت القصيد. ومما جاء في خطب الشقيري (أن الوفد جاء لرفع الاخلاص لاعتاب السلطان وذكر ما فعله قائد الجيش الرابع من الاصلاحات التي سيزين بها التاريخ الإسلامي)،وفيها وصف لجمال بالمصلح، ووصف لدخول الدولة الحرب بالنعمة لأن ذلك قوى تضامن العرب والترك.

ومما جاء في خطبه:

«لما جزم المرجفون بأن سوء الظن قد خامر قلوب العنصريين ولم يبق مكان لقلع جذوره قضت الحكمة الالهية والقدرة الربانية باعلان النفير العام، ووافى البلاد السورية اخوكم الوزير الكبير المصلح، ووقف على امراضها وعالجها معالجة حكيمة، وأوصل الحقوق لأربابها، وشيد المدارس وفتح الطرق وعمل بروح الشريعة الاسلامية، فأمن روع الخائفين وأحسن الى الفقراء وسمع شكوى الضعفاء فخابت ظنون المنافقين المرجفين وثبت لديه صدق الصادقين، وقد يكون وصل إليكم أيها الوزراء ما تتداوله الألسن من ثرثرة الثرثارين بطلب الاصلاح مهولة موهمة، فإن كانت أباطيلهم اوجفت في نفوسكم شيئاً من ذلك فهؤلاء علماء البلاد وأعاظمها وأركانها والمعتمد عليهم يحيطون بكم، وهم الذين ارتبطت بهم قلوب مختلف الطبقات من اشراف واعيان وتجار وزراع وعامة، وكلهم يشهدون بشدة تعلقهم بالدولة وشكرهم على ايادي جمال باشا واصلاحاته وثقتهم به وصار على الوزارة وحزبها أن تقدره وتظهر للملأ ثقتها به واعتمادها عليه قطعاً لثرثرة المفسدين ومنعاً لأراجيف المرجفين».

وفي هذا الكلام الأخير قرائن على استياء الآستانة من جمال وسيرته.

ومما قاله خطباء آخرون بعد الثناء على جمال وحسن إدارته وسيرته وأعماله وحزمه، انه لو تولى شؤون الادارة مثله لما وجد المموهون مجالاً للتفريق بين أبناء الوطن الواحد والصيد في الماء العكر، وأن سورية قد ربحت بفضله أعظم الأرباح.

ومما قاله محمد كرد علي في خطبة له، إن بلاد الشام مرتبطة كل الارتباط بالدولة ومثنية كل الثناء على جمال وسيرته واثقة كل الثقة به، ولا يشذ عن ذلك الا نفر الخائنين، وأشاد بقوة اتحاد العرب مع الترك والدولة، وبجمال الذي أحبط الفساد ومحقه.

ومما جاء في قصيدة للشيخ علي الريماوي:

سعيتم فقربتم بني العرب منكم ... وقلتم هم الإخوان في الضر والسرا
فكانوا لكم ازرا على كل خارج ... عدو وما كانوا وحقكم وزرا
يعدون هذا الملك منهم وفيهم ... وما ينقمون الترك سرا ولا جهرا
يموتون إن متم ويحيون معكم ... وهم أعوانكم في السر والضرا

وقال الحبال في قصيدة:

لجمال الدين والدنيا معا
همة يعفو لها الأعداء سجّد
أشبه الشمس ضياء فبدا
من سناء بالمعالي الف فرقد
هذه آثاره ناطقة عن
علاه وله التاريخ يشهد
ليدم بالسعد والعز مؤيد
وليدم بالنصر والفتح مؤيد

وقد امتدت الرحلة شهرين، وعاد الوفد فعقد أعضاؤه في المدن اجتماعات عامة دعي اليها الجموع، وسمعوا منهم تفصيلات عن الرحلة وما لقاه الوفد من حفاوة وإكرام ومحبة للعرب ورغبة في الإصلاح والتزام بالشريعة الإسلامية.

ولقد انتفخت أوداج جمال بالرحلة ونتائجها، وجعلته مستمراً على ركوب رأسه في مطاردة واعتقال رجال الحركة العربية، ثم كانت بعد أشهر قليلة بطشته الكبرى بشنق القافلة الثانية من شهداء العرب في 6 مايس 1916 الذين قسمهم قسمين فريقاً في بيروت وفريقاً في دمشق، ويتحمل الشقيري وأضرابه كثيراً من مسؤولية المأساة مما سوف نذكره ونعلق عليه بعد.

لقائي بأخي في دمشق وتعيينه مأموراً للبرق في يافا:

وأعود الى سياق أحداثي الشخصية فأقول إني تلقيت في النبك بعد مجيء المدير الجديد أمراً بالعودة الى بيروت، فتركتها الى دمشق في طريقي الى بيروت، ففوجئت بأخي محمد علي في دكان ابن عمنا راغب، وأخبرني أن مدرسته (دار المعلمين) نقلت من بيروت الى دمشق بسبب الحرب، وخشية من القصف البحري، وأنه وردت أوامر بتجنيد طلاب الصف الأخير، وكان هو منهم ليكونوا ضباط احتياط، فطلبت منه أن يختبىء في دار عمه، وكنت أثناء قدومه في بعض العطل قد أتحت له فرصة لتعلم الضرب على آلة البرق إرسالاً واستقبالاً، وكنت أعرف أن إدارة البرق في حاجة الى من يعرف ذلك لسد الفراغ في مراكزها بسبب كثرة الأشغال في مناسبة الحرب، فكتبت برقية للباشمدير قلت فيها ان أخي يحسن الضرب على البرق، والتمست منه تعيينه. وكان الباشمدير واسمه توفيق بك يودني فلم تمض إلا عشر ساعات حتى جاء لي جواب بأنه تم تعيين أخي موظفاً في مركز برق يافا، وأن مدير هذا المركز أعلم بذلك، فأعطيت البرقية لأخي وطلبت منه السفر حالاً ورأساً الى يافا بدون العروج على نابلس ليتسلم عمله. وتم ذلك وغدا محصناً من التجنيد، واندمج في عمله وسار فيه. وسعيت بعد مدة لنقله الى نابلس ليكون عند والديه وشقيقاته وزوجتي، وكان مرض عيون أبي قد تفاقم وجعله يترك محله في خان التجار وينقل بضائعه الى دكان في السوق الشرقي كان لابن عمه قاسم يخيط فيها ثياباً للفلاحين. وصار هذا يساعده في بيع البضاعة وتسويقها لتأمين المعيشة.

ثم سافرت الى بيروت وهناك بلغني الباشمدير انه تم تعييني (مأمور تفتيش) على مراكز البرق والبريد المدنية التي انشئت في منطقة سيناء، حيث استمرت هذه المنطقة كما ذكرت قبل تحت سيطرة الجيوش العثمانية جياشة بالحركات العسكرية التي كانت الدولة تتظاهر فيها بالعزم على محاولة اقتحام القناة ثانية وتهيئة الأسباب لذلك. ولقد كان في مراكز الجيش دوائر برق ولكنها خاصة بشؤونه الداخلية. وكانت الحاجة ماسة لإقامة مراكز برق وبريد مدنية تتعاطى أعمال البرق والبريد بين من

هم في منطقة سيناء وخارجها من غير نطاق الجيش، وكانت جميع ولايات سورية وبيروت ومتصرفية القدس تابعة لباشمديرية بيروت تعهد اليها بتأسيس هذه المراكز والإشراف عليها، وعهدت الباشمديرية لي بتفتيش هذه المراكز، وصار مرتبي (1000) قرش أي بزيادة (250) عن مرتب الوظيفة السابقة مع نفقات وسائل النقل، وقد قضيت في هذه الوظيفة نحو عشرة أشهر من أوائل سنة 1916 الى آخر خريفها، وقد أقمت بضعة أيام في بيروت جددت عهدي برفاقي في البريد، وأخذت وثائق لأقدمها لمركز الجيش العام في دمشق ليزودني بالوثائق اللازمة لتسهيل مهمتي، لأن جميع منطقة سيناء كانت عسكرية تحت إشراف هذا الجيش، وعدت الى دمشق وذهبت لمركز الجيش الذي هو مركز جمال، وكان في عمارة فندق فكتوريا[1] وكان فندقاً فخماً، وظل كذلك الى أمد غير قصير بعد الدولة العثمانية. وراجعت رئاسة الأركان العامة، وقدمت وثائقي واستلمت الوثائق المطلوبة، وكان المكان يثير الرهبة بما كان فيه من صرامة وشدة احتياط، ورأيت جمالا لأول مرة وهو خارج من غرفته حوله أتباع صارمون، وهو قصير القامة لا يتجاوز الأربعين من العمر، وقد أرخى ذقناً وكان لابساً (القلبق)، عبوس الوجه صارم التقاطيع.

رؤيتي للأمير فيصل لأول مرة:

ورأيت في هذا المركز لأول مرة الأمير فيصل (الملك فيما بعد) ابن الشريف حسين (الملك فيما بعد)، وكان معتمراً كوفية بيضاء فيها عقال مذهب ومكتسياً بعباءة سوداء ذات قبة مذهبة، وهو طويل نحيل حسن التقاطيع طويل الوجه نوعاً ما، ولم يكن عمره يتجاوز الثلاثين، وقد كان جمال وحكومة الآستانة مهتمين بإشراك الشريف حسين في الحملة الثانية على القناة بمتطوعين حجازيين، وكان الشريف حسين وعد بذلك وأرسل ابنه فيصلاً للاتفاق على تفاصيل الأمر، وكان ينزل هو وحاشيته في القابون ضيفاً في دار لآل البكري فيها، وعلمت فيما بعد أن رجال الحركة العربية اتصلوا به بواسطة فوزي ونسيب البكري وربطوه بهم في نطاق جمعية الفتاة التي كانوا ربطوا بها فوزيا ونسيبا قبل مما سوف ازيده شرحا بعد.

ذكريات متنوعة ورحلتي وتنقلاتي في سيناء:

وسافرت من دمشق بالسكة الى محطة المسعودية ومنها الى نابلس، فقضيت أياماً قليلة ثم سافرت الى يافا فغزة حيث أقمت أياماً قليلة فيها أيضاً، واستأجرت في غزة جملين لبدوي من سيناء أحدهما عليه مقعد ركوب لي وواحد حملته سريراً نقالاً يطوى ويفرد من قماش وحديد مع فرشة ولحاف وصندوقين في أحدهما كتب وفي ثانيهما علب منها زيتون وجبن ومربيات وسردين ولحم وزيت وزعتر وملح وفلفل وكعك الخ.. وكان صاحب الجملين رفيق سفري، وكان يقود الجمل المحمّل أحياناً وأحياناً يركبه، وهذه أول مرة أركب فيها جملاً.

وقد لبست العقال والكوفية بدل الطربوش، وتدثرت بعباءة جوخ كانت لأبي أخذتها من نابلس، وظل هذا زيي طيلة هذه الوظيفة ترحالاً على الجمال، وإقامة في المراكز، وكان الجمل يقطع خمسة كيلومترات في الساعة، وكنت في كل خمس أو ست ساعات أنزل للاستراحة فآكل، وأحياناً أنصب السرير وأنام، ونشعل ناراً لتسخين اللحم المعلب. وكنا متزودين بقربة

(1) كان فندق فكتوريا يقع على ضفة بردى قرب الجسر المسمّى بجسر فكتوريا.

ماء، وكنا ننزل عند ماء أو شجر وأحياناً في الفلاة، وبعد المغرب لا نسير ونقضي الليل الى ما بعد الفجر على الأرض، وقد تحركت من غزة الى خان يونس في تشرين الأول على ما أظن، فمكثت فيها يوماً، ثم نحو العريش وهي قرية نقطة الحدود بين الحكم الشامي والحكم المصري، وقد صار ما بعدها وجميع سيناء تحت السيطرة العثمانية لأن الانكليز ومصر بالتبعية أخلوها للتكتيك الحربي على الأغلب كما ذكرت قبل، ووصلنا للعريش بعد المغرب، وكانت تبعد عن خان يونس نحو (85) كيلومترا على ما بقي في ذهني، وهي مثل خان يونس وغزة بعيدة عن البحر بعض الشيء، وحولها كثبان رمل وفي شواطئها وبعض أراضيها كروم من النخل وبيوتها من اللبن وذات أبواب واسعة، ولها أسوار تحيط بها، وفي ساحات وأكثر ركائبها الجمال، وأهلها مشهورون بنقل البضائع وغيرها على جمالهم في سيناء وفي فلسطين، وأزياؤهم ولهجتهم مصرية بدوية، وقد مكثت فيها بضعة أيام أمارس عملي التفتيشي.

حادث تيهاني في العريش:

ومما جرى معي أني كنت أخرج خارج المدينة للتنزه ومعي كتاب، ومرة سرت مسافة طويلة ابتعدت فيها نوعاً ما عن المدينة، وإذ أنا بين كثبان رملية ولم أعد أهتدي إلى الطريق التي أتيت منها، وحرت في أمري وكان الوقت غروب الشمس، وأخذت العتمة تنتشر وفكرت وركزت أعصابي في مكان كعلامة، ثم صرت أسير منها مسافة نحو ناحية لعلي أبصر ضوءاً، ثم أعود حينما لا أبصر ضوءاً لأسير في ناحية أخرى الى أن أبصرت في ناحية ضوءاً من بعيد، فاتجهت اليه وأنا أتعثر بالرمال حتى وصلت الى خربوش شعر (بيت شعر صغير) فيه أسرة بدوية عريشية ومعها بعض الماشية، وخرج رجلها فقصصت عليه أمري وذكرت له أني موظف حكومة، فدعاني الى الاستراحة قليلاً وأسقاني حليباً وقهوة ثم خرج معي وسار في درب يعرفها حتى وصلنا الى المدينة والأمن فشكرته وأردت أن أمنحه مكافأة فلم يقبل.

ومن العريش ركبنا الجمل ومعنا الجمل الثاني وصاحبهما، وسرنا نحو قلعة النخل بطريق جبل الأبْن. والطريق حماد ورمل، ومعنى الحماد انها صلبة وفيها بعض الحصى الرفيع، وجبل الأبنْ ضخم وفي ناحيته مركز عسكري ومركز برق عسكري لا شأن لي فيه، فتوقفنا واسترحنا ثم تابعنا السير حتى وصلنا قلعة النخل، وكان فيها مركز برق وبريد مدني تابع لتفتيشي. وقلعة النخل قرية كبيرة فيها بئر ماء وحوض كبير وقلعة قديمة وبعض قطع من الجيش ومركز تموين، ولم أر فيها نخله ما، فكان اسمها على غير مسمى، ولا أدري هل كان فيها نخل قديما. وقد قضيت في القرية بضعة أيام امارس تفتيشي، ثم سرنا نحو مركز في وسط سيناء يسمى الحسنة، وهو سهل منبسط حمادي ايضا، وفيه مركز تموين مهم، وكانت قوافل تموين الجيش تسير منه واليه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وفيه مركز برق وبريد مدني ايضا. وكانت المسافة بين قلعة النخل وبين الحسنة طويلة، وقد بتنا ليلة في العراء حيث نصبنا السرير واشعنا نارا وتعشينا ونمنا، وفي الصباح استأنفنا السير. وقد قضيت في هذا المركز بضعة أيام امارس تفتيشي، ثم سرنا نحو القصيمة شمالا لغرب، وكانت المسافة طويلة أيضاً والأرض حمادية، وفعلنا ما

فعلناه في طريقنا من قلعة النخيل الى الحسنة، حيث نصبنا سريرنا في الفلاة وأوقدنا نارا وتعشينا ونمنا حتى الفجر، ونحن شاعرون بالأمن التام. وفي القصيمة ماء وبنايات مصرية قليلة، وقد أنشأ الجيش العثماني فيها بعض منشآت أخرى، وكان فيها مركز تموين وكانت قوافل التموين (الجمال) تغدو وتروح منها واليها، وفيها بعض قطع من الجيش للنقليات، وفيها مركز بريد وبرق مدني فقضيت فيها اياما مارست فيها عملي التفتيشي.

خبر شنق القافلة الثانية من الشهداء 6 أيار 1916:

وفي أثناء ذلك سمعت خبر شنق الدفعة الثانية من رجالات العرب بحكم الديوان الحربي العرفي في عاليه الذي تم في بيروت ودمشق معا في 6 مارس 1916، فصعقني الخبر، ولم تكن صعقة خبر شنق الدفعة الاولى في آب 1915 التي ذكرت خبرها سابقا اخف علي، وما عتمت أن سمعت بعد قليل أن الشريف حسين أعلن الثورة على الدولة العثمانية، وكان شنق هذه الدفعة من الاسباب التي ذكرها في منشوره على ما سوف يأتي شرحه بعد، فعدل هذا الخبر شيئا من أثر الخبر الأول الصاعق.

اسماء المحكومين وجاهيا وغيابياً:

ولقد حكم بالإعدام على كل من: شفيق العظم، وعبد الحميد الزهراوي، والأمير عمر الجزائري، وعمر حمد، وعبد الغني العريسي، وعارف الشهابي، ورفيق رزق. سلوم، وشكري العسلي، وتوفيق البساط، وسيف الدين الخطيب، والشيخ احمد طبارة ، وعبد الوهاب الانكليزي، وسعيد عقل، وبيترو باولي، وجرجي حداد، وسليم الجزائري، وعلي بن الحج عمر، ورشدي الشمعة، وأمين لطفي الحافظ، وجلال البخاري، ومحمد الشنطي.

وعلى سالم المظلوم بالسجن خمس سنين، وتوفيق الناطور ويوسف مخيبر حيدر عشر سنين، وحسين حيدر خمس عشرة سنة، ورياض الصلح بالنفي المؤبد، وطاهر الجزائري بعشر سنين، وبالنفي على رضا الصلح وأسعد حيدر، ومنع محاكمة أو براءة كامل هاشم، وإبراهيم القاسم، ونمر الداري، وسامي العظم، ورشدي الشوا، وعاصم بسيسو، وعزة الأعظمي، ومصطفى الكيلاني، وعبد الرحيم حنون، والدكتور حسام الدين أبو السعود، والشيخ سعيد الباني، وسليم الشمعة، وسليم البخاري، وفائز الخوري، ورشيد الحشيمي، وعمر الأتاسي ، والبنباشي علي رضا، والدكتور أمين قزما، ونجيب شقير، والشيخ فتح الله علي ديب، وسعيد عدرة، والدكتور عبد الحفيظ، وجميل الالشي، وفريد اليافي، وعثمان العظم.

كتاب ايضاحات الذي اصدره جمال لتبرير جريمته وتعليق عليه:

وقد قسم المحكومون بالإعدام فريقين، فريقاً نفذ فيهم الإعدام شنقا في دمشق وهم: عبد الحميد الزهراوي وشفيق المؤيد العظم والامير عمر الجزائري وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي ورشدي الشمعة ورفيق رزق سلوم. والباقون فقد نفذ حكم إعدامهم شنقا في بيروت.

ثم قرأنا بلاغ جمال باشا السفاح عن هذه الأحكام، وقد ذكر البيان ان تهمتهم التي حكموا بها هي سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية

السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة، وذكر البيان الذين صدر في حقهم أحكام سجن ظهر للمحكمة انهم مساعدون فرعيون لذلك القصد، ولم توجد وثائق تثبت اشتراك أسعد حيدر ورضا الصلح فعلا، ولكن كان لهم مساع محسوسة فتقرر نفيهم.

وفي البيان وعد بإصدار إيضاحات في صدد احكام الديوان العرفي جميعها، وقد صدر فعلا بعد مدة قصيرة رسالة بعنوان إيضاحات باللغة التركية، وترجم الى العربية ونشر فورا بدوره، ولقد قرأته بعد مدة ما أكثر من مرة، وفي سياق كتابي الجزء الأول حول الحركة العربية الحديثة، وفي سياق كتابي نشأة الحركة العربية، وقرأته ايضا بعد قليل من تنفيذ الاحكام والكلام فيه شامل للمحكومين وجاهيا وغيابيا، وللمبرئين في الدورتين أي في آب 1915 ومارس 1916، وفي الرسالة شذرات من نصوص الأوراق المصادرة من القنصلية الافرنسية التي ذكرت خبرها سابقا، ونصوص أو شذرات من نصوص رسائل متبادلة بين بعض رجال الحركة العربية وحزب اللامركزية، أو مرسلة منهم الى بعض الرجال العرب، وافادات وشذرات أفادات لبعض الذين حقق الديوان العرفي معهم.

ولقد حاول جمال تبرير ما فعله برجال الحركة العربية من اعتقالات وإعدامات وأحكام وجاهية وغيابية في المرة الاولى والثانية، وليس في ما جاء في الكتاب شيء يمكن أن يعد عمالة ومؤامرة أجنبية ضد الدولة بالنسبة لمعظم الذين حكم عليهم بالإعدام أو السجن وجاهيا وغيابيا، وليس فيه ما يدين معظمهم من وجهة النظر الرسمية، وكل جريمة معظمهم على ما هو صريح في الكتاب انهم انتسبوا الى حزب اللامركزية والحركة الإصلاحية أو الجمعيات العربية الأخرى، وتجاوبوا مع مؤتمر باريس وحضروه وخطبوا فيه وايدوه، وكان مطلب حزب اللامركزية والحركة الإصلاحية والمؤتمر والجمعيات العربية هي تثبيت حقوق العرب في الدولة مع الإصرار على بقاء العرب شركاء فيها وموالين لها في كل ذلك قبل نشوب الحرب، ولقد كانت الحكومة الاتحادية أعلنت عفوا عاما بعد اتفاقها مع زعماء مؤتمر باريس، فكان اتكاء جمال على ذلك في ضربته القاصمة عملا باغيا لا أخلاقيا ولا قانونيا. ومما جرأه على هذه الضربة وقوف عدد من زعماء العرب معه منكرين على رجال الحركة العربية مطالبهم ومؤيدين له في ما صنعه، وقد يكون في كتاب (إيضاحات) بعض نصوص تذكر مقابلات بين بعض رجال العرب ورجال فرنسة، ولكن هذه المقابلات كانت كما تفيد النصوص بسبيل ضمان مستقبل استقلال بلاد الشام، ولم يكن متضمنا أي تآمر أو طلب حماية يصح أن يوصف بالعمالة والخيانة للدولة. وفي الكتاب نص رسائل مرسلة من توقيع مستعار لاسم مستعار فيها اسئلة يمكن أن تفسر بأنها بسبيل إشعال ثورة، ولكن هذه الرسائل لا يصح ان تكون سببا لإعدام وسجن أناس لا علاقة ظاهرة لهم فيها ولا دليل عليهم فيها. وقد يكون هناك نصوص بالنسبة للمسيحيين يمكن أن توصف بأنها طلب للحماية الإفرنسية، وكان هذا أمرا غير سليم بدون ريب، ولكن النصوص لا تذكر بانهم (كانوا عملاء وليسوا هم محل ذلك لأنهم كانوا وجهاء وأغنياء ومع ذلك فهؤلاء عدد محدود جدا، في حين أن الذين اعتقلوا وحوكموا أو حكم عليهم بدون تهمة ثابتة ونص محق يزيدون على المائتين).

هول طغيان جمال بعد جريمته وشيء من آثار ذلك:

لقد استدمى الذئب الغادر جمال بعد جريمته الفظيعة الثانية، فنشر الرعب والطغيان في طول البلاد وعرضها، ووسوس له شيطانه أن ينفي كثيرا من رجال أسر الشخصيات التي حكم عليها بالإعدام ، ونفذه فيمن كان معتقلا منهم، فكانت حركة تهجير ظالمة من سورية وفلسطين ولبنان الى بلاد الأناضول، شملت مئات الأسر رجالا ونساء وأطفالا وعرضتها للعوز والمهانة نحو سنتين، ولقد كان من قسوة قلب الطاغية أنه أرسل الى حافظ باشا المحمد عبد الهادي زعيم جنين وعم سليم الأحمد الذي كان من مشنوقي الدفعة الأولى برقية يعلمه فيها أنه سيمر بجنين وينزل عليه ضيفا، وكان سليم بمثابة ابن حافظ بل أعز من ابنه، وهكذا أسقى الطاغية حافظا كأس الإذلال حتى الثمالة، لأنه لم يكن له بد من استقباله وإضافته وهو يذرف الدموع السخية، مع أفراد أسرته الذين يقومون بواجب الضيافة، على ابنهم العزيز، ولم يكفه هذا فضرب حصارا على لبنان الذي كان أكثر سكانه نصارى، وقتر عليهم التموين بل منعه عنهم، فأذاق النصارى والمسلمين معا طيلة سنتين بأس الجوع القاتل مما سوف نصفه في مناسبة ثانية، وكان الى هذا كله يفرض على أغنياء ووجهاء نصارى بيروت سهرات حمراء له، بينما تتلوث يداه بدماء أبنائهم وأزواجهم وإخوانهم بعد شنقهم أو قبل شنقهم المصمم عليه وهم في المعتقلات.

ونعود بعد هذا الى السياق فأقول، إني بعد أن قضيت أياما في القصيمة سرت نحو عوجة الحفير شمالا لغرب، وفي الطريق مركز تموين للجيش وليس فيه مركز برق وبريد مدني وفيه ماء وبعض الأشجار والنباتات البرية فاسترحنا فيه بعض الوقت، وعوجة الحفير كانت آخر حدود حكم الدولة العثمانية قبل الحرب في شبه جزيرة سيناء، وبعدها جنوبا كان تحت الحكم المصري، وفي العوجة بعض المساكن والحوانيت لأناس من أهل غزة وغيرها، وبعض منشآت عسكرية، وفيها آبار ماء وحولها مضارب للبدو، وكان فيها مركز تموين مهم، وكانت اذ ذاك تعج بالحركة. وشعرنا ونحن فيها بحركة غير عادية، ثم تبين أن أنور باشا وزير الحربية وقائد الجيش العام قادم إليها للتفتيش مع جمال وقدما فعلا ونحن في عوجة الحفير وتفقدا مختلف أنحاء المواقع العسكرية في سيناء، وكان الاستعداد ما يزال مستمرا باسم تكرار حملة على القناة، ورأيت أنور لاول مرة وأنا في نادي الضباط، حيث كان هو المكان الوحيد الذي يمكن تناول الطعام المطبوخ فيه، وقد سمح لي بذلك إبان إقامتي وأنور جميل وسيم حليق طويل معقوف الشارب خلافاً لجمال في ذلك كله وربما كان عمره 40 أو أكثر قليلاً.

لقائي بالدكتور أحمد قدري وانتسابي لجمعية العربية الفتاة أيار 1916:

وفي عوجة الحفير التقيت بالدكتور أحمد قدري الترجمان، وكان مجندا كطبيب عسكري، وكان رفيقي في المدرسة الاعدادية في نابلس حيث كان والده ضابطا كبيرا على ما ذكرت قبل، ولم اكن رأيته بعد سفره من نابلس الى الأستانة قبل انهاء دراسته في المدرسة، ولكن صورتينا كانتا منطبعتين في ذهن كل منا، فجددنا تعارفنا وانسجمنا وصرنا نجتمع في الأحوال والتوقعات، ثم أخبرني بأسلوب متدرج

بأمر جمعية العربية الفتاة وانضواء الشبان المخلصين القوميين اليها، وكون غايتها العمل على انهاض الأمة العربية وتوحيدها وايصالها الى مصاف الامم الراقية، وقال لي بنفس الأسلوب إن هيئة الجمعية راقبتني ودرست احوالي وقررت صلاحيتي للانضمام الى عضوية الجمعية وعهدت اليه بمصارحتي بذلك اذا ما التقى بي، لأنه قال لها إنه يعرفني من نابلس، وتحليفي اليمين بالتزام أهداف الجمعية، وبذل كل جهد في سبيلها وكتمان اسرارها وتنفيذ قراراتها وأوامرها. وكان هذا اسلوب الجمعية في ضم الاعضاء (على ما شرحته شرحا اوفى في كتابي نشأة الحركة العربية عند الكلام عن الجمعية)، وقد وافقت وحلفت اليمين ثم اخذنا نتحدث في جريمة جمال في شنق القافلة الثانية والأحكام الجديدة وازدياد جبروته وعدوانه.

خبر الثورة الهاشمية وقصة الدكتور في صددها:

وفي ما سمعناه عن إعلان الشريف حسين الثورة على الأتراك. وقد قال لي إن هذا كان متوقعاً، وكان له مقدمات يعرفها حينما كان في دمشق في سنة 1915 وأوائل سنة 1916، لأنه لم يأت الى سيناء الا منذ ثلاثة أشهر، وأنه كان عضواً في هيأة جمعية الفتاة المركزية، وأن الأمير فيصل بن الشريف حسين جاء الى دمشق في هاتين السنتين اكثر من مرة، وكان ينزل في بيت آل البكري في القابون، وجاء في المرة الأولى بطريقة الى الآستانة للشكوى من وهيب باشا والي وقائد الحجاز لما كان منه من مواقف ونيات سيئة نحو الشريف حسين. واتصلت به جمعية الفتاة وأدخلته في عضويتها. وجاء مرة ثانية بمهمة أخرى فاتصل بالجمعية ورجال الحركة العربية الآخرين وأخبرهم أن اتصالات تجري بين والده والانكليز في صدد القضية العربية، وأن الانكليز يتمنون أن يثور الشريف باسم العرب، ويحبون أن يعرفوا شروطهم، وأن والده طلب منه الاتصال بهم ومعرفة رأيهم في ذلك، وأن الهيئة ورجال الحركة العربية حبذوا ذلك وكتبوا شروطاً بأن تعترف بريطانيا وحلفاؤها بمملكة عربية مستقلة تشمل جميع البلاد العربية التي في حكم الدولة العثمانية أي جميع بلاد الشام والعراق والجزيرة، وعينت حدودها، وبأن تساعد العرب مادياً وسياسياً على انجاز ذلك، وأن فيصل أخذ الشروط وعاد بها الى والده، وان مكاتبات جرت بين والده وبين الانكليز، وأن الانكليز وافقوا على الشروط وتم الاتفاق بينه وبينهم على الثورة. وأن الشريف حسين طلب من الحكومة الاتحادية أن تأمر بوقف المحاكمات والمطاردات، وأن تسرح المعتقلين. وطلب من ابنه فيصل أن يلتمس باسمه من جمال نفسه، وأن جمالاً رفض وهدد فيصلاً نفسه لأنه لمس تعاطفه مع رجال الحركة الخائنين للدولة، وأن فيصلاً استطاع أن يفلت بأسلوب ما قبل شنق القافلة الثانية ويعود الى الحجاز، وأن الشريف حسين بعد أن أتم استعداده وتلقى بعض ما يحتاج اليه من الانكليز أعلن الثورة ضد الدولة، وأنه استطاع في مدة قصيرة أن يحرر الحجاز ويضطر حاميات مكة والطائف وجدة التركية للاستسلام، وأنه أعلن نفسه ملكاً للعرب، وأن ابنه الشريف علياً مع ابنه عبد الله قادا قوات زحفت نحو المدينة للاستيلاء عليها، وأنها الآن محصورة مطوقة، وأن ابنه الشريف فيصل عين قائداً للجبهة الشمالية الشامية واتجه على رأس قوة فيها كثير من ضباط العراق والشام الذين انضموا للثورة

نحو العقبة، واتخذوا معسكراً لهم في بعض مواقعها.

وقد انتعشت نفسي بهذه الأخبار وتحدثنا في أمر انضمامنا نحن ايضاً لجبهة الشريف فيصل، ودرسنا الأمر فوجدناه صعباً في ظروفنا الحاضرة. ولقد انضم الدكتور في أواخر أيام الثورة مع رفاق له لجبهة فيصل، حيث خرجوا من الشام الى جبل الدروز ومنه الى معسكر الجبهة الشمالية، ولبثوا مدة، ثم دخلوا مع فيصل تحت لواء الثورة لدمشق.

حادث إنقاذ أوراق اللامركزية والفتاة المدفونة:

ومما حدثني به الدكتور كيفية إنقاذ أوراق حزب اللامركزية وجمعية الفتاة التي كانت في حيازة محمود المحمصاني الذي كان من شهداء القافلة الأولى، وكان دفنها في أرض غرفة لوليّ قريبةً من منزله، حيث جاءت إليه أخت صالح حيدر وهو أيضاً من شهداء هذه القافلة بعد الشنق، وأخبرته أنها عرفت أن محموداً دفن الأوراق في تلك الغرفة وطلبت منه بذل الجهد لإخراجها وحرقها حتى لا تقع عليها أيدي زبانية جمال وتتسع الكارثة، وقد أرسل الأخت الى بيروت بإشارة خاصة، فقابلت شقيقات المحمصاني وتم المقصود.

إقامتي في بئر السبع مدة طويلة نوعاً وشيء عن ذلك:

وقد افترقنا أنا والدكتور في الحفير، حيث اتجهت أنا الى بئر السبع وعاد هو بعد قليل الى دمشق، ومنذئذ توثقت الصداقة الحميمة بيننا واستمرت قوية الى النهاية. ولقد كان منزله في دمشق أثناء الحرب وبعد الحفير ملتقى رجال الحركة والجمعية، وعاد عضواً في الهيئة بعد رجوعه من الحفير. ولما رجعت من بئر السبع إلى بيروت على ما سوف اشرحه بعد ما مررت بالشام ومررت به وتحدثنا في الأحوال والتوقعات ذكر لي اسم الدكتور بشير قصار كزميل لنا في الجمعية للاجتماع به، و لقد كانت السلطات تعتقله مرة بعد مرة للاشتباه به، ولكنه كان يستطيع بأسلوب ذكي أن ينجو بريشه ويخرج من الاعتقال بريئاً أو شبه بريء. ولقد اعتقل قبل ذهابه الى سيناء واعتقل بعد رجوعه. وفي أثناء اعتقاله هذا في آذار سنة 1916 رأى عدداً من المعتقلين منهم شكري القوتلي، وكان منتسباً للجمعية، وعرف أنه يتعرض لضغط شديد لأجل أخذ اعترافات منه، وخشي أن يضعف تجاه هذا الضغط، واستطاع أن يتصل به ويشدد من عزمه وأن يوصيه بأن ينتحر اذا وجد نفسه في موقف لا يطاق، حتى لا يعترف بشيء ضار للجمعية وأعضائها، وأن يوصل اليه نصلة حلاقة لاستعمالها في الانتحار، ولقد استمر الضغط على شكري فبادر عملاً بوصية الدكتور فقطع شريان يده بالنصلة، وأخذت الدماء تسيل منها وتخرج من باب الزنزانة فتنبه الحراس لذلك وفتحوا الباب ووجدوا شكرياً في حالة إغماء فسارعوا وأخبروا الضابط وأتى هذا بالدكتور أحمد قدري المعتقل في نفس المعتقل، فأسعفه وتمكن من إنقاذ حياته. وسئل شكري عن ما فعل فقال إني لا أعرف شيئاً وخشيت أن اضطر الى اعترافات كاذبة فأضر أبرياء ففضلت الموت على ذلك، وفي النتيجة أطلق سراحه.

نوائقي واستمرار صداقتي للدكتور قدري:

وفي أواخر الحرب خرج الدكتور مع رفاق له منهم رفيق التميمي لجبل الدروز، وانضموا الى جبهة فيصل كما قلنا، وبعد دخول فيصل للشام

أرسل هذا شكري الأيوبي حاكماً عاماً على لبنان، فجاء الدكتور معه وكنت آنئذ في بيروت، فذهبت للقائه وطلب مني أن أذهب الى دمشق حيث يجب أن يجتمع فيها أعضاء الجمعية، ولكن ما جرى في بيروت من إنزال الأعلام العربية وإعادة شكري الأيوبي واحتلال لبنان من قبل القوات الفرنسية بأمر وموافقة الانكليز اثارني وأحزنني، ففضلت العودة الى نابلس وعدم الذهاب الى دمشق، ولقد ذهبت في حزيران 1919 الى دمشق ممثلاً لنابلس في المؤتمر السوري العام وأقمت فيها الى تموز 1920،

وكنت التقي دائماً بالدكتور الذي كان نشاطه عظيماً في العهد الفيصلي، وتزاملت معه في الهيئة المركزية للفتاة، وكان تعاوننا تعاوناً وثيقاً في نطاق الجمعية التي كانت بمثابة حزب العهد الفيصلي وعماده وموجهه، ثم افترقنا بعد سقوط هذا العهد، فذهبت أنا الى نابلس وذهب هو مع فيصل الى العراق حينما صار ملكاً للعراق، ثم ذهب الى مصر حيث فتح عيادة في الاسكندرية وأقام مدة تعين في أثنائها قنصلاً للعراق فيها،

ثم عاد إلى دمشق في عهد الحكم الاستقلالي فعاد تواثقنا حيث كنت أنا أيضاً في هذا العهد قد اتخذت دمشق دار اقامة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها على ما سوف أشرحه بعد، واشتغل هو مديراً عاماً لوزارة الصحة، ثم فتح عيادة ولم يكن مجال لعمل سياسي مشترك بيننا، ولكن صداقتنا بقيت حميمة نتزاور ونتحدث في الأحداث والوقائع السابقة والراهنة، وقد قرت نفسه وعينه بتحقق هدف عظيم وهو قيام الوحدة بين مصر وسورية سنة 1958، وكان سروره عظيماً بذلك، وصار يكتب المذكرات والنصائح التي يراها مفيدة لترسيخ مظاهر هذه الوحدة، ولعله كان من أشد أعضاء الجمعية ولاء واخلاصاً لها، وكان صريحاً في أقواله شديد الحماس والانفعال والحركة مع شيء من الصفاء ونقاء سريرة ومع خفة روح ونفس كريمة وخلق رضي، وتوفي سنة 1960 في دمشق رحمة الله عليه.

وقد كتب في أواخر حياته مذكرات ذكر فيها كثيراً من نشاطه ومن أسرار الحركة العربية ومن جملة ذلك مفاتحتي وضمي للجمعية في الحفير، وسيأتي كلام آخر عنه في مناسبات آتية.

خواطر وتعليقات أخرى على الثورة الهاشمية:

ونستطرد الى ثورة الحسين وحوافزها وآثارها فنقول إننا اطلعنا في عهد مبكر من حياتنا على ما نشر من نصوص مكاتبات الشريف حسين مع الانكليز بواسطة مندوبهم في مصر، وهي منشورة في أكثر من مصدر، وقد أوردت نصوصاً مهمة منها وعلقت عليها في الجزء الأول من كتابي حول الحركة العربية الحديثة، وأولها من الشريف بتاريخ 14 تموز 1915 أي بعد بدء جمال بمطاردة رجالات العرب واعتقالهم وسوقهم الى الديوان العرفي، واستمراره في مطاردة وسوق من لم يعتقل ويشنق منهم. وفي هذا الكتاب مذكرة بالمطالب العربية منفصلة عنه، وأسلوبها غير أسلوب الكتاب، وهي المذكرة التي قال لنا الدكتور أحمد قدري أنها تحتوي على شروط ومطالب رجال الحركة العربية والتي أعطوها لفيصل بناء على طلبه المستند الى طلب أبيه، وهدفها واضح وقوي في صدد مملكة عربية كبرى مستقلة استقلالاً تاماً ومتحالفة مع بريطانيا على قدم المساواة، وتنتظم جميع جزيرة العرب والبلاد الشامية

الصرخة الاولى

الى اولياء الامور في العاصمة

انا عصبة العرب نمد ايدينا اليكم نصافحكم مصافحة الكريم للكريم

انا بما جبلنا عليه من العزة والاباء نعتز بما قد جدونا ... ونغضي عما اصاب الملك على ايديكم فانما الحديد يفله الحديد

(٢)

الصرخة الثانية

الى ابناء العرب عامة

نادينا في صرختنا الاولى عقلاء العاصمة يتدبرون، وها نحن نلتفت اليكم فنعيذكم بالله ان تكونوا عبدة مستعبدين ... فتزهدوه

... ان الكريم اذا هين ... فاولئكم تسرون ... وابناؤكم ... زهدا

... ذلك فيما بينكم ... كتب عليكم ... لم يبق فيكم حي لحياة انفسكم بانفسكم ... بايديكم

... فاما انكم اعدى ... اما سكنة تعلن من شرفكم ونقدم من عزتكم ... في الطرق ...

... في مصاف الامم الحية ... ان الحياة الجيدة تتطلب ...

... فانتم لا ... ولا ...

(٣)

الصرخة الثالثة

الى ابناء الامة

... (حضرة) الامل اليقين

... ابان (رياض) الضعيف و (حضرة) الحكام الشريدو

... ايها الامة ... فعاشت رمم. واشتمات همم. حتى لمس الحكام ...

دفنا الصرخة الاولى وقفينا بالثانية ... فسكنت اليهم نفوس. وتطالت اليهم رؤوس.

... فاعلنوا من رهبة السلاح ... رغبة الاصلاح ... الاعيب الرئاسة. واكاذيب السياسة. يذرون بها

وما لبثوا أن جاؤا الاصلاح بفرية ... من قبيل ذر الملح. على الجرح. أو غفلة وانهلاع. ولكن

الرمد على العيون. وما علموا أن ذلك ... ضلال وانخداع.

صبرنا على هذا الجرح الاليم. وما كان صبرنا عن ... فوسدوا اليهم المناصب ارادة

العربي حقود كاظم. يثأر لآلامه ولو بعد حين ... قد ظهروا. لافي أفراده وزعمائه. ومن

حسب الحكام ان النهضة العربية قائمة ببعض الذين ... وجماعه. ...

اطفاء الحركة. والحقيقة هي ان النهضة منبعثة في لباب الشعب ... لولاها ما قام لهؤلاء الذين اعتلوا قائم وما

خاض غمرة الامة العربية أيقن ما هنالك من القوة الكافية التي ... لا مخيرين ... الا انها لبث داعي

تحرك لهم ساكن. فالذين قادوا الحركة قادوها مسيرين ... كما خدع هؤلاء. ... اعناقها

كذب الحكام على الزعماء. ولكن الامة. تخدع بأولئك ... وتفارق السلاسل ...

السكينة لتمهد لدى الدول الاوربية ملتمساً للعذر. يوم تحق كلمة الثأر احقاقها. ...

أما وقد صرح الكذب. وثبت العذر لدى أوروبا بما قد تم حتى اليوم. فانا نعلن لامتنا المحبوبة

... من أمرها وفي ... من مصيرها. ... مستعبدة ذليلة مستبدة في القضاء.

... تكون مسخرة ... في الاقتصاد ... لا تستطيع وضع ...

والعراقية وجزءا من كليكية (أذنة ـ ومرسين) الذي كان فيه جمهرة عربية كبيرة، ويعد متمماً جغرافياً للبلاد العربية.

ولقد جاء للشريف جواب وأرسل الشريف جواباً، وجاء جواب وأرسل جواباً، وكان يدور أكثر ذلك على حدود بلاد الشام الغربية المصاقبة لحلب وحمص وحماة ودمشق الى لبنان. ونظرة فرنسا اليها وتحفظ بريطانيا بشأن إمارات جزيرة العرب، ووعد منها بقيام استقلال عربي في ما عدا ذلك بهذا النص: (أن إنكلترا مستعدة على أساس تلك التحفظات أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدات لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة الخ) رسالة 24 تشرين الثاني 1915، واعتبر الشريف هذا عهداً له من بريطانيا مع انكاره مطالب فرنسة في لبنان، وإصراره على أن لبنان عربي يجب أن يكون داخلاً في شمول المملكة العربية المستقلة، وقوله إنه يترك ذلك لما بعد الحرب، ثم أخذ يتهيأ لإعلان الثورة ويرتب ويترقب الأسباب والظروف المناسبة لذلك. وقد جاءت المناسبة فيما أقدم عليه جمال من شنق القافلة الثانية الكبرى من رجال العرب في 6 مارس 1916، فسارع إلى إعلان الثورة في 9 شعبان 1334 الموافق لتاريخ 16 حزيران 1916 بعد رفض جمال وحكومته التماساته، ومما يروى أنه أطلق الرصاصة الأولى في اتجاه قلعة أجياد التي فيها الحامية العثمانية بنفسه، فكان ذلك إيذاناً بإعلان الثورة.

منشور الشريف حسين:

ولقد أذاع منشوراً بأسباب ثورته وأهدافها موجهاً إلى المسلمين جميعهم، مؤرخاً بتاريخ 25 شعبان 1334 ـ 26 حزيران 1916، ذكر فيه أسباب حركته وأهدافها، وهي صريحة بأن ثورته ضد حكومة الاتحاديين، وقد ذكر بما كان من خدمات أمراء مكة للدولة وطاعتهم لسلاطينها الذين كانوا يتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله، ثم ذكر ما حل بالدولة من تحكم رجال جمعية الاتحاد والترقي فيها واستبدادهم ومروقهم من الدين وسلبهم حقوق السلطان ومنعه من التصرف الشرعي والقانوني وإجبارهم إياه وإجبار مجلس الأمة على تنفيذ ما يقررونه من أمور مغايرة للشرع وضارة بمصالح البلاد والعباد، وتبذيرهم أموال الدولة وزجهم إياها في الحرب الأوروبية الساحقة، وتعريضها بذلك للتهلكة، واغتنامهم فرصة الحرب للفتك بجميع المخالفين لرأيهم في سياستهم الخرقاء، والتنكيل بالعرب بخاصة، ومطاردة واعتقال واعدام رجالهم ونفي مئات من أسرهم الى الأناضول، وتشجيعهم الكتّاب على التطاول على شرائع الله ودينه وأركانه، ومصادرتهم لأموال الناس وفرضهم الحصار على الحجاز لتجويعه ومنع الحجاج عن فريضة الحج، مما لا يمكن أن يرضى به مسلم، وصار من الواجب الديني عليه أن يقاوم بغيهم ومروقهم وأخطارهم، وهو ما فعله وضمن به تحرير الحجاز من تسلطهم، وقد جعل مبدأه وغايته نصر الاسلام وإعلاء شأن المسلمين وتوطيد شريعة الله الخ....

أثر إعلان الثورة في حكومة الاتحاديين التركية:

ولقد كان لحركة الحسين وقع شديد في نفوس الاتحاديين وحلفائهم، لأن الحجاز قبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم. واستعدوا لقمع الحركة وأعلنوا عزل الحسين وتعيين شريف اسمه (الشريف حيدر) أميراً لمكة مكانه، وذهب

الشريف الى المدينة ثم عاد لأنه رأى الموقف لا يتحمل وجوده، واتخذ جبل لبنان مركزاً له لفترة ثم عاد الى الآستانة خائباً، وقد أعطيت الأوامر لفخري باشا قائد الحجاز الذي كان على رأس القوات العثمانية في المدينة ببذل الجهد في قمع الحركة، وأخذ جمال من ناحية أخرى يستعد لإرسال كتائب تعضيد لفخري، وأرسل وفداً مؤلفاً من الشيخ أسعد الشقيري وعبد الرحمن اليوسف ومحمد فوزي العظم الى المدينة للاتصال بأهلها وقبائلها وضمان بقائهم موالين للدولة وتحريكهم ضد الشريف حسين، ولكن كل هذا لم يجد لأن الشريف استطاع أولاً السيطرة على مكة والطائف وجدة وأسر حامياتها ووضع اليد على ما في حوزتها من سلاح ومعدات وإعلان استقلاله وملكيته، ثم استطاع ابنه علي أن يفرض حصاراً على المدينة ويشل أي تحرك عثماني مضاد، وتقدم الأمير فيصل نحو الشمال حتى عسكر في ناحية العقبة، وأخذ هو ورجال ثورته وضباط العرب وضباط الانكليز يوجهون الضربات لخطوط تموين الجيش العثماني ومواصلاته، ولقد استغل الاتحاديون عداء مصر والهند لبريطانيا بسبب تحكمها فيهما فأثاروا أهلها ضد حركة الشريف حسين وصوروها أنها هدم للخلافة الاسلامية، كما أن أوليائهم من رجالات العرب، الشقيري واضرابه، نشطوا في الدعاية ضد الشريف وحركته في أوساط البلاد العربية، وأعلنوا كفره وخيانته للإسلام والخلافة الإسلامية وهدمه للدولة الإسلامية القوية الوحيدة... الخ.

وكان لهذه الدعاية أثر غير يسير في مصر والهند والبلاد العربية، ولقد لمسنا ذلك في هذه البلاد حيث كان معظم العلماء والوجهاء والبارزين متأثرين بها ويؤثرون على الجماهير، وإن كان ما اصطنعه جمال من شدة وقوة وجبروت ونفي وأسر وحصار واستمرار في المطاردة والاعتقال كان يخفف ذلك الأثر في بلادنا. ومهما يكن من أمر فإن المراسلات وإن كانت انتهت الى ثمرة إيجابية في نظر الحسين بصدد اعتراف انكلترا باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحت والتي تستطيع العمل فيها بملء الحرية كما نص جواب المندوب الانكليزي للشريف، فإنها ظلت رغم دفاع الحسين وتحفظاته القوية الصريحة في كتبه تحتوي ثغرات تستطيع أن تراوغ من خلالها.

وقد فعلت ذلك أثناء الحرب وبعدها بالنسبة لبلاد الشام والعراق خاصة. كما يبدو من التدقيق في نصوص المكاتبات المتبادلة المنشورة في أكثر من مصدر، ومرد ذلك فيما نعتقد ضعف الإمكانات السياسية والمادية في الحجاز خاصة والبلاد العربية والأمة العربية عامة، بما في ذلك ضعف نضوج الرجال وضعف عزائمهم، وشعور الإنكليز بهذا الضعف وبحاجة الحجاز خاصة والعرب عامة اليهم، وفي كل شيء، حاجة شديدة على أي حال، ولا سيما أن هذه الحاجة وذلك الضعف كانا يبدوان مرة بعد مرة في رسائل الحسين وعباراته بشكل عجيب.

ومما يتبادر أنه كان لما لبريطانيا من صيت في قوتها وشرفها وعدلها وصدق وعودها أثر في ذلك، حيث ظن الحسين أنها سوف تساعده مساعدة مادية على نطاق واسع تجعل من العرب قوة فعالة ذات كيان وموقف مؤثرين يتيحان له تحقيق آماله وجعل الانكليز يسلمون بتحفظاته ولا يتمسكون بتحفظاتهم اذا خرجت ظافرة، وحيث يكون لجهد العرب أثر في ذلك لا يمكن

انكاره وتجاهله.

ولعل ما كان من مظاهر الحركة العربية وتطورها خلال السنوات السبع بعد إعلان الدستور قد جعل الحسين وأنجاله ورجال الحركة العربية الذين اتصلوا به يعلقون آمالاً كباراً على اشتداد حيوية العرب، بحيث يساعدهم ذلك على تحقيق ما أرادوه بعد أن حصلوا من بريطانيا على ما حصلوا عليه من وعود وعهود. ولكن عدم نضوج العرب وضعفهم وضعف عزائمهم وافتقارهم لمقومات القوة والغرض وروح الاستعمار الخبيث والغدر وسوء النية في الانكليز وحلفائهم جعل ذلك نظرياً أكثر منه حقيقة أو كان سلبياً.

وعلى أي حال فإن اتصالات الحسين بالإنكليز، ورغبة رجال الحركة العربية في هذه الاتصالات كان حركة سليمة وموافقة من حيث المبدأ ومن حيث العمل والنتيجة أيضاً، وإن الحسين طيب الله ثراه قد قام في خطوته بواجب عظيم تجاه الأمة العربية في يقظتها الحديثة، وأسدى إليها يداً بيضاء مشكورة، وإخراج القضية العربية من حيز الفكر والخاطر والأمنية الى ميدان الحقيقة الواضحة العملية وجعلها بارزة المكانة بين قضايا العالم القومية.

انتقادات وردود في صدد ثورة الشريف:

ولقد كان موقف الحسين وما أخذه من عهود ووعود وأبداه من تحفظات واعتراضات وسائل قوية في النضال القومي الذي قام به العرب الشاميون والعراقيون بعد الحرب، توسلوا بها في مختلف المناسبات وشتى المواقف، وكانت عاملاً من عوامل ما وصلوا إليه من النتائج الإيجابية في هذ النضال. ولو كانت الأمة العربية أكثر حيوية وأصلب عوداً وأشد نضوجاً وأقوى بنية مما ظهر منها أثناء الحرب وعقبها، لكانت تلك الوعود والعهود والتحفظات والاعتراضات كفيلة بأن تحقق لهم جل ما كانوا يأملونه، ولقد كان وعد بلفور للصهيونيين أضعف بما لا يقاس من ماكان من وعود وعهود انكليزية للعرب، وكان قصاصة ورق هزيلة لا يعضدها شيء. ولكن قوة بنية وحيوية وعزيمة رجال الصهيونية جعلوها أكبر أثراً وقوة من تلك الوعود والعهود.

ومهما كان للثورة العربية من جهد فإنه لا يمكن أن تصح المكابرة في أنها لم تكن حاسمة التأثير فيما أحرزه الحلفاء من نصر في ميادين الحرب الكبرى الأوروبية والآسيوية، وكل ما كان أنها كانت رافدة أسديت مقابل عهود قطعت وما كان عدمها ليعطل ذلك النصر. وكانت مفيدة للقضية العربية في الدرجة الأولى فائدة عظيمة، بل كانت ضرورية وواجباً قومياً لا يمكن المماراة فيه. ولو لم تكن لانتصر الحلفاء وما كانت الدولة العثمانية لتصمد في حال بعد انهزام ألمانيا والنمسا وتوابعهما الأوروبيين في أوروبا، ولما كان حينئذ للقضية العربية الحيز البارز الذي صار لها بين قضايا العالم بعد انبعاثها الفعلي بعشر سنين، ولحرم العرب من وسيلة قوية في نضالهم القومي انتفعوا به في الدعاية والحجاج وإثارة العاطفة والأحقاد والهمم القومية وفي نيل ما نالوا من أهدافهم القومية في حقبة قصيرة، مع التسليم والتقرير بأنه كان لنضالهم الشعبي بعد الحرب أثر كبير في ذلك أيضاً.

ولكان البلاء الاستعماري على بلادهم أشد لأنهم لا يكونون مستندين الى وعود وعهود تجعلهم يجابهون هذا البلاء ويدفعونه ويناوئونه، ولكان سجل على الحركة العربية عار تقصير كبير بعد أن ظهر من بوادرها ما ظهر من حيوية

ونشاط وبعد مطامح. وبعد أن ظهر من الاتحاديين ما ظهر من القسوة والبغي وسوء النية في رفض المطالب المشروعة وفي التنكيل والتشريد بالمطالبين بذلك، وحتى على فرض احتمال انتصار الألمان والنمسا والدولة العثمانية معهما، فإن الثورة لم تكن لتفقد مغزاها القومي، بل ولعلها لم تكن لتفقد أثرها الإيجابي في وجوب ارضاء العرب وتطمين رغباتهم وأمانيهم، وقد لا يرى بعضهم أن هذا الأثر يمكن أن يكون، وأن الاتحاديين لو انتصروا فإنهم سوف يعمدون الى التنكيل بالعرب عقاباً على ثورتهم، فإذا كان هذا وارداً فنقول معه أن العرب ما كانوا لينجوا من هذا التنكيل في حالة خروج الدولة والاتحاديون على رأسها منتصرة، ولقد نكل الاتحاديون بكل شدة فيهم قبل ثورتهم عقاباً على مطالبتهم بحقوقهم، وفعلوا ذلك اغتناماً لفرصة الحرب، وعلى ظن أنهم يضربون الحركة العربية ضربة شديدة بحيث يسوغ جداً أن يقال إنهم سوف يعمدون اذا لم يرعووا كما يظنه البعض الى التنكيل بشدة أكثر اذا خرجوا منتصرين حين يقضوا على ما سموه المشكلة العربية نهائياً، كما ظنوا أنهم فعلوه بالنسبة للمشكلة الأرمنية حينما اغتنموا فرصة الحرب وبطشوا بالأرمن بطشتهم الكبرى.

وما وجه للحسين من مسؤولية ثورية على الدولة والخلافة وتصويره سبباً من أسباب انكسارها وتمكين الأجنبي من بلاد الشام والعراق، هو من آثار الدعاية التي بذلت الجهود في بثها أثناء الحرب وظلت مستمرة في الأذهان، وقوبلت بما كان من خيبة أمل وغدر من الانكليز وحلفائهم وتجزئتهم البلاد العربية العثمانية في الشام والعراق، وفرض استعمارهم عليها.

ولقد بقيت الدولة العثمانية بعد الحرب وبقيت الخلافة قائمة ولم ينسفهما العرب ولا ثورتهم، وإنما نسفها الاتحاديون أنفسهم، وفي هذا رد مفحم عَلى تلك الدعاية والصاق سبب ذلك بحركة الحسين، وهذا فضلاً عن كون الخلافة في السلاطين العثمانيين مزيفة وليس لها أصل أو سند شرعي.

والشريف ثار على الحكومة العثمانية وفي اعتقاده أنه يثور على متغلبين على الدولة مستبدين فيها مارقين على الشريعة مظهرين العداء للعرب باسطين أيديهم إليهم بالسوء والأذى. كذلك بولغ كثيراً في توجيه النقد للحسين بسبب ما كان من ثغرات في مراسلاته.

وفي النتيجة التي انتهت اليها ونعتقد أن النقد قد صدر بروح ما بعد الحرب أيضاً، ونتيجة لما كان من غدر الانكليز ومراوغاتهم وخيبة الآمال التي علقها رجال الحركة العربية على انتصار الحلفاء، فقد اجتهد الحسين في سد هذه الثغرات أشد اجتهاد، بل وكان فيه قوة البصيرة نافذها حيث نبههم الى مطامع فرنسة وما سوف يكون منها لهم من متاعب. ولقد غضب هو وأولاده حينما بلغهم أخبار الاتفاق الانكليزي الفرنسي أثناء الحرب على تقسيم بلاد الشام والعراق الى مناطق نفوذ واستعمار. ثم خبر وعد بلفور. وكانت الثورة الاشتراكية الروسية التي اندلعت في أواخر سنة 1917، والتي خرجت روسية نتيجة لها من الحرب، قد أذاعت ما وجدته في ملفات حكومة القيصر، كثيراً من الوثائق والأسرار ومن جملتها وثائق تلك الأخبار، ولقد أرسلت الصحف التي نشرت هذه الوثائق الى الأمير فيصل في العقبة من قبل جمال باشا الثاني الذي عرف بالمرسيني، والذي كان قائد الجيش الثامن، ومركزه السلط، وعرض عليه الانفصال

عن الحلفاء الذين ظهر غدرهم وسوء نياتهم وخططهم والمسارعة بعقد صلح منفرد مع الدولة العثمانية[1].

ولقد أثارت الوثائق التي اطلع فيصل عليها من الصحف المرسلة اليه استياء، وغضب فيصل وأرسل الصحف الى أبيه فاستاء وغضب بدوره، وأرسل احتجاجات شديدة للحكومة الإنكليزية فسارعت هذه الى تهدئته، وكان من ذلك برقية من وزير خارجيتها بلفور يقول له فيها أن ما نشر كان قبل نجاح الحركة العربية الباهر، وأن هذا النجاح - يعني دخول العرب في الحرب وجهودهم فيها - قد غير الموقف تغييراً كبيراً، ثم أرسل بلفور برقية مطولة أخرى كرر فيها ما قاله في برقيته السابقة، وقال أن الترك يريدون إثارة الشك بين العرب وحلفائهم، وأن بريطانيا وحلفاءها ملتزمون بالوعود والعهود المقطوعة له بالمساعدة على تحرير بلاد العرب وقيام عالم عربي مستقل جديد، ثم أرسل مندوباً خاصاً اسمه هوجارت الى الملك حسين لتأكيد ذلك وإبلاغه أن فلسطين جعلت ذات وضع خاص لأنها مقدسة من الأديان الثلاثة، وأنه إذا كان يراد تسهيل عودة اليهود اليها فلن يكون ذلك إلا بقدر ما يتفق مع مصالح الأهالي السياسية والاقتصادية، وقد كتب هوجارت تقريراً ذكر فيه أن الشريف فهم أن فلسطين ستكون على أي حال في نطاق مملكته، وأنها ستكون بمثابة ملجأ للمضطهدين من اليهود[1].

ولما انتهت الحرب وظهر منهم ما ظهر من غدر وختل وتآمر، ظلّ الحسين ينعي عليهم ذلك ويطالبهم بالوفاء ويرفض ما يعرضونه عليه من عروض لا تحقق العهود المقطوعة بتمامها، ويرفض بصورة خاصة الاعتراف بوعد بلفور ويصر على وجوب منح عرب فلسطين حقهم في استقلالهم في بلادهم وحكمهم الوطني فيها، ويأبى أن يعقد معهم معاهدة صلح تضمن عرشه وملك الحجاز له ولأنجاله. ويفضل البقاء بدون حليف وسند مصرّاً على موقفه وبخاصة على موقفه من فلسطين الى أن ضاع ذلك العرش وخرج من بلاده شريداً.

ولقد كان الإنكليز أجرأ على الغدر وأوغل في المراوغة والقحة من أن يتقيدوا بالنصوص حتى لو كانت محكمة خالية من الثغرات، ما دام العرب لا يملكون القوة المؤيدة والعزيمة

---

(1) كان الإنكليز والافرنسيون والروس تفاوضوا بعد نشوب الحرب التي كانوا مشتركين فيها معاً واتفقوا على تقسيم بلاد الدولة العثمانية إلى مناطق نفوذ واستعمار واحتلال وكان من مقتضى ذلك أن تكون العراق من حصة الانكليز وبلاد الشام من حصة الافرنسيين والولايات الشرقية من الأناضول مع الاستانة والممرات البحرية (البواغيز) بين البحر الأسود وبحر مرمرة من حصة الروس. ولما خرجت روسية من الحرب نتيجة للثورة اجتمع الافرنسيون والانكليز وثبتوا اتفاقهم الغادر بالنسبة للبلاد العراقية والشامية وبعد ذلك بقليل أصدر الانكليز وعد بلفور وكان سرياً أيضاً. وقد أذاعت الثورة الروسية وثائق الاتفاق الثلاثي السابق كما أذاعت خبر الاتفاق الثنائي وخبر وعد بلفور للتشويش على الحلفاء. ولقد ذكر أمين سعيد في كتابه الثورة العربية ج 1 أن جمالاً المرسيني أرسل الأمير سعيد الجزائري أيضاً إلى فيصل ليخبره بالأسرار ويطلب منه الانفصال عن الحلفاء وعقد صلح منفرد مع الدولة العثمانية وأن فيصلاً طلب أن تعترف هذه الدولة باستقلال بلاد العرب مقابل ذلك، وأن جمالاً أرسل الطلب إلى الاستانة ووافقت عليه. ولكن الأمر تأخر وقويت حركة الهجوم الانكليزي في الجبهة الفلسطينية فلم يصل الأمر إلى نتيجة ولعل مسارعة الانكليز إلى تطمين الملك حسين التي ذكرناها في المتن كانت من أثر ذلك.

(1) انظر مجلد الوثائق الرئيسية الذي نشرته جامعة الدول العربية ص 77 وبعدها وانظر كتاب الثورة العربية الكبرى وثائق وأسانيد لسليمان موسى ص 98 وبعدها.

الشديدة والبنية القوية والنضج السياسي مما هو وحده الذي يساعدهم على تحقيق ما أرادوه من النصوص، ولاسيما أنه كان فيها من التحفظات ما فيه الكفاية أو شيء من ذلك. وهل الحسين إلا من غزية إن غوت غوي وإن ترشد غزية يرشد.

ويذكر الذاكرون أن فصائل الثورة التي دخلت الشام تحت لواء فيصل لم تلبث أن انحلت، ولم يبق منها الا بضع عشرات من الحجازيين، وأن الفصائل المتطوعة الجديدة التي ألفت بعد ذلك لتكون حاميات لم تتجاوز الآلاف القليلة، ولم يكن لديها من السلاح والعتاد ما يساعدها على أي عمل حربي أو ثوري ناجح ضد قوى الانكليز والإفرنسيين التي كانت تحتل بلاد الشام من الغرب والجنوب، ولم تكن امكانيات العهد الفيصلي قادرة على تزييدها وجعلها قوة مؤثرة. ولقد كان الانكليز الذين موّنوا وموّلوا الثورة يضنون أشد الضن فيما يعطونه من سلاح وعتاد مما كان دائماً مثار شكوى الحسين الشديدة الدائمة وأنجاله وضباط ثورته. أما المال فكان أكثره يعطى لقبائل البدو الحجازية والشامية لضمان عونها وولائها أو كبح شرها، وما كان هذا ليضمن استمرار بقاء جيش ثوري ذي بال يجعل الانكليز وغير الانكليز يحسبون حسابه قليلاً أو كثيراً، والراجح أن ذلك كان محسوباً حتى لا يقف العرب موقفاً فيما بعد يزعجهم ويتعبهم أو يعرقل نياتهم السيئة الغادرة، ولو كان شيء من ذلك لكان له أثر ايجابي في بقاء العهد الفيصلي في سورية الداخلية على الأقل مؤيداً بما كان في اليد من عهود وتحفظات، ولاسيما أن الحرب كانت قد أنهكت قوى الحلفاء، ولم يكونوا ليقدموا على عمليات حربية ضد قوى عربية فيها بعض الغناء والكفاية، والأمثولة التي ضربها كمال أتاتورك ما تزال قائمة شاهدة وخاصة بما كان من مسارعة فرنسا الى التهاُدن معه، ولعل هذا النقص من أشد ثغرات الثورة العربية التي لم يكن في امكان الحسين تلافيها وسدها.

ويقول بعضهم إن حركة الحسين كانت لعبة استعمارية كان الحسين أداتها، وقد يكون في هذا شيء من الحقيقة ولكن لا يصح أن يتصور أحد أن الحسين لعب دوره وهو يعرف ذلك، ولا يصح إلا أن يقال إن الحسين ورجال الحركة رأوا فرصة سانحة فرأوا أن يغتنموها، بل ونعتقد أن العرب، أمة ورجالاً، لو كانوا على شيء مهم من النضج وقوة البنية لكانوا جعلوا ما ظنه الناس لعبة، وسيلةً لتحقيق آمالهم وهو ما قصدوا إليه حينما إستجابوا لها.

أثر إعلان الثورة في الأوساط العربية:

ولقد كان لانفجار الثورة في الحجاز أثر عظيم في أفكار العرب وأوساطهم بالرغم مما حاولته السلطات التركية وأولياؤها من رجالات العرب من تهوين لشأنها أولاً، ومن اثارة للحملات الشديدة والدعايات المضادة ضد القائمين بها ثانياً، ولاسيما أنها اندلعت والرعب قد استحوذ عليهم وخلع قلوبهم من طغيان جمال وقسوته وتجرؤه على شنق عدد كبير من رجالاتهم، وسجن وتشريد عدد كبير آخر، وتجويع الساحل السوري ولبنان تجويعاً لئيماً وبدور بوادر حركة تشريد واسعة ذكرتهم بما كان من الاتحاديين نحو الأرمن عقب إعلان الحرب، وكانت من العوامل القوية في توسيع انتشار الفكرة العربية في مختلف أوساطهم واتجاه الأذهان والقلوب إليها - نعني الثورة -،

والاهتمام لها وتداول الأحاديث بما يمكن أن يكون للعرب بنتيجتها من حياة جديدة فيها المجد والعزة والقوة والنهوض والاستقلال والحرية والوحدة.

ترحيب الشباب القومي:

وقد كان للشباب المتنورين وخاصة الذين لهم صلة بالحركات وبالتشكيلات القومية أثراً إيجابياً في ذلك، بما كانوا يبثونه من الدعوة إلى تأييد الثورة والالتحاق بها وبث أخبارها بين الناس وتزييف الدعايات المضادة لها والتنويه بجبن ونذالة وخيانة المندمجين في هذه الدعايات من رجالات العرب وحملة الأقلام فيهم. وقد ساعد على ذلك سحب جمال، بعد نشوبها بقليل، عن حركة المطاردة والاضطهاد والاعتقال والتشريد، وكان ذلك فيما نعتقد من آثار الثورة والخشية من تفاقم هذه الآثار بين العرب في الولايات العربية.

شرح وتعليق على حوادث الأوساط العربية الأخرى:

على أن من واجبنا أن نستدرك أمراً مهماً وهو من مظاهر ضعف البنية العربية القومية أيضاً. فما قلناه آنفاً ينطبق في الدرجة الأولى على الأوساط النيرة المثقفة من السياسيين والشباب، والتي كانت ضيقة النطاق جداً، وفي الدرجة الثانية على من كان يتصل بتلك الأوساط من سكان المدن وخاصة الكبيرة منها. أما سواد[1] الشعب العربي فإنه لم يكن متحمساً بقوة تسمح بالقول أنه متجاوب مع الفكرة القومية، ومستبشراً بالحركة العربية، وكل ما كان بالنسبة للسواد أن هذه الحركة التي كان يضطلع بها المتنورون القوميون، وأن الدعوة التي كانوا يدعون اليها قبل إعلان الحرب بالحقوق والمطالب العربية وشرحها كانتا لافتتين للذهن ومنبهتين من السبات، وان كان من أحداث بعد إعلان الحرب سواء في سياق حركة المطاردة والقمع والتنكيل، أو في سياق إعلان الثورة الحسينية الهاشمية وأخبارها قد قوى هذا الالتفات والانتباه.

والى هذا فإن نفوذ الفكرة وقوتها في المتنورين والسياسيين الشباب كان متفاوتاً، فبينما كانت عند فريق قليل منهم عقيدة تصل الى دفع صاحبها الى اقتحام الأخطار والتضحية بالنفس والمال وكانت شغلهم الشاغل، كانت عند فريق ثان وهو الأكثر عدداً كلمات تلاك في الأفواه دون أن يكون لها أثر نافذ في القلب، بل وكانت عند فريق ثالث منهم أيضاً وسيلة استغلال وجاه ومنصب وتفاخر وحسب. هذا أولاً.

وثانياً: إن فريقاً من رجال وشبان وضباط العرب الذين يعدون في الطبقة المتنورة وقضوا أمداً طويلاً في وظائف الدولة في مختلف بلادها واندمجوا في جو الدولة وبنيتها حتى صار بعضهم غريباً عن العرب والعروبة واللغة العربية أو كالغريب، لم يستشعروا بالفكرة العربية القومية ووقفوا منها موقف المتحفظ، ومنهم من وقف منها موقف المتجهم أو العدو المهاجم.

وثالثاً: إن أكثر طبقة الوجهاء والأعيان الذين اعتادوا أن يعيشوا في جو موظفي الدولة وأن يمارسوا الوظائف الحكومية والإدارية المؤقتة والدائمة والفخرية وغير الفخرية كمجالس البلديات والإدارة والمحاكم والتخمين والضرائب وغيرها، وأن يستمدوا منها وجاهتهم

(1) سواد: عامة أو غالبية الشعب العربي.

التي كانت تكفل لهم المنافع المادية وغير المادية. وكذلك أكثر الذي هم في عداد هؤلاء من المحافظين والتقليديين والمشايخ وخاصة ذوي المناصب من هؤلاء وأولئك، لا يعدون من سواد الشعب بل من الطبقات المتفتحة أو البارزة ذات الشأن، لم يستشعروا أيضاً بالفكرة العربية القومية، ووقفوا منها موقف المتحفظ. ومنهم من وقف منها موقف المتجهم أو العدو المهاجم، ولقد كان مفهوم الوحدة عند هذه الطبقات هو الوحدة الدينية الاسلامية، وقد جعلتهم القرون الطويلة التي قضاها العرب والترك معاً تحت سيادة الترك في جو تاريخي وسياسي وعاطفي واحد، فكانت مندمجة في جو الدولة العثمانية راضية مطمئنة، وجعلها ذلك ترى في الدعوة الى القومية العربية وأهدافها بدعة مؤدّية الى إضعاف الوحدة الدينية وهدمها أولاً، وداخلة في شمول ما أثر من التحذير النبوي من الدعوة الى العصبية ثانياً، فوقفت منها الموقف الذي وصفناه، وأخذت أو أخذ كثير منها يغمزون الداعين اليها والقائمين بها من المتنورين والشبان ويرمونهم بالزندقة والالحاد والاستغراب وغير ذلك من التهم التي كانت رائجة شائعة في تلك الأيام، بل ومنهم من كان يعين الأتراك عليهم ويشمت بما كان يقع عليهم من اضطهاد ويفتي بحل دمهم، ويحاول تأليب السواد عليهم، ويذيع المقالات وينظم القصائد الهجومية والشامتة فيهم، ويخطب في الاجتماعات بكل ذلك، ومنهم من كان يفعل ذلك تزلفاً للسلطان واستجداء لبّره.

ومما يجدر ذكره أن الاتحاديين الذين اعتنقوا الفكرة القومية الطورانية ونشروها، ووقفوا من الخلافة موقف التهوين بل التهديم، وقاوموا بل بطشوا في مناوئيهم في زمن السلطان الخليفة عبد الحميد وبعده، من أعوان ورجال دين ومحافظين وتقليديين ومشايخ لم يقصروا في استشارة هذه الطبقات من العرب ضد القائلين بالفكرة العربية والمطالبين بالحقوق العربية بمختلف الأساليب والرشاوى قبل اعلان الحرب، ثم وسعوا جهودهم في هذا السبيل وخاصة بعد نشوب الثورة الهاشمية، ولاتزال تذكر تلك الفتاوى التي كانوا يستصدرونها من علماء المسلمين في بلاد العرب، وتلك المقالات التي كانوا يستكتبونها لبعض كتاب العرب ضد الحركة القومية وضد الثورة الهاشمية، وتلك الاجتماعات التي كانوا يدعون سياسيي العرب وخطبائهم الى الخطابة فيها، وتلك التشكيلات التي كانوا يحيطونها بعنايتهم ويبذلهم عن غير إيمان وصدق في صدد توثيق الوحدة الإسلامية والمظاهر الإسلامية، وفي صدد مقاومة القومية وتزييف أهداف الثورة وإضعاف أثرها، والتهوين بما وقع على رجال الحركة من بغي وقسوة، وبما كان منهم ضد المطالب العربية العادلة من تجهم ومعارضة وتعطيل.

ومن الغريب الجدير بالتسجيل كظاهرة من ظواهر التناقض الأخلاقي والنفسي والاستغراق في التقليد والتسليم والرضاء بما كان ويكون وعدم الاستشعار بالعاطفة القومية، أن هذه الطبقات التي اندمجت في جو الدولة والخلافة العثمانية المزعومة ولم تستشعر إلا بالعاطفة الدينية وسياسة الوحدة الدينية، كانت تلعن الاتحاديين الذين صدر منهم ما صدر ضد الخلافة والخليفة والدينيين الذين اعتنقوا الفكرة التركية الطورانية وسعوا جاهدين في سبيل الاستعلاء العنصري التركي على العرب، ولم يمنعهم كل هذا من الاستجابة الى تحريض

هؤلاء الذين كانوا يلعنونهم على بني قومهم الذي أثارتهم تصرفات الاتحاديين وجعلتهم يسيرون في طريق الفكرة والدعوة العربية.

وكل ما تقدم هو من مشاهداتنا ومسموعاتنا وممارساتنا وملموحاتنا قبل الحرب وأثناءها وصار جزء من ذكرياتنا.

ونحن إنما نسجل ما كان راهناً ملموساً بقطع النظر عن زيفه في حقيقة الأمر وكونه نتيجة دعاية وغسل دماغ وغفلة، لأن بذل العربي جهده لتحقيق ذاته وتأمين حق قومه وبلاده في الحرية والعدل والنجاة من الاستبداد والظلم والاستعلاء والعسف، لا يمكن أن يكون مناقضاً لإسلامه أو إنكاراً له. فهو يسري في جسده مسرى روح ممتدة الى ألف وثلاثمائة سنة وقبل، وإلى ما شاء الله بعد. وحياته ومجده فيه، وليس ذلك متوقفاً على كونه مندمجاً في دولة الترك الإسلامية التي يقوم على رأسها من يقوم من الملحدين المارقين المتنكرين للإسلام، والعنصريين والبغاة والطواغيت.

ولقد كان وظل يقوم دول عديدة إسلامية عربية وغير عربية في وقت واحد، منها المنفصل عن الأخر في مختلف حقب التاريخ الاسلامي، ومنها المعتدي على الآخر، ومنها المتغلب على الآخر، وكان في وقت ما ثلاثة خلفاء أو أمراء مؤمنين في بغداد والقاهرة وقرطبة، وكان في كل حقبة علماء مسلمون أئمة على طريق الهدى، وكانوا يندمجون في ذلك ولا يرونه كفراً ولا مروقاً ولا هدماً للإسلام ودولة الإسلام. ولأسباب مثل الأسباب التي تحدو عرب اليوم الى إقامة دولة لهم ومسألة شجب الدعوة الى العصبية مفهومة غلطاً نصاً ومدى، وفي كتابنا (نشأة الحركة العربية الحديثة) بحث شاف في ذلك، كما فيه بحوث عما كان من مواقف الاتحاديين نحو العرب فيها تبرير لرجال الحركة العربية في الدعوة الى دولة عربية خاصة بهم.

والى ذلك كله فقد كان الجهل سائداً في غالبية الشعب العربي العظمى، حتى لا تكاد تبلغ نسبة غير الأميين فيه خمسة من المائة، وتقل كثيراً في الريف والبادية ولا تكاد تبلغ نسبة من يقرأ كتباً وصحفاً ويفهم ما يقرأ واحداً في المائة، ولعل هذا كان أهم أسباب ضعف البنية العربية ومظاهرها.

***

عودة الى تنقلاتي في سيناء وأحداث أخرى جرت لي:

ونعود بعد هذا الاستطراد الى سياق أحداثنا ومهمتنا في سيناء، فنقول إننا ذهبنا من عوجة الحفير الى بئر السبع وهي مدينة صغيرة أصلاً في سهل فسيح ثم كبرت بما أضيف إليها من بنايات ومنشآت مؤقتة حجرية وخشبية ومخيمات بسبب حركات الجيش والحرب في سيناء، لأنها جعلت مركز تموين عام للحركات والجيوش قبل حملة القناة وبعدها، حيث استمرت هذه الحركات بعد إخفاق الحملة نشيطة للتكتيك الحربي في الحقيقة، ولإعداد حملة جديدة على القناة في الظاهر كما قلنا قبل، وكانت تعج بالحركة والناس على اختلاف الأنواع، ولقد كان الخلق فيها أكثر من البنايات الخشبية الحجرية، فكان كثير منهم يعيشون في الخيام. وحاولت في بدء الأمر أن أعيش في خيمة، وتعرفت أثناء ذلك على طبيب من طرابلس الشام اسمه حسن رعد، كان مجنداً في الجيش وكان شاباً قومياً متحمساً فتصادقنا وأحببنا بعضنا، وعشت أنا وإياه في خيمة أياما. ولكن لم نستطع البقاء طويلاً لأن الطقس كان شديد

الحرارة، فقررنا الانتقال الى الفندق الوحيد الذي كان في بئر السبع، وكان يديره يهودي مستعرب، وأجرة النوم فيه ربع مجيدي في اليوم، وقد طالت إقامتي في بئر السبع بسبب عزل مدير مركزها وتكليفي بمهمته ريثما يأتي مدير جديد لن يعين بسرعة، وكانت أشغال البرق والبريد كثيرة جداً إذ ذاك. وكان يأتي بالبريد طرود كثيرة جداً للعسكر هدايا من أهلهم، بالإضافة الى كثرة المراسلات والبرقيات من دوائر الحكم والجيش والناس.

ومما جرى معي أني في زحمة العمل نسيت مفاتيح خزانة الحديد الكبيرة التي فيها الطوابع والصرر النقدية والدراهم في داخل الخزانة، وأغلقت الخزانة وأسقط في يدي لأن شغلي وأشغال الناس كادت أن تتعطل، ولحسن الحظ كان في بئر السبع ورشة ميكانيكية عسكرية، فاستدعينا خبيراً منها وخرق خرقاً بآلاته في ظهر الخزانة وأدلينا بقضيب في رأسه كلاب وصرنا نحركه حتى عثر بسلسلة المفاتيح فاستخرجناها ثم رقع الخرق ولحمه.

ومما جرى معي في بئر السبع أن أصبت بالجرب، وكان الجرب منتشراً في جمال الدولة التي كانت تملأ المنطقة وينعدي الناس منها، ويصابون بكثرة بالجرب ويعانون مما يسببه من حكاك مزعج، وكان العلاج السائد أو الممكن هو دلك الجسم بالكبريت وبقاء الجسد مكبرتاً وقتاً ما، ثم الاغتسال وتكرار ذلك أيام متوالية، وفعلت ذلك في الفندق حتى خلصت من البلاء.

حالة الجيش العثماني في سيناء:

وأسجل أن حالة الجيش العثماني أثناء وظيفتي في التفتيش كانت حسب ما شاهدت ولمست رديئة جداً من قلة المؤونة وقلة الوسائل وضعف المعنويات وضعف الانضباط وكثرة السرقات في مخازن الجيش الخ... وكان قدوم أنور وجمال لأجل تفقد الأحوال ومعالجتها ولكن لم ألمح أي تحسن.

سحب جمال من بلاد الشام وأثره في التهدئة:

هذا ولقد علمت وأنا في بئر السبع أن أنور قد جاء في الحقيقة لتقصي الحقائق عن سيرة جمال وأثر الثورة العربية في العرب وبلادهم. وبعد بضعة أشهر سافر جمال الى ألمانيا، وقيل إن الامبراطور دعاه لمشاهدة سير الحرب في الجبهة الأوروبية، وقيل إن هذا كان بمثابة أسلوب إبعاد لجمال، ولكن جمالا أقنع الامبراطور بضرورة عودته ولو مؤقتاً فعاد. ثم استدعى الى الآستانة ولم يعد، وكان ذلك في أوائل سنة 1918، وكنت آنذاك في بيروت على ما سوف أذكره بعد. وقيل إن الآستانة كانت تشعر أن لتصرفات جمال أثراً كبيراً في اندلاع الثورة العربية التي كانت تزعج الدولة مادياً وميدانياً ومعنوياً. وأن الآستانة رأت أن تسحبه لعل سحبه يساعد على تهدئة العرب ويمنعهم من التجاوب الشديد مع الثورة، وقد عينت محله قائد الجيش الثامن واسمه جمال أيضاً، وقد حاول أن يكون حسن السيرة وأوقف حركة تهجير الأسر العربية التي نفذها الطاغية، وأعاد الأسر المنفية من الأناضول، وقد أحست البلاد فعلاً بحسن سيرته ونيته، ولكن ذلك لم يؤثر على سير الثورة العربية، ولعل ما نشرته الثورة الروسية من وثائق عن مراسلات جمال مع الحلفاء على ما ذكرناه قبل مما حمل الآستانة على سحبه أيضاً. وجمال الثاني هذا الذي حل محل الطاغية هو الذي أرسل للأمير فيصل

الصحف التي فيها وثائق الأسرار الحربية التي نشرتها الثورة الروسية، وأرسل الأمير سعيد الجزائري الى فيصل ودعا فيصلاً الى الانفصال عن الحلفاء وعقد صلح منفرد مع الدولة العثمانية على ما ذكرناه سابقاً.

* * *

عودتي من سيناء الى بيروت:

وفي أواخر سنة 1916 أي في تشرين الأول أو الثاني، جاء الى بئر السبع مدير جديد، وتلقيت أمراً من الباشمدير بانتهاء وظيفتي في سيناء وبالعودة الى بيروت، وعلمت أن الجيش أحدث في سيناء وفي نطاق تشكيلاته مديرية عسكرية للبرق والبريد لتشرف على جميع مراكز البرق والبريد، وعين لهذه الوظيفة شكري شاتيلا الذي كان مديراً للبرق والبريد في دمشق، بعد أن منحه رتبة بينباشي، وكان ذلك بسبب الحركات الحربية المستجدة في سيناء، حيث كان تكتيك الإنكليز أولاً إخلاء سيناء والمرابطة وراء ضفة القناة الغربية، وأتاح هذا للجيش العثماني السيطرة على جميع سيناء. وفي أواخر سنة 1916 أخذت القوات الانكليزية تتحرك نحو سيناء، واجتازت الضفة الشرقية للقناة وصارت على جزء من أرض سيناء، واستعد الألمان والأتراك للتصدي لها، وقد عين لقيادة القوات العثمانية ضابط ألماني كبير اسمه (فون كريس)، بالإضافة الى ضباط ألمان آخرين وضباط عثمانيين، وصارت تقع مناوشات على أرض سيناء كراً أو فراً بين العثمانيين والانكليز، وصارت مراكز البرق والبريد المؤقتة في سيناء عرضة للإغلاق، لأنها صارت عرضة للاحتلال. وقد لبس شاتيلا الكسوة العسكرية وأخذ يمارس مهمته.

حادث مزعج حدث لي في طريق بئر السبع غزة:

وتركت بئر السبع والحالة على هذا، وسافرت الى غزة عائداً الى بيروت، وقد جرى حادث في طريق بئر السبع ـ غزة، فقد ركبت كروسة ذاهبة الى غزة من بئر السبع وتوقفت الكروسة للاستراحة على ماء اسمه وادي غزة، وأخذت كتاباً وتقدمت في الطريق وقعدت في ظل شجرة أنتظر الكروسة وأقرأ، ولما شعرت أن الأمر طال عدت الى الماء فقالوا لي إن الكروسة بحثت عني ثم ظنت أني أمامها فسارت. ويظهر أني لم أنتبه اليها حينما مرت وكنت مستغرقاً في القراءة، وهي لم ترني فظلت سائرة الى غزة، واضطررت حينئذ الى السير مشياً الى غزة، وكان الوقت بعد العصر والمسافة نحو خمسة عشر كيلومتراً. وقد تعبت تعباً شديداً وورمت أصابع قدمي وخيم الظلام حتى وصلت الى غزة في حالة إعياء شديد، واضطررت للبقاء فيها يومين حتى خفت آلامي ثم سافرت من غزة الى يافا ومنها الى نابلس فقضيت يومين ثم سافرت الى دمشق.

لقائي في دمشق بالدكتور أحمد قدري وأخباره:

وفي دمشق عرجت فيها على بيت الدكتور أحمد قدري في زقاق في الحلبوني، وكان مسكناً وعيادة له وملتقى شباب الحركة العربية أو جمعية الفتاة. وقد حدثني عن اعتقالاته وإفلاته منها بأسلوبه الذكي، وعن قصة محاولة انتحار شكري القوتلي في السجن بإيعازه، وقد أوردتها قبل. وحدثني عن نشاط حركة الثورة العربية وحصر القوات التركية في المدينة واستتباب الحكم للملك حسين في الحجاز ونشاط فيصل وحركات رجاله المزعجة للأتراك في جبهة



- عزة دروزة في بيروت 1916/1917 .



السيد توفيق كنعان
بيروت 1918/1919 .
من أصدقاء عزة دروزة
وزملائه في
دائرة بريد بيروت
في عهد الدولة العثمانية .

العقبة، وذكر لي اسم زميلين في الجمعية (هما الدكتور بشير قصار ورفيق التميمي في بيروت ووصاني بالتردد عليهما).

وظيفتي الجديدة في ديوان رئاسة المديرين في بيروت وشيء عن هذه الوظيفة والديوان:

ولما وصلت بيروت بلغني الباشمدير أني عينت كاتباً في الديوان للأمور الذاتية أي شؤون الموظفين في جميع مراكز ولايتي بيروت وسورية ومتصرفية القدس التي هي في نطاق باشمديرية بيروت، ثم لسكرتيرته (الأنجمن) أي (اللجنة الإدارية) في الباشمديرية التي لها البحث في شؤون الباشمديرية الإدارية المتنوعة والموظفين واتخاذ القرارات المقتضية في ذلك. وكان (الأنجمن) مؤلفاً من الباشمدير ورئيس دائرة المحاسبة (المحاسب العام) ومدير مركز بريد بيروت ومدير مركز برق بيروت، وكانت الأوراق المتعلقة به تحال إليّ وأهيئها للدرس، وكان (الأنجمن) ينعقد مرة أو مرتين في الأسبوع في غرفة الباشمدير وبرئاسته، ومع أني لم يكن لي صوت رسمي فيه، فقد كنت أنا الذي أتولى عرض المواضيع وأشرح ملابساتها، وكثيراً ما كنت أسأل عن رأيي فيما يقتضي، وكثيراً ما كان يؤخذ برأيي. وبعد ذلك كنت أتولى سبك القرارات وأسجلها في السجل ويوقع عليها الأعضاء، ثم أتولى تنفيذها فأكتب الرسائل المتعلقة بها وأرسلها لمن يلزم بعد أخذ توقيع الباشمدير عليها، وأسجل في سجلات الموظفين التي تحت يدي ما ينتج عما يخصهم من قرارات، كما كنت أتولى تنظيم هذه السجلات بحيث كان تشمل تراجم موجزة لكل موظف وسير وظيفته، والوظيفة مهمة وكان لي عبرها شيء من المكانة عند جميع الموظفين

وكان راتبي فيها (800) قرش، وهو أقل من راتبي في التفتيش الذي كان استثنائياً بسبب مشقة العمل فيه. وكان مرتب (800) قرش حسناً اذ ذاك، ولقد كان مثلاً مرتب رئيس الديوان الباشكاتب (1000)، وكان لي زميلان في الديوان غير الباشكاتب واحد تركي يتولى تسويد الرسائل العامة، وآخر دمشقي اسمه توفيق شاكوش يتولى مسائل العقود والمقاولات، وراتبهما مثل راتبي. وكان هناك قلم تابع للديوان فيه مبيّض للرسائل ذو خط جميل (لم تكن الآلات الكاتبة مخترعة اذ ذاك ولم تكن واصلة الينا). وفيه مسجل للرسائل وفيه مشرف على البريد ومرتباتهم نحو نصف مرتباتنا. وكان في الباشمديرية قلم محاسبة على رأسه المحاسب العام وهو تركي، وفيه كاتبان رئيسيان دمشقيان اسم أحدهما ابراهيم كنعان وثانيهما حمدي القلطقجي، بالإضافة الى موظفين ثانويين.

وكانت الباشمديرية في بناية كبيرة بأربع طوابق على الجانب الشرقي من ساحة البرج أو حديقته، وفيها الباشمديرية وديوانه وديوان المحاسبة ومركز برق بيروت، أما مركز بريدها فقد كان في مكانه الأول في طريق الميناء، وقد صار كل من توفيق شاكوش وإبراهيم كنعان وحمدي القلطقجي أصدقاء لي، ولا بأس في عقلهم وعواطفهم ونشاطهم، ولكن لم تكن صداقتي معهم حارة حميمة كصداقتي مع محمد الداعوق وعبد الحفيظ التنير وتوفيق شاهين الذين ذكرتهم سابقاً. وأظن أن المراكز التي كانت تابعة للباشمديرية في ولايتي بيروت وسورية ومتصرفية القدس نحو خمسين، وربما بلغ عدد موظفيها ومستخدميها نحو (500)، وكان لسورية باشمديرية خاصة بها، ثم ألغيت

وألحقت مراكزها لباشمديرية بيروت. وقد عدت الى غرفة العجوز البستاني في خندق الغميق، فقضيت بضعة أشهر ثم انتقلت الى غرفة في بيت مفروش آخر في طريق رأس النبع، ثم قررت أن أستأجر بيتاً وأحضر الأسرة بعد أن صرت مستقراً في عملي الجديد ولا سيما أن مرض عيون أبي قد ازداد وضاقت يده وقد ارتفعت أسعار المعيشة الرئيسية، ولقد أخذت قيمة الورقة العثمانية البنكنوت بالسقوط تدريجياً وتقل قوتها الشرائية، وصارت إدارة الجيش في بيروت وغيرها توزع مواد تموينية من قمح وطحين وزيت وعدس وبرغل وسمن بالسعر الرسمي الرمزي الورقي، فيستطيع الموظفون تأمين معيشتهم بالمرتبات الورقية التي انخفضت قيمتها، فكان هذا مما جعلني أعجل بجلب الأسرة، وقد استأجرت بيتاً في طريق رأس النبع، فيه ثلاث غرف وصالة وحمام وبناؤه جديد وأرضه مفروشة بالرخام في طبقة عالية في داخل حوش عدة بنايات وساحة وله مدخل من الشارع، بثلاثين ليرة في السنة، وكان لا يزال في الليرة رمق، وكانت البيوت الخالية في بيروت كثيرة بسبب الحرب، وتوقف النشاط التجاري والسياحي، واشتريت بعض الأثاث سريراً وفرشة ومقاعد ومناضد وأواني أكل الخ... بأثمان زهيدة أيضاً من سوق المفروشات القديمة التي كثر عرضها في بيروت، وعشت وحدي في البيت بضعة أشهر أتغدى في مطعم وأفطر وأتعشى في البيت كما كنت أفعل في المرة الأولى.

تجديد صداقاتي مع التنير وداعوق وشاهين ونزهاتنا وأحاديثنا:

وجددت عهد الصداقة مع محمد الداعوق وعبد الحفيظ التنير وتوفيق شاهين، وقد اشتدت الصداقة بنوع خاص مع الثاني، وصرنا نلتقي يومياً تقريباً نحن الثلاثة ونمشي مشاويرنا المسائية في خارج بيروت في رأسها وعلى بحرها وفي مرتفعاتها الشرقية من ناحية الأشرفية وفرن الشباك، وفي جهاتها الشرقية الجنوبية طريق جونية والحدث الخ... ونتداول الأحاديث المتنوعة، وكنت كما في الأول نجمهم وناطقهم ولا فخر. وكان لمحمد الداعوق ابن عم اسمه بهجة ملم بالأدب العربي والإفرنسي، فكان أحياناً يرافقنا في مشاويرنا وأحاديثنا ونأنس به، وكان يفعل هذا أحياناً زميل لنا في دائرة البريد اسمه سليم البربير صار بيننا وبينه شيء من الأنس والصداقة. وزرت الدكتور بشير قصار وتعرفت عليه وهو رجل رزين عاقل ناضج، ولمحت منه الرغبة في السكون والهدوء فلم أكثر التردد عليه. ثم بحثت عن رفيق التميمي الزميل الثاني الذي ذكره لي الدكتور أحمد قدري وأنا أعرفه في المدرسة ثم في لقاءات في نابلس أثناء العطل كما ذكرت قبل، وعلمت أنه يتقلد مديرية المدرسة التجارية العربية الثانوية التي أنشأها عزمي، وقد علمت أن رفيقنا استطاع أن يدخل في ذهن الوالي وينال اعجابه وعطفه وثقته، فعرض عليه مديرية المدرسة التي قررت الحكومة انشاءها، فوافق فعين فيها، وكان قبل مدرساً في المدرسة الإعدادية ذات الصفوف السبعة، وقد شرحت شيئاً عن دراسته وصفاته وسيرته فلا ضرورة لزيادة شيء آخر. ولقد سر بلقائي ورحب بالتردد عليه، فكنت أفعل، ونتحدث في الأحوال والتوقعات في صدد الحرب والثورة العربية، ولم يتطرق الى ذكر جمعية الفتاة التي علمت بعد أنه كان عضواً في هيأتها المركزية

في سورية ولبنان، وأنا لم أخبره بدوري بانضمامي الى هذه الجمعية ولا أدري هل كان عرف بذلك أم لا. وعلى كل حال فإن تصرفه سليم لأن الموقف كان دقيقاً وخطيراً في سنتي 1916 و 1917، حيث كان جمال ما يزال شديد الطغيان والمطاردة لرجال العرب وازعاج أسرهم وتهجير بعضها، وكانت البلاد تئن من جبروته وقسوته. وكان رفيق يحاول أن يبدو هادئاً رزيناً منصرفاً للدرس والتعليم، وكان هذا مما وثق ثقة الوالي فيه وجعله ينتدبه هو ورفيقه بهجة الحلبي لجولة في أنحاء ولاية بيروت وكتابة كتابهما عنها على ما ذكرت في سيرته.

تعرفي ولقائي مع عبد الباسط فتح الله وشيء عنه:

وممن تعرفت بهم في بيروت عبد الباسط فتح الله، وكان على ما بقي في ذهني كاتباً أو محاسباً في البلدية. ولكنه كان فاضلاً واسع الاطلاع حسن الذوق في الأدب العربي والتاريخ العربي والتاريخ الإسلامي والأدب الغربي، وكان يحسن الافرنسية بالإضافة الى العربية والتركية، وكان متديناً ذا نزعة إسلامية وثقافة إسلامية، ولكنه كان إصلاحياً تجديدياً ذا أفق واسع، ورحّب بزيارتي لبيته، فصرت أتردد عليه مرة في الأسبوع بعد العصر أو بعد المغرب ونتجاذب أطراف الأحاديث المتنوعة. ونعمت بصحبته وانتفعت بها وكان أسن مني بنحو 15 سنة، وقد قرأ لي بعض كتاباته في الأدب العربي وكانت بليغة معنى ومبنى.

لقائي بالشيخ سعيد مراد وسكنه معي وتوافقي معه وشيء عنه:

والتقيت في بيروت بالشيخ سعيد مراد الغزي، وكنت التقيت به في نابلس بعد إعلان الدستور، حيث كان قاضياً شرعياً في جنين وجاء الى نابلس وحل ضيفاً في دار هاشم، وكان يقال عنه أنه عالم طلق اللسان متجدد، فذهبت مع الذاهبين لزيارته وأعجبت به وأعجب بي. وترددت عليه أكثر من مرة وكنا نتبادل الأحاديث في شؤون المسلمين ومبادىء الاسلام ووجوب المحافظة على الجوهر والتجديد والاصلاح بما لا يتناقض معه. فجددنا عهدنا وتعارفنا في بيروت، وكان هو فيها أستاذ في كلية الحقوق العربية التي أنشئت قبيل الحرب في بيروت، والتي كانت الدروس تدرس فيها باللغة العربية، وكان يدرس مجلة الأحكام الشرعية، وقد جمع محاضراته ونشرها في أجزاء وفيها ما يشهد له بحسن النظر وسعة الأفق وحسن الاستنتاج والعرض والتجدد والاصلاح مع الاحتفاظ بالجوهر نقياً صافياً، وحينما التقيت به كنت أسكن في البيت وحدي، وكان هو الآخر يعيش في بيروت بدون أسرة، فطلب مني أن أسمح بسكناه معي في غرفة من البيت الى أن تأتي أسرتي، ووافقت واشترى سريراً وفراشاً ومنضدة وكرسيين وبقينا معاً الى أوائل سنة 1918، وكنا نتناول الفطور في البيت وقل أن يتعشى، ونتناول الغداء منفردين في الخارج، ونسهر معاً ونتناول الأحاديث المتنوعة، وكان أسن مني بنحو خمسة عشرة سنة فنعمت بصحبته وانتفعت بها أيضاً.

وفي أوائل سنة 1918 نقلت مدرسته الى دمشق فسافر وأقام فيها مدرساً لأحكام المجلة، وبقي كذلك الى أن دخل فيصل الشام في تشرين الأول 1918 وظل مدرساً بعد دخوله في المدرسة التي أبقيت قائمة وصارت جزءاً من الجامعة السورية. ولما تقرر جمع مؤتمر سوري عام لمقابلة لجنة الاستفتاء الأميركي (على ما

سوف أشرحه فيما بعد) جاءه توكيل من غزة ليكون مندوباً من مندوبيها في المؤتمر، وكان عضواً نافعاً قومياً استقلالياً وحدوياً إسلامياً طليق اللسان جريء القول متجدداً.

وبعد أن أعلن الاستقلال في سورية تحت ملكية فيصل انقلب المؤتمر الى مجلس تأسيسي لوضع دستور جديد للدولة، فشارك مشاركة حسنة وجريئة في مناقشة مواد الدستور، وكانت له وقفة قوية في جانب حقوق المرأة ومساواتها، وما زالت صورة وقفته في ذهني حيث كان يخلع جبته وعمته ويبقى في السروال والصدرية الجوخ، ويسير على المسرح جيئة وذهاباً مقرراً آراءه الجريئة الإصلاحية الإسلامية الصافية عن المرأة في الاسلام وحقوقها وأهليتها، وكنت مثله صاحب موقف قوي في ذلك مؤيدين من كثيرين من الأعضاء الذين كانت جمهرتهم شبان متعلمون متجددون، حتى كدنا نحمل المؤتمر على اقرار مساواتها السياسية مع الرجل، وحقها في الانتخاب والترشيح للمجلس النيابي، لولا أننا رأينا مراعاة الظروف القائمة اذ ذاك. وكانت معارضة شديدة ولكن أصواتها في المؤتمر قليلة. وقد اكتفينا بتسجيل ما قلناه في المحاضر، وصرفنا النظر عن تقرير حقها في الانتخاب والترشيح للمجلس النيابي، مع النص على وجوب تمتعها بجميع الحقوق التي قررتها لها الشريعة الإسلامية من سياسية واجتماعية وثقافية ومالية ومدنية.

وظللنا على صداقتنا وتعاوننا مع الشيخ الى أن سقط العهد الفيصلي، فخرجت أنا من دمشق وبقي هو لأنه لم يكن متهماً بالغلو والنشاط السياسي المناهض لفرنسة. وبعد عامين أو ثلاث توفي في دمشق، وكان له زوجة وأولاد فرتب لهم مرتب تقاعدي وظلوا فيها، ودرس أولاده وتخرجوا وصاروا شباباً نشيطين، وكان في الشيخ الصديق شيء من الانفعال والحدة وشيء من الاعتداد بالنفس والغرور، ولكن هذا وذلك لم يكن يخرجه عن طوره وأدبه وحسن أخلاقه، ولم يكن يجر عليه عداء وكراهية، وكان يصطنع أسلوب الفلاسفة في الحديث. وقد أرخى شعر رأسه على طريقة جمال الدين الأفغاني. وكان له عادة أخذ الدوش البارد كل صباح، وكان يفعل ذلك في أشد أوقات البرد أيضاً رحمة الله عليه.

تعرفنا على جرجي باز وزوجته الدكتورة اناستاس وزيارتنا لهم وشيء عنهم:

وكان الشيخ قد تعرف على الدكتورة أناستاس زوجة جرجي باز الكاتب الشهير صديق المرأة وصاحب مجلة الحسناء ومحررها. وكانت الدكتورة فاضلة أديبة مشاركة في مختلف العلوم واسعة الأفق، وكان زوجها كذلك، وكان الشيخ يذهب الى بيتها مرة في الأسبوع فصرت أذهب معه لهذه الجلسة، وكان بيتهم في طريق النهر، وصرت بالتالي صديقاً للدكتورة وزوجها الفاضلين، وكنا في جلساتنا الأسبوعية نتناول مختلف الأحاديث الأدبية والاجتماعية، وكانا أسن مني قليلاً، ونعمت بالصحبة وانتفعت بها. وكان يتردد على بيتهما وندوتهما البيتية الأدبية أناس غيرنا مسلمين ومسيحيين، وكنت أجتمع ببعضهم في لقاءاتنا الأسبوعية ونسيت أسماءهم، وكان آخر عهدي بالزوجين خروجي من بيروت في خريف عام 1918 ولا أعرف ماذا صار أمرهما ومتى قضيا.

انكبابي على تقوية اللغة الفرنسية وأثر ذلك:

وفي أثناء إقامتي في البيت المفروش في بيتي الخاص، أخذت في تقوية اللغة الفرنسية

التي كان لدي فيها مبادىء لا بأس فيها، واشتريت بعض الروايات وقاموساً بمجلدين، ووجدت نفسي بمساعدة القاموس أستطيع أن أقرأ وأفهم، ورأيت أن أمرن نفسي على الترجمة منها، وكنت قرأت رواية رافائيل للكاتب الإفرنسي الشهير لامارتين وأعجبتني، فرأيت أن أحاول ترجمتها ونفذت عزيمتي وترجمت الرواية.

ولقد التقيت بعمر الفاخوري وأحمد المناصفي مرة أخرى في هذا الظرف، وصرنا نجتمع ونتحدث في مختلف الشؤون عودا على بدء، وعرفت أن عمر يجيد الإفرنسية فأخبرته بمحاولتي وأعطيته الكراسات التي فيها الترجمة فقرأها وقال إنها محاولة موفقة، ولقد فكرت في طبعها بعد الحرب، ولكن علمت أن كاتباً لبنانياً أظنه نقولا حداد كان ترجمها وطبعها، ولقد كان لي محاولة ثانية في هذا الباب وهذه الأثناء. فقد أخبرت رفيق التميمي بما كان من محاولتي في ترجمة رافائيل، فأعطاني كتاباً بالإفرنسية عنوانه دروس في التربية النظرية والعملية لأستاذ افرنسي كبير مشهور وهو كمبايرة، وأوصاني أن أحاول ترجمته أيضاً. وقد عكفت على ترجمة القسم الأول (النظري)، واستطعت أن اتممه بمساعدة القاموس. وتم ذلك في أوائل سنة 1918 وكان رفيق قد ترك بيروت وسافر الى دمشق، وعلمت بعد ذلك أنه كان عضواً في الهيأة المركزية للفتاة، وأن الهيئة استدعته لتكثيف الجهود في دمشق فسافر، واستطاع أن يدبر نفسه ويقيم في دمشق بدون أن يرتاب فيه، فلم أستطع اطلاعه على الترجمة. فظلت بين أوراقي، وعدت بها الى نابلس.

وكنت في دمشق في العهد الفيصلي تعرفت بساطع الحصري، وصار بيننا صداقة وانسجام على ما سوف أشرحه بعد، وكان قد ذهب الى بغداد بعد سقوط ذلك العهد حيث صار الملك فيصلاً ملكاً على العراق فالتحق به واشتغل في عهده الجديد، وأصدر في وقت ما مجلة في التربية، وكنت حدثته عن الترجمة وسر بالخبر، فأرسلتها اليه فأعجبته واقترح أن ينشرها ملحقاً بالمجلة، ثم يجعل من ذلك كتاباً برأسه[1] فوافقت ونشرها ملحقاً. وكان يطبع نسخاً زائدة ضمن الملحق فيجمعها، وصار منها كتاب برأسه، وأرسل لي بعض النسخ ولا تزال نسخة منها في مكتبي شاهد على جهدي. وكان طبع ساطع للترجمة شاهداً آخر على نجاح هذا الجهد. فساطع يجيد الإفرنسية أولا، وهو عالم في الأبحاث التربوية ثانياً، ومتشدد ومتزمت في هذه الأمور ثالثاً، وسيأتي كلام عن ساطع في مناسبات آتية.

إحضار أبي وأختي وزوجتي وزهير وحياتنا في بيروت معا بضعة شهور:

وفي أوائل سنة 1918 جاءت الأسرة من نابلس أبي وشقيقتي عريفة التي تكبرني ببضع سنين وزوجتي وزهير وكان عمره اذ ذاك ثلاثة أو أربعة أشهر لأنه ولد على ما أرجح في تشرين الأول أو الثاني 1917، وكان معهم الحاج فتح الله رفيق طريق. لأن أبي كان كالعاجز من مرض عينيه الذي تقدم كثيراً، واشتريت بعض الأثاث من سوق المفروشات المستعملة، وسار الأمر على هون، وكنت قبل ذلك رجوت الباشمدير بتعيين أخي مديراً لمركز جنين الشاغر، وكان المرتب يزيد عن مرتبه في نابلس (200) قرش أي (600) قرش، وكان ذلك ترقية له، وكان

(1) يقصد كتاباً مستقلاً كاملاً.

ذلك قبل مجيء الأسرة الى بيروت، وقد قسمنا الأسرة قسمين قسماً مؤلف من أمي وأخي وبنت عمي بدرية التي كانت في كنفنا، فذهبوا الى جنين وقدم الباقون الى بيروت.

ولقد استمرت قيمة الليرة بالهبوط حتى وصلت الى خمس قيمتها أو سدسه حينما جاء أبي مع قسم من الأسرة الى بيروت. ولكن ترتيب الحكومة باعطاء الموظفين مواد تموينية بالسعر الورقي الرسمي خفض عنا العناء والبلاء. حيث كنا ندفع في بيروت نحو ليرتين ورقيتين مقابل مواد لا يمكن شراؤها من السوق بأقل من خمسين ليرة، حيث كنا نأخذ نحو خمسة وعشرين كيلو طحين وبضعة كيلويات برغلا وعدسا وزيتا ولوبية ناشفة وسمنا ودبسا (كان السكر اذ ذاك نادراً) بالليرتين، وكان هذا شأن أخي في جنين. ولقد بدء بهذا الترتيب منذ أواسط عام 1917، حيث شحت مواد التموين في الأسواق وارتفع سعرها كثيراً، وكان ما يأخذه أبي في نابلس يكفي جميع الأسرة، وكنت في بيروت آخذ باسم أسرتي فأبيع بعض ما آخذ حتى أدبر أمر معيشتي في المطعم والبيت، وقد اهتممت لأمر عيون والدي وصرنا نتردد على طبيب المستشفى الأمريكي المختص (وابستر) الذي كان عاينه قبل فيعطيه بعض الوصفات المهدئة. وعلمت منه أنه ليس من أمل في الشفاء، وكل ما يمكن هو بقاء بعض بصيص فيه والحيلولة دون العمى التام، وظل الأمر كذلك الى أن توفاه الله في سنة 1927 على ماسوف أشرحه بعد.

تشجيعي أم زهير على السفور ونزهاتنا:

ومنذ وصلت زوجتي الى بيروت شجعتها على التطور والنزول سافرة الوجه، وكنت آخذها للتنزه في فرن الشباك ورأس بيروت كذلك، وقد احتفظت بالملاءة السوداء قطعتين، قطعة كتنورة وأخرى كبلوز كاس لظهرها وصدرها، وعلى رأسها منديل يغطي الشعر. وشجعت أختي على ذلك فاستجابت هي أيضا مع الحذر. فرآنا مرة أحد أبناء نابلس وزوجتي سافرة الوجه، فما كان منه حينما ذهب بالعطلة الى نابلس الا أن يشيع ذلك ويثير استهجان الناس، وتوسع البعض حتى قالوا إنني تفرنجت وأني وزوجتي نلبس البرنيطة، وكان هذا أمراً عظيماً في الأذهان ومستهجناً. وقد أبلغني ذلك بعض القادمين من نابلس، وقالوا إن كثيراً حملوا على أسلوب نشر الخبر، لأنه كان أسلوب إثارة ودافعوا عن أخلاقي القومية وأنكروا أن أكون لبست البرنيطة أنا وزوجتي.

تواثق بين أسرتنا واسرة عبد الحفيظ التنير ورضاعة زهير من زوجته:

وللصداقة الحميمة بيني وبين عبد الحفيظ التنير صار هو وزوجته يترددان علينا بعد قدوم الأسرة، ونسهر معا سهرات عائلية، وأسفرت زوجته أمامي حينما رأت زوجتي سافرة أمام زوجها، وكان زوجها قد تفتح وقنع بما كنت أقوله من واجب المساواة للمرأة ومنحها حريتها وحقوقها التي يقررها لها الشرع الإسلامي. وصارت العلاقة بيننا وثيقة حتى إنها أرضعت زهيراً في وقت كانت أمه مريضة، وفعلت زوجتي مثل ذلك لابنها مختار وهكذا صار لزهير أم وأخوة بالرضاعة في بيروت.

تموين الموظفين ضمن لهم الحياة في الغلاء الشديد والحرمان، وسقوط قيمة النقد التركي:

ولقد بدأ شح مواد التموين وارتفاع أسعارها

منذ أول سنة 1917، ثم استمر يشتد في بيروت ولبنان بنوع خاص، حتى لقد صار تجويعاً مع التنبيه على أن ذلك كان ملموحاً في مختلف أنحاء بلاد الشام بنسب متفاوتة نتيجة لما هو موجود من جيوش ومطلوب من تموين اليها، وزاد في حدة ذلك سقوط قيمة البنكنوت الى الثلثين ثم الى النصف ثم الى الربع ثم الى الخمس، ووصلت في أواسط سنة 1918 الى واحد من عشرين، أي أن ورقة البنكنوت الليرة التي كانت قيمتها الرسمية مائة قرش ذهبية صارت لا تساوي أكثر من ربع مجيدي. وكان الناس في بيروت ولبنان فئات بينهم الأغنياء الذين كان لهم من مدخراتهم الذهبية والفضية ما يساعدهم على التحمل، ومنهم المتوسطون الذين كانت لهم بعض مدخرات فأخذوا ينفقون منها، ولقد وصل ثمن رطل القمح (كيلوين ونصف) و(اقتين) الى مجيدي ومجيديين بل وثلاثة مجيديات.

حالة التموين والعوز في لبنان ومظاهرها وآثارها المريرة:

وكان الناس يذهبون الى سورية ليهربوا القمح وغيره الى لبنان، متعرضين لمختلف المخاطر. وكان كثير من الناس يعيشون على الأعمال والخدمات اليومية والسياحية في بيروت والجبل والمرفأ والبحر، فتضاءلت هذه الأعمال، ومنها ما توقف. وكان بعضهم يتلقى من أقاربه المغتربين مساعدات، فهذا أيضاً انقطع وصار الجمهور الأكبر من الناس أمام أزمة غذائية ومعيشية حادة، والمتوسطون أيضا ما لبثوا أن استنفدوا مدخراتهم، وصاروا أمام هذه الأزمة، والأغنياء المتحملون كانوا قلة. ولقد عمد أولئك الى بيع ما يرونه زائداً أو غير ضروروي من أثاث بيوتهم، وفتح السماسرة والدلالون صالات عديدة أخذت أثاث البيوت تتكدس فيها بعضها اشتراه السماسرة والدلالون وبعضها معروض للبيع على حساب أصحابه، وصار كل هذا يباع بثمن أقل من قيمته مرتين أو ثلاثا أو أربعا، فطقم الكنبايات العادي كان يمكن أن يشترى بعشرين أو ثلاثين ليرة بنكنوت، حتى بعد أن نقصت قيمة البنكنوت الى الثمن أو العشر، وكانت الخزائن بالمرايات تباع بعشرين ليرة، والأسرة بخمس ليرات، والمرآة الكبيرة لوحدها في إطارها بليرتين أو ثلاث، وصارت البسط تباع بثمن بخس جداً بالنسبة لقيمتها، ومع ذلك لم يكن هناك مشترون كثيرون. وكان الجمهور الأعظم عارضاً للبيع وليس قادراً على شراء. وقد زحف تجار دمشق وحلب فأخذوا يشترون ويخرجون بالأحمال الكبيرة والأثمان الزهيدة، ولم يكن من شأن هذا أن يقابل أزمة الجوع إلا أياماً ولماماً. فجاء دور بيع البيوت لمن يملك بيوتاً من المتوسطين والعمال والبحارة، ومن كان يعيش على الخدمات. ونشط هذا العمل فصار البيت الذي يساوي ألف ذهبية يباع بألفي ورقة بنكنوت أو ثلاثة آلاف، وقيمتها مائة ذهبية أو أقل، واشترى الأغنياء كثيراً من هذه البيوت، ومنهم من أجرها لأصحابها، ومنهم من أخرجهم منها، فكانت محنة جديدة. وصار زحف من الجبل على بيروت من صبيان وبنات هربا من الجوع الى الجوع، وصرنا نرى هياكل جلدية تمشي بصورة تفتت الأكباد من الثياب المهلهلة، ولم يكن هذا للآتين من الجبل، فقد كان ذلك صورة من كثير من المقيمين أصلاً في بيروت، ولم تكن هذه الصورة محصورة في الأولاد فقد كان لكثير جداً من الكبار في مختلف الأعمار،

وصار الجوع والمرض يفتك بالناس فتكاً ذريعاً، وصار الناس يموتون في السكك والأولاد في المزابل، وهم يبحثون فيها عن القشور والفتات والنفايات المكبوبة. ورأيت ذلك أكثر من مرة، وقد صرت أخصص يومياً رغيفين سميكين أقطعهما قطعاً صغيرة وأوزعهما على أولاد الحارة الجائعين، وتسامع أولاد آخرون فصاروا يأتون زرافات ويقفون في الأرض العراء التي أمام البيت ويتزاحمون على التقاط قطعة خبز، ولقد تكررت أخبار أكل الناس في بيروت والجبل الهرر والكلاب وجيف الموتى، وقيل إن أمهات أكلن جيف أطفالهن.

***

اشتداد الحرب من جبهة سيناء:

ولقد كان خروج روسية من الحرب نتيجة للثورة الاشتراكية التي انفجرت في أكتوبر 1917 ضربة شديدة للحلفاء، غير أن دخول الولايات الأميركية للحرب الى جانبهم خفف هذه الضربة، بل ومنح الحلفاء قوة جديدة جعلتهم يشددون هجماتهم في أوروبا ويضيقون الخناق على الجبهات الأخرى للالمان وحلفائهم، ولقد ظلت الولايات المتحدة واقفة على الحياد إلى أواخر سنة 1916، وكان الألمان يوقعون في القوات البحرية الإنكليزية خسائر جسيمة بغواصاتهم، وصارت أصوات الاستغاثة والدعاية ترتفع في الولايات المتحدة مطالبة بالمدد والغوث. وكانت البواخر الاميركية تحاول إمداد الحلفاء بالمؤن غير الحربية فتصدت لها غواصات الألمان أيضاً، فصار ذلك ذريعة لإعلان الحرب والدخول فيها ضدهم.

سقوط الأقسام الجنوبية من فلسطين بما فيها القدس في أواخر سنة 1917:

ولقد كنت ذكرت أن الحركات الحربية تجددت بين القوات العثمانية والانكليزية في سيناء في أواخر سنة 1916، ولقد استمرت بطيئة بضعة أشهر ثم اشتدت اتساعاً مع اشتداد الحرب في الجبهات الاخرى في أواسط سنة 1917، ولا سيما بعد دخول الولايات المتحدة، وسمعنا حينئذ أن القوات الانكليزية وحليفاتها اكتسحت سيناء مطاردة للقوات العثمانية، واستطاعت في أواخر هذه السنة أن تستولي على المنطقة الجنوبية من فلسطين أي الحفير وبئر السبع وغزة ويافا واللد والرملة والخليل والقدس، وكان احتلالها للقدس في 9 كانون الأول 1917، ثم توقف الزحف وصمد العثمانيون في خط السلط - نابلس - الناصرة بضعة أشهر أي ايلول 1918، حيث جدت القوات الإنكليزية وحليفاتها واستطاعت أن تكتسح بقية فلسطين وتطارد القوات العثمانية وتجعلها تفر من أمامها الى دمشق ثم الى حلب ثم الى الأناضول. وكانت قوات الثورة العربية بقيادة فيصل قد نشطت بدورها في مطاردة القوات العثمانية وتدمير طرق مواصلاتها وتموينها في جبهة العقبة في شرق الأردن وحوران، فسارعت بدورها الى دخول دمشق في أول تشرين الأول 1918.

موقف وحالة الموظفين وتدابيرهم:

ولقد سبق دخول فيصل دمشق ساعات مثيرة وعصيبة. ففي بيروت حيث كنا شاهدين حزم الوالي ومتصرف لبنان وكبار الموظفين الترك بل وغير كبارهم ومن جملتهم باشمديرنا الذي كان اسمه ساكن أفندي ورئيس الكتاب وغيرهم،

حزموا حقائبهم وخرجوا مسرعين من بيروت نحو حمص وحلب ليلتحقوا بالجيش المنسحب، وكتب الوالي كتاباً لعمر الداعوق وكان رئيساً للبلدية وهو بالمناسبة من الرجال العقلاء الحكماء الهادئين والحازمين معاً، يعهد اليه فيه بحكم البلاد مؤقتاً، ويمنحه الصلاحيات المطلقة في ترتيب الأمور، فانتقل الى سراي الوالي وأذاع بياناً بتوليه الحكم وحظر حمل السلاح واستعماله ومخالفة القوانين المرعية، وأمر موظفي الدوائر بالاستمرار في أداء مهماتهم بإخلاص. وألف لجنة أو مجلساً مساعداً استشارياً كان منه على ما أذكر أحمد مختار بيهم وسليم علي سلام، وهما من رجال الحركة الإصلاحية، وقد نجوا من بطش جمال لأنهما انسجما مع الدولة بعد مؤتمر باريس، وظلا منسجمين، وكانا معهما في المجلس الاستشاري وجيه من النصارى، وسرت شائعات بأن طلائع الثورة العربية في نواحي القنيطرة مرجعيون، فذهب أحمد مختار بيهم مع بعض الرجال لاستطلاع الأمر، ثم عادوا بدون خبر صحيح إلا معرفة ألوان العلم العربي الذي كان مرتفعاً على منطقة القنيطرة، وهو علم الثورة وعلم الملك حسين رقاع أفقية من قماش بيضاء فسوداء فخضراء مقطوعة في وسطها بمثلث أحمر.

الأعلام العربية الهاشمية على أنحاء لبنان:

وسرعان ما صنع من هذا العلم مئات رفعت على السراي ودوائر الحكومة في بيروت والجبل والمناطق الأخرى التابعة لولاية بيروت والقريبة منها مثل صيدا وصور ومرجعيون الخ.. وكنا في دائرة البرق نستطلع الأخبار من دمشق، فعلمنا أن والي دمشق ومن فيها من ضباط وموظفين أتراك حزموا بدورهم حقائبهم وسارعوا للالتحاق بالجيش المنسحب نحو حلب والأناضول، وأن الوالي أعطى كتاباً لشكري الأيوبي يعهد اليه فيه بالحكم، وأن شكري ألف حكومة مدنية برئاسة الأمير سعيد الجزائري، وأن هذا أذاع بياناً بذلك وخرج الى لقاء فيصل الذي عرف أنه يقترب مع كتائب الثورة وضباطها في حوران، وأن فيصل طلب منه الاستمرار في الحكم باسمه، وأن الأعلام العربية مرفوعة على كل مكان في أنحاء سورية، وما لبثنا أن أخبرنا بدخول فيصل على صهوة جواده ومعه كتائب الثورة ومن كان منضماً اليها من مجاهدين وضباط شاميين وعراقيين، ولقد اشتد بي الحماس والانفعال في هذه اللحظة حتى قذفت بطربوشي الى سقف قاعة آلات البرق، ومما أخبرنا به موظفو برق دمشق أن فيصل أذاع بياناً أعلن فيه استقلال سورية وعين علي رضا الركابي حاكماً عاماً، وذهب الى حلب على رأس بعض كتائبه لإتمام الوجود الثوري العربي، وأنه معه بعض كتائب انكليزية كحليفة صديقة أيضاً.

شكري الأيوبي وكيلاً لفيصل في لبنان:

وبعد بضعة أيام قدم شكري الأيوبي الى بيروت كحاكم عربي عام على بيروت وجبل لبنان من قبل الأمير فيصل، وكان معه فيما كان جميل الألشي وهو ضابط سوري ومحمد رستم حيدر من شباب العرب القوميين البارزين ومن مؤسسي الفتاة، وصديقنا الدكتور أحمد قدري. وكان الأول بمثابة أركان حرب للحاكم العام والآخران كمستشارين له. وقد أعلن أنه يتولى الحكم باسم الأمير فيصل. وعين حبيب باشا السعد الزعيم الماروني رئيساً للحكومة، وألف هذا حكومة إسلامية نصرانية. ولقد كان ابتهاج

المسلمين في بيروت عظيماً وارتفعت الأعلام العربية في كل أنحاء لبنان وتوابع بيروت الأخرى.

لقائي بالدكتور أحمد قدري الذي جاء معه وتكليفه لي بالذهاب الى دمشق :

وذهبت أنا الى السراي وقابلت الدكتور أحمد قدري، ولم أكن تعرفت على محمد رستم ولا على جميل الألشي، وقد عرفني بهما وطمأنني بأن الأحوال حسنة والبوادر مشجعة والاستبشار العربي عام، وطلب مني التوجه الى دمشق وقال لي إن أعضاء جميعة الفتاة يتوافدون من كل ناحية اليها ليبذلوا جهودهم ونشاطهم في تركيز الوضع والعهد، وأن الجمعية التي فيصل منها هي في الحقيقة عماد هذا العهد وحزبه. ولكن الحالة ما لبثت أن تبدلت في بيروت حيث جاء الى مياهها بارجتان افرنسيتان، ثم جاء من ناحية مرجعيون وصيدا كتائب افرنسية احتلت بيروت، ثم أخذت تحتل أنحاء الجبل والساحل، وحيث جاء أمر لشكري الأيوبي من فيصل بإنزال الأعلام العربية والعودة الى دمشق مع من معه، فتم ذلك وأنزلت الأعلام وعاد الأيوبي ومن معه عدا جميل الألشي الذي عرف أنه أبقي ليكون ممثلاً لفيصل لدى الحكم العسكري الجديد الذي قام في بيروت ولبنان والسواحل السورية الأخرى وعلى رأسه حاكم افرنسي اسمه بياب.

موقف النصارى وموقف الإفرنسيين، وانقلاب الموقف وعودة شكري الأيوبي وقيام السيطرة الإفرنسية :

ولم ترفع أعلام ما على المنطقة، ولقد تجمع خلق كبير على الميناء لمشاهدة البارجتين الإفرنسيتين، فكان الاستبشار بادياً على وجوه النصارى والوجوم والشعور بالخيبة على المسلمين، ولمحنا ذلك بأنفسنا لأننا كنا ممن ذهب الى الميناء أيضاً. وأنبه على أن النصارى كانوا إجمالاً في وجوم واكتئاب في الفترة التي جاء فيها شكري الأيوبي ، ورفعت الأعلام العربية مقابل الاستبشار العظيم الذي كان من المسلمين ، فتبدلت الحالة بتبدل الموقف . ولم أستطع أن أرى الدكتور أحمد قدري قبل عودته لأفهم سر هذا التبدل المفاجىء الأليم ، وقد عرفنا بعد أن الحكومة الإفرنسية احتجت للانكليز على مجيء شكري الأيوبي حاكماً عاماً باسم فيصل الى بيروت ، وارتفاع الأعلام العربية فيها وفي سائر ربوع لبنان وسواحلها بحجة أن ذلك مخالف لما بينها وبينهم من اتفاق.

تقسيم مناطق الاحتلال تحت قيادة اللنبي :

والاتفاق يقضي بأن تكون سورية جميعاً داخلاً وساحلاً من حصتها في تقسيم إرث الدولة العثمانية ، على أن تكون السواحل ولبنان تحت إدارتها المباشرة واحتلالها . وعمدت الحكومة الانكليزية الى معالجة الموقف لصالح فرنسا ، فكان من ذلك أن كتب اللنبي القائد العام لقوات الحلفاء في الجبهة العربية للأمير فيصل يفهمه فيه أنه ليس إلا قائداً لكتائب الثورة العربية تابعاً لقيادته العامة وأمره بالتالي ، ويطلب منه سحب الأيوبي وإنزال الأعلام العربية ، ويخبره أنه وافق على احتلال الكتائب الفرنسية للبنان وسواحل سورية ، وقيام حكم عسكري على رأسه ضابط فرنسي كبير ، مع توضيح بأنه ينطلق مما قال وفعل من اعتبارات عسكرية بحتة وليس سياسية ، وان ذلك ليس من شأنه أن يؤثر على أي نتائج سياسية مستقبلاً .

وقد أذيع بعد ذلك أو على أثره من قيادة

اللنبي العامة أن بلاد الشام قسمت الى ثلاثة مناطق عسكرية وسميت رسمياً ببلاد العدو المحتلة ، وجعلت المنطقة الجنوبية (فلسطين) تحت احتلال وحكم عسكري إنكليزي مؤقت ، والمنطقة الساحلية (بيروت ولبنان وسائر سواحل سورية) تحت احتلال وحكم عسكري فرنسي مؤقت . والمنطقة الوسطى (ولايتا حلب وسورية) تحت احتلال وحكم عسكري عربي على رأسه الأمير فيصل . ولقد احتج الملك حسين والأمير فيصل على ذلك ورأياه مناقضاً لما بينهما وبين الإنكليز من عهود ووعود ، وأنه تنفيذاً للاتفاقات السرية التي احتجا عليها والتي سارعت بريطانيا الى تهدئتهما بقولها إن تلك الاتفاقيات قديمة ، وإن الأمور قد تبدلت بعد النجاح الباهر الذي أحرزته الثورة العربية على ما ذكرناه قبل . ولكن احتجاجهما لم يؤثر على ما تم ، وقيل أنه ينطلق من اعتبارات عسكرية .

البيان الإفرنسي الإنكليزي للتطمين والتهدئة :

ولقد أذيع بعد قليل أي في 8 تشرين الثاني 1918 بيان إفرنسي إنكليزي في جميع بلاد الشام والعراق بهذا النص :

«إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسة وأنكلترة في الشرق تلك الحرب التي أهاجتها مطامع الألمان انما هو لتحرير الشعوب التي رزحت أجيالاً طويلة تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائياً وإقامة حكومة وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً ولقد أجمعت فرنسة وانكلترا على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعينا على اقامة هذه الحكومة والإدارات الوطنية في سورية والعراق المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما في الأراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها وأن تساعدا هذه الهيئات وتعترفا بها عندما تؤسس فعلاً وليس من غرض لفرنسة وانكلترا أن تنزلا أهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدانه ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التي يختارها الأهلون من ذات أنفسهم وأن تضمنا لهم عدلا منزها يساوي بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية في البلاد بإحياء مواهب الأهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذي أفضت اليه السياسة التركية تلك الأغراض التي ترمي اليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحررة » .

وقد أرسل البيان برقياً الى الأمير فيصل ، حيث يظهر أن فرنسة وبريطانيا أرادتا أن تهدئاه وتهدئا أهل البلاد معاً بسبب ما تم من تقسيمات واحتلالات وتسميات عسكرية . ولقد اعتبر فيصل البيان ايجابياً واعتبره كثير من رجال الحركة العربية كذلك بالنسبة للقضية العربية ، في حين أنه واضح من نصه انه بعيد كل البعد عن كل ما كان يتصوره الشريف حسين وفيصل في مصير البلاد العربية المحررة ، ومتسق كل الاتساق مع المآرب الاستعمارية الإنكليزية الإفرنسية في بلاد الشام والعراق ، حيث تجعل فرنسة وبريطانية نفسيهما الأصل والعماد والمانح والمساعد ، وليس فيه أية اشارة الى جهاد العرب وثورتهم ودمائهم في جانبهما في سبيل حرية بلادهم واستقلالها ووحدتها ، ولا الى ما قطع لهم من عهود ووعود ، والنقطة الايجابية الوحيدة هي القول أن الدولتين ستحترمان ما يختاره الأهالي ويقررونه من الحكومات والادارات ، ولكن ذلك مقيد باستمرار هيمنتها

على كل حال ، وقد عرفت فيما بعد أن الدولتين بعد أن انسحبت روسية من الحرب نتيجة للثورة الاشتراكية وأذاعت الاتفاقات السرية اجتمع مندوبون عنهما (سايكس عن الانكليز وبيكو عن الإفرنسيين) ، وأكدا في اتفاق جديد ما جاء في تلك الاتفاقات الثلاثية من تقسيم الحصص في بلاد الشام والعراق بينهما ، حيث صار الاتفاق ثنائياً بعد أن كان ثلاثياً يشمل حصة روسية ، دون أن تبالي بريطانيا بما كان من التهدئة للملك حسين حينما نشرت الثورة الروسية الاتفاقات . وقولها إن الأمور تبدلت بعد إن نجاح الثورة العربية الباهر وبما في ذلك من ختل وغدر وخيانة.

حالة حكم فيصل والركابي في الشام:

ولقد قلنا إن الأمير فيصل أذاع منشورا حينما استتب له المقام في سورية في الخامس من تشرين الأول 1918 وقد جاء في هذا البيان: (بأنه تشكلت في سورة حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة لجميع البلاد السورية وأنه عهد الى رضا الركابي باشا بالقيادة العامة للحكومة المذكورة).

ولقد اعتبر فيصل نفسه الرئيس الأعلى للسلطة في سورية. وتشكلت حكومة مديرين لمختلف الدوائر برئاسة الركابي ، وأخذت عجلة الحكم العربي تدور في دمشق، وأرسل شكري الأيوبي الى بيروت ليكون حاكماً عسكريا على بيروت والجبل والسواحل نتيجة لنجاح الثورة العربية ولأحداث أمر واقع. مع أن تبليغات اللنبي التي ذكرناها سابقا والتي كان من نتيجتها انزال الاعلام العربية وسحب الأيوبي وتقسيمات المناطق العسكرية وتسميتها باسم بلاد العدو المحتلة كانت صدمة لفيصل وبمثابة نقض لما جاء في منشوره المذكور آنفاً، فإنه كابر واستمر في اعتبار نفسه حاكما عربيا تابعاً للسلطان حسين كما سماه، وفي إدارة الحكم في سورية الداخلية التي دخلتها كتائب الثورة ادارة عربية مستقلة. وقد اعتبر رضا الركابي رئيسا للحكومة رغم عنوانه (الحاكم العسكري)، وأنشىء الى جانبه حكومة مديرين بمثابة وزراء، فكان: للداخلية مدير وللمعارف مدير وللزراعة مدير وللعدلية مدير وللمالية مدير وللحربية مدير الخ.. ونظمت الدوائر وسد ما فيها من فراغ، وأنشىء الى جانب ذلك تنظيم عسكري باسم مجلس الشورى الحربي، وعهد برئاسته لياسين الهاشمي للاهتمام بتنظيم القوات الحربية للدولة، وقد سايرت السلطات الإنكليزية ذلك كله وسكتت عنه، وكانت لها في هذه المسايرة مصلحة لابتزاز فرنسة على ما سوف نشرحه بعد.

* * *

خواطر وتعليقات لمواقف المسلمين والنصارى في لبنان:

قد رأينا من المفيد أن نعلق تعليقا استطراديا على ما كان من تبدل في لبنان والسواحل ومنطلقاته ومظاهره القديمة والحديثة، فنقول إننا ذكرنا قبل أن المسلمين في بيروت والسواحل قابلوا أخبار نجاح الثورة العربية ودخول فيصل للشام وإعلان استقلال البلاد السورية وارتفاع الأعلام العربية ومجيء شكري الأيوبي الى بيروت بالابتهاج والاستبشار والحماس، وأن النصارى سايروا الموقف ورفعوا الأعلام إلا أن الوجوم كان باديا على أكثرهم، ثم انقلبت حالتهم الى ابتهاج وحماس حينما تبدل الموقف

وأنزلت الأعلام وعاد الأيوبي واحتلت القوات الأفرنسية بيروت والجبل والسواحل، وقام حكم عسكري فرنسي فيها، مع أن الثورة التي قادها الحسين وأولاده وكان دخول فيصل للشام وارتفاع الاعلام في ربوع لبنان والسواحل وقدوم الأيوبي نتيجة لها هي ثورة عربية بحتة، وظاهرة من ظواهر الحركة العربية التي ساهم كثير من نصارى بلاد الشام وبخاصة لبنان في الوطن وخارجه فيها منذ أواسط القرن السابق، وكانت الهتافات الأولى للعرب بالنهوض والاستقامة والتخلص من حكم الترك واستعادة المجد العربي والتمتع بالاستقلال والحرية هي هتافاتهم في مناشيرهم ومؤلفاتهم وصحفهم وقصائدهم على ما فصلناه في كتابنا (نشأة الحركة العربية الحديثة)، وقد هدفت الى تخليص بلاد العرب من حكم الترك الذي ثقل على المسلمين والنصارى معا، والذي وقف من مطالبة العرب المسلمين والنصارى بحقوقهم في الدولة موقف المناوىء بعد الدستور، وقاسى المسلمون والنصارى منه ما قاسوه من اضطهاد وحصار وتجويع ومطاردة واعتقالات ومحاكمات واعدامات وسجون وتشريد، والى تأمين الاستقلال والحرية والوحدة لها، وفتح الطريق لاستعادة الأمجاد العربية، ولقد سارع فيصل قبل أن يرسل الأيوبي الى الاعلان بأن الحكم الجديد يتوخى العدل والمساواة لجميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم، ولقد عمد الأيوبي حينما جاء الى بيروت الى تعيين ماروني كبير رئيساً للحكومة كبادرة من بوادر التطمين.

ونحن نعرف أن ما ظهر من النصارى من وجوم أولا وابتهاج واستبشار حينما جاء الأفرنسيون هو حصيلة غسل دماغ مديدة تخفي وراءها مطامع ومآرب استعمار قديمة وحديثة أفرنسية في بلاد الشام، بعد أن سبق تحقيق مثل ذلك في المغرب الأقصى والجزائر وتونس، متوسلة بما كان من صلات سياسية بين ملوك فرنسا وبطاركة الموارنة ورجالاتهم، استمراراً لصلات تصل الى عهد الصليبيين بل أبعد. وبما كان من تظاهر بالحماية ومبادرات تدخل من فرنسا في ظروف فتن طائفية كانت يدها ظاهرة في إثارتها، وبما كان من بعثات تبشيرية وثقافية تولت نشر اللغة الأفرنسية والثقافة الأفرنسية، حتى كادت تجعل كثيرين من معظم الموارنة الكاثوليك أفرنسيين أكثر منهم عربا، وتجعلهم يتعلقون بفرنسة وتاريخها وثقافتها وحمايتها أشد التعلق ويسمونها (الأم الحنون)، وصارت اللغة الأفرنسية لغة تخاطب أكثريتهم في البيوت والتعامل دون العربية، وكانت تثير عبر ذلك كله، وتحقيقاً للمآرب النزعات الطائفية الضيقة فيهم، والكراهية للعرب والعروبة والاسلام والمسلمين، وتوحي اليهم بانبتات صلتهم بالجنس العربي واتصالها بالفينيقية أو بالصليبيين. ولقد كان من آثار ذلك في أثناء الحركة الاصلاحية التي قامت في سني 1911 ـ 1913 واندمج فيها وجهاء النصارى الى جانب المسلمين، والتي كانت تطالب بحقوق العرب في بلادهم والاستقلال الذاتي لها أن قدم بعض أولئك الوجهاء عريضة لفرنسة يعتذرون فيها عن اندماجهم في هذه الحركة مع المسلمين، ويقولون ان ذلك هو مسايرة للموقف وتأنيسا للمسلمين، وأنهم متمسكون في كل وقت بأمنية ومطلب الحماية الأفرنسية للبلاد السورية[1].

---

(1) صودرت صورة هذه العريضة من القنصلية الافرنسية في بيروت فيما صودر من أوراق عشية دخول الدولة العثمانية =

ولما احتلت القوات الإفرنسية بيروت والجبل والساحل اهتمت أجهزة الدعاية الأفرنسية لتثبيت كل ذلك في أذهان النصارى وبخاصة الموارنة والكاثوليك الشديدي الارتباط اللغوي والثقافي بفرنسة، ولبث الخوف بصورة خاصة من الحكم الشريفي الذي كانوا يعنون به حكم الحسين وفيصل، وما سوف ينتج عنه من حكم اسلامي وخلافة اسلامية بعد أن تخلصوا منها بزوال الدولة العثمانية.

ولقد جاء فيصل في أوائل سنة 1919 الى مؤتمر السلم الذي عقده الحلفاء المنتصرون في باريس ممثلا لأبيه الذي كان يعد حليفا، وطالب باستقلاق سورية جميعها ووحدتها وحريتها، وذكر بثورة العرب التي قادها والده، وكان هو أحد قوادها وباشتراك كثير من أهل سورية فيها اعتمادا على وعود بريطانيا بتحقيق قيام مملكة عربية مستقلة في البلاد العربية المحررة، فانبرى له مندوبو فرنسا ينكرون عليه حق الكلام عن سورية، ويدعون أن فرنسا هي المؤهلة لقيادتها وضمان نهوضها وتقدمها نظراً للوشائج الوثيقة والمصالح الكثيرة التي لها فيها دون الشريف حسين وابنه فيصل، واستعانوا برجال من نصارى لبنان دينيين وغير دينيين لتأييدها، وقد فعلوا. ولقد كان من هؤلاء رجل كان يتظاهر بالعروبة ومندمجا في الحركة العربية بعد الدستور وداعياً في جملة الداعين الى مؤتمر باريس الذي كان يهدف الى تقليص سلطات الدولة العثمانية عن بلاد الشام ومنحها استقلالاً ذاتياً وحقوقاً قومية كانت مهضومة في الدولة،

وهي نفس الدعوة التي كان رواد النصارى الأولون اللبنانيون يدعون اليها ويهتفون بالعرب من أجلها ونعنى به شكري غانم، وجاء هذا (العروبي) الى مؤتمر السلم مؤيدا لفرنسا انكارها على فيصل حق المطالبة باستقلال وحرية بلاد الشام، ودعواها بأنها المؤهلة لقيادة هذه البلاد أي مؤيدا لاستعمارها من قبل فرنسة، بدلا من استقلالها تحت الراية العربية.

وقد يثير هذا الظنون والتساؤلات عما اذا لم تكن أصابع الاستعمار المستترة ببعثات التبشير والتعليم والتطبيب التي أخذت تؤم بلاد الشام ولبنان وبيروت في الجملة في القرن السابع عشر وراء تلك الهتافات التي كانت تصدر من النصارى الأوائل للعرب، بقصد هدم الدولة العثمانية التركية المتسمة على كل حال بالسمة الإسلامية والخلافة الإسلامية، وتقسم بلادها تقسيما استعمارياً نتيجة للاضطرابات التي كانت تثيرها مثل تلك الهتافات والتحركات والتجمعات التي أخذت تقوم في أنحاء بلاد الشام منذ ذلك الوقت، أو عما اذا لم تكن تلك الهتافات محلية قصدت لبنان وسورية وحسب، ولم تقصد العرب في جميع بلادهم، أو لم يكن أصحابها يتصورون على أي حال استجابة لها في أوائل القرن الحاضر بثورة يقودها شريف مكة المرشح لحكم العرب، الذين أكثرهم مسلمون، ويعيد الخلافة بها الى العرب بعد ازالة الخلافة العثمانية المزيفة.

ونحب أن نحسن الظن بأولئك الأوائل، ونرجح صدقهم وإخلاصهم في هتافاتهم وعواطفهم الاستقلالية العربية بقطع النظر عن المثل السيء المتناقض الذي تمثل في موقف شكري غانم وأضرابه، ولا سيما أنه كان يقينا كثيرون من مختلف طوائف نصارى لبنان

= الحرب إلى جانب الألمان ونشرت في كتاب (إيضاحات) الذي نشر باسم قيادة الجيش الرابع، وقد أوردنا نصها في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة.

بالإضافة الى سائر أنحاء سورية أظهروا أثناء اشتداد الحركة العربية بعد الدستور العثماني حماسا للعروبة وحقوقها وللثورة العربية، وتعرضوا للاضطهاد والمطاردة والأحكام الرهيبة، وثبتوا الى ما بعد سقوط الدولة العثمانية. ومنهم من احتج على تقسيم سورية لمناطق عسكرية احتلالية، ومنهم من اشترك في المؤتمر السوري العام الذي انعقد في دمشق سنتي 1919 ـ 1920، وقرروا وحدة سورية واستقلالها تحت ملكية فيصل ورفض كل أشكال الاحتلال والانتداب والوصاية والحماية، وإنكار أي دعوى بأي معنى لفرنسة في أي ناحية من أنحاء سورية ولبنان، ومنهم من ناوأ الاحتلال الافرنسي في بيروت والسواحل، وظل يناوئه ويتعرض بسبيل ذلك للاضطهاد والمطاردة الى أن زال ونال لبنان وسورية معا استقلالهما التام في سنة 1945.

* * *

سبعة وتسعون عاماً في الحياة

1305 ـ 1404هـ / 1887 ـ 1984م

مذكرات وتسجيلات

محمد عزة دروزة



جمعية العربية الفتاة والعهد الفيصلي في دمشق (الحكومة العربية السورية).



الوثيقة : رسالة محمد عزة دروزة الى المقطم حول وحدة فلسطين مع سورية

المصدر : المقطم ١٧ آذار ١٩١٩

حضرات الافاضل أصحاب المقطم

قرأنا في العدد ١٧ من جريدة فلسطين مقالة لكاتب اديب بعنوان " استقلال فلسطين " انحى فيها باللائمة على الذين يتشوقون ويطالبون باستقلال فلسطين وهي على ما هي عليه من الضعف والفساد فاعجبنا بالنظريات الصحيحة والنظرات الصائبة التي احتوت عليها تلك المقالة مما يدل على بعد نظر كاتبها الاديب وتقدمه الى حقائق الامور. غير اننا رأينا ان ما بنى حضرة الكاتب عليه مقالته من طلب الناس لاستقلال فلسطين وحدها لم يكن بالواقع الذي تدعمه الاغلبية فضلاً عن الاكثرية في البلاد فقد دققنا في رغبات سكان هذه المقاطعة التي اطلق عليها المؤتمر العربي الذي عقد اخيراً في القدس اسم سورية الجنوبية وهو التسمية الصحيحة والمعقولة - واجتمعنا بهم وشهدنا مؤتمرهم (١) فلم نر الا افراداً قليلين جداً يطلبون استقلال فلسطين وحدها وليس لديهم من البرهان ما يقف امام الحجة الدامغة. على ان هؤلاء الافراد ايضاً قد رجعوا عن فكرتهم هذه وانما ظلوا متمسكين باعتبارات واعتقادات وهمية لا تمس جوهر القول بشيء

اما السواد الاعظم من السكان وارباب الفكر فانهم يعدون مقاطعتهم ليست قطعة مستقلة على حده ولم تكن كذلك الا في مدة قصيرة من عهد اليهود منذ خمسة وعشرين قرناً وانهم ليسوا بالامة المستقلة التي كونتها الاجيال وامتزجت من العناصر المختلفة وتبلبلت لغاتها واصبحت اهواؤها واستحكم فيها التعصب بل هي جزء طبيعي من سورية العربية تربطها جميع الاعتبارات التي تربط بلداً مع بلد وتجعلهما شيئاً واحداً وتسعة اعشار السكان فيها عرب خلص وليس بينهم اصول عديدة الا قليل ادغمته القرون في القومية العربية وهم بناء على هذه الاعتبارات يرفضون رفضاً باتاً كل فكرة ترمي الى اعتبار فلسطين قطعة مستقلة واعتبار اهلها امة قائمة بذاتها لان ذلك ليس من الحقيقة في شيء وهم يطلبون ان لا تسلخ بلادهم بحال من الاحوال من سورية وقد جعلتها قلباً واحداً ويصرحون بما يصرح به كل عربي مخلص وهو عدم تجزئة الاقليم السوري وان يكون مستقلاً استقلالاً عربياً على ان يختار الاستعانة بأمة راقية في خطوات حياته الاولى دون ان تمس كرامته واستقلاله السياسي

هذا هو المطلب الحقيقي والمعقول الذي يتمسك به سكان البلاد وارباب الفكر فيها والذي يوافق النظرية التي اجازها لهم مؤتمر الصلح

يزيد على الداعي الطبيعي والقومي اللذين يدعوانهم الى هذا التمسك ان هناك داعياً آخر هو خوفهم من تيار المهاجرة الجارف يتهددهم بالكثرة قد تمر عليهم بضع سنوات قليلة - اذا انفصلوا عن المجموع العربي لا سمح الله - الا تلاشوا وغدوا في خبر كان والذي اخذوا يرونه في هذه الايام متجسماً هائلاً ترتعد فرائصهم له وتنخلع منه قلوبهم

نعم هذه هي آمال الاهلين التي يتحدث بها كل واحد منهم والتي يرفعونها في كل آن الى الحكومة المحتلة صاحبة الفضل في انقاذهم وتحريرهم وهي الحقيقة التي نريد ان يفهمها كل انسان والتي يمكن لكل انسان ان يفهمها بالتدقيق والاختبار

وقد اعتقد حضرة الكاتب يريد ان يناقش في موضوع استقلال الشعب العربي في الاقليم السوري وفي مقدار استعداده للحكم الذاتي وقد سلم بذلك مؤتمر الصلح مبدئياً واغنانا فيه عن القيل والقال . ولم يبق ثمة الا مسألة الانتداب

نابلس محمد عزة دروزة

نشرت جريدة المقطم/القاهرة بتاريخ 17 آذار 1919 رسالة من محمد عزة دروزة حول وحدة فلسطين مع سورية ـ وكانت من أوائل ما نشر حول هذا الموضوع.

وأن الوقائع التاريخية تثبت أن الرفض العربي للانتداب والمخططات الصهيونية بدأ منذ أن اطلع العرب على هذه المخططات وعلى دور بريطانيا.

الدفاع
العـدد ١٣٦ — الجمعة ٢٥ حزيران ١٩٢٠

بيـان حقيقـة

جرى بيني وبين احد صاحبي المفيد حديث في شان الاجتماع برجال الصهيونيين بينت له فيه ماجرى معي وما علمته في هذا الامر نشر الحديث مقتضبا فكتبت له كتابا رجوته فيه ان ينشره اتماما وتوضيحا اذا كان الحديث حديثي فلم ينف انه حديثي من جهـة ولخص الكتاب تلخيصا لم اره كافيا من جهة اخرى ، لذلك ارجوك ان تنشر لي هذه الكلمات وهي الكتاب الذي ارسلته لصاحب المفيد القراء ولك الفضل :

قرات في مفيد اليوم حديثا لكم مع احد الشبان الفلسطينيين في شان الاجتماع برجال الصهيونيين وحيث انني تحادثت امس معكم في هذا الشان وبما ان ما نشر نقصا واقتضابا فارجوكم اذا كـان الحديث الذي نشرتموه هو حديثي أن تنشروا لي هذه الكلمة اتماما وتوضيحا .

١ ــ انني لم اقل اني حضرت الاجتماعات وانما قلت اني وجدت اتفاقا ومرة واحدة في جلسة كان من جملة من حضرها السيد مسلم العطار فدخل كالفيرسكي وجلس وقدرآى مني جفاء وقال ان الناس يقولون انك منطقي وتتكلم بالمعقول والحال اني اراك جافيا متطرفـا فقلت له ذلك لاني اعتقد ان رجال الصهيونيين والصهيونيين هم اعداء للعرب وان فكرة التفاهم او الاتفاق هي فكرة يراد بها المراوغة وكسب الوقت فحاول أن يقنعني بوهمي في ذلك فقلت له انت تتكلم شيئا والصهيونيون يتكلمون شيئا آخر فاما ان تكون كذابا او مخدوعا .

هذا كل ما جرى معي اولا وآخرا .

٢ ــ انني لـم ابين في ما قلت ان الشبـان الفلسطينيين الذين اجتمعوا بهم حصروا الاساس في عدول الاسرائيليين عن فكرة الوطن القومي بل قالوا ان خطتنا معلومة : فلسطين يجب ان تكون جزءا من المملكة السورية . ولا يمكن قبول فكرة الوطن القومي ولا الهجرة اليهودية ولا رسمية اللغة العبرانية . والوطنيون في فلسطين من العرب يسلمون دائما بان اليهود الوطنيين فيها سيكونون محفوظي الحقوق والحرية الدينية والوطنيون يمكنهم ان يتفاهموا دائما مع اليهود الوطنيين على هذه الاساسات فاخذ رجال الصهيونيين يتساهلون في هذه الاساسات وعندها سالوهم عما اذا كانوا يمثلون الصهيونيين .. الخ .. على ما جاء في الحديث .

هـذا ما هو في صدر الحديث

اما ما يتخرص به المتخرصون من الدراهم وبيع الضمائر سواء

نسب الينا او لغيرنا فذلك ما لا اريد ان اطيل الكلام فيه كثيرا لانني واثبت . لانني احسن الظن في الامة وارى ان فيها فئة غير قليلة تقدر ان تميز المخلص من غير المخلص والعامل من غير العامل والدساس من غير الدساس ولان الرجل الذي يعرف نفسه تمام المعرفة ويعرف واجبه امام وطنه وامام انسانيته لاتهمه اراجيف المرجفين واقاك الافكين ويظل مرتاح الضمير رافع الراس سائرا في سبيله مهما حاول المشاغبون ان يشاغبوا والدساسون ان يدسوا معتقدا ان الحق لابد من ان يظهر ويعلو مهما اربدت الحجج وتضاربت الشبهات والسلام .

محمد عزة دروزة

صفحة ٣ عامود ١ و ٢

□ □ □

رد على موضوع نقاش مع كلفرسكي في اجتماع بدمشق مارس 1920 (صفحة 423 و424).

1

حقبة عهد فيصل في بيروت وفلسطين ودمشق



تمهيد

تبدأ هذه الحقبة من أول عهد فيصل في بلاد الشام الى نهايته أي من تشرين الأول 1918 الى 25 تموز 1920.

كان عهد فيصل متميزاً ويصح أن يكون عهداً فاصلاً لما قبله ولما بعده، وكانت فيه أحداث جسام كانت لنا فيها مشاركات عديدة ونشاطات كثيرة، والتقينا خلالها بعشرات من الشخصيات العربية، وانعقد بيننا وبين كثير منهم صداقات ومعرفة وتعاون وتشارك في مختلف المواقف، وكتبنا عنهم انطباعاتنا مما استغرق حيزاً كبيراً. وقد قضينا ثلث هذه المدة في فلسطين (تشرين الأول 1918 حزيران 1919) وثلثيها في دمشق (حزيران 1919- تموز 1920) وكان جل نشاطنا في نطاق هذا العهد.

***

2

عودتنا من بيروت الى نابلس وسببها:

لقد كان تأثري شديداً مما شاهدته من بوادر ومظاهر الغدر الافرنسي - الانكليزي التي تبدل بها الموقف في بيروت ولبنان على النحو الذي شرحته في الجزء الأول، فقررت عدم الاستجابة لدعوة الدكتور أحمد قدري الذهاب الى دمشق، والسفر الى نابلس التي كان الإنكليز قد احتلوها في أيلول 1918 في جملة ما احتلوه من أنحاء فلسطين الوسطى والشمالية. ولا سيما أن مرض عيون أبي كان يستفحل وتقدمت به السن.

إبحارنا الى حيفا على مركب شراعي ودوار البحر:

ولم يكن لنا طريق إلا البحر، ولم يكن البحر قد اشتغل وليس هناك إلا المراكب الشراعية، فاستأجرت واحداً ذا طابقين بأربعين مجيدية وحزمنا ما رأينا أن نأخذه مفيداً من أثاث البيت وبعنا الباقي وركبنا البحر متوكلين على الله أنا وأبي وأم زهير وشقيقتي وزهير. وكان زهير إذ ذاك يحبو، وأظن أنه لم يكن عمره ليزيد عن السنة، وأبحرنا بعد وداعنا لأصدقائنا. وأظن أن ذلك كان في منتصف تشرين الأول 1918. ولم نكد نسير بضع ساعات حتى هاج البحر وصار يلعب بالمركب رفعاً وخفضاً وقد أصبنا جميعنا بالدوار ونزلنا الى الطابق التحتاني وتمددنا دائخين ولم يكن لنا قابلية للأكل أو النوم، وظل زهير وحده غير دائخ يدور بيننا. وبعد نحو عشر ساعات ركد البحر فاستفقنا قليلاً من دوارنا،

وقد قضينا في البحر ليلتين، وفي صباح اليوم الثالث وصلنا الى حيفا في حالة إعياء شديد، ولم يكن لها ميناء يمكن أن يقف عندها مركب، فقرب المركب نحو خمسة أمتار وحملنا البحارة على أكتافهم الى البر، ثم أثاثنا، وكانت ميناء خشبية خربة وبتنا ليلة في فندق بائس.

حالة حيفا آنذاك:

وكانت حيفا إذ ذاك بلدة صغيرة بائسة وكان عدد سكانها لا يكاد يزيد عن خمسة آلاف، شوارع نصف مرصوفة وضيقة وحوانيت قليلة البضاعة، والناس ما يزالون في دهشة الحرب والاحتلال الإنكليزي الجديد الذي كان قد تم قبل نحو شهر والدوريات الإنكليزية تسير في الطريق.

سفرنا من حيفا لنابلس:

واستأجرنا مركبة أميركية (كروسة) وحمّلناها ما معنا من أغراض وسارت بنا في طريق حيفا ـ زمارين ـ قاقون ـ طولكرم ـ عنبتا ـ نابلس، وكانت الطريق ممهدة ترابياً ومهروسة بالحصى ولم يكن التزفيت ممارساً. وقد استرحنا قليلاً في زمارين وكانت مستعمرة يهودية أكثر مساكنها أخشاب، وفيها بعض المنشآت الحجرية، ثم في قاقون وهي قرية بين زمارين وطولكرم ثم طولكرم ثم في عنبتا حتى بلغنا نابلس، وكان بيتنا في حارة القسارية مقفلاً وبعض أغراضنا وفراشنا في بيوت أقاربنا وأحضرنا أغراضنا ورتبنا حياتنا بعض الشيء.

إصابة أخي بشظية قذيفة جوية:

وكان أخي وأمي وبنت عمي بدرية ما زالوا في جنين حيث كان أخي مديراً للبرق والبريد فيها. وعلمناأن أخي أصيب في ساقه بشظية من قصف جوي أثناء غارة أغارها الإنكليز على المراكز العثمانية التي كانت في نابلس وجنين والناصرة وبينها، ولكن كانت إصابته سليمة فأرسلنا إليه خبراً، ولم يلبث أن جاء إلينا مع أمه وبنت عمه.

استقرارنا في نابلس مع اجتماع شملنا:

فاجتمع الشمل من جديد في نابلس بعد فرقة دامت نحو سنتين.

* * *



الخليفة الملك الشريف الحسين بن علي.



الملك عبد العزيز آل سعود.

3 حكومة الشيخ عمر زعيتر في نابلس حين انسحاب العثمانيين :

وحينما جئت الى نابلس علمت أن السلطة التركية حينما انسحبت عهدت للشيخ عمر زعيتر الذي كان يمارس مهمة رئاسة البلدية بالوكالة في أواخر عهد العثمانيين بإدارة الحكم في نابلس نحو ما جرى في المدن الأخرى، وقد أنشأ إدارة حكومية كان جميل كمال قائد دركها، وفائق العنبتاوي مدير بوليسها، والشيخ نمر الداري رئيس محكمتها، وعلاء الدين حلاوة مدير معارفها، ونمر حماد مدير تحريرها، وشاكر الجوهري محاسباً.

الحكم العسكري وموظفوه النصارى:

ولكن ذلك لم يدم طويلاً حيث عين الانكليز حاكماً عسكرياً ومعه ضباط مساعدون، وأنهوا وظائف المذكورين وأبقوا بعض موظفي الدوائر الثانويين في وظائفهم، وعينوا موظفين جدداً لمختلف الدوائر وهم من النصارى وبخاصة من البروتستانت. وقد اختير الجدد ممن يعرف اللغة الانكليزية.

حادث هتاف شكري القرّه المسيحي بمسلمي نابلس عقب الاحتلال الانكليزي:

ومما قصه علي الأخوان مما جرى عقب الاحتلال أن النصارى شعروا بشيء من الاعتزاز والاغترار بالحكم النصراني الإنكليزي الذي قام مقام الحكم الإسلامي العثماني، وأنه كان من أثر ذلك أن شخصاً نصرانياً من نابلس اسمه شكري القرّه كان يشتغل في المحاماة في زمن الدولة العثمانية، وكان ذا حركة ونشاط ويبدو فاهماً متفتحاً وله اعتبار ما بين المسلمين كما أعرف ذلك من قبل، لم يمنع نفسه أن هتف بجماعة من المسلمين رآهم واجمين مكتئبين، أيها المسلمون لا تخافوا من الحكم النصراني ولسوف نحفظ لكم مصالحكم وحقوقكم. وقد أثار هذا الهتاف السامعين حيث كان النصارى في نابلس قلة ضعيفة تعيش في كنف المسلمين وعطفهم، فردوا عليه وشتموه وشتموا الإنكليز وكادوا يبطشون به لولا أن تدخل العقلاء وهدّؤهم.

استطراد الى ذكر مواقف النصارى إزاء الإنكليز واليهود:

وبالمناسبة أذكر أن المسيحيين منذ الأصل وقفوا مثل المسلمين ومعهم ضد النشاط والمطامع اليهودية، وأدركوا أبعادها ومخاطرها وظلوا على ذلك بإخلاص ودأب. أما إزاء الإنكليز، فقد كان الأمر مختلفاً بعض الشيء، فالبروتستانت منهم، وأسرة (القرة) كانت منهم، ومنهم قسيس، فرحوا ورحبوا ووالوا، وخصّتهم السلطات الانكليزية وأخذت كثيراً منهم لوظائفها وأعمالها وصاروا حزبها الا قليلاً منهم، ولا سيما أن كثيراً منهم كانوا يعرفون الإنكليزية، وقد تعلم كثير منهم في مدارس التبشير الإنكليزية ورضعوا فيها حب الإنكليز والولاء لهم. والأرثوذكس كانوا مرحبين وكانوا محل اعتماد الانكليز، وأخذ هؤلاء كثيراً منهم لوظائف الحكومة وأعمالها، ولكنهم لم يكونوا في هذا وذلك مثل البروتستانت.

أما الكاثوليك فكانوا في البدء في الاتجاه الافرنسي ثم اندمجوا بعد تقرير مصير فلسطين

وغدوّها تحت حكم الانكليز فموافقة فرنسا، وصاروا أيضاً محل اعتماد الانكليز وأخذوا كثيراً منهم لوظائف الحكومة وأعمالها وإن كانوا ظلوا في ذلك دون الارثوذكس. وكانت نسبة النصارى في وظائف الحكومة أكثر من نسبتهم العددية بثلاث أو أربع مرات، بل كان مركزهم شبيهاً بمركز اليهود. على أن من الحق أن أذكر أن شدة الولاء للانكليز من النصارى كانت تتمثل في الأكثر في موظفيهم، وأن من النصارى غير الموظفين من كان عروبياً استقلالياً وحدوياً مخلصاً وضد الإنكليز وسياستهم، بل كان ذلك شأن بعض موظفيهم ولم يكن عدد هؤلاء العروبيين قليلاً. ولقد كان من المسلمين من موظفين وغير موظفين من والى الانكليز أيضاً. ولقد كان من النصارى موظفين وغير موظفين موالين لليهود وكان مثل ذلك من المسلمين أيضاً وان كان هؤلاء وأولئك قلة. ومن الحق أن نذكر أيضاً أن النصارى غير الموظفين وهم الأكثرية طبعاً كانوا اجمالاً يتضامنون مع المسلمين في مواقف فيها إزعاج وعداء للإنكليز مع بقاء قلة منهم مع الانكليز في كل موقف، وهذا كان شأن المسلمين حيث كان قلة منهم مع الإنكليز في كل موقف.

* * *



4 حركة استقلال مصر بزعامة سعد زغلول:

ومن الأحداث الهامة التي كانت في بداية هذه الفترة وكان لها رد فعل عظيم في بلاد العرب حركة المطالبة بالاستقلال التي قادها سعد زغلول، والتي تطورت أطواراً عديدة، ولقد انبثقت هذه الحركة بعد اعلان الهدنة في 11 تشرين الثاني 1918، ولسنا هنا في صدد تسجيل أطوار ومراحل هذه الحركة، فقد كتب عنها كثيراً وتفصيلاً. ولكنا رأينا ذكرها لما كان لها من دوي عظيم في بلادها وفي فلسطين، وما كان من انفعالنا بها واستمرار هذا الانفعال طيلة استمرار وتطورات مراحل الحركة، ولقد صار زغلول في مصر وبلاد العرب معاً ملء السمع والبصر، وكان قوي الشخصية ذكياً ألمعياً قوي الحجة مع سعة العلم والاطلاع والتجربة، خطيباً مفوهاً، فتعلقت به جماهير العرب في مصر وبلاد العرب، وصارت تعتبره زعيمها. وكان يختلف مع خصوم سياسيين فتؤيده جماهير العرب في مصر وبلاد العرب في كل موقف مهما كان. وتعرّض لمطاردة السلطات الإنكليزية فزاد ذلك في عظمته وبرزوه، وقد ألف ما يسمى الوفد الذي كان يجمع أشخاصاً بارزين أقوياء متحمسين وحسني المعارف والعقول، ولكنه كان فيهم العلم المفرد والفاصل الأوحد، رأيه هو النافذ وقوله هو الفاصل. وكان يقصي من أراد ويضم من أراد ويظل الزعيم الأوحد، المفرد. وقد استطاعت حركته أن تؤدي الى مرحلة ايجابية نوعاً ما في

صدد مصير مصر، حيث اضطرت الانكليز الى اعلان اعترافهم باستقلال مصر وسيادتها مع التحفظات الشهيرة، واعتبر زغلول ذلك مرحلة ايجابية وهي كذلك، وسار فيها وصار رئيس وزارة مرة ورئيس مجلس نواب مرة، وظل ملء السمع والبصر الى أن توفاه الله في سنة 1927 رحمة الله عليه، على أن هناك تحفظاً يجب أن نسجله وهو أن حركة زغلول ظلت مصرية اقليمية، وكان اهتمامه بقضايا البلاد العربية أقل مما يجب أن يكون ومما يتناسب مع اهتمام وانفعال وتأييد بلاد العرب له، وهذا كان مستطاعاً رغم ما كان من مشاغله ومشاكله المحلية.

***

5

حيرة الناس وقلقهم وأملهم:

ولقد كان الناس في حيرة وأمام احتمالات متنوعة، حيث كان خبر وعد بلفور والنشاط اليهودي يثير قلقهم واضطرابهم، وكانت أخبار فيصل وحكمه في دمشق تثير آمالهم. ولقد كان الدكتور حافظ كنعان صديقي الحميم الذي ذكرت صلتي به وشيئاً عنه في مناسبة سابقة. والذي كان مجنداً كطبيب في الجيش عاد الى نابلس عقب احتلالها وفتح عيادة.

نشاط الدكتور حافظ كنعان واتصاله بالشام ولقاؤنا به واتصالنا معه:

وكان منتسباً لجمعية العربية الفتاة فاتصل بمركزها بدمشق وصار يتلقى التعليمات والتوجيهات وينشط بسبيل تقوية اتجاه الناس للشام وتقوية الآمال فيهم، وصارت عيادته مركز النشاط العربي أو كما كان يحلو له أن يسميها (بيت الأمّة)، حيث صار البارزون الكثيرون من كهول وشباب في نابلس يترددون عليها ويتداولون في الاجتماعات والواجبات، وكان من أوائل من التقيت بهم وصرت أتردد عليه. ويظهر أنه علم أني أنا أيضاً منتسب الى الفتاة وأخبر مركز الشام بوصولي فتلقى أمراً بالتعاون معي، ففاتحني بذلك وأخبرني بما كان من نشاطه واتصالاته وصرنا نتعاون تعاوناً حميماً في هذه الفترة.

لقائي مع إبراهيم القاسم وكامل هاشم والشيخ نمر الداري والحاج حسن حماد:

والتقيت بعد وصولي بقليل بالأصدقاء القدماء

إبراهيم القاسم عبد الهادي وكامل هاشم والشيخ نمر الداري والحاج حسن حماد، وجددت عهد صداقتي معهم، ولقد وجدت في ابراهيم وكامل استعداداً للنشاط في سبيل الحركة الوطنية فانسجمنا وأخذنا نتعاون، واستمر تعاوننا على أحسن ما يكون الى النهاية. أما الحاج حسن حماد فقد رأيته منصرفاً الى مشكلة أراضيه في قرية تياسير التي وجد الفلاحين قد اعتدوا عليه اغتناماً لفرصة اختفائه وغيابه وحكمه، ولم يشاركنا كثيراً في النشاط السياسي نتيجة لذلك، ولكن صداقتنا وصلتنا به ظلت قائمة. وهذا كان شأن الشيخ نمر أيضاً الذي بدا أنه يتطلع الى منصب قضائي ما، ولا سيما أنه نال هذا المنصب في حكومة الشيخ عمر الموقتة، ولم يبد ميلاً للنشاط السياسي، ولكن صداقتنا وصلتنا به ظلت قائمة بدوره، ولقد نال ما تطلع اليه بعد سنتين حينما أنشىء المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى حيث عين عضواً في محكمة الاستئناف الشرعية. وظل يمارس مهمته الى أن توفاه الله في أواخر الثلاثينات رحمة الله عليه.

لقاؤنا بالدكتور مصطفى بشناق وفريد عنبتاوي وابنه وتعاوننا:

والتقيت بالدكتور مصطفى بشناق الذي ذكرت صلتي به وشيئاً عنه في مناسبة سابقة أيضاً، وكان طبيب بلدية الخليل في زمن الدولة العثمانية، ولما انسحب العثمانيون من الخليل بقي هو فيها الى أن احتل الإنكليز نابلس فعاد اليها وفتح عيادة فيها، وقد جددنا عهد الصداقة واندمج هو في النشاط السياسي فتعاونا تعاوناً قوياً، وقويت صداقتنا واستمر ذلك بيننا الى النهاية على ما ذكرته سابقاً.

والتقيت منذ بدء الفترة بفريد العنبتاوي وابنه فائق، اللذين ذكرت عنهما شيئاً في مناسبة سابقة، وتصادقنا وتعاونا منذئذ واستمر ذلك بيننا على أحسن واشد ما يكون الى النهاية.

لقائي مع حافظ آغا طوقان وانسجامي وتعاوني معه الى النهاية وشيء عنه:

وممن التقيت بهم وانعقد بيني وبينهم صداقة وتعاون في بدء هذه الفترة وبعدها على أحسن وأشد ما يكون حافظ آغا طوقان، وبالمناسبة أذكر أن كلمة (طوقان) صارت تضاف الى لقبه ولقب أسرته مؤخراً، وكانت اسرته تعرف بلقب (الآغا) فقط، ولكنها كانت معروفة انها من آل طوقان، وهي تسكن الجناح الغربي من دار طوقان الكبيرة، ومدخلها درج في الشارع الغربي القبلي. وكلمة (آغا) في أصلها تركية تعني السيد أو الرئيس، وتضاف للأسماء للتعظيم، وفي فلسطين وسورية أسر عديدة تتلقب بهذا اللقب ومنها في نابلس أسرة النمر، حيث يذكر رجالها مع لقب (آغا)، هذا مع تنبيه أن كلمة آغا في العهد العثماني كانت تضاف أيضاً لاسم الرجل الأمي مقابل كلمة (أفندي) التي تضاف الى اسم الرجل الذي يقرأ ويكتب، وأفندي تعني سيد وكذلك الآغا. وكان حافظ آغا أسن مني بنحو 15 سنة وذا نشاط وتطلع وحركة، وقد انسجم في الحركة الوطنية بحماس واندفاع. وقد تغلب عليه البساطة. وكان نشط في أثناء الدولة العثمانية في التزامات الأعشار مع أخيه عبد الفتاح، وفي نطاق تعاونهما مع عبد الكريم اليوسف عبد الهادي وصارا ثريين نوعاً ما. وأنشأ صبانة صابون وصار لها عملاء ومعاملات واسعة في قرية طوباس الكبيرة والقرى المجاورة لها. وقد انسجمنا وتعاونا



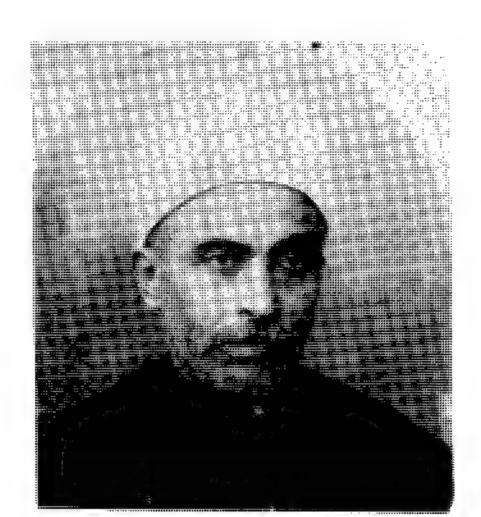
6 ما جرى حول رئاسة بلدية نابلس بين الشيخ عمر زعيتر وحيدر طوقان:

ومن القضايا التي شغلت بها نابلس في الفترة الأولى من الاحتلال قصة رئاسة البلدية، فقد ذكرنا قبل أن السلطات العثمانية سحبت في آخر عهدها يد حيدر طوقان من رئاسة البلدية، بسبب اختلاسات وقعت فيها، وعينت الشيخ عمر زعيتر وكيلاً، وقد أبقته السلطات الانكليزية يمارس مهام رئاسة البلدية بعد أن ألغت حكومته. وكانت تطلب مساعدته في التموين والتهدئة وكان يفعل فيكسب بذلك ثقتها. ولقد صار الحاج توفيق حماد كما قلنا رئيساً للجمعية الوطنية.

وكان الشيخ عمر من أركان جمعيته القديمة وأدهى من الحاج توفيق على ما ذكرنا، فكان يؤثر على الحاج توفيق ويبرز نفسه مع الوطنيين والحركة الوطنية، وكان حقاً وطنياً مما أكسبه أهمية وقوّى مركزه عند الانكليز.

سعي حيدر طوقان للعودة الى رئاسة البلدية ونجاح الشيخ عمر في الاستمرار:

ولقد كبر على السيد حيدر طوقان أن يظل الشيخ عمر يمارس مهمة رئاسة البلدية وهو رئيس البلدية الأصيل. فأخذ بعد قليل من الاحتلال يراجع السلطات ويطلب إعادته الى منصبه ويقول لهم ان الشيخ ليس إلا وكيلاً، ويقدم اللوائح التي يذكر فيها عدم صحة ما كان نسب اليه وسحبت يده بسببه من الدولة العثمانية



الشيخ عمر زعيتر.

انسجاماً وتعاوناً وثيقاً في هذه الفترة وفيما بعدها الى أن توفاه الله سنة 1928 رحمة الله عليه.

لقاؤنا مع الحاج توفيق حماد وتعاوننا معه:

وقد كان البارز على زعامة نابلس الى الاحتلال الحاج توفيق حماد الذي كان يستمد زعامته من تاريخ غير قصير، ومن كونه ظل نائباً عن نابلس في المجلس النيابي العثماني الى نهاية الدولة، والذي ذكرنا عنه شيئاً في مناسبة سابقة، وقد التقينا به وتعاونا معه في هذه الفترة وبعدها، وكان هو رئيس الجمعية الوطنية المسماة بالجمعية الاسلامية المسيحية وكنت أنا سكرتيرها على ما سوف يأتي شرح آخر له، وكنا نلتقي كل يوم تقريباً في بيته وفي بيوت أخرى مرة أو مرتين أحياناً، ونتداول مع اخواننا في شؤون الوطن والأحداث، وكانت صداقتنا معه صداقة عمل ورسميات أكثر منها صداقة قلبية حميمة.

***

وكونه بريئاً. وتحرك الشيخ عمر بالمقابل فصار يوعز للناس بتقديم عرائض ضد حيدر وتصرفاته ورفضهم لرئاسته، وكانت صلة الحاج توفيق وسيلة لوقوف الحاج توفيق وغيره ممن كانوا ينشطون في الحركة الوطنية ويتوثقون مع الحاج توفيق رئيسها مع الشيخ عمر مؤيدين جمعية كالفاريسكي للسلام مع العرب واليهود، واستجابة حيدر لها بأمل مساعدته على العودة للرئاسة.

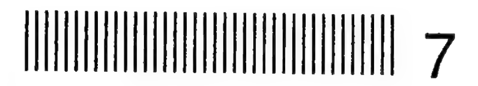
ولقد أراد اليهود خداع العرب، فألفوا جمعية باسم جمعية السلام بين العرب واليهود، وأقاموا على رأسها يهودي قديم مستعرب مستوطن في مستعمرة الجاعونة القريبة من صفد اسمه كالفاريسكي، وأخذ يتصل هو ومن ضم إليه من اليهود المستعربين القدماء برجالات العرب في صدد الهجرة اليهودية ووعد بلفور وأهدافهما، ويدعون الى السلام بين الشعبين الساميين والتعاون، وكانت نشاطات ومطامع وتصريحات الصهيونيين متواصلة قوية أشد من أن تهدأ بمثل هذا النشاط التافه. وقد ظن حيدر طوقان أنه اذا ما استجاب لدعوة كالفاريسكي استطاع بنفوذ اليهود العودة الى رئاسة البلدية. ولعل اليهودي نفسه أوهمه بذلك فاستجاب للدعوة، وصار كالفاريسكي يأتي الى بيته في نابلس ويلتقي ببعض من كان يتردد عليه ومنهم الشيخ رفعة تفاحة والشيخ عمرو عرفات وشكري القرّة والحاج نمر النابلسي، ويشرح لهم حركته ويؤمنهم بها نوعاً ما. وكانت هذه فرصة الشيخ عمر الذهبية فأخذ يحرض الناس هو وأنصاره على نبذ حيدر ومن يلف عليه من أفراد قلائل ومقاطعتهم. وصارت المسألة مسألة وطنية هامة، واستجاب الناس للدعوة الحق وقاطعوا حيدر طوقان بخاصة مقاطعة جماعية، فلم يعد بيته يزار ولم يعد أحد يطرح عليه سلاماً أو يرد عليه سلامه وصار منبوذاً.

إضاعة حيدر فرصة عضوية المجلس الاستشاري وتعيين سليمان طوقان له وشيء عنه:

وقد أضاع حيدر بذلك منصباً جديداً كان يمكن ان يكون له حينما تأسست الحكومة المدنية الانتدابية، حيث أنشأت مجلساً استشارياً خليطاً من العرب واليهود، ونصحها أولياؤها بأن تختار الأعضاء العرب المسلمين من رؤساء الأسر العريقة أو البارزه فاختارت نتيجة لذلك اسماعيل الحسيني وراغب النشاشيبي من القدس، وعبد الفتاح السعدي من عكا، ومحمود أبو خضرة من غزة، وعاصم السعيد من يافا، ومصطفى الخيري من الرملة، وأمين عبد الهادي من حيفا على ما يرد الى ذاكرتي، وكان هذا الأخير قد صار نائباً عن نابلس في مجلس النواب على ما ذكرنا قبل، ولم يكن من أهل حيفا وانماكان مقيماً فيها وكان يظهر الولاء للإنكليز حتى أنه ألف حزباً موالياً لهم؛ ولم يكن من الأسر العريقة في نابلس مؤهلاً لمثل هذا المنصب في نظر الإنكليز إلا واحداً من آل طوقان أو واحداً من آل عبد الهادي. ولم يكن من المعقول أن يعينوا واحداً ثانياً من آل عبد الهادي، وكان من آل طوقان شخصان بارزان هما حافظ آغا وحيدر بك، وكان الأول مندمجاً في الحركة الوطنية متحمساً فيها فلا يمكن أن يقبل ولا يكلف، ورشح اليهود حيدراً لما كان منه من استجابة لدعوتهم. ولكن الاستجابة لهذا الترشيح متعذرة بسبب ما صار إليه أمر حيدر في نابلس، فرشح الدكتور حبيب سالم البروتستانتي الذي كان شديد الولاء للانكليز

واختاروه عضواً للمجلس الاستشاري عن النصارى، (وفي المناسبة ان العضو الثاني النصراني الذي اختاروه هو سليمان نصيف الذي كان بدوره شديد الولاء لهم)، وصديقاً له هو سليمان عبد الرزاق (الذي كانت أسرته فرعاً من أسرة طوقان)، فوافقت السلطات وعينته رغم انه كان صغير السن كثيراً بالنسبة لمن عينتهم، ورغم أنه كان مولوداً في السلط ومقيماً فيها لأن أباه كان نزح اليها وأقام فيها في زمن الدولة العثمانية، وقد تعلم في مدرسة تبشيرية وصار ملماً بعض الشيء باللغة الانكليزية. وقد طلبت الحركة الوطنية منه ان يستقيل من عضوية المجلس فاستجاب واستقال، ولكن مكانته ظلت محفوظة لدى الانكليز فعينوه رئيساً لبلدية نابلس حينما مات الشيخ عمر في سنة 1924 وظل في هذا المنصب تعييناً وانتخاباً الى نهاية الإحتلال الانكليزي، وكان رضي الخلق حسن السلوك مستقيماً في عمله، وكانت مواقفه الوطنية متنوعة أحياناً وطنية وأحياناً شاذة على ما سوف نذكره بعد، وقد تعاشرنا وتعاونا معه في الأولى، وقد استطاع ان يكسب ثقة الملك عبد الله بعد النكبة ثم الملك حسين، وأن يصير وزيراً لبلاطه ثم وزيراً للدفاع. ثم صار عندما قام الاتحاد العراقي الأردني في شباط 1958 وزيراً في حكومة الاتحاد، وفي تموز من هذه السنة اندلعت في بغداد ثورة ضد الأسرة الهاشمية وقتل الثوار الملك فيصل الثاني والأمير عبد الإله وبعض أفراد الأسرة وبعض رجال الحكم، وكان سليمان آنذاك في بغداد فاتجه بعض الثوار الى فندقه وقتلوه أيضاً رحمة الله عليه، وسيأتي كلام عنه في مناسبات أخرى.

***



انشاء رجال القدس للجمعية الإسلامية المسيحية ودواعي ذلك:

ولقد حدثني كذلك الدكتور حافظ كنعان والأخوان الآخرون انهم تلقوا قبل قدومي بقليل من القدس، خبراً بأن رجالاً بارزين من مسلميها ونصاراها أنشأوا جمعية باسم الجمعية الإسلامية المسيحية بعد أيام قلائل من احتلال القدس الذي تم في 9 كانون الأول 1917، وقبل احتلال نابلس بعشرة أشهر، لما رأوا من ازدياد استيثار ونشاط اليهود في صدد استعمار فلسطين وانشاء الوطن القومي استناداً الى وعد بلفور، وزير خارجية بريطانيا الصادر في 2 تشرين الثاني 1917، الواعد بالعطف والتشجيع على قيام وطن يهودي قومي في فلسطين.

مساعي اليهود في أثناء الحرب في تحقيق أطماعهم في فلسطين ووعد بلفور:

وكان اليهود في أثناء الحرب قد ضاعفوا جهودهم لاغتنام فرصة الحرب والحصول من الدول المتحاربة على مساعدة وعهد بتحقيق غاياتهم وآمالهم الواسعة في فلسطين وإنشاء دولتهم فيها التي قرروا انشاءها في مؤتمر بال سنة 1897، وأخذوا يبذلون نشاطهم في سبيلها على ما شرحنا سابقاً. ولقد انقسم رجال الصهيونية اثناء الحرب فريقين، فريق يسعى مع الألمان وحلفائهم، وفريق يسعى من الإنكليز وحلفائهم بحيث يضمنون بذلك المساعدة المنشودة من أي فريق ينتصر، ولما بدأت

الحرب لمصلحة الانكليز وحلفائهم ولاسيما بعد انضمام الولايات المتحدة لهؤلاء.

فرقة اليهود العسكرية أثناء الحرب:

وكان للفريق الساعي وراء هؤلاء الحلفاء عمل دعائي قوي أسهم في جعل الولايات المتحدة تدخل الحرب الى جانب الحلفاء، فأخذوا يكثفون جهودهم ومساعيهم بزعامة وايزمان الذي كان رأس الفريق الانكليزي، واستطاعوا أن يأخذوا موافقة الأنكليز وحلفائهم على انشاء فرقة عسكرية يهودية تساعد الحلفاء في الحرب اسهاماً منهم، وجعل ما يحصلون عليه من مساعدة مقابل ثمن كما كان فعل العرب، وكانت نتيجة هذه الجهود حصولهم من بريطانيا على الوعد المذكور وتأييد الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا له. ولما تحركت جبهة سيناء في أوائل عام 1917 واستطاع الحلفاء بقيادة اللنبي إخراج القوات العثمانية من سيناء والاستيلاء على معظمها، وصار من اليقين أنهم منتصرون وسوف يحتلون فلسطين، أصدر وزير خارجية بريطانيا بلفور ذلك الوعد كتابة بعد أن كان شفوياً، وكان ذلك قبل احتلال القدس بنحو (35) يوماً، وكان كتاباً موجهاً من الوزير لروتشيلد الزعيم الثري اليهودي المشهور.

استعجال اليهود في تحقيق مطامعهم:

وبعد أن احتلت قوات الإنكليز والحلفاء القدس وسائر مدن المنطقة الجنوبية الأخرى نشط اليهود في سبيل السير في تنفيذ الوعد، وجاء وايزمن على رأس جماعة من الصهيونيين الى القدس وأخذ يطالب السلطات بتسهيل هجرة اليهود وشرائهم للأراضي وانشائهم المستعمرات وإقامتهم الأجهزة والمنشآت السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكان الحكم عسكرياً.

اجتماع وايزمن بزعماء القدس وكلامه المثير لهم:

ولاحظ الحاكم العسكري ان من المحتمل ان تثور مخاوف العرب، فطلب وايزمن منه ان يجمعه ببعض الزعماء في القدس. فدعا الحاكم بعض الزعماء ومنهم المفتي الشيخ كامل الحسيني وابن عمه اسماعيل بك وعارف باشا الدجاني الداوودي وراغب النشاشيبي ويعقوب فراج وآخرين من مسلمين ونصارى، فخاطبهم وايزمن بأسلوب فيه استعلاء وغرور مع التطمين، وقال لهم فيما قال أن اليهود يريدون أن يعودوا الى وطنهم القديم بحق وليس بمنة وينشئوا لهم فيه كياناً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، ويعمروه ويرقوه، وأنهم لن يعتدوا على العرب وحقوقهم، وسيكون العرب معهم في أمن وسلام. ولقد استاء زعماء القدس من الخطاب ولهجة الخطيب ولاسيما انهم أخذوا يلحظون استبشار اليهود وبوادر نشاط شديد ينم عن مطامع كبيرة، وكان مثل ذلك قد ظهر منهم اثناء الحكم العثماني بخاصة بعد اعلان الدستور على ما شرحناه قبل -.

نص الوعد المتناقض وحتمية اخلاله بمركز العرب:

ولقد نص الوعد المكتوب إن إنشاء الوطن القومي اليهودي يجب أن يتم بشرط عدم الإضرار بمصالح أهل البلاد، ولكن الزعماء أدركوا ان الضرر واقع حتماً، وأن الوعد كاذب متناقض بالنسبة لهم لأن العرب كانوا يؤلفون

93٪ من نسبة السكان، وكانوا يملكون 98٪ من أراضي فلسطين ومرتفعاتها، وكلما زاد عدد اليهود بالهجرة وكلما اشتروا أراضي جديدة نقصت نسبة العرب لصالح اليهود، وصار اليهود في موقف قوة أكبر، فضلاً عن أن فلسطين كانت جزءاً من بلاد العرب اقتصادياً وسياسياً وإجتماعياً، وسوف تتراخى هذه الصلات ثم تنقطع ويصبح أهل فلسطين وجهاً لوجه مع اليهودية العالمية والاستعماريين الذين يتخذون الحركة الصهيونية ذريعة ووسيلة لتحقيق مطامعهم، وتتخذهم هذه الحركة بدورها وسيلة وذريعة لتحقيق غاياتها في فلسطين.

تخطيط بريطانيا للهيمنة على شرق الأردن وغربه والعراق:

ولقد كانت بريطانيا تخطط للاستيلاء على غرب الأردن وشرقه والعراق بعدهما لتأمين طريق الهند. وكانت قبل قد احتلت بأساليب ماكرة السواحل الشرقية والجنوبية من جزيرة العرب للغاية نفسها، وكان شرق الأردن جزءاً من سورية ادارياً.

لم يكن لبريطانيا مصالح تقليدية في فلسطين في الأماكن المقدسة:

ولم يكن لبريطانيا مصالح ودعاوٍ في فلسطين في حين كانت كل من روسية وفرنسا تدعي ذلك، لأن الأولى كانت تصطنع حماية النصارى الأرثوذكس، والثانية حماية النصارى الكاثوليك. وكانت الأماكن النصرانية المقدسة في فلسطين تحت يد الأرثوذكس والكاثوليك دون البروتستانت الذين كان مذهبهم إصلاحياً انقلابياً خرجوا به من المجمع النصراني التقليدي، ومن أجل ذلك اتفقت بريطانيا وفرنسا وروسية في الاتفاقات السرية التي عقدتها فيما بينها أثناء الحرب التي قسمت فيها بلاد الدولة العثمانية الى مناطق نفوذ استعمار على ما ذكرناه قبل، على أن يكون لبريطانيا حيفا وعكا وخليجهما لتنشىء بين البحر الأبيض المتوسط والعراق عبر شرق الأردن سكة حديد، ويكون باقي غرب الأردن تحت ادارة دولية حلاً للخلاف التنافسي بين فرنسا وروسيا.

استعانتها باليهود لبسط هيمنتها:

وكان أن هداها الشيطان الى الاستعانة باليهود حتى يبذلوا جهودهم السياسية ويجعلوا فلسطين جميعها تحت اشرافها، فكان ذلك مما جعلها تتبنى تشجيع انشاء الوطن القومي وتصدر وعدها بذلك.

اتفاق رجال القدس على تشكيل جمعية للوقوف ضد المطامع اليهودية والدفاع عن حقوق العرب ومركزهم وتنفيذهم ذلك ونشاطهم قبل احتلال فلسطين:

ولما استمع زعماء القدس لخطاب وايزمن المستعلي الوقح استاؤوا كما قلنا، وقرروا تنظيم الجهد العربي في جمعية للمعارضة والمناوأة لذلك. ورفض الهجرة وبيع الأراضي لليهود والمطالبة بحكم وطني استقلالي، وقد أرادوا كما علمنا بعد أن يسموا جمعيتهم باسم الجمعية العربية الوطنية، فأوعزت لهم السلطات بأن يسموها الجمعية الاسلامية المسيحية، وقالوا لهم أن ذلك يشعر العالم أن المعارضة من المسلمين والنصارى على السواء، وتم التشكيل المختلط وقامت الجمعية برئاسة عارف باشا الدجاني الداوودي، واشترك في هيأتها الادارية أعضاء مسلمون ونصارى، وباشرت نشاطها

حيث أخذت تكتب العرائض المنكرة لدعوى اليهود والمعترضة على أهدافهم والمحتجة على وعد بلفور والرافضة له، والمطالبة بالحقوق الطبيعية الشرعية لأهل البلاد الذين أكثريتهم الساحقة عرب، ويرسلونها الى السلطات الانكليزية ويعقدون الاجتماعات المنبهة المحذرة.

المدن الجنوبية تحذو حذوهم:

وقد أخبروا المدن التي احتلها الانكليز في المرحلة الأولى أي الخليل وبيت لحم ورام الله والرملة ويافا وغزة بما فعلوا ويفعلون، وطلبوا من زعمائها أن يحذو حذوهم. وأخذت هذه المدن تنشيء جمعيات على غرار القدس وتكتب وترسل عرائض مثلها، ولما تم احتلال نابلس وسائر مدن الشمال في أيلول 1918 أرسلوا خبراً لرجالها بما فعلوا ويفعلون وطلبوا أن يحذو حذوهم أيضاً.

اتصالهم بنابلس وغيرها بعد إتمام احتلال فلسطين لتحذو حذوهم وتأليف الجمعية في نابلس:

وحينما عدت من بيروت وأخبروني بما أخبرهم به رجال القدس، كان الحديث يجري في هذا الصدد، فاندمجت فيه وبذلت جهدي مع جهدهم حتى تمكنا من تشكيل جمعية برئاسة الحاج توفيق حماد، وكان أعضاؤها بالإضافة إلي وإلى الحاج توفيق كل من ابراهيم القاسم عبد الهادي وكامل هاشم والحاج شافع عبد الهادي وإسماعيل آغا النمر وفريد العنبتاوي وحافظ آغا طوقان وأحمد الشكعة وطاهر المصري وعبد الرحيم النابلسي ومحمد علي الخياط وعفيف عاشور والدكتور مصطفى البشناق وجميل التميمي ويوسف الخوري (أبو حنا)، من المسيحيين الذين كانوا قلائل في نابلس، واختاروني سكرتيراً لها.

تعريف موجز بأعضاء الجمعية:

وهنا تعريف وجيز بهم:

1- **أحمد الشكعة** هو ابن محمد حسن الشكعة الذي كان من جمعية الحاج توفيق حماد القديمة، وكان ذكياً نشيطاً وله صلات مع العمال والفلاحين، وظل محتفظاً بنشاطه وصلاته، وصار له حيزاً مهماً في البلد وصار فيما بعد من أركان ما سمي بـاسم المعارضين على ما سوف نشرحه بعد.

2- **طاهر المصري** كان زعيم آل المصري، الأسرة الكبيرة ذات الفروع العديدة، وكان كأحمد نشيطاً وله صلات وكلمة في أوساط العامة والعمال. وظل محتفظاً بنشاطه ونفوذه وأثرى بعض الشيء، وصار له حيز مهم في البلد، وصار كذلك من أركان ما سمي باسم المعارضين وقد أدخل الاثنان الجمعية لأنهما كانا عضوين نافعين بالنسبة لحالة البلد.

3- **عبد الرحيم النابلسي** كان ذكياً طموحاً وكان آل النابلسي أسرة كبيرة وثرية فأخذ للجمعية لمزاياه وأسرته، وكان يتصرف حسب طموحه ولكنه لم ينحرف عن الخط الوطني.

4- **محمد علي الخياط** وجيه في البلد ومتزن وأسرته كبيرة، فأخذ لهذه المزايا وكان وظل سليم السيرة والانسجام.

5- **إسماعيل آغا النمر** من أسرة النمر العريقة وكان مستقيماً فأخذ لهذه المزايا، وكان وظل سليم السيرة والانسجام.

6- **الحاج شافع عبد الهادي** كان متعلماً بعض الشيء ونشيطاً ووجيهاً وأسرته كبيرة ذات حيز واسع في البلد، وكان وظل سليم السيرة والانسجام.

7- **عفيف عاشور** هو ابن الحاج بدوي عاشور الذي كان من أركان جمعية الحاج توفيق حماد القديمة، وكان شاباً نشيطاً وجيهاً سمح اليد ميسور الحال، وكان وظل سليم السيرة والانسجام.

8- **جميل التميمي** كان من أسرة وجيهة وهو شاب عامي دمث الأخلاق مستقيم السيرة وظل كذلك.

9- ولقد سبق شيء عن إبراهيم القاسم عبد الهادي وكامل هاشم وفريد العنبتاوي وحافظ آغا طوقان والدكتور مصطفى بشناق، ولكل منهم المزايا المؤهلة التي كانوا بها من أقوى أركان الجمعية وأنشطهم وأعقلهم ومن أشدهم انسجاماً وحماساً لأهداف الحركة الوطنية وظلوا كذلك.

اسم الجمعية وتعديله فيما بعد:

وبعد هذا التعريف الوجيز، أقول إنه لم يرق لنا اسم الجمعية منذ البدء رغم ما قيل في تبريرها، لأننا رأينا فيه إخراجاً لقضيتنا من كونها عربية استقلالية الى كونها قضية طوائف دينية. وهذا ما كان اليهود يريدون ترسيخه أيضاً، ولكنا سايرنا الموقف الراهن سنتين. وبعد عودتي من دمشق بقليل على ما سوف يأتي شرحه اتفقنا على تغيير الاسم، وقدمنا طلباً للسلطات بتعديله وصار اسم الجمعية (الجمعية الوطنية العربية) ونابلس فقط هي التي فعلت ذلك، وكنت أنا ورفاقي الحميمين الواعين القوميين في الجمعية ممن اهتموا لهذا التعديل، وكان الحاج توفيق من أشد المتحمسين له أيضاً.

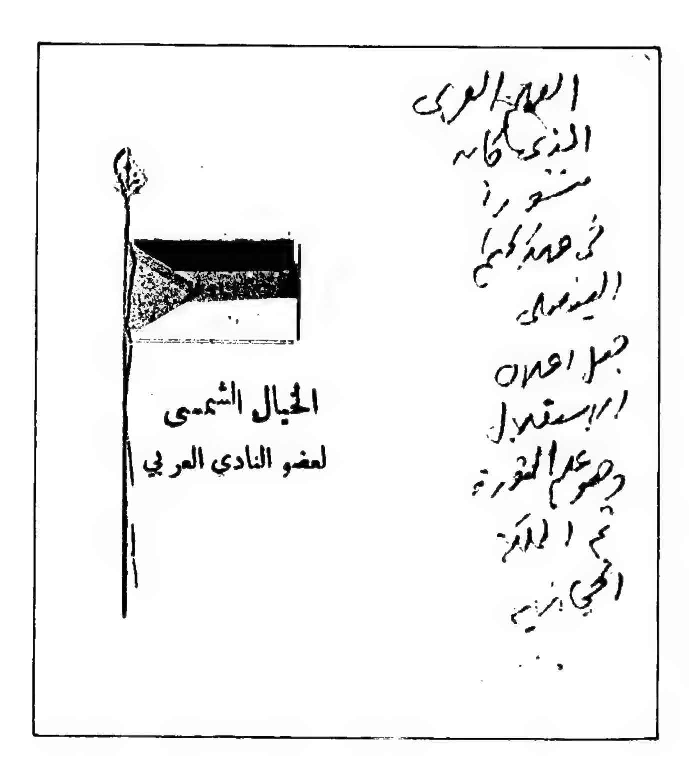
ولقد كان شباب نابلس المثقف وبتوجيه من الدكتور حافظ ومساعدته أنشأوا عقب الاحتلال نادياً باسم النادي العربي في البناية التي فوق قهوة الهموز في الشويتره، فيها قاعة كبيرة وغرفة، فاتخذنا الغرفة مركز اجتماع للجمعية، وكنا أحياناً نجتمع في ديوان الحاج توفيق أيضاً في الليل فنسهر ونتداول في مختلف الشؤون الوطنية.

اجتماع عام في نابلس وتأييد للجمعية:

وبدأنا نشاطنا في نطاق الجمعية باجتماع عام دعونا اليه جمهوراً كبيراً من رجال المدينة، وتكلمت أنا والحاج توفيق وابراهيم القاسم والدكتور حافظ عن الأسباب الداعية لتأليف الجمعية، وعن الأخطار التي تتهدد بلادنا من وعد بلفور والهجرة اليهودية والاحتلال الانكليزي وواجب التضامن في معارضة ذلك، والدفاع عن حقوق العرب في وطنهم، والاتصال بدمشق وتوثيق التعاون مع الحكم العربي فيها والاستمداد منه والاستعانة به الخ . . . وقد تجاوب المجتمعون بحماس مع الخطباء وأعلنوا تأييدهم التام للجمعية وتضامنهم معها واستعدادهم للاستجابة لكل ما تدعو اليه.



ـ الأمير فيصل يخطب في النادي العربي في دمشق .



العلم العربي الذي
كان منشوراً في
عهد الحكم الفيصلي
قبل اعلان الاستقلال
وهو علم الثورة
ثم المملكة الحجازية .

تقديم مذكرة مفصلة للحاكم ولمؤتمر السلم :

وقد قررنا بعد ذلك وضع مذكرة مفصلة فيها تفنيد لدعاوى اليهود التاريخية وتثبيت لحقوق العرب في وطنهم واستقلالهم، وتنبيه على ما كان لعرب فلسطين من مشاركة في الحركة العربية في زمن الدولة العثمانية ثم في الثورة العربية الهاشمية في سبيل حرية بلاد العرب جميعها واستقلالها، ثم فيها رفض حاسم حازم لوعد بلفور وتفنيد متطلباته وعدم شرعيته ورفض للهجرة اليهودية، وطلب بحظر بيع أراضي العرب لليهود والحد من أطماعهم ونشاطهم، وتنبيه على ما سوف ينجم من مسايرة أطماع اليهود والسير في سياسة ضارة مخلة بحقوق العرب من اضطرابات وأخطار. وقد وضعت أنا المذكرة وعرضتها على الجمعية، وكانت مبادىء ويلسون التي منها وجوب الغاء كل معاهدات واتفاقات ووعود سرية فيها إضرار بحقوق أهل البلاد المحررة ومركزهم ووجوب مراعاة رغائبهم في تقرير مصيرهم وحقهم فيه، وحظر كل مطامع استعمارية من الدول المنتصرة في هذه البلاد، والتي جعلها شرطاً لدخول الولايات المتحدة للحرب ووافق عليها الحلفاء، مما استندت اليه أيضاً.

القسيس إلياس مرمورة وترجمته للمذكرة :

وبعد إقرار صيغتها من الجمعية طلبنا من القسيس مرمورة وكان رجلاً فاضلاً يجيد الإنكليزية، أظنه من رام الله أو الناصرة، ترجمتها. وكان متحمساً لمناهضة الصهيونية رغم ولائه للإنكليز، وبعد أن تمت الترجمة وقع الحاج توفيق المذكرة بصفته رئيساً ووقعتها بصفتي سكرتيراً للجمعية وحملها وفد من الجمعية كنت أنا منهم الى الحاكم العسكري، نسختين واحدة بالعربية وأخرى بالانكليزية، وقدمناها له ليرفعها الى حكومته، ونسخة أخرى ليرسلها الى مجلس السلم الأعلى الذي أخذ يعقد اجتماعاته في باريس بعد انعقاد الهدنة في 11 تشرين الثاني 1918.

اجتماعات الجمعية :

وقد صرنا نعقد اجتماعات اسبوعية أو نصف شهرية ندعو اليها الناس ونخطب فيهم منبهين شارحين، كما استمر نشاطنا في اجتماعات خاصة بهيئة الإدارة نتداول مختلف الشؤون ونقرر القرارات ونكتب المذكرات فيما يعن أو يحدث من أمور تتصل بالقضية ومصالح البلد والناس مما سوف يأتي كلام عنه في مناسبة آتية.

النادي العربي الذي كانت تجتمع فيه الجمعية :

وبمناسبة ذكر النادي العربي الذي كانت تجتمع فيه الجمعية أقول إنه كان يقوم عليه عدد من الشباب المثقفين العروبيين، وقد أنشأوه كما قلنا بمساعدة وتوجيه الدكتور حافظ على غرار ما قام في دمشق بهذا الاسم عقب دخول فيصل على ما سوف نشرحه بعده، وكان من هؤلاء الشباب راشد أبو غزالة، وراشد يعيش، وعادل كنعان، وعادل التميمي، وعادل تفاحة، وجميل كمال، وجمال القاسم، وأمين المصري، ورفعة المصري، وضياء عبده، ومحمد صلاح، وآخرون لم يبقوا في الذاكرة.

ولما جاء أخي محمد علي من جنين انضم اليهم وصار مع الوقت لولب النادي وعماده. وكان النادي يدعو لاجتماعات عامة تلقى فيها خطب التوعية السياسية والاجتماعية والأدبية

وتنشد فيها الأناشيد الحماسية، وقد أعد جناح لخـزانـة كتب فيهـا مختلف الكتب الأدبيـة والتاريخية والاجتماعية، وجعل في جناح منه عيـادة للفقـراء يعـاينهم طبيب وتصـرف لهم الأدوية، وكانت ترفع على النادي في المناسبات أعلام الثورة الهاشمية ويغضّ الانكليز عن ذلك لأن اليهـود كانـوا يفعلون هذا، وظلت حـركة النادي ولولبية أخي فيه مستمرة نحو اثني عشرة سنة.



8 ما كان من جهد عقب الاحتلال في سبيل إنشاء مدرسة النجاح وتنفيـذه وأسمـاء مؤسسيهـا ومعلميها في أولوياتها:

ومما جرى قبل وصولي لنـابلس أن تداعى فريق من المعلمين الذين توقفت مدارسهم في ظـروف الاحتـلال مـع فـريق من المثقفين في المـدينة الى إنشـاء مدرسـة وطنية، وكـان من الأولين علاء الدين حلاوة وأديب مهيار والشيخ فهمي هاشم وجميل كمال، ومن الآخرين داود طـوقان وفـارس السخن وإبراهيم القـاسم عبد الهـادي والحـاج حسن حمـاد وكـامـل هـاشم والحاج قاسم كمـال، وابراهيم والحـاج حسن وكامل كانوا ممن أنشأت وإياهم جمعية التعليم في الدولة العثمانية لنفس الغاية على ما ذكرته سابقاً. والحاج قاسم كان ذا حركة ونشاط في أوساط البلد فدعي الى الاجتماع للاستفادة من نشاطه وجمع المساعدات للمدرسة. ولعل هناك آخرون لم أتذكرهم.

وقـد تمت الموافقـة على إنشـاء المـدرسـة واستؤجر لها بناية في محلة الغرب خارجة عن بوابة المـدينة الغـربية الأخيـرة القبلية التي في نهاية الشارع الطويل يملكها آل القرة، وكانت كبيرة ذات ثلاث طوابق وان لم تكن مرتبة ترتيباً حسنـاً في بنـايتهـا، وتسمى (البـرج) لعلوهـا واشرافها، وسميت المدرسة (مدرسة النجاح)، واعتبر المجتمعون هيأة تأسيسية لها. وأسندت مديريتها الى علاء الدين حلاوة وكان متخرجاً من دار المعلمين العليـا في الآستـانـة وذكيـاً

ومثقفاً، وكان يشغل في زمن الدولة العثمانية مديرية مدرسة. وأسندت أمور حسابها مع حصص في التعليم لأديب مهيار وكان هو الآخر يمارس التعليم في مدرسة حكومية أثناء الحرب وقبلها. وعين كل من الشيخ فهمي هاشم وجميل كمال وداوود طوقان وفارس السخن من هيأة التأسيس معلمين. وعين أيضاً آخرون للتعليم من ذوي الاختصاصات الرياضية والطبيعية واللغة الانكليزية، منهم وصفي عبد الهادي وعزة عبده وواصف هاشم ومحمود هاشم وخليل الخماش، وعين الشيخ أسعد شرف والشيخ زكي أبو الهدى معلمين للقرآن والدين والخط.

وقد أقبل كثير من الناس على ارسال ابنائهم للمدرسة مقابل رسم سنوي معتدل هو ثلاثة جنيهات للصفوف الابتدائية وخمسة للأعدادية التي كانت تسمى استعدادية. وقد فكر المؤسسون في إنشاء قسم داخلي للمدرسة لأبناء القرى أو المدن الأخرى، وكان الطابق الأول في البناية كافٍ للصفوف التعليمية ولإدارة المدرسة، والطابق الثاني يصلح ليكون محل نوم، والطابق السفلي الأول يصلح ليكون محل طبخ وطعام. ونفذوا فكرتهم وجهزوا الأسرّة والفرش واللوازم الأخرى، وأقبل بعض الميسورين من قرى نابلس وجنين وطولكرم على إرسال ابنائهم.. وكان رسم القسم الداخلي والتعليم معاً 25 جنيهاً للصغار الابتدائيين، و30 للإستعداديين. وهكذا دارت العملية نشيطة مشجعة وكان المعلمون مستغرقين في عملهم بحماس فائقين بمرتبات زهيدة تتراوح بين خمسة وعشر جنيهات في الشهر، وكان القسم الداخلي مما ساعد على نمو المدرسة وانتشار اسمها وتحسين حالتها المادية نوعاً ما. وبعد أيام قليلة ترك علاء الدين حلاوة المدرسة لأن السلطات أعادت تشغيل المدارس وانتدبته مديراً لإحداها، ويظهر أن مرتبها كان أكثر، كما أنه رأى أنها أضمن له. وقد صار أديب مهيار مديراً محله. وانسحب الحاج حسن حماد من التأسيس لانشغاله في شؤونه المرتبكة، وانسحب آخرون أيضاً.

هيئة تأسيس المدرسة الأولى:

واقتصر التأسيس على إبراهيم القاسم عبد الهادي وكامل هاشم والحاج قاسم كمال من غير هيئة التعليم، وعلى الشيخ فهمي هاشم وجميل كمال وداوود طوقان وأديب مهيار وفارس السخن، وهم الذين تعهدوا أن يتفرغوا للتعليم والعمل للمدرسة، ولقد كان عزة عبده ووصفي عبد الهادي تعهدا منذ البدء بتعليم ساعات لغة انكليزية ورياضيات، كان لهما عمل يعملان فيه في وظائف حكومية، فكانا غير متفرغين، فلم يعتبرا من هيأة التأسيس. وهذا كان شأن الشيخ أسعد شرف والشيخ زكي أبو الهدى لأنهما عينا معلمين تعييناً، وكان من حق هيأة التأسيس ان تقرر ما ينبغي من شؤون المدرسة المتنوعة في اجتماعات تعقدها.

اندماجي في جو المدرسة منذ عودتي من بيروت:

وحينما عدت الى نابلس اندمجت في جو المدرسة وعملها وكأني أحد مؤسسيها ومعلميها، لأن العملية راقتني. وقد كنت أنا وإبراهيم القاسم وكامل هاشم والحاج حسن حماد نحاول انشاء مدرسة وطنية عربية في زمن الدولة العثمانية على ما ذكرته سابقاً (في الجزء الأول).

مديريتي للمدرسة ونموها واستمرارها:

وقد قدر لي بعد ثلاث سنين أن أكون مديراً لها لمدة خمس سنين، وقدر لها أن تستمر وتنمو الى الآن، وتشغل فراغاً في التعليم الوطني العربي، ويتخرج منها مئات الشباب الذين كان لكثير منهم بروز ونشاط في المجال السياسي والإقتصادي والعلمي والأدبي.

وقد طرأ بعض التبدل في مسألة التأسيس عند انضمامي الى المدرسة رسمياً سنة 1921 مما سوف نزيد شرحاً في الجزء الثالث ان شاء الله.

***

9

أنـديـة القـدس والتنـافس الحسيني ـ النشاشيبي فيها:

ومما حدثني الدكتور حافظ عنه أن شباب القدس المثقفين أنشأوا بعد احتلال مدينتهم بقليل ناديين سموا أحدهما النادي العربي، وثانيهما المنتدى الأدبي، وأن الأول كان هو الأسبق في الظهور، وأن شباب آل الحسيني ورفاقهم هم الذين أنشأوه. وصار يسهم في التوعية الوطنية ومناوأة الأطماع اليهودية، وأن الثاني أنشأه شباب من آل النشاشيبي ورفاقهم وصار بدوره يجري في نفس المجرى، ولكن انشاء هذا النادي كان لغرض التناظر مع الأسرة الحسينية، حيث كان بين الأسرتين تناظر أو تنافس منذ العهد العثماني. وأن خط النادي الأول أقوى عروبة وأشد إخلاصاً وحماساً، وأنه ـ أي الدكتور حافظ ـ أنشأ صلة مع هذا النادي بعد احتلال نابلس في نطاق ما كان من نشاطه بعد اتصاله بمركز جمعية الفتاة في دمشق وتوجيهاته، وأن المتزعم للنادي هو الحاج أمين الحسيني، وأنه جاء الى نابلس واجتمع بالدكتور نتيجة لهذه الصلة، وتم الاتفاق معه على السير في نطاق توجيهات الحكم العربي الفيصلي الاستقلالي الوحدوي، وأنه ساعد النادي مادياً.

تعارفنا مع الحاج أمين الحسيني وشيء عنه:

وبعد نحو شهر من قدومي الى نابلس التقيت بالحاج أمين عند الدكتور، وكان اعتاد أن يأتي حيناً بعد حين الى نابلس لتناول الحديث وتلقي التوجيهات والمساعدات، وتعارفنا وكنت أسن

منه ببضع سنين، كما كان أمري بالنسبة للدكتور حافظ. وكان بطبيعة الحال حليقاً متطربشاً وتبدو عليه علائم الجد والعزيمة والإخلاص.

توائقنا معه الى نهاية حياته:

ومنذئذ توثقت الصلة والصداقة الحميمة بيننا، وتعاونا في مختلف مناسبات العمل الوطني وأنواعه وحقبه، وكان يشوب ذلك أحياناً بعض الفتور والخلاف، ولكنا كنا لا نلبث أن نرجع الى توائقنا وصداقتنا الى أن توفاه الله سنة 1974م رحمة الله عليه.

تنويه بما شغله من حيز في تاريخ فلسطين:

وقد شغل في تاريخ فلسطين الحديث وفي تاريخ القضية الفلسطينية حيزاً عظيماً، حتى كان من ألمع الشخصيات العربية الإسلامية ومن أبرزها، وسجل مواقف وصوراً متلاحقة من الجهاد والجد والجهد والدأب بدون ملل ولا توان، بدأ من أيام شبابه الى نهاية حياته.

نشاطه الأول عبر النادي العربي:

ولقد بدأ نشاطه وجده في سبيل قضية فلسطين العربية وبدت مواهبه الزعامية في وقت مبكر، فمنذ أن تم احتلال القسم الجنوبي من فلسطين في أواخر سنة 1917 وظهور اليهود بمظهر القوة والغرور وجهرهم بمطامعهم وغاياتهم الخطيرة، وتحرك رجال القدس لتنظيم العرب لمقاومتهم، تزعم هو فريقاً من شباب أسرته ورفاقه، منهم أخوه فخري وابن اخته اسحق درويش وابن عمه عبد اللطيف والشيخ يوسف ياسين اللاذقي الذي كان اذ ذاك في القدس، والشيخ حسن أبو السعود، فأنشأوا النادي العربي الذي أخذ ينشط في التوعية السياسية والقومية والاجتماعية.

نشاطه في مدرسة روضة المعارف وجمع المتطوعين للثورة:

وعاضد هو ورفاقه مشروع مدرسة روضة المعارف الوطنية التي كان يديرها الشيخ محمد الصالح لتكون منهلاً للناشئة ويتخرج منها شباب وطنيون قوميون، ونشط في جمع متطوعين ممن تمرنوا على العمل الحربي العسكري في الجيش العثماني وإرسالهم الى الجناح الشمالي من الثورة الهاشمية الذي كان بقيادة الأمير فيصل والذي كان ينشط في منطقة العقبة.

تفنيد ما يقال عن علاقته بجبرائيل حداد:

ولقد قيل أنه كان مرتبطاً بجبرائيل حداد الذي كان في معسكر فيصل وضابط استخبارات انكليزية، وأن نشاطه في جمع المتطوعين من ذلك، ونعتقد أن لخصومه أصبعاً في هذا القول. وبذل جهده في جمع متطوعين لجبهة فيصل، فليس ذلك دليلاً عليه، حتى ولو صح انه فعل ذلك بطلب من جبرائيل حداد. فهذا كان مع الأمير فيصل كضابط ارتباط بينه وبين الإنكليز. والانكليز كانوا حلفاء للعرب، وكان هؤلاء يقاتلون معهم تحت راية الهاشميين في سبيل استقلال بلادهم. وقد يكون جبرائيل حداد جاء بعد احتلال الإنكليز للقدس ولمح في الحاج أمين نشاطاً وحيوية، فطلب منه جمع متطوعين من أهل المنطقة لجبهة فيصل، وليس في هذا أي مأخذ.

كان خطه منذ شبابه وطيلة حياته قومياً وحدوياً استقلالياً ضد الانكليز والاستعمار والصهيونية:

وننبه على أننا لم نلحظ أي ريب في سلوك الحاج أمين في لقاءاتنا المبكرة به، وكان خطه قومياً وحدوياً استقلالياً وضد الإنكليز والاستعمار

والصهيونية منذ ذلك الوقت وظل على ذلك طيلة حياته. وحينما عقدنا المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس في أوائل سنة 1919 ـ على ما سوف نشرحه بعد ـ كان هو وشباب النادي العربي متحمسين لذلك الخط أشد الحماس، ولقد جاء جبرائيل حداد المذكور الذي صار مدير أمن الشام في بداية حكومة فيصل الى القدس، وحاول أن يجعل المؤتمر يبدل الميثاق الذي وضعه وهو: (فلسطين جزء من سورية، واستقلال تام ضمن وحدة تامة لجميع سورية، ورفضٍ لوعد بلفور وهجرة اليهود والانتداب والحماية والوصاية). كان موقفه وموقف رفاقه شديداً مؤيداً لنا في رفض وساطة جبرائيل حداد واحباط محاولته.

وحينما قدمت لجنة الاستفتاء الأمريكية لمعرفة رغبات ومطالب العرب في فلسطين وبذلنا جهدنا بجمع الناس في كل فلسطين على ذلك الميثاق، كان هو ورفاقه من أقوى المؤيدين في أوساط القدس، التي كان بعض زعمائها مثل راغب النشاشيبي وعارف الدجاني يرون أن تكون فلسطين وحدها وهو ما كان الانكليز يوحون به، وجاء حداد للعمل له. وكل هذا مما يجعل ذلك القول في غير محله أو لا أثر له في سلوكه.

موقفه الثوري الأول في مهرجان النبي موسى سنة 1920 ونتيجته:

ومن أولى مواقفه الثورية العملية موقفه في المهرجان العربي الإسلامي الكبير في نيسان سنة 1920 في موسم النبي موسى، حيث اغتنم فرصة المهرجان الذي كان يجتمع فيه آلاف العرب من القدس والمدن والقرى، فخطب فيهم خطبة قومية وطنية أهاجتهم وأدت إلى صدام دموي بين العرب واليهود والبوليس الإنكليزي، ووقع كثير من القتلى والجرحى، ولكن الجانب اليهودي كان الأشد خسارة.

هربه لدمشق والحكم عليه مع عارف العارف لسبب ذلك:

وحاولت السلطات اعتقاله مع رفيق له خطب في المهرجان أيضاً وهو عارف العارف، فهربا إلى شرق الأردن فدمشق، وحاكمتهم السلطات العسكرية غيابياً وحكمت عليهم بالسجن عشر سنين.

تعاوننا معه في دمشق:

وكنا آنذاك في دمشق، فجددنا العهد وتعاونا في سبيل القضية، وكان من ذلك إنشاء جمعية فلسطينية سرية للعمل المسلح في حدود فلسطين، وبدأت مهمتها التي لم يقسم لها حظ كبير، لأن الحكم الفيصلي لم يلبث أن سقط بغزو الجنرال غورو لسورية، وعدنا نحن إلى فلسطين وعاد هو إلى شرق الأردن، وكان أخوه مفتي القدس الشيخ كامل قد توفي.

ترشيحه لمنصب الإفتاء عقب موت أخيه المفتي والعفو عنه ونيله المنصب:

وتطلع آل الحسيني الى الاحتفاظ بالمنصب حسب التقاليد، ومع أنه كان للحاج أمين أخ أسن منه وهو فخري، فقد رأوا أن يكون المنصب له لما رأوا منه من مزايا ومواهب، ففعلوا أولاً واستطاعوا أن يستصدروا عفواً عنه وعن رفيقه العارف، ولما عاد جرت انتخابات للمنصب بواسطة العلماء الدينيين حسب القانون العثماني، وترشح الحاج أمين مع آخرين وكان المنصب من نصيبه.

جهده في إنشاء المجلس الإسلامي وانتخابه رئيساً له:

طالب المسلمون قبل توليه المنصب وعلى رأسهم أخوه المفتي الشيخ كامل بالاشراف على أوقافهم ومحاكمهم الشرعية أسوة باليهود الذين كانوا يشرفون على مصالحهم الطائفية. فلما تولى منصب الافتاء واصل الطلب فاستجابت السلطات لذلك، وأدى إلى وضع قانون من قبل جمعية من علماء المسلمين وبارزيهم بإنشاء مجلس شرعي إسلامي أعلى وافقت عليه السلطات، وجرت انتخابات لهيئة المجلس حسب المجلس النيابي العثماني بالنسبة للأعضاء، ونجح كل من الحاج سعيد الشوا عن غزة، وعبد الله الدجاني عن يافا، والشيخ محمد مراد مفتي حيفا عن لواء عكا، وعبد اللطيف صلاح عن نابلس (وكان زوج بنت الشيخ عمر زعيتر نجح بتأييده). ثم جرت انتخابات الرئاسة حسب قانون المجلس وفاز الحاج أمين بالمنصب أيضاً، وهكذا جمع بين الافتاء ورئاسة المجلس.

أثر المنصبين في ما كان من أثر جهوده في إبراز قضية فلسطين:

وكان منصب الإفتاء ورئاسة المجلس من أقوى العوامل على ما كان من بروز قضية فلسطين كقضية اسلامية عامة، بالاضافة الى كونها قضية عربية عامة، وعلى بروزه كزعيم عربي إسلامي كبير مجاهد في سبيل الإسلام والعروبة وقضية فلسطين، سواء في المجال المحلي الفلسطيني الشعبي أم في المجال العربي أم في المجال الاسلامي، بحيث يمكن أن يقال انه لو لم يشغل هذين المنصبين لما عدا جهاده ونشاطه في هذه السبل كثيراً على جهاد ونشاط رفاقه وزملائه.

يد المندوب السامي اليهودي في نيل المنصبين رغم ضعف المبررات المعتادة وتعليل ذلك:

ومن عجيب الأمور أنه كان للمندوب السامي الانكليزي اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل اليد في شغله للمنصبين، بحيث أنه لو لم يرد ذلك لما كان شغلهما وكانت مبررات عدم تعيينه لهما أشد من مبررات تعيينه، وكان ملموحاً في هذه اليد فكرة إيجاد توازن بين الأسر والتيارات الفلسطينية، وبتعبير أدق (تنافس) وانفساح المجال لهذه اليد لأن تمتد أو تتمثل في هذا التوازن والتنافس. فالحاج أمين لم يكن عالماً دينياً مرشحاً ترشيحاً طبيعياً لمنصب الافتاء، وكان المرشحون له وهم الشيخ موسى البديري والشيخ حسام الدين جار الله والشيخ أمين الغوري أسن منه كثيراً وأبرز في مجال العلم الديني والفقه الديني والممارسة والزّي. وفي الانتخابات كانت درجته الرابعة، حيث كان الثلاثة متقدمين عليه جار الله والبديري والغوري بالتوالي ثم هو. وكان الاختيار من حق الحاكم، فاختاره المندوب السامي عليهم رغم تقدمهم عليه في الانتخابات والسن والفقه والممارسة. وفي انتخابات رئاسة المجلس كاد الشيخ عمر زعيتر يغلبه لأنه كان أقوى منه انتخابياً ووجاهة ومؤيداً من كتلة راغب النشاشيبي التي كان لها قوة انتخابية كبيرة، فضلاً عن القوة الانتخابية في لواء نابلس التي كان الشيخ عمر يهيمن عليها. ولكن الشيخ عمر زعيتر ولأسباب ارتآها تنحى له عن المنصب. ولقد كان موسى كاظم باشا الحسيني رئيساً لبلدية القدس حين الاحتلال، وفي مهرجان

النبي موسى المذكور آنفاً تحمس هو ايضاً وخطب حينما مر الموكب من أمام البلدية، فلما كانت المصادمات الدموية عزله المندوب السامي وعين مكانه راغب النشاشيبي وصار موسى كاظم تلقائياً زعيم للحركة الوطنية، فرأى المندوب أنه لو عين غير الحاج أمين لظلت السلطات مع طرف واحد أو تيار واحد وكان الطرف الثاني خارجاً من يدها وضدها وهو الوطني، فأرضى باختياره الحاج أمين للمنصبين تباعاً للتقاليد بتعيين أخ مفتي الميت للافتاء وتعيينه رئيساً للمجلس الإسلامي، فصارت يد الحكومة في التيار أو الطرف الثاني أيضاً.

الحكومة في المنصبين:

ولقد كان منصب الافتاء على كل حال حكومياً، لأن راتبه يدفع من الحكومة. ومع ان المحاكم الشرعية وضعت تحت اشراف المجلس الإسلامي فقد كانت الحكومة هي التي تدفع مرتبات قضاتها وموظفيها، وكانت تتقاضى حتى مقابل ذلك رسوم المحاكم بصفة طوابع حكومية تسلمها للمحاكم، وكان رئيس وأعضاء المجلس يتقاضون نصف مرتباتهم من صندوق الحكومة لأنهم مشرفون على المحاكم الشرعية التي يدفع صندوق الحكومة مرتباتها بالإضافة الى إشرافهم على الأوقاف التي كانوا يأخذونها اضافة الى أن نصف مرتباتهم الثانية كان من ايرادها. وكان من المعروف ان طوابع المحاكم الشرعية لا تسد مرتبات محاكمها ونصف مرتبات المجلس، فيكون صندوق الحكومة هو الذي يتكفل بالفرق الذي يمكن ان يكون بضعة آلاف جنيه. ولقد كان قسم كبير من ايراد الأوقاف اعشار قرى تجبيها الحكومة في سياق ما تجبيه من القرى من ضريبة الأعشار وتدفعها للمجلس، فكل هذا يبين مقدار اليد التي كان للحكومة في الافتاء والمجلس والمحاكم الشرعية والأوقاف.

الحاج أمين يزيد في أهمية المنصبين وأثر ذلك في قوة اسمه وبروز القضية:

ولقد نفخ الحاج أمين منصب مفتي القدس حتى صار راسخاً في الأذهان أنه المفتي الأكبر وأنه مفتي جميع فلسطين، ونفخ كذلك المجلس حتى كاد يستقر في الأذهان انه حكومة إسلامية أكثر منه هيئة مشرفة على الأوقاف والمساجد والمحاكم الشرعية. وبغض النظر عن ما في هذا وذاك من مفارقة بالنسبة للقوانين والتقاليد والواقع ما أثاره من نقد ومعارضة من معارضي الحاج أمين، فقد صار في ظلهما وبما كان من خطه الوطني الوحدوي الاستقلالي الجهادي ذا اسم وبروز داوٍ كأبرز زعيم في فلسطين، وكزعيم كبير عربي وإسلامي خارج فلسطين. وكان لذلك أثر كبير في إبراز القضية الفلسطينية عربياً وإسلامياً وعالمياً.

أثر حكومة المنصبين في سير الحاج أمين وما كان من مأزق له في ذلك:

ومع ما كان لحكومة فلسطين الإنكليزية من يد في المجلس الإسلامي والمحاكم والإفتاء، فقد حاول الحاج أمين بكل جهده ان يحتفظ بالخط الوطني الوحدوي والجهادي، غير أن علاقة الحكومة الاستعمارية الواقعية كانت وظلت شبه كابح له عن الخروج في محاولته وخطه عن المدى الذي تتسع حوصلة هذه الحكومة له.

وقد كان الحاج أمين نتيجة لذلك يداري هذه الحكومة مع جهده بحفظ ذلك الخط والزعامة الوطنية عبره. وكان هذا مأزقه الذي عاش فيه

من سنة 1921 الى سنة 1937. ولقد كان الحاج «أمين» وأصدقاؤه وزملاؤه فضلاً عن خصومه يشعرون بهذا المأزق، وكان الأولون يشعرون بالحرج من ذلك، ولكنهم كانوا يحاولون تجاوزه وتفسيره وتبريره. أما الآخرون فكانوا دائماً يستغلونه ويحاولون احراج الحاج وتجريحه به وتحديه.

مواقف برز فيها اثر ذلك المأزق المحرج:

ولقد كان الحاج أمين يندمج في السير في مواقف ضد الإنكليز، فكان هذا مما يساق كمبرر من أصدقائه وأنصاره، ولاسيما انه كان قائد المناوأة القوية للصهيونية وخططها. ولما قوي سيل الهجرة والحركة الصهيونية في سنة 1931 وبعدها، وتراجعت الحكومة الإنكليزية عما وعدت في (كتابها الأبيض) بالحد من الهجرة وبيع الأراضي وبإشراك الوطنيين في الحكم بشكل ما مما كان يطالب به العرب، واشتد سيل الهجرة وتصامم[1] الانكليز عن الاحتجاجات. وأخذت تتعالى الأصوات بوجوب مواجهة الإنكليز بالعداء الصريح واللاتعاون بدون مداورة، فكان ظرف اشتد به ذلك المأزق.

ولقد رأينا وبعض رفاقي ان نصارحه بذلك ونحاول انشاء حزب يحمل ذلك الشعار، واجتمعنا معه في طبريا في أوائل سنة 1932، وكان معه اسحق درويش وكنت أنا ومعين الماضي ورشيد الحاج إبراهيم نحاول ان نقنعه بصواب المحاولة ونتفق معه على تنفيذها، فداور ولم يوافق، مما جعلنا ننفرد عنه وننشىء حزب الاستقلال. وقد أثاره انفرادنا لأنه يكشف مأزقه لأننا كنا متعاونين متضامنين معه. وحاول عرقلة نمو الحزب وبروزه بأساليب متنوعة، وقام جفاء بيننا وبينه وبين جماعته استمر الى الإضراب الطويل.

ولقد أحدث الحزب تياراً قوياً اشتدت به الأصوات بالدعوة الى اللاتعاون مع الإنكليز، وانعقد مؤتمر فلسطيني عام شامل في يافا حضره الحاج أمين وأنصاره والمعارضون والخصوم للحاج أمين معاً، وحضرناه مع جمهور كبير أيضاً، وارتفعت فيه الأصوات بوجوب تخلي أصحاب المناصب شبه الرسمية عن مناصبهم تعبيراً عن عدم التعاون مع السلطات، وقام عاصم السعيد رئيس بلدية يافا وهو من خصوم الحاج فأعلن استعداده واستعداد راغب النشاشيبي وغيره من رؤساء البلديات للإستقالة اذا تضامن الحاج أمين وأعضاء المجلس وأعلنوا استعدادهم للاستقالة، وسارع الحاج أمين وأنصاره على القول ان هذا كيد وفخ للحاج أمين وحسب، وأن المعارضين هم عملاء الإنكليز، ولن يلبثوا ان يعودوا لمناصبهم بعد أن يتخلى الحاج عن منصبه الذي كان يستمد منه قوة ومجداً.

وعلى كل حال فقد انكشف المأزق في هذا الاجتماع الكبير لجميع الناس، وقد ظل الحاج أمين يعاني منه ويتحمل حرجه ويبرره صراحة وضمناً بأنه في سبيل القضية القومية إلى أواخر سنة 1937. ولقد اشتدت الهجرة واشتدت السلطات في انحيازها لليهود، وأدى ذلك الى توتر ومواقف شديدة، ثم انفجر في إضراب سنة 1936 الطويل، وتشكلت لجان قومية اندمج فيها ممثلون من مختلف الأحزاب والميول، وصار من الضروري قيام لجنة عليا للزعامة والتنسيق. واجتمعنا في بيتنا أنا والحاج أمين وأمين التميمي ومحمد علي التميمي ورشيد

(1) تصاممهم: تعمّدهم صمّ آذانهم.

الحاج إبراهيم ومعين الماضي وأحمد حلمي عبد الباقي والشيخ حسن أبو السعود واسحق درويش وتحدثنا في الأمر، فاقترحنا أن تتألف اللجنة العليا من رؤساء الأحزاب وممثليهم، وتكون برئاسة الحاج أمين.

ظهور الحاج رسمياً على رأس الحركة الوطنية أخذ يبعده عن ذلك المأزق:

وتردد في قبول ذلك، وكان تردده متصلاً بدون ريب بذلك المأزق لأن الاضراب حركة تمردية موجهة للسلطات الإنكليزية، فقلنا له أنه أمام موقف حاسم، فإما أن يقبل هذه الرئاسة أو يتخلى عن ما يجب أن يتمسك به سراً من زعامة الحركة الوطنية، ولم يبق احتمال لغير ذلك. وسأل عما اذا كان الاستقلاليون مستعدين للتضامن معه في الموقف، فأجيب بالإيجاب اذا برز في الزعامة الوطنية جهاراً أمام الانكليز، لأن هذا هو سبب ما بيننا من فتور وعدم تضامن. فقبل وتألفت اللجنة برئاسته ومن رؤساء جميع الأحزاب المعارضة له الموافقة، ولقد حاول جهده مع ذلك في التوفيق بين موقفه الجديد ومأزقه، ولكن الموقف صار أشد من المأزق. وكان مما جعله يبتعد شيئاً بعد شيء عن هذا المأزق الى خصومة السلطات العلنية.

وفي أثناء الإضراب اندلعت الحركات الثورية تدريجياً، ثم قويت حتى صارت ثورة لاهبة أزعجت السلطات أشد الإزعاج. وكان للحاج أمين يد قوية سرية في ذلك مع استمراره في التظاهر بالتهدئة والمداورة، ولا شك في أن السلطات كانت تعرف ذلك ولكنها ظلت تقبل منه تظاهره لأن الإضراب والثورة جعلاها مرتبكة وجعلاها تفضل عدم تصعيد الموقف معه في ظروفها ما أمكن ذلك، ولقد وعدت الحكومة الانكليزية بإرسال لجنة تحقيق ملكية لتكون معبراً لتوصيات بحلول مناسبة للقضية، وتدخل ملوك العرب نتيجة لذلك وحملوا اللجنة العربية العليا على اعلان فك الإضراب. وجاءت اللجنة ثم تواطأت مع اليهود وبتأييد من الأمير عبد الله على اقتراح انشاء دولة لليهود في قسم من فلسطين، وضمّ باقيها لمملكته، ووافقت الحكومة الانكليزية على ذلك وأعلنته فرفضته اللجنة العليا برئاسة الحاج أمين، واخذت البلاد تدخل في توتر وتسير نحو استئناف الثورة، وكان هذا متوقعاً من قبل حتى فاتحنا بذلك الملك عبد العزيز حينما ذهبنا للرياض وفدا من اللجنة العليا في أوائل سنة 1937 وطلبنا مساعدته، ثم كررنا طلب المساعدة حينما ذهب الحاج أمين وأنا معه الى الحج بعد قليل من ذلك. ولما قتل حاكم الناصرة اندروز في أيلول 1937 اشتد التوتر واشتد السير نحو استئناف الثورة، وكانت أصابع الحاج أمين وراء ذلك، فلم يعد في امكان السلطات ولا الحاج أمين الاستمرار في تبادل المداراة والمواربة واعتقلت كثيراً من أعضائها ومن القضاة والوعاظ وأنصار الحاج أمين، ونفت من وجدته واعتقلته من اعضاء اللجنة العليا الى سيشيل، وحاولت أن تعتقله فاعتصم في الحرم ولم ترد اقتحام الحرم.

المدة التي قضاها متحرراً من المأزق أكثر من ضعفي المدة التي قضاها فيه:

والمدة التي قضاها متحرراً من ذلك المأزق وغدا فيها صريحاً وقوياً ودؤوباً أطول اكثر من مرتين من المدة التي قضاها وهو يعاني حرج ذلك المأزق، أي من خريف سنة 1937 الى سنة 1974، بينما المدة الأولى من سنة 1921 الى سنة 1937.

ذهابه من لبنان الى العراق وضلوعه في ثورة العراق ضد الإنكليز ورحلته الى أوروبا بعد انهيار الثورة:

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية ذهب الى العراق، وكانت له يد قوية في الثورة التي اندلعت ضد الانكليز أثناء حكومة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941، واثناء الثورة اقام اتصالاً مع الزعامة الألمانية ونال حظوة لدى الزعامات الألمانية والإيطالية وتحالف معهم، ولما استطاع الانكليز قمع الثورة استطاع أن يفلت من مطاردتهم الى اوروبا، وحصل منهم هو ورشيد عالي الكيلاني على كتب رسمية بالاعتراف باستقلال بلاد العرب ووحدتها والغاء وعد بلفور وآثاره من فلسطين. ولما انكسر المحور في الحرب أفلت الى فرنسا ومنها الى مصر في خريف 1946.

عودته الى رئاسة الهيئة العربية العليا في مصر ثم في بيروت:

ولقد حظي في مصر حينما عاد اليها بالرعاية، وتوسد رئاسة الهيئة العربية العليا التي كانت انشئت في صيف هذه السنة بمساعي جامعة الدول العربية، وتركت رئاستها شاغرة ليشغلها هو حين يعود اعترافاً واحتراماً بمجهوده وزعامته السابقة وامتداداً لرئاسته للجنة العربية العليا التي قامت في ظروف الاضراب الطويل، وأخذ ينشط في سبيل قضية فلسطين مع اعضاء الهيئة التي ضم اليها آخرين من رفاق جهاده، (كان اعضاء الهيئة الأولون، جمال الحسيني والدكتور حسين الخالدي وأحمد حلمي عبد الباقي واميل الغوري، وضم اليهم كل من عزة دروزة ورفيق التميمي ومعين الماضي واسحق درويش والشيخ حسن أبو السعود)، وأخذ يتنقل بين مصر وسورية أثناء الحرب الفلسطينية 1947 ـ 1948، ثم استقر في مصر الى سنة 1954.

انتقاله الى بيروت وبقاؤه إلى آخر حياته:

وحدث بينه وبين حكام مصر الثورة ما جعله يختار الانتقال من مصر الى بيروت في أوائل العقد الخامس، حيث صارت دار سكن وعمل له. وقد انشأ مسكناً واتخذ مركزاً للهيئة العربية العليا، وظل ينشط فيها الى أن توفاه الله في عام 1974 ودفن فيها رحمه الله.

وقد تكون انكشفت شمس غروبه من نطاق القضية الفلسطينية بعد قيام منظمة التحرير برئاسة أحمد الشقيري نتيجة لمؤتمر القدس في حزيران 1964، حيث أخذت المنظمة ولجنتها التنفيذية تبرز ويعترف بها كممثلة للشعب الفلسطيني لدى الحكومات العربية وغيرها ولدى هيئة الأمم ومجلس الجامعة العربية تدريجياً. وقد كان مناوئاً للشقيري في إنشاء الكيان الفلسطيني، وجمع المؤتمر الفلسطيني من أجل ذلك بتشجيع من الجامعة، وكان يطالب بإجراء انتخابات للمؤتمر، ولكن رغبته لم تتحقق وبرزت المنظمة. ولكنه كابر وظل ينشط في نطاق الهيئة العربية العليا في سبيل القضية العربية، ثم نشط في نطاق رابطة العالم الاسلامي، وظل ينشط ويصدر عن الهيئة نشرات وبيانات. واحترمت المنظمة جهاده وجهوده فلم ينشب بينهما صدام، وظل كذلك الى آخر حياته.

حساسيته في صدد الزعامة:

وقد يؤخذ عليه انه كان شديد الحساسية إزاء ما يكون من الآخرين من تحدي لزعامته وخاصة في مجال القضية الفلسطينية، فهو يقف مواقف

شديدة ازاء من يتحداه في ذلك، حتى يصل احياناً الى التجني، وحتى ازاء من لا يكون منحرفاً وطنياً وعربياً وأخلاقياً، بل وإزاء من يكون له بلاء وإخلاص للقضية الفلسطينية والقضية العربية. وهناك أمثلة كثيرة يمكن أن يذكر منها على سبيل المثال مثلما كان بينه وبين رشيد عالي الكيلاني وفوزي القاوقجي وأحمد الشقيري وموسى العلمي وحزب الاستقلال وغيره مما سوف يرد تفصيله في مناسبات عديدة في هذه المذاكرات. وقد يؤخذ عليه مآخذ ثانوية أخرى في أساليب العمل والتعامل. ولكن من الحق أن يقال إن ذلك ليس فريداً، وهو يتشارك فيه مع معظم الزعماء العرب. كما أن من الحق أن يقال إن كل ذلك لم يكن ليطغى على ما كان له من جهاد وجهود مخلصين قويين داويين في سبيل القضية الفلسطينية والقضايا العربية والإسلامية، فمنذ شبابه الأول الى آخر حياته وهو في كل ذلك قوياً شديد المراس شديد الاخلاص لا يكل ولا يمل حتى أصبح في كل ذلك علماً بارزاً في سماء العروبة والإسلام بل والعالم رحمة الله عليه رحمة واسعة، وما ذكرناه هو غيض من فيض، وله حيز كبير في مذكراتنا وتسجيلاتنا، حتى ليمكن أن يقال انه أكثر الشخصيات حيزاً وذكراً.

علاقتنا الشخصية معه:

ومنذ تعرفنا به في 1918 توطدت بيننا الصداقة والتعاون وظلت تقوى حتى صارت حميمة قوية، وكنت ألمح ـ ولا أقول هذا للتزين، فإننا والحمد لله في غنى عن ذلك ولكن للحقيقة ـ أن لي في نفسه تقديراً واحتراماً واهتماماً خاصاً، وكان يهتم كثيراً لآرائي وأفكاري واقتراحاتي وحضوري معه في مختلف المواقف والمناسبات الخاصة والعامة، وقد كان يحصل احياناً شيء من التراخي والغبار بيننا وبينه كما كان ذلك اثناء انتخابات المجلس الإسلامي، وفي سياق نشوء حزب الاستقلال، وفي سياق العمل في الهيئة العربية العليا التي انضممت اليها مدة من الزمن بناء على طلبه، ولكن كان لا يلبث ان يعود الصفاء والتواثق والاحترام المتبادل الى ما كان عليه بيننا وظل كذلك الى آخر حياته. وبعد قدومه الى بيروت كنت حينما أذهب الى بيروت أو إلى الجبل أزوره ويرد لي الزيارة، وكان يزورني حينما يأتي الى دمشق وقد كان ضيفاً علي مراراً.

شيء عن عارف العارف:

وبمناسبة ورود اسم عارف العارف رفيق الحاج أمين نقول إنه شاب من القدس كان يدرس في الكلية الملكية في الآستانة بعد إعلان الدستور، وعاش في جو الحركة العربية وما كان من تشاد بين رجالها ورجال الترك، وتشرب الروح القومية، ولا نعرف يقيناً اذا كان تخرج من تلك الكلية ونال إجازتها. وقد تعرفنا به في دمشق حينما جاء مع الحاج أمين هاربين من مطاردة الإنكليز وتعاونا معه في سبيل قضية فلسطين في نطاق جمعية فلسطين السرية التي انشأناها في دمشق، وقد لمحنا فيه روحاً قومية ثورية مع هدوء واتزان، وكان على درجة حسنة من الثقافة التركية والعربية، ولما سقط العهد الفيصلي عاد مع الحاج أمين الى شرق الأردن، ولما عفي عنهما وعين الحاج أمين مفتياً عينته السلطات قائمقاماً لبئر السبع، وقد تقلب في وظائف ومراكز عديدة طيلة مدة الانتداب، ولم يكن له مشاركة في نشاط سياسي ولكنه ظل محتفظاً بخطه القومي وإخلاصه لقضية فلسطين

العربية، وكان حسن الاسم والسمعة والنشاط. ولما انتهى الانتداب الإنكليزي اشتغل موظفاً كبيراً في الحكومة الأردنية وكان ميالاً للبحث والدراسة والتأليف، وقد ألف بعض الكتب عن قبائل بئر السبع وتاريخها أثناء وظيفته فيها، ثم كتب سلسلة باسم (النكبة) في ستة أجزاء سجل فيها مراحل حرب فلسطين 1947 ـ 1948 وشهداء فلسطين فيها، ووصفاً لمدنها. فكان عمله هذا مفيداً مشكوراً. وعاد من الأردن فأقام في فلسطين واتخذ رام الله مقاماً له، وقد التقينا به فيها حينما زرنا فلسطين في سنة 1964 وجددنا تعارفنا وصداقتنا. وجاء مرة الى دمشق فزارنا وسألنا عن بعض الأمور المتصلة بقضية فلسطين. وبعد النكبة الثانية في حزيران 1967، بقي في رام الله، وكان يدون مذكرات ويوميات عن تصرفات العدو، وظل مواظباً على ذلك الى أن توفاه الله في سنة 1974 رحمة الله عليه، وقد علمت أنه أرسل الى مركز أبحاث منظمة التحرير ما سجله من مذكرات ويوميات لا بد من أن تكون مفيدة شاملة قياساً على سلسلة كتابه (النكبة).

***

10

المؤتمـر الفلسطيني الأول في القدس كانون ثاني ١٩١٩:

بعد أن تكامل إنشاء الجمعيات الإسلامية المسيحية في المدن الشمالية التي احتلت في المرحلة الثانية وقد استغرق ذلك نحو شهرين، فكرنا في نابلس في عقد مؤتمر لدرس مختلف شؤون القضية والأحوال ووضع ميثاق وطني عام، وفاتحنا جمعية القدس والجمعيات الأخرى فرحبت بالفكرة، وتم الاتفاق على عقد المؤتمر في القدس، وانعقد فعلاً في أوائل كانون الثاني سنة 1919.

وقد انتدبتني جمعية نابلس أنا وإبراهيم القاسم عبد الهادي ورامز آغا النمر واحمد الشكعة وابراهيم عبد النور كممثلين عن نابلس وجماعين.

سفرنا وحياتنا في القدس:

وقد سافرنا في عربيات حنتور كل شخصين في واحدة، وكان رفيقي ابراهيم القاسم، وكانت أجرة الحنتور ربع جنيه بنكنوت مصري الذي كان هو المتداول في أوائل الاحتلال (ثم صدر بنكنوت فلسطيني قيمة الورقة الليرة بقيمة الجنيه الاسترليني)، ونزلنا في فندق في باب الخليل داخل العمارة السوق ذات البوابة، وأظن أن اسمه (فاوست) وصاحبه ألماني. وكنا ننام ونأكل منه مقابل ربع جنيه في اليوم للشخص الواحد، وكانت نفقة الوفد من صندوق الجمعية التي جمعت بعض التبرعات من الميسورين من اعضائها وغيرهم، وكان كل اثنين في غرفة وكان رفيقي في الغرفة ابراهيم أيضاً.

أسماء من أتذكرهم من مندوبي مدن فلسطين الأخرى:

وأتذكر أنه كان يمثل (غزة) في المؤتمر الحاج سعيد الشوا ومحمد الصوراني وخليل بسيسو، و(طولكرم) الشيخ سعيد الكرمي والشيخ عبد اللطيف الحاج إبراهيم، و(جنين) نافع العبوشي والحاج حيدر عبد الرحمن عبد الهادي وعبد القادر اليوسف عبد الهادي، و(حيفا) رشيد الحاج إبراهيم وإسكندر منسي، و(عكا) الشيخ إبراهيم العكي، و(صفد) الشيخ أحمد النحوي، و(طبريا) الشيخ طاهر الطبري، و(الناصرة) إسكندر كوزما وسيف الدين الزعبي، و(يافا) الشيخ راغب الدجاني ويوسف العيسى و(بيت لحم) عيسى البندك، و(الخليل) الشيخ عبد الله طهبوب، و(بئر السبع) الشيخ فريح ابو مدين، و(القدس) عارف الدجاني الداوودي ويعقوب فراج. وقد يكون أشخاص آخرون مع هؤلاء من مدنهم أو من مدن أخرى نسيتهم، فقد كان في فلسطين مدن أخرى بينها رام الله والبيرة والمجدل وخان يونس واللد، ولابد من أن يكون قد مثلها بعضهم فذهب ذلك عني حينما دونت خبر المؤتمر في مذكراتي الأولى.

وقد تعرفت بهم جميعاً وصار بيني وبين كثير منهم صداقة وتواثق وتعاون في مواقف ومؤتمرات عديدة أخرى.

مكان انعقاد المؤتمر:

وقد انعقد المؤتمر في البناية التي صارت مدرسة للأيتام الإسلامية، وكانت مركز متصرفية القدس على ما أظن، ومدخلها بوابة كبيرة وفيها طابقان واسعان وقاعات وغرف عديدة على نحو ما كانت عليه سرايا نابلس التي وصفناها.

انتخاب عارف الدجاني الداوودي رئيساً وانتخابي سكرتيراً:

وقد انتخب عارف الدجاني الداوودي الذي كان رئيساً لجمعية القدس لرئاسة المؤتمر، وكان انتخابه تلقائياً بسبب ذلك، وانتخبت أنا سكرتيراً للمؤتمر.

عارف باشا الدجاني الداوودي:

وعارف الدجاني كان يلقب بلقب باشا، وأظن أنه كان متصرفاً في مدينة ما او وكيلاً لمتصرف في زمن الدولة العثمانية، وهو ذو جسم ضخم طويل نوعاً ما ولحيته مخروطية وشعرها في الوجنات قليل على الطريقة الإفرنسية فيها شيب غير قليل، وكان بدون لون إن صح التعبير، وممن يمشون مع الحكومات ويسيرون في فلكها بصورة عامة، وفيه شيء من الدهاء. ولقد اختارته السلطات الفلسطينية عضواً للمجلس الاستشاري حينما قام حكم مدني بديلاً عن الحكم العسكري سنة 1920 على ما ذكرناه قبل، ولقد انتهت مدة هذا المجلس وارادت السلطات إجراء إنتخابات لمجلس تشريعي فعارضته الحركة الوطنية، وأخفقت الانتخابات نتيجة لذلك على ما سوف يأتي شرحه، فجددت السلطات عضويات أعضاء المجلس الإستشاري وطلبت الحركة الوطنية منهم الاستقالة فاستقال معظمهم، وأبى هو وزميل آخر هوراغب النشاشيبي الاستقالة واحتفظا بعضويتهما رغم ان السلطات اضطرت الى إلغاء المجلس لعدم تمكنها من إيجاد من يقبل العضوية بدلاً من المستقيلين، وكان موقفه سلبياً من فكرة ربط مصير فلسطين بسورية التي كان يؤيدها معظم أعضاء المؤتمر، حتى لم يتورع عن القول حينما كان يحتدم النقاش معه

في ذلك (إن أهل الشام سيخطفون طرابيشنا)، وأصر على بقاء فلسطين وحدة خاصة. ولقد قلت له حينما قال ذلك إذا كان هذا منطقك فيمكن لغير القدسي أن يقول إذاً القدس صارت عاصمة لفلسطين سيخطف أهلها طرابيش الناس الآخرين. وكان له مواقف غير سليمة في الحركة الوطنية على ما سوف نذكره بعد، ولكن ليس فيها انحراف خطير، ولم يكن له شعبية وشخصية مؤثرة، فكانت مواقفه مع ذلك محدودة الأثر، رحمه الله.

سبب نسبة الداوودي لاسمه:

ونسبة (الداوودي) جاءت من أن أسرته كانت هي القيّمة على المقام المعروف بمقام النبي داود القريب من باب الخليل في القدس القديمة، وهي أسرة كبيرة وسوف يأتي كلام عنها وعن مقام النبي داود في مناسبة آتية.

وفي يافا أسرة تلقب بالدجاني، ولكن ليس بين هذه الأسرة وأسرة الدجاني الداودي المقدسية قرابة فيما علمت، وأسرة يافا من قرية اسمها بيت دجن قرب يافا فيما سمعت، ولعل أسرة المقدس أيضاً من هذه القرية أو من قرية بنفس الإسم قرب نابلس، لأن كلمة دجن هي من (داغون) وكان داغون من آلهة فلسطين القدماء، وبيت دجن كانت تعني مقام هذا الإله.

اقتراح يوسف العيسى بتسمية فلسطين سورية الجنوبية والميثاق الذي قرره المؤتمر:

ولقد أخذ أعضاء المؤتمر يتداولون في مصير فلسطين وما توجهه من مطامع اليهود ونشاطهم من أخطار تهدد العرب في وطنهم الشرعي إستناداً لوعد بلفور. وكان حكم فيصل لسورية قائماً والآمال معلقة عليه. فكان إتجاه الأكثرية وجوب ربط قضية فلسطين ومصيرها بسورية، واقترح يوسف العيسى أن يتخذ المؤتمر قراراً مبدئياً بأن فلسطين جزء من سورية وتسمى سورية الجنوبية، فوافقت أكثرية المؤتمر الكبرى على هذا الإقتراح، وقد تعاقب خطباء المؤتمر بعد ذلك في صدد وعد بلفور ودعاوي اليهود وخطر هجرتهم على مركز العرب وحقوقهم وعدم شرعية الوعد وقيمته ومخالفته للوعود والعهود المقطوعة للملك حسين الذي صار حليفاً للحلفاء، لتكون جميع بلاد العرب ومنها بلاد الشام وفلسطين مملكة مستقلة. وفي سقوط قيمة الوعد بقبول الحلفاء مبادىء ولسون التي منها حق أهل البلاد المحررة في تقرير مصيرهم وإلغاء كل وعد واتفاق سري مخالف لذلك، وفي ما كان لعرب فلسطين من مشاركة كبيرة في الحركة العربية في أثناء الحكم العثماني ثم في الثورة الهاشمية وما قدمته من شهداء وتضحيات، وانتهت الأبحاث إلى إقرار ميثاق وطني هذه بنوده:

1 ـ فلسطين هي سورية الجنوبية وجزء لا يتجزأ من سورية.

2 ـ الاستقلال التام لسورية جميعها بلا حماية ولا وصاية ولا احتلال وضمن الوحدة العربية.

3 ـ رفض وعد بلفور ورفض الهجرة اليهودية إلى فلسطين ورفض كل دعوى لليهود فيها.

مذكرة مفصلة من المؤتمر لمؤتمر السلم:

ثم قرر المؤتمر كتابة مذكرة مفصلة بحقوق العرب في فلسطين ومركزهم، وتفنيد دعاوي اليهود ورفضهم لها وعزمهم على معارضتها، والدفاع عن وطنهم وكيانهم وحقهم في تقرير مصيرهم وإختيارهم لهذا المصير، بتقرير كون

فلسطين جزءاً من سورية ومرتبطاً بها غابراً وحاضراً ومستقبلاً، وبطلبهم الإستقلال التام لسورية جميعها ضمن وحدة عربية مستقلة، وذكر ما كان من مشاركة العرب والفلسطينيين في الحركة العربية والثورة العربية في سبيل استقلالهم.

وقد توليت أنا ويوسف العيسى كتابة المذكرة وترجمت للإنكليزية، وأخذها وفد كان فيه الرئيس وأنا وقدمها للحاكم العسكري، وطلب منه إرسالها إلى حكومته ومنها إلى مؤتمر السلم.

قرار المؤتمر بإرسال وفد لباريس ووفد لدمشق وأسماء الوفدين:

ثم قرر المؤتمر إرسال وفدين: واحداً إلى باريس لمقابلة مؤتمر السلم الأعلى والمطالبة بالتسليم بحق تقرير المصير لأهل فلسطين وإعلان رفض دعاوي اليهود ووعد بلفور. وآخر لدمشق لمقابلة الأمير فيصل ورجال الحركة العربية وتبليغهم الميثاق المقرر وطلب تأييدهم ومساعدتهم. وانتخب المؤتمر للوفد الأول الحاج توفيق حماد وسعيد الحسيني وكلاهما كانا نائبين في مجلس النواب العثماني، الأول عن نابلس والثاني عن القدس مع جبران كزما ممثل الناصرة في المؤتمر. وانتخبت أنا والشيخ راغب الدجاني ويوسف العيسى وفداً لدمشق.

شيء عن جبران كزما:

وكان هذا الشاب عروبياً صلباً متفتح الذهن يجيد الإفرنسية ودرس الزراعة في فرنسا وحصل على إجازة من إحدى كلياتها، وكان من العناصر النشيطة في المؤتمر. وقد تواددنا وتواثقنا وتصادقنا، وكان يبعث في النفس ثقة ودفئاً بصفاء روحه وعروبيته ووحدويته وصدق لهجته ووطنيته، ولم يعمر مع الأسف طويلاً حيث مات بعد سنين قليلة. وظل الى أن مات على إستقامته وصفاته وصدق عروبيته ووطنيته.

شيء عن سعيد الحسيني:

وقد سبق التعريف بالحاج توفيق حماد. ونقول في صدد سعيد الحسيني اننا إلتقينا به في القدس في ظروف انعقاد المؤتمر، وفي ظروف قدوم لجنة الإستفتاء الأميركية. وهو رجل رزين بشوش الوجه يبعث على الطمأنينة، وهو خال الحاج أمين، وتبدو الطيبة والبساطة عليه مع أخلاق مرضية وسريرة صافية، وكان عروبياً وحدوياً، وقد أيد الميثاق الوطني وسار في خطه. وانتدب ممثلاً للقدس في المؤتمر السوري العام ولكنه لم يشهده، وحينما أعلن استقلال سورية في مارس 1920 سمي وزيراً للخارجية في أول وزارة إستقلالية ليكون رمزاً لفلسطين في العهد. فأقام أياماً ثم عاد إلى القدس بسبب حالته الصحية، وبعد عودتنا من دمشق كنا نلتقي به من آن لآخر في القدس وخاصة أثناء عملنا فيها مديراً عاماً للأوقاف، وكان بيننا محبة وتعاطف. وظل محتفظاً بصفاء سريرته وطيبته دون نشاط في الحركة الوطنية، وكان شديد التعضيد والعطف على ابن اخته الحاج أمين، وكان هذا يحبه ويستدفىء به، وقد توفي على ما أظن في الأربعينات رحمة الله عليه.

شيء عن الشيخ راغب الدجاني:

وكان الشيخ راغب يتعاطى المحاماة في يافا، ولابأس في معارفه الدينية والحقوقية التاريخية، وكان من العناصر النشيطة في المؤتمر يتكلم في كل موقف، ذو نزعة إسلامية

عربية وحدوية استقلالية رضي الخلق صافي السريرة.

وقد تصادقنا وتعاونا منذ المؤتمر، وكان يسارع إلى العمل والنشاط كلما طلب منه أو دعا الداعي إليه، بل كثيراً ما كان هو الطالب والداعي. وظل على خطه المستقيم الإسلامي الوحدوي الاستقلالي وعلى نشاطه طيلة حياته التي طالت إلى سنة 1964، حيث توفي في رام الله التي كان يقيم فيها على الأكثر منذ النكبة، وكانت له أملاك وبيارات في يافا خسرها باحتلال اليهود، وهو أسن مني بنحو عشر سنين رحمة الله عليه.

شيء عن يوسف العيسى:

وكان يوسف العيسى ذكياً ألمعياً وكاتباً لبقاً، وكان يشارك ابن عمه عيسى العيسى في تحرير جريدة فلسطين التي كانت صدرت بعد إعلان الدستور في يافا، وكان لها جهد في محاربة الصهيونية والتحرير منها على ما ذكرناه قبل. وكان يوسف يبدو ذا خط استقلالي وحدوي، وهو الذي اقترح كما ذكرنا قبل تسمية فلسطين باسم سورية الجنوبية، وكان إلى هذا يبدو بعيد الغور لا يكشف عن كل ما في نفسه ولا يستطيع الإنسان أن يكتشف ذلك حتى ليحمل على الحذر، وكان من العناصر النشيطة في المؤتمر، وقد انتدبته يافا فيما بعد ممثلاً لها للمؤتمر السوري العام وظل في دمشق إلى أن سقط عهد فيصل، وكان في المؤتمر السوري أيضاً من العناصر النشيطة، ثم عاد إلى فلسطين واستمر ردحاً من الوقت مشاركاً في إصدار جريدة فلسطين، ثم رحل إلى دمشق فأنشأ جريدة خاصة له سماها (ألف باء) في أثناء الإحتلال الإفرنسي. وكان سليم الخط الوطني الوحدوي الإستقلالي، واستطاع أن يجعل لجريدته مكانة في الصحف السورية، وقد استمر يصدرها مدة طويلة. وتوفي في دمشق في الخمسينات على ما يرد لذاكرتي، وكان له بعض المواقف المنسجمة مع سياسة الأمير عبد الله على ما سوف أشرحه بعد.

أكثر أعضاء المؤتمر كانوا وحدويين إستقلاليين وتنويه ببعض النشيطين منهم وصلاتنا بهم:

ولقد كان أكثر أعضاء المؤتمر وحدويين استقلاليين على السجية والطبيعة، ونتيجة لحسن إدراك وطيبة قلب وسريرة، فكان ذلك مما ساعد على إنجاح المؤتمر ووضع الميثاق في الصيغة التي وضع فيها. وكان منهم عناصر متفتحة ونشيطة ساعدوا على التركيز والنجاح في المؤتمر.

منهم صديقنا إبراهيم القاسم عبد الهادي بعقله وسعة أفقه وحسن إدراكه ونزعة الحرية والإستقلالية والوحدوية فيه، ومنهم يوسف العيسى وجبران كزما والشيخ راغب الدجاني الذين مر تعريف بهم.

شيء عن الشيخ أحمد النحوي:

ومنهم الشيخ احمد النحوي وهو أسن مني ولابأس في علمه الديني والفقهي والإجتماعي والتاريخي وعقله راجح، وكان يتكلم في أكثر المواقف بكلام موزون ومفيد ومختصر، وكان وحدوياً إستقلالياً عروبياً إسلامياً، وقد تصادقنا وظللنا أصدقاء والتقينا في مؤتمرات ومناسبات عديدة في الثلاثينات، وظل محافظاً على خطه الوطني السليم. ولما نشأ المجلس الإسلامي الأعلى عين قاضياً شرعياً لنابلس، وكان حسن السيرة والسمعة وظيفياً واجتماعياً ووطنياً، ونقل إلى الناصرة وكان ذلك آخر عهدي به. وكان

ممن اعتقلته السلطات على ما يرد إلى ذاكرتي حينما قتل (أندروس) حاكم الناصرة في خريف سنة 1937 وانفجر الموقف في فلسطين، وكنت آنذاك خارج فلسطين. وأظن أنه توفي في الأربعينات رحمة الله عليه.

شيء عن الشيخ طاهر الطبري:

ومنهم الشيخ طاهر الطبري، وقد كتبت شيئاً عنه في مناسبة ما كتبت عن عملي في طبريا، وكان من جيلي أو أقل قليلاً، وقد تعمم وأطلق لحية خفيفة وتلقى دروساً دينية وفقهية، وكان وحدوياً استقلالياً عروبياً، وكان يتكلم في أكثر المواقف بكلام موزون يدل على عقل ووعي، وقد تصادقنا منذئذ والتقينا به ثانية في المؤتمر السوري العام في دمشق حيث جاء ممثلاً عن طبريا. وكان في المؤتمر على خطه الذي ذكرناه، ولما عدنا إلى فلسطين التقينا به في مناسبات عديدة وتعاونا. وقد صار قاضياً شرعياً بطبريا ثم الناصرة، وظل في هذا المنصب إلى ما بعد النكبة والاحتلال اليهودي الأول، ولكنه ظل محتفظاً بسلامة موقفه وخطه محترماً من الناس والسلطات إلى أن توفي في الستينات رحمة الله عليه.

شيء عن الشيخ سعيد الكرمي:

ومنهم الشيخ سعيد الكرمي، وكان متقدماً في السن ولكنه متفتحاً نشيطاً حسن العلوم الدينية والأدبية، وكان شاعراً أيضاً وكان وحدوياً استقلالياً عروبياً في المؤتمر حسن الكلام.

ولقد كان ممن اعتقلهم جمال باشا وحكم عليه بالإعدام لصلته بحزب اللامركزية ثم بدل حكمه بالمؤبد لشيخوخته، وجاء إلى فلسطين بعد الحرب فمثل طولكرم في مؤتمر القدس، ثم ذهب إلى دمشق فمثلها في المؤتمر السوري، وكان له نشاط في تأسيس المجمع العلمي اللغوي في العهد الفيصلي، ولما سقط هذا العهد رجع إلى فلسطين، ثم سافر بعد إستقرار الأمير عبد الله إلى عمان وعاش في جو وكنف الأمير، وعين قاضياً للقضاة وظل في هذا المنصب إلى أن مات في الثلاثينات رحمة الله عليه.

شيء عن رشيد الحاج إبراهيم:

ومنهم رشيد الحاج إبراهيم وأظنه كان في سني، وكان في زمن الدولة العثمانية موظفاً في سكة الحديد، ومنذ الاحتلال اشتغل بالتجارة مع أخيه، وكان يبدو حينما التقيت به في القدس خلال المؤتمر كثير الحركة والنشاط وحدوياً وطنياً عروبياً إسلامياً استقلالياً طموحاً للزعامة وقد نالها في الثلاثينات وبعدها، حيث صار من زعماء حيفا والشمال البارزين. ومنذ بدء الاحتلال أخذ يشارك في الأحداث والحركات الوطنية ويشغل حيزاً فيها وظل كذلك إلى آخر حياته، وقد تصادقنا في القدس وتوافقنا في المواقف وظللنا صديقين متواثقين إلى النهاية، وتشاركنا وتعاونا في مختلف المواقف والمناسبات، وأسسنا معاً حزب الإستقلال. وكان جم النشاط في نطاقه، ولما أنشأ أحمد حلمي بنك الأمة العربية في الثلاثينات صار مديراً لفرع البنك في حيفا وفي ظروف الإضراب في صرفند كان في جملة من اعتقلتهم السلطات الإنكليزية من رجال الحركة والنشاط وكنا معاً في المعتقل. ثم اعتقلته في خريف عام 1937 حينما قتل اندروز حاكم الناصرة، وانفجر الموقف ونفته إلى سيشل مع أعضاء اللجنة العربية العليا الذين استطاعت أن تعتقلهم وهم أحمد حلمي والدكتور حسين

الخالدي وفؤاد سابا ويعقوب الغصين، مع أنه لم يكن من أعضائها ولكنه كان عنصراً بارزاً في الشمال جم النشاط، وقد وطد هذا الاعتقال زعامته واسمه داخل فلسطين وخارجها. وكان متزوجاً من دمشق، وكانت له صداقات مع زعماء حركتها الوطنية وخدمات مفيدة لهذه الحركة أيضاً في ظروف الثورة السورية 1925 وبعدها، وبعد إطلاق سراحه من سيشل بقليل عاد إلى فلسطين واستأنف نشاطه ومشاركاته في الأحداث والحركات التي كانت أثناء الحرب العالمية ثم في حرب فلسطين، وقد بذل جهداً مشكوراً في هذه الحرب. وبعد النكبة جاء وأقام في سورية، وما لبث أن وافاه الأجل في الخمسينات رحمة الله عليه. وهو مستقيم الأخلاق نقي اليد والسريرة، وفيه حدة وسرعة انفعال وجرأة وحماس واعتداد بالنفس وتكلف وترسم، وفيه عادة كتابة الاقتراحات والمناهج في كل موقف ومناسبة.

شيء عن إسكندر منسي:

وكان مع رشيد في المؤتمر عن حيفا إسكندر منسي، وكان عنصراً نشيطاً، وكان يحاول الاتصال بالإنكليز ضباط وغير ضباط لمعرفة ما عندهم من أخبار وأفكار، وكان يأتي بأخبار وأفكار مختلفة نقلاً عنهم، ويذكر ذلك صراحة فيثير التشاؤم أحياناً والتفاؤل أحياناً في مستمعيه، ويحاول عبر ذلك أن يبرز نفسه وكان يصطحب معه رشيد الحاج إبراهيم للاستماع لتلك الأخبار والأفكار فيشاركه في نقل ما يسمعون من آراء مختلفة. وقد ظل نشيطاً في حيفا، وأظنه توفي بعد مدة غير طويلة.

شيء عن عيسى البندك:

ومن العناصر النشيطة في المؤتمر عيسى البندك، وكان شاباً ذكياً حسن الكلام والسمت يبدو منهما ذا نزعة عربية استقلالية وحدوية، وظل محافظاً إجمالاً على هذا الخط. وكان يصدر في بيت لحم جريدة اسمها (صوت الشعب) يعبر فيها عن نزعته، وكانت رافدة من روافد الحركة الوطنية إجمالاً، وصار بيننا صداقة ولكنها لم تكن حميمة. وتعاونا معه في مواقف ومؤتمرات فلسطين المختلفة، وكان يحسن الكلام والخطابة، وقد صار رئيساً لبلدية بيت لحم، وكان فيها نشيطاً وشغل عبرها حيزاً في الزعامات الفلسطينية، وظل ينشط في سبيل القضية الوطنية ولكن دون تطرف يجعل السلطات تتحرش به وتعتقله حينما كانت تتحرش بالعناصر الوطنية النشيطة وتعتقلهم في المناسبات، ولا أعرف يقيناً ماذا كان من أحداثه بعد خروجي من فلسطين 1937 وأظن أنه صار سفيراً للأردن بعد النكبة في أسبانيا، وسيأتي ذكره في مناسبات آتية.

شيء عن نافع العبوشي:

وممن تعرفنا بهم وتواثقنا معهم في المؤتمر نافع العبوشي، وكان ذا مظهر زعامي ومن العناصر المفيدة في المؤتمر، وقد ظلت صداقتنا مستمرة وتعاونا معه في مواقف ومؤتمرات عديدة، وظللنا وظل على ذلك إلى أن توفاه الله سنة 1930 رحمة الله عليه.

مدة المؤتمر:

ولقد امتدت اجتماعات المؤتمر نحو أسبوع، وقبل يوم من انتهائه قال الرئيس ان موفداً من الشام قادم يحمل للمؤتمر وحياً ويجب ان ننتظر قدومه.

قدوم جبرائيل حداد ومحاولته حمل المؤتمر على إعادة النظر في قرار ربط فلسطين بسورية وإحباطنا إياها:

ولم يلبث أن جاء الكولونيل جبرائيل حداد من دمشق، وعرف أنه هو القادم المنتظر، وقد كان هذا مديراً للأمن العام في حكومة فيصل العسكرية، وكان في معسكر فيصل في الجبهة ورافقه في دخول الشام، وكان المعروف أنه من رجال المخابرات الإنكليزية، وقد زار موسى كاظم باشا الحسيني الذي كان يتولى رئاسة بلدية القدس وطلب منه أن يجمعه بأعضاء المؤتمر ليحدثهم ويعرض عليهم بعض أفكاره. ودعا موسى كاظم فريقاً من الأعضاء إلى البلدية وكنت أنا وإبراهيم القاسم منهم، وكان الرئيس عارف الدجاني أيضاً من الحاضرين، وقد احتشد في البلدية نحو نصف أعضاء المؤتمر البالغ عددهم جميعاً نحو أربعين، وبعد أن حيا جبرائيل الحاضرين وشكرهم قال انه يرى الأفضل لمصلحة فلسطين ان لا يرتبط مصيرها بسورية وأن تطلب الإستقلال لنفسها مع رفضها وعد بلفور ودعاوي اليهود كما تشاء، فناقشته أنا وإبراهيم القاسم ويوسف العيسى وجبران كزما والشيخ راغب الدجاني وفندنا رأيه وقلنا له إن فلسطين دائماً في التاريخ والجغرافيا جزءاً من سورية ويجب أن تبقى كذلك في مصيرها، ولكنه ظل يكرر أقواله، وطلب من رئيس المؤتمر جمع جميع الأعضاء في جلسة وإعادة النظر في الموقف، وكان موقف موسى كاظم حيادياً وموقف عارف الدجاني إيجابياً، وقد وعده هذا ببذل الجهد لعقد جلسة يحضرها هو ويخاطب الأعضاء برأيه، وسارعنا نحن بعد إنفصالنا إلى دعوة بقية أعضاء المؤتمر إلى جلسة عاجلة عقدناها برئاسة نائب الرئيس الشيخ سعيد الكرمي، وقررنا فض المؤتمر خشية من تأثر فريق من الأعضاء بما يقوله حداد وبشخصيته التي كانت توهم صلتها الوثقى بفيصل وحدوث بلبلة، وقررنا إذاعة بيان بإنتهاء المؤتمر وانفضاضه وأضعنا بذلك الفرصة على جبرائيل حداد وعلى عارف باشا.

ومن الجدير بالذكر أن جبرائيل حداد لم يذكر انه موفد من الأمير فيصل، وكنا نعرف من أخبار الصحف أن الأمير فيصل كان في هذا الظرف في أوروبا حيث ذهب في آخر السنة للمطالبة بحق العرب وحق سورية بحدودها الطبيعية بالإستقلال التام.

نفقات وفدي باريس ودمشق:

ولقد قدر المؤتمر لنفقات وفدي باريس ودمشق (3500) جنيه وزعها على مناطق فلسطين، وكانت حصة منطقة نابلس (1000) جنيه، وقد بذلنا جهدنا ونجحنا في جمع هذا المبلغ، وتعثر الجمع في أكثر المناطق كثيراً. ولم يكد المجموع في المناطق الأخرى ثلثي المفروض عليها.

منع السلطات سفرهما:

وبعد انفضاض المؤتمر أخذ الوفدان يستعدان للسفر لمهمتهما، وطلبنا من السلطات تسهيل ذلك ولكنها لم تفعل لأنها على ما يظهر لم ترتح للميثاق ولربط مصير فلسطين بمصير سورية، لأنها كانت تخطط للانفراد في الهيمنة عليها. وأبلغت وفد باريس أن مؤتمر السلام الآن مشغول في المسائل السياسية الكبرى، وأن وقته الآن لا يسمح باستقباله، ومنعت وفد دمشق من السفر، وكان الشيخ راغب ويوسف العيسى قد جاءا الى نابلس لنذهب معاً بطريق جنين فصفد فالقنيطرة وهو الطريق السالك الممكن

في هـذا الظرف، حيث أبلغنـا مديـر البوليس العسكـري بالمنـع، وقال إن فيصـلاً الآن في أوروبا.

ولقـد كانت دمشق في هـذه الأثناء جـائشة بالحركة العربية الاستقلالية الوحدوية، والرافضة لكل حماية ووصاية، والمطالبة باستقلال سورية الطبيعية وفلسطين جزءاً منها ضمن وحدة عربية مستقلة، فخشيت السلطات على ما يبدو من أن ينـدمج الـوفد في ذلـك ثم يعود فينقـل ما رآه وسمعه من جيشان عربي.

شيء عن موسى كاظم الحسيني:

ونذكر شيئاً عن موسى كاظم باشا الحسيني بمناسبة ورود اسمه، وقد سمعت في صدد لقب الباشا أنه كان متصرفاً أو وكيلاً لمتصرف في زمن الـدولة العثمـانية فجـاءه اللقب من هنا. وهـو طويل القامة وكان متقدماً في السن حينما قابلنا في بلدية القدس وهي المرة الأولى، وتبدو عليه الطيبة والبساطة. ولقـد كان أخـوه سليم رئيساً للبلديـة قبله فحـل محله بـأمـر من الحكـومـة العثمـانية في أواخـر عهدهـا، ووقـع احتـلال القــدس وهـو في المنصب فسكت المحتلون عنه.

ومن المحتمل أن ذلك حصل لأنه لم يبد منه أي موقف ضدهم، وأنهم عرفوا أن لأسرته مكانة اجتماعية وسياسية، فقد كان منصب الافتاء فيها وكان منها نـائباً في المجلس النيـابي العثماني وهو سعيد بـك، وكانت رئـاسة البلديـة فيها، وحتى مـوسم النبي مـوسى في نيسـان 1920 انقلب مهرجان المسلمين كالمعتاد الى مظاهرة وطنية تهتف بسقوط الإنكليز ووعد بلفور ورفض الهجرة اليهودية نتيجة لما ذاع وشاع عن مطامع اليهود وورودهم وما بدا من نشاطهم، وسارت المظاهرة في شوارع القدس حتى جـاءت الى بناية البلدية وخرج اليها موسى كاظم وتحمس وألقى كلمة في المتظاهرين بارك فيها مظاهرتهم وأيد مطالبهم، ثم سارت فوقفت في موقف آخر خطب فيه الحاج أمين وعارف العارف خطبتين حمـاسيتين فـزاد الحمـاس والهيـاج وأدى الى اصطدام بين العرب واليهود والبوليس، وهو أول اصــطدام دمــوي في فلســطين، واستــاءت السلطات التي كانت انقلبت الى مدنيـة، وقام على رأسها هربرت صموئيل اليهودي الإنكليزي مندوباً سامياً فـأقالتـه وعينت راغب النشاشيبي مكـانه، ومنـذئـذ صـار راغب زعيم المـوالين للسلطات الإنكليزية وموسى كاظم زعيم الحركة الوطنية.

وقد بدأ بروزه في الزعامة الوطنية بنوع خاص في المؤتمر الذي عرف بالثالث، والذي انعقد في حيفا في كانـون الأول 1920 بعد سقـوط العهد الفيصلي للنظر في الموقف الجديد الذي صارت تواجهه فلسطين بعد هذا السقوط على ما سـوف يأي شـرح أوفى له، فقـد اختير رئيسـاً للمؤتمـر إبان انعقـاده، ثم اختير رئيسـاً للجنة التنفيـذية التي انتخبهـا المؤتمر، ثم استمـرت رئاسته التلقـائية للمؤتمـرات الرابـع والخامس والسـادس وللجانهـا التنفيذيـة، وترأس الـوفد الأول الفلسطيني الذي قرر المؤتمر الرابع ايفاده الى لنـدن، والوفـد الثـاني الـذي قـرر ايفـاده المؤتمر السادس، والوفد الثالث الذي قـررت إيفاده اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع. ولم يكن ذا حزم كاف لضبط الجلسات والمداولات، ولـم يكن يحسن الخـطاب ولا الـكـلام المـنمـق الطويل، وكان صافي القلب والسريرة مخلصـاً في وطنيته، وكان وقار شيخوخته وطيبته وبساطته وعدم عنفه مما جعل الناس يحبونه ويحترمونه.

ولقد قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع اقامة مظاهرات بدون ترخيص في سنة 1933، حينما اشتد تدفق الهجرة ونكثت الحكومة الانكليزية بوعودها بوقفها على ما نشرحه بعد، فكان في طليعة الذين مشوا فيها في القدس مع قسم كبير من أعضاء اللجنة أولاً ثم في يافا ثانياً. وقد وقع في اثناء مظاهرة القدس نتيجة لما كان من زحام وصدام بين المتظاهرين والبوليس، وأصابه شج صغير في جبهته، ولقد توافد أعضاء اللجنة الى بيته بعد مظاهرة القدس وقرروا متابعة تنفيذ قرارهم وإقامة مظاهرة ثانية في يافا، فكان من الموافقين رغم ما تعرض له في مظاهرة القدس، وجاء الى يافا في الموعد المحدد ومشى في طليعتها، وكان فيها اصطدام دموي كبير. وفي سنة 1934، توفي مودعاً باحترام الشعب وإجلاله رحمة الله عليه.

ولم تكن صلتي بـه حميمة لفارق السن الكبير. ولكني كنت التقي به كثيراً أو أتحدث معه في اجتماعاتنا المشتركة في المؤتمرات واللجان التنفيذية، وكنت أكن له محبة واحترام لسلامة نيته وطيبة قلبه وصافي وطنيته، وكنت أشعر انه كان يبادلني ذلك.

شيء عن راغب النشاشيبي ومواقفه وسيرته:

والمناسبة تجر الى ذكر شيء عن راغب النشاشيبي، ولقد كان نائباً في المجلس العثماني، وأظن أنه احتفظ بنيابته الى آخر العهد العثماني، وهذا يفيد إنه كان له ولأسرته بدورهما بروز ومكانة اجتماعية وشعبية، ومن المحتمل أن يكون بين الأسرتين الحسينية والنشاشيبية تنافس في ذلك العهد، وهذا مألوف بين الأسر البارزة ولا سيما في مناسبات الانتخابات التي كانت تقع في ذلك العهد وان يكون الانكليز اختاروه لهذه الأسباب جميعها، وقد رجحنا وجود هذا التنافس بين الأسرتين في ما كان من مسارعة شباب النشاشيبيين وانصارهم الى انشاء المنتدى الأدبي حينما رأوا شباب الحسينيين وانصارهم ينشئون النادي العربي.

وأول مرة التقيت به كانت بعد مؤتمر القدس ببضعة أشهر وقبيل قدوم لجنة الاستفتاء الاميركية في أواخر مارس 1919، حيث زرته أنا والدكتور حافظ كنعان لأجل اقناعه بالتزام الميثاق الوطني امام اللجنة، وتغدينا عنده، ثم التقيت به مراراً في مناسبات وظروف مختلفة، ولقد بدا كما في اللقاء الأول انه ذكي المعشر حسن الكلام والسمت يميل الى التنكيت، وكان يعيش عيشة مترفة حيث يدل هذا على انه ميسور الحال. وكان يعارض ربط مصير فلسطين بسورية، ولكنا استطعنا اقناعه بالتزام الميثاق على ما سوف يأتي شرح أوفى له. ولعل موقفه هذا كان من مظاهر التنافس المذكور، لأن الحسينيين كانوا وحدويين متجهين نحو دمشق على ما ذكرناه قبل. ومنذ أن صار رئيساً للبلدة وصار موسى كاظم زعيماً للحركة الوطنية ثم صار الحاج أمين مفتياً ورئيساً للمجلس الاسلامي الأعلى، وكل هذا تم في ظروف متقاربة خلال سنة ترسم معارضتهما بما يقومان به من نشاط في مجالي الحركة الوطنية والمجلس الإسلامي، ولا سيما أن الحاج أمين لم يكن يحصر نشاطه في نطاق الأوقاف والمساجد والمحاكم التي كان اشرافها للمجلس، بل كان يتعدى ذلك ليشغل جزءاً كبيراً أساسياً واجتماعياً داخل فلسطين وفي بلاد العرب والإسلام معاً، وكان يترشح ليكون الزعيم الحقيقي للحركة الوطنية في فلسطين.

وقد حشد حول كتلته من رؤساء البلديات

ورجال المال والأعمال والملاك الذين كانت تحفزهم مصالحهم ليكونوا موالين للسلطات، وكان منهم من له علاقات باليهود أيضاً. وهكذا أقام بزعامته ما سمي بالمعارضة التي كان اسمها مفارقة ساخرة لأنها معارضة للحركة الوطنية المناوئة للاستعمار والصهيونية، وموالية بالنتيجة للسلطة القائمة التي كانت إنكليزية استعمارية صهيونية. واستمر هو وكتلته في هذا الخط حتى النهاية، وسجل على نفسه وكتلته مواقف عديدة فيها انحراف وشذوذ عن الخط الوطني السليم والمصلحة القومية وضرر لهما.

ومن أنكر هذه المواقف ابراقه مع آخرين من كتلته الى لندن بأن الوفد العربي الذي أوفده المؤتمر الرابع في سنة 1921 برئاسة موسى كاظم غير ممثل للشعب العربي تمثيلاً كاملاً، ومن ذلك دعوته الى مؤتمر مناوىء للمؤتمر الوطني وتبنيه في هذا المؤتمر مع كتلته فكرة المسايرة والتساهل في المطالب. وكان موقفه هذا في سنة 1922، بعد أن نجحت الحركة الوطنية في احباط تنفيذ الدستور القائم على صك الانتداب ووعد بلفور، وإقامة مجلس تشريعي انتخابي، قابل بذلك، وكان هذا المؤتمر شاقاً للحركة الوطنية مضعضعاً لها، تبرز من ورائه الأصابع الإنكليزية واليهودية، وكان يتظاهر هو وكتلته في معارضة الأهداف اليهودية، ولكن لم يقفوا في وجهها موقفاً جاداً، وكان كثير من كتلته كما قلنا ذوي علاقات باليهود سمسرة وبيع أراضي وتبادل مصالح، وكان يتظاهر مع كتلته في معارضة الحاج أمين والمجلس الإسلامي ويبثون الدعاية ضد تصرفات الحاج أمين فيه ويسمون أنفسهم معارضين بسبب ذلك، ولكن هذا لم يكن ليخفي ما كان من مواقفهم الشاذة ضد الحركة الوطنية.

ومن المواقف الشاذة التي تسجل عليه وعلى كتلته موقفهم حينما انعقد المؤتمر الإسلامي العام الذي دعا اليه الحاج أمين والذي كان يهدف الى إشراك العالم الإسلامي في قضية فلسطين الذي استجاب للدعوة اليه أقطاب بارزون من مختلف البلاد العربية والإسلامية في كانون الأول 1931، حيث وقف هو وكتلته يشوشون ويشاغبون على المؤتمر والحاج أمين عبره، ويعطون أسوأ انطباع عن التضامن العربي الفلسطيني في سبيل قضية فلسطين العامة.

ولقد اندمجت كتلة المعارضة في المؤتمر السابع الذي انعقد في سنة 1927 وفي لجنته التنفيذية، ولكن ما حتموا أن صاروا يشذون عن النهج المقرر ويعرقلون خطط اللجنة.

ولما أعلنت فلسطين أضرابها الطويل سنة 1936، واندمج فيه وفي اللجان القومية جميع الفئات والأحزاب، اندمج راغب وكتلته وأنصارهم أيضاً، ودخل هو فيهاممثلاً عن حزب الدفاع الذي أنشأه قبل ذلك، ولكنه لم يكف عن التشويش والشذوذ. وكان منذ الأصل وثق هو وكتلته صلاتهم بالأمير عبد الله الذي كان يصطنع سياسة المسايرة مع الإنكليز ودعوة الفلسطينيين اليها على ما سوف يأتي شرحه، وكان هو وكتلته يتلقون دائماً توجيهات الأمير ويسيران فيها، ولقد كان الأمير نتيجة لسياسته المذكورة ينتقد الحاج أمين ورجال الحركة الوطنية لما كان يزعمه من تطرفهم في المواقف والمطالب، فكان ذلك مما جمع ووثق بين الأمير وراغب وكتلته أيضاً. ولقد أنشأنا حزب الاستقلال لمواجهة الانكليز بالعداء والمواقف بدون مواربة، ومع أن ذلك أثار الحاج أمين على

ما ذكرناه في كلمتنا عنه، فقد كان راغب وكتلته معارضين أيضاً للحزب مما فيه دلالة خاصة على أصالة خطه وخط كتلته الذي نوهنا به. ولقد توافق الأمير مع لجنة التحقيق الملكية على انشاء دولة لليهود في فلسطين وضم باقيها لإمارته، فأوعز لراغب بالانسحاب من اللجنة العربية العليا حتى لا يرتبط بالرفض المؤكد لذلك من قبل اللجنة ففعل، وظل خارجاً عنها يشوش عليها ويعرقل مساعيها.

ولما انفجرت الثورة من جديد في أواخر سنة 1937 وعزلت السلطات الحاج أمين وحاصرته في الحرم وحلت اللجان القومية واعتقلت كثيراً من رجالها، واعتقلت ونفت ما استطاعت من أعضاء اللجنة العليا، تقدم للميدان بحجة إملاء الفراغ السياسي، ولكن جماهير الشعب أبت الانخداع والانصياع واعتبرته مع كتلته حلفاء للانكليز واليهود وتجهمت له، حتى اضطر كثير منهم الى الفرار من فلسطين وهو من الجملة، حيث ظل خارج فلسطين الى أن اندلعت الحرب العالمية الثانية وهدأت الثورة فعاد، وسيأتي كلام كثير آخر عنه في مناسبات عديدة آتية.

ولم يكن بيننا وبينه علاقة حميمة أو سيئة أو حسنة، وكانت لنا لقاءات عابرة ولقاءات عمل ومصلحة، ولم يكن أحد منا يشعر نحو الآخر بود أو استلطاف، وننبه على ان ما كتبناه وسوف نكتبه عنه مشهور معروف وليس من وحي ذلك.

ونعود الى سياق ظروف المؤتمر فنقول اننا اثناء وجودنا في القدس كنا نتردد على النادي العربي وعلى المنتدى الأدبي، ولم يكن هذا ظاهر الشذوذ عن الخط الوطني، ونلتقي بشباب الناديين ونتعرف عليهم.

تعارفنا مع اسحق درويش وشيء عنه:

وممن تعرفنا عليهم اسحق درويش وهو ابن اخت الحاج أمين وأصله أرناؤوطي، كان جده جاء متسلما للقدس ثم استوطنها واستعرب هو وأولاده، وتزوج والده بأخت الحاج أمين وكادوا يصبحون فرعاً من الأسرة الحسينية. وقد بدا لنا إسحق شاباً متزناً وليناً ودمثاً شديد التمسك بالقومية العربية وبالخط الوطني القويم، وكان من أقوى مساعدي الحاج أمين حتى إنه لقب حينما صار الحاج أمين رئيساً للمجلس الإسلامي وعظم شأنه بلقب (أبي بكر)، وظل هذا لقبه الذي يعرفه الناس وينادونه به بدون حرج، وقد انعقدت الصداقة الحميمة بيني وبينه وكان من جيلي وأسن قليلاً من الحاج أمين، وقد تولى مديرية مدرسة روضة المعارف وصرت بعد قليل مديراً لمدرسة النجاح في نابلس، فكثرت اتصالاتنا، وتعاونا عبر ذلك أيضاً، وكنت حينما أزور القدس أثناء ذلك أنزل في بيته بطلب وإلحاح منه ويبذل جهده في حسن ضيافتي.. وظللنا نتعاون في المواقف والأحداث الوطنية المتنوعة، ثم اشتغل في المجلس الإسلامي مديراً لمدرسة الأيتام ومفتشاً لمدرسة الأوقاف التابعة للمجلس، وكنت انتقلت أنا الى مأمورية أوقاف نابلس ثم الى مديرية الأوقاف العامة في القدس فالتقينا معاً في مجال المجلس..

ولما خرج الحاج أمين من فلسطين في سنة 1937 مفلتاً من الحصار الذي ضربه عليه الإنكليز كما ذكرنا قبلاً وأقام في جبل لبنان شبه لاجيء. انضم إليه، وكنت وأنا في دمشق أتردد من آن لأخر على الحاج أمين فألتقي به ونجدد عهدنا وتواثقنا وتعاوننا.

ولما غادر الحاج أمين لبنان بعد نشوب

الحرب العالمية الثانية الى العراق ذهب معه، ولما أخفقت ثورة رشيد عالي الكيلاني وتفرق الشمل جاء هو الى دمشق وذهبنا معاً لاجئين الى تركية. وقد أخرجته تركية الى أوروبا فانضم الى الحاج أمين الذي كان فلت من مطاردة الإنكليز واستطاع أن يسافر اليها، ولما عاد الحاج أمين من أوروبا الى مصر عاد هو الآخر وصار عضواً في الهيئة العربية العليا وكنا زملاء متعاونين فيها، وانتقل الحاج الى سورية فانتقل معه أيضاً. وظل الى أن وقعت النكبة فأقام قليلاً مع الحاج أمين ثم ذهب الى القدس التي كانت تحت سلطة شرق الأردن وأقام فيها. ولما كانت نكبة حزيران 1967 بقي فيها ونشط مع من نشط من رجال القدس وفلسطين سياسياً في سبيل الدفاع والمقاومة، وكان يأتي أحياناً لسورية وبيروت ونلتقي به ونجدد عهد صداقتنا، وظل على خطه القويم واتزانه ووعيه الى أن توفاه الله سنة 1974 رحمة الله عليه.

ومن عجائب الصدف أنه توفي ثاني يوم وفاة الحاج أمين متأثراً بوفاة خاله وصديقه الحميم، ولقد أخذ يستعد للسفر الى بيروت لحضور موكب دفن خاله، وفي المساء شعر بالتعب وما لبث أن توفي.

تعارفنا مع الشيخ حسن أبو السعود وشيء عنه:

وممن تعرفنا بهم الشيخ حسن أبو السعود، وكان شاباً ذكياً نشيطاً ذلق اللسان يحسن الخطابة ولا بأس في معارفه التاريخية والأدبية، وقوي مع الزمن في العلوم الدينية والفقهية والشؤون التاريخية والاجتماعية أيضاً، وكان من أقوى أعضاء ومساعدي الحاج أمين، وقد تصادقنا وتواثقنا ولكن صداقتنا لم تكن حميمة دافئة كما كانت مع اسحق، وقد تعاونا في مختلف المواقف والمناسبات والظروف. ولما كبر وقام المجلس الإسلامي الأعلى صار مفتياً للشافعية في القدس، ثم صار مفتشاً للمحاكم الشرعية، وكان مستقيم السيرة وطاهر اليد. ولما خرج الحاج أمين من فلسطين سنة 1937 الى لبنان انضم اليه ولازمه وذهب معه الى العراق، ولما تفرق الشمل جاء الى دمشق وذهبنا معاً الى تركيا. ولما ذهب الحاج الى أوروبا انضم اليه ثم عاد الى مصر حينما عاد الحاج، وصار عضواً في الهيئة العربية العليا. ولما خرج الحاج من مصر الى بيروت جاء معه وظل الى جانبه الى أن توفي في سنة 1960، وظل على خطه الوطني القومي الاستقلالي الاسلامي مع تأييده القوي للحاج أمين الى أن مات رحمة الله عليه، وسيأتي كلام عنه في مناسبات آتية.

تعارفنا مع فخري الحسيني وشيء عنه:

وتعرفنا على فخري الحسيني أخي الحاج وكان أسن منه قليلاً، وكان دمثاً ولكنه لم يكن شديد النشاط في الحركة السياسية والوطنية، وكان قد درس الحقوق في الآستانة فاشتغل في المحاماة. ولم تكن صلتنا به حميمة ومتواصلة، ولكنا كنا نلتقي ونتبادل المحبة والاحترام، وأظن أنه توفي في الأربعينات رحمة الله عليه.

تعارفنا مع فخري النشاشيبي وشيء عنه:

وتعرفنا على فخري النشاشيبي الذي كان لولب المنتدى الأدبي، وكان شاباً ذكياً جداً نشيطاً جداً ذلق اللسان سمح اليد مرحاً مترفاً في حياته ومعاشراته، ومع أن المنتدى كان كالنادي العربي يتظاهر بالعروبة والاستقلال ومناوأة الصهيونية إلا أنه لم يكن يوحي بصدق اللهجة كما هي الحال بالنسبة للنادي العربي، وقد كان ملموحاً بقوة أنه قام للمنافسة أو التناظر للنادي

العربي. وكما كان لولب المنتدى الأدبي طيلة قيامه صار لولب كتلة المعارضة التي قامت بزعامة راغب، شديد النشاط في مجالها. وكانت له مواقف تثير الريب اكثر من راغب ورجال كتلته، حتى صار ثابتاً منها أنه كان أو صار عميلاً للانكليز ولليهود معاً، وأن مواقفه هذه كانت بوحي من هؤلاء أو أولئك. وكان من مواقفه القوية حملة التشويش على المؤتمر الاسلامي العام الذي ذكرناه في سياق سابق، وكان في مواقفه مذكرة قدمها اثناء ثورة سنة 1937 ـ 1939 أعلن فيها تأييد قرار اللجنة الملكية وحمل فيها على الحركة والثورة العربية الفلسطينية وعلى الحاج أمين، ثم أنشأ كتائب لمحاربة الثورة بمال الانكليز واليهود وسلاحهم، ولقد غلا في انحرافاته ومواقفه هذه حتى اضطر راغب النشاشيبي الى التنصل منها اثناء الثورة. وقد ذهب الى العراق في سنة 1939 فتعقبه احد الوطنيين الفلسطينيين واغتاله غفر الله له وسيأتي كلام كثير عنه.

وقد كنا نلتقي به مراراً ولكن كلامنا كان على حذر وريب من صاحبه، ولم يشعر احد منا نحو الآخر بود أو استلطاف، وما كتبناه وما سوف نكتبه عنه مشهور معروف وليس من وحي ذلك أيضاً.

تعارفنا بحسن صدقي الدجاني وشيء عنه:

وممن تعرفنا عليهم حسن صدقي الدجاني الداوودي، وكان هو الآخر شاباً نشيطاً ذكياً ذلق اللسان ومن أركان المنتدى الأدبي، وأظن أنه نال فيما بعد اجازة بالحقوق من معهد حقوق القدس وصار محامياً وصار حسن الثقافة ملماً بالإنكليزية والأفرنسية، وكان يحسن الكتابة بالعربية فكان يكتب بالصحف مقالات متنوعة في الأحداث الجارية منها الحماسي الصواب ومنها المتناقض مع ذلك. ويرد لذاكرتي أنه أصدر لفترة ما جريدة (القدس الشريف) سارت على نفس الخط، وحينما برز الحاج أمين الحسيني زعيماً كبيراً وطنياً واسلامياً صار من مناوئيه مع شيء من الرجرجة أو التقلب أحياناً، وحينما جاءت لجنة الاستفتاء الأميركية في مارس 1919 كان شاذاً عن المنهج الوطني المتفق عليه، حيث دعا الى الوصاية الأفرنسية التي كانت الدعوة اليها محصورة في بعض جماعات من الطوائف المسيحية الكاثوليكية التي كانت تتحرك بتوجيه من فرنسا أو بسابق ما كان لهذه من دعوى حماية المسيحية الكاثوليك في الشرق، وليس عندي ما يثبت أن حسن صدقي كان يسير بتأثير الدعاية الأفرنسية.

وهو طموح للبروز والزعامة، وغالباً ما كانت معارضته أو شذوذه منطلقاً من هذا الاعتبار، وكان يبدو احياناً متحمساً في الحركة الوطنية ثم يترجرج. ولقد اندمج في حركة الأضراب الطويل في سنة 1936، وكانت له مواقف حماسية فيها واعتقل في صرفند مع من اعتقل، وكان أثناء الاعتقال متحمساً مندمجاً في المطالب الوطنية وظل على ذلك بعد خروجه من الاعتقال. ولما جاءت اللجنة الملكية في أعقاب الأضراب ساقه طموحه للبروز الى أن لا يكتفي بما كان من شهادات ومذكرات اللجنة العربية العليا، حيث أحب أن يسجل لنفسه بروزاً كما فعل الآخرون أيضاً فتقدم للشهادة أمامها وقدم مذكرة فيها مع ذلك ترديد للمطالب والحقوق الوطنية. ولما انفجرت الثورة في أواخر سنة 1937 واستمرت سنتي 1938 و1939 سلك موقف المتحفظ أو المتردد أسوة بكثيرين وإن لم يناوئها صراحة كما فعل بعض

أركان المعارضة، ولكنه مع ذلك قدم مذكرات للجنة التقسيم فيها ترديد للمطالب العربية، وقدم مذكرات للحكومة طلب منها اطلاق سراح المنفيين والمعتقلين والتخفيض من إجراءات القمع كسبيل لتهدئة الثورة، ولقد اغتيل في اواخر سنة 1938 ونسب اغتياله للحاج أمين وايعازه بل بعضهم يشركني في ذلك، ويشهد الله على أنه لم يكن لي علم بذلك فضلاً عن يد، واستبعد جداً أن يكون للحاج أمين علم أو يد، وقد سمعت توكيد ذلك. وهو لم يكن مناوئاً صريحاً للثورة ولا للحاج أمين بل وكان له مواقف ايجابية اثناءها وأثناء الاضراب على ما ذكرته قبل، وكل هذا يجعلني استبعد أن يكون اغتياله عملاً ثورياً، واعتقد أن لذلك أسباباً خاصة أو شخصية ربما كانت الثورة تغطية لها. رحمه الله وغفر له. وسيأتي كلام كثير عنه في المذاكرات والتسجيلات الآتية، ولقد كنا نلتقي كثيراً، ولكن صلتنا لم تكن حميمة وحسنة، ولم يكن احد منا يشعر نحو الآخر بود أو استلطاف، ولكن هذا لم يمنعنا من التجاذب والتحاور والتعاون احياناً. وستأتي تفصيلات وتسجيلات عنه في ثنايا تسجيلاتنا الآتية.

تعارفنا بإسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني ومكانتهما بين الشباب في ظروف المؤتمر:

وكان في القدس في ظروف انعقاد المؤتمر شخصيتان أدبيتان هما اسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني، وقد تعرفنا عليهما في سفرتنا هذه وظلت صلتنا بهما مستمرة وحسنة، وكانا يترددان على النادي العربي والمنتدى الأدبي معاً ويتحلق عليهما شباب الناديين وغيرهم، وكانا اسن من هؤلاء الشباب ومنا بعض الشيء، وكانا يبدوان حياديين ازاء التنافس الملموح بين الناديين وشبابهما، وكانا قوميين استقلاليين وحدويين فكان أدبهما وصفاتهما هذه مما يكسبهما احتراماً، وكان كل منهما يحسن الحديث وذا روح مرحة ونكات طريفة، فكان هذا مما يشد الشباب اليهما، وكانا واسعي المعرفة والأفق مع اختلاف في الأسلوب.

شيء عن إسعاف النشاشيبي:

حيث كان إسعاف فصيحاً فصاحة جاهلية ان صح التعبير مع عدم التقعر المنفر ولا يتكلم الا الفصحى، وهو ذو اطلاع واسع خاصة على الأدب العربي والتاريخ العربي القديم الى حد الإدهاش والإعجاز، وكان جيد الإلقاء قوي النبرة وكان شاعراً ولكنه مقلّ. وكان شديد الانبهار بالقرآن الكريم واعجازه وبالنبي العربي محمد ﷺ وعبقريته، مع أنه كان في ذلك الوقت ملحداً إيماناً، وكان له كتابات بليغة، وكان إنشاؤه أشبه بالشعر المنثور منه بالنثر المرسل، حتى ليصح أن يعد رائداً لهذا الشعر. وإني لمستغرب من عدم ذكر مؤرخي الأدب العربي اسمه في عداد رواد هذا الشعر، ولقد كان شعره المنثور جميلاً نافذاً أخاذاً بليغاً في سبكه ونبرته وتقطيعاته ومعانيه، وليس من نوع تلك الغثاثات ورصف الكلمات الضبابية المزوقة السابحة في الأوهام بدون معان واقعية ولا ألفاظ مفهومة التي كادت تكون سمة هذا الشعر اليوم. وكان يخطب خطباً بليغة بنفس الأسلوب، ويحرص على أن تظل خطبه وكتاباته وشعره فصيحة جاهلية لغة بدون تقعر منفر، وقد جمعت بعض خطبه ومقالاته ورسائله وطبعت وهي تثير الدهشة والإعجاب بفصاحتها وأسلوبها الشعري النافذ.

وله كتاب اسمه (قلب عربي وعقل غربي)

يشرح فيه رأيه في وجوب الاستغراب أي أخذ ما عند الغرب من فنون وعلوم وصنائع ووسائل وأجهزة وأنظمة مع الاحتفاظ بكل مظاهر وخصائص وروح العروبة. وله كتب مطبوعة أخرى اطلعت عليها منها (نقل الأديب) وهو نصوص عربية قديمة قصيرة فيها نوادر وأمثال بليغة الأسلوب والمغزى، ورسالة (سيرة العلم وسيرتنا معه) وهي قصيرة بليغة في التنويه بالعلم ووجوب الإقبال عليه، ورسالة قصيرة بليغة بعنوان (كلمة في اللغة العربية) فيها تنويه عظيم بهذه اللغة، وكتاب بعنوان (البستان للقراءة العربية في المدارس) فيه نصوص عربية قديمة بليغة وحكيمة. ولقد كان شديد التعلق والتنويه خاصة بالشعراء القدماء كالمتنبي وأبي تمام والبحتري، وبالشاعر المصري الحديث الموصوف بأمير الشعراء (أحمد شوقي)، وقد سمعته يرثي هذا حينما مات في قاعة روضة المعارف سنة 1932 فيما أظن بخطبة مستفيضة بأسلوبه الشعري النثري البليغ فيها تفجع على الراحل وتنويه بشاعريته وعبقريته.

وبالمناسبة أقول إني سمعته يخطب بنفس الأسلوب في نابلس خطبة بليغة في عظمة القرآن وعبقرية محمد، وكان يخطب بنبرة قوية كالصراخ وقد انفعل حتى كاد يغمى عليه، ودُعِيَ الى رثاء الشيخ مصطفى الغلاييني في بيروت فكانت له خطبة بليغة بنفس الأسلوب.

وكان قصير القامة مصاب بعينيه ووجهه متجعد، وكان في الظروف التي التقينا به فيه زري الهيئة زري الثياب شديد الفاقة حتى ليصدق عليه المثل (لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراه ولكنه اذا تكلم شغل سامعه عن هيئته وحالته). وما سمعناه أن أباه عثمان كان ميسوراً ولكنه تبرأ منه وأمسك عنه لإلحاده الذي كان لا يتورع في شبابه أن يعلنه صراحة، ولما استقر حكم الانتداب المدني عينته دائرة المعارف مفتشاً للغة العربية في مدارسها فتحسنت حالته وهيئته ثم مات أبوه فورث عنه إرثاً كبيراً، وقد أنشأ داره (فيللا) جميلة في الشيخ جراح، واقتنى سيارة وأنشأ في الدارة مكتبة ضخمة وصارت ملتقى العلماء والأدباء، وكان سمح اليد مضيافاً. وقد كتب في الأربعينات كتاباً أسماه (الإسلام الصحيح)، وهو كتاب ينم عن فهم عميق للإسلام وروحه ومبادئه، حيث يمكن أن يدل على أنه صحح عقيدته وعاد مسلماً صادقاً، وقد توج ذلك في أواخر عمره بوضع عمة بيضاء على رأسه وجبة سوداء على جسمه واطلق ذقنه. وقد رأيته لآخر مرة في مصر على هذه الهيأة سنة 1947 ثم ما لبث أن توفاه الله رحمة الله عليه وغفر له. وكان اهتمامه بالأدب والعلم اشد من اهتمامه بالسياسة، بل لم يسجل نشاطاً في مجالها مع احتفاظه بخط استقلالي وحدوي واخلاصه للقضية الفلسطينية وحقده على فخري وراغب لما كانا عليه من شذوذ في ذلك.

وقد التقينا به مراراً بعد المؤتمر في نابلس وفي القدس، وكنا نزوره في دارته ويدعونا لضيافته وندواته مع ضيوفه الذين كان يستضيفهم. وبكلمة أخرى كانت صلتنا به حسنة سوية وان لم تكن حميمة.

شيء عن خليل السكاكيني:

أما خليل السكاكيني فكانت هيئته أحسن جسماً ولباساً وأسلوبه رشيق بليغ ولكنه غير جاهلي، وبدا لي حين التقيت به واسع الأفق والاطلاع متزناً راجح العقل حسن الكلام عروبياً استقلالياً حر النزعة وحدوياً تجديدياً إصلاحياً

مع روح مرحة، وهو أسن مني بعشر سنين أو أكثر، وقد رحل في شبابه الى انكلترا وأميركا للعلم والكسب وصار يجيد الإنكليزية بالإضافة الى العربية، وعقب اعلان الدستور العثماني عاد الى فلسطين واشتغل في الصحافة والتعليم، وكان له نشاط في مجال حقوق الطائفة، مع التنبيه على أنه غير متزمت طائفياً، وأسس مدرسة سماها المدرسة الدستورية وفتحها لجميع ابناء الطوائف ومنع فيها المظاهر الطائفية ومنح طلابها الحرية، فكان عمله فريداً. وعمل في لجنة المعارف ثم في الكلية الصلاحية التي أنشأها جمال باشا في القدس، واعتقلته السلطات أثناء الحرب بتهمة ايوائه يهودي متهم بالجاسوسية وأرسلته مخفور الى دمشق، وقد استطاع أن يفلت بتدخل بعض اصدقائه ثم يخرج متخفياً من دمشق للانضمام الى جبهة الأمير فيصل في انحاء العقبة، ونظم نشيداً له امامه حينما وصل وصار مشهوراً:

أيها المولى العظيم
ملكك الملك الفخيم
نحو هذا الملك سيروا
وعلى الخصم اغيروا
فخر كل العرب
ملك جدك النبي
قبل فوت الزمن
لخلاص الوطن

ودخل مع فيصل لدمشق ثم عاد في أوائل سنة 1918 والتقينا به في هذا الظرف، وقد اشتغل هو الآخر في دائرة المعارف بعد استقرار الحكم الانتدابي المدني فترات استقال وعاد ثم استقال وعاد ثم استقال. وفي سنتي 1923 و1924 كان مستقيلاً فاشتغل في السياسة وصار سكرتير اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي، وتعاونا معه في مجالها لأني كنت أنا عضواً فيها، وكان أثناء ذلك يشتغل في الصحافة ويكتب المقالات ويلقي المحاضرات العلمية والأدبية والاجتماعية والوطنية وكان يكتب يوميات عن حياته، وكتب وصية طريفة. وكان له موقف في المؤتمر السابع حيث ثارت نعرة إسلامية مسيحية في صدد التمثيل الطائفي في المؤتمر واللجنة التنفيذية، وكان مثيرها عضو نصراني في المؤتمر، فوقف السكاكيني شاجباً له متنصلاً منها على ما سوف نشرحه بعد، وصار في سنة 1931 مديراً لمكتب اللجنة التنفيذية لهذا المؤتمر وكنت عضواً في لجنته التنفيذية فتعاونا في نطاقها. وكان شاعراً رقيقاً بالإضافة إلى كونه ناثراً بليغاً ورشيقاً، وله مأثورات شعرية من جملتها قصيدة أو نشيد مشهور مطلعه:

نحن قوم ابيونا
لا نبالي منايانا
لا نقر الأذى فينا
في سبيل امانينا

وله كتب عديدة مطبوعة ومخطوطة مدرسية وتاريخية وتربوية واجتماعية، وقد ذهب هو واسرته الى مصر في أوائل الخمسينات وفجع فيها بموت ابنه ووحيده بعد أن فجع في القدس بزوجته، ثم لم يلبث أن لحق بهما سنة 1953. وكانت صلاتي به حسنة وكنت أتبادل معه شعور الود والاحترام دون صداقة حميمة.

***

11

لجنة الاستفتاء في فلسطين وسورية والمؤتمر السوري العام وجمعية الفتاة:

بعد أن رتب الأمير فيصل شؤون حكومته في سورية سافر في نصف تشرين الثاني 1918 إلى أوروبا ليمثل والده في مؤتمر السلم كحليف من الحلفاء، وليبسط أمامه قضية العرب ويطالب بخاصة باستقلال سورية ووحدتها.

محاولات فرنسة انطلاقاً من مطامعها في سورية يمنع فيصل من تمثيل والده والكلام بصدد سورية:

وكانت فرنسا انطلاقاً من علاقاتها التي انشأتها منذ القديم في لبنان ومع النصارى بخاصة مع الموارنة، ومن مطامعها في السيطرة على سورية ولبنان معاً، ومن الاتفاقية السرية التي عقدتها مع بريطانيا وروسية ثم تبنتها مع بريطانية بعد خروج روسية من الحرب والتي جعلت سورية ولبنان تحت هيمنتها المباشرة وغير المباشرة على ما ذكرناه، قبل أن تعرف أن فيصلاً سيقف موقفاً معرقلاً لذلك، فترسمت أولاً أن تقصيه عن المؤتمر وتمنع تمثيل الحجاز فيه. ولقد استقبلته كأمير حجازي ورحبت به ورتبت له رحلة في أنحاء فرنسا لتبعده عن باريس اثناء انعقاد مؤتمر السلم، وشعر هو ورجاله بذلك فطلب الذهاب إلى باريس لمقابلة رئيس الجمهورية، فكان لابد من الإستجابة لطلبه.

مداخلة بريطانية وتثبيت تمثيله الحجاز وبسط فيصل للقضية:

وشعرت بريطانيا بقصد فرنسا إبعاد الأمير عن المؤتمر ومنع تمثيل الحجاز عنه، فبذلت جهدها لتثبيت ذلك ونجحت، وتقرر أن يكون للحجاز ممثلان وصار الأمير هو الأول وكان الثاني محمد رستم أحد شباب الحركة العربية وجمعية الفتاة البارزين، وكان عوني عبد الهادي أحدهم أيضاً في باريس فعينه الأمير سكرتيراً له، وفي جلسة المؤتمر الرسمية وقف الأمير فبسط القضية العربية وذكر فيما ذكر أمجاد العرب وحضارتهم ويقظتهم الحديثة في سبيل إحياء تلك الأمجاد، وجهادهم في زمن الدولة العثمانية، وما قاساه رجال الحركة من مطاردة واضطهاد وما كان من اتفاق والده مع بريطانيا على الثورة عليها مقابل عهد باستقلال وحرية العرب في البلاد التي تتحرر من الدولة، وما كان من جهادهم وتضحياتهم وإسهامهم في النصر الذي أحرزه الحلفاء، وفي تحرير بلاد الشام بخاصة من الدولة العثمانية، وذكر ما كان يعلنه الحلفاء من مقصد تحرير الشعوب ومنحها حق تقرير مصيرها، ومبادىء ولسون التي أعلن الحلفاء قبولها والتي تقرر ذلك وتنكر الاتفاقات والدعوة السرية التي عقدت أثناء الحرب بسبيل تحقيق المطامع الاستعمارية، وتؤيد الشعوب وبخاصة الشعوب العربية في طموحاتها وحقها في تقرير مصيرها. ثم اختص سورية بالكلام، فطلب الاعتراف بإستقلالها ووحدتها وذكر ما كان من حركتها الوطنية في سبيل ذلك وما قدمته من ضحايا وشهداء.

إنكار فرنسا عليه حق الكلام عن سورية واستعانتها بشكري غانم وآخرين من الموارنة:

وانبرى مندوب فرنسا لإنكار حق فيصل بالكلام عن سورية والادعاء بأن فرنسا هي المؤهلة لذلك نظراً لوشائجها ومصالحها. وقد

جيء بشكري غانم وبعض زعماء الموارنة لتأييد أقوال المندوب الإفرنسي.

محاولة استعانتها على ذلك بجميل مردم:

وحاولت الحكومة الإفرنسية تقديم دمشقي مسلم للمؤتمر لتأييدها، واتصلت بجميل مردم بك الذي كان في باريس وكان هذا منتسباً لجمعية الفتاة، فاتصل به رفاقه مع رفاق فيصل ووفده وحذروه وأحبطوا تلك المحاولة.

اقتراح ويلسون بإيفاد بعثة استفتاء لمعرفة رغائب أهل البلاد:

ونتيجة للموقف المتخالف بين فرنسا وفيصل، وما كان من شرح فيصل للقضية والتذكير بمبادىء ويلسون، اقترح هذا إيفاد بعثة تمثل الدول الرئيسية للحلفاء التي كان يتألف منها مؤتمر السلم (الأعلى) وهي فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وإيطاليا للوقوف على رغبات ومطالب أهل البلاد، وكان اقتراحاً مفحماً لفرنسة وبريطانيا معاً، ولاسيما أنهما بالإضافة إلى قبولهما مبادىء ويلسون وشروطه كانتا أصدرتا بياناً نشر في جميع بلاد الشام والعراق بتاريخ 8 تشرين الثاني 1918 تعلنان أنهما لا مآرب لهما في هذه البلاد وليس لهما من قصد إلا مساعدتهما على الاستقلال والحكم وفقاً لرغائب أهلها على ما ذكرناه قبلاً، فوافقتا على الإقتراح ووافقت إيطالية كذلك، وعين ويلسون ممثلي الولايات المتحدة، أما الدول الثلاث فأخذت تتلكأ وتسوّف، وحينئذ أمر ويلسون ممثليه بالذهاب دون انتظار والقيام بالمهمة، وكان اسمها كينغ وكراين، فعرفت اللجنة الأميركية باسميهما.

عودة فيصل مبشراً داعياً للإستعداد لمواجهة اللجنة وتقرير عقد مؤتمر سوري عام وتبليغ فلسطين بذلك:

واعتبر فيصل ووفده ذلك نصراً، وعادوا إلى سورية مبشرين طالبين من الناس الاستعداد لمقابلة اللجنة الأميركية، وتقرر فيما تقرر من أساليب مقابلتها عقد مؤتمر سوري عام يتمثل فيه أهل جميع أنحاء سورية داخلاً وساحلاً وجنوباً ليقول كلمة جماعية في ذلك، وقد بلغنا كل هذا، ثم جاء طلب من دمشق إلى مدن فلسطين بوجوب إرسال ممثلين عنها إلى المؤتمر.

اهتمامنا الأول لمواجهة اللجنة لأنها ستبدأ مهمتها في فلسطين في يافا:

ولقد علمنا أن اللجنة ستبدأ عملها من فلسطين، فاهتممنا أولاً لإعداد مواجهة ناجحة لها، وقد سارعت أنا والدكتور حافظ كنعان بقرار من الجمعية إلى السفر أولاً إلى يافا بعد أن علمنا أن يافا هي المدينة الأولى التي تبدأ عملها فيها لأنها آتية بطريق البحر إليها، واجتمعنا بعضوي المؤتمر الفلسطيني الشيخ راغب الدجاني ويوسف العيسى وغيرهما من رجال يافا البارزين النشيطين، واتفقنا على التزام الميثاق الذي وضعناه في مؤتمر القدس أي:

1 ـ فلسطين جزء من سورية.

2 ـ الاستقلال التام لسورية ضمن وحدة عربية.

3 ـ رفض وعد بلفور والهجرة اليهودية.

واتفقنا على أن يقال إذا سألت اللجنة عن شأن اليهود الموجودين أنهم سوف يكونوا أحراراً متساوين في الحقوق والواجبات كما كان شأنهم في الدولة العثمانية والدول العربية السابقة،

ولقد كان مؤتمر السلم أقر مبدأ استقلال بلاد العرب مع حاجتها إلى مرشد منتدب من دول الغرب المتحضرة لفترة من الزمن، وعلمنا أن اللجنة ستسأل الناس عن الدولة التي يرغبون أن تكون المرشدة في بلادهم فاتفقنا على أن يقال أن مؤتمراً عاماً سيعقد في دمشق لمقابلة اللجنة مقابلة جماعية باسم جميع سورية، ويكون لفلسطين ممثلون فيه، وأنه هو الذي سوف يجيب على هذا السؤال، وأن أهل البلاد يرفضون أي شكل من أشكال الحماية والوصاية، وأنهم فهموا من الإرشاد أنه إرشاد فني وعلمي وليس مشاركة في الحكم او وجوداً عسكرياً أو إدارياً قاهراً. وقد رأينا أنه من الأفضل أن يتقدم الناس بعرائض لهيئات تمثل الأطباء والمعلمين والمهندسين والتجار والبلدية والعمال والمزارعين الخ . .

قدومنا إلى طولكرم لنفس الغرض:

وعدنا بعد الاطمئنان إلى نابلس، وتوقفنا في طولكرم حيث اتفقنا مع رجالاتها على مثل هذا المنهج إذا جاءت اللجنة إلى طولكرم.

قدوم الشيخ عبد القادر المظفر في هذه الأثناء للدعوة لتسمية بريطانية للإرشاد والمساعدة:

ومما أذكره أنه جاء في هذه الأثناء الشيخ عبد القادر المظفر من دمشق لبث فكرة وجوب تسمية الدولة الإنكليزية كدولة مساعدة مرشدة مع الموافقة على سائر بنود الميثاق، وقد ألمح إلى أن هذا هو رأي الأمير فيصل، وشاع أنه يحمل بعض المال ليوزعه على من يؤيد فكرته وينشرها، وقد رفضنا هذه الفكرة واصررنا على ترك ذلك للمؤتمر السوري العام، ولم يلبث الشيخ قليلاً حتى عاد إلى دمشق غير ناجح في مهمته.

شيء عن الشيخ عبد القادر المظفر بمناسبة ورود ذكره في السياق:

وعلى ذكر الشيخ عبد القادر المظفر أقول استطراداً أنه كان في أثناء الحرب يتقلد منصب مفتي الجيش الثامن، الذي كان مركزه نابلس والبلقاء، والذي صار قائده جمال باشا المرسني الذي عرف بالثاني وكيلاً لجمال الكبير حينما انسحب هذا من سورية على ما ذكرناه قبلاً، وهو أسن مني، وقد تعرفت به وتصادقت معه واستمرت صلاتنا ولقاءاتنا وتعاوننا معه إلى النهاية.

وكان الشيخ قد بقي في دمشق حينما انسحب الأتراك من عسكريين ومدنيين، واندمج في عهد فيصل حينما دخل هذا دمشق، وكان خطيباً شعبياً ذا نشاط جم وعارضة قوية لم يسجل عليه أي موقف مناوىء للحركة العربية أبان إشتداد الأذى على رجالها، بل أثر عنه العطف والمساعدة، فأهله كل هذا للبروز في عهد فيصل. ولقد رأى رجال العهد أن ينشئوا نادياً عربياً للدعاية والتنشيط الشعبي، فعهدوا بإدارة هذا النادي إليه مع سليم عبد الرحمن الذي سوف يأتي ذكر شيء عنه بعد، وصار عبر ذلك من رجال العهد الشعبيين البارزين، وكان من ذلك أن أرسل إلى فلسطين بتلك المهمة. ولقد تعرفت عليه حينما ذهبت إلى دمشق بعد إنتهاء مهمة لجنة الإستفتاء في فلسطين كمندوب عن نابلس في المؤتمر السوري العام، وتعاونا معاً في قضية سورية وقضية فلسطين، وصار بيننا صداقة حميمة، ولما عدنا إلى فلسطين بعد سقوط عهد فيصل وأخذ ينشط في سبيل القضية الفلسطينية ومؤتمراتها في جملة من كانوا ينشطون، وكان مخلصاً مستقيماً صلباً في خطه. وظللنا أصدقاء متعاونين، وكان متعاوناً مع

الحاج أمين مؤيداً له، ولكنه كان يحتفظ بقوة شخصيته واستقلاله وعدائه الصريح للإنكليز والصهيونية معاً، ولقد انفرد عنا في ظرف محاكمة جرت لنا وله ولعدد من رجال وشباب الحركة بسبب المظاهرات غير المرخصة التي مشينا فيها مع الجماهير في يافا سنة 1933 على ما ذكرنا عابراً في كلمتنا عن موسى كاظم، وما سوف نشرحه وافياً فيما بعد، فرفض إعطاء كفالة وفضل السجن وسجن ستة أشهر.

وقد افترقنا عن بعض حينما غادرت أنا فلسطين سنة 1937 وبقيت في دمشق بسبب اندلاع الثورة ولم نره بعد ذلك، وقد توفي في عمان بعد أن نزح إليها في الأربعينات رحمة الله عليه، وسيأتي كلام آخر عنه في مناسبات آتية.

سفري أنا والدكتور حافظ كنعان الى القدس لتنظيم المواجهة وجهودنا في حمل رجالها على التزام المنهج:

ونعود الى حديث لجنة الاستفتاء فأقول انا ذهبنا بعد عودتنا من يافا انا والدكتور حافظ كنعان الى القدس أيضاً لإقناع رجالها على التزام الميثاق وجمع الشعب عليه امام اللجنة، وقد اجتمعنا أولاً مع الحاج أمين الحسيني ورفاقه، وكانوا منسجمين في الموقف معنا وكان هذا خطهم حين انعقاد مؤتمر القدس ايضاً، ثم اجتمعنا مع الشيخ كامل الحسيني المفتي اخ الحاج أمين، واسماعيل الحسيني ابن عمه، وكانا وحدويين استقلاليين، وسهل عليهما الانسجام في الموقف، ثم اقترحا علينا ان نزور راغب النشاشيبي لأنه كان متردداً في الموقف مع عارف الدجاني الداوودي وآخرين ممن يلفون عليه. فذهبنا الى بيته وتحدثنا معه وطلبنا منه جمع رجال القدس البارزين في بيته للبحث في الموقف ففعل، واستجاب لدعوته الشيخ كامل واسماعيل وموسى كاظم وعارف الدجاني ويعقوب فراج والشيخ حسام جار الله. واظن انه كان ايضاً اسحق البديري، وتحدثنا في الأمر وشرحنا الأخطار المحدقة بفلسطين في حال انفرادها عن الشام، وكان من الشباب الحاج امين واسعاف، وكان موقف المفتي وموسى كاظم واسماعيل مؤيداً، كما كان الحاج امين وإسعاف كذلك مما جعل الباقين يوافقون على الاشتراك في مؤتمر سورية، حتى لقد رشحوا راغباً وسعيد الحسيني ليمثلاها فيه، وقد تغدينا انا والدكتور حافظ عند راغب في زيارتنا له في بيته.

دعوة حسن صدقي الدجاني للوصاية الافرنسية:

ومما كان اثناء ذلك ان حسن صدقي الدجاني اخذ يبث فكرة تسمية فرنسا بدلاً من بريطانيا، رغم ان المنهج كان عدم ذكر أي دولة في جوابات فلسطين، ولكن الصوت كان خافتاً فلم يكن له أي أثر ايجابي في أوساط المسلمين.

قدوم اللجنة الى فلسطين ونتائج مواقف أهل البلاد:

ولقد جاءت اللجنة الأميركية الى يافا أوائل حزيران 1919، واذاعت بيانا قالت فيه انها ممثلة للرئيس ويلسون وانه ارسلها للوقوف على رغبات أهل البلاد، ثم أخذت تستقبل الناس وتستلم منهم عرائض وتسألهم شفوياً بعض الأسئلة في صدد مطالبهم ومحتويات عرائضهم، وكانت الأكثرية الكبرى من العرب في يافا مؤيدة للميثاق وما اتفق عليه من جواب في صدد الدولة المرشدة، حيث استطاع إخواننا البارزون الذين اجتمعنا معهم تنظيم الأمر وجمع

أكثرية الناس الكبرى على ذلك مسلمين ونصارى، ونصارى يافا جمهرة كبيرة وقوية وبارزة، وقد شذ بعضهم بعض الشيء، حيث طلب ان تكون فلسطين مستقلة وتحت الوصاية الانكليزية، وكان هذا وحي الانكليز واكثر أصحاب هذا الموقف من البروتستانت، وطلب جماعة ان تكون تحت الوصاية الافرنسية مجتمعة تحت هذه الوصاية مع سائر انحاء سورية، وكان هذا وحي فرنسة واكثر اصحاب هذا الموقف من الكاثوليك واللاتين، وكان جماعة من هؤلاء وأولئك مع اكثرية الأرثوذكس على المنهج المتفق عليه، وكان جميع فئات النصارى مجمعة في عرائضهالا على رفض وعد بلفور والهجرة والمطالب والدعاوى اليهودية، ولم يكد يشذ عن ذلك أحد من العرب، ثم زارت اللجنة القدس ثم نابلس ثم طولكرم وجنين ثم الناصرة وحيفا وعكا وصفد وطبريا، فكانت العرائض والأجوبة في نطاق ما كان في يافا اجمالاً، فأما اليهود فقد طلبوا فصل فلسطين عن سورية وجعلها تحت الوصاية الإنكليزية وتنفيذ وعد بلفور وفتح باب الهجرة اليهودية في فلسطين للاستيطان والاستعمار، وكان عدد اليهود حينئذ نحو ستين أو سبعين الفا. ولقد كان عددهم حين انتهاء الحرب نحو خمسين، وكان كثير منهم قد ذهبوا اثناء الحرب الى مصر وقبرص فعاد كثير منهم بعد انتهائها.

***

12

المؤتمر السوري العام في دمشق:

بعد انتهاء لجنة الاستفتاء من مهمتها همت مدن فلسطين لانتداب ممثليها أو إرسالهم الى دمشق لاشتراكهم في المؤتمر السوري العام، وقد قررت جمعية نابلس وكانت هي قطب الحركة والرأي الوطني انتدابي مع ابراهيم القاسم عبد الهادي لتمثيل نابلس، بالاضافة الى أمين التميمي الذي كان إذ ذاك في دمشق يشغل منصب معاون الحاكم العسكري العام الذي كان بمثابة رئيس وزارة.

تحرك بشير الشرابي ضد تمثيلي لنابلس في المؤتمر السوري وتنحيته:

ومما جرى في صدد تمثيلي لنابلس ان بشير الشرابي، وكان متخرجا من مدرسة الحقوق العليا في الآستانة وصار رئيس محكمة في زمن الدولة العثمانية، تحرك وذهب الى الشيخ عمر زعيتر رئيس البلدية وقال له كيف يصح ان تتمثل نابلس بعزة وإبراهيم وليس معهما اجازة من جامعة أو مدرسة عالية، وابنك عادل متعلم اكثر منهما، وما زال يحرضه ويسعى حتى حركه فعلاً. وكان للشيخ دالة وتأثير على الحاج توفيق على ما ذكرناه قبل، وكان مركزه في البلد قويّا فجنح الحاج توفيق لمسايرته وأقنع من يستطيع إقناعه من الجمعية لأجل ضم عادل ابن الشيخ الينا وهكذا كان.



ـ اعضاء « المؤتمر السوري » .

سفـري الى دمشق وبقائي فيهـا الى 23 تموز 1920 :

في أوائل حزيران 1919 سافرت انا وابراهيم القاسم عبد الهادي معا الى دمشق بطريق جنين ـ الناصرة ـ صفد ـ القنيطرة بالكروسة، وهذا هو الذي كان ممكنا ومألوفاً، وقد قدر لي أن أبقى فيها نحو ثـلاثة عشـر شهراً أي الى 23 تمـوز 1920، وأن أتعارف وأتعاون وأتصادق مع عدد كبير من رجال وشباب العرب الذين كانـوا في دمشق او قدموا اليها، والمنتمين الى مختلف الأقـطار العربيـة، وان يكون لي بـروز ونشاط كبيران في عهد فيصل الشامي خلال هذه المدة في مختلف مجالات ومناسبـات ومواقف هـذا العهد على ما سوف يأتي شرحه.

أعضاء المؤتمر السوري في فلسطين :

أما أعضاء المؤتمر السوري من فلسطين فقد كانوا بالإضافة الى مندوبي نابلس الأربعة الذين ذكرتهم أي أنا وإبـراهيم القاسم وعـادل زعيتر وأمين التميمي، وراغب النشـاشيبي وسعيـد الحسيني وعارف الدجـاني ويعقوب فـراج عن القـدس، والشيـخ راغب الـدجـاني ويـوسف العيسى عن يافا، ورشيد الحاج ابراهيم ومعين المـاضي عن حيفـا، والشيـخ ابـراهيم العكي وعبد الفتاح السعدي عن عكا، والشيخ طاهـر الطبري ويـوسف العاقـل عن طبريـا، وصلاح الدين قدورة وعبد الرحمن النحوي عن صفد، وحسين الـزعبي عن النـاصـرة، وسليم عبـد الرحمن والشيخ سعيـد الكرمي عن طـولكرم، ورشـدي الشوا والشيـخ سعيد مـراد عن غزة، ورفيق التميمي والـدكتـور أحمـد قـدري عن الخليل. وقد أكون غلطت في بعض الأسماء او نسيت بعض الأسماء، فأنـا اكتب الأسماء من ذاكرتي في دفتري القديم، بعد اكثر من خمس عشر سنة من انعقاد المؤتمر. وبعض هؤلاء كانوا في دمشق وأرسلت اليهم توكيلات من مـدنهم مثل سليم عبد الرحمن والشيخ سعيـد الكرمي والشيـخ سعيـد مـراد ومعين المـاضي ورفيق التميمي والدكتور أحمد قدري وأمين التميمي، مـع العلم ان رفيق والدكتـور أحمد ليسـوا من الخليل، ولكن الخليل وكلتهمـا بسعي خاص ولم ترسل احداً من أبنائها، وراغب النشاشيبي وسعيـد الحسيني ويعقوب فـراج لم يأتـوا الى دمشق. وقد ارسلت القدس بعد اشهر تـوكيلا للحـاج امين الحسيني وعارف العـارف اللذين جاءا الى دمشق بعد فرارهما من القدس على ما ذكرناه قبل.

ولقد كان ممثلو فلسطين يحملون توكيـلات جمعياتهم أو أندية مدنهم أو موقعة من عدد كبير من ذوي الرأي والشأن.

كيفية اختيار ممثلي سورية الـداخلية للمؤتمـر السوري :

وكان هذا خلافا للمنطقة الداخلية (ولايات سورية وحلب سابقاً)، التي كانت تحت الحكم العربي، حيث جرى انتخـاب لممثليها حسب القـانـون العثمـاني بقـدر الإمكـان، فـدعي المنتخبون الثانويون الذين كانـوا انتخبوا آخـر نـواب الـولايتين للمجلس النيـابي العثمـاني، فانتخبوا ممثليها للمؤتمر. ولم يسمـح الإنكليز بمثـل ذلك في فلسـطين ولا سيمـا ان ذهـاب ممثلين عنها كان على غير ارادتهم.

ومـا كـان في فلسـطين كـان في المنـطقـة الساحلية ولبنان المحتلة من الأفرنسيين، الذين حاربوا ذهاب ممثلين عنها الى المؤتمر، خلافاً لـلأنكليز الـذين اكتفوا بعـدم السماح بـاجراء

انتخابات، وسكتوا عن ذهاب ممثلين عن فلسطين بتوكيلات جمعياتهم وانديتهم وذوي الرأي والشأن منهم. والراجح ان مرد تصرف الإنكليز اطمئنانهم الى أن جو المؤتمر على كل حال لن يكون عدائياً لهم، وكانوا يعرفون ان فيصل سيبذل جهده لتسمية بريطانيا كمرشدة او مساعدة، وقد جاء الشيخ المظفر ليبشر باسمه بهذا. أما الإفرنسيون فكانوا متأكدين من ان من يأتي الى دمشق سيكون موقفه ضدهم.

أسماء ممثلي سورية الداخلية التي كانت تحت حكم فيصل:

وكان ممثلو منطقة دمشق المنتخبون فوزي باشا العظم وفوزي البكري والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ تاج الدين الحسني ومحمود البارودي واحمد القضماني والشيخ مسلم الحصني وعبد الرحمن اليوسف وإلياس عويشق وعزة عن نصارى دمشق، ويوسف لينادو عن يهودها. وكان ممثلو حلب سعد الله الجابري ورشيد المدرس وتيودور الأنطاكي وحكمة النيال ويوسف الكيالي والشيخ نوري الجسر ويوسف كيخيا، وكان ممثل دوما محمود الشيشكلي، وممثل إعزاز جلال القدسي وفاتح المرعشلي، وممثلو أقضية شرق الأردن التي كانت متصرفية تابعة لسورية باسم متصرفية البلقاء او الكرك عيسى المدانات عن الكرك، وخليل التلهوني عن معان، وسعيد أبو ناجي وسعيد الصليبي عن السلط، وسليمان السودي عن عجلون، وعبد الرحمن ارشيدات عن اربد، وكان ممثل الباب شريف الدرويش، وممثل المعرة حكمت الحراكي، وممثل منبج محمود نديم، وممثل الزبداني حسن رمضان، وممثلو بعلبك سعيد حيدر ومحمد حيدر، وممثل حاصبيا فائز الشهابي، وممثل الهرمل تامر حمادة، وممثلو إدلب زكي يحيى وفؤاد عبد الكريم وأحمد العياشي، وممثل القنيطرة محمود الفاعور، وممثل النبك خليل ابو الريش، وممثلو حمص هاشم الأتاسي ووصفي الأتاسي ومظهر رسلان ومرشد سمعان، وممثلو حماة خالد البرازي وعبد الحميد البارودي والشيخ عبد القادر الكيلاني، وممثل حارم إبراهيم هنانو، وممثل أنطاكيا صبحي بركات ومصطفى لطفي الرفاعي، وممثلو حوران ناصر المفلح ونسيب الأطرش، وكانت دير الزور في نطاق العراق أو غير منضمة لسورية الفيصلية، ثم كانت حركة قادها رمضان شلاش أدت الى انضمامها الى سورية، وجاء منها ممثلون في وقت متأخر وهم الحاج فاضل عبود ومحمود نوري الفتيح وإبراهيم الحاج حسين. ولعل هناك اسماء اخرى غابت عن ذاكرتي حين تدوين مذاكرتي الأولى وظلت ذاهبة.

أسماء ممثلي لبنان وسواحل سورية في المؤتمر السوري:

أما من جاء من لبنان والسواحل في الفترة الأولى والفترات التالية فهم السيد رشيد رضا وتوفيق البيسار وعثمان سلطان ويوسف الحكيم والشيخ عبد المجيد المغربي عن طرابلس الشام، ورضا الصلح ورياض الصلح وعفيف الصلح عن صيدا وصور، وعبد الفتاح الشريف عن عكار، وسليم علي سلام وعارف النعماني وجميل بيهم وأمين بيهم وجورج حرفوش عن بيروت، وناجي علي أديب عن جبله، ومحمد خير ومحمد الشريف ومنح هارون وصبحي الطويل عن اللاذقية، وتوفيق مفرج عن الكورة، ودعاس الحاج حسن عن حصن الأكراد، ورشيد

نفاع عن المتن، ومراد غلمية عن مرجعيون، والدكتور سعيد طليع والشيخ إبراهيم الخطيب عن جبل لبنان. والأسماء من الذاكرة ومما دوّن في دفتري الأول، وقد أكون نسيت أسماء أخرى أو أخطأت في تسمية بعض الأسماء.

وعلى كل حال فالأسماء والمناطق التي جاء منها أصحابها تدل على أنحاء سورية الساحلية والجنوبية المحتلة من الإنكليز والافرنسيين كانت ممثلة، وأن التمثيل كان شاملاً لمختلف النحل. أما المنطقة الداخلية الفيصلية فكانت ممثلة تمثيلاً شاملاً وانتخابياً، وتمثيل فلسطين كان أوفى وأشمل من تمثيل الأنحاء المحتلة من الأفرنسيين.

تنويه بجرأة ومغامرة من جاء من لبنان والسواحل:

ولقد كان الأفرنسيون يبذلون جهدهم وقوتهم وارهابهم لمنع تمثيل منطقة احتلالهم، ومع ذلك فقد استطاع عدد كبير منهم، مسلمين ونصارى، وتحدوهم وجاؤا، فكان في ذلك دلالة على الروح القومية والجرأة والمغامرة، وقد اعتبرهم الافرنسيون أعداء وصاروا يتربصون بهم.

ومن الجدير بالتسجيل ان هذه الروح ظهرت في منطقة الاحتلال الأفرنسي أثناء ذهاب لجنة الاستفتاء الاميركية اليها. ولقد اهتمت السلطات الإفرنسية لتكون مواقف أهلها حسب مطامعها اهتماماً شديداً، وكان معظم الموارنة والكاثوليك منها، حيث كانت مطاليبهم (لبنان الكبير) المنفصل عن سورية تحت الحماية الافرنسية، وكان يقصد من (لبنان الكبير) فصل أقضية البقاع وبعلبك وراشيا وحاصبيا عن سورية وضمها الى لبنان، وهو ما نفذه الإفرنسيون حينما تم غزو سورية واسقاط حكم فيصل عنها. غير ان عرائض عديدة قدمت الى اللجنة مخالفة لذلك رغم أنف السلطات الإفرنسية وإجراءاتها الإرهابية. منها ما كان يطلب للبنان استقلالاً تاماً بلا حماية ولا وصاية، ومنها ما كان يطلب للبنان استقلالاً ذاتياً مع اتحاده اقتصادياً بسورية ولا حماية ولا وصاية أيضاً.

والشيء بالشيء يذكر، فإن أكثرية أعضاء مجلس إدارة لبنان الذي كان يمثل جميع الطوائف قررت بعد إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بلا وصاية ولا حماية تحت تاج فيصل في 8 آذار 1920 توقيع مضبطة تطلب أن يكون لبنان مستقلاً بدون حماية ولا وصاية مع اتحاده مع سورية، وقد وقع على المضبطة كل من سعد الله الحويك وفؤاد عبد الملك ومحمود جنبلاط وسليمان كنعان وخليل عقل ومحمد الحاج محسن وإلياس الشويري، ومن هؤلاء موارنة وغير موارنة من النصارى، ومنهم من طوائف إسلامية كالدروز وغيرهم. وكتبوا من قرارهم نسخاً عديدة، واتفقوا على أن يحمل كل واحد نسخة وأن يتسللوا منفردين الى دمشق ومنها الى أوروبا ليقدموها لفيصل ولمؤتمر السلم. وقد وشى بهم للسلطات فترصدتهم واعتقلتهم، واعتقلت الأمير أمين أرسلان والميرالاي سعيد البستاني وإلياس عقل الذين كان لهم ضلع بالعملية وحاكمتهم وحكمت عليهم بالغرامات والنفي، ونفتهم فعلاً الى ارواد أولاً ثم الى كورسيكا حيث بقوا منفيين شهوراً عديدة باستثناء سليمان كنعان الذي استطاع أن يفلت. ومما نذكره أن رياض الصلح جاء من بيروت متسللاً ومنه نسخة من القرار، وفي صحبته بعض الأشخاص الذين كان لهم ضلع في العملية، ولعل منهم سليمان كنعان

المذكور، وكان للحادث دوي كبير في لبنان وسورية وكان في اوائل تموز 1920 .

ولقد كان معظم أعضاء المؤتمر غرباء عني، فلم أكن أعرفهم من قبل، فكان المؤتمر ونشاطي في نطاقه، ولقد انعقد من أواخر حزيران 1919 الى أواخر تموز 1920، فرصة لتعرفي عليهم وعقدي أواصر الصداقة والتعاون معهم، وكنت أحظى منهم ولا فخر بالتقدير والإعجاب. وبالرغم مما كان بيني وبين بعضهم من خلاف في المنهج والأفق ومن فارق كبير في السن. وكثيراً كنت ألتقي بعضهم بعد عهد فيصل في فلسطين وسورية وفي لبنان لقاء عادياً أو عبر مجالس واجتماعات وندوات ومؤتمرات، فكنا نلتقي كأصدقاء ونتذكر عهد المؤتمر ونتعاون.

ومن طريف ما كان من ذلك، أن ممثل دير الزور إبراهيم الحاج حسين زارني في دمشق سنة 1965 وذكّرني بنفسه، وأخرج لي من محفظته الصغيرة رسالة كنت كتبتها لأمين صندوق المؤتمر ليدفع له مخصصاته، حيث ظل محتفظاً بهذه الورقة 45 سنة، فكانت وسيلة لزيارته لي وتذكيري بنفسه. وبالإضافة الى هذه الصورة العامة فقد نشأت بيني وبين بعضهم صداقات حميمة أكثر من عادية وعابرة.

شيء عن هاشم الأتاسي وصداقتي معه:

ومن هؤلاء هاشم الأتاسي، وكان كهلاً ناضجاً وقوراً متزناً ذا معارف قانونية وإدارية وذا أخلاق مرضية وأفق واسع وأناة وروية، ويلمح المرء فيه الطيبة والصدق والصراحة، وكان وحدوياً استقلالياً صلباً في وطنيته لا يوارب ولا يداجي، فكان بذلك يبعث في النفس له الاحترام والطمأنينة، وكان يمنحني عطفاً وثقة ويستشيرني في المواقف ويأخذ برأيي مع ما كان من فارق السن بيني وبينه حيث كان يكبرني نحو 15 سنة وأكثر، وقد تعاونت معه أثناء العهد الفيصلي في لجنة الدستور التي أنشأها المؤتمر لوضع دستور للمملكة السورية المقبلة، حيث كان رئيساً لها وكنت سكرتيرها، وقد اجتهدت جمعية الفتاة فضمته إليها حيث كانت قررت توسيع نطاق عضويتها وضم عناصر صالحة إليها، وكنت سكرتيراً لهيأتها المركزية، فكان ذلك من وسائل توثيق الصلة والصداقة بيننا. ولقد أهلته صفاته فاختير لرئاسة المؤتمر السوري في دورته الثالثة التي أعلن فيها الاستقلال، ثم لرئاسة الوزارة الاستقلالية الثانية في العهد الفيصلي، ثم للبروز في زمن الاحتلال الافرنسي في الحركة الوطنية السورية المطالبة بالاستقلال والحرية والوحدة، ثم لرئاسة الكتلة الوطنية التي قادت الحركة الوطنية والتي نجحت في نشاطها واستطاعت أن تجعل فرنسا تعقد معاهدة سنة 1936 تعترف فيها باستقلال وسيادة سورية، ثم لرئاسة الجمهورية السورية مرة سنة 1936 نتيجة لهذه المعاهدة الى سنة 939، ومرة في سنة 1954 مؤقتة.

ولقد جئت الى دمشق زائراً في سنة 1932 و 1937 ثم مقيما في 1937 وبعدها، فتجددت صداقتنا وصلاتنا، وكنت ألقى منه المحبة والرعاية وأكون أحياناً موضع سره وأفكاره واستشارته في بعض الملمات في بعض الأحيان، وظلت صداقتنا وصلاتنا مستمرة على هذا النحو الى أن توفاه الله سنة 1963 رحمة الله عليه. وكان آخر لقاءاتي به في دمشق سنة 1959، حيث كان في بيت ابنه مريضا مرض الشيخوخة، وكان قبل قد أقام في حمص بعد

رئاسته للجمهورية الثانية فزرته وتبادلنا الود والدعاء.

شيء عن وصفي الأتاسي:

ومنهم وصفي الأتاسي، وكان ذكياً ألمعياً وحدودياً استقلالياً، وقد تخرج من كلية حقوق الآستانة، وكان حسن الثقافة والكلام والحجاج، وظللنا متواثقين متعاونين عهد المؤتمر، وضمته جمعية الفتاة إليها فكان ذلك من وسائل توثيق الصلة والتعاون، ثم افترقنا بين يدي الاحتلال الافرنسي، ولم يعمر طويلاً حيث وافاه أجله في العشرينات رحمة الله عليه.

شيء عن سعد الله الجابري:

ومنهم سعد الله الجابري، وكان شاباً ذكياً نشيطاً ألمعياً قومياً وحدوياً استقلالياً صلباً جريئاً خفيف الروح بارع النكتة، وكان يهتم كثيراً بأناقته ونظافته وطهارته الى حد الوسوسة، وكان مدققاً كثيراً في الرسميات ومقتضياتها، وكان يقدرني ويعجب ببروزي ونشاطي، وكان يمازحني فيسميني طلعة باشا (وطلعة باشا هذا كان من أبرز رجال الحكم الاتحادي التركي وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقي صاحبة العهد وكان في شبابه موظفاً في دائرة البرق والبريد مثلي، ومن هنا ومن كوني كنت من أركان جمعية الفتاة حزب العهد الفيصلي كانت تلك التسمية)، ولقد أهلته صفاته للبروز في الحركة الوطنية حينما أخذت تقوم وتشتد بعد الاحتلال الإفرنسي، وصارت له زعامة حلب، وكان من أبرز أعضاء الكتلة الوطنية وأصلبهم، ثم أهلته ليكون وزيراً للداخلية والخارجية معا في عهد معاهدة الاستقلال سنة 1936 ـ 1938، ثم رئيساً للوزارة في عهد الاستقلال الثاني الذي كان برئاسة شكري القوتلي سنة 1944، ثم رئيساً لمجلس النواب في سنة 1949.

ولقد جئت دمشق في سنة 1932 ثم في سنة 1937 زائراً ثم في سنة 1937 مقيماً، فكانت صداقتنا تتجدد، ولقيت منه أثناء وزارته في جمهورية الأتاسي كل مودة ورعاية واهتمام، وكنت مضطلعاً بمسؤولية تأجيج الثورة في فلسطين.

وقبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية نقضت فرنسا المعاهدة الاستقلالية فاستقالت الوزارة، وبعد قليل اغتيل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي كان معارضاً للعهد والوزارة، فاتهم بتدبير اغتياله مع جميل مردم بك ولطفي الحفار ففروا الى العراق حيث أقاموا الى أن جرت المحاكمة وثبتت براءتهم، وبعد قليل قام عهد جمهورية شكري القوتلي فكان من أركانه كما قلنا، وكنت قد لجأت الى تركية حينما غزا الانكليز مع الديغوليين سورية اثناء الحرب حتى لا أقع في أيديهم. ولما انتهت الحرب عدت وعهد القوتلي ووزارة سعد الله قائمة، فلقيت منه ما قد اعتدته من محبة وود، واعتمدني في توزيع بعض المساعدات على بعض رجالات ثورة فلسطين، وظلت صلات الود قائمة الى أن توفي سنة 1947. وقد ذهبت الى حلب واشتركت مع أصدقائه ورفاقه والجماهير الباكية عليه في موكب جنازته العظيم رحمة الله عليه.

شيء عن رياض الصلح:

ومنهم رياض الصلح، وكان شاباً نشيطاً شديد الذكاء والبديهة والألمعية وحدودياً استقلالياً طموحاً حبوباً محبوباً واسع الحيلة والمرونة، محسناً للمداورة والمناورة مع

الاحتفاظ بصلابته الوطنية الوحدوية الاستقلالية، وقد أكسبته هذه الصفات إعجاب وتقدير مختلف الفئات. ولقد بدأ نشاطه القومي في شبابه الأول في زمن الدولة العثمانية، وكان يافعاً، وتعرض لمطاردة جمال باشا، ولكن صغر سنه شفع له. وكنت أسن منه ببضع سنين، فكان يقدرني ويحترمني، وقد تعاونا تعاوناً وثيقاً في نطاق المؤتمر وخارجه، وقد ضمته الفتاة اليها فكان ذلك من وسائل التواثق والتعاون بيننا، وكان مستمر المناوأة والعداء للإفرنسيين مستمر النشاط ضدهم، فكان لا يستطيع الاقامة في لبنان ولا في سورية بعد احتلالها، فكان ينشط في أوروبا مع الأمير شكيب ارسلان واحسان الجابري، ويأتي من آن لآخر الى فلسطين فتتجدد صداقتنا وصلاتنا، وقد اهلته صفاته هذه ليلعب دوراً كبيراً قبيل نهاية الحرب وبعدها في تاريخ لبنان ومصيره، وصار رئيس الوزارة اللبنانية في أول عهد الاستقلال سنة 1943، وتكررت رئاسته. وكان له موقف عظيم في عهد رئاسته الأولى مع الافرنسيين، لأنه أراد ان يعدل الدستور الذي فرضه الإفرنسيون والذين فيه مواد مخلة بسيادة لبنان وعروبته، وقد اعتقله الإفرنسيون مع رئيس الجمهورية وعدد من رجال الحكم وأتوا باميل اده، ولكن لبنان انتفض، مسلموه ومسيحيوه، انتفاضة عارمة وتدخلت بريطانية وأعادت الأمور الى مجراها، وانتصر ذلك الموقف إلى أن انتهى بجلاء الافرنسيين واستتباب السيادة والاستقلال للبنان في آخر سنة 1945.

ولقد كانت صلاتي تتجدد معه حيث كان من حين الى آخر يأتي الى فلسطين، ثم لم أره الا في أوائل الحرب العالمية الثانية، وبعد ان استسلمت فرنسا وقامت ما يسمى حكومة (فيشي) برئاسة المارشال بتان. حيث أخذ الإنكليز والديغوليون يحاولون الاستيلاء على سورية ولبنان، والافرنسيون فيهما يحاولون احباط ذلك لأنهم اتبعوا حكومة فيشي، وقد اتصل الإفرنسيون به وطلبوا منه مساعدتهم بحركة ثورية فلسطينية، فأرسل اليّ خبرا بالقدوم الى بيروت لأني كنت آنئذ في دمشق، (وقد خرجت من السجن الذي حكمت به علي محكمة فرنسية عسكرية بعد ان انكسرت فرنسا)، فذهبت الى بيروت والتقيت به واتصلنا بطريقة بالإفرنسيين ولكن لم نتفق، لأنهم أرادوا عملاء لحسابهم، وأردنا ان نكون ثواراً لحسابنا يمدوننا بالمال والسلاح، ويكون لنا حرية العمل، ثم افترقنا ولجأت الى تركية حينما غزا الإنكليز والديغوليون سورية حتى لا أقع في أيديهم. ولما عدت بعد نهاية الحرب كان هو رئيساً لوزارة لبنان، فالتقيت به وجددت عهد صداقتي معه، وقد لقيت منه ما عهدته من ود وحرمة، وتعاونت معه في نطاق الجامعة العربية التي كنت فيها ممثلا للهيئة العربية العليا، وكنت ممثلا لها أمام حكومتي سورية ولبنان، فكنت ألتقي به ويبذل جهده في الاستجابة لمطالبي في صدد القضية، وظن انني وبعض رفاقي من رجال الحركة، وبتعبير أدق رفيق التميمي وعوني عبد الهادي اللذين كانا أيضاً في دمشق في هذه الأثناء قد نكون في ضائقة فأرسل الى كل منا ألفي ليرة مع رسول خاص، وكان الله قد بارك في تجارة أخي في عمان فأغنانا عن مساعدة غيره، فرددت إليه المبلغ شاكراً معتذراً، واستمرت صداقتنا الى أن استشهد رحمة الله عليه بيد حاقدة من الحزب القومي السوري في أثناء زيارته لعمان سنة 1951 انتقاما لإعدام رئيس الحزب أنطون سعادة بحكم من المحكمة

في بيروت جزاء ما قام به من محاولات تمردية وانقلابية.

شيء عن عفيف الصلح:

ومنهم عفيف الصلح وكان مثقفاً أكثر من رياض ولكن لم يكن في نشاطه وبداهته ولمعانه وجذبه للقلوب، وهو أسن قليلا من رياض، وكانت له أفكار ومحاكمات اجتماعية وسياسية حسنة، وعنده أناة وتروٍّ، وقد أهّلته ثقافته ليكون مديراً للمدرسة العربية الثانوية التي أنشأتها الحكومة التركية الاتحادية سنة 1913 كاستجابة لمطالب ورغبات الحركة العربية، وقد تصادقنا وتعاونا عبر المؤتمر، وضمته الفتاة اليها، فكان ذلك من وسائل التواثق والتصادق، وقد استمر ذلك بيننا، وتجدد حينما أقمت في دمشق سنة 1937 وبعدها، حيث كان هو أيضاً مقيماً في دمشق لأن والدته منها، وكان ينشط في عهد الاستقلال السوري، وصار مرة نائباً في مجلس نوابها ووزيراً، وكان يعد من أركان الكتلة الوطنية أو قيادة الحركة الوطنية في هذا العهد، وقد ظللنا أصدقاء ونتزاور ونتداول في مختلف الشؤون قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، ثم انقطعنا عن بعضنا حينما طعن في السن، ثم توفي في بيروت سنة 1974.

شيء عن السيد رشيد رضا:

ومنهم السيد رشيد رضا، وهو أسن مني بنحو 15 سنة أو أكثر، وكنت أقرأ له في مجلة المنار التي أنشأها في مصر في أواخر القرن الفائت مقالات اجتماعية ودينية وفصولا في التفسير التي سار عليها على نهج الامام محمد عبده، وكان الصق تلامذته به، وسار على نهجه الاصلاحي التجددي الواسع الأفق، حتى انه انشأ مدرسة في مصر سماها مدرسة الوعظ والارشاد لتخريج مرشدين إسلاميين متجددين مصلحين يدعون الى الاسلام الصحيح، وأعتقد انه صار أغزر علماً واطلاعا من أستاذه، كما انه صار اكثر نشاطاً في التأليف، وإن كان دونه في الإشراق والدوي والتأثير في الناس، وكنت اسمع بأخبار نشاطه السياسي أثناء اشتداد الحركة العربية والتشاد بين العرب والترك، كان في بدء الأمر يحاول التوسط، حتى لقد أيد الاتحاديين ولقي بسبيل ذلك شيئاً من الأذى، ثم تيقن من تعنت الاتراك للاتحاديين ونياتهم الاستعلائية ومواقفهم المناوئة للمطالب العربية المشروعة، فانحاز الى جانب رجال الحركة العربية المناوئين، وكان زار الآستانة بعد إعلان الدستور ثم عاد الى مصر ناقماً، واندمج في حركة وحزب اللامركزية. وذهب عقب اعلان الشريف حسين للثورة الى الحجاز، وبارك الثورة وبايع الشريف حسين بالملك، ثم اختلف معه وعاد الى مصر. وظل ينشط مع السوريين واندمج في حزب الاتحاد السوري الذي أنشىء عقب انتهاء الحرب، وجاء الى دمشق مع من جاء من أركان هذا الحزب، وجاءه توكيل من طرابلس ليمثلها مع الآخرين في المؤتمر السوري، وأخذ ينشط في نطاقه، وقد انضم الى الفتاة واخترناه لرئاسة المؤتمر التي خلت بتعيين هاشم الأتاسي رئيساً للوزارة في مارس 1920، وكنت سكرتيراً للمؤتمر. فتوثقت الصلة بيني وبينه، وكان يقدرني ويثق بي، وصرت مستشارا له وعضدا في الرئاسة. وانطباعاتي عنه أنه ديّن غيور وعربي مخلص، وفيه نزعة تجديد وإصلاح، وانه رجل جدل ومنطق في الأبحاث الدينية والإسلامية، ومن احسن النماذج لعالم مسلم باحث مدرك لروح الإسلام وجوهره وقوته، وله حجة قوية ومنطق سليم مستقيم مبرأ من العبث

والتعنت والجمود وضيق الأفق، وهو طويل النفس في أبحاثه وغزير العلم وواسع الاطلاع. إلا أنه حينما يخرج من هذه الدائرة على سعتها للعمل والبحث في السياسة، فكثيراً ما يبدو منه ضعف، ويفارقه منطقه السليم وحجته القوية واحاطته المدركة، ولم يستطع أن يملأ فراغ هاشم الأتاسي في الرئاسة، وكنت أتعب وأجتهد في تركيز رئاسته، ومما يؤخذ عليه إدلاله بأفكاره وعلمه وطول باعه في الدين والسياسة معا، فأما في الدين فنعم وأما في السياسة فلا.

لما زرت مصر عام 1932 زرته وجددت عهد الصداقة به، وكان مستمر النشاط والدأب في أصدار المنار وإتمام التفسير الذي هو من أحسن التفاسير علماً وبحثاً، وإن كان كثير الاستطراد، ومات سنة 1935 دون إتمامه، حيث صدر منه أحد عشر مجلداً الى سورة يوسف. وله مؤلفات كثيرة منها كتاب عظيم سماه الوحي المحمدي، ومنها مجلد ضخم جدا في تاريخ الإمام محمد عبده. وقد توفاه الله رحمة الله عليه وجزاه عن الاسلام والعروبة خير الجزاء.

كلمة عن الأمير فائز الشهابي:

ومنهم الأمير فائز الشهابي الذي مرت إشارة عابرة اليه، وهو اخو الأمير اسماعيل صديقنا في النبك، وكان شاباً قومياً وحدوياً استقلالياً ليناً دمثاً بدون عنف ومع صلابة في المبادىء والمواقف وسريرة نقية وعاطفة محببة، وكان يحمل شهادة عالية حصل عليها من الأستانة ولست متيقناً فيما اذا كانت من مدرسة الحقوق أم من المدرسة الملكية العالية. وقد مارس بعض الوظائف في زمن الدولة العثمانية، ولما دخل فيصل وقام عهده اندمج فيه حيث كان ممن ينتسبون الى جمعية الفتاة قبل نهاية الحرب، وقد عهد اليه بوظيفة مهمة في وزارة الداخلية، وكان يوفق بين عمله في هذه الوظيفة وبين تمثيله لحاصبيا في المؤتمر فيحضر بعض الجلسات، ولم تكن الوظيفة مانعة، وكان هذا شأن غير واحد من أعضاء المؤتمر. وقد توثقت الصلة والصداقة الحميمة بيننا وتعاونا في نطاق المؤتمر وفي نطاق جمعية الفتاة معاً وافترقنا بعد سقوط عهد فيصل، حيث بقي هو في الشام لأنه لم يكن له نشاط سياسي شديد وظل في وظيفته باستقامة وصلابة دونما انحراف مع عدم النشاط ضد الإفرنسيين، ولما قام عهد الاستقلال برئاسة هاشم الأتاسي ظل يعمل في وزارة الداخلية مستقيما مقدّراً محبوباً. ولما جئت الى دمشق مقيماً سنة 1937 تجددت الصداقة بيننا وافترقنا بضع سنين حيث لجأت الى تركية وعدت ثانية، ولم يعتم ان وافاه أجله في الخمسينات رحمة الله عليه.

شيء عن سعيد حيدر:

ومنهم سعيد حيدر وهو خريج مدرسة الحقوق العثمانية، وكان ذكياً متتبعاً للدراسات الحقوقية وغير الحقوقية ومجادلاً عنيداً وصلباً في وحدويته وعروبته واستقلاليته وجريئاً على قول ما يراه حقاً وثابتاً عليه. وكان يبدو كأنه جبار، ولقد كان ـ بدون قصد انتقاص ـ أعور ومقطوع أحد ساقيه يمشي على رجل اصطناعية ويعرج فكاد يصدق عليه المثل «كل ذي عاهة جبار». وقد توثقت صلتي به في نطاق المؤتمر ثم في نطاق جمعية الفتاة التي كان عضواً من أعضائها القدماء وصارت صداقة حميمة، واعجب كل منا بصاحبه رغم ما كنت عليه من لين ومرونة وما كان عليه من صلابة وقسوة في الجدل، وتعاونت معه في نطاق المؤتمر وفي نطاق لجنة وضع

دستور المملكة السورية، وتزاملنا في الهيئة المركزية لجمعية الفتاة، ولقد افترقنا في آخر عهد فيصل حيث ذهب هو بقرار من الجمعية الى الآستانة قبل غزو غورو لسورية لطلب العون من تركية وبقي هناك بسبب وقوع هذا الغزو، وعدت أنا الى فلسطين، ثم التقينا ثانية حينما عدت الى دمشق مقيماً في سنة 1937 وافترقنا ثانية حيث لجأت الى تركيا. ولما عدت التقيت به، وكان محتفظاً بكل مزاياه وروحه القوية الجدلية والعلمية، وجددنا عهد الصداقة وظللنا نحتفظ بها ونتزاور ونتبادل الحديث في مختلف الشؤون الى أن وافاه أجله في أواخر الخمسينات رحمة الله عليه.

شيء عن الدكتور محمد حيدر:

ومنهم الدكتور محمد حيدر وهو من أبناء عمومة سعيد، وكان ألين طبعاً وأدمث خلقاً من سعيد، ولم يكن مثله ذا علم وجدل. وكان من أعضاء الفتاة القدماء أيضاً، فكان ذلك مما وثق الصلة والصداقة وتبادل المودة بيننا، وافترقنا بعد سقوط عهد فيصل وكان ذلك آخر العهد بيننا.

شيء عن سليم عبد الرحمن:

ومنهم سليم عبد الرحمن، وهو ابن عبد الرحمن الحاج ابراهيم رئيس بلدية طولكرم وأحد أركان جمعية الحاج توفيق القديمة في نابلس على ما ذكرناه قبل، وقد رأيته لأول مرة في دمشق وكان يبدو جم النشاط والحركة، وكان في دمشق قبل انهيار الجبهة التركية فالتحق مع بعض الرفاق بجبهة فيصل وكان قد وصل مع كتائبه وأعوانه الى ناحية جبل الدروز، وعاد معه الى الشام وكان منتسباً الى جمعية الفتاة في أثناء الحرب ورأت الهيأة المركزية للجمعية، التي كانت حزب عهد فيصل، أن تنشىء نادياً عربياً للدعاية والنشاط السياسي والثقافي والشعبي، وأشركت الهيأة معه الشيخ عبد القادر المظفر، الذي كان بدوره ذا نشاط وحركة وموهبة خطابية والذي كتبنا عنه شيئاً قبل قليل، وقد ازدهر النادي تحت إدارتهما واشغل حيزاً كبير فيما كان يجري من نشاط جياش في دمشق، وكانت تعقد فيه الاجتماعات وتلقى فيه الخطب السياسية والوطنية وتنشد الأناشيد ويبث عبره ما يراد بثه من أفكار وأخبار الحركة الوطنية الاستقلالية وغاياتها، وكان ينشط في ما كان يقتضي قيامه من مظاهرات شعبية في مختلف المناسبات بسبيل ذلك، وشغل سليم نتيجة لذلك حيزاً كبيراً في العهد الفيصلي، وكانت له صداقات مع كثيرين من الشباب وانتشر اسمه عبر ذلك، وأسهم في حركة تل كلخ الثورية ضد الاحتلال الإفرنسي التي كانت 1919 على ما سوف نشرحه بعد، فتعزز اسمه ومركزه، وقد توثقت الصلة بيننا في نطاق المؤتمر وفي نطاق جمعية الفتاة معاً، وكان بيننا تعاون، وكان يسير وراء نزواته ولهوه بنفس الحماس الذي يسير به في العمل.

وكنا نختلف معه في بعض المواقف في نطاق الفتاة، غير أنه على كل حال ظل بارزاً نشيطاً ذا حيز كبير طيلة عهد فيصل، وكان ممن حكم عليه الافرنسيون غيابياً بالإعدام. وظلت صلتنا به مستمرة بعد سقوط هذا العهد والعودة الى فلسطين، وظل ردحاً غير قصير محتفظاً بحيويته ونشاطه في المجال السياسي ملتزماً بالخط الوطني السليم، وكان يشترك في المؤتمرات واللجان ممثلاً لطولكرم، واستقطب كثيراً من الشباب حوله بنشاطه وكثرة تحركاته وحماسه حتى صار اسمه على كل لسان، وحتى لقد كانت وصية الشهداء الثلاثة جمجوم والزير

وحجازي، الذين أعدمتهم السلطات لما كان منهم ضد يهود صفد والخليل في ظروف ثورة البراق عام 1929، على ما سوف نشرحه بعد، موجَّهة اليه، الى أن صار ينحرف، اذ كان له أخ كان متورطاً تورطاً شديداً وصريحاً ووقحاً في السمسرة لليهود والتعامل معهم وينال كثيراً من المكافآت على ذلك ولعله سايره. وكان يحاول التنصل والتبرير ولكن الشواهد كانت أقوى من ذلك، ولقد اطلعت على وثيقة مسجلة لدى كاتب العدل كان فيها كفيلاً لرجل تعاقد مع اليهود على بيع أرض، ومن الطريف والعجيب ما كان يقوله حينما يصطدم بالشواهد (لا بأس من أخذ مال اليهود اليوم بأي طريقة وغداً سوف نستعيد ما أخذوه من أرض ويظل المال الذي أخذناه غنيمة). ولم تعد الصداقة بيننا قائمة، ولقد كابر وظل ينشط، وفي إضراب فلسطين الطويل نفته السلطات الى طوباس وفر منها الى العراق وأخذ ينشط في الدعاية للقضية، وعاد الى نزواته في الوقت نفسه فسقط معنوياً ثم مادياً وصار في حالة يرثى لها، وتوفي في الخمسينات على هذه الحالة غفر الله له.

شيء عن ابراهيم هنانو:

ومنهم إبراهيم هنانو، وكان رجلاً جاداً ذا روح ثورية وأخلاق قويمة، وكان وحدوياً استقلالياً مع شيء من الانفعال والحدة، وأظن أنه درس في مدارس الآستانة بعض السنين، ولست متأكداً من انه كان حصل على اجازة من مدرسة عالية، وقد أعجبنا ببعضنا وأحببنا بعضنا وتوثقت الصلة الحميمة بيننا نتيجة لذلك، ولقد ضمته جمعية الفتاة اليها فكان ذلك من وسائل تقوية الصداقة، وقد تعاونا تماماً في نطاق المؤتمر والجمعية، ولقد تقدم لهيأة الفتاة المركزية هو وصبحي بركات بمشروع حركة كفاحية مسلحة في منطقة الأسكندرون التي كان لصبحي بركات زعامة فيها، وقبلت الاقتراح وعهدت اليّ بتدبير ما يمكن ويلزم من الأسباب التنفيذية حيث كنت سكرتيراً للهيئة، فكان هو وصبحي يترددان علي بسبيل ذلك، فكان ذلك وسيلة أخرى للتواثق والتصادق. ولقد استطاعا أن يثيرا حركة كفاحية مزعجة للإفرنسيين، وكان إبراهيم أشد ضلوعاً ومباشرة لذلك، ووسع حركته الى غير منطقة الاسكندرونة. ولقد استمرت هذه الحركة الى ما بعد سقوط العهد الفيصلي واحتلال القوات الإفرنسية لسورية الداخلية فاشتدت السلطات الافرنسية في قمعها وضيقت الخناق على إبراهيم حتى اضطرته الى الفرار من سورية الى عمان شرق الأردن ثم الى فلسطين والقدس، فقبضت عليه السلطات البريطانية لتسليمه الى السلطات الإفرنسية، وقد سلمته فعلاً وسيق مكبلاً الى بيروت، وأثرنا حركة احتجاج وتأييد له في فلسطين وحاكمته محكمة عسكرية افرنسية في حلب، وقد دار الدفاع حول كونه رئيس دولة أم ثائر، ثم أصدرت المحكمة حكماً ببراءته بعد جلسات تاريخية، وقد أكسبته صفاته وحركته زعامة وطنية شعبية حتى غدا من أبرز رجالات الحركة الوطنية في سورية في أواخر العشرينات، ثم صار زعيماً للكتلة الوطنية التي قادت هذه الحركة وأبلت بلاءً عظيماً. وصار له مركز واسم محترمان، وظل كذلك الى أن توفاه الله في سنة 1935.

ولقد زرت دمشق في سنة 1932 فالتقيت به وجددت صداقتي معه ومع آخرين من رفاقه من رجال الكتلة الذين تعرفت عليهم أثناء انعقاد المؤتمر ونوهت بهم، ومنهم هاشم الأتاسي

وسعد الله الجابري، ومما أذكره كذكرى عن هذه الزيارة اني لما دخلت عليهم كانوا يعقدون اجتماعاً لهم في فندق فكتوريا فرحبوا بي وقال لي اجلس واشهد اجتماعنا فأنت من أهل البيت فشهدت اجتماعهم، ثم دعوني معهم الى الغداء في بيت أحدهم لطفي الحفار وكان في منطقة سوق مدحت باشا وكان بيتاً شامياً، وأكلت معهم خروفاً محشواً مع بعض المعجنات والكبة والحلويات والفواكة الشامية.

شيء عن صبحي بركات:

ومنهم صبحي بركات، وكانت له زعامة ووجاهة في أنطاكية وكانت تربيته ولهجته تركية، وكان وسيم الخلقة جاداً مخلصاً بشوش الوجه فتواثقنا وتصادقنا وتعاونا في نطاق المؤتمر، وقد ضمته الجمعية لعضويتها فاشتد تواثقنا عبرها، وكان كما قلت في الكلام عن ابراهيم هنانو شريكاً في مشروع الحركة الكفاحية في الشمال ويتردد علي معه لتدبير ما يلزم وما يمكن لهذه الحركة، فكان هذا مما وثق الصلة والصداقة بيننا. ولقد برز فيما بعد زعيماً من زعماء الحركة الوطنية ووصل الى رئاسة الحكومة ورئاسة المجلس النيابي في أوائل الثلاثينات وفي المرحلة السابقة لمرحلة التعاهد، وكانت له مواقف وطنية شريفة، ولقد التقيت به مرة أخرى حينما زرت دمشق عام 1932 وجددت عهدي به ولم أره بعد ذلك، وأظن أنه مات في الأربعينات رحمة الله عليه.

شيء عن صبحي الطويل:

ومنهم صبحي الطويل ممثل اللاذقية، وكان شاباً رزيناً حسن المحاكمة قومياً صلباً وهادئاً، وقد أحببنا بعضنا وتعاونا في نطاق المؤتمر وظللنا متوادين متواثقين طيلة عهد فيصل ثم افترقنا ولم نر بعضنا، ولا أعرف ماذا كان من أمره، واني كنت عرفت انه توفي في الخمسينات رحمة الله عليه.

شيء عن محمد الخير:

ومنهم محمد الخير وهو علوي ومن ممثلي منطقة اللاذقية أيضاً، وكان يتكلم الفصحى ويحسن الخطابة والجدل، وكان قومياً صلباً وقد أحببنا بعضنا كذلك وتعاونا في نطاق المؤتمر وظللنا متوادين متواثقين طيلة عهد فيصل ثم افترقنا ولم نر بعضنا، ولا أعرف ماذا كان من أمره وان كنت عرفت انه توفي في الخمسينات أيضاً.

شيء عن محمد الشريقي:

ومنهم محمد الشريقي، وهو من اللاذقية، وكنت رأيته لأول مرة في نابلس في سنة 1913 حيث جاء في جولة مع يوسف ياسين اللاذقاني أيضاً والذي سوف يأتي كلمة عنه بعد، وكان فتى يافعاً في الخامسة عشرة من عمره، وكان بدا ينظم الشعر وأسمعنا بعض نظمه، وكان يلبس الكوفية والعقال، وقد بدا متحمساً قومياً متأثراً بالحركة العربية ورجالها وشبابها، وقد جعل هذا الهيئة المركزية للفتاة تضمه اليها أثناء الحرب، ثم التقيت به في دمشق في نطاق المؤتمر وفي نطاق الفتاة معاً، وكان يحب الخطابة وذا ثقافة حسنة فيها، وكان موقفه في المؤتمر قوياً فتواثقنا وتعاوناً في نطاقه وفي نطاق الفتاة معاً، وقد خلفني في سكرتيرية الهيئة المركزية للفتاة وظل يمارس هذه المهمة الى آخر عهد فيصل، واستلم مني أوراق وسجلات الجمعية على ما ذكرته قبل. وبعد عهد فيصل تخرج من كلية حقوق دمشق وصار أوفى ثقافة وقويت موهبته الشعرية، وكان جاء في العشرينات الى عمان

ومارس بعض الوظائف، ثم أخذ يلمع ويبرز حتى صار وزيراً للخارجية لفترة من الوقت ثم اعتزل في الستينات الى أن توفاه الله في عمان في أواخرها، وكان يؤخذ عليه شيء من التردد في المواقف رحمة الله عليه.

شيء عن الدكتور سعيد طليع:

ومنهم الدكتور سعيد طليع، وكان شاباً ذكياً نشيطاً ذا روح مرحة محببة مع صلابة في المبدأ القومي الوحدوي الاستقلالي، وقد أحببنا بعضنا وتصادقنا وتعاونا في نطاق المؤتمر، وقد ضمته جمعية الفتاة اليها ثم صار أحد سكرتيري المؤتمر في دورته الثالثة الاستقلالية التي نودي فيها باستقلال سورية وملكية الأمير فيصل في شهر مارس 1920، وكنت بدوري سكرتيراً للمؤتمر فكان ذاك مما وثق الصداقة بيننا، وافترقنا بعد سقوط عهد فيصل ولم أره، وقد توفي في الخمسينات على ما بلغني رحمة الله عليه.

أعضاء آخرون انعقدت أواصر الصداقة بيننا واستمرت وقد سبق ذكرهم:

وبالإضافة الى من نوهت بهم سابقاً ممن تصادقت وتواثقت وتعاونت معهم فهناك عدد آخر من أعضاء المؤتمر تصادقت وتواثقت وتعاونت معهم في نطاق المؤتمر وفي نطاق جمعية الفتاة بالنسبة لمن كان منتسباً منهم اليها، وقد استمرت صلاتي بهم وصداقتي وتواثقي الى ما بعد سقوط عهد فيصل، وقد سبق أن كتبت شيئاً عن سيرتهم وانطباعاتي عنهم وهم رفيق التميمي وأمين التميمي ورشدي الشوا والشيخ سعيد مراد والدكتور أحمد قدري ومعين الماضي والحاج أمين الحسيني وعارف العارف والشيخ راغب الدجاني ويوسف العيسى والأمير فائز الشهابي.

نزولي أنا وإبراهيم القاسم في الفندق الذي قام محله فندق أمية مع وفود سورية عديدة:

ولقد نزلت أنا وإبراهيم القاسم في الفندق الذي قام مقامه (فندق أمية) القديم، وكان مطلاً على المرجة وأمامه نهر بردى مكشوفاً، وكان فندقاً فخماً في مقاييس ذلك الوقت، وقد نزل فيه وفود حلب وحماة وحمص.

ما لقيه منهج فلسطين من ارتياح وتأييد:

وصرنا نجتمع معاً في قاعاته ونتعرف ببعضنا ونتداول في ما يجب عمله وإقراره، وكان منهج فلسطين قد شاع وعرف ولقي تحبيذاً وتأييداً بل إجماعاً وصار هو المنهج الأمثل.

الحديث عن الدولة التي يجب تسميتها للمساعدة والتيارات التي كانت في هذا الصدد:

وصار الحديث يدور حول السؤال المتوقع من اللجنة عن الدولة التي ترغب سورية أن تساعدها، وكانت هذه المسألة هي الأولى والعاجلة الشاغلة للأفكار والواجب اتخاذ قرار في صددها، وكان هناك ثلاثة تيارات: واحد يرفض تسمية أية دولة لما في ذلك من فتح باب خطر الاستعمار بشكل ما على البلاد، ويرى وجوب الإصرار على الاستقلال التام الناجز بدون حماية ووصاية وانتداب، وتسمية مساعد قد تؤول بما يخل في هذا الاستقلال واحتفاظ المملكة المستقلة بحريتها في الاستعانة بمن تراه صالحاً صافياً بريئاً من المآرب والمطامع، وكان هذا تيار القوميين الخلص من الشباب.

منطلق التيار القومي الرافض للتسمية الذي كنت منه:

وكان منطلق أصحاب هذا التيار أنّ الدول التي تتطلع للتسمية هي بريطانيا وفرنسا، وقد انكشفت غاياتها ونياتها الرامية إلى تقسيم بلاد العرب العراقية والشامية بينهما والسيطرة عليها ـ واستعمارها بالإتفاقات السرية التي نشرتها الثورة الروسية، والتي كانت تجري المفاوضات فيها بينما كانت بريطانيا تتصل بالشريف حسين ليثور باسم العرب ضد الدولة إلى جانب الحلفاء بوعد قيام مملكة عربية مستقلة في هذه البلاد، والتي أكدتها الدولتان بعد خروج روسية، وكان هذا بعد أن تم التحالف بين بريطانيا والشريف حسين الذي قطعت له به ذلك الوعد، حيث كان هذا ينم عن نية غدر وخيانة وخداع فصار من الواجب رفض التسمية وطلب الإستقلال التام الناجز والاحتفاظ بحرية إختيار المساعد الأمين الذي لا مآرب له فيما بعد إذا ما اقتضت الأحوال ذلك.

تيار تسمية بريطانيا ورفض فرنسا ومنطلقه:

وكان هناك تيار يعزى إلى الأمير فيصل وحاشيته وأخصائه يقول بوجوب تسمية بريطانية لتكون المساعدة بشرط أن لا يمس ذلك بالإستقلال التام الناجز والسيادة والوحدة السورية مع رفض لفرنسا رفضاً باتاً صريحاً.

وكان منطلق أصحاب هذا التيار أن بريطانيا حليفة العرب التي مولت وجهزت ثورتهم ووعدتهم بالاستقلال والحرية والوحدة، وقد أكدت وعدها حينما احتج الشريف حسين وفيصل بعد نشر الاتفاقات السرية، وقالت إن نجاح الثورة العربية الباهر قد غير كل شيء من ذلك وفتح الباب أمام استقلال العرب ووحدتهم، وقد ساعدت فيصل على المثول في مجلس السلم كممثل لوالده ثم كناطق مطالب باستقلال سورية ووحدتها، وأن العرب لابد لهم من مساعد ومرشد ولن يكون لهم خير منها أو بدلاً عنها، وأن رفض فرنسا بصراحة ينطلق مما أعلنته ومازال تعلنه من غايات ومآرب استعمارية في سورية، ومما كان من موقفها حينما ذهب شكري الأيوبي إلى لبنان نائباً عن فيصل، وحينما ذهب هذا إلى باريس للمثول أمام مؤتمر السلم والمطالبة باستقلال ووحدة سورية، ومن إيعازها لعملائها بطلب الحماية الإفرنسية، ومما كان من مسيرتها في الجزائر والمغرب الأقصى وتونس البالغة من السوء أقصاه.

تيار تسمية الولايات المتحدة ومنطلقه:

وقد انبثق تيار ثالث يقول بتسمية الولايات المتحدة الأميركية كمساعدة، وكان منطلق هذا التيار ما كانت تذيعه لجنة الاستقصاء الأميركية في فلسطين أولاً وفي سورية ثانياً من أنه ليس للشعب الأميركي وحكومته أي مطامع سياسية في الشرق الأدنى، بل يفضل تجنب كل علاقة بالمشاكل الأوروبية والآسيوية والأفريقية، ويرغب بإخلاص أن يسود السلام الدائم وينال كل شعب حريته واستقلاله وأمنه وسلامته حسب رغائبه، وأنه بهذه الروح يدنو من مشاكل الشرق الأدنى، وأن اللجنة هي القسم الأميركي للوقوف جهد المستطاع على أحوال السكان ورغائبهم ليكون الرئيس ويلسون والشعب الأميركي على بينة من الحقائق في كل مناسبة يدعى إلى السير عليها فيما يتعلق بمشاكل الشرق الأدنى، سواء أكان ذلك في مؤتمر السلم أو في عصبة الأمم.

وقد اعتنقت أنا وإبراهيم القاسم التيار القومي

الأول، وصرنا ندعو إليه ونجادل من لا يأخذ به ويأخذ بالتيارين الآخرين.

لقائي بمعين الماضي ودعوتي إلى اجتماع مؤسسي جمعية الفتاة:

وفي ثاني يوم وصولنا إلى دمشق التقيت في الفندق بمعين الماضي، وكنت قد تعرفت عليه في بيروت على ما ذكرته سابقاً، فأسرّ إلي بأن هيئة جمعية الفتاة تدعوني إلى اجتماع سري تعقده في بيت جميل مردم بك ويحضره الأمير فيصل وأعضاء الجمعية المؤسسون أي المنتسبون إليها قبل نهاية الحرب الموجودون في دمشق، وعين الوقت الذي يتم فيه الاجتماع ووعدني باللقاء والذهاب معاً، حيث ظهر أنه هو الآخر كان منتسباً للفتاة قبل نهاية الحرب، وأن الهيئة طلبت منه دعوتي إلى الاجتماع لأن انتسابي إلى الجمعية كان أيضاً قبل نهاية الحرب.

أسماء الهيئة المركزية للجمعية آنذاك:

وقد أخبرني أن الهيئة المركزية مؤلفة من: علي رضا الركابي وياسين الهاشمي والدكتور أحمد قدري ونسيب البكري ورفيق التميمي وتوفيق الناطور الذي هو سكرتير الهيئة، والذي طلب منه إبلاغي ودعوتي، وقد أخبرني أن الأعضاء سيتناقشون في التيارات الدائرة في صدد الدولة المساعدة والموقف الواجب وقوفه في المؤتمر وأمام لجنة الاستفتاء بنوع خاص.

ذهابي إلى الاجتماع في بيت جميل مردم بك:

ثم جاء في اليوم المعين فأخذني إلى مكان الإجتماع الذي أظن أنه كان في المنطقة المسماة اليوم بستان الرئيس أو قرب المستشفى الإيطالي، وقد احتشد في بيت جميل مردم بك مساء عدد كبير من أعضاء الجمعية الذين سموا مؤسسين بسبب انتسابهم إلى الجمعية قبل نهاية الحرب، وصار لهم حق القرار في شؤون الجمعية والعهد دون من انتسب إليها بعد دخول فيصل لدمشق.

أسماء الحاضرين من المنتسبين للجمعية قبل عهد فيصل:

وكان الذين حضروا الاجتماع على ما وعته الذاكرة: الأمير فيصل وأخوه زيد، والدكتور أحمد قدري وأخوه تحسين الذي كان حاجب الأمير فيصل (ياوره)، وعوني عبد الهادي ورفيق التميمي وشكري القوتلي وجميل مردم بك ومعين الماضي وفخري البارودي وياسين الهاشمي ومولود مخلص ونسيب البكري وفوزي البكري وسامي البكري وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي ورشدي الشوا ومحمد علي التميمي وزكي التميمي وسعيد حيدر ويوسف حيدر وإبراهيم حيدر والدكتور محمد حيدر ويوسف مخيبر ورشيد الحسامي ومحب الدين الخطيب وبهجة الشهابي وفائز الشهابي وتوفيق الناطور وخالد الحكيم والشيخ سعيد الباني وبشير النقاش وأحمد مريود وأحمد الحسيني وصبحي الحسيني ومحمد الشريقي ورشدي الإمام الحسيني وسليم عبد الرحمن وشكري الشوربجي ومحمد العفيفي والدكتور أسعد الحكيم ومحمد إسماعيل الطباع وعلي رضا الركابي وعمر الأتاسي وأحمد المناصفي وتوفيق السويدي وإبراهيم هاشم، وأنا لم أكن أعلم أن كل هؤلاء في الجمعية إلا ليلة الاجتماع، وأكثرهم رأيته لأول مرة، والقليلون الذين كنت أعرفهم قبل لم أكن أعرف أنهم أعضاء في الجمعية، وهؤلاء ليسوا كل المنتسبين للجمعية

قبل نهاية الحرب أيضاً على ما عرفته بعد من سجلات الأسماء، ومن المحتمل أني نسيت أسماء أخرى كانوا حاضرين في الاجتماع ومن المنتسبين.

أسماء أخرى من المنتسبين للجمعية قبل نهاية الحرب لم يشهد أصحابها الاجتماع:

ومن المنتسبين من لم يكن في دمشق آنذاك منهم: نجيب بليق والدكتور بشير قصار وفوزي القاوقجي والدكتور صدقي ملحس والدكتور حافظ كنعان ونواف الشعلان ومحمد رستم حيدر. ومنهم عدد من الذين شنقهم جمال منهم: محمد المحمصاني ومحمود المحمصاني وصالح حيدر وعمر حمد وعبد الغني العريسي والأمير عارف الشهابي وجلال البخاري وتوفيق البساط وعلي النشاشيبي وسيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم.

تنويه بأعضاء الجمعية القدامى والعمل الرائد القومي العظيم في إنشائها:

وهكذا يبدو أن الجمعية قد ضمت في زمن الدولة العثمانية عدداً كبيراً من شباب وكهول العرب الذين كانت أخلاقهم وعواطفهم ومطامحهم وصلابتهم القومية تحركهم للنشاط والإجتماع والعمل في تنظيم قومي كبير، ولقد كان لكثير منهم نشاط وجرأة عظيمة أثناء إشتداد التناحر والتشاد بين الترك والعرب، واستشهد عدد غير يسير منهم بسبيل ذلك. وكثير منهم برز في نشاطه وكان له جهد عظيم في عهد حكم فيصل وبعده، واحتلوا مراكز عالية في الحركة العربية والسياسية في بلادهم، وحققوا كثيراً من الإنجازات القومية وصنعوا تاريخ قومهم، وكان لهم بذلك الخلود.

وإذا لاحظنا خطورة الموقف وشدة الخطر اللتين كانتا تحدقان بشباب العرب في زمن الدولة العثمانية وبخاصة أثناء الحرب التي كان انتساب معظمهم للجمعية فيها، وأنهم انتظموا في هذا التنظيم السري القومي رغم ذلك، بدا لنا ما كانوا عليه من قوة نفس وقوة عزيمة واستهانة بالخطر وإقدام عليه وإستعداد للتضحية في سبيل مطمحهم القومي، ويزيد في خطورة ذلك كله إن هذا كان من قبل ستين سنة وأكثر، بحيث يمكن القول إن تأسيس الجمعية كان عملاً قومياً رائداً عظيماً.

طبع التحفظ والكتمان الذي التزمته الجمعية وحفظها:

ولقد احتفظت الجمعية بسرها طيلة العهد العثماني على كثرة المنتسبين إليها، ولم تكتشف سلطات الترك هذا السر برغم اعتقالها الكثير من أعضاء الجمعية وشنقها لعدد غير يسير منهم وضغطها عليهم أثناء التحقيق وإجبارها إياهم على تسجيل اعترافاتهم، حيث يدل هذا على صدق المنتسبين إليها وقوة أخلاقهم وصمودهم.

الكيفية التي كان يضم بها الأعضاء:

ولقد كان منهج الهيئة المركزية في ضم الأعضاء قائماً على التحفظ الشديد والتكتم في وجودها أولاً، وفي مفاتحة من يقع عليهم من الإختيار لضمهم إليها ثانياً. ثم في إتصالها بمن ترى إخباره بأمر ما أو تكليفه بمهمة ما. وكانت تحرص حرصاً شديداً على أن لا تضم إليها إلا من تيقنت من حسن خلقه وأمانته وكتمانه وقوة عزيمته وجرأته، بالإضافة إلى تشبعه بالفكرة القومية وتحمسه لها. وكان الشخص المراد ضمه يرشح من قبل خبير منتسب إلى الجمعية

سابقاً، فإذا لم يكن في الهيئة المركزية من يعرف فيه صفات سيئة أو أخلاقاً ضعيفة أجل للدرس، فتدرس أحواله من قبل شخصين غير الذي رشحه ويختبر بالمحادثة ويسأل عنه معارفه بشتى الأساليب، فإذا أسفر الدرس على الاقتناع بأهليته أحيل (للمفاتحة) إلى شخص يعرفه من الأعضاء، فيفاتحه بأساليب متنوعة يكون معه متحفظاً قادراً على التراجع وسد الباب دون أن يترك مجالاً لاكتشاف التنظيم أو الإحساس به، فإذا أسفرت المفاتحة عن إيجاب أعطيت له تفصيلات قليلة ثم دعي إلى اليمين على يد عضوين على الإخلاص لمبدأ وهدف الجمعية وهو بذل كل جهد لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة المستقلة الكبرى، ثم على التضحية في سبيل ذلك بالنفس والمال وكتمان أسرار الجمعية والطاعة لأوامر هيأتها المسؤولة، ويكون كل ما عرفه العضو المنضم بعد هذا هو اسم الجمعية والشخص أو الشخصان اللذان فاتحاه نهائياً وحلفاه اليمين، وإذا أريد إبلاغه أمراً أو خبراً وانتدابه لمهمة أبلغ بواسطة أحدهما أو بواسطة مأمونة أخرى، ثم يكون شأنه في الجمعية وميادين العمل تحت رايتها رهناً بما هو عليه من نشاط وفتور وقوة شخصية أو ضعفها، وبما يقوم به من مهمات ويبدو منه من سعي في سبيل المبدأ والهدف. ولقد ظل التحفظ والتكتم طابع الجمعية إلى نهاية الحرب ثم في أثناء عهد فيصل.

هيئة الجمعية الأولى في أثناء الحرب:

وكان من إسهام هذا الطابع أن اعتبر المؤسسون الأولون هيئة مركزية دائمة وهم: محمد رستم حيدر وعوني عبد الهادي والدكتور أحمد قدري ورفيق التميمي ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي على ما ترجح عندي دون انتخابات دورية حتى بعد اتساع نطاق الجمعية بكثرة المنتسبين إليها، وكان تأسيسها في باريس عام 1911. ولما انتقل بعض أعضاء هذه الهيأة من باريس إلى بيروت احتفظ المنتقلون لأنفسهم بهذه الصفة بالنسبة لبيروت مع ضم من كان هنا من أعضاء بارزين.

معتمدو الجمعية في المدن وكيفية اتصالاتها بالأعضاء:

وقد كان للجمعية في المدن المهمة معتمدون فرديون. وكان الاتصال بالمركز والمعتمدين والأعضاء الآخرين يجري في نطاق هذا الطابع، حتى أن جل الأعضاء لم يكونوا يعرفون اعضاء الهيأة المركزية ولا المعتمدين شخصياً. واشتد هذا المنهج بعد اعلان الحرب ودخول الدولة العثمانية فيها فعلاً، لأن الاتحاديين كشفوا سوء نيتهم تجاه الحركة العربية ورجالها، وبدا منهم ما يدل على عزيمتهم على تصفيتهم اغتناماً لفرصة الحرب.

تنويه بنشاط الجمعية وهيئتها اثناء الحرب:

على أن اشتداد طابع التكتم والتحفظ واشتداد بلاء الطاغية جمال وجبروته لم يكن من شأنهما أن يعطلا نشاط الجمعية في هذه الفترة العصيبة التي امتدت أكثر من سنتين، ففيها غدت دمشق مركزاً للهيئة المركزية، وفيها ضم عدد كبير من شباب العرب ورجالاتهم اليها، وفيها اتصلت الهيئة المركزية بالأمير فيصل حينما جاء الى دمشق في أواسط سنة 1915 ونزل في القابون في ضيافة البكري وضمته اليها، ثم تكررت الاتصالات وقدمت اليه الاقتراحات

التي طلب ابوه أن يطلبها منهم لتكون اساس ما سوف يطلبه من بريطانية من عهود ووعود وحدود على ما ذكرناه قبل، ولقد خرج عدد منهم في أواخر الحرب من دمشق وانضموا الى فيصل في انحاء العقبة ثم في جبل الدروز وعادوا معه الى دمشق.

تعريف معين لي بالأمير فيصل والأعضاء المجتمعين:

ولقد عرفني معين الماضي الذي كان دليلي الى الاجتماع بأمر من الهيئة المركزية التي كانت قائمة اذ ذاك وذكرت أسماءها، والتي كانت قد انتخبت من المؤسسين بعد دخول فيصل وقبل قدومي على من لم أكن أعرفه من الحشد الكبير من الأعضاء الذين احتشدوا في بيت جميل مردم بك، وهم معظم الذين كانوا في الاجتماع، وقدمني للأمير فيصل. ثم دار الحديث في الاجتماع حول الموقف الواجب ازاء لجنة الاستفتاء وهو ما كان الاجتماع من أجله.

مداولة المجتمعين في التيارات الثلاثة وموقفي القوي في جانب التيار الأول وكلمة فيصل عني:

وكان في المجتمعين عدد غير قليل هم أعضاء في المؤتمر السوري وعليهم مهمة خاصة، ويجب أن يعرفوا رأي جمعيتهم. وكانت التيارات الثلاثة التي مر شرحها تسري بين الأعضاء وتجعلهم ثلاث فئات. وقد تحدث من كل فئة من يحسن الكلام، وكنت من المتحدثين عن الفئة القومية الرافضة، وناقشت متطلبات التيارين الآخرين وفندتها. وكنت ولا فخر قوي الحجة شديد اللهجة، حتى لقد علمت ان ذلك أثار الأمير فيصل الذي كان زعيم تيار سمته بريطانيا وجعله يقول لتحسين قدري باللغة التركية (من وين طلع لنا هذا الدروزة) على ما أخبرني به تحسين نفسه ضاحكاً (بو دروزه ناردن جقطي).

منطلقي ومنطلق رفاقي في هذا التيار وشرحنا لخيانة بريطانية:

ولقد كان كلامي وكلام من تحدث من الفئة الرافضة الذي كان منهم سعيد حيدر وأحمد مريود ورفيق التميمي وخالد الحكيم والشيخ كامل القصاب، حول ما كان من خيانة بريطانيا للعرب، سواء فيما كان من اتفاقها مع فرنسة على تقسيم بلاد الشام والعراق الى مناطق نفوذ وإشراف مباشر، أو سواء في وعدها لليهود بالوطن القومي الشديد الخطر على عرب فلسطين ومركزهم وعلى المنطقة كلها. وانها رغم محاولتها تهدئة الملك حسين والأمير فيصل حينما علما بذلك قبل نهاية الحرب، وقولها أن الأمور تغيرت بما كان من نجاح الثورة العربية، فقد ظهر أنها هي وفرنسة ظلتا تتصرفان على ذلك الأساس الغادر الخائن، وقد سمحت لفرنسة باحتلال لبنان والسواحل السورية، وطلبت من الأمير فيصل انزال الأعلام العربية عنها وسحب نائبه الذي عينه، وسمحت بقيام حكم عسكري افرنسي فيها، وظلت مستمرة في تحقيق وعدها لليهود، وأخذت تسير في ذلك خطوات بعد خطوات. والبيان الذي أصدرته فرنسة وبريطانيا في 8 تشرين الثاني 1918 يؤيد ذلك ولا ينفيه، لأنه جعلهما العماد والموجه والمشرف والأصل، ولم يذكر فيه ثورة العرب وجهادهم وآمالهم ومطامحهم في الاستقلال والوحدة وما قطع لهم من عهود ووعود، ومما قاله المتحدثون من هذا التيار أن بريطانيا اذا

كانت تشجع تسميتها ورفضت فرنسا بصراحة، فلابد من انها تسعى وراء مطمع استعماري آخر، لأن فرنسة شريكتها ولا يمكن أن تعمل ما يثيرها، لأن لها مطامع في العراق وفلسطين والأردن لابد لها من تأييد فرنسة لها فيها.

نفاق بريطانيا مع سوء نيتها في الموقف ومآربها في ذكر اسمها وابتزازها لفرنسا ثم تخليها عن سورية وفيصل:

وقد أظهرت سوء نيتها حينما نكصت[1] مع فرنسا عن قرار ارسال بعثة استفتاء ولم ترسلا ممثلين عنهما، لأنهما كانتا تعرفان أن الأهالي سوف يطلبون الاستقلال والوحدة، ويرفضون وصايتهما وحمايتهما، فلم تريدا أن ترتبطا بما يسجله ممثلوهما من ذلك، ونقول استطراداً أن مصداق ذلك ظهر وشيكاً، فبريطانيا كانت تريد فصل شرق الأردن عن سورية الداخلية التي هي في الاتفاقات السرية تحت اشراف فرنسة، وكانت تريد أن تكون هيمنتها على جميع فلسطين، وكانت معظم فلسطين في هذه الاتفاقات تحت إدارة دولية. وكانت تريد أن تكون جميع حدود الموصل داخلة في هيمنتها. وكانت خرائط التقسيم تجعل بعض هذه الحدود تحت النفوذ الأفرنسي، ولقد علمت فرنسة مآرب بريطانيا. فلما اشتد الرفض العربي والمقاومة العربية لها عمدت الى منح بريطانيا ما أرادته وطمعت به، ومنحتها بريطانيا حينئذ حرية العمل فغزت سورية الداخلية وهدمت استقلالها وازالت ملك فيصل الاستقلالي على ما سوف نشرحه بعد، دون أن يرف لها جفن من هذا العمل الخائن الغادر نحو فيصل وأبيه.

ومن الجدير بالذكر أن بريطانيا سارعت بعد انتهاء الاستفتاء الذي كان اجماع عربي فيه في سورية الداخلية والمؤتمر السوري على رفض بات صريح لفرنسا وتسمية بريطانيا كمساعدة اذا لم ترض الولايات المتحدة بذلك على ما سوف نشرحه بعد، الى التنصل لفرنسة من أي رغبة لها في الانتداب على سورية الداخلية أو موافقة منها على ما كان رفض السوريين لفرنسا وتسميتهم لبريطانية.

لم يكسب أي تيار أكثرية فترك الفصل لأكثرية المؤتمر:

ولم تسفر المناقشة في اجتماع مؤسسي جمعية الفتاة عن أكثرية مع رأي واحد وتيار واحد، حيث ظلت كل فئة محتفظة برأيها، وحيث تقرر أن يترك لكل منها حرية الدفاع عنه والدعوة اليه، ويكون لأكثرية المؤتمر القول الفصل في ذلك.

قرارات تنظيمية للمجتمعين:

وقد تداول المجتمعون بعد ذلك في شؤون العهد الفيصلي، وتقرر وجوب السير في التنظيم والحكم والاستعداد على مختلف المستويات سيراً جاداً، والاستمرار في توسيع نطاق الجمعية وضم العناصر الصالحة من رجال العرب وشبابهم الذين صاروا يتوافدون على دمشق من كل ناحية في مناسبة المؤتمر وغيره.

إبراز صلاتي بأعضاء الجمعية القدامى وانعقاد أواصر صداقة حميمة مع عدد منهم:

وأرى أن أبرز صلاتي مع أعضاء الجمعية المؤسسين الذين شهدوا الاجتماع وغيرهم قبل أن أنتقل الى الكلام عن اجتماع المؤتمر وما جرى فيه، فأقول إنه كما كان شأني مع أعضاء

(1) نكصت: تراجعت.

المؤتمر كان شأني ازاءهم، حيث كنت ولا فخر موضع تقدير واعجاب منهم، وكانت بيني وبينهم صداقة ومودة، وكان ذلك في نطاق الجمعية أوسع وأقوى منه في نطاق المؤتمر، لأننا كنا في الجمعية في تنظيم قومي واحد له أهداف واحدة وتجمع بين أعضائه وحدة المنهج والغاية والعمل والاخلاص للهدف، وظل ذلك مستمراً طيلة عهد فيصل وما بعده، حيث كنا نلتقي في مناسبات عديدة كأخوان وأصدقاء وأسرة واحدة نتبادل الود والتعاون.

صداقتي الحميمة مع شكري القوتلي وشيء عنها وعنه:

إضافة الى هذه الصورة العامة فقد اشتدت الصداقة الحميمة والتواثق الصميم بيني وبين عدد منهم مثل شكري القوتلي، وكان شاباً رصيناً جاداً ومستقيماً وصلباً يبعث في النفس الطمأنينة والدفء. وكان حسن الثقافة وكان ميسوراً حيث كان له ولأخوته وأسرته ضيعة كثيرة الشجر وبخاصة المشمش، حتى كان يسمى ملك المشمش. وقد تزاملت معه في عضوية الهيئة المركزية للجمعية دورتين فلم ألمح فيه الا الاستقامة والصلابة وحسن الفهم وصدق الموقف، وكنا متواثقين منسجمين في مختلف شؤون الجمعية والعهد، ولم نكد نختلف في أمر وموقف، وكان يعد من عناصر الجمعية القوية الرصينة الجادة.

وقد أخبرني والدي أنه جاء بعد خروجي من دمشق حينما تحركت فرنسة لغزوها الى بيتنا وطمأنه وطمأن الأسرة، وأعطاه عشرين ليرة ذهبية للاستعانة بها على الحياة إلى أن يلتحقوا بي، ولقد جاء إلى فلسطين في ظروف الثورة التي اندلعت سنة 1925 وأقام بضع سنين يبذل جهده ونشاطه في سبيل قضية سورية وثورتها، وكان له جهد ونشاط عظيمان. وتجددت في هذه المناسبة صداقتنا ومودتنا وتعاوننا، واشترى أرضاً في بيسان لتشجيرها. وصار في شيء من الضيق فأعطيته اربعين جنيهاً، وقد ألح على أن يعتبره قرضاً وأن يسدده، وقد سايرته وقد فعل. وأنشأ في فترة وجوده في دمشق شركة الكونسروة التي نجحت نجاحاً حسناً، وطلب مني ان أجمع الناس في مدرسة النجاح ليحدثهم عنها ويدعوهم الى المساهمة فيها، ففعلت وشاركته في الحث واستطعنا أن نحمل عدداً من الناس على الاكتتاب فيها.

ولقد أكسبته صفاته ثقة إخوانه وغيرهم. وجعلته أثيراً لدى الملك عبد العزيز آل سعود، حتى علمت أنه كان يقول إن القوتلي نسيج وحده في الزهد وعدم استغلال صداقتي له أو قربه مني وعدم ابتغاء شيء لنفسه وحصر اهتمامه بشؤون اخوانه وقضية بلاده، مع أن معظم من جاءوا إليه كانوا يهتمون أيضاً لأنفسهم ويجتهدون للحصول على منافع ومكاسب وأموال.

وقد كان مهتماً بقضية فلسطين اهتماماً كبيراً، وشهد ما كان يعقد من اجتماعات عامة اسلامية وعربية من اجلها. وكان من المحبذين لإنشاء حزب الاستقلال. واهتم لعقد المؤتمر العربي الذي قررنا عقده، وحينما تم التعاهد والتعاقد على الاستقلال والسيادة السورية بين الكتلة الوطنية وفرنسة 1935 ـ 1936 كان في فلسطين، فعاد منها الى دمشق وذهبنا فوراً الى الحدود لوداعه، وجاء جمع كبير من دمشق فاستقبلوه على الحدود، وكانت فرصة لنا التقينا فيها بكثير من شباب ورجال الحركة الوطنية السورية، ولقد قامت نتيجة لذلك جمهورية

برئاسة هاشم الأتاسي. فعهد اليه في حكومتها بوزارتي المالية والدفاع، فكان فيهما مثال رجل الدولة القوي الأمين.

ولما جئت الى سورية زائراً سنة 1937 ثم مقيماً تجددت صداقتنا وتواثقنا، وكان يبذل جهده في تلبية طلبي وتأييد نشاطي في مجال الثورة الفلسطينية التي كنت أقوم على تدبيرها، كما كان يهتم بشؤوني الخاصة بروح الصديق الوفي، وكنا نرى بعضنا دائماً رغم مشاغله في الحكم، حيث كان يلح علي بأن أديم زيارتي له في بيته، وصرت موضع سره واستشارته في مختلف الشؤون الخاصة والعامة، وقد أحسن مواساتي حينما توفيت ام زهير رحمة الله عليها 1938، فجاء الى المستشفى ثم اشترك في التشييع وأرسل للبيت طعاماً. وكان ينتقد جميل مردم بك رئيس الوزارة ويشكو لي من بعض تصرفاته. واختلف معه في مسائل مهمة فجاء الى بيتي وأفضى لي بهمومه ورغبته في الاستقالة فأيدته في موقفه، لأني كنت أتابع الأحداث وأعرف صدق شكواه. وطلب مني أن أكتب له كتاب الاستقالة ونصحته أن يكون مختصراً حتى لا تشتد الحالة سوءاً بين الأخوين، فأخذ بنصيحتي. وبعد أن استقال ظل قوي المركز والنشاط خارج الحكم، وأكسبته استقالته ثقة الناس واعجابهم. وأهلته للزعامة الوطنية الشعبية حينما نكثت فرنسة في عهدها، وألغت المعاهدة في سنة 1939. وأخذت تقوم حركة وطنية مناوئة مقاومة، وأوصلته زعامته هذه الى رئاسة الجمهورية حينما اضطرت فرنسة أثناء الحرب الى منح سورية استقلالها والموافقة على قيام جمهورية سورية.

وفي ظروف زعامته احتاج الى بعض المال، وكان تحت يدي مال من الإعانات التي كانت تأتي للثورة الفلسطينية فأعطيته ألفي ليرة، لأني رأيت ذلك جزءاً من الثورة والعمل الوطني، وبعد قليل اعتقلتني السلطات الإفرنسية وحكمت علي فكان شديد الاهتمام بأمري والتطمين لأسرتي.

ولما هزمت فرنسة في سنة 1941 كان لمساعيه أثر في إطلاق سراحي مع رجالات سورية السياسيين المعتقلين، ولقد قضيت بعد خروجي من السجن بضعة أشهر، وكانت زعامته الوطنية قد توطدت، وكان اللقاء بيني وبينه متواصلاً نتحدث ونتشاور في مختلف الأحداث الجارية، ورأى في سياق الأحداث أن يسافر الى بيروت للالتقاء برجالاتها، فألح علي بمرافقته وكنت رفيقاً وشريكاً له في ما كان من اجتماعاته معهم، ولقد اضطررت بعد ذلك الى الخروج من سورية بسبب الغزوة الإنكليزية الديغولية واللجوء الى تركية، فافترقنا بضع سنين، وكان خلالها مهتماً بعائلتي التي بقيت في دمشق كما اهتم بشؤون ومصير ولدي زهير الذي كان في بغداد بعد ثورة رشيد عالي، وفي هذه الأثناء صار رئيساً للجمهورية فأرسل الينا تطميناً، ولما انتهت الحرب وعزمنا على العودة أمر بأن يوعز للقنصل المصري في الأستانة الذي كان يقوم بأعمال القنصلية السورية بمنحي مع أخي محمد علي وابني زهير ورفيقنا أكرم زعيتر اشارة دخول الى سورية، ولما عدت عادت صلاتنا وصداقتنا الى عهدها السابق. وكان لا يمضي يومان حتى يستدعيني الى قصر الجمهورية والى بيته ليفضي لي بهمومه ويستشيرني. ولم يكن يقيم وليمة لعربي سياسي أو غير سياسي الا ويدعوني ويقربني من مجلسه، حتى عرف جميع الناس عبر كل هذا أني أوثق إخوانه به صداقة ومحبة وانسجاماً، وقد تبرع بنفقة أول

كتاب طبعته بعد عودتي من تركية وهو عصر النبي وبيئته قبل الإسلام. واستجاب لرغبتي في الاهتمام لبعض رجال الثورة والحركة الوطنية الفلسطينية الذين كانوا في دمشق، وأمر بتخصيص بعض المبالغ لهم واعتمدت في توزيعها.

ولما قام حسني الزعيم بانقلابه ضده واعتقله أرسل اليّ من معتقله رسالة يستشيرني فيها في تلبية طلب حسني الزعيم بالاستقالة رسمياً من رئاسة الجمهورية حتى يطلق سراحه، فأرسلت اليه أنصحه بأن لا يفعل، وأخبرته بما علمت من اهتمام حكومة مصر وملكها وحكومة السعودية وملكها بأمره، والاحتمال الكبير بإطلاقه نتيجة لذلك، غير أنه إزاء تأزم الوضع وإصرار زعيم الانقلاب فقد كتب استقالته في سطرين وجّهها الى الشعب، وسمح له بالسفر الى مصر، واستمرت الصلة بيني وبينه وهو في مصر، وكنا نتبادل الرسائل في الشؤون العربية[1]، ولما عاد سنة 1954 عادت صلاتي الى حالتها الحميمة ثانية، ولما عاد لرئاسة الجمهورية في عهد سنة 1955 استمرت صلاتنا وصداقتنا على نفس الوتيرة، وكنت ألح عليه في أمر الوحدة بين سورية ومصر الحاحاً شديداً ومتواصلاً اغتناماً لفرصة وجوده في الحكم ووجود جمال عبد الناصر الذي انعقد بينهما أواصر صداقة وانسجام، وكان يتكلم كثيراً في أمر الوحدة العربية، وكان يتجاوب معي ويطلب أن أكتب له المقترحات والمشاريع الوحدوية ليتحدث فيها مع جمال وأقدمها له ويتبناها ويقدمها في مذكرات منه الى أن نضج الأمر بتأثير عوامل عديدة أخرى، وتمت الوحدة السورية المصرية في شباط 1958، فكان سرورنا عظيماً، وكان ثنائي عليه وثناء الناس عظيماً منوهين بأنه أول رجل عربي ذي رئاسة موطدة يتخلى عنها في سبيل الوحدة وبما ضربه بذلك من مثل خالد. وقد جمعنا وفد من جمعية الفتاة وذهبنا اليه فهنأناه بهذا الموقف العظيم الذي فيه احياء وتحقيق للمبادىء التي اعتنقناها منذ شبابنا الأول، وأخذنا منه صوراً تذكارية أوقفني فيها الى جانبه، وكان سرور الفلسطينيين عظيماً لأنهم اعتبروا ذلك خطوة على طريق تحرير وطنهم، وذهبنا وفداً كبيراً اليه مهنئين منوهين مستبشرين، وأخذت لنا معه صورة تذكارية أخرى.

وظلت صلاتنا على حالتها الحميمة يزورني وأزوره وأرسل بواسطته المذكرات والاقتراحات لجمال عبد الناصر، ويرسل لي جوابات هذا المشجعة، وظل الأمر على ذلك الى أن وقع الانفصال المشؤوم في 28 أيلول 1961 وكان هو في أوروبا، فصدر منه ما يفيد تأييد الانفصال، وفعل كذلك حينما عاد الى دمشق حيث ألقى في التلفزيون خطاباً، وزرته وعاتبته فأخذ يشكو لي من شيوعية جمال وتصرفات الحكم الخاطئة في التأميم والمصادرة، ولم أكن سمعت منه قبل شيئاً من ذلك، بل كان يحمد جمالاً ويثني عليه وكان موضع احترام جمال الكبير حتى سماه المواطن الأول، وكان يزوره حالاً حينما يأتي الى دمشق. وظل على حسن صلة معه الى أن سافر الى أوروبا قبل الانفصال، وقد ناقشته في ذلك ولم يكن لديه ما يستطيع اقناعي بصواب موقفه، وقد ذكرت له أنه يفسد بموقفه كل تاريخه. وانه ينسى ان الانكليز والأميركان هم وراء هذه الجريمة التي نفذت

(1) نشرنا بعضها في كتابنا في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية.

بمباشرة من الرجعية العربية العميلة وتعضيد الملك سعود. ولقد حزنت أشد الحزن من موقفه وجعلني حزيناً مكسوراً، وسافر هو الى بيروت ومرض فيها. وزاره أخي في أثناء سفره لبيروت فسأله عني وكلفه بالسلام عليّ، ولم يلبث طويلاً حتى توفاه الله في أواخر سنة 1967 على ما أظن، وأتي بجثمانه الى دمشق فاشتركت في موكب تشييعه لمثواه الأخير رحمة الله عليه.

شيء عن أحمد مريود :

ومنهم أحمد مريود وهو من قرية جباتا الجولانية، وكان متوسط الثقافة ولكنه ذكي ألمعي نبيه سريع البديهة صلب جاد مستقيم جريء في الحق صادق في السريرة والسيرة ثوري الروح والنهج، وقد تعلق كل منا بصاحبه تعلقاً شديداً وتزاملنا في الهيئة المركزية للجمعية وانسجمنا في جميع المواقف بدون أي شذوذ وخلاف، وكان ذا محاكمات صائبة وآراء سديدة وقد أكسبته صفاته صداقة واعجاب إخوانه ورجال الحركة وشبابها من غيرهم، حتى من بعض من لم يكن بينهم وبينه انسجام. ولما أزم الموقف بين الافرنسيين وبين عهد فيصل أخذ يقود حركة كفاح مسلح شديدة ضدهم، حتى لقد كان تسليمه من شروط الانذار الذي وجهه الجنرال غورو الى الملك فيصل على ما سوف نشرحه بعد. وقد تعاونا في نطاق المؤتمر وفي نطاق الجمعية الى أن سقط الحكم الفيصلي وخرجنا معاً من دمشق وافترقنا في درعا، حيث ذهب هو مع كثير من الإخوان الى عمان وذهبت أنا وبعض آخرين من الفلسطينيين الى فلسطين. وقد ذهبت في أوائل عهد الأمير عبد الله الى عمان فالتقينا ثانية وجددنا عهد الصداقة وظل محتفظاً بروحه الثورية بل ازداد فيها، وكان مدبراً لحادث خربة غزالة الذي قتل فيه رئيس الوزارة السورية التي كانت في العهد الإفرنسي الاحتلالي الأول علاء الدين الدروبي وأحد وزرائه عبد الرحمن اليوسف حينما جاءا الى حوران بأمر من المحتلين لتهدئة أهل حوران، وكان مدبر حادث إطلاق النار على غورو في حوران الذيْ نجا منه وأصيب مرافقه، وكان الحادثان عقب الاحتلال بقليل. واشتغل في حكومة الأمير عبد الله معاوناً لمدير أمور العشائر، وما لبث أن اختلف معه لتهاونه فيما زعم انه جاء من أجله وهو تحرير سورية، ولانصياعه لهيمنة بريطانيا ورضوخه لوصاياها وأوامرها، واشتدت فرنسة في طلبه من بريطانية، واشتدت هذه في طلبه من الأمير فغادر عمان الى بغداد، وكان قد تم الاتفاق بين بريطانيا والملك فيصل أن يكون ملكاً للعراق معترفاً باستقلال وسيادة العراق مع قواعد عسكرية وهيمنة سياسية، ولكن روح العراق كانت قوية فكان ذلك أخف وقعاً وأثراً مما كان لبريطانية في عمان، وأقام في بغداد في أمن يتمتع باحترام الملك وإخوانه الكثيرين من رجال العراق ورجال سورية الذين جاءوا وصاروا ينشطون في العهد الفيصلي الجديد، ولما اندلعت الثورة في سورية سنة 1925 سارع فالتحق بها وأخذ يجاهد الى أن استشهد في احدى المعارك بعد إبلائه أعظم بلاء رحمة الله عليه، وكان من نذالة الافرنسيين أن أتوا بجثته وجروها مع جثث شهداء آخرين في شوارع دمشق شفاء لغلهم وحقدهم أخزاهم الله.

شيء عن الأمير بهجة الشهابي :

ومنهم الأمير بهجة الشهابي الذي ذكرناه ذكراً

عابراً سابقاً، وهو متخرج من مدرسة حقوق الآستانة، وكان ذا أخلاق رضية وسريرة صافية وكان قومياً استقلالياً صلب العقيدة فضمته الجمعية اليها أثناء الحرب، وكان سديد النظر والمحاكمة، وقد تعلق كل منا بصاحبه وصرنا أصدقاء حميمين طيلة العهد الفيصلي، وتعاونا أحسن تعاون عبر الجمعية ونشاطها، وقد عين في عهد فيصل الأول مديراً عاماً للشرطة فسار في عمله سيراً مستقيماً حازماً، وبعد سقوط الحكم الفيصلي التقينا في نابلس فترة ما لأن شقيقته كانت متزوجة بالدكتور فؤاد أبي غزالة، فجددنا عهدنا وزرت دمشق سنة 1932 فجددنا العهد ثانية، وقضينا معاً أسبوعاً في مصيف بلودان، وكان الفندق الكبير في دور الإنشاء فنزلنا في فندق كان قريباً منه، ولما قام العهد الاستقلالي برئاسة هاشم الأتاسي عين أميناً للعاصمة فترة ومحافظاً لإحدى المحافظات السورية، وكان مستقيم السيرة نشيطاً حازماً. وصار نقيباً للمحامين مرتين، فكان ناجحاً رضياً في أخلاقه وسلوكه. ولما جئت الى دمشق سنة 1937 مقيماً تجددت صداقتنا الحميمة واستمرت كذلك، ولما عدت من تركية بعد غياب أربع سنين تجددت وظلت مستمرة، وكان اللقاء متواصلاً بيننا نتداول شؤون الساعة، وكان سروره عظيماً بالوحدة السورية المصرية، ولكن لم يكن له نشاط سياسي، وكان قد تقاعد عن العمل مكتفياً بما كان يأخذ من معاشات تقاعدية من الحكومة ومن نقابة المحامين، وظللنا على صلاتنا ولقاءاتنا الحميمة الى أن توفاه الله فجأة سنة 1968. ومن عجيب الصدف أنه كان يتمنى ان لا يمرض وأن يموت فجأة وكان له ما أراد رحمة الله عليه.

شيء عن ياسين الهاشمي:

ومنهم ياسين (باشا) الهاشمي، وكان ضابطاً في الجيش العثماني أركان حرب، ووصل الى رتبة عالية. وعرفت الهيأة المركزية للفتاة بأنه قومي استقلالي وحدوي جاد صلب الأخلاق فاتصلت به وضمته الى عضوية الجمعية اثناء الحرب، وكان مركز عمله في دمشق حينما انسحب الاتراك، فبقي فيها. ولما قام عهد فيصل تولى الشؤون العسكرية فيه بعنوان رئيس المجلس العسكري الثوري. وكان ذكياً ألمعياً سريع البديهة، ولقد سجلت انطباعاتي عن شخصيته في الجزء الأول من كتاب حول الحركة العربية الحديثة التي كتبت مسودته في سنة 1943 في تركية هكذا:

(لقد كان لياسين شخصية قوية جعلته في العهد الفيصلي محترماً مرهوباً، وكان من أركان الفتاة وعمدها، وكثيراً ما كانت كلمته هي الفاصلة ورأيه هو الحاسم في ما كان يجري من مناقشات ويرسم من خطط، وأحسن وصف يمكن ان يوصف به انه كان يفرض نفسه فرضاً فيفتقد في غيابه، ويسبغ على الجلسة التي كان يشهدها خطورة وثقة، ويناط به الفصل في المهمات. ويرى فيما يبديه من رأي ويرسمه من خطة صواب وبعد نظر وقوة نفوذ وكان حاسماً في رأيه جدياً في مظهره قليل الكلام قليل المزاح قليل الابتسام بعيد الغور يوحي لمخاطبه خطورة وراء مظهره الصامت الجاد وآرائه الحاسمة وغوره البعيد).

وقد تزاملنا في الهيئة المركزية للفتاة وتعاونا تعاوناً صادقاً، وكانت ثقته فيّ كبيرة وكان يقدرني ويعجبه احساني للتنظيم، وهو الذي اقترح ان أتولى سكرتيرية الهيئة وكنت صلة الوصل بين الهيئة وبينه في الشؤون المتعلقة

بعمله الرسمي العسكري، حيث كانت الظروف تقتضي الاستعانة به في بعض الأعمال والحركات.

ولقد كانت فرنسة وبريطانيا تخشيانه لمقدرته العسكرية والتنظيمية ولصلابة موقفه القومي بالنسبة لسورية والعراق معاً، حتى إن بريطانيا حينما اتفقت اتفاقها الخائن مع فرنسة على منحها حرية العمل ضد سورية واعتزمت سحب ما لها من فرقة عسكرية فيها في أوائل سنة 1920 احتالت عليه ودعته الى معسكرها في دمشق وارسلته مخفورا الى الدولة قبل سحب قوتها حتى تحرم سورية منه في وقت اشتداد الأزمة من جراء انسحابها على أساس ما سوف نذكره بعد، وكان ذلك ما اتفقت عليه مع فرنسا او كان في الوقت نفسه بطلب من هذه. ولقد اعادته بريطانيا الى دمشق فيما بعد نتيجة لالحاح فيصل وما أحدثه عملها ازاءه من سخط شديد، مشترطة عليه وعلى فيصل ان لا يتولى مركزاً عسكرياً فعالاً، ولكن هذا لم يمنعه من المشاركة في المواقف حين تأزمها.

ولقد ظل في سورية بعد مغادرة فيصل ولم تتحرش به القوات الافرنسية المحتلة، لأنه التزم بوعده فلم يكن منه موقف شديد ضد تحركاتها. ولما صار فيصل ملكاً للعراق استدعاه فكان من أقوى وأبرز رجالات الحكم في العراق، وظل محتفظاً بصلابته وحكمته، وكان احياناً يأتي الى فلسطين فتتجدد صداقتنا معه، وقد تعاونا معه وهو في العراق ونحن في فلسطين في نطاق عزيمة رجالات العرب على عقد مؤتمر عربي عام في بغداد، حيث كان هو عضواً في لجنة تحضيرية عراقية وكنت انا عضواً في اللجنة التحضيرية الرئيسية في فلسطين، وقد حالت الظروف وتدخل الانكليز ثم موت فيصل دون انعقاده. والتقيت به في بغداد في أيلول 1933 حينما توفي الملك فيصل، وذهبت مع بعض الاخوان للاشتراك في موكب جنازته، وجددنا عهد الصداقة في الأيام القليلة التي قضيناها في بغداد، وكان شديد العطف على قضية فلسطين وساعد في تسيير حملة فوزي القاوقجي في أواسط عام 1936، وكان رئيساً للوزارة. ثم كان انقلاب ضد حكومته باشره بكر صدقي العسكري بالتواطؤ مع حكمة سليمان وآخرين، فغادر العراق الى دمشق ثم ذهب الى بيروت وأقام فيها، وما عتم أن توفي في مطلع سنة 1937 رحمة الله عليه، وأتي بجثمانه فدفن في مقبرة صلاح الدين الأيوبي في دمشق تقديراً له من الحكومة الوطنية الاستقلالية التي كانت برئاسة هاشم الأتاسي وشركاء جهاده القوتلي والجابري ومردم بك، حيث كانوا أيضاً رفاق جهاد له مقدرين له مزاياه العظيمة، وقد خلد في تاريخ النشاط القومي والسياسي وفي اذهان من يعرفه بل في الأوساط العربية جميعها اسماً لامعاً مدوياً، ولا زال اسمه يذكر بالاعجاب والتقدير. وقد ذهبت من فلسطين مع نخبة من اخواني الاستقلاليين الى دمشق للمشاركة في تشييع جنازته.

ولقد كان له نشاط وشخصية قوية نافذة في العراق يحسب حسابها كل الفئات بما فيهم الملك فيصل، سواء في ظروف كان فيها معارضاً او ظروف ما كان يمارس فيها الوزارة ورئاسة الوزارة، ولم نر ضرورة الى التوسع في ذلك.

شيء عن مولود مخلص:

ومنهم مولود مخلص، وهو ضابط عراقي كان التحق الى الثورة الهاشمية بقيادة الأمير فيصل

ودخل الشام معه، وكان قوي الشخصية جريئاً صلباً وان لم يبلغ في ذلك وفي فنه العسكري مبلغ ياسين الهاشمي، وقد تعلق كل منا بصاحبه، وانعقدت صداقة حميمة بيننا واستمرت طيلة العهد الفيصلي، ثم عاد الى العراق بعد قيام مملكة فيصل. وكان من أعضاء اللجنة التحضيرية البغدادية للمؤتمر العربي الذي أشرنا اليه في نبذتنا عن ياسين، فتعاونا عبرها. ثم التقينا به حينما ذهبنا الى بغداد للاشتراك في موكب جنازة الملك فيصل فجددنا العهد به. وتوفي في الأربعينات رحمة الله عليه.

شيء عن جميل المدفعي:

ومنهم جميل المدفعي، وكان هو الآخر ضابط عسكري وممن انضموا الى قيادة الأمير فيصل الثورية في الجبهة الشمالية ودخلوا مع فيصل للشام، وكان صلباً نشيطاً وان لم يكن شديد الذكاء والألمعية، وكانت العراق تتحرك في عهد فيصل ضد الاحتلال الإنكليزي فاضطلع بمهمة الاتصال بالقائمين بالحركات وامدادهم بالمال والسلاح من سورية بقرار من الهيأة المركزية للفتاة، وكنت سكرتيرها وصار من مهمتي أن أتعاون معه وأدبر ما يمكن ويلزم تدبيره لمهمته. فكان هذا مما وثق الصداقة بيني وبينه واستمرت طيلة العهد الفيصلي، وكان الانكليز قد حكموا عليه غيابياً بالاعدام فجاء بعد سقوط هذا العهد الى شرق الأردن وعمل في حكومة الأمير عبد الله فترة من الوقت الى أن قامت مملكة فيصل، فصدر العفو عنه، فعاد واندمج في النشاط السياسي والقومي، وتولى مناصب وزارية في حقب مختلفة، وتولى اكثر من مرة رئاسة الوزارة.

وقد التقيت به في سنة 1933 في مناسبة موكب جنازة فيصل وجددنا عهد الصداقة، ثم التقيت به في أواخر سنة 1937 حينما ذهبت الى بغداد لتأليف لجنة دفاع عراقية عن فلسطين، وكان يتولى رئاسة الوزارة، وجددنا عهد الصداقة. وكان على خلاف وتشاد مع نوري السعيد فكلفني بالاجتماع به، وعرضت سفارة لندن عليه حلا للخلاف وإبعادا له عن بغداد، ولكن نوري السعيد لم يقبل وظل يسعى حتى استطاع أن يحل محله بعد امد قصير، وكان يعطف على القضية الفسطينية ويهتم بها، ويساعدني على تأليف لجنة الدفاع، ولم اعد أراه ولكن صداقتنا كانت مستمرة ونتبادل التحيات مع الأخوان الآتين والذاهبين الى أن توفاه الله في الستينات رحمة الله عليه. وكان من رجالات العراق الذين برزوا ولعبوا دورا في تاريخه في عهد فيصل وبعده.

شيء عن علي جودة الأيوبي:

ومنهم علي جودة الأيوبي، وهو كالسابقين ضابط عراقي وممن انضموا الى قيادة فيصل ودخلوا الشام معه، وكان مرناً بحبوحاً، وكان شريكاً لجميل المدفعي في مهمة الاتصال بالحركة الكفاحية العراقية، فكان يتردد علي كثيراً معه من اجل ذلك، فتوثقت بذلك الصلة والصداقة بيننا واستمرت الى أن توفاه الله في الستينات رحمة الله عليه. وتولى مناصب وزارية عديدة وصار رئيساً للوزارة اكثر من مرة، وكان يهتم بقضية فلسطين ويعطف عليها كذلك، وآخر مرة رأيته في موكب جنازة الملك فيصل، وظللنا نتبادل التحيات مع المسافرين، وبالجملة كان من رجالات العراق الذين برزوا في دور فيصل وبعده.

شيء عن توفيق السويدي:

ومنهم توفيق السويدي، وهو من شباب العراق ايضاً وكان في باريس للدراسة حين انشئت جمعية الفتاة فكان من مؤسسيها أو أوائل المنتسبين اليها وعضواً في هيأتها المركزية، وهو من أسرة بارزة، وقد قدم الى دمشق في أوائل العهد الفيصلي، وكان عضواً في الهيئة المركزية للفتاة التي ألفناها أنا ورفاقي على ما سوف أذكره بعد. وكان سكرتيرا للمؤتمر العراقي الذي اجتمع في دمشق وقرر استقلال العراق حينما اجتمع المؤتمر السوري وقرر استقلال سورية في 8 مارس 1920، وهو الذي اعلن قراره على الجماهير بعد أن أعلنت أنا عليها قرار المؤتمر السوري على ما سوف أشرحه بعد. وهو رصين رزين حسن الثقافة والبداهة وان لم يكن شديد الاندفاع، وقد التقيت به في دمشق مرارا وتعاونا في نطاق جمعية الفتاة، وقام بيننا ود وان لم يبلغ مبلغ صداقة حميمة. ولما قام عهد فيصل في العراق ذهب اليه واندمج في حركة شباب ورجال العراق مؤيداً حيناً ومعارضاً حيناً دون اندفاع كبير. وصار وزير خارجية مرة او اكثر، وصار رئيس وزارة مرة، وكان له موقف قوي في هيئة عصبة الأمم في تأييد قضية فلسطين حينما أوصت اللجنة الملكية بتقسيمها، وناقشت العصبة توصيتها في سنة 1937 على ما سوف نشرحه بعد، وكان إذ ذاك وزيرا للخارجية في حكومة جميل مدفعي، ولم ألتق به بعد دمشق إلا مرة في بغداد في خريف سنة 1937 حين ذهبت لأسعى في توسيع تشكيلات لجنة الدفاع عن فلسطين، وقد ترددت عليه في بيته وفي الوزارة، وكنا نتبادل الأحاديث في قضية فلسطين ومستقبلها، وكانت فلسطين إذ ذاك متوترة موشكة على انفجار كبير، فكان ينصح بالاعتدال. وبعد هذه الرحلة لم اره، وظل ينشط الى أن وافاه أجله في الستينات رحمة الله عليه.

شيء عن محب الدين الخطيب:

ومنهم محب الدين الخطيب، وقد تعرفت به حينما جاء الى دمشق مع وفد حزب الاتحاد السوري الذي ذكرت خبره في نبذة الشيخ كامل القصاب، وكان شابا ليناً دمثاً ولكنه صلب في مبادئه القومية العربية الوحدوية الاستقلالية، وله نزعة إسلامية، فتعلق كل منا بصاحبه وانعقدت أواصر الصداقة الحميمة بيننا، وكان ممن انضموا الى جمعية الفتاة أثناء الحرب، فكان ذلك مما وثق الصلة والصداقة والتعاون بيننا. وكان قبيل اعلان الحرب قد فرّ الى مصر بسبب مطاردة جمال لرجال الحركة العربية واندمج في حركة حزب اللامركزية وصار مساعداً لسكرتير الحزب العام، وكان هو في الحقيقة حامل عبء السكرتيرية، وقد اهتم لتاريخ حركة المؤتمر العربي في باريس وأصدر كتاباً بذلك تحدث به عن تاريخ القضية العربية، وقد انتدبه الحزب اثناء الحرب لمهمته في الهند فاعتقله الانكليز ردحا من الزمن ثم افرجوا عنه، فعاد الى مصر.

ولما أعلن الشريف حسين الثورة ذهب الى مكة متحمساً مستبشراً، وتولى تحرير مجلة القبلة التي كان يصدرها الشريف حسين، وكان قوي القلم بليغه. ثم عاد الى مصر واندمج في حركة حزب الاتحاد السوري، وجاء الى دمشق مع وفد هذا الحزب في أوائل العهد الفيصلي، وبعد سقوط عهد فيصل ذهب الى مصر وانشأ داراً للطباعة والنشر فكان له مطبعة ثم مجلة أسبوعية اسمها الفتح ومجلة اخرى شهرية

اسمها الزهراء وكانتا إسلاميتي النزعة. وكان ذا ثقافة واسعة اسلامية وعربية، وكان اصلاحياً تجديدياً سلفياً اي داعياً الى طريقة السلف الخالية من التزمت والحشو والفلسفة الزائفة، حتى لقد سمى مطبعته باسم (السلفية). وقد كتب عدة كتب إسلامية اجتماعية عظيمة النفع، كما نشر كتباً عديدة للامام ابن تيمية وغيره من علماء المسلمين البارزين، وقد اهتم لوثائق الحركة العربية الحديثة وتجمع لديه منها الكثير، حتى ليكاد يكون اكثر جامع لها، كما صار له مكتبة كبيرة. ولقد استمرت الصداقة بيننا على البعد، وطبع لي جزئي كتابي مختصر تاريخ العرب والاسلام مرتين، ومرة كتابي دروس التاريخ العربي.

ولقد زرت مصر مراراً قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها فكنت كلما ذهبت أبحث عنه وأزوره واجدد عهد الأخوة والصداقة معه، وأهداني بعض مطبوعاته التي بقلمه والتي لعلماء آخرين. وكنت اجده على حاله من الروح الطيبة واللين في الخلق والصدق في القول، والصلابة في العقيدة الإسلامية الصافية والعربية القومية، وقد لمست فيه في آخر مرة التقيت به سنة 1947 شيئاً من التشاؤم من حالة العرب والمسلمين، فحاولت ان أبث فيه الأمل فسايرني مسايرة، وقد ظل يعمل في الطباعة والنشر بقوة ودأب ويخدم الاسلام والعروبة بقلمه وجهده الى ان توفاه الله في أوائل السبعينات رحمة الله عليه.

شيء عن فخري البارودي:

ومنهم فخري البارودي، وهو من أسرة وجيهة، وكان والده من وجهاء دمشق وله بيت شامي كبير وديوان مطروق في حي القنوات وميسور الحال، وكان له أملاك في دوما والشام، وقد ذهب إلى الآستانة وانتسب إلى مدرسة الحقوق، وكان قوي الحماس للحركة العربية مما جعل الهيئة المركزية للفتاة تضمه إليها أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان أول لقائي به في دمشق في نطاق الفتاة، وبدا لي شاباً ذكياً نشيطاً لابأس في محاكمته وأفكاره، جريئاً على النقد وقول الحق ميالاً إلى الدعابة والتنكيت ذا روح طيبة ومواقف سليمة، فتواثقنا وتعاونا.

وفي عهد الإفرنسيين برز كزعيم شاب وطني متحمس وشعبي في أثناء تجدد الحركة الوطنية بعد فتور الثورة السورية، أي في أوائل الثلاثينات، وكان يقود المظاهرات ضد الإفرنسيين، وتعرض لمطاردتهم أكثر من مرة حبساً ونفياً، فزاده ذلك بروزاً وشعبية ومحبة بين الجماهير، وبدا له أن يؤسس مكتب أبحاث ونشر وطني على أن يغذى بجباية زهيدة شعبية سماها (مشروع الفرنك)، وأقبل الناس على تلبية دعوته فاستطاع أن يحقق هدفه، وخصص جناحاً في بيته ليكون مركز أبحاث ونشر، وجهزه بالآلات الناشرة واستعان ببعض الشباب وأصاب نجاحاً، حيث صار المكتب ينشر نشرات دعاية وتوجيه أناشيد وطنية، وقد التقيت به في دمشق حينما جئت وأقمت فيها وتوليت تموين وتأجيج الثورة في فلسطين، وجددنا عهد صداقتنا، واتفقت معه على تخصيص زاوية في مكتبه الذي صار يدعى (المكتب العربي القومي) لنشر نشرات الثورة والدعاية لها مقابل عشرة جنيهات في الشهر للنفقات والورق، وسلمت الزاوية للأستاذ أكرم زعيتر الذي سوف يأتي كلمة وافية عنه في مناسبة اكثر ملاءمة وصارت الزاوية تنشط في مهمتها نشاطاً مفيداً. وقد اندمج فخري في عهدي استقلال سورية في سني 1936 ـ 1939

ثم في سنة 1943 بعدها، ونشط مع النشيطين وصار نائباً في المجلس النيابي مرتين دون بروز كبير، وظل يحتفظ بروح الدعابة والتنكيت والشعبية مع جرأة في النقد والحق، وكان ينظم أناشيد وطنية وينشرها ومنها انشودة:

بلاد العرب أوطاني

من الشام لتطوان

ونشر بعض كتيبات بعنوان مذكرات البارودي ذكر فيها نشأته واحوال الشام في طفولته وقبلها وبعض أحداث أخرى. واهتم بالموسيقى العربية القديمة وبخاصة الموشحات الأندلسية وأحيا ما يسمى رقصة السماح. وقد أنشأ بيتاً جديداً، وكان له مكتبة عامرة فيها كثيراً من الوثائق، فأصابته في أوائل الستينات قنبلة من طائرة كانت تقصف بعض التجمعات في ظروف انتكاس الوحدة السورية المصرية فهدمته، واحترقت المكتبة فكان ذلك بالنسبة إليه وإلى التاريخ العربي الحديث كارثة رغم ما حصل عليه من تعويض، ولم يلبث أن توفي، وشيع في موكب شعبي عظيم مشينا فيه ولمسنا ما كان له في قلوب الجماهير التي اشتركت في تشييعه بدون مؤثر خارجي من محبة وشعبية اعترافاً بما كان له من نشاط وخدمة في سبيل أمته ووطنه رحمة الله عليه.

وبالإضافة إلى من ذكرت، فقد كانت الصداقة الوثيقة منعقدة بيني وبين عدد آخر من أعضاء الجمعية القدامى تعرفت بهم أثناء عهد فيصل وقبله، وتعاونت معهم في هذا العهد عبر الجمعية وعبر المؤتمر الذي كان بعضهم أعضاء فيه، واستمرت صلاتي بهم وصداقتي وتعاوني معهم إلى ما بعد عهد فيصل، ومنهم: رفيق التميمي وزكي التميمي ومحمد على التميمي ومعين وزكي الماضي والدكتور أحمد قدري والدكتور حافظ كنعان والدكتور صدقي ملحس والشيخ كامل القصاب وسليم عبد الرحمن ورشدي الشوا والأمير فائز الشهابي وسعيد حيدر والدكتور محمد حيدر وعوني عبد الهادي، وقد كتبت شيئاً عنهم فيما سبق فأكتفي بهذه الإشارة في هذا السياق.

شيء عن الأمير (الملك) فيصل وصلتي به:

ومع أن الأمير فيصل (الملك فيما بعد) كان ذا مقام رسمي عال، ومع اني لا أقول ان صداقة حميمة قامت بيني وبينه، فإني أقول أني التقيت به كثيراً في العهد الفيصلي لقاءات عامة وخاصة عبر الهيأة المركزية لجمعية الفتاة التي كانت تمثل حزب عهده وحكومته، ثم عبر المؤتمر السوري الذي كنت سكرتيره أيضاً. وكثيراً ما تناولت الطعام وطعام الفطور صباحاً معه، وخاصة في ظروف قرار المناداة بالإستقلال وتأليف الوزارة، وكنت ألقى منه عطفاً وتقديراً، وقام بيننا نوع من الألفة وعدم الكلفة، مع القول أني كنت أتجرأ على نقد أفكاره وطلباته في مواقف عديدة في الاجتماعات الخاصة والعامة للفتاة وغيرها، ولم يؤثر ذلك على تلك الألفة وعدم الكلفة.

ولما صار ملكاً على العراق أرسل لي ساطع الحصري الذي كان التحق به رسالة يدعوني فيها إلى العراق لأشارك في بناء الدولة الجديدة في أي عمل اقترحه. وأعتقد أن ذلك كان بأمر من فيصل أو علم منه ومتصلاً بذلك التقدير والألفة، ولقد خرجنا من دمشق معاً في كارثة 24 تموز 1920، والتقينا في درعا أياماً قليلة في حزن ووجوم، ثم ركبنا القطار معاً واستمر هو إلى حيفا، ونزلنا نحن في العفولة للسفر منها إلى نابلس، وقد تودعنا وتصافحنا وكل منا يبث

في الآخر الأمل، والتقينا بعد ذلك ثلاث مرات، مرة حينما رجع والده من قبرص إلى عمان وكان مشرفاً على الموت وقد ذهبنا إلى عمان مع وفد كبير من رجال نابلس رفاقنا في الحركة الوطنية، وقد جاء هو من بغداد لعيادة والده فكان اللقاء حاراً بشوشاً يذكّر بما كان من الألفة وعدم الكلفة، وكانت حيويته ونشاطه قد عادا إليه وبث فينا الأمل ووعدنا بالعمل والمساعدة، ومرة جاء إلى فلسطين في طريق رحلة لأوروبا أو عودته منها في سنة 1931 فكان اللقاء كالمرة الأولى، وكنا قبل ذلك عقدنا في القدس مؤتمراً عربياً وكنت عضواً في الهيئة التحضيرية التي عهد إليها بالسعي لعقد مؤتمر عربي عام، وخاطبنا إخواننا في العراق ياسين وجميل وعلي جودة ومولود مخلص، وطلبنا منهم تأليف لجنة وإقناع فيصل بعقد المؤتمر في بغداد، وتم تأليف لجنة منهم مضافاً إليهم نوري السعيد، وكنا نتكاتب وكان فيصل يعرف ما يجري، فلما جاء إلى فلسطين هذه المرة كلمناه في صدد المؤتمر، فوعد بمضاعفة الجهد في سبيله. ولقد أقام له المجلس الإسلامي حفلة كبرى وخطب الخطباء وذكروه بقضية فلسطين فوعد وعيونه تدمع ببذل جهده المتواصل في إيجاد حل عادل لها، ثم التقينا به مرة ثالثة في عمان في تموز 1933 في ظروف رحلة له لأوروبا، وتحدثنا معه في قضية فلسطين والمؤتمر العربي ووعد بمضاعفة الجهد بعد عودته لإتمام عقد المؤتمر في صدد قضية فلسطين، قال إنه يفكر في طريقة جديدة وهي ربط شرق الأردن بالعراق، وجعل فلسطين مرتبطة بالعراق بنوع ما عبر ذلك، وأفهمنا أنه يجري بينه وبين الإنكليز حوار حول إنشاء خط بغداد حيفا الحديدي، وحول تمديد خط أنابيب النفط، وحول التفاهم على خطة جمركية موحدة. وقال ان في كل ذلك وسائل قد تساعده على تحقيق أفكاره في صدد فلسطين ولصالح القضية العربية، وقابلته منفرداً حين كلفني بإعداد مذكرة عن قضية فلسطين ليأخذها معه ويعرضها على الإنكليز في رحلته، وكان بيننا وبين الحاج أمين الحسيني شيء من الفتور بسبب إنشائنا حزب الاستقلال، خلا بي وبعوني عبد الهادي وطلب منا عدم توسيع الجفاء بأسلوب الأخوة والألفة وعدم الكلفة المعتادة بيننا في دمشق، وكان هذا آخر العهد به. فقد قضى نحبه في أوروبا بعد شهرين من ذلك أيلول (1933)، وأحضر جثمانه إلى بغداد، وذهب كثير من رجال شرق الأردن وغربه لحضور المأتم، وكنت منهم، وقضينا أياماً مع إخواننا ورفاقنا في بغداد نتذاكر في قضايا العرب وذكريات صحبتنا للملك ونشاطه رحمة الله عليه.

ولا أريد أن أعلق على هذه الصورة من صلاتي به وهي صورة ناطقة معبرة. ولقد علمنا في بغداد انه قدم مذكرة في رحلته إلى الحكومة الإنكليزية ضمنها بعض المقترحات لصالح القضية الفلسطينية في نطاق ما ذكرناه آنفاً، وكان وقع موته مدهشاً، وشملت الدهشة البلاد العربية وأذهلتها لأنه وقد تمكن من السير بالعراق إلى حد لابأس به وأصبح له به شخصية قوية مؤثرة في العالم العربي الأوروبي، وقد نضج في حلبة السياسة وصار المتأهل للزعامة العربية الكبرى، وصار يقال إن العراق تحت زعامته سيلعب دور بروسيا في نهضة ألمانيا ووحدتها. ومما كان في ظروف رحلة لفيصل قبل الأخيرة أنه زار فرنسا وأقامت له حكومتها حفلاً رسمياً كبيراً وخوطب بلقب ملك القطرين، وأشيع على أثر ذلك أن هناك شيئاً من

التقارب والتفاهم بينه وبين فرنسا يمكن أن يؤدي إلى وحدة ما تحت تاجه بين الشام والعراق، ورددت الصحف ذلك، ولكنه ظهر أنه كان هناك شيء من الالتباس فوسعه الخيال ثم تبدد هباء بموته.

موقف الأمير عبد الله عقب وفاة الملك فيصل في صدد الحلول محله في دوره القومي وظهور زيفه:

وقد أقامت مدن فلسطين حفلات تأبين في الأربعين، وخطبت في حفلة القدس مشيداً بجهود فيصل وجهاده وشخصيته، ومن قبيل الشيء بالشيء يذكر أقول:

إن الأمير عبد الله كان من جملة من ذهب إلى بغداد لحضور المأتم، وكنا في ركب واحد ودعانا أنا وعوني عبد الهادي وعادل العظمة في منزل استراحة في الطريق إلى اجتماع خاص، وتحدث في القضية العربية بعد فيصل. وأبدى إستعداده لحمل تبعاتها إذا نحن الاستقلاليون (وهذا اللقب كان يطلق على جماعة الفتاة الذين أنشأوا حزب الاستقلال الأول في دمشق في عهد فيصل ليكون ستاراً للجمعية التي أحبوا أن يحتفظوا بسرها)، الناس الوحيدون الذين أصبح يعتقد بإخلاصهم وقوة مبادئهم، على حد قوله، ساعدناه كما ساعدنا فيصل، وقد وعدناه بكل تأييد إذا هو كان مستعداً لحمل العبء حقاً وصدقاً ولم يعد يستمع لمقالات بطانة السوء ووساوس الإنكليز ولم يعد يقف المواقف المناوئة لرجال الحركة العربية في فلسطين وغيرها، ولم يعد يؤيد قبول واقعية وعد بلفور والوجود اليهودي السياسي في فلسطين كما كان يفعل منذ عشر سنين فوعد. وبعد قليل من العودة من بغداد أذاع منشوراً شكر فيه الناس على عطفهم وجميل وفائهم نحو أخيه الراحل، وأشار إلى واجباته نحو القضية العربية وعزمه على مضاعفة جهده في سبيلها وأرسل إلينا المنشور قبل طبعه لنطلع عليه واقترحنا بعض التعديلات فلم يأخذ بها.

كلمة عن الأمير زيد وصلتنا به:

أما الأمير زيد أخو فيصل وعبد الله الذي كان مع فيصل في الجبهة الشمالية ودخل معه لدمشق فقد كان شاباً يافعاً وحيوياً وقليل التكلف والترسم، وكان صديقاً حميماً لصديقي الحميم الأمير بهجة الشهابي، فكانت صلتي به أشد ألفة وأقل كلفة مما كان بيني وبين أخيه حتى لتكاد تكون صداقة حميمة.

شيء عن علي رضا الركابي ومواقفه وصلتنا به:

وعلي رضا الركابي لم تقم بيني وبينه صداقة حميمة، ولقد كان من أبرز أعضاء الجمعية القدامى، وشغل جزءاً كبيراً في عهد فيصل وبعده، وكانت لنا على كل حال صلة وأخوة عبر الجمعية، وتعاملنا كثيراً في العهد الفيصلي، نذكر عنه شيئاً في هذه السلسلة. ولقد رأيته لأول مرة في نابلس في زمن الدولة العثمانية وحينما كنت موظفاً في دائرة البرق والبريد، ولست متيقناً ان ذلك كان بعد إعلان الدستور أو قبله، وكان ميرالاي (عميد أو زعيم في إصطلاح اليوم) أركان حرب ومنتسباً في فرقة عكا العسكرية التي كانت مؤسسات نابلس العسكرية تابعة لها، وكان في سن الأربعين أو أقل قليلاً صارم الوجه، وكان شديداً في أداء مهمته مشهوراً بالنزاهة ذا سمعة مرهوبة في الأوساط العسكرية، ثم صار في أثناء الحرب (لواء) وعين قائداً لمركز دمشق في أواخر الحرب على



الأمير فيصل مع أخيه الأمير زيد

ما أذكر، وقد رأت الهيأة المركزية للفتاة في دمشق أن تضمه إليها، ولابد من أنها رأت في صفاته المؤهلات وفي ضمه الفائدة، واستجاب هو لذلك وانتهت الحرب وظل في دمشق. وكان من أقوى الأشخاص العسكريين البارزين العرب السوريين خاصة، فعهد إليه الأمير فيصل برئاسة الحكم، وعينه اللنبي قائد الحلفاء العام في المنطقة حاكماً عسكرياً لسورية الداخلية، ولا أعرف يقيناً إذا كان ذلك بترشيح من فيصل أم أن سمعته أو صلابته هي التي جعلت اللنبي يختاره لهذا المنصب، ومما سمعته من مواقفه أنه كان يختلف أحياناً مع فيصل ويحاوره في أوامره وتعليماته وسياسته، وأنه قال له مرة إنه ليس مأموراً لديه وانه هو الحاكم العسكري الرسمي الصحيح المعين من قيادة الحلفاء العامة التي تعتبر سورية الداخلية خاضعة لسيطرتها مثل سورية الساحلية وسورية الجنوبية، وأنها هي مرجعه.

وحينما جئت إلى دمشق كان عضواً في الهيأة المركزية للفتاة نتيجة انتخاب أو أول انتخاب جرى في عهد فيصل من قبل أعضاء الفتاة القدامى مع آخرين ذكرت اسماءهم سابقاً، وسمعت ثم تحققت فيما بعد أنه كان بينه وبين ياسين الهاشمي شيء من التناظر والتكايد أو كليهما، وقد سقطت الهيأة التي كان فيها في انتخاب جديد جرى بعد مدة من قدومي الى دمشق، وخلفناها أنا ورفاقي، وكان ذلك في آب أو أيلول 1919.

ومن تعاملنا معه في عهد فيصل وهو حاكم عسكري وبمثابة رئيس وزارة أو رئيس حكومة المديرين كما سميت رسمياً، ثم رئيس أول وزارة قامت بعد اعلان استقلال سورية، بدا لنا منه شيء من الاستخفاف بالهيأة الجديدة التي خلفت هيأته وتبليغاتها ومحاولات لعرقلة مطالبها أو تجميدها والسير فيما كان يراه هو دونها، وكانت مواقفه في ظروف الاتصالات والاحتكاكات مع فرنسة لينة أو مهاودة، ثم اتهم بأنه كان ذا اصبع في خطف ياسين الهاشمي الذي أشرنا اليه في كلمتنا عن ياسين، فكان نقد وضغط شديد ضده في أوساط الجمعية، وكانت الهيأة المركزية للفتاة تؤيد ذلك فاستقال من رئاسة حكومة المديرين والحاكمية العسكرية، وأسرع الأمير زيد الذي كان نائباً عن اخيه الذي كان في أوروبا في رحلة ثانية له بعد الاستفتاء الى قبولها لأنه كان هو الآخر يرجح ان له اصبعاً في خطف ياسين، وكان الأمير صديقاً حميماً لياسين متواثقاً معه، وقد عين الأمير مكانه الأميرالاي مصطفى نعمة، والمرجح أن الظروف كانت غير مواتية له لمراجعة قيادة الحلفاء العامة أو التمرد والتمسك بأنه الحاكم العسكري المعين من هذه القيادة، وهكذا أصابته الضربة. وظل معتزلاً الى ان عاد فيصل من أوروبا. وكان الظرف السياسي متأزماً فرأى فيصل رتق الفتق فأعاده الى رئاسة حكومة المديرين ومع منصب مدير الحربية، وبعد قليل قرر المؤتمر السوري إعلان استقلال سورية بملكية فيصل في أوائل مارس 1920، وصار المقتضى أن تكون الحكومة وزارة، فأصر فيصل على أن يعهد اليه برئاسة الوزارة برغم أنه أي الركابي لم يكن محبذاً عملية الاستقلال ويصفها بالمغامرة والتهور، وبرغم ما عرف من مواقفه المتهاودة المتساهلة والمراوغة معاً.

وكان فيصل يرمي الى التأليف وعدم ترك مجال لمعارضة قوية للعهد الجديد قد يعمد اليها الركابي ويكتل بعض الكتل فيها، ولم تر الهيأة المركزية ان تختلف مع فيصل في أول

عهده فسايرت وقبلت بترؤسه الوزارة بـرغم ما كان من استخفافه بها ومراوغاته في ما تتقدم به من مطالب ومقترحـات. ولقد ظـل في رئاسـة الوزارة على سلوكه في المراوغة وعدم الانصياع لقرارات الهيئة وانتقاده ما يبديه رجال الجمعية والمؤتمر والحركـة الوطنيـة من تصلب وتطرف على حد تسميته، ثم على تساهله ازاء ما كانت تثيـره فرنسـة من متـاعب وتخـططه من خـطط لإحباط عهد الاستقلال الجديد وتحقيق مطامعها في سـورية، ثم أخـذ يدور همس بـأنه يسعى للحصـول على امتيـاز استثمـار غـور الأردن بالشراكة مع نسيب البكـري، ثم صار الهمس جهراً وكان الصهيونيون يطمعون في هذا الامتياز في زمن الدولة العثمانية على ما ذكرنـاه قبل. فقامت في نفوسنا هواجس باحتمال أن يكـون المسعى الجديد متصلاً بذلك[1]، وكانت ضجة ودعت الهيئـة المـركـزيـة الى اجتمـاع عـام للمؤسسين في بيته، وجرت مناقشات حادة وندد عـدد من المتكلمين من الهيئـة وغيـر الهيئـة بتصرفاته تنديـداً شديـداً، وقاد الحملة خـاصة الشيخ كامل القصاب، فلم يسعه إلا أن يعلن استعداده للاستقالة اذا كان هذا هـو ما يـريده الأخوان، وحينئذ هتف الشيخ كامل قائـلاً إننا أيها الأخوان متفقون مع الأخ الـركابي[2] على الاستقـالة. واستقـال فعلا وخلفـه في رئـاسـة الوزارة هاشم الأتاسي، وكان ذلك في نيسان أو مارس 1920، وقد حقد على الهيئة وأخذ يؤلب عليها من استطاع من دمشقيين وغيرهم، وممن يطمعون في عضوية الهيـأة من الأعضاء أو من كانوا يوالونه ويطمعون في مراكز ومصالح منه، فطلبوا من الهيئة بعد قليل من استقالته الدعوة الى اجتمـاع عام للمؤسسين، واستـطاعـوا أن يكونوا أكثرية في غيـاب عدد من المؤسسين، وأن يحصلوا على قرار من اكثريـة الحاضـرين بتجديد انتخـاب للهيئة التي كـانت مؤلفة مني ومن شكـري القـوتلي ورفيق التميمي وسعيـد حيدر وأحمد مريود والدكتور أحمد قدري، وقد سقط هؤلاء في الانتخـاب وفـاز فيـه كـل من الركابي وجميل مردم بك ونسيب البكري وأحمد الحسيبي ومحمـد الشـريقي وآخـرين لم أعـد أذكرهم، وصار محمد الشريقي سكرتيراً وجميل مردم بك أميناً للصندوق. وسلمت أنا ما لدي من سجلات وأوراق للشريقي، وسلم شكـري القوتلي الذي كان امين الصندوق ما تحت يده من مال كان في حدود (16000) جنيه على ما بقي في ذاكرتي الى جميل مردم بك.

ولقـد بقي الـركـابي في دمشق بعـد غــزو الإفرنسيين لها واسقطاهم عهد فيصـل لأنه لم يكن متهماً بنشاط معاد للافـرنسيين، بل يكـاد يكون صديقاً، ويظهر أن الطرفين اكتفـوا بهذا الموقف لأن الركـابي لم ينشط نشاطـاً ايجابيـاً نحوهم، ولم يدخـل في خدمتهم. وبعـد مدة استدعاه الأمير عبد الله الى عمـان واسند اليـه رئاسة الوزارة الأردنية، ونشط في سبيل تنظيم العلاقة بين الأردن والانكليز، وكان الانكليز قد رحبوا بتعيينه ولعلهم هم الذين أوعزوا به. وقد قضى في الأردن نحو سنتين ثم عاد الى دمشق وعاش معتزلاً، وقد بلغ الشيخوخة الى أن توفي في الثلاثينات غفر الله له.

---

(1) ان اليهود ظلوا دائبين وراء هذا الاستثمار مما يجعل هذه الهواجس في محلها.

(2) ذكر الدكتور أحمد قدري في مذكراته أن الجميع عدا الشيخ كامل كان يطلب استقالة الركابي وهذا عجيب والحقيقة هي ما ذكرته وصورة المشهد ما تزال ماثلة بقوة في ذاكرتي.

وكانت صلاتي به كما قلت صلات عمل في نطاق الجمعية، ولم يكن احدنا يبادل الآخر وداً ولا استلطافاً، ولكن لم يكن بيننا تجهم أو عداء، وكنت ألتقي به فنتحدث كأخوان في الجمعية. وفي ذهني أني التقيت به لآخر مرة في سنة 1937 في دمشق في شارع فتصافحنا وسلمنا على بعضنا. وما ذكرته ليس من وحي ذلك وانما هو حوادث واقعية يعرفها غيري أيضاً.

كلمة عن جميل مردم بك وصلتي به:

وكلمة يحسن أن تسجل عن جميل مردم بك، فهو الآخر من أركان جمعية الفتاة وصار له اسم مثير بارز في التاريخ العربي المعاصر وبخاصة في التاريخ السوري.

ومما سمعته أنه درس بعض الوقت في الآستانة ثم ذهب للدراسة في باريس، ولقد كان شاباً ذكياً ذا طموح ومرونة ويحسن الخروج والولوج في مختلف المواقف، وقد رأيته لأول مرة في الاجتماع العام في بيته، وكان ينسب اليه عارفون أنه يحب البروز والوصول بأي وسيلة، وكان على ما يظهر يكثر الكلام الحماسي عن العروبة وحقوق العرب، فقررت الجمعية ضمه إليها وصار من اعضائها القدماء حينما كان في باريس. والغالب أن الإفرنسيين عرفوا طموح جميل ورغبته في البروز فأرادوا استغلال ذلك وحمله على تأييدهم أمام مجلس السلم أو انكار حق فيصل في الكلام عن سورية، فسارع محمد رستم حيدر وعوني عبد الهادي وهما من الفتاة وهما اللذان ضما جميلاً لها وكانا مع فيصل، الى تنبيهه ومنعه على ما ذكرناه سابقاً. ولقد كانت هذه الصفات بادية في سلوكه في اثناء عهد فيصل يلمحها اكثر أخوانه في الجمعية وغيرهم، مضافاً اليها روح أو نعرة اقليمية، وكان من أثر ذلك اندماجه مع الركابي في اسقاط هيأتنا المركزية ليصير عضواً في الهيأة وأميناً لصندوقها، وكان من أثر ذلك ايضاً اندماجه في حركة الحزب الوطني السوري الذي كان في الحقيقة حزباً شامياً أو دمشقياً ضد العراقيين والفلسطينيين البارزين في عهد فيصل الذين كانوا يسمونهم أغراباً ويتذمرون من بروزهم ونشاطهم وأثرهم في العهد الفيصلي، وكان هذا مما منع توطد صداقة حميمة وثقة بيننا، كتلك التي كانت بيني وبين شكري القوتلي وأحمد مريود والأمير بهجت الشهابي وغيرهم.

ولقد كان في عهدته مبلغ كبير من المال للفتاة في آخر عهد فيصل، وجاءه الأعضاء يطلبون منه شيئاً منه لاضطرارهم الى مغادرة دمشق وضيق يدهم، وكنت أنا من الجملة، فأعطى هذا عشرين وهذا ثلاثين وهذا أربعين جنيهاً وأخذت أنا أربعين، ومن المحتمل أن يكون ما وزعه آنئذ الفي جنيه وإن كنت أرجح أنه بقي معه شيء من المال. وسمعت أنه يقول أنه أنفق ما كان لديه على أعضاء الجمعية بعد خروجهم أيضاً والله أعلم.

وحينما اشتدت الحركة الوطنية السورية وانفجرت ثورتها في سنة 1925 اندمج في هذه الحركة وصار من ابرز رجالها، وظل بارزاً بعدها في مجال الحكم، فصار وزيراً في وزارة حقي العظم 1932 الذي لم يكن مستقيماً في الخط الوطني، ثم صار رئيس وزارة الحكم الاستقلالي الأول في سنة 1936 برئاسة هاشم الأتاسي، وصار وزير الخارجية في الحكم الاستقلالي الثاني سنة 1943، وبرئاسة الوزارة برئاسة شكري القوتلي. وكان سلوكه في ظل

هذه المناصب مشوباً بتلك الصفات على ما كان يقوله إخوانه، وعلى ما كان يلمس من أعماله وأقواله. وكان ذلك يؤدي الى نشوب خلافات ومشادات بينه وبين أولئك الأخوان، وقد مر في نبذة القوتلي أن هذا استقال من الوزارة في سنة 1939 نتيجة لذلك.

وإذا لم يكن بيني وبينه صداقة حميمة فإني أقول أنه لم يكن بيني وبينه جفاء أو عدم مودة واستلطاف كما كان الشأن بيني وبين الركابي، وكنت القى منه ترحيباً وتعضيداً في المطالب العائدة للحركة الفلسطينية والثورة الفلسطينية اثناء ثورة 1937 ـ 1939 التي توليت تأجيجها من دمشق، وكنا كلما التقينا في عهد فيصل أو في أبان اقامتي في سورية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها يكون اللقاء ودياً وحاراً وأخوياً كزملاء في الجمعية وزملاء في النشاط والأهداف والحركات الوطنية والقومية. ولقد ماتت أم زهير وهو رئيس الوزارة في سنة 1938 فاشترك في الصلاة عليها وتشييع جنازتها مع اخوان كرام، القوتلي والقصاب والجابري وغيرهم، وقد اتهم مع سعد الجابري باغتيال الدكتور شهبندر الذي كان معارضاً لعهده وعهد اخوانه في سنة 1936 ـ 1939 ففر الى بغداد وبقي فيها الى أن ثبتت براءته، فعاد واندمج في حركة الاستقلال الجديدة 1943. وقد ترأس الوزارة على أثر وفاة سعد الله الجابري وبعدها، وكان آخر عهدي به في أواخر الخمسينات وقبيل الانقلاب الذي قام به حسني الزعيم ضد شكري القوتلي الذي ذكرناه في نبذة هذا، ثم خرج في أوائل الخمسينات ولم يعد الى دمشق وتوفي في مصر في أواخر الخمسينات رحمة الله عليه.

ولم ينته الكلام عن جمعية الفتاة ورجالها، ولسوف نعود اليه ولاسيما في صدد نشاطها وكيانها في العهد الفيصلي.

ما جرى في المؤتمر وإزاء لجنة الاستفتاء:

ونأتي الآن الى ذكر ما جرى في المؤتمر وازاء لجنة الاستفتاء فنقول أنه بعد أن احتشد جمهور كبير من ممثلي مناطق سورية الداخلية والجنوبية والغربية، دعوا الى الاجتماع، وكان ذلك في أواخر حزيران 1919.

عقد المؤتمر اجتماعاته في النادي العربي:

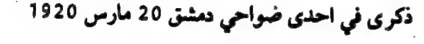
وعقد الاجتماع في قاعة النادي العربي الواسعة، وبناية هذا النادي كانت في المكان الذي يقوم فيه النادي العربي اليوم مجدداً في شارع بور سعيد قرب سينما الأهرام.

انتخاب فوزي العظم رئيساً وعبد الرحمن يوسف نائباً وأنا سكرتيراً وكلمة عن الرئيس ونائبه:

وبعد التعارف جرت انتخابات للرئاسة ونيابة الرئاسة والسكرتارية، فاز في الأولى محمد فوزي العظم وكان يلقب باشا، وكان تولى لفترة ما وزارة الأوقاف في زمن الدولة العثمانية، وهو كهل ذكي نشيط قوي الشخصية وإن لم يكن مثقفاً ثقافة واسعة. وللثانية عبد الرحمن اليوسف وكان يلقب كذلك بلقب باشا، وكان في زمن الدولة العثمانية عضواً في مجلس الأعيان وأميراً للحج، وكان من أولياء الحكومة الاتحادية وممن أرفقتهم هذه الحكومة بجمال وطلبت من جمال أن يكون من مستشاريه على ما ذكرناه قبل، وهو قوي الشخصية ولكنه أقل ذكاء وثقافة من محمد باشا العظم وفزت أنا بالسكرتيرية.

لجنة تدقيق وثائق توكيل الأعضاء:

وبعد ذلك طلبنا من الأعضاء تسليم وثائق



ذكرى في احدى ضواحي دمشق 20 مارس 1920

بعض أعضاء الجمعية العربية الفتاة من أركان العهد الفيصلي (الحكومة العربية السورية) في دمشق

1 ـ وصفي الأتاسي
2 ـ عادل العظمة
3 ـ أحمد مريود
4 ـ رشيد الحسامي
5 ـ شكري القوتلي
6 ـ رياض الصلح
7 ـ المير بهجة الشهابي
8 ـ المير مصطفى الشهابي
9 ـ سعد الله الجابري
10 ـ عفيف الصلح
11 ـ مسلّم العطار
12 ـ عزة دروزة
13 ـ زكي التميمي
14 ـ حسني البرازي
15 ـ توفيق الحياني
16 ـ المير فايز الشهابي
17 ـ رفيق التميمي
18 ـ الدكتور أحمد قدري
19 ـ عوني عبد الهادي
20 ـ معين الماضي
21 ـ توفيق اليازجي
22 ـ الدكتور سعيد طليع

عضويتهم وتوكيلاتهم للمكتب، وألفنا لجنة للنظر فيها مع التفاهم على وجوب التساهل في وثائق الوافدين من الجنوب والغرب المحتلين من قبل الانكليز والافرنسيين، وبعد ذلك انعقدت جلسة رسمية جاء اليها الأمير فيصل وأركان حكمه.

خطاب الأمير فيصل في الاجتماع الأول وعن مهمة المؤتمر:

وألقى فيصل خطاباً ارتجالياً رحب فيه بالأعضاء وذكر ما كان من مساعيه في مؤتمر السلم في صدد مطالب العرب وبخاصة في صدد استقلال سورية ووحدتها، وما كان من مواقف فرنسا وبريطانيا إزاءه، وما ذكره في مؤتمر السلم من يقظة العرب ومطامحهم وحركتهم وتضحياتهم في زمن الدولة العثمانية، وما كان من ثورتهم ومحاربتهم الى جانب الحلفاء استناداً الى ما وعدوه لأبيه من المملكة العربية المستقلة. ثم قال انه نتيجة لذلك قرر المؤتمر بإلحاح من الرئيس ويلسون إرسال لجنة استفتاء للوقوف على رغبات الأهالي، وأنه رأى أن يدعو الى مؤتمر سوري عام يمثل جميع مناطق سورية ليكون معبّراً عن رغبات جميع سورية بصورة جماعية ورسمية، ثم طلب من المؤتمر التداول ووضع القرار الذي فيه رغباتهم ومطالبهم.

اقتراحه تأليف لجنة لوضع مشروع دستور للدولة:

وقال إن هذا هو المطلوب من المؤتمر الآن، ومن المستحسن أن يؤلف المؤتمر قبل انفضاضه لجنة لتضع مشروع دستور للدولة السورية المأمولة.

مباراة الخطباء في الكلام بالدور وحسب ادارة الرئيس للجلسات:

وافتتح الرئيس المؤتمر بالدعوة الى مناقشة خطاب الأمير وتقرير ما يجب تقريره لعرضه على لجنة الاستفتاء، وأخذ المحسنون للكلام من الأعضاء يسجلون أسماءهم ويتكلمون كل في دوره بأسلوب منظم، وكان الرئيس حصيفا[1] قويا مالكا لزمام المؤتمر وجلساته ونظامه، وكنت مساعداً ناجحاً على ذلك ولا فخر.

كان هناك مسلمات لم يطل النقاش فيها وتقرر ما يقتضي فيها بسهولة مثل الاستقلال والوحدة وانكار دعاوى فرنسة ورفض وعد بلفور ودعاوى اليهود:

ولقد كان هناك أمور مسلم بها فلم تستغرق نقاشاً طويلاً مثل: الاستقلال التام والوحدة السورية بحدودها الطبيعية، ورفض وعد بلفور ودعاوى اليهود في فلسطين، والإصرار على عدم فصل فلسطين بخاصة عن سورية، وانكار كل دعوى ومطمح لفرنسة في أي ناحية من انحاء سورية، (فسجلت القرارات المناسبة في كل ذلك داخلة في نطاقه) لأنها راشدة تستطيع أن تقيم حكمها القومي الديمقراطي بدون ذلك، والاصرار على الاستقلال التام واحتفاظ الدولة السورية المستقلة بالاستعانة بمن تشاء في الأمور الفنية المتنوعة وحيث قيل: انه اذا تقبّل هذا، وأصرّ مؤتمر السلم على ذكر دولة منتدبة للمساعدة والإرشاد، فتكون الولايات المتحدة الاميركية التي أعلنت ان لا مطامع لها، والتي كان رئيسها دخل الحرب الى جانب الحلفاء على أساس مبادئه الأربعة عشر، التي

(1) حصيفاً: جيد الرأي محكم العقل.

منها الغاء كل المعاهدات والاتفاقات والوعود السرية والتخلي عن المطامع الاستعمارية والهيمنة بأي أسلوب على أي بلد وشعب، ومنح الشعوب حق تقرير مصيرها واحترام رغباتها، على شرط أن تكون المساعدة المطلوبة من الولايات المتحدة مساعدة فنية غير ماسة بأي شكل بالاستقلال الناجز التام، ومحدودة بعشرين سنة، وحيث تقرر أن تسمى بريطانيا لتكون مساعدة على نفس الشروط بسهولة وسرعة.

تقرير شكل الدولة المطلوبة تحت تاج الأمير فيصل:

ولقد استتبع قرار استقلال سورية موضوع شكل الحكم، فكان اقتراح بأن تكون مملكة تحت تاج الأمير فيصل لما كان من جهوده وجهاده في الثورة العربية وفي سبيل استقلال سورية، على أن تكون نيابية ديمقراطية يتساوى فيها الناس في الحقوق والواجبات على اختلاف الميول، والمذاهب والأديان. وقبل هذا الاقتراح بدون نقاش طويل أيضاً.

طول النقاش واحتدامه في صدد تسمية الدول المساعدة ودفاعي مع بعض الرفاق عن عدم التسمية:

ثم انتقل الكلام الى موضوع تسمية الدولة المساعدة التي كان لا بد من طرقه لأنه من صلب مهام لجنة الاستفتاء، وقد استغرق مدة طويلة وجرى نقاش طويل حاد أحياناً، ونوقشت عبر ذلك التيارات الثلاثة التي ذكرناها، ودافع أصحاب كل تيار عن فكرتهم وكنت أنا وآخرون عديدون ندافع عن التيار الأول.

التوفيق بين التيارات في رفض الانتداب وطلب المساعدة الفنية المحدودة من أميركا فإن لم تقبل تسمى بريطانيا مع رفض فرنسة:

وكانت حصيلة النقاش توفيقاً بين التيارات الثلاثة، حيث تقرر رفض (الانتداب) الذي عبر به عن المساعدة والارشاد، والاحتجاج على جعل سورية خاضعة للانتداب. فاذا لم تقبل الولايات المتحدة أن تكون هي الدولة المساعدة لأسباب ما، فبريطانيا التي حالفت العرب وكانت ثورتهم في سبيل استقلالهم وحريتهم مستندة لوعودها وعهودها ومساعدة منها. وتقرر رفض فرنسا رفضاً باتاً بأي شكل كان، لما كانت تعلنه جهاراً من مطامعها في السيطرة والهيمنة على بلاد سورية، ولما كان من مسيرتها الاستعمارية الاستبدادية القمعية البالغة السوء في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى.

الكلام على وجوب الوحدة بين بلاد العرب والوحدة الاقتصادية بخاصة بين سورية والعراق وتقرير تسجيل ذلك:

وتطرق بعض المتكلمين الى ما يربط بين سورية والبلاد العربية الأخرى من روابط قومية وروحية وتاريخية واقتصادية تمتد الى أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، وقالوا أنه يجب أن يذكر في القرار رغبة أهل سورية بأن يكون بينهم وبين هذه البلاد وبخاصة بين سورية والعراق الملاصقة لها، والتي كانت تعيش في جو واحد معها في زمن الدولة العثمانية والتي كان كثير من ضباطها مشتركاً في الثورة الهاشمية بقيادة فيصل، وحدة اقتصادية، وقد لقي هذا الكلام ارتياحاً، وتقرر دمج ذلك في القرار.

لجنة الصياغة التي كنت فيها وجهدي فيها:

ثم قرر المؤتمر تأليف لجنة لصياغة القرار

فتم ذلك، وكنت أنا ويوسف الحكيم وسعيد حيدر أعضاءها أو من أعضاءها، وكانت المسودة الأولى التي نوقشت في اللجنة من صياغتي، وبعد أن تم تركيزها في اللجنة عرضت على الاجتماع العام ونوقشت حتى تركزت في صيغتها النهائية المنشورة في مصادر عديدة.

وفد يمثل مناطق سورية لمقابلة اللجنة وتقديم القرار وكنت منه:

ثم انتخب المؤتمر من أعضائه خمسة من كل منطقة من المناطق الثلاثة غير الرئيس ونائبه وسكرتيره الذين عدوا أعضاء طبيعيين، لمقابلة اللجنة الاميركية التي كانت نازلة في فندق فيكتوريا على الجسر.

استقبال اللجنة واستقبالات أخرى لها:

وقد استقبلتهم اللجنة وتسلمت منهم القرار وطرحت بعض الأسئلة عن كيفية تأليف المؤتمر وتمثيله للأهالي في مذاهبهم وأديانهم وميولهم، وعن سبب رفضهم لفرنسا ورفضهم لوعد بلفور والدعاوى اليهودية، وطلبهم أن تكون سورية بحدودها الطبيعية الخ.. فكان الرئيس أحياناً وأنا أحياناً وبعض الأعضاء أحياناً يجيبون على اسئلتها، وكانت المقابلة في أوائل تموز 1919، وقد أحبت اللجنة أن تستقبل بعض رؤساء الدين النصارى والمسلمين واليهود من أهل سورية الداخلية وبالأحرى من دمشق، لأن هؤلاء كانوا في دمشق، فتقدم لها عناصر عديدة منهم وقدموا لها عرائض مماثلة أو مؤيدة للقرار وأجابوها على ما وجهته اليهم من اسئلة، وقالوا لها ان المؤتمر يمثل جميع انحاء سورية في الداخل والجنوب والغرب وفي مختلف فئاتها وأديانها.

لم أصوت أنا وبعض رفاقي على التسمية ودفاع عن القرار:

ومع اني وعددا آخر من رفاقي لم نصوت لأي اسم انسجاماً مع رأينا الأول على ما ذكرته سابقاً، فإن القرار لا يتضمن ما أريد غمزه به من الموافقة على مبدأ الانتداب، والوصاية لأميركا، وان لم تقبل فلبريطانيا، واذا كان الأمر في صدد الحجة الكلامية والعهدية فالقرار قد تحفظ كل التحفظ سواء على مبدأ الانتداب أم في رفضه لأية دولة، مع الرفض الصريح الصارم بالنسبة لفرنسة. وكل ما احتواه الموافقة على طلب المساعدة التي تحتاجها الدولة في المجال الفني والاقتصادي من أميركا، وإن لم تقبل فمن بريطانيا اذا كان لا بد من التسمية، مع التوكيد على أن ذلك لا يمس الاستقلال التام. ومن جهة ثانية فإن مسألة فلسطين ورفض وعد بلفور ودعاوى اليهود وهجرتهم وتوكيد كونها جزءاً من سورية المستقلة، كان كل ذلك في القرار قوياً صريحاً معبراً على رأي جميع أهل مناطق سورية ولم يكن في صدده أي شذوذ. وفي هذا رد على كل الدعاوى اليهودية بموافقة فيصل من قبله بشكل ما على مطالبهم، بقطع النظر عما في هذه الدعاوى من زيف، وقد قبل فيصل ذلك وصار ما قبله عدماً، ثم قبله ثانية حينما نودي به ملكاً حيث تضمن قرار المناداة به ملكاً، ذلك أيضاً.

لجنة لوضع مشروع الدستور وكنت منها:

ثم عقد المؤتمر جلسة خاصة لانتخاب لجنة لوضع مشروع دستور للمملكة السورية تحت تاج فيصل التي قررها وجعلها جزءاً من قراره، ووقع الاختيار عليّ وعلى هاشم الأتاسي وسعد الله الجابري والشيخ عبد القادر الكيلاني

ووصفي الأتاسي وابراهيم القاسم عبد الهادي وسعيد حيدر وعثمان سلطان والشيخ عبد العظيم الطرابلسي وتيودور أنطاكي، ولا أقول يقيناً إن هؤلاء هم فقط كانوا أعضاء اللجنة ولعلي نسيت بعضهم أو أخطأت في تسمية بعضهم.

قرار المجلس بوقف جلساته مؤقتاً وعودة معظم القادمين من الخارج عدا القادمين من المنطقة الافرنسية:

وبعد ذلك قرر المؤتمر وقف جلساته على أن يدعى حين تقتضي الظروف، وقد عاد معظم ممثلي فلسطين الى بلادهم، في حين أن جل أو كل ممثلي المنطقة الغربية المحتلة من قبل الإفرنسيين بقوا في دمشق لأنهم يعرفون أن السلطات الافرنسية تترصدهم وتبيت لهم الشر.

مرتبات للباقين في دمشق من الأعضاء وموارد سورية اذ ذاك:

وقد قرر الأمير بتوصية من رئيس المؤتمر ان يرتب للمضطرين للبقاء من ممثلي المنطقة الافرنسية ولأعضاء لجنة الدستور مرتباً مقداره ثلاثون جنيهاً استرلينياً، وكان هذا المبلغ يدفع بانتظام فيضمن نفقاتهم بشيء من اليسر. وكنت أنا الذي توليت دفع المخصصات لهم، وقد كانت الجمارك وحدة تجبى من قبل سلطات موحدة تابعة للقيادة العامة، وكانت القيادة العامة تدفع للحكومة السورية الفيصلية شهرياً مائة وخمسين ألف جنيه على حساب حصتها من هذه الجمارك، فكان هذا المبلغ مع ما تجنيه الحكومة السورية من ضرائب عقارات وأعشار وأراضي يضمن نفقاتها.

لجنة الدستور عقدت جلساتها في النادي العربي وانتخبت هاشم الأتاسي للرئاسة وأنا للسكرتيرية:

وقد اتخذت لجنة وضع الدستور غرفة في النادي العربي مقراً لها، وفي جلستها الأولى انتخبت هاشم الأتاسي رئيساً وانتخبني سكرتيراً، وقد استحضرنا دساتير كثيرة من بلاد عديدة لتستأنس بها في عملها، ومن جملتها الدستور العثماني.

قراءتي في سبيل المهمة ومشاركاتي في مهمتها:

وقد كانت سكرتيرية اللجنة فرصة لي فاستحضرت كتباً عديدة تركية في الحقوق على اختلاف فنونها وكنت أقرأها وأستفيد منها، ويكون من حصيلة ذلك عدة للمشاركة في البحث والدرس والتمحيص مع من كانوا متخرجين من مدارس الحقوق من أعضاء اللجنة مثل هاشم الأتاسي ووصفي الأتاسي وسعيد حيدر وعثمان سلطان.

تنويه بجهد وحسن محاكمات هاشم الأتاسي:

وأريد أن أنوه بخاصة بهاشم الأتاسي الذي كان هو الآخر يراجع كتباً حقوقية إفرنسية وتركية بالإضافة إلى دراساته الأولى، وكانت له آراء ومحاكمات سديدة وصائبة في تركيز مشروع الدستور، وهذا كان شأن سعيد حيدر وعثمان سلطان أيضاً.

طواف لجنة الاستفتاء في بعض أنحاء سورية الداخلية:

وذهبت اللجنة في رحلة استطلاعية إلى حمص وحماه وحلب، وتقدم لها رجال الحركة الوطنية بعرائض مؤيدة لقرار المؤتمر السوري، وللمؤتمر نفسه، وألقت بعض الأسئلة وتلقت

الأجوبة المناسبة المماثلة.

طواف لجنة الاستفتاء في لبنان:

وقد زارت اللجنة لبنان وحشدت السلطات الإفرنسية عملاءها وبذلت جهدها واستعملت مختلف الوسائل الدعائية والترهيبية في سبيل تسمية فرنسا وصية او منتدبة، كانت عرائض أكثرية النصارى تطلب أن يكون لبنان منفصلاً عن سورية مع ضم الأقضية راشيا وحاصبيا والبقاع وبعلبك على رغم أنها مسلوخة عن لبنان، ويكون بذلك لبنان الكبير، ومع طلب الوصاية والمساعدة من فرنسة. أما المسلمون فبرغم ما استعملته السلطات المحتلة من تلك الوسائل والأساليب، فإن أكثريتهم طلبت أن يكون لبنان مع سورية المستقلة بدون حماية أو وصاية.

مشاركة بعض النصارى وخاصة الأرثوذكس للمسلمين:

وشاركت بعض العناصر النصرانية وبخاصة بعض قطاعات الارثوذكس في ذلك.

دار الاعتماد العربي في بيروت وجهدها وأثر ذلك:

ونستطرد إلى القول بأن الحكومة العربية السورية كانت أوجدت في بيروت دار إعتماد عربية مقابل ما كان لفرنسة من مثل ذلك في دمشق، وكان المعتمد الأول جميل الألشي ثم بدل بيوسف العظمة، وكان الاثنان ضابطين، لأن المعتمد الإفرنسي في دمشق كان ضابطاً نتيجة لكون حالة الحكم عامة هي عسكرية، وكان يساعدهما رفيق التميمي. وكان المسلمون يعتبرون دار الإعتماد العربي في بيروت دارهم وسفارتهم وحكومتهم، وكانت تنشط وتبذل مختلف الجهود والوسائل لبث الدعاية العربية في الأوساط الإسلامية والنصرانية وبخاصة الأرثوذكس من هؤلاء، الذين كانت ميولهم أكثر للعروبة منها إلى الإفرنسيين، بسبب ما كان من خلاف مذهبي بينهم وبين الموارنة والكاثوليك الذين كانوا متحدين مذهباً مع فرنسة ومتشبعين بثقافتها، وكان لنشاط دار الإعتماد العربي أثر فيما كان من مواقف المسلمين وجماعات كثيرة من النصارى وبخاصة الأرثوذكس.

دار الإعتماد الإفرنسي في دمشق وجهدها وأثر ذلك:

ولقد نشطت دار الإعتماد الإفرنسي في دمشق بالمقابل، وكانت تبذل جهدها في إيجاد عملاء لفرنسة في سورية، وكان لذلك بعض الآثار حيث صار في سورية الداخية عملاء عديدون لفرنسا، حتى ان بعضهم قدم عرائض للجنة الإستفتاء بطلب شمول وصاية فرنسا لسورية الداخلية وإن كانوا قلة ضئيلة، وأصابت نجاحاً غير يسير في جبل الدروز حتى صار بعض زعمائهم مثل سليم الأطرش وعبد الغفار الأطرش يتظاهرون في صلاتهم وولائهم لفرنسة. واقتدى بعض زعماء آخرين من أسر أخرى بذلك، نتيجة لما كانت دار الإعتماد تقدمه من مكافآت، ثم صار يذهب بعض أقارب هؤلاء الزعماء وغيرهم إلى بيروت فتغدق عليهم السلطات الإفرنسية المال والثياب. واتسع الأمر حتى صرنا نرى المئات يذهبون أسبوعياً إلى بيروت ويعودون بالأموال والهدايا، ونسمع القصص العديدة عن ذلك. وقد حارت الحكومة السورية في الأمر وأرادت بذل جهد لمنع هذا السيل، وكلفت الأمير عادل إرسلان بمعالجة الحال، فبذل جهده ولكنه أخفق، لأن

الحكومة السورية لا تستطيع أن تجاري فرنسا فيما تقدمه، وقال إن ترك الأمر إلى أن يصل إلى نهايته هو الأولى. وسوف ينتهي من نفسه لأن فرنسا لا تستطيع أن تبقي خزانتها مفتوحة لسيل لا ينقطع، وقد كان الأمر كما قال، حيث صارت السلطات الإفرنسية تمسك يدها عن المتدفقين فيخف سيلهم ويظل الأمر محصوراً في الزعماء وأصحاب النشاط.

عدم زيارة اللجنة للعراق وأسباب ذلك قدوم عراقيين إلى حلب وتقديمهم عرائض بالإستقلال والوحدة ورفض الإنتداب والحماية:

ولم تزر اللجنة العراق، ولكن رجالاً عديدين من العراق جاءوا إلى حلب وقابلوها فيها على ما هو منطبع في ذهني، وقدموا لها عرائض تطالب بإستقلال ووحدة العراق مع وحدة اقتصادية مع سورية وتحتج على الإنتداب وأي نوع من أنواع الوصاية والحماية والهيمنة، والمتبادر أن اللجنة اكتفت بزيارة مناطق سورية الثلاث، لأنها هي التي كانت موضوع تشاد بين بريطانيا وفرنسا ثم بين فرنسا والأمير فيصل. ولما نكصت فرنسا وبريطانيا ومعهما إيطاليا عن إرسال ممثلين عنها أصرّت اللجنة بأن تعرف مدى رغائب هذه المناطق خاصة.

تقرير اللجنة:

ولقد قدمت اللجنة تقريرها للرئيس ويلسون لأنها بعثته الخاصة، ولم يعرض هذا التقرير على مؤتمر السلم، وقد بقي سراً نحو سنتين ثم أذيعت محتوياته أو بعضها، ونشرت مصادر عربية عديدة المذاع. وجاء ما نشر ملخصاً لما تسلمته اللجنة من عرائض وسمعته من مطالب ورغبات وهو إجمالاً في نطاق ما ذكرناه[1].

جهد لجنة الدستور وإتمامها مهمتها:

ولقد استمرت لجنة وضع الدستور في عملها وجهدها، وكانت تعقد جلساتها يومياً تقريباً حتى أكملت مشروع دستور يصلح أن يسمى دستوراً تقدمياً راقياً وهو منشور في مصادر عديدة[2].

مناقشة مشروع الدستور في المؤتمر وإقرار كثير من مواده وجهدي في المناقشة:

ولقد عرض هذا المشروع على المؤتمر بعد أن اجتمع للمرة الثالثة، وقرر إعلان إستقلال سورية التام بحدودها الطبيعية بملكية الأمير فيصل، وغدت المملكة السورية قائمة فعلاً. وقد اشتغل المؤتمر في الدرجة الأولى في مناقشة مشروع الدستور واقر كثيراً من مواده، وكان لي وللشيخ سعيد مراد وسعيد حيدر بخاصة مناقشات واسعة، وكنت أنا بخاصة أتولى الرد على بعض الإعتراضات على بعض المواد وأشرح منطلقات اللجنة فيما وضعت من حيث إني سكرتير لجنة الدستور.

موضوع حقوق المرأة في نقاش المؤتمر وما انتهى إليه:

وقد أخذ موضوع حقوق المرأة في الدولة حيزاً كبيراً ، وكان للشيخ سعيد مراد (الغزي) مواقف إيجابية قوية في صدد تثبيت حقوقها وحريتها ومساواتها في الدولة، وكان للتقليديين مواقف مضادة ولكنها كانت تهزم امام الحجج

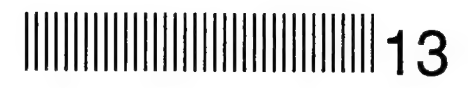
---

(1) من آخر المصادر التي قرأنا فيها التقرير المذاع كتاب الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية لحسن الحكيم.

(2) اقرأ مثلاً كتاب الحكومة العربية السورية 1919 ـ 1920 للدكتورة خيرية قاسمية.

القوية من جهة، وكانت كثرة الشباب والمتفتحين في المؤتمر مساعدة على ذلك من جهة أخرى. ولولا أننا لاحظنا أن ظروف البلاد السياسية لا تتحمل هزة شديدة في الشعب يثيرها الرجعيون لأمكن إقرار مساواتها مع الرجل في الحقوق والواجبات السياسية والمدنية والانتخابية والتمثيل وأهليتها لذلك، فاكتفينا بإبراز ذلك وتسجيله في المحاضر، ولم يمكن إتمام مناقشة المشروع لأن الموقف السياسي تأزم بسبب الإنذار الإفرنسي فأوقفت الحكومة جلسات المؤتمر في أوائل تموز 1920، والمواد المنشورة في المصادر للدستور هي مواد المشروع وليست المواد المقررة، أو هي مزيجة مما تقرر ومما بقي مشروعاً.

***



13 عودة إلى الكلام عن جمعية الفتاة وتنويه بمدى بروز الجمعية أثناء عهد فيصل ونشاط هيئتها:

ولقد نشطت جمعية الفتاة في عهد فيصل نشاطاً عظيماً وبرزت بروزاً كبيراً، ولقد كان الأمير فيصل وبطانته وموظفو قصره منها، كما كان منها الحاكم العسكري العام علي رضا الركابي الذي كان بمثابة رئيس الحكومة، وياسين الهاشمي رئيس مجلس الشورى وهما من أبرز وأقوى شخصيات العهد بعد الأمير، وكان منها بالإضافة إلى هؤلاء بعض كبار موظفي الدولة وكثير من أعضاء المؤتمر السوري، بحيث صارت تعتبر حزب عهد فيصل وعماده، وكانت الدولة بأميرها ورؤسائها يعتبرونها كذلك ويتعاملون معها على هذا الإعتبار، بحيث لم يكن يقضي أمراً ويهم بعمل أو يصدر أمراً ويعين موظفاً كبيراً إلا وكان لها رأي أو يد فيه أو علم مسبق به.

وكانت تتقدم بالاقتراحات وتبلغ القرارات ويطلب منها الرأي في شتى الشؤون السياسية والإدارية والتنظيمية، ومن ذلك ترشيح الموظفين الصالحين وبخاصة كبارهم. وكانت تبليغاتها أو قراراتها وآراءها وترشيحاتها تلقى التجاوب على الأعم الأغلب، وكان أعضاء الجمعية في قصر فيصل ودوائر الحكومة أعواناً لها على تنفيذ قراراتها وتبليغاتها وترشيحاتها وتوجيه الأمور في الإتجاه الذي تقرره، ثم على إبلاغها ما يطرأ ويحدث من شؤون سياسية وغير

سياسية لتتخذ إزاءها الموقف اللازم.

ولقد بقي عدد من أعضائها القدامى خارج منطقة فيصل في الغرب والجنوب، فكانت الهيأة المركزية تتصل بهم وتجعل منهم معتمدين لها يرسلون لها بتقارير مما يحدث في منطقتهم أو بما يرونه من اقتراحات، وترسل إليهم تبليغاتها وأخبار العهد وسيره وتوجههم في القضايا المطروحة في الوجهة الصالحة التي تقررها. وقد مرّ ذكر مثل لذلك بالدكتور حافظ كنعان في نابلس ونشاطه.

ولقد أنشأت الهيئة المركزية فروعاً لها في أنحاء سورية واعتمدت معتمدين من أعضائها ليكونوا على رأس هذه الفروع ترسل لهم الأخبار والتبليغات وتتلقى منهم التقارير في صدد ما يجري في مناطقهم، وأنشأت كذلك دائرة دعاية أو إستخبارات وفروعاً أو وكالات لها في مختلف أنحاء المناطق السورية، وعهدت بإدارته إلى معتمدين نشيطين من أعضائها، وكانت بدورها تغذيها بالأخبار والتوجيهات وتتلقى منها التقارير في صدد ما يجري في مناطقها، ولقد كان الأمير يمنح الهيئة المركزية منحاً نقدية من آن لآخر مما كان يرد إليه مباشرة من قيادة الحلفاء العامة على حساب الجمارك على ما ذكرناه قبل، فكان ذلك مما يساعدها على ما كانت تبذله من جهد وتمارسه من نشاط متنوع داخلياً وخارجياً وسياسياً وغير سياسي.

جهد هيئتها في ضم المواطنين الصالحين وإبعاد غير الصالحين:

وانسجاماً مع اعتبار الجمعية نفسها حزب عهد فيصل وعماده إهتمت لضم كبار الموظفين في دوائر الحكومة لعضويتها إذا ما تأكدت من أهليتهم الأخلاقية وإخلاصهم وخبرتهم وروحهم القومية، كما اهتمت لإبعاد من كان منهم في الحكم إمتداداً لسابق عهد عن الحكم ولم يكن أهلًا في أخلاقه وإخلاصه وخبرته وروحه القومية، واستبدال غيرهم بهم بعد أن تضم البديلين اليها. وبذلك ضمنت أو أرادت أن تضمن الهيمنة على دوائر الحكومة من جهة الولاء لها من هذه الدوائر وتنفيذ قراراتها وتوجيهاتها ووجود العناصر الصالحة في أخلاقها وخبرتها من جهة أخرى. وكان أحياناً يرشح للمناصب المهمة الوزارية وغير الوزارية أشخاص من جانب الأمير أو من جانب رؤساء الدوائر أو من جانب من له اعتبار أو بسبب ما لهم من وجاهة ومكانة وبروز وعلم وخبره. فكانت تجتهد في ضمه إليها قبل تعيينه إذا إطمأنت إلى صفاته وتبذل جهدها في سحب ترشيحه إذا لم تطمئن إلى صفاته وتنجح في الأعم الأغلب. بالإضافة إلى كل هذا فقد اهتمت لضم من كانت تراه صالحاً في أخلاقه وشعوره ومكانته وعلمه وروحه القومية من أعضاء المؤتمر السوري وغيرهم ممن كان يفد إلى دمشق، سواء الذين كانوا موظفين وضباطاً في الحكومة العثمانية خارج سورية، أم الذين جاءوا من بلاد عربية أخرى ليندمجوا في نشاط العهد الفيصلي الذي كان عنواناً للحركة العربية القومية، والظرف الذي كان يتحرك فيه رجال هذه الحركة بحرية وأمن، ومنهم من كان يعين في وظائف الدولة ومنهم من يبقى خارجها وينشط مع الناشطين الآخرين.

طريقة الضم هي الطريقة الأولى:

وكان ضم الأعضاء الجدد يجري على النهج الذي شرحناه قبل، حيث يرشح الشخص من قبل من يعرفه من اعضاء الهيئة او الأعضاء

القدامى، فتعين الهيئة من يدرس احواله ثم من يفاتحه ثم من يأخذ منه يمين الإخلاص للجمعية واهدافها وقراراتها وأسرارها، وظل مع ذلك الأعضاء القدامى اي المنتسبين قبل نهاية الحرب يعتبرون انفسهم كما قلنا المؤسسين ويحصرون في أنفسهم شهود الاجتماعات العامة والاشتراك في النقاش في الأمور الهامة واتخاذ القرارات الحاسمة فيها وانتخاب الهيأة المركزية.

جهدي الخاص في ضم الأعضاء الجدد:

ولقد ساهمت شخصياً مساهمة فعالة وتنفيذية في كل ما تقدم، لأني شغلت عضوية الهيئة المركزية وسكرتيريتها نحو عشرة أشهر من آب 1919 الى مارس 1920 على دورتين متتاليتين.

الهيئة السابقة لهيئتنا:

وكانت الهيئة التي قبل هيئتنا مؤلفة كما قلت سابقاً من الركابي والهاشهي والناطور واحمد قدري ورفيق التميمي ونسيب البكري، ولست على يقين ان كانت هذه الهيئة هي اولى الهيئات التي قامت بعد دخول فيصل او الثانية، ثم جاءت الهيئتان التي كنت فيهما متواليتين، مرة استمرت من آب 1919 الى تشرين الثاني 1919، ومرة من تشرين الثاني 1919 الى مارس 1920.

ولقد كانت عضوية الهيئة مطمحا مهما للنشيطين أو الأقوياء او الراغبين في البروز، فكان هذا يحدوهم للعمل على تجديد الانتخاب في أي فرصة مناسبة، حيث كانوا يطلبون عقد اجتماع عام للمؤسسين فيتناقشون في الأوضاع ويوجهون للهيئة القائمة انتقاداتهم ويقررون تجديد الانتخاب.

وقد انتخبت الهيئة التي دخلت فيها لأول مرة نتيجة لاجتماع عام ومناقشة عامة وقرار بالتجديد، وقد فزت انا وياسين الهاشمي والدكتور أحمد قدري ورفيق التميمي واحمد مريود وشكري القوتلي وسعيد حيدر بدلا عن الهيأة التي كان فيها الركابي. وفي تشرين الثاني 1919 دعا المؤسسون بناء على اقتراح قدم من قبل عدد من الأعضاء الى اجتماع عام وجرت مناقشة عامة وجرت بعض الانتقادات كالعادة وتقرر تجديد الانتخاب، ولكن هيئتنا احتفظت بمركزها للمرة الثانية نتيجة للأجوبة الدفاعية والتوضيحية التي أجيب بها المنتقدون والتي كانت مفحمة قوية والتي كنت ولا فخر من اقوى المجيبين، وكان ياسين الهاشمي قد اعتقل من قبل الانكليز ونفي الى الرملة على ما أشرنا اليه قبلا فحل محله الشيخ كامل القصاب اذا لم تخنّي الذاكرة.

سقوط هيئتنا بجهد الركابي وقيام هيئة جديدة محلنا الى آخر العهد:

وفي نيسان 1920 دعي المؤسسون الى اجتماع في بيت الركابي بناء على طلب من بعض الأعضاء كالعادة، وتناقشوا في الأمور الجارية، ووجه الى الهيأة انتقادات ثم تقرر بالأكثرية تجديد الانتخاب فسقطت هيأتنا وفاز كل من الركابي واحمد الحسيني وجميل مردم بك ونسيب البكري وسليم عبد الرحمن ومحمد الشريقي واثنان أو ثلاثة آخرون لم اعد اذكرهم.

وقد شرحت خلفيات هذا التجديد والسقوط في الكلمة التي كتبتها عن الركابي فلا ضرورة لشرح جديد، وقد ظلت هذه الهيأة قائمة الى

سقوط عهد فيصل بالغزوة الافرنسية، وكان يتولى السكرتيرية فيها محمد الشريقي، وأمانة الصندوق جميل مردم بك. اما في الدورتين السابقتين فكنت انا المتولي للسكرتيرية وشكري القوتلي لأمانة الصندوق. وقد سلمت للشريقي ما عندي من سجلات وأوراق، وسلّم شكري لجميل ما عنده من مال وكان نحو (16000) جنيه وكان ذلك في حضوري في بيت شكري.

ولقد اخطأ امين سعيد فيما ذكره في الجزء الثاني من كتابه «الثورة العربية» في تاريخ وظروف استقالة هيأتنا، فلم يذكر اولا اننا قضينا دورتين متواليتين، وذكر في مكان اننا استقلنا في 20 مارس 1920، فجاءت الهيئة التي فيها الركابي، وفي مكان آخر اننا اسقطنا في أواخر كانون الثاني 1920 لأن فيصل تذمر من معارضتنا للاتفاقية التي عقدها مع كليمنصو، فاقترح الركابي اسقاطنا وتم ذلك. وجاءت الهيئة التي فيها الركابي، وأمين سعيد غير دقيق بل واحياناً غير أمين فيما يكتب، والحقيقة هي ما شرحته آنفاً وفي الكلمة التي كتبتها عن الركابي معاً.

ولقد عقدت الهيئة المركزية بعد انتخابها في الدورة الأولى اول اجتماع لها في بيت شكري القوتلي، فاختارتني سكرتيراً واختارت شكري امينا للصندوق، واستلم شكري ما في عهدة الأمين السابق من مال واظن انه كان في حدود عشرة آلاف جنيه، وكان الأمين رفيق التميمي فيما بقي في ذهني.

جهدي في تنظيم أمور وتسجيلات الهيئة:

واستلمت انا من السكرتير ما في حوزته من أوراق، وكان توفيق الناطور، ولم يكن عند الناطور شيء مهم من أوراق وسجلات، وقد أنشأت سجلات سجلت فيها اسماء الأعضاء القدامى والجدد وشيئاً عن احوالهم وحياتهم وظروف وتاريخ انتسابهم، وصرت احتفظ بما يرد من أوراق ويصوّر وينسخ ما أرسله من كتب وتبليغات، وأسجل محضراً لجلسات الهيأة وقراراتها واخذ توقيعات الأعضاء عليها، وكنت استعمل الشفرة الحرفية في تسجيل الرسائل والقرارات المهمة، وهذه الشفرة وضعتها الهيأة المركزية المؤسسة الأولى وظلت تستعملها، ثم استعملتها الهيئة التي خلفتها في أول عهد فيصل، وقد نسيت الحروف، ورأيت أمين سعيد يذكرها في الجزء الثاني من كتابه «الثورة العربية الكبرى» وتذكرتها وأظن أنها هي وهذا ترتيبها (ب ز غ ف ج ر و ط ن ك م ت ل ع ض د ش خ ص أ ح ي ث ق ت ط ذ س) وتحفظ بكلمات (بزغ فجر وطنك. مت لعضد شخص أحي ثقة طدس). ويقابل كل حرف حرفا من الأبجدية العربية بالتسلسل مع تسلسل حروف الشفرة كالألف في الأبجدية هو باء في الشفرة والباء هي ز في الشفرة وهكذا.

بيتي صار مقراً لاجتماعات الهيئة:

ولقد كانت الهيئة السابقة لنا تعقد اجتماعاتها متنقلة في بيوت أعضائها، فرأت هيأتنا ان يكون مركز مستقر، فطلبت مني ان استأجر بيتا وأفرشه فيكون لي مسكنا ولها مركزا، وقد استأجرت بيتا شاميا صغيرا في حارة دك الباب في الصالحية وفرشته فرشا بسيطا وكان من طابقين مختصرين، في الأول حوض ماء في طرف وغرفة طعام ومطبخ وبيت ماء، ثم درج على الثاني فيه غرفتان بينهما ردهة مكشوفة، وصرنا نعقد اجتماعاتها في الأمسيات بعد المغرب أسبوعياً، فإذا كان أمر هام اجتمعنا نهاراً وأكثر

من مرة في الأسبوع، وكنا أحياناً نعقد اجتماعاتنا المسائية يومياً في الظروف الهامة والعصيبة.

مدى مركز سكرتير الهيئة وديمقراطية الاجتماعات والقيادة الجماعية:

وسكرتير الهيئة هو كاتب للمحضر ومنفذ للقرارات وداع للاجتماعات ومنظم لها وليس رئيساً أو صاحب الهيمنة كما هو الحال اليوم في الأحزاب الشيوعية وغيرها، ولم يكن للهيئة رئيس وإنما كانت قيادة جماعية ديمقراطية تناقش المسائل وتتخذ القرارات بالأكثرية اذا لم يمكن بالاجماع، وتخضع الأقلية للأكثرية بدون حرد وشغب، ويظل للأقلية الحق في إثارة اعتراضاتها داخل الهيئة أو داخل الاجتماعات العامة للمؤسسين التي كانت هي الأخرى بدون رئيس وقيادة جماعية وديمقراطية، تناقش المسائل وتتخذ القرارات بالأكثرية اذا لم يكن بالإجماع، تخضع الأقلية للاكثرية وتحفظ بالحق في إثارة اعتراضاتها في اجتماعات عامة اخرى دون تمرد وحرد وتخريب، وحينما تجتمع الهيئة يقترح أحد الأعضاء اسم أحد زملائه ليكون رئيسا للجلسة وضابطا لها، وهذا ما كان يحدث في اجتماعات المؤسسين العامة وتنتهي رئاسة الرئيس بانتهاء الجلسة والاجتماع العام.

ولقد قلت قبلاً إن المؤسسين في اجتماعهم الأول الذي عقدوه قبل قدومي قرروا وجوب ضم العناصر الصالحة في اخلاقها ونشاطها وثقافتها وخبرتها واخلاصها وجدها الى الجمعية، حيث يظل الدم قوياً متجدداً يمد بعضه بعضا وفق المنهج السابق الذي شرحته والذي ظل معتمداً كما قلت، وقد ضمت الهيئة او الهيئات السابقة لهيأتنا عددا من الأشخاص، وسرنا نحن على الطريق وضممنا عددا أكبر آخر، لأن مدتنا طالت نحو عشرة اشهر، وكان لي رأي وسعي في عدد غير قليل نتيجة اختياري لهم واحتكاكي بهم، وممن ضم الى الجمعية في عهد فيصل الذي استمر من تشرين الأول 1918 الى تموز 1920 على ما وعته الذاكرة وبدون التزام تاريخ الانتساب وترتيبه:

أسماء الأعضاء الذين ضموا الى الجمعية في عهد فيصل:

هاشم الأتاسي، وصفي الأتاسي، ابراهيم هنانو، صبحي بركات، نبيه العظمة، يوسف العظمة، عادل العظمة، رشيد طليع، سعيد طليع، رضا الصلح، رياض الصلح، عفيف الصلح، عادل ارسلان، امين ارسلان، ساطع الحصري، احسان الجابري، طه الهاشمي، جميل الألشي، فوزي الغزي، ناجي السويدي، جعفر العسكري، خالد الشهابي، عبد الرحمن شهبندر، رشيد رضا، صبحي الطويل، يوسف ياسين، عمر فرحات، سامي العظم، علاء الدين الدروبي، جلال زهدي، احمد حلمي عبد الباقي، محمد علي دروزة، الحاج امين الحسيني، عبد الستار السندروسي، محمد النحاس، إبراهيم مجاهد، رضا الرفاعي، نجيب الارمنازي، مصطفى الغلاييني، محمد الخيّر، عارف العارف، توفيق الشيشكلي، محمد البارودي، عبد الحميد القلطقجي، سعيد الحسيني، عبد اللطيف صلاح، عارف الخطيب، توفيق الحياني، محمود الفاعور، توفيق البيسار، عارف نكد، يوسف حيدر، مصطفى الشهابي، زكي الخطيب، تامر حمادة، زكي قدري، أمين التميمي، محي الدين صادق، رشيد بقدونس، مصطفى نعمه، يحيى حياتي، حسن الحكيم،

حسني البرازي، خير الدين الزركلي، عبد القادر الكيلاني، هاني أبو مصلح، صبحي حيدر، مظهر رسلان، صالح قنباز، أحمد اللحام، ومن الممكن أن يكون هناك أسماء نسيتها.

تنويه بالأعضاء الجدد ونشاطهم في عهد فيصل وبعده:

ولقد كان لكثير منهم نشاط مركز وبروز وخدمات هامة في العهد الفيصلي وبعده، وصاروا بعده عماداً للجمعية وعنواناً من عناوينها بدون اعتبار قديم وجديد، وكثير منهم عرف بعضهم بعضاً بصفة الأخوة في الجمعية، وكانوا أخوة متصادقين متواثقين متحابين متعاونين في مختلف الظروف والمواقف في العهد الفيصلي وبعده الى آخر حياتهم. وهكذا انضم حشد عظيم من خيرة رجال العرب شباب وكهول الى ذلك الحشد العظيم الذي كان انتسب الى الجمعية في زمن الدولة العثمانية وقبل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها، وازدادت بذلك رائدية هذه الجمعية في المجال التنظيمي والقومي ولقد عرفتهم جميعاً.

صلتي بهم وأسماء من تواثقت معهم تواثقاً صميماً وشيء عنهم:

وكان بيني وبينهم صلة وصداقة، وكنت أحظى ولا فخر بتقديرهم واعجابهم بقطع النظر عن ما كان بيني وبين بعضهم من فارق السن أو خلاف في بعض المواقف والأفكار.

ولقد كنت ألتقي بكثير منهم بعد عهد فيصل في فلسطين وشرق الأردن ودمشق وبيروت وبغداد في مناسبات متنوعة فيكون اللقاء حاراً أخوياً بدون كلفة وتكلف، وتعاونت مع كثير منهم في مؤتمرات وأعمال ومواقف متنوعة بهذه الروح، وقد توثقت صلة وصداقة حميمة بيني وبين عدد منهم كما كان الشأن بيني وبين عدد من القدامى، منهم من سبق أن كتبت انطباعاتي عنهم وصلاتي بهم وما كان من تعاون معهم وشيء عن سيرتهم، مثل نبيه العظمة وعادل العظمة ورياض الصلح وعفيف الصلح ورشيد رضا والحاج أمين الحسيني وعارف العارف وأمين التميمي.

شيء عن ساطع الحصري:

وممن توثقت الصلة والصداقة الحميمة بيني وبينهم ولم يسبق ذكر شيء عنهم ساطع الحصري، وهو أسن مني بنحو سبع سنين، وكان شديد النشاط والذكاء ميالاً للشؤون التعليمية والتربية، وقد برز وسطع نجمه في زمن الدولة العثمانية بعد إعلان الدستور، حتى لقد أنشأ مدرسة نموذجية كان لها اسم وشهرة. وألّف كتباً مدرسية عديدة بالتركية كانت تدرس في مدارس الحكومة، ولقد نشأ في البلاد التركية وكانت لغته العربية ضعيفة حينما جاء من الأستانة الى دمشق عقب دخول فيصل، فبذل جهده حتى أتقنها قراءة وكتابة ونحواً وصرفاً، غير أنه كان يلكن فيها بلكنة تركية، وكان يجيد الإفرنسية، وكان ذا اطلاع واسع وثقافة واسعة، وهو شديدة الاستقامة شديد التصلب في رأيه شديد الجرأة في قول ما يراه حقاً والثبات عليه، شديد النشاط في سبيل إنجاز ما يعهد إليه أو ما يريد انجازه، منظم منضبط جاد قليل اللهو والعبث والمزاح. وحينما جاء من الأستانة عهد اليه بمديرية التعليم في الحكم العسكري وحكومة المديرين. ثم اختير لوزارة التعليم والتربية وكانت تسمى (المعارف) في العهد الفيصلي الاستقلالي الذي بدأ في أوائل شهر مارس 1920، فبذل جهوداً عظيمة في سبيل

إنشاء مديرية ثم وزارة المعارف وأجهزتها وبرامج التعليم على أسس علمية وقومية معاً، وقد انعقدت صلة الصداقة بيني وبينه في هذا العهد واستمرت بعد سقوط الشام بل الى آخر حياته، وهو شديد التمسك بآرائه سريع الانفصال عن العمل الرسمي إذا لم يسر وفق ما يرسم ويخطط ويرضى. ولما سقط عهد فيصل خرج مع من خرج وذهب الى أوروبا مع فيصل، ولما رشح فيصل لملكية العراق وتم الأمر وذهب الى العراق ذهب معه. وعمل في عهد فيصل في العراق بنفس النشاط الذي عمل به في عهده السوري، ولا أعرف يقيناً ما هي الوظائف الرسمية التي تقلدها في عهد العراق، ولكنه أرسل الي في سنة 1923 رسالة يدعوني فيها الى العراق لأشارك في تركيز العهد في أي عمل أقترحه ويناسبني، حيث يفيد هذا انه كان له مركز قوة تنفيذي ما. وقد انفصل عنه كعادته فترة وأصدر مجلة للتربية ونشر لي فيها مخطوطة (القسم النظري من كتاب دروس في فن التربية) التي كنت نقلتها عن الافرنسية على ما ذكرت سابقاً.

وظلت الصداقة الحميمة على بعد، وكنا نلتقي فتتجدد، وقد أخرجته حكومة العراق بعد ثورة رشيد عالي سنة 1941 مع من أخرجتهم أو طاردتهم من رجالات سورية وفلسطين بتهمة ضلوعهم في الثورة بعد نجاح الانكليز في قمعها ودعوة الملك فيصل الثاني ووصية الأمير عبد الاله ونوري السعيد الذين كانوا فروا من بغداد عند اندلاع الثورة وسحبت منه الجنسية العراقية فجاء الى سورية. وبعد قليل قام عهد استقلالي جديد برئاسة شكري القوتلي، فكلّف من حكومة العهد بتركيز مناهج التعليم، فانصرف لذلك مدة ووضع مناهج وأنظمة جديدة. وكنت آنذاك في تركية حيث نزحت إليها فراراً من الغزوة الإنكليزية الديغولية، ولما رجعت في أواخر سنة 1945 التقيت به وجددنا عهد صداقتنا، وكان يُزورني دائماً.

وبعد نكبة قيام الدولة اليهودية وهزيمة الجيوش العربية أمام القوات الاسرائيلية ذهب الى مصر وأخذ يكتب ويحاضر في القومية العربية والوحدة العربية، وطار صيته وازدادت حرمته، واقترح على الجامعة العربية إنشاء معهد الدراسات العربية العليا فاستجابت له وتم إنشاؤها وتولى مديريتها وازدهرت في عهده، ثم تخلّى عنها لاختلاف قام بينه وبين الجامعة. وعاد يكتب ويحاضر، وصدرت له كتب كثيرة في القومية العربية والوحدة العربية والأحزاب والاقليمية وغيرها، ومن كتبه الجيدة كتاب (يوم ميسلون) الذي شرح فيه كثيراً من أحداث العهد الفيصلي وبخاصة ظروف الانذار والغزو الافرنسي، وأورد فيه وثائق كثيرة عائدة الى ذلك، وملأ الأسماع والأذهان بعلمه ونشاطه وجدله ودعوته الى القومية والوحدة، وصار من أبرز الشخصيات العربية العلمية والفكرية، والتقيت به سنة 1953 مرة في حمانا حيث كان يصيف في الفالوغا، وجاء الى زيارتي في فندق حمانا لما علم بوجودي، ثم التقيت به في دمشق سنة 1955 حيث جاء اليها زائراً وزارني. وكان هذا آخر عهدي به عيانا، ولكن ظللنا نكن لبعضنا المودة والحرمة، وقد أعادت حكومة العراق إليه جنسيته وراتبه التقاعدي ومات على ما يرد الى ذهني في الستينات رحمة الله عليه.

شيء عن الأمير عادل أرسلان:

ومنهم الأمير عادل أرسلان، وهو أخو الأمير شكيب وأصغر منه، ويمكن أن يكون من سني،

وكان ذكياً ألمعياً نشيطاًمقداماً طموحاً وكاتباً وشاعراً حتى صار الناس يلقبونه بعد اشتراكه في الثورة السورية (أمير السيف والقلم)، وكان حاضر البديهة ميالاً للتنكيت المرح المقبول، وقد برز مبكراً حتى انه انتخب نائباً للمجلس النيابي العثماني عن جبل لبنان أثناء الحرب، وبعد أن ألغت الحكومة العثمانية امتيازات الجبل وصارت تطبق عليه قوانينها. بقي محتفظاً بنيابته الى آخر حكم الدولة العثمانية. وبعد دخول فيصل الشام جاء الى دمشق ولم يلبث أن صار من رجال الملك فيصل ومستشاراً من مستشاريه، وكان يرسله في بعض المهام الى قيادة الحلفاء العامة في فلسطين. وقد تعرفنا به بعد قليل من قدومنا الى دمشق وتوثقت الصداقة بيننا واستمرت وثيقة طيلة العهد، وخرج معنا من دمشق حينما غزتها فرنسا، وكان ممن حكمت عليهم بالاعدام من رجالات العهد، وفي الكسوة افترقنا، ثم ذهب الى عمان مع بعض رجالات العهد السوريين والعراقيين، وذهبنا الى فلسطين. وبعد مدة دعيت الى عمان للانضمام اليهم حينما قدم الأمير عبد الله، فالتقينا به وقضينا معاً نحو شهر لأني لم أقم أكثر من ذلك، وعدت الى فلسطين لأمثل نابلس في المؤتمر الرابع وأستلم مديرية مدرسة النجاح، وصار هو من رجال عبد الله ومستشاريه. وقد اختلف معه ومع اخوانه الاستقلاليين فشكاهم عبد الله لأبيه واستدعاهم هذا الى الحجاز وظلوا شبه منفيين فيها الى قبيل سقوط العرش الهاشمي في سنة 1924، فذهب من الحجاز الى مصر وتردد على أوروبا وفلسطين، وكان ينشط مع الناشطين في سبيل القضايا العربية عامة وسورية خاصة، وكثرت لقاءاتنا في فلسطين.

ولما نشبت ثورة سورية الكبرى سنة 1925 وتولى قيادتها سلطان الأطرش انضم اليه وصار مستشاره السياسي الى أن توقفت الثورة في سنة 1927، فعاد الى فلسطين وصار يتردد على مصر وأوروبا الى أن تم الاتفاق بين سورية وفرنسة ووقعت معاهدة الاستقلال سنة 1936 ذهب الى دمشق سنة 1937، وأخذ ينشط في العهد الجديد دون عمل رسمي.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية لجأ الى تركية لأن الافرنسيين والانكليز كانوا يطاردون ويعتقلون من يعرفون عداءهم لهم. وكنا نحن أيضاً قد لجأنا اليها فكثرت لقاءاتنا وتوثقت صداقتنا. وعاد الى سورية بعد الحرب، وعهد اليه القوتلي بوزارة المعارف، وكان عضواً في الوفد السوري الى هيئة الأمم المتحدة 1947. ولما قام حسني الزعيم بالانقلاب السوري الأول ضد حكم ورئاسة القوتلي سنة 1949 طلب منه أن يكون مستشاراً له ففعل، وصار وزيراً للخارجية ثم نائباً لرئيس الوزراء، وعد الناس وأصدقاؤه في الجملة هذا منه سقطة وإنها لكذلك. وادعى هو في معرض الدفاع أنه قبل ليكون كابحاً لحماقات الزعيم، وكان تبريراً غير سليم. وحينما ثار سامي الحناوي على الزعيم وأسقط حكمه وقتله في سنة 1950 ذهب الى بيروت واعتكف حتى توفاه الله في سنة 1950 رحمة الله عليه.

شيء عن إحسان الجابري:

ومنهم إحسان الجابري، وهو اسنّ مني بنحو عشر سنين أو أكثر، وأخو سعد الله الجابري الذي كتبنا عنه شيئاً من قبل. وكان في شبابه كاتباً أو مأمور مراسم في قصر السلطان عبد الحميد، وكان حسن التنظيم حسن السيرة، وقد كان في الآستانة حينما قام العهد الفيصلي،

فقدم الى دمشق وصار من رجال قصر فيصل أو كبير الأمناء فيه. وتعرفنا به بعد قدومنا بقليل، وقامت صداقة حميمة بيننا، وظلت كذلك طيلة عهد فيصل. ولم يكن له نشاط سياسي كأخيه، وكان مقيداً بالأمير ثم بالملك فيصل، ولما غزا الافرنسيون دمشق خرج مع فيصل والآخرين وأقام قليلاً في مصر ثم ذهب الى أوروبا وصار ينشط في سبيل قضية سورية وفلسطين معاً مع الأمير شكيب أرسلان في سويسرا نشاطاً مشكوراً.

وكان يأتي الى فلسطين مرة بعد مرة فتتجدد صداقتنا وعهدنا. ولما أقمنا في دمشق منذ أواخر 1937 صرنا نلتقي كذلك، وفي أثناء الحرب بقي في حلب، ثم أخذ ينشط في العهد الاستقلالي الجديد الذي قام سنة 1943، وبعد وفاة أخيه سنة 1947 صار ينتخب نائباً في المجلس النيابي السوري عن حلب. وقد تعاونا في المسعى في سبيل الوحدة السورية المصرية في سنة 1956، ولما تمت الوحدة وقرت عيناه بها اتخذ مصر دار إقامة، وكان يزور دمشق وحلب حيناً بعد حين فيزورني وأزوره في الفندق ويتجدد عهد صداقتنا. وقد توفي سنة 1979 في القاهرة ودفن في حلب رحمة الله عليه.

شيء عن أحمد حلمي عبد الباقي:

ومنهم أحمد حلمي عبد الباقي ويعرف دائماً بلقب (باشا)، وهو ارناؤوطي الجنس تركي النشأة ومستعرب وأسن مني ببضع سنين، وكان أبوه ضابطاً أو موظفاً في جنين وأظنه ولد فيها والله أعلم، وتثقف ثقافة تركية وعربية حسنة وصار يحسن الكلام والكتابة في اللغتين ويشدو بأدبهما، وله خط جميل ولا أعرف أين تعلم، ولكنه لم يكن على ما أعلم يحمل إجازة جامعية، وأول ما رأيته في نابلس حيث كان مديراً للبنك الزراعي وكان ممن وشى بهم ياسين الطلوزي قبيل الدستور كما أوردنا في الجزء الأول من مذكراتنا هذه، ونفي مع بعض رفاقه حيث يفيد هذا أنه كان ذا نزعة الى الحرية والسياسة. وبعد إعلان الدستور اندمج في جمعية الاتحاد والترقي وناديها في نابلس، وهناك تعرفت به، وقد ظل مديراً للبنك الزراعي ومندمجاً في الجمعية والنادي الى آخر العهد العثماني، ولم أسمع عنه أي شيء ضد الحركة العربية ورجالها. وبعد انتهاء عهد العثمانيين وقيام عهد فيصل في دمشق جاء الى دمشق وأهّلته خبرته المالية والتنظيمية وثقافته وحسن سمعته لتولي مناصب مالية في عهد فيصل أي عهد الحكم العسكري والعهد الاستقلالي، وعرف بشدة استقامته ونزاهته ونزعته الإسلامية ومحبته للعرب وجده ونشاطه، فقررت الجمعية ضمه اليها، وكان وظل من عناصرها المفيدة. وقد توثقت المعرفة والصداقة بيننا في ظل ذلك واستمرت طيلة عهد فيصل وبعده، ولما سقط عهد فيصل جاء إلى شرق الأردن مع من جاء من رجالات العهد، وعينه الشريف حسين رئيساً لمؤسسة الخط الحجازي، ومنحه لقب باشا، وكان مركزه معان. ولما سقط عرش هذا الملك انضم الى الأمير عبد الله الذي كان جاء واستقر أميراً لإمارة شرق الأردن قبل ذلك، وتولى مناصب مالية عالية ثم وزارة المالية ثم جاء الى فلسطين.

وكان عبد الحميد شومان، الذي كان مغترباً في أميركا عاد في هذه اوثناء وفي رأسه فكرة انشاء مصرف عربي، فتعاون معه في تأسيس البنك العربي المحدود (1930)، وصار مديراً للبنك ونجح البنك نجاحاً كبيراً، ولكن احمد

حلمي اختلف مع شومان فترك البنك وكان مراقباً عاماً للأوقاف الإسلامية في أواخر العشرينات)، ثم انشأ شركة بنك الأمة وتولى مديريته العامة ونجح نجاحاً لا بأس به.

وكان لطلعة حرب اسم اقتصادي رنان في مصر حيث انشأ شركات بنك مصر وشركات عديدة أخرى للنسيج وللطيران وللسينما وغيرها، مما لم أعد اذكره، فأراد أحمد حلمي تقليده، وحاول إنشاء شركات عديدة لم تصب من النجاح ما أصابته شركات طلعة حرب في مصر. وقد أنشأ فيما أنشأ صندوق الأمة الذي كان يقوم على التبرعات لمساعدة أصحاب الأراضي المعرّضة لخطر البيع لليهود، ونجح مشروعه بعض النجاح. وهكذا صار من رجالات فلسطين البارزين، وكنا على صلة وثيقة ودائمة به، وكان من أنصار حزب الاستقلال الذي أنشأناه في سنة 1932، ولما تقرر إنشاء لجنة عربية عليا لتشرف على الإضراب الطويل سنة 1936 تقرر ضمه إليها كرجل حيادي غير حزبي، وكان من العناصر القوية ذات الخط القويم المتصلب فيها. وحينما قتل اندروز حاكم الناصرة وبدت علائم استئناف الثورة في فلسطين اعتقلته السلطات في جملة من اعتقلتهم من أعضاء اللجنة العربية العليا ونفته الى سيشيل في أواسط شهر ايلول 1937، حيث بقي في المنفى نحو عشرين شهراً ثم اطلق سراحه وسراح رفاقه بقوة ضغط الثورة واللجنة العربية على ما سوف نزيده شرحاً بعد.

وجاء الى لبنان والتقينا به، وقبيل انتهاء الحرب سمح له ولآخرين من رجالات فلسطين بالعودة الى فلسطين فعاد مع من عاد، وأخذ ينشط معهم في سبيل القضية الفلسطينية، وصار من أبرز الزعماء، ثم كان أحد أربعة منهم اضطلعوا بإعادة القيادة الفلسطينية الوطنية العامة باسم الهيأة العربية العليا بمسعى جامعة الدول العربية في سنة 1946، وقد انضممنا نحن أيضاً الى هذه الهيئة حينما عاد الحاج أمين من أوروبا الى مصر واستلم رئاستها وتعاونا معاً في نطاقها، وكان يتردد بين مصر وفلسطين، وقامت ثورة فلسطين ضد قرار التقسيم الذي أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة وهو في فلسطين، فساهم في النشاط والقيادة السياسية. ولما انعقد مؤتمر غزة بعد الهدنةالأولى لحرب فلسطين في سنة 1948 وقرر المؤتمر إعلان استقلال فلسطين وتشكيل حكومة عموم فلسطين اختاره لرئاسة الحكومة، وصار ممثلاً لفلسطين في جامعة الدول العربية، وظل يحمل عنوان الرئاسة رغم تعثر تنفيذ قرار المؤتمر بسبب مناوأة عاهل الأردن عبد الله، وضمه الأقسام التي بقيت من الضفة الغربية لمملكته، كما ظل يمثل فلسطين في جامعة الدول العربية الى ان توفاه الله سنة 1963 في مصر، وكان آخر عهدنا به في بعض اجتماعات الهيئة العربية العليا في مصر سنة 1947 رحمة الله عليه.

شيء عن الأمير مصطفى الشهابي:

ومنهم الأمير مصطفى الشهابي، وهو أخو الشهيد الأمير عارف وأصغر منه، وقد درس الزراعة في جامعة فرنسا وصار ذا خبرة واسعة فيها، كما كان ذا رسوخ في اللغة العربية وفنونها وتاريخ العرب والإسلام بحيث يمكن القول أنه كان من علماء العرب المعاصرين، فضلاً عن أنه أعلم الشهابيين وكان مثلهم قومياً أبياً مستقيماً مع شيء من الجفاف والترسم. وقد تعرفنا به في عهد فيصل وتوثقت صلة الصداقة بيننا، وتولى وظيفة عالية في وزارة الزراعة في هذا

العهد وبقي في وظيفته بعد غزو فرنسا لسورية وسكتوا عنه لأنه لم يكن له نشاط سياسي شديد ومعاد لهم. وظل محتفظاً باستقامته وروحه القومية دون اي انحراف وتعاون معهم مع استمراره في الدراسات العلمية العربية والزراعية، وحينما رضخت فرنسا وقررت مفاوضة الكتلة السوطنية لعقد المعاهدة الاستقلالية تألفت حكومة جديدة موالية للكتلة وغير معادية لفرنسا برئاسة عطا الأيوبي، فدخل فيها وزيراً للمعارف وذهب مع الوفد المفاوض الذي أنجز عقد المعاهدة. وفي عهد الاستقلال الأول 1936 والثاني 1954 تولى مناصب حكومية عالية في نطاق اختصاصه دون الوزارة، وكان سفيراً لسوريا في مصر، ثم صار عضواً في المجمع العلمي العربي فرئيساً له، وظل في هذا المنصب الى أن توفي سنة 1956 رحمة الله عليه.

وبقينا أصدقاء متواثقين نتزاور من الآن لآخر لأني اتخذت دمشق دار إقامة منذ سنة 1937 الى 1941، ثم بعد عودتي من تركية 1945 حتى وفاته. وقد رشحني لعضوية المجمع العلمي العربي في مصر وتم انتخابي لها. وقد الف كتباً عديدة في الزراعة والاجتماع والقومية العربية والاستعمار، وحاضر في معهد الدراسات العالية في مصر، وكان ينشر مقالات وابحاثاً علمية ولغوية واجتماعية مفيدة وبليغة في مجلة مجمع دمشق ومجمع القاهرة ومجلات اخرى.

شيء عن محيي الدين صادق:

ومنهم محيي الدين صادق، وهو ضابط سوري صلب العقيدة مع دماثة خلق، وقد أحببنا بعضنا وتوثقت الصلة بيننا وتعاونا أثناء عهد فيصل ثم افترقنا بعد سقوط العهد، ولم نلتق ولا اعرف متى توفي رحمة الله عليه.

شيء عن طه الهاشمي:

ومنهم طه الهاشمي، وهو ضابط أركان حرب في زمن الدولة العثمانية وذو ثقافة عسكرية وغير عسكرية واسعة، حتى ليعد من العلماء العرب. وكان دمث الأخلاق مع صلابة في المبدأ وجرأة على قول الحق، وهو أخو ياسين ولكن لم يكن له صفات تؤهله للبروز في الزعامة كأخيه، مع التنبيه على أنه مثله في الروح القومية. وقد تولى مناصب عسكرية عالية في الجيش العثماني، وبعد انسحاب الأتراك من سورية جاء الى دمشق واندمج في نشاط عهد فيصل وتولى بعض المناصب. وقد انسجمنا مع بعضنا وتوطدت صداقة صميمة بيننا، ولما سقط العهد الفيصلي عاد الى العراق وتولى في عهد الملك فيصل مناصب تنظيمية عالية في الجيش وصار رئيس أركان القيادة العراقية العامة، وقد التقينا به في زياراتنا لبغداد في سني 1933، 1936، 1937 وجددنا عهد الصداقة، ولما تولينا أمر تأجيج ثورة فلسطين في أواخر 1937 وبعدها طلبنا منه مدنا بالعتاد فاستجاب، وأرسل الينا خمسين صندوقاً فيها رصاص للبنادق، فكانت لنا أعظم هدية ومدد، ولجأ الى تركية في ظروف ثورة رشيد عالي والتقينا به في الآستانة حينما لجأنا بدورنا الى تركية. وكنا نتزاور دائماً. وحينما ابعدتنا الحكومة التركية من الآستانة الى الأناضول سعى لنقلنا الى بورسة، وجاء لزيارتنا فيها. وبعد نهاية الحرب عدنا إلى دمشق وعاد هو اليها بعد قليل وأقام فيها فتجدد عهد الصداقة والتواد.

وقد تولى أثناء التحضير لحرب فلسطين

وأعداد جيش الإنقاذ مهمة مستشار عسكري، ونشط نشاطاً مشكوراً في انشاء مدرسة تدريب الضباط الفلسطينيين وتنظيم المتطوعين وجيش الانقاذ، وتعاونا معه تعاوناً وثيقاً في كل ذلك. وبعد النكبة عاد الى العراق ولم يقسم حظ بلقائه الى أن توفاه الله في الستينات رحمة الله عليه، وله بعض المؤلفات العسكرية المفيدة. وقد اتهم بأنه قصر في إمداد الشهيد عبد القادر الحسيني بالسلاح والعتاد، وكان عذره أن الميسور من ذلك قليل، وأنه مضطر الى التقنين حتى يمكن التوزيع على جميع الفئات المجاهدة من جيش الانقاذ وفصائل الجهاد المقدس وغيرهما، وأنه لم يكن في استطاعته ان يعطي الشهيد الحسيني كل ما كان يريد، ونحن نعرف أنه لم يكن منسجماً تماماً مع الحاج أمين الحسيني الذي كان يريد أن يتولى جميع أمور الحركة الجهادية بصفته رئيس الهيأة العربية العليا لفلسطين، في حين أن الجامعة عهدت بقيادة العمل العسكري لضابط ركن عراقي هو اللواء إسماعيل صفوة، وكان طه يتولى أحياناً مهام عمله حين غيابه، فكان شيء من الصدام يقع بينه وبين الحاج أمين، وأظن أن لذلك أثراً في ما اتهم به، وحمّل أكثر مما هو الواقع.

شيء عن الشيخ يوسف ياسين:

ومنهم الشيخ يوسف ياسين، وقد رأيته لأول مرة في نابلس 1913 حيث جاء زائراً مع محمد الشريقي الذي كان اصغر منه، وكان ينظم الشعر، وكان الاثنان متحمسين للقومية العربية والحركة العربية التي كانت جائشة في هذه الظروف، وكلاهما من اللاذقية، ولما احتل الإنكليز القدس في كانون الأول 1917 كان الشيخ يوسف في القدس، ولا أدري سبب ذلك. وكان متعاوناً مع الحاج أمين ورفاقه من شباب الحسينيين وزملائهم في نطاق النادي العربي، فالتقينا به من جديد في سنة 1919، حيث ذهبنا الى القدس وعقدنا المؤتمر الفلسطيني الأول الذي مر ذكره. ثم التقينا به في دمشق في عهد فيصل، حيث جاء اليها في جملة من جاء من شباب العرب، وفيها توثقت صلة الصداقة بيننا واستمرت.

وكان شاباً ذا روح قومية ومتحمساً ونشيطاً، ولما سقطت الشام خرج مع من خرجوا وذهب الى عمان مع من ذهب اليها، وجاء الى القدس واشتغل في جريدة الصباح وكان يحررها محمد كمال بديري فترة من الوقت، ثم سافر الى الرياض وصار في حاشية الملك عبد العزيز ونال لديه حظوة كبيرة حتى صار نائب وزير خارجيته، والتقينا به في الرياض في سنة 1937 حينما ذهبنا مع وفد لمقابلة الملك والتحدث معه في شأن مقابلة اللجنة الملكية التي جاءت للتحقيق في قضية فلسطين على ما سوف نشرحه بعد، وجددنا عهدنا، وقد نزلنا أنا ورفاقي في الوفد في بيته، ثم التقينا به عبر نشاطنا في الهيئة العربية العليا حيث كنا نمثل هذه الهيئة في جامعة الدول العربية في سنة 1947، وكان هو يمثل المملكة العربية السعودية، وكان يلتزم التزاما صارما بتعليمات سيده مهما كانت، فكان في الحقيقة نتيجة لذلك فاقداً لشخصيته واستقلاله. والمتبادر ان هذا ما جعله مقبولاً محظيا من الملك السعودي، وقد استطاع نتيجة لذلك ان يكون ذا مال وفير. وآخر عهدنا به لقاء عابر التقينا به في مصيف الزبداني سنة 1953، وقد مات في الستينات رحمة الله عليه.

شيء عن ناجي السويدي:

وهو أخو توفيق الذي كتبنا عنه كلمة سابقاً، وهو اكبر منه، وقد تخرج من المدرسة الملكية والحقوقية العثمانية العليا، ومارس بعض الوظائف في زمن الدولة العثمانية، وهو ألمع ذكاء واكثر نشاطاً وبداهة من توفيق، وقد جاء الى دمشق في عهد فيصل والتقيت به وقام توادد وان لم يصل الى صداقة صميمة، وفي ذهني انه مارس عملاً إدارياً عالياً في العهد الفيصلي في سورية، وشهد مؤتمر العراق الذي قرر إعلان استقلال العراق على ما ذكرت في كلمتي عن توفيق، ولما قام عهد فيصل في العراق اندمج فيه معارضاً حيناً ومؤيداً حيناً، وصار وزيراً أكثر من مرة، وصار رئيس وزارة مرة، ولم أره ثانية بعد دمشق الا في مؤتمر بلودان في أيلول 1937 الذي عقدناه مؤتمراً عربياً عاماً بعد صدور توصية اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين للاحتجاج والاستنكار. وكان من جملة من وفد من العراق واشترك في المؤتمر، وقد اخترناه رئيساً للمؤتمر وكنت أنا سكرتيراً عاماً للمؤتمر، فتعاونا وتواثقنا. وكان حسن الضبط والانتماء، وقد القى خطبة الافتتاح وكانت وجيزة وقوية، اعلن فيها ان قضية فلسطين لا تخص عرب فلسطين فقط وإنما هي قضية عربية واسلامية عامة من واجب العرب والمسلمين جميعاً ان ينصروها ويكافحوا في سبيلها لتبقى فلسطين عربية سيدة، واتفقت معه على القدوم الى بغداد لتوسيع تشكيلات لجنة الدفاع عن فلسطين حسب قرار المؤتمر، وذهبت عقب انتهاء المؤتمر ولقيت منه ترحيباً وحرارة، ودعانا الى مأدبة، وبذل جهده في انجاز المهمة التي أتيت من أجلها. ولم أره بعد ذلك، وقد اعتقله الانكليز في اثناء الحرب العالمية الثانية ونفوه الى روديسيا مع من اعتقلوهم ونفوهم بعد ان تمكنوا من قمع تمرد العراق ضدهم بقيادة ضباط الجيش ورشيد عالي سنة 1941، حيث انهم لمحوا له ضلعاً في الموقف، فقد كان وزيراً للمالية في الوزارة الكيلانية التي سميت الثورة باسمها، وقد مات في منفاه سنة 1943 رحمة الله عليه.

كلمة عن خير الدين الزركلي:

ومنهم خير الدين الزركلي، وكان حينما التقينا به لأول مرة في العهد الفيصلي في دمشق شاباً تبدو عليه أمارات الذكاء والبديهة، وكان قد بدأ ينظم الشعر في العهد العثماني، وله مقطوعات قومية، ثم قويت موهبته في الشعر مع الأيام حتى صار من شعراء العرب المعاصرين البلغاء جزالة وقوة وفصاحة وعمقاً ورقة، وعلمت انه كان اشتغل في جريدة الشرق التي كان يصدرها الجيش الرابع، وكانت بإدارة واشراف الشيخ تاج الدين الحسيني. ولما قام عهد فيصل اندمج فيه ونشط وانضم الى جمعية الفتاة. واشترك مع يوسف حيدر الذي كان هو الآخر قد انضم الى هذه الجمعية في اصدار جريدة (المفيد) التي كانت لسان حال الجمعية بصورة غير رسمية، وكان قوي القلم لاذع النقد. وكانت الجريدة تتلقى بعض المساعدات المالية من صندوق الجمعية وبواسطتها من خزينة الحكومة، ولما توليت سكرتيرية هيئة الجميعة تعارفنا وتصادقنا وتعاونا في نطاق ذلك.

وحينما سقط عهد فيصل خرج مع من خرج من دمشق وجاء الى عمان، وبعد قليل قامت حكومة الأمير عبد الله فاشتغل فيها حيث كان رئيس ديوان مجلس المستشارين ومفتشاً للمعارف

ايضاً. وحينما ذهبت الى عمان وقضيت فترة قصيرة جددنا عهد الصداقة، وكان شديد النقد لاذعه لتصرفات الأمير وعهد حكومته، وبعد سنتين غادر عمان وكتب كتابه (عامان في عمان) عن مدة اقامته، وضمنه كثيراً من نقد تلك التصرفات بأسلوبه اللاذع، بالاضافة إلى بند من عشائر شرق الأردن وتشكيلات حكومتها وأحداث سياسية أخرى جرت في هذه المدة، وقد وثق صلاته بالملك السعودي عبد العزيز وصار موظفاً في السفارة السعودية في القاهرة ثم مستشار لها.

وقد التقيت به بعد عمان اكثر من مرة في فلسطين، حيث جاء وتولى رئاسة تحرير جريدة الحياة في القدس، فكانت لسان حملة الفكرة الاستقلالية. واشترك في المؤتمر الإسلامي العام ثم في المؤتمر العربي في اواخر سنة 1931، واختير عضواً في اللجنة التحضيرية للمؤتمر الأخير التي عهد اليها بالسعي لعقد مؤتمر عربي عام واسع، وكنت انا عضواً في المؤتمرين ثم في اللجنة التحضيرية، وتعاونا في نطاقها. وبعد ذلك عاد الى القاهرة مستشاراً للسعودية. وكان ذلك آخر عهدنا به شخصياً، وفي خلال ذلك انصرف الى كتابه العظيم الموسوعة (الأعلام) ذي الأجزاء الأحد عشر الضخمة، وجزءين (المستدرك)، وجزء بعنوان (الأعلام بما لم يرد في الاعلام) الذي اسدى بهم للتاريخ والأدب العربي والاسلامي اعظم خدمة بما احتوته من تعريف وجيز وصادق لمئات اعلام العروبة والاسلام قديماً وحديثاً، وتوفي في عام 1977 بمصر، وربما بلغ الثمانين من عمره أو أكثر رحمة الله عليه.

تكرار لتنبيه سابق عما ذكرته من احوال اصدقائي:

وأكرر تنبيها سابقاً لي عقب سلسلة كبيرة عن اصدقائي الذين توثقت الصلة الحميمة بيني وبينهم من أعضاء المؤتمر وأعضاء جمعية الفتاة القدامى والجدد، أن ما أوردته هو انطباعات عامة في ذهني عن احوالهم ونشاطهم وظروف صلاتنا وصداقتنا وتعاوننا معهم، وقد يكون فاتني من احوالهم واخلاقهم وتاريخهم ونشاطهم شيء قليل أو كثير.

استدراك في صدد الأعضاء الجدد:

هذا ومن الحق أن أسجل أن عددا غير قليل ممن ضمته الفتاة في أثناء عهد فيصل كانوا موظفين كباراً في دوائر الحكومة، وكانوا يترشحون للوظائف بسبب خبرتهم ومكانتهم ونشاطهم ومعارضتهم، وقد ضمتهم بقصد كسبهم ودمجهم فيها وجعلهم ينتقدون قراراتها، وأنها كانت متساهلة بتحقيق هذا القصد اكثر مما تتحمله الصفات المطلوبة في عضو الجمعية وتسوغه خطورتها.

وكان منهم المائع في أخلاقه وشعوره أو وطنيته وغير المنضبط، أو انتهازياً وغير مهتم إلا بمركزه ومطامحه ومطامعه ونزواته الشخصية، وقد ظهر هذا من بعضهم اثناء العهد الفيصلي، ثم ظهر من بعضهم في عهد الاحتلال الإفرنسي، حيث ظلوا في وظائفهم وسايروا السلطات الإفرنسية، بل منهم من اندمج في حركات ومواقف بغيضة تجاوباً مع سلطات الاحتلال، ومنهم من كان ذا دور رئيسي خطير في ذلك.

ولم تقتصر رغبة هيآت الجمعية في ضم الموظفين والمستوظفين وجعلها تتساهل فيهم،

بل اندفعت هذه الرغبة لضم اشخاص كانوا في تشكيلات حزبية أخرى وظهـروا على المسرح أقوياء العارضة والنشاط، منساقة وراء ضم كل من كان فيه مزية ما لتكون محتكرة ولو بحسن نية للطبقة التي فيها قوة عارضـة أو مزيـه دافعة او نشـاط او ثقـافـة، بقـطع النـظر عن الأخـلاق والمزاج وصعوبة الانسجام، فكان من أمر هؤلاء أنهم لم ينـدمجوا في الفتـاة قلبياً وبـاخـلاص وحسن تواثق وانسجام، وإنما قبلوا بالانضمـام اليها لكسب مركز وبروز في العهد الذي كانت الجمعية حزبه وعماده والقوة المعنويـة الكبرى فيه، وظلوا في الفتاة اجساماً غريبة، ومنهم من جاهر بعدائه لها وعدائه لأخوانه فيها وظل يعتبر نفسه غريباً عنها معارضاً لها.

ولقد ثبت بالممارسة في عهد فيصل وما بعده أن الجمعية كانت قد ضمت إليها عناصر ضعيفة الأخلاق انتهازية في أثناء الحـرب ممن كانـوا يسمون قدامى ومؤسسين، وقد جذبنا اليهم ما كانوا يبدونه من حماس ونشاط وشعور قومي في العهد العثماني، ولم يكونوا معرضين لتجربة او حرية حركة او لإغراء بمطمع او مركز يمكن ان تنكشف بها تلك الصفات فيهم، والتي ظهرت على سجيتهـا حينمـا ذهب الخـوف وتيسـرت أسبـاب البـروز وإشبـاع الـرغبـات والنـزوات والمطامع. ولقد كان لمـواقف وأخلاق وسلوك هـذه العناصـر آثار سلبيـة في سمعة الجمعيـة وبنيانها وسيرتها، وكانت من أسباب انتقادات وحملات وجهت الى الجمعية والى سلوك هذه العناصر وأنانيتها ومطامعها، يعزى ما كان يكثر من دعـوات الى اجتمـاع المؤسسين وتجـديـد انتخابات الهيئة المركـزية، لأن منهم من كـان يريد أن يبرز ويشبع رغباته ونزواته بعضوية الهيئة لما كان لها من بروز وتأثير ونفوذ في دوائر الأمير الملك فيصل والحكم وميادين النشاط الأخرى، وزاد في هذه الآثار السلبية ان الهيئة المركزية لم تقف الموقف الصارم والواجب وقوفه ازاء هذه العناصر بالمحاكَمة والبتر والعقاب.

كـان الشاذون أقليـة والصالحـون المستقيمون الأكثرية الكبرى:

على أن من الحق أن نقول أيضاً إن أسماء أعضاء الجمعية القدماء والجدد الذين عرفوا من أهل عصرهم وبيئتهم تدل دلالة قـوية على أن الصـالحين في أخـلاقهم واستقـامتهم وصـدق شعورهم كانوا هم الأكثر كثيراً، وأن ما ظهر من عوار بعضهم وهناتهم حسب مقـاييس الجمعية هم الأقل قلة كثيرة، بحيث يمكن القول على كل حال إن الجمعية قد ضمت عدداً كبيراً من رجـالات وشباب العـرب الصـالحين الجـادين المستقيمين النشيـطين الصادقين الـذين كـانت لهم خدمات جليلة وبروز مفيد للقضايا وفي هذا العهد وبعده، وكـانوا وظلوا ينتسبـون للجمعية ويعتـزون بانتسـابهم اليها ويبـذلـون جهـودهم لتحقيق مـا كـانت تتـوخـاه منهم حين ضمتهم اليها.

تنبيه على ما تعرضت له الجمعية من حملات غير بريئة وأسبابها:

ولقد قلنا إن سلوك تلك العناصر أثار حملة انتقاد ضد الجمعية، ونقول أيضـاً أن الجمعية كانت عرضة لحملات انتقادية وتشهيـرية لغيـر سبب سلوك هذه العناصر أيضاً، وقد يكون صدر من الجمعية وهيئاتها بعض أخطاء وتصرفات غير سليمة تستحق النقد مما هو طبيعي بالنسبة لأي تنظيم يبني عهدا، وتكون حكومته منه أو تحت هيمنته، ويحاول أن يكون المؤثر في كل شيء، وأن لا يكون شيء في العهد إلا بعلمه وموافقته

ما أمكن ذلك، غير أن الجمعية تعرضت الى هذا وذاك لحملات غير نزيهة وغير صادقة ومجردة في عهد فيصل، وكان للروح الاقليمية من جهة والدسائس الأجنبية من جهة، والمطامع الشخصية من جهة يد فيها، فكثير من أصحاب الوجاهات والزعامات المحلية الذين قامت وجاهاتهم على ما كان لهم من نفوذ أو كلمة في دوائر الحكومة العثمانية تيسرت لهم بالأساليب القديمة المعروفة من رشوة وتملق وخدمات شخصية الخ، قد أغاظهم أن لا يتمكنوا من الاستمرار في استغلال وجاهاتهم وزعامتهم في عهد فيصل على الوجه الذي اعتادوها، وأن يروا تلك الوجاهة والزعامة في طريق الزوال، وأن يبرز على المسرح رجال أو شباب غير معروفين بالوجاهة والزعامة العشائرية، فيكونوا هم أصحاب النفوذ والتأثير في دوائر العهد وسيرته، وان يكون نصيبهم الانزواء أو ما شابه. وكثير من طلاب الوظائف والمناصب والبروز لم ينعموا بما أرادوه، فاعتبروا جمعية الفتاة خصماً لهم، واغتنم هؤلاء وأولئك فرصة كون كثير من أعضاء الجمعية القدامى المؤسسين والمؤثرين في العهد غير سوريين شاميين أو غير دمشقيين، فحاولوا أن يجدوا في هذه النقطة ثغرة لإثارة النعرة الإقليمية والعصبية المحلية في أوساط الشام ودمشق، وكان من آثار ذلك ما ذكرناه سابقاً من جمعية وجهاء دمشق التي كان من وراءها بعض أعضاء الفتاة الذين هم من تلك العناصر.

ولقد كان عهد فيصل مجالاً عجيباً لمختلف التيارات الأجنبية. وكان كل تيار متعاوناً مع الآخر يحاول أن يؤثر في مجال العهد ويجر ما يجده أمامه. وكانت الدسائس والدعايات والأموال الأجنبية تلعب دورها في المجال، ولما كانت الفتاة تمثل الفئة الوطنية القومية المتطرفة اجمالاً، وكانت تغذي الحملات المضادة للدسائس الأجنبية التي كانت تهدف الى التشويش على عهد فيصل وإضعاف المقاومة والصلابة القومية فيه وتهديمه في النهاية، وبسط السيطرة الاستعمارية على سورية الداخلية التي كانت المجال الفعلي لنشاط العهد والفتاة حزبه، فمن الطبيعي جداً أن تكون لتلك الأموال والدعايات والدسائس أثر كبير في تلك الحملات أيضاً.

ولقد كان كثير من أعضاء الفتاة النشيطين المتطرفين موضوعاً رئيسياً في انذار الجنرال غورو الإفرنسي بين يدي غزوته الباغية لسورية الداخلية التي هدم بها العهد على ما سوف يرد شرح أوفى له، مما فيه دليل قوي على ما نقول، ولقد امتدت حملات التشويه والتشهير ضد الفتاة في عهد فيصل وسورية الداخلية الى ما بعد انهدام هذا العهد أيضاً. ومما لا ريب فيه ان فشل العهد وانهياره كان مما غذى هذه الحملات بعد هدمه من قبل خصوم الفتاة والحاقدين عليها، ومما جعل آثارها تستمر الى أمد غير قصير بعد انهيار العهد. وإننا لنقول الحق ونؤكد إننا لسنا الآن متأثرين بالعصبية إن الفتاة كانت اجمالا متشبعة بفكرة الخدمة المخلصة للعهد ونجاحه بأهدافها القومية، وكانت لا تألو جهداً في هذا السبيل، وإن ما كان من أخطاء أو تصرفات غير سليمة قد بدرت عن حسن نية، ولا يمكن أن تتحمل اتهاماً لها تمس مبادئها والأهداف القومية التي كانت تبذل جهدها بكل اخلاص في سبيلها.

التقصير في عدم ادامة أو إحياء تنظيم الجمعية وأسبابه:

وهناك أمر يجب أن نسجله على الفتاة فإنها لم تستمر تنظيماً بعد عهد فيصل، ولقد حاول فريق من أعضاء الجمعية الذين تجمعوا في عمان بعد سقوط عهد فيصل وفي ظل امارة عبد الله استئناف التنظيم السري الرسمي وانتخبوا هيئة مركزية، وأخذت تسير على غرار دمشق في اجتماعاتها وقراراتها وتوجيهاتها، وكانت تفرض نفسها في ميدان عمان، وضمت بعض الصالحين الفلسطينيين والأردنيين اليها. غير أن هذه المحاولة كانت محدودة الأمد والنطاق والمجال أولاً ولم يكتب لها الاستمرار، فضلاً عن الاتساع، لأن جل البارزين من أعضاء الجمعية في عمان الذين كانت تلك المحاولة منهم اختلفوا مع الأمير عبد الله وتبعثروا ولم يسمع للفتاة خبراً تنظيماً آخر بعد ذلك، ولو كان لما خفي أو أخفي عنا فقد كنا من اللباب وعظام الرقبة، كما يقال، وبقينا ننشط في مجال القضايا العربية عامة وقضية فلسطين خاصة ببروز وقوة، والتقينا بكثير ممن حاولوا تلك المحاولة في عمان، ولم نسمع أو نلمح أن هناك تنظيماً.

ولقد كان هذا مؤسفاً حقاً، فالجمعية تأسست واستطاعت أن تحتفظ بكيانها وحيويتها في أيام سوداء شديدة الخطورة والأخطار، ثم تسنى لها أن تكون صاحبة عهد فيصل وأن تنشط فيه نشاطاً عظيماً تنظيمياً، بالإضافة الى نشاطها العظيم في مختلف الميادين، حتى لقد سنت لنفسها دستوراً ونظاماً[1]، وكان معنى هذا عزماً على الاستمرارية وتصميماً عليها. ولقد صارت القضية العربية القومية الى نفس الظروف التي ألهمت تأسيسها إن لم تكن أدق وأشد خطورة لتنوع مجالات النضال واتساعها وصعوباتها، ولم ينقطع النضال على اختلاف أساليبه في سبيل الاستقلال القومي والوحدة العربية وهما من الأهداف التي كانت للجمعية حين تأسيسها في داخل البلاد العربية وخارجها، وكان أبناء الفتاة من العاملين المؤثرين في مختلف ميادين هذا النضال، فكان كل هذا مما يوجب بقاء أو إحياء التنظيم فضلاً عن ضرورة التوسع عنه. والراجح أنه كان لنتائج أحداث الشام، وخاصة لما كان من مكائد وتيارات ودسائس، رد فعل في نفوس كثير من أعضاء الجمعية ثبط من هممهم وأضعف من عزائمهم وجعلهم في فتور وبلبلة وانكار، وزاد هذا تفرق الأعضاء في مختلف أنحاء البلاد العربية وانشغال كل من استطاع أن يستعيد أنفاسه ونشاطه في مشاكل وقضايا وطنه الخاص، حيث كان لكل منهم هذه المشاكل والقضايا التي من شأنها أن تستغرق جهودهم وأفكارهم، فكان كل هذا مما حال بينهم وبين التفكير الجاد في إدامة تنظيمهم أو إحيائه.

ولقد اجتمع فريق غير قليل منهم في القدس، وكنا منهم، في آخر سنة 1931 في مناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي العام لبحث القضية الفلسطينية على ما سوف نشرحه فيما بعد في مؤتمر مصغر، ووضعوا ميثاقاً وقرروا الدعوة الى مؤتمر عربي أكبر، وانتخبوا لجنة تحضيرية كنت أنا من أعضائها. ونشطت هذه اللجنة في سبيل عقد المؤتمر المنشود في بغداد بعد موافقة الملك فيصل وتشجيعه، ولكن دسائس الانكليز وموت فيصل أوقفا النشاط

---

(1) أثبتنا نصوصهما في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة فلم نر ضرورة لإثباته هنا.

وجمد اللجنة التحضيرية، وكان من المأمول أن تنبعث عبر المؤتمر حيوية جديدة في الأعضاء تجعلهم ينظمون أنفسهم مرة أخرى.

بقاء الأخوة والصميمين من الأعضاء:

وكل ما بقي من أعضاء الفتاة تلك الصميمة الأخوية من كل من عرف بعضهم بعضاً منهم من سوريين وعراقيين وفلسطينيين ولبنانيين حينما يلتقون في مناسبة ما خاصة أو عامة، والتمازج والانسجام والتعاون والتضامن فيما كانوا يباشرونه أو يشتركون فيه من أعمال ونشاطات محلية أو قومية.

الأحزاب التي كانت في عهد فيصل:

لقد كان في عهد فيصل الى جانب جمعية الفتاة أحزاب وتنظيمات سياسية أخرى:

حزب الاتحاد السوري وشيء عن نشأته ونشاطه وأسماء أركانه:

منها حزب الاتحاد السوري، وقد أنشىء هذا الحزب في القاهرة عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكان من أركانه أركان حزب اللامركزية الذي كان نشأ في عهد الدولة العثمانية والذي كان له دوي ونشاط كبيران في عهد هذه الدولة، وكان موضع نقمة ومطاردة وبطش جمال على ما شرحناه في مناسبة سابقة، وقد شرحنا نشأته وسيرته شرحاً وافياً نوعاً ما في كتابنا نشأة الحركة العربية الحديثة.

وكان سبب تشكيل حزب الاتحاد السوري حسب ما سمعناه وعلمناه من بعض أركانه، ان الشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم وعبد الرحمن شهبندر والشيخ رشيد رضا ذهبوا الى الحجاز بعد إعلان الشريف حسين الثورة واجتمعوا به، ومنهم من زار فيصلاً في مركز قيادة الثورة الشمالي ورجعوا الى مصر غير راضين عن الحسين وابنه، لعدم انصياعهما لمقترحات وتوجيهات أبدوها، فجمعوا فريقاً من الساسة السوريين في مصر منهم رفيق العظم رئيس حزب اللامركزية، وحقي العظم سكرتيره، ومحب الدين الخطيب مساعد سكرتيره، وإسكندر عمون أحد أعضائه، وتشاوروا معهم في مصير البلاد العربية والسورية خاصة، فقرروا أولاً تقديم مذكرة لبريطانيا يطلبون منها توكيداً باحترام استقلال البلاد العربية وإداراتها على أساس اللامركزية، ويذكرونها بما للأمة والبلاد العربية من مركز مادي ومعنوي خطير، وبما كان من جهادها ونشاطها وتضحياتها في سبيل ذلك، مع الاحتجاج على ما كان عرف قبل نهاية الحرب نتيجة نشريات الثورة الروسية من اتفاق بريطاني فرنسي روسي ثم اتفاق بريطاني روسي على تقسيم البلاد العربية التي تتحرر من السيطرة العثمانية لمناطق نفوذ واستعمار، ثم على وعد بلفور المعطى لليهود بالمساعدة على إنشاء وطني قومي لليهود في فلسطين. وقد وقع المذكرة كل من رفيق العظم والدكتور عبد الرحمن شهبندر وفوزي البكري والشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم ومختار الصلح وحسن حمادة.

وقد دعا مكتب المخابرات البريطانية في القاهرة الدكتور شهبندر وسلمه جواباً من وزارة الخارجية البريطانية مؤرخاً في 16 حزيران 1918 عرف فيما بعد بالعهد البريطاني للسوريين السبعة، وقد وعدت وزارة الخارجية فيه ببذل جهدها في مساعدة الشعوب العربية التي لم تكن متمتعة باستقلالها والتي سوف تتحرر من السلطان العثماني على الاستقلال والحكم وفقاً لرغبات أهلها، واجتمع على إثر

ذلك فريق كبير من السوريين في مصر من جملتهم السبعة، فقرروا إنشاء حزب باسم الاتحاد السوري وفق ميثاق وضعوه ينص على وحدة سورية الطبيعية من جبال طوروس الى رفح واستقلالها استقلالاً تاماً، على ان يكون الحكم فيها ديمقراطياً وعلى أساس اللامركزية والمنهج الذي كان وضعه حزب اللامركزية، وعلى أن تكون الأحوال الشخصية[1] وفق شرائع كل ملة، وان تكون حقوق الأقليات فيها مضمونة. واعتبر المجتمعون مؤسسين للحزب، وانتخبوا له هيئة تنفيذية وإدارية مؤلفة من ميشيل لطف الله والشيخ رشيد رضا والدكتور الشهبندر وسليم سركيس ورفيق العظم والشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم ووهبة عيسى المحامي وآخرين. وانتخبت هذه الهيئة ميشيل لطف الله رئيساً والدكتور الشهبندر وسليم سركيس سكرتيرين، وكان من أولى مبادراته احتجاجه على تقسيم سورية الى مناطق احتلال عسكرية، والمطالبة باستفتاء أهلها في المصير الذي يريدونه ولما عرفت الهيئة بقرار مجلس السلم بإرسال لجنة استفتاء، ثم عرفت ان الفرع الأميركي من هذه اللجنة قد توجهت نحو بلاد الشام بادئة بفلسطين، جاء كل من رئيسها والدكتور الشهبندر والشيخ رشيد رضا والشيخ كامل القصاب ورفيق العظم وخالد الحكيم وإسكندر عمون الى دمشق، ولقد كان يقال ان هدف الحزب إقامة حكم جمهوري في سورية الموحدة على أساس الاستقلال التام واللامركزية، وأن أعضاء الحزب اندفعوا وراء هذا الهدف بسبب ما كان بينهم وبين الحسين وابنه من خلاف، وأن منهم من كان يطمع برئاسة الجمهورية مثل رفيق العظم وميشيل لطف الله، الأول اعتماداً على عراقته وبروزه على رأس حركةً اللامركزية في زمن الدولة العثمانية، والثاني اعتماداً على ترائه الواسع وما كان يهيئه من مؤيدين وهتّافين.

ولقد ظل طابع النقمة والجفاء ملحوظاً عليهم ضد الحسين وفيصل طيلة العهد الفيصلي وبعده، مما يمكن ان يؤيد صحة ما كان يقال. غير أن شكل الجمهورية للدولة السورية لم يكن منصوصاً عليه في منهج الحزب من جهة، وقد اضطر الذين قدموا الى دمشق وتقدموا الى لجنة الاستفتاء لمسايرة الجو فاكتفوا بتقديم مذكرة مؤيدة بصورة عامة للقرار الذي قرره المؤتمر السوري على ما بقي منطبعا في ذهني، وهذا القرار يرشح الأمير فيصل لملكية سورية الموحدة المستقلة الديمقراطية. ولقد عاد الى مصر رفيق العظم وميشيل لطف الله بعد انتهاء لجنة الاستفتاء من مهمتها، وبقي في دمشق الشيخ كامل وخالد الحكيم والشيخ رشيد رضا والدكتور شهبندر ومحب الدين الخطيب واسكندر عمون ينشطون في سبيل استقلال سورية ووحدتها من الناشطين تحت راية واسم حزب الاتحاد السوري، مع بقاء الحزب محدود النطاق في الشام قاصراً على من جاء من أعضائه من مصر، ومع اعتبار انفسهم من جبهة المعارضة للحكم القائم وجميعة الفتاة، وكانت الجمعية تتعامل وتتعاون معهم في بعض المواقف على هذا الأساس.

ومن الفارقات الطريفة أن هذا ظل طابعا لجميعهم، مع أن خالد الحكيم والشيخ كامل القصاب كانا من اعضاء الجمعية القدامى الذين يشهدون الاجتماعات ويشتركون في انتخابات

---

(1) يقصد بذلك الزواج والطلاق والإرث والوصية والوصاية... الخ.

الهيئـة، ومنهم من صـار عضـواً في هيئتهـا المـركزيـة وهو الشيـخ كامـل. وأن الشهبنـدر ورشيـد رضا قبـلا الانضمام للجمعيـة وأقسما يمين الإخـلاص لها اثنـاء وجودهم في العهـد الفيصلي، وقد ذكرنا اسماءهم في قوائم اعضاء الجمعية، وكانت خلفية هذه المفارقة خلافهم مع فيصل وأبيه وعدم انسجامهم التام مع ترشيح فيصل لملكية سورية خلافاً لمعظم اعضاء الفتاة القدامى والجدد.

ولقـد تعرفنـا على جميـع القـادمين منهم، وتوثقت الصداقة الحميمة بيننا وبين الشيخ رشيد رضـا والشيخ كـامـل القصـاب ومحب الـدين الخطيب، وكتبنا ما رأينا مفيداً عنهم وانطباعاتنا عنهم وصداقتنا معهم وصلاتنا بهم.

شيء عن خالد الحكيم:

اما خالد الحكيم فقد كنا نلتقي به ونتـزاور ونتحـدث ونتـوافق في كثيـر من المـواقف والأفكار، ولكن صلتنا به ظلت في نطاق أخوة الجمعية، ولم تنعقد بيننا وبينه صداقة حميمة. ولقد كان قوي الشخصية عاقلا حسن الاطلاع والمحـاكمة والحـديث، ولكنه كـان الى ذلك عنيدا حجاجا كثير النقد، فيه شيء من السخرية والجفاف في أقواله وآرائه. وكان آخر عهدنا به عهد فيصل حيث افترقنا حينمـا أوشكت الشام على السقوط في الاحتلال الإفرنسي، وظل هو فـي دمشـق لأنـه لم يـكن ذا نـشـاط معـاد للافرنسيين، ولم نسمع شيئاً عنه بعد ذلك ولا ندري متى توفاه الله رحمة الله عليه.

شيء عن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر:

وأما الدكتور شهبندر، فقد كنا كذلك نلتقي ونتحـدث ونتـوافق في كثيـر من المـواقف والأفكار، ولكن لم تنعقد بيننا صداقـة حميمة ايضـاً. ولقد ذكـرنـا قبـل انـه كـان ينشط مـع النـاشـطين في مجـال الحـركـة العـربيـة قبـل الحرب، وأن جمال باشا قـرّبه اليـه هو وعبـد الكريم الخليل ومحمد كرد علي حينما سولت له نفسه بإمارة سورية ومصر أو إحداهما، وأنه لما أخفق في مطمحه وانقلب على من قرّبهم اليه همّ باعتقاله كما اعتقـل عبد الكـريم الخليل، ولكنه استطاع ان يحدس الخطر وأن يفلت ويفر الى العراق عبر الصحراء ثم الى مصر، واندمج في حركة اللامركزية مع رجال حزبها ونشاطهم. ولقد كان واسع الاطلاع حسن الثقافة العـربية والغربية وخطيباً مفوها وكاتبا. وكان فيه شيء من الحـدة والنـزق والعصبيـة، وشيء كثيـر من الاعتداد بالنفس والطموح الى الزعامة والبروز وتوجيه اللوم والنقد، وظل كل هذا ملازما له في عهـد فيصل وبعـده، ومع انـه قبل الانتسـاب لجميعة الفتاة وأقسم يمين الإخلاص لها، فإنه ظلّ غريباً عنها بروحه وقلبه وشديد المعارضـة والتجريح لها.

وظل هذا كذلك ملازماً له في عهد فيصـل وبعده، ولقد كان في عهد فيصل رمزا للمعارضة والتـطرف في المطالب والمـواقف، حتى لقـد رأت الهيئة المركـزية للفتـاة ان ترشحـه وزيراً للخارجية في وزارة هاشم الأتاسي التي خلفت وزارة الـركابي في العهـد الاستقلالي، حينمـا لمحت في فيصـل بعد اعـلان الاستقلال بـل وقبيله على ما سوف نشرحه بعد شيئاً من الحيرة والرغبة للتفاهم مع فرنسا، ولو بقبول انتـدابها بصورة ما ليكون قوة ضاغطة في الوزارة وأصرت على فيصل حتى قبل بإسناد وزارة الخارجية له وجاء هو الى المؤتمر فدافع عن سياسة الوزارة، وقال ان الوزارة هي دفاعية وجاءت للدفاع ولا

يمكن ان تتوانى او تتساهل في مواقفها. ونسجل بحق انه لم يكن في الوزارة ذا فعالية او قوة ضاغطة كما كنا نتوقع ويتوقع الناس منه. ولقد بقي في دمشق بعد خروج فيصل ودخول الافرنسيين، وسكت عنه الافرنسيون لأنه لم يكن له مواقف عدائية قوية وصريحة ضدهم، واخذ ينشط في سبيل قضية سورية وحقوقها واستقلالها، وكان له مواقف وطنية قوية، حيث قاد مظاهر شعبية ترحيبية بالمستر كراين عضو لجنة الاستفتاء الاميركية حينما زار دمشق بعد سنتين من الاحتلال الافرنسي، وخطب خطاباً حماسياً ازعج السلطات وحملها على اعتقاله مع آخرين لفترة من الوقت.

ولما أخذت الحركة الوطنية في سورية تشتد أسس مع رفاق له في الحركة حزبا سموه حزب الشعب، وكان له نشاط حسن في نطاقه. ولما اندلعت ثورة جبل الدروز وترشحت لتكون ثورة عامة عارمة لجميع سورية انضم اليها وصار زعيمها السياسي الى جانب سلطان الأطرش قائدها الحربي، ونسجل انه لم يسجل فعالية جدية كما كان الناس يتوقعون منه، وكان على خلاف ونشاز وتبادل تهم وانتقادات مع رجالات سورية الذين كانوا منتسبين لجميعة الفتاة وينشطون في مجال الحركة الوطنية في سورية والحركة الثورية في خارجها، ولما توقفت الثورة ذهب الى مصر وفتح عيادة فيها مع استمراره في النشاط السياسي مع الناشطين في سبيل استقلال سورية، وفي مناوأة الافرنسيين، وفي توجيه التهم والنقد والمعارضة في نفس الوقت للذين كانوا ينشطون في داخل سورية، الذين تجمعوا في نطاق الكتلة الوطنية برئاسة هنانو ثم برئاسة الأتاسي، والذين كان معظمهم من المنتسبين لجمعية الفتاة القدامى. ولقد زرت مصر في سنة 1932 فزرته في عيادته وجددنا عهد تعارفنا ثم عاتبته على أسلوبه الذي يصطنعه إزاء رجال الجمعية، ولكنه أصر على صوابه فيه.

ولما اتفقت الكتلة الوطنية مع فرنسة وعقدت معاهدة الاستقلال سنة 1936 وقام العهد الوطني الاستقلالي برئاسة جمهورية هاشم الأتاسي انتقدها وعارضها، ولقد دعي الى دمشق من قبل حكومة العهد للتعاون والمشاركة فجاء واستقر في دمشق وفتح عيادة، ولكنه ظل في موقف المعارضة الشديدة للكتلة الوطنية وحكومتها، وتجمعت حوله كتلة معارضة شديدة ايضا. والمبررات كانت تسمح بذلك بعض الشيء بسبب ثغرات في نصوص المعاهدة من جهة ومراوغات الإفرنسيين وسوء نيتهم من جهة أخرى، غير أنه يؤخذ عليه وعلى جماعته انهم لم يلحظوا أو يقدروا الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالقضية والكتلة الوطنية.

ولقد نقضت فرنسا المعاهدة في أواخر سنة 1939 وعادت الى أسلوب الحكم الانتدابي او الاستعماري السابق للمعاهدة، فأراد هو وجماعته ان يرى في ذلك صواب موقفه، بل وصاروا يتهمون الكتلة بأنها من أسباب النكث الإفرنسي، لأن الإفرنسيين حسبوا أن ذلك لن يكون له ردة فعل شعبية قوية بزعم ان الكتلة فقدت شعبيتها بسبب تساهلها.. ولقد اغتيل بعد النكث بقليل اي في أواخر سنة 1939، فألصق انصاره تهمة تدبير ذلك بأركان الكتلة وبخاصة بسعد الله الجابري وجميل مردم بك ولطفي الحفار وشكري القوتلي، وكانت التهمة لشكري أضعف لأنه كان استقال من الوزارة قبل نحو سنة من النكث الإفرنسي بسبب تصرفات جميل مردم بك ولطفي الحفار، وكثرة تساهله

مع الافرنسيين باجتهاده انقاذ ما يمكن انقاذه، وصدر حكم المحكمة بالقضية واعلن براءتهما مما اتهموا به.

وكان الدكتور يسكن بيتاً فوق بيتنا في شارع الشعلان فيه سكنه وعيادته، ولقد اعتقلتنا السلطات الإفرنسية قبل اغتياله بأشهر قليلة بسبب نشاطنا في تمويل وتأجيج ثورة فلسطين وبضغط من الانكليز، حتى قال أحد أصدقائنا بين المزح والجد إن سجنك السابق لاغتياله كان من حسن حظك، وإنه لو اغتيل وأنت خارج السجن لكانت التهمة وجهت إليك لأنكما في عمارة واحدة ولما بينك وبين رجال الكتلة من صداقة حميمة، ولما كان تحت يدك من ثوار سوف يظن أنهم هم الذين اغتالوه بتدبير منك.

وعلى كل حال لقد كان الدكتور من رجالات العرب عامة وسورية خاصة البارزين المعاصرين الذين شغلوا جزءاً كبيراً في تاريخ الحركة العربية الحديثة في أثناء الحكم التركي وبعده، بالإضافة الى ما كان عليه من مواهب عقلية وثقافة واسعة عربية وغربية وقوة عارضة وخطابة ونشاط وحيويه رحمة الله عليه.

شيء عن رفيق العظم:

ولقد اجتمعت برفيق العظم مرتين في أثناء وجوده في دمشق، والرجل مهيب الخلقة وقور رصين وذو ثقافة إسلامية وعربية واجتماعية واسعة، وكان ينشر بعض الأبحاث الدالة على ذلك في المجلات، وله كتاب مشهور هو (أشهر مشاهير الإسلام)، في أسلوبه ومنهجه دلالة على فهم عميق للأحداث الإسلامية ومداها، وكان ذا مركز محترم في أوساط مصر وبخاصة أوساط الجالية السورية. ولا نعرف يقيناً ظروف نزوحه الى مصر، والراجح أن نزعة الحرية والحيوية فيه هما سبب النزوح في ظروف كان الحكم في سورية وسائر بلاد العرب تعسفيا واستبدادياً وكثير الفساد وشديد الوطأة، وقد أهلته صفاته ومركزه ونزعته وحيويته وثقافته ليكون رئيس حزب اللامركزية الذي كان له دوي عظيم ونشاط اعظم في مجال الحركة العربية اثناء الحكم التركي. وقد مات في مصر في الثلاثينات رحمة الله عليه.

شيء عن ميشيل لطف الله:

وقد اجتمعنا كذلك مرة واحدة مع ميشيل لطف الله الذي استطاع في ظروف ما وبأسلوب ما أن ينال لقب أمير وباشا من الملك حسين، وأن يكون لقب الإمارة شاملاً لأخوته. والانطباع الذي تركه اجتماعنا به ثم مسموعاتنا فيما بعد عنه انه يبذل بسخاء في سبيل الحركة السورية، وأنه كان جاداً في مناوأته للاستعمار الافرنسي والمطامع الافرنسية في سورية، وقد عقدت الجمعيات السورية في جنيف في سنة 1921 مؤتمراً لوضع ميثاق عمل في سبيل استقلال وحرية سورية فاختاره المشتركون في المؤتمر رئيساً ثم رئيساً للجنة التنفيذية التي انبثقت عن هذا المؤتمر، ولم يكن ذا ثقافة واسعة ولكنه لم يكن غبياً وإن كان يلمح فيه شيء من السذاجة، ولقد راودته فكرة الإمارة على سورية عبر حزب الاتحاد السوري، وبذل لهذا الحزب أموالاً ساعدته على النشاط، ولكن هذه الفكرة خابت حينما قرر المؤتمر السوري شكل الملكية للدولة السورية، ثم رشح الأمير فيصل لها في القرار الذي قدمه للجنة الاستفتاء الاميركية، ثم نفذ ترشيحه حين قرر في باريس 1920 إعلان استقلال سورية. غير ان الفكرة عادت تراوده بعد ذهاب فيصل من سورية وارتقائه عرش

العراق، وعلى أمل أن تسفر الجهود عن نتائج ايجابية في القضية السورية فيكون أميراً لها ورئيساً. وربما كان بعض من حوله يغذون فيه هذه الفكرة لاستمرار وضمان انفاقه على القضية وعليهم معاً، ولم يخالجني شعور حينما كنت أسمع أخبار طموحه وترشيح من حوله ان ذلك كان جاداً، ولقد توفي الأمير في العشرينات فحاول أخوه الأمير جورج أن يحل محله في الجهد في سبيل سورية ومطمح الإمارة أو الرئاسة فيها، ولكنه كان أرعناً فكانت بوادره مثار تندر الناس.

شيء عن اسكندر عمون:

ولقد اجتمعت بإسكندر عمون في دمشق أكثر من مرة لأنه أقام مدة أطول من رفيق العظم وميشيل لطف الله، وكان رجلاً وقوراً رضياً سديد الرأي والمحاكمة ضليعاً في العلوم الحقوقية، وعروبياً استقلالياً صلباً على ما انطبع في ذهني عنه، وبقي تعارفنا عابراً دون صداقة حميمة وأظن أنه عين في حكومة المديرين التي كان يرأسها الركابي في المرحلة الأولى في عهد فيصل مديراً للعدلية لفترة من الوقت، ثم غادر دمشق عائداً الى مصر.

شيء عن حزب العهد وانشطاره الى عهد عراقي وعهد سوري أثناء الثورة الهاشمية:

ومن الأحزاب والتنظيمات التي كانت في عهد فيصل (حزب العهد)، ولقد شرحت في كتابي نشأة الحركة العربية الحديثة منهج وكيفية تشكيل هذا الحزب في زمن الدولة العثمانية الذي كان عسكرياً في الدرجة الأولى، فلا أرى ضرورة لشرح جديد. ولقد انضوى الى هذا الحزب عدد أكبر من الضباط السوريين والعراقيين في الجيش العثماني، واستطاع عدد منهم الالتحاق بالثورة الهاشمية حينما اندلعت، منهم من ذهب تسللاً ومنهم من أسر من قبل قوات الحلفاء فطلبوا السماح لهم بالانضمام الى الثورة وأجيبوا لذلك. ولقد نشب شيء من الخلاف بين الضباط السوريين والعراقيين في أثناء الثورة أدى الى انشطار الحزب الى حزب عهد عراقي وحزب عهد سوري. ولعل مما سوغ لهم هذا الانشطار ما بدا من علائم انفصال قضية سورية عن قضية العراق في المصير السياسي، ولقد انشغل كل من الشطرين ابان عهد فيصل بقضية وطنه الخاص.

العهد العراقي وأركانه ونشاطه:

مع استدراك أمر مهم هو أن عدداً من ضباط العهد العراقيين كانوا قبل الانشطار منتسبين الى جمعية الفتاة أيضاً، ومنهم ياسين الهاشمي ومولود مخلص وعلي جودة الأيوبي وجميل المدفعي، فكان هؤلاء ينشطون في نطاق الجمعية في سبيل الشؤون العربية العامة وشؤون سورية منها أيضاً، بالإضافة الى اشتغالهم بقضية العراق. أما الذين لم يكونوا منتسبين منهم الى الفتاة فقد ظلوا عهديين. وكانت الفتاة تتعامل معهم على أساس كونهم من حزب غير حزبها، وكانوا هم يتعاملون معها على هذا الأساس أيضاً، مع التنبيه على أنه لم يكن بينهم وبين الفتاة صدام وتناظر، لأنهم انصرفوا كما قلنا الى قضية العراق. وممن نتذكرهم من هؤلاء نوري السعيد وتحسين العسكري وتحسين علي وجعفر العسكري وصبيح نجيب وراسم سردست وابراهيم كمال وعبد الله الدملوجي وثابت عبد النور وهذا كان مدنياً ـ غير عسكري ـ

وغيرهم. وقد تعرفنا عليهم وقام بيننا وبين غير واحد منهم شيء من المحبة والمودة والانسجام.

شيء عن نوري السعيد ونشاطه ومواقفه وصلاتنا ولقاءاتنا به:

ومن أبرزهم وألمعهم نوري السعيد، وكان من مؤسسي حزب العهد مع عزيز علي الضابط المصري المشهور، ولقد كان شاباً ذكياً طموحاً جم النشاط. وانضم الى الثورة الهاشمية ومنحه الملك حسين لقب باشا ورتبة لواء، وكان من كبار أخصاء فيصل أثناء العهد الشامي، وكان ذا بروز وحيوية، وكان فيصل يعهد اليه بمهمات وسفارات سياسية، وكان يبذل جهده وذكاءه في سبيل حسن انجاز ما يعهد اليه، وكانت أكثر هذه المهمات والسفارات مع السلطات الإفرنسية، حتى لقد اتهم بأنه عميل لها ولم يكن هذا صحيحاً، ولكنه كان بأسلوبه اللبق يجعل ذاته مقبولاً. ولقد كان يجنح الى المداورات والنشاط في الكواليس، ولم يكن يتورع عن الدس والتدليس، حتى كان خصومه يسمونه (الألعبان). ولقد كانت أخلاقه هذه وحسن انسجامه مع الإفرنسيين مما جعل الفتاة تحذر منه فلم تضمه اليها في بدء العهد وقبل مجيئنا، ولم يقترح أحد أثناء وجودنا ضمه اليها.

ولقد كنا نلتقي به مراراً في سياق لقاءاتنا مع فيصل وترددنا على قصره، وفي اجتماعات أخرى أيضاً، فصار بيننا ألفة وصداقة وان لم تكن قلبية وحميمة. ولقد التقينا به مراراً بعد عهد دمشق، وأولاهما حينما ذهبنا الى بغداد في آخر سنة 1933 لحضور مأتم الملك فيصل، وكان يتولى وزارة الخارجية وكان لقاؤنا حاراً وكأصدقاء ليس بينهم تكلف، ثم التقينا به مراراً في فلسطين ومصر ودمشق وبيروت وبغداد في سياق رحلاته ورحلاتنا ونشاطنا المشترك في سبيل قضية فلسطين التي كان له نشاط كبير في سبيلها في أثناء الاضراب الطويل وبعده في سني 1936، 1937، 1938، وقد سجلنا لقاءاتنا وما كان فيها في سياق تسجيلاتنا أحداث السنوات الثلاث المذكورة، وسوف ترد في مناسباتها. وكانت لقاءاتنا حارة حميمة.

ولم نلقه بعد سنة 1938، ولكننا كنا نتابع نشاط بعضنا ونتبادل السلامات من بعيد، ولقد ظل ملتصقاً بفيصل وصار من كبار مستشاريه وأوليائه حينما صار ملكاً للعراق سنة 1921، ثم ظل كذلك في زمن ابنه غازي، ثم في زمن ابن غازي فيصل، ووصاية الأمير عبد الإله، وشغل جزءاً كبيراً في تاريخ العراق السياسي، وتعهد مراراً الوزارة ورئاسة الوزارة، وكان رمزاً للموالاة للسياسة البريطانية على اعتباره أن التضامن مع بريطانيا هو الأفضل والأصلح للمصالح العراقية بخاصة والقضايا العربية بعامة، وكانت الأسرة الهاشمية منسجمة مع هذا الاعتبار كل الانسجام، وكان هو رجلها الأقوى، ومن هنا كان دائماً في الحكم، وحينما لا يكون في الحكم لأسباب وظروف محلية كان يعد رجل القصر ومستشاره والناطق بلسانه، وكان لذلك ثم لصفاته وأخلاقه التي ذكرناها على خلاف ونشاز مع معظم رجالات العراق الذين شغلوا جزءاً كبيراً ولعبوا أدواراً مهمة في تاريخ العراق مثل ياسين الهاشمي وجميل المدفعي وعلي جودة الأيوبي ومزاحم الباجة جي ورشيد عالي الكيلاني وغيرهم.

وأذكر أني زرت بغداد في أيلول 1937 لتشكيل لجنة دفاع عراقية عن فلسطين وفق قرار اتخذه مؤتمر عربي عقد في بلودان في ذلك

الشهر، احتجاجاً على قرار اقامة دولة يهودية في فلسطين أعلنته الحكومة البريطانية حسب توصية لجنة التحقيق الملكية، وكان جميل المدفعي آنذاك رئيساً للوزارة على أثر سقوط عهد انقلاب بكر صدقي وحكمة سليمان، وكنت أتردد عليه في بيته لما بيننا من صداقة حميمة، فكان يشكو لي من تحركات نوري السعيد، وطلب مني أن أذهب اليه وأعرض عليه أن يذهب سفيراً للندن، على أن يمنحه ما يريد من مخصصات وامتيازات رغبة في أبعاده عن بغداد للخلاص من تحركاته، وذهبت اليه فعلاً واستقبلني بحرارة والفة، ونقلت اليه عرض جميل فضحك وقال إنه باق في بغداد وهي مركز نشاطه، وأدرك أن جميل انما يريد ابعاده.

ولقد نشط أثناء الحرب العالمية الثانية بسبيل تلك الفكرة، وقدم المذكرة التي عرفت بالمذكرة الزرقاء، لأنها جاءت ضمن وثائق نشرت في كتاب أزرق للحكومة البريطانية على ما أظن، وأدى نشاطه ونشاط الأمير عبد الإله ومصلحة الانكليز معاً الى قيام جامعة الدول العربية في سنة 1944 على ما سوف نشرحه في مناسبته، وظل مع ذلك يسعى في سبيل ذلك الاتحاد الذي كان يطلق عليه اتحاد الهلال الخصيب المتحالف مع الإنكليز، وكان يعتقد هو وكثيرون من رجالات العرب ان هذا الاتحاد حتى لو تم مبدئياً تحت هيمنة الإنكليز فإنه يكون منطلقاً لتطور اتحادي استقلالي عربي أجمع، وانه ما دام العراق والأردن وفلسطين تحت تلك الهيمنة فالأفضل أن تكون مجتمعة في نطاق واحد تشريعي واقتصادي وسياسي.

ولما قام حسني الزعيم بانقلابه ضد حكم شكري القوتلي في سورية على ما أشرنا اليه قبل، سارع نوري وكان وزيراً لخارجية العراق الى القدوم الى دمشق مهنئاً للزعيم مشجعاً على اندماج سورية في اتحاد الهلال الخصيب، وكان شكري من المعارضين له ولدعوة سورية الكبرى التي كان يدعو الأمير عبد الله اليها. وكان بين سورية والقوتلي من جهة وبين العراق والأردن من جهة أخرى جفاء ومساجلات غير ودية بسبب ذلك. ولقد جاء في نفس اليوم الذي جاء فيه نوري الى دمشق وفد من قبل الأمير عبد الله مهنئاً، حيث أثار هذا وذاك ظناً بل يقيناً لدى المراقبين وكنا منهم، حيث كنا في دمشق، بأن للإنكليز وللعراق وللأردن وبالتالي لنوري السعيد يداً في الانقلاب، واستطاعت مصر والسعودية أن تجذب حسني الزعيم وتغريه بأن يجعل الانقلاب لحسابه على الأقل لا لحساب العراق والأردن، فانجذب وأعلن نفسه رئيساً للجمهورية ووقف مجافياً للعراق والأردن، فقام سامي الحناوي وهو ضابط سوري كبير بانقلاب ضده، وحينئذ تحركت من جديد فكرة اتحاد الهلال الخصيب واندمج فيها كثير من رجالات سورية الوطنيين انطلاقاً من الاجتهاد الذي ذكرناه، حتى كادت تصل الى نتيجة ايجابية لولا ما كان من تريث وتباطؤ في الخطوات اغتنمتها مصر والسعودية لإحباط واثارة انقلاب جديد أطاح بعهد سامي الحناوي، وقد قتلته ثورة 8 تموز 1958 في العراق غفر الله له.

وفي سنة 1954 تقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا من ورائها باقتراح لجمال عبد الناصر بأن يقوم حلف بين الدول العربية في الشرق الأوسط وبين الدول الغربية لملء الفراغ الدفاعي في هذا الشرق، ومواجهة أخطار الشيوعية والاتحاد السوفييتي إبان اشتداد الحرب الباردة بين المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة والمعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد

السوفييتي، فطلب جمال أولاً حل المشاكل القائمة بين العرب والمعسكر الرأسمالي من احتلالات انكليزية في مصر والسودان والعراق والاردن وليبيا والسواحل الشرقية والجنوبية لجزيرة العرب، ثم إزالة البلاء الأعظم الذي بليت به فلسطين، فصار معظم فلسطين تحت احتلال اسرائيل ربيبة هذا المعسكر وبتعضيده، وشرد معظم سكان الأراضي التي وقعت تحت هذا الاحتلال تشريداً معيباً مفجعاً، وقال لهم انه سيبدو سخيفاً أمام العرب والعالم وخائناً إذا تحالف مع المعسكر الرأسمالي ضد خطر موهوم، في حين أن خطر هذا المعسكر هو الراهن الجاثم عليهم بكل بلائه وشدته وآلامه، وأنه مستعد اذا ما حلت هذه المشاكل ان يتحالف مع المعسكر الرأسمالي على أن يكون العرب وحدهم هم الذين يسدون الفراغ الدفاعي بمساعدته على تسليحهم، ولم يقبلوا منه موقفه فرفض العرض، فوجهوا العرض للعراق بقيادة الامير عبد الإله الوصي ونوري السعيد رجل الحكم القوي الذي كان رئيساً للوزارة، وقالوا لهم إن جمال يتحداهم في زعامة الهاشميين للعرب ووافق الوصي ونوري السعيد على الاقتراح، وحاول نوري إخضاع دول الجامعة العربية به عبر اجتماع لمجلس الجامعة انعقد للبحث في الأمر بدعوة من مصر والعراق، وكان نوري يمثل العراق فيه، ولكنه بقي منفرداً لأن ممثلي الدول الأخرى تضامنت في مصر في موقعها المنطقي، وحينئذ قرر الوصي ونوري السعيد الإنفراد فقام الحلف الذي عرف بحلف بغداد، والذي تألف من العراق وايران وتركية والباكستان وبريطانية ومن ورائهم الولايات المتحدة مراقبة ونصف شريكة، وقام تشاد وتصارع وتهاتر وجفاء بين جبهة الرفض بقيادة مصر وجمال وتضامن السعودية وسورية بنوع خاص، وبين عراق الوصي ونوري السعيد، واستطاعت هذه الجبهة تجميد الحلف. ولقد أوشك أن يشمل الأردن الهاشمي، فكان الشعور العربي العام المضاد في الأردن سبباً في إحباط ذلك.

وحقد الوصي ونوري السعيد على مصر وجمال وحتى وصل الأمر الى تحريضهما لإيدن رئيس وزارة بريطانيا عليهما حينما أمم جمال القناة، وكانا في سهرة معه حينما أذيع الخبر، فقالوا يجب أن تضرب ضربة شديدة كما اذيع وتواتر، وكان لذلك أثر ما في العدوان الانكليزي الإفرنسي الإسرائيلي على مصر سنة 1956، ولقد كان نوري وأولياؤه ينشرون أن لحلف بغداد فوائد كبيرة للعرب ولقضية فلسطين، فكتبت مقالاً في جريدة النصر السورية فندت ذلك وأثبت من نصوص الحلف وما كان من مساجلات وحوار حوله في مجلس العموم البريطاني في زيف ذلك، وتعريفه بقضايا العرب وقضية فلسطين خاصة، وكان عنوان المقال «مقارنة بين الربح والخسارة من حلف بغداد».

ولقد ظل التشاد بين جبهة الرفض وبين عراق الوصي ونوري السعيد الى أن تفجرت ثورة العراق في تموز 1958، التي قتل فيها الوصي والملك الصغير وبعض أفراد الأسرة الهاشمية، وحاول نوري الاختفاء والإفلات ولكن الثورة ظفرت به وألحقته بأصدقائه غفر الله له.

شيء عن ثابت عبد النور:

وممن توثقت الصداقة بيننا وبينهم ممن ذكرت أسماءهم من رجال العهد العراقي ثابت عبد النور، وكان مسيحياً ذكياً قويماً جم النشاط

سديد المحاكمة نير العقل، ولم يبرز في مجال الحكم في عهد فيصل الشامي ولا في عهده العراقي، وقد أسلم، على أنه لم يكن منزوياً ومغموراً فيهما. وقد التقينا به بعد عهد فيصل الشامي أكثر من مرة لقاء صداقة ومودة، وكان يكثر الانتقاد والتجريح لرجالات العرب عراقيين وغير عراقيين، وكانت له أفكار واقتراحات لا تخلو من تخيلات وبعد عن الواقع والتطبيق، وكان آخر عهدي به لقاء فلسطين في سنة 1935 ولا أعرف بعد ذلك ما جرى له ومتى توفي.

أما بقية من ذكرنا من رجال العهد العراقي فقد كان تعارفنا بهم عابراً، وكنا نلتقي بهم في دمشق، ولكن لم تنعقد بيننا وبينهم ألفة وصداقة حميمة.

وظل الأمر بيننا وبينهم على هذه الصورة بعد سقوط العهد الفيصلي الشامي، وقد التقينا ببعضهم في بعض زياراتنا لبغداد فكنا نجدد تعارفنا وحسب.

العهد السوري وبعض أركانه ومدى نشاطه:

ولقد احتفظ ضباط العهد السوريين بتنظيمهم بمثابة حزب معارض للحكم الفيصلي وحزبه (أي جمعية الفتاة)، ولقد تعامل التنظيم والجمعية على هذا الأساس، وكانا مع ذلك يتعاونان على هذا الأساس في المواقف التي كانت المصلحة القومية تقتضي التعاون فيهما على ما سوف نشرحه بعد.

وكان من أبرزهم مصطفى وصفي وعارف التوام ورشيد الطرابيشي ورشيد بقدونس ومحيي الدين صادق، وقد رأت جمعية الفتاة في صفات ودماثة الأخيرين ما جعلها تعرض عليهم أخوة الجمعية ووافقا وصارا عضوين من أعضائها مع بقائهما أيضاً في التنظيم العهدي، وكان ذلك مما كان يلطف جو الصلات بين التنظيمين.

ولقد طعّم ضباط العهد السوري حزبهم أو تنظيمهم ببعض المدنيين، وكان من أبرز هؤلاء حسني البرازي وحسن الحكيم والأمير عز الدين والأمير فؤاد الشهابي، وكانت هيئة ادارة تنظيمهم تتألف ممن ذكرنا اسماءهم من ضباط ومدنيين، وقد كان الضباط ضباطاً في الجيش السوري الذي أنشىء في عهد فيصل، كما كان حسني البرازي وحسن الحكيم موظفين في المالية، فكان ذلك مما جعل نشاطهم الحزبي محدوداً ولا أثر ايجابي شعبي له. غير أن مواقفهم إزاء الأحداث والحلول السياسية المطروحة كانت قوية وصلبة، وكانوا ينتقدون ما يتراءى لهم انه غير سليم من أساليب الحكم وأساليب جمعية الفتاة. وبرغم انهم كانوا موظفين في الجيش والمالية فقد اتسعت حوصلة العهد الفيصلي حكمه وحزبه لأن يقفوا موقف المتصلب المتشدد المعارض للحكم وحزبه المنتقد لها كما هو شأن المعارض.

ولقد ضمت جمعية الفتاة حسني البرازي أيضاً لما كان يبدو من نشاطه وحيويته، ولكنه ظل غريباً بقلبه وروحه عنها.

ولقد تعرفت عليهم جميعاً وصار بيننا ألفة، وصار بيننا وبين محيي الدين صادق ورشيد بقدونس صداقة على ما ذكرناه قبل، أما الآخرون فقد ظلت صلتنا بهم صلات ألفة دون صداقة حميمة.

شيء عن مصطفى وصفي:

ولقد كان مصطفى وصفي الأبرز من العسكريين بقوة شخصيته، ولكنه كان محدود الثقافة، وكانت السمة العسكرية هي الغالبة عليه، وقد توفي في الثلاثينات رحمة الله عليه،

وأظن أنه كان له مشاركة في النشاط الوطني ثم في الثورة السورية حينما اندلعت، وقد كان آخر عهدي به في دمشق قبل سقوط العهد الفيصلي.

شيء عن حسني البرازي وحسن الحكيم:

ولقد كان كل من حسني البرازي وحسن الحكيم شابين متحركين نشيطين، مع القول أن الأول كان أشد جداً، وكانا ذوي ثقافة عربية وتركية حسنة، وقد عمرا طويلاً ومات أولهما في سنة 1972 رحمة الله عليه ولا يزال الثاني على قيد الحياة حينما بيضنا هذه الجذاذات في أيلول سنة 1976، وهما أسن مني ببضع سنين. وقد كانا أولاً موظفين في المالية في زمن الدولة العثمانية، ثم صارا كذلك في العهد الفيصلي. وقد أسند الى حسن الحكيم في هذا العهد وظيفة مدير عام البرق والبريد، وحمل مسؤولية تأخير برقية أرسلها الملك فيصل للجنرال غورو القائد الافرنسي قبل زحفه على رأس جيشه نحو دمشق جواباً على إنذاره، حتى لقد قيل انه أخرها عمداً لأن فيها قبول ذلك الإنذار، وكان هذا مخالفاً لموقفه ورأيه، وأظن أن يده كفت عن الوظيفة بسبب ذلك. وقد قرأت دفاعاً له في مذكرات نشرها سنة 1972 ينفي العمد في التأخير، وأعتقد انه صادق فيه.

وكان حسن الحكيم مؤيداً أو متفقاً مع الدكتور الشهبندر في مواقفه التي شرحناها تجاه الكتلة الوطنية ومعاهدتها مع الإفرنسيين وحكومتها في سني 1936ـ 1939، وحينما غزا الإفرنسيون دمشق في تموز 1920 خرج مع من خرج من سورية الى عمان. ولما قامت إمارة شرق الأردن برئاسة الأمير عبد الله دخل في حكومته كمستشار للمالية في مجلس المستشارين الذي كان هو حكومة الأمير، ثم عاد الى دمشق بعد ابرام اتفاقية الاستقلال وقيام العهد الوطني الاستقلالي الأول برئاسة هاشم الأتاسي. ولقد برز كل من حسني وحسن في الخمسينات، وصار الأول عضواً في المجلس النيابي عن حماة، وصار كل منهما في ظروف استثنائية وزراء ورؤساء وزارات، وصار حسن رئيساً للوزارة أكثر من مرة. وقد التقيت بحسن في عمان حينما جئت اليها بعد قدوم الأمير عبد الله وأقمت فيها فترة، ثم التقيت بالاثنين أكثر من مرة حينما أقمت في دمشق في سنة 1937 وبعدها، وكان لقاؤنا لماماً ومصادفة، ولم يكن قد انعقد بيننا وبينهما صداقة حميمة. وكنا حينما نلتقي يسلم أحدنا على الآخر بمودة كأصدقاء تعارفوا وتعاونوا معاً في عهد فيصل الشامي وقد انصرف حسن الحكيم في أخريات حياته ولا يزال الى كتابة ونشر مذكراته وكتب تاريخية أخرى عن حكومات سورية ووثائق الحركة العربية والسياسية.

حزب الاستقلال وظروف إنشائه وبروزه ومدى نشاطه:

ومن الأحزاب التي انشئت في عهد فيصل حزب الاستقلال العربي، وقد قررت الهيئة المركزية لجمعية الفتاة في الدورة الثانية لوجودنا فيها التي كنت سكرتيراً لها انشاءه، ولقد حاولت الجمعية أن تحتفظ بسريتها المطلقة على ما ذكرنا قبل، ولكنها لم تستطع بعد أن بلغ عدد أعضائها من قدامى وجدد نحو مئتين أو أكثر معظمهم في دمشق، وكثير منهم يعرف بعضهم الآخر ويعرف أخوته معهم في الجمعية، وصارت تسمى برجال الغيب وبأولاد حنيكر تعبيراً عن سريتها التي لم تبق سراً، ولكنها في الوقت نفسه لم تصل في بروزها الى الحد الذي

تكون فيه كتنظيم سياسي يتعامل مع الناس بإسم صريح. وكان هناك أشخاص كثيرون مسلمون ونصارى أصحاب نشاط وحركة وحيوية وثقافة يعيشون في مجال عهد فيصل موظفين وغير موظفين وأعضاء في المؤتمر السوري، لم يكونوا حسب مقاييس الجمعية أهلاً ليكونوا من أعضائها، فقررنا إنشاء هذا الحزب ليكون واجهة علنية للجمعية تحمل اسم تنظيم حزبي علني ويتعامل مع الأحزاب على هذا الأساس بدون زج لإسم الفتاة في هذا التعامل وصونا لها من التبذل، وكان ذلك في أوائل عام 1920. وقد أعلن تأسيسه كحزب ذي برنامج استقلالي يستهدف الوحدة العربية وبذل كل جهد للنهوض بالأمة العربية الى مصاف الأمم الراقية، وقد تقرر إدخال كثير من العناصر التي ذكرناها ممن لم يكونوا كما قلنا أهلاً لعضوية الجمعية حسب مقاييسها، وتقرر مع ذلك أن تكون عضويتها فيه تابعاً لبعض المراسم مثل الترشيح والتقرير والتحليف والواجبات المالية، وتقرر أن يوعز لأعضاء الفتاة القدامى والجدد أن يدخلوا أعضاء فيه، فلم يلبث أن قام الحزب قوي الاسم قوي النشاط كثير الأعضاء وإن انتسب اليه كثير من العناصر الوجيهة البارزة والنشيطة والمثقفة في دمشق، وعدد غير قليل من أعضاء المؤتمر السوري غير الدمشقيين. وقد جرى لإنشائه وتدشين قيامه احتفال، واجتمع عدد كبير من الذين انتسبوا اليه وأقروا برنامجه وقانوناً داخلياً له. وانتخبوا هيئة إدارية أولى له، وكانت مؤلفة مني ومن سعيد حيدر وأسعد داغر وفوزي البكري وعبد القادر العظم وسليم عبد الرحمن وفائز الشهابي، واختاروني سكرتيراً، وكنت في نفس الوقت سكرتيراً للهيئة المركزية لجمعية الفتاة، وسكرتيراً للمؤتمر السوري الذي توقف ثم استأنف اجتماعاته، وظللت سكرتيراً له وسكرتيراً للجنة الدستور التي ألفها المؤتمر لوضع مشروع دستور للملكة السورية المرتقبة. وكنت الى هذا سكرتيراً للجمعية الفلسطينية وعضواً في اللجنة السوطنية ممثلاً لحزب الاستقلال على ما سوف أذكره بعد، حيث يدل هذا على ما كان لي من جهد ونشاط في العهد.

وكان الارتباط وثيقاً بطبيعة الحال بين هيأتي حزب الاستقلال وجمعية الفتاة، بحيث كانت القرارات والأعمال متوافقة متطابقة، أو بكلمة أصح بحيث كانت قرارات ومقترحات ونشاط الحزب صدى لقرارات ومقترحات ونشاط وتوجيهات جمعية الفتاة، وهكذا دارت الآلة الظاهرية قوية نشيطة، واتجهت الأنظار لها. وكان ذلك وسيلة لحفظ سرّية جمعية الفتاة بشكل ما، حتى لقد اختلط الأمر على الناس بل وعلى كثير من خواصهم، فلم يعودوا يفرقون بين الجمعية والحزب، ثم لم يلبث أن غلب اسم الحزب وصار هو الذي يدور على الألسنة. ومع ذلك فمن الحق أن أسجل أن كثيراً من الأعضاء قد دخل في الحزب لأنه بدا لهم انه حزب الحكومة، وأن من الممكن أن يكون لهم بسبب انتسابهم اليه منافع وبروز، وأن من هؤلاء من لم يخلص للحزب ويندمج في توجيهاته ومقرراته وأهدافه اندماجاً مخلصاً، بل منهم من كان يقف معارضاً له وسلبياً ازاءه أيضاً. وهذا كان شأن عدد ممن ضمته الفتاة من قدماء وجدد على ما نبهنا عليه قبل.

بعض ممن أذكرهم ممن انتسبوا لهذا الحزب من البارزين:

وممن ترد أسماءهم الى ذاكرتي من الذين انتسبوا الى حزب الاستقلال من البارزين في

الوجاهة أو النشاط آنئذ: فارس الخوري وتوفيق شامية وأسعد داغر والشيخ تاج الدين الحسني والشيخ عبد القادر الخطيب وراشد مردم بك. ومعظم هؤلاء وأمثالهم ممن لم أعد أذكرهم انتسبوا الى الحزب للبروز لأنه كان حزب الحكومة، وكانوا وظلوا غرباء عن أهدافه ومبادئه، وقد قام شيء بيننا وبين معظم المنتسبين للحزب ممن لم يكونوا من أعضاء المؤتمر وأعضاء جمعية الفتاة، سواء منهم المخلصون أو الذين ظلوا غرباء بقلوبهم وروحهم عنه، صلات معرفة ومودة لم تصل الى صداقة حميمة، باستثناء أسعد داغر، وكنا نلقى منهم ولا فخر تقديراً وإعجاباً، وقد التقينا بعدد منهم بعد سقوط العهد الفيصلي الشامي في أثناء زيارتنا لدمشق أو إقامتنا فيها، فكان لقاء ود ومعرفة.

شيء عن أسعد داغر:

وأسعد داغر الذي استثنيناه كان شاباً لبنانياً ذكياً نشيطاً دمث الأخلاق عروبياً وحدوياً استقلالياً، وكانت تبدو عليه الطيبة وحسن الانسجام، وقد عاش في أثناء الدستور ردحاً من الزمن في الآستانة، واندمج في حركة الشباب العربي واشتغل في الصحافة. ولا أعرف يقيناً ما اذا كان درس أو تخرج من مدرسة عالية، ولكنه كان حسن الثقافة والاطلاع حسن الحديث، وقد جاء من الآستانة الى مصر فاشتغل في الصحافة، ثم جاء الى دمشق في جملة من جاء اليها في عهد فيصل الجياش، واندمج في الحركة العربية ورجالاتها وظل على حسن وانسجام معهم. وقد تعرفنا به في دمشق وأحببنا بعضنا، وتوثقت الصداقة بيننا واستمرت بعد سقوط عهد فيصل، وقد عاد هو الى مصر واشتغل في الصحافة وشغل مركزاً لا بأس فيه في الأهرام. وقد التقينا به أكثر من مرة فكان يتجدد بلقائنا عهد الصداقة والانسجام والتوافق، ونتداول في مختلف الشؤون العربية كأصدقاء عملوا في اتجاه واحد ومبدأ واحد. وآخر عهدنا به لقاء في مصر سنة 1947 ولم أعد أره، وقد توفاه الله في الستينات، وقد كتب مذكراته وذكرني فيها مراراً في مناسبات مختلفة.

الحزب الوطني السوري ونشأته وأركانه ومنهجه وما استشرى في نشأته من الروح الاقليمية ومداها:

ومن الأحزاب التي نشأت في عهد فيصل الحزب الوطني السوري، وقد أنشأه جماعة من وجهاء الشام مزيجة من الكهول والشباب، وظاهره حزب وطني استقلالي يعمل على استقلال ووحدة سورية ومساعدة الأمير فيصل في جهوده في تحقيق ذلك في ظل نظام ملكي ديمقراطي نيابي، ويبذل جهده في توطيد التعاون بين الأقطار العربية[1]، غير أن الذي لمحناه ولمحه كثير من المراقبين العروبيين أنه انشىء للدفاع عما سمي بحقوق الشاميين ازاء مناقشة ما كان يسمى بالغرباء. وكانت هذه التسمية تعني الفلسطينيين والعراقيين، حيث كان رجال عديدون من هؤلاء قد تجمعوا في دمشق وبرزوا في عهد فيصل وصار لهم كلمة وشأن ونفوذ فيه وكان كثير منهم أعضاء قدامى في جمعية الفتاة، وكشفوا حسب تصورهم لمعان وبروز كثير من رجالات ووجهاء وشباب الشام ودمشق.

---

(1) في كتاب أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى الجزء الثاني خبر انشاء هذا الحزب ومنهجه.

وكان من أعضاء هذا الحزب وأركانه عبد الرحمن اليوسف وفوزي البكري ونسيب البكري وعلاء الدين الدروبي وسامي مردم بك ورضا الركابي وجميل مردم بك وأحمد الحسيني والشيخ تاج الدين الحسني والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد المحسن الأسطواني والشيخ محمد المجتهد ومحمد العجلاني والشيخ مسلم الحصني ونسيب حمزة وزكي المهايني وعمر العابد وأحمد القضماني وبديع المؤيد ومحمد الشريقي، وضموا اليهم للتعمية وللتزلف الشريف ناصر وآخرين من بارزي الحجازين الذين كانوا في حاشية الأمير. ويلفت النظر الى أن عدداً من الذين سميناهم كانوا أعضاء قدامى في جمعية الفتاة، وعدد آخر انتسبوا في الوقت نفسه الى حزب الاستقلال، وهذا من المفارقات التي كانت تملي على بعض المنتسبين للفتاة وحزب الاستقلال مواقف متناقضة تنبثق في الحقيقة من المصالح الشخصية ومقتضياتها.

وقد قويت النعرة الإقليمية الشامية الدمشقية بقيام هذا الحزب، وأخذت تبث دعاية ضد الفلسطينيين والعراقيين يحمّلونهم بها مسؤولية الحيلولة دون بروز الشاميين والدمشقيين والسوريين في وطنهم. هذا مع انه لم يكن عدد العراقيين والفلسطينيين البارزين النشيطين في عهد فيصل يزيد كثيراً عن مائة شخص ان لم يكن أقل. وكانت جل المراكز الحكومية الرئيسية والثانوية في عهدة السوريين الشاميين، وكان هذا في ظرف كانت الفكرة القومية العربية جياشة وكانت الروح الاقليمية متلاشية أو يجب أن تكون كذلك، وقد اندمج في تلك الفكرة الشامي واللبناني والحلبي والفلسطيني والأردني والعراقي والمصري. وكان كثير من العراقيين والفلسطينيين بخاصة قد انضموا الى الثورة الهاشمية وجاهدوا في سبيل تحرير سورية تحت قيادة الأمير فيصل، وكانت الحركة العربية التي كان لها نشاط وكان بينها وبين السلطات التركية تشاد، وراح ضحيتها عدد كبير من الشباب والكهول مزيجه من عناصر عربية وعراقية وسورية ولبنانية وفلسطينية، ولم يكن القائمون على هذا الحزب أو الطامحون للبروز من أعضائه يتورعون في مختلف المواقف من التعريض بالعراقيين والفلسطينيين، والقول انهم يتمتعون بخيرات ومراكز بلدهم ويعرضونه في الوقت نفسه للأخطار الداخلية والخارجية، ولأنهم لا جذور لهم فيه.

وحينما وقف معظم أعضاء جمعية الفتاة وحزب العهد وأعضاء المؤتمر السوري موقف المتصلب من اتفاقية فيصل كليمنصو، ثم من أزمة الإنذار الافرنسي، وكان فيصل لا يحبذ هذا الموقف ويميل الى تفاهم ما مع الافرنسيين على ما سوف نشرحه بعد، سارع رجال هذا الحزب أو حزب وجهاء الشام كما ينبغي أن يسمى حقاً الى تأييده، وكانوا يقفون ضد موقف ما يسمونه الغرباء واخوانهم، ولقد أثرت هذه الدعاية في نفسي وجعلتني كما ذكرت في مناسبة سابقة أرفض تلبية دعوة الملك فيصل التي جاءتني في رسالة ساطع الحصري للذهاب الى العراق والمشاركة في بناء عهد فيصل فيه.

واحذر ساطعاً في جوابي الذي أرسلته اليه من تكرر تنبه الروح الإقليمية في العراق، كما تنهبت في دمشق اذا ما استجاب لدعوته غيري، وصار رجال العروبة وشبابها في أقطار أخرى يتوافدون على العراق ويشغلون فيه المراكز والمناصب.

حزب التقدم والحزب الديمقراطي في نطاق المؤتمر السوري:

ومن الأحزاب التي نشأت في عهد فيصل حزب اسمه حزب التقدم، وآخر اسمه الحزب الديمقراطي، وهذان الحزبان قاما في نطاق المؤتمر السوري بعد أن انقلب هذا المؤتمر الى مجلس تأسيسي لمناقشة مواد مشروع الدستور الذي وضعته لجنة الدستور، ومجلس نيابي لرقابة الحكومة بعد أن أعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية بملكية الأمير فيصل في 6 ـ 8 مارس 1920، ولم يكن لأي منهما تنظيم شعبي خارج المؤتمر، وقد انقسم المؤتمر الى ثلاثة جماعات: جماعة انضوت تحت الاسم الأول، وأخرى تحت الاسم الثاني، وثالثة احتفظت باستقلاليتها. وكان الأول يمثل جمعية الفتاة وحزب الاستقلال وأنصارهما ويعتبر حزب الحكومة، والثاني كان يعتبر حزب المعارضة. وقد كنت من الأعضاء العاملين في الأول وسوف نعود الى الكلام عنهما حينما يأتي دور الكلام عن نشاط المؤتمر السوري بعد اعلان الاستقلال.

شيء عن اللجنة الوطنية في عهد فيصل:

وكان في عهد فيصل تنظيم باسم (اللجنة الوطنية)، بالإضافة الى التنظيمات السابقة. وهذا التنظيم لم يكن حزباً وانما كان تجمعاً من الأحزاب ألف في مناسبة انسحاب الانكليز من سورية في أوائل سنة 1920، بعد اتفاقهم مع فرنسة على منحها حرية التصرف ازاء سورية الداخلية، والاعتراف لها بالإشراف والهيمنة المباشرة وغير المباشرة على سورية الداخلية والساحلية ولبنان وفقاً لاتفاقية سايكس بيكو المعقودة بين الدولتين أثناء الحرب والتي ذكرنا خبرها ومداها في مناسبة سابقة، واقدام فرنسا على ارسال جنودها لاحتلال الأقضية الأربعة البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا التي كانت تقيم فيها قوات انكليزية مؤقتاً، وقرار سورية بعدم الاعتراف بما تم من تفاهم بين الدولتين، والاحتجاج على الاحتلال الافرنسي للأقضية الأربعة والاستعداد لموقف الدفاع عنها، حيث تداعت الأحزاب مع وجهاء ورجالات أحياء دمشق وتضامنوا في الرفض والاحتجاج وألفوا هذه اللجنة للإسهام في النشاط السياسي والدفاع المقرر باسم جميع قوى الشعب. وقد استمرت اللجنة قائمة بعد حل مسألة الأقضية الأربعة، وعادت الى نشاطها أثناء تأزم الموقف السياسي وإنذار فرنسة لسورية واستعدادها لغزوها على ما سوف يأتي شرح أوفى له. وقد كنت أمثل في هذه اللجنة حزب الاستقلال.

الجمعية الفلسطينية وشيء من نشاطها:

وكان هناك أيضاً تنظيم فلسطيني باسم الجمعية الفلسطينية، وقد أنشأها بعض رجال فلسطين الذين اجتمعوا في دمشق في عهد فيصل للنشاط والدعاية لقضية فلسطين ونشر ميثاقها والكفاح في سبيلها، وكنت أنا عضواً وسكرتيراً لها، وكان من أعضائها كل من الحاج أمين الحسيني ومعين الماضي وعارف العارف والشيخ عبد القادر المظفر وسليم عبد الرحمن. وقد بذلت جهودها في سبيل مهمتها وأصابت نجاحاً غير يسير.

جمعية فتى فلسطين:

والى جانب هذه الجمعية ألّف فريق من هؤلاء جمعية سرية سموها فتى فلسطين، لتقوم ببعض أعمال مسلحة على حدود فسلطين لتشعر اليهود والإنكليز ان أهل فلسطين سوف يسيرون

في هذه الطريق بسبيل منع تنفيذ المخططات الإنكليزية الصهيونية الاستعمارية على ما سوف نزيده شرحاً بعد، والذين ألفوها هم أنا والحاج أمين وعارف العارف ومعين الماضي.

النادي العربي:

وكان هناك النادي العربي، وليس هو تنظيماً حزبياً وانما انشيء ليكون مركز ومنطلق نشاط ودعاية قومية وشعبية، وكان يتولى ادارته سليم عبد الرحمن والشيخ عبد القادر المظفر على ما ذكرناه في كلمتينا عنهما، وقد كان له نشاط وأثر في السبيل الذي انشيء له.

شيء من التفصيل في صدد انشاء جمعية فلسطين وجمعية فتى فلسطين ونشاطهما:

لقد ذكرت آنفاً أنه كان في دمشق من جملة التنظيمات السياسية جمعية فلسطين العربية وجمعية فتى فلسطين، وشرحاً لظروف ونشاط هذين التنظيمين أقول إني اغتنمت أنا وبعض الأخوان الفلسطينيين فرصة وجود عدد كبير من رجال وشبان فلسطين في دمشق، واقترحنا على سليم عبد الرحمن دعوتهم الى اجتماع عام في النادي العربي الذي كان يتولى إدارته ففعل، واجتمع نحو أربعين من بينهم من كان موظفاً ومنهم من كان عضواً في المؤتمر السوري، وتحدثنا في القضية الفلسطينية ووجوب التكاتف في الاهتمام لتوجيه الأذهان اليها والتوعية بخطورتها وجعلها موضع اهتمام الآخرين، وانتهى الأمر الى تأليف جمعية سميناها الجمعية الفلسطينية. وانتخبت لها هيأة ادارية مؤلفة مني ومن الحاج أمين الحسيني وعارف العارف ومعين الماضي، وكان مما قررناه محاولة البدء بحركة كفاح مسلحة على حدود فلسطين لإشعار الانكليز واليهود معاً بعزم الفلسطينيين على الكفاح المسلح في سبيل منع تنفيذ وعد بلفور والسياسة الانكليزية الصيهونية الاستعمارية.

أول حركة كفاح مسلحة على حدود فلسطين:

وخطونا خطوة في سبيل التنفيذ، حيث استمددنا من الهيئة المركزية لجمعية الفتاة بعض المال والمعدات، وهيأنا عصابة صغيرة بأمرة أخي محمد علي، وكانت أولى حركاتها على حدود سمخ، ولقد كان البدء بهذه الخطوة متأخراً أي في أواسط حزيران 1920. وفي تموز 1920 أخذ الموقف في سورية يتأزم بسبب الإنذار الإفرنسي، ثم كانت حركة الغزو الافرنسية الاثيمة في أواسط تموز 1920، وسقط العهد وغادرنا دمشق على ما سوف نشرحه بعد، فلم يكن بالامكان عمل شيء كبير.

قدوم كلفريسكي الى دمشق وما جرى بيننا وبينه:

ولقد ذكرنا في مناسبة سابقة خبر تأليف الصهيونية جمعية في فلسطين سموها (جمعية السلام اليهودي العربي)، وأوكلوا رئاستها ليهودي قديم مهاجر مستعرب اسمه كلفريسكي من أهل مستعمرة الجاعونة ـ روشبينا ـ قرب صفد. ولقد جاء هذا الداعية الى دمشق بعد اعلان الاستقلال في 6 ـ 8 مارس 1920 وأخذ يحتك بالفلسطينيين ويدعو بدعوته ويبذل جهده للاجتماع ببعض زعمائهم وبارزيهم، وقد تم اجتماع معه وكنت أنا ممن حضروا الاجتماع وناقشناه في مدى دعوته، وكنت أنا ممن تصدى له بقوة. وأفهمناه أن لعبته لا يمكن أن تمر على عربي واع مخلص، وأنها ليست أكثر من سم في دسم لبينما يشتد ساعد الصهيونية وتستطيع أن تخطو خطوات هامة في سبيل انشاء دولتها

على أنقاض العرب، وأنّا واعون بكل أبعادها وأهدافها، وأن لا سلام بين العرب واليهود، وأننا سنكافحهم بكل قوة وبدون هوادة الى النهاية وسنحبط مخططاتهم ونحتفظ بفلسطين عربية كما هي، وأنه لن يقع في أحبولته إلا أفراد طامعون بمالهم أو بمنافع أخرى على يدهم وأحوالهم تكون مكشوفة والخزي يكللهم، ولن يكون للصهيونية منهم أي جدوى، وان ما ذكرناه للجنة الاستفتاء هو قصارى ما يكون بالنسبة لليهود، وهو أن القدماء في فلسطين اذا سالموا وتنصلوا من الصهيونية وأهدافها يكونون جزءاً من رعايا الدولة العربية، ولا يمكن السماح بهجرة يهودية جديدة أو بشراء أرض عربية.

ولما رأى خيبة أمله لم يسعه الا أن يوجه الي القول انك صعب شديد. ومن الطريف أن بعض صحف الشام[1] نشرت خبره وخبر اجتماعنا به وحاولت غمزنا بذلك، وقد كتبت لها رداً شرحت فيه أسباب الاجتماع وكون موافقتنا عليه هي لدرء اجتماعه مع اناس قد يكونون ضعفاء أو غافلين، وأنه تلقى ما يجب أن يتلقاه من جواب وصد. ولقد فكرنا في جمعية فتى فلسطين تدبير كمين له حين يعود الى فلسطين حتى نخلص من داعية ذلق اللسان شديد النشاط شديد الخبث قد خول ان ينفق على من يستطيع جذبهم وخداعهم بسعة، ويكون في ذلك نذير وعبرة للصهيونية، ومع الأسف انه عاد من طريق بيروت دون طريق القنيطرة التي كانت هي المفروضة لعودته حيث اعد الكمين بها.

***

(1) جريدة المفيد وجريدة الدفاع العدد 136 تاريخ 25 حزيران 1920. (المقال ملحق في نهاية الجزء).

14

شيء من التفصيل في صدد مساعدة ثورة العراق:

ومما كان من أحداث كان لها رد ونشاط في دمشق، الثورة العراقية سنة 1920، ولسنا في صدد تاريخها لأن ذلك لا صلة له بمذكراتنا، ولكن نذكر صلة الثورة بعهد فيصل في دمشق. ولقد نشط رجال العراق منذ الاحتلال الانكليزي في سنة 1917 ـ 1918 في الاحتجاج على النيات والمطامع الاستعمارية التي أخذت تظهر من الانكليز المحتلين، وفي المطالبة باستقلال العراق بناء على العهود التي قطعوها للشريف حسين. وتطورت الأمور الى أن اندلعت ثورة عارمة ضدهم، واشتدت السلطات الإنكليزية في المطاردة والقمع حتى اضطر رجال عديدون بارزون الى المخاطرة والقدوم الى دمشق طالبين النجدة، وكان على رأسهم الشيخ يوسف السويدي والد ناجي السويدي وتوفيق السويدي، وكان ذلك في ظروف قدومي الى دمشق، ثم في ظروف سكرتيريتي الأولى للهيئة المركزية لجمعية الفتاة. ولقد كان جميل المدفعي وعلي جودة الأيوبي اللذان كانا في قيادة الأمير والملك فيصل الثورية الهاشمية، ودخلا معه الى دمشق في تشرين الأول 1918، ممن سارعوا للقيام بحركات مسلحة على الحدود العراقية الشمالية. وتألف في دمشق تجمع عراقي بسبيل مساعدة الثورة وتأجيجها، واتصل هذا التجمع برجال حكم وحزب فيصل، وقد أحيل الأمر الى الهيئة المركزية للفتاة التي كنت سكرتيرها وتقرر أن تمنح المساعدات

الممكنة بواسطتها، وتم الاتفاق على أن يكون جميل وعلي جودة ضابطي ارتباط وهمزة وصل بيننا وبين التجمع العراقي، وصارا يترددان علي ونتعاون في سبيل تيسير مد الثورة بما يمكن. وكنت أبذل جهدي مع التنظيم العسكري الفيصلي ومع بعض رجال الحكم والقصر للحصول على ما يمكن الحصول عليه من مال وسلاح، وتسليم ذلك لهما، وكان ذلك مما وثق الصلة بيني وبينهما على ما ذكرته في كلمتي عنهما.

* * *

15

شيء من التفصيل في صدد حركة الكفاح المسلح شمال سورية:

ولقد كان الإفرنسيون يحتلون بعض انحاء شمال سورية مما يلي حدود كليكيا وإسكندرونة، ومما كان يدخل في حدود الدولة السورية المرتقبة. وقد فكر صبحي بركات الذي كان له زعامة ووجاهة في منطقة أنطاكية؛ وابراهيم هنانو الذي كان ذا عزيمة وصلابة وروح ثورية وهو من أهل الشمال السوري، بالتصدي لهم والعمل المسلح في منطقة احتلالهم. وراجعا الهيئة المركزية للفتاة فقررنا قبول الفكرة ومد العمل بما يمكن من مال وسلاح ندبرهما لهم بجهدنا. وعهدت الهيئة اليَّ ان اكون صلة بينها وبينهم، وأن ابذل جهدي في سبيل تيسير ما يمكن من مساعدة، وصارا يترددان عليَّ وأبذل جهدي كذلك لتيسير ذلك. وكان ذلك مما وثق الصلة بيني وبينهما على ما ذكرته في كلمتي عنهما. ولقد استمرت حركتهما بقية عهد فيصل، واستمرت مدة ما بعدها على ما اشرنا اليه في كلمتنا عن ابراهيم هنانو.

حادث ضم دير الزور الى سورية:

ومن الأحداث التي كان لها دوي ورنين، حادث ضم دير الزور الى سورية. ولقد كانت حكومة الأمير فيصل حينما قامت في تشرين الأول 1918 حاولت أن تمد سلطانها الى مدينة دير الزور وما يتبعها من قرى وعشائر، ولكن الإنكليز كانوا يطمعون في جعلها ضمن نطاق

حكم العراق الذي كانوا يبيّتون الهيمنة عليه وفقاً للاتفاق الذي تم بينهم وبين الإفرنسيين، فحركوا في دير الزور بعض عملائهم وجعلوهم يرسلون مضابط اليهم يطلبون فيها القدوم الى دير الزور وجعلها تحت حكمهم. وجاءت قوات إنكليزية بناء على هذه المضابط الى دير الزور واحتلتها، وأثار ذلك رجال دير الزور، وكان رمضان شلاش وهو زعيم بدوي قد تعلم في مدرسة العشائر العسكرية العثمانية التي انشأتها الدولة لتخريج ابناء زعماء القبائل وتخرج منها ضابطاً، وقد عينته حكومة فيصل حاكماً على مدينة الرقة وما يتبعها، فتحرك بالتضامن مع رجالات دير الزور وقام بحركة عسكرية أخفقت في بدئها ثم نجحت، واستطاع أن يحتل دير الزور، وحينئذ اعلن انضمامها لحكومة فيصل. وكان لذلك دوي عظيم في الشام في ظروف قدومنا الى دمشق، وجاء هو بعد ذلك الى دمشق فاستقبل استقبالاً كبيراً ومنح رتبة باشا ورتبة لواء عسكرية، وأصبح لواء دير الزور نتيجة لهذه الحركة من نظام حكم سورية الداخلي، وأرسلت الحكومة حاكماً وموظفين. وقد سكت الانكليز على مضض، وانتخب اهل دير الزور على أثر ذلك ممثلين عنهم للمؤتمر السوري، وجاءوا الى دمشق واندمجوا في المؤتمر وحركة الحكم الفيصلي، وهم: محمد نوري الفتيح وإبراهيم الحاج حسين والحج فاضل عبود، وقد تعرفنا بهم وصار بيننا وبينهم مودة وألفة وتعاون، وكان الأول بخاصة رجلا جسيما وقوراً رزيناً عاقلاً وطنياً واستقلالياً حسن السمعة والعقل والمحاكمة والحديث.

* * *

16

حادثة استبدال الحاميات الافرنسية بالحاميات البريطانية في الأقضية الأربعة:

ومن الأحداث الهامة التي كان لها دوي ومضاعفات وأثارت نشاطاً وانفعالاً وتواتراً، حادث الاتفاق الانكليزي الافرنسي الذي انسحبت بموجبه القوات الإنكليزية التي كانت ترابط في انحاء منطقة حكم فيصل، ومنها الأقضية الأربعة راشيا وحاصبيا والبقاع وبعلبك.

فالإنكليز برغم مسارعتهم الى التنصل لفرنسة مما كان من تسمية بريطانيا كمرشدة ومساعدة لسورية في حال رفض الولايات المتحدة الأميركية ذلك على ما جاء في قرار المؤتمر السوري المقدم للجنة الاستفتاء الاميركية، وإعلانهم لها أنهم غير راغبين وغير طامعين في الانتداب على سورية، وغير موافقين على تسميتهم، فإن فرنسا ظلت تلمس إصبعهم فيما كان يجري من حركات في الشام وما كان من اشتداد الدعاية ضدها اثناء الاستفتاء، وما كان من اشتداد الحركة العربية والدعاية العربية في صدد تحقيق الأهداف التي قررها المؤتمر السوري، وهي قيام مملكة عربية مستقلة تشمل جميع بلاد سورية داخلاً وجنوباً وغرباً، واشتداد المعاكسة لمآربها ومطامعها، والتي هي مناقضة لاتفاقية سايكس بيكو المعقودة بينها وبينهم، بقصد ازعاجها والضغط عليها وارغامها على قبول ما تريد من تعديلات في هذه الاتفاقية، وهو فصل منطقة شرق الأردن عن سورية الداخلية التي ستصبح تحت

إشرافها، والموافقة على غدوّها تحت هيمنتهم مباشرة، والموافقة على ان تكون جميع فلسطين تحت هيمنتهم، وكانت في تلك الاتفاقية ستكون تحت ادارة دولية. والموافقة على تعديل حدود سورية من الشرق بحيث يخرج منها بعض أقسام في حدود الموصل، لتكون داخلة في حدود العراق الذي سيكون تحت هيمنتهم.

ولقد كان لفرنسة مطلب مهم عاجل من سورية الداخلية تحول بريطانيا دون تحقيقه، وهو سيطرتها على الأقضية الأربعة (البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا) التي كانت ترابط فيها قوات انكليزية، والتي كانت من ضمن ولاية سورية في أواخر عهد الدولة العثمانية، لأن أولياءها في لبنان كانوا وظلوا يثيرون هذه المسألة بدعوى أن هذه الأقضية كانت قبل غدوها في نطاق ولاية سورية في نطاق حكم الأمراء المعنيين ثم الشهابيين في لبنان، وبالتالي انها جزء من لبنان ويجب ان يعاد اليه ليصبح لبنان بذلك (لبنان الكبير)، وتضمن به حدود لبنان الشرقية اكثر من جهة، ويضمن به الاكتفاء الذاتي في الاستغلال الزراعي عبر سهل البقاع الخصيب من جهة اخرى. وكان هذا من مطالب أولياء فرنسة في الاستفتاء امام اللجنة الاميركية، ومن قبله كان موضوع قرار من مجلس إدارة لبنان ارسل الى مؤتمر السلم وتضمن فيما تضمنه دعوى كون هذه الأقضية جزء من لبنان سلخته عنه الدولة العثمانية عنوة ويجب ان تعاد اليه، والرغبة في إنشاء أوثق العلائق السياسية والاقتصادية بين لبنان الكبير وبين فرنسة. وكان هذا الأمر مما أثاره البطريرك الماروني الحويك حينما ذهب الى باريس ابان انعقاد مؤتمر السلم، حيث قدم مذكرة للمؤتمر وللحكومة الافرنسية ألح فيها على وجوب اعادة هذه الأقضية الى لبنان، مع طلب الحماية الافرنسية للبنان الكبير.

اجتماع كليمنصو ولويد جورج واتفاقهما على تصفية المسائل المعلقة بين فرنسة وبريطانية:

وقد رأت فرنسة من اجل ذلك كله ان تتصل ببريطانية وتصفي معها هذه المسائل، وتم الاتفاق بين رئيسي وزارتي الدولتين على الاجتماع في باريس بسبيل ذلك، وكان موضوع الأقضية الأربعة هو الموضوع المباشر لذلك الاجتماع بقصد استبدال حاميات إفرنسية فيها بالحاميات البريطانية.

دعوة لويد جورج للأمير فيصل واحتجاج كليمنصو وإعاقته عن الوصول واتمام الاتفاق قبل وصوله:

وقد دعا لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا الأمير فيصل الى باريس لحضور الاجتماع على اعتباره حاكم المنطقة الشرقية السورية، المعترف به كذلك من الحلفاء، والذي لمنطقة حكمه علاقة بالموضوع المباشر، ولعله أراد ان يقوي موقفه في المفاوضة والمساومة مع فرنسة بذلك أيضاً. وقد سارع فيصل الى السفر عن طريق فلسطين في 12 ايلول 1919، وكان معه الشيخ فؤاد الخطيب سكرتيره، والجنرال جبرائيل حداد مدير الأمن العام، والدكتور أحمد قدري بصفته طبيب الأمير الخاص، وكان من أعضاء الهيئة المركزية للفتاة، والقائد أركان حرب محمد اسماعيل الطباخ بصفته خبير عسكري، وتوفيق الناطور بصفته خبير قانوني، والإثنان أيضاً من أعضاء الفتاة القدامى، وتحسين قدري مرافق الأمير. ولحق بالوفد بعد يومين الأمير أمين أرسلان، والدكتور سامح

الفاخوري، وأمين الكسباني، والأمير فائز الشهابي الحاصباني النشأة، وأمين التميمي ليكونوا ردفاً ومؤيداً لفيصل. وكان سفر هؤلاء برأي وقرار الهيئة المركزية للفتاة، حيث رأينا من المفيد أن يرافق فيصل اناس من لبنان وفلسطين والأقضية الأربعة. ولقد احتج كليمنصو رئيس وزراء فرنسا على دعوة فيصل وحضوره الاجتماع، لأن فرنسة كانت منذ البدء تنكر حقه في الكلام عن سورية وتناوىء حكمه ووجوده فيها، وترى في عهد الشام الذي كان هو رأسه، والجياش بالحركة العربية المناوئة لمطامعها عثر في سبيل تحقيق هذه المطامح، وألح على حصر المفاوضة بين فرنسا وبريطانيا. ولقد كان الموعد الذي ضربه لويد جورج لوصول فيصل يوم 16 أيلول، وكان من الممكن أن يصل في الموعد لأن نسّافة[1] بريطانية حملته من الإسكندرية في 13 أيلول، وكان النسافة توقفت فترة ما في عرض البحر بحجة العطل والوقود، ثم واصلت سيرها فوصلت مرسيليا في 18 أيلول، وكان اجتماع لويد جورج ـ كليمنصو قد انتهى وعاد لويد جورج الى لندن.

الغدر الانكليزي اللئيم:

وكان التعويق مقصوداً، ولا يمكن أن يكون إلا من الإنكليز لأن النسافة انكليزية، حيث يبدو ان لويد جورج رضخ لاحتجاج كليمنصو، فأشار بالتعويق لتسهيل مهمته ومآربه، حيث يبدو أنه أحد مواقف الإنكليز الخادعة الغادرة، وعرف بعد قليل أن الاجتماع الانكليزي الافرنسي قد انتهى الى اتفاق بين الدولتين، فوافق الإنكليز على سحب قواتهم من سورية الى شرق الأردن وحلول قوات افرنسية محل القوات الانكليزية في الأقضية الأربعة، مقابل سحب الافرنسيين قوة رمزية كانت لهم في المنطقة الشرقية الفيصلية، فتصبح هذه المنطقة عدا شرق الأردن خالية من قوات اجنبية. ثم مقابل موافقة فرنسا على التعديلات التي كان يريدها الانكليز في اتفاقية سايكس بيكو، والتي ذكرناها قبل، أي غدو جميع فلسطين تحت هيمنتهم وفصل شرق الأردن عن سورية وغدوها كذلك تحت هيمنتهم، وإخراج بعض الحدود المحاذية لولاية الموصل من الهيمنة الإفرنسية لتكون جميع ولاية الموصل عراقية. وتعهد الانكليز بنفض يدهم من سورية الداخلية وجعل شؤونها ومصيرها لفرنسة تنفيذاً للاتفاقية، وتعهد الافرنسيون باحترام حرية التصرف الانكليزي في شؤون العراق المعدل الحدود. وكان معنى هذه الموافقة على غدو سورية الداخلية تحت رحمة القوة الإفرنسية المتفوقة، وهدم عهد فيصل بالتالي. ومن تمام الموقف الغادر أن لويد جورج أبقى في فرنسا رجلاً من قبله لاستقبال فيصل حينما تصل النسافة التي تقله، وللاعتذار له عن إنهاء الاجتماع الافرنسي الانكليزي الذي كان له موعد محدد والذي تأخر عنه، ولدعوته لمتابعة سيره الى لندن.

محاولة الانكليز التهدئة خداعاً ونفاقاً:

وبعد يوم أو يومين من انتهاء اجتماع كليمنصو / لويد جورج، أخذت القوات الانكليزية تستعد للانسحاب من سورية، ومن الجملة من الأقضية الأربعة، وأخذت القوات الإفرنسية الرمزية في سورية الداخلية تستعد للانسحاب، كما أن الإفرنسيين أخذوا يعدون قوة للحلول محل القوات الإنكليزية في

(1) نسافة: طرّاد أو باخرة أو سفينة عسكرية.

الأقضية، وشعر الانكليز بقوة اللطمة الغادرة التي صفعوا بها وجه سورية وفيصل حليفهم، فأذاعوا في سورية بياناً حاولوا فيه تهدئة العرب، حيث قالوا فيه أن ما تم هو تدبير عسكري مؤقت وليس من شأنه التأثير في قرار مؤتمر السلم والمصير السياسي لسورية.

الهياج في دمشق وانحاء سورية:

ولقد أدرك رجال الحكم والسياسة والشعب في سورية الفيصلية مدى الاتفاق الانكليزي الافرنسي ومدى الغدر الإنكليزي اللئيم، وانكشف لمن كانوا مخدوعين او غافلين ان ما كان من مواقف الإنكليز المجاملة للعرب في سورية وما كان من تحريضهم ضد فرنسا إنما كان وسيلة مساومة لبيع العرب بالثمن الذي يريدون، وكان لذلك أثر شديد في انفسهم أهاج الافكار والأعصاب في مختلف طبقات الناس من حكام وغير حكام وهيئات وعوام، وقامت في دمشق والمدن السورية الأخرى مظاهرات صاخبة تندد بالانكليز وغدرهم، وتطالب بالدفاع وعدم تمكين الإفرنسيين من احتلال الأقضية الأربعة، وكان ينوب عن الأمير فيصل في رأس الحكم أخوه الأمير زيد، فقرر بالاتفاق مع الحكومة وضغط الهياج والمظاهرات دعوة المؤتمر السوري للاجتماع للنظر في الموقف.

وسارع من استطاع ممن كان خارج دمشق من اعضاء المؤتمر الى تلبية الدعوة، وكان في دمشق منهم جمهور كبير يمكن ان يكون ثلث الأعضاء أو أكثر، وانعقد المؤتمر في 22 تشرين الثاني 1919 في بهو النادي العربي كالمرة السابقة في جو عاصف من المظاهرات الصاخبة والأعصاب الهائجة، وترأس الاجتماع عبد الرحمن اليوسف نائب الرئيس لأن الرئيس محمد فوزي العظم كان قد توفي، وظللت انا سكرتيراً للمؤتمر لأنه لم يكن دورة جديدة وانما دورة استثنائية لأمر عارض، فلم يتجدد انتخاب الرئيس ولا السكرتير. وشهد الأمير زيد الاجتماع على ما يرد الى ذهني، وألقى الركابي الحاكم العسكري ورئيس الحكومة بياناً حاول فيه تهدئة الهياج والأفكار حيث قال فيما قال:

بيان الحكومة وقرار المؤتمر مع الدفاع:

أن الأمير فيصل في أوروبا يواصل نضاله، وأن الاتفاق العسكري هو تدبير مؤقت، وأن استقلال سورية مصون، وأن وزير خارجية فرنسة صرح بأن ما تم هو مؤقت ولا يؤثر في قرار مؤتمر السلم والمصير السياسي لسورية، وأن حكومته احتجت مع ذلك على ما تم لأنه بدون رأينا واستشارتنا، وأن نائب الأمير أراد إطلاعكم على الموقف لأنكم زعماء البلاد وممثلو الأمة لتبدوا رأيكم في الموقف وتكون مساعيكم القيمة في داخل البلاد عونا لسمو الأمير في خارجها.

وعقد المؤتمر بعد ذلك جلسة ناقش فيها الموقف، وقال غير واحد من الأعضاء إن ما تم ليس الا تطبيقاً لاتفاقية سايكس بيكو المجحفة التي رفضتها سورية والأمة العربية واحتجت عليها، وإن الإنكليز قد خانوا العرب وباعوهم لفرنسا مقابل ثمن تقاضته منها ضماناً لمطامعها ومآربها الاستعمارية. ثم قرر وجوب رفض الاتفاق والدفاع عن استقلال سورية ووحدتها بالمال والنفس، وإعداد كل الوسائل الكفيلة بذلك وتحمل كل تضحية مهما عظمت، لأن ذلك وحده الكفيل بحفظ كرامة الأمة وشرفها واستقلال البلاد ووحدتها، ورد أي عدوان وتآمر عليها. وقرر رفع كتاب بذلك الى الأمير زيد

يكون بمثابة جواب على بيان الحكومة، ثم نشر منشور بذلك على الأمة ايضاً، واختار لجنة لصياغة الكتاب المنشور، وكنت من اعضائها. ثم عرضنا الصيغة على المؤتمر في جلسة أخرى وتم اقرارهما بصيغتهما النهائية.

وفي كتاب أمين سعيد (الثورة العربية ج 2) نص للكتاب والمنشور، ويجوز أن يكون صحيحاً لأنه نشر أيضاً في الصحف الدمشقية في وقتها. وقد وقّع الكتاب المقرر تقديمه للأمير عبد الرحمن اليوسف بصفته رئيساً بالنيابة، ووقّعته أنا أيضاً بصفتي سكرتيراً، وذهبت أنا وهو الى قصر الإمارة وقدمنا الكتاب للأمير زيد وشرحنا له جو المؤتمر الحماسي. وأذكر أن عبد الرحمن اليوسف قال للأمير بأسلوبه البسيط التقليدي (إن عبيدكم أعضاء المؤتمر قرروا الدفاع وهو حق شرعي وكل حي حتى الحيوانات لا يمكن أن ترضى بالعدوان وتدافع عن حياتها، وإن الدجاجة حينما يمسكها ذابحها من عنقها تظل تضرب برجليها وجناحيها احتجاجاً ودفاعاً عن النفس). وضحك الأمير عالياً على هذا التشبيه الصادق الساذج. ولقد قرر المؤتمر فض الدورة الاستثنائية مع توكيده على الحكومة بوجوب الاستعداد للدفاع، وعلى استعداده للاجتماع حينما تدعو الحاجة.

تأليف اللجنة الوطنية ونشاطها في هذا الظرف:

ولقد استمر الهياج والتوتر، وتكررت المظاهرات المناوئة بالدفاع، وتألفت لجنة دفاع وطني شعبي باسم اللجنة الوطنية ضمت ممثلين عن الأحزاب وعن أحياء دمشق وعلى رأسها الشيخ كامل القصاب، وكنت أنا وسعيد حيدر وتوفيق شامية ممثلين عن حزب الاستقلال فيها، وكان حسن الحكيم وحسني البرازي ومصطفى وصفي ومحيي الدين صادق ممثلين عن حزب العهد، واختير من كل حي شخص من وجهائه المخلصين، وصارت اللجنة تعقد اجتماعات عامة في الأحياء في إحدى دورها الكبيرة، فيجتمع مئات الناس من مختلف الفئات ويخطب الخطباء في تنبيه الناس وتوعيتهم ودعوتهم الى الاستعداد والتسلح للقيام بواجب الدفاع والتطوع في الجيش..

استعداد الحاميات الانكليزية للانسحاب:

ولقد استمر الإنكليز في استعدادهم للانسحاب، وسحبوا حامياتهم من الأقضية الأربعة، وأخذت قواتهم تتجمع في معسكر في دمشق استعداداً للانسحاب التام من سورية. وبلغنا أن الإفرنسيين أخذوا يحركون بعض قواتهم نحو الأقضية الأربعة للحلول محل القوات الإنكليزية فيها، وكان لنا (اي جمعية الفتاة وهيئتها المركزية) معتمدون في بعلبك من آل حيدر الذين كان عدد منهم أعضاء في الجمعية، فقررت الهيئة المركزية للفتاة وجوب إعداد حركة دفاعية فعلية مهما كان الأمر حتى نسجل بأن الاحتلال الإفرنسي لم يتم إلا على أشلاء الشهداء ودمائهم، وأن أهل البلاد دافعوا عنها بالقوة. ثم قررت انتدابي انا والقائد العسكري محمد إسماعيل من إخوان الفتاة القدامى، وكان ذهب مع فيصل ثم عاد حينما واصل هذا سفره الى لندن، لأنه ذهب كخبير عسكري في المفاوضات التي كان من المفروض أن يشترك فيها فيصل مع رئيسي وزراء بريطانيا وفرنسة، للذهاب الى بعلبك للتحريض على الحركة والإشراف عليها وتنظيمها. وذهبنا فعلاً، ولما وصلنا الى قرب زحلة علمنا أن الإفرنسيين احتلوا رياق وزحلة.

وصار الذهاب الى بعلبك متعذراً، فعدنا أدراجنا الى دمشق. ومما أذكره انني حملت في هذه السفرة مسدساً وأطلقت منه لأول مرة في حياتي بعض الطلقات للتمرين، ولم نلبث ان ورد علينا من إخواننا في بعلبك بأنهم هيأوا جماعة مسلحة نصبت كميناً للقوة الإفرنسية المتقدمة نحو بعلبك على بعد بضعة كيلومترات، وأن الجماعة اشتبكت مع هذه القوة، وانه كان قتلى وجرحى من الطرفين نتيجة هذا الاشتباك. وقد تغلبت القوة الافرنسية المتفوقة بالعدد والعدة على الجماعة المسلحة واستمرت في تقدمها حتى دخلت بعلبك، وعلى كل حال فإن الحادث سجل موقفاً دفاعياً دموياً ضد العملية الاحتلالية الإفرنسية، ولم يذهب الاشتباك مع التوتر والهياج والمساعي المبذولة سدى، حيث عادت القوة الإفرنسية فانسحبت من بعلبك، بل وقد وقفت عملية احتلال الأقضية الأربعة كلها نتيجة مفاوضات واتفاق على حل وسط مقبول على ما سوف نشرحه بعد.

ولقد بذلت الحكومة نشاطاً غير يسير في هذا الظرف. فعينت نوري السعيد العراقي، الذي سبق تسجيل كلمة عنه، قائداً عسكرياً للأقضية الأربعة كدلالة على تصميمها على الدفاع. واحتجت على محاولة الاحتلال في احتجاج ارسلت نسخة لفرنسا وبريطانيا بواسطة معتمديها العسكريين في دمشق، وسلمت نسخة كذلك لقناصل الدول الأخرى في دمشق، وذكرت في احتجاجها ما أثارته محاولة الاحتلال من هياج وتوتر، ونبهت الى ما قد ينتج عن ذلك من أخطار كبيرة، ثم ارسلت نوري السعيد بصفته المذكورة الى بيروت لمفاوضة المندوب الافرنسي الجنرال غورو، والذي يجمع بين صفة المندوب وصفة القائد الافرنسي العام معاً، بسبيل ايجاد حل مقبول للموقف تخف به حدة التوتر والهياج. وتدخل الجنرال اللنبي قائد الحلفاء العام بصورة ما بسبيل مثل ذلك الحل، والحيلولة دون تفاقم الموقف والاقتتال بين قوات الحلفاء التي ما زالت تحت قيادته والتي منها القوات العربية في سورية الداخلية والقوات الافرنسية في المنطقة الغربية. ونتيجة لذلك تم الاتفاق على ان يكون الوجود العسكري الافرنسي في الأقضية الأربعة رمزياً، وان يكون للحكومة العربية وجود عسكري فيها وفي رياق وغيرها على امتداد السكة الحديدية، وأن تبقى الأقضية التابعة كما كانت للحكومة العربية بواسطة موظفين عرب تابعين لهذه الحكومة، وأن تكون الإدارة العربية هي المسؤولة عن حفظ الأمن والنظام بواسطة دركها وبوليسها، وان لا يكون للقوات الافرنسية اي تدخل إلا لمساعدة الإدارة العربية وبطلبها.

وأرسل المعتمد العسكري الإفرنسي، كتاباً للحاكم العسكري الذي كان كما قلنا رئيس الحكومة العربية، يذكر فيه أنه يتلقى تعليمات من الجنرال غورو مستندة الى تعليمات من كليمنصو رئيس الوزارة الافرنسية، بالتأكيد بأن ما كان من اتفاق إنكليزي إفرنسي هو ذو صفة عسكرية مؤقتة وليس من شأنه التأثير في قرار مؤتمر الصلح في مصير سورية السياسي، وأنه مع ذلك قد وافق على الحل الوسط المذكور سابقاً بسبيل إثبات حسن النية للتفاهم والانسجام. وقد كانت الحكومة تذيع بيانات بالخطوات التي تقوم بها، ثم أذاعت بياناً بما تم من حل وسط مقبول، وبما جاءها من تأكيدات من الجنرال غورو مستندة الى تعليمات من كليمنصو، وقالت أن الأزمة انفرجت وانتهى الخلاف، وقد صدر البيان في الثاني من كانون

الأول 1919، ثم اذاعت بياناً بعد يومين ذكرت فيه أنها تلقت برقية من الأمير فيصل من باريس، وأنه اخبرها فيه بأن الاتفاق الذي تم بين كليمنصو ولويد جورج تم قبل وصوله، وأنه لم يقبله، وأنه مع ذلك هو عسكري محض لا يؤثر على مصير البلاد السياسي، وأن فرنسة عدلت ان احلال جنودها محل الجنود الانكليز في الأقضية. وتم الاتفاق على تعيين لجنة مشتركة من ضابط عربي وآخر انكليزي وآخر افرنسي لحل ما يقع بين المناطق من اختلافات. ومقابل ذلك يكتفي بوجود درك عربي في الأقضية دون حاميات عسكرية عربية، ويبقى الأمر كذلك الى ان تتم التسوية النهائية بواسطة مؤتمر السلم.

ولقد كانت هيئة جمعية الفتاة المركزية في حالة انعقاد دائم، وكانت تتابع الموقف وتشترك في بحثه وتركيزه مع الحكومة التي كان اعضاؤها البارزون اعضاء في الجمعية.

ولقد نبهت هذه الحادثة الحكومة الى وجوب الاستعداد لمواقف مستقبلية، وإعداد جيش نظامي قوي لذلك، وسنت قانوناً بالتجنيد الإجباري حيث كان الجيش قائماً على التطوع. وجعلت الجندية فيه واجبة على من يبلغ العشرين من عمره ومدتها ستة أشهر وبدلها النقدي ثلاثون جنيهاً، ولم تسعف الظروف المالية والاجتماعية والسياسية معاً للسير في تنفيذ هذا القانون مع الأسف.

ولقد استمرت اللجنة الوطنية في نشاطها، وقررت فيما قررته انشاء كتيبة مجاهدة في دمشق قوامها الف مجاهد تتولى هي تجهيزهم، كما قررت إرسال وفود الى مدن سورية الأخرى لتحث أهلها على السير في ما سارت فيه، سواء في التجمع والتوعية، أم في انشاء كتائب جهادية. ولكن تلك الظروف لم تسعف أيضاً، ومع الأسف، على السير قدماً في ذلك، برغم ما كان من حماس الناس وثقتهم باللجنة وتأييدهم لها. وكان من نشاطها عقد اجتماع عام في النادي العربي شهده جمهور عظيم من الشعب على اختلاف طبقاتهم وأديانهم، وفي مقدمتهم مفتي دمشق وعلماؤها وبطرك الروم ومطران السريان، وتعاهدوا على التضامن والدفاع وبذل كل تضحية في سبيلهما.

خطف الإنكليز ياسين الهاشمي يوم انسحاب حامياتهم:

ولقد عين الانكليز يوم 23 تشرين الثاني موعد انسحاب قواتهم من سورية، فأرادوا أن يتوجوا ذلك بعملية مكر غادرة، فدعا قائدهم العام ياسين الهاشمي الذي كان يتولى رئاسة ديوان الشورى الحربي لشرب الشاي موهماً بأن ذلك حفلة وداعية، وحال ما وصل الى مركز القيادة أمر تحت التهديد بركوب سيارة عسكرية خرجت به تسللاً من دمشق محروسة بحراسة شديدة حتى الرملة في فلسطين، فاعتقل في معسكرها الإنكليزي، ولم يلبث الناس أن افتقدوا الهاشمي وعرفوا بعملية المكر والغدر، فهاجو وماجوا وسارعوا الى التظاهر الصاخب والاحتجاج الشديد بدون جدوى، لأن الطير كان قد طار. وفي نفس اليوم تم انسحاب القوات الانكليزية، وكان من تمام المكر واللؤم والخداع الإنكليزي أنهم نشروا من طياراتهم مناشير يودعون فيها أهل الشام ويشكرونهم على ما كانوا يلقونه منهم من عطف وود.

تعليل الحادث:

ولقد علل هذا الحادث بتعليلات عديدة،

حيث قيل ان الإفرنسيين طلبوا من الانكليز اقصاءه لأنه أكبر رأس عسكري منظم ومدبر، وهم يبيتون لسورية ما يبيتون، بعدما تم بينهم وبين الانكليز من اتفاق صارت لهم بها حرية التصرف ازاءها، وحيث قيل أن الانكليز أخذوه معهم لأن الثورة العراقية أخذت تشتد وياسين في دمشق من مصادر مدها وتأجيجها. بل وحيث قيل ان الركابي هو الذي سعى مع الانكليز لإقصائه قبل سفرهم لأنه كان يرى فيه المنافس القوي له المترصد لسياسته، وكانت سياسته معتدلة نحو الإنكليز والإفرنسيين معاً خلافاً للهاشمي الذي كان يعد في رأس المتطرفين نحوهما. وكان الإنكليز والإفرنسيون يعرفون كل هذا فاستجابوا لرغبة الركابي التي رأوها متفقة مع مصلحتهم. وقد تكون كل هذه الأسباب واردة معاً.

ولقد كنا نحن في جمعية الفتاة وفي هيأتها المركزية وفي مجال العمل الحكومي نلمس تنافساً بين الرجلين، وكانت قلوبنا مع الهاشمي لأننا كنا نلمس الاعتدال بل المهاودة والمراوغة من الركابي. وقد لبث الهاشمي في معتقله في الرملة الى اواسط مارس 1920 أي بعد شهر من اعلان الاستقلال وتتويج فيصل على سورية على ما سوف نذكره بعد، وبناء على الحاح منا ومساع متواصلة من الملك حيث اطلق سراحه وأعيد الى دمشق. وقد لمحنا من سلوك الهاشمي بعد عودته انه أطلق سراحه بشرط ان لا يتولى منصباً حكومياً ولا يشترك في أي نشاط سياسي سوري أو عراقي حيث التزم ذلك بعد عودته التزاماً قوياً. ومن الجائز أن الإنكليز اشترطوا هذا الشرط على فيصل وعلى الهاشمي معاً وحصلوا على التعهد من الطرفين.

استقالة الركابي من منصبة نتيجة لذلك وتعيين مصطفى نعمة مكانه:

ومما جرى بعد خطف الهاشمي أن الهيئة المركزية للفتاة وكثير من أعضاء الجمعية رجحوا كما ذكرنا أن يكون للركابي اصبعا ما في الخطف، لما عرفوه بين الرجلين من تنافس وتناظر، ولما عرفوه في الركابي من مهاودة واعتدال، فاشتدت الضجة والحملة والتهجم على الركابي، واندمج الأمير زيد نائب الأمير فيصل في هذا كله، فلم يسعه إلا أن يستقيل من منصب الحاكم العسكري ورئاسة مجلس المديرين التي كانت بمثابة رئاسة الحكومة المدنية، وكان الأمير يحب الهاشمي ويتوافق معه ويرتاب في الركابي، فكان ذلك مما جعله يندمج في الجو الساخط عليه. وقد قبل الاستقالة بدون أي تأخير أو تردد، وعين مكانه ضابطاً كبيراً في الجيش اسمه مصطفى نعمة ورتبته أميرالاي اي (زعيم) في اصطلاح اليوم، وظل الركابي معتكفاً في بيته الى أن عاد فيصل من أوروبا حيث أعاده ثانية لمناصبه على ما سوف نذكره بعد، ومما جرى كذلك أن هيئة الجمعية المركزية جرياً على الخطة التي سارت عليها قررت ضم مصطفى نعمة اليها وفوتح بذلك ووافق وحلف اليمين، ولكنه كان وظل غريباً عن الجمعية قلباً وروحاً وشعوراً.

ترشيحي لمديرية البرق والبريد العامة:

ومما كان أيضاً أن بعض إخواني في الهيئة المركزية اقترحوا أن أتولى منصب المدير العام للبرق والبريد وكان شاغراً، وكانوا يعرفون أني أمضيت نحو عشر سنين في وظائف البرق والبريد وكسبت خبرة تؤهلني للقيام بمهام

المنصب، فوافقت الهيئة المركزية أيضاً، ورُشحتُ لمصطفى نعمة وذكر له سابق خدمتي وخبرتي، وطلب أن أزوره فذهبت الى ديوانه وتحدثنا ووعد بعرض الأمر على مجلس المديرين. ويظهر أن المجلس لم يوافق لأسباب لا أعرفها فلم يتم تعييني. وبعد مدة ما عين للوظيفة حسن الحكيم. ولم آسف كثيراً على ذلك لأني كنت أجد مجالي الواسع ومركزي البارز، وكنت مستغرقاً فيهما بنجاح وإعجاب وحسن قبول وتقدير.

***

17

موقف الإنكليز من فيصل حينما ذهب الى لندن:

ذكرنا قبل ظروف سفر الأمير فيصل الى أوروبا وتعويق وصوله لباريس الى أن انتهى اجتماع لويد جورج ـ كليمنصو، وترك لويد جورج رجلاً يعتذر له ويطلب منه السفر الى لندن. ومع أنه كان مع الأمير المعتمد الإفرنسي العسكري في دمشق، حسب التقاليد السياسية، لأنه كان ذاهباً الى فرنسة، فلم يجر له استقبال لائق في مرسيليا لذلك لم يشأ أن يطيل اقامته في فرنسة، وسارع الى مغادرتها الى لندن على مدمرة انكليزية هيئت له على ما ذكره لنا مرافقوه عند عودتهم. وقد استقبل في لندن بحفاوة وأنزل ضيفاً على الحكومة في فندق كارلتون الضخم. وكان اللورد اللنبي القائد العام للحلفاء في لندن فزاره ثم اصطحبه الى مقر رئاسة الوزارة وقد قابله لويد جورج، واحتج على ما كان وتم، وكرر لويد جورج اعتذاره. ولقد تكررت مقابلاته لرئيس الوزارة ولوزير الخارجية كورزون، وكان في كل مرة يثير قضية العهود المقطوعة لوالده ويطالب باحترامها والاحتفاظ بصداقة العرب وولائهم، ولم يكن ذلك ذا جدوى. ومما ذكره لنا الدكتور أحمد قدري أن الأمير أخذ يوماً يذكر اللورد كورزون بما كان من دماء العرب وجهادهم وتضحياتهم الى جانب الإنكليز، وما كان لذلك من أثر في احرازهم النصر، فما كان منه إلا أن قال له إن تضحيات بريطانية وحلفائها هي التي كان لها الأثر الحاسم في النصر، وكان موقفاً لئيماً حقاً.

مصارحة الانكليز لفيصل بوجوب تفاهمه مع فرنسة ودعوة فرنسة لفيصل وذهابه لباريس:

ثم أفهمه بصراحة وجفاء أن نجاحه في قضية سورية منوط بتفاهمه مع فرنسة، وأن كل ما يستطيعونه هو التوسط معها لاستقباله والحديث معه وايجاد حل مناسب يتفق عليه معها، وقد سعوا فعلاً واستصدروا دعوة له من رئيس وزارة فرنسة للقدوم الى باريس، ولم يكن له خيار فغادر لندن كسير النفس ليواجه فرنسة التي ترسخت الكراهية الشديدة بينها وبينه وبين سورية معا عبر الدعاية والنشاط اللذين كانا للإنكليز اصبع قوي فيهما.

وبعد وصوله بمدة قابل كليمنصو، ولكن هذا لم يتحدث معه في صدد القضية الأساسية، وكل ما كان بين فيصل وكليمنصو ورجال الحكومة في الفترة الأولى من وجوده في باريس اتصال وحديث في صدد ما كان من توتر وهياج في سورية بسبب استبدال الحاميات الإفرنسية بالحاميات الانكليزية في الأقضية الأربعة. ولقد نتج عن ذلك أن كليمنصو أمر بالإيعاز للمندوب السامي القائد العام الإفرنسي بالتساهل وإعلان كون ذلك مؤقتاً وذا صفة عسكرية، ثم ابلاغ فيصل بموافقته على الاكتفاء بوجود ضباط ارتباط في الأقضية دون حاميات، وبقاء الأقضية الأربعة تابعة في إدارتها وأمنها الداخلي للحكومة العربية السورية كما كانت سابقاً على ما شرحناه قبل.

إهمال الإفرنسيين الحديث مع فيصل في صدد سورية:

وجاء بعض من كان مع فيصل الى دمشق وشرحوا لنا وللأمير زيد الموقف الإنكليزي اللئيم منه وموقف فرنسة اللامبالي في صدد اساس القضية استمراراً لاعتبارها ان فيصلاً غير مختص بها، وأن كلامهم في موضوع الأقضية الأربعة وحامياتها معه كان من اعتبار أنه قائد المنطقة الداخلية العسكري التابع لقيادة الحلفاء العامة، وكون وجوده في سورية مرتكزاً على ذلك.

الحركات المسلحة في سورية وتحريكها للحديث مع فيصل:

وظل الأمير كذلك، وظل فيصل يجتر أحزانه من لامبالاة فرنسة به ولؤم الانكليز الغادر، إلى أن أخذت بوادر مقاومة مسلحة تظهر في بعض أنحاء سورية، وكان من أهمها في ظروف وجود فيصل في باريس حوادث تمرد تلكلخ. ولقد كان الإفرنسيون احتلوا تل كلخ في سياق احتلالهم السواحل ولبنان، لأنها متصلة بحدودها. وقد بدا لهم أن يرفعوا في هذا الظرف العلم الإفرنسي على القلعة خلافاً لما اتفق عليه من عدم رفع أعلام فرنسية وبريطانية على مناطق احتلالهما أي الجنوب والغرب، فاحتج أهل البلد وحاولوا منع ذلك وطالبوا بالانضمام الى الحكم العربي وقالوا ان ذلك هو رغبتهم التي أعلن الحلفاء ثم فرنسا وبريطانية عقب انتهاء الحرب استعدادهم لاحترامها وتحقيقها، ووقع صدام دموي بينهم وبين الحامية الافرنسية، وكان توتر وهياج، وقد قررت الهيئة المركزية لجمعية الفتاة تقوية هذه الحركة ومدها، وانتدبت سليم عبد الرحمن أحد أعضاء الجمعية القدامى لهذه المهمة بسبب صلاته بشباب آل دندش الذين كانوا الأسرة القوية البارزة في البلد، وبخاصة زعيم شبابهم النشيط القومي الشديد الحماس عبد الرزاق. وتكررت الاشتباكات نتيجة لذلك، وكان يتكبد الطرفان

معاً خسائر جرحى وقتلى، ومما نذكره مشهد قدوم سليم عبد الرحمن وعبد الرزاق الدندشي وبعض رفاقهما في أثناء ذلك من تل كلخ إلى دمشق وهم يلبسون الثياب العسكرية ويتمنطقون بأحزمة الرصاص وعلى أكتافهم البندقيات وفي أوساطهم المسدسات وبعض القنابل اليدوية تتدلى من أحزمتهم مما أثار الحماس الشديد في دمشق.

ولقد تغلب الإفرنسيون على الموقف في تل كلخ لتفوقهم الحربي عدداً وعتاداً، ولكن التوتر ظل مستمراً في البلدة ومنطقتها، ورفض المتمردون أداء الغرامة التي فرضوها عليهم مقابل العفو عنهم وتركوا بلدتهم وكان ذلك مما يزيد في التوتر. وإلى هذا فقد كانت في هذه الأثناء حركات عصابات تنشط على حدود مرجعيون اللبنانية والقنيطرة السورية المتصلة بتلك الحدود بإشراف وتعضيد الأمير محمود الفاعور زعيم قبائل منطقة القنيطرة، وبنشاط ومسعى أحمد مريود ابن هذه المنطقة وعضو الفتاة المتحمس الصلب المجاهد، وتشتبك مع قوات الدرك الافرنسية واللبنانية، ويقع جرحى وقتلى من الطرفين. وقد اشتدت هذه الحركات في ظرف وجود الأمير في باريس بتأييد وتعضيد الهيئة المركزية للفتاة، وكان أحمد عضواً معنا فيها. والى هذا كذلك كانت حركة الثورة النصيرية التي قادها المجاهد صالح العلي في جبال اللاذقية التي بدأت قبل سفر الأمير الى أوروبا أي في مارس 1919 نتيجة التشاد بين الإفرنسيين وأهل المنطقة آخذة بالاشتداد كذلك، يضاف الى هذا ما كان من حركات الشمال المسلحة التي كان يدبرها صبحي بركات وإبراهيم هنانو والتي ذكرناها قبل، حيث كانت هي الأخرى تقوى وتشتد في هذه الأثناء.

عرض كليمنصو على فيصل اتفاقية في صدد مصير سورية:

فكان كل هذا نذيراً باحتمال تفاقم الحركات والاضطرابات، وجعل الحكومة الإفرنسية تتصل بالأمير فيصل بعد ذلك الإهمال واللامبالاة، وقد دعاه كليمنصو رئيس الوزراء واستقبله بحفاوة وتحدث معه في أساس القضية وعرض عليه اتفاقاً ونصحه بقبوله لأنه عرض سخي كما زعم، وقال له إنه قد لا يتيسر له مثله، بل ولا أقل منه إذا لم يقبله الآن وتخلى هو عن الوزارة.

قدوم فيصل بالاتفاقية لعرضها على الناس وميله لقبولها:

وكان فيصل في حالة نفسية سيئة نتيجة لتخلي الانكليز عنه وغدوّه وجهاً لوجه مع فرنسا وليس له أمل في مقاومة ناجحة، فوافق مبدئياً على الاتفاقية التي عرضت عليه ووقعها هو وكليمنصو بالأحرف الأولى على أن يعرضها على أهل البلاد ويكون قرارهم هو الفاصل، وكان ذلك في أوائل كانون الثاني 1920، وعرفت الاتفاقية باتفاقية فيصل كليمنصو. وفي كتاب الوثائق التاريخية لحسن الحكيم، وفي الجزء الثاني من كتاب الثورة العربية لأمين سعيد نص كامل لهذه الاتفاقية، ويجوز أن يكون صحيحاً لأن الصحف نشرته في وقتها.

وهذه ديباجة الاتفاقية:

عطفاً على التصريح الإفرنسي الإنكليزي في 9 نوفمبر 1918 من جهة واستناداً على المبادىء العامة لتحرير الشعوب والمعاونة الودية المعلنة من قبل مؤتمر الصلح من جهة اخرى، تؤكد حكومة الجمهورية الافرنسية اعترافها بحق الأهالي الناطقين باللغة العربية القاطنين في

الأراضي السورية من سائر المذاهب أن يتحدوا ليحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفتهم أمة مستقلة. ويعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بأن مصلحة الأهالي السوريين الكبرى نظراً لاحتلال الكيان الإداري الناشيء عن الأضطهاد التركي والخسائر اللاحقة بالبلاد اثناء الحرب يتطلب تحقيق وحدتهم وتنظيم كيان الأمة الإداري للالتجاء الى النصائح والمعونة التي ستسجل في جمعية الأمم عندما تتألف هذه الجمعية بصورة عملية، فهو باسم الأهالي السوريين يطلب هذه المهمة من فرنسة.

ثم يأتي بند تتعهد فيه الحكومة الإفرنسية ان تمنح معونتها لسورية، وبأن تضمن استقلالها ضد كل تجاوز ضمن الحدود التي سيعترف لها به مؤتمر الصلح، وان تبذل جهدها في تعيين هذه الحدود لنيل جميع التعديلات الحقة من الوجهة الجنسية واللغوية والجغرافية.

ثم يأتي بند يتعهد فيه الأمير فيصل بان يطلب من فرنسة وحدها المستشارين والمدنيين والموظفين الفنيين اللازمين لتنظيم الإدارتين المدنية والعسكرية ويكونون تحت أمرة الحكومة السورية، على أن يكون اتفاق بين الحكومتين على مدى مهمتهم ومدتها، والطرفان متفقان على تطبيق نظام دستوري في سورية ضامن لحقوق الأهلين السياسية والحريات المكتسبة سابقاً ومحققاً لأمانيهم المتضمنة انشاء حكومة مسؤولة امام البرلمان.

ومما تنص عليه بنود الاتفاقية اشتراك المستشار المالي الافرنسي في اعداد الميزانية، وحقه بالاطلاع على كل التعهدات والنفقات اجبارياً.

وفي الاتفاقية نص على مركز خاص لمستشار الأشغال العامة، ونص على أن الحكومة الفرنسية سوف تمنح معونتها لأجل تنظيم الدرك والجيش والشرطة حينما يدخل الاتفاق حيز التنفيذ، ونص على أولوية الحكومة الافرنسية بالتعهدات والقروض اللازمة لخير البلاد ما لم يتقدم وطنيون للقيام بذلك على شرط ان يكون لحسابهم ولا تكون اسماؤهم معارة لأجانب. ونص على انه سوف يكون للدولة السورية في باريس لدى الحكومة الافرنسية مندوب سام مكلف بملاحقة المسائل الخارجية التي تهم الأمة السورية، وعلى أن الدولة السورية تعهد لممثلي فرنسة السياسيين وقناصلها في الخارج تمثيل مصالحها الخارجية. ونص على اعتراف الأمير باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الافرنسي.

وفي نهاية الاتفاقية هذا النص العجيب:

اللغة العربية معترف بها كلغة رسمية للإدارة والمدارس (أما اللغة الإفرنسية فتدرس بصورة إجبارية وممتازة).

وواضح مما تقدم ان الاتفاق يتعامل مع أهل سورية ويعتبر الأمير فيصل كوسيط وإن كان يمكن ان يفيد اعتراف فرنسة بامارته على سورية تأويلاً غير صريح. وليس في الاتفاق نص بالانتداب والحماية والوصاية والاستعمار، ولكن كل ما فيه صريح صارخ على أن فرنسة قد منحت لنفسها في سورية الانتداب والحماية والوصاية والاستعمار معا وسجلت اعتراف فيصل بمدى ذلك.

ميل فيصل لقبول الاتفاقية ليأسه من غيرها ومن عدم احتمال المقاومة المجدية:

وعاد فيصل الى سورية يحمل الاتفاقية، فوصل بيروت واستقبل استقبالاً حسناً من

السلطات الإفرنسية فيها. وذهبت وفود كثيرة من سورية الى بيروت فاشتركت في الاستقبال، وأقام المندوب السامي الإفرنسي له حفلة استقبال تعمد ان يتقدم عليه في المشي والبروز والتحركات للدلالة على انه سوف يكون تابعاً له. وجاء الى دمشق فاستقبل كذلك استقبالاً حافلاً، وكانت أحاديثه لكبار مستقبليه تنم على اليأس وتفيد ان ما جاء به هو كل ما يمكن ان يكون وأن لا مناص من قبوله.

ما كان من نشاط في صدد الاتفاق ورفضه من معظم اعضاء الفتاة ومعظم الوطنيين:

وأقام النادي العربي حفلة ترحيب واستقبال في 22 كانون الثاني 1920، وكنت انا ومعظم أعضاء الجمعية والأحزاب ومن في دمشق من أعضاء المؤتمر من حاضريها، بالاضافة الى جمهور كبير من رجالات دمشق المسلمين والمسيحيين. وخطب الأمير خطبة ارتجالية طويلة أشاد فيه بمبادىء الثورة الهاشمية وأهدافها وبرغبة العرب في الاستقلال والحرية وحقهم في ذلك، وبجهاده وجهاد أبيه وجهاد العرب وتضحياتهم في سبيل ذلك، وقال فيما قال إنه لا يخاف الا من التاريخ والمستقبل.

وخطب الدكتور الشهبندر خطبة حماسية أكد فيها حق العرب بالاستقلال والحرية والوحدة واستعدادهم لكل تضحية في سبيل ذلك ورفضهم لكل تنازل عن شيء من ذلك بأي اسم كان.

وخطب خطباء آخرون منهم من ضرب على نغمة الدكتور ومنهم من أناط بالأمير السير بالأمة وفق ما يمليه عليه ضميره وما يرى فيه مصلحتها.

ولقد كانت الهيئة المركزية للفتاة قد دعت في غياب الأمير المؤسسين الى اجتماع عام بعد أيام قليلة من خطف الهاشمي الذي كان عضواً فيها اي في أواخر تشرين الثاني 1919، شرحت لهم الأحوال السياسية وما لديها من أخبار وما أنجزته من اعمال، واقترحت تجديد انتخاب الهيئة، وجرى اقتراع سري فاحتفظ اعضاؤها بمراكزهم، وحل الشيخ كامل القصاب محل الهاشمي الشاغر.

ولقد اجتمعت الهيئة أولاً مع الأمير فيصل فعرض عليها الاتفاقية وتناقشنا فيها وحللناها، وانكشف نتيجة لذلك ما احتواه من معاني الحماية والوصاية والانتداب والاستعمار، وانتهى الاجتماع بوجوب رفضها والبحث عن بديل لها، وطلب فيصل جميع المؤسسين الى اجتماع عام واستجابت الهيئة للطلب ودعتهم وجرى النقاش حول النصوص، وكان كلام الأمير وموقفه ينمان عن رغبته في قبول الاتفاقية لأنها هي الممكنة بقطع النظر عن ما فيها من قيود وشروط بالغة السوء. وكنت أنا ورفيق التميمي وسعيد حيدر والشيخ كامل القصاب وأحمد مريود بخاصة من المنددين بالاتفاقية والكاشفين لسوأتها. وطلب فيصل الوقوف على آراء مختلف الفئات في دمشق، فعقد اجتماع في دار كبيرة لأحد رجال آل مردم بك وشهده جمهور كبير من وجوه أحياء المدينة وأعضاء الأحزاب والمؤتمر، وخطب خطبة طويلة في المعاني التي ذكرها، وقال فيما قال إنه لم يمكنه الحصول إلا على هذه الاتفاقية، وأنه يريد ان يعرف ويسمع آراء مختلف الناس فيها.

وخطب خطباء عديدون منهم من ندد بالاتفاقية وكشف عما فيها من قيود واغلال وسوآت وواجب رفضها، ومنهم من أناط الأمر بالأمير على النحو الذي كان في النادي. وكنت

أنا وسعيد حيدر والشيخ كامل ممن تكلموا في نطاق الرأي الأول، وكان جماعة الحزب الوطني السوري الذي كان حزب وجهاء دمشق ضد الغرباء على ما ذكرناه قبل في جانب الرأي الثاني. ولم يكتف الأمير بما جرى فطلب من الهيئة المركزية أن تقدم له رأيها مكتوباً بصراحة وبصورة رسمية، وتوليت انا تسويد التقرير ونوقش في الهيئة حتى تم اقراره في صيغته النهائية التي كانت في نطاق الرأي الأول.

البديل المقدم من الفتاة وهو إعلان الاستقلال:

وتضمن اقتراحاً بديلاً للاتفاقية، هو جمع المؤتمر السوري، وأخذ قراراً منه بإعلان الاستقلال التام تحت ملكية فيصل، ووضع العالم أمام أمر واقع، ويفعل الله ما يشاء. وناقش التقرير احتمال غزو فرنسة لسورية وفرضها ما تريده فيها بالقوة، وقلنا في التقرير إن الاتفاقية والغزو المحتمل في مثابة واحدة، وخير للبلاد أن ترغم على ما في الاتفاقية بالقوة من ان تسجل على نفسها الموافقة عليه، وهو حماية ووصاية وانتداب واستعمار معاً. ويبقى على كل حال أمل ولو ضئيل بنجاح ما أردناه من أمر واقع او تعديله تعديلاً مناسباً. وحملتُ التقرير انا والدكتور احمد قدري ورفيق التميمي وسلمناه للأمير، وطلب الأمير أن يختلي بكل منا على حدة ويسمع منه ففعلنا، وسمع من كل منا على حدة ما جاء في التقرير فاقتنع أن ذلك في ضمير كل منا. وقد لمحنا ان الأمير كان يستدعي بعض اعضاء الجمعية الآخرين ويختلي بهم ويسألهم شخصياً عن رأيهم، حيث يفيد أنه كان يظن أن جماعة قليل متحمسة كانت هي المتغلبة على الكثرة، وكنا نعرف من الذين كان يستدعيهم انهم كانوا مؤيدين للرفض.

تعليق على ما جاء في كتابي حسن الحكيم وأمين سعيد من قول ان الفتاة هي التي رفضت الاتفاقية ودفاع عن الرفض وتفنيد لانتقاده:

وأمين سعيد وحسن الحكيم اللذان اثبتا الاتفاقية في كتابيهما اللذين ذكرناهما يقولان إن الذي رفض الاتفاقية هو جميعة الفتاة، وإنها أثرت على الأمير كأنما يريد ان يحملها المسؤولية وحدها عن هذا الرفض. وهناك آخرون من الحزب الوطني وغيره كانوا يقولون ذلك في العهد الفيصلي، وظلوا يقولونه بعد الغزو الافرنسي وسقوط هذا العهد.

ونقول تعليقاً على ذلك:

أولاً إن رفض الفتاة كان يمثل رأي أكثريتها، وأن من أعضائها من كان يحبذ الاتفاقية ويقول (شيء خير من لا شيء)، وكانوا أقلية فرضخوا للأكثرية، فصار الرفض يعبر حقاً عن موقف الفتاة.

وثانياً إني أقول كشخص كان مسؤولاً في الفتاة أن من حق الفتاة أن تعتز بذلك، وأن كل عاقل متزن يستحضر الظروف وما كان من أحلام العرب الكبرى، وما كان من جهادهم وتضحياتهم في سبيل الاستقلال والوحدة، وما كان من شدة رفضهم لأي حماية أو وصاية أو انتداب ولمطامع فرنسة بخاصة في سورية، لا يمكن أن يرضى بأن تنمسح تلك الأحلام الى موقف تصبح فيه سورية تحت الاستعمار والحماية والوصاية والانتداب الافرنسي داخلياً وخارجياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً وعسكرياً.

والفتاة لم تكن كما قلنا غافلة عن احتمال تغلب فرنسا على سورية بالقوة وفرض سيطرتها واستعمارها، ولكنها لم تكن ترى فرقاً كبيراً في النتيجة. وكانت ترى الأفضل أن يتم ذلك عنوة

مع رفضها الشديد بما تملك وليس بالرضاء والخضوع. والفتاة ليست منفردة في ذلك، فكل حركة وطنية ذات أهداف ومبادىء وجهاد وقفت وتقف نفس الموقف اذا ما عرض عليها مثل هذه الاتفاقية.

ومع ذلك فللحق والتاريخ نسجل أن الفتاة لم تكن وحدها الرافضة، بل كان حزب العهد الذي كان ينتسب اليه حسن الحكيم رافضاً بل وبقوة واجماع، ولم يكن فيما نعلم بين أفراده من يميل الى الموافقة، وبالتالي فلم يكن رفضه بأكثرية ضد أقلية كما هو الأمر في الفتاة، وهذا يكشف عن المفارقة بين موقف حسن الحكيم وحزبه من الاتفاقية، وبين قوله الذي يفيد قصد تحميل مسؤولية الرفض على الفتاة وحدها. ولقد كان الدكتور شهبندر الذي يعلن حسن الحكيم دائماً ولاءه لزعامته وإعجابه بها وتقديرها والثناء عليها من أشد الرافضين، وحسن الحكيم يعرف ذلك. وبالإضافة الى ذلك فإن الرأي العام الشعبي كان مؤيداً للرفض متحمساً له، ولم يكن الموافقون إلا أقلية من أصحاب المصالح الاحتكارية والاقطاعية الذين يستمدون وجاهتهم ومصالحهم من الحكم أيا كان، ويوالونه ويحبون أن لا يتورطوا في مواقف نضالية ولا يعرضوا مصالحهم لمشاكل تعرقلها. ولقد دعا أعضاء المؤتمر السوري الى الاجتماع للنظر في الموقف وفي اقتراح إعلان الاستقلال البديل للاتفاقية، وجاءوا ووافقت أكثريتهم الساحقة في جلسة رسمية على ذلك، وفيهم كثير من المثقفين والنبهاء والناقمين على الحكم الراهن وذوي الإرادة القوية والبروز وبعد النظر، وهذا يعني أن الرفض كان كاسحاً لم يشذ عنه إلا أقلية. ولو كان الموافقون على الاتفاقية أكثرية من الوجهاء والشعب وأعضاء المؤتمر لكان الأمير فيصل، الذي كان ميالاً للقبول بداعي اليأس، أصر على القبول بها ولم يكن يتراجع عنها، ولما استطاع حفنة من الفتاة وحزب العهد أن تفرض رأيها ومواقفها.

ونحن لا ننكر أن فريقاً من الناس انتقد رفض الاتفاقية وإعلان الاستقلال، واعتبروا ذلك تسرعاً وطنياً وسبباً للكارثة التي هدمت العهد الفيصلي، وحملوا مسؤولية ذلك على الفتاة والاستقلاليين خاصة. ومنهم من كان يزعم أن نصوص الاتفاقية ليست شديدة الوطأة، وانها مما تستسيغه حوصلة امة ضعيفة لا عدة لها وقد خذلها حلفاؤها، وقبل كل شيء نقول انه لم يرتفع صوت قوي بانتقاد واعتراض في حينه لا من شخصيات بارزة ولا من أعضاء المؤتمر من داخله أو خارجه ولا من أحزاب، وأن جميع هؤلاء أو أكثريتهم الكبرى كانت متطابقة أو متظاهرة في التطابق، وفيهم كثير من خصوم الفتاة. واذا كان وقع شيء من انتقاد واعتراض في حينه فإنه كان همساً خافتاً غير مسموع وغير مؤثر، ولا يصح أن يعزى ذلك الى الخوف من رجال الفتاة والاستقلال. ولم يقع أي حادث إرهابي في عهد فيصل على كثرة المجرمين الطاغين والمنتقدين والجواسيس والمتلاعبين والدساسين المأجورين وغير المأجورين، بل والذين لم يكن اندماجهم مع الدعاية الافرنسية سراً خفياً، حتى يكون خوف من الوقوف موقف الصراحة القوي بوجوب القبول وعدم الرفض. وهذا فضلاً عما كان من ميل الأمير فيصل الى القبول كما قلنا بسبب يأسه من العاقبة ومن حلفائه، حيث كان من الممكن أن يستقوي الرافضون بموقفه فيقفون موقفاً قوياً وصريحاً في القبول وعدم الرفض، لأن مثل هذا الموقف لم يكن مستساغاً لا من السواد الأعظم ولا من

الأوساط القومية والوطنية على السواء، وما كان من انتقاد غير هامس فقد كان في الحقيقة بعد انهيار العهد الفيصلي. والمنتقدون أنواع منهم ذوو نيات حسنة ومنهم مغرضون حاقدون ومنهم ضالعون مع الإفرنسيين، والأولون كانوا على الأكثر من المتفرجين في أيام العهد فانكسرت قلوبهم من فظاعة ما وقع، فأخذوا يضربون كفاً على كف ويندبون الطالع المنكود ويوجهون النقد واللوم الى هذا وذاك ويستجيبون الى دعاة اللوم والتجريح السيئي النية بسهولة. وهذه حالة عامة مألوفة في كل زمن وموقف. وقد تأثروا بالدعاية السيئة ولم يمحصوا الأمور والوقائع، ولعل ما كان من تفاهم فيصل مع الإنكليز بعد سقوط عهده الشامي وتسلمه نتيجة لذلك عرش العراق، وما كان من ظواهر ومظاهر استقلال العراق، كان ذا أثر في موقفهم الانتقادي اللاحق دون أن يلمحوا الفرق. والمغرضون الحاقدون اندفعوا في انتقادهم بسائق الهوى، ومنهم الحانق لحرمانه مما كان يتوق اليه من منصب وجاه، ومنهم المغتاظ من بروز رجال الفتاة والاستقلال، ومنهم الذين كانوا بيدهم زمام العهد فوجدوا في النتيجة المشؤومة مجالاً للنقد والتجريح والتشفي.

ومن الظواهر العجيبة التي تدل على الضعف الأخلاقي أن كثيراً من أفراد هذا الفريق وزعمائه كانوا مندمجين في حركة الشام وعهد فيصل قبل إعلان الاستقلال وبعده، وكان منهم البارزون فيه، ومنهم من كان يظهر تضامنه مع العاملين، ومنه من كان شريكاً في مسؤولية العهد وأحداثه، ومنهم الأعضاء في المؤتمر الموقعون على قرار الرفض وإعلان الاستقلال والمسارعون الى مبايعة الأمير فيصل. ولم يرتفع بينهم صوت أو رأي أو معارضة بجد وقوة، بل وكان كثير منهم يظهرون سرورهم وحماسهم بما تم وتقرر في حينه، بل وكان منهم المتظاهرون بمعارضة العهد لما كان منه احياناً من تساهل أو ترو، ومنهم من كان متعنتاً في الرفض أكثر من كثير من عناصر الفتاة وحزب الاستقلال.

أما الضالعون مع الإفرنسيين فأمرهم هين، وكان الاتجاه الذي وجهوا فيه هو بذل كل جهد في إخماد روح القومية والوطنية بالتهديم والتحطيم والتثريب والتثبيط بعد الغزوة الافرنسية بل وبين يديها، وابراز ضعف الأمة وعدم استطاعتها الوقوف أمام فرنسة والنضال ضدها وضرورة مسايرتها والحال هذه، وأخذ ما يمكن أخذه، وجعل السواد يفقد ثقته برجال حركته ونضاله..

ولقد أثبتت الأيام أن الفريق القومي الذي قاد حركة الرفض للاتفاقية والخضوع لانتداب فرنسة واستعماره والتمرد على ما أريد للأمة من ذل وهوان، كان على حق في موقفه، لأن الأمة بقيادة رجالها الوطنيين بعد الغزوة الإفرنسية ظلت تؤيد رفض الخنوع والاستسلام، وان الندم على ما كان من رفض اتفاق يقوم على أساس التسليم بالسيطرة والحماية والوصاية لم يكن معبراً عن رأيها وضميرها. وقد ثارت أكثر من مرة وظلت تلتف حول رجال حركتها النضالية الوطنية الذين كانوا يرفضون باستمرار كل عرض يقوم على ذلك الأساس، والذي كان يعرض عليهم بأشكال متنوعة تخلصاً من الموقف السلبي الكفاحي الذي وقفته الأمة، والذي كانت تتجلى فيه روح المقاومة بكل شدتها، وروح الرغبة في الحرية والكرامة والاستقلال بكل قوتها. وبذلت في سبيل ذلك التضحيات الجسيمة بالمال والنفس وتحملت المشاق والشدائد حتى أعيت الافرنسيين وجعلتهم في

النهاية يجنحون الى التفاوض مع رجالهم الوطنيين ويعقدون معهم معاهدة استقلالية في سنة 1936 يصح أن تكون مرحلة لا بأس فيها. ومن الجدير بالتسجيل ان معظم الذين قادوا حركة النضال الوطنية بعد الغزو الافرنسي هم من الذين وقفوا موقف الرفض للاتفاقية وتأييد السواد الأعظم لهم، والتفاهم عليه دليل ساطع على أن موقفهم كان هو الموقف الوطني القومي الصحيح.

ومن الجدير بالذكر كذلك أن معاهدة سنة 1936 كانت أفضل بما لا يمكن أن تقاس من أي جانب مع اتفاقية كليمنصو فيصل. ومع ذلك فإن الدكتور شهبندر ومن كان يواليه ويسير معه ومنهم حسن الحكيم عارضوها أشد معارضة بحجة وجود ثغرات لا تستساغ من وجهة النظر الوطنية المثلى، حتى إن فرنسة استغلت هذه المعارضة فنقضتها قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث يفيد هذا أن رفض اتفاقية كليمنصو- فيصل كان مبرراً كل التبرير عند الشهبندر وأوليائه. وان تمسكهم بواجب عدم قبول أي ثغرات في أي اتفاق يعقد بين سورية وفرنسا اداهم الى رفض معاهدة سنة 1936 رغم ما كان فيها من مزايا هامة لأن فيها بعض قيود وشروط مخلة بمعنى السيادة والاستقلال. وكل هذا يجعل في تنصل حسن الحكيم من الرفض في قوله ان الفتاة هي التي رفضت اتفاقية كليمنصو فيصل الذي يفيد انه يحاول تحميلها وحدها مسؤولية ذلك مفارقة عجيبة، وقد ركزنا على حسن الحكيم لأنه كان ذا مركز مرموق ونشاط قوي وبروز في عهد فيصل، وكان يعد من المعارضين الأقوياء.

ثم برز في عهد الاستقلال الجديد بعد الحرب العالمية الثانية على ما شرحناه في كلمتنا عنه، ولم نشأ أن نقف كثيراً عند أمين سعيد الذي قال ان الفتاة هي التي رفضته كما قال حسن الحكيم، لأنه لم يكن ذا بروز ومكانة سياسية وحزبية، وكان صحافياً من نوع الصحافيين الذين يحيون بغيرهم ان صح التعبير. وكل ما كان من مزية له انه كان ينشط في الكواليس. ولقد قرأنا مؤخراً في المجلد الثالث (الثورة العربية الكبرى) المراسلات التاريخية 1920 ـ 1923 مؤلفه (سليمان موسى) في الصفحة (10) ما يلي:

ومهما يكن من أمر فإن فيصل عرض مشروع الاتفاق على أعضاء الهيئة المركزية لجمعية (الفتاة العربية) فرفض هؤلاء قبوله. وقال فيصل لهم: إن رفض المشروع معناه اعلان الحرب على فرنسا. فكان الرد: «إننا مستعدون لإعلان الحرب على فرنسا وإنكلترا معاً». وكان ذلك القرار بداية للأحداث التي وقعت في سوريا وبلغت ذروتها في معركة ميسلون. لقد كان بمقدور فيصل أن ينبذ أعضاء (الفتاة) ويتخذ من الزعماء المعتدلين واجهة لتطبيق مشروع الاتفاق مع فرنسا. ولكنه خشي «اللوم التاريخي» كما قال في رسالة منه الى أبيه:

وتعليقاً على ما عزي الى الفتاة أنها قالت: «إنها مستعدة إعلان الحرب على فرنسا وانكلترا معاً» نؤكد أن هذا الكلام لم يصدر ولقد كنت عضواً وسكرتيراً للهيئة في هذا الظرف. وكنت ثالث ثلاثة انتدبتهم الهيئة لإبلاغ فيصل قرارها بالرفض واقتراحها البديل وهو إعلان الاستقلال وجعل فرنسا وبريطانيا أمام أمر واقع. وكل ما كان من حوار بين فيصل وبين الهيئة في كل موقف في هذا الصدد هو احتمال شن فرنسا حرباً على سورية. وكون من حقنا وواجبنا الدفاع بكل ما نملك. وأن من الأفضل أن

يفرض الانتداب على سورية بالقوة من أن يقبله برضائها.

وفي كلام المؤلف تحميل الهيئة مسؤولية الأحداث التي أدت الى معركة ميسلون، وبالتالي الى نسف عهد فيصل نتيجة لقرار الرفض، وقد تكرر منه ذلك في أماكن أخرى من الكتاب.

ولقد شرحنا في كلامنا السابق أن الفتاة لم تكن منفردة في الرفض أولاً، وأن هذا الرفض كان تعبيراً عن ضمير الأمة العربية السورية على ما ثبت ذلك بشكل قطعي عن سورية مما يغنينا عن شرح آخر.

ونقول أيضاً تعليقاً على كلام المؤلف المعزوّ الى الملك فيصل «أنه كان في استطاعته أن ينبذ الفتاة ويعتمد على المعتدلين ويقبل الاتفاق ولكنه خشي التاريخ على ما كتبه لوالده».

إن فيصلاً قد نبذ الشخصيات والأحزاب والفتاة في موقف آخر ونسي انه قال (إنه يخشى التاريخ) فلم يكن هذا النبذ يجديه شيئاً.

ولقد كانت فرنسا مصممة على فرض انتدابها طوعاً أو كرهاً، فلما أخفقت في فرضه طوعاً بأسلوب اتفاق (كليمنصو) عمدت الى فرضه بالاكراه، فكانت الأحداث التي توالت بعد شهر من إعلان الاستقلال وبلغت ذروتها في معركة ميسلون ودخول الجيش الإفرنسي إلى دمشق وسقوط الحكم الفيصلي على ما شرحناه في فصل آتٍ من هذا الجزء تفصيلاً وافياً. فقد كان موقف الفتاة وأكثرية أعضاء المؤتمر السوري وأعضاء الفتاة والأحزاب الوطنية الأخرى رفض انذار (غورو) والدفاع بالمستطاع، ولكن فيصلاً نبذ هذا الموقف وقبل الانذار ونفذه قبل أن يأخذ موافقة القبول من (غورو)، فكانت الكارثة التي فصّلنا احداثها في فصل آخر كما قلنا.

* * *

18

اعادة الركابي للحكومة بعد عودة فيصل:

لقد قلنا قبل أن رضا الركابي استقال من مناصبه في غياب فيصل حينما لم يستطع فرض اعتداله ومهاودته، ورأى نفسه مغموزاً بخطف الهاشمي، وأن الأمير زيد عين الأميرالاي مصطفى نعمة مكانه، وانزوى الركابي في بيته. فلما عاد فيصل رأى أن يجدد تشكيل الحكومة، ورأى أن يسترضي الركابي ويخرجه من عزلته. ولم نرد نحن الهيئة المركزية للفتاة أن نقف من فيصل في هذه المسألة موقفاً متشدداً، لأننا أحببنا أن يبقى بيننا وبينه صلة طيبة ننشط في نطاقها لتبديل موقفه من اتفاقية كليمنصو فلم نعارضه في ذلك، وعاد الركابي نتيجة لذلك لرئاسة الحكومة وللقيادة العسكرية العامة، واستلم في الوقت نفسه مديرية الدائرة الحربية. وقد تم اختيار رشيد طليع لمديرية الداخلية، ويوسف العظمة لرئاسة أركان حرب الجيش، وساطع الحصري لمديرية المعارف، وأحمد حلمي لمديرية المال، واسكندر عمون لمديرية العدلية. وعدا إسكندر عمون فان الباقين كانوا أعضاء في جمعية الفتاة وكانوا قد ضموا اليها قبل مدة ما. وقد كان اختيارهم برأينا، ورَأَيْنا في وجودهم ضمانة ما تجاه وجود الركابي على رأس الحكومة، وقد كتبنا كلمات عن ساطع وأحمد حلمي واسكندر عمون في مناسبة سابقة.



- الشهيد يوسف العظمة وزير الدفاع في العهد الفيصلي ، وقد استشهد في معركة ميسلون .



- رشيد طليع .

كلمة عن رشيد طليع ويوسف العظمة اللذين دخلا في حكومة الركابي الجديدة:

ولقد تعرفنا على رشيد طليع ويوسف العظمة أثناء وجودنا في دمشق وقبل تعيينهما في منصبيهما المذكورين، وهما أسن مني ببضع سنين، وتكررت لقاءاتنا معهم في عهد فيصل وبرشيد بعد، وكنا نلتقي كأصدقاء متوادين، ولم يقم بيننا صلة حميمة كساطع وأحمد حلمي.

ورشيد متخرج من المدرسة الملكية العليا في الأستانة، وقد مارس بعض الوظائف الادارية في زمن الدولة العثمانية وكان منها متصرفية طرابلس الشام، وآخرها منصب متصرف اللاذقية. وهو من جبل لبنان ومن الطائفة الدرزية نسبة أو عشيرة أو في أسرته مشيخة عقل هذه الطائفة، ولست متيقناً من انه كان درزي العقيدة، وان كنت أظن عدم ذلك. وكان متزناً حصيف الرأي والمحاكمة صلباً في وطنيته وعروبته حسن الحديث والثقافة. وبعد سقوط عهد فيصل جاء الى عمان، وكان الأمير عبد الله قد جاء اليها فاندمج في عهده وتقلب في وظائف ادارية عالية وترأس الحكومة، وكان أول من ألف حكومة نظامية. والتقيت به حينما ذهبت الى عمان، وكان يشكو من تصرفات الأمير، وقد مكث في عمان مدة ثم نزح الى مصر وأخذ يتنقل بينها وبين فلسطين. وحينما اندلعت ثورة سورية الكبرى سنة 1925، وكان اندلاعها بادىء بدء من جبل الدروز حوران، واندمج فيها وأخذ يبذل جهده في سبيل تأييدها ومدها، ثم التحق بها وعمل على تنظيمها. وقد توفي في أثناء عمله فيها سنة 1926، وكنت ألتقي به حينما كان يأتي الى فلسطين ويتجدد عهد التعارف والمودة رحمة الله عليه.

يوسف العظمة:

ويوسف العظمة متخرج من الكلية الحربية في الأستانة بصفة أركان حرب، وتيسرت له فرصة ذهب فيها الى ألمانيا ودرس بعض الوقت في معاهدها العسكرية، وقضى معظم وقته في الجيش العثماني في البلاد التركية، حتى كانت اللغة التركية تغلب عليه. ولما انتهت الحرب وعقدت الهدنة وقام عهد فيصل جاء الى دمشق وصار من ضباط جيشها الناشىء الرئيسيين اللامعين، وهو ذكي وجدي وذو سمة عسكرية صارمة، وإن لم يكن متجهماً وشرساً، وثقافته العسكرية جيدة، وقليل الكلام دؤوب على العمل. وكانت مواقفه في أزمات عهد فيصل التي كانت تنشب بين هذا العهد وفرنسة قوية صلبة، وقد عينه فيصل معتمداً عسكرياً لدى السلطات العسكرية الإفرنسية في بيروت، وكان له نشاط وخدمات مشكورة بالتعاون مع رفيق التميمي على ما شرحناه في كلمتنا عن رفيق. ثم دعي في عهد حكومة الركابي الثانية لاستلام منصب رئيس أركان حرب، ثم عين معاوناً لوزير الحربية عبد الحميد القلطقجي في وزارة الركابي الاستقلالية التي قامت عقب اعلان الاستقلال، وكنا رشحناه للوزارة ولكن صغر سنه نوعاً ما ووجود أكبر منه رتبة وسناً في الجيش رجحا أن يكون معاوناً للواء القلطقجي في الظاهر، على أن يكون هو المدير لشؤون الوزارة. ولكن هذا لم يطل، فقد استلم الوزارة بعد نحو شهرين حينما استقال الركابي وخلفه في رئاسة الوزارة هاشم الأتاسي. وحينما تأزم الموقف بين سورية وفرنسا ووجه القائد الإفرنسي إنذاراً مذلاً لسورية على ما سوف نشرحه بعد، كان رأيه كرأي معظم أعضاء الفتاة والمؤتمر والهيئات والشخصيات الوطنية في

رفض الإنذار والدفاع. ولما قرر فيصل وأكثرية الوزارة قبول الإنذار بعد أن تبين لهم ان الدفاع غير مجد وغير مستطاع بما هو متيسر في اليد من قوة، ولتفوق القوات الإفرنسية تفوقاً كبيراً رضخ للقرار ولم يجد القبول، لأن القائد الإفرنسي تعنت، واغتنم فرصة الروح الاستسلامية التي بدت وأدت الى حل الجيش وسحب التحصينات في مجدل عنجر قبل الموافقة الإفرنسية على قبول سورية للإنذار، وحينئذ لم يكن بد من موقف دفاعي وبذل جهده في تحضير وتجهيز ما أمكن من أسباب المقاومة، وذهب الى ميسلون ليقود عملية الدفاع اليائسة. وقد رأى الذين ودعهم وودعوه في هذه اللحظة الرهيبة وكنا منهم عزم الاستشهاد بادياً عليه. حيث أيقن أن المعركة خاسرة ولكنه، وقد كان من أقوى الذين قالوا بالمقاومة وإمكانها مدة من الزمن منفرداً في ذلك عن معظم العسكريين، أدرك أن شرفه العسكري والشخصي أصبح يتطلب منه التضحية بنفسه ليسجل بذلك مع من يضحون بأنفسهم من مواطنيه احتجاج الضعيف الصارخ على القوي الباغي. وفي الرابع والعشرين من تموز 1920 اشتبكت قوة المقاومة بقيادته مع القوات الافرنسية التي كانت تفوقها كثيراً جداً عدة وعدداً ونظاماً وقيادة وكبدت العدو مع ذلك بضع مئات من القتلى، وتركت في الميدان كذلك بضع مئات من الشهداء وفي مقدمتهم قائدهم الباسل، فبلغوا بشهادتهم ذلك الهدف الاحتجاجي النبيل، وكتبوا بدمائهم سطراً من نور في تاريخ الحركة العربية والكرامة العربية، ودفن هو في ضريح خاص في ميسلون ليكون مزاراً خالداً للأجيال رحمة الله عليهم جميعاً.

***

19

خصوصيات:

ولقد كان لي أحداث خاصة وشخصية في هذه الفترة، وهي جزء من حياتي، وقد كان لي مثل ذلك في الفترات السابقة فسجلتها، وها أنا أسجل الأحداث الخاصة في هذه الفترة أيضاً.

استقدام الأسرة من نابلس لتسكن في بيت جديد:

فأولاً: لقد قررت إحضار أسرتي من نابلس إلى دمشق، فلا أدري حتى متى أبقى في دمشق ومرض عيون أبي بلغ ذروته حتى كاد يصبح شبه أعمى، فأرسلت إليهم خبراً فحزموا أغراضهم الخاصة وسارعوا الى القدوم، وقد صحبهم في رحلتهم الحاج فتح الله، وقد وضعوا ما في البيت من فرش وأثاث وأوان عند بعض أقاربنا وأغلقوا البيت وركبوا القطار من محطة المسعودية الى العفولة ثم الى دمشق، وكنت قد استأجرت قبل وصولهم بيتاً أوسع من الأول في منطقة دك الباب أيضاً وقريب من المسجد الذي كان يسمى بنفس الاسم ومدخله في شارع الصالحية من ناحية الشرق، ونقلت أثاث البيت الأول واشتريت بعض الأثاث الجديد من أسرّة وفرش وأدوات طعام ومائدة ومطبخ وكراسي ومناضد وطقم كنبايات مخمل مصدف الخشب. وكانت الأسرة مؤلفة من أبي ووالدتي وأم زهير وشقيقتي عريفة وبنت عمي بدرية وزهير وشقيقته سلمى، وكان عمر زهير نحو ثلاث سنين وعمر سلمى نحو ثلاثة أشهر،

وكنت أتقاضى كما ذكرت سابقاً ثلاثين جنيهاً من صندوق المؤتمر شهرياً، وكان المبلغ مجزياً لحياة متوسطة. واعتكف أبي في البيت، وكان أتى معه بولد قروي صغير اسمه حسن كان يقوده في نابلس فجاء معه وكان له نعم العون في دمشق، حيث كان يقوده الى المسجد لصلاة الظهر والعصر ويعود به، وكان زهير يمشي معهما أحياناً. واستمرت حياتنا في الأسرة هانئة إلى أن وقع الغزو الافرنسي لسورية، حيث غادرت دمشق وبقيت الأسرة وقتاً ما فيها ثم عادت واجتمع شملنا ثانية في نابلس على ما سوف نشرحه.

اشتغال أخي في التجارة في نابلس ودمشق ومصر:

ومما كان من خصوصياتنا سفر أخي محمد علي لتجارة البطيخ في صيف عام 1919، ولقد كان له صديق من غزة هو يوسف العلمي الذي مر ذكره في مناسبة الكلام عن وجودي بغزة وكان زميلاً لأخي في دار المعلمين في بيروت، فلما انتهت الحرب واحتل الانكليز جميع فلسطين اتصل هذا الصديق بشخص من العريش اسمه الشيخ حمدي زكريا، وصارا يجلبان أقمشة اوروبية من مصر الى فلسطين التي كانت متعطشة لها، وأرسل هذا الصديق بعض هذه البضائع الى أخي لبيعها بالعمولة في نابلس، وكان ذلك قبل سفري الى المؤتمر السوري. وبعد سفري اتصل بأخي وعرض عليه المتاجرة بالبطيخ حيث يشحن بطيخ منطقة طولكرم المشهور الى مصر، وكان لهما زميل من دار المعلمين اسمه أحمد الغضبان من طولكرم، فأبدى استعداده للمشاركة. وجاء أخي الى دمشق فأخبرني، وطلب تدبير مبلغ ما ليكون رأس ماله في الشركة، وكان قد تجمع معي ومعه وما بقي مع والدي نحو مائتي جنيه، فحاولنا أن نفتح له مخزناً في دمشق بمشاركة دمشقي من بيت الحلبي فلم تنجح المحاولة، فوافقته على عملية البطيخ وأخذ المبلغ وذهب. وكانت مهمته التواجد في مصر لاستقبال البطيخ الذي يشحنه أحمد الغضبان ويساعده يوسف العلمي ويبيعه في مصر. وقد قاسى في عمله الشدائد على ما حدثني، ولم يكد يكسب شيئاً جديداً غير مصروفه في مصر.

وبعد قليل من عودتي عاد هو الى نابلس برأس ماله وفتح محلاً لبيع الدخان وأغراض تموينية ناشفة أخرى قرب خان التجار في الطريق المؤدية الى جامع النصر وساحته، ثم أسسنا شركة تجارة جديدة على ما سوف أشرحه حينما أشرح قصة عودتي من دمشق واقامتي في نابلس.

20

إعلان الاستقلال :

تراجع فيصل عن موقفه وقبوله البديل المقترح :

حينما رأى الأمير فيصل أن جبهة الرفض لاتفاقية كليمنصو - فيصل هي الغالبة الراجحة، وأن الذين أيدوا قبولها لا يستطيعون فرض رأيهم بل ولا الإصرار عليه تجاه الأكثرية العظمى من الجمعيات والتنظيمات الوطنية وجمهور الشعب المتجاوب معهم، لم يسعه الا التراجع عن التمسك بالاتفاقية وقبول البديل الذي اقترحته جمعية الفتاة وأيدها غيرها من التنظيمات والشخصيات الوطنية، وهو اعلان استقلال سورية التام تحت تاجه وجعل العالم امام امر واقع.

دعوة المؤتمر لإعلان الاستقلال :

وقد تم الاتفاق على دعوة المؤتمر السوري العام ليكون الإعلان بقرار منه، لأنه ممثل لجميع مناطق سورية. ومن الجدير بالتسجيل ان الذين كانوا يؤيدون قبول الاتفاقية وينتقدون رفضها لم يسعهم بدورهم إلا الاندماج في قبول البديل، وكان أعضاء المؤتمر السوري منهم من جملة الموقعين على القرار. وكان المؤتمر كما ذكرنا قبل في حالة تعليق جلسات فقط، وكان دعي الى اجتماع طارىء واجتمع فعلا في مناسبة استبدال الحاميات الإفرنسية بالحاميات البريطانية، وكان عين لجنة لوضع مشروع دستور للمملكة السورية المستقلة التي أبدى رغبته في اقامتها في القرار الذي قرره، وقدمته للجنة الاستفتاء على أن تكون تحت ملكية فيصل ومملكة دستورية ديمقراطية شاملة لجميع حدود سورية الطبيعية، وكانت اللجنة تنشط اثناء تعليق جلساته في سبيل إنجاز مهمتها على ما شرحناه قبل.

وهكذا وجهت الدعوة الى أعضاء المؤتمر، وأخذ الذين هم خارج دمشق من سورية الداخلية وخارجها يتوافدون على دمشق، حتى اذا صارت اكثريتها الكبرى موجودة في دمشق عقد المؤتمر اجتماعاً في النادي العربي كالمرتين السابقتين برئاسة عبد الرحمن اليوسف نائب الرئيس لأن الرئيس محمد فوزي العظم كان قد توفي، وكان هذا النائب قد ترأس الاجتماع الطارىء لأن وفاة الرئيس كانت قبل ذلك، ولقد كان عبد الرحمن في مقدمة من كانوا يؤيدون الاتفاقية وينتقدون رفضها. ومما اذكره وفيه ما فيه من المفارقة أنه رجاني بإلحاح ورجا غيري أن ندعه يرأس الجلسة التي يقرر فيها استقلال سورية.

انتخاب هاشم الأتاسي لرئاسة المؤتمر وتثبيتي في السكرتارية :

ولكننا كنا قررنا في الهيئة أن يجدد انتخاب الرئاسة والسكرتيرية، واقترح ذلك في الجلسة الأولى التي عقدت برئاسة النائب في الخامس من آذار، وقبل الاقتراح ثم جرى الاقتراع ففاز مرشحنا هاشم الأتاسي بالرئاسة وفزت انا بالسكرتارية مجدداً.

إلقاء عوني عبد الهادي بيان فيصل في المؤتمر

وجاء فيصل في اليوم التالي، وألقى عوني عبد الهادي، الذي كان سكرتيره الخاص، بالنيابة عنه خطاباً قال فيه: إني أدعوكم في الوقت الذي قرب فيه حل المسألة التركية حلا نهائياً في مؤتمر الصلح لتقرير مصير سورية حسب رغبات أهاليها الذين رأوا فيكم الكفاءة

للنيابة عنهم، وقد وعد مؤتمر الصلح أن يحترم رغبة الشعوب في تقرير مصيرها، بل حتم على نفسه أن يقبل بأن يكون مستقبل كل أمة حسب رغباتها وإراداتها تحقيقاً للمبادىء التي نادى بها الحلفاء وحاربوا من أجلها وذكر فيما ذكره جهاد العرب وتضحياتهم في سبيل الاستقلال والحرية وحقهم الشرعي في ذلك، وطلب من الأعضاء تقرير مصير البلاد.

والخطاب منشور في الجزء الثاني من كتاب الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد، وقد ذكّر الأمير في خطابه بالعراق شقيق سورية وجهاده والوحدة، وطلب من المؤتمر ذكر ذلك في سياق ما يقرره. وروح الخطاب بل فحواه يفيد بقوة أن فيصلاً انسجم في الخطة المقترحة وانه ينتظر ويطلب اقرارها.

موافقة المؤتمر بأكثرية عظمى على اعلان الاستقلال وخلاصة قرار المؤتمر:

وعقد المؤتمر في السابع من آذار جلسة، وتبارى الخطباء فيها تحبيذ الخطة ووجوب اقرارها وتنفيذها، ولم يرتفع صوت معارض بل ولا همس معارض.. وقد وافق المؤتمر بالاجماع، وتخلى المعترضون المؤيدون لاتفاقية كليمنصو عن موقفهم او تظاهروا بالتخلي واندمجوا في التيار، حيث يدل على انه كان قوياً جارفاً.. وقرر المؤتمر انتخاب لجنة لصياغة القرار وكنت منها، وكان منها على اليقين يوسف الحكيم، وعلى الظن عثمان سلطان وسعد الله الجابري ووصفي الأتاسي. وعهدت اللجنة لي وليوسف الحكيم وضع مشروع القرار، وقرىء ما وضعناه، وتم تركيز صيغته، ثم عرض على المجلس وناقشه وادخل بعض تعديلات عليه، وتم التصويت على صيغته النهائية بما يشبه الإجماع أيضاً.

وفي كتابي أمين سعيد وحسن الحكيم اللذين ذكرناهما سابقاً نص القرار، وفي القرار تكرار لعبارات كثيرة في قرار المؤتمر المقدم للجنة الاستفتاء من حيث التنويه بتطلعات العرب وجهودهم وجهادهم وتضحياتهم وحقهم الشرعي في تقرير مصيرهم وفي الاستقلال والحرية، وتأييد الحلفاء اثناء الحرب وبخاصة الرئيس ويلسون لهذا الحق، والتنويه بثورة الشريف حسين وأولاده وما كان لذلك من أثر من انتصار الحلفاء. وينتهي بعد ذلك بقرار إعلان استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية بدون اي شائبة من انتداب وحماية ووصاية، واختير الأمير فيصل ملكا عليها في ظل حكم دستوري ديمقراطي يتمتع فيه جميع السكان بالحريات والحقوق، وتكون ادارة المقاطعات لامركزية، واحترام مصالح الحلفاء المشروعة في البلاد والرغبة في الاستعانة البريئة بخبرتهم الفنية ومساعداتهم الاقتصادية. وفي القرار جاء أمل بجلاء قوات الحلفاء عن جميع مقاطعات سورية الساحلية والجنوبية والشمالية.

استدراك القرار في صدد لبنان:

وفي القرار استدراك في صدد لبنان، فذكر أن مصيره منوط بأماني اللبنانيين ورغباتهم في كيفية إدارة مقاطعاتهم ضمن حدود لبنان المعروفة قبل الحرب، بشرط ان يكون بمعزل عن كل تأثير اجنبي. وتنبيه عن ان هذا الاستدراك يتناقض مع قرار اعلان استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية، حيث يكون شاملاً للبنان، وحيث يكون الاستدراك هو في صدد كيفية ادارة لبنان داخلياً.

نص القرار على الرغبة في الاتحاد مع العراق:

وذكر القرار العراق فطالب باستقلاله التام

بدون اي شائبة وحقه في ذلك انطلاقاً من الأسباب والموجبات التي جعلته يعلن استقلال سورية، مع الرغبة في ارتباط القطرين باتحاد سياسي واقتصادي، نظراً للصلات والروابط القومية والتاريخية والروحية والاقتصادية التي تربط بين القطرين، بحيث لا يمكن لأحدهما ان يستغني عن الآخر. وفي القرار امل وتمن على الحلفاء وسائر الدول الصديقة بالمبادرة بالاعتراف باستقلال سورية على النحو الذي ذكر في القرار، وانشاء الصلات السياسية والاقتصادية الحسنة معها.

نص القرار على فلسطين كجزء من سورية ورفض دعاوى الصهيونيين وهجرتهم:

وقد حرص القرار على ذكر فلسطين في سياق ذكر سورية التام بحدودها الطبيعية، حيث قال ومنها فلسطين. كما حرص على تكرار النص على رفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطنا قومياً لليهود او محل هجرة لهم.

رفع القرار الى الأمير بواسطة وفد برئاسة الرئيس:

ووقع على القرار هاشم الأتاسي بصفته رئيس المؤتمر، ووقعت عليه بصفتي سكرتير المؤتمر، ووقعه جمهور الأعضاء ايضاً على ما بقي في ذهني. واختار المؤتمر وفدا لتقديم القرار للأمير فيصل وتهنئته باسم المؤتمر وكنت انا من جملة الوفد. وذهبنا الى مقر الأمير في المهاجرين، وقدم الرئيس القرار للأمير وهنأه باسم المؤتمر، وشكر الملك المؤتمر وأكد للوفد أن ما قام به ليس الا ما وجب عليه وأنه يسأل الله ان يوفقه لتقديم كل ما يكفل استقلال البلاد ورفاهها، وأشهدهم وأشهد الله على ذلك.

تلاوة القرار بصوتي على الجماهير في ساحة الشهداء ـ المرجة من شرفة البلدية:

وفي يوم 8 آذار 1920 قبل الظهر احتشد جمهور كبير من الشعب في ساحة المرجة امام بناية البلدية (التي زالت اليوم) وكانت البناية تعج بأعضاء المؤتمر وغيرهم، وتقدمت أنا الى الشرفة المطلة على الجماهير وتلوت القرار بصوت جهوري فقوبل بأشد مظاهر الحماس والابتهاج، وكانت المدفعية اذ ذاك تطلق مائة طلقة وطلقة تدشيناً للعهد الجديد.

توافد الناس على القصر مهنئين لفيصل ومبايعين

وتوافد بعد ذلك على قصر الملك الناس من أعضاء المؤتمر والعلماء والوجهاء والموظفين والتجار ووجوه الأحياء مسلمين ومسيحيين، ورؤساء الطوائف المسيحية واليهودية يبايعون الملك ويهنئونه ويدعون له بالتوفيق.

نص بيعة رؤساء الطوائف النصرانية:

وتلا بطريرك الروم غريغوريوس حداد عهد بيعة موقعاً عليه من جميع رؤساء الطوائف المسيحية أورده أمين سعيد في الجزء الثاني من كتابه الثورة، ويمكن أن يكون صحيحاً وهذا نصه:

إنه نظراً لاتفاق الأمة السورية على مبايعة سمو الأمير فيصل ملكاً على سورية فإن الموقعين على هذا العهد يبايعون جلالته على الشروط السبعة التي اتفقوا عليها هم وإياه عقب دخوله لدمشق في تاريخ 7 تشرين الأول 1918، وهي: إطاعة الله، واحترام الأديان، والحكم بالعدل، وإجراء المساواة، وتوطيد الأمن، وتعميم المعارف، وإسناد الوظائف لمستحقيها، متعهدين بالطاعة والإخلاص لجلالته.

تعليق على الاستدراك الوارد في القرار في صدد لبنان:

ونرى أن ننوه بنوع خاص بالفقرة المتعلقة بلبنان في القرار، والفقرة المتعلقة بالعراق، فقد لاحظنا نحن الذين وضعنا صيغة القرار والذين اقروه رغبة جمهور كبير من أهل لبنان النصارى وبخاصة الموارنة والكاثوليك في أن يكون لبنان مستقلاً، وكانوا يتمسكون بالحماية الإفرنسية لضمان ذلك، وكانوا يريدون ضم الأقضية الأربعة التي كانت تابعة لحكم سورية في أواخر العهد العثماني اليه، فرأوا أن يراعوا ذلك، فذكروا في القرار استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية، وارادوا في الوقت نفسه جعل الخيار لأكثرية أهل لبنان فيما يريدون من مصير، إما استقلال تام أو العيش مع سورية في اتحاد سياسي واقتصادي، بشرط أن لا يكون فيه لأجنبي يد ما، وهم يعنون فرنسا لأنها هي التي كانت تطمع أن يكون لها هذه اليد. ورأوا في سلخ الأقضية الأربعة عن سورية وضمها الى لبنان افتئاتاً لا مبرر له، فنصوا على أن يكون لبنان ضمن حدوده التي كانت له قبل الحرب اذا قررت أكثرية أهل لبنان استقلالاً تاماً له عن سورية.

ولقد ظلت سورية ثم تابَعَها العرب في أقطارهم الأخرى كلما استقل قطر لهم تراعي الحالة الخاصة في لبنان، فتجعل له الخيار في الأسلوب الذي يريد أن يكون الحكم فيه مستقلا عن سورية والأقطار الأخرى أو متحداً معها، بشرط أن يتخلى النصارى عن أي تطلع الى حماية فرنسا أو جعل يد بأي شكل لفرنسا أو غيرها في لبنان. ولقد كانت السلطات الفرنسية العسكرية حملت مجلس إدارة لبنان إبان زيارة لجنة الاستفتاء الأميركية وجمهور النصارى وبخاصة الموارنة والكاثوليك على طلب استقلال لبنان تحت الحماية الافرنسية وسلخ الأقضية الأربعة عن سورية وضمها إليه على ما شرحناه قبل. ولقد ذكرنا كذلك القرار الذي وقعه أكثرية أعضاء هذا المجلس في تموز 1920 الذي يقرر طلب الاستقلال التام للبنان بدون حماية إفرنسية، وحاولوا التسلل به لتقديمه إلى سورية وللحلفاء، وما كان من ترصد السلطات لهم واعتقالها اياهم، حيث يثبت هذا أن قرار مجلس الادارة الأول المقدم للجنة الاستفتاء إنما صدر بالضغط الافرنسي، وأن أكثرية مجلس الإدارة حينما رأت المؤتمر السوري يعطي لبنان الخيار بشرط أن يكون لبنان بمعزل عن أي مد ونفوذ أجنبي، وأن سورية لا تطمع في فرض سيطرتها وحكمها عليه، سارع الى الانسجام مع ذلك وقرر قراره الجديد.

تعليق على الرغبة في الاتحاد مع العراق:

أما الفقرة العائدة للعراق فهي منبثقة من مناهج حزبي الفتاة والعهد ومنشور الملك حسين وما ورد في مقترحاته التي قدمتها له الفتاة في سنة 1915 بواسطة فيصل على ما ذكرناه قبل، حيث كان مطلب الاستقلال العربي ممزوجاً بمطلب وأمنية الوحدة العربية، ولقد كان فيها استجابة لتذكير فيصل المؤتمر في خطابه، ولقد كانت أمنية الوحدة العربية بعامة والوحدة السورية العراقية بخاصة، وما تزال تحيك في صدور واذهان القوميين العرب الذين كان رجال الفتاة والعهد طليعتهم.

المؤتمر العراقي في دمشق وإعلانه الاستقلال وملكية الأمير عبد الله:

وما جرى في أثناء انعقاد المؤتمر السوري، أن عدداً من رجالات العراق الموجودين في

دمشق ومنهم ياسين الهاشمي وطه الهاشمي ومولود مخلص وثابت عبد النور وجميل المدفعي وعلي جودة الأيوبي وراسم سردست وناجي السويدي وتوفيق السويدي ورضا الشبيبي وتحسين علي وإسماعيل نامق وصبيح نجيب وابراهيم كمال وعبد الله الدملوجي وحامد صدر الدين وأسعد الصاحب الخ. . عقدوا مؤتمراً وقرروا قراراً مماثلاً لقرار المؤتمر السوري، مع اختيار الأمير عبد الله النجل الثاني للملك حسين ملكاً على العراق المستقل بجميع حدوده استقلالاً تاماً بدون أي شائبة، على أساس دستوري ديمقراطي لا مركزي، مع طلب جلاء القوات الانكليزية عنه ومع الرغبة في الاتحاد السياسي والاقتصادي مع سورية.

تلاوة توفيق السويدي لقرار العراق بعدي:

وبعد أن انتهيت أنا من تلاوة قرار المؤتمر السوري على الجماهير المحتشدة في ساحة المرجة، تقدم توفيق السويدي بصفته سكرتير المؤتمر العراقي فقرأ على الحشد قرار هذا المؤتمر، وقوبل كذلك بأعظم مظاهر الحماس والابتهاج.

اجتماعات الهيئة المركزية المتواصلة مع فيصل لتركيز الأمور:

ولقد قضينا ثلاثة أيام في ظرف اجتماع المؤتمر السوري نتردد على قصر الملك فيصل، وأعني الهيئة المركزية للفتاة في دورها الثاني، وكانت مؤلفة مني ومن الدكتور أحمد قدري وشكري القوتلي وأحمد مريود ورفيق التميمي وسعيد حيدر والشيخ كامل القصاب، صبحاً ومساءً، وكنا نجتمع به في سرادق نصب له في حديقة القصر لبحث ما يقتضي عمله من أمور ومقتضيات بعد إعلان الاستقلال، وكنا نحرص على الاجتماع قبل توافد الناس وانشغال الملك بهم، وكان بعض الاخوان يتخلفون ولكني كنت أنا دائم الوجود شعوراً مني بأني سكرتير الهيئة الذي يجب أن يكون موجوداً.

اتفاقنا مع فيصل على دوام المؤتمر والعناية بمظهره ومركزه واعتباره مجلساً تأسيسياً ومجلس أمة:

ولقد اتفقنا على ما جرى في المؤتمر، ثم اتفقنا على أن يبقى المؤتمر قائماً في حالة انعقاد دائم، وأن يصبح من جهة بمثابة مجلس تأسيسي لمناقشة مشروع دستور الدولة الذي وضعته اللجنة الخاصة التي كنت سكرتيرها على ما ذكرته قبل، ومن جهة بمثابة مجلس أمة لمراقبة الحكومة ومحاسبتها وتوجيهها. واتفقنا بناءً على هذا على ضرورة العناية بمظهر المؤتمر وجعله متلائماً مع صبغته الجديدة المزدوجة مجلس تأسيس ومجلس أمة في بنايته وترتيباته، حيث يستأجر له بناء فخم متسع، ويوسع مكتبه وينال تقدير الحكومة واحترامها في مواقفها وسيرها، واتفقنا على ادخال تعديل على العَلَم.

تعديل صورة العلم ليتميز عن علم الثورة الهاشمية الذي صار علم المملكة الحجازية:

واتفقنا على إدخال تعديل على العلم، فقد كان العلم المرفوع على سورية في عهد فيصل السابق للاستقلال هو علم الثورة الذي صار علم المملكة الحجازية، شرائح سوداء فخضراء فبيضاء يقطعها مثلث احمر، وقد تم الأمر على الاحتفاظ بهذا العلم كأصل مع تعديل ترتيب الشرائح حيث يكون: البيضاء في الوسط وفوقها سوداء وتحتها الخضراء، ثم توضع نجمة سداسية بيضاء في المثلث الأحمر كرمز على انبثاق فرع جديد عن الثورة غير مملكة الحجاز

وهو المملكة السورية، وقد حذا العراقيون حذونا فعدلوا علمهم مثل علم سورية، ووضعوا في المثلث نجمتين كرمز على انبثاق فرع جديد ثان عن الثورة.

بقاء العلم السوري المقرر علماً لإمارة شرق الأردن:

ولقد كان علم سورية الجديد هو الذي ارتفع على متصرفية الكرك التي كانت هي السلطة الرئيسية فيما صار يسمى شرق الأردن، والتي كانت تابعة لسورية في زمن الدولة العثمانية وظلت كذلك في عهد فيصل، فلما سقط هذا العهد وقامت في متصرفية الكرك إمارة شرق الأردن برئاسة الأمير عبد الله على ما سوف نشرحه أكثر، أبقى الأمير العلم الذي كان مرتفعاً على حاله على اعتبار أنه انما جاء لإنقاذ سورية وإعادة مملكتها المستقلة، وظل علم الامارة علم المملكة الأردنية حينما صارت مملكة[1].

اتفاقنا مع فيصل على تأليف الوزارة الاستقلالية الأولى برئاسة الركابي:

وجرى الحديث في اجتماعاتنا مع الملك فيصل حول تأليف أول وزارة استقلالية، وأصر الملك على أن يعهد برئاستها للركابي استمراراً لما كان في عهده، وأن يكون أعضاؤها من المتقدمين في السن حتى يكون استقبالها في الأوساط العامة حسناً. ورأينا أن لا نصطدم معه في هذه المسألة رغم ما كان لنا على الركابي من مآخذ، واشترطنا أن يكون مع كل وزير شاب مثقف ذو خبرة من الفتاة المخلصين لها يكون مساعداً أو مديراً ورقيباً، وتستطيع الهيئة المركزية عن طريقه تبليغ ما تقرره وفهم ما يجري ووافق الملك على ذلك، وتم به التوفيق. ومن طريف ما كان في أثناء الحديث عن تأليف الوزارة أن رشيد طليع كان مرشحاً لوزارة الداخلية، وكان يتولى مديرية الداخلية في عهد حكومة المديرية على ما ذكرناه قبل، وكان حاضراً في إحدى جلساتنا فقلت له إنك من حزب الفتاة فماذا يكون موقفك إذا فقد هذا الحزب الأكثرية في مجلس الأمة، فقال أكون مع الأكثرية. وغمز بعضنا بعضاً لهذا الجواب غير الانضباطي حزبياً، وكان سبباً في استبعاده من الوزارة برغم ما كان يبدو منه من بصيرة ودراية.

أمين التميمي معاوناً للركابي:

واتفقنا على تسمية أمين التميمي ليظل معاوناً لرئيس الوزارة، وكان قبل معاوناً للركابي الذي كان رئيساً لحكومة المديرين، وكان شديد الانسجام في الجمعية، وثلاثة من إخوته من اعضائها القدامى وواحد منهم في هيأتها المركزية.

تعيين ممثلين للمنطقتين الجنوبية والغربية في الوزارة:

ورأينا من المفيد والضروري تسمية شخصيتين ليكون أحدهما ممثلاً للمنطقة الجنوبية من المملكة المحتلة من الإنكليز أي (فلسطين)، وأحدهما ممثلاً للمنطقة الغربية المحتلة من الإفرنسيين (لبنان والساحل السوري).

---

(1) ولما عقدت معاهدة بين سورية وفرنسة 1936 وقامت الجمهورية السورية الاستقلالية برئاسة هاشم الأتاسي لم يكن من الممكن رفع العلم السوري الأول لأنه صار علم دولة أخرى فقررت سورية جعل علمها الجديد الشرائح الثلاث بترتيبها أسود فأبيض فأخضر ووضعت ثلاث نجمات سداسية حمراء في الشريحة البيضاء.

وفي كتابنا نشأة الحركة العربية الحديث بحث في ظروف ورموز علم الثورة الحجازية الذي صار أصل هذه الأعلام.

تسمية سعيد الحسيني وزيراً للخارجية ممثلاً لفلسطين:

واتفقنا على تسمية سعيد الحسيني كممثل للمنطقة الجنوبية وزيراً للخارجية، وكان رجلاً هادئاً وقوراً ناب عن منطقة القدس مرتين في المجلس النيابي العثماني. وسمينا عوني عبد الهادي ليكون معاوناً له، لكن الملك طلب ان نترك له عوني يبقى سكرتيراً خاصاً له. وكان جميل مردم بك يبذل جهده للبروز فحققنا له رغبته وسميناه معاوناً، وهو من أركان الفتاة. وجاء سعيد الحسيني ومارس منصبه فترة قصيرة ثم ذهب الى القدس ولم يعد، فسمي عوني عبد الهادي وكيلاً له.

تسمية رضا الصلح وزيراً للداخلية ليمثل المنطقة الغربية في الوزارة وفايز الشهابي معاوناً له:

وسمينا رضا الصلح كممثل للمنطقة الغربية وزيراً للداخلية، وهو والد رياض الصلح، وكان نائباً في مجلس النواب العثماني مرة ومتصرفاً مرة، وكان رجلاً ناضجاً وطنياً قومياً، وكان جمال باشا اعتقله هو وابنه ثم اطلق سراح الأب لشيخوخته والابن لصغر سنه على ما شرحناه قبل. وسمينا الأمير فايز الشهابي ليكون معاوناً له على ما يرد إلى ذاكرتي، وهو من أعضاء الفتاة القدامى، وكان يتولى منصبا رئيسا في مديرية الداخلية، ومن قبل مارس وظيفة قائمقام في زمن الدولة العثمانية. وقد قررنا ضم رضا الصلح الى الفتاة وفوتح بذلك ووافق وحلف يمين الإخلاص للجمعية.

تسمية علاء الدين الدروبي رئيساً لمجلس الشورى وكلمة عنه:

ورشح علاء الدين الدروبي وهو من حمص وكان قائمقاما ثم متصرفا في زمن الدولة العثمانية لمنصب (رئيس مجلس الشورى) وعضواً في الوزارة، وظهر فيما بعد أن ترشيحه لم يكن في موقعه. ولقد قررنا جريا على الخطة الخاطئة ضمه الى الفتاة، وفوتح ووافق وحلف اليمين ولكنه كان وظل غريبا بقلبه وروحه وعقله عن الفتاة وأهدافها. ولما صار غزو فرنسة لسورية محققا واستقال هاشم الأتاسي من رئاسة الوزارة عهد إليه فيصل برئاسة الوزارة بوعد أن يكون وسيط خير معتدل بينه وبين الإفرنسيين، ولكن الإفرنسيين لم يكادوا يحتلون دمشق حتى انسجم معهم فأبقوه في رئاسة الوزارة وأمروه بإنذار فيصل بمغادرة درعا حيث توقف فترة قصيرة بعد خروجه من دمشق، ولقد كان هياج في حوران وفرض الإفرنسيون على هذه المنطقة غرامة كبيرة، فأرسلوه وزميلا له في الوزارة هو عبد الرحمن اليوسف لتهدئة الهياج وجمع الغرامة، فقوبلا بهياج أشد وهجم الهائجون على القطار وفتكوا بالوزيرين غفر الله لهما.

تسمية عبد الحميد القلطقجي وزيرا للحربية ويوسف العظمة معاوناً له:

ورشح اللواء عبد الحميد قلطقجي لوزارة الحربية، ولم يعرف له نشاط وبروز، وكان قائد فرقة أو لواء مدفعي فيما أذكر، وكان هادئاً جامداً عسكري السمت معروفاً بالاستقامة، وقد قررنا ضمه للفتاة وتم ذلك، وظل هو الآخر غريباً بقلبه وروحه وعقله عن الفتاة. وسمينا يوسف العظمة ليكون معاوناً له مع احتفاظه برئاسة أركان حرب الجيش.

تسمية فارس الخوري لوزارة المالية وكلمة عنه:

ورشح فارس الخوري لوزارة المالية، وكان

مارس النيابة عن الطائفة النصرانية الدمشقية في مجلس النواب العثماني، وهو ذكي نبيه وكان ضليعاً بالقوانين ذا ثقافة واسعة عربية وغربية، وكان منسجماً في عهد فيصل مستقيم السيرة جم النشاط، وظل بارزاً ووزيراً للمالية في عهد الوزارة الأتاسية مالئاً للمنصب موحياً بالثقة، ولقد ظل يبرز وينشط بعد سقوط العهد الفيصلي، وشغل جزءاً كبيراً في تاريخ سورية السياسي، وصار من أعلام رجالها الوطنيين النشيطين المستقيمين. وتعرض لأذى الإفرنسيين ونفوه في ظروف اشتداد الحركة الوطنية في الثلاثينات عن دمشق، وصار من أركان الكتلة الوطنية التي قادت الحركة الوطنية بعد فتور الثورة السورية، واختير ليكون من وفد المفاوضة مع فرنسة حينما تم الاتفاق على عقد المعاهدة الاستقلالية معها في سنة 1936، وظل يبرز. ومثل سورية في هيئة الأمم واختير في دورة من دوراتها رئيساً لمجلس الأمن فملأ المنصب ورفع اسم سورية والعرب، وصار وزيراً أكثر من مرة في عهد الاستقلال الثاني بعد سنة 1943، ورئيساً للوزارة ورئيساً لمجلس النواب. وكان في كل مناسبة كفؤاً نشيطاً مستقيماً ناضجاً رزيناً. وظل ذا مركز محترم بعد أن شاخ واعتكف في بيته، وقد عمر حتى بلغ التسعين ومات في الستينات. وكان يحفظ كثيراً من القرآن والأحاديث ويعجب بالقرآن والرسول العربي، ويكاد أن يكون مسلماً. ومما سمعته أنه أوصى بقراءة القرآن في مأتمه وتم ذلك، وكان ينظم الشعر وذا قلم بليغ في النثر وملماً بل ضليعاً باللغة الإنكليزية. وقد تعرفت عليه في عهد فيصل ثم تجدد عهدنا حينما أقمت في سورية، والتقيت به مراراً وكنا معجبين ببعضنا، وقامت بيننا ألفة ومودة وإن لم تصل الى الصداقة الحميمة.

تسمية أحمد حلمي عبد الباقي معاوناً لفارس الخوري:

وقد سمينا أحمد حلمي عبد الباقي معاوناً لوزير المالية، وكان يشغل منصب مدير المالية في حكومة المديرين ومنتسباً للفتاة ذا خبرة حسنة وأخلاق قويمة ونشاط جم على ما ذكرناه في الكلمة التي كتبناها عنه سابقاً.

تسمية جلال زهدي وزيراً للعدلية وكلمة عنه:

ورشح جلال زهدي وزيراً للعدلية، وكان رجلاً قانونياً، وتقلد وظائف قضائية في العهد العثماني، وكان ذا أخلاق قويمة مشهوراً بالنزاهة والصراحة، وأظن أنه من أصل تركي مستعرب اتخذ حلباً أو دمشق وطناً له فصار سورياً عربياً. وقد ضممناه هو الآخر الى الفتاة وكان أشد انسجاماً فيها من الدروبي والقلطقجي.

تسمية عارف نكد معاوناً له وكلمة عنه:

وسمينا عارف نكد على ما يرد الى ذاكرتي معاوناً له، وكان قد ضم الى الفتاة وأخلص لها وانسجم فيها قلباً وقالباً، وهو من أسرة درزية بارزة من لبنان، وكان متخرجاً من كلية الحقوق قومياً عروبياً وحدوياً مستقيماً صلباً جريئاً على قول الحق بلا مداجاة ولا مجاملة، وكان مثقفاً حسن الاطلاع نزوعاً للبحث وبخاصة في اللغة العربية وآدابها وفي التاريخ والاجتماعيات، واهّله ذلك ليكون عضواً بارزاً نشيطاً في مجمع اللغة العربية في دمشق، وبعد سقوط عهد فيصل عاد على ما أظن الى لبنان ثم الى سورية فعمل في القضاء، وحينما قام عهد الاستقلال

الأول برئاسة الأتاسي اندمج في العهد وعين مفتشاً للعدلية، ثم رجع الى لبنان وأقام فيه يرعى المؤسسات الدرزية الوقفية والتعليمية، وكان يأتي الى دمشق من حين الى حين لحضور اجتماعات المجمع. وقد تعرفنا به في عهد فيصل وتمت بيننا وبينه ألفة ومودة وإن لم تصل الى درجة الصداقة الحميمة. وقد التقينا به في أيام إقامتنا في دمشق سنة 1937 أكثر من مرة لقاء مودة ومحبة، وقد توفي في السبعينات رحمة الله عليه.

تسمية ساطع الحصري لوزارة المعارف:

ورشح ساطع الحصري لوزارة المعارف، وهي التي صار يطلق عليها (وزارة التربية والتعليم) وهو في سن أكثر تقدماً من الشباب، ولا اعتراض عليه من هذه الناحية، وقد ملأ الفراغ. وظل في المنصب في الوزارة الأتاسية الثانية، وقد سبق أن كتبنا كلمة عنه فنكتفي بذلك.

تسمية يوسف الحكيم لوزارة الزراعة وكلمة عنه:

ورشح يوسف الحكيم لوزارة الأمور النافعة (التجارة والزراعة والأشغال العامة)، وكان متخرجاً من مدرسة حقوق الآستانة مثقفاً بثقافة حسنة عربية وتركية وغربية، وهو من أهل اللاذقية، وقد مثلها في المؤتمر السوري العام. وكان قبل ذلك تقلد بعض وظائف قضائية في زمن الدولة العثمانية، ثم صار سكرتيراً لمتصرفية جبل لبنان في عهد امتيازه وعرف بنشاطه واستقامته وحسن تصرفه وتصريفه للأمور، وقد تعرفنا به في المؤتمر وتعاونا معه وصار بيننا وبينه ألفة ومودة وإن لم تصل الى الصداقة الحميمة، وكان عضواً بارزاً نشيطاً في المؤتمر، وأدخلناه في حزب الاستقلال ثم اخترناه لوزارة الزراعة كما ذكرنا، وقد بقي وزيراً في وزارة الأتاسي التي خلفت الوزارة الركابية. ولقد كان معتدلاً في موقفه بل مهاوداً بعض الشيء ازاء اتفاقية كليمنصو فيصل، ثم في أزمة الإنذار الإفرنسي، ولكنه عاد فانسجم مع الأكثرية وسار في تيارها. وقد بقي في سورية بعد الاحتلال الإفرنسي وانسجم بعض الشيء في هذا العهد بدون غلو ولا انحراف، واشتغل في المحاماة وصار وزيراً مراراً في عهود سورية قبل معاهدة سنة 1936 وبعدها، وظل على استقامته وحسن درايته وتصرفه. وبعد أن أقمنا في دمشق عام 1937 وبعده، كنا نلتقي به في ألفة ومودة، وصار نقيباً للمحامين مرة، ثم شاخ فاعتكف في بيته، وكتب بضعة كتب كمذكرات وتاريخ للأحداث التي شهدها في لبنان وسورية في زمن الدولة العثمانية وبعدها، وقد توفي في عام 1979، وقد كاد عمره يبلغ المائة سنة.

تعليق على انتقاد يوسف الحكيم رفض اتفاقية كليمنصو والتطرف في أزمة الإنذار الافرنسي:

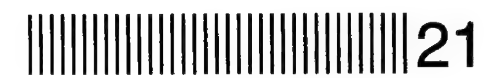
ويوسف الحكيم يوجه في مذكراته نقداً ولوماً للمتطرفين في عهد فيصل الذين رفضوا اتفاقية كليمنصو ووقفوا موقف التطرف والشدة في ظروف الانذار الافرنسي الذي أعقبه غزو الإفرنسيين لسورية واحتلالهم دمشق وإسقاطهم عهد فيصل، ولقد فندنا ما وجه الى من سموا بالمتطرفين من نقد لرفضهم لاتفاقية كليمنصو والإنذار الافرنسي، وسوف نفند ما وجه اليهم من نقد حين نتكلم عنه. ومن المفارقات الهامة التي يحسن تسجيلها هو أنه اندمج في تيار رفض اتفاقية كليمنصو، وكان من المصوتين لقرار إعلان الاستقلال الذي اقترح كبديل لها،

بل كان من الذين صاغوا مسودة القرار معنا كما ذكرنا ذلك قبل، وكان عليه على الأقل إن كان يصدر في نقده عن عقيدة وقناعة سابقة ان لا يندمج في التيار وأن يقف موقفاً حيادياً وأن لا يصوت وهو مثقف واع حصيف.

تسمية الأمير مصطفى الشهابي معاوناً له:

ولقد سمينا الأمير مصطفى الشهابي معاوناً للحكيم في وزارة الأمور النافعة، وكان قد تخرج من مدرسة زراعية جامعية في فرنسا قبل نهاية الدولة العثمانية، وانضم للفتاة في أوائل عهد فيصل وانسجم فيها قلبا وقالبا، وقد كتبنا عنه كلمة في مناسبة سابقة فنكتفي بذلك.

***



21 لجنة ترتيب المؤتمر واستئجار بناية العابد وتجهيزها بكل ما يحتاج إليه المؤتمر وشيء عن ذلك:

ولقد أخبرت هاشم الأتاسي رئيس المؤتمر بما تم الاتفاق عليه بين الهيئة المركزية والملك فيصل من وجوب استمرار المؤتمر وغدوه مجلسا تأسيسيا ومجلس أمة معا، ووجوب العناية بمظهره وترتيباته، واقترحت عليه الاتصال بالحكومة في صدد ذلك ففعل. واقترح عليه رئيس الوزارة تأليف لجنة من أعضاء المؤتمر لانتقاء بناء مناسب واستئجاره وتأثيثه وتجهيزه، واختار الرئيس كلا من سعد الله الجابري ورياض الصلح ووصفي الأتاسي على ما يرد لذاكرتي، وخصصت الحكومة الاعتمادات المالية المقدرة من اللجنة وفوضتها في العمل، فاختارت الطابق المتوسط من بناية العابد الكبيرة في المرجة ساحة الشهداء، وكان له مدخل خاص لا بأس في مظهره في الساحة التي تأتي بعد بوابة البناية الكبير، وفيه قاعة كبيرة وقاعات وغرف عديدة متنوعة السعة، وفيه ما يحتاج إليه من مرافق أخرى. وقد جهزت القاعة بمقاعد ومناضد ومنصة لتكون محل اجتماعات المؤتمر العامة، وجعل فيها أجنحة ومنصات للوزارة والزوار والصحفيين والخطباء والكتاب، وجهزت قاعات وغرف أخرى في البناية بما تحتاج إليه من مقاعد ومناضد ليكون منها مكتب للرئيس ومكتب للسكرتيرين وديوان للتحرير والسجلات وقاعات لاجتماع لجان المؤتمر

وأحزابه واستراحة أعضائه، وجهز فيه محل يكون فيه عمال لصنع القهوة والشاي الخ . . .

توسيع مكتب المؤتمر وانتخاب أربعة سكرتيريين وثلاثة مراقبين له:

وبعد إتمام تجهيز البناية صارت مقراً للمؤتمر، وكنا أجلنا الجلسات بعد جلسة قرار إعلان الاستقلال، وكان الانتقال في أواخر شهر آذار 1920. ودعي أعضاء المؤتمر الى الاجتماع فيه، وفي أولى الجلسات اقترح بعضهم توسيع مكتب الرئاسة، ووفق على ذلك، وتقرر أن يكون للمؤتمر أربعة سكرتيريين، وجرى الاقتراع ففزت أنا وكل من الدكتور سعيد طليع الذي مر ذكره وكلمة عنه، ومراد غلمية وهو مسيحي وكان يمثل مرجعيون وكان عروبياً قومياً استقلالياً لا بأس في ثقافته، وصلاح الدين قدورة وكان يمثل صفد وكان شاباً نشيطاً قومياً عروبياً حسناً في ثقافته هو الآخر، وكان يتلو محاضر الجلسات ويسجل اسماء المتكلمين والحاضرين، وكان الدكتور طليع ينشط في أمور مكتب الرئاسة الخارجية يساعده مراد غلمية.

دوري في مكتب الرئاسة:

وكنت أنا ولا فخر لولب المكتب والسكرتير الأول صاحب النشاط البارز ومستشار الرئيس في الجلسات والمكتب، والمسؤول عن تدبير وتوزيع المخصصات على الأعضاء دون أن أستلم مالاً، حيث كان للمؤتمر أمين صندوق يستلم المال من خزانة الحكومة بموجب جدول أنظمة، وأكتب الرقاع فيأخذها الأعضاء اليه ويقبضون مخصصاتهم منه. وقد ذكرت قبل حادثاً طريفاً حيث زارني إبراهيم الحاج حسين عضو المؤتمر عن دير الزور في الستينات وأراني رقعة موقعة بتوقيعي لأمين الصندوق ليدفع له مخصصاته، وقد احتفظ بها نحو اربعين عاماً ونيفاً.

إنشاء ديوان تحرير للمؤتمر وتعيين نجيب الأرمنازي رئيساً للكتّاب وكلمة عنه:

واتفقت مع الرئيس على إنشاء ديوان كتابي للمؤتمر، واخترنا لرئاسته نجيب الأرمنازي يساعده كاتب أو اثنان، وكان يحتفظ بالمحاضر والتقارير والأوراق والسجلات، وتصدر بواسطته ما يصدر من مراسلات، وقد ظلت كل أوراق وسجلات المؤتمر في حيازته حين علقت جلسات المؤتمر حين تأزم الموقف بالإنذار الإفرنسي على ما سوف نذكره بعد، وظلت في حيازته لأن المؤتمر لم يعد الى الإجتماع.

نجيب الأرمنازي:

وعلى ذكر نجيب الأرمنازي أقول إنه كان شاباً ذكياً نشيطاً، وقد ضمته الفتاة اليها ولكنه لم يندمج فيها قلباً وقالباً، وبعد الاحتلال ذهب الى فرنسا وحصل على إجازة الحقوق من إحدى جامعاتها ثم على دكتوراه في الحقوق. وبرز في عهد الاستقلال الأول سنة 1936 ـ 1939، وصار أمين السر العام لرئاسة الجمهورية، وظل كذلك في عهد الاستقلال الثاني 1943 وبعده فترة ما، ثم عين سفيراً لسورية في لندن والقاهرة فيما أذكر، ولم أعرف له نشاطاً في الحركة الوطنية وتنظيماتها في العشرينات والثلاثينات التي كان رجال الحركة الوطنية ينشطون، وأدى نشاطهم الى عهدي الاستقلال. وقد تقاعد في الخمسينات وانصرف لكتابة مذكرات وكتب أخرى في السياسة العربية، وألقى محاضرات

في ذلك في معهد الدراسات العليا في القاهرة. وكـان في الإجمال من الشخصيـات السياسيـة والعلميـة السوريـة اللامعـة، وصار يلمـح في كتاباتـه شيء من التعالم غيـر المستحب. وقد التقيت به أكثر من مرة حينما أقمت في دمشق سنة 1937 وبعدها، وكان لقاؤنا لقاء أصـدقاء ومودة ومعرفة سابقة. وآخر عهدي به اجتماع في قصر الجمهورية السورية في سنة 1958 حينما تمت الوحدة السورية المصرية. تـوفاه الله في الستينات رحمة الله عليه.

تخليد لذكرى إعلان الاستقلال بلوحة تصـور الأعضاء ومجموعة منها صور منوعة:

ولقد رأينا تخليد صور المناداة بالاستقلال، فعهد المكتب للدكتور سعيد طليع بذلك، فأخذ صـوراً فرديـة لكل عضـو وجده في دمشق في ظرفها، وجمـع الصور في لـوحة واحـدة كبيرة مكتوب تحت كل صـورة اسم صاحبهـا، وقد رتبت دائـرة علويـة في اللوحـة جعـل الملك وسطها وحـوله الـرئيس الأتاسي والسكـرتيرين الأربعة والمراقبين، وأخذ الدكتور صوراً أخرى لـرجال الحكـومة وبعض كبـار رجال العهـد، وحرص على أن يجعل لنفسه صورة كبيرة في الألبوم، وكان في عمله موضوع نقد. وقد كان من هـذه الصـور ومن صـورة مصغـرة للوحـة الكبـرى، ومن صورة قـرار المؤتمـر السـوري مجموعة أو البوما، ووزع على الأعضاء مقابل جنيـه من كل واحـد غطت النفقـات. ولوحتي الكبيرة معلقة في جدار مكتبي، وفيها نحو مائة صورة لم يبق من أصحابها على الحياة إلا أنا وأمين بيهم، أما الألبوم ومجموعتي فقد ضاعت في غمـرة الانتقالات، ولكن بعض الأصـدقاء وورثائهم من بعدهم ظلوا محتفـظين بلوحاتهم ومجموعاتهم. وأنبه على أن اللوحة لا تشمـل جميع أعضاء المؤتمر، لأن من الأعضاء من جاء متأخراً عن المناداة بالاستقـلال، وبالتـالي عن وقت أخذ الصور، ومنهم من عاد الى بلاده بعد قليل من اجتماعه الأول الذي عقـد لتقريـر ما تبقى تقديمه للجنة الاستفتاء من قـرار، وعلى كل فهي تمثل اكثرية الأعضاء الكبرى أو ثلاثة ارباع مجموعهم.

* * *

22

بيان الحكومة في المؤتمر ومداه:

وجاءت الحكومة الى المؤتمر في 27 آذار 1920 بعد أن تمت ترتيباته، وألقت بيانها الوزاري وهو منشور في الجزء الثاني من كتاب الثورة لأمين سعيد، وفي ديباجة البيان أن الوزارة تأتي في بدء قيام المملكة السورية المستقلة الى مجلس الأمة لتقرأ بيانها وتبسط خطتها، وهي تحيّي المجلس الجليل الذي سوف يكون له الذكر الخالد في الأمة جيلاً بعد جيل لأنه كان المعرب الصادق عن رغائبها والمؤيد لحقوقها والمؤسس لحكومته الجديدة في تاريخها المجيد، وبهذا دشنت مهمة المجلس بلسان الحكومة كمجلس، وتقف أمامه وتقدم له الحساب. وفي الكلام على كل حال تأييد لقرار المؤتمر والقبول به رسمياً، وقبول حكومة يرأسها الركابي بخاصة، مهم في بابه لأنه لم يكن موافقاً في سريرته على ما تم. وبعد ذلك نوه البيان بما كان من جهاد العرب بزعامة الملك حسين في سبيل الاستقلال وثورتهم وقتالهم الى جانب الحلفاء وما قدموه من ضحايا جعلهم أهلاً للاستقلال، وأثنى على الملك حسين وأبنائه لقيادتهم جهاد الأمة، ثم أبدى الأمل بأن يقابل الحلفاء وبخاصة بريطانيا وفرنسا بالقبول والموافقة والمساعدة والمودة ولا سيما أنهما أعلنا احترامهما لرغبة الأمة في طريقه حكمها لنفسها، وأنهما يعلمان علم اليقين أن سورية تريد أن تحيا حياة أمة مستقلة مطمئنة في ظل سلم عام ودونما تجزئة وشوائب مكدرة، مع حرصها على صون مصالح جميع الأمم وخصوصاً مصالح فرنسا وبريطانيا الحليفتين العظيمتين، وهذه هي خطة وسياسة الحكومة السورية الخارجية ومرتكزها.

أما سياستها الداخلية فهي بناء الدولة ودوائرها على أساس الحق والمساواة والعدل والكفاءة والاهتمام بعمران جميع المناطق وتوطيد الأمن ونشر العلم وتقوية الجيش لحفظ النظام والأمن والدفاع عن الاستقلال التام والوحدة السورية. وقال البيان إن الحكومة ستظل تسير وفق القوانين العثمانية المرعية، على أن يدخل عليها حسب الأصول التحويرات والتعديلات المناسبة. وطلب من المجلس الإسراع في مناقشة مشروع الدستور حتى تسير شؤون الدولة وفقه، وبهذا أيضاً سجل اعترافه بالمجلس كمجلس تأسيسي، وطلب بعد ذلك من المجلس منح الحكومة ثقته على أساس بيانها.

منح المؤتمر ثقته للحكومة:

وقد خطب بعض الأعضاء معلقين على البيان الوزاري، مشددين على ضرورة تهيئة جيش قوي للدفاع وتنظيم دوائر الحكومة على أساس الكفاية وتوطيد الأمن وبث روح الطمأنينة والأمل بين الناس، ثم قرر المؤتمر بما يشبه الإجماع منح الثقة للوزارة على الأسس التي جاءت في بيانها على ما كان من تعليقات وتعقيبات الأعضاء، وسارعت الحكومة بعد ذلك الى ارسال مذكرة للحلفاء تخبرهم فيها بما قرره المؤتمر السوري الممثل لجميع أنحاء سورية من إعلان الاستقلال التام لجميع سورية واختيار الأمير فيصل ملكاً عليها، وتشكيل الحكومة نتيجة لذلك، ورغبتها في إقامة أوثق صلات

التعاون والود معها. (نص المذكرة في كتاب يوم ميسلون لساطع الحصري ص 265 ـ 268).

إنشاء حزب أو تكتل نيابي باسم (التقدم) يضم أعضاء جمعية الفتاة وأصدقاءهم:

وقد قررت الهيئة المركزية للفتاة الايعاز لأعضاء الجمعية في المؤتمر بتنظيم أنفسهم في تكتل نيابي حتى تسير المناقشات والقرارات على الأصول المتعارف عليها. واجتمع أعضاء الجمعية في المؤتمر قدامى وجدد، وكان عددهم نحو (35)، وقرروا إنشاء حزب نيابي باسم (حزب التقدم)، وبذلوا الجهد لضم من يتوسمون فيه الانسجام من أعضاء المؤتمر غير المنتمين للجمعية، واستطاعوا أن يضموا اليهم نحو ثلاثين، فصار عدد حزب التقدم نحو (65) وهم اكثرية المجلس، واختاروني سكرتيراً له أيضاً يدعو الأعضاء الى الاجتماعات الخاصة، ويعرض عليهم المواضيع التي يجب بحثها في هذه الاجتماعات قبل طرحها في المؤتمر وفق ذلك، وقد رشح بعضنا اسناد رئاسة الحزب للشيخ رشيد رضا فتمت الموافقة على ذلك.

إنشاء المعارضين للفتاة حزباً أو تكتلاً نيابياً باسم الحزب الديمقراطي:

وكان في المؤتمر أعضاء غير منسجمين مع الفتاة وحاقدين عليها أو منقبضين عليها، ومعارضين لخططها لأسباب متنوعة، وكان في مقدمتهم الشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ تاج الدين الحسني وأحمد القضماني، فبذلوا جهدهم بدورهم لانشاء تكتل نيابي لهم، وتم لهم ذلك، فقام حزب نيابي معارض من نحو عشرين عضواً وقد سموه (الحزب الديمقراطي)، وكان الاسم موضع تندر لأن القاسم المشترك الذي كان يجمع بين أعضائه هو التزمت نحو أي جديد فكراً وعملاً والتمسك بالتقاليد السائدة مهما كانت بالية رجعية. ومن طريف ما كان أن رياض الصلح قال لأخوانه في الفتاة أنه يحسن أن يكون في هذا الحزب حتى يكون كابحاً ومهدئاً فسمحوا له بذلك. وأنه كلما كان موضوع مهم برز منا من يؤيده كان احمد القضماني يهتف برياض ويطلب منه الرد على عضو حزب التقدم، وكان هذا من مواضيع التندر والتفكه.

ولقد بقي نحو عشرين عضواً في المؤتمر مستقلين غير منتسبين الى أي حزب من الحزبين، وكانوا يصوتون مع من يرون بدون تكتل وتنظيم، وعلى كل حال فإن حزب التقدم كان هو الأقوى والأشد تفتحاً والكاسح في المؤتمر.

مناقشة المؤتمر لمواد الدستور ودوري مع بعض الرفاق في ذلك:

ولقد انصرف المؤتمر بعد منحه الثقة للحكومة الى مناقشة مشروع الدستور، وقد قرأت مواد المشروع في جلستين أو ثلاث قراءة أولى، ثم عاد المؤتمر الى مناقشتها مادة مادة حسب الأصول، وظل منشغلاً بذلك الى آخر أيامه. وقد أقر مواد عديدة بعد مناقشتها، وبقيت مواد كثيرة لم يتسع وقته لمناقشتها واقرارها بسبب تعليق جلساته في أزمة الإنذار الإفرنسي على ما ذكرناه قبل، وما سوف نزيده شرحاً بعد.

ولقد كان في المؤتمر عدد غير قليل نبهاء ومثقفين وخريجي مدارس عالية وباحثين وعلماء دين، فكانت المناقشات حارة وجدية، وكنت أنا وسعيد حيدر وعثمان سلطان ووصفي الأتاسي ونحن من أعضاء لجنة مشروع الدستور نتصدى للرد والتوضيح وشرح المنطلقات التي انطلقت

منها اللجنة في وضع مشروعها. وبعبارة أخرى كنا مقرري مواد الدستور وشارحيها ومدافعين عنها، ومع ذلك فقد كنا نحترم أفكار وتعليقات زملائنا. وكثيراً ما كنا نقبل ما يقترحونه من تعديلات وأفكار في الصيغ والأسلوب والمعنى معاً.

احتدام النقاش حول النص على مساواة المرأة والإبقاء على النص القديم الذي يضمن حقوق مساواة كل سوري من حيث إمكان تشميل ذلك للذكور والإناث معاً:

ولقد أراد بعض التقدميين النص بصراحة على مساواة المرأة بالرجل سياسياً ومدنياً وتمثيلاً وانتخاباً، وقد احتدم النقاش بين التقدميين والتقليديين كثيراً، والحق أنه ليس هناك مانع ديني او اجتماعي يمنع ذلك. وقد جعل القرآن المرأة صنواً للرجل في جميع الأمور العامة والمدنية والإيمانية والتكاليف والواجبات والتبعات في الدنيا والآخرة، واعترف بشخصيتها المستقلة عن الرجل في ذلك كله حينما أمر الله الرسول بأخذ البيعة منها استقلالاً عن الرجل: ﴿يا أيّها النبيُّ اذا جاءَكَ المؤمناتُ يبايِعْنَكَ على أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً وَلَا يسرقنَ ولا يَـزْنينَ ولا يَقْتُلْنَ أولادَهنّ ولا يأتين بِبُهْتَان يفترينه بينَ أيـديهنّ وأَرْجُلهنّ ولا يَعصينَكَ في معروفٍ فَبَايِعْهُنَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنّ اللّهَ إن الله غَفُورٌ رَحيم﴾[سورة الممتحنة].

وكان من أركان النقاش وتوكيد مساواة المرأة الشيخ سعيد مراد الغزي على ما شرحت ذلك في الكلمة التي كتبتها عنه سابقاً. وكان من الاستطاعة تثبيت ذلك، ثم رأينا أن الأمر قد يثير المتزمتين والعوام، وكانت الظروف تقضي بتفادي ذلك فقررنا الإبقاء على النص الوارد في المشروع المطلق الذي يمكن أن يشمل في التطبيق الذكور والإناث معاً، وهو: «حق كل سوري أتم العشرين من عمره ان يكون ناخباً أول، وأتم الخامسة والعشرين أن يكون ناخباً ثانياً وأتمّ الثلاثين، أن يكون نائباً. بالإضافة الى صفات وأهليات أخرى؛ ومما كان من نصوص المشروع وهذا متمم مكمل للنص: «أن جميع السوريين متساوون في الحقوق والواجبات»، حيث يعني هذا التسوية التامة في كل شيء للسوريين جميعهم على اختلاف نحلهم وأديانهم وأصولهم القومية، والذكور والإناث معاً.

وقد يكون في مشروع الدستور مواد تقليدية، ولكن ذلك كان من وحي الظروف والمواد التي تم مناقشتها وإقرارها يمكن أن تعد بالإجمال تقدمية، بل مواد المشروع يمكن ان تعد كذلك.

تنبيه في صدد مواد الدستور المنشورة في بعض الكتب:

وفي كتاب الحكومة العربية في دمشق 1918 ـ 1920 للدكتورة خيرية قاسمية، وكتاب الوثائق التاريخية لحسن الحكيم، نصوص مواد الدستور، والمرجح أنها نصوص المشروع الذي قرىء قراءة أولى ونشر في الصحف، لأن مواد المشروع لم تناقش ولم تقرر جميعها كما ذكرنا قبل.

ردود الفعل الخارجية لإعلان الاستقلال:

من المفارقات التي أذكرها أن المعتمد الإفرنسي واسمه الكولونيل كوس، حضر جلسة المؤتمر التي تقرر فيها إعلان الاستقلال، وحضر مراسم بيعة أعضاء المؤتمر وغيرهم

للملك فيصل، بل وهنأ الملك بملكه، في حين كان المعتمد الإنكليزي غائباً عن كل ذلك.

موقف اللنبي في كتاباته لفيصل قبل الإعلان وتقديمه النصيحة له السفر الى اوروبا:

ولقد أبرق اللنبي للملك فيصل قبل إعلان الاستقلال بساعات يحذره من العمل الذي لا يمكن أن يرضى به الحلفاء، ويذكره بأن الأفضل له أن يتم تفاهم بينه وبينهم، ولما سارت الأمور حسب الخطة المرسومة وتم القرار والإعلان أبرق ثانية لفيصل يقول له إن ما تم هو في حكم العدم، وأن الأفضل أن يذهب الى أوروبا ويتفاهم مع الحلفاء.

تعذر سفر فيصل:

ولقد مال فيصل الى الأخذ بهذه النصيحة، ولكنه لم يستطع السفر بسبب تلاحق الأحداث وقيام العقبات في طريقه من قبل فرنسة على ما سوف نذكره بعد.

موقف حكومتي فرنسة وبريطانيا ومذكرة الملك لهما:

ولقد ذكرنا قبل أن الحكومة السورية عقب تأليفها أرسلت مذكرة الى الحلفاء تخبرهم بما تم. وتتودد إليهم، ولكنها لم تتلق جواباً. وسارع وزير خارجية بريطانيا الى الإبراق الى فيصل يقول له إن بريطانيا لا يمكن أن تعترف بما تم. ولا يمكن أن تعترف لمؤتمر دمشق بأي حق في الحديث عن فلسطين والعراق. ولقد أرسل سكرتير فيصل جواباً للوزير البريطاني بواسطة المعتمد البريطاني في دمشق يذكر فيه أن هذا المؤتمر قد تألف من ممثلي جميع المناطق السورية ساحلاً وجنوباً وداخلاً، وأنه اجتمع لأول مرة في دمشق حينما جاءت لجنة الاستفتاء الأميركية، وقرر قرار برغبة سورية في الاستقلال التام ورفض وعد بلفور والمزاعم الصهيونية في فلسطين، وكون فلسطين جزءاً مع سورية، وبالاتحاد الاقتصادي مع العراق، وقرر رغبة سورية في توسيد ملك المملكة السورية الى الأمير فيصل. وكل هذا جرى على مسمع ومرأى من بريطانيا وممثلها في حزيران 1919، وأن ما قرره المؤتمر السوري مؤخراً هو نفس ما قرره في اجتماعه الأول المذكور. ثم أرسل الملك فيصل بعد هذا رسالتين الى الحكومتين الافرنسية والبريطانية يشرح فيهما ما جرى وأسبابه، ولكن رئيسي الحكومتين قالا في برلمانيهما إنهما لا يعترفان بما تم، وأن مصير سورية منوط بمجلس السلم الأعلى. وزاد رئيس بريطانيا قائلاً إن على الأمير أن يأتي ويبسط قضية بلاده أمام هذا المجلس، ولقد أرسل الملك برقية لهذا الرئيس يقول انه على استعداد للسفر بشرط الاعتراف ولو مبدئياً باستقلال سورية وملكيته عليها فلم يتلق جواباً.

كتابة فيصل لويلسون دون جواب:

وأرسل الملك الى الرئيس ويلسون مذكرة أيضاً شرح له فيها ما تم وكونه تعبيراً عن رغبة الشعب السوري التي أبداها للجنة الاستفتاء التي أرسلها، واستناداً الى المبادىء التي كان أعلنها بحق الشعوب في تقرير مصيرها. ولم يتلق جواباً من ويلسون من جهة، وقامت حركة في الولايات المتحدة ترمي الى حمل حكومتها على عدم الاستمرار في مشاركة أوروبا في خطواتها وخططها السياسية، لأن أوروبا الحليفة اخلّت بالمبادىء التي نادت بها الولايات المتحدة بلسان رئيسها من جهة أخرى.

موقف السلطات الإفرنسية في بيروت ولبنان ونشاطها ضد القرار:

ولقد كان رد السلطات الإفرنسية في لبنان على ما جرى في دمشق شديداً، حيث حملت مجلس إدارته على وضع قرار فيه احتجاج على قرار المؤتمر السوري، واعتبار ما جاء فيه في صدد لبنان تدخلاً غير مشروع في شؤون لبنان، ورفع هذا القرار الى المندوب السامي القائد العام الجنرال غورو، وطلب منه ابلاغه الى مجلس السلام الأعلى، وحملت البطرك الماروني ايضا على رفع احتجاج مماثل، مع التذكير بمذكرته التي رفعها الى مؤتمر السلم والتي تضمنت رغبة لبنان في الاستقلال مع ضم الأقضية الأربعة وحماية فرنسة، ومع إنكار تمثيل من حضر المؤتمر من اللبنانيين للبنان، وحملت مجلس بلدية طرابلس الشام على إصدار بيان ينكر حق الذين شهدوا المؤتمر من الطرابلسيين بتمثيل طرابلس ولبنان. والكلام عنهما، وينكر على المؤتمر شرعيته. ولقد كان من طرابلس وحدها ستة مندوبين في المؤتمر من وجهائها ومثقفيها وأولي الشأن والبروز فيها، وكانوا يحملون مضابط عليها مئات التواقيع بانتدابهم للمؤتمر ومنحهم الكلام باسم البلد.

وكان من يرون مثل هذا العهد بهذه الصفات أيضاً، فضلاً عن عدد غير يسير من جبل لبنان دُروزه ونصاراه، فكان ذلك حجة قوية على لبنان والمدن الساحلية، وكان من أجل ذلك ما كان من مسارعة الانكار عليهم. وأذاعت السلطات الإفرنسية بيانا نفت فيه ما يشاع من ان ما تم في اجتماع دمشق وقرارها كان بموافقة فرنسة، وقالت إن مصير سورية ولبنان هو من شأن مؤتمر السلم الأعلى.

ابتهاج المسلمين في لبنان وبيروت والسواحل وخطبة خطبائهم وموقف السلطات الشديد ضد ذلك:

ولقد ابتهج المسلمون في بيروت وغيرها من أنحاء لبنان والسواحل المحتلة ابتهاجاً عظيماً بقرار المؤتمر، وبادر بعض خطباء مساجدها الى ذكر الملكين حسين وفيصل في خطبهم والدعاء لهم، فجن جنون السلطات واعتقلت الخطباء ونفتهم الى جزيرة أرواد، واستدعت خطباء المساجد ونبهت عليهم بأن لا يذكروا في خطبهم إلا السلطان الخليفة محمد وحيد، وكان في الآستانة أسيراً او حليفاً للحلفاء الذين كانت قواتهم تحتلها. فثارت ثائرة المسلمين وتظاهروا احتجاجاً، وتظاهر أهل الشام احتجاجاً وتأييداً، حتى اضطرت السلطات الإفرنسية الى الاعتذار وإطلاق سراح المنفيين من الخطباء، وأذاعت بياناً تنصلت فيه من التدخل في شؤون المسلمين الدينية، واتهمت سورية بقصد إثارة الاضطرابات والبلبلة في لبنان والسواحل، ومع ذلك فإنها ظلت في شدتها إزاء الحركات الإسلامية، وأخذت من جهة أخرى تحشد قواتها على حدود سورية وتهدد وتنذر.

موقف المؤتمر من تصرفات السلطات الافرنسية:

ولقد كان لكل ذلك رد فعل في المؤتمر السوري، فطلب بعض الأعضاء تخصيص جلسة لمناقشة الموقف. واستجاب الرئيس وتبارى الأعضاء في الجلسة في التنديد بالسلطات الإفرنسية، وبتوكيد ثورة لبنان والسواحل ممثلة برجالات مخلصين من أبنائها مؤيدين من جمهور بلادهم على اختلاف مللهم، وقالوا إن هذا هو ترديد لما كان من

موقف المسلمين وكثير من النصارى حينما جاءت لجنة الاستفتاء الاميركية، حيث تقدموا بعرائض تطلب الاتحاد مع سورية والاستقلال التام لسورية بحدودها الطبيعية ومنها لبنان على مرأى ومسمع من السلطات الإفرنسية، وعلى رغم ما كان من قمع هذه السلطات وشدتها على ما ذكرناه سابقاً.

ابتهاج عرب فلسطين بالقرار وعدم تحرش الإنكليز بهم:

ولقد كان ابتهاج العرب في فلسطين على ما بلغنا في دمشق وهم الأكثرية الساحقة عظيماً بقرار المؤتمر، وقد رفعوا الأعلام وزينوا، ورغم ما كان من موقف الحكومة البريطانية السلبي من قرار المؤتمر واعتراضها بخاصة على حقه في الحديث عن فلسطين، فإن السلطات في فلسطين لم تتحرش بالناس فلم يتعكر ابتهاجهم.

استياء اليهود من القرار ومساعيهم ضده:

وكان للقرار رد فعل شديد على اليهود زاد في ابتهاج الناس أيضاً، ولقد حملوا في صحفهم على القرار وطالبوا الحكومة الإنكليزية بالوقوف موقف الشدة، كما طالبوا أنصارهم في بريطانيا وفرنسة بمثل ذلك.

سؤال المؤتمر للحكومة عن ما لمحه من تقصيرها وجوابها:

ولقد ألمح بعض اعضاء المؤتمر في خطبهم الى موقف التقصير واللامبالاة الذي تقفه الحكومة ورئيسها تجاه شدة السلطات الإفرنسية في لبنان والسواحل، وحشدها القوات على حدود سورية. وقرر المؤتمر بناء على ذلك توجيه سؤال للحكومة عن ما جرى ويجري في لبنان من السلطات الافرنسية، وعن حشودها قواتها على الحدود السورية ولا مبالاتها تجاه ذلك، ولا سيما لا مبالاتها بما ترسله من شحنات بطريق سكة حديد رياق حلب، أي عبر البلاد السورية إلى كليكيا، حيث كان فيها بعض القوات الافرنسية. وكانت عناصر تركية وعربية تقوم ضدها بحركة كفاح مسلح، ومن ذلك حركة عصابات صبحي بركات وإبراهيم هنانو التي ذكرناها قبل، وجاء أحد الوزراء الى المؤتمر، وأظن أنه يوسف الحكيم بعد أيام، وتلا على المؤتمر جواباً عن أسئلته قيل فيه فيما قيل إن الحكومة لم تسكت عما جرى في بيروت وغيرها، وأنها احتجت وأن السلطات الافرنسية تراجعت واعتذرت، وأن خبر تحشيد قوات على حدود سورية لا أصل له، وأن الحكومة تبذل جهدها ونشاطها في سبيل تحقيق رغبات الأمة، وأنها تأمل ان تبلغ المؤتمر بأقرب وقت نتيجة مساعيها.

توزيع الانتدابات في سان ريمو وتعليق عليه:

ولقد اجتمع مؤتمر السلم في سان ريمو في أواخر نيسان 1920 وقرر توزيع الانتدابات، ضارباً بما تم في سورية وبما قرره مؤتمر العراق عرض الحائط، ومتنكراً لما كان قرر في ميثاق عصبة الأمم من حق الشعوب في تقرير مصيرها، ولما كان من السوريين والعراقيين من تقرير ذلك بلسان مؤتمريهم، فقرر فرض الانتداب الافرنسي على لبنان وسورية، والانتداب الانكليزي على فلسطين وشرق الأردن والعراق، فكان ذلك تتويجاً لغدر الحلفاء بالعرب وتآمرهم على بلادهم، والذي بدأ في أثناء الحرب، وقبل أن يجف مداد عهود بريطانيا للحسين، وفي أثناء ما كان العرب يقاتلون

ويضحون بدمائهم في نصرتها ونصرة الحلفاء، وسجلوا على أنفسهم في قرارهم هذا عار الكذب والخديعة والمتاجرة بدماء العرب وثقتهم بهم.

والظاهر أن ما كان من اجتماع مؤتمري السوريين والعراقيين في دمشق وقرارهما بإعلان الاستقلال التام لكل من العراق وسورية بحدودهما الطبيعية ورفض كل وصاية وانتداب ورفض وعد بلفور والدعاوى الصهيونية وتعيين فيصل وعبد الله ملكين عليهما، وجعل فرنسا وبريطانيا تتفاهمان على توزيع الانتدابين وتتضامنان في الحصول عليهما من عصبة الأمم، حتى تصبح كل منهما حرة في العمل في منطقة انتدابها، متسلحة بقرار مؤتمر السلم من جهة، ولئلا يطول الأمر فيحدث ما لا تحمد عقباه في العراق وسورية من جهة أخرى، دون مبالاة بما في ذلك من غدر ونقض لوعديهما باحترام رغبات أهل البلاد.

برقية من اللنبي لفيصل بتبليغ قرار الانتداب ودعوته الى أوروبا:

وقد أبلغ قرار الانتداب لفيصل ببرقية من الجنرال اللنبي جاء فيها أن حكومته أمرته بتبليغه قرار الحلفاء بالاعتراف بسورية والعراق دولتين مستقلتين، على أن تكونا تحت انتداب دولة مساعدة لهما، وأن مهمة الانتداب على سورية أوكلت لفرنسا وعلى العراق لبريطانيا، وأن حكومته تشعر شعوراً قوياً بأن الوقت قد أزف للوصول الى خطة تأتلف بها مطالب الشعب السوري مع هذه القرارات. وطبعاً قصد في كلمة سورية بسورية الداخلية فقط. ومما جاء في برقية اللنبي تذكير لفيصل بأنه كان كتب للحكومة البريطانية باستعداده للسفر الى أوروبا بشرط الاعتراف باستقلال سورية، ثم قال له إن حكومته مستعدة بناء على القرارات المتخذة أخيراً للاعتراف مبدئياً بسموه رئيساً لدولة سورية المستقلة، إلا أنها تعتقد أن قضية ملكيته ينحصر البت فيها رسمياً في مؤتمر الصلح وحده، وأنها لذلك تلح على سموه بأن يأتي الى أوروبا بدون ابطاء ويبسط قضيته أمام المؤتمر الذي سوف يجتمع في باريس في آخر شهر مارس 1920، وهي تأمل أن يجد سموه السبل لحضور المؤتمر. ويعود اللنبي فيلح عليه بضرورة الإسراع في السفر ويقول ان حكومة جلالته راغبة في إعطاء آماله وأمانيه الاعتبار التام، ومنحه الفرصة لبسط قضيته.

احتجاج الحكومة على الانتداب وعلى سلخ شرق الأردن ودمج وعد بلفور في انتداب فلسطين:

ولقد سارعت الحكومة السورية إلى تسجيل احتجاجها على الانتداب، فأرسلت للحلفاء مذكرة تصف قرارات الانتدابات افتئاتا على استقلال سورية التام الذي قرره ممثلوها الشرعيون، ونقضاً للوعود المقطوعة والتصريحات المنشورة المتوالية باحترام رغبات الشعب. واحتجت بخاصة على قرار انتداب بريطانيا على شرق الأردن وفلسطين، الذي يعني سلخهما عن أمهما سورية، وعلى دمج وعد بلفور في قرار انتداب بريطانيا على فلسطين، وتوكيد رفض ذلك كله. كما احتج محمد رستم حيدر بصفته مندوباً عن الحجاز في مؤتمر السلم كحليف من الحلفاء أيضاً.

الإلحاح على فيصل بالسفر وعقبات فرنسا في طريق ذلك:

ولقد كان نوري السعيد حينما عاد من رحلته

الى أوروبا التي سافر اليها لتسليم رسائل الملك لبريطانيا وفرنسا، التي يبلغهما فيها قرار المؤتمر السوري، ألح على الملك بالسفر الى أوروبا، وقال له ان الأوساط الرسمية الإنكليزية تلح على ذلك. وجاء الحاح الحكومة البريطانية في رسالة اللنبي معززاً لذلك، وورد في هذه الأثناء رسالة من محمد رستم حيدر الى عوني عبد الهادي يذكر فيها ان الاعتراف مأمول، وأن من الضروري والمفيد قدوم الملك، فزاد كل هذا عزم الملك على السفر. ولكن العقبات التي وضعها المندوب السامي الافرنسي في بيروت على ما سوف نشرحه بعد عطلت تحقيق هذا العزم.

بلاغ فرنسا في مدى انتدابها واقتراحها باستقلال سورية:

ثم ورد إلى الملك بلاغ من رئيس وزراء فرنسا بتاريخ مارس 1920، بلغه فيها أن فرنسة تؤكد اعترافها بأن للأهالي الناطقين باللغة العربية في القطر السوري الحق في حكم أنفسهم بأنفسهم شعوباً مستقلة، كما قرر مؤتمر السلم وكما كانت فرنسة أذاعته في بيانات سابقة، وأنها قبلت مهمة الإرشاد والمساعدة التي عهد إليها بها مؤتمر السلام لهؤلاء الأهالي وبلادهم لأنهم محتاجون الى ذلك، ومحتاجون الى وقت طويل للوقوف بأنفسهم بعد استعباد طويل وخروج من حرب تركت البلاد خراباً، وأنها ستضمن لهم الاستقلال والحماية من كل اعتداء ضمن الحدود التي يعينها مؤتمر السلم، وستنظم شؤون البلاد وإدارتها الى أن تصبح قادرة على الوقوف بنفسها.

رد فعل شديد للبلاغ الإفرنسي في المؤتمر والشعب:

ولقد كان لرسالة فرنسة هذه بنوع خاص رد فعل شديد في المؤتمر وفي الناس عامة، جعلتهم موقنين بأنهم قادمون على موقف عصيب، وأنهم لابد لهم من إعداد واستعداد للمواجهة والدفاع عن استقلالهم وحريتهم وإحباط المآرب الاستعمارية الافرنسية.

إسقاط حكومة الركابي وتعيين الأتاسي خلفاً له:

وكان معظم أعضاء الفتاة يعتقدون أن الركابي لن يسير سيراً جاداً في أمر الاستعداد والدفاع، وكان مستمراً على مواقف المراوغة والاستخفاف بقرارات هيئة الفتاة المركزية وتبليغاتها، ثم شاع وذاع أمر اهتمامه بالاشتراك مع نسيب البكري للحصول على امتياز استثمار غور الأردن، فاجتمع المؤسسون بدعوة من الهيئة التي كنت سكرتيرها في بيت الركابي نفسه، ودارت مناقشة حامية صريحة، ووجهت تنديدات شديدة للركابي اضطّر تحت ضغطها الى إعلان عزمه على الاستقالة، وقدم استقالته فعلاً في أوائل مارس 1920 الى الملك، ولم يسع الملك تحت ضغط الظروف إلا قبولها، ورشحت الهيئة هاشم الأتاسي بديلاً له، فوافق الملك وعهد إليه برئاسة الوزارة وطلب منه تسمية الوزراء حسب الأصول.

تسمية الشهبندر لوزارة الخارجية ودوافعها وفتور معارضته بعد ذلك:

وكان الدكتور عبد الرحمن شهبندر أشد الناس انتقاداً وحماساً للدفاع وعدم الاستسلام والمهاودة وقبول قرارات الانتداب ووجوب الاستعداد والوقوف موقفاً شديداً فرأت الهيئة أن ترشحه لوزارة الخارجية في الوزارة الجديدة

ووافق الملك وهاشم على ذلك. وجرياً على خطة أرسلت الهيئة إليه من يفاتحه في الانضمام للجمعية وتحليفه يمين الإخلاص لها واستجاب وحلف، وأظن أن الشيخ كامل القصاب هو الذي تولى ذلك. وقد كان وظل غريباً عنها بروحه وقلبه على ما ذكرته في ترجمته. ومن الجدير بالتسجيل أنه تخلى عن شدته واندفاعه ومعارضته، وانسجم مع الملك والوزارة حتى في قرار الموافقة على قبول الإنذار الافرنسي على ما سوف نذكره بعد، حيث يبدو أنه وهذا مع الأسف شأن كثيرين ـ بعد أن حقق أملاً في البروز في منصب مهم جنح الى المسايرة للاحتفاظ بما حقق، أو أن مسؤوليات المركز الرسمي أملت عليه موقفاً كان يقف ضده ويرفضه حينما كان حراً غير مسؤول.

تسمية يوسف العظمة لوزارة الحربية وأسماء الوزراء الآخرين:

وكان يوسف العظمة كذلك شديد الحماس للمقاومة والدفاع ورفض الاستسلام والاستعداد للكفاح، فرشحته الهيئة لوزارة الحربية، ووافق الملك وهاشم على ذلك. وتألفت الوزارة الجديدة من هاشم للرئاسة والداخلية، والشهبندر للخارجية، ويوسف العظمة للحربية، ورضا الصلح رئيساً لمجلس الشورى، وفارس الخوري للمالية، وساطع الحصري للمعارف، وجلال زهدي للعدلية، ويوسف الحكيم للتجارة والزراعة.

وفي كتاب الملك الذي وجهه للرئيس بتعيين الوزارة حث على بذل المساعي في تحقيق رغبات الأمة باتخاذ أفضل التدابير للدفاع عن الاستقلال المقدس وحفظ الأمن، والعمل على تمتين لحمة التضامن بين طبقات الأمة على اختلاف فئاتها ومللها وأديانها.

بيان الوزارة أمام المؤتمر ونيلها الثقة على أساسه:

وجاءت الوزارة الجديدة الى المؤتمر في الثامن من مارس 1920 وألقت بيانها أمامه، وقد ذكرت في بدء بيانها أن أساس خطة الوزارة هو تأييد الاستقلال التام الناجز المتضمن في جملة ما يتضمنه حق التمثيل الخارجي، والإصرار على الوحدة السورية في حدودها الطبيعية، مع رد طلب أن يكون القسم الجنوبي من البلاد وهو فلسطين وطناً قومياً لليهود، ورفض كل مداخلة أجنبية تمس السلطان القومي، ثم وعد بالاستفادة من كل طاقات الأمة والبلاد المادية والمعنوية لتنظيم قوة عامة تضمن للبلاد حياتها وكيانها واستقلالها والاهتمام بحفظ الأمن والشدة ضد من يخلّه. وقد أشير في البيان الى الاعتراف المبدئي باستقلال سورية في قرارات سان ريمو، والى قرار الانتداب الذي يتناقض مع استقلال سورية التام، ووعد بالسعي في إزالة هذا التناقض. وأشير الى تصريحات بريطانيا باستعدادها للاعتراف بالدولة السورية وملكية الملك فيصل عليها. وقال البيان أن مؤتمر السلم سيعقد في أواخر الشهر، وأن للحكومة الأمل في أن يعيد النظر في قراراته السابقة، ويتذكر وعود وعهود الحلفاء للعرب وسورية، مع التوكيد على أن قوة الشعب وعزمه الثابت على الدفاع عن الاستقلال والوحدة كفيلان بتحقيق آمالنا اذا لم ينصفنا المؤتمر.

وقد خطب بعض الأعضاء معقبين ومعلقين على البيان ومشددين على أن يكون الدفاع والاستعداد له عن استقلال سورية وحدودها الطبيعية، واحباط المطامع الأجنبية واليهودية

فيها هو الهمّ الأكبر للحكومة، وطلبوا تعهد الحكومة بذلك. ووقف الشهبندر قائلاً بحماس إن الوزارة دفاعية، وقد قامت للدفاع وستدافع الى النهاية. فمنح المؤتمر الحكومة الثقة على هذا الأساس.

وفيما تقدم يظهر أن جميع عناصر الدولة والمؤتمر قد اندمجوا فيما كان وصار شعار الجميع، وفي هذا رد آخر على ما وجه اليه فيما بعد من انتقاد هامس وغير هامس.

انتخاب الشيخ رضا لرئاسة المؤتمر خلفاً للأتاسي:

وبتعيين هاشم الأتاسي لرئاسة الوزارة خلت رئاسة المؤتمر، وجرى انتخاب لها، ورشح حزب التقدم رئيسه السيد رشيد رضا ففاز، وقد ظل رئيساً الى أن علقت جلسات المؤتمر نتيجة لأزمة الانذار الافرنسي.

ولقد كانت الوزارة السابقة وضعت قانوناً للتجنيد الاجباري ولكنها لم تخط خطوة ما في تنفيذه، فعدلته الوزارة الجديدة، ووسعته وجعلت التجنيد عاماً ومدته سنة بدلاً من ستة أشهر، وصودق عليه ونشر في 17 مارس 1920. كما قررت الوزارة فرض قرض وطني بمبلغ نصف مليون دينار ورصده لتنفيذ خطة التجنيد والدفاع، ولقي القرض تجاوباً مقبولاً.

***

23

شروط فرنسة لتسهيل سفر الملك وموقف الملك منها وخطبه وأحاديثه المتساهلة:

ولقد كان الملك قد عزم على السفر الى اوروبا بناء على ما تلقاه من دعوة ملحة ومتواصلة من الجانب الإنكليزي بنوع خاص في مناسبة انعقاد مؤتمر السلم في باريس في أوائل حزيران أو أواخر مارس، ولكن السلطات الإفرنسية في لبنان اشترطت لاستقباله وتسهيل سفره من لبنان واستقباله في فرنسة أن يعترف مبدئياً بالانتداب الإفرنسي، ولقد كان الملك فيصل على ما سمعناه منه يفسر الانتداب تفسيراً يزيل عنه الصفة الاستعمارية الكريهة، ويجعله غير مخل بالاستقلال، ويتكلم في هذا المعنى مع من يعرف تساهلهم ويرون وجوب التساهل.

ولقد أقام مأدبة إفطار رمضانية في قصره في أواسط مارس، وكنت ممن حضرها، وألقى خطاباً أو حديثاً مطولاً استعرض فيه الموقف، وذكر التيارين السائدين، وأحدهما يرفض أي تساهل ويرى الأكرم والأشرف رفض ما يراه مخلاً بالسيادة والاستقلال أدنى إخلال والموت بشرف، وثانيهما يفسر الأمور بتفاؤل ويرى السير في مقابلة الموقف بتروٍ حتى لا تقع الكارثة، ولا سيما أن قوة البلاد ضعيفة والوقت ضيق غير متسع لإعداد قوة كافية، وقد خرجت من الحرب منهكة. وكان يمزج استعراضه هذين التيارين بمقاطع (أي الاستقلال يؤخذ ولا يعطى)، و(لكن يجب اعداد القوة التي تأخذه وهذا يتوقف على وقت وجهد). ثم طلب من

الحاضرين وهم وجوه البلاد وزعماؤها وأولو الرأي فيها التروي والأناة وعدم الانفعال. وكان حديثه في الإجمال دعوة الى تفسير الأمور تفسيراً خالياً من التشاؤم، وإلى مداراة الموقف وبالتالي الى عدم التصلب، غير أن الجو المشحون بالاستقلال ورفض كل تساهل، وبالحقد على غدر الحلفاء أو مقاصدهم السيئة رغم ما كان من جهاد العرب وجهودهم وتضحياتهم، لم يسمح بتجاوب قوي لكلام الملك، وبالتالي لم يسمح بقبول شرط السلطات الافرنسية بالاعتراف مبدئياً بالانتداب لتيسير سفر الملك من لبنان واستقباله في فرنسا، ومع ذلك فلقد أرسل الملك نوري السعيد الذي جعل نفسه مقبولاً بصورة ما لدى الإفرنسيين الى الجنرال غورو المندوب والقائد الافرنسي في بيروت ليحاول إيجاد طريقة مناسبة يتمكن بها الملك من السفر الى اوروبا، على أمل أن يتمكن من الاتفاق مع فرنسة على تسوية مقبولة. ويظهر أن الإفرنسيين تخوفوا من عواقب إلحاح بريطانيا على فيصل بالسفر ووعدهم بالاعتراف به فقرروا حسم الموقف وتفجيره.

تفجير فرنسة للموقف والإنذار الفرنسي الشفوي أولاً:

فطلب المندوب السامي القائد من نوري السعيد إبلاغ فيصل إنذار بأنهم يعلقون تيسير سفره على تنفيذ ما يلي:

1ـ السماح للقوات الإفرنسية باحتلال محطات سكة حديد رياق.

2ـ الاعتراف بالانتداب الافرنسي.

3ـ السماح بتداول العملة الورقية الصادرة من البنك السوري اللبناني في المنطقة الداخلية.

4ـ إلغاء قانون التجنيد الإجباري ووقف تنفيذه.

وزادوا من جهة ثانية حركاتهم وتحشيداتهم العسكرية على الحدود السورية.

مذكرات وبرقيات فيصل في صدد ذلك:

ورجع نوري السعيد خائباً يحمل الإنذار، وسارع الملك حينما بلغ الإنذار الشفوي الى إرسال رسائل الى قناصل الدول الحليفة في دمشق يبلغها ما بلّغه نوري السعيد من إنذار فرنسي، وما رافق ذلك من زيادة الحشود العسكرية، ورفض المندوب الإفرنسي تيسير سفره الى أوروبا استجابة لدعوة بريطانيا وفرنسة، طالباً من حكوماتهم الحيلولة دون سقوط الشعب السوري أمام القوة الغاشمة التي هدفت حرب الحلفاء الى منعها، وتأليف لجنة تحكيم من دول الحلفاء تعرض عليها المواقف، مظهراً استعداده واستعداد شعبه لقبول حكمها. ثم أرسل برقيات لحكومات إنكلترا وإيطاليا والولايات المتحدة وعصبة الأمم يطلب منها التدخل والتوسط لدى فرنسة لمنع اراقة الدماء، ويبدي استعداده للتفاهم بشرط الاحتفاظ على الشرف والكرامة والسفر الى أوروبا استجابة لدعوة بريطانية وفرنسا لعرض القضية على مؤتمر الصلح.

رد فعل الإنذار في المؤتمر وسؤاله لحكومته وبيانها الدفاعي:

ولقد توتر جو المؤتمر بخبر الانذار، وعقد جلسة خطب فيها بعض الأعضاء محتجين منددين، وطلبوا حضور الحكومة للادلاء بايضاحات عن الموقف. ولبّت الحكومة وأرسلت أحد وزرائها وأظن أنه الدكتور شهبندر

في 13 تموز 1920، فألقى بياناً شرح فيه الموقف على النحو الذي أجملناه. ومما قاله الوزير إن الشروط التي بلغناها جاءتنا شفوية فلم نرد أن نجيب عليها ما لم نتلقاها مكتوبة، وهي في حد ذاتها مخالفة لرغائب الأمة وعزمها على المحافظة على استقلالها وسيادتها، ومخالفته في الوقت نفسه لروح مقررات مؤتمر السلم، وأن الملك طلب من قناصل الدول الحليفة ثم من رؤسائها التدخل والتوسط والتحكيم، وأننا لا نرفض المفاوضات للوصول الى حل لمختلف المواضيع، وأن الملك مستعد للسفر استجابة لدعوة فرنسة وبريطانيا لبسط القضية أمام مجلس السلم وبذل الجهد للتفاهم على أي حل لا يمس استقلالنا وشرفنا، ويكون قائماً على أساس الحق والاستقلال، وأننا في الوقت نفسه مصممون كل التصميم على الدفاع عن شرفنا وحقوقنا بكل ما أعطانا الله من قوة.

ولقد فكر الملك والحكومة في إرسال وفد الى أوروبا ما دام يوضع في سبيل سفر الملك واستقباله عراقيل، ولكن تلاحق الأحداث حالت دون ذلك، حيث بادر غورو الى زيادة التحشيدات، وأمر قواته باحتلال رياق والمعلقة.

الإنذار الإفرنسي الكتابي وأزمته المتلاحقة:

وأردف ذلك بكتاب بعنوان (صاحب السمو الأمير فيصل)، وفي طيه مذكرة فيها توكيد الانذار الشفوي ومطالب جديدة أخرى، وقد ناشد غورو (وطنية فيصل وإخلاصه لأمته) بقبول الانذار وتنفيذ المطالب حتى ينتهي التوتر بين فرنسة وبين المنطقة الشرقية. وفي المذكرة شرح طويل للأوضاع المتوترة بين فرنسة وهذه المنطقة، ولمظاهر العداء التي كانت تظهر في مناسبات عديدة ومتنوعة نحو فرنسة، وإشارة الى احتشاد عدد كبير من أعداء فرنسة في هذه المنطقة، وبروز الحركات العدائية نحوها، وما يحظون به من رعاية وعناية، وإشارة الى احتلال جيش سوري لمجدل عنجر خلافاً لما اتفق عليه مع كليمنصو سابقاً، والى حركات العصابات العربية على جنوب لبنان من ناحية مرجعيون، وما كان ينتج عن ذلك من سفك دماء نصارى لبنان وارهابهم وازعاج القوات الافرنسية، والى حركات العصابات التي تزعج القوات الإفرنسية في شمال سورية، مع ذكر أسماء كثيرة لأعداء فرنسة في دمشق، وإشارة الى رفض سورية لاستعمال فرنسة خط حديد رياق ـ حلب لتموين قواتها في كليكيا، والى الإصرار على رفض الانتداب الذي عهد به مؤتمر السلم الى فرنسة والذي يقصد به مساعدة سورية وتنظيم أمورها الخ . . . وانتهت المذكرة بالمطالب الآتية:

1 ـ التسليم بحق فرنسة بالتصرف المطلق بسكة الحديد رياق وحلب ووضعها تحت امرة القوات المسلحة الافرنسية.

2 ـ السماح باحتلال حلب كعملية وقائية من رد فعل تركي.

3 ـ إلغاء التجنيد الاجباري وتسريح القوات النظامية وإعادة الجيش الشريفي الى حجمه الذي كان عليه في 1 كانون الأول 1919.

4 ـ قبول الانتداب الافرنسي الذي يحترم استقلال أهالي سورية ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سورية تستمد شرعيتها من ارادة الشعب، والذي ليس هو الا مساعدة ومعاونة، ولا يعني استعماراً ولا إلحاقاً ولا إدارة وحكماً مباشراً.

5 ـ قبول وتداول العملة الورقية.

6 ـ تأديب المجرمين وأعداء فرنسة الشديدين.

وجاء في نهاية المذكرة أن هذه الشروط يجب أن تُقبل وتُنفذ جملة بدون تجزئة وخلال أربعة أيام من منتصف ليل 15 تموز 1920، واذا جاء من سموكم قبل انقضاء الموعد اعلان يشعر بقبولها فينبغي أن تكون أوامرك قد صدرت في نفس الوقت الى السلطات المختصة بعدم معارضة جنود فرنسة الزاحفة لاحتلال المواقع المشار اليها سابقاً، ويجب أن يؤيد قبول الشروط كتابياً في 18 تموز 1920، وأن يتم التنفيذ الكامل قبل 31 تموز 1920، وفي هذه الحالة ستكتفي فرنسة بهذه الشروط المعتدلة. وإذا لم يستلم المندوب السامي القائد العام جواباً فيه موافقة على هذه الشروط فستكون فرنسة مطلقة اليد في العمل ولا تتحمل مسؤوليةالمصائب التي قد تحل بالبلاد، وانما تتحملها حكومة دمشق وتطرفها الذي لا أنظر إليه إلا آسفاً ولكني مستعد لمواجهته بعزم لا يتزعزع.

قرار مجلس الإدارة اللبناني وأثره في تعجيل الإنفجار:

ولقد كان حادث قرار مجلس إدارة لبنان المطالبة بالاستقلال التام والاتحاد الاقليمي مع سورية الذي كان ضد خطط وآمال فرنسة، والذي وقعته أكثرية أعضاء المجلس خلسة واحتفظ كل عضو بنسخة موقعة، وحاولوا الخروج تسللاً به من بيروت الى دمشق فأوروبا، الذي أثار السلطات الافرنسية في بيروت أشد إثارة وجعلها تترصد الأعضاء وتعتقلهم وتحاكمهم وتحكم عليهم بالغرامات والنفي، وترسلهم منفيين الى كورسيكا. والذي أثار حماساً وابتهاجاً عظيمين في دمشق ودويّ في لبنان وسورية معاً كان في هذه الظروف أي في 10 تموز 1920 على ما ذكرناه قبل، وقد استطاع بعض الضالعين فيه أن يفلتوا ويصلوا إلى دمشق. فالمتبادر أن هذا الحادث زاد في حنق السلطات الافرنسية ضد سورية، اعتقاداً منها أنه كان لعملائها أو على الأصحّ لأعداء فرنسا أصبعاً في تفجير الموقف.

أثر الإنذار الشديد في دمشق ومسلسل الأحداث التي كانت بعده الى نهايتها:

ولقد هز الإنذار الكتابي الشديد الأعصاب والأفكار هزاً عنيفاً، وأثار اضطراباً وتوتراً شديدين وانقساماً في مختلف الأوساط، وعاشت دمشق بالدرجة الأولى وسورية بالتبعية الأيام العشرة التي أعقبته في حالة هياج وغليان وتوتر وبلبلة شديدة، وهذا شريط مسلسل لما وقع هذه الأيام التي عشنا في اهوالها، مع التنبيه الى أن التسلسل ليس متتابعاً توقيتياً، فقد كانت الفترة قصيرة والأحداث متداخلة.

برقيات فيصل:

أرسل سكرتير الملك عوني عبد الهادي بأمر الملك برقية الى ممثلي الدول في دمشق يبلغهم نص الانذار، ويناشد حكوماتهم الوقوف في جانب الحق وعدم السماح للقوة الغاشمة بنسف استقلال سورية الذي كان تحقيقاً لرغباتها التي أعلنت حكومات الحلفاء احتراماً لها، والذي حاربت سورية والعرب الى جانب الحلفاء في سبيله، ومنع سفك الدماء، ولكن البرقية بقيت بدون صدى.

رأي اللنبي في قبول الإنذار:

وكان اللورد اللنبي قائد الحلفاء في فلسطين في هذا الظرف، فأرسل الملك الأمير عادل ارسلان الى فلسطين ليشرح له الموقف ويتصل

بالدول الأوروبية ويسأله رأيه في الانذار قبل البت في الأمر رفضاً أو قبولاً، وعلم الملك بأن رأي اللورد اللنبي هو قبول الانذار والتفاهم مع فرنسة، ولقد كان الملك في قرارة نفسه يميل الى هذا على ما ظهر منه سابقاً من مواقف وفي مناسبة اتفاقية كليمنصو وشرحناه قبل، فزاده رأي اللنبي ميلاً الى ذلك.

نشاط اللجنة الوطنية:

وكان رد فعل الإنذار واحتمالات قبوله شديداً في أوساط الشعب المحقون بأشد الحقد والكراهية لفرنسة، وقد اجتمعت اللجنة الوطنية الشعبية الدفاعية التي كانت تألفت في ظل أزمة استبدال الحاميات تحت رئاسة الشيخ كامل القصاب، والتي كان قوامها ممثلو الأحزاب الوطنية والأحياء، وكنت أنا فيها ممثلاً لحزب الاستقلال على ما شرحته قبل، فقررت أكثريتها وجوب رفض الانذار والدفاع بكل ما يمكن، ودعوة الشعب الى بذل المال والنفس في سبيل ذلك. وتكررت اجتماعاتها في سبيل التوعية واعلان رأيها.

الهياج والمظاهرات وحادث الهجوم على القلعة:

وتكررت التظاهرات الشعبية حيث كانت تقوم كل يوم صاخبة غاضبة مطالبة برفض الانذار والدفاع، ومعلنة استعدادها للبذل والتضحية، وكانت المظاهرات تأتي الى بناية المؤتمر حينما يكون في حالة انعقاد لتدارس الموقف لتشد من عزيمة جبهة الرفض فيه، وكانت آخر المظاهرات بعد قبول الإنذار على ما سوف نشرحه بعد، وهاجم المتظاهرون ليلاً القلعة ونهبوا ما في مخازنها من سلاح وأطلقوا سراح المسجونين فيها، وكان اشتباك بينها وبين قوى الأمن، وباتت دمشق ليلة 29 تموز 1920 في رعب وفزع وغليان عظيم، وكانت أصوات الرصاص والمتفجرات تهز الأسماع فتزيد الرعب والفزع، وقد وقع نحو 200 قتيل وجريح في الاشتباك من الطرفين، فزاد ذلك من الهول والفزع. وعقدت اللجنة الوطنية اجتماعها الأخير بعد ذلك ونشرت بياناً بالرفض وإنذار الحكومة وتحميلها مسؤولية قبول الإنذار الجسيمة.

إعلان الإدارة العرفية:

وتحسبت الحكومة من عواقب هياج الشعب وتوسعه، فأعلنت الإدارة العرفية التي تسمح بحكم البلاد بقوانين وقواعد فوق العادة وبحكم عسكري، وتتعطل بها القوانين العادية العائدة للأمن والجرائم. ولكن ذلك لم يمنع الشعب من موالاة مظاهراته وصخبه، وكان من ذلك الهجوم على القلعة وما جرى في أثنائه الذي ذكرناه آنفاً.

اجتماع مؤسسي الفتاة وانقسام الرأي فيها في الموقف:

وطلب أعضاء الفتاة المؤسسون من الهيئة المركزية التي خلفت هيأتنا عقد اجتماع عام، وتم ذلك، وكان انقسام في الرأي بين الرفض والتروي والقبول، وكانت أكثرية الهيئة التي كان الركابي ركنها الأقوى في جانب التروي والقبول.

أكثرية المؤسسين في جانب رفض الإنذار ومنطلقهم في ذلك:

ولكن أكثرية المؤسسين كانت في جانب الرفض والمقاومة وكنا منهم. ولقد كانت حجتنا هي اعتقادنا بأن فرنسة سوف تسير في سورية،

كما تسير في تونس والجزائر والمغرب، التي جاءت اليها بحجة المساعدة ثم سارت فيها سيرة استعمارية احتكارية استيطانية مع شدة القمع والقسوة والإرهاب، سواء أكان دخولها سورية نتيجة لقبول الإنذار أم بالقوة عنوة، وكنا نعرف أن قوتها متفوقة عدة وعدداً، وانما اندحار القوة السورية والمقاومة السورية هو الغالب، ولكن مادامت النتيجة واحدة فإن الأكرم والأشرف أن نرفض وأن ندافع، لأننا نكون قد سجلنا موقفاً قومياً أبياً كريماً، ويكون ما تفعله فرنسة في سورية مستنداً الى القوة الغاشمة وحسب، ويكون لسورية حق استئناف الكفاح بكل أسلوب.

في حين أننا اذا قبلنا نكون كمن أسقط حقه في الكفاح ورضي بذلك المصير المشؤوم. وكان الى هذا احتمال صمود القوة العربية مدة ما وردفها بقوى شعبية متطوعة في الميدان وفي شكل عصابات جانبية، وكان من شأن ذلك لفت نظر العالم الأوروبي وحمله على التدخل في الموقف لإيجاد حل فيه كرامة وشرف استناداً الى ما يلمس من تقزز الأفكار الأوروبية من أي حركة حربية جديدة بعدما قاسى العالم ما قاساه من ويلات الحرب وبلائها، ولا سيما أن ما تكون سورية قد فعلته هو حق شرعي مسلم به بما نادى به الحلفاء كهدف للحرب، وهو منح الشعوب حق تقرير مصيرها واحترام رغباتها، وقد أظهرتها سورية قوية اجتماعية، بالإضافة الى ما كان من جهودها وجهادها، والثورة العربية التي ساهمت في نصر الحلفاء مقابل وعود وعهود بالاستقلال والحرية وتحقيق المصالح القومية. وكان يوسف العظمة يقول إن في الإمكان بما هو متيسر من قوة حربية نظامية، وما هو محتمل من ردفها بالقوة الشعبية الوقوف في وجه الغزاة مدة ما. وهذا المنطلق كان نفس المنطلق الذي انطلق منه الرافضون لاتفاقية كليمنصو على ما شرحناه قبل.

الأحداث أثبتت صدق المنطلق:

ولقد أثبتت الحوادث صدق منطلقنا واعتباراتنا، فقد قبل الملك ورجال الحكومة انذار غورو وسرحوا الجيش وسحبوا تحصينات مجدل عنجر فلم يفدهم هذا شيئاً، بل استغله غورو في القضاء النهائي على عهد الاستقلال، ثم أمعن هو والسلطات الإفرنسية في سورية قمعاً وقسوة وتصرفاً مطلقاً في مختلف الشؤون، وجنحت فيما جنحت اليه الى تقسيم سورية الى دويلات طائفية وإقليمية، وذهب كل ما زُوِّق به الانتداب ووصف به من نعومة هباء وسراباً، وكان هذا المسلك هو مسلكها في لبنان قبل الغزو وبعده أيضاً. وكان لبنان قابلاً بل مرحباً بالانتداب الافرنسي غير رافض ولا مقاوم له، وقاست سورية ولبنان طيلة ربع قرن ما قاسته من سوء تصرف وقسوة واحتكار وحكم مطلق، ولم تتخلص منه سورية إلا بالكفاح المسلح والمقاومة المستمرة بالأساليب المتنوعة.

موقف المؤتمر وأكثريته في جانب الرفض والبيانات التي أذاعها:

ولقد عقد المؤتمر السوري جلسات عديدة في هذه الفترة، وقررت أكثريته في أولى الجلسات رفض الإنذار والدفاع والمقاومة حتى النهاية، وقررت إذاعة بيان باسم المؤتمر يقول فيما يقول انه لا يحق لأي جهة ان توافق على أي اتفاق ولا تبرم أي اتفاق بدون موافقته، وأن ذلك اذا وقع يكون باطلاً لأنه ضد رغبة الشعب الذي يمثله. وأرسل الى الملك وفداً يبلغه قراره هذا. وقرر إذاعة بيان ثان يحمّل فيه الحكومة

مسؤولية التهاون في الدفاع والتفريط باستقلال البلاد وشرفها. وفي جلسة من جلساته طلب من الحكومة الحضور لإيضاح الموقف فلم تلب، فقرر اذاعة بيان يتنصل فيه باسم الشعب من كل اتفاق وعقد تبرمهما الحكومة فيهما موافقة على قبول الانتداب والخضوع للإنذار، وقال في هذا البيان إن الحكومة لا يجوز لها ذلك لأنه خروج عن قرارات المؤتمر بالاستقلال التام ونقض لبيانها الذي أخذت من المؤتمر الثقة على أساسه وحملها مسؤولية ذلك.

قرار الحكومة بتعليق المؤتمر:

ولقد قررت الحكومة بعد قبولها الإنذار على ما سوف يأتي شرحه تعليق جلسات المؤتمر، وجاء وزير الدفاع يوسف العظمة الى المؤتمر وتلا مرسوماً ملكياً بتعليق جلساته لمدة شهرين نظراً للظروف الحاضرة، وكان المؤتمر قبيل ذلك أصدر بيانه الأخير الذي ذكرناه.

سفر كثير من أعضائه الى بلادهم:

وقد سافر كثير من أعضاء المؤتمر بعد ذلك إلى بلادهم، ومنهم أكثر المندوبين الفلسطينيين ومن جملتهم صديقنا وزميلنا إبراهيم القاسم عبد الهادي وزميلنا عادل زعيتر، كما أخذ كثير ممن كان موجوداً في دمشق من الفلسطينيين وغير الدمشقيين من غير أعضاء المؤتمر الذين كانوا أتوا الى دمشق لأسباب ودوافع متنوعة من الانصراف الى بلادهم بسبب تأزم الموقف واحتمالات تفاقمه.

انقسام الحكومة في الرأي وأكثريتها في جانب القبول:

ولقد انقسمت الحكومة الى فريقين، فريق أكثريته قابل بالإنذار والتسليم وعلى رأسه الملك، وفريق رافض داع الى الدفاع والمقاومة وكان يوسف العظمة من هذا الفريق، ولست الآن متأكداً مما اذا كان الشهبندر وساطع من الفريق الأول أو الثاني، وإن كان ما أعرفه فيهما يجعل القول انهما من الفريق الثاني أكثر احتمالاً. وكان ميل أكثرية الحكومة الى القبول والتسليم مما يشجع الملك عليهما أيضاً.

دعوة الملك لمؤسسي الفتاة والمؤتمر ومحاوراته لهم:

ولقد دعا الملك أعضاء الفتاة المؤسسين، ثم دعا أعضاء المؤتمر وتحاور معهم وكنت ممن حضروا واشتركوا في الحوار، وقد ثبتت أكثرية كل من الفريقين على موقفه بالرفض وايجاب المقاومة والدفاع بقدر المستطاع، وشرحوا ما ذكرناه من منطلقات واعتبارات.

محاورات الملك مع الشخصيات الأخرى:

ولقد كان الملك يستدعي شخصيات عديدة من غير الفتاة والمؤتمر ويتحاور معهم أيضاً، وكان منهم فريق في جانب القبول وفريق في جانب الرفض والمقاومة، وكان وجهاء دمشق ورجال المال والاقتصاد في الجانب الأول.

موقف الهاشمي ورأيه في عدم إمكان الدفاع:

ولقد كانت الحكومة والملك كلفوا ياسين الهاشمي بتولي قيادة الدفاع عن دمشق وقيادة جبهة عنجر، ولكن الهاشمي اعتذر عن المهمة وزاد فقال ان ما هو متوفر لدى الجيش من سلاح وعتاد وجنود لا يمكن أن يجدي في أي عملية دفاعية.

اجتماع كبار الضباط والجيش والمتقاعدين وتأييدهم لرأي الهاشمي:

ومع أن هذا القول لم يكن مفاجئاً، فقد

سارع الملك عند سماعه الى دعوة كبار ضباط الجيش وكبار الضباط المتقاعدين الموجودين في دمشق وطلب منهم درس الأمر مع الهاشمي موضوعياً وعسكرياً، واجتمعوا ودرسوا وانتهوا الى تأييد ما قاله الهاشمي، وقالوا ان ما عند الجيش من عتاد لن يمكّن من الصمود أكثر من ساعات قليلة، حتى في حرب غير جدية، أما إذا وقف الافرنسيون جادين فلن تكون مقاومة أكثر من دقائق قليلة، رغم ما قاله يوسف العظمة من أن بالامكان الصمود مدة أطول، وأن من المحتمل أن يتطور الأمر خلال ذلك ويقوم كفاح شعبي مسلح وأن يكون لذلك أثر في الموقف السياسي.

قرار الملك والحكومة بقبول الإنذار:

وجاء رأي المجلس العسكري حاسماً بالنسبة للملك والحكومة، فقرروا قبول الإنذار، وكان منطلقهم أن في القبول تفادياً لكارثة تحيق بسورية من جراء الحرب وويلاتها ونتائجها، واندمج في القبول ومنطلقه وأسبابه يوسف العظمة وساطع الحصري والدكتور الشهبندر مع انه كان يسعهم أن يسجلوا معارضتهم أو يستقيلوا، حيث يبدو أنهم قنعوا بما قنع به زملاؤهم. وظللت وما زلت أعتقد انه كان من واجبهم الاستقالة والانسجام مع قناعتهم بالرفض والمقاومة. ولقد ترتب على قبول الملك والحكومة نتائج مرة، ومنها الإسراع في تنفيذ حل الجيش وسحب تحصينات مجدل عنجر، واغتنام غورو الفرصة وأمر جيشه بالزحف نحو ميسلون، ثم احتلال دمشق الباغي بعد معركة ميسلون الشعبية على ما سوف يأتي شرحه.

كتاب فيصل الى غورو بذلك وجوابه بوجوب التنفيذ:

وأرسل الملك في 18 تموز 1920 الى غورو كتاباً بواسطة المعتمد الافرنسي العسكري يعلن عن قبول الإنذار، وجاءه جواب في 19 تموز يذكر استلام الكتاب، ويقول إنه ليس المطلوب الآن تبليغ قبول الإنذار وانما التنفيذ الفعلي للمطالب التي يجب أن يبدأ في 18 تموز وينتهي في 31 منه حسب ما جاء في المذكرة، ثم قال المندوب في جوابه انه يمدد وقت البدء يوماً ويجب أن يتلقى الجواب مع بدء التنفيذ قبل 21 تموز، ووعد بأن لا يحرك الجيش نحو الشام إلا في هذا التاريخ.

جواب الملك بالموافقة وإسراعه في التنفيذ:

وأرسل الملك جواباً بواسطة المعتمد الافرنسي قال فيه:

(رغبة في انقاذ شعبي من ويلات الحرب وأملاً في إنشاء سلم موطد لا يتسنى إلا بالاحتفاظ بصداقة الحلفاء ومودتهم وخاصة مودة فرنسة أقبل مطالبكم المذكورة في مذكرتكم المؤرخة في 14 تموز وقد صدرت الأوامر بتنفيذها).

وفعلاً فقد صدر أمر الملك بتسريح الجيش النظامي. فسرح، وسحب القوات والتحصينات من جبهة عنجر فسحبت، وأمر بفض المؤتمر، وأمر بإعطاء الأوامر لمحطات سكة الحديد رياق ـ حلب بأن تكون تحت تصرف القوات الافرنسية. ثم كُتبت مذكرة جوابية فيها أخبار ما تم تنفيذه ووعد بالاستمرار على إتمام التنفيذ في الموعد المحدد، وسُلّمت المذكرة للمعتمد الافرنسي في دمشق، وأرسل هذا برقية لغورو ينبئه فيها بأنه استلم المذكرة الجوابية المطلوبة من الحكومة السورية وأرسلها اليه بالبريد.

زحف القوات الإفرنسية بحجة عدم وصول خبر التنفيذ:

ولكن غورو أمر جيشه بالزحف في 21 تموز بحجة أنه لم يصل اليه خبر بدء التنفيذ، وطير الملك برقية لغورو احتج فيها على الزحف ونعته بأنه خرق للوعد رغم انه أعلم بقبول مطالبه وبدأ بتنفيذها وطلب منه توقيف الزحف وسحب الجيش، ولم يأبه لذلك وأصر على موقفه، وأرسل الملك الى حكومات الحلفاء بواسطة قناصلها برقية شرح فيها الموقف، وطلب منها التدخل دون جدوى.

إرسال ساطع الحصري وجميل الألشي لغورو وعودتهما خائبين وإصرار غورو على الوصول الى ميسلون وطلباته الجديدة مستغلاً الإنهيار الحكومي:

وأرسل الملك في نفس الوقت ساطع الحصري وجميل الألشي ومعهما المعتمد الافرنسي الى غورو ليناقشوه في الموقف، فزعم أن البرقية التي سلمها المعتمد لدائرة البرق لم تصل اليه إلاّ متأخرة وبعد الزحف، وجادله ساطع وقال له ان الملك على كل حال أرسل اليه جواباً يخبره بالقبول ووصل اليه، وأنه أرسل اليه جواباً يخبره بوصول جواب الملك، ولكنه قال ان ذلك لم يكن كافياً لأنه كان ينتظر جواباً بالتنفيذ وهذا تأخر عليه، وأنه لا يستطيع أن يوقف زحف الجيش إلا عند ماء ميسلون. ووافق على تأخير استمرار الزحف بعد ذلك بشرط أن تذيع الحكومة بياناً تعذره وتبرر زحف الجيش، وأن تباشر حالاً بجمع السلاح من أيدي مسرحي الجيش والأهالي، وأن تقبل فوراً ببعثة إفرنسية للإشراف على التنفيذ ونزع السلاح، والإشراف على شؤون الحكومة الإدارية والعسكرية والاقتصادية والتعليمية، وأن هذه الشروط الجديدة واجبة القبول حالاً، وأنها اذا لم تقبل وتنفذ جميعها فيكون له حرية التصرف.

ومما لا ريب فيه ان غورو لا يمكن إلا أن يكون عرف ان الحكومة السورية بدأت بالتنفيذ، فضلاً عن أنه استلم جواب فيصل يقيناً بالقبول، ولكنه استغل بلؤم ونذالة هلع الحكومة وانهيارها وتسريح الجيش وسحب القوات من مجدل عنجر وهدم تحصيناتها، فصمم على احتلال دمشق والقضاء على العهد الفيصلي، وقد عاد ساطع وهو مقتنع بذلك.

ومما لا أزال أذكره أن ساطعاً شكى من تصرفات رفيقه الألشي وارتاب في انه ضالع بشكل ما مع الافرنسيين (وقد ذكر ساطع هذا في كتابه يوم ميسلون الذي فيه تفصيل لمسألة الإنذار الافرنسي وتطوره ورحلته، بالاضافة الى ما فيه من نصوص كثيرة من البيانات والمذكرات التي مرت الاشارة اليها).

كلمة عن جميل الألشي:

وجميل الألشي هذا متخرج من الكلية الحربية العالية في زمن الدولة العثمانية أركان حرب، وكان ضابطاً في الجيش العثماني، وعهد اليه في أوائل الحرب في دمشق بتخريج ضباط احتياط شباب العرب المتخرجين من المدارس العالية وكانوا يسمون (الخدمة المقصورة)، وبعد دخول فيصل لدمشق اندمج في عهده. وكان ممن أرسلهم فيصل مع شكري الأيوبي الى بيروت في أول هذا العهد على ما ذكرناه قبل، وفي بيروت رأيته لأول مرة حينما ذهبت الى سراي الحكومة لمقابلة الدكتور أحمد قدري الذي كان هو الآخر جاء مع

الأيوبي، ثم رأيته بضع مرات في دمشق. ولم يقم بيننا تعارف ولا صداقة، وقد عينه فيصل معتمداً عسكرياً لدى السلطات الافرنسية في بيروت، وكان مع رفيق التميمي على ما ذكرناه سابقاً. ويبدو أنه صارت له صلات حسنة مع هذه السلطات، فكان ذلك مما جعل فيصل يرسله مع ساطع، وحسب ما ذكره ساطع في مذكراته وشكى أنه لم تكن هذه الصلات بريئة. ولقد ظهر مصداق هذا بعد الاحتلال الافرنسي حيث كان وزيراً للحربية في الوزارة التي عينها فيصل قبل مغادرته دمشق برئاسة علاء الدين الدروبي، حيث انسجمت وهو منها أشد انسجام في العهد الاحتلالي. ولما قتل علاء الدين الدروبي في حوران تألفت وزارة جديدة برئاسته بطلب ومباركة الافرنسيين، وانسجم معهم وظل يدور في فلكهم.

حادث تأخر برقية المعتمد الافرنسي الذي اتخذه غورو حجة:

ولقد كان أمر تلك البرقية التي زعم أنها لم تصل موضوع بحث وكلام، حتى لقد اتهم حسن الحكيم الذي كان مديراً عاماً للبرق والبريد بتأخيرها أو بإهمالها لأنه كان من الفريق الرافض للرضوخ والقائل بوجوب المقاومة والدفاع، وهو من حزب العهد على ما ذكرناه في كلمتنا عنه، وسحبت يده من العمل وجرى له محاكمة ظهرت فيها براءته، وتبين أن تأخر البرقية بسبب عطل في الخطوط، وفي مذكراته الجزء الأول شرح الحكيم هذه المسألة. وعلى كل فغورو كما قلنا لم يكن يجهل حتما أن الحكومة السورية قبلت إنذاره وبدأت بتنفيذ شروطه، ولكنه يعد لعبة البرقية لتنفيذ تصميمه الباقي والاستفادة من الانهيار بلؤم ونذالة كما قلنا قبل.

دعوة فيصل الى المقاومة والدفاع:

ولقد كان الملك حائراً خائراً، وفكر في الدفاع والمقاومة حينما رأى ما رأى من تعنت ومراوغة ولؤم غورو، ولكنه لم يلبث أن صدم بحقيقة إضاعته فرصة المقاومة الرسمية في تسرعه في تسريح الجيش وسحبه قوات مجدل عنجر وهدم لتحصيناتها، ثم النفور والفتور اللذان أحدثهما في الشعب وفي رجال المؤتمر والفتاة من قبول الإنذار، فعاد وأبرق لغورو يعلمه أنه قبل شروطه الجديدة أيضاً، ويناشده توقيف الزحف ومنع الكارثة، ولكن غورو لم يأبه لذلك واستمر في خطته لأنه صار على يقين بأنه مسيطر على الموقف.

وصول الجيش الافرنسي الى ميسلون:

وظل الجيش زاحفاً نحو ميسلون فوصل اليها وعسكر فيها، وأخذ يستعد للزحف على دمشق.

حركة المقاومة اليائسة:

وحينئذ أيقن الملك أنه أمام تصميم باغٍ فأذاع بياناً في 22 تموز 1920 على الشعب شرح فيه ما فعله في سبيل دفع الكارثة وما كان من تعنت القائد الافرنسي الذي صمم على دوس شرف الأمة، ودعا الشعب الى المقاومة والدفاع، واذاعت القيادة العامة للجيش منشوراً مماثلاً، وفعلت كذلك الحكومة. وبذل وزير الحربية جهده في تجميع المسرحين وتوزيع السلاح والعتاد عليهم وتوجيههم الى ميسلون، وأنشأ على وجه السرعة بعض الأجهزة الحربية والتموينية.

عزم يوسف العظمة على تضحية نفسه:

وذهب يوسف العظمة لتهيئة ما يمكن من اسباب المقاومة، وقد رأى الذين ودعهم وودعوه في هذه الرهبة عزم الموت بادياً عليه، حيث كان موقناً بأن المعركة خاسرة، ولكنه وقد كان أقوى الذين قالوا بالدفاع وإمكانه من رجال الحكم والجيش مدة ما، بل منفرداً عنهم في ذلك، أن شرفه العسكري والشخصي أصبح يطلب منه تضحيته بنفسه ليسجل بذلك مع من يضحون بأنفسهم من مواطنيه احتجاج الضعيف الصارخ على القوي الباغي.

الاتجاه الشعبي نحو ميسلون:

وأخذ المنادون ينادون الناس في الأسواق بوجوب الالتحاق بالجبهة، واستجاب كثير من الناس وأخذوا يتجهون الى ميسلون حاملين زواداتهم وبطانياتهم وأسلحتهم على اختلافها ومنها السيوف والسكاكين والمسدسات والبنادق، ومما أذكره أن الأمير زيد كان يتجول في سيارة في الشارع وفي جانبه شخص يهتف بالدعوة الى المقاومة وعلى فمه بوق كبير لتكبير الصوت، وكنت أسير في الشارع أنا ومعين الماضي فتوقف وقال لنا: «ها نحن قد نزلنا على رأيكم» فقلت له: «حسناً كان ذلك ولكن جاء متأخراً أو غير ذي جدوى بعد أن سرحتم الجيش وسحبتم قواتكم من مجدل عنجر وهدمتم تحصيناتهم قبل أن تتأكدوا من قبول الافرنسيين قبولكم للإنذار».

ذهابي لوزارة الحربية ووضع نفسي تحت تصرفها أداء للواجب:

ومما فعلته شخصياً أني ارتديت بدلة عسكرية وذهبت الى وزارة الدفاع ودخلت على يوسف العظمة قبل يوم من توجهه نحو الجبهة، وقلت له رغماً عما جرى فإني أضع نفسي تحت تصرفه لأكون قد أديت واجباً ما في المقاومة، فشكرني وأمر رئيس الشعبة الثانية واسمه شريف الحجار أن أكون معه في المخابرات، وفي اليوم الثاني أتوني بشخص من آل القباني البيروتيين اسمه هاشم على ما يرد لبالي قالوا إنهم قبضوا عليه في جبهة ميسلون ويشتبهون بأنه جاسوس للافرنسيين، وكان أشقر لا يزيد عمره عن 22 سنة، وكان يرتجف خوفاً، وسألته عن سبب وجوده في الجبهة فقال إنه جاء من بيروت منذ عشرة أيام لزيارة بعض أقاربه، وأنه ذهب مع الناس يرى ماذا في ميسلون وأخذ يحلف الايمان وهو يبكي على براءته، وأنه مسلم ولا يمكن أن يتجسس للافرنسيين الخ.. ودونت كلامه وأرجعته الى مكان توقيفه، ووصيت بعدم الاعتداء عليه وتأمين طعامه ومنامه بالحسنى، ثم كلمت شريف الحجار في صدده وقلت إني موقن ببراءته، وأن حب الاستطلاع ساقه الى الجبهة وأوقعه في الشبهة ثم أطلقنا سراحه. ولم أعرف أحداً من اخواني وزملائي في الفتاة والمؤتمر فعل ما فعلت، وكان ذلك واجباً أيقنت به منسجماً مع دعوتي الى المقاومة والدفاع، بعد أن دعي الى ذلك ولو كان متأخراً غير ذي جدوى.

نشاطي في لجنة التكاليف الحربية:

ومما كان من نشاطي في هذا الظرف العصيب أني كنت عضواً في لجنة شكلتها اللجنة الوطنية باقتراح من الحكومة باسم لجنة التكاليف الحربية، ومهمتها جمع الاعانات والسلاح والعتاد والملابس وامداد القوات الشعبية بما تحتاج اليه من ذلك، وقد اتخذت

اللجنة دائرة البلدية مركزاً لها وأخذت تنشط في مهمتها.

الصدام الأول بين الافرنسيين وقوة مجدل عنجر المنسحبة:

ولقد بدأ الصدام بين القوات العربية والقوات الافرنسية في 22 تموز 1920، حيث اشتبكت القوات العربية المنسحبة من مجدل عنجر نحو ميسلون مع قوات افرنسية في طريقها الى هذا الموقع، وجرى تبادل النيران بالمدافع والبنادق، وتكبد الطرفان بعض الخسائر، واستطاعت القوات العربية متابعة انسحابها الى ميسلون.

برقية فيصل الأخيرة لغورو بدون جواب:

ورغم مناشير الملك والحكومة والقيادة بدعوة الناس الى الدفاع والمقاومة، وبكلمة أخرى رغم كون حالة الحرب قد قامت بين سورية وفرنسة، ورغم البلاغ الحربي بحوادث الاشتباكات فإن الملك عاد يتمسك «بحبال الهوا» على حد المثل، فأرسل الى غورو في 23 تموز 1920 برقية يقول فيها: «نحن نأبى الحرب وقد قبلنا مطالبكم في مذكرتكم المؤرخة في 14 تموز ونفذنا كثيراً منها ونحن مستعدون لتنفيذ الباقي في الموعد المحدد، وأن قبول مطالبكم الجديدة يعرض البلاد لحرب أهلية ويجعلها مع الحكومة عرضة للهلاك». ولم يرسل غورو أي جواب، وظلت قواته تتقدم نحو ميسلون، وذهب يوسف العظمة لتنظيم المقاومة بقدر ما يمكن، وقد سرح الجيش وأصبح الأمر رهنا بمن أمكن جمعه من المسرحين وما جمع من سلاح وعتاد وما انضم اليهم من قوى شعبية متطوعة.

الاشتباك في ميسلون وتغلب الافرنسيين والخسائر في الطرفين واستشهاد يوسف العظمة مع آخرين:

وبمجرد وصول القوات الافرنسية الى ميسلون أخذت تطلق مدافعها على الحشود العربية، وكان ذلك في 24 تموز، فقابلتها القوات العربية بالنار، وكانت القوات الافرنسية تفوقها أضعافاً مضاعفة في العدد فضلاً عن تفوقها الكاسح في العتاد، واستطاعت أن تهزم الحشود العربية بعد اشتباك دام استطاع العرب أن يوقعوا به خسائر في العدو، وسقط منهم بالمقابل مئات من الشهداء وفي مقدمتهم قائدهم الباسل، فحققوا بشهادتهم ذلك الهدف الاحتجاجي النبيل، وكتبوا بدمائهم سطوراً من نور في تاريخ الحركة العربية والكرامة العربية.

الهرج والفوضى في دمشق:

ولم تلبث أخبار الكسرة المتوقعة أن انتشرت، والباقون أحياء من الحشود أخذوا يعودون الى دمشق في حالة محزنة، فساد الهرج والاضطراب وانطلقت الشائعات لتزيد الأعصاب توتراً والأفكار بلبلة.

اتجاه رجال العهد القوميين نحو درعا وانتظارهم للملك فيها:

24 ـ وفي هذه الأثناء كان كثير من رجال العهد القوميين رسميين وغير رسميين وسوريين وغير سوريين يغادرون دمشق على قطار أعد لهم متجهين نحو درعا، حيث كانت النية اتخاذ مركز هناك للحكومة والمقاومة، والاتجاه نحو شرق الأردن وإقامة حكم ومقاومة فيه، لأن سقوط دمشق أصبح مؤكداً.

توزيع جميل مردم بك بعض المال على أعضاء الفتاة قبل سفرهم:

وذهب عدد كبير من أعضاء الفتاة الى بيت جميل مردم قبل مغادرتهم لدمشق يطلبون منه بعض المال الموجود تحت يده من مال الجمعية وكنت معهم، وقد وزع فعلاً نحو ألفي جنيه عليهم، منهم من كان نصيبه أربعين ومنهم من كان نصيبه أقل، وأخذت أنا أربعين وضعت نصفها في البيت ونصفها في جيبي، وركبت القطار مع حقيبة ثياب مع الراكبين الى درعا حيث نزلنا فيها في انتظار الملك والنتائج.

خروج الملك وانتظاره في الكسوة:

وكان الملك قد خرج قبلنا على قطار خاص توقف في الكسوة مترقباً للحوادث، وقد رأيته جالساً قرب قطاره وحوله حاشيته حزيناً كئيباً، وتركناه في الكسوة ووصلنا الى درعا قبله، ولم يخرج معه من الوزراء إلا ساطع الحصري والدكتور الشهبندر.

استقالة الأتاسي وإسناد الرئاسة للدروبي وآخرين من المعتدلين الذين ترضى عنهم السلطات بأمل أن يكونوا وسيلة للتفاهم:

وقد رفع هاشم الأتاسي استقالته للملك قبل خروجه فقبلها، ورأى أن تتألف الوزارة من وزراء معتدلين قد ترضى عنهم السلطات الافرنسية فيكونون وسيلة تفاهم بينها وبينه، حيث كان لا يزال أمل في حين أن كل البوادر تدل على أن الأمر بالنسبة اليه وصل الى نهايته، وقد عين علاء الدين الدروبي رئيساً، وعين كلاً من عبد الرحمن اليوسف رئيساً لمجلس الشورى، وعطا الأيوبي للداخلية، وبديع المؤيد للمعارف، وجميل الألشي للحربية، وفارس الخوري للمالية، ويوسف الحكيم للزراعة، وجلال زهدي للعدلية، ومعظم هؤلاء كانوا من الفريق الذي يؤيد قبول الإنذار وتنفيذ المطالب الافرنسية. وقد أبقتها السلطات الافرنسية بعد احتلالها دمشق لمدة ما وانسجمت معها، ولكنها بطبيعة الحال لم تستطع أن تحقق ما أمله فيصل فيها لأن ذلك لم يكن وارداً، بل ونفذ رئيسها أمر السلطات بانذار فيصل في درعا على ما سوف نذكره.

دخول القوات الافرنسية لدمشق وبيان قائدها:

وقد دخلت القوات الافرنسية دمشق في 26 تموز، وأذاع قائدها بياناً قال فيه إن الأمير فيصل قد جر البلاد الى شفا الحرب والدمار، وأنه (أي القائد) قد فرض على سورية عشرة ملايين فرنك كغرامة حرب، وإنه سيباشر بنزع السلاح. ثم أرسل للحكومة السورية مذكرة طلب فيها المبادرة لدفع الغرامة وتسليم ما في مخازن الحكومة وأيدي الجنود السوريين من سلاح، وجمع عشرة آلاف بندقية من الأهالي، وتسليم كبار المذنبين ليحاكموا أمام محاكم عسكرية. وأجابت الحكومة على المذكرة وشرعت في تنفيذ المطلوب متعاونة في ذلك مع القوات الإفرنسية.

احتجاج الملك:

واحتج الملك على بيان قائد الحملة الى غورو، ثم أرسل مذكرة الى وزير خارجية بريطانيا والى اللورد اللنبي قائد الحلفاء يبلغهما ما وقع وما أذاعه قائد الحملة وما كان من تعنت مندوب فرنسة وسوء نياته وتصميمه على القضاء على استقلال سورية رغم قبوله بكل مطالبه وتنفيذها، ويقول فيما يقول فيها أن فرنسة تثأر

منه لموالاته الدائمة لبريطانية، وأنه ينتظر رأيهم ومشورتهم.

عودة الملك بأمل ما الى دمشق ثم مغادرته إياها بإنذار فرنسي:

وأرسل نوري السعيد الى غورو الذي كان في عاليه ليبذل آخر جهد يائس، وشاع أنه تلقى أخباراً مشجعة فعاد مع حاشيته من الكسوة الى دمشق على القطار الذي كان جاء عليه، ولكنه لم يلبث أن تلقى مذكرة من قائد الحملة بوجوب مغادرته لدمشق على قطار أعد له في صباح 28 تموز، وأنه لم يعد له أي صفة. وأرسل للقائد احتجاجاً قال فيه إن صفته وشرعيته منحها له ممثلو الشعب السوري، وأنه ليس من حق فرنسا ولا غيرها نزعها، وأن ما فعلته فرنسة كان خرقاً لمقررات مؤتمر السلم وميثاق عصبة الأمم، وعملاً غير عادل وليس له أي سند الا القوة الباغية الغاشمة المتفوقة.

ولكن لم يكن بد من مغادرة دمشق في الموعد المحدد، وجاء في المساء كثير من الناس فودعوه متأثرين يائسين، وكان الموعد المحدد الصباحي مبكراً جداً لئلا يكون له وداع حافل، ومع ذلك فقد جاء بعض الرجال البارزين فودعوه أيضاً، وقال لمن سألوه أنه ذاهب الآن الى درعاولا يعلم كيف تسير الأمور.

الذين أذكرهم ممن خرجوا الى درعا:

وجاء الى درعا حيث لبث فيها في قطاره فترة ما، وكان ينتظره فيها جل الذين خرجوا قبله من دمشق من رجال العهد وأعضاء المؤتمر والفتاة والأحزاب والحاشية الخاصة وبعض رجال الحكم، وممن أذكره ممن كان في درعا: أحمد مريود ونبيه العظمة ومعين الماضي والشيخ كامل القصاب وأمين التميمي ومحمد علي التميمي ورفيق التميمي والأمير عادل أرسلان ورشيد طليع والحاج أمين الحسيني وعارف العارف وسليم عبد الرحمن ورياض الصلح وخير الدين الزركلي والشيخ عبد القادر المظفر وصبحي الخضراء وفؤاد سليم وعثمان قاسم وعلي خلقي وعوني القضماني وشكري الطباع وعمر شاكر وعبد القادر سكر وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي وراسم سردست، وقد أكون نسيت أسماء أخرى. وكان مع الملك في قطاره أخوه الأمير زيد ونوري السعيد وإحسان الجابري وساطع الحصري والدكتور أحمد قدري والدكتور الشهبندر.

كانت النية في إقامة حكومة في درعا أو في شرق الأردن، ولكن إنذار الافرنسيين وانسجام الحكومة الدروبية وموقف بعض الحوارنة جعل الملك ينفض يده من البقاء ويتجه الى حيفا فأوروبا:

ولقد كانت النية كما قلت قبل، الإقامة في حوران أو شرق الأردن، وإقامة حكومة وطنية، وبذل الجهد لجمع الشباب واستئناف المقاومة. وقضينا ثلاثة أيام في درعا نأكل وننام في نادي الضباط والملك مع حاشيته في قطاره، وكان بعضنا يذهب الى القطار فيتحدث معه ومع الحاشية، وجاءت في اليوم الثالث طيارات فرنسية فحلقت فوق حوران وألقت مناشير تخاطب فيها أهالي حوران منذرة بعدم الاستجابة لأي دعوة فيها شغب ومقاومة حتى لا يتعرضوا لقصف وتدمير، وجاء بعض مشايخ حوران يخبرونه بذلك ويظهرون تخوفهم، وتجمع بعض الرعاع حول قطار الملك كأنما ينوون نهبه، وكانوا يظنون على ما يبدو أن فيه خزائن الملك المليئة بالذهب والفضة، ولعل

بعض العملاء أطمعوهم وحركوهم، وتصدى لهم آخرون وطردوهم، وجاء هؤلاء ومنهم محمد المفلح نائب درعا في المؤتمر الى الملك يعتذرون ويقولون إنهم طردوهم.

وفي هذا الموقف الشديد جاءت برقية من علاء الدين الدروبي للملك يقول فيها ان السلطة العسكرية تبلغ جلالتكم بوجوب الخروج من حوران، وتنذر أنها ستقصف قرى حوران بالقنابل اذا لم يغادرها. وهكذا تجمعت البوادر المرة وجعلت الملك أمام حالة لا خيار فيها، فأمر قطاره بالتحرك نحو حيفا في أول آب 1920، وودعه الموجودون في درعا وداعاً صامتاً حزيناً. ولقد اقترح عليه بعض رجاله الاتجاه نحو شرق الأردن ولم الشعث هناك. ولقد أرسل الملك الأمير عادل الى فلسطين للاستطلاع قبل تحرك قطاره، وأرسل هذا من فلسطين برقية يقول فيها إن المندوب السامي يرحب بقدومه الى فلسطين، وأنه مستعد لارسال قطار خاص له، وأن الحكومة الانكليزية تنصحه القدوم ثم الاتجاه الى اوروبا. وفي البرقية يقول الأمير عادل بأنه ينصح بالاتجاه نحو شرق الأردن، وأن الافرنسيين لن يأتوا اليه. ولكن الملك كان قد فقد الأمل في نفسه وفي الشعب فصمم الاتجاه نحو حيفا ثم الى اوروبا، وقد صحبه اليها ساطع الحصري وإحسان الجابري ونوري السعيد والأمير زيد.

تفرق الجمع من درعا نحو فلسطين وشرق الأردن ومصر وأوروبا:

وتفرق الجمع بعد رحيل الملك، فمنهم من اتجه نحو شرق الأردن، ومنهم من اتجه نحو فلسطين، وكنت أنا ومعظم الفلسطينيين ممن اتجهوا نحو فلسطين لأنه لم يكن هناك ما يخشونه باستثناء الحاج أمين وعارف العارف اللذين كانا محكومين بالسجن عشرة أعوام على ما ذكرناه قبل، حيث اتجها مع من اتجه الى شرق الأردن، وكان معظمهم من السوريين والعراقيين. وسافر بعض السوريين الى حيفا أيضاً، ومنهم من بقي في فلسطين، ومنهم من سافر الى مصر، ومنهم من سافر الى اوروبا. ولبث الملك في حيفا بضعة أيام ثم أبحر الى اوروبا ومعه من ذكرنا من الأعضاء.

وهكذا انتهى هذا العهد الذي دام نحو عشرين شهراً من أوائل تشرين الأول 1918 الى آخر تموز 1920، والذي بدأ والنفوس جياشة بعظام الآمال وانتهى وقد تحطمت تحطيماً موجعاً.

دخول غورو دمشق ووقفته أمام قبر صلاح الدين وتعليق عليها:

ولقد جاء غورو بعد أيام الى دمشق واستقبله رجال الحكومة وكثير من وجهاء الشام استقبالاً حسناً، ومشوا في ركابه، وسمعنا أنه جاء الى مقبرة صلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية العظيم وهتف قائلاً أمام القبر، إنا جئنا ثانية ولن نعود. وكأنما أراد أن يربط بين غزوته الباغية والغزوات الصليبية القديمة الباغية، ويجعل غزوته حلقة من حلقات هذه الغزوات مما ينطوي فيه من معان أليمة ووقاحة سمجة، وأنها من نفس الدوافع ضد الإسلام وبلاد العرب، وقد أبى الله إلا أن يخزي قومه في النهاية، وبعد ربع قرن، حيث خرجت فرنسة من سورية مدحورة مذمومة، وفرح المسلمون والعرب بنصر الله.

ذكر موقف مماثل لأللنبي في المناسبة :

ونذكر في هذه المناسبة ما نسب الى اللنبي

قائد الحلفاء بعد أن احتلت قواته القدس قوله: (الآن انتهت الحروب الصليبية)، حيث ربط هو الآخر غزوته بتلك الغزوات العدوانية التي انتصر المسلمون والعرب فيها في النهاية بعد كفاح دام مئتي سنة وطردوا الصليبيين، ويظهر من هذا وذاك روح العداء اللئيم والعدوان الشرير التي كانت تعمل في هذين القائدين واضرابهما، ولقد استطاع المسلمون والعرب أن يدحروا الانكليز والافرنسيين معاً من بلادهم في المشرق والمغرب في مدة لا تزيد عن أربعين عاماً بعد كلمتي القائدين الفاجرتين اللئيمتين، وسجلوا انتصارهم العادل، وردوا أقوالهم الباغية لهم، وبعد أن كانت فرنسا وبريطانيا الباغيتان امبراطوريتين عظيمتين، صفيت امبراطوريتهما ونزلتا الى أروقة ثانوية. واذا كان الانكليز قد غرسوا جرثومة الشر الخبيثة في جزء من بلادهم (فلسطين)، فقد كان ذلك على حساب صليبيتهم التي وقف قائدهم يقول ان حروبها انتهت بنصرهم، فقد دحروا عنها أيضاً وسجلوا على أنفسهم وصليبيتهم من جراء غرس تلك الجرثومة الخبيثة عار الأبد دينياً وسياسياً، ولسوف يجتثها المسلمون والعرب بدورها ويطهرون بلادهم منها مهما طال الزمن وعظمت التضحيات كما فعلوا بالغزوات الافرنسية البريطانية الحديثة والغزوات الصليبية القديمة والغزوة الاسرائيلية القديمة.

الأحكام التي أصدرها المجلس العسكري الافرنسي ضد القوميين:

وبعد بضعة أيام من الاحتلال اذيع بيان من المجلس العسكري للفرقة المحتلة فيه احكام الاعدام على كل من[1]: كامل القصاب وعلي خلقي وأحمد مريود والأمير محمود الفاعور وفؤاد سليم وصبحي الخضراء وصبحي بركات ومنح هارون وعوني القضماني وشكري الطباع وعمر شاكر وسليم عبد الرحمن وعمر بهلوان وعثمان قاسم وسعيد حيدر وعبد القادر سكر وخليل بكير وحسن رمضان وعادل ارسلان ومحمد اسماعيل ورشيد طليع وعوني عبد الهادي واحسان الجابري والدكتور أحمد قدري ورفيق التميمي[2] وتوفيق اليازجي ورياض الصلح وخير الدين الزركلي ومحمد علي التميمي وبهجة الشهابي ونبيه العظمة وشكري القوتلي وعيد الحلبي وياسين دياب وخالد الحكيم وصادق حمزة ومحمود احمد البزة ورياض محمد حسن فرحات وعبد المجيد البزة ومحمود فرح سليمان وموسى بورقيلي والشيخ عبد الله عز الدين وطرفة الحاج فياض شرارة ومحمد سويدان وأدهم خنجر وعلي حرب ومحمود قاسم وعبد الحسين سرور ونمر بلبوز ومحمد تامر وسعيد يوسف تامر، ومصادرة أملاكهم، وفيه حكم بنفي كل من كامل الأسعد وعبد الله الأسعد وحسن يوسف ونصر الله صعب والحاج محمد بري والسيد عبد الحسن شرف الدين ومصادرة أملاكهم، وقبض على كل من احمد اللحام وياسين الجابي وسليم طبنج وعبد الفتاح المدفعي وعارف الجراح وياسين الحواصلي ومحمد غضوب من ضباط الجيش السوري

(1) الاسماء منقولة من كتاب الثورة العربية الكبرى - أمين سعيد.

(2) ورد في كتاب «السجل الذهبي للمجاهدين السوريين» لمؤلفيه الياس الفاضل ورامز محيثاوي. تقديم صابر فلحوط، اسمنا ضمن المحكومين بالاعدام وقد ورد بعد اسم رفيق التميمي.

وأرسلوا منفيين الى أرواد. والأسماء مزيجة منها في المؤتمر وأعضاء في الفتاة واحزاب اخرى، ومنها اعضاء في اللجنة الوطنية، ومنها ما كان بارزاً سياسياً، ومنها من كان له نشاط شعبي، ومنها من كان له نشاط في حركات الكفاح المسلح في الشمال والغرب والجنوب. وهناك اسماء عديدة كان لأصحابها نشاط وبروز قوي ومواقف شديدة في الرفض وضد فرنسة لم ترد في البيان، ومنها اسمي واسماء معين الماضي وابراهيم هنانو والدكتور شهبندر والشيخ عبد القادر المظفر وغيرهم، وقد تكون سقطت أو سهي عنها.

من أهم أسباب الانهيار غدر فرنسا وبريطانيا بخاصة:

هذا وغني عن البيان أن زوال الحكم الاستقلالي الفيصلي يرجع في الدرجة الأولى وقبل كل شيء الى غدر بريطانيا وفرنسة وما يبيتاه للعرب وبلادهم وبلاد الشام خاصة من نيات استعمارية تسلطية، حيث جعلتهما تتنكران لكل القيم الأخلاقية، فتقطعان عهودهما ووعودهما للعرب أثناء الحرب، بينما كانتا تبيتان الغدر والخيانة لهم، مما جعل العرب يثقون بهم ويحاربون في صفوفهم ويبلون البلاء الحسن الذي ساهم على كل حال في النصر الذي أحرزاه مع حلفائهما في سبيل استقلالهم وحريتهم التي بدأوا الجهاد من أجلها في زمن الدولة العثمانية ونالهم ما نالهم من مطاردة وبلاء، وقدموا ما قدموه من تضحيات وشهداء. وقد استغلت بريطانيا وفرنسة ذلك وحملتا العرب على التحالف معهما من أجله، ولو أخلصتا بعض الاخلاص ووفيتا للعرب بعض الوفاء وجنحتا الى تبادل المنافع معهما كأصدقاء أحرار لا كأصدقاء عبيد مستعمرين، لما كانت هذه الفاجعة وما تبعها من فواجع ومآسي طيلة ربع قرن آخر، ومسؤولية الانكليز وجريمتهم أشد لأنهم استغلوا ثقة العرب وفيصل بهم تلك الثقة الكبرى الى ان كان معوّلاً عليه ألأم استغلال، واتخذوا منهم وسيلة مساومة لئيمة دنيئة، حتى اذا نالوا منهم مآربهم نبذوهم وقطعوا بهم الحبل، وأطلقوا يد فرنسة الباغية في سورية لتنطلق يدهم الباغية في العراق وفلسطين وشرق الأردن.

وعظم جريمة بريطانيا يتجلى أيضاً في كونها هي التي اتصلت بالعرب وأثارتهم وتعاهدت معهم ثم خانتهم قبل أن يجف مداد عهدها في ما كان من اتفاقها مع فرنسة بعد إتفاقها مع الشريف حسين على اقتسام بلاد الشام والعراق مناطق استعمار ونفوذ، وفي ما كان من اتفاقها مع اليهود بعد اتفاقها مع الشريف في منحهم فلسطين وطناً قومياً لهم، ثم فيما كان منها من مراوغات وانكار حينما عوتبت كذباً وخداعاً، ثم فيما كان من تحريض عهد فيصل على كراهية فرنسة ورفضها بكل شدة كوسيلة للضغط على فرنسة ونيلها منها مآربها.

أسباب الانهيار وعدم تنظيم قوة حربية كافية:

ومن الأسباب التي يمكن ان تذكر في هذا الصدد عدم الاهتمام الجدي لتنظيم القوة الحربية وتنميتها، بالإضافة الى الخطأ في تسريح القوة الثورية التي دخلت لدمشق مع فيصل. ولقد كان ياسين الهاشمي مسؤولاً عن هذا الأمر، وقد عهد اليه لما كان عليه من مقدرة عسكرية وجد وصرامة، ولكنه كان يعتذر بعدم توفر الامكانيات الكافية المالية والأداتية، فضلاً عن ضيق الوقت، حيث لم يكن في الإمكان في

ظرف بضعة اشهر انشاء وتنظيم جيش قوي ذي جدوى في عدده وعدته. لقد امكن في هذه الفترة تنظيم جيش قوامه (8000) رجل مقسم الى ثلاثة فرق ويملك (15000) بندقية وبعض المدافع، وكان هذا عملاً حسناً حقاً، ولكن العتاد كان قليلاً اولاً، ولم يكن في امكان هذا الجيش على كل حال ان يقف امام قوة متفوقة عليه تفوقاً كبيراً في كل شيء.

من أسباب الانهيار عدم تحلي فيصل اذ ذاك بالصفات المقتضية:

ومن الأسباب المهمة أيضاً عدم تحلي فيصل إذ ذاك بصفات الزعيم القوي الناضج الألمعي المؤمن بزعامته وقوته، والواثق بنفسه وشعبه، الحازم الرأي القادر على الإملاء الحاسم، والذي ينفخ فيمن حوله القوة والإيمان والحزم والإقدام، أو يحملهم على الفناء فيه، والإيضاح لما يقرر ويحسم. وكان التردد والشعور بالضعف والحاجة الى الغير وعدم الثقة بالشعب وإمكانياته، وعدم العمل الجاد في طريق ذلك، من الصفات التي كان يلمسها فيه الاصدقاء والأعداء معاً.

من أسباب الانهيار عدم نضوج رجال الحركة وهشاشة بنية الأمة العربية بفعل السبات الطويل:

ومن الأسباب التي يجب أن تذكر عدم النضوج في رجال الحركة والعهد، وكونهم دون مستوى الاحداث التي واجهوها وان لم يكونوا يتحملون تبعة كل ذلك، وانما يتحمل الزمن شيئاً كثيراً منه لأن الوقت الذي عبر بين سير الحركة وعهد التجربة الفيصلي كان قصيراً جداً لا يعقل ان ينتج فيه نضوج كاف يستطيع ان يضمن نجاح حركة أمة مفككة الأوصال موزعة الأهواء والأفكار والميول، فقيرة في كل شيء، مرتكسة في الجهل التام، مضى عليها قرابة الف عام وهي في سبات، فقدت فيه كيانها وخمدت حيويتها واستساغت تسلط الغير واندمجت فيه، ثم فوجئت بما فوجئت به من مختلف التيارات والدسائس والمؤامرات التي حاكها رجال دولتين عظيمتين لهما قدم ثابتة ويد نافذة في التلاعب بالأمم والأساليب الاستعمارية، وفقدتا كل حاسة تستمع للحق وتشعر بالشرف والوفاء والحياء، جنحت الى قضاء مصالحها عن طريق البغي والعدوان والتآمر، بدلاً عن طريق المنطق والصداقة والقصد.

ولقد كانت تثريبات من فيصل ومن وجهاء الشام ومن المعتدلين والمتهاودين من رجال العهد الفيصلي ضد الموقف الصلب الذي وقفته جبهة الرفض من الإنذار الافرنسي، ومنهم من اختص بالتثريب والمسؤولية جماعة الفتاة والاستقلاليين كما صاروا يسمون، وكان هذا التثريب في اثناء الأزمة هامساً واستمر الى ما بعد الغزو الإفرنسي، ولقد كان هذا في سياق الموقف الذي وقفته جبهة الرفض من اتفاقية كليمنصو، ولقد شرحنا ذلك وفندناه في سياق بحثنا في امر هذه الاتفاقية، وما قلناه هناك يقال هنا بتمامه رداً على التثريبات التي وجهت للرافضين ولجماعة الفتاة بخاصة، لأن الموقفين متماثلان وفي أمر واحد اصلاً ونتيجة. ولقد قلنا في سياق ردنا الأول ان الفتاة مع اعتزازها بموقفها لم تكن فيه وحدها، بل كانت أكثرية الأحزاب وأكثرية المؤتمر وأكثرية الرأي العام الشعبي. ولقد انسجم المثربون والمنتقدون فيه، بل وصار بعضهم متحمساً له واندمج بكل قوته، في إعلان الاستقلال الذي قدم بديلاً له.

ووقع بذلك المثربون في مناقضة صارخة على ما نبهنا عليه سابقاً، ولو لم تحل الكارثة ونجح البديل لكانوا انسجموا فيه ووقعوا في المناقضة الصارخة مرة اخرى. ولقد قبل فيصل وحكومته الإنذار ونفذوه ولم يمنعهم من هذا موقف الرفض الذي كان وظلّ موقفاً قومياً ونظرياً، ولم يكن هو الذي أدى الى الكارثة مباشرة، فصار التثريب في غير محله من هذه الناحية أيضاً.

* * *



سبعة وتسعون عاماً في الحياة

1305 ـ 1404هـ / 1887 ـ 1984م

مذكرات وتسجيلات

محمد عزة دروزة



الأحداث الخاصة والعامة المتنوعة التي عاشها صاحب المذكرات وأسهم فيها منذ انتهاء حقبة الملك فيصل بدمشق 1920 ولغاية 1936.

وممارساته لعمله في مديرية مدرسة النجاح ومأمورية الأوقاف في نابلس ومديرية الأوقاف العامة وانطباعاته عن شخصيات عديدة عايشها وتعامل معها أثناء هذه الفترة.



ـ مؤتمر نجد بين الملك عبد العزيز آل سعود والملك فيصل الأول ملك العراق. سنة 1923 ـ 1924.



ـ من اليمين : نبيه العظمة
وأحمد زكي باشا (الملقب بشيخ العروبة).



ـ الدكتور مصطفى بشناق في المؤتمر
الطبي العربي الأول المنعقد في القاهرة سنة 1928 .

1

عودتي إلى نابلس واستحضاري الاسرة من دمشق:

لقد عدت الى نابلس من دمشق في اواخر تموز 1920، واسترجعت ما كان عند الاقارب من أثاث البيت وفتحت البيت في حارة القسارية، ثم رجوت الحاج فتح الله بأن يسافر الى دمشق ويحضر الأسرة، وتم ذلك خلال أسبوعين أو ثلاثة واجتمع الشمل من جديد في أواخر آب. وقد أتت الاسرة ببعض أثاث دمشق وأعطت ما لم تستطع حمله ولا حاجة اليه لابن عمنا الراغب.

برّ شكري القوتلي بالأسرة في دمشق:

وقد قالت إن شكري القوتلي جاء إلى بيتنا في دمشق بعد سفري بأيام ليلاً وأعطاهم عشرين جنيهاً، فكان هذا وما كنت تركته معهم وافياً بالحاجة.

قصة إشاعات عبد اللطيف صلاح وعادل زعيتر عن أخذي دراهم لفلسطين:

ومنذ جئت لنابلس أخذ الإخوان والأصدقاء والأقارب يأتون للسلام عليّ، وأخذت أسمع منهم أن هناك إشاعة يشيعها عبد اللطيف صلاح وعادل زعيتر بأني قبضت مبالغ طائلة من الملك فيصل أو الحكومة لأجل الدعاية والحركة الوطنية في فلسطين، وأني لا بد من أن أكون قد احتفظت لنفسي بقسم كبير منها.

كتابهما لي وزعمهما أنهما سمعا ذلك من عوني عبد الهادي:

وما لبث عبد اللطيف وعادل أن أرسلا إليّ كتاباً يقولان فيه إنهما سمعا من عوني عبد الهادي أني استلمت لحساب فلسطين نحو ألف وخمسمائة جنيه، وأن هذا إذا كان صحيحاً فيجب علي تقديم حساب عن هذا المبلغ للجمعية.

كتابي لعوني وتلقي جواب منه ينفي ذلك:

فسارعت أولا الى كتابة رسالة إلى عوني عبد الهادي، وكان قد تخلف عن فيصل وبقي في حيفا، أسأله عن صحة ما عزي اليه، وجاءني جوابه وشيكاً ينفي فيه أنه قال لأي منهما أو لأي احد غيرهما أني قبضت مبالغ لحساب قضية فلسطين، كما ينفي أنه يكون سمع من الملك أو من أحد من رجال الحكومة، أو علم من أحد أو سمع من أحد أني قبضت أي مبلغ لحساب قضية فلسطين.

طلبي عقد اجتماع للجمعية ودعوة عادل وعبد اللطيف للمواجهة:

وطلبت من الحاج توفيق حماد رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية المتولية للحركة الوطنية في نابلس على ما ذكرته قبل، عقد اجتماع للجميعة الإسلامية المسيحية، ودعوة عبد اللطيف صلاح وعادل زعيتر لأواجههما أمام الجمعية ونحسم هذا الأمر. واستجاب الحاج توفيق لأن هذه المسألة كانت تدور على الألسنة ويجب حسمها، ولا سيما أني ما زلت رسمياً سكرتير الجمعية ولم يحل احد محلي أصالة، وأنا بعد مندوب الجمعية الى المؤتمر السوري، ودعا الجمعية ودعا عبد اللطيف وعادلاً.

انعقاد الجمعية وتخلف عادل وعبد اللطيف وشرحي الأمر للأعضاء:

وانعقد الاجتماع في ديوان حافظ آغا

طوقان، وكثيراً ما كانت تنعقد فيه اجتماعات الجمعية، ولم يحضر عبد اللطيف وعادل، فأطلعت أعضاء الجمعية على كتابهما اليّ وعلى جواب عوني، ثم شرحت للأعضاء مدى مهمتي وأني لم أكن قابض مال في أي ظرف، وإنما كنت أبلّغ أمين المال بدفع ما يجب دفعه لمن يجب له الدفع كتابة دون أن تمس يدي مالاً لأي جهة وشخص.

شرح دوافع عبد اللطيف وعادل وما كان من أمرهما في دمشق:

ثم قصصت عليهم الدافع لعبد اللطيف لإشاعة ما أشاع عني، ولقد كان تخرج من كلية حقوق الآستانة بتفوق وكان نشيطاً ذكياً فأهّله ذلك لإشغال مركز مهم في ديوان مجلس الأعيان في آخر العهد العثماني، وقد جاء الى دمشق بعد قيام العهد الفيصلي فأهمّني أمره والاستفادة منه، وسعينا في تعيينه رئيساً لديوان مجلس المديرين، واختلف مع الركابي رئيس المجلس ورئيس الحكومة، وهو، أي عبد اللطيف، مشاكس مجادل صعب الامتزاج، ثم أخذ يوسّع شقة الخلاف والتنافر اللذين كانا بين الركابي والهاشمي، واللذين ذكرناهما قبل، ولمس الرجلان أصابع عبد اللطيف وعاقباه بإنزال درجته، فعدَّ ذلك إهانة واستقال وذهب الى نابلس، وكنا قد ضممناه الى جميعة الفتاة حسب الخطة الخاطئة التي كنا نسير عليها، فسعينا من أجله واستطعنا ان نقنع مدير المعارف ساطع الحصري بتعيينه مديراً لمدرسة الحقوق، واستدعيناه فجاء واستلم العمل، غير أنه لم يلبث ان صار يقع بينه وبين ساطع خلاف ونشاز، ثم ثبت لساطع عدم صحة مزعمه رسمياً في حادث قبول يوسف ياسين طالباً في المدرسة، حيث كان هذا قدم أوراقه الثبوتية فرفضها لنقص ادّعاه في هذا، وشرح على الأوراق ذلك، وأخذ يوسف أوراقه وذهب بها الى ساطع وأثبت له أن شرح عبد اللطيف غير مطابق للحقيقة، وجاء ساطع بنفسه وفحص الأمر فوجده على ما قال يوسف وأن عبد اللطيف كان في تسجيله وشرحه مخالفاً للحقيقة، ورأى ساطع أن عقوبته على هذا هي العزل فعزله، ولقد سعيت أنا ورفيق التميمي لرتق الفتق مع ساطع فلم نوفق لأنه صلب عنيد فيما يراه من الحق، واعتبرها خطيئة لا يمكن التسامح فيها، ولكن عبد اللطيف، وقد كان يعرف ما لنا من قوة مركز ونفوذ، اعتقد أننا لم نبذل جهدنا في مسألته فحقد علينا. ولكنه في دمشق لم يستطع ان يفشّ صدره وحقده، باستثناء محاولات تافهة كلامية بالتآمر مع سليم عبد الرحمن، ويمكن أن يكون سمع من سليم او غيره من خصومي والحاقدين عليّ اني كنت أقبض مالاً باسم فلسطين، فجعله حقده يصدّق ما سمع، ولما عاد الى نابلس قبلي أخذ يشيع الإشاعة، وأراد ان يوثقها فعزاها الى عوني عبد الهادي الذي كان سكرتيراً للملك، ويصدق الناس بسهولة ما يقوله. اما عادل فلم يكن بيني وبينه خصومة وكان متأثراً بعبد اللطيف، ولعله رآني لامعاً في المؤتمر السوري وفي العهد الفيصلي فلم يستطيع هضم ذلك، فاستغله عبد اللطيف لمكانة أبيه في المدينة وجرّه معه. وقد شرحت كل ذلك لأعضاء الجمعية.

انتهاء القصة برفضها وتأييدي وعودتي إلى عضوية الجمعية وسكرتيرتها:

وأيدني في موقفي ابراهيم القاسم عبد الهادي الذي ظل في دمشق رفيقاً لي إلى ما

قبل سقوط العهد بقليل واثقاً بي ومنسجماً معي كل الانسجام، كما أيدني فريد العنبتاوي وحافظ طوقان ثم الحاج توفيق، وانتهت الجلسة بالحسم وطلب مني أن استأنف عضويتي وسكرتيريتي للجمعية. وعدت إلى بروزي ونشاطي في الحركة الوطنية في نابلس وفلسطين، وكان ما بلغته في دمشق من مركز وبروز وما اكتسبته من تجربة مما قوى حسن تقدير زملائي القدامى في الجمعية والحركة وزاد بروزي ونشاطي.

شيء من بوادر الجفاء التي قامت بيني وبين عبد اللطيف:

ولقد قام جفاء بيني وبين عبد اللطيف وعادل بسبب موقفهما وبخاصة عبد اللطيف الذي جر عادل جرّاً. واستمر الجفاء أمداً غير قصير، وكانت أحداث محلية تزيده، من ذلك بالنسبة لعبد اللطيف، كمعركة انتخابات المجلس الاسلامي الثانية سنة 1924، ولقد كان تزوج بنت الشيخ عمر زعيتر رئيس البلدية والرجل القوي الداهية في سنة 1921، وفي نفس النسة انشيء المجلس الإسلامي على ما سوف نزيد ذلك شرحاً بعد، فرشح صهره لعضويته عن لواء نابلس وأنجحه. وبسبب طبيعة المشاكسة المعقدة لم يكن انسجام بينه وبين رئيس المجلس الحاج أمين الحسيني وأعضائه الآخرين الحاج سعيد الشوا والشيخ محمد مراد وعبد الله الدجاني، وكان على الأعم الأغلب معارضاً ومخالفاً لقرارات المجلس، وكان كثير من المصالح في نابلس تتعطل بسبب ذلك، ومات الشيخ عمر سنة 1924، وفي نفس السنة تقرر إجراء إنتخابات جديدة للمجلس، فترشح لعضويته عن نابلس أمين التميمي وايدناه، أنا وأكثرية اعضاء الجمعية ومنهم حافظ آغا وفريد العنبتاوي والدكتور مصطفى بشناق وكامل هاشم، مع عدد كبير من رجال الأسر الأخرى، وألف عبد اللطيف، هو الآخر، جبهة مساندة له من اسرته وأصدقائه وعادل زعيتر وأصدقائهم، غير أن جبهتنا هي التي فازت وحصل مرشحنا على أكثرية الأصوات، وأقام عبد اللطيف دعوى ضد صحة إجراءات الانتخابات أمام محكمة العدل العليا، واستطاع ان يستصدر قراراً ببطلانها، ولم يكن إعادة الانتخابات ممكنة، فقررت الحكومة تعيين الاعضاء تعييناً، وقد احترمت رأي أكثرية ناخبي لواء نابلس فعينت أمين التميمي بديلاً منه في العضوية.

خفت حدة الجفاء وزيارة عبد اللطيف ومواساته لي:

ومع الوقت خفّت حدة الجفاء، فقد خرجت من نابلس مديراً عاماً للأوقاف الإسلامية في القدس سنة 1932، فزاد بعُدي عنها في خفة حدته أيضاً، ثم خرجت في سنة 1937 من فلسطين ولم اعد اليها طيلة 27 عاماً أخرى وأقمت في سورية، ثم هاجرت أثناء الحرب العالمية الثانية الى تركيا على ما سوف اشرحه بعد، فزاد ذلك في خفة حدته. ولقد جاء الى دمشق بعد عودتي من تركية في سنة 1946 وزارني واعتذر عما كان من مواقفه، وقال لي إنه يثق أني كنت في كل مواقفي شريفاً مخلصاً نزيهاً، وقد أخبرني زهير أنه جاء الى المستشفى الأميركاني في بيروت حينما دخلته في سنة 1948 لإجراء عملية جراحية في المرارة، وبقي معه ومع أقاربي واصدقاء آخرين مواسياً عطوفاً الى ان تمت العملية بنجاح. ثم زارني حينما استيقظت من المخدر بعد يوم أو يومين وكان ذلك آخر

عهدي به حيث مات في الستينات رحمة الله عليه.

شيء عن عبد اللطيف وصفاته ونشاطه:

وبالمناسبة أقول إنه كان نشيطاً دؤوباً، وقد اشتغل في المحاماة بعد تركه عضوية المجلس وكان محامياً لامعاً وناجحاً. وقد ألف أولاً حزباً في نابلس سماه حزب الأهالي ليواجه التكتل الثاني في نابلس الذي كنا أركانه. وكان قوامه اصدقاؤه وانصاره وأصهاره. وكان ينشط محلياً وسياسياً وكان قطب رحاه. ثم الف ثانية حزباً سياسياً آخر سماه حزب الكتلة الوطنية سنة 1933 من أصدقائه وأنصاره واصهاره في نابلس وخارجها، وكان ينشط بدوره مخلياً وسياسياً وكان قطب رحاه. وفي سنة 1936 اعلنت فلسطين إضرابها العام الطويل وتقرر قيام لجنة عربية عليا تمثل جميع الأحزاب للاشراف فدخلها عضواً ممثلاً لحزب الكتلة الوطنية، وقد مثلت في اللجنة حزب الاستقلال فكان بيننا تعاون دون جفاء، وهو يكبرني ببضع سنين.

شيء من بوادر الجفاء بيني وبين عادل:

وبالنسبة لعادل فقد كان حادث رئاسة بلدية نابلس مما زاد الجفاء بيننا لفترة ما. بعد أن ترشح للرئاسة بعد موت أبيه ليحل محله. وقد أيدت أنا ورفاقي الذين ذكرتهم وأصدقاء عديدون وجمهور كبير في نابلس، سليمان عبد الرزاق طوقان، وأيد عادلاً أصدقاء أبيه وصهره عبد اللطيف واصدقاؤه وانصاره، وكان الرجحان لدى الحكومة لسليمان حيث عينته. ثم جرت انتخابات للبلدية بعد ذلك، ونشطت الجبهتان كل منهما تؤيد قائمة، وكسبت قائمة سليمان دون قائمة عادل.

خفة الجفاء بيني وبين عادل وزيارته لي وشيء من نشاطه العلمي:

على أن الجفاء بيني وبين عادل لم يكن في اصله شديداً مثل ما كان بيني وبين عبد اللطيف، ثم أخذت تخف اكثر حينما بعدت أنا عن نابلس من جهة، وأخذ هو يتفرغ للتأليف والترجمة من جهة أخرى. ولقد جاء هو الأخر إلى دمشق بعد عودتي من تركية وزارني وحسنت الصلة بيني وبينه، وتوفي في الخمسينات رحمة الله عليه. وقد ترجم نحو اربعين كتاباً ونيفاً من عيون كتب العلم والثقافة عن اللغة الفرنسية، وغالبيتها من مؤلفات غوستاف لوبون، فخدم بذلك اللغة والثقافة العربية، خدمة جليلة خلدت إسمه. وقد كانت لغة الترجمة فصيحة جزلة نمت على رسوخ وعمق في اللغة العربية، بالاضافة إلى اللغة الافرنسية التي حذقها حين كان ذهب الى باريس بعد عودته من دمشق فانتسب لكلية الحقوق في جامعتها ونال إجازتها. وكان قبل تفرغه يشتغل في المحاماة ويكسب، وكان نزيهاً مستقيماً في عمله مع شيء من التزمت. ثم برم بالمحاماة لأنه رآها تحتاج الى أساليب لم يرد أن يسير فيها كما قال، وتفرغ للعلم والترجمة. وهو أصغر مني ببضع سنين. ولقد كان له نشاط مرموق ومواقف مشكورة في مختلف المناسبات، وقد تطوع في الدفاع عن الوطنيين في القضايا السياسية والوطنية 1929 و1930 و1931 فجلّى في ذلك، وكان له دفاع مجيد عن أخي محمد علي في تهم سياسية وطنية. وهو الذي دافع عن جميع سجناء ومعتقلي حوادث نابلس. وكان الانسجام والتعاون بيننا على أتمه، حتى أننا فكرنا في ضمه إلى

مؤسسي حزب الاستقلال. وقد اقيمت له حفلة تأبين عربية كبرى حضـرتها وفـود وخطبـاء من فلسطين والأقطار العربية نوهوا فيها بما كان عليه من خلق قويم ودأب وجهود في الحقلين العلمي والوطني رحمة الله عليه.

* * *



2 محـاولة الاشتغـال في التجارة لتأمين المعيشة:

ومنذ عودتي الى نابلس واجهتني مشكلة نفقة المعيشـة، لأن مـا بقي معي لا يكـاد يفـي بمصروف شهرين، وكان أخي محمد علي قد عاد من مصر في هذا الظرف ومعه مائتا جنيه هي رأس ماله في عملية البطيخ، ولم يكن قد ربح شيئاً فيها غير مصروفه مع ما قاسى من شدائد، وفكرنا في فتح محل تجاري عوداً على بدء ما كـان عليه ابي وجـدي وأعمامي، ولقـد كانت السلطات في بـدء الاحتلال حينمـا عـدت من بيروت عرضت علي أن أشتغل في منصب دائرة البريد فـرفضت لأني كنت متحمسا بـالحركـة الـوطنية العـربية، ووجـدت المجـال مـوجـوداً لنشاطي فيها، وحينما عدت ثانية من دمشق لم يكن اشتغالي في دائرة البريد واردا، وقد طلبنا من حافظ آغا طوقان، وكان ميسوراً، أن يقرضنا مبلغاً من المال مقابل رهن دارنا له لنضمه الى ما في يدنا فلم يستجب، ثم وجدنا في عزة عبده السجدي ونجيب وحمدي النابلسي ولدى أديب النابلسي ميلاً لعمل تجاري.

إنشاؤنا شركة تجارية ونشاطي عبرها:

فـاتفقنا معهم على إنشـاء شـركـة تجـاريـة برأسمال ألف جنيه، يدفع كل من الثلاثة مائتين وانـا وأخي معـاً مـائتين، وجـاء عبـد الـرزاق الغلاييني فانضم إليها بمائتين، على أن يكون الربح موزعاً بالتساوي على أشخاصنا الخمسة لا على أساس نسبة رأس المال، وقد استأجرنا في الشارع القبلي الغربي في جهة سوق الصاغة

والمصلبة محلاً، وكان ذلك في أواخر سنة 1920، وجعلنا العمل عاماً يتناول جميع الأصناف بالجملة والمفرق، وكان الناس لا يزالون نهمين لكل شيء، ولم يكونوا قد شبعوا مما كانوا في حاجة شديدة إليه من جراء الحرمان أيام الحرب الطويلة، كما أن الحالة التجارية لم تكن قد استقرت: ومما أذكره أن الإعداد لهذه العملية من جهة وعدم إمكانية تحملي نفقة إضافية من جهة اخرى منعاني من شهود المؤتمر الثالث الذي عقد في كانون الأول 1920. رغم دعوتي إليه وطبيعة وجودي فيه.

سفرتي التجارية إلى العريش:

وقد سرنا في العمل وصار اسم الشركة رائجاً والإقبال على ما في محلها حسناً، ولقد سافرت إلى العريش أنا وعزة عبده السجدي حيث كانت محطة من محطات البضاعة المصرية والأوروبية المعد للنقل إلى فلسطين أيضاً، فاشترينا أنواعاً عديدة منها دخان وتمر وأرز وأقمشة وصحون وأدوات طبخ ومائدة الخ . . .

سفرتي التجارية إلى مصر (القاهرة):

ثم سافرت بعد ذلك لأجل الشركة الى مصر، وهي أولى سفراتي اليها، وكان ذلك في شهر آذار 1921، وكان رفيقي عزة عبده السجدي أيضاً، وسافرنا بالقطار وكنا ملتزمين بالاقتصاد في النفقة، فنزلنا في فندق متواضع في سيدنا الحسين، ولم أستطع أن أزور كل المعالم المصرية والأثرية والسياحية التي يحسن رؤيتها فاقتصرت على بعضها، وكان معنا في هذه الرحلة الحاج فتح الله دروزة الذي سافر بدوره الى مصر لعمل تجاري مثلنا، وكان في مصر أصدقاء عديدون من العهد الفيصلي منهم الدكتور شهبندر وأسعد داغر ومحب الدين الخطيب والشيخ رشيد رضا وغيرهم فزرتهم.

وكنا نذهب من سيدنا الحسين الى محلات السهر في حي عابدين والأزبكية راكبين على حمير بيضاء معدة لتوصيل الناس بين الأحياء ومعتادة على الجري السريع، ولم يكن وسيلة مواصلات أخرى. وكان لنا بذلك متعة وفكاهة.

قدوم اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني وأنا في القاهرة لمقابلة شرشل:

ولقد جاءت ونحن في القاهرة اللجنة التنفيذية التي انتخبها المؤتمر الثالث الفلسطيني الذي انعقد في حيفا برئاسة موسى كاظم باشا، وكان فيها على ما اذكر الحاج توفيق حماد ومعين الماضي والشيخ سليمان التاجي الفاروقي وعارف باشا الدجاني وآخرون لم أعد أذكرهم، وكان قدومها الى القاهرة بمناسبة قدوم شرشل وزير المستعمرات البريطاني الى القاهرة لمواجهته وتقديم مذكرة له بالمطالب الفلسطينية التي قررها المؤتمر.

مؤتمر شرشل في القاهرة وأسبابه وحصيلته:

وكان تشرشل قد قدم لمصر في آذار 1921 ليرأس مؤتمراً لكبار الموظفين والقواد البريطانيين في مصر وفلسطين والعراق، لتركيز أمور الحكم في العراق وشرق الأردن بعد ان تقرر أن يكون لبريطانية الانتداب عليها، وكان القصد الحقيقي هو ترسيخ هيمنة بريطانيا على القطرين وتهدئة احوالهما المضطربة القلقة.

كان حصيلة المؤتمر تقرير إنشاء مملكة في العراق برئاسة فيصل ملكاً، وامارة في شرق الاردن برئاسة عبد الله أميراً. وقد توخى شرشل وحكومته بذلك إرضاء الهاشميين الذين كانوا منكسرين ناقمين بسبب غدر بريطانيا ونكثها في عهودها وتخليها عن فيصل في سورية واطلاق

يد فرنسة فيها مقابل موافقة هذه على هيمنة بريطانيا على شرق الأردن وفلسطين وجميع القطر العراقي على ما شرحناه قبل، وإظهار انهم وفوا بما قطعوه لهم من عهود ووعود.

اندماجي في اللجنة ونشاطها وحفلاتها:

وقد زرت اللجنة في فندق شبرد الذي كانت نازلة فيه، واندمجت فيها كأني من أهل البيت، وشهدت بعض اجتماعاتها والحفلات التي أقيمت لها.

مشهد ارتجال الشاعر الكاظمي لقصيدة ترحيبية بالوفد وشيء عنه:

ومما لا أزال أذكره أن الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي الذي يلقب بشاعر العرب، ارتجل في إحدى الحفلات بناء على إلحاح بعض الحاضرين قصيدة بليغة شيقة بالترحيب بالوفد وبتأييد القضية الفلسطينية والدعوة الى مساندتها، كان لها وقع كبير، وبلغ عدد أبياتها نحو أربعين، وكل أطواره تدل على أنه يرتجلها ارتجالاً بدون تحضير سابق، وعلمت بعد ذلك أن هذا يقع منه كثيراً. وله شعر جزل فصيح أنيق في القضايا الوطنية والعربية وكان شبه ضرير قصير القامة ذا لحية كثة بيضاء وعمامة مدورة، وكان يدخن اثناء ارتجاله وكان يعد كل بيت أثناء التصفيق.

مقابلة للجنة شرشل وجفاؤه:

ولقد قابلت اللجنة التنفيذية شرشل في مصر، وقدمت له مذكرة مسهبة في حقوق عرب فلسطين وجهادهم واحتجاجهم على وعد بلفور والحكم الإنكليزي المباشر ورفضهم للهجرة اليهودية، وطلبهم الحكم الوطني المستقل حسب ميثاقهم الجديد الذي قرروه في مؤتمر حيفا على ما سوف نذكره بعد، وقد كان شرشل فظاً جافياً حتى إنه لم يكن يريد مقابلة اللجنة، وحينما قابلها وقدمت له المذكرة قال إن سياسة بريطانية في فلسطين قد رسمت، وإن حقوق الفلسطينيين ستكون محفوظة، ثم قال إنه سيذهب الى فلسطين وسيقابل اللجنة هناك أيضاً.

ولقد جاء الى القدس بعد القاهرة وقابلته اللجنة مرة أخرى، وظل موقفه جافاً وقال انه سيوضع لفلسطين دستور جديد، وسوف يعرض على أهل فلسطين ويطلب رأيهم ومشاركتهم على أساسه. ولقد ظهر فيما بعد أن شرشل كان شديد الصهيونية شديد التأييد لمطالب اليهود بل لمطامعهم.

شيء عن المؤتمر الثالث الفلسطيني وأسبابه وميثاقه:

وعلى ذكر المؤتمر الثالث الفلسطيني اقول انه عقد كما قلت في حيفا في كانون الأول 1920، ولقد كانت فلسطين تعلق آمالاً كبيرة على عهد فيصل، فلما سقط ذهل أهلها واعتراهم شيء كثير من الحزن والخيبة والقلق والفتور، ولكن نشاط الصهيونيين وقيام حكم انكليزي مباشر على رأسه مندوب سام يهودي صهيوني هو هربرت صموئيل، الذي قام على رأس الإدارة المدنية التي قامت عقب توزيع الانتدابات في نيسان 1920، حرّكهم وجعلهم يتنادون الى عقد مؤتمرهم المذكور في حيفا، وسبب تسميته الثالث أن رجال الحركة قبل سقوط فيصل تنادوا الى عقد المؤتمر الثاني في القدس في مايس 1920 ليحتجوا على الانتداب الانكليزي ودمج وعد بلفور فيه الذي تم في نيسان 1920 في سان ريمو، فمنعت

الحكومة انعقاده بسبب المظاهرات التي قامت قبل اسبوعين في موسم النبي موسى، والتي خطب فيها الحاج أمين الحسيني وعارف العارف وموسى كاظم باشا، وأدت الى اشتباكات دامية بين العرب واليهود والبوليس على ما ذكرناه قبل أيضاً.

وقد عقد المؤتمر الثالث في حيفا برئاسة موسى كاظم وشهده نحو خمسين مندوباً عن الجمعيات الإسلامية والمسيحية، وقد غبت عنه رغم انتدابي من قبل الجميعة لأنه انعقد اثناء سفرتي الى العريش كما أسلفت، ومثل نابلس الحاج توفيق حماد وحافظ آغا طوقان والدكتور مصطفى البشناق، وكان الحاج أمين الحسيني قد عفي عنه وجاء الى فلسطين، فكان من جملة من اشتركوا فيه، وكان متطربشاً آنذاك، وقد وضع المؤتمر ميثاقاً جديداً عربياً لفلسطين مناسباً مع نتيجة سقوط العهد الفيصلي، يقوم على (رفض وعد بلفور، ورفض الهجرة اليهودية، ورفض انتقال الاراضي العربية بالشراء لليهود، وقيام حكم وطني دستوري مستقل). وقد ظل هذا الميثاق مرعياً إجمالاً في كل مراحل الصراع والحركة الوطنية الفلسطينية.

شيء عن الشيخ سليمان التاجي:

واسم الشيخ سليمان التاجي يرو لأول مرة، فنستطرد الى ذكر شيء عنه، ولا سيما أن فيه مشابهة للشاعر الذي ذكرنا خبره في البديهة والعبقرية. ولقد شغل جزءاً غير يسير في تاريخ حركة فلسطين الوطنية وصار من مشهوري رجالها. ولقد كان ضريراً ولكنه كان مختزناً في ذاكرته كثيراً من المعارف الدينية والتاريخية والاجتماعية والأدبية، وكان شاعراً وكاتباً وخطيباً، ولقد قرأت له فيما بعد شعراً قومياً قوياً في إبان اشتداد التشاد بين الترك والعرب، بل وشعراً قوياً في استبداد السلطان عبد الحميد الثاني وفساد حكمه وحكومته قبل إعلان الدستور العثماني. ولقد سمعته أكثر من مرة يخطب ويحاضر في مواضيع سياسية واجتماعية ويطول كلامه أحياناً ساعة، فكان يتدفق بكلام قوي في معناه ومبناه. ولقد أصدر جريدة في يافا سماها (الجامعة الاسلامية)، فكن يملي افتتاحياتها اليومية في مواضيع الساعة ومواضيع سياسية واجتماعية أخرى بكلام قوي في المعنى والمبنى أيضاً. [ولقد قرأت في كتاب (صدى الصهيونية) 1908 ـ 1918 للدكتورة خيريّة قاسمية أخبار نشاط كبير له في زمن الدولة العثمانية ضد الصهيونية والمطامع اليهودية، ودعا إلى تأسيس حزب وطني بسبيل ذلك، بل وذكرت أنه أنشأه، حيث يدلّ كل ذلك على ما كان اختزنه من معارف واسعة متنوعة سياسية واجتماعية وتاريخية وأدبية، وما كان له من نشاط ومشاركات في مختلف الشؤون العامة منذ عهد شبابه]. ولقد علمت أن مذكرة اللجنة التنفيذية المسهبة التي قدمت لشرشل كانت من إملائه، حيث يدل هذا على ما كان من تضلعه في القضية الفلسطينية وأبعادها منذ ذلك العهد.

وأول مرة رأيته في القاهرة حينما جاء مع اللجنة التنفيذية، ويمكن أن يكون متجاوزاً الأربعين. ثم رأيته مراراً في مناسبات مختلفة، وكان له أولاد في مدرسة النجاح التي توليت مديريتها في سني 1922 ـ 1927، فكان يزور المدرسة، وقام بيني وبينه معرفة ومودة وإن لم تصل الى صداقة حميمة.

وكان قوي الشخصية معتداً بنفسه ورأيه، يحب الثناء والبروز والإصرار على ما يكتب ويقول الى درجة الإبرام والإثارة، وكان له

مواقف متناقضة ساءت للقضية الوطنية رغم أنه وطني ومخلص، نتيجة لتلك الصفات، ولقد كان في المؤتمر الخامس الفلسطيني الذي انعقد في نابلس على ما سوف نشرحه بعد، متشدداً في وجوب إعلان رفض أي تساهل مع الانكليز وإحباط محاولاتهم لاستدراج أهل فلسطين لقبول صك الانتداب والاندماج في حكومة عن طريق المجلس التشريعي، حتى إنه هو الذي كتب القسم الذي ردده المؤتمرون على ذلك، ثم ما لبث بعد قليل أن انحاز الى الجماعات الموالية للانكليز التي كانت تدعو الى التساهل والمسايرة، وترأس مؤتمراً لهم ضد تشدد اللجنة التنفيذية التي انبثقت عن ذلك المؤتمر وقادت حركة المقاطعة للدستور الفلسطيني والمجلس التشريعي لأنه لم ينتخب عضواً فيها، وقد أدى ذلك الى نشوء حزب معارض للجبهة الوطنية الكبرى التي كانت اللجنة التنفيذية تمثلها، سمي الحزب الوطني، حيث أغري بالرئاسة له. وكان ذلك تدشيناً للانشقاق في الحركة الوطنية مؤدياً الى ضعفها في السنوات التالية مع أسباب أخرى، وكان له موقف مماثل في سنة 1948، فقد عقد مؤتمر وطني فلسطيني في غزة قرر إعلان فلسطين دولة واحدة، وإنشاء حكومة عموم فلسطين كعمل مضاد لقيام الدولة اليهودية في جزء من فلسطين استناداً الى قرار هيئة الأمم عام 1947، وفي أثناء هدنة معقودة بين العرب واليهود. وكان قطاع غزة تحت احتلال الجيش المصري، وأثار قرار مؤتمر غزة الملك عبد الله الذي كان يترسم ضم الضفة الغربية الى مملكته بناء على اتفاقات سابقة بينه وبين اليهود والانكليز، فدعا مواليه الى عقد مؤتمر في اريحا، وأغرى الشيخ برئاسته فترأسه، وتقرر فيه رفض قرارات مؤتمر غزة، وكان ذلك عملاً غير وطني، لأن ما قرره مؤتمر غزة كان بإيعاز وموافقة أكثرية دول الجامعة العربية بقصد ابراز القضية الفلسطينية واناطة أمرها بالفلسطينيين، ولو لم يركب الملك رأسه ويجد له عملاء من الفلسطينيين يجارونه في نزوته، واندمج مع دول الجامعة في إقرار ذلك، لكانت دولة فلسطين العربية قامت منذ ذلك الوقت.

ولقد كان الشيخ سليمان ميسورا، حيث كان له بيارة يعيش من إيرادها، وقد استولى اليهود عليها حينما استولوا على منطقتي اللد والرملة، فنزح الى عمان وعينه الملك عبد الله عضواً في مجلس الأعيان، وساءت حالته المادية كثيراً في آخر حياته الذي كان في الستينات رحمه الله وغفر له.

وأعود إلى سياق رحلتي التجارية الى مصر، فأقول اننا تسوقنا منها بضائع متنوعة وشحناها في القطار. وكان المخزن الذي أنشأناه بمثابة سوق عامة فيها كل شيء، وكان الإقبال حسناً وكنت أنا أتولى الحسابات والإدارة، ومع ذلك فلم يكن ربح الألف جنيه الرأس المال ضامناً لنفقة الشركاء الخمسة، وكنت أنا وأخي الأشد حاجة والأكثر نفقة وليس لنا مورد آخر، وهكذا صرنا نأكل من رأسمالنا الزهيد.

رحلتي الى عمان استجابة لكتاب جاءني به الشيخ كامل القصاب:

وفي هذه الأثناء جاءني كتاب من الشيخ كامل القصاب من عمان يدعوني الى القدوم الى عمان والانضمام الى الإخوان من رجال العهد الفيصلي والحركة القومية للنظر في الخطط والخطوات المقتضية لمصلحة القضية العربية، وكنت سمعت قبل قليل أن الأمير عبد الله النجل الثاني للشريف حسين قد قدم الى عمان، وأن

رجال الحركة العربية ينشطون في سبيل القضية معه، فرأيت من واجبي الاستجابة للدعوة، فتركت أخي ينشط مع شركائه ويرعى الأسرة، وأخذت بعض المال وسافرت الى عمان أوائل مايس 1921.

تعثر الشركة وحلها وتعيين أخي مديراً لمدرسة وقفية:

ولقد استمرت الشركة مدة قصيرة، ثم أخذت تتعثر بسبب قلة رأس المال وكثرة الشركاء وعدم كفاية الربح لنفقاتهم، فقرروا حلها وأنا في عمان، وقد بقي لنا من رأس المال نحو مائة جنيه. وفي هذه الأثناء استطاع أخي أن ينجح في فحص أهلية التعليم وينال إجازة بذلك، وكان في نابلس مدرسة ابتدائية ينفق عليها من مال ما يسمى «الأوقاف المندرسة» (أي الأوقاف التي اندرس الموقوف عليها)، وقد خصص هذا المال من زمن الدولة العثمانية على المدارس، وكانت المدرسة تحت إشراف لجنة محلية ولم يكن لها مدير صالح، فتقدم أخي لهذه الوظيفة وحصل عِليها، وكانت هذه المدرسة واسمها «مدرسة العرفان» في بناية قرب بيت النابلسي الذي يقع في الحوش المسمى حوش الشيطان قرب حمام بيدرة وكان مرتبها ستة دنانير، وكان هذا المبلغ في هذا الظرف لا بأس به. وقد عينت أنا الاخر، بعد قليل، مديراً لمدرسة النجاح بمرتب ثمانية عشر ديناراً على ما سوف أشرحه بعد، وهكذا يسر اللّه أمر معيشة الأسرة في حالة متوسطة والحمد له في كل الأحوال.

***

3

عن أحوال منطقة شرق الأردن بعد سقوط عهد فيصل:

وقبل أن أحكي ما جرى معي في عمان أرى أن أعطي للقارىء صورة عن أحوال شرق الأردن في هذا الظرف، فقد صارت هذه المنطقة في بلبلة وفوضى بعد سقوط العهد الفيصلي في دمشق الذي كانت تابعة له، ولم يعد الافرنسيون حدود حوران إليها، حيث كان تم الاتفاق بينهم وبين الانكليز على فك ارتباط شرق الأردن بسورية وغدوّه تحت هيمنة الأخيرين على ما ذكرنا قبل، ولقد أرسل الإنكليز ضباطاً جاسوا خلال الديار وتفاهموا مع زعماء قبائلها ومدنها، وشجعوهم على إنشاء حكومات محلية، فقامت حكومات محلية عديدة عشائرية كانوا هم وراءها، ولكن الأمور لم تستقر، ولم يمكن فرض سلطان نافذ عليها إلا في السلط، حيث كان متصرفها المعين من الحكومة الفيصلية مظهر رسلان استطاع أن يفرض هيبته، وقد اتصل به الإنكليز وتفاهموا معه على أن يبقى في السلطة.

زيارة المندوب السامي للسلط وخطابه:

ولقد زار المندوب السامي الانكليزي لفلسطين وهو هربرت صموئيل، السلط في 21 آب 1920، وخطب في جمع من أهالي المنطقة، وقال فيما قال إن عدداً كبيراً من مشايخ وأعيان شرق الأردن زاروه وكتبوا اليه وطلبوا توسيع نطاق إدارة الحكم الانكليز الفلسطيني للمنطقة، وأن فرنسا لا تروم التعرض لها، ولذلك فصلت عن سورية، ولا تريد

بـريطانيـا أن تضمها الى فلسـطين، ونريـد أن يحكم أهلها أنفسهم بأنفسهم، وأن تسـاعدهم فقط على تركيز أمورهم والدفـاع عن المنطقـة وتنمية الحركة الاقتصاديـة والتجاريـة، ويكون الموظفون منهم مع عدد قليل من ضباط انكليز يعرفون اللغة العربية للمساعدة والإرشاد[1].

وممـا سمعته أن زعيمـاً أردنيـاً اسمـه أديب الكايد وكـان من نبهاء زعمـاء المنطقـة، وقف معلقـاً على خطبـة المنـدوب السـامي، وقـال بأسلوب ساخر إن الاستقلال أصبح كما يـظهر بالقرعة والحظ مهما كان في ذلك من تناقض، ففلسطين وسورية ولبنان أرقى في كل شيء من شرق الأردن فصارت تحت هيمنـة استعماريـة بحتة، وشرق الأردن يقال انها ستكون مستقلة تحكم نفسها بنفسها، وكانت نكتة لاذعة تداولها الناس. وقد قامت نتيجة لـذلك وتحت هيمنـة ضبـاط انكليـز مـرتبـطين بـالمنـدوب السـامي لفلسطين ثلاث حكـومات في كـل من السـلط وعجلون والكـرك، غيـر أن الأمـور لم تستقـر تماما.

قدوم الأمير عبد الله ومنشوراته وتصريحاته في معان وتعليق عليه وقدومه الى عمان:

وفي هذه الأثناء قدم الأمير عبد الله الى معان في أواخر تشرين الثاني 1920، معلناً أنه جاء بأمر والده وبناء علي استغاثة السـوريين لأجل إنقاذ سورية من المغتصبين الإفرنسيين وإعـادة استقلالها وحريتها المسلوبين، وأنـه جاء نيـابة عن أخيه فيصل. وأذاع بياناً موجهاً للسـوريين يذكر فيه أنه جاء للجهاد في سبيل ذلك، ويطلب منهم الالتفاف حوله[1]. ودعا أعضـاء المؤتمر السوري وضباط وجنود الجيش السوري للاتفاق على خطة الجهاد والعمل، ولقد قـوبل قـدوم عبد الله وبيانـاته بحمـاس وأمل، وأخـذ رجال سورية المحتشدون في عمان يذهبون الى معان حيث أقام فيها كمحطة أولى فترة ما، يرحبون به ويعلنون له استعدادهم للعمل معـه، ويدعـونه الى عمان لأنها متوسطة وقريبة أكثر الى العالم، غير أن حماسه لم يلبث أن فتر، وصار يشكو قلة المال ويطلب من الناس مساعدته، حتى لقـد أشفق عليه عودة أبو تايه الزعيم البدوي المشهور وأعطاه ثلاثة آلاف جنيه وكمية كبيرة من تنكات السمن، ولم يكن معه حينما جاء رجال الحرب والقتال، وإنما بعض اتباع ورفاق، الأمر الذي أثار حيرة الناس وتساؤلهم.

ولقد قلق الإفرنسيون من قدومه وتصريحاته، وراجعـوا الإنكليـز واتهمـوهم بـأنـه جـاء بتشجيعهم، مما حمل هؤلاء على إذاعـة بيان ينفون فيه رضـاهـم عن حركـات وتصريحـات الأميـر، ويحذرون تصـديق عـزو قـدومـه الى تشجيعهم وعلمهم وترتيبهم. وشاع فيما شاع أن والده أرسل اليه برقية ينصحه فيها بعدم العتو في الحركات والتصريحات. وأن أخاه فيصل أرسل اليه برقية بمثل ذلك. ومما كان أن مظهر رسلان متصـرف السلط الـذي اعتبـر نفسـه حـاكم

---

(1) في الجزء الثالث من كتاب الثورة لأمين سعيد نص هذا الخطاب ونص كتاب أرسله المندوب السامي (لصاحب السمو الملكي الأمير فيصل) مؤرخ في 16 آب أي في الظرف الذي اتجه فيه من حيفا الى اوروبا بعد خروجه من دمشق يخبره به بما جاء في خطابه من قدوم زعماء وكتابة زعماء من أهل المنطقة اليه وجوابه لهم. وبعد ارساله هذا الكتاب جاء الى السلط وخطب خطبته وقد أثار عجبنا مفارقات الإنكليز، فهم يعترفون بفيصل حاكماً لشرق الأردن استمراراً لحكم سورية، ويخبرونه بما جرى وبما يريدون أن يفعلوه، وقد ضربوه بغدرهم تلك الضربة اللئيمة الحاطمة.

(1) البيان في مذكرات الأمير عبد الله ص 153 وبعدها.

المنطقة، لأن حكومته هي التي استمسكت أكثر من غيرها وعطف الانكليز عليه وعليها، أرسل الى الأمير رسالة قال له فيها انه علم بعزمه على المجيء الى عمان، فإن كان ذلك للسياحة والزيارة فمرحباً وإلا فلسوف يمنعه. ولمح الناس من هذه الرسالة التي عرفوا أمرها وسيلة انكليزية للضغط على الأمير وتهدئته وحمله على الاعتدال. ومع ذلك ظل الأمير يراود رجال سورية في عمان، فأرسلوا اليه وفداً يدعونه الى عمان. ومن عجيب ما كان أن مظهر رسلان انضم الى هذا الوفد، حيث جعل ذلك الناس يرون اصبع الانكليز أيضاً، وكان ذلك في أواخر شباط 1921. وفي الوقت الذي أخذت الحكومة الإنكليزية تفكر في تركيز أمور العراق وشرق الأردن، ويتهيأ شرشل للقدوم الى القاهرة وعقد مؤتمر مع كبار موظفي الإنكليز وقوادهم في مصر وفلسطين والعراق، ثم تم اتخاذ القرارات التي ذكرناها سابقاً بإنشاء مملكة في العراق ملكها فيصل، وإمارة شرق الأردن أميرها عبد الله، حيث ربط الناس كل ذلك ببعضه، ومنهم من خمن أن تحرك عبد الله من مكة كان مرتبطاً بذلك أيضاً، وأن ما أظهره من حماس وأذاعه من منشورات وأدلى به من تصريحات كان للاستهلاك والتغطية. ولقد جعل وفد سورية الذي فيه مظهر رسلان الأمير يطمئن ويأتي الى عمان، وكان ذلك في أول شهر آذار 1921. ولقد استمر في حركاته الاستهلاكية وتغطياته، حيث أخذ يستقبل الناس ويبدي حماساً واستعداداً للعمل بشرط أن يمنحوه السمع والطاعة ويبايعوه ويتابعوه في خطواته مهما كانت[1]، وقضى نحو ثلاثة أسابيع مترفعا مستمراً في ذلك دون عمل جدي ما، حتى جاء شرشل الى القدس في أواخر آذار.

دعوة عبد الله الى القدس ومقابلة شرشل وما جرى في هذه المقابلة:

أرسل المندوب السامي اليه دعوة لمقابلته، فسارع الى القدس وقابله، فأخبره شرشل بقرار مؤتمر القاهرة بإنشاء إمارة عربية في شرق الأردن ويتولى هو رئاستها وتكون مستقلة استقلالاً إدارياً، وتسترشد بآراء وتوجيهات مندوب سام انكليزي، يساعده بعض ضباط خبراء لتنظيم شؤون الحكم والدفاع، على أن يتعهد بعدم التحرش بحدود الانتداب الإفرنسي، وبعدم السماح لأحد بذلك، وعدم السماح بأي حركة ضد فلسطين، وأن يوافق على إنشاء قاعدتين للطيران الانكليزي واحدة في عمان وأخرى في الكرك، وروي فيما روي أن شرشل وعد الأمير إذا أحسن جواره ونياته نحو فرنسة بالسعي لديها لإعادة نظرها في أمر سورية واحتمال عودة استقلالها تحت تاجه، وفي حملها على إصدار عفو عام عن الذين حكمت عليهم بالإعدام من رجال سورية، وقد عرف فيما بعد أن المندوب السامي الانكليزي في الأردن سيكون تابعاً للمندوب السامي في فلسطين. وقد قبل الأمير بكل ما طلب منه متناسياً كل ما كان منه من حماس وما علقه الناس على قدومه وتصريحاته من آمال، وربط الناس بين هذه النتيجة وبين ما خمنوه من اصبع الانكليز أصلا في تحركه ثم في هدوءه. وقد روي فيما روي أن الأمير تضاءل تضاؤلاً عجيباً أمام تشرشل، حتى لقد قال له إن بريطانية تستطيع أن تنظر اليه بنظر موظف أمين على مصالحها، وأن تثق به كل الثقة، وأنه سوف يبذل جهده لإثبات ما يقول ولقد أثبت

(1) في كتاب عامان في عمان للزركلي نماذج من خطبه وأقواله في هذا الظرف.

ذلك فعلاً.

ومما أذكره وكان له ضجة ووقع أليم، أن أهل القدس وعلى رأسهم موسى كاظم وكبار شيوخها ورجالها احتشدوا خارج القدس لاستقبال الأمير حينما علموا أنه قادم للاجتماع بشرشل، ولكن ضابطاً إنكليزياً كان يرافق الأمير في سيارته أمر السائق بعدم التوقف عند الحشود وأن يستمر في سيره، وكان الأمر كذلك، وعاد الناس ناقمين متألمين وقد قرؤوا الكتاب من عنوانه.

حكومة المستشارين في عمان:

وبعد رجوع الأمير من القدس باشر بتأليف حكومة سماها مجلس مستشارين برئاسة رشيد طليع يكون فيها الأمير زيد بن شاكر، وهو من الشرفاء الذين جاؤوا مع الأمير، مستشار أمور العشائر، يعاونه أحمد مريود، وأمين التميمي مستشاراً للداخلية ومتصرفاً للواء عجلون معاً، وحسن الحكيم مستشاراً للمالية، ومظهر رسلان مستشاراً للعدلية والصحة والمعارف، وعلي خلقي وهو ضابط أردني كبير مستشاراً للأمن والانضباط، وغالب الشعلان وهو ضابط سوري كبير مستشاراً للقيادة العامة. وعين الأمير عوني عبد الهادي سكرتيراً له ورئيساً لديوانه، والأمير عادل أرسلان مستشاراً سياسياً له، وخير الدين الزركلي رئيساً لديوان مجلس المستشارين ومفتشاً للمعارف. ومما أذكره أن نبيه العظمة عين متصرفاً لعجلون. ولعل ذلك كان بعد انسحاب أمين التميمي، لأن هذا لم يبق في عمان إلا نحو شهر ثم عاد الى فلسطين، لأن المؤتمر الفلسطيني الرابع اختاره عضواً في الوفد الذي قرر إيفاده الى لندن على ما سوف نذكر بعد، وقد رتبت الحكومة الانكليزية للإمارة إعانة شهرية مقدارها ثلاثون ألف جنيه رفع فيما بعد الى ستين ألفاً.

تعاون القوميين مع عبد الله في البداية وأملهم وخيبة أملهم وخلافهم:

ويظهر أن رجال سورية القوميين ظلوا يأملون تطوراً إيجابياً من قيام إمارة عربية في شرق الأردن، فقبلوا التعاون مع الأمير برغم خضوع الأمير والإمارة بصراحة للانتداب والإحتلال الإنكليزي.

قدومي الى عمان:

بعد هذه الصورة الاجمالية عن أحوال شرق الأردن وعمان في الظروف التي دعيت فيها الى السفر الى عمان، أقول إن سفري كان بعد أن تمت مقابلة شرشل مع الأمير عبد الله، وتبليغ الأول للثاني بما تقرر وأخذه العهد عليه وتأليف حكومة المستشارين الأولى. وفي ظرف كان الإخوان كما قلنا ما زالوا يأملون تطوراً إيجابياً في نشاط الأمير وحالة شرق الأردن، حيث رأى الشيخ كامل وغيره من الإخوان ضرورة وفائدة وجودي بينهم لما كان لي من مكانة ونشاط في العهد الفيصلي، وأرسل لي الشيخ كتابه بإسمه واسمهم معاً، ولقد كان قد تجمع في عمان حشد كبير من الإخوان من الفتاة والأحزاب الأخرى الذين خرجنا وإياهم قبل سقوط دمشق، وذكرت أسماءهم في مناسبة سابقة، وجاء من دمشق آخرون أيضاً بعد سقوطها. فكان لي فرصة جديدة باللقاء الأخوي مع كثير منهم ممن كانت تربطني بهم صداقة وثيقة أو معرفة ومودة.

حالة عمان حينما جئتها:

ولم تكن عمان قد تغيرت عما كانت عليه حينما مررت بها قبل ست سنين في طريقي الى

مأدبا على ما ذكرت سابقاً، حيث ظلت قرية كبيرة لا يكاد يوجد فيها عشر بنايات وعشرة مخازن من الحجر والباقي بيوت من اللبن ومخازن من خشب ولبن، ومعظم أهلها من الشركس، وفيها بعض الدمشقيين والنابلسيين يتعاطون التجارة والأعمال الأخرى.

سراداقات الأمير في ماركا وحياته وشيء من صفاته وسيرته في الأردن:

وقد نصب للأمير سرادقات في هضبة مرتفعة تسمى (ماركا)، يجلس في بعضها فيستقبل ضيوفه وزواره وموظفيه، ويأكل في بعضها وينام في بعضها، ويكون خدمه وحاشيته وديوان رسائله وموظفيه في بعضها، فصار كل ذلك مخيماً اميرياً كبيراً. وكان المطار الإنكليزي قريباً منها، وكان قرب الملعب الروماني القديم في البلدة بناية حجرية كبيرة نوعاً ما اتخذتها حكومة المستشارين مقراً لها، وكان الأمير ينزل اليها أحياناً ويقضي بعض الوقت فيها، وكان يعيش في مخيمه عيشة بدوية وحضرية معاً، فسرادقه مفروشة بالبسط والطرّاحات، على أطرافه، وهو يستند في مجلسه الى قتب جمل مزيّن.

وفي الصيف والليالي الدافئة من الربيع والخريف يجلس جلسته هذه في العراء، وتدار القهوة العربية عليه وعلى ضيوفه، وكثيراً ما كان يتناول طعامه على الأرض، وكثيراً ما كان الطعام لحماً وأرزاً كعادة البدو. وهو قصير القامة نوعاً ما ذو وجه عريض أبيض فيه وسامة وفيه بدانة، يلبس القنباز والعباءة والكوفية والعقال، وأحياناً يتعمم على طاقية قش ملونة حجازية، ويكون لعمته زاوية طويلة على عادة الحجازيين، ويتمنطق بخنجر مذهب أو مفضض، ولهجته فصيحة حجازية ويحسن الكتابة باللغة العربية واللغة التركية، حتى ليعد أديبا فيهما، وخطه جميل ويروي الشعر وينظمه، وهو حسن الاطلاع على تاريخ العرب والإسلام، وملماً بتاريخ غير العرب وأحوالهم، وهو محدث لبق ومرح ويحب النكتة والمساجلات الشعرية والأدبية، ولعله أوسع اخوته ثقافة وأحسنهم تحدثاً، وكان يجيد لعب الشطرنج ويقضي كثيراً من وقته فيه. ويحب الراحة والدعة ولا يتحمل مشاق السفر وإرهاق العمل، ومع أنه معتد بنفسه وحصافته فهو شديد الإعجاب والثقة بالإنكليز، ويجعل كل معوله عليهم، ويلتزم بتوجيهاتهم ومشورتهم، ولعل ذلك من إملاء الواقع الذي كان شديد التوقف عنده، والذي كان يقول إن مسايرته من الحصافة السياسية وأن معاكسته تؤدي الى الحرج والخسارة. وكثيراً ما كان يلوم أخاه فيصل على استماعه لآراء المتطرفين وعدم تقديره للواقع ومسايرته، وكان إلى هذا ناقماً عليه متعجباً من محبة الناس له والتفافهم حوله أكثر منه رغم انه أذكى وأفصح وأسن وأحصف وأكثر علماً وثقافة، وروي عنه أنه كان يقول متعجباً (كيف ذلك ولم يكن إلا شخص أضاع ملكا وغصب ملكا). ويعني بالثانية ملك العراق الذي كان المؤتمر العراقي المنعقد في دمشق قد قرر أن يسند اليه على ما ذكرناه قبل، ولقد كان دائم التفكير في كيفية الاتصال بالإفرنسيين ومحاسنتهم، فإذا جاءه ضابط إفرنسي في مناسبة ما احتفى به وأهداه، وإذا سمع منه كلمة مدح اتخذها دليلاً وبشرى، وكثيراً ما كانت جلسات تنقضي كلها في الحديث بذلك.

ويحب المزاح والألغاز الأدبية والشعرية، ويقضي وقتاً غير يسير في ذلك أيضاً. وقد

سمعت كثيراً عن ذلك من الشيخ فهمي هاشم الذي حظي لديه بمكانة خاصة، وآراءه في المرأة خاصة تقليدية متزمتة، وهو متزمت أيضاً في صدد أي تجدد أو تجديد في الاسلام، حتى ولو كانت ملهمات القرآن والحديث والسيرة تسيغه. وقد جلست معه في الفترة التي قضيتها في عمان أكثر من مرة، واستمعت منه وتساجلت معه بخاصة في صدد المرأة والتجدد الاسلامي دون جدوى، ولقد ظلت فكرة سورية والمحاسنة مع الإفرنسيين التي علق عليها آماله، ملازمة له مدة غير قصيرة إلى أن ظهر له سرابية هذا الأمل.

تعلقه بالواقعية ومواقفه الضارة نتيجة لذلك:

ولقد ظل على ما سردته من أحواله ولهوه وتزمته وتعلقه بالواقع، ووجوب مسايرته مع نقمة على الزمن الذي لم ينصفه ولم يعطه ما يستحقه ذكاؤه وحصافته وألمعيته التي كان معتداً بها كثيراً، بل إنه ازداد قناعة بوجوب مسايرة الواقعية. وكان يقول أنه ضيع مع أخيه عرشيهما بسبب عدم مسايرة الواقع. وقد وجد أخوه مكاناً، ووجد هو شرق الأردن، ولم يكن مشبعاً لرغباته، فإن لم يسيرا في الواقعية فأين يذهبان؟ ومن هنا كان انزلاقه في التفاهم والتواصل مع اليهود، رغم ما كان ينم عنه من إدراك لعظيم مطامعهم وشديد خطرهم، وكان من ذلك توافقه مع اللجنة الملكية في سنة 1937 على اعطاء اليهود قسماً من فلسطين ليقيموا فيه دولة لهم وضم باقيها إلى مملكته، ثم على قبول قرار هيأة الأمم سنة 1947 بقيام دولة يهودية في جزء كبير من فلسطين مقابل ضم باقيها إلى مملكته مع الاعتراف بما احتلوه من فلسطين غير الجزء المخصص لهم، وجنوحه إلى الصلح معهم.

وكان يقع بينه وبين زعماء الحركة الوطنية خلاف وجفاء وتشاد بسبب ما كان يزعمه من تطرفهم وعدم مسايرتهم للواقع، ووصل الأمر إلى محاولة فتح باب شرق الأردن للاستيطان اليهودي، حينما قرر خبراء الانكليز أنه لم يعد في يد العرب الفلسطينيين أرضاً يمكن الاستغناء عنها لبيعها لليهود وتوطنهم فيها على ما سوف نشرحه شرحاً أو في مناسبات آتية.

خلافه مع رشيد طليع
واستبدال مظهر رسلان به:

ولقد كان رشيد طليع رئيساً لمجلس المستشارين، وكان مع بعض إخوانه القوميين يتبرمون من نزوات الأمير فلم يعبأ، وأقال رشيد وعين مظهر رسلان محله وسايره هذا في نزواته.

عدوان العسبلي على مظهر رسلان:

ومما وقع أن بدوياً حجازياً اسمه العسبلي كان أثيراً عند الأمير، فكان يفرض نفسه ومطالبه على الحكومة والناس مصطنعاً النيابة عن الأمير أحياناً. ولقد رد له مظهر رسلان مرة طلباً، فما كان منه إلا أن صفعه ثم ضربه بكرباجه في دار الحكومة، وعلم الأمير بذلك فتظاهر بالغضب لحظة ثم جمع الاثنين وصالحهما ومنح مظهراً الباشوية ترضية له. واشتد ضعف مظهر وهيبته، واستشرت الفوضى ونزوات الأمير معاً، ونفض الاستقلاليون يدهم منه ومن الوظائف التي كانوا يشغلونها.

إسناد رئاسة الحكومة للركابي لكبح النزوات وتوطيد هيبة الحكم:

ووقع الإنكليز في حيرة وقلق، وصاروا يبحثون عن شخص قوي يستلم الحكم ويوطد

الهيبة ويكبح نزوات الأمير، وسمي لهم رضا الركابي وكان اسمه مشهوراً، فاقترحوا على الأمير أن يستدعيه، وصدع الأمير واستدعاه، واستجاب الركابي وجاء وأسندت إليه رئاسة الحكومة، وحاول تنظيم الأمور وفرض هيبة الحكم . .

استقالة الركابي والإتيان بالصيادي:

ولكنه لم يلبث أن اصطدم بنزوات الأمير فاستقال بعد نحو سنة أو أقيل بالمضايقة، وجيء بحسن خالد ابن الشيخ ابي الهدي الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد المشهور، وعهد إليه برئاسة الحكومة، ولكنه كان ضعيفاً ووجدت نزوات الأمير في عهده حريتها.

إعادة الركابي ثانية وتشديد الإنكليز رقابتهم وقبضتهم:

وجعل كل هذا الإنكليز يتخطون النطاق الذي ترسموه في البدء، وهو ترك الأمير يحكم تحت رقابة ناعمة، ويفرضون رقابتهم الصارمة المالية والقضائية بواسطة مستشارين إنكليز فرضوهم على الأمير، وطلبوا منه في الوقت نفسه استدعاء رضا الركابي ثانية وتوسيد رئاسة الحكومة اليه مرة أخرى. وفي عهد الركابي الثاني عقدت معاهدة رسمية بين الإمارة والانكليز ثبت فيها الانتداب والإشراف الإنكليزيين الفعليين رسمياً على الإمارة مع الاعتراف الصوري لها بالاستقلال.

اشتداد الخلاف بين الأمير والاستقلاليين ونفيهم إلى معان ثم الى الحجاز:

واشتدت معارضة الاستقلاليين وشغبهم على الحالة التي وصلت إليها الإمارة بعد الآمال الجسام التي علقوها عليها، وتضايق الركابي والأمير من ذلك، وأخذا يضيقان عليهم، وكانت فرنسة في الوقت نفسه تشتد في طلب أحمد مريود وجماعته الذين اتهموا باطلاق النار على غورو وبالقيام بحركات كفاحية مسلحة على الحدود السورية، وأمروا بالخروج من المنطقة فخرجوا الى معان، وهم نبيه العظمة والأمير عادل أرسلان وسامي السراج وأحمد مريود وعثمان قاسم وأحمد حلمي وآخرين لم أعد أذكر أسماءهم، وشكا الأمير همه منهم لوالده، وطلب منه أن يستدعيهم ويحتجزهم عنده، فأرسل إليهم برقية ملحة بدعوتهم. ولم يكن لهم مناص من الإستجابة فاستجابوا وسافروا الى مكة (عدا أحمد حلمي الذي عينه الملك حسين مديراً أو مراقباً على سكة حديد الحجاز ومنحه رتبة باشا).

هجوم السعوديين على الحجاز ونسفهم للمملكة الهاشمية:

وظلوا هناك الى أن هاجم السعوديون الحجاز فخرجوا منها، ومنهم من جاء إلى فلسطين، ومنهم من ذهب إلى مصر. وقد حدثني نبيه العظمة بما عاناه هو ورفاقه في الحجاز من عنت، وكيف أنهم حاولوا مساعدة الملك في ضبط الأمور قبل الهجوم السعودي واصطدموا بعناده وتحجره، وكيف انهارت مملكته بذلك الهجوم بسرعة عجيبة. وبعد استيلاء السعوديين على الطائف وتهديدهم ملكه. وقد حاول الملك حسين أن يقاوم في مكة مقاومة المستميت، ولكن حركة تمردية عجيبة في جدة أحبطت ذلك، حيث أبرق كثير من وجوه جدة اليه يطلبون منه التنازل عن الملك لابنه علي الذي كان في جدة يستعد للمقاومة بدوره،

فاستجاب وتنازل لعلي الذي سمي ملكاً، واستمر هذا في استعداده، وجاء الملك حسين إلى العقبة التي كانت تابعة لمملكته، وأخذ يدعو إلى التطوع والسفر الى جدة لمساعدة الملك علي، ولكن كل ذلك لم يجد، حيث استطاع السعوديون أن يستولوا على مملكته، ثم زحفوا نحو جدة، وبحركة المذبوح ناشد الملك علي الإنكليز فلم يستجب الانكليز، واشتد الضغط السعودي فاضطر الملك علي بدوره إلى ترك جدة، وتم بذلك الاستيلاء السعودي على المملكة الحجازية وزوال السلطان الهاشمي عنها.

إرسال الملك حسين بعد تنازله الى قبرص:

ولقد قلق الإنكليز من وجود الملك حسين في العقبة ودعوته للتطوع لمساعدة الملك علي، فأوعزوا للأمير عبد الله أولاً بحمل والده على التنازل عن العقبة ومعان ليضمهما إلى امارته، وثانياً باقناعه بالسفر الى قبرص والاستراحة فيها في ضيافتهم، وطلب من والده الأمرين واستجاب الوالد، فأصبحت معان والعقبة ضمن الإمارة الأردنية، وسافر حسين الى قبرص حيث قضى نحو ست سنين شبه أسير فيها. وهكذا انتهت قضية الملك حسين هذه النهاية المحزنة الأليمة، وظل الإنكليز يظنون أنهم أوفوا بوعودهم له بانشائهم إمارة الأردن ومملكة العراق تحت تاجي ولديه عبد الله وفيصل.

تمسك الحسين بقضية فلسطين من أسباب زوال المملكة الهاشمية:

ولقد كانت فلسطين من أسباب نكبته، فقد عرض الانكليز عليه معاهدة تنظم علاقاته بهم وتنهي إلحاحاته الشديدة بالوفاء له بالوعود واتهاماته إياهم بالغدر والنكث، وكان من بنود المعاهدة أن يعترف لهم بالمركز الممتاز في شرق الأردن والعراق وفلسطين، وكان الاعتراف بذلك بالنسبة لفلسطين يعني الاعتراف بوعد بلفور والسياسة الإنكليزية اليهودية، لأن ذلك دخل في صلب صك الانتداب الذي صادقت عليه عصبة الأمم فرفض. ولقد عرضوها على الأمير عبد الله وطلبوا منه توقيعها لأنه كان يحمل أو حمل صفة وزير خارجية المملكة الحجازية فوقعها، وكان بذلك أول وأوحد مقام عربي رسمي يعترف بذلك. ولكن الملك حسين أصرَّ على رفضها، واقترح على الأقل تعديلاً في صدد فلسطين، وهو أن يقوم حكم وطني يكون لليهود في نطاقه وبنسبة عددهم حقوق متساوية فرفضوا، وفي هذه الأثناء اشتد الخلاف بينه وبين الملك عبد العزيز السعودي، وأدّى ذلك الى حدوث حالة الحرب بينهما، ثم مهاجمة القوات السعودية الحجاز، واستيلاؤها على الطائف وتهديدها لمكة. وذهب ابنه علي الى جدة للمقاومة فاشتد ضغط السعوديين على مكة من جهة، وطلب أهل جدة من الملك حسين التنازل لعلي من جهة أخرى، فتنازل وتلاحقت الأحداث، فذهب الحسين الى العقبة، واستولى السعوديون على مكة ثم على جدة على النحو الذي شرحناه. ولقد بدأ الهجوم السعودي في تشرين الأول 1924، وتم نسف المملكة الهاشمية في كانون الثاني 1925، حيث أنها لم تصمد ازاء الهجوم السعودي إلا نحو شهرين.

ولو قبل الملك حسين توقيع المعاهدة لكان حظي بحماية الانكليز لأنها كانت معاهدة تحالفية، ولما كان السعوديون قد نجحوا ونسفوا المملكة الحجازية. وما أوردناه خلاصة وجيزة

مما انطبع في ذهننا من تتبعاتنا للأحداث المتلاحقة وتفصيلاتها مدونة في كتب عديدة، ومهما يكن من أمر فإن الغدر والنكث الإنكليزيين يظلان وصمة عار لبريطانيا، لأن الملك حسين تمسك بالحق العربي الذي ثار من أجله وحالفته بريطانيا عليه وضحى العرب في سبيله ما ضحوا.

مرض الحسين وقدومه من قبرص ووفاته ودفنه:

ولقد أقام الحسين شبه أسير في قبرص كما قلنا الى سنة 1931، وكان يكتب رسائل للإنكليز مذكراً منداً مستعطفاً دون جدوى، ثم مرض فاستأذن عبد الله الإنكليز بإحضاره الى عمان فأذنوا له، وحينما جاء الى عمان ذهبت من فلسطين وفود كثيرة، وكنت في وفد نابلس، وما لبث أن توفي ونقل جثمانه الى القدس حيث دفن في إحدى غرف الحرم القدسي، واشتركت وفود كثيرة من أنحاء فلسطين مع أهل القدس في استقبال جثمانه وموكب جنازته، وكنت مع الذين ذهبوا من نابلس وفاء لهذا الشيخ الجليل المجاهد، الذي ضحى بعرشه في سبيل فلسطين، ثم كنت من خطباء الحفل التأبيني الذي أقيم له في القدس، وكانت خطبتي قوية بليغة ولا فخر أشدت فيها بثورة الحسين وآثارها وجهاده في سبيل قضية العرب وصلابته في مواقفه ومطالبه، وبخاصة في صدد قضية فلسطين وتضحيته بعرشه في سبيلها.

وأنبه بهذه المناسبة على أن الملك حسين جاء زائراً الى شرق الأردن في أواخر سنة 1923، وقبل الهجوم السعودي، ونودي به في هذه الزيارة خليفة للمسلمين، وشرح ذلك سوف يأتي في مناسبة أخرى إن شاء الله. وهناك ذكريات كثيرة أخرى عن مواقف الأمير عبد الله ستأتي في مناسبات أخرى.

سيرة الأيام التي قضيتها في عمان:

وكان الإخوان نبيه العظمة وأحمد مريود والأمير عادل أرسلان أصلحوا غرفة من غرف محطة سكة حديد عمان المعطلة والمخلعة الأبواب والشبابيك، وأقاموا فيها لتعذر السكن المناسب، فأنزلوني عندهم حيث قضيت تلك الأيام.

أسباب دعوتي وخيبة امل:

وقد أخبرت الإخوان بالكتاب الذي تلقيته من الشيخ كامل بدعوتي للقدوم الى عمان، فقالوا إن الكتاب كان برأيهم وعلمهم، وأنهم دعوني حينما قدم الأمير ورأوا فيه حماساً للعمل في سبيل تحرير سورية، ودعا الناس الى الالتفاف حوله ومن جملتهم رجال عهد فيصل والمؤتمر السوري، فتأملوا خيراً منه، ولكنه بعد أن اتفق مع الانكليز فترت حماسته وبدرت منه بوادر مخيبة للآمال.

عملي في ديوان الأمير:

والتقيت بالشيخ كامل فأعاد علي ما قالوه، واتفقنا على البقاء مدة أخرى والتفكير معاً في الموقف. واقترح عوني علي أن أشتغل معه في الديوان وحبذ الإخوان ذلك فقبلت. وقد وجدت في سرادق الديوان كاتباً آخر اسمه محمد الأنسي من بيروت، لا أعرف كيف جاء وصار في الديوان.

وسألت عوني عنه فقال إنه هو الآخر لا يعرف، وإنما قال له الأمير اجعله معك في الديوان، وكان لين الملمس يبذل جهده ليكون أثيراً لدى الأمير، ولمحنا أنه كان ينقل إليه أخبار



كتاب المجلس التأسيسي لمدرسة النجاح في نابلس بقرار اختياري عضواً فيها.

الناس ومن حوله من الإخوان. ولقد استمر في ذلك حتى صار أشد قرباً وحظوة من عوني وغيره ممَنْ هم حول الأمير. ولقد كان يبدو من الأمير بوادر مثيرة للعجب والنقد، فكنا مع الأخوان نقضي نهاراتنا في المخيم ولياليناً في غرفة المحطة نتحدث حول ذلك، وما يظهره الأمير من شدّة الانصياع للانكليز وكثرة شكاواه من فراغ اليد وقلّة امكانيات الشعب والتخوف من المستقبل وتضاؤل بادرته الشخصية وضعف أي إمكان من أي جهد للقضية العربية والسورية في الظرف الحاضر.

وظل الأنسي يلعب دوره حتى سئم عوني العمل عند الأمير وغادر عمان إلى القدس بعد سنة، فعيّن الأمير الأنسي رئيساً لديوانه وسكرتيراً خاصاً له يقضي له كثيراً من شؤونه، ومنحه رتبة الباشوية وغدا من البارزين على مسرح الحكم الأردني الأميري، وأشيع بأن له صلات باليهود ويتلقى مالاً منهم وواسطة بينهم وبين الأمير.

تسرب الملل واليأس اليّ واغتنام فرصة انتدابي للمؤتمر الرابع ومغادرتي عمان:

وأخذ الملل واليأس يتسرب لغير واحد ممن جاؤوا الى عمان ويذهبون منها ومن جملتهم الشيخ كامل، حيث ذهب وأقام في حيفا، ولم يكن في الديوان ما يشغلني، فتسرب الملل واليأس الي بدوري، وفي هذه الأثناء ورد إلي من نابلس كتاب ينبؤوني فيه باختياري من قبل الجمعية لتمثيلها مع آخرين في المؤتمر الرابع الفلسطيني المزمع عقده في القدس، فرأيت ذلك فرصة للخلاص، فاستأذنت من الإخوان

ثم من الأمير، وحزمت أغراضي وركبت سيارة ذاهبة الى السلط، وقد أعطاني عوني ثلاثين مجيديا كتعويض عن الأيام التي أقمتها في الديوان وهي نحو ثلاثة أسابيع، ولا أدري هل هي منه أم من الأمير، وإن كنت أرجح أنها من الأمير، وبت ليلة في السلط في بيت صاحب السيارة الذي نسيت اسمه مع الأسف، وبحثت عن سيارة أو كروسة ذاهبة للقدس فلم أجد، فاستأجرت فرساً وسار معي صاحبها مشياً يسوسها كالمعتاد، وحينما وصلت العقبة بعد أريحا رأيت شخصاً يشير إلي بالتوقف.

كتاب آخر جاءني في الطريق في صدد انضمامي للنجاح:

فسلمني كتاباً قال إنه يحمله إلي من نابلس، وكان الكتاب من مدرسة النجاح يخبرونني فيه بأنهم اختاروني لأنضم الى هيئة مؤسسي المدرسة، وأنهم يعرضون علي في الوقت نفسه أن أكون مديراً لها، فانشرح صدري لذلك.

***



4

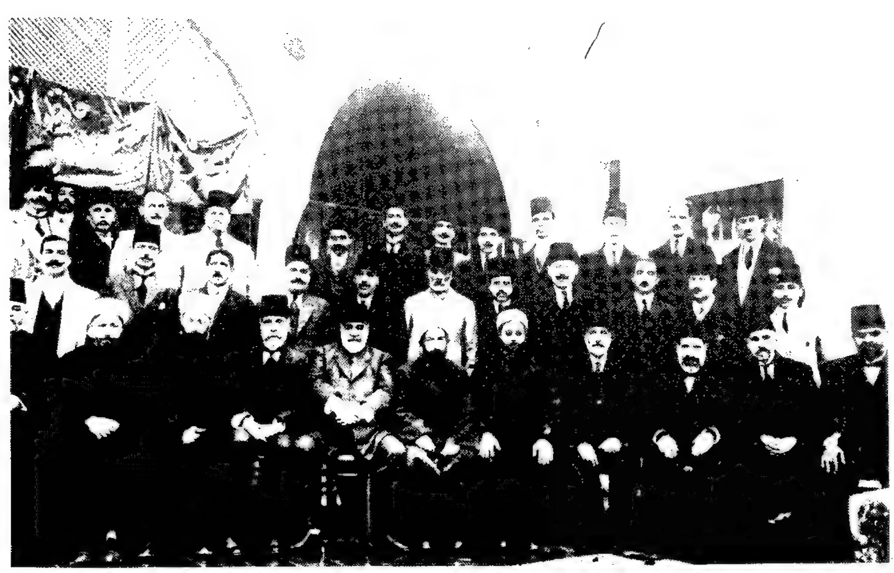
المؤتمر الرابع:

ووصلت القدس في أواسط مايس 1921 وأنا متعب جداً من الركوب على الفرس، ونزلت في فندق في باب العامود، وفي الصباح علمت أن المؤتمر قد باشر عمله قبل يوم، فذهبت وشهدت بقية جلساته التي كانت تعقد في البناية التي صارت مدرسة للأيتام الإسلامية، والتي عقدنا فيها مؤتمرنا الأول في كانون الثاني سنة 1919.

الحوادث الخطرة التي جرت في فلسطين وكان انعقاد المؤتمر بسببها:

ولقد كان انعقاد هذا المؤتمر بعد أحداث خطيرة جرت في فلسطين ونتيجة لها، فقد أثار الموقف الجاف الذي قابل شرشل به اللجنة التنفيذية للمؤتمر الثالث في القاهرة ثم في القدس، وما نتج من إصرار الإنكليز على الاستمرار في سياسة الوطن القومي اليهودي وفتحهم باب فلسطين لهجرة يهودية دافقة، وعزمهم على حكم فلسطين حكماً مباشراً استعمارياً يتناقض حتى مع معنى (الانتداب)، الذي يعني وجود حكومة وطنية مستقلة تساعدها دولة كبرى وترشدها.

أثار ذلك غضب العرب وجعلهم يعتزمون القيام بمظاهرات احتجاجية، وأقاموا أولى مظاهراتهم في حيفا رغم حظر الحاكم العسكري لها، واصطدم المتظاهرون مع البوليس ومع اليهود، وأصيب كثيرون من العرب



المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث في حيفا عام 1920.



المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع في القدس عام 1921.

واليهود والبوليس بجروح، وظل العرب على هياجهم وغضبهم، فانفجرت نتيجة لذلك ثورة كبيرة في يافا في أواخر نيسان 1921 اصطدم فيها العرب واليهود وامتدت الى قرى عديدة من قضاء يافا، وهوجمت المستعمرات اليهودية التي في جوارها، واستمر الهياج نحو أسبوع، وكانت حصيلة ذلك نحو مائة قتيل و219 ثلثهم من العرب. ولقد كان الغضب والهياج وأنا في نابلس، وكان الانفجار الدموي وأنا في عمان، ولكننا كنا نسمع ونقرأ الأخبار.

لجنة تحقيق هايكرافت وتصريحات اليهود الخطيرة:

ولقد أثارت ثورة يافا توتراً شديداً، وأرادت الحكومة تهدئته فأعلنت أنها ألفت لجنة برئاسة هايكرافت رئيس محكمة العدل العليا لتحقيق أسباب الثورة وخلفياتها، ولقد استمعت اللجنة الى عدد من رجال العرب واليهود، وكان موقف بعض زعماء اليهود وفي مقدمتهم ايدرو وسيشكين (وهذا الأخير هو رئيس الجمعية الصهيونية) صريحاً وصاعقاً، حيث قالوا بأنهم يريدون بأن تكون فلسطين يهودية كما هي بريطانيا بريطانية وكندا كندية، وأن اليهود فقط يجب أن يتسلحوا دون العرب، وأن اليهود فقط يجب أن يشاركوا الحكومة في الحكم دون العرب، وأن الحكم الإنكليزي المباشر بمساعدة اليهود فقط هو الذي يجب أن يستمر، وأن على الحكومة أن تفتح أبواب فلسطين لتدفق المهاجرين اليهود عليها، وأن يتهيأ لهم أسباب الأمن والاستيطان والعمل حتى يصبح اليهود الأكثرية في فلسطين، وحينئذ يستلمون حكم البلاد. وأن على العرب أن يرضخوا لذلك طوعاً أو كرهاً، وأن من لا يرضخ يجب أن يرحل، وأن اليهود مستعدون لشراء أرضه وأملاكه.

وشرح رجال العرب للّجنة ما يتهدد وجودهم وكيانهم في وطنهم الشرعي من أخطار عظيمة من جراء الهجرة اليهودية والسياسة الإنكليزية الموالية المحابية لليهود والمشجعة لهم على مواقفهم ومطامعهم الرهيبة، وقالوا إن في ذلك نقضاً لوعود الانكليز وعهودهم، وأنه مؤد الى اختلال مركز العرب الذي وعد الإنكليز بحفظه اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، وأن العرب هم أصحاب البلاد ولا يمكن أن يقبلوا ويرضخوا، ولسوف يكافحون بدون هوادة وبكل قوة.

تقرير اللجنة المؤيد لأسباب مخاوف وقلق العرب:

وقد أصدرت اللجنة تقريراً[1] ذكرت فيه أقوال ومواقف كل من اليهود والعرب، ثم قالت إن تصرفات اليهود وأناشيدهم وتصريحاتهم مما أثار الخوف والقلق في العرب وهيجهم، ولقد ذكرت قبل أن شرشل قال للجنة التنفيذية إنه يبحث الآن في وضع دستور لفلسطين، وعليها أن تجتمع مع المندوب السامي لمناقشته معه، وبعد سفر شرشل دعا المندوب السامي اللجنة لمناقشة الدستور معه، فاشترطت أن لا يكون الدستور قائماً على وعد بلفور لأن ذلك يجعل كل نقاش بدون جدوى، فرفض المندوب ذلك.

انعقاد المؤتمر وقرار ارسال وفد الى لندن وأسماء الوفد:

كل ما تقدم جعل الجمعيات الوطنية

(1) خلاصة هذا التقرير منشورة في الجزء الأول من الوثائق الرئيسية لقضية فلسطين صدر عن جامعة الدول العربية.

الفلسطينية العربية تتداعى لعقد مؤتمر جديد لبحث الموقف واتخاذ ما يقتضي من قرارات وخطوات، وكان هذا هو المؤتمر الرابع الذي نحن في صدده، ولقد شهده نحو مائة مندوب ومن مختلف مدن فلسطين كممثلين لجمعياتها، وجرى البحث في الموقف، فتقرر إيفاد وفد فلسطيني عربي إلى لندن لشرح شعور العرب بالخطر على مصالحهم ومراكزهم من جراء السياسة الانكليزية اليهودية المطبقة في فلسطين، وللمطالبة بالحكم الوطني المستند الى كون العرب هم أهل البلاد ومالكيها منذ مئات السنين، وكونهم ممن جاهدوا في زمن الدولة العثمانية قبل الحرب وفي أثنائها في سبيل ذلك، وبناء على وعد الانكليز وحلفائهم، ولتوكيد رفض وعد بلفور وسياسة الحكومة السافرة في تحقيقه، والذي من شأنه أن يطمس حق العرب الطبيعي ويخل بمركزها في وطنهم، وعزمهم على الكفاح ضد ذلك بكل ما يستطيعون اذا استمرت الحكومة الإنكليزية في سياستها الظالمة المحابية، واختار المؤتمر كلا من موسى كاظم باشا الحسيني والحاج توفيق حماد ومعين الماضي وأمين التميمي وشبلي الجمل وإبراهيم شماس أعضاء في الوفد، وتكون رئاسته لموسى كاظم وسكرتيريته لشبلي الجميل، وكان أمين التميمي في عمان فاستدعي وجاء.

قصة ترشيح روحي عبد الهادي للوفد وتخلفه:

ومما جرى أن آل عبد الهادي رشحوا روحي بن قاسم عبد الرحمن لعضوية الوفد، ووافق المؤتمر على ذلك وعينه سكرتيراً ثانياً، غير أن روحي لم يسافر، فقد كان يسعى لوظيفة حكومية ونجح في مسعاه، فمنح درجة قائمقام على أن يكون مساعداً لحاكم القدس في ظرف اختياره لعضوية الوفد وسكرتيريته، وقد حاول أن يستصدر من المؤتمر قراراً بموافقته على تعيينه لهذه الوظيفة وإعفائه من عضوية الوفد وسكرتيريته، حيث رأى أن هذا مما قد يوطد مركزه في عيون الإنكليز. ولكن المؤتمر لم يستجب لطلبه، ثم حاول أن يأخذ من موسى كاظم كتاب شكر للمندوب السامي على اختياره إياه للوظيفة التي عين فيها فأخفق أيضاً، وظل الوفد على حاله قبل ترشيح روحي.

سفر الوفد الى لندن:

ولقد طلب الوفد من المندوب السامي تسهيل سفره الى لندن، فكرر ما كان اقترحه على اللجنة التنفيذية السابقة من مناقشة مشروع الدستور الذي سوف يكون منظماً للحكم في فلسطين بدلاً من الذهاب الى لندن، واشترط الوفد كما اشترطت اللجنة التنفيذية، قبله أن لا يكون قائماً على وعد بلفور، فرفض، فأصر الوفد على السفر وسافر في حزيران 1921.

شيء عن روحي عبد الهادي:

وعلى ذكر روحي عبد الهادي أقول إن والده قاسم عبد الرحمن عبد الهادي أرسله لإتمام دراسته الى الآستانة، وأعرف أنه أتم دراسته في المدرسة السلطانية التي كانت ثانوية كاملة، ولا أعرف يقيناً هل انتسب الى مدرسة عالية وتخرج منها، ولكني أعرف أنه عين كاتباً لقنصلية الدولة العثمانية في أوديسا الروسية، وأنه كان يجيد اللغة الافرنسية اذ كان أبوه يتردد عليّ في دائرة البريد في نابلس ليرسل اليه رسائل ويتسلم رسائله بنفسه، وأظنه صار قنصلاً في أوديسا، ثم عاد إلى نابلس بعد الحرب. وهو طويل القامة أنيق مترسم، وهو أسن مني ببضع سنين.

ومنذ تعيينه للوظيفة الحكومية في عهد الانتداب انسجم في سياسته مع الحكومة أو صار حكومياً بالمعنى التام، ولكن لم أسمع ولم ألمس أنه كان ضالعاً مع اليهود أو مؤيداً لسياسة الحكومة اليهودية، وقد حافظ على هذه الحالة طيلة بقائه في الحكومة. وقد نزح بعد سنة 1948 إلى شرقي الأردن، وعينه الملك عبد الله وزيراً للخارجية، وتوفي في أوائل الخمسينات، وكان يتظاهر بالاستعلاء ويكثر الاستخفاف والسخرية برجال الحركة الوطنية بل بكل من كان بارزاً في علم أو سياسة. وكان انفرادياً ولم يكد يكون له صداقات حميمة مع أحد. ومما أذكره أنه جاء إلى استانبول أثناء الحرب العالمية الثانية سائحاً، وكنت أنا وأخي وأكرم زعيتر ونبيه العظمة ومعين الماضي وآخرون لاجئين في تركيا ومقيمين آنذاك فيها، وكنا أنا وأخي وزهير ابني وأكرم زعيتر في مطعم مشهور يصنع الكباب قرب الجسر في المكان المعروف (شارجه قبو)، وجاء هو الى المطعم فلما رآنا انقلب راجعاً فراراً منا لأننا أعداء الحكم الانكليزي. ويظهر أنه خاف أن نكون مراقبين من جواسيس الإنكليز وأن يراه الجواسيس في المطعم الذي نحن فيه اذا جلس في قربنا أو جره الموقف إلى التحدث معنا.

وأعود الى ذكر أعمال المؤتمر الرابع، فأقول إنه أكد من جديد الميثاق الوطني الذي وضعه المؤتمر الثالث في حيفا على ما مر ذكره، وجعله نبراساً للوفد.

لجنة المؤتمر التنفيذية الجديدة التي كنت عضواً فيها :

وانتخب لجنة تنفيذية جديدة من عارف الدجاني الداودي رئيساً، ومن كل من رفيق التميمي وعزة دروزة وعمر البيطار ويعقوب فراج والشيخ راغب الدجاني (اليافي)، (لأن الأول كان مقدسياً على ما نبهنا عليه قبل) أعضاء، وأظن أنه كان هناك أعضاء آخرون ذهبت اسماؤهم من ذاكرتي.

تكليفي بسكرتيرية اللجنة واعتذاري وتعيين جمال الحسيني :

وقد كلفتني اللجنة بأن أكون سكرتيراً بمرتب، فاعتذرت لأني كنت مرشحاً لاستلام مديرية مدرسة النجاح على ما ذكرت قبل، وكنت منذ رجوعي من دمشق وأنا أبشر بضرورة الاهتمام الشديد لتربية الناشئة الجديدة تربية وطنية وقومية، وتهيئتها لحمل عبء الكفاح الذي بدا أنه سيكون طويلاً، وكنت أعتقد أن الجهل وعدم التربية القومية الوطنية من أسباب نكستنا في دمشق، ومن أسباب تخلف العرب واستخفاف الانكليز والإفرنسيين بنا وغدرهم لنا، ففضلت العمل في مدرسة النجاح، وحينئذ عينت اللجنة جمال الحسيني سكرتيراً وعضواً بمرتب مناسب أظن أنه عشرون جنيهاً.

شيء عن جمال الحسيني ومواقفه وصفاته ونشاطه الوطني:

وعلى ذكر جمال أقول إنه كان أسن مني قليلاً، وكان من خريجي الجامعة الأميركية البيروتية، ويحسن الإنكليزية وقد عينه الإنكليز بعد الاحتلال قائمقاماً مساعداً للحاكم العسكري في نابلس في سنة 1918، وقد بقي في هذه الوظيفة نحو سنتين ثم استقال، فاختير لسكرتيرية اللجنة التنفيذية، ومنذئذ اندمج في الحركة الوطنية وصار من أبرز وأنشط رجالها. وقد اشتغل لفترة سكرتيراً للمجلس الاسلامي الأعلى ومديراً للأوقاف الإسلامية، وظل عضواً

كتاب ساطع الحصري من بغداد بشأن العمل في العراق والجواب عليه (ص 529).

في مؤتمرات فلسطين وفي لجانها التنفيذية وسكرتيراً لها، وكان سكرتيراً للوفود الفلسطينية الى لندن في سني 1926 و1931 و1939 على ما سوف نذكره بعد، وكان ذكياً قوي الشخصية قوياً صلباً في المواقف الوطنية، وإن كان يؤخذ عليه أحياناً شيء من التناقض فيكون صلباً قوياً حيناً وضعيفاً مسايراً للواقعية حيناً. ومما كان من ذلك اثناء دعوتنا الى اللاتعاون مع الحكومة الانتدابية اثناء اشتداد تدفق الهجرة اليهودية وطلبنا من أعضاء اللجان الحكومية الاستقالة، فقال في نوبة انفعال، وكان عضواً في اللجنة الزراعية، أنه يفضل لمصلحة الشعب البقاء في هذه اللجنة على عضوية اللجنة التنفيذية، وبعد بضعة أسابيع كان من الذين اقترحوا القيام بمظاهرات غير مرخصة احتجاجاً على تلك الحكومة بسبب استمرارها في سياسة الهجرة الدافقة.

على أن من الحق أن يسجل أنه كان على كل حال غير مساير في الأمور الجوهرية، وصلباً قوياً فيها، وكان يحسن الكلام والخطابة، وقد تمرس بالقضية وأبعادها حتى صار من أقطابها. ولما تألفت الأحزاب في سني 1933 و1934 ألّف مع زملاء كثيرين له من الوطنيين وبمساعدة وتأييد الحاج أمين الحسيني (الحزب العربي) الذي كان جل أعضائه ومؤيديه أنصار الحاج أمين الكثيرين في المدن والقرى الذين كانوا يعرفون بالمجلسيين، وكان هذا الحزب شعبياً أو جماهيرياً خلافاً لحزب الاستقلال والأحزاب الأخرى على ما سوف نزيده شرحاً بعد. وقد اعتقل وحوكم مع من اعتقلوا وحوكموا بسبب مظاهرة يافا سنة 1933 الغير مرخصة، التي اصطدم المتظاهرون فيها مع البوليس والدرك الانكليزي وقتل وجرح فيها كثيرون من العرب والبوليس والدرك. وحينما أعلن الإضراب العام سنة 1936 وتألفت اللجنة العربية العليا كان عضواً فيها يمثل حزبه، وكان من أعضائها الأقوياء. وحينما توتر الموقف في خريف 1937 وقتل حاكم الناصرة وبدرت بوادر اندلاع الثورة من جديد واعتقلت السلطات بعض اعضاء اللجنة العليا ونفتهم الى جزيرة سيشيل كان هو في فلسطين، ولكنه اختبأ ثم استطاع أن يفلت ويخرج، والتقينا به في سورية ولبنان، وكنت أنا قد خرجت وحظرت السلطات عودتي، فأقمت في سورية. وكان الحاج أمين قد استطاع أن يفلت من حصار الإنكليز ويأتي الى لبنان، وتعاونا باسم اللجنة العربية العليا التي كانت قد اقتصرت علينا نحن الثلاثة. وقد كان يبذل جهوده الخاصة الناجحة لتدبير بعض المال لتمويل الثورة التي اندلعت بعد قليل من خروجنا وتأججت واستمرت نحو سنتين، وكنا جميعاً في سورية ولبنان وراء تأجيجها.

ولقد كانت الثورة ضد قرار الحكومة الانكليزية بإنشاء دولة يهودية في فلسطين وضم باقيها الى الأردن حسب توصية اللجنة الملكية، ولكن قوة الثورة أرغمت هذه الحكومة على إعلان الغاء القرار والدعوة الى عقد مؤتمر في لندن سنة 1939 يشترك فيه الفلسطينيون وحكومات مصر والعراق والأردن والسعودية واليمن، وكان جمال سكرتيراً للوفد الفلسطيني، وكان موقفه قوياً صلباً بالاصرار على منع الهجرة وبيع الأرض لليهود، وإنشاء حكم وطني مستقل بأكثرية عربية. وقد أصدرت الحكومة الانكليزية كتاباً أبيض على أثر المؤتمر استجابت فيه الى هذه المطالب، ثم لم تلبث الحرب أن نشبت فتغير مجرى التاريخ.

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية اضطر

الحاج أمين الحسيني لمغادرة لبنان الى العراق، وذهب هو بدوره الى العراق. ولما نشبت ثورة رشيد عالي الكيلاني والجيش العراقي ضد الانكليز، اندمج الفلسطينيون فيها. ولقد استطاع الإنكليز التغلب على الثورة، وطورد الفلسطينيون واعتقل كثير منهم وفر كثير منهم، وكان جمال من المعتقلين. وقد نفته الحكومة البريطانية الى روديسيا مع آخرين، حيث بقي نحو سنتين، ثم أطلق سراحه وعاد الى فلسطين واستقبل استقبالاً حافلاً، وترشح لملأ فراغ زعامة الحركة الوطنية لأن الحاج أمين كان اذ ذاك قد استطاع الإفلات من مطاردة الإنكليز والذهاب الى أوروبا، ولكنه لم يستطع أن يبرز كزعيم شعبي محبوب مثل الحاج أمين وموسى كاظم، حيث كان ينقصه ما كان في الزعيمين وما تقتضيه الزعامة من ليونة وأناة وتحمل، وكان فيه الى هذا شيء من النشوفة أو الجفاف.

وقد نشط مع الناشطين من زعماء الأحزاب الذين كانوا سبقوه في العودة الى فلسطين في تحريك القضية الوطنية، وقام بين الزعماء خلاف فتدخلت جامعة الدول العربية وسوّت الخلاف، ونتج عن ذلك نشوء الهيأة العربية العليا، وكان يمثل هو وإميل الغوري الحزب العربي فيها، وكان سكرتيرها. وظل على ذلك بعد أن عاد الحاج أمين من أوروبا واستلم رئاسة اللجنة، وقد قررت اللجنة بعد قدومه توسيع نطاقها فضمتني إليها مع رفيق التميمي ومعين الماضي وإسحق درويش والشيخ حسن أبو السعود، وظل هو سكرتيراً لها، وتعاونا معاً لفترة ما في نطاقها، ومثّل جمال اللجنة أمام لجنة تقصي الحقائق الأميركية الانكليزية سنة 1946، وأمام لجنة تقصي الحقائق المعينة من هيأة الأمم سنة 1947، وأمام الهيئة العامة لجمعية الأمم سني 1947 و1948، وأمام مجلس الأمن. وكانت مواقفه قوية منطلقة من الحق العربي والميثاق العربي.

وبعد النكبة ذهب الى الرياض وصار مستشاراً للملك عبد العزيز ثم لابنه الملك سعود، وساعد مع رشيد عالي الكيلاني الذي كان هو الآخر في الرياض سني 1953 و1954 على تحريك الكفاح المسلح الفلسطيني ضد الكيان الصهيوني لفترة من الوقت، وظل عند الملك سعود أثيراً أو مستشاراً. ولما خلع الأمير فيصل أخاه سعوداً وحل محله ثم مات سعود، تجهم العهد الجديد لجمال فترك الرياض في أواخر الستينات وأقام في بيروت، وأنشأ مكتباً تجارياً يباشر عبره أعماله، وتوفي فيها في 1982 رحمه الله. وبقي محتفظاً بصفاء ذهنه. وكان آخر عهدي به زيارة زارني فيها في دمشق في عام 1965. ولقد تعاونا دائماً عبر المؤتمرات واللجان واللقاءات الوطنية، وقامت بيننا ألفة ومودة وان لم تصل الى صداقة حميمة، وسيأتي كلام كثير عنه في مناسبة آتية.

شيء عن إميل الغوري:

وبمناسبة ذكر اسم إميل الغوري مع جمال الحسيني، أقول إني التقيت به لأول مرة في القدس في أوائل الثلاثينات، وبدا لي شاباً نشيطاً ذكياً ذا ثقافة انكليزية وعربية ويحسن الكتابة والخطابة بالعربية والإنكليزية، وعلمت أنه كان ذا نشاط في شبابه المبكر صحفي وأدبي، وأنه نشط في سبيل قضية النصارى الأرثوذكس، وهو منهم، ضد الرهبان اليونانيين الذين كانوا يسيطرون على شؤون الطائفة، ثم ذهب في أواخر العشرينات الى أميركا وحصل على اجازة من إحدى جامعاتها، وأصدر مجلة

بالانكليزية ومجلة عربية فأغلقتهما السلطات، وكان منسجماً مع المجلسيين، وانضم الى الحزب العربي الذي أنشىء برئاسة جمال سنة 1933، وكان سكرتيراً له، وأصدر جريدة اللواء التي كانت تنطق بلسانه فترة من الوقت، وذهب أكثر من مرة الى أوروبا وبريطانيا، وأنشأ مكتباً للدعاية في لندن أثناء الإضراب الطويل سنة 1936، وبعده بذل جهداً كبيراً في الدعاية للقضية، وفي أثناء ثورة فلسطين 1937 - 1939، أقام في مصر ينشط في سبيلها، وعاد قبل نهاية الحرب مع من سمح له بالعودة الى فلسطين، ونشط مع جماعة الحزب العربي بسبيل إعادة نشاطه، وعاد بعد قليل جمال الحسيني من منفاه فانسجم معه.

وحينما توسطت جامعة الدول العربية وألفت الهيئة العربية العليا من فريقي الأحزاب سمته ليكون مع جمال ممثلين لفريق، مقابل أحمد حلمي والدكتور حسين خالدي ممثلين للفريق الآخر. وبعد قليل عاد الحاج أمين من أوروبا وانضممنا نحن الى الهيئة وتعاونا معاً، ومثلت وإياه الهيئة في بعض اجتماعات مجلس الجامعة العربية ولجانها، ثم ظل ينشط في نطاق الهيئة بعد النكبة في بيروت وخارجها، وفي هيأة الأمم كناطق باسم الهيئة. وعاد في أواسط الستينات الى القدس، وترشح في الانتخابات النيابية وصار عضواً في المجلس النيابي الأردني مرة، وكان وظل موقفه من منظمة التحرير مثل موقف الهيأة العربية العليا ورئيسها الحاج أمين الذي شرحناه قبل. ولقد انسجم مع الحكم الأردني وصار وزيراً مرة. ولقد كانت الصلات بين الملك حسين والهيئة العربية غير حسنة نظراً لمواقف الملك حسين وجدّه من القضية الفلسطينية، ولقد كان موقف الملك حسين من منظمة التحرير مثل موقف الهيئة العربية العليا، والراجح أن هذه المماثلة سوغت ذلك الانسجام وسوغت تحسن الصلات بين الملك ورئيس اللجنة على ما ذكرناه سابقاً.

وإميل يقيم الآن في عمان[1] وقد نشر بعض مذكراته بعنوان (فلسطين عبر ستين عاماً)، وله كتب مطبوعة أخرى في قضية فلسطين وفي القومية العربية. وفي الجملة إنه من رجال قضية فلسطين، وله جهد مشكور في سبيلها طيلة أربعين عاماً أو تزيد، وكانت صلتي به صلة مودّة وألفة ولم تصل الى صداقة حميمة.

شيء عن يعقوب فراج وعمر البيطار:

واسمي يعقوب فراج وعمر البيطار يردان لأول مرة، وهما من رجالات فلسطين الذين كان لهم بروز ونشاط في المواقف الوطنية والسياسية في عهد الانتداب، وكان لنا بهم معرفة وتعاون، ويحسن أن نقول كلمة عنهما. فالأول، يعقوب فراج، وجيه من وجهاء القدس النصارى الأرثوذكس وهو أسن مني، وأخلاقه حسنة، حسن المعشر، وكان سليم المواقف في الحركة الوطنية منسجماً فيها وخاصة إزاء المطامع والمزاعم اليهودية، ومنذ أن قامت كتلة معارضة بزعامة راغب النشاشيبي وحزبياته انسجم معه، وظل منسجماً، ولكنه لم يكن مندفعاً، فعاضد الحاج أمين الحسيني وحركاته وأعماله، كما كان شأن راغب، وظل محتفظاً باعتداله الى أن توفي في الأربعينات، وقد التقينا به كثيراً وتعاونا معه عبر المؤتمرات واللجان الوطنية، وقام بيننا ألفة ولكنها لم تصل الى صداقة حميمة.

والثاني (عمر البيطار) وجيه من يافا، وكانت

---

(1) توفي في عمان عام 1984.

له شعبية وبخاصة في أوساط العمال، وحالته المادية ليست سيئة وإن لم يعد ميسوراً كبيراً، وصار في ظرف ما رئيساً لبلدية يافا، ولبث فيها مدة غير قصيرة، وكانت مما قوى مركزه ووجاهته وشعبيته، وكان منسجماً في الحركة الوطنية سليم المواقف في بدئها حتى أنه ترأس الجمعية الاسلامية المسيحية بيافا. الى أن برز راغب النشاشيبي كرئيس كتلة معارضة للحاج أمين الحسيني والحركة الوطنية فانسجم معه فيها، وظل منسجماً معه في مختلف المواقف دون أن يكون قوي الاندفاع في العداء والكيد، ومع احتفاظه بشيء من الشعور والواجب الوطني وسلامة الموقف ازاء القضية الوطنية، وقد التقينا به مراراً وتعاونا عبر المؤتمرات واللجان والاجتماعات الوطنية، وقام بيننا ألفة ولكنها لم تصل الى صداقة حميمة.

وأظن أنه توفي هو الآخر في الأربعينات، ولسوف يأتي كلام آخر عن الاثنين في مناسبات آتية.

والكلام عن المؤتمر والوفد واللجنة التنفيذية لم ينته، وسوف نعود إليه بعد ذكر عملنا في مدرسة النجاح، لأن الأحداث التي سيدور الكلام عليها قد جرت بعد مباشرتنا العمل في المدرسة.

زيارتي للحاج أمين أثناء المؤتمر الرابع :

ولقد تم تعيين الحاج أمين الحسيني مفتياً للقدس أثناء وجودي في عمان، وقد شرحت كيفية وظروف تعيينه ومداه في الكلمة التي كتبتها عنه سابقاً، فنكتفي بذلك دون شرح جديد.

وإنما أقول إن الحاج قبل تعيينه أو عقبه تعمم ولبس الجبة واعتكف في بيته ليتكاثف شعر ذقنه، وقد زرته أثناء وجودي في القدس للمؤتمر الرابع أكثر من مرة مع بعض أعضاء وفد نابلس فريد العنبتاوي وحافظ آغا طوقان والدكتور مصطفى بشناق أثناء اعتكافه، وهنأته بالمنصب وتبادلنا أحاديث المستقبل والمشاريع والأعمال الوطنية والإسلامية التي يحسن أن يسار فيها، وما قد يكون له في منصبه الجديد من جهد ايجابي في ذلك، وكان يبدو مغتبطاً، ووعد ببذل كل جهد في سبيل ذلك، مؤملاً أن يلقى منا المساعدة والنصيحة، ووعدناه بذلك. وكان يقيم في بيت الأسرة في كرم في الشيخ جراح، ثم انتقل الى بناية أصلحها وهيأها لسكنه من بنايات الأوقاف داخل الحرم القدسي حينما صار رئيساً للمجلس الإسلامي، وظل فيه الى أن فر من القدس بعد تأزم الموقف وانذاره بالثورة وقتل اندروز حاكم القدس وعزل الانكليز له وحصار في الحرم على ما شرحناه قبل، ولقد بنى بيتاً جديداً عصرياً في الكرم المذكور ولكنه لم يسكن فيه، فكان يؤجره ثم باعه الى جورج انطونيوس الذي كان موظفاً في الحكومة الانتدابية وكان صديقاً له. وأنشأ بثمنه بيتاً كبيراً في المنصورية في لبنان على طريق برمانا اتخذه مسكناً له ومركزاً للهيئة العربية العليا.

***

5

عملي في مدرسة النجاح

ارتباك حالة المدرسة:

لما عدت من المؤتمر الرابع اتصلت بمدرسة النجاح لأعرف حقيقة الموقف الذي جعلهم يستدعونني، فعرفت أن المدرسة تمر في ظرف ارتباك، لأن أديب مهيار الذي عين مديراً لها بعد انسحاب علاء الدين حلاوة عجز عن المهمة، وأن المؤسسين كانوا فريقين: فريق يمارس التعليم في الوقت نفسه وهم داود طوقان والشيخ فهمي هاشم وجميل كمال وفارس السخن بالإضافة إلى أديب مهيار. وفريق مناصراً وهم إبراهيم القاسم عبد الهادي وكامل هاشم والحاج قاسم كمال.

قرار المؤسسين بتوسيع نطاق هيئتهم وتعييني مديراً:

وقد اتفقوا أولاً على توسيع نطاق المؤسسين، فقرروا أولاً ضمي وضم الدكتور مصطفى بشناق وحلمي المهندس وعبد السلام البرقاوي اليهم كمؤسسين، والأخير كان شاباً ذكياً نشيطاً يقيم في جنين، فرأوا فائدة في ضمه حيث يمكن أن يقوم بالدعاية للمدرسة في جنين وقراها.

أما الدكتور بشناق وحلمي المهندس فقد اختيرا لثقافتهما وجدّهما. وثانياً على عرض مديرية المدرسة عليّ بأمل أن أنهض بها.

صلاتي السابقة بالمدرسة:

وكانوا عرفوا نشاطي وبروزي في العهد الفيصلي في دمشق وقبله في فلسطين في الحركة الوطنية، ولم أكن غريباً عن المدرسة لأني كما ذكرت قبل راقني قيام المدرسة حين عدت من بيروت ورأيتها قائمة، وصرت كأني أحد مؤسسيها أتردد عليها دائماً وأسهم في التفكير في كيفية نهوضها ومنهجها، بل وكنت أعقد أحاديث اجتماعية وتاريخية ووطنية واسلامية للطلاب، فكان هذا على الأغلب ما جعلهم يقررون ضمي إلى هيئة التأسيس وعرض مهمة المديرية علي.

الشروط التي اشترطتها للقيام بالمهمة ومبرراتها وقبولها:

وقد رأيت أن أشترط شروطاً لتولي هذه المهمة، وهي أن تجمد صلاحيات المعلمين المؤسسين لأنهم يجب أن يكونوا ملتزمين واجب التعليم ومقتضياته، وهي مراقبتهم من قبل المدير وتوجيههم وكبحهم، أما اذا ظلوا أصحاب حق في القرارات الإدارية والمالية فإن ذلك يؤثر في هذا الواجب ومقتضياته، ويحول دون حزم الإدارة وكبحها نحوهم فمن لا يحب أن تتجمد صلاحياته كمؤسس فعليه أن يتخلى عن التعليم، على أن أكون أنا مستثنى من هذا التجميد، لأني مدير المدرسة المستهدف لنهوضها وتحسين أمورها فلا بد من أن يكون لي حق في المشاركة في القرارات الإدارية والمالية. ومن الشروط التي اشترطتها أن يكون المعلمون متفرغين للمدرسة، حيث كان بعضهم أي وصفي عبد الهادي وعزة عبده السجدي موظفين في حكومة فلسطين ومعلمين في المدرسة في الوقت نفسه، ورأيت أن هذا مما يؤثر على سير التعليم وترتيب المنهج اليومي، فيخيّران بين الإحتفاظ بعملهم في

المدرسة والتفرغ له أو التخلي عنه وتعيين بديلين عنهما متفرغين.

وقد قبلت أكثرية هيئة التأسيس شروطي، وجرى التخيير فوافق كل من أديب مهيار وفهمي هاشم وفارس السخن وجميل كمال على تجميد صلاحياتهم في التأسيس والتفرغ للتعليم وواجباته. واختار داود طوقان أن يحتفظ بصلاحية التأسيس ويتخلى عن التعليم، واختار وصفي وعزة البقاء في وظائفهم الحكومية والتخلي عن التدريس في المدرسة.

نشاطي في أثناء عطلة سنة 1921 لإعداد العمل في أول السنة الدراسية:

وفي أثناء العطلة المدرسية أي حزيران وتموز وآب سنة 1921، هيأت نظاماً لإدارة المدرسة والمعلمين وتعليمات للدراسة، وتعاقدت مع معلمين جدد لسد فراغ المنسحبين من التعليم، ولسد فراغ التعليم في صف جديد استعدادي كان قد تقرر إحداثه وهو الصف الاستعدادي الرابع، وكان ممن تعاقدت معهم جورج بارودي (لبناني) وهو خريج من الجامعة الأميركية ومتخصص في تعليم الرياضيات والطبيعيات، واسبريدون شاهين (لبناني) الذي رشح لنا لتعليم اللغة الانكليزية، وكان قد درس سنتين زيادة عن التعليم الثانوي في الجامعة الأميركية، وخليل خماش من نابلس الذي كان ضابطاً في الجيش الإنكليزي لتعليم بعض حصص في الرياضيات من جهة والقيام بمهمة مراقب عام للطلاب من جهة أخرى، وكان صارماً ومطيعاً للتعليمات ومنضبطاً، وساعد كثيراً في ضبط سلوك الطلاب وخروجهم ودخولهم ودوامهم. واستحضرت ما تحتاج إليه الصفوف من كتب مدرسية عربية وإنكليزية من بيروت ومصر، حيث رأيت هذا جوهرياً لانتظام الدراسة والتأثير على المعلمين والطلاب في بدء السنة الدراسية، ورتبت ميزانية للمدرسة، وكل ذلك لم يكن موطداً مستقراً، وطبعت مناشير وزعت في نابلس وقراها، وفي مدن فسطين الأخرى، مبشرة بعهد جديد للمدرسة العربية الإسلامية الوطنية، وداعية للإقبال عليها ولم يخب الأمل. فما حل وقت بدء الدراسة وهو أول أيلول 1921، حتى كان الإقبال حسناً من أهل نابلس وقراها والمدن الأخرى، وزاد عدد الطلاب زيادة حسنة داخليين وخارجيين على السواء، وقد جددت بعض المقاعد، والألواح والأسرة والأدوات المتنوعة للمطعم والمنامة وغرف الدرس، واجتهدت ليكون أول يوم البدء يوماً دراسياً، وعينته باصرار ودقة أوقات بدء الحصص ونهايتها والفرص أثناءها، وألزمت المعلمين بأن يكونوا على رأس عملهم بكل دقة، وكنت آتي للمدرسة مبكراً قبل أن يأتي أحد وأظل الى ساعة متأخرة في الإعداد والتحضير، وعهدت لأديب مهيار الأعمال الحسابية، مع بعض ساعات تدريس وسميته مديراً ثانياً لحفظ اسمه. وأخذت أنا أيضاً بعض حصص تدريس. وما أن حل أول يوم الدراسة المعين وهو أول أيلول 1921 حتى كان كل شيء مهيأ للدراسة والنوم والطعام والمعلمين والنظام والخروج والدخول، وأسبغ كل هذا على المدرسة جواً مهيباً وجاداً للمعلمين والطلاب وأهلهم على السواء، وكل ما تقدم صار تقليدياً مستمراً محافظاً عليه طيلة السنوات الست الدراسية التي توليت ادارة المدرسة فيها، من بدء السنة الدراسية 1921/1922 الى نهاية السنة الدراسية 1926/1927.

اعفاء خمسة في المائة من الطلاب الفقراء من الرسم:

وقد أخذت موافقة المؤسسين على جعل خمسة في المائة من عدد الطلاب الخارجيين من الفقراء معفيين من الرسم، على أن يختاروا من ذوي السلوك الحسن والاجتهاد، وصار هذا تقليداً.

أحاديثي الاسبوعية:

ومنذ السنة الأولى صرت أجمع طلاب الصفوف الإعدادية بعد ظهر كل ثلاثاء، وألقي عليهم محاضرة تدوم عشر دقائق في مواضيع أخلاقية وأدبية ووطنية وإسلامية وتاريخية واجتماعية، وكنت أسمح لمن يريد من الطلاب بطرح ما يريد من أسئلة في صدد الموضوع الملقى، وأجيب عليه. واستمر هذا التقليد طيلة السنوات الست، وكنت أدون خلاصة كل محاضرة في دفاتر صغيرة ضاعت فيما ضاع من أوراقي. على أني وجدت بين أوراقي دفتراً فيه نصوص كاملة لبعض هذه المحاضرات.

عناوين لنصوص بعض المحاضرات التي ألقيتها:

1 ـ الإنسان ابن عمله 2 ـ الترتيب 3 ـ كرامة النفس 4 ـ المزاح 5 ـ المسالمة. 6 ـ الاعتراف بالجميل 7 ـ الإخلاص 8 ـ انشراح الصدر والكتابة 9 ـ الفحص. 10 ـ الانتقاد 11 ـ الصداقة ولا سيما في المدارس. 12 ـ الإنسانية 13 ـ التقليد 14 ـ المثل الأعلى 15 ـ التكامل الاجتماعي 16 ـ المرأة العربية 17 ـ القرآن الكريم 18 ـ مدنية العرب في الأندلس.

النشيد الجماعي:

ومنذ الساعة الأولى خصصت خمس دقائق يجتمع فيها الطلاب جميعهم في الساحة أو في قاعة صباحاً قبل بدء الدرس، وأنا والمعلمون معهم لإنشاد نشيد وطني أو قومي جماعياً. واستمر هذا التقليد طيلة السنوات الست.

تقوية فرقتي الكشاف وكرة القدم:

وكان في المدرسة فرقة كشافة يتولاها جميل كمال، الذي كان تمرّس على الحركات العسكرية والكشفية في المدرسة ثم في الجيش، فاهتممت لتقويتها وتوسيع رحلاتها وتدريباتها، واستحضرت لها من مصر قطعاً موسيقية، وعينت معلماً للموسيقى هو فضل الله الجلبوش وكان قد تعلم الموسيقى في الجيش. وكان في المدرسة فرقة كرة قدم يتولى الإشراف عليها جميل كمال أيضاً فاهتممت لتقويتها وإقامة مباريات بينها وبين المدارس الأخرى في نابلس وغير نابلس.

تنظيم امتحانات موسمية ورعايتها في الامتحان العام:

ومن النظم التعليمية التي سننتها امتحانان خطيان في نهاية الشهر الثاني، ثم في نهاية الشهر الرابع، ومراعاة نتائجها في مجموع علامات الامتحانات العامة في آخر السنة، حيث رأيت في هذا إنصافاً للمجتهد الذي يخونه الحظ في الامتحان الأخير لسبب ما، وعدلاً بالنسبة لغير المجتهد الذي قد يخدمه الحظ في الأخير، وحفزاً للجميع على الإجتهاد.

حفل آخر السنة للخريجين والخاتمين:

ومنذ السنة الأولى صرنا نقيم في آخر السنة الدراسية حفلاً مزدوجاً لمن يختم القرآن في القسم الابتدائي، ولمن يتخرج من الصف

المطبعة العربية بمصر
لصاحبها
خير الدين الزركلي

مصر في ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٢٧

أخي الكريم حفظه الله

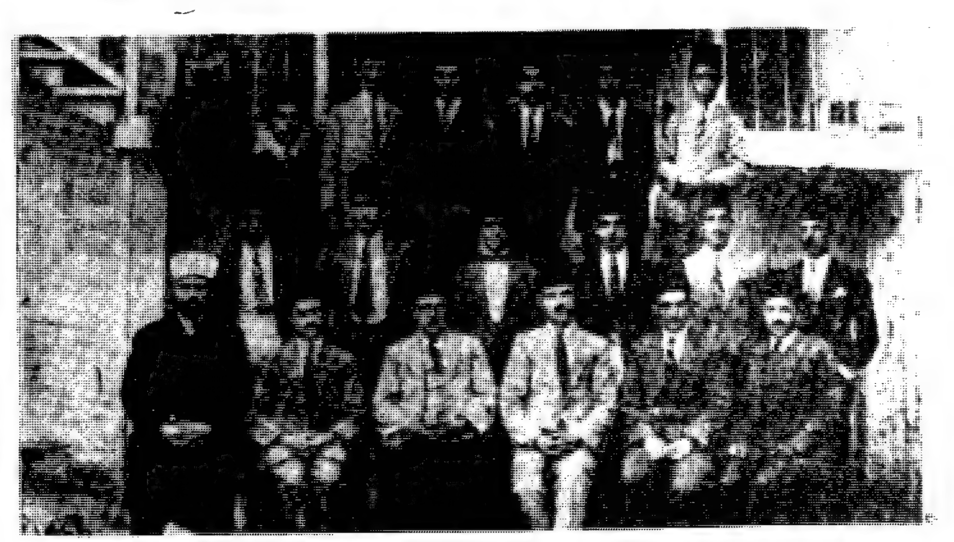
تحية وشوقاً. وبعد فقد أُطلعت الإخوان هنا على كتابك الذي أمّلنا من ورائه صلحاً تاماً دائماً شاملاً لا إلى بين الشورى ومدرسة النجاح، وقد شكر الجميع نزولك عند رجائهم. ومضت مدة سررنا فيها أنه لم يحدث من أحد الجانبين ما يخل بما التُمس منهما، حتى كان يوم أمس وبينما أنا آتٍ إلى محل عملي مررت بالأستاذ محمد علي أفندي فلم أجده وقيل لي إنه في المحكمة فقلقت لعلّ له مشكلة، وسألته في المساء فأخبرني بأنه دعي إلى الجلسة (التي كنا وكان يحسبها الأخيرة) فإذا بمحاميك يطلب تأجيلها وقد أُجّلت فعلاً. هذا ما حدث وقد أوّلته لمحمد علي أفندي بأنه من عنديات المحامي رغماً عن كتابتك إليه فلعل تأويلي مصيب للحقيقة.

وها أنا أكتب إليك راجياً أن تتفضل بإعلامي إن كان قد جدّ شيء يدعو إلى استئناف الخلاف، فليست الغاية إلا توحيد هذا الصف الذي يعتقد إخوانك هنا جميعاً بفائدة توحيده، جعلك الله من القائمين بالتوحيد، وللتوحيد!

وسلامي في الختام على أخي الكريم ومن تحب، والإخوان هنا كافة: شكري بك ونبيه بك وسامي بك وأسعد أفندي وداود إلخ يقرؤونك السلام، ودم لأخيك المشتاق:

خير الدين الزركلي

كتاب خير الدين الزركلي بشأن التوسط لحل الخلاف بيني وبين محمد علي الطاهر (جريدة الشورى) (ص 532).



الصف الاستعدادي الخامس في مدرسة النجاح الوطنية/ نابلس 1925 ـ 1926 . الجالسون من اليمين : الأستاذ أحمد طوقان ـ مستر أحمد هارلو (أمريكي الأصل ـ أسلَمَ) ـ الأستاذ جميل كمال ـ الأستاذ عزة دروزة (مدير المدرسة) ـ الأستاذ زكي نقاش ـ الشيخ فهمي هاشم . الواقفون : التلامذة الصف الأول ـ رشدي حنون (طولكرم) ـ أحمد عبد الرحمان (باقة الغربية) ـ مصطفى الحاج ديب رشيد (الكفير)ـــ ؟ ـــ عبد القادر الصالح (تلفيت) ـ عبد الله بشناق (قيسارية) الصف الثاني : حمدي الحمد (نابلس) ـ صبحي حجاب (نابلس) ـ ضياء عبده (نابلس) ـ مصطفى الحاج أحمد عبده (شويكة) ـ احسان النمر (نابلس) ـ محمد الغار (اللد) .



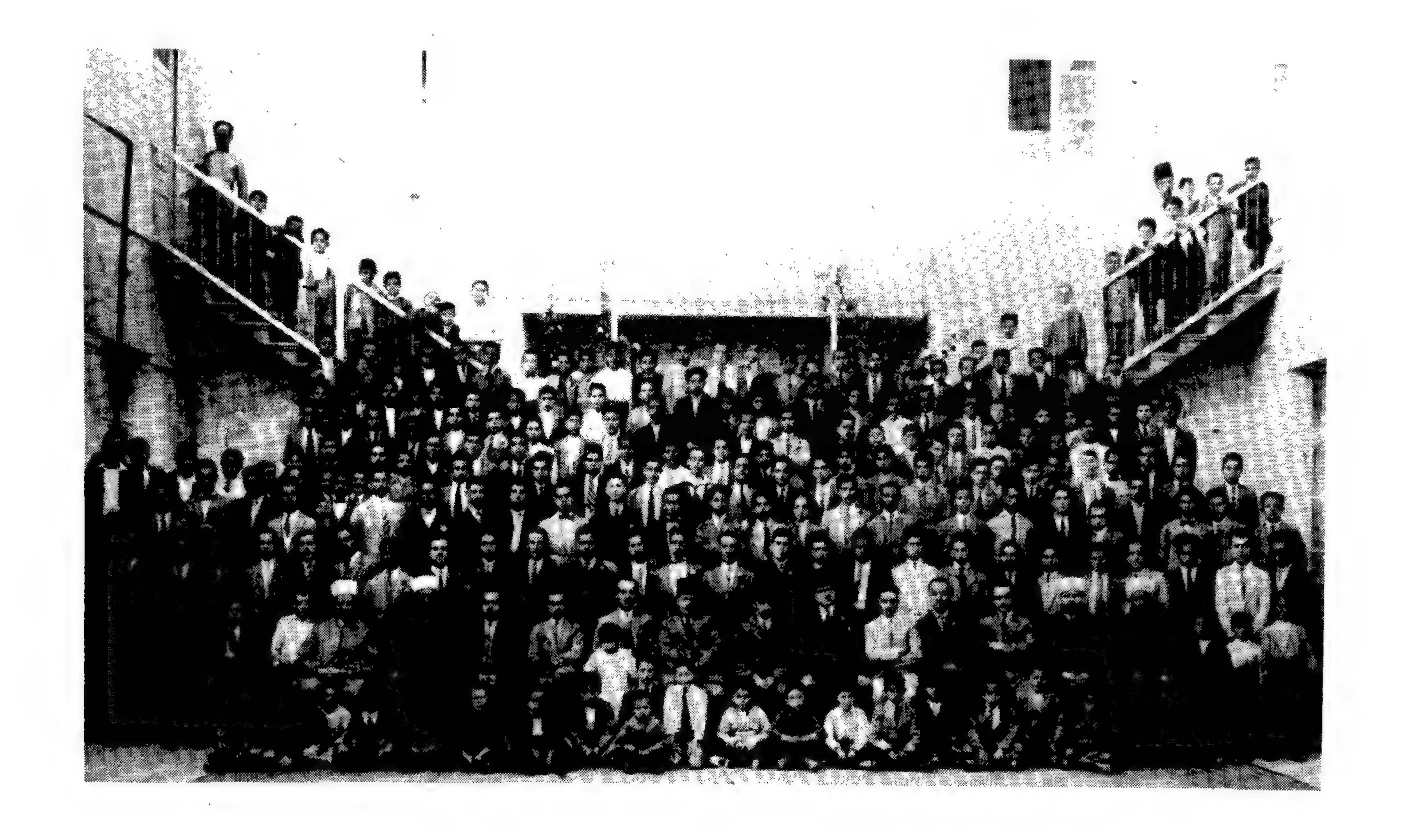
من اليمين الى الشمال : الجلوس على الارض : حيدر حلاوة ـ اكرم زعيتر . الجلوس على الكراسي : الأستاذ زكي نقاش (لبناني) ـ الشيخ فهمي هاشم ـ المدير الأستاذ عزة دروزة ـ الأستاذ عفيف سلمان (لبناني) ـ السيد حكمة المصري (طالباً) ـ أحد الطلبة الخريجين . الوقوف : الصف الأول : نصوح النابلسي ـ حمدي التاجي ـ أحمد الطاهر ـ صابر شنار ـ فريد السعد .
الصف الثاني ـــ ، ـــ ، سليم كمال ، أدهم حجاوي .

***

الصف الاستعدادي الخامس في مدرسة النجاح الوطنية بنابلس 1926/1927 .
الجالسون من اليمين : مستر هارلر ـ الشيخ فهمي هاشم ـ أستاذ اللغة العربية والدين ـ الأستاذ محمد عزة دروزة ـ مدير المدرسة وأستاذ التاريخ والتربية ـ الأستاذ جميل كمال أستاذ التاريخ والجغرافيا والكشافة ـ الأستاذ زكي نقاش (لبناني من بيروت) ـ أستاذ العلوم ـ الأستاذ حسن عرفات ـ أستاذ الرياضيات .
الصف الأول : عارف النابلسي ـ عادل جيوسي ـ راشد جيوسي ـ جمال الطاهر ـ رشاد حنون ـ حمدي كنعان ـ نعيم خوري ـ فارس حسن ـ حمدي السخن . الصف الثاني : رفيق صوفان ـ منير أبو غزالة ـ نعيم عبد الهادي ـ تحسين كمال ـ مهيب الخياط ـ توفيق بشناق ـ رؤوف حمزة ـ فريد بركة . الصف الثالث : خليل السخن ـ نعمان شلهوب ـ سعد الدين بسيسو ـ كمال حنون ـ سليمان الخضر ـ أكرم كعكور ـ جواد الخياط ـ محمد جرار .



أساتذة وتلامذة مدرسة النجاح الوطنية بنابلس سنة 1924 .



تلامذة وأساتذة مدرسة النجاح الوطنية بنابلس سنة 1926 ـ 1927 .

الأخير، ويكون الحفل مهرجاناً للمدرسة والطلاب وأهليهم، حيث كنا ندعو آباءهم في نابلس وخارجها، وكنت أخطب في الحفل السنوي فأذكر ما فعلناه في السنة وما نريد أن نفعله في السنة التالية، واتطرق إلى بعض المواضيع الإسلامية والأخلاقية.

تصوير الطلاب والخريجين:

وأحضرت في آخر السنة الأولى مصوراً فوتوغرافياً مشهوراً من يافا واسمه عيسى الصوابيني لأخذ صورة شاملة لجميع الطلاب مع الأساتذة، وصورة للمتخرجين مع أساتذتهم. وصار هذا تقليداً سنوياً.

تنظيم اجتماعات شهرية للمعلمين للنظر في مختلف الشؤون:

وقد عملت منذ السنة الأولى على عقد جلسة شهرية عادية للمعلمين باسم مجلس المعلمين للتدارس في شؤون المدرسة التعليمية والإدارية وشؤون الطلاب المتنوعة، وكنت آخذ بما تقرره الأكثرية، وكثيراً ما كانت هذه الأكثرية توافق على ما أطرحه على المجلس من إقتراحات. ورأيت في هذا التقليد معالجة نفسية للمعلمين من جهة، واستعانة بممارساتهم وخبرتهم من جهة أخرى. وكنت أعقد اجتماعات غير عادية لمجلس المعلمين في الأمور الطارئة الهامة. ومن النظم التي سننتها أن يكون طرد الطلاب المؤقت أو النهائي بقرار من هذا المجلس، على أن يصادق مجلس المؤسسين على الطرد النهائي.

استغراقي التام في المدرسة وأثره:

ولقد استغرقت في المدرسة منذ السنة الأولى استغراقاً شديداً، فكنت آتي قبل الطلاب والمعلمين صباحاً، ولا أقضي فترة الغداء في البيت إلا وقتاً قصيراً ثم أعود وأبقى إلى ما بعد انصراف الطلاب والمعلمين بساعة أو أكثر، وأراقب بنفسي الطلاب والمعلمين وسائر شؤون المدرسة، مصطنعاً الجد والحزم والمحاسنة معاً. وقد لمحت أن كل ذلك قد أثر في الطلاب والمعلمين وأهل البلد، وجعل لي هيبة وتقديراً واحتراماً، وكان ذلك مما يساعد على تصاعد اسم المدرسة ونجاحها، وكانت المدرسة فرصة لي لمتابعة القراءة وتوسيع ثقافتي الإسلامية والتاريخية والأدبية والإجتماعية.

المواضيع التي كنت أعلم حصصها:

وقد علّمت في السنين الست لصفوف متنوعة من المدرسة، مواضيع عديدة في الحصص التي كنتِ أفرضها على نفسي، منها تاريخ العرب والإسلام، ومنها الإجتماعيات، ومنها التجارة ومسك الدفاتر، ومنها دروس الأشياء، (وهي مزيجة من مواضيع كيمائية وفيزيائية مبسطة) للصفوف الابتدائية المتقدمة، ومنها طبقات الأرض الخ... و.

تأليف مختصر تاريخ العرب والإسلام:

وألفت كتاب مختصر تاريخ العرب والإسلام للصفين المتوسطين الأخيرين في جزئين وطبعتهما في المطبعة السلفية في القاهرة لمؤسسها وصاحبها محب الدين الخطيب، وكان كتاباً وجيزاً وشاملاً معاً تناول بأسلوب علمي وقومي تاريخ العرب قبل الإسلام، ثم تاريخ الإسلام في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والأندلس، وقد تكرر طبعه وتداولته مدارس أخرى في فلسطين وخارجها.

بحث في النزاع العنصري بين العرب وغيرهم:

وقد كتبت بحثاً بعنوان (النزاع العنصري بين العرب وغيرهم قديماً وحديثاً)، توخيت فيه شرح صلات الجنس العربي بالأمم الأخرى، وما كان بينه وبينها من صراع، وقد اطلع عليه رفيق التميمي وعمر الصالح البرغوثي وكلاهما ممن يشتغلون في التاريخ والتأليف، واعجبوا به، وقد ضاعت كراسات هذه البحث الذي كان في نحو (300) صفحة فيما ضاع من أوراقي ودفاتري. ولكن الفكرة بقيت في نفسي.

وقد كتبت بسبيل ذلك مسودات في الحركة العربية الحديثة شرحت فيها ما كان من يقظة العرب الحديثة وصلاتها بالحركة العربية القديمة، وما كان من صدام ونزاع بين العرب الحديثين والأمم التي كانت تحكمهم او تطمع في بلادهم، وقد كتبت هذه المسودات في اثناء لجوئي إلى تركية 1941 ـ 1945، وقد نقحتها ووسعتها وطبعتها في ست أجزاء بعنوان (حول الحركة العربية الحديثة) في الخمسينات، وبعد رجوعي من تركية شرعت في كتابة مسودات لتاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار، وهي تمت بتلك الفكرة واستمراراً لها، فكان منها أجزاء كتابي بالعنوان المذكور الذي طبع منه في الستينات ثمانية أجزاء واشتملت على تاريخ الجنس العربي القديم في جزيرة العرب، وموجات هذا الجنس القديمة إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام شمالاً ووادي النيل جنوباً، ثم تاريخ العرب الإسلامي تحت راية النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والأمويين.

مراجعتي ترجمة كتاب دروس فن التربية وطبعه في بغداد:

ولقد ذكرت سابقاً أني ترجمت عن اللغة الإفرنسية إبان إقامتي في بيروت 1916 ـ 1918 القسم النظري من كتاب دروس في فن التربية، فكانت المدرسة فرصة لمراجعته وتنقيحه، ثم كتبت لساطع الحصري عنه، وكان يصدر مجلة التربية في بغداد، فطلبه مني فأرسلته إليه فأعجبه الموضوع والترجمة معاً، وطبعه ملحقاً في مجلته، وكان ذلك في سنة 1926، وكان يحتفظ بكمية من الملاحق المطبوعة زائدة، فلما تم جمع الملاحق وصارت كتاباً أرسل لي منه مائتي نسخة بعت بعضها ووزعت بعضها، واحتفظت بنسخ منها لمكتبتي.

المقالات التي كتبتها أثناء المدرسة ونشرت في مجلتي الكشاف والمرأة الجديدة:

وقد كتبت وأنا في المدرسة مقالات وبحوثاً عديدة في التربية والأخلاق والاجتماع نشرت في مجلة الكشاف في بيروت والمرأة الجديدة في القاهرة والزهراء في القاهرة، وأحتفظ في مكتبتي ببعض مجلدات مجلة الكشاف والزهراء، وفيها بعض تلك المقالات. أما أعداد مجلة المرأة الجديدة فقد ضاعت فيما ضاع.

المحاضرات التي ألقيتها في الأندية:

وصار لي صيت علمي وأدبي واجتماعي خارج نابلس، فكنت أدعى إلى إلقاء خطب ومحاضرات في الأندية، ومما أذكره من ذلك محاضرة في نادي الشباب المسيحيين في القدس 1928 عنوانها: (التقليد ومداه وآثاره في حياة الإنسان). ومحاضرة في حفل سنوي لمدرسة الفرندس الأميركية في رام الله عنوانها:

(واجب المدارس في تخريج جيل صالح اخلاقياً واجتماعياً وعلمياً). ومحاضرة في يافا عنوانها (الحجاج الثقفي). ومحاضرة في الرملة عنوانها: (القومية العربية). وأخرى في اللد والبيرة عنوانها: (الاستقلال حق طبيعي). ومخطوطة التقليد والحجاج محفوظتان عندي، وعندي نسخة مطبوعة بكراس صغير لمحاضرة اللد، وهذا عدا ما كنت القيه في النادي العربي ونادي الشبان المسلمين في نابلس من محاضرات أسبوعية وشهرية في مواضيع متنوعة.

تلخيصاتي وتعليقاتي:

ولقد جنحت في فترة من فترات مطالعاتي إلى كتابة تلخيصات لما أقرأ، وتعليقات عليها، وبحوث ونظرات في مواضيع قائمة، ووجدت بين أوراقي كراساً ضخماً فيه (180) صفحة، فيها بعض ما سجلت من ذلك، وهذه عناوين ما في هذه الكراسة من بحوث وتلخيصات ونظرات لمعرفة نوعية القراءات والأبحاث والأفكار:

1 ـ كتاب ابن رشد وفلسفته (تأليف فرح انطون) تلخيص وتعليق.

2 ـ كلمة في ضجة البرنيطة.

3 ـ كتاب الحياة النباتية (تأليف أمين الغرب) ـ تلخيص وتعليق.

4 ـ ضجة طه حسين في أسلوبه وأبحاثه. كتبت هذا البحث في ظروف اشتداد هذه الضجة.

5 ـ عبرة في اعتصاب عمال الانكليز ـ كتبت في أثناء ذلك وبسبب ما ظهر من اخلاق الانكليز واعصابهم.

6 ـ كتاب روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة عادل زعيتر ـ تلخيص وتعليق.

7 ـ دمعة على فلسطين ـ اندبوها فليس من بلاد اسوأ حظاً منها ـ من وحي ما ناله العراق من استقلال.

8 ـ كتاب الأمير لما كيافيلي ـ ترجمة لطفي جمعة ـ تلخيص وتعليق.

9 ـ كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين ـ تأليف انطون زكري تلخيص وتعليق.

10 ـ كتاب نظرية التطور وأصل الإنسان ـ تأليف سلامة موسى. تلخيص وتعليق.

11 ـ كتاب في الشعر الجاهلي تأليف طه حسين ـ تلخيص وتعليق.

12 ـ كتاب آراء غربية في مسائل شرقية. مقالات مترجمة من قبل عمر الفاخوري ـ تلخيص وتعليق.

13 ـ الجزء الثاني في علم الاجتماع تأليف نقولا حداد ـ تلخيص وتعليق.

14 ـ بحث في اللغة العامية والفصحى. كتب رداً على مقالة نشرها سلامة موسى في مجلة الهلال.

15 ـ الطائفية السامرية. تلخيص لكتاب مخطوط عند الكاهن توفيق السامري في نابلس وقد أرسل البحث إلى محمد علي كرد علي فنشره في كتابه خطط الشام.

16 ـ كتاب الحرية تأليف جون ستوارت وتعريب طه السباعي ـ تلخيص وتعليق.

17 ـ الجزء الأول من تاريخ الأديان بالتركية تأليف الأستاذ م. شمس الدين ـ تلخيص وتعليق.

18 ـ كتاب الجزء الثاني من حديث الأربعاء لطه حسين ـ تلخيص وتعليق.

طلب محمد كرد علي مني بحثاً عن السامريين واستطراداً إلى ذكر شيء عنه:

ولقد أرسل لي محمد كرد علي رئيس المجمع العربي في دمشق كتاباً طلب فيه كتابة بحث عن طائفة السامرة في نابلس لكتابه خطط الشام، واستيفاء لما كتب عن طوائف بلاد الشام الدينية والمذهبية، فكتبت له بحثاً اعجبه واثبته في الفصل الخامس من كتابه، ثم أرسل إلي أجزاء كتابه هدية.

وأقول استطراداً إني وجدت مؤلف الكتاب متناقضاً تناقضاً عجيباً فيه، فهو أحياناً محقق ممحص واسع النفس والإطلاع، متأنياً صائب الفكر والتعليق، وأحياناً حاطب ليل كما يقال، حيث يورد الروايات والأخبار والأحداث ما يتحمل كثيراً من التوقف، دون تمحيص ولا تدقيق ولا توثيق ولا تعليق. ويقال هذا بالنسبة لكثير مما كتبه وألفه وبالنسبة لمذكراته أيضاً، حيث يحلق فيها احياناً إلى ذروة الصواب والتجديد، ويخلد أحياناً إلى حضيض الرجعية والتزمت. ولقد رأيته لأول مرة في دمشق سنة 1915 في إحدى سفراتي التجوالية التي ذكرتها قبل، حيث كان يصدر جريدة المقتبس، ويسير فيها في خط قومي عربي، ويتردد شباب العرب على جريدته، فتعرفت عليه ثم لقيته مرة أو مرتين في دمشق في حقبة فيصل، وكانت لقاءاتنا وأحاديثنا عابرة، ولم تنعقد بيننا صداقة وألفة، ولقد كان بدّل خطه الذي ذكرناه حينما كشّر جمال باشا عن انيابه لرجال الحركة العربية، فتزلف إليه وصار من حاشيته والمتملقين له، وذهب مع الوفد الذي أرسله جمال إلى الآستانة لمدحه وتأييده بعد شنقه القافلة الأولى من الشهداء، فكان هذا مما جعل شيئاً من الانقباض والإزدراء نحوه في حقبة فيصل، وحال دون لمعانه ونشاطه فيها. وفي عهد الاحتلال الإفرنسي تعاون مع المحتلين مع من تعاون معهم من رجال السياسة الذين صاروا مغموزين من الحركة الوطنية، وتقلد وزارة المعارف أكثر من مرة، فكان ذلك مما جعل الناس ينظرون إليه شزراً، وحال دون لمعانه ونشاطه السياسي في عهود الاستقلال لسورية.

على أن ذلك لا يمنع من تقرير كونه كان وصار من رجال العلم والأدب العرب المعاصرين، ومن بلغائهم ومتمكنيهم في الثقافة العربية والأدبية،وممّن أسدى للعلم والأدب العربي خدمات جليلة، خُلِّد بها بما كان له من جهد عظيم في إنشاء المجمع العلمي العربي ورعايته طيلة نصف قرن، وبما نشره من أبحاث وألفه وترجمه وحققه من كتب كثيرة فيها روائع عظيمة، وأغنى بها المكتبة العربية. وقد عمر طويلاً حتى تجاوز التسعين، وتوفي في أواخر الستينات رحمة الله عليه.

نشري أبحاثاً وتعليقات في جريدة النداء البيروتية التي أصدرها كاظم الصلح وشيء عنه وعن أخيه تقي الدين:

كذلك مما كان أن كاظم الصلح من شباب بيروت العروبيين القوميين أصدر في أثناء عملي في النجاح مع بعض رفاقه جريدة (النداء) التي التزم فيها خطاً قومياً استقلالياً وحدوياً أرسل إلي يطلب موافاته ببعض الأبحاث والتعليقات فكنت أختلس وقتاً من فراغي، فأكتب وأرسل فينشر، وقد فعلت ذلك مرات عديدة. وبالمناسبة أقول إني فيما بعد تعرفت عليه وعلى أخيه تقي الدين، وهما أصغر مني وكاظم أكبر من تقي، وكانا وظلا على خط قومي وحدوي استقلالي، فصار بيننا انسجام. وقد صارا يُعدّان من

رجالات العرب القوميين الوحدويين وإن لم يبلغا مبلغ رياض في ذلك، وقد عينه رياض سفيراً، وقد برزا بعد موته في المجال السياسي، وكان كاظم سفيراً لبلاده في العراق ثم نائباً في المجلس النيابي اللبناني مرة، وحيث صار تقي الدين رئيساً للوزارة في السبعينات وما يزال الآن على قيد الحياة[1].

نجاح السنة الأولى للمدرسة ووفر في المال وزيادة مرتبات المعلمين:

وأعود بعد هذه الاستطرادات إلى سياق عملي في مدرسة النجاح، فأقول إن السنة المدرسية الأولى 1921 ـ 1922 قد انتهت بنجاح تام، واستطعت أن أوفر ثلاثمائة جنيه بعد جميع النفقات، واقترحت تحسين مرتبات المعلمين، ووافق المؤسسون على ذلك، حيث زدنا مرتب من مرتبه دون العشرة جنيهات 10٪ ومن مرتبه فوق العشرة جنيهات 5٪.

وأريد أن أستطرد إلى ذكر معكّر نفساني نجم منذ السنة الأولى لعهدي، واستمر إلى نهايته وإن لم يؤثر على حماسي واستغراقي ونجاحي في حلمي، وأعني به وقوف بعض أعضاء من هيئة التأسيس موقف المناوأة لي والتشويش علي، وقد ظهر أن شروطي التي قبلتها. أكثرية هيئة التأسيس لم ترق لبعض الأعضاء. ولقد كانت أكثرية المؤسسين تؤيدني وتظهر حماسها وارتياحها لاقتراحاتي وتوافق عليها، فلم يكن للمناوئين مكان للتعكير عليّ في هيئة التأسيس. ولقد أثاروا في إحدى الجلسات عملي في الحركة الوطنية وسكرتيريتي للجمعية وعضويتي في المؤتمر ولجنته التنفيذية، وقالوا إن كل ذلك مضرّ في المدرسة ومؤثر في نشاطي وتفرغي لها، وطلبوا انسحابي منها أو من المدرسة، ولكن أكثرية المؤسسين قالوا إن ذلك مما يفيد في تقوية مركز المدرسة وصبغتها الوطنية، وكانوا يرون شدة استغراقي في المدرسة دون أن يتأثر ذلك بنشاطي في مجال العمل الوطني وما كنت ابذله من طاقة هائلة للتوفيق بين الأمرين فرفضوا الإقتراح، وايدوا بقائي في العملين.

حملة محمد علي الطاهر عليّ وعلى المدرسة في جريدة الشورى:

وحينما أصدر محمد علي الطاهر جريدته (الشورى) في القاهرة سنة 1924، استغل المعكّرون هذه الجريدة التي كانت تفتح صدرها للأقاويل، ولقد جرت انتخابات المجلس الاسلامي الثانية في سنة 1924، وترشح عبد اللطيف صلاح، وترشح أمين التميمي للعضوية، وكنت من جهة أمين وكان الحاج قاسم كمال وجماعته من جهة عبد اللطيف، وكان محمد علي الطاهر مؤيداً لهذا، وأسرته مؤيدة له، فصار يكتب في جريدته نبذاً يحمل فيها عليّ وعلى المدرسة، وكنت سابقاً أكلّف محمد علي ببعض مهمات يقضيها للمدرسة، وكانت صلتي به حسنة، فكتبت له أنبهه الى ما في حملاته من إساءة لمدرسة وطنية عربية إسلامية سدت فراغاً في التعليم الوطني، ولكنه استمر في حملاته نتيجة لتحريض المعكّرين، وظن أن ذلك مما يروج جريدته في نابلس أيضاً. وقد رأيت أن أرفع ضده قضية ذم وقدح أمام المحاكم المصرية لإسكاته، وشجعني على ذلك ابن عم له يقيم في القاهرة هو زكي بن صادق الطاهر وابن اخت الشيخ فهمي هاشم الذي كان منسجماً معي كل الانسجام، فوكلت

(1) توفي في بيروت سنة 1989 .

محامياً وأرسلت إلى زكي مبلغاً لذلك، وأقام المحامي الدعوى وكان الحكم ضده قوي الاحتمال، فهرع إلى الدكتور عبد الرحمن شهبندر وخير الدين الزركلي يرجوهما أن يكتبا لي بإسقاط الدعوى، ويتعهد لهما بالكف عن حملاته. وكان يعرف معرفتي وصلتي بهما في عهد فيصل، وجاءني فعلاً منهما كتاب يلحان علي بذلك، فاستجبت لهما لأن المقصود هو كف الحملات والافتراء وقد تم ذلك فعلاً.

كلمة عن محمد علي الطاهر:

وكلمة عن محمد علي الطاهر مادام ورد ذكره، ولقد كان الإنكليز عينوه في بدء الإحتلال موظفاً في بريد نابلس، ولما عدت من بيروت رأيته يعمل في هذه الدائرة. ولقد نشأ قبل في يافا حيث كان فريق من بيت الطاهر اتخذوها وطناً ثانياً لهم، وكان أبوه قد هاجر إلى مصر، ففتح دكاناً في سوق الخليلي يبيع فيه زيت الزيتون الفلسطيني الصافي بالقوارير، وصار يدعو بعض المعروفين للتردد عليه، وكان يقدم لهم الشاي، فصارت دكانه بمثابة ندوة لهم يترددون عليها. وكان ذكياً نشيطاً كثير الحركة متحدثاً، ولابأس في قلمه، فأنشأ في 1924 جريدة الشورى أسبوعية، وامتد صدورها نحو عشر سنين، وكان يناصر فيها وبنشاطه الشخصي في مصر القضية الفلسطينية والقضايا العربية وبخاصة قضايا المغرب العربي وحركاتها التحررية ورجالاتها حينما يأتون إلى مصر. وقد جعل من مكتب الجريدة، الذي كان في مسكنه، ندوة، وكان يدعو الأشخاص المعروفين بالعروبية في مصر، وزوار مصر العروبيين والمغاربة إليها، ويهيء لهم فرصة التجمع والحديث عن القضية الفلسطينية والسورية وقضايا المغرب العربي، فصار بذلك شهيراً أيضاً، ولقبه الناس بسبب ذلك بالمجاهد، ولقد رد رجال المغرب العربي - (تونس والجزائر والمغرب والاقصى) له الجميل حينما استقلت بلادهم في الخمسينات والستينات، فمنحوه الأوسمة والهدايا، ومنهم من رتب له مرتباً، وكان خدوماً لأصحابه يقضي لهم حاجاتهم ويهتم بهم حينما يزورون مصر، فكان لهذا أيضاً أثر في شهرته وترديد إسمه. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية طارده الإنكليز بسبب نشاطه الوطني والعربي، ولكنه استطاع أن يفلت من يدهم، ثم تشفع به رئيس الوفد المصري مصطفى النحاس حينما صار رئيساً للوزارة أثناء الحرب. ولقد كان إلى ما تقدم شديد الانفعال شديد الاعتزاز بنفسه والبروز والتقدم في الجلسات والمواقف، ويحب تكريم الناس له. وكان متشبثاً برأيه، ولا يطيق من أحد رداً على رأي له أو قول يقوله، ويقابل ذلك بحدة وعنف، ويريد ممن يعرفه أن يصادق من يصادقه ويعادي من يعاديه، وكثيراً ما عادى أصدقاء له بسبب ذلك. وفي الجملة أنه ذو مزاج عجيب، وأن من يعرفه يكون بين أمرين إما أن يكون أسير هذا المزاج ويبقى معه على وفاق، وإما أن يتمرد عليه ويصبح خصماً له. . وقد استقر أخيراً في بيروت وقضى بقية أيامه فيها، وظل محتفظاً بنشاطه ومزاجه إلى أن توفاه الله في السبعينات وقد كان يتردد على دمشق فيزورنا ونتداول معاً في شؤون القضية العربية والقضية الفلسطينية وحسنت علاقاتنا معه. ومن الحق أن اسجل أن محمد علي الطاهر كان صلب العقيدة وطنياً فلسطينياً وعربياً ووحدوياً، وكان له نشاط في كل ذلك على صفحات جريدته الشورى، وفي نطاق ما أنشأه في مصر من لجنة سماها «لجنة

شؤون فلسطين» رحمة الله عليه.

استعدادي للسنة الدراسية الثانية وجولتي في مدن فلسطين مبشراً بالمدرسة وفكرتها:

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى سياق جهدي في المدرسة، فأقول بأني أخذت أستعد للسنة الثانية بحماس ونشاط، ولقد رأيت من المفيد للمدرسة ولفكرة التعليم الوطني الحر أن أقوم بجولة في مدن فلسطين داعياً مبشراً ونفذت العزيمة، وكان رفيقي في الرحلة الشيخ فهمي هاشم الذي توثقت الصداقة الحميمة بيني وبينه أكثر من غيره من الأساتذة، فبدأنا بجنين ثم ذهبنا إلى قرى رمانة واليامون والسيلة الحارثية وام الفحم وعارة، وكان في المدرسة طلاب من جنين ومن هذه القرى. وفي طريقنا من أم الفحم إلى عارة جمح بي الحصان الذي كنت أركبه فسقطت عنه، وكان رضة شديدة أعجزتني عن السير، وكان معنا بعض طلابنا من أم الفحم فذهبوا وأتوا بعربة حملتني حيث بت في بيت اليونس في عارة، وكان لهم ولد اسمه محمود اليونس طالباً في المدرسة، وفي الصباح وقد استعدت نشاطي ركبت مركبة إلى حيفا بطريق زمارين، وقضينا في حيفا يومين، وخطبت في حفل الوجهاء والمثقفين الذين اجتمعوا في بيت أبي الخير الموقع، وبدعوة منه وهو تاجر من دمشق يقيم في حيفا وكان محترماً ووطنياً ومساهماً في الحركة الوطنية وله ابن عندنا هو عادل.

وقد أدرت كلامي على ما بلينا به من البلاء المزدوج اليهودي الإنكليزي وما نحن فيه من جهل وتخلف وحاجتنا الماسة إلى العلم والثقافة الوطنية التي تمنحنا قوة على الصمود أمام هذا البلاء، وأن هذا لا يضمنه إلا المدارس الوطنية العربية الحرة مثل النجاح، لأن مدارس الحكومة تسير على مناهج مناقضة لذلك أو مهملة له على الأقل، وهذا يوجب على المثقفين والميسورين والوطنيين المسلمين والعرب تأييد وتعضيد فكرة انشاء المدارس العربية الوطنية الحرة. التي نرجو أن تكون مدرسة النجاح النموذج الحسن لها.

وقد كان لخطابي وقع حسن، وطلب المستمعون مني أن أزيدهم معرفة بكل ما يتصل بالمدرسة ومنهجها ورسومها، ووعدوا بتأييدها، وكنت قد أعددت منشوراً في الفكرة وفي منهج المدرسة وأحوالها وأقساطها وترتيباتها، فوزعته عليهم، وكان لذلك نتيجة حسنة، حيث جاء للمدرسة في هذه السنة أكثر من عشرة تلاميذ من حيفا من بيت السراقبي وحنون والماضي والبشناق وقزيها والحوري، وجاء وقت كان طلاب حيفا وقراها في المدرسة عشرين، منهم خمسة من آل كتخدا البشناق، وخمسة من آل الماضي.

ومن حيفا ذهبنا إلى عكا فطبريا فصفد فالناصرة فبيسان، وكنت أدعو الناس في هذه المدن إلى اجتماع في المساجد وأخطب فيهم، نحو خطبتي في حيفا، وأوزع عليهم المنشور. وبعد العودة إلى نابلس والاستجمام بضعة أيام استأنفنا الرحلة إلى غرب فلسطين وجنوبها، حيث زرنا طولكرم ويافا واللد والرملة وغزة، وخطبت في مساجدها والتقيت بزعمائها ومثقفيها ووزعت المنشور فيها.

حسن نتائج الجولة:

ولقد بلغ عدد الطلاب الداخليين في هذه السنة نتيجة لهذه الجولة والدعاية نحو (85) اي بزيادة نحو 40٪ من السنة السابقة، وكان هذا رقماً مهماً في ذلك الوقت، فضلاً عما كان من

تنبيه وتوعية في صدد التربية الوطنية الحرة أسفرت عن إنشاء مدارس إسلامية وعربية حرة في حيفا ويافا وغزة واللد، وكان القسم الاستعدادي في المدرسة ينقصه صف حتى يصبح كاملاً ويتأهل خريجه للدخول في صف الباكالوريا أو الفرشمن في الجامعة الأميركية.

زيادة صف جديد استعدادي، والمعلمون الجدد الذين تعاقدت معهم:

لهذا قررنا زيادة هذا الصف، وأعلنا ذلك لطلاب الصف الأخير، وجاءنا توكيد منهم بالقدوم لإتمام دراستهم. وقد تعاقدنا مع أحمد القاسم وهو من أم الفحم ومن آل السعد وخريج من الجامعة الأميركية في العلوم، ومع زكي النقاش من بيروت وهو خريج نفس الجامعة بالتاريخ والجغرافية والإنكليزية ومع عفيف سلمان وهو من الشويفات وخريج الجامعة الأميركية للرياضيات، بعد ان كان يدرسها بكر عبد الحق وهو خريج السلطاني ومتمكن في الرياضيات. وقد اكتشفنا في أثناء السنة السابقة أن اسبريدون شاهين غير متمكن في اللغة الإنكليزية بقوة، ولكنه ذا هواية في الألعاب المتنوعة (كرة قدم وألعاب قوى) فقررنا الاحتفاظ به لذلك مع إعطائه حصصاً في الصفوف المتأخرة في اللغة الإنكليزية. وبحثنا عن كفىء لتعليم هذه اللغة للصفوف المتقدمة، واهتدينا إلى رجل أميركي مسلم اسمه هارلو، وقد أضاف إليه اسم عبد الله فتعاقدنا معه. وكان حقاً كفؤاً من جهة وذا أخلاق حميدة ومتحمساً لواجباته الدينية والإسلام من جهة أخرى.

ولقد قررنا تعليم اللغة الإنكليزية في الصفوف الإبتدائية الرابع والخامس أيضاً، واحتجنا إلى معلم آخر لذلك، فرشح لي عبد السلام البرقاوي سعيد العبوشي وهو ملم بهذه اللغة حيث تعلمها في مدرسة انكليزية، ورشح لنا الحاج قاسم كمال وصفي العنبتاوي وهو ملم بها وتعلمها في مدرسة انكليزية ايضاً. وعبد السلام والحاج قاسم من هيئة التأسيس، فرأيت تخلصاً من الحرج أن أعقد امتحاناً للإثنين يشرف عليه المهندس حلمي احد أعضاء هيئة التأسيس، وكان ملماً باللغة الإنكليزية، والقسيس الياس مرمورة على ما اذكر وهو ضليع فيها. وكان سعيد في الإمتحان هو الانجح فتم تعيينه. وكان هذا من حسن حظ وصفي، اذ تيسر له بعد ذلك أن يذهب إلى بريطانيا ويتم دراسته في جامعة أوكسفورد وينال إجازة في التاريخ والجغرافية ويصبح أستاذاً في كلية المعلمين في القدس، ثم يبرز كأستاذ جامعي متخصص له مكانته العلمية والأدبية. ولقد ظل سعيد في الوظيفة نحو سبع أو ثماني سنين، وربما لو كان وصفي هو الأنجح لبقي في المدرسة معلماً ولما انفتح امامه هذا الباب الواسع.

ولقد أعددنا في أثناء العطلة ما يلزم من كتب وتعليمات وترتيبات، حتى إذا حل موعد بدء الدراسة كان كل شيء معداً، فبدأ الدرس بانتظام وجد من أول يوم، وكان إقبال أهالي نابلس كبير أيضاً، وامتلأت الصفوف بالطلاب الداخليين والخارجيين، وامتلأت الأسرّة بالداخليين، حتى لم يبق محل لزيادة. وحتى لقد وفرنا في آخر السنة أربعمائة جنيه زائدة عن جميع نفقات المدرسة، وصار الوفر سبعمائة جنيه.

وأوحى لي هذا أمرين: الأول إيجاد مخرج لمتخرجي الصف الاستعدادي الخامس الذي يتأهل خريجه للمتربكوليشن أو الفرشمن كما قلت

قبل. والثاني إيجاد بناية صالحة للمدرسة.

اتفاقية مع الجامعة الأميركية على قبول خريجي المدرسة للفرشمن بدون إمتحان:

ولم يكن أمامنا إلا الجامعة الأميركية في بيروت، فاتصلنا بها وعرضنا عليها أن تفسح المجال لخريجي هذا الصف بالانتساب إلى الفرشمن (الصف الأول العلمي) في الكلية فوافقت مبدئياً، وأرسلت بعثة للدرس والفحص على الطبيعة، وكانت مؤلفة من أستاذ أميركي لم أعد أذكر إسمه، ومن الأستاذ بولس الخولي عميد قسم التربية في الكلية المذكورة. وقد جاءا في منتصف السنة الدراسية ودرسا منهج المدرسة وفحصا بعض طلاب الصفوف الاستعدادية الأخيرة، ولم نلبث أن تلقينا كتاباً من رئيس الجامعة بالموافقة على قبول طلاب الصف الاستعدادي الخامس الذين ينجحون بنسبة حسن وجيد، أي 65٪ فما فوق بدون امتحان. وكان لهذا القرار وقع حسن عندنا وعند الطلاب أيضاً.

وضاعفنا جهودنا وأعطينا للناجحين بالنسبة المذكورة وثائق لتقديمها للجامعة قبلتهم بها. وكان الفوج الأول أربعة طلاب بقي في ذاكرتي منهم اسم اكرم زعيتر من نابلس، فريد السعد من ام الفحم وحكمت المصري من نابلس. ولقد اتم الفوج دراسته وحصل معظمهم على إجازة البكالوريوس في العلوم والسياسة والاقتصاد، وبرزوا في فلسطين.

ولقد كنت ذكرت أنه كان في القدس مدرسة عربية وطنية إسلامية حرّة هي روضة المعارف التي كان مديرها الشيخ محمد الصالح، ويشترك معه فيها ويرعاها الحاج أمين الحسيني واسحق درويش وعبد اللطيف الحسيني والشيخ حسن أبو السعود، وصار إسحق مديراً لها، ثم خلفه في المديرية عبد اللطيف، ولقد حذوا حذونا فاتصلوا كما اتصلنا بالجامعة الأميركية، وذهبت البعثة إلى مدرستهم ودرست وفحصت ثم قررت الموافقة على قبول طلابها للفرشمن بدون امتحان.

الافواج التي تخرجت من المدرسة وبروز كثير منهم في مختلف المجالات:

وصار يذهب كل سنة فوج من النجاح وآخر من الروضة، وبلغ عدد من ذهبوا من النجاح إلى الجامعة الأميركية فوجاً بعد فوج طيلة السنوات الست التي قضيتها في مديريتها نحو أربعين، واستمر الأمر بعد تركي المدرسة على نفس المقياس، فكان يذهب فوج بعد فوج إلى الجامعة الأميركية ممن كانوا في صفوف متأخرة في زمني، كما كان يذهب من هؤلاء أفواج إلى معاهد أخرى، بحيث يمكن أن يكون عدد الذاهبين إلى الجامعة والمعاهد الأخرى ممن كانوا تلامذتي أكثر من مائة وخمسين، وكثير منهم برزوا في مجال العلم والسياسة والفن والعمل والاقتصاد والحركة الوطنية، وهذا فضلاً عن عدد مماثل من تلامذتي اكتفوا بدراستهم في النجاح ونشطوا وبرزوا في مختلف مجالات العلم والسياسة والعمل والإقتصاد والحركة الوطنية.

أسماء كثيرة منهم من أهل نابلس والمدن والقرى وردت على ذاكرتي:

وفي ذاكرتي أسماء ووجوه عدد أكبر من كل هؤلاء منهم من أسرة كمال: واصف، ووصفي، وشوكة، ونشأة، وجواد، وتحسين، وسليم، وأكرم، ونصفة، وبرهان، وحاتم، وصديق.

ومن أسرة هاشم: شوكة، وجعفر، وخليل،

ويوسف، وإحسان. ومن أسرة حماد: نعيم، وعادل، وخيري، وعباس، وعدنان.

ومن أسرة النابلسي: تيسير، وبهجة، وجودة، واخوته، وعارف، وعبده، وإبراهيم، وخليل، وفيصل، وممدوح، وسميح.

ومن أسرة كنعان: حمدي، وأنور، ومهيب، وسميح، ونهاد.

ومن أسرة التميمي: عادل، وعدنان، ومحمود، وعبد العزيز، ووصفي.

ومن أسرة شاهين، حسني وأخوه، وروحي.

ومن أسرة زيد: ممدوح، وخيري.

ومن أسرة أباظة: عادل، وواصف.

ومن أسرة عبد الهادي: نعيم، ومدحت، وأحمد، وخليل، وعلي، وقاسم، وصبيح وأشرف.

ومن أسرة الخماش: خضر، وموسى، وأيوب، وجودة.

ومن أسرة العمد: محمد، وحمدي.

ومن أسرة طوقان: قدري، ويوسف، وحسن رحمي، ونعيم، وغالب.

ومن أسرة الخياط: مهيب، وجواد.

ومن أسرة المصري: حكمت، ونشأة. ومن أسرة القمحاوي: رفيق، وصديق.

ومن أسر متفرقة: أكرم زعيتر، وممدوح السخن، وناظم السخن، وحمدي السخن، وفوزي العقروق، وعمر صلاح، وأحمد الطاهر، وكمال الطاهر، وجودة تفاحة، ومحمد الأدهم، وناظم الحبش، ورفيق الحبش، وناظم القادري، وراضي القادري، ونافع الخطيب وأخوه، ومنيب أبو غزالة، وحمدي خلف، وطارق بشناق، وحمدي العالول، وصابر الشنار، وإحسان النمر، وحنا اغابي، ونعيم ووديع خوري، وعفيف خوري، والبير مزبر، وهؤلاء من نابلس. ولا بد أني نسيت كثيرين آخرين من طلاب نابلس مثل عدد من تذكرت أو أكثر.

ومن أبناء القرى الذين تذكرتهم: محمود اليونس من عارة، وعبد القادر الصالح من تلفيت، وإبراهيم الميسلط وراشد الزعبي، وحسن الزعبي من طوباس، وعادل المسعود من برقة، وعبد الله الفياض من دير الغصون، ومصطفى الأحمد من شويكه، ومصطفى أرشيد وياسين أرشيد، عبد الرحيم أرشيد من الكفير، وفريد السعد من أم الفحم، وشكري أبو حجلة من سنيريا. وآخرون من آل أبي حجلة من هذه القرية ومن دير إستيا نسيت أسماءهم. وعبد الرحيم محمود من عنبتا وطلاب من آل الطاهر من يعبد. ومن آل الجرار في جبع وبرقين وصانور نسيت أسماءهم. وفائق المحمد من اليامون، وسليم الأحمد وجمال مصطفى الأحمد من رمانة، وعبد اللطيف اليوسف من السيلة الحارثية، وسليم الأمين من عرابة، وعادل السمارة من ذنابه، وفارس الحمدان وأحمد عبد الرحمن من باقا الغربية، ومدحت أبو هنطش من قاقون، وهاشم السبع وابراهيم الشنطي وصادق الشنطي من قلقيلية وطلاب من الطيبة نسيت أسماءهم، ولطفي الماضي واخوته من أجزم ورشاد وحلمي حنون من طولكرم. وقد نسيت ولا شك عدداً مثل ما ذكرت أو أكثر من تلامذتي من أهل القرى.

وممن ورد إلى ذاكرتي من أهل المدن: حسني ومنير الحوري، وعبد الرحمن الحاج ابراهيم، وعبد الفتاح حنين، وتوفيق وفؤاد وعزة وعبد الله ومحمد كتخدا بشناق، وعادل الموقع من حيفا، وموسى ومحمد عبد الهادي من بيسان، وعبد العزيز الزعبي من الناصرة وحامد

النحـوي من صفـد، وسعـد الـدين بسيسـو وعبد الحق عبد الشافي وأخوه حيـدر من غزة، وجمال سليمان التاجي وأخوه حـارس، وعادل عبد الرحمن التاجي وحمدي التاجي ومصطفى التاجي واخوته من الرملة، وصبحي الموقت من القدس، ونعمان طهبـون من الخليل، وسعيـد الشنير وممدوح ونصوح ويوسف وسهيل ومفيد أولاد حافظ النابلسي ويوسف سعيد النابلسي من يافا، ومصـطفى السهلي وفريـد كساب وأخـوه رشيد كساب من حيفا، وشوقي العبوشي وبرهان العبـوشي من جنين، ومحمد كمـال اسماعيـل وأحمد كمال اسماعيل من طولكرم، وسليمـان النـابلسي من السلط. وطلاب آخـرون نسيت اسماءهم من يافا من آل شهاب الدين ومن آل أبي الهدى وغيرهم، وقد نسيت كذلك أسماء كثيرين آخرين مثل عدد ما ذكرت أو أكثر.

ولقد التقيت في مناسبات مختلفة بعد تركي المـدرسـة بكثيـر من هؤلاء الـذين ذكـرتهم ونسيتهم، فكـانوا يـذكرون مـدرستهم باعتـزاز ويكبرون جهودنا ورعايتنـا لهم بالخيـر والحمد والاحترام. وهكذا انتشـر اسم المدرسـة وأمَّها أفواج الطلاب سنة بعد سنـة من معظم مـدنها وكثير من قراها، وكان الانتساب اليها من دواعي الاعتزاز الوطني.

قدوم طلاب من المغرب الى المدرسة:

ولقد تعدى اسمها نطاق فلسطين ووصل إلى بلاد المغرب العربي، وجاءنا في سنة 1928 من تطوان وغيرها سبعة فتيان هم الطيب والمهدي ولدا الحاج محمد عبد السلام بنونه، ومحمد أفنان وعبد السلام بن جلون، ومحمد عبد السلام الفاسي، ومحمد عبد السلام الخطيب، ومحمد محمـد الخطيب. وجـاء بعد تـركي المدرسـة إدريس أخو الطيب، وأحمد بن عبد الـوهاب، ومحمد بن جلون، وعبد الله الخطيب، ومحمد ابن جالس، وعبـد الكـريم الفاسي، ومحمـد الحسيس، وأحمـد مدينـة، وأحمد بن عبـود، وعبـد الكريم بنـونه، وكـانوا نشيـطين جـادين نظيفين يحرصون على القيام بواجباتهم الدينية مما أكسبهم تقديري وتقدير الأساتذة ومحبتهم، وكـانت لهجتهم مغربيـة، ولكنهم لم يلبثوا أن اعتـادوا لهجتنا واعتـدنا عليهم في آن واحـد. ومما كان من أمرهم أن آباءهم أمـروهم أن لا يعودوا من فلسطين أيام العطل ويبقوا إلى أن يتم تخـرجهم من المدرسـة، وأن يقضوا عـطلتهم عندنا لأن السلطات الافرنسية قلقت من ذهابهم للدراسة في خارج البـلاد، وربما حـالت دون عودتهم إلى مدرستهم إذا جاءوا في العطل. وقد ظلوا عندنا وكنا نرسلهم إلى بعض مدن سوريا ولبنان مع بعض الاساتذة في العطل للاستجمام والاطلاع، ونسبغ عليهم رعاية وعناية خاصتين.

الاهتمام لاتخاذ بناية صالحة للمدرسة:

أما الأمر الثاني الذي أوحاه إلى حسن حال المدرسة والإقبال عليها، فهو إيجاد بناية صالحة تشتمل على مختلف المرافق الوافية بحاجاتهـا واحتمـالات توسعهـا، حيث كانت بنايتهـا التي قامت فيها منذ نشأتها غير صالحة وغير كافية. وقـد اضـطررنـا إلى استئجـار بعض البيـوت المجاورة حينما اتسع الإقبال عليهـا في السنة التالية.

التفكير في إنشاء شركة لبناء بناية للمدرسة:

وفكرت لمعالجة هذا الأمر في إنشاء شركة تجارية تبني البناية المطلوبة وتؤجرها للمدرسة بأجر مجز، لأني لم أكن أرى أملاً في جمـع مبلغ كبيـر بالتبـرع لإنشاء مثـل هذه البنـايـة،

وأظهرت استعدادي لاستئجار البناية بنسبة 5, 7٪ من أكلافهما، وكان العمار لا يكاد يدر على ملاكيه أكثر من 4٪ من قيمته، ودعوت بعض الميسورين والذين توسمت فيهم الخير والاستجابة وعرضت عليهم الفكرة، فوافق الميسورون على الإسهام في الشركة، وحسبوا أن ستة آلاف جنيه كافية للمقصود، وكان هذا مبلغاً حسناً في ذلك الحين. وقد تحمست ووضعت نظاماً للشركة، وطلبت رخصة من الحكومة بإنشائها حسب القانون، لأنها ستكون شركة مساهمة، ودفعت ثلاثين جنيهاً رسم الرخصة، وحصلت عليها، ثم دعوت الذين وافقوا لتنفيذ الفكرة، وكان منهم الشيخ عمر زعيتر رئيس البلدية، فاستدعاني للبلدية وقال لي ان المساهمين في الشركة يجب أن يكون لهم وجود في هيئة التأسيس، بحيث يكون اثنان أو ثلاثة منهم فيها، وأن السير في الأمور رهن بالموافقة على ذلك. وجادلته في الأمر وقلت له ان مهمة الشركة تجارية اقتصادية، والمساهمون ليسوا مثقفين ومؤهلين ليكونوا في هيئة التأسيس، والأمران مختلفان، ولكن أصر على رأيه وقال إن الشركة لن تقوم وتسير إلا بتنفيذ شرطه.

وجمعت هيئة التأسيس، وكنت قد أخذت موافقتها على المشروع وسرت في طريق الحصول على الرخصة بموافقتها وعرضت عليها الأمر، وقاطع داود طوقان والحاج قاسم كمال الاجتماع. وأصررت على موقفي خشية أن تخرجها السياسة والاعتبارات المحلية عن نطاقها الثقافي العلمي الوطني الحر. وتوافقت هيأة التأسيس مع رأيي، وتقرر رفض الطلب، وأبلغت الشيخ عمر ذلك فقال لي ان الشركة والحالة هذه قد تجمدت، وحاولت أن أتخطاه وأدعوا الآخرين للتنفيذ، فذهبت محاولتي سدى، لأن الشيخ كان ذا نفوذ ومركز ويد طويلة، ولكن الله فتح باباً آخر.

إقدام أحمد الشكعة على بناء البناية للمدرسة وإتمامها وحالتها:

فقد تحدثت مع أحمد الشكعة في الأمر، وقلت له إني مستعد لدفع أجرة سنتين سلفاً، ودفع 5, 7٪ من أكلاف البناية أجرة سنوية، وكان له أملاك لا تكاد تدر عليه أكثر من نصف هذه النسبة، فرأى الصفقة رابحة، وتحمس وقال أنا أبني لكم المدرسة. وكان أمام بناية المدرسة القديمة التي كانت تسمى (البرج)، وهي ملك لآل القرّة، أرض واسعة ملك له ولحميه الحاج طاهر كنعان، فقرر أن يبني المدرسة على هذه الأرض. وكانت لحسن الحظ تكفي للبناء ويبقى أمامها ساحة تصلح لتكون ملعب كرة للمدرسة ومتفسحاً لها. وكان عنده كاتب هو محمد الشنّار ذكي وواسع الحيلة، فكلفه أن يرسم مع مهندس خريطة للمدرسة ففعل، وكانت الخريطة لبناء ذي ثلاثة طوابق ونصف، حيث كان في الأرض قسم صخري وآخر سهلي. وجعل الطابق الثاني صفين مستطيلين أمام كل صف ممشى مسقوف، وفي كل صف خمس غرف واسعة، وفي نهاية كل صف ثلاث غرف صغيرة، وأمام الصفين ساحة مكشوفة واسعة، وكان هذا الطابق للدراسة وفوقه الطابق الثالث للنوم، وكان في نفس الترتيب إلا أنه بدلاً من تقسيمه الى غرف جعلناه أربع قاعات كبيرة للنوم، اثنتان في الشرق واثنتان في الغرب، مع غرف صغيرة في نهايتهما للمعلمين الداخليين وللمكتبة والمختبر، وجعلنا الطابق الأول الكامل مطعماً

صورة رسالة إلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى لتخصيص مساعدة مالية إلى مدرسة النجاح دعماً لها.

ومطبخاً ودورة مياه ومسجداً، ونصف الطابق الأرضي نادياً للكشافة والرياضة والتسلية.

ودفعت لأحمد الشكعة بموافقة هيئة التأسيس السبعمائة جنيه التي معنا، وباشر فوراً بالبناء. وكان ذلك في أواخر السنة الدراسية الثانية 1923، وبذل جهداً عظيماً، فما جاء وقت الدراسة للسنة الثالثة 1924، حتى كان البناء الضخم الشامخ ذي الطوابق الأربعة وذي البوابة الواسعة الفخمة كاملاً، وكان ذلك معجزة وتوفيقاً ربانياً، فانتقلنا الى البناء الجديد وكان صالحاً كل الصلاحية واسعاً كافياً لكل الحاجات، وحمدنا الله وشكرناه على معجزته وتوفيقه.

الحصول على مساعدة للمدرسة من المجلس الإسلامي:

وكنت في أثناء السنة رجوت الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الأعلى، وكان بيني وبينه صداقة حميمة، بمساعدة المدرسة، فاستجاب وخصص في ميزانية الأوقاف ثلاثمائة جنيه مساعدة سنوية لها، فكان ذلك فرجاً وتوفيقاً. وقد جددنا كثيراً من مقاعد المدرسة وأثاثها وألواحها، واستحضرنا كثيراً من أدوات الاختبار الكيميائية والفيزيائية. وكان جورج بارودي أستاذ الرياضيات قد استقال، فتعاقدنا مع عفيف سلمان وهو خريج الجامعة الأميركية ومتخصص في الرياضيات والطبيعيات مثله فسد فراغه.

استمرار الحالة الحسنة في السنة الثالثة:

ودارت العجلة في السنة الثالثة دوراناً حسناً، وظل الإقبال من نابلس وخارجها حسناً، مما قوى مركز المدرسة مالياً وأدبياً. وقد استمررت على الحديث الاسبوعي والنشيد الصباحي اليومي الجماعي، واخترنا قاعة من قاعات الصف الغربي، وأنشأنا في طرفها مسرحاً خشبياً ليقف فوقه الخطباء. وأنشأنا من الطلاب جمعية التمثيل وأخرى للخطابة، وكان الطلاب يتدربون على ذلك في الفرص المناسبة، وكانت هذه القاعة للنشيد الجماعي الصباحي والحديث الأسبوعي أيضاً.

تمثيل رواية وفود النعمان في السنة الثالثة:

وكنت كتبت في زمن الدولة العثمانية رواية وفود النعمان على كسرى أنو شروان (طبعت في بيروت 1911)، فعدلتها لتكون تمثيلية، وأدخلت عليها فصلاً غرامياً، وعهدت إلى فرقة التمثيل بتمثيلها، ورجوت بعض الأساتذة ليكونوا معهم ممثلين في الأدوار الرئيسية، وقررنا تمثيلها أمام الآباء وغير الآباء كمسرحية، وتم ذلك قبل انتهاء السنة الثالثة. ومثلت الرواية على مسرح قهوة الشيخ قاسم، ونالت إعجاباً ونجاحاً. وكان الشيخ فهمي هاشم أحد الأساتذة يمثل دور كسرى، وحمدي أبو الهدى أحد أصدقاء المدرسة يمثل دور النعمان، ومثل الصيدلي عبد الرحيم جردانه دور الفتاة الحبيبة حيث كانت قامته وسحنته وصوته ملائمة لذلك، لأنه لم يكن في الامكان الإتيان بفتاة لهذا الدور، فتبرع له. واشترك في التمثيل عدد من كبار الطلاب كأكرم زعيتر الذي مثل دور عدي بن زيد، وواصف كمال ونجحوا. وقد اشترينا كثيراً من الملابس والأغراض للرواية، وسدد إيرادها نفقاتها وزاد ثلاثين جنيهاً صارت رأسمال لفرقة التمثيل.

إنشاء مكتبة في المدرسة والكتب التي أهداها اليها احمد تيمور باشا:

وقد هيأنا قاعة من القسم الفوقاني، واشترينا

بعض الخزائن، ودبرنا كمية من الكتب الأدبية والاجتماعية، فصارت نواة مكتبة أخذت تنمو مع الوقت. ولقد كان كلفني العالم المشهور المصري أحمد تيمور باشا أن أبحث عن بعض المخطوطات في مكتبات بيوت ومساجد نابلس، فوجدت مخطوطة في الجغرافية والتاريخ يرجع تأليفها إلى بضعة عصور في دار الجوهري، وأخبرته به فطلب مني أن أستعيرها وأرسلها اليه فصورها وأعادها. وقد أخبرته بخبر المكتبة فأرسل نحو خمسين كتاباً في مختلف المواضيع الأدبية والتاريخية والاجتماعية، فكانت مونة حسنة للمكتبة.

إنشاء مختبر للمدرسة:

وقد عيّنا للمكتبة قيماً من الطلاب بالمناوبة، وألّفنا منهم لجنة للعناية بها، واشترينا أدوات عديدة لاختبارات الكيمياء والفيزياء ودروس الأشياء، وخصصنا لها غرفة، فكان في ذلك فرصة للأساتذة والطلاب تعينهم على اختبارات دروسهم في تلك العلوم.

استمرار الحالة الحسنة في السنة الرابعة وتمثيل رواية صقر قريش:

وسارت السنة الرابعة لعهدي على نفس الوتيرة من الاقبال والنجاح وسائر الأعمال والترتيبات التي صارت تقليدية، وقد كتبت في أواخر السنة تمثيلية عنوانها (صقر قريش)، وهذا اسم اطلق على عبد الرحمن الأموي الذي عرف بالداخل، والذي فر من سورية إلى المغرب ونجا من مذبحة العباسيين للأمويين ومطاردتهم، واستطاع أن ينشيء في الأندلس الدولة الأموية الأندلسية التي امتد عمرها ثلاثمائة سنة، وكان لها فضل عظيم فيما قام من حضارة إسلامية عربية باذخة، وسلطان عربي اسلامي عظيم في الأندلس وما جاورها وفي المغرب معاً. ومثلها أعضاء فرقة التمثيل في آخر السنة على مسرح المنشية، واشترك فيها الأستاذان فهمي هاشم وأحمد القاسم، ولقيت إقبالاً ونجاحاً، وسدد إيرادها نفقاتها وزاد عشرين جنيهاً.

استمرار الحالة الحسنة وتمثيل رواية (آخر بني سراج):

وسارت السنة الخامسة على نفس الوتيرة، وقد كتبت رواية تمثيلية عنوانها (آخر بني سراج)، وهي في صدد سقوط الأندلس على أيدي الإسبان وزوال الملك العربي الإسلامي فيها، ومثلتها كذلك فرقة التمثيل مع بعض الأساتذة ونالت إعجاباً ونجاحاً، وزاد إيرادها على نفقاتها عشرين جنيهاً كذلك. ولقد سمعت الأندية العربية في يافا واللد والرملة بخبر الروايات التمثيلية الثلاث، فصارت تستعيرها، ومع الأسف لم نكتب نسخاً عديدة منها فضاعت في غمرة هذه الاستعارة.

الضائقة المالية في السنة السادسة:

وسارت السنة السادسة على نفس الوتيرة مع شيء من الضيق، لأن رداءة الموسم الزراعي في هذه السنة أدى إلى قلة الطلاب الداخليين من القرى، حتى نقص العدد نحو الثلث عن ما كان في السنة السابقة، وكانت عائدات القسم الداخلي مهمة إذ حسّن حالة المدرسة المالية، غير أن رداءة الموسم الزراعي يؤثر تأثيراً مهماً على سير المدرسة.

تكليفي بمأمورية أوقاف نابلس بعد إنهاء سنتي السادسة:

وبعد انتهاء هذه السنة عرض المجلس

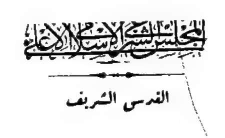
الإسلامي الشرعي الأعلى عليّ مأمورية أوقاف نابلس التي خلت باستقالة مأمورها الحاج نمر حماد، وكان العرض في آخر تموز 1927 على ما أذكر، ولقد كانت تجري في فلسطين احداث مثيرة للعرب تقف منها الحركات الوطنية موقف الاحتجاج والهياج، وتقوم بسببها مظاهرات شعبية. وكان ذلك يقع أحياناً في ظروف ذكرى وعد بلفور، والاشتباكات التي كانت تقع بين العرب واليهود في مدن حيفا ويافا والقدس.

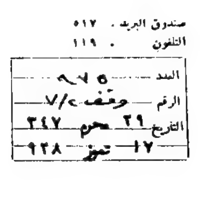
موقف السلطات من المدرسة بسبب حماسها الوطني وإنذارها بإغلاق المدرسة:

وكان طلاب مدرسة النجاح يتجاوبون مع الشعور الوطني المثار فيهم، ويخرجون متظاهرين، وكانت المظاهرات تؤدي في نابلس أيضاً إلى اشتباكات مع البوليس وتراشق بالحجارة وتضارب بالعصي، وكثيراً ما كان يذهب طلاب النجاح الى مدارس الحكومة ويثيرون طلابها ويجعلونهم يخرجون ويشتركون في المظاهرات، وكان كل هذا يثير غضب ونقمة السلطات الإنكليزية على المدرسة وعليّ أنا بخاصة، لأنها تعرف أني ركن من أركان الحركة الوطنية ومن أشد الأركان عداء لها وحماساً في هذا العداء، وقد أنذرتني أكثر من مرة وطلبت مني كبح جماح الطلاب، وهددت بإغلاق المدرسة في حالة التمادي، وكان هذا يسبب لي احراجاً من ناحيتين، فلا يمكن أن يكون من محاولة لكبح جماح الشعور الوطني في الطلاب، وأنا الذي أثيره فيهم مندفعاً بشعوري وحماسي. وفي الوقت نفسه أنا حريص على استمرار حياة المدرسة ونجاحها كل الحرص، ولقد تحملت الغضاضة النفسانية، وذهبت الى بيت القسيس مرمورة وكان هذا يتظاهر بحب العلم والرزانة، ولكن شديد الانسجام مع الإنكليز دون الصهيونية، وأوسّطه هو وبعض رفاق له من أمثاله منسجمين مع الإنكليز ومتظاهرين بحب العلم والمناوأة للصهيونية، مثل المعلم موسى ناصر الذي كان يشغل منصب مساعد الحاكم الإنكليزي في نابلس، فكانوا يستجيبون لي ويهدئون من ثائرة السلطات. ولكنهم مع ذلك ينصحونني ببذل الجهد في عدم إثارة السلطات أكثر مما تتحمله حوصلتها، وفي كبح جماح الطلاب بقدر ما يمكن، وقالوا لي ان السلطات لا يمكن أن تسكت على المدرسة إذا ظلت متمادية في حركاتها.

التشاور مع أصدقائي في صدد العرض وموافقتهم عليه لصالح المدرسة:

وقد تشاورت مع رفاقي في هيئة التأسيس إبراهيم القاسم عبد الهادي والدكتور مصطفى بشناق وكامل هاشم وهم أصدقاء حميمون لي في الوقت نفسه، فلم يروا بأساً في قبولي لعرض المجلس الإسلامي، على أن أبقى مشرفاً على المدرسة وأن أبقى في هيئة التأسيس أيضاً، بل رأوا في قبولي فوائد للمدرسة، حيث أستطيع أن أحصل لها على إعانات أكثر مما حصلت عليه، ولا سيما وقد اخذت تتهدد بضائقة بسبب رداءة الموسم كما قلت قبل. وكان مأزق المدرسة مع السلطات واحتمالات تفجره واردة إذا بقيت على رأسها، كما كان احتمال انفراج المأزق وارداً إذا تخليت عنها. وقد أخذت برأيهم وبما كان وارداً من هذا وذاك، فقبلت عرض المجلس على أن أبقى مشرفاً على المدرسة بقرار من هيئة التأسيس التي سأبقى فيها أيضاً.


المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى
القدس الشريف


صندوق البريد . ٥١٧
التلفون . ١١٩
العدد ٥٧٩
الرقم وقف ٢/٧
التاريخ ٢٩ محرم ٣٤٧
١٧ تموز ٩٢٨

حضرة السيد الفاضل عزة افندى دروزة المحترم ،
نابلس

قرر المجلس الاسلامي الاعلى في جلسته المنعقدة قبل ظهر يوم الثلاثاء الواقع في ٢٨ محرم ٣٤٧ ــ ١٦ تموز ٩٢٨ تعيين جنابكم مأموراً لاوقاف نابلس ابتداء من ١ صفر ٣٤٧ ــ ١٩ تموز ٩٢٨ فنرجوا ان تتفضلوا بتسلم ادارة هذه الاوقاف من سلفكم حالا وتباشروا العمل في اليوم المذكور ،
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

عن رئيس المجلس [illegible]
سكرتير المجلس الاسلامي الاعلى
[illegible]

قرار المجلس الإسلامي الأعلى بتعييني مأموراً لأوقاف نابلس.



ـ أساتذة وتلامذة مدرسة العرفان الوطنية الاسلامية بنابلس سنة 1924 .
ويبدو في الصف الأمامي المدير محمد علي دروزة والشيخ محمد تفاحة والأستاذ علي الخياط والأستاذ سري البسطامي .

وقد أحببت أن أوضح الأمر لأني أخشى أن يظن ظان أني تركت المدرسة للراحة منها أو بسبب فرق الراتب، فأنا كنت مستغرقاً فيها وقد أحببتها، وكان لي فيها من السلوى والتعلق والفرص التي كنت أتمناها للدرس والعلم، وما كان من فائدتها للملّة والأمة اللتين نذرت نفسي لهما ما لا يمكن أن يجعلني أتركها طوعاً، ولم يكن فرق الراتب مغرياً، فهو أربعة جنيهات حيث كان راتب المدرسة (18) جنيهاً وراتب الأوقاف (22)، وكانت هيئة التأسيس توافق بسهولة وارتياح على رفع مرتبي لو طلبت. وقد ارتفع راتب المديرية بعدها الى 20 ثم الى 25 ثم الى 30 ليمكن إيجاد الصالح لإدارتها. وبقيت قائمة فلم يكن للضائقة المالية أثر في قبولي للأوقاف.

استمراري في الاهتمام بالمدرسة كالسابق بعد وظيفتي في الأوقاف:

على أني لم أترك المدرسة وأرجع نفسي منها طيلة السنين الخمس التي قضيتها في مأمورية أوقاف نابلس، حيث بقيت مشرفاً عليها بل مديراً لها في معظم شؤونها، صارفاً كل جهدي وهمي لها، وظللت كما كنت منسجماً مع طلابها وأساتذتها، وكان مكتب مأمورية الأوقاف قريباً من المدرسة، حيث كان في عمارة للحاج محمود النابلسي على الشارع الشمالي من طريق المدرسة الجديدة، ولم يكن عملي في الأوقاف يستغرق أكثر من ساعات قليلة في الصباح، فكنت أقضي كثيراً من أوقاتي في المدرسة، بل كنتُ أذهب في الصباح أولاً الى المدرسة للاطمئنان على سير العمل، ثم أعود الى دائرة الأوقاف، والمسافة بيننا نحو مائة متر، وأنا الذي كنت أبحث لها عن مديرين وما تحتاج اليه من معلمين.

المديرون بعدي:

وأول من تعاقدت معه على إدارة المدرسة ليحل محلي (جودة حيدر) من بعلبك. فقد سُمّي لنا الاستاذ عبد الله المشنوق، فاتصلنا به وكدنا نتفق معه، ولكن المقاصد الإسلامية في بيروت غلبتنا عليه لمدارسها، فسمي لنا (جودة) وأثنى عليه، وهو خريج الجامعة الأميركية، فاتصلنا به وتعاقدنا معه براتب عشرين جنيهاً. وقضى السنة الأولى بعدي ولم يكن كما نشتهي، فسُمّي لنا الدكتور فريد زين الدين، وكان قد انتشر إسمه كشاب وطني متحمس بالإضافة إلى كونه خريج جامعة باريس وحاصلا على الدكتوراة في الأدب والاجتماع من جامعة باريس، فاتصلنا به وتعاقدنا معه. وقضى سنة ثم وجد العمل في المدرسة أصغر من قيمته فاعتذر، فسُمّي لنا عبد اللطيف الحبّال من بيروت وهو خريج الجامعة الأميركية، فتعاقدنا معه بنفس الراتب. وقضى هو بدوره سنتين ثم ترك أو بالاحرى تركناه لأنه لم يملأ الفراغ. وسمي لنا جلال زريق من اللاذقية وخريج الجامعة الاميريكية، فتعاقدنا معه بنفس الراتب ولبث على رأس المدرسة ثلاث سنين. وفي أول عهده انتقلت إلى القدس مديراً عاماً للأوقاف الإسلامية.

ضم مدرسة العرفان ونفقاتها للنجاح من أجل تقويتها:

وكان من أهم ما قمت به لخدمة المدرسة بعد أن استلمت مأمورية أوقاف نابلس أن ضممت مدرسة العرفان الى مدرسة النجاح، فقد كان في نابلس مدرسة باسم «مدرسة العرفان» انشئت قبل قيام المجلس الاسلامي

الأعلى بنفقة ما يسمى الأوقاف المندرسة، (والتسمية جاءت من كون أن هناك أوقافاً موقوفة على معاهد دينية قديمة اندرست وزالت)، وكانت حكومة الانتداب تجبي هذه الأوقاف وتدفعها للجنة خاصة تشرف على هذه المدرسة تحت إشرافها استمراراً لما كان عليه هذا الأمر في زمن الدولة العثمانية، ولما قام المجلس الاسلامي صارت الحكومة تدفع ريع هذه الأوقاف اليه، ويشرف هو على المدرسة. وكانت نفقة هذه المدرسة نحو (300) جنيه في السنة، وكان أخي محمد علي مديراً لها، وكان مكانها في بيت في حوش يسمى حوش الشيطان أو (الجيطان) في الشارع القبلي الطويل في نابلس قرب حمام بيدره، وفي جواره بيت لأسرة من بيت النابلسي، فاقترحت على المجلس إلغاء هذه المدرسة لأنها كانت تتعثر، وتحويل المبلغ الذي ينفق عليها للنجاح. وأخذ محمد علي مديرها والشيخ محمد تفاحة الذي كان معلماً فيها للنجاح، وكانا العنصرين الرئيسيين في المدرسة. ونقل الصالح من طلابها الى صفوف النجاح. ووافق المجلس على الاقتراح، وهكذا دبرنا للمدرسة ريعاً جديداً ضمن لها حياتها واستمرارها في إبان الضائقة التي كانت معرضة لها، وصار ما تأخذه المدرسة من المجلس ستمائة جنيه. ولقد كان من مصلحتي ومصلحة أخي الشخصية بقاء هذه المدرسة، ولكني فعلت ذلك لأن فيه تقوية للنجاح.

ما كان من أمر المدرسة وسيرتها بعد انتقالي من نابلس الى الآن:

وأحب أن أذكر ما كان من سيرة المدرسة بعد انتقالي للقدس، فأقول أن جلال زريق ترك المدرسة سنة 1935 حيث عين موظفاً في الحكومة الفلسطينية، وقام بإدارة المدرسة أديب مهيار، وما لبث أن أعلن الإضراب العام الطويل سنة 1936، ثم اندلعت ثورة فلسطين الكبرى في سني 1937 - 1939، ثم نشبت الحرب العالمية الثانية، غير أن المدرسة ظلت قائمة مع شيء من التعثر. وبعد انتهاء الحرب استلم ادارة المدرسة قدري طوقان أحد تلامذتها القدماء واستاذ الرياضيات فيها.

مديرية قدري طوقان:

وكان طوقان قد تخرج منها ثم من الجامعة الاميركية، وصار متمكناً في الرياضيات والطبيعيات أيضاً، واستطاع أن يضبط المدرسة ويسير فيها قدماً، وقد تطورت في عهده فألغى القسم الابتدائي واقتصرت على القسم الإعدادي والثانوية، وصارت تهيء طلابها لامتحان المترك والبكالورية والتوجيهية الذي يؤهل الناجح فيه للدخول في جامعة مصرية أو سورية أو الجامعة الاميركية.

هيئة تأسيس جديدة للنجاح:

ولما كنت قد أقمت في سورية، إذ حظر الانكليز عليّ العودة الى فلسطين، وكان الشيخ فهمي هاشم أيضاً قد انتقل الى عمان وأقام فيها، وكان الحاج قاسم كمال وعبد السلام البرقاوي وكمال هاشم وحلمي المهندس وداوود طوقان وابراهيم القاسم عبد الهادي قد انتقلوا إلى رحمة الله، فلم يبق من هيئة التأسيس إلّا أديب مهيار وجميل كمال فطلبوا من حكمت المصري أن ينضم اليهم، وهو من تلامذة المدرسة القدماء وقد تخرج منها، ثم من الجامعة الاميركية، وكان أبوه الحاج طاهر قد أصبح ذا ثروة وزعامة في نابلس، ثم حل محله

فيهما بعد وفاته، وضموا أيضاً إلى هيئة التأسيس قدري طوقان مديرها، وابراهيم صنوبر وكان هذا مفتشاً للمعارف في زمن الانتداب الإنكليزي ثم الحكم الاردني للضفة الغربية بعد نكبة عام 1948 وكان سليم السلوك. وكذلك ضموا محمد العمد وهو شاب وطني مثقف خريج النجاح ودار العلوم بمصر. وهكذا قامت على رعاية المدرسة هيئة تأسيس جديدة.

البناية الضخمة الجديدة للمدرسة:

وقد بذلت الهيئة التأسيسية الجديدة جهدها وحصلت على بعض المساعدات من الكويت وغيرها، واشترت قطعة أرض في غرب المدينة القبلي، وأنشأت فيها بناية فخمة جديدة للمدرسة.

زيارتي لنابلس وللمدرسة سنة 1964:

ولقد زرت نابلس في 1964، وكانت هذه البناية قريبة للتمام، وكانت المدرسة ما تزال في البناية التي بنيت بجهدي، وكان أكثر من أستاذ فيها من تلامذتها القدماء. وقد أقامت لي إدارة المدرسة حفلة تكريم واحتفت بي، وكان قدري في ذلك الوقت يتولى وزارة الخارجية الأردنية، فكانت إدارة المدرسة في عهدة أديب مهيار. وذكر الحاضرون ما كان لي من أياد بيضاء ورعاية كانت مما وطد هذا المعهد وحفظ له الحياة والدوام، واستعدت معهم ذكرياتي فيها، وسعدت بما تيسر لها من بناء جديد فخم ملك لإسمها ويضمن لها البقاء والنمو. ومن العجيب أني وجدت كل شيء كما تركته من مقاعد ومكتبة وأسرة وأثاث وأدوات مختبر ومطعم الخ... وقد مر على ذلك خمس وثلاثون سنة. وقيل لي إنهم يستعدون لتجديد وتوسيع كل شيء في البناية الجديدة. وذهبت الى هذه البناية وكانت حقاً فخمة واسعة كافية لكل شيء، ودعوت لهم بالتوفيق. وقد انتقلوا اليها بعد سنة من رحلتي، وعلمت أنهم بروّا في قولهم فجددوا وتوسعوا في موجوداتها ومظاهرها. ولقد أثلج صدري إذ علمت أن هيئة المدرسة حصلت على تبرعات جديدة عربية ونابلسية وقررت تحويل المدرسة الى جامعة وأنشأت في سنة 1977 كليتين جامعيتين. وكان لحكمة المصري جهد في ذلك. ومما بلغني أن صبيح المصري أخا حكمة تبرع للجامعة بمائة ألف دينار فضرب مثلاً جميلاً فريداً في تاريخ نابلس.

مديرية محمد العمد:

ولقد توفي مديرها قدري بعد خمس سنين من زيارتي، فأسندت إدارتها الى محمد العمد أحد أعضاء عمدتها الذي ذكرته قبل، ولم أنسها قبل ذهابي الى نابلس وبعده، والى الآن حتى أظل أسأل عنها وأطمئن عليها، وأهديت اليها كثيراً من كتبي، ووصيت زهيراً بأن يهديها قسماً من مكتبتي أيضاً عندما تسمح الظروف.

كلمة عن قدري طوقان وأخرى عن حكمت المصري:

وأريد أن أقول كلمة عن قدري، وأخرى عن حكمت. فقد كان قدري وطنياً قومياً متحمساً من صغره منسجماً في ذلك مع أبيه حافظ آغا طوقان أحد أركان الحركة الوطنية في نابلس وفلسطين وكان لسانه ثقيلاً ويتلعثم في الكلام، ثم تغلب على عاهته بالمران حتى صار يحسن الحديث والخطابة، وكان ذا ميل للبحث والتأليف، وألّف بعض كتب علمية وتاريخية، وصار عضواً في عدد من المجامع العربية ووزيراً للخارجية الأردنية، وظل محتفظاً بمديرية

النجاح وعاد اليها بعد استقالة وزارة بهجت التلهوني التي كان وزيراً فيها، والتي كانت منسجمة مع مصر وزعيمها جمال عبد الناصر. ومات قدري وهو مديراً للمدرسة، وكان لموته رنة حزن وأسى في المدرسة والأوساط العربية والعلمية، وقد خدم المدرسة خدمة جليلة واستمر على رأسها نحو عشرين عاماً ونيفاً، بالإضافة الى ما كان قدمه للثقافة والعلوم العربية رحمة الله عليه.

وقد قلنا أن حكمت المصري حل محل أبيه في الزعامة والثروة في نابلس، وصار من أعلام فلسطين وشرق الأردن الذي كانت الضفة الغربية ملحقة به، وصار نائباً ووزيراً ورئيس مجلس النواب الأردني في بعض الظروف ولا يزال حياً يرعى المدرسة، وسلوكه الوطني القومي سليم.

الأحداث العامة والخاصة في فترة مديريتي للمدرسة:

هذا وقد كانت أحداث عامة وخاصة في أثناء فترة عملي في مدرسة النجاح في نابلس وخارجها، عشتها وشاركت في كثير منها، ودونت أشياء كثيرة عنها في دفاتري القديمة، وتذكرت فيما بعد أشياء كثيرة أخرى غير ما كتبت في هذه الدفاتر، وسأورد ذلك تباعاً فيما يلي، مع التنبيه على أني دونت في دفاتري القديمة من ذاكرتي، وبعد بضع سنين من الأحداث، وتذكرت ما تذكرت بعد عشرات السنين من الأحداث. وكل هذا يجعل فيما سوف أورده بعض ثغرات والتباسات في بعض الأحداث والأسماء، ولكن ذلك لا يغطي على ما أورده من حقائق ووقائع صحيحة وعلى ما أردته من صورة عامة.

***

6

نشاط اللجنة التنفيذية للمؤتمر الرابع ووفده الى لندن:

لقد ذكرت سابقاً خبر عقد المؤتمر الرابع ولجنته التنفيذية برئاسة عارف الدجاني الداوودي التي كنت عضواً فيها، وخبر الوفد الذي اختاره هذا المؤتمر الى لندن.

رسائل من لندن عن نشاط الوفد للجنة:

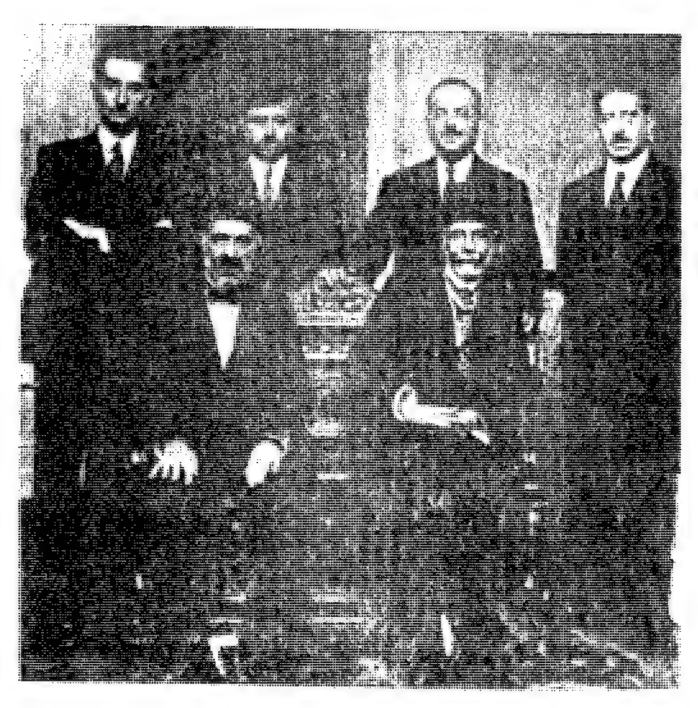
وإتماماً للكلام عن ذلك أقول، ان الوفد سافر في حزيران 1921 وعاد في آب 1922، أي انه غاب نحو أربعة عشر شهراً، وكان شبلي الجمل سكرتيره يرسل الى اللجنة التنفيذية تقارير أو رسائل عن نشاطه، وآثار هذا النشاط، وكانت اللجنة تجتمع كل أسبوعين مرة في الغالب فتقرأ التقارير وتقرر ما يحسن إذاعته وما يحسن أن توجهه للوفد من آراء وتعليقات ومن أحوال البلاد.

موقف رئيس اللجنة وموقف اللجنة منه:

ومما كان أن رئيس اللجنة لم يكن راضياً عن تشكيل الوفد وذهابه، وكان من رأيه أن تستجيب اللجنة التنفيذية للمندوب السامي وتشترك معه في مناقشة الدستور الذي أزمعت الحكومة الانكليزية على وضعه لتنظيم أمور فلسطين، وعهدت إلى المندوب السامي بوضع مشروعه والتباحث مع اليهود والعرب في صدده، وقد عرض المندوب على اللجنة التنفيذية والوفد أن يتناقشوا معه في المشروع بدلاً من السفر الى لندن، فاشترطوا أن لا يكون قائماً على وعد بلفور، فرفض فرفضوا، ورغم أن عارف



ـ المؤتمر الفلسطيني الثالث المنعقد في حيفا سنة 1920 .



ـ أول وفد فلسطيني ذهب الى انكلترا سنة 1921 للمطالبة بحقوق فلسطين ، وهم جلوساً : المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني والمرحوم توفيق بك حماد ـ ووقف خلفهما من اليمين المرحومون : ابراهيم شماس وشبلي الجمل وأمين التميمي بك وبقي منهم معين بك الماضي .



- أعضاء المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع المنعقد في القدس في 25 مارس 1921 .

الدجاني كان يعرف ذلك فقد ظل يردد رأيه وينتقد الوفد وسفره، وكنا نتشاور معه حتى كدنا نقرر نزع الثقة منه، وحينما رأى منا عيناً حمراء تظاهر بالانسجام. .

برقيات من أولياء اليهود ضد الوفد:

ومما كان أيضاً أن اليهود حرضوا أولياءهم من ضعفاء الأخلاق والوطنية، وجعلوهم يبرقون الى الحكومة البريطانية بأن الوفد لا يمثل العرب، وأن من العرب من هو قابل بوعد بلفور وسياسة الحكومة الإنكليزية، وشاع أن راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس وحسن شكري رئيس بلدية حيفا وحيدر طوقان الطامع في بلدية نابلس والذي ذكرنا خبره سابقاً كانوا من المحرضين أو المحبذين أو الموقعين.

شهادة المندوب بتمثيل الوفد للأغلبية العربية العظمى:

ومسألة الإبراق يقينية، لأنها عرفت من دوائر الحكومة، حيث علمنا أن الحكومة الانكليزية سألت المندوب السامي بعد أن تلقت تلك البرقيات عن حقيقة أمر الوفد، وأن المندوب لم يسعه إلا أن يقول إن الوفد يمثل الأغلبية الكبرى من العرب مسلميهم ومسيحييهم.

رد فعل وطني معاكس:

وقد أوعزت اللجنة التنفيذية للجمعيات الإسلامية المسيحية بعقد اجتماعات عامة لإظهار السخط على البرقيات، والإبراق للمندوب السامي والحكومة الإنكليزية بتفاهة مرسليها، وبأن الوفد يمثل الشعب العربي الفلسطيني تمثيلاً صادقاً.

الجمعيات الاسلامية الموالية لليهود وهدفها ومن كان وراءها وتفاهتها:

ونقول استطراداً انه قام في هذه الأثناء في حيفا ويافا والقدس ومدن أخرى جمعيات باسم الجمعيات الاسلامية، ببرنامج يدعو الى حسن التفاهم والتعايش مع اليهود والإنكليز وعدم الغلو في الرفض والمقاومة، ووجوب بذل الجهود في تحسين حالة المسلمين العلمية والاجتماعية والاقتصادية بالتعاون مع الإنكليز واليهود، وقد تحدثت الصحف عنها وحملت على القائمين عليها، وثارت نقمة الرأي العام الاسلامي وسخطه، وقد لمح من ذلك فكرة إثارة الفرقة والدسائس بين المسلمين والمسيحيين الذين تضامنوا تضامناً شديداً بخاصة في مناوأة الصهيونية والمطامع اليهودية، وعرف أن كلفريسكي الذي كان يدعو إلى السلام بين العرب واليهود، ويتصل ببعض ضعفاء الوطنية والأخلاق حث المسلمين بخاصة، والذي كنا ذكرنا خبره قبل، كان وراء هذه الحركة، حيث رأى اليهود، على ما يظهر، أن اسم جمعيات يهودية إسلامية منفر، وأن الأفضل تشكيل جمعيات اسلامية صرف، وشاع أنه كان وراءها في حيفا حسن شكري رئيس بلدية حيفا، وفي القدس راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس.

ومن المحتمل القوي أن تكون البرقيات المرسلة إلى لندن ضد الوفد كانت من هذه الجمعيات أو بعض رجالها. وقد كان رجال هذه الجمعيات ناقمين معروفين بضعف أخلاقهم ووطنيتهم ومركزهم وتعاملهم مع الإنكليز واليهود، وإزاء ما قام من نقمة ضد جمعياتهم بقيت محصورة في نطاق ضيق وما لبثت أن تلاشت.

نشاط الوفد في لندن ومذكراته ومطالبه وحججه:

ونعود إلى ذكر نشاط الوفد فنقول أننا علمنا من تقارير أو رسائل شبلي الجمل، ثم ممّا قصه علينا أمين التميمي ومعين الماضي حينما عاد الوفد، ومما كانت تنشره صحف فلسطين والقاهرة من رسائل لمراسليها في أوروبا، أنه كان للوفد نشاط كبير في لندن وأنه استطاع أن يوجد للمطالب والدعاوى العربية الفلسطينية انصاراً أقوياء في الصحافة وفي مجلسي اللوردات والعموم وبخاصة أولهما، وفي الأوساط السياسية الأخرى، حتى بلغ الأمر إلى أن يقرر مجلس اللوردات وجوب إعادة الحكومة البريطانية نظرها في سياستها والتسليم بمطالب العرب العادلة، وإلغاء أو تعديل أو تحديد مدى وعد بلفور لضمان مركز العرب وكيانهم. وأن الوفد قدم مذكرات للحكومة البريطانية عن اجتماعات عديدة مع شرشل وزير المستعمرات الذي كان هو المختص بمسألة فلسطين وبعض رجال وزارته الكبار، وتلقى أجوبة ومذكرات مقابلة، وأن مطالب ودعاية الوفد كانت تدور:

أولاً على حق العرب الطبيعي في تقرير مصيرهم والاستقلال وحكم بلادهم، لأن ذلك ما قرره ميثاق عصبة الأمم الذي اعتبر البلاد العربية المحررة من الدولة العثمانية ومن جملتها فلسطين أهلاً للاستقلال، ومما نادى به الحلفاء وقالوا أنهم ملتزمون به، وأنهم يحاربون من أجله.

وثانياً على توضيح كون الحكم القائم في فلسطين إنكليزياً مباشراً، وليس هناك دولة منتدبة ودولة منتدباً عليها كما هو المقرر في ميثاق عصبة الأمم، وأن ذلك خروج صارخ على هذا الميثاق وظلم فادح لأهل البلاد الشرعيين.

وثالثاً على كون فلسطين مشمولة بالبيان الإنكليزي الإفرنسي الصادر في 8 تشرين الثاني 1918، الذي أعلنت فيه فرنسة وبريطانيا التزامهما باحترام رغبات أهل البلاد في تقرير مصيرهم ونوع الحكم الذي يريدونه لأنفسهم، وأنهما ليسا لهما مطمع استعماري فيها. وقد وزع وأعلن وعلق هذا البيان في فلسطين مثلما كان شانه في سورية ولبنان والعراق، وقد استثني أهل فلسطين. وكان رأي جميع العرب، أهلها الشرعيين، رفض وعد بلفور والهجرة وطلب الاستقلال والحكم الوطني.

ورابعاً على كون نصوص مراسلات الإنكليز والملك حسين الذي ثار على الدولة العثمانية إستناداً إليها والتي تعده بالاعتراف باستقلال البلاد العربية المحررة وحريتها وحكمها من قبل أهلها شاملة جغرافياً لفلسطين، وأن التحفظ الإنكليزي في صدد الحدود التي طالب بها الملك حسين هو بالنسبة للبنان الواقع غربي مدن حماة وحمص وحلب ودمشق، وليس لفلسطين.

وخامساً على أن رجال وشباب فلسطين كانوا عنصراً أساسياً في الحركة العربية التي كانت ترمي إلى تحقيق حقوق العرب في حكم بلادهم واستقلالها في زمن الدولة العثمانية، وأنهم قدموا الضحايا في زمن هذه الدولة العثمانية، واشتركوا في ثورة الحسين بسبيل ذلك.

وسادساً على كون فلسطين عربية منذ مئات السنين، وأن أهلها كانوا يتمتعون في زمن الدولة العثمانية بالمشاركة في الحكم في كل مجال سياسياً وتشريعياً وتنفيذياً.

وسابعاً على أنه ليس لليهود حق فيها، وليس فيها مكان لهم، ولم تكن وطناً أصلياً للإسرائيليين القدماء، وإنما غزوها غزواً،

وكانت مكتظة بالأرومات القادمة من جزيرة العرب الكنعانيين والعموريين ثم شردوا عنها منذ الفي سنة، وبقي سكانها القدماء وأنضم إليهم الأرومات القادمة من جديد من جزيرة العرب فتوطدت عروبتها.

وثامناً على كون الشرط الذي في وعد بلفور بأن لا يخل تطبيقه بحقوق ومركز أهل البلاد، لا يمكن تحقيقه لأن هجرة اليهود التي فتحت حكومة الانتداب أبواب فلسطين لها، ومحاباة هذه الحكومة لليهود سوف يخلان بمركز وحقوق العرب حتماً، ولا سيما أن اليهود مقررون إنشاء دولة يهودية بأكثرية يهودية في فلسطين، وتصريحات زعمائهم متواصلة في ذلك، وقد كان ذلك أمام لجنة تحقيق يافا التي شكلت برئاسة هايكرفت في مناسبة ثورة يافا سنة 1920. وأن الوفد طالب بناء على كل ذلك بإلغاء وعد بلفور وإنشاء حكم وطني نيابي يتمثل فيه العرب واليهود بنسبتهم، ويضمن لليهود في نطاق حريتهم وحقوقهم الدينية والمدنية والاجتماعية والإقتصادية دون أن تضر بحقوق العرب ومركزهم، وأن شرشل، ألأم مدافع عن وعد بلفور وسياسة الحكومة الإنكليزية الموالية، للمشاريع اليهودية.

موقف شرشل الإستعماري اللئيم من نشاط الوفد وحججه:

وشرشل هو أقوى وألأم معارض للمطالب العربية ، وأنه أنكر شمول البيان الإنكليزي الإفرنسي لفلسطين، وأن الوفد اتصل باللورد اللنبي قائد الحلفاء وحصل منه على تصريح بأن البيان كان شاملاً لفلسطين ونشر فيها، وأن شرشل أنكر كذلك شمول الحدود التي وعدت الحكومة الإنكليزية في مراسلاتها مع الملك حسين بالاعتراف باستقلالها، وأن الوفد ناقش في ذلك وأقام عليه الحجة جغرافياً، ولكن شرشل لم يخجل من ذلك وظل مكابراً[1]، وظل يكرر قوله إن الحكومة الإنكليزية سوف تلتزم بشرط عدم الإخلال بمركز غير اليهود من جراء تنفيذ وعد بلفور، ورغماً عما شرحه الوفد، وأثبت استحالته وحتمية الإخلال بمركز العرب، ورغماً عما في هذا الموقف من تعسف وظلم فادح، وضرب بدعاوى العرب وحججهم ومطالبهم العادلة بعرض الحائط. وأن شرشل، لما أصدر مجلس اللوردات قراره بوجوب إعادة النظر في وعد بلفور الذي ذكرناه قبل، سارع إلى مجلس العموم (المجلس النيابي الذي له وحده حق إصدار القرارات الملزمة للحكومة)، وجعله يصدر قراراً بتأييد وعد بلفور والسياسة التي تسير عليها الحكومة، وقال فيما قال إن منح أهل فلسطين حكماً ذاتياً الآن سوف يؤدي إلى تعطيل هذه السياسة، وأن مخاوف العرب في غير محلها، وأن الحكومة ستصدر دستوراً ينظم شؤون الحكم في فلسطين ويمنح أهلها حكماً ذاتياً متدرجاً.

كتاب شرشل الأبيض ومحتواه وما فيه من مراوغة وكذب وتضليل:

ثم أصدر كتاباً أبيض في حزيران 1922، حاول فيه شرح مدى وعد بلفور وموقف الحكومة الإنكليزية من الوفد العربي والمطالب العربية.

---

(1) بالمناسبة نذكر أن هذا الموضوع أثير مرة أخرى في سياق المؤتمر العربي الإنكليزي الرسمي في لندن سنة 1939 وأن الوفد العربي طلب إحالة الأمر للقضاء وأن قاضياً إنكليزياً عالياً درس حجج الوفد العربي وأصدر قراراً فيه تصويب وتصديق لدعوى العرب (أنظر الجزء الأول من كتابنا القضية الفلسطينية في مختلفة مراحلها ص 246).

ومما جاء في هذا الكتاب (أن حكومة جلالته تلفت النظر إلى الواقع بأن أحكام تصريح بلفور لا ترمي إلى تحويل فلسطين برمتها إلى وطن قومي لليهود، وإنما إلى إنشاء وطن قومي لهم فيها، وأن الهجرة اليهودية التي تمكن اليهود من زيادة عددهم لا يجوز أن تكون كبيرة إلى درجة تزيد عن مقدرة البلاد لاستيعاب مهاجرين جدد، ولا أن يكون المهاجرون عبئاً على أهل فلسطين وسبباً لحرمان أي طبقة من سكانها، من عملها، وأن الوطن القومي لا يعني فرض الجنسية اليهودية على فلسطين إجمالاً، وكل ما يعنيه أن يصبح لليهود في فلسطين مركز يكون موضع اهتمامهم وفخرهم من الوجهتين الدينية والقومية، وأن يكون وجود اليهود في فلسطين حقاً وليس منة. وأن التصريح إذا فهم على هذه الصورة لا يتضمن أمراً يوجب تخوف سكان فلسطين العرب[2].

وفي هذا الكلام وجميع ما في الكتاب الأبيض من المراوغة والتناقض والتضليل والكذب والغموض ما هو ظاهر، وفيه صراحة أن الحكومة الإنكليزية متعمدة في عدم منح أهل فلسطين حقهم في الحكم الذاتي لأجل تنفيذ سياستها التهويدية، ولم يكن من شأن هذا الكتاب بطبيعة الحال أن يزيل مخاوف العرب كما ثبت ذلك من سير الحكم في فلسطين وفق سياسة الحكومة البريطانية، فالحكم كان حكماً إنكليزياً مباشراً، والهجرة كانت تسير وفق هوى اليهود لا وفق قدرة الاستيعاب المزعوم، وآلاف المزارعين شردوا عن أراضيهم التي كانوا يزرعونها ويعيشون فيها مدى الأجيال العديدة، لأن اليهود اشتروها من مالكيها الذين كان أكثرهم غير فلسطينيين، وقد أجبرت السلطات المزارعين على الخروج منها بالقوة، ولم تفعل شيئاً لتعويضهم أرضاً أو عملاً. وآلاف العمال العرب حرموا بالقوة والمزاحمة من موارد رزقهم وعملهم. وسنت الحكومة قوانين عديدة لصالح الصناعة اليهودية والهجرة اليهودية والإستثمار اليهودي، ودوائر الحكومة امتلأت باليهود، ومنحت السلطات امتيازات حصر الكهرباء وبحر الميت ومصالح اليهود ونجاحهم ونموّهم كان هو المعنيّ به في الدرجة الأولى في دوائر الحكومة الرئيسية والثانوية، واليهود ظلوا يدأبون في ظل كل ذلك على توطيد أقدامهم وترديد أهدافهم الرهيبة دون خوف وحياء. وقد اختل مركز العرب اختلالاً كبيراً بالهجرة، فأصبحت نسبة اليهود 33٪ بعد أن كانت 7٪، ثم خطت الحكومة الإنكليزية في سنة 1937 خطوة حاسمة فقررت منحهم جزءاً كبيراً من البلاد أكثره مملوك للعرب وأكثر سكانه عرب ليقيموا عليه دولة لهم. ولقد توج شرشل تضليله وكذبه وجريمته باعتراف صريح منه أدلى به إلى لجنة التحقيق الملكية في سنة 1937، حيث قال فيه إنه لم يكن القصد من تفسيره لوعد بلفور في كتابه الأبيض الذي أصدره سنة 1922 الحيلولة دون إقامة دولة يهودية.

مذكرات شرشل ولويد جورج وهربرت صموئيل التي تثبت ذلك التضليل:

ولقد نشر كل من لويد جورج الذي كان رئيس الوزارة البريطانية حين صدور وعد بلفور، وشرشل وهربرت صموئيل اللذين كانا وزراء في وزارته، مذكرات اعترفوا فيها بصراحة أنهم كانوا يتوقعون أن عدد اليهود سوف ينمو

(2) أوردنا نص الكتاب الأبيض الذي نشر في هذا الظرف ملحقاً في كتابنا المذكور آنفاً.

ومصالحهم سوف تتعاظم في فلسطين ثم تقوم دولة لهم فيها، وأنهم كانوا متفاهمين في ذلك، حيث كان الخداع والمراوغة والتضليل والكذب بسبيل تنفيذ السياسة المرسومة ضد العرب وحقوقهم يطبع أقوال وأفعال ومصائر رجال الحكومة البريطانية منذ الأصل، ويدل على أن هذه السياسة قد رسمت ونفذت عن عمد وبينة وتصميم. ومن بالغ السخرية والوقاحة والتضليل أن شرشل ذكر في كتابه الأبيض أن كتابه هذا الذي يفسر فيه الوطن القومي وأبعاد السياسة الإنكليزية قد عرض على الجمعية الصهيونية، وأن الجمعية رحبت به وأعلنت استعدادها للالتزام بما جاء فيه والسير وفقه، والكتاب الأبيض لا يمنع اليهود من شيء من أهدافهم التي في رأسها مكاثرة العرب وشراء أكبر قدر من أراضيهم، وإقامة دولة لهم على أنقاضهم، وهم موقنون من محاباة الحكومة الإنكليزية لهم في كل هذا.

تفنيدات الوفد للكتاب الأبيض وعدم إكتراث شرشل لها:

ولقد فند الوفد الكتاب الأبيض، وكشف عن ما فيه من زيف ومراوغة وتضليل وظلم وبنوع خاص في صدد جعل الهجرة اليهودية إلى فلسطين حقاً مفروضاً لليهود، مما يجعل اختلال المركز العربي حتمياً، ثم في صدد الحكم الذاتي الموعود. وكان قد أطلع على مسودة مشروع الدستور المزمع إصداره، فأثبت أن ذلك الوعد هراء لأن الحكم سيكون إنكليزياً مباشراً، ولأن أكثرية المجلس التشريعي الذي سيقوم استناداً إليه ستكون إنكليزية يهودية، ولأن المجلس إلى هذا ممنوع من بحث أي مسألة سياسة أو مالية، ولأن الدستور قائم على وعد بلفور الذي سوف يحل حتماً بمركز العرب. وأثبت كذب قول شرشل بأن فلسطين غير داخلة في الحدود الموعودة للملك حسين بالخرائط الجغرافية، وأكد بأن مخاوف العرب صحيحة. وكرر ما صدر من زعماء اليهود من تصريحات رهيبة، وأصر بناء على ذلك كله على طلب إلغاء وعد بلفور الباطل من أساسه والتسليم بالحق الشرعي الطبيعي لأهل البلاد في الاستقلال والحكم الوطني طبق رغباتهم التي أعلنوها، والتي تعهدت الحكومة البريطانية باحترامها. ولم يعر شرشل رد الوفد وتفنيداته اهتماماً، وأصر على موقفه مؤيداً من الحكومة ومجلس العموم.

إبرام صك الانتداب ومداه واحتجاج الوفد واللجنة التنفيذية عليه:

وفي تموز 1922 والوفد مايزال في أوروبا، أبرمت عصبة الأمم صك الانتداب لفلسطين الذي كان وضعه اليهود وتبنته الحكومة البريطانية[1]، فاحتج الوفد عليه وفنده وبين ما فيه من تناقض وظلم وتعسف وخطر على العرب ومصالحهم، من حيث أنه بينما يذكر في ديباجته أنه مستند إلى المادة (22) من ميثاق عصبة الأمم التي تنص على الإعتراف بأهلية البلاد العربية المحررة للاستقلال مع حاجتها إلى دولة مرشدة، ومن حيث إن هذا يقضي على الأقل بوجود حكم مستقل وطني ترشده دولة منتدبة، في حين أن الحكم في فلسطين بموجب مواد الصك إنكليزي مباشر، لأنه يذكر أن للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع والإدارة. وبموجب الصك مع الدولة المنتدبة التي هي

(1) أوردنا صك الانتداب ملحقاً في كتابنا المذكور سابقاً.

المباشرة للحكم أن تجعل البلاد في حالة اقتصادية وإدارية وسياسية تساعد على إنشاء نمو الوطن القومي اليهودي، وأن تسهل الهجرة اليهودية وتيسر اكتساب المهاجرين اليهود للجنسية الفلسطينية، وأن تتشاور مع الجمعية الصهيونية في كل ما يتصل بذلك. وفي كل هذا ما هو واضح من خطر وضرر بالغين بالعرب وإخلال صارخ بمركزهم، في حين أن الصك ينص على عدم إلحاق الضرر بحقوق غير اليهود في فلسطين. وفندوا بخاصة عدم ذكر العرب في النص ووصفهم بغير اليهود، كأنما كان الصك والحكم والقضية كل ذلك لليهود، في حين لم يكن اليهود حين صدور النص إلا نحو 10٪ من سكان فلسطين الذين كانت أكثريتهم العظمى عرباً، ولقد احتجت اللجنة التنفيذية بدورها على صك الانتداب.

إضراب البلاد الاحتجاجي على الصك:

وأضربت فلسطين تعبيراً عن سخطها ونقمتها، ووقع بعض المصادمات. وفي العاشر من آب 1922 والوفد مايزال في أوروبا، أبرمت الحكومة الإنكليزية الدستور وأعلنته، واحتج الوفد ورفض وأعلن عزمه على مقاطعة الإنتخابات.

تشجيع وتطمين أنصار العرب:

وقد شجعه على ذلك خاصة الأنصار من اللوردات والنواب والصحافة، وقالوا له بأن العرب إذا صمدوا على رفضهم للدستور ونفذوا عزمهم على مقاطعة الإنتخابات فإنه لن يكون للحكومة بد من التراجع، وكتب الوفد للجنة التنفيذية رسالة شرح فيها الموقف وما يقوله الأنصار وطلب رأيها.

الإتفاق بين اللجنة والوفد على العودة وعقد مؤتمر جديد:

فأبرقت إليه بالعودة وقررت الدعوة إلى مؤتمر يعقد في نابلس في ثاني يوم يصل فيه الوفد إلى فلسطين، وقد تم التواعد على ذلك بينها وبين الوفد برقياً بحيث يصل الوفد لحيفا في 21 آب 1922 وينعقد المؤتمر في 22 آب، وقد أرسلت اللجنة إلى الجمعيات تخبرها بذلك وتطلب منها إرسال مندوبيها إلى نابلس لحضور المؤتمر في اليوم المحدد.

نشاط الوفد في جنيف:

هذا ولقد كان للوفد نشاط في جنيف، حيث ذهب بعض أعضائه أثناء عطلة البرلمان في أواخر سنة 1921، وكانت عصبة الأمم تناقش في مشروع صك الانتداب الذي قدمته إليها الحكومة البريطانية، وكان الذاهبون إلى جنيف هم الحاج توفيق حماد وأمين التميمي وشبلي الجمل، وكانوا قد حصلوا على نسخة من مشروع صك الانتداب، فقدموا مذكرة في تنفيذ مواد المشروع ومناقضته لميثاق العصبة، وفي ما سوف يلحق بالعرب من تطبيقه من أضرار وأخطار حاضراً ومستقبلاً، ولكن الحكومة الإنكليزية واليهود كانوا أقوى صوتاً ونفوذاً في العصبة، فضربت باحتجاج وتفنيد الوفد عرض الحائط، وأبرمت الصك في تموز 1922 كما ذكرنا قبل.

المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف ومذكراته ووفده:

وكان في جنيف وفد من حزب الاتحاد السوري وأحزاب إستقلالية أخرى، وممن كان ميشيل لطف الله والشيخ رشيد رضا وتوفيق اليازجي والأمير شكيب ارسلان وإحسان

الجابري ورياض الصلح وسليمان كنعان وآخرون، فانضم الوفد الفلسطيني اليهم، وعقد الجميع مؤتمراً برئاسة ميشيل لطف الله. وكان الحاج توفيق حماد والشيخ رشيد رضا نائبين للرئيس وكان حاضراً فيه صلاح الدين قدورة وطعان العماد وسليمان كنعان، وقد قرر هذا المؤتمر إرسال مذكرات لعصبة الأمم يشرح فيها ما حل في سورية ولبنان وفلسطين من أحداث مناقضة لميثاقها وللبيانات والتصريحات والوعد والعهود المقطوعة للعرب وللحقوق العربية الشرعية الطبيعية، وهادرة للدماء التي سفكها العرب في جانب الحلفاء استناداً إلى تلك البيانات والتصريحات والوعود والعهود، وطالب بالاعتراف بالسلطان القومي والحكم الاستقلالي لسورية ولبنان وفلسطين، وحق هذه البلاد بالإتحاد وبالغاء الإنتداب وجلاء الجيوش الإنكليزية والإفرنسية عنها، وبإلغاء وعد بلفور وما قام على أساسه من صكوك. وطالب بإرسال لجنة لاستقصاء الحقائق والوقوف على رغبات شعوب هذه البلاد مع ضمان الحرية لهم ثم انتخبوا لجنة تنفيذية للمؤتمر سميت اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية وانتخب اسعد داغر سكرتيراً لها. ويكون مقرها القاهرة وقررت أن يبقى في أوروبا وفد منها لمتابعة المساعي وتألف الوفد من ميشيل لطف الله والأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري وسليمان كنعان.

وفد اللجنة التنفيذية إلى الملك حسين بمناسبة خبر المعاهدة الانكليزية الهاشمية:

هذا ولقد كانت الحكومة الإنكليزية في هذه الأثناء تحاول إقناع الملك حسين بتوقيع معاهدة يعترف فيها بالمركز الممتاز لها في شرق الأردن وفلسطين والعراق، فقررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الرابع الفلسطيني التي ندير كلامنا في هذه النبذة عليها إيفاد رفيق التميمي والشيخ عبد القادر المظفر وأديب أبو ضبة إلى مكة لمقابلة الملك حسين، وتذكيره بقضية فلسطين العادلة وميثاق أهل فلسطين في صددها، وتحذيره من الإعتراف بالمركز الممتاز لبريطانية فيها الذي يعني الإعتراف بوعد بلفور وحقه على الإلتزام بميثاق أهل فلسطين، ومطالبة بريطانية بتحقيقه وهو إلغاء وعد بلفور ومنع الهجرة اليهودية وشراء اليهود للأراضي العربية، وإنشاء حكومة وطنية مستقلة. وكان موسم الحج مقبلاً أيضاً، وكان ذلك فرصة للدعاية لفلسطين بين حجاج المسلمين، فهيأ الوفد مناشير وبيانات عن قضية فلسطين وأخذها معه لتوزيعها على الحجاج.

***



اللجنة الموقتة التي ظلت في جنيف بعد انفضاض المؤتمر لمتابعة مساعيه ريثما ينتهي اجتماع عصبة الأمم
الجلوس= (من اليمين الى اليسار)= الأمير شكيب ارسلان . الحاج توفيق بك حماد ـ طعان بك العماد ـ الأمير مشيل لطف الله ـ السيد رشيد رضا ـ سليمان بك كنعان .
الوقوف= (من اليمين الى اليسار)= أمين بك التميمي ـ نجيب بك شقير ـ شبلي افندي الجمل ـ احسان بك الجابري .



المؤتمر الفلسطيني الخامس المنعقد في نابلس سنة 1922 .

7

انعقاد المؤتمر الخامس في نابلس ٢٢ آب ١٩٢٢ عند عودة الوفد واستقباله الفخم:

قلنا قبل إن اللجنة التنفيذية قررت الدعوة إلى مؤتمر فلسطيني يعقد ثاني يوم وصول الوفد العربي من لندن في نابلس، وحدد الموعد في 22 آب 1922، حيث يصل الوفد إلى حيفا يوم 21 آب ويأتي رأساً إلى نابلس. ونقول الآن إن الجمعيات أرسلت ممثليها إلى نابلس لحضور هذا المؤتمر الذي عرف بالمؤتمر الخامس، وإن الوفد استقبل في حيفا استقبالاً حافلاً، ثم اتجه نحو نابلس، وكان يقابل باستقبالات حماسية في طريقه. وخرج معظم الذين جاؤوا إلى نابلس لحضور المؤتمر مع جمهور كبير من أهل نابلس إلى خارج نابلس، حيث كان للوفد استقبال حافل أيضاً اشترك فيه الألوف.

شرح سكرتير الوفد وأعضائه مدى نشاطهم في لندن ونقلهم تشجيع الانصار على مقاطعة الدستور والمجلس التشريعي:

وقد عقد المؤتمر في قاعة منشية البلدية برئاسة موسى كاظم الحسيني، وكنت في عداد ممثلي نابلس فيه، وقد سرد سكرتير الوفد وبعض أعضائه ما كان للوفد من نشاط على النحو الذي شرحناه، وقال إن الوفد رجع وهو مقتنع بما سمع من أنصار العرب في مجلس اللوردات والنواب والصحافة إلى أن العرب إذا صبروا واستمرّوا على نضالهم ورفضهم، وبخاصة إذا قاطعوا انتخابات المجلس التشريعي، انفتح أمامهم أمل جديد، لأن الحكومة البريطانية لابد من أن تتراجع عن موقفها فتجنح إلى مراضاة العرب. ولقد كانت العواطف الوطنية والروح الوطنية قوية جارفة باستثناء بعض الشذاذ المعروفين الذين اتخذهم الإنكليز واليهود آلات تحريك وتشويش وتوهين.

قرار المؤتمر بالمقاطعة وقسم المؤتمرين على ذلك:

فقرر المؤتمر على ضوء الإيضاحات التي سمعها من الوفد مقاطعة انتخابات المجلس التشريعي، وعدم التعاون مع السلطات في تطبيق الدستور المفروض القائم على وعد بلفور وصك الإنتداب المندمج فيهما ذلك الوعد، والإستمرار على المقاومة والنضال إلى أن تتراجع السلطات عن موقفها، وتسلّم بحق العرب الشرعي في بلادهم وبميثاقهم المقرر. وقد أملى الشيخ سليمان التاجي نص قسم أقسمه أعضاء المؤتمر قياماً دون أي شذوذ وفي أشد حالات الحماس على ذلك.

عودة وفد مكة أثناء المؤتمر وشرحه مدى نشاطه وتطمينات الملك حسين:

ومن الصدف أن وفد الحجاز المؤلف من الشيخ عبد القادر المظفر ورفيق التميمي وأديب أبو ضبة عاد من رحلته في نفس الظرف الذي انعقد فيه المؤتمر الخامس، فاشترك فيه وشرح للمؤتمر بدوره ما قام به من نشاط في الدعاية بين حجاج المسلمين، وما كان يلقاه من حماس وتأييد من كبار الحجاج من مختلف أنحاء الأرض. وذكر أنه قابل الملك حسين الذي أكدّ للوفد أنه لا يمكن أن يوقع على معاهدة فيها اعتراف بوعد بلفور، وأنه سيقدم تعديلات للمعاهدة المعروضة عليه تضمن إبطال مفعول



المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس في نابلس عام 1922 .

هذا الوعد، ومنح أهل فلسطين حكماً وطنياً.

لجنة تنفيذية جديدة للمؤتمر:

وقد اختار المؤتمر لجنة تنفيذية جديدة، وعهد برئاستها إلى موسى كاظم، وكنت أنا من أعضائها للمرة الثانية، وكان من أعضائها جمال الحسيني وعمر البيطار ورفيق التميمي وآخرون. وقد عهد لجمال بسكرتيرية اللجنة استمراراً لما كان قبل.

بيان اللجنة بقرار المقاطعة:

وقد أذاعت اللجنة التنفيذية بياناً بما قرره المؤتمر، وحثت جماهير الشعب على الوقوف موقفاً مقرباً ومؤيداً للمقاطعة.

محاولة السلطات إجراء الإحصاء وعدم التعاون معها:

ولقد استمرت الحكومة الإنكليزية على عزمها في تنفيذ الدستور، وأعلنت سلطات فلسطين عزمها على إجراء إحصاء عام تمهيداً لانتخابات المجلس التشريعي، وقد رفضت الجماهير التعاون معها في تنفيذ هذا الإحصاء.

حركة حاكم نابلس الإرهابية في صدد الإحصاء ورد فعلها:

وكانت نابلس أشد المدن حماساً في ذلك، فعمد حاكمها الإنكليزي واسمه نوط على ما أظن إلى الإرهاب، فاستدعى كلاً من حافظ آغا طوقان والحاج حسن حماد والحاج قاسم كمال وفائق العنبتاوي ورامز آغا النمر وعثمان الخياط، وأبلغهم الحكم عليهم بالسجن (شهراً بتهمة تحريض الشعب على عصيان الحكومة)، وسرى خبر الحكم في نابلس، فقامت مظاهرة احتجاجية صاخبة، وفي هذه الأثناء أرسل الحاكم المحكومين مع قوة من البوليس إلى سجن السرايا القديمة لقضاء مدة حكمهم فيها، وكان مكتب الحاكم في البناية التي كانت مدرسة إعدادية خارج نابلس قرب المستشفى الوطني، وقد هاجم المتظاهرون البوليس وخلصوا منه المحكومين واشتد التوتر في البلاد.

إعلان السلطات حرية الناس وعدم النية في إجبارهم على أي شيء مما يريدونه:

وذهب بعض أعضاء اللجنة التنفيذية برئاسة موسى كاظم في القدس، وقابلوا المندوب محتجين، وجنحت السلطات إلى المسايرة فأعلنت أنها لن تجبر أحداً على الإحصاء، كما أن هذا الإحصاء لا علاقة له بانتخابات المجلس التشريعي، وأنها كذلك لن تجبر أحداً على الاشتراك في الانتخابات، وأن للناس حريتهم في ذلك. ومما كان من أمر المحكومين أنهم خشوا مغبة ما فعله المتظاهرون، ورأوا أن يذهبوا بأنفسهم بعد تفرق المظاهرة إلى السجن، ورأى حاكم نابلس في ذلك ترضية كافية فألغى الحكم.

فتح باب الترشيح للمجلس التشريعي ولجنة المجلس حسب نص الدستور:

وقد أعلنت السلطات بعد قليل فتح الباب لمن يريد ترشيح نفسه لعضوية المجلس التشريعي، وكان عدد العرب الذين سوف يجري انتخابهم عشرة منهم اثنان مسيحيان، وعدد اليهود اثنان حسب نص الدستور، الذي نص على أن يكون عشرة من كبار رؤساء الدوائر الإنكليز أعضاء طبيعيين في المجلس، فيكون على هذا اليهود والإنكليز معاً هم أكثرية المجلس.

مقاطعة اجماعية بإستثناء ثلاثة: راغب النشاشيبي ومعين الماضي والشيخ عبد الرحمن البيتاوي:

وكان حماس العرب وعزمهم على المقاطعة شديدين شاملين، فلم يترشح من العرب إلا ثلاثة هم الشيخ عبد الرحمن الخطيب (البيتاوي) من قرية بيت ايبا من قرى نابلس ومعين الماضي من حيفا وراغب النشاشيبي من القدس. وقد ثار سخط الجماهير الشديد عليهم، واعتبروا خائنين مارقين. ومما نتذكره أن الشيخ عبد الرحمن البيتاوي قدم أوراق ترشيحه بنفسه في آخر يوم محدد لإغلاق باب الترشيح.

كلمة عن الشيخ عبد الرحمن ووالده:

ولقد كان والد هذا الشيخ إماماً وخطيباً لمسجد قريته التي تبعد عن نابلس بضعة كيلومترات، وكان له وجاهة في نابلس والقرى، وكان ينظم الشعر ولابأس في علمه وسلوكه، وقد أرسل ابنه الشيخ عبد الرحمن إلى الأزهر فأقام سنتين أو أقل، وعاد مثقفاً بعض الشيء ثقافة دينية ودنيوية ولغوية وأدبية، وصار ينظم الشعر، وعين معلماً في مدرسة قريته ثم في مدرسة نابلسية للغة العربية، وصار له أصدقاء، وكان خفيف الظل صاحب نكتة، وكان مقبولاً لدى الشباب. ويظهر أن شيطاناً نفخ في رأسه ليرشح نفسه لعل باب الظهور والوصول ينفتح أمامه واسعاً.

نشاط جمعية نابلس في صدد المقاطعة:

ولقد كانت الجمعية الإسلامية المسيحية في نابلس التي كنت سكرتيرها وكان الحاج توفيق حماد رئيسها في حالة انعقاد دائم، لمنع أي شذوذ عن المقاطعة واللاتعاون، وكانت تتصل بجمعيات المدن الأخرى بسبيل ذلك، بحيث يمكن أن يقال أن نابلس وجمعيتها كانت أشد المدن والجمعيات حماساً في الموقف.

نقمة الجماهير ضد الشيخ عبد الرحمن:

ولقد أثار شذوذ الشيخ عبد الرحمن نقمة وسخطاً شديدين في نابلس والقرى وفي قريته نفسها، حتى إن السلطات رأت بناء على مراجعته أن تعين حراساً يحرسونه في غدواته ورواحه وفي قريته أيضاً.

اتهامه لي وللحاج توفيق بالمؤامرة على اغتياله ومنع محاكمتنا:

وقد اتهمني مع الحاج توفيق حماد بالتحريض على قتله، وقدم شكوى جزائية بذلك، وعهد الى قاضي المحكمة المركزية الجزائية في نابلس علي حسنا بالتحقيق في التهمة، وحقق فعلاً بصفته قاضي تحقيق، واستدعاني مع الحاج توفيق، ووجه إلينا بعض الأسئلة ولم يستطع الشيخ إثبات تهمته، فقرر القاضي منع محاكمتنا. وقد انكمش الشيخ عبد الرحمن بعد أن أخفق في الترشح نتيجة لتجهم الناس له (وما لبث أن تعين مدرساً للعربية في ثانوية في القدس، وقد اغتيل في اثناء الثورة في احدى حارات القدس في سنة 1938).

شرح موقف معين الماضي والحاج خليل الطه:

أما معين الماضي فأمره كان عجيباً مثيراً في هذا الموقف، فقد كان في وفد لندن وعرف نيات الحكومة الانكليزية السيئة نحو العرب وحقوقهم ونصائحها، وموقف وزيرها شرشل اللئيم من الوفد العربي ومطالبه، وكان من جملة الشارحين لهذ الموقف والمقتنعين بوجوب مقاطعة الانتخابات على المؤتمر، واشترك في التصويت والقسم دون أن يبدر منه أي بادرة

مخالفة. وكان في حيفا زعيم ذو نفوذ كبير في أوساط العمال. ويبدو من نوع القبضايات هو الحاج خليل الطاها، وقيل أنه كان يتعامل مع اليهود مستنداً على قوته الشخصية وشعبيته، وقد شذ عن الجمهور في الانتخابات، وكان يحرض على وجوب الاشتراك فيها. وكان رجال الحركة الوطنية في حيفا يتحاشون الصدام معه، بل كان هناك ذهنية بأن الحركة الوطنية شبه مشلولة لعدم موالاة الحاج خليل لها. وقد قيل إنه هو الذي حرّض معيناً على الترشح ووعده بالتأييد، ومما قيل إن معيناً كان متوافقاً مع زكي التميمي ورفيق التميمي وآخرين من الشباب القوميين في حيفا على عدم جدوى المقاطعة، وأن الإشتراك في الانتخابات أحسن، وأنه ترشح بناء على هذا الاجتهاد. ولم أسمع هذا منه ولا من رفيق وزكي.

وفد الى حيفا لإقناعهما بالعدول عن موقفهما ونجاحه:

ولقد ذهب وفد من نابلس إلى حيفا للسعي لإزالة شذوذ معين والحاج خليل، مؤلف من حافظ آغا طوقان وفريد العنبتاوي، واستطاع أن يقنع الحاج خليل على ما سمعنا منه بالكف عن التعامل مع اليهود وموالاة الحركة الوطنية، والكف عن تحبيذ الانتخابات. ومنذئذ صار يتظاهر بذلك، وفرح أعضاء جمعية حيفا بذلك نظراً لقوة شخصيته ونفوذه وكان هو يتنصل من تهمة التعامل مع اليهود، ويتظاهر بالانسجام مع ما تقرره الجمعية من قرارات وطنية، فيكتفون منه بذلك. وقد فهمنا من الوفد أنه تعب في اقناع معين الماضي بسحب ترشيحه، ولكنه تمكن من ذلك. وقد علل بعضهم موقفه بأنه كان يتطلع الى وظيفة عالية في الحكومة إذا نجح في الانتخابات أو أخفق، لأنه يكون قد أثبت للسلطات حسن نيته ورغبته في التعاون معها، ولكن السلطات لما أخفقت الانتخابات وعمدت الى إعادة المجلس الاستشاري على ما سوف نشرحه بعد، تجاوزته وعينت أمين عبد الهادي الذي كان يقيم في حيفا للعضوية الإسلامية لمنطقة الشمال مع سليمان نصيف من نصارى حيفا ذو الأصل اللبناني، ولم تعرض عليه أي عمل حكومي.

وعلى كل حال فإن ما فعله معين كان هفوة كبيرة، ولقد كان الأحرى به أن يجهر برأيه في المؤتمر إذا كان ضد المقاطعة، ولكنه وافق على قراره واشترك بالقسم، ثم فاجأ الناس بالترشيح. ومع ذلك فأنا موقن بصفاء وطنيته، وهو من إخواننا القدامى في الفتاة ومن الأذكياء الجذابين، ولكن ليس رجل قسوة وعراك ومشاق، وتغلب عليه النعومة والميل الى الراحة والرغبة في البروز. ولقد عاد فانسجم في الحركة الوطنية وتعاونا معه في حزب الاستقلال، ثم في اللجنة العربية ثم في الهيئة العربية في مختلف المواقف والأحداث، وكان له جهد كبير في تجهيز وتحريك حملة القاووقجي من العراق إبان إضراب فلسطين الطويل، ثم في ظروف استئناف الثورة الفلسطينية في سنة 1937 وبعدها، وطاردته السلطات الإفرنسية بتحريض من الإنكليز، وكان في سورية فغادرها الى تركية وأقام فيها بضع سنين لاجئاً، وجهوده هذه جديرة بأن تمحو أثر تلك الهفوة والعصمة لله وحده.

نهاية الحاج خليل:

ولقد ظل الحاج خليل على سيرته يتنصل من التعامل مع اليهود، في حين كان يستمر في ذلك

على ما كان يلمحه الناس، وتقبل منه الجمعية موقفه تحاشياً من الاصطدام معه وكسباً له إن أمكن، إلى أن انبرى له شخص وطني في أثناء الإضراب الطويل نيسان ـ تشرين أول 1936، الذي انبثقت عنه ثورة عارمة على ما سوف نشرحه بعد، فأطلق عليه النار وكان في ذلك حتفه غفر الله له.

سحب راغب النشاشيبي ترشيحه بمساعي رجال القدس ونجاح المقاطعة الباهر واعتراف السلطات بذلك واعلانه وقف العمل بمواد الدستور العائدة للمجلس:

ولم ترسل جمعية نابلس وفداً للقدس للسعي في حمل راغب النشاشيبي على سحب ترشيحه، فقد كفاها ذلك بعض رجال القدس، اذ بذلوا جهدهم وجعلوه يسحب ترشيحه هو الآخر في آخر لحظة، وهكذا نجحت المقاطعة نجاحاً باهراً تحدثت به باعجاب صحف مصر وسورية ولبنان وبريطانيا. واعترفت السلطات الإنكليزية في القدس ولندن بإخفاقها، واضطرت إلى إعلان إلغاء الانتخابات ووقف العمل بمواد الدستور في شأنه الى أجل غير مسمى.

عدم محاولة السلطات التأثير بقوة في حركة الانتخابات:

ومن الحق أن نذكر أن الحكام الانكليز وموظفيهم لم يحاولوا التأثير والمواصلة بقوة وملاحقة ظاهرتين في حمل الناس على الترشيح والإقبال على الانتخابات، وأنهم وقفوا من الدعوة إلى ذلك والتشجيع عليه عند حد الواجب الرسمي، أي المحبذ أو أكثر قليلاً وحسب، هذا مع ما كان لدى المندوب السامي هربرت صموئيل من رغبة شديدة في تنفيذ المشروع لإدخال البلاد في دور إستقرار شرعي نوعاً ما.

تعليق على رغبة المندوب واليهود في نجاحها وموقف اليهود منها:

إن اشتداد الحركة الوطنية كان مانعاً قوياً، حتى تاريخ الانتخابات، لهذا الاستقرار، ولشراء اليهود مساحات مهمة من الأرض العربية، ولقدوم مهاجرين يهود بكثرة إلى فلسطين، ومن سير المشاريع اليهودية بنمو وقوة. وكان الوطن القومي اليهودي ما يزال وهماً وخيالاً، ومازال الناس الذين يناوئونه يرتكزون الى فرضيات مستقبلية ونتائجها، وإلى تصريحات زعماء اليهود ومواقف السلطات الإنكليزية. وقد كان المندوب اليهودي الانكليزي ينطلق في رغبته الشديدة من فكرة كون اشتراك العرب في الانتخابات ودخولهم في المجلس التشريعي المستند إلى دستور قائم على صك الانتداب ووعد بلفور، هو بمثابة اعتراف بالواقع السياسي لترسيخ الانتداب والحكم الانكليزي المباشر، وإضعاف مقاومتهما وإلهاء العرب بالمجلس ومناقشاته التافهة عن الاستمرار في المقاومة الشديدة، وكان يؤمل أن يخف بذلك خوف اليهود، فتشتد حركة الهجرة وشراء الأراضي والمشاريع المتنوعة من جانب اليهود، وعلى هذا الأساس وافق اليهود على الاشتراك في الانتخابات، وقبلوا المجلس التشريعي من أول يوم، ولا سيما أنهم مطمئنون إلى أن أصوات الإنكليز معهم، وهي في صوتيهم كافية لمنع العرب في المجلس من النجاح في أي موقف ومطلب.

* * *

8

محاولة السلطات إعادة المجلس الاستشاري كبديل عن المجلس التشريعي:

بعد فشل انتخابات المجلس التشريعي وإعلان الغائه، عمد المندوب إلى اختيار عشرة أشخاص من بارزي الأسر العريقة من العرب ليكونوا أعضاء مجلس إستشاري جديد، بالإضافة إلى عضويين يهوديين وعشرة أعضاء انكليز من كبار الموظفين كبديل عن ذلك المجلس، وفي عدد أعضائه المذكور في الدستور، وكان المندوب قد أنشأ مجلساً استشارياً في نفس الصدد حينما قامت الإدارة المدنية، ثم أعلن الدستور، ودعا الناس إلى انتخاب المجلس التشريعي.

الأعضاء العرب الذين عينتهم السلطات:

وقد وقع اختيار المندوب على كل من راغب النشاشيبي وعارف الدجاني الداودي واسماعيل الحسيني وسليمان عبد الرزاق طوقان وأمين عبد الهادي وعبد الفتاح السعدي ومحمود أبي خضرة والشيخ فريح أبي مدين أحد زعماء قبائل بدو منطقة بئر السبع من المسلمين، وسليمان نصيف وانطون جلاد من النصارى، وجلهم عدا أمين عبد الهادي وانطون جلاد كانوا أعضاء المجلس الاستشاري السابق.

رفض اللجنة التنفيذية للمجلس الاستشاري ونجاحها في حمل أكثرية الأعضاء على الإستقالة:

وقد اجتمعت اللجنة التنفيذية، فقررت رفض هذا البديل، ودعت الأعضاء المعينين الى الاستقالة والتضامن معها في الموقف الوطني، وأخذ أصحاب الدالة والبارزين من رجال نابلس ويافا وحيفا والقدس وعكا يبذلون جهدهم مع الأعضاء لحملهم على التجاوب مع قرار ونداء اللجنة التنفيذية، وكان حماس الشعب شديداً ضد هذا البديل الذي أريد به كسب النجاح الوطني العظيم في مقاطعة المجلس التشريعي، فساهم في الضغط عليهم، فأعلن أكثرهم إستقالته.

بقاء راغب النشاشيبي وعارف الدجاني محتفظين بعضويتهما:

وبقي راغب النشاشيبي وعارف الدجاني الداودي وسليمان نصيف مصرّين على الاحتفاظ بعضويتهم، ويخطر لبالي أن عبد الفتاح السعدي احتفظ كذلك بعضويته.

صرف السلطات النظر عن المجلس واكتفائها بكبار الموظفين:

ولم يجدهم هذا إلا الخزي أمام الشعب، لأن المندوب السامي صرف النظر عن وجود أعضاء فلسطينيين عرب ويهود في مجلسه، واكتفى بكبار موظفيه بعد أن استقالت الأكثرية الكبرى من المعينين من العرب.

محاولة عرض السلطات على العرب إقامة وكالة لهم على غرار اليهود ورفضهم العرض:

ومع ذلك لم يتوقف المندوب عن محاولاته بسبيل إيقاع العرب في فخ ما. فعرض عليهم أن ينشئوا وكالة عربية أسوة بالوكالة اليهودية المنصوص عليها في صك الانتداب لترعى مصالح العرب، ولقد رأت اللجنة التنفيذية وزعماء الحركة الوطنية في هذا العرض مكيدة جديدة، وإنزال للعرب أصحاب البلاد والأكثرية

الساحقة الى درجة طائفة، فرفضوا هذ العرض في ظل ذلك الحماس الوطني الشعبي الشديد.

تعليق على اللوم الموجه للحركة الوطنية على رفض العروض وتفنيد ذلك:

ولقد وجه اللوم للحركة الوطنية لموقفها السلبي في رفض المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري والوكالة العربية، وقال اللائمون إنها أضاعت فرصة حسنة برفضها المجلس التشريعي خاصة، وكان هذا اللوم مبكراً. وانبثق عنه انشقاقات في الحركة الوطنية، عانت هذه الحركة منها عناء شديداً منذ سنة 1922 على ما سوف نشرحه بعد، وظل اللوم يردد في ظرف بعد ظرف، واندمج فيه في الظروف المتأخرة ذوو النيات الحسنة، فيما رأوا الحركة الصهيونية استفحلت. ولقد كان للدعاية الانكليزية اليهودية أثر في إثارة اللوم المبكر الذي انبثقت عنه الانشقاقات لتوهين الحركة والمقاومة العربية وتفتيتهما، وإضعاف نفوذ رجالاتها في نفوس الشعب. ولقد كانت الروح الوطنية قوية جارفة، كما كانت الحركة الصهيونية ضعيفة متهافتة تجر نفسها جراً. وكان المجلس التشريعي ثم المجلس الاستشاري يقومان على أساس وعد بلفور وصك الانتداب، وليس لهما أي صلاحية جوهرية في الحكم والإدارة والتشريع، ولم يكن لهما حق في إثارة أي موضوع يمس ذلك الأساس، فكان قبولهما مستحيلاً من ناحية الظرف، كما كان غير ذي جدوى من ناحية المدى والموضوع.

وكان اللائمون المبكرون معروفين بالولاء للانكليز والتعامل مع اليهود والانسجام في السياسة الانكليزية اليهودية، وكان على رأسهم معظم رؤساء البلديات المعينين من المندوب السامي، والذي يدينون له بوظائفهم وبروزهم. واللوم المتأخر الذي اندمج فيه بعض ذوي النيات الحسنة كان من وحي الظروف المتأخرة لأناس ليس من طبيعتهم الاندماج في كفاح ومقاومة، أو السير فيهما طويلاً. ومثل ذلك كان بالنسبة لأحداث عهد فيصل الشام على ما شرحناه من قبل، ومثل ذلك يكون في كل موقف وظرف مماثلين، ولقد جاءت أجيال جديدة وتزعمت حركة القضية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية، فكان موقفها في الظروف المماثلة مثل موقف جيلنا، وكان الشعب مؤيداً له كما كان مؤيداً لموقف جيلنا، وهذا مما كان وظل يحدث مع القائمين على الحركات الوطنية والمقاومة الوطنية في الشعوب والبلاد الأخرى التي بليت بما بلي به شعبنا وبلادنا، ذلك لأن التساهل والمهاودة في المبادىء الأساسية التي تقوم عليها القضية والمقاومة من شأنهما أن يفقدهما شرعية النضال وقوته واستمراره ويقتل القضية نفسها.

* * *

9

إنشــاء المجلس الاســلامــي الشــرعــي الأعلــى ودوافــع المسلمين لذلك:

وفي أوائل فترة عملنا في مدرسة النجاح، أنشىء المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى، ولقد كانت الأوقاف والمحاكم الشرعية في الدولة العثمانية دوائر حكومية لها موظفون رسميون، وكان للأوقاف وزير ومديرون عامون في الولايات ومأمورون في المتصرفيات، وكانت المحاكم الشرعية تابعة لوزير ذي مركز ممتاز في الوزارة والدولة عنوانه شيخ الإسلام، وعنوان وزارته المشيخة الإسلامية، وهي التي تعين القضاة الشرعيين وتشرف على سير المحاكم الشرعية. ولما قام حكم الاحتلال ثم الانتداب الإنكليزي، صارت الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية تحت إشرافه، لأنه هو الحكومة. وقد استنكر المسلمون ذلك وتطلعوا إلى إخراج المؤسستين الإسلاميتين من الحكم الإنكليزي.

بدء السعي في سبيل ذلك في زمن المفتي الشيخ كامل وموافقة السلطات والخطوات الأولى:

وحينما عين هربرت صموئيل مندوباً سامياً، وصارت إدارة البلاد مدنية بعد أن كانت عسكرية، راجع مفتي القدس الشيخ كامل الحسيني بالاتفاق مع زعماء المسلمين في القدس وخارجها هذا المندوب في صدد ذلك، فاستجاب المندوب للسعي وأعلن استعداد حكومته للموافقة على جعل هاتين المؤسستين تحت اشراف المسلمين في خطاب ألقاه في نابلس في أواسط عام 1920، وكنا آنذاك في دمشق. وحينئذ دعا الشيخ كامل فريقاً من علماء المسلمين ووجهائهم الى اجتماع لبحث الأمر، وأسفر عن وضع مشروع نظام خاص. ولم يلبث المفتي أن توفي في أوائل عام 1921، وتوقف السير في العمل ريثما يتم انتخاب مفت جديد.

فلما تم انتخاب وتعيين الحاج أمين الحسيني مفتياً حرك المسألة، فوافق المندوب السامي على السير في العمل على جعل هاتين المؤسستين تحت اشراف المسلمين.

المؤتمر الإسلامي الأول في القدس في صدد ذلك:

وأجرى المفتي اتصالاً بزعماء المسلمين في القدس والمدن الأخرى، وتم الاتفاق على عقد مؤتمر إسلامي لإعادة النظر في مشروع النظام الموضوع سابقاً واقراره نهائياً والسير في تنفيذه. ولقد كانت فلسطين مقسمة في زمن الدولة العثمانية الى ثلاثة متصرفيات:

(القدس) وتضم أقضية القدس والخليل وبئر السبع وغزة والمجدل ويافا.

(نابلس) وتضم أقضية نابلس وجنين وطولكرم.

و(عكا) وتضم أقضية عكا وحيفا وصفد وطبريا.

فقرر المجتمعون أن يمثل كل قضاء أربعة ينتخبهم المنتخبون الثانويون الذين انتخبوا أعضاء آخر مجلس نيابي عثماني، وكان أكثرهم مايزال على قيد الحياة. وقد تم ذلك، وأرسلت الأقضية مندوبيها وكان عددهم ستة وخمسين مندوباً.

المؤتمر الثاني في صدد ذلك وإقرار نظام المجلس:

واجتمع المندوبون في القدس برئاسة المفتي، وراجعوا مشروع النظام الموضوع وأقروه مع أنه كان فيه ثغرات عديدة إجرائية وشكلية وموضوعية.

بنيان المجلس في النظام:

وقد نص النظام على قيام مجلس شرعي إسلامي أعلى يكون له الإشراف على الأوقاف الإسلامية والمساجد الإسلامية والمحاكم الشرعية، ويكون مؤلفاً من رئيس وأربعة أعضاء، اثنين من الأعضاء من متصرفية القدس. وواحد من متصرفية نابلس، وواحد من متصرفية عكا. وينتخبهم المندوبون الثانويون الذين انتخبوا آخر مجلس نيابي عثماني في متصرفياتهم. أما الرئيس فينتخبه جميع المندوبين الثانويين في المتصرفيات الثلاث.

موافقة المندوب السامي على النظام مع احتفاظ الحكومة بحق إبقاء إصدار طوابع المحاكم الشرعية بيدها وتعهدها مقابل ذلك بدفع مرتبات المحاكم الشرعية ونصف مرتبات رئيس واعضاء المجلس:

وأرسل النظام الى المندوب السامي فوافق عليه، وقد احتفظت الحكومة بحق إصدار الطوابع التي تلصقها المحاكم الشرعية على أوراقها ووثائقها، حيث تطبعها وهي تسلمها للمحاكم، وتأخذ هذه ثمنها من استحقاق الأوراق والوثائق، وتوردها لخزانة الحكومة. وتعهدت الحكومة مقابل ذلك بدفع مرتبات المحاكم الشرعية ونفقاتها، ونصف مرتبات رئيس المجلس وأعضائه الأربعة، باعتبار أن من مهماتهم الإشراف على المحاكم. أما النصف الثاني فيستوفونه من إيرادات الأوقاف.

أنواع إيرادات الأوقاف:

وقد كانت إيرادات الأوقاف على نوعين: أوقاف عقارات، وأوقاف أعشار أراضي وقرى وقفية. وقد صارت الأولى بإدارة المجلس وموظفيه مباشرة. أما الثانية فكانت الحكومة تجبيها في جملة ما تجبيه من ضريبة الأعشار وتقيدها لحساب المجلس وتدفعها له دفعة بعد دفعة، وكان في هذا إصبع ضغط بشكل ما على المجلس، ولكن لم يكن هناك طريق آخر.

انتخاب كل من عبد اللطيف صلاح والحاج سعيد الشوا والشيخ محمد مراد وعبد الله الدجاني أعضاء المجلس:

وبعد أن وافق المندوب على النظام، جاء دور انتخاب الأعضاء والرئيس، وقد بذل الشيخ عمر زعيتر جهده في منطقة نابلس وأنجح صهره عبد اللطيف صلاح عضواً عن هذه المنطقة، وانتخب المندوبون الثانويون في متصرفية القدس الحاج سعيد الشوا من غزة وعبد الله الدجاني من يافا، ولوحظ على ما يظهر أن الرئيس سيكون المفتي من القدس، فكان التوافق على ما تم، وانتخب منتخبو متصرفية عكا محمد مراد مفتي حيفا.

ما جرى من تنافس على الرئاسة ونجاح الحاج أمين الحسيني بالرئاسة في النهاية:

ولقد كان في سياق انتخاب الرئيس من قبل جميع المندوبين تنافس، حيث رشح راغب النشاشيبي وكان رئيس بلدية القدس الشيخ حسام جار الله، وترشح الحاج أمين الحسيني مقابله، وكانت أكثرية مندوبي المناطق لجانب

الحاج أمين الحسيني، وشاع بقوة أن راغب النشاشيبي عرض على الشيخ عمر زعيتر أن يترشح ويساعده في تحويل ما يقدر عليه من أصوات في القدس وغيرها له، بالإضافة إلى أصوات منطقة نابلس. ورشح الشيخ عمر نفسه للرئاسة، إلاّ أنه في النهاية انسحب من الترشيح مكتفياً بصهره ورئاسة بلدية نابلس، وهكذا فاز الحاج أمين بالرئاسة.

ولم ينسجم هذا الصهر مع رفاقه في المجلس، وظل معارضاً طيلة مدة عضويته على ما ذكرناه في الكلمة التي كتبناها عنه. ونقول استطراداً إن المجلس الأعلى كان مؤسسة إسلامية لا تخضع لأي اشراف حكومي، وفي هذا النطاق كانت المحاكم الشرعية الإسلامية تحت إدارتها تعين موظفيها وتقيلهم وتشرف على أمورها استقلالاً تاماً. وكذلك كانت المساجد والمعاهد والمؤسسات الإسلامية الأخرى الوقفية تجبي ايرادات الأوقاف بواسطة جباتها وتنميها وتعمرها وتعين موظفيها وتعزلهم استقلالاً أيضاً، وهناك استثناءان:

أولهما: أنه كان في فلسطين قرى، وأراضي زراعية في قرى، أعشارها موقوفة على المعاهد والمساجد الاسلامية، فكانت الحكومة هي التي تجبي هذه الأعشار في سياق جبايتها الأعشار عامة، وتدفع ما تجبيه الى المجلس دفعة بعد دفعة حسب الجباية، وكانت تتغير مقاديرها حسب ضعف المواسم وجودتها وحسن الجباية وضعفها، وكان ذلك يسبب ارتباكاً في ميزانية المجلس الوقفية، لأن هذه الأعشار تكاد توازي ريع العقارات الوقفية الأخرى، وكان ذلك مما يجعل المجلس يتذلل ويداري الحكومة ليحصل منها على سلفات اكثر يكون له من حصيلة الجباية.

وقد استمر ذلك الارتباك نحو عشر سنين حتى ألغت الحكومة ضريبة الأعشار ووحدتها مع ضريبة الأرض، حينئذ اتفق المجلس مع الحكومة على مبلغ مقطوع مؤسس من معدلات واستحقاقات تفاوض في مداها فخفف ارتباكه المالي الوقفي. وكانت المحاكم الشرعية الإسلامية تتقاضى رسوماً من أصحاب المصالح والقضايا المختصة بها، وكانت المحاكم تلصق على الأوراق والوثائق طوابع بقدر هذه الرسوم، وكانت الحكومة هي التي تطبع هذه الطوابع باعتبار أن ذلك من عمل الدولة والسيادة، وتعطي المحاكم ثمن هذه الطوابع الرسوم النقدية التي تتقاضاها من أصحاب المصالح الى صندوق الحكومة، ومقابل ذلك كانت الحكومة تتكفل بمرتبات ونفقات المحاكم الشرعية، ويكون موظفو هذه المحاكم من حيث المعاش فقط بمثابة موظفي حكومة، دون أي حق بالتدخل والإشراف والتفتيش. وكان لموظفي المحاكم الشرعية حق في مرتبات تقاعدية حينما يحالون على التقاعد أسوة بموظفي الحكومة. ولما كان المجلس، أي الرئيس والأعضاء الأربعة، يشرفون على المحاكم الشرعية، فكان نصف مرتباتهم من صندوق الحكومة، ويشرفون كذلك على المنشئات الإسلامية الأخرى التي ينفق عليها من مال الأوقاف، فكأن نصف مرتباتهم تدفعه الحكومة أيضاً على حساب طوابع الرسوم التي تلصق على الأوراق والوثائق..

ولقد كتبنا كلمات عن الحاج أمين والحاج سعيد في مناسبات سابقة، ويحسن أن نكتب كلمة عن الشيخ محمد مراد وعبد الله الدجاني بمناسبة ذكرهما.

كلمة عن الشيخ محمد مراد:

كان مفتياً في حيفا في زمن الدولة العثمانية، ولم تكن حيفا ذات مركز مهم في هذا الزمن، لأن مركز المتصرفية كان عكا. وقد اختاره جمال باشا ليكون عضواً في البعثة التي أرسلها جمال برئاسة الشيخ أسعد الشقيري بعد قليل من شنق الدفعة الأولى من شهداء أحرار العرب لمدح جمال وتأييده على ما شرحناه في مناسبة سابقة، ولا ندري هل كان ضد الحركة العربية كما كان شأن الشيخ أسعد، أم أنه اختير فكان لا بد له من الذهاب، مع التنبيه على أن كثيراً من الذين ذهبوا في البعثة كانوا ضد هذه الحركة، على أن الشيخ مراد برز بعد الاحتلال كزعيم وطني إسلامي، وأنشأ جمعية إسلامية كان رئيسها، وبدا انه لا بأس في ثقافته الدينية واللغوية والتاريخية والاجتماعية، وأن خطه السياسي الوطني سليم. وكان يحسن الخطابة أيضاً، فالتفّ حوله الناس في الشمال دون الشيخ أسعد الذي كان شبه منعزل، وملأ فراغاً وصار له وجاهة ومكانة في جميع منطقة الشمال ثم في فلسطين عامة، وجعله هذا ينجح في انتخابات عضوية المجلس الإسلامي، وزاده هذا ثباتاً وحسن قبول، وأظن أنه كان حينما صار عضواً في سن الستين، وقد التقينا به في مؤتمرات فلسطين قبل انتخابه عضواً للمجلس، وقام بيننا مودة وألفة، وكنت ألقى منه احتراماً وتقديراً. واستمر ذلك بيننا، وتكررت لقاءاتنا أثناء عملي في مدرسة النجاح وأثناء عملي في مأمورية الأوقاف، وقد توفي في أواخر العشرينات وقبل أن أتولى مديرية الأوقاف.

تعيين الحكومة أمين الأحمد عبد الهادي محل الشيخ محمد مراد حينما توفي:

وبعد وفاته عينت الحكومة خلفاً له أمين الأحمد عبد الهادي الذي سبق أن كتبنا كلمة عنه في مناسبة انتخابه لعضوية مجلس النواب العثماني.

كلمة عن عبد الله الدجاني:

أما عبد الله الدجاني فلم أكن أعرفه قبل انتخابه لعضوية المجلس، وقد التقيت به بعد ذلك مرات عديدة، وكان يبدو أنه رجل جدي ونبيل وذو عقل ثاقب وخط وطني سليم. وقام بيننا ألفة ومودة، وكنت ألقى منه احتراماً وتقديراً. وكان في حدود الستين، وقد مات في أواسط العشرينات رحمة الله عليه.

تعيين عبد الرحمن التاجي محل عبد الله الدجاني حينما توفي كلمة عن التاجي:

وبعد وفاته عينت الحكومة محله عبد الرحمن التاجي خلفاً له، وهو من وجهاء الرملة وصاحب أراض وبيارات، وكان من زمرة الموالين للحكومة وكتلة راغب النشاشيبي، وكان يُغمز بالتعامل مع اليهود. والتقيت به مراراً بعد تعيينه، وكنت أول ما رأيته في مدرسة النجاح حيث الحق أولاده بها في سنة 1923 و1924، وبدا لي أنه رجل بسيط وعليه شيء من الوجاهة، وكان يتنصل من التعامل مع اليهود ويقول انهم جيرانه في بيارته وحسب، ولكنه لم يحاول التنصل من كونه من كتلة راغب النشاشيبي الموالية للسياسة الإنكليزية. ولقد كان من المعروف الذي كاد يكون يقيناً أن عبد الرحمن التاجي وأقاربه باعوا من أراضيهم لليهود، وأنهم أنشأوا بما قبضوه من ثمنها بياراتهم التي كانت تدر عليهم موارد طيبة وتيسر

لهم المعيشة بيسر بل ببذخ، ومن جملتهم عبد الرحمن. وحينما صرت مديراً للأوقاف عرفت أنه هو وابن عمه شكري عقدا عقداً مع بعض زعماء قرى طولكرم على شراء مشاع عتيل، الذي كانت مساحته بضعة آلاف دونم بقصد المتاجرة. وكان المتبادر للناس أن اليهود فقط هم الذين كانو مرشحين لشراء هذه المساحة الكبيرة وقد تعثر تنفيذ العقد. وتدخل المجلس الاسلامي فحل محلهم فيه، وأذكر أننا ذهبنا الى بيارته أنا والحاج أمين وأمين التميمي وتغدينا عنده، وأتممنا الاتفاق معه على ذلك. ولقد كثرت لقاءاتي به بعد أن عينت مأموراً لأوقاف نابلس، ثم مديراً عاماً للأوقاف، وكنت ألقى منه تقديراً واحتراماً، وكان دمث الأخلاق. وكان مع الحاج أمين منسجماً مرة ومعارضاً مرة، وكان الحاج يتعامل معه على علاّته هذه، وقد توفي في الأربعينات على ما يرد لذهني في حدود السبعين غفر الله له ورحمه.

قوة مركز آل الحسيني بعد تعيين المفتي رئيساً للمجلس:

ولقد أصبحت جبهة آل الحسيني بانتخاب الحاج أمين لرئاسة المجلس الاسلامي وبعد انتخابه للافتاء هي الأقوى وطنياً وشعبياً. فموسى كاظم رئيس المؤتمرات ورئيس اللجان التنفيذية أي رئيس الحركة الوطنية، وجمال سكرتير اللجان، والحاج أمين رئيس المسلمين الذين هم الأكثرية العربية الكبرى، وكان يحاول أن يكون الزعيم الحقيقي النافذ بما له من رصيد ونشاط واندماج تام في الحركة الوطنية، وبما فتح له المجلس الإسلامي من آفاق. وقد صار الأئمة والخطباء والمدرسون والوعاظ ومأمورو الأوقاف والمحاكم الشرعية تحت إشرافه، ولكل هؤلاء صلات وتعاملات واسعة في الشعب، ويهتمون لإرضائه ونشر إسمه وهيبته.

ما فتحه المجلس للحاج أمين من آفاق ومحاولته نفخ المجلس حتى صار شبه حكومة إسلامية:

وقد فتح قيام المجلس أبواباً لعديد من الناس للعمل والانفتاح وهو رئيسه، وأكثرية الأعضاء منسجمة معه، وصار قادراً على إرضائهم وكسب ولائهم، وصار كثير من الناس يرون في قوة الحاج أمين ونفوذه وسيلة لمصالحهم، فيقبلون على الالتفاف نحوه والاتجاه اليه. وكان الحاج أمين يحاول بكل ذلك أن يبدو المجلس كحكومة إسلامية لها تشكيلاتها وأبهتها على شدة محدوديتها المادية، حتى كان ما أراده أن يكون انتفاخاً وَرَمِيًّا. ويكفي أن نعرف أن ميزانية هذه الحكومة الإسلامية لم تكد تتجاوز ثلاثين أو أربعين ألف جنيه في السنة، ومع ذلك فإن المسلمين اندمجوا في ما أريد أن يكون المجلس، ووجدوا فيه إشباعاً لرغباتهم وعاداتهم الخاصة والعامة والنفسية والدينية والمظهرية، حتى بدا أن هذه الحكومة تتسع لكل ذلك، ولا سيما أن الحكم القائم كان غير إسلامي بعد أن كان إسلامياً في زمن الدولة العثمانية. وقد برزت بعض عناصر النصارى واليهود على مسرح الحكم بشيء من الاعتزاز والظن بأن الدولة دولتهم، فكان هذا مما زاد المسلمين اندماجاً في حكومة المجلس، ولقد جنح الحاج أمين الى هذا وإلى تقديم نفسه أو إبراز نفسه للعالم الإسلامي العربي وغير العربي بهذه الصورة، وكان لذلك رد فعل إيجابي، وصار المسلمون في الخارج عرب وغير عرب يعاملونه ويتعاملون معه على هذا الاعتبار، فازدادت بذلك مكانته وشعبيته داخلاً وخارجاً.

تيار المجلسية والمجلسيين وسمته الوطنية:

وقد انبثق عن كل ذلك في فلسطين ما صار يسمى (المجلسية والمجلسيين)، الذي كان يعني أنصار وأولياء الحاج أمين بخاصة، لأنه كان قطبه، مع اتسام هذه (المجلسية والمجلسيين) بالسمة الوطنية والخط الوطني القوي السليم، أي كان هناك صفة مزدوجة لها في معنى مترادف (مجلسية ووطنية)، لما كان للحاج أمين من نشاط ورصيد وطني، ولما كان لموسى كاظم وجمال من مباشرة للعمل الوطني، ولما كان من اندماج جمهور الشعب في الحركة الوطنية بعفوية، بحيث صار في الذهن أن المجلسية والوطنية مترادفتان.

ماكان يسبب هذا للانكليز واليهود من ضيق:

وكل هذا بالإضافة الى ما كان من نجاح الشعب بقيادة قياداته التي كان الحسينيون في مقدمتها، في مقاطعة المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري، والاستمرار في المقاومة الشعبية بقوة، كان يسبب للسلطات واليهود معاً ضيقاً، ويؤدي إلى تعثر السياسة الإنكليزية اليهودية.

انبثاق تيار المعارضة مقابل المجلسية:

وكان ذلك مما أدى الى انبثاق ما عرف بتيار المعارضة، التي كانت تعني معارضة الحاج أمين وحكومته وعامة الحسينيين وللحركة الوطنية، وكان على رأس هذا التيار أو خطه راغب النشاشيبي مقابلاً في الدرجة الأولى للحاج أمين الحسيني.

التناظر بين الحسينيين والنشاشيبيين:

ولقد كان في البدء تناظر بين الأسرتين النشاشيبية والحسينية في الدولة العثمانية، وكان محلياً أو مقدسياً، ثم انصبغ بصبغة سياسية بعد الاحتلال. ولقد كانت ميول الحسينية وأنصارهم نحو حكم فيصل والحركة العربية الوحدوية الاستقلالية، وأنشأوا نادياً عربياً، فانبرى النشاشيبيون لمنافستهم، فأنشأوا المنتدى الأدبي. وكان موقف راغب وأنصاره ضد اندماج فلسطين في سورية، لأن الحسينيين كانوا مع هذا الإندماج.

الحسينيون مع الخط الوطني والمعارضون موالون للسلطات:

ولقد ظل الحسينيون على خطهم القومي بعد سقوط عهد فيصل، فكان ذلك مما جعل النشاشيبيين يوالون الحكومة الانتدابية، وكافأتهم هذه الحكومة فعينت رئيسهم راغبا رئيساً للبلدية بديلاً عن موسى كاظم الذي أقالته حينما وقف موقفه، ووقف الحاج أمين موقفه، في مظاهرات موسم النبي موسى نيسان 1920 على ما شرحناه قبل.

محاولة النشاشيبي مزاحمة الحاج أمين على الإفتاء وعلى رئاسة المجلس:

واشتد بعد ذلك ولاء النشاشيبيين وأنصارهم لحكومة الانتداب، ولقد حاولوا صرف الإفتاء عن الحسينيين حينما مات الشيخ كامل الحسيني المفتي، ولكن سياسة حكومة الانتداب لم تأخذ بموقفهم وعينت الحاج أمين مفتياً، ولقد حاولوا صرف رئاسة المجلس عن الحاج أمين ولكن هذه السياسة لم تأخذ كذلك بموقفهم وتم انتخاب الحاج أمين، ولما اجتمعت زعامة المسلمين والزعامة الوطنية بذلك للحسينيين، وصار لهم ما صار من وجاهة ومكانة ولا سيما للحاج أمين وحكومته، قوي تيار المعارضة. ومما لا شك فيه أنه كان لضيق اليهود والإنكليز

بتلك الوجاهة والمكانة إصبع قوي في قوة هذا التيار.

غرابة سمة المعارضة في فلسطين:

ولقد كان ذلك حالة فريدة، فالمعارضة في أصلها تكون عادة ضد الحكم القائم، وكان ذلك سمة الجبهة الحسينية أو المجلسية، ولكنها في فلسطين صارت سمة الموالين للسياسة الإنكليزية ضد المناوئين لها.

محاولة المعارضة إيجاد منفذ لها في انتقاد المجلس والحاج أمين:

غير أن تيار المعارضة وجد منفذاً لحالته الفريدة في المجلس الإسلامي وحكومته بصورة خاصة، حيث صار يوجه النقد والتجريح للمجلس والحاج أمين وحكومته (مجازاً)، غير أنه لم يستطع أن يخفي بذلك سمته الحقيقية، وهي الموالاة للسياسة الانكليزية اليهودية ضد الجبهة أو التيار المناوىء لهذه السياسة، الذي كان هو المجلسية. وكان تيار المعارضة يتهجم على المجلس والحاج أمين باتهامات المحسوبية والرغبة في البروز والانتفاخ وعدم نشر ميزانيته وحساباته، وأذكر أنه جاء الى نابلس في سنة 1923 أو 1924 الشيخ أسعد الشقيري وعبد الفتاح السعدي وتوفيق العبد الله، وهم من زعماء المعارضة في الشمال وفي عكا، المندمجين مع كتلة راغب الموالية للسياسة الانكليزية، ليحرّضوا رجالها على المجلس ويسوقوا تلك الاتهامات.

وقد اجتمعنا بهم أنا والحاج توفيق حماد وحافظ آغا طوقان وفريد العنبتاوي وابراهيم القاسم عبد الهادي والدكتور بشناق على غداء في بيت الحاج سعيد عبد المجيد (السيحاني)، بناء على رغبتهم، فأخذوا يسوقون انتقاداتهم ويطالبون اتفاق رجال نابلس وغيرهم معهم على مطالبة المجلس بتصحيح سيرته ونشر ميزانيته. وأخذنا نتداول الحديث في صدد ذلك، وقد قلت لهم انكم تشغلون أنفسكم وتشغلون الناس في أمر تافه زهيد، وتغْفَلون وتَجعَلون الناس نتيجة لذلك يَغْفَلون عن الأمر الخطير وهو الحكومة الانتدابية، فميزانية المجلس في حدود الثلاثين أو الأربعين ألف دينار، وفي نابلس وغير نابلس اناس يكسبون سنوياً مثل هذا المبلغ أو نصفه، أو يبلغ إيرادهم مثله أو نصفه، وليس هو ضرائب يدفعها المسلمون من كسبهم وثرواتهم، وانما هو إيرد أوقاف قديمة محبوسة وميزانية الحكومة الانتدابية تزيد عن خمسة ملايين جنيه يدفع العرب أربعة أخماسها ضرائب ورسوماً، وتقيمون القيامة لمحاسبة المجلس وتتركون حكومة الانتداب تتصرف بضرائبكم بدون محاسبة، ولفلف الحاضرون الموقف وغادرت الجماعة نابلس مخفقة.

موقف الحاج أمين وأنصاره تجاه المعارضة:

وكان الحاج أمين وجماعته يقابلون تهجمات المعارضة باتهام رجالها بولائهم للإنكليز واليهود، وأصبح هؤلاء وأولئك في حركتهم ومعارضتهم وبعلاقات بعضهم بالسمسرة لليهود وبيع الأراضي لهم، وكان راغب غير متقيد بالممارسات الدينية الإسلامية وفي الصلاة والصوم، وكان كثير من زملائه في كتلته على خطته هذه، فكان كل ذلك مجال نقد وتجريح وتشهير وحط منزلة في الجماهير أيضاً. ومما أذكر أن الحاج أمين كان يتمثل ببيت من الشعر حينما كان يريد أن يقايس بين جَدِّه وجُهده وخططه الوطنية والإسلامية، وكل ذلك كان ديدناً له شاغلاً لاجتماعاته وأحاديثه مع الناس وبين لهو

راغب وزملائه وهو:

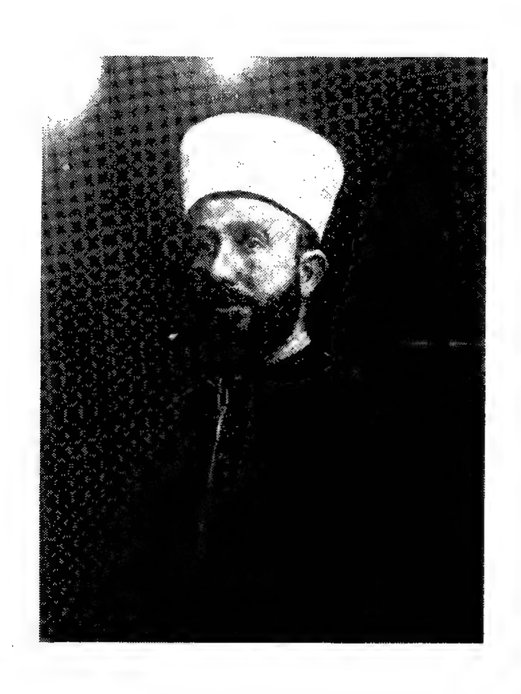
أأبيت سهران الدجى وتبيت
في لعب وتبغي بعد ذاك لحاقي

اشتداد تيار المعارضة والمجلسية إبان إنتخابات المجلس الثانية وإبان المؤتمر الإسلامي:

ولقد اشتد تيار المناظرة المجلسية والمعارضة إبان انتخابات المجلس الإسلامي الثانية، التي كانت في سنة 1926. والتي كان لها آثار سلبية سيئة في سير الحركة الوطنية على ما سوف نشرحه بعد، ثم استمر يخفت حيناً ويشتد حيناً، وانفجر بشدة إبان انعقاد المؤتمر الإسلامي العام الذي دعا إليه الحاج أمين ورفاقه للدعاية للقضية الفلسطينية، وجعلها قضية إسلامية عامة، وانعقد في آخر سنة 1931.

محاولة زعماء من العرب الإصلاح بين الحاج أمين وراغب وإخفاقها:

ومما نذكره أن زعماء عرب عديدين حاولوا الإصلاح بين الحاج أمين وراغب، ومنهم أحمد زكي باشا الشهير باسم شيخ العروبة، وعبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي المشهور، وعبد الحميد سعيد رئيس جمعيات الشبان المسلمين وغيرهم، حينما كانوا يزورون فلسطين ويلمسون أثر الخلاف السيء في الحركة الوطنية أو الإسلامية، فلم يوفقوا. ومن طريف ما سمعناه أن راغباً النشاشيبي كان يقول لهم لا تتعبوا أنفسكم فإن الإنكليز لا يريدون أن نتصالح وسيفسدون أي صلح يتم بيننا. هذا كلام ذو مغزى وفيه حقيقة، حيث كان المتبادر للمراقبين أن الإنكليز كانوا يودون ويشجعون تنافس التيارين وبقاءهما مختلفين لبقاء الصفّ العربي شتيتاً والحركة العربية مرتبكة يستنفذ تيار



-الحاج أمين أفندي الحسيني.

المعارضة قوتها أو شيئاً من هذه الثورة، ويضاف إلى هذا أن الحاج أمين كان يضطر تحت ضغط هذا التنافس الى تملّق السلطات ومسايرتها له. وهذا أمر مهم لها، بحيث يقال بحق إن المعارضة للمجلس كانت مؤيدة من السلطات. ولا سيما أن رجالها كانوا ممن يوالون هذه السلطات، بل وبحيث يقال بحق أيضاً إن اليهود لا بد من أنهم كانوا أشد حرصاً من الإنكليز على اشتداد التنافس، ولا سيما أن المجلسية كانت تتزعم الحركة الوطنية المناوئة بالدرجة الأولى لهم، ولقد كان بين رجال المعارضة من كانت لهم صلات وتعامل بهم، فكانوا وسيلتهم إلى ذلك.

* * *

10

وفد فلسطيني عربي إلى لوزان لأجل منع ممثلي الترك من الاعتراف بوعد بلفور والانتداب في معاهدتهم مع الحلفاء:

في أواخر 1922 انعقد مؤتمر لوزان لأجل عقد معاهدة صلح بين الحكومة التركية الكمالية وبين الحلفاء، بعد أن سجّل الأتراك بقيادة مصطفى كمال انتصارهم الرائع على اليونانيين والحلفاء معاً، وحرروا عاصمتهم وأنحاء بلادهم الأخرى التي كان يحتلها اليونانيون وجيوش الحلفاء[1]، فقررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الخامس إرسال وفد إلى لوزان للإتصال مع ممثلي الحكومة التركية، وبذل الجهد حتى لا يقبلوا في المعاهدة نصاً تعترف به الحكومة التركية بالإنتداب الإنكليزي على فلسطين ووعد بلفور، لأن الحكومة التركية كانت وريثة السلطنة العثمانية، وكانت بلاد العرب المحررة منها تعتبر دولياً بلادها وصاحبة الكلمة الشرعية فيها.

أعضاء الوفد ولقاؤه مع وفد سوري تركي لنفس السبب:

وكان الوفد مؤلفاً من موسى كاظم رئيساً وأمين التميمي عضواً معه، وقد التقى الوفد بوفد سوري جاء هو الآخر لبذل جهد مماثل بالنسبة لسورية.

أثر جهد الوفدين الإيجابي:

وقد بذل الوفدان جهدهما، وقال الوفد الفلسطيني حينما عاد للجنة التنفيذية التي كنت عضواً فيها أن ممثلي الأتراك أصروا على عدم ذكر الإنتداب الإنكليزي الإفرنسي على بلاد الشام والعراق وعدم ذكر وعد بلفور والوطن القومي في المعاهدة، وأنهم أدخلوا نصاً ذكر فيه أن مصير البلاد العربية المنفصلة عن الدولة العثمانية متروك لأهلها، ثم أنقصوا قسماً من الديون العامة المطلوبة من الدولة العثمانية لبنوك الدول وخزاناتها يوازي ما يصيب البلاد العربية المنفصلة، وأوجبوا دفعها على هذه البلاد.

* * *

(1) في كتابنا المطبوع (تركية الحديثة) تفصيل لذلك.

11

المؤتمر السادس في يافا للنظر في الموقف بعد نجاح المقاطعة:

ولقد قررت اللجنة التنفيذية الدعوة إلى مؤتمر جديد للنظر فيما يجب عمله بعد نجاح مقاطعة الدستور والمجلس التشريعي، وانعقد المؤتمر في يافا في صيف سنة 1923 برئاسة موسى كاظم الحسيني، وهو الذي عرف بالمؤتمر السادس، ولم أشهد أنا المؤتمر لأني كنت منهمكاً في أمور المدرسة والبناية الجديدة والتحضير للسنة الجديدة الدراسية الوشيكة، وقد علمت من مندوبي نابلس زملائي الذين شهدوا المؤتمر ومنهم فريد العنتباوي والدكتور مصطفى بشناق وحافظ آغا طوقان، أن المؤتمر أيد الميثاق الذي وضعه مؤتمر حيفا. وقرر إيفاد وفد جديد إلى لندن لبذل الجهد في ضوء الموقف العربي الفلسطيني الناجح، وعلى ضوء ما كان من تشجيع أنصار العرب للوفد الأول على المقاطعة، وتأميلهم الخير منها. وكان شرشل قد تخلى عن وزارة المستعمرات وهو ألأم عدو للعرب وحقوقهم، فتبادر للمؤتمر أن الوفد قد يلقى نجاحاً هذه المرة.

شائعة عقد الملك حسين معاهدة فيها اعتراف بمركز بريطانيا في فلسطين أثناء انعقاد المؤتمر:

ولقد كان الإنكليز يبذلون جهدهم في هذه الأثناء في إقناع الملك حسين بتوقيع معاهدة تصفى فيها الأمور المعلقة بينهم وبينه، وكانوا وضعوا مشروعاً في سنة 1921 وأخذوا عليه توقيع الأمير عبد الله بصفته وزير خارجية المملكة الحجازية، ولكن والده رفضها، فوضعوا مشروعاً آخر وعرضوه عليه في هذه الأثناء. وشاع في فلسطين أنه وافق عليه ووقعه، وأن المشروع ينص على الإعتراف بالمركز الممتاز لبريطانيا في فلسطين والأردن والعراق. واعتبر ذلك بمثابة اعتراف بالسياسة الإنكليزية القائمة على وعد بلفور، فأثير هذا الموضوع في المؤتمر.

إبراق المؤتمر للملك حسين ومطالبته بالحرص على ميثاق فلسطين وبرقية الملك الجوابية:

وقرر المؤتمر إرسال برقية للملك حسين محتجاً على ذلك ومناشداً إياه الحرص على حقوق الشعب العربي في فلسطين، والمطالبة بإلغاء وعد بلفور وإنشاء حكومة وطنية في فلسطين، وقد أرسل الملك حسين جواباً على البرقية لرئيس المؤتمر، يقول فيها إنه لا يمكن أن يقصر في واجباته أو يخل بها مقدار شعرة، وأن عليهم أن ينتظروا تعليماته.

مندوب الملك إلى فلسطين وبيانه وتطميناته ومطالبة الإنكليز في صدد فلسطين ووعده بالمجيء إليها والتشاور مع أهلها:

ثم أرسل مندوباً في أواخر آب 1923 أظن أن اسمه الشيخ عباس مكي، فاجتمع باللجنة التنفيذية وبلغها سلام الملك، وألقى بياناً من الملك قال فيه إنه يهمه من أمر فلسطين ما يهمه من أمر بلد الله الحرام، وأن الحكومة البريطانية عرضت عليه معاهدة فوضع تعديلات لها، ومنها نص على استقلال فلسطين استقلالاً تاماً يخول أهلها إدارة أنفسهم بأنفسهم، واختيار طريقة حكمهم، وأن وعد بلفور صار بهذا التعديل في



الشريف حسين في عمان سنة 1923، ووراءه موسى كاظم باشا الحسيني،
الزعيم الفلسطيني عبد القادر المظفر وعلى يساره غالب باشا الشعلان رئيس الديوان الأميري.



المؤتمر العربي الفلسطيني السادس في يافا ، تشرين أول 1925 .

حكم العدم، وأنه طلب من الحكومة البريطانية أن تأمر المندوب السامي بعد توقيع المعاهدة المعدلة أن يعلن استقلال فلسطين استقلالاً تاماً بحضور مندوب من قبله، وحقها في الدخول في الوحدة العربية طبقاً للعهود المقطوعة له، وأنه سيحضر بنفسه إلى أطراف البلاد بعد انتهاء المفاوضات للتشاور مع أهلها في الطريقة المثلى لإقامة حكمهم الوطني إذا قبل الإنكليز بالتعديلات وتم توقيع المعاهدة المعدلة وفيما يجب عمله إذا لم يتم الإتفاق والتوقيع ليسير معهم على ما يتفقون عليه، وأنه ينظر إلى أهل فلسطين نظره إلى أولاده سواء منهم المسلم والمسيحي واليهودي الوطني، ومن يرجع من الصهيونيين عن أطماعه البلفورية في الأراضي الفلسطينية يكون له ما للوطنيين الفلسطينيين. ثم طمأن المندوب اللجنة وبشرها بالخير.

ابتهاج اهل فلسطين لبيان الملك وتطميناته وقلق اليهود وبيان الحكومة النافي للتغيير في السياسة الصهيونية:

ولقد استبشر أهل فلسطين بقدوم مندوب الملك وبيانه الذي ألقاه، وأظهروا الفرح والابتهاج، وقد قلق اليهود وراجعوا الحكومة، وسارع المندوب إلى نشر بيان جاء فيه أن ما يذاع ويشاع في أوساط العرب لا يستند إلى أصل صحيح، وأن سياسة الحكومة الإنكليزية في فلسطين لم يطرأ عليها أي تبديل.

أسباب استبشار الملك وتطمينات ناجي الأصيل له وعودة الوفد الفلسطيني مستبشراً:

ولقد عرف فيما بعد أن الملك أدخل تعديلات على المشروع الذي عرضه عليه الإنكليز حسبما جاء في البيان الذي ألقاه مندوبه، وأنه أرسل ناجي الأصيل الذي كان يعمل في وزارة خارجية الحجاز إلى لندن لملاحقة ذلك، وأن ناجي الأصيل أرسل إلى الملك تطميناً مؤملاً، فكان هذا مما جعله يستبشر ويبشر أهل فلسطين. ولقد كان الوفد الذي قرر المؤتمر إرساله إلى لندن قد سافر إليها فالتقى بناجي الأصيل وتعاون معه في صدد مهمته، وأرسل بدوره تبشيراً مؤملاً، ثم عاد مبشراً مستبشراً. وقال إن الحكومة وعدت بدراسة مذكراته، وأن البرلمان الآن في عطلة والحكومة في شبه عطلة، والبقاء في لندن غير مجد. وأنه عاد ينتظر نتائج المفاوضات الجارية بين الحكومة البريطانية والملك حسين، وفي بعث ناجي الأصيل فيه أملاً كبيراً فيها.

قدوم الملك حسين إلى شرق الاردن في مطلع 1924 وتوافد الناس عليه في الشونة وما كان يجري من أحاديث في صدد مستقبل فلسطين:

وبعد بضعة أشهر أي في كانون الثاني 1924 جاء الملك حسين زائراً إلى شرق الأردن، واستبشر أهل فلسطين بذلك، وتبادر لهم أنه جاء بناء على وعده في بيانه، وقد نصب الأمير عبد الله له سرادقات في الشونة لأن الموسم كان بارداً بالنسبة لعمان، وأخذ رجالات شرق الأردن وفلسطين يتوافدون على الشونة للسلام عليه والتحدث معه، وكان الأمير عبد الله يرسل دعوات للناس من أجل ذلك، ويمد البساط على عادة العرب.

مجيء وفد يهودي للسلام على الملك وما شاع من مذكرته وجواب الملك عليها:

وجاء في من جاء وفد يهودي للسلام عليه والتحدث معه، وخطب واحد منه بالعربية بين يديه متمنياً الاتفاق والسلام بين العرب واليهود. وقدم الوفد مذكرة خطية له، وشاع أنهم وافقوا

فيها على شمول حكم الأمير عبد الله لفلسطين مع مساواة اليهود في كل شيء مع العرب، وأن تكون اللغة العبرية لغة رسمية مثل العربية، وأن تستمر الهجرة اليهودية حسب استيعاب البلاد، وأن الملك لمح أن ذلك يعني تنفيذ وعد بلفور بل وشموله لشرق الأردن فرفضه، وقال لهم إنه قام بالثورة على الدولة العثمانية بناء على عهود بريطانيا باستقلال بلاد العرب وقيام حكومات عربية مستقلة فيها ومنها فلسطين، وأنّه فعل ما فعل لحفظ كيان قومه وتحقيق آمال شعبه، وأنه ضحى ويضحي بكل عزيز في سبيل ذلك، ولا يمكن أن ينكص عنه أو يتهاود فيه، وأن اليهود إذا أحبوا أن يكونوا مواطنين في الدولة العربية المستقلة فهو يرحب بهم ويتعهد بمساعدتهم، وأن العرب أحرص الناس على الوفاء، وأن اليهود في كل بلد عربي يتمتعون بكل ما يتمتع به أهله، ولا فرق في ذلك بين مسلم ويهودي ونصراني، وهذا يكون شأنهم في دولة فلسطين المستقلة. وقال للجنة التنفيذية ولرجالات العرب إنه ما يزال يتفاوض مع الإنكليز، وإنه لن يبرم أمراً بشأن فلسطين إلا بموافقتهم، ويكون فيه حفظ حقوقهم واستقلالهم، وإنه يأمل الوصول إلى ما يتمنى ويتمنون، وأنه في حال عدم الوصول إلى نتيجة إيجابية ينزل على إرادتهم ويتبع قرارهم. وفهم رجالات العرب من أقواله إن قدومه لم يكن القدوم الذي وعد به حينما تنتهي المفاوضات، وإنما هو قدوم زيارة.

المؤتمر العائلي الهاشمي:

ولقد عقد الملك مع أولاده علي وعبد الله وزيد مؤتمراً عائلياً تكهن الناس أن الحديث فيه دار حول مفاوضاته مع الإنكليز ومشاكله مع ابن السعود، وأن المؤتمر من أهداف زيارة الملك.

اعلان مصطفى كمال في اثناء وجود الملك في شرق الأردن الغاء الخلافة وتطلع الملك اليها وانشغال الناس بها عن غير ذلك:

وفي هذه الأثناء أعلن مصطفى كمال إلغاء الخلافة، فرأى الملك وأولاده الفرصة سانحة لتقوية مركزهم، وقرروا العمل من أجل البيعة للوالد بالخلافة، وأخذت الدعاية تبث لذلك، واسفرت عن برقيات أخذت ترد على الملك حسين من أنحاء فلسطين وسورية والحجاز والعراق وشرق الأردن، يعلن مرسلوها مبايعتهم له ويطلبون قبولها وإعلان ذلك للملأ.

وفود وبرقيات للملك ومن جملتها برقية من الملك فيصل:

ومن جملة من أرسلوا برقيات الملك فيصل نفسه، ومما أذكره أن الشيخ عبد القادر المظفر نشط نشاطاً كبيراً في مدن فلسطين في سبيل الدعاية لذلك والتوصية، وتوجهت الوفود من أنحاء فلسطين وشرق الأردن إلى عمان، حيث عاد الملك إليها من الشونة للمبايعة، وكان الملك يتقبل منهم ويدعو لهم. وقد تمت البيعة بذلك له بتاريخ 12 مارس 1924.

مبايعة الملك على الخلافة ودعاء الخطباء في فلسطين والأردن وسورية والحجاز والعراق للملك الخليفة على منابر المساجد:

وعقب ذلك دُعي للخليفة الجديد على منابر شرق الأردن وفلسطين وسورية والحجاز والعراق، ومما أذكره أن الشيخ عمر زعيتر وعبد اللطيف صلاح وقفا مترددين، ثم انجرفا بالتيار، وقد اجتمع الناس في جامع النصر وأعلنوا بيعتهم، وانتخبوا وفداً نابلسياً للذهاب إلى عمان والمبايعة للملك وجاهياً بإسمهم، وقد تألف الوفد من الحاج توفيق حماد وأمين

التميمي وعبد اللطيف صلاح وحافظ آغا طوقان وفريد التميمي، وكلفت بأن أكون في الوفد فاعتذرت بسبب شغلي بالمدرسة كما ان الشيخ عمر ذهب على رأس وفد للسلام على الملك حسين في عمان. وقد كانت حركة الخلافة شاغلة للناس عدا أي شيء آخر أسبوعين.

عودة الملك وتعكر مفاوضاته مع الإنكليز بسبب إصراره على التعديلات بخاصة في صدد فلسطين واشتداد التوتر بينه وبين ابن السعود وهجوم القوات السعودية وإسقاطها العرش الهاشمي:

ثم عاد الملك الخليفة إلى مكة في 20 مارس 1924، حيث يكون قضى نحو شهرين ونيفاً، وقد تعثرت المفاوضات بين الملك الخليفة والإنكليز، لأن الملك أصر على تعديلاته وبخاصة في صدد فلسطين، ورفض الإنكليز ذلك، وما لبث التوتر أن اشتد بينه وبين ابن السعود، وزحفت القوات السعودية على الحجاز واستولت عليها، وسقط العرش الهاشمي وجاء الملك إلى العقبة ثم ذهب إلى قبرص شبه أسير لمدة ست سنين، ثم عاد فمات ودفن في غرفة من غرف المسجد الأقصى على ما مر شرحه في سياق كلامنا على مواقف الأمير عبد الله.

* * *



12

انشقاق الحركة الوطنية بالمؤتمر والحزب الوطني نتيجة لتحريكات الإنكليز واليهود عند نجاح المقاطعة:

وفي السنة الثالثة لعملنا في مدرسة النجاح، كانت حركة الانشقاق الرسمية الصريحة في العمل الوطني متمثلة في قيام ما سمي بالحزب الوطني والمؤتمر الذي عقد تمهيداً له في القدس. ولقد كان للموقف القوي الذي وقفته الحركة الوطنية تجاه السلطات واليهود، والذي نجحت فيه نجاحاً باهراً في إحباط انتخابات المجلس التشريعي وقيام بديله المجلس الإستشاري رد فعل قوي لدى هؤلاء، جعل الإنكليز واليهود يعمدان إلى التشويش والتوهين وذلك بتحريك أنصارهم وعملائهم. ومما زاد في ضيق الإنكليز خاصة وجعلهم يتحركون في هذا الإتجاه بقوة، أن الناس تحمسوا بعد نجاحهم واعتبروا أنفسهم منتصرين، وأخذ بعض رجالهم يفكرون في خطوة جديدة بعيدة المدى، وهي الامتناع عن دفع الضرائب، ولم تبق هذه الفكرة في حيز التفكير فقط بل أثاروها في المؤتمر السادس الذي انعقد في يافا في أواسط 1923 على ما شرحناه قبل، وأقرها المؤتمر مبدئياً، حيث رأوا في ذلك جرأة عليهم تجعل حتى الذين يشجعون على مناوأة اليهود من الإنكليز يرون فيها احتمالات بعيدة المدى ضد المصالح الإنكليزية مباشرة، ولم يكونوا يهضمون ذلك مهما هضموا مصاولة العرب لليهود قليلاً أو

كثيراً، ولاسيما أنهم كانوا يهضمون ذلك ويشجعون عليه كأسلوب من أساليبهم الإستعمارية البارعة من تخويف العرب باليهود واليهود بالعرب، وبقائهم مقام المحامي العادل الذي لابد منه في مثل هذه المصاولة بين الشعبين المتصاولين على وطن واحد. ولقد ذكرنا قبل أن أصابعهم كانت وراء ما سمي بالمعارضة التي كان معظم عناصرها أولياء وعملاء وموظفين لهم، وكان بعض عناصرها أولياء ومتعاملين مع اليهود بسبيل الكبح والتوهين والإنهاك والإلهاء، غير أنهم على ما يبدو رأوا، بعد ذلك النجاح القوي للمواقف الوطنية، أن تكون دسائسهم أقوى، وأن تكون مظاهرها أشد بروزاً ورسمية، فكانت أولى هذه المظاهر قيام ما سمي بالحزب الوطني.

أصابع كلايتون في الحركة واتصالاته وإغراءاته:

ولقد سبق قيامه قدوم الجنرال كلايتون، وهو من رؤساء المخابرات البريطانية المختصين بالشؤون العربية وصاحب دور كبير في ذلك أثناء الحرب، وكان في هذه الأثناء في القيادة العامة مقيماً في مصر، فجاء إلى فلسطين وشغل منصباً عالياً في حكومة المندوب السامي، نظن أنه منصب السكرتير العام، وهو بمثابة (وزارة الداخلية) بل (رئاسة الحكومة)، اذا اعتبرنا أن المندوب هو بمثابة رئيس الدولة، وأخذ يتصل بمن تتوسم فيهم السلطات الوصولية من رجالات بارزين. ومن الجملة بل في البدء برؤساء المعارضة الذين كان منهم جل رؤساء البلديات المدينين بوظائفهم للسلطات، ويشجعهم على البروز على المسرح الوطني رسمياً بخطة إيجابية تقوم على أساس (خذ وطالب)، ويمنيهم بما يمكن أن يكون لهم من هذا الطريق من مركز ومكانة من جهة، ويغريهم من جهة أخرى بأن هذا هو لصالح العرب وقضيتهم، حيث يمكن أن ييسر لهم نيل شيء من مطالبهم والتدرج منه إلى ما هو أوسع.

سليمان التاجي يدعو إلى المؤتمر الوطني ويرأسه وفئات الحاضرين للمؤتمر:

ولم يلبث الناس أن فوجئوا بالشيخ سليمان التاجي يدعو إلى مؤتمر وطني في أواخر سنة 1923، وقد انعقد المؤتمر فعلاً في القدس، وحضره نحو مائة شخص من رؤساء بلديات وأعضاء بلديات ولجان حكومية، وبعض من كان عُيّن للمجلس الإستشاري الساقط، وكان من جملة من حضر أيضاً أشخاص كانوا مندمجين في الحركة الوطنية وبارزين في مؤتمراتها ولجانها، ثم نقموا وشذّوا استجابة لداعي الأنانية والهوى والإغراء، وحضره كذلك بعض ذوي النيات الحسنة الذين ظنوا أن في الخطة الجدية المبشر بها نفعاً، والذين أملوا بالإنكليز صدقاً وبراً.

قرار المؤتمر بإنشاء الحزب الوطني وهيئته الإدارية برئاسة الشيخ سليمان:

وأسفر المؤتمر عن قرار بإنشاء (حزب وطني) ذي منهج سليم ظاهرياً، حيث يتضمن رفض وعد بلفور وصك الانتداب، وطلب سن دستور جديد يضمن مصالح ومطالب العرب، وقيام حكم وطني نيابي، وسمي باسم (الحزب الوطني). وقد انتخب المؤتمر هيئة إدارية للحزب برئاسة الشيخ سليمان وعضوية كل من عمر الصالح البرغوثي وبولس شحادة وعبد الله مخلص وتوفيق الفاهوم والشيخ أسعد الشقيري وآخرين لم أعد أذكر أسماءهم.

عمر الصالح سكرتير للحزب وفروع الحزب:

وعهد بسكرتيرية الحزب إلى عمر الصالح، الذي كان أنشط عناصر الهيئة، وقد أنشأ الحزب فروعاً في القدس ويافا وحيفا وغزة، وصار يبث الدعوة للحزب. ولمحت أبعاد الحزب ومقاصده بما كان يدعو إليه للتخفيف من الغلو والصلابة، وأخذ ما يمكن أخذه، ومتابعة طلب الباقي بالحسنى والمسالمة.

استغراب الناس لرئاسة المؤتمر والحزب وخلفيات ذلك:

وأكثر ما أثار العجب ترؤس الشيخ سليمان التاجي للحركة مع أنه كان من أبرز عناصر الحركة الوطنية ومؤتمراتها ومن أصلبها، وكان ذا نشاط وخط قومي في زمن الدولة العثمانية وقبل الدستور وبعده على ما ذكرناه في الكلمة التي كتبناها عنه، والأغلب أنه أتى إليه من ناحية الإطراء الذي كان مفتوناً به، وإشباع غروره، ولاسيما أنه لم ينتخب للجان التنفيذية للمؤتمرات الرابع والخامس والسادس. والراجح أن الذين قاموا بالحركة قصدوا في ترئيسه للمؤتمر إسباغ وطنية على حركتهم، ولكن ذلك لم يجدهم، لأن أكثر الذين حضروا المؤتمر كانوا مدموغين بالولاء للإنكليز، ومنهم من كان مدموغاً بالتعامل مع اليهود بالإضافة إلى ذلك.

مدى خرق الحركة الوطنية بالحزب وموقف الجمهور منه:

وعلى كل حال فقد كان ظهور هذا الحزب خرقاً رسمياً لصفوف الحركة الوطنية لم يكن متوقعاً، ولاسيما أن هذه الحركة كانت قوية جارفة شاملة بسبب ما أصابته من نجاح في موقف التحدي الذي تحدت به السلطات، فكان لظهوره في هذه الآونة رد فعل شديد ساعد كثيراً على نجاح الدعاية ضده. وحصره في نطاق ضيق من ضعفاء الأعصاب أو الصلابة الوطنية، وقد ساعد على غمز الحزب والدعاية ضده، وحصره، ما كان لكثير من أعضائه من صلات معروفة للجميع بالحكومة أولاً، ولبعضهم من صلات معروفة للجميع باليهود، ولقد كان لكثير منهم مواقف عملية في السير في توجيهات الحكومة ومناوأة الحركة الوطنية، ولبعضهم يد عملية في السمسرة وبيع الأراضي، تسمح بالقول أن تلك الدعاية لم تكن جزافاً ومن فراغ وتخمينات وتنافس أسروي أو شخصي، ولقد كان من أثر تلك الدعاية المرتكزة إلى هذه المواقف أن وفداً من الحزب ذهب إلى عمان للسلام على الملك حسين حينما جاء في أواخر سنة 1923، فلقي استقبالاً مهيناً. وما أذكره أنه كان في هذا الوفد الشيخ أسعد الشقيري وراغب النشاشيبي وعمر الصالح وبولس شحادة والشيخ عبد الحي الخطيب.

الصورة الشاذة الفريدة في ظهور حزب معارض ومعارضة للحركة الوطنية دون السلطات:

وظهور الحزب كحزب معارض ينطوي على الصورة الشاذة الفريدة التي كانت للمعارضة في فلسطين والتي شرحناها قبل، فالمعارضة المعتادة هي التي تقوم على معارضة خطط الحكومة ولونها ومنهجها وحزبها، أو على معارضة حزب متساهل في حقوق الوطن ومصالحه مسايرة للأجنبي، وكان هذا مما حمل عبثه وصفته المؤتمرات والجمعيات واللجان التنفيذية المنبثقة عنها، فجاء هذا الحزب ليعارضها في هذه المعارضة.

عدم تعمير الحزب تشكيلاً واستمرار أثر فكرته وخرقه للصف الوطني:

على أن الحزب لم يعمر طويلاً كتشكيلة رسمية، فالإنكليز لم يبرّوا بما منّوا به رجاله، أولياءهم، من سياسة ايجابية على أساس (خذ وطالب)، لأنهم لم يكونوا يقصدون إلاّ التوهين والتشويش على الحركة الوطنية، وكلايتون لم يلبث أن غادر فلسطين بعد قليل من ظهور الحزب، فكان ذلك مما جعل كثيراً ممن أمّلوا الخير والنفع من وراء الحزب يحجمون من الاندفاع فيه، وبقي الحزب في نطاقه الضيق المغموز. بل وانسحب كثير ممن دخل فيه نتيجة للحملات الشديدة والتجهم ضده، فلم يلبث أن أخذ بنيانه الرسمي يتداعى وشأنه يتضاءل، إلى أن توارى عن المسرح بعد سنتين من قيامه. ولكن الغاية التي توخاها الإنكليز منه لم تخب. وفكرة المعارضة للجبهة المعارضة للسلطات التي قام عليها الحزب لم تزل. وكانت معارضة المجلس الاسلامي التي كان معظم اقطاب الحزب مندمجين فيها منفذاً لهم للمعارضة، حيث أن المجلس كان يبدو أو أريد له أن يبدو كحكومة إسلامية كما قلنا قبل. وقد ظل رجال الحكومة يتصلون برجال هذه التشكيلة ويتمسكون بهم في المراكز الرسمية وشبه الرسمية التي كانوا فيها أو صاروا يعينون لها، فظلوا بقوة هذا الاتصال وما يضمنه لهم من منافع كتلة منفصلة عن الجبهة الوطنية دائبة على تجريحها ونقدها وتوهينها. ومع أن هؤلاء ظلوا مطبوعين بطابع الوصولية، ومغموزين بوطنيتهم وإخلاصهم، ومع أن السواد الأعظم ظل في جانب الجبهة الوطنية والمجلسية التي كانت سمتها الوطنية، فإن ما كان من دسائس ودعايات وإثارة، وما لعبته الأنساب والعصبيات والمنافسات المحلية من أدوار قد ساعد كثيراً على تحقيق شيء غير يسير من تلك الغاية، وعلى طروء شيء غير يسير من الفتور والوهن على الحركة الوطنية ونشاطها.

ولقد سبق أن كتبنا لُمَعاً عن الشيخ سليمان والشيخ أسعد اللذين كان أولهما رئيساً لهيأة إدارة الحزب، وثانيهما من أعضائها. وهذه كلمات عن عمر الصالح وبولس شحادة وتوفيق الفاهوم الذين تأتي اسماؤهم لأول مرة في هذا السياق.

كلمة عن عمر الصالح البرغوثي:

من أسرة اقطاعية قروية من منطقة القدس، ومن قرية دير غسانة مركز أسرته الاقطاعية، وأسرته تعرف بآل البرغوثي. وهو مثقف ملم باللغة الانكليزية ومتمكن بها، والغالب أنه درس في مدرسة انكليزية، وقد درس الحقوق في معهد حقوق القدس ونال اجازته وصار يشتغل بالمحاماة، وكان كاتباً وخطيباً بالعربية ومتمكناً بها أيضاً، وعنده ميل للدراسة والبحث والتعمّق ولا سيما في تاريخ فلسطين وأسرها الاقطاعية، وله كتاب عن فلسطين شاركه فيه الأستاذ خليل طوطح. وحينما كتبت كتابي (العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي) في الخمسينات ارسل لي بناء على طلبي دراسة عن الأسر الفلسطينية الاقطاعية، اقتبست منها كثيراً في كتاباتي عن هذه الأسر في الجزء الثاني من الكتاب. ولقد تعرفت عليه في أواسط العشرينات وصار بيننا تعارف وألفة ومودّة وصداقة، واشتركنا معاً في المؤتمر السابع الفلسطيني وفي لجنته التنفيذية. وفي مفاوضة مساعد السكرتير العام مايلز في صدد تعديل الدستور على ما سوف يأتي شرحه بعد.

وكان ضد سياسة الوطن القومي اليهودي دوماً، وكان مخلصاً للقضية الوطنية، وكانت له شخصية قوية، وقد يختلف بعضهم فيه لأنه كان أحياناً مع المعتدلين واحياناً مع المتطرفين، وأنا لا أشك في أنه كان وطنياً مخلصاً. وظل على ما كان عليه الى أن توفاه الله في أواخر الستينيات. وكان آخر لقاء بيني وبينه في رام الله التي اتخذها مقاماً له حينما تقدم به السن، وحينما زرنا فلسطين في سنة 1964 رحمة الله عليه.

كلمة عن بولس شحادة:

وبولس شحادة من رام الله، وكان يقال بقوة أنه من عملاء الإنكليز، وتصرفاته ومواقفه قد تؤيد ذلك. وعلى كل حال فإنه كان شديد الولاء لهم ولسياستهم مع مناوأة وعد بلفور وآثاره، وكان يدعو الى التفاهم مع الإنكليز، وأخذ ما يمكن أخذه منهم، وهو حامل شعار (خذ وطالب)، وأقوى داعية له. ويجيء لذهني أنه هو واضع هذه الجملة، وهو لا ينكر صلاته بهم ولا انسجامه معهم، ولكنه يعلل ذلك بالاجتهاد والواقعية. وقد أصدر جريدة مرآة الشرق في القدس التي كانت لسان حال تيار المعارضة بسمتيه المجلسية والوطنية، وكان أسن مني، وقد تعرفت عليه في أواسط العشرينات حينما كنت أتردد على القدس وأنا في مديرية النجاح، وكان متمكناً بالإنكليزية والعربية ويكتب بهما، التقيت به مراراً بعد ذلك وتساجلت معه في دعوته ودعايته، وكان لي معه ومع بعض رفاق مشاركة في لقاءات ومفاوضات مع مساعد السكرتير العام الإنكليزي في صدد تعديل الدستور بناء على طلب هذا المساعد، وكان هو الذي بلغنا الطلب والدعوة، وشاركنا في اللقاءات والمفاوضات. وكان عضواً في المؤتمر السابع الذي ضم المعارضة والمجلسية معاً بسبب ما صارت إليه الحركة الوطنية من فتور ووهن في أواخر العشرينات على ما سوف نذكره بعد، وكنت أنا عضواً أيضاً، وتساجلنا في نطاقه.

ومما أذكره أنه كتب في أوائل الثلاثينات فيما كتب مقالاً هاجم فيه الدعوة الى مواجهة الإنكليز بالعداء بصراحة وقوة، التي حمل شعارها حزب الاستقلال الذي أنشأناه أنا وبعض الرفاق في أوائل الثلاثينات على ما سوف يأتي شرحه، حيث قال أن أصحاب هذه الدعوة ليسوا هم (أصحاب المصالح الحقيقية في فلسطين)، فكتبت رداً قوياً عليه، وأثبت أن كبار الأغنياء والملاكين الذين عناهم بتعبير أصحاب المصالح الحقيقية لا يهمهم مصير فلسطين، لأنهم إذا ما شعروا بإحكام الطوق الصهيوني سوف يسارعون الى بيع أملاكهم وحمل ثرواتهم والذهاب الى بلاد أخرى يعيشون فيها حياة البذخ والترف، ولا يبقى في البلاد إلا صغار الملاكين والمزارعين والكاسبين والفقراء الذين هم في الحقيقة أصحاب المصالح الحقيقية في البلاد، الذين يجب أن يناضلوا في سبيل الدفاع عن وجودهم ووطنهم، لأنهم ليس لهم براح منه.

ولقد ظل على خطه المشروح إلى آخر حياته التي لا نعرف يقيناً متى انتهت. ومما يذكر بالمناسبة أن ابنه عزيز الذي لمع في ميدان المحاماة سار على طريقة والده بما يسمى الاعتدال والتفاهم مع اليهود.

* * *

13

حزب الزراع والأحزاب الزراعية والقروية ومداها وخلفيات ظهورها:

وبعد سنة أو سنتين من قيام الحزب الوطني قام حزب آخر هو (حزب الزراع)، وقد ظهر بقوة أنه جاء كرديف للحزب الوطني في ظهوره ومداه، وكان أشد نكاية منه في الوقت نفسه، فهو إلى دعوته ودعايته في سبيل عدم التطرف في المطالب والانسجام مع السلطات للتمكن من تسهيل قضاء المصالح العربية وأخذ ما يمكن أخذه منها، أريد به أن يؤدي الى دسّ التفرقة بين المدينة والقرية وبين المدنيين والقرويين، وكانت الحركة الوطنية شاملة للجناحين شمولاً قوياً مكيناً، وإيقاظ الريبة وسوء الظن في الفلاح نحو المدني، وكون هذا يضطهد ذاك ويحتقره ويستغله. وعمل الحزب في ظاهره شعار الدفاع عن حقوق الفلاح والقرية وتحسين حالتهما مما له وقع دعائي في الأوساط القروية بطبيعة الحال. وكانت هذه الحركة متعددة الفروع أوالظهور، حيث كان حزب في لواء نابلس وحزب في الخليل، وجمعية باسم تعاون القرى في قضاء حيفا، والجمعية القروية في قضاء يافا، وكان منهج هذه التشكيلات مزدوجاً، فكان من نصوصها السعي في سبيل تحسين الطرق وحماية المحصولات وتخفيف الضرائب وتعميم التعليم في القرى، وإنشاء مدارس زراعية وإنشاء مصرف زراعي لحماية الفلاحين من الربا، والمساواة في الفرص والوظائف والتعليم العام بين أهل القرى والمدن. وفيه نصوص على وجوب بذل الجهد للحصول على دستور يحقق مطالب العرب في فلسطين، ويقوم في ظله حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي، وعلى مناوأة السياسة الصهيونية. وهذه النصوص البراقة الجذابة لم يكن من شأنها أن تخفي هوية هذه التشكيلات، لأن القائمين البارزين عليها كانوا معروفين بشدة الولاء للإنكليز والانسجام معهم، والمعارضة للتيار الوطني القوي، كما أن أصابع موظفي الحكومة من إنكليز وعرب وبروتستانت خاصة كانت ملموحة ملموسة بقوة في هذه التشكيلات.

حركة نابلس في هذا الباب كانت الأشد وأبرز القائمين فيها:

وكانت حركة وتشكيلة لواء نابلس وهي التي عشناها مباشرة من أهم هذه الحركة وتشكيلاتها، وكان أبرز القائمين عليها وجيه من قرية برقة هو فارس المسعود، وكان ذكياً متحركاً ذا طموح، وحالته المادية حسنة ومتعلماً، وكان عضواً في جمعية نابلس الوطنية كممثل للقرى.

اصابع موظفي الحكومة في هذه الحركة:

ولقد لمسنا أصابع موظفي الحكومة من إنكليز وعرب بروتستانت، منهم موسى ناصر، الذي كان مساعد الحاكم الإنكليزي في نابلس، في هذه الحركة، ورصدت اتصالات متنوعة بينه وبين متنوري القرويين وبارزيهم، كشفت الستار عن بواعث هذه الحركة ومقاصدها.

آثار هذه الحركة السيئة النفسية:

ولقد أخذت نغمة الفلاح والمدني والأفندي والأجير والملاك والمستأجر والمرابع تشتد في

ظروف هذه الحركة، فتثير جواً ساماً، وتحدث توتراً متباعداً بين جناحي الشعب، وكان ذلك بمثابة بوادر دالة على الغرض الأصلي الذي توخاه الإنكليز وموظفوهم وأذنابهم من هذه التشكيلة.

أصابع اليهود فيها وتنبيه نبهاء القرويين الى ذلك وأثره في حصر نطاقها وتضاؤلها وتلاشيها:

ولم يترك اليهود هذه الحركة وشأنها، فقد رأوا فيها مجالاً للدس واللعب والنفوذ إلى ضمائر الطامعين، فنشطوا هم أيضاً، وشاهد نبهاء القرى ومخلصوهم مشاهد اتصال بين بعض رجال هذه الحركة واليهود، وكما لمسوا آثار الهدايا والرشاوى التي كان يقدمها اليهود الى البارزين الطامعين من رجال الحركة، وكان هذا من حسن حظ الوطن، لأن النبهاء المخلصين من القرويين وهم كثيرون تبينوا الخطر الكامن في هذه الحركة، والذي لم يكن بادياً للناس في اتصالات أولئك الرجال بموظفي الحكومة من حيث أن الحكومة كانت مرجع الناس في شؤونهم، ولاسيما أن الحكومة غذت هذه الحركة ببعض الإيجابيات، حيث كانت تستجيب لمراجعاتها في صدد تحسين مدارس القرى وطرقها، وتأجيل الديون وخفض الأعشار في المواسم الرديئة الخ. .

ولم يلبثوا بالتالي أن رأوا ما أخذت الحركة تسير فيه أو تنزلق اليه من اتجاهات خبيثة، فتعاونوا مع الجمعيات الوطنية تعاوناً وثيقاً أدى الى تضاؤل شأن هذه الحركة كتشكيلات رسمية، حتى توارت بدورها. غير أنها تركت آثاراً سيئة، حيث ظلت تعمل عملها كفكرة في القاء الوهم وسوء الظن بين المدني والقروي، كما ظل أثرها يظهر حيناً بعد حين بتعاهد موظفي الحكومة لها ولرجالها بالتحريض والوسوسة والتوجه مدة غير يسيرة، وحققت على كل حال شيئاً مما قصدته السلطات واليهود من توهين وتفتيت للصف الوطني.

* * *

14

وفاة الشيخ عمر زعيتر ومشهد جنازته وآثار وفاته :

وفي السنة الثالثة من عملي في النجاح أي في سنة 1924 توفي الشيخ عمر زعيتر رئيس بلدية نابلس، وقد كان له مشهد جنازة عظيم، وأضربت المدينة حداداً عليه، ومشت فيه بأسرها، وشاركت فيه وفود كثيرة من مختلف المدن والقرى نظراً لما كان له من مركز واسم وخدمات للبلاد وصداقات وأوشاج. ولقد كان لوفاته آثار لمسناها وعشناها في نابلس، فبوفاته فَقَدَ صهره عبد اللطيف صلاح سنده الأقوى. وفي هذا الوقت عاد ابنه عادل من باريس بعد أن حصل على اجازة الحقوق من جامعتها، وتطلع لخلافة والده في رئاسة البلدية.

بروز سليمان طوقان وتضامن فريق من الموظفين معه لمنافسة عادل زعيتر وعبد اللطيف صلاح على البلدية والمجلس الاسلامي وسبب ذلك وانشائهما الحزب الأهلي:

وكان سليمان عبد الرزاق طوقان الذي كان قد برز حينما عينته الحكومة الانتدابية في فلسطين في بدء قيام إدارتها المدنية عضواً في المجلس الاستشاري، قد استجاب لطلب الحركة الوطنية واستقال مع من استقال من عضوية المجلس حينما أرادت الحكومة احياءه عقب اخفاق انتخابات المجلس التشريعي على ما شرحناه قبل. وصار له بهذه الاستقالة شيئاً من التوجه والتقدير في الأوساط الوطنية، وتطلع هو الأخر الى إشغال رئاسة البلدية الشاغرة بوفاة رئيسها الشيخ عمر. وكانت دعاية المعارضة ضد المجلس الإسلامي تقوى وتطالب بتعديل قانون المجلس وتجديد انتخاب اعضائه. وكانت جبهة سليمان مناوئة لعبد اللطيف صلاح، وانضم إليها في ذلك بعض اعضاء الجمعية الوطنية ومن جملتهم أنا وحافظ آغا طوقان وفريد العنبتاوي وأحمد الشكعة وطاهر المصري والحاج عبد الرحيم النابلسي، لأننا كنا عازمين على ترشيح أمين التميمي لعضوية المجلس بدلاً من عبد اللطيف، الذي لم يكن منسجماً مع الحاج أمين، وكنا نحن أصدقاء متواثقين مع الحاج أمين. فكان هذا الموقف الذي واجه عبد اللطيف وصهره عادلاً حافزاً لهما على انشاء حزب سموه (الحزب الأهلي الديمقراطي) في نابلس، واستطاعوا أن يضموا اليه بعض البارزين من أسر بينها وبينهما قرابات وصداقات وأوشاج، مثل الحاج سعيد كمال والحاج قاسم كمال والدكتور نديم صلاح داود ومنيب وناصر وفياض الطاهر والشيخ صادق عنبتاوي والحاج محمد العنبتاوي والحاج نمر حماد وسعيد شويكة وآل شاهين وآل عبده الغزاوي وغيرهم، مما لم تعد الذاكرة تذكرهم. وكان حزباً محلياً نابلسياً، هدفه الجوهري المعركتين الانتخابيتين، وقد تولى عادل سكرتيرية الحزب، وكانت الرئاسة للجلسات بالتناوب.

ونال ترخيصاً، ونشر بياناً قال فيه أن الحافز على إنشاء الحزب هو فتور نشاط الجمعيات الوطنية وتفسخ بعضها، وأن من مقاصد الحزب المطالبة بدستور يضمن قيام حكم وطني مسؤول أمام مجلس نيابي، وتحديد الهجرةاليهودية وبيع الأراضي لليهود. وجاء في البيان أن الحزب

سوف يسعى لعقد مؤتمر وطني جديد لإعادة النشاط للحركة الوطنية. وكان الحزب أو سكرتيره ينشر من آن لآخر بيانات، ويرسل مذكرات للحكومة في بعض المناسبات، ويحتج على بعض الأعمال والتصرفات الحكومية. ولقد انبرت له جمعية نابلس فنبهت الى أن هذه الحركة هي حركة انشقاقية، لأن الجمعية شاغلة للميدان الوطني وقائمة بواجباتها. وانتقدت ما جاء في البيان من طلب تحديد الهجرة اليهودية وبيع الأراضي من حيث أن ذلك شذوذ على الميثاق الوطني المقرر فيه رفض الهجرة اليهودية وبيع الأراضي البتة، وحذت بعض الجمعيات في مدن أخرى حذو الجمعية النابلسية في تنبيهها ونقدها، فكان ذلك مما أبقى الحزب محلياً وضيق النطاق.

تعيين سليمان لرئاسة البلدية والهيئة التي عينتها السلطات معه :

وعينت الحكومة هيئة بلدية جديدة مؤقتة برئاسة سليمان عبد الرزاق طوقان واعدة بإجراء انتخابات جديدة بعد مدة ما، ويظهر أن سليمان ظل على صلة حسنة بالسلطات رغم استقالته من عضوية المجلس الاستشاري، فكان ذلك مما جعلها ترجحه على عادل زعيتر وتعينه. ولقد كان سليمان وظل متوائقاً مع جبهة المعارضة التي كان يتزعمها راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس وزعيم الموالين للسلطات، فمن الممكن أن يكون هذا مما كان له تأثير في ذلك الترجيح. وقد كان ما قام بيننا وبين جبهة سليمان من تضامن محلي ضد جبهة عبد اللطيف وعادل جعل سليمان الذي ترجح أن السلطات طلبت منه تسمية الهيأة المؤقتة للبلدية التي سيرأسها ان يسميني في جملة من سماهم، وهم أحمد الشكعة وطاهر المصري وعبد الرحيم التميمي وعبد الرحيم النابلسي وتوفيق أحمد عرفات وجرجي عبد النور.

وقوعي في خطأ قبول عضوية البلدية واستقالتي بعد مدة قصيرة منها :

وأخطأت اذ قبلت العضوية ومارستها مدة قصيرة، وهكذا جعلتني السياسة المحلية اللعينة أنزلق فيما لا ينبغي لي أن أنزلق فيه، وأرجح أن موقف عبد اللطيف وعادل مني بعد عودتهما من دمشق والذي شرحته في مناسبة سابقة من الأسباب الباطنية لذلك.

استمرار حزب الأهالي في النشاط وسببه وما كان تأثيره في التجمع النابلسي :

ومع أن حزب الأهالي أخفق في هدف من أهدافه الرئيسية المحلية، فقد ظل مستمر الوجود والنشاط، وبخاصة النشاط المحلي النابلسي نحو سنتين، وأحدث شرخاً في المجتمع النابلسي، وفرق بين الأصدقاء وبين العاملين في الحركة الوطنية، بل وبين ابناء الأسرة الواحدة. وكان من ذلك أن رئيس الجمعية الوطنية الحاج توفيق حماد وآخرين من أعضائها مثل محمد علي الخياط كانوا في جبهة الحزب، في حين كنا نحن الذين ذكرت أسماءهم وغيرنا من أعضاء الجمعية في الجبهة الثانية. ولقد كان نسب بين أسرة صلاح وأسرة التميمي، وكان أبناء صلاح ضد أخوالهم من آل التميمي، الذين كانوا في جبهتنا، وكانوا هم في الجبهة الثانية. وكان فريد العنبتاوي من أبرز أسرة العنبتاوي في جبهتنا، وكان بعض أقاربه وبني عمه في الجبهة الثانية.

وكان من أسباب إستمرار وجود الحزب ونشاطه نشوب معركة انتخاب المجلس

الاسلامي التي جرت في سنة 1925، والتي كانت هي الأخرى هدفاً رئيسياً لإنشاء الحزب لضمان تجديد إنتخاب عبد اللطيف لعضوية المجلس.

معركة الانتخابات الجديدة للبلديات ونشاط حزب الأهالي فيها وخسرانه لها:

وفي سنة 1926 نفذت السلطات وعدها، فأعلنت عزمها على إجراء انتخابات للبلدية، فكان ذلك أيضاً مما مد في عمر ونشاط الحزب بأمل أن ينال عادل الرئاسة بالانتخاب، ولقد خسر منشئو الحزب المعركتين، أي معركة المجلس ومعركة البلدية على ما سوف نشرحه بعد، فأدى ذلك الى تضاؤل الحزب وتفككه وتواريه عن المسرح الى أن تلاشى. على أن عبد اللطيف اغتنم فرصة إنشاء أحزاب سياسية في فلسطين في سنتي 1933 و1934. فسارع بدوره الى إنشاء حزب جديد سماه حزب الكتلة الوطنية تجاوز نطاقه نابلس بعض الشيء، وظل اسمه ورسمه قائمين بعض الوقت على ما سوف يأتي شرحه في مناسبته.

***

15

حادث الطور في نابلس ومعنى الكلمة وشرح لصلات السامريين بطور نابلس:

وبعد مدة قصيرة من تعييني لعضوية البلدية حدث حادث (الطور) في نابلس، وكلمة (الطور) تعني في اللغة العربية وشقيقاتها (الجبل)، ولكن كانت في نابلس تطلق على الجبل القبلي من نابلس، وكان السامريون فيها يقدسونه ويقيمون عيد فصحهم في ذروته، وإسمه في أسفارهم (جرزيم)، واسم الجبل الشمالي (عيبال). وفي هذه الأسفار يروى أن بني إسرائيل الذين غزو فلسطين قديماً أمروا بالهتاف بمباركة جرزيم، وكان السامريون الذين يدينون بالدين الموسوي من قبل الميلاد المسيحي بنوا معبداً لهم في ذروة هذا الجبل بعد أن رفض الإسرائيليون العائدون من السبي مشاركتهم بإعادة بناء معبد القدس وإقامة الطقوس فيه. وفي ذروة الجبل في المنطقة التي يقيم فيها السامريون عيد فصحهم أنقاض قديمة يقال أنها أنقاض ذلك المعبد، وكانت نابلس خالية من اليهود بعد أن كان فيها أفراد في زمن العثمانيين على ما ذكرناه قبل.

دعوة السامريين لليهود لشهود فصحهم ومجيئهم سنة 1923:

وفي غمرة النشاط الصهيوني والمطامع الصهيونية أرادوا أن يتخذوا موسم فصح السامريين فرصة ليأتوا الى نابلس زواراً أولاً، وليجسّوا نبض نابلس ونحوهم، وقد رتبوا أن



ـ احتفال الطائفة السامرية في نابلس بعيدهم الكبير في جبل جرزيم (الطور) .

الى عزة افندي دروزة من نابلس

حيث ظهر لي بادلة غير قابلة التصديق انك لم تساعد البوليس بحفظ النظام رغماً عن تأكيداتك له في ٦/٤/٢٥ لهذه الغاية وحيث انه من المحتمل بسبب ذلك العمل ان يقع اخلال بالأمن فلذلك يقتضي حضورك شخصياً الى ديوان حاكم منطقة نابلس ـ طولكرم يوم الاربعاء الواقع ٩/٤/٢٥ الساعة التاسعة صباحاً لكي تبين السبب الذي يمنع تطبيقك لاعطاء تعهداً بمبلغ مائة جنيه مصري وان تقدم تأميناً على التعهد لتسديد مبلغ المائة جنيه مصري عند الطلب وفي حالة وقوع اخلال بالأمن وبأنك لا تخل بالأمن لمدة ثلاثة شهور من تاريخه .

وحرر في هذا اليوم ـ الاربعاء المصادف ٨ من شهر نيسان ١٩٢٥

عن حاكم اللواء الشمالي

حاكم منطقة نابلس ـ طولكرم

يكون قدومهم بدعوة من السامريين، واستجاب بعض الصالعين معهم، ووجهوا دعوة عامة لليهود لشهود عيدهم في سنة 1923، وقد لبى جماعة من اليهود وجاؤوا في هذه السنة مع فرقة كشافة وصعدوا الجبل وشهدوا الفصح السامري وساروا في شوارع نابلس حين قدومهم وحين عودتهم.

عزم النابلسيين على التصدي لهم في السنة التالية:

وكبر على النابلسيين غزو اليهود لمدينتهم ولو بهذه الطريقة، فقرروا التصدي لهم اذا أرادوا العودة في السنة التالية. وقد أخذت الجمعية الوطنية التي كنت سكرتيرها تترقب ذلك.

قرار إقامة مهرجان ديني في عيد فصح السامريين على ذروة الجبل عند مقام اسمه الشيخ غانم لأجل ذلك:

وقررت نابلس التصدي لليهود اذا جاءوا، بحيث تقيم مهرجاناً دينياً قريباً من محل عيد السامريين، وتشعر اليهود والسامريين معاً بالخطر الذي يمكن أن يواجهوه من أهل نابلس. ووجه بعض السامريين مع ذلك دعوة عامة لليهود بتحريض من هؤلاء، وعلمت الجمعية ذلك فقررت تنفيذ عزمها المذكور، وشعر الحاكم العسكري بخطر الاصطدام بين جماهير العرب الذين سيحتشدون في الطور وبين السامريين واليهود القادمين، فاستدعى فريقاً من وجوه البلد وأعضاء الجمعية في هذا الموسم الديني الذي اخترعوه.

محاولة الحاكم حمل الجمعية على صرف النظر عن المهرجان واخفاقها:

وكنت بين من استدعاهم الحاكم فأصررنا على تنفيذ عزمنا، وقلنا له أن للمسلمين في الطور مقاماً دينياً محترماً هو مقام الشيخ غانم، وأن من حقهم أن يقيموا احتفالهم الديني عنده، ولا حق للسلطات بمنعه لأن في ذلك تدخلاً في شؤون المسلمين الدينية، وقال له بعضنا أن هذا الاحتفال هو معتاد إقامته حين قيام عيد فصح السامرة كما هو شأن موسم النبي موسى حين عيد فصح النصارى، وحاول أن يقنعنا بصرف النظر عنه فلم ينجح، فأنذرنا بتحمل مسؤولية ما قد يقع من شغب فلم ينل بذلك. وكان فعلاً في ذروة الطور وقرب الساحة التي يقيم فيها السامريون عيدهم بناء ذو قبة وبطابقين، وفيه مسجد وضريح، وعلى الضريح غطاء أخضر عليه اسم (الولي الصالح الشيخ غانم). وجائز أن يكون له احتفال ديني، لأن للمسلمين عدة احتفالات عند مقامات عديدة في مواسم عيد فصح النصارى غير موسم النبي موسى على ما سوف يأتي شرحه في مناسبة أخرى.

شرح للمهرجان الذي أعددناه:

ولقد نصبنا سرادقاً كبيراً في ساحة الشيخ غانم، وهيأنا طعاماً كثيراً، وبثثنا الدعوة لشهود الاحتفال، وكان الوقت رمضان، فهرع كثير من الناس شباب وغير شباب مستجيبين، وبلغ عددهم نحو ألفين، وقد تليت قصة المولد النبوي الشريف. وقامت حلقات ذكر وأوراد، ولقد جاء في هذه السنة من اليهود عدد أكبر من السنة السابقة، وكان الجمع الاسلامي يعرف القصد من المهرجان الديني ومتحفزاً للتصدي لليهود اذا جاءوا.

قدوم اليهود ورشق النوابلسة إياهم بالحجارة، وإصابة عدد منهم ومن السامريين والبوليس:

فما أن بدأ اليهود يصلون الى مكان عيد

فصح السامريين في ذروة الجبل، حتى بادر النابلسيون الى رشقهم بالحجارة، وكان مع اليهود أنفار من البوليس فأصابهم الرشق أيضاً، وقد أصيب أكثر من عشرين من اليهود والبوليس والسامريين بجروح وكدمات من الحجارة، وخاف اليهود والسامريون وأرسلوا يستنجدون بالسلطات، وأرسلت هذه قوة كبيرة أحاطت بهم ثم أنزلتهم من الجبل بحراسة شديدة، ورحّلت اليهود من نابلس فوراً.

استدعاء الحاكم لي ولبعض الرفاق وطلب تعهدات بعدم الإخلال بالأمن ورفضنا:

ولقد استدعى الحاكم فريقاً من أعضاء الجمعية وغيرهم ومن الجملة أنا وحافظ آغا طوقان وفريد العنبتاوي وأمين التميمي وعثمان الخياط وأسعد بلعوط المصري ومحمود هندية وسبع العقاد، والثلاثة الآخرون من الشباب الذين قادوا التصدي، وطلب منهم سندات تعهد بعدم الإخلال بالأمن فرفضنا.

محاكمتنا أمام محاكم صلح بتهمة التهييج والتحريض والعدوان:

وحينئذ أمر دائرة البوليس بإقامة قضية ضدنا في المحكمة، وكان المتولي للتحقيق معنا الشيخ كمال اسماعيل حاكم الصلح، والمتولي للاتهام حسن المكاوي[1] ضابط البوليس يعاونه عابدين الحشيمي وخير الدين بسيسو وهما ضابطا بوليس أرقى رتبة من حسن، وكانت التهمة التحريض، والتهييج والاعتداء على البوليس واليهود والسامريين، ولقنوا بعض أفراد البوليس شهادات ضدنا، وكانت كاذبة حتماً بالنسبة لي ولحافظ آغا وأمين التميمي وفريد العنبتاوي وعثمان الخياط، لأننا لم نشترك بالرجم ولم نخطب ونحرض، لأنه لم يكن مجال لذلك. وكانت الشهادات الكاذبة تثير ضحك المستمعين واشمئزازهم، وفيها صورة من شدة اندماج ضباط البوليس العرب الى درجة التلفيق والكذب على بني قومهم.

منع محاكمة أعضاء الجمعية والحكم على بعض الشباب بالسجن عدة أيام:

ورافع حسن المكاوي وطلب الحكم علينا بالسجن والغرامة، وقد قرر الحاكم منع المحاكمة بالنسبة لنا، وحكم بحبس بعض الشباب ومنهم الثلاثة المذكورون أسبوعين، وأرسلهم البوليس الى سجن عتليت لقضاء أيام الحكم، وقامت الجمعية بواجبها نحوهم ونحو أسرهم. وما أذكره أن الإتهام البوليسي استدعى فريقاً من اليهود الذين أصابهم الأذى بالرجم للشهادة، كما استدعى ضابط بوليسي إنكليزي أصابته بعض الحجارة، وطلب حسن المكاوي ثم حاكم الصلح منهم أن يتعرفوا على الراجمين، فقرروا أنهم لا يمكنهم أن يميزوا أحداً.

ولقد كان طلب سند التعهد ومن ثم محاكمتي فرصة لي للاستقالة من عضوية البلدية التي أخطأت بقبولها على ما شرحته. ولقد حققت عملية المهرجان الديني غرضها، فلا السامريون جرأوا على ارسال دعوة أخرى ولا اليهود جرأوا على المجيء الى نابلس زواراً أو عابري سبيل.

قدوم بلفور الى فلسطين وموقف أهل البلاد منه وأثر الموقف في زيارته:

وفي السنة الرابعة للعمل في مدرسة النجاح،

(1) عرف فيما بعد باسم «حسن الكاتب».

زار اللورد بلفور فلسطين لحضور حفلة تدشين الجامعة العبرية على جبل الطور في القدس المسمى سكوبس، وقد قررت اللجنة التنفيذية الدعوة إلى إضراب عام استنكاراً لحضور بلفور الذي ارتبط اسمه بالوعد المشؤوم المجرم والى مقاطعته في كل موقف واجتماع، واستجيب للدعوة استجابة شبه جماعية، وكان إضراب رائع، ولقد دعيت شخصيات عربية كثيرة لحضور حفلة التدشين، فامتنع أكثر المدعوين، ولم يستجب إلا راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس ونفر قليل من أولياء الانكليز، فتعرضوا لحملة نقد واستهجان شديدة، ولقد عقد في المناسبة اجتماع عربي اسلامي مسيحي في الحرم القدسي خطب فيه الخطباء محتجين منددين ببلفور وحكومته ووعده وزيارته، وكان من جملة الخطباء خليل السكاكيني الذي وجه كلاماً لبلفور يدعوه به الى مغادرة بلاد العرب، وكان مرتباً لبلفور أن يلقي خطاباً في كنيسة بروتستانتية، ولكن بعض قسسها وخدمها هددوا بالإضراب والشغب، وألغيت الحفلة الخطابية. وقد أخذت تبدو بوادر مظاهرات، فكان ذلك مما جعل بلفور يختصر أيام إقامته ويغادر فلسطين. ولقد ذهب من فلسطين الى دمشق فقوبل فيها بمظاهر عدائية صاخبة، حتى اضطرت السلطات الإفرنسية الى تهريبه من دمشق خوفاً على حياته.

معركة انتخابات المجلس الإسلامي وأسبابها:

وفي السنتين الثالثة والرابعة 1923 و1924 من عملي في النجاح اشتدت دعوة المعارضة إلى وجوب تعديل قانون المجلس الإسلامي بصورة تجعله مسؤولاً أمام هيئة إسلامية، ووجوب تجديد انتخاب رئيس وأعضاء المجلس، لأن نظامه ينص على أن مدة ولايتهم أربع سنين ثم يتجدد الانتخاب، وكانت هذه المدة قد أوشكت على الإنتهاء.

تعديل المجلس لنظامه ومداه:

ولم ير رئيس وأعضاء المجلس بداً من الإستجابة، ورأوا في ذلك فرصة لإدخال تعديلات على نظام المجلس تضمن اعتبار هيئة المجلس الهيئة العليا المشرفة على الانتخابات، ودعا المجلس المندوبين الثانويين الذين انتخبوا الرئيس والأعضاء لأول مرة، والذين كانوا هم الذين انتخبوا أعضاء آخر مجلس نيابي عثماني، كما قلنا قبل، للاجتماع للنظر في التعديلات التي يحسن إدخالها أو يريد المجلس إدخالها على النظام، وقد حضر أكثر الذين بقوا على قيد الحياة منهم، وحصل المجلس على التعديلات التي أرادها، ومن جملتها أن تكون هيئة المجلس هي المشرفة على الإنتخابات، وأن تكون إنتخابات إسلامية عامة ينتخب المسلمون فيها مندوبين ثانويين جدد، ينتخبون أعضاء المجلس، وأن تكون مدة الرئيس الحالي الحاج أمين مدى الحياة. وكان المعارضون يلحون على تعديل يكون المجلس بموجبه مسؤولاً عن أعماله تجاه المندوبين الثانويين الذين لهم أن يجتمعوا في إجتماع ويحاسبوه، ولكن المجلس استطاع أن لا يحصل هذا التعديل على أكثرية فأحبط.

الجبهتان المتنافستان في معركة الإنتخابات:

وبعد ذلك أعلن فتح باب الإنتخابات والترشيحات، وقامت في البلاد جبهتان متنافستان، الجبهة المجلسية وجبهة المعارضة.

الفريق الوطني في نابلس يرشح أمين التميمي، والخلاف الذي قام بينه وبين الحاج أمين الحسيني:

وفوجئنا بإعلان رئيس المجلس وأعضاؤه الأربعة جبهة واحدة متضامنة، بما فيهم عبد اللطيف صلاح، الذي كان إلى يوم إعلان الإنتخاب غير منسجم مع الرئيس والأعضاء، وكان معارضاً لكل أو جل قراراتهم في المجلس على ما ذكرناه قبل، لتبذل جهدها في إعادة إنتخاب الأربعة، ووقعت أنا وحافظ آغا طوقان وفريد العنبتاوي وأمين التميمي ومصطفى بشناق وأصدقاؤنا في الحركة الوطنية في مأزق، فنحن من جهة منسجمون مع الحاج أمين في عمل المجلس وفي الحركة الوطنية ونعد جبهة واحدة، ومن جهة أخرى نعارض تجديد انتخاب عبد اللطيف صلاح، ومرشحنا هو أمين التميمي، ومن مصلحتنا الإنتخابية أن تتضامن معنا الجبهة المعارضة له في نابلس أيضاً، وقد ذهبت أنا وحافظ آغا وفريد العنبتاوي إلى القدس وشرحنا للحاج أمين الموقف المأزق، وحاولنا أن نحمله على تبني مرشحنا بدلاً من عبد اللطيف، أو على الأقل أن يكون حيادياً تجاه منطقة نابلس فيكسب فيها من يكسب بدون مساندة منه لنا أو لعبد اللطيف، وذكرناه بما بيننا وبينه من صداقة وانسجام، وبما كان من عبد اللطيف من معارضة ومناواة للمجلس وقراراته. ولكنه رفض وقال أننا اتفقنا على أن يكون جميع المجلس جبهة واحدة في فلسطين، لأن المعارضة متضامنة ضد جميع المجلس بما فيهم معارضة نابلس، ولا يمكننا الرجوع عن ذلك. وقلنا له أننا لسنا معارضة في نابلس كما يعرف، وأننا جبهة فيها. ولكنه ظل على رأيه وإصراره، وحينئذ صار معناه، بأننا سنكون ضد مساعيه ومساعي جبهته الجديدة في نابلس.

تضامن الفريق الوطني في نابلس مع جبهة المعارضة فيها لضمان نجاح مرشحها:

وان مرشحنا هو أمين التميمي، وأننا سوف نتضامن مع جبهة معارضة نابلس بسبيل إنجاحه ـ وبسهولة ـ رحبت جبهة معارضة نابلس بترشيح أمين التميمي، فصار مرشحها. وكان مرشح المعارضة عن الشمال عبد الفتاح السعدي، وعن يافا عاصم السعيد، وعن غزة محمود أبو خضرة. وكان مرشحو جبهة المجلس أعضاءه الحاليين سعيد الشوا عن غزة، وعبد الله الدجاني عن يافا، وعبد اللطيف صلاح عن لواء نابلس، والشيخ محمد مراد عن الشمال.

شدة المعركة في جميع فلسطين عامة وفي نابلس خاصة:

وقامت معركة حامية شديدة في جميع أنحاء فلسطين بين الجبهتين، ولاسيما في نابلس التي انقسمت فيها الجبهة الوطنية فريقين، فريق مع جبهة وفريق مع جبهة. وكان رئيس الجمعية الحاج توفيق ومن يواليه وينسجم معه في جبهة المجلسية لضمان انتخاب عبد اللطيف صلاح، وكان في جبهة المعارضة بالإضافة إلينا سليمان عبد الرزاق طوقان رئيس البلدية وأحمد الشكعة وطاهر المصري اللذين كان لهما نشاط وقوة شعبية في أوساط البلد وفي الخارج، بل ولقد كان انشقاق بين الأسر، فكان بعض رجال أسرة في جبهة وبعض رجال أسرة في جبهة. وبذل زعماء كل من الجبهتين جهوداً عظيمة، وكنا نحن وإياهم نعقد اجتماعات عامة في البيوت الكبيرة الموالية لكل منا، فيخطب الخطباء منتقدين مرشح الجبهة الثانية ومؤيدين

لمرشحهم. وقد خطبت أكثر من مرة في اجتماعات جبهتنا النابلسية، وبدا من عبد اللطيف صلاح بخاصة نشاط عجيب ضمن به تأييد جبهة له في نابلس تأييداً قوياً في نطاق حزب الأهالي. وكان عادل زعيتر من أشد المتحمسين معه، وبذل الوعاظ وبعض موظفي المساجد جهدهم في مساندة جبهته بناء على أوامر الحاج أمين، وتوترت الصلات بيننا وبينه، ولم تخل المعركة في نابلس وغير نابلس من تهاتر وعداء.

ما كان عبر الانتخابات من مشاهد كريهة محزنة ومؤسفة:

واستباح الفريقان لأنفسهم أساليب غير كريمة من رشاوٍ ووشايات ودسائس وإشاعات ومقالب، وكان كل هذا في نابلس أسوةً بغيرها. وهكذا كان في فلسطين سنة 1925 منظر كريه محزن ومؤسف معاً، اختلط فيه الحابل بالنابل، وتساند فيه المخلص مع المغموز في أخلاقه ووطنيته وصلاته بالإنكليز بل وباليهود، وفسدت المقاييس وانحطت الأذواق وضاع المنطق وتوطدت أكثر من أي وقت الحزبية الشخصية والمحلية العمياء، حتى صارت هي الناظمة للصلات بين الناس. ولقد أدى تضامن المجلس مع عبد اللطيف في نابلس إلى تشكيل هيئتين انتخابيتين في نابلس بسبب الإختلاف على تفسير الوظائف والصلاحيات، وأدى هذا بالتالي إلى وجود صندوقي انتخاب في كل منطقة انتخابية، وكان هذا أيضاً في غير منطقة نابلس. ويوم الإنتخاب حشد كل فريق قوته وأتى بمندوبيه الثانويين الذين انتخبوا بالتصويت العام.

نجاح جبهة الفريق الوطني المتضامن مع المعارضة وكسب مرشحها:

وكانت جبهتنا هي الأقوى وجوداً ونشاطاً وصلات وأوشاج، فكان النجاح حليف مرشحها، وسقط عبد اللطيف صلاح. أما المناطق الأخرى فقد كسبت جبهة المجلس، حيث أعيد انتخاب الحاج سعيد الشوا في غزة، وعبد الله الدجاني في يافا، والشيخ محمد مراد في الشمال. ولم يجر إنتخاب للرئيس، لأن التعديل ضمن له البقاء دون انتخاب جديد طيلة حياته، ولكن الناجحين لم يهنأوا بنجاحهم.

رفع عبد اللطيف صلاح قضية ضد الإنتخابات وقرار بطلانها:

كان عبد اللطيف صلاح بالتضامن مع آخرين من جبهة المجلس في غير منطقة نابلس، كان لهم مرشح غير مرشح المجلس، فلم ينجح فأقاموا قضية أمام محكمة العدل العليا ضد صحة التعديلات التي أدخلت على نظام المجلس والانتخابات التي جرت وفاقاً لها. وكان نقطة القضية أن عدد المندوبين الثانويين الذين صوتوا للتعديل أقل بواحد من ثلثي المندوبين، وكان هذا هو المشروط في النظام القديم، وكان نقص الواحد بسبب الموت. ولكن محكمة العدل العليا لم تأخذ بالدفع بسبب الموت، وأصدرت قرارها ببطلان التعديل وبطلان الانتخابات. وقد كان عمل عبد اللطيف هذا ضد رغبة رئيس المجلس وأعضائه الذين تضامنوا معه، رغم كون عمله هذا انكاراً لتضامنهم معه، وما أدى إليه هذا التضامن من قيام الجفاء بين أصدقائهم ورفاقهم في الحركة الوطنية في نابلس، وحنق الرئيس والأعضاء وغضبوا، ولكن عبد اللطيف لم يبال بحنقهم وغضبهم، وظل مصرّاً على قضيته حتى

كسبها وشفى غيظه من السقوط.

اصدار الحكومة قانوناً بمنحها حق تعيين الأعضاء ورفض المجلسيين ذلك ثم قبولهم له:

وقد أصدرت حكومة فلسطين قانوناً منحت فيه نفسها صلاحية تعيين أعضاء جدد للمجلس، إلى أن يوضع نظام جديد للإنتخابات، يكون لها حق التصديق له. ولقد غضب رئيس المجلس والأعضاء الثلاثة الذين فازوا في الإنتخابات من بطلان الإنتخابات، ودعوا إلى إجتماع إسلامي حاشد عقدوه في بناية مدرسة الأيتام الإسلامية، ونددوا بقرار الحكومة، وأقسموا أنهم لن يقبلوا العضوية إذا كانت تعييناً من الحكومة، لأن ذلك عدوان على حقوق المسلمين وتدخل في شؤونهم الدينية، وكان الإجتماع قبل إعلان الحكومة الأسماء التي قررت تعيين أصحابها.

تعيين سعيد الشوا ومحمد مراد وأمين التميمي وعبد الرحمن التاجي أعضاء للمجلس:

وبعد أيام أعلنت الحكومة تعيين كل من الحاج سعيد الشوا والشيخ محمد مراد وعبد الرحمن التاجي وأمين التميمي أعضاء، أي أنها قسمت المراكز بين الجبهتين المتنافستين، فجعلت لكل منهما عضوين. ولم تعلن شيئاً بالنسبة للرئيس، حيث احترمت على ما يبدو قرار المندوبين الثانويين بأن يكون الحاج أمين رئيساً مدى الحياة. وقد حسب الرئيس وزميلاه المنسحبان معه وأنصارهم حسابهم، فوجدوا أن أكثرية المجلس تبقى معهم بالرئيس، فقبلوا التعيين الذي أقسموا على عدم قبوله، وصار عبد اللطيف صلاح وحزبه معارضاً للمجلس الجديد، وكانت جبهتنا المتضامنة مع المعارضة النابلسية الأصلية معارضة أيضاً، وهكذا خسر الحاج أمين نابلس، ولم يبق له فيها إلا الأنصار غير البارزين في الزعامة والنشاط وموظفوا المحاكم الشرعية والمساجد والأوقاف، ومع التنبيه على أن جبهة عبد اللطيف كانت معارضة لحسابها، ومعارضة في الوقت نفسه للجبهة المعارضة النابلسية الأصلية، والمتضامنين معها من رجال الحركة الوطنية، وهذا من المشاهد الطريفة والنتائج العجيبة لمعركة انتخابات المجلس الإسلامي. ولقد مات عبد الله الدجاني، الذي لم ينجح في الانتخابات عن يافا، بعد قليل، وكان مفروضاً أن يتزعم الجبهة المجلسية في يافا، فأصبحت أكثرية زعماء يافا معارضة.

قوة مركز المعارضة نتيجة للمعركة ومداها في صفوف فلسطين ووهن الحركة الوطنية:

ولقد خرجت المعارضة الأصلية المزدوجة، أي التي كانت في الأصل ضد المجلس والحركة الوطنية وموالية للسلطات، قوية من معركة الإنتخابات، لأن كثيراً من الفئات الوطنية والمجلسية معاً تعاونوا معها في المعركة بسبب السياسات المحلية والأوشاج والعصبيات، وكان أكثر البارزين في نابلس من معارضة أصلية ومن وطنيين جبهة واحدة. وتعاون كثير من بارزي الشمال الوطنيين المجلسيين مع زعماء المعارضة الأصليين. ومثل هذا كان في يافا والمدن الأخرى أيضاً، وكان بطلان الانتخابات وتعيين إثنين من المعارضة الأصلية والطارئة من أسباب هذه القوة، وقد انكفأ عبد اللطيف وحزبه معارضين أيضاً وان لم يكونوا متضامنين مع جبهة المعارضة، ووهنت نتيجة لذلك قوة المجلسية والوطنية والحركة الوطنية معاً، واستمر هذا الوهن بضع سنين، بل وظل أثره

أمداً غير قصير، وصارت المعارضة نداً للمجلسية الوطنية، وظهر ذلك جلياً في المؤتمر السابع الذي انعقد في سنة 1927 كمحاولة لترميم الوهن والفتور في الحركة الوطنية، حيث لم يمكن الإتفاق على عقده إلا بشرط أن يكون المعارضون والمجلسيون متساوين في المؤتمر ثم في لجنته التنفيذية على ما سوف يأتي شرحه بعد، وتحققت بكل ذلك أهداف السلطات واليهود معاً في تشجيعهم المعارضة المزدوجة ضد الحركة الوطنية وضد المجلس معاً. ومن حسن الحظ أن الحركة الصهيونية كانت تعاني متاعب إقتصادية وتنظيمية شديدة، حتى لقد صار ينزح من فلسطين يهوداً أكثر مما كان يأتي منهم إليها في سني 1925 و1926 و1927، وأهملت مساحات واسعة من الأراضي التي اشتروها بوراً، وكانت مصانعها بعضها تخسر وبعضها يتوقف، ولو لم تكن هذه المعاناة لكانت الصهيونية قد سجلت ربحاً وانتصارات وانجازات في ظل ذلك الوهن والفتور.

ولقد كان الولاء للسياسة الإنكليزية فضلاً عن التواصل والتعامل معهم ومع اليهود جريمة، وكان المتهمون بذلك يقابلون بالتجهم والنقمة بل والعدوان بأساليب متنوعة، وأدى التضامن والتمازج في معركة المجلس، بين الوطنيين والموالين للإنكليز والمتعاملين والمتواصلين معهم ومع اليهود إلى اتساع الحوصلة والمجال لكثير منهم، وصار يكفي أن يكون المرء مناوئاً للصهيونية حتى ولو باللسان يعد وطنياً ولو كان موالياً للإنكليز أو متواصلاً متعاملاً معهم، وكان يغضي عن هذا بعض الشيء بالنسبة للنصارى لاعتبارات متنوعة لا تخفى، فصار يغضي عنه بالنسبة للمسلمين أيضاً. وهكذا نشأ في فلسطين ونتيجة لبلواها المزدوجة بالإنكليز واليهود من جهة، وما حل في حركتها الوطنية من وهن بسبب معركة المجلس وما كان من تضامن وتمازج فيها بين المخلصين والمغموزين في إخلاصهم من المسلمين ما يمكن أن يسمى بالوطنية الثنائية أو الخنثوية، عادت على الحركة الوطنية بأضرار متنوعة.

شعور السواد الأعظم من الشعب وجوده كحسنة من حسنات المعركة:

وإذا كانت من حسنة تذكر لهذه المعركة الكريهة المملوءة بالأسواء، فهي شدة تمازج من يسمون وجهاء وكبراء من أهل المدن مع السواد الأعظم من الشعب وتزلفهم إليه ومسايرتهم له بسبيل المعركة، مما جعل السواد الأعظم من الشعب يشعر بوجوده وحاجة الوجهاء والكبراء إليه، وصار هذا يحفزه على الوقوف مواقف مصارحة ومطالبة ومناوأة، وتقديم اقتراحات ورفض اقتراحات الخ... وبعبارة أخرى أوجد في الشعب حيوية وشعوراً بالذات.

***



في نابلس 1924 ـ من اليمين: راغب شاهين، سليمان عبد الرزاق طوقان رئيس بلدية نابلس، الحاج عبد الرحيم نابلس، قاسم اغا النمر، الحاج شافع عبد الهادي، مستر ننغ، الحاج أمين الحسيني، عبد الرحمن الحاج إبراهيم، أحمد الشكعة، عزة دروزة، فائق عنتباوي، الحاج نمر النابلسي.

16 معركة انتخابات البلدية الجديدة وتكرر المشاهد الكريهة السابقة :

وفي السنة التالية لمعركة المجلس الإسلامي أعلنت السلطات عزمها على وفاء وعدها بإجراء انتخابات بلدية مسمية لها نوعاً من الحكم الذاتي، فكانت معركة جديدة حامية مثل سابقتها بل أشد منها، لأن عدد الذين سوف يترشحون ويتنافسون كان كبيراً جداً يبلغ المئات، وشاملة لجميع المدن، وقد جرت المعركة في نطاق الإنقسام الجبهوي المجلسية والمعارضة، وتكرر ما جرى في المعركة السابقة من مشاهد وأخلاقيات وسلوك كريه بغيض، وتضامن بين المخلصين والمغموزين، ولعبت الأوشاج والعصبيات والقرابات والمصالح السياسية المحلية دوراً كبيراً فيها، وقد اشتدت بها الآثار السيئة المتنوعة التي نتجت عن المعركة السابقة سوءاً وشدة، ولعل هذا مما هدفت إليه السلطات في تعجيلها لهذه المعركة بعد المعركة السابقة.

وفي نابلس كان التصارع بين الجبهة التي ساندت أمين التميمي، والتي كانت مؤلفة من فريق من الوطنيين وفريق المعارضة الأصلية، والجبهة التي ساندت عبد اللطيف صلاح، باستثناء مهم هو أن المجلسيين وموظفي الأوقاف والمساجد والمحاكم الذين ساندوه في المعركة السابقة بتأثير وإيعاز الحاج أمين لم يساندوا جبهته. وظلت محصورة تقريباً في المنضوين تحت اسم حزب الأهالي والأقارب والأصهار.

خسران حزب الأهالي في نابلس في المعركة وكسب المعارضة والتضامن معها من الفريق الوطني لها:

وكانت الجَبهة الأولى هي الكاسبة الكاسحة، ولم تنل الجبهة الثانية إلا ربع الأصوات، وقد طلب مني أن أرشح نفسي فأبيت، وكان مرشحو جبهتنا هم سليمان عبد الرزاق طوقان وأحمد الشكعة وطاهر المصري وعبد الرحيم التميمي وعبد الرحيم النابلسي، واستطاع توفيق أحمد عرفات من الجبهة الثانية أن ينال من الأصوات ما جعله عضواً أيضاً بمساعيه الخاصة وكان ابرز مرشحي الجبهة الثانية عادل زعيتر وقاسم كمال وصادق العنتباوي ونديم صلاح. وقد سقطوا، وثبتت السلطات سليماناً في رئاسة البلدية. ولقد ظللنا أي الفريق الوطني في جبهة نابلس والمعارضة (أنا وحافظ آغا وفريد العنبتاوي وأمين التميمي والدكتور مصطفى بشناق ومن لف لفنا)، الذي تضامن مع سليمان وجماعته في معركة البلدية مقابل تضامنهم في تأييد مرشحنا أمين التميمي للمجلس على شيء من الانسجام والتمازج مدة غير قصيرة. وكان من نتيجة ذلك أن مواقف المعارضة النابلسية الأصلية لم تكن حادة في هذه المدة كما كان شأن المعارضة في القدس ويافا وعكا.

نتائج معركة البلدية في غير نابلس:

وحافظ أكثر رؤساء بلديات المدن الأخرى المعارضون وهيآتها على مراكزهم نتيجة للمعركة، فظل راغب النشاشيبي في رئاسة القدس، وعاصم السعيد في رئاسة يافا، والشيخ مصطفى الخيري في رئاسة الرملة، وحسن شكري في رئاسة حيفا، وتوفيق الفاهوم في

رئاسة الناصرة، وزكي قدورة في رئاسة صفد، ومعهم فريق من أنصارهم على ما بقي في ذهني.

نزهتنا في كروم السلط بدعوة من سليمان:

ومما كان معنا في نابلس أن سليمان عبد الرزاق طوقان دعا في ظل الوفاق القائم بيننا إلى نزهة في كروم السلط، حيث كان لآله ولأصدقائه كروم في جبال السلط وبيوت في السلط، وكروم العنب السلطية مشهورة، فذهبنا أنا وفريد العنتباوي وحافظ آغا والدكتور مصطفى بشناق وأمين التميمي في سنة 1927، وقضينا بضعة أيام نبات في بيت عمه علاء الدين ونقضي نهارنا في الكروم تحت المضارب ونأكل الخواريف المحشية على المنسف، وكانت نزهة ممتعة.

تبدل الانسجام بيننا وبين سليمان، حيث عدنا إلى حالة الصفاء مع الحاج أمين وقوي انسجامهم مع راغب والمعارضة:

على أن هذا الانسجام أخذ يتبدل بعض الشيء في سنة 1930 وبعدها، فنحن عدنا إلى حالة الصفاء مع الحاج أمين على ما سوف أشرحه بعد، وهم قووا انسجامهم أكثر من ذي قبل مع راغب النشاشيبي وناوؤا معه المؤتمر الإسلامي العام الذي دعا إليه الحاج أمين، وانعقد في أواخر سنة 1931 على ما سوف نذكره بعد. وكنا نحن قد انسجمنا مع الحاج أمين واندمجنا في حركة المؤتمر، ثم اندمجوا معه في حزب الدفاع الذي أنشأه سنة 1933، وكان خط النشاشيبي وحزبه متناقضاً لخطنا الوطني، فطرأ نتيجة لكل ذلك شيء من الفتور على ذلك الوفاق والإنسجام.

أثر انفجار ثورة فلسطين في اشتداد الجفاء بيننا وبينهم:

ولم يكن التضاد بيننا مع ذلك قوياً، وظل شيء من الإنسجام قائماً على كل حال بيننا إلى أن انفجرت الثورة في أواخر سنة 1937، حيث كانوا مع راغب ضدها، وكنا في جانبها بكل قوة، وتولينا تأجيجها بالتعاون مع الحاج أمين، وكنا في دمشق وكان هو في لبنان.

حقد الثوار عليهم ونصبهم كميناً لسليمان وتقطيعهم لبساتين لهم في الغور:

وقد حقد الثوار عليهم وعلى راغب وجماعته لأنهم وقفوا جهراً ضد الثورة وحرضوا عليها، وقد طاردهم الثوار وجعلوا كثيراً منهم يفرون من فلسطين، ونصبوا كميناً لسليمان كاد يُقتل فيه.

اتهامي بما وقع عليهم ومحاولتهم اغتيالي في دمشق:

وقد ظنوا أني أنا الذي دبرت ذلك من دمشق، وفكروا في اغتيالي، وأرسلوا بعض زلمهم إلى دمشق، وهدى الله المرسل إلى بشاعة ما أريد له الإقدام عليه فعاد أدراجه.

مصالحتنا وتصافينا في سنة 1946 وبعدها:

ولقد لجأت إلى تركية في أثناء الحرب العالمية الثانية لظروف سوف نشرحها بعد، ولما عدت إلى دمشق عام 1945 جاء سليمان وأحمد الشكعة وطاهر المصري وابنه حكمت المصري (وكان من تلامذتي في النجاح) إلى دمشق، ودعانا شوقي العبوشي الذي كان مديراً لفرع بنك الأمة في دمشق على غداء وتصافحنا وتصافينا، ودعوتهم على غداء في بيتي، وجرى حديث الكمين وقطع البساتين فأكدت لهم، وهو صدق كل الصدق، وحق كل الحق، بأنه لم

يكن لي يد ولا علم مسبق بأي عدوان وقع عليهم أو على غيرهم من رجال المعارضة، وأني كنت أشجب ذلك أشد الشجب حينما بلغني شيء منه، خلافاً لما وقر في أذهانهم وأذهان زملائهم، وعاد الصفاء بيننا، وكتبت لسليمان في بعض أمور لبعض الأصدقاء وكان وزيراً في الحكومة الأردنية فقضاها. وظل الصفاء قائماً إلى أن توفاهم الله واحداً بعد آخر رحمة الله عليهم. وكنت أقضي فصل الصيف في حمانا سنة 1949. وكان حكمت وبعض أقاربه في مصايف حمانا، فجاؤوا وزاروني وتغدوا عندي، ولما زرت نابلس سنة 1964 وكان الحاج معزوز إبن عم حكمت رئيس بلدية نابلس. وكان هو وحكمت قد برزا زعيمين في نابلس، فاحتفوا هم وأقاربهم بي وزاروني أكثر من مرة وزرتهم، وأقام لي الحاج معزوز حفل غداء في قصره.

***

17

عودة الصفاء بيننا وبين الحاج أمين وعوامل ذلك المتعددة :

ولقد ظل الجفاء قائماً مدة ما بعد معركة انتخابات المجلس بين الحاج أمين وبيننا الفريق الوطني النابلسي الذي كان صديقاً له، وكان أمين التميمي في المجلس معارضاً ومتضامناً مع عبد الرحمن التاجي الذي عينته الحكومة من الجبهة المعارضة مثله، ثم أعاد كل منا النظر في موقفه بدافع عوامل عديدة، فقد كانت أهداف العمل الوطني والواجب القومي تجمع بيننا والتعاون الوثيق في ميدانه والصداقة الحميمة تربطنا، وكان الموقف في المعركة الإنتخابية عابراً وطارئاً، ولقد تدخل إخواننا السوريون الذين كانوا يجيئون إلى فلسطين بسبب الثورة السورية مثل نبيه العظمة وشكري القوتلي والأمير عادل أرسلان، وبذلوا جهدهم لإعادة المياه إلى مجاريها بيننا وبين الحاج أمين وهم أصدقاء الحاج أمين أيضاً، وكانت مصالح عديدة لنابلس ولمساندينا في نابلس يجب أن تقضى في المجلس، ولا يتم ذلك إلا بالإنسجام بين أمين التميمي والحاج أمين وزميليه المنسجمين معه، فكل هذا أدى إلى التجاذب ثم إلى العودة والتواصل والتعاون السابقين.

***

18

انعقاد المؤتمر التبشيري في القدس ومداه وما كان حوله من ضجة ومواقف من المسلمين :

ومن الأحداث المهمة التي كانت في فترة عملي في النجاح انعقاد المؤتمر التبشيري الدوري العالمي البروتستانتي في القدس سنة 1926، وقد لقي من الحكومة الانتدابية رعاية واهتماماً، وألقى المندوب السامي الجديد الذي خلف هربرت صموئيل بعد سنة 1925 وهو الجنرال بلومر خطبته الإفتتاحية، وقد كان في كيفية افتتاحه واجتماعاته مراسم وإجراءات لافتة للنظر تسبغ عليه مهابة وخطورة، وحاول المؤتمرون أن يحيطوا ما يجري في المؤتمر بالكتمان والسرية، غير أن الصحف العربية لم تقصر في استكشاف أمره ولفت نظر المسلمين إلى خطورته وتاريخه وآراء القائمين عليه وغاياتهم التبشيرية الاستعمارية، وتصريحات بعضهم بوجوب اغتنام فرصة انتصار الحلفاء في الحرب العالمية واستيلائهم وهيمنتهم على البلاد العربية لمضاعفة الجهود التبشيرية بين المسلمين، وواجب الدول النصرانية المنتصرة في حماية وتشجيع هذه الجهود.

ولقد كانت ظهرت شدة هذه النعرة في موقف للجنرال اللنبي قائد الحلفاء حينما استولت جيوشه على القدس في 9 كانون الأول 1917، حيث قيل أنه قال: **(الآن انتهت الحروب الصليبية)**، حيث عنى أو أراد أن يعني أن المرحلة الأخيرة السابقة من هذه الحروب وإن انتهت بانتصار المسلمين، فإن انتصار الدول النصرانية الجديدة قد استرد المبادرة، وصار يصح أن يقال أن تلك الحروب انتهت بانتصار هذه الدول.

ثم موقف للجنرال غورو حينما غزا دمشق حيث زار قبر صلاح الدين الأيوبي بطل تحرير فلسطين في الحروب الصليبية وقال: **(يا صلاح الدين ها نحن رجعنا)**.

ولقد تحركت العاطفة العربية في مسلمي فلسطين بسبب هذا المؤتمر وما نقل عنه وما جرى من مراسم له، وبدأت تظهر في شكل احتجاجات شديدة اللهجة ترفع إلى السطات وتذاع في الصحف وتنشر في منشورات على عقد المؤتمر وغاياته ورعاية حكومة فلسطين ذات الأكثرية الإسلامية الكبرى، وعلى سخط المسلمين من أقوال أساطين المؤتمر. وكتب كثير من ذلك بأقلام كتاب من المسلمين في الصحف، وقدمت الجمعيات والأندية الإسلامية مذكرات في هذا الصدد إلى السلطات الإنتدابية، وقامت مظاهرة صاخبة شديد في غزة، وانتشرت أخبارها في أنحاء فلسطين. وكان من جملة ذلك أن السلطات في غزة حاصرت المسلمين في مسجدهم الكبير واستعملت القسوة معهم، وكان لذلك رد فعل في أنحاء فلسطين، وكان أشد ردود الفعل في نابلس، حيث كان هياج عظيم ومظاهرة صاخبة، وكاد يقع اصطدامات دامية بين الجمهور والبوليس. واشتركت مدرسة النجاح في المظاهرة وجعلت طلاب المدارس الحكومية يخرجون من مدارسهم ويشتركون فيها أيضاً. وكان في نابلس حاكم عاقل فاتصل بالجمعية الوطنية وأخبرها أن في أخبار غزة مبالغة كبيرة، واقترح أن يذهب وفد من نابلس إلى غزة للوقوف على الحالة والإطمئنان،

واستجابت الجميعة للطلب وانتدبت بعض أعضائها وكنت من الجملة، وبتنا ليلة في غزة وتأكد لدينا أن الأخبار حقاً كان مبالغاً فيها كثيراً، ورجعنا وطمنّا الناس وهدأوا.

ومما جرى ونحن في غزة أنه كان في هذه الظروف موسم زيارة سنوي لمقام في احدى ذرى جبل غزة اسمه النبي صالح، حيث كان المسلمون يذهبون في زفة أو موكب كبير الى ذلك المقام للزيارة والتبرك، ويحمل مشايخ الطرق أعلامهم ويدقون طبولهم ودفوفهم في الموكب وعند المقام، وكانت مناسبة المؤتمر التبشيري وما نشر حوله، مما جعل موكب هذه السنة كبيراً إشترك فيه وفود كثيرة من المنطقة، وعلت فيه الهتافات ضد التبشير والمبشرين والمؤتمر التبشيري والسلطات الانتدابية التي رعته. وقد اشتركنا في الموكب وهتفنا مع الهاتفين، ولقد حاول رجال المؤتمر التبشيري التنصل مما نسب إليهم، ولكن ذلك لم يكن ليجدي في غمرة الهياج والاستنكار ضد المؤتمر والمؤتمرين، وكان ذلك سبباً في تقصير أيام المؤتمر وإجراءاته ومسارعة المؤتمرين الى مغادرة فلسطين دون أن يكملوا منهاجهم في البحوث والمحاضرات والطواف بمراسم دينية في أنحاء فلسطين، مما كان نشر أنهم سيفعلونه. وقد كان لهذا الحادث في الأوساط الإسلامية هزة شديدة، وكان حدثاً مهماً في نظر المسلمين، وظل حديثهم مدة غير قصيرة باعتبار أن التبشير والاستعمار والوجود الإنكليزي كله يصب في حوض واحد هو محاربة الإسلام ومنع المسلمين والعرب من الاتحاد والإزدهار واستغلال ثروات بلاد العرب وخبراتها. ومما أذكره أن الشاعر النابلسي الشهير إبراهيم طوقان نظم قصيدة نقدية لاذعة وساخرة بالمؤتمر وغاياته، وجهها إلى رئيس المؤتمر الذي كان اسمه (موت) ولا بد أنها منشورة فيما نشر له من دواوين وقصائد.

أثر المؤتمر في قيام جمعيات الشباب المسلمين بعد قليل:

ولقد قامت في مصر بعد سنتين حركة أدت الى إنشاء جمعيات الشباب المسلمين، وسرت الى فلسطين فحذت حذوها، ونشطت نشاطاً غير يسير في سبيل الدعوة الى تجلية الاسلام وتنبيه المسلمين الى الأخطار التي تهددهم وتهدد بلادهم، والتي من وسائلها التبشير وبخاصة التبشير التي تتولاه التنظيمات البروتستانتية على ما سوف نشرحه بعد، والراجع انه كان ذلك من رد فعل المؤتمر التبشيري المذكور.

* * *

19

زيارة إيمري وزير المستعمرات ومذكرتنا ومقابلتنا له:

وما كان في فترة عملي في النجاح زيارة وزير المستعمرات إيمري لفلسطين في سنة 1926، وكان جاء إلى الوزارة جديداً، فأحب على ما يظهر أن يتعرّف على فلسطين وقضيتها ميدانياً، وكانت الحركة الوطنية تعاني فتوراً ووهناً من جراء معركتي انتخابات المجلس الإسلامي والبلديات، فرأينا أن نتغلب على الموقف ونتحرك في مناسبة هذه الزيارة، فقررت اللجنة التنفيذية مقابلة الوزير وتقديم مذكرة له تشرح فيها سيرة الحكم الضارة بمصالح العرب الذين هم الأكثرية الكبرى، وتطالب بإنشاء حكم وطني ومنع الهجرة وبيوع الأراضي. وعين الوزير وقتاً لوفد من رجال البلاد وكنت أنا في عداد هذا الوفد، ورؤي من المفيد أن يسمع الوزير كلمة فلسطين من جميع الأحزاب والميول، فدعا الشيخ سليمان التاجي رئيس الحزب الوطني وشخص آخر لم أعد أذكر اسمه من الحزب الزراعي فلبيا الدعوة. وقابل الوفد الوزير وقدم له المذكرة. وشرح المتكلمون مدى المذكرة، ووعد بالنظر فيها وبإجراء ما يمكن في صددها. ولكن السياسة الإنكليزية ظلت على سيرتها بتأثير الصهيونيين والمآرب الاستعمارية.

***

20

نشاطي في سبيل انشاء شركة اقتصادية وسببه وما جرى في صدد ذلك :

وفي فترة عملي في النجاح نشطت مع بعض رجال الحركة في نابلس في سبيل إنشاء شركة إقتصادية، وقد سجلت ذلك في دفتري القديم فلم أر بأساً في إثباته في سياق ما كان من نشاطي الخارجي أثناء هذه الفترة، مع التنبيه على أن نشاطي في هذا السبيل قد امتد الى ما بعد هذه الفترة أيضاً. ولقد كان الباعث على ذلك هو محاولة مصرف أجنبي فتح فرع له في نابلس، وأظنه مصرف باركليز، وخشي الناس أن يكون في ذلك فتح باب يتسع لمصارف يهودية أيضاً فكانت معاكسة شديدة لهذه المحاولة، ومن ذلك منع تأجير محل له. وكان حافظ آغا طوقان من أشد المتحمسين لمعاكسته، وكان كبار تجار وأغنياء نابلس مؤيدين لحافظ آغا. وأثمرت المعاكسة فتأخر أو تعطل فتح المصرف، وحينئذ نبتت في رؤوس رجال نابلس وأنا من الجملة فكرة إنشاء شركة اقتصادية تجارية تكون الأعمال المصرفية في جملة غاياتها، وبثثنا الدعاية حتى كان حماس وإقبال على الفكرة، وحينئذ وضعنا نظاماً لشركة رأس مالها (12000) جنيه منقسمة الى ستة آلاف سهم تدفع قيمتها مقسطة على عشرة أشهر، وكان نشاطي شديداً في سبيل إعداد ذلك، ثم سجلناها وأخذنا رخصة بها، وتم الاكتتاب بجميع الأسهم، وجرى انتخاب هيئة

كتاب من رفيق التميمي بخصوص مذاكرات مع مستر ملز مساعد السكرتير العام.

القدس

١ أغسطس [illegible]

أخي العزيز أبو زهير حفظه الله

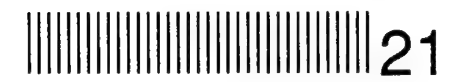
بعد تردد [illegible] قصدت المستر [illegible] المشاغل [illegible]
تردد دام أربع وعشرين ساعة [illegible] المذكرة [illegible]
ملز بعد أن أدخلنا عليها التعديلات الآتية :
أضيف إلى المادة السادسة : والمندوب السامي يظل محافظاً على
هذه الصفة إلى أن يتم انتخاب حاكم وطني عام لفلسطين.
وأضيف إلى المادة ١٢ : فإذا لم تقبل الحكومة آراء المجلس
النيابي [illegible] فيما يتعلق بمشروع الميزانية حينئذ [illegible]
المشروع إلى لجنة مؤلفة من [illegible] نواب و[illegible]
عن الموظفين وهذه اللجنة تحكم في ذلك الخلاف بالأكثرية
والقرار [illegible] الفصل .
وجعلنا المادة ١٢ تبدأ كما يأتي : وعلى هذا النحو يرسل
إلى مجلس النواب كل مشروع قانون تقدمه الحكومة غير مشروع
الميزانية والمشاريع الخاصة بالمسؤوليات الدولية ولمجلس
النواب الحق في بحث هذه القوانين وإبداء المشورة [illegible]
للحكومة بشكل قرار الخ . .
وأضيف إلى المادة ١٧ : وأن لا ينفذ [illegible]
إلا بعد موافقة المجلس النيابي .
هذه هي التعديلات وربما تعتبر جوهرية لكن المذكرة ما دامت
قاعدة للمفاوضات فلا بأس بأن تكون محتوية على هيكل المجلس
المعقول . أنت كنت تقول إنك أقنعت الحاج أمين [illegible]
[illegible] فجاوبك أن هذا غلط [illegible]
[illegible] جاء عندي وكان كلامه [illegible]
معارضاً للمشروع إذ كان يريد [illegible] الكلام [illegible]
[illegible] وعلم أنه يريد [illegible] أربعين كرسي [illegible] .
وكنا نقول له هذا غلط ومع ذلك فالبلاد [illegible]
[illegible] على أربعة كراسي فلا بأس [illegible]
أربعة كراسي ومع ذلك فالحمل عنده [illegible]
[illegible] الكلمة التي صدرت [illegible]
[illegible] : [illegible] أربعة كراسي [illegible] .
اليوم بعثت بنسخة من المذكرة إلى الملك فيصل [illegible]
[illegible] أن يجعلها قاعدة للمذاكرة [illegible]
[illegible] حصل بيننا وبين المستر ملز .
[illegible] أن المستر ملز اقتنع من المذكرة [illegible]
[illegible] ومع ذلك فنحن [illegible]
[illegible] والسلام عليكم ورحمة الله

أخاك رفيق التميمي

ادارة، وكنت من الأعضاء. وقد قررت الهيئة أن أكون مراقباً لحساباتها، غير أنني لم أمارس هذا العمل، لأن نظام مراقبة الحسابات الحكومي للشركات يقتضي أن يكون المراقب مرخصاً بذلك من الحكومة أيضاً، أي فاحص حسابات مرخص. ومن المؤسف أن الشركة تحجرت دون الغايات الوطنية الاقتصادية التي تأسست من أجلها، حيث اقتصرت على عملية المداينة على الطريقة المعتادة في نابلس دون تطوير ومرونة رغم إلحاحي بتطويرها على طريقة المصارف على الأقل.

ولقد بذلت جهدي لآخر مرة في سنة1929 مع مجلس إدارتها، ثم مع جمعيتها العامة. لأجل تحويلها على الأقل إلى مشروع زراعي، حيث تشتري أرضاً وتعمّر بيارات، وكان تيار بيع الأراضي لليهود والسمسرة عليها مشتداً في هذا الظرف، والرغبة في إنقاذ الأراضي العربية من الانتقال الى أيدي اليهود ملحة، وأسعار الأراضي رخيصة مغرية، إذ كان ثمن الدونم الصالح للبيارات في منطقة طولكرم قد تدنى إلى خمسة جنيهات بعد أن ارتفع الى عشرين، ولكن داود طوقان وكان أبوه قد مات رحمة الله عليه عاكس إلحاحي متأثراً بما كان بيني وبينه من جفاء وعقد، بسبب المدرسة على ما ذكرته قبل زاعماً أن إلحاحي هو للدعاية، ولمساوقة الحاج أمين الحسيني في حركة إنقاذ الأراضي. فتأثرت من هذا الزعم وأمسكت عن السعي ونفضت يدي من العمل. على أني لم أنفض يدي من الفكرة ونفذتها بطريقة أخرى، حيث سعيت ونجحت في إنشاء شركة خاصة في سنة 1929 سميناها الشركة الزراعية، وأنشأنا مزرعة في نيسان على ما سوف أشرحه بعد.

***



21 مفاوضاتنا أنا وبعض الرفاق مع ملز السكرتير العام المساعد وحالة البلاد في ظروف ذلك :

بعد انتخابات البلدية تحركت في الناس المخلصين مشاعر المرارة والتذمر مما أصاب الحركة الوطنية من خمود ووهن، والمبادىء الوطنية من اهمال وتجاوز، والأخلاق من ارتكاس وتردٍّ بسبب ما جرى في هذه الانتخابات والانتخابات التي سبقتها، أي انتخابات المجلس، واصطباغ حركات البلاد والناس بالصبغة المحلية الشخصية، وأخذنا مع بعض رفاقنا من رجال الحركة وشبابها نتداول في الخروج من المأزق، وفي وسائل تجديد نشاط الحركة، وفكرنا في السعي لعقد مؤتمر وطني جديد فاصطدمنا باعتبارات متنوعة، فقد صار للمعارضين الذين كانوا مغموزين وكانوا يُقْصون عن المؤتمرات، وجود قوي وحيز كبير، وكان لإندماج الفئات والميول في الانتخابات تأثير كبير في ذلك، بحيث صار عقد أي مؤتمر أو القيام بحركة وطنية عامة متعذراً بدونهم، وهنا فتح مشكلة جديدة، وهي من الذي يدعوا إلى هذا المؤتمر، لأن موسى كاظم رئيس الوطنيين والمجلسيين معاً في الظاهر، والحاج أمين من ورائه، على قطيعه ومضض شديد نحو المعارضين، وقد لا يستجيب المعارضون لدعوته، وهكذا ظلت البلاد في حالتها المؤسفة سنة 1925 و1926 وشطر من سنة 1927.

إتصال ملز بعمر الصالح وبولس شحادة وابداء الاستعداد للمفاوضة مع فريق من الوطنيين لتعديل سير الحكم

وفي هذه الأثناء، وبتحديد أكثر في آب 1926 اتصل ملز، مساعد السكرتير العام، بعمر الصالح البرغوثي وبولس شحادة، وأبدى استعداده للبحث مع نفر من الوطنيين في موضوع إدخال تعديل على سير الحكم وسياسة الانتداب، وكان هذا الإنكليزي معروفاً بسعة ثقافته وذكائه وعدم الإندفاع بالسياسة الصهيونية، والرغبة في إيجاد توازن ما بين الحركة العربية والحركة الصهيونية، فلا تطغى هذه مع تلك بنوع خاص.

اتصال عمر برفيق التميمي واتصال هذا بي وبمعين الماضي ورشيد الحاج ابراهيم وموافقتنا على الحديث مع ملز:

وقد اتصل عمر الصالح برفيق التميمي، وكان بينهما صداقة وتعارف، وكانا يعيشان في القدس، هو محام ورفيق رئيس الكلية الإسلامية التي أنشأها المجلس الاسلامي، وطلب منه تسمية أشخاص يؤلفون كتلة للمفاوضة مع ملز. واتصل رفيق بي وبمعين الماضي ورشيد الحاج ابراهيم وبينه وبيننا نحن الثلاثة صداقة وانسجام، وأخبرنا برغبة ملز، واجتمعنا أولاً نحن الأربعة لأننا أكثر انسجاماً في الأفكار وفي الحركة الوطنية وأهدافها، وتحدثنا في الأمر فلم نجد مانعاً للإجتماع مع ملز والتعرف على ما عنده في ضوء ما كان من فتور في الحركة الوطنية.

اجتماعنا ومداولاتنا مع ملز وما تعاطيناه من مذكرات:

وقد عين ملز وقتاً للإجتماع معه، فاجتمعنا معه في دار الحكومة، وجرى الحديث حول سياسة الحكومة، وشرحنا له أن صك الانتداب القائم على وعد بلفور والمتناقض تناقضاً كبيراً، وسياسة الحكومة المتحيزة لليهود في كل شيء هما العقبة الكبرى في سبيل أي تفاهم وانسجام مع حكومة الانتداب، لأن الإنتداب في أصله فرض لإرشاد الحكومات الوطنية العربية التي تقوم في الأقطار العربية المنسلخة عن الدولة العثمانية، والتي اعترف ميثاق عصبة الأمم بأهليتها مبدئياً للاستقلال، وأن هذا هو الذي طبق في سورية ولبنان والعراق والأردن، خلافاً لفلسطين التي كانت حكومة الانتداب هي الحاكمة حكماً مباشراً، أي لم يكن هناك منتدب ومنتدب عليه، ولم يكن لأهل البلاد أي وجود ومشاركة في الحكم، وإننا نحن المجتمعون معه لا يمكنهم بأشخاصهم ولا بأسم أمتهم أن يقبلوا أي انسجام وتفاهم مع حكومة الانتداب، ما لم يعدل هذا الأساس. ولكنه قال أن هذا لا يمنعه وليس من شأنه أن يمنع المجتمعين في التداول في الأمر، لعلهم يجدون طريقة للخروج من المأزق. ولقد اجتمعنا معه ثلاث مرات وتداولنا، ثم وصلنا الى حل وسط وهو المشاركة العربية في الحكم على أساس النص الصريح بأن العرب لم يقبلوا ذلك الأساس ولا يلتزمون به، وأن مشاركتهم هي عملية خارجة عن ذلك النطاق، وتكون بصورة إنشاء شكل ما للحكم الذاتي يشترك فيه العرب واليهود بنسبة عددهم، ويكون نافذ الرأي في شؤون الهجرة وبيوع الأراضي والتعليم والزراعة والتجاة والميزانية والضرائب والامتيازات، ويكون برئاسة المندوب السامي، مع السعي في تعديل صك الانتداب تعديلاً يتناسب مع ذلك. وكان ملز عقب كل إجتماع

يرسل الينا مذكرة فيها خلاصة ما دار من أبحاث، وما تم عليه التفاهم من نقاط. وكنا نلحظ تفسيرات خاطئة منه لكلام بعضنا أو تحريفات له، فنرسل إليه مذكرة فيها تصحيح للتفسير والتحريف.

وبعد الاجتماعات الثلاثة وما تعاطيناه في صددها من مذكرات، أرسل الينا كتاباً بأمر المندوب السامي يقول فيه أن الحكومة آخذة في تجربة الحكم الذاتي في الخطوة التي خطتها في انتخابات البلديات، وأن المندوب السامي نظر إلى مقترحاتنا باهتمام، ولكن لم ير أن يرفعها الى الوزير المختص في لندن ما لم يقنع أنها تعبر عن آراء هيئة عامة في البلاد.

تعليل اتصال ملز بنا:

ولقد حرنا في تعليل رغبة ملز في الإلتقاء بنفر من الوطنيين واستعداده للبحث في تعديلات تدخل على سياسة الحكم، وتأميله نتيجة ايجابية من ذلك حسبما بلّغنا عمر الصالح وبولس شحادة، في وقت كانت فيه الحركة الوطنية فاترة، ولم يكن بادياً دافع جوهري للانكليز على ذلك، وقد ظن بعضنا أن السلطة أرادت أن تجس النبض وأن تختبر مدى تبدل الأفكار والمبادىء والمطالب الوطنية عن طريق نفر عرف أكثرهم بصلابتهم الوطنية، كما ذهب بعضنا إلى أن ملز وأمثاله من رجال الانكليز غير المندفعين بالسياسة الصهيونية الذين يحبون أن يكون توازن بين البوادر العربية واليهودية، رأوا أن شدة فتور الحركة العربية قد تحفز اليهود على الضغط على السلطات لمماشاتهم باندفاع، فأرادوا بهذه الطريقة تحريك الهمم وبث الأمل في العرب، حتى تعود حركتهم الوطنية إلى نشاطها.

تجدد المسعى لإعادة النشاط للحركة الوطنية نتيجة لما جرى:

ومهما يكن من أمر، فقد اتخذنا نحن وغيرنا من المشتغلين بالحركة الوطنية الحريصين على إعادة النشاط إليها هذه المفاوضات ونتائجها وسيلة الى تشديد السعي لعقد المؤتمر الوطني، لأن المندوب قال أنه كان يود أن يرفع مقترحاتنا لو قنع أنها تعبر عن رأي هيئة عامة، وأمكن التغلب على المشاكل والإعتبارات، وعقد المؤتمر الذي سمي بالسابع فعلاً في مارس 1928 على ما سوف نشرحه بعد.

نشري للمذكرات حتى لا يبقى الأمر موضع تكهنات:

ولقد أخذت الصحف تشير إلى ما تسرب عن اجتماعاتنا بأساليب إستفهامية وحائرة، فرأيت أن أنشر ما تعاطينا مع ملز من مذكرات مع مقدمة إيضاحية، وتساءلت في نفسي هل أستشير رفاقي في ذلك وهل يحسن وينبغي أن تأخذ موافقة ملز على ذلك، ثم حزمت وقررت أن لا أسأل أحداً، وأن أنشر المذكرات مع مقدمة إيضاحية وأضعهم أمام أمر واقع، لأني خشيت أن يعترض بعض الزملاء أو يرفض ملز النشر فيصبح الأمر متعذراً، أو يظل الناس يتساءلون ويتقولون، ولأني رأيت في الوقت نفسه أن النشر ضروري للمصلحة الوطنية ولسمعتنا الوطنية، حتى لا يبقى الناس في عماية ويتزيدون في التكهنات والتخمينات. ثم أن الأمر هو حدث سياسي عام عربي وإنكليزي، ومن حق الناس أن يعرفوه على حقيقته. فأرسلت المذكرات الى جريدة فلسطين مع مقدمة إيضاحية ونشرتها، وسكت ملز وعاتبني بعض الزملاء فاعتذرت وشرحت وجهة نظري فقبلوا بها.

نكتة مضحكة على هامش نشر المذكرات:

ومن النكات المضحكة التي كانت نتيجة النشر أني ذيلت المذكرات بإسمي كناشر، وجاء اسمي بعد توقيع ملز ووظيفته على آخر المذكرات التي أتت منه، فظن شخص من غزة له مصلحة معطلة في الحكومة أني صرت مساعد السكرتير العام، فأرسل إلي كتاباً يشرح لي مصلحته ويطلب مني معالجته وإنصافه فيها.

وقد أوردت المذكرات كملحق برقم 3 في الجزء الثالث من كتابي حول الحركة العربية الحديثة الذي صار في طبعة جديدة الجزء الأول (القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها)، ويحسن أن يقرأها القارىء ليستبين منها ما جرى في لقاءاتنا مع ملز وصحة قولنا أنها حدث عربي إنكليزي مهم.

تعليق ناجي علوش على مداولاتنا وتوضيح وتعليق على ذلك:

ولقد تعرض الأستاذ ناجي علوش لما نشر في المذكرات خلاصة للمداولات بين جماعتنا وملز في كتابه (المقاومة العربية في فلسطين)، وحاول أن يعصر الألفاظ ويستخرج منها تناقضاً وتراجعاً من المفاوضين العرب عن رفض وعد بلفور والإنتداب والهجرة اليهودية، مع أن الحوار العربي إذا ما تروى القارىء في المذكرات المتبادلة بأفق واسع، يرى أنه كان يستهدف أو يدور حول تسجيل كون قبول العرب بالتعاون مع الإنكليز في حال قبول التعديلات الدستورية التي اقترحوها، لا ينفي أن يعد اعترافاً منهم بالالتزامات البريطانية، وتسجيل لكون العرب غير ملتزمين مبدئيا بها من قبل ومن بعد، ثم حول ضمان عدم السير في خطة من شأنها أن تؤثر بالحقوق السياسية والمدنية والإجتماعية والإقتصادية العربية، وهذا أو ذاك كانا يعنيان تسجيل عدم إعترافهم بالإنتداب ووعد بلفور، وعدم شرعية الهجرة اليهودية وشراء اليهود للأراضي العربية، لأن هذا سيؤدي إلى الإخلال بحقوق العرب المذكورة وبمركزهم ووجودهم، وكون اشتراك العرب في الحكم التنفيذي هو الضامن لذلك. والضامن للسير في خطة تضمن مصالح العرب المختلفة وحقوقهم، ثم حول ضمان تطوير الوجود الإنكليزي من حكم مباشر قائم على صك الانتداب ووعد بلفور، ومتآمر مع الصهيونية ومسخر لتحقيق خططها ومطامعها، إلى الاستشارة التي كانت كلمة (الإنتداب) في الأصل تعنيها، حتى تصبح فلسطين في حالها ومصيرها مثل حالة ومصير العراق وسورية ولبنان والأردن ومصر.

***

نهار الاثنين في ١٢ تموز ١٩٣٦ كلمني السيد رفيق التميمي وطلب مني أن احضر نهار الثلاثاء للاجتماع معهم بمنزله في القدس مع أحد رجال الحكومة [illegible] . فذهبت نهار الثلاثاء والتقيت مع رفيق وعمر الصالح وحسين الخالدي وبولس شحاده و[illegible] ابراهيم وفهمت منهم أن المستر [illegible] رغبة في الاجتماع ببعض الاشخاص المفكرين والبحث معهم في ما عندهم من الاقتراحات في شأن [illegible] العرب .

فرأينا أن نطلب الى المستر [illegible] الحكومة ومقاصدها وتعهداتها في فلسطين [illegible] دستور البلاد ضمن تلك التعهدات [illegible] ويترتب على هذا الدستور تشكيل في البلاد حكومة [illegible] فلسطين [illegible] كسائر الاقطار [illegible] لفلسطين .

[illegible] في الساعة الثالثة [illegible] بعد الظهر في [illegible] دار البحث [illegible] هذه النقطة . [illegible] العرب [illegible] وقد [illegible] كانت [illegible] ولقد بدأت المباحثة حول الدستور والمجلس التشريعي وعدم موافقة [illegible] العرب [illegible] ملاحظاتنا .

وقد ابدينا ملاحظاتنا [illegible] الوطن القومي اليهودي [illegible] العرب [illegible] الانكليز [illegible] العرب لا [illegible] ولا علاقة لهم به . ثم دارت [illegible] النقاط التي يمكن التفاهم عليها كمبادئ [illegible] لتكون اساس البحث هي هذه :

١ - برلمان فلسطين مؤلف من مجلسين : مجلس نواب ومجلس اعيان .

٢ - مجلس النواب جميعه منتخب من قبل الاهالي بحسب [illegible] العدد . ومجلس الاعيان نصفه موظفون ونصفه معينون من الاهالي من قبل الحكومة .

٣ - تحصر الحكومة بعض مسائل تتعلق بسياستها كدولة منتدبة لا يحق للبرلمان ان يضع قوانين تناقضها .

٤ - يكون من حق الحكومة ومن حق اعضاء المجلسين اقتراح القوانين .

٥ - يكون من حق مجلس النواب استجواب الحكومة - بدون حق اقتراع - [illegible] النواب .

٦ - جميع القوانين التي تضعها الحكومة لا تكون نافذة ما لم تمر من مجلس الاعيان ومجلس النواب [illegible] او المندوب السامي ، بما في ذلك الميزانية والقوانين التي تتعلق [illegible]

السياسة الصهيونية من هجرة وغيرها ونحو ذلك .

٤ – القانون الذي يصدر من مجلس الاعيان يأتي الى مجلس النواب ومن حق هذا ان يعدل ويجب عليه ان يكتب هذا التعديل المجلس الاول . فاذا لم يقبل يرسل في هذه الحالة ثم يرسل في السنة الثانية الى مجلس النواب فاذا اصر على التعديل ولم يحصل وفاق يؤجل مرة اخرى للسنة الثالثة ثم يرسل الى مجلس النواب فاذا اصر على التعديل ولم يحصل وفاق يسحب القانون .

٥ – نفس الطريقة تجري في القانون الذي يصدر من مجلس النواب ايضا بالنسبة الى مجلس الاعيان .

٦ – البحث فيما يتعلق باستلام الفلسطينيين الوظائف الادارية العليا طويل ولكن من الممكن اخذ بعض اساس للاستفادة من اراءهم في المجلس التنفيذي وكذلك من الممكن التوسع في اقامة موظفين فلسطينيين في المراكز العليا .

– مجلس النواب يتألف باعتبار عضو عن كل ٢٠ او ٢٥ الفا من الاهالي الفلسطينيين .

وتكون فلسطين منطقة واحدة بالنسبة لليهود والمسيحيين .

– كل من اكمل ٢٠ او ٢٥ من عمره ينتخب بحسب الشروط المعتادة .

– كل من اكمل ٣٠ من عمره ينتخب بحسب الشروط المعتادة .

– مدة الدورة الانتخابية اربع سنوات .

وينعقد البرلمان في كل سنة اربعة اشهر في اول كانون الاول وحينما يأتي التاريخ ينعقد بحكم القانون

– المجلس يضع نظامه الداخلي

– الانتخاب حر

– لم يقل اي شيء في حق حل المجلس من قبل الملك او نائبه (المندوب السامي) على ان تجري الانتخابات لمجلس جديد في مدة ثلاثة اشهر ويجتمع المجلس الجديد في نفس الدورة .

ونقول في موضع الحل ان هذا الحق يجري له تطبيق في جميع مستعمراتها المستقلة . ولا يستعمل الا لاجل استفتاء الشعب في حال وقوع خلاف بين الحكومة والمجلس . وحينما اذا لم يعد المجلس الى تأييد رأي السابق في المسألة المختلف فيها فرأي المجلس الجديد هو الذي يحتم (غير ان وضع مثل هذا النص في الدساتير الانكليزية غير متعارف)

– لمجلس النواب حق اقتراح تعديل الدستور غير ان المجلس هذا التعديل او تعديل الدستور من غير طريق المجلس هو خاص الملك ولا يمكن تقييد هذا التكوين . الحق .

ونقول ان جميع دساتير المستعمرات المستقلة على هذه الطريقة .

جميع الحاكم جميع الاقتراحات الواردة فيها تشترك التي قبلت او التي لم تقبل وكذلك سيدون ايها الترا التي قبلت او التي لم تقبل ويرسل الينا نسخة ونحن اذا وجدناها مخلوطة او ناقصة نراجع وكذلك اذا بدا لنا شيء جديد ايضا نسلمه . ونقدم ذلك بجمع مذكرة في هذه الفقا ونرسلها الى المندوب .

وقد ابدينا فيه الثقة في انه يقبل شكل حسن لفلسطين كالاقطار المجاورة فكان جوابه ان هذا اليوم كاستقلال الحكومة وضع دستور من جديد تأسيسه وضع ذلك . ولكنه وعد ان يكون لنا في تنفيذ اقتراحاتنا وان يعمل جهده للتوفيق بين مقترحاتنا وسياسة الحكومة غير انه لن يعمل ما يمس كرجل انكليزي حكومي .

وقد رجاه ان اولا هذه تصحيحا واقترحنا عليه ان يحوي نسخة المقترحات على تضمين من الوظائف اذا كانوا يعينون ان يحالوا وكالة الوطنيين على الاقل ما داموا يعينون من هذه بصيغة كالسيئة ... البلاد . وقد انتهت المفاوضة نهار السبت بعد ان عقدنا اربع جلسات واحدة نهار الثلاثاء والثاني نهار الاربعاء وواحدة نهار الخميس في ١٥ تموز ١٩٢٦ .

المذكرات التي جرت بين بعض الوطنيين ومساعد السكرتير العام في صدد تعديل الدستور

– ١ –

المذكرة التي هيأها المستر ملز والتي بناها على المذكرات

●

١) ان الذوات المذكورة اسماؤهم ادناه يقترحون ادخال تعديلات في دستور فلسطين وفي الأمر المعدل له الصادر من جلالة الملك في مجلسه الخاص ، وذلك لاجل اتخاذ التدابير لانشاء حكومة دستورية يستطيع الأهالي الاشتراك فيها وفي الامور التشريعية . وهذه اسماؤهم :

رفيق بك التميمي

رشيد افندي الحاج ابراهيم

معين افندي الماضي

عزة افندي دروزه

عمر افندي الصالح البرغوثي

بولس افندي شحاده

٢) فأشاروا في البدء إلى ان الصعوبة الوحيدة هي موجودة طبعاً في صك انتداب بني على تصريح بلفور لسنة ١٩١٧ ، وهم يعلمون ان صك الانتداب يفرض على الدولة المنتدبة مسؤوليات قبلتها . ولا يرغبون في التعرض لها بل انهم راضون عن اتخاذ ترتيبات دستورية تساعد حكومة جلالة الملك البريطانية على القيام بما عليها من المسؤوليات الدولية ما دام الأهالي الفلسطينيون يشتركون اشتراكاً فعلياً في سن القوانين . الامر الذي هو مستقل تمام الاستقلال عن تلك المسؤوليات .

٣) وطالما هي هذه التسوية السياسية الرئيسية فهم يرغبون إذاً ان يكون ثمة ما يضاف الى دستور جديد يوضع لفلسطين تفسير السياسة البريطانية الصريح في الكتاب الابيض (رقم ١٧٠٠) لسنة ١٩٢٢ . وهم يعلمون ان المندوب السامي بموجب البند ٢٧ من التعليمات الصادرة من جلالته يسترشد بذلك التفسير السياسي غير انهم يشيرون الى ان التعليمات الصادرة من جلالته قابلة للتغيير بينما ان الدستور أصعب من ذلك ويقتضي تعليمات دستورية لا حاجة لها في حالة اجراء في تلك التعليمات إلا إذا كانت هذه التعليمات موضوعة لدى تعرف الدستور فأ اكثر دقة مما هو في الوقت الحاضر . وفضلا عن ذلك طالما أن حكومة الملك قد اوضحت لهم ما يفهم من عبارة الوطن القومي لليهود في الكتاب فهم لا يرون ما يمنع من اتخاذ ذلك التفسير احدى الصادقات الرئيسية على البيانات الدستورية الموضوعة في دستور فلسطين .

٤) وهم راغبون في ان يدمجوا في الدستور نصاً آخر مفاده أن اهالي فلسطين يكونون علماً بما تعهدت حكومة صاحب الجلالة من التعهدات الدولية بشأن فلسطين لم يكن لهم دخل في هذا الامر .

٥) أما فيما يختص بالفصل الثاني من دستور فلسطين حول المجلس التنفيذي فانهم يرغبون في اظهار الفوائد التي يمكن اكتسابها من تعيين بعض الوطنيين من حين إلى آخر أعضاء فوق العادة في المجلس التنفيذي لاسداء المشورة في المسائل الخاصة .

٦) ان الفصل الثالث من الدستور في صيغته الحاضرة لا يفي برغبات أهالي فلسطين . وقد اقترحوا ان يضم البرلمان في فلسطين المندوب السامي ومجلس الاعيان ومجلس النواب .

٧) وهم لا يعترضون على تأليف مجلس الاعيان من أعضاء موظفين وأعضاء غير موظفين معينين يختارهم المندوب السامي من بين اصحاب الكفاءات من أهل البلاد . ويبقى الاعضاء غير الموظفين في مناصبهم في مدة انعقاد البرلمان التي يقترحون ان تكون لاربع سنوات .

٨) يشكل مجلس النواب من اعضاء ينتخبون انتخاباً بنسبة عضو واحد لكل ٢٠ — ٢٥٠٠٠ من السكان وقد فصلت طريقة الانتخاب في فقرة تالية .

٩) وقد اقترحوا ان يكون لكل مجلس من المجلسين الحق بوضع القوانين للتصديق عليها فمشاريع القوانين المالية والقوانين الخاصة بما على حكومة جلالة الملك من المسؤوليات الدولية تضعها الحكومة وحدها فقط . اما مشاريع القوانين الاخرى فيجوز وضعها وتقديمها من قبل الاعضاء في كلا المجلسين .

١٠) لمجلس الأعيان ان يعدل او يرفض أي مشروع قانون يرفعه اليه مجلس النواب . فاذا رفض مشروع قانون ما فلا يجب اعادته في دورة الانعقاد نفسها . فان رفض ثلاث مرات متوالية في دورات ثلاث وجب عندئذ سحبه .

١١) والمعاملة ذاتها في مجلس النواب تسري على مشروع قانون يرفعه عضو في مجلس الأعيان .

١٢) كل مشروع قانون مالي او قانون خاص بتعهدات حكومة جلالة الملك الدولية مما تضعه حكومة فلسطين أقره مجلس الأعيان وجب ارساله الى مجلس النواب للبحث فيه وإسداء المشورة بشأنه ثم يعاد إلى الحكومة مصحوباً بآراء وملاحظات المجلس التي توضع بصفة قرارات تتخذ بالاكثرية ولا يخول لمجلس النواب سلطة تعديل قوانين كهذه .

١٣) وعلى هذا النحو يرسل لمجلس النواب كل مشروع قانون تقدمه الحكومة مما لا يتعلق بالمالية او بالمسؤوليات الدولية الملقاة على عاتق حكومة جلالة الملك . ولا يكون لمجلس النواب سلطة تعديل ذلك المشروع انما يخول له حق البحث فيه واسداء المشورة بشأنه إلى الحكومة بشكل قرار يتخذ بالاكثرية فاذا قبلت الحكومة بما اسداه المجلس لها من المشورة وجب ان يعرض المشروع بصيغته المعدلة

ثانية على مجلس الأعيان ومجلس النواب لاقراره. اما إذا اشار المجلس ان مشروع القانون غير مقبول بأجمعه فيسحب فوراً ولا يعرض ثانية على المجلس إلا في دورة ثانية وتتبع الأصول نفسها في هذه الدورة . ومن الجهة الأخرى فاذا اتخذ المجلس نفس القرار بشأن ذلك القانون في ثلاث دورات من دوراته فلا يعرض ثانية على البرلمان في مدة انعقاده .

١٤) وقد اقترح تحديد شروط حل البرلمان .

١٥) ينتخب اعضاء مجلس النواب بانتخاب مباشر من قبل الفلسطينيين وعلى أساس نائب واحد لكل ٢٠ او ٢٥ الف من السكان ويكون هناك ثلاث دوائر انتخابية أي دائرة اسلامية واخرى مسيحية وثالثة يهودية وقد يكون من المرغوب فيه جعل فلسطين بأجمعها دائرة انتخابية واحدة للمسيحيين وكذلك لليهود هنا مثال لطريقة الانتخاب لا اهمية له . ان المبدأ العمومي هو أن يكون انتخاب النواب مبنياً على أساس التمثيل النسبي لمجموع السكان دائماً بينما ان النسبة بين عدد النواب تتوقف بالكلية على المهاجرين الذين يتجنسون بالجنسية الفلسطينية حالما يحق لهم ذلك إذ أن الناخبين والمنتخبين هم فلسطينيون فقط .

١٦) ومن المرغوب فيه ان تكون مدة انعقاد البرلمان اربع سنوات وان ينعقد مرة واحدة كل سنة تستغرق أربعة أشهر ويرتب ميعاد انعقاده في وقت مناسب يمكنه من البحث والتدقيق في مشروع الميزانية بقصد رفع اقتراحاته بشأنها .

-٢-

تعليقات على المذكرة التي ارسلها المستر ملز

ما يتعلق بالمادة الاولى من المذكرة

●

ان اساس الاقتراحات مبني على الرغبة في ايجاد حل لمشكلة فلسطين فان فلسطين بينما هي جزء من البلاد التي سلخت عن تركيا وينبغي ان يكون مصيرها كمصير مثيلاتها من الأقطار الأخرى كسوريا ولبنان والعراق لا تزال عديمة الشكل في تشريعها وفي طراز حكومتها وفي مركزها السياسي . وهذا هو الذي أدى إلى الآن إلى عدم التعاون الموجود بين الحكومة والاهالي في فلسطين ، مع ان من المرغوب فيه ان يحل التعاون بدل عدم التعاون وان تأخذ فلسطين شكلا معيناً تشريعياً وحكومياً وسياسياً يقوم على توضيح وتحديد العلاقات بين الحكومة البريطانية وفلسطين . ان الاقتراحات الواردة في المذكرة ليست هي اقتراحات الذوات الذين ذكرت اسماؤهم مباشرة ، وانما هي نتيجة مداولات جرت بينهم وبين جناب المستر ملز حول طريقة اشتراك الأهالي في الحكم . ومن هذه الاقتراحات ما كان صادراً من جنابه ازاء اقتراحات صادرة من الذوات المذكورة اسماؤهم لم يرتح اليها جنابه وقال انها غير ممكنة القبول .

ما يتعلق بالمادة الثانية من المذكرة

●

ان اظهار الرضا عن اتخاذ ترتيبات دستورية تساعد حكومة جلالة الملك البريطانية على القيام بما عليها من المسؤوليات الدولية كان مترافقاً مع الرغبة في الاشتراك الفعلي ليس فقط في سن القوانين بل وفي إدارة شؤون البلاد .

فقد كان الاقتراح هكذا :

« اننا نعلم ان حكومة جلالة الملك البريطانية مرتبطة بتعهدات دولية بما يتعلق بفلسطين . فنحن نطلب من الحكومة المشار اليها ان تحدد مسؤولياتها وتضع تحفظاتها في ذلك بحيث لا يوضع في فلسطين تشريع ما يناقض او يخل بهذه التحفظات والمسؤوليات ثم بعد ذلك يتمكن اهالي فلسطين على اختلاف طوائفهم من وضع دستورهم بواسطة ممثلين عنهم وينص في هذا الدستور على شكل حكومتهم واشتراكهم فيها وعلى تأليف برلمان يشترك اشتراكاً فعلياً في التشريع مثلما فعلت الاقطار الأخرى المماثلة لفلسطين كالعراق ولبنان وسوريا ونحن نعتقد ان هذا هو الحل المعقول العادل لقضية فلسطين والمتفق في الوقت ذاته مع روح الانتداب » .

ما يتعلق بالمادة الخامسة من المذكرة

●

ان اقتراح الذوات المذكورين في صدد المجلس التنفيذي كان تأليف المجلس التنفيذي من فلسطينيين يتولون زمام الادارة ويستعينون بمستشارين بريطانيين . غير ان جناب المستر ملز لم ير هذا الاقتراح ممكن القبول وقال انه من الممكن ان يعين من وقت الى آخر اعضاء فوق العادة من الوطنيين في المجلس التنفيذي لاسداء المشورة في المسائل الخاصة .

ما يتعلق بالمادة السابعة من المذكرة

●

ان الاقتراحات بتشكيل مجلس الأعيان قد تعددت . فالذي اقترحه الذوات ان يكون نصف اعضائه معينين تعييناً من الاهالي والنصف الثاني منتخبين انتخاباً تمثيلياً . فلم يوافق جناب المستر ملز على هذا الاقتراح . فاقترحوا ان يكون جمعية من الأهالي تعينهم الحكومة تعييناً فلم يوافق كذلك عليه . ثم قال جنابه انه لا بد ان يكون نصفه من الموظفين والنصف الآخر معيناً من الاهالي .

ما يتعلق بالمادة الثامنة

●

اشترط في السكان الذين تؤخذ نسبتهم في تعيين عدد النواب التجنس بالجنسية الفلسطينية . ان سكان فلسطين في الحاضر (٨٠٠٠٠٠) غير ان (١٠٠٠٠٠) منهم تقريباً غير متجنسين بالجنسية الفلسطينية فينبغي ان يطرحوا من العدد الاصلي . والاصح في هذا الاقتراح هو ان المبدأ العمومي ان يكون انتخاب النواب مبنياً على اساس التمثيل النسبي لمجموع السكان الفلسطينيين دائماً ونلاحظ ان مثل عدد النواب (٣٢) لم يرد في البحث ونلاحظ ايضاً ان في المثل الذي ورد في المذكرة ان اليهود يزداد عدد نوابهم كلما زادوا في الهجرة والتجنس وبذلك يتناقص عدد نواب المسلمين مع ان عددهم في ازدياد او يزداد من التوالد وهذا مخالف لذلك المبدأ العمومي الذي قبله المستر ملز .

ما يتعلق بالمادة التاسعة

●

ان جعل وضع القوانين المالية محصوراً في الحكومة وحرمان مجلس النواب من سلطة تعديلها لا يضمن المبدأ الأصلي من الاشتراك الفعلي في سن القوانين بوجه عام .

ما يتعلق بالمادة الثالثة عشرة

●

لا ينص هنا على ماذا يعمل في حال عدم قبول الحكومة للملاحظات والتعديلات التي يقررها المجلس في نصوص القوانين . مع ان المداولة انتجت أنه إذا لم تحصل الموافقة على القانون باجمعه أو على نصوصه يسحب .

ما يتعلق بالمادة الرابعة عشرة

●

اقترح وانتجت المداولة انه اذا حل المجلس وفقاً للشروط التي تحدد يجب اجراء انتخابات جديدة في خلال ثلاثة اشهر واجتماع المجلس الجديد عقب انتهاء الانتخابات فوراً .

نقاط جرت المداولة وتمت الموافقة مبدئياً عليها ولم تذكر في المذكرة :

١ - لمجلس النواب حق سؤال واستجواب الحكومة عن المخالفات والتقصيرات التي تقع في دوائرها والحكومة مجبرة على الجواب والايضاح .

٢ - لمجلس النواب الحق في إبداء ملاحظاته واقتراحاته في تعديل نصوص الدستور .

٣ - لعضو مجلس النواب حق الصيانة البرلمانية اثناء انعقاد المجلس إلا بقرار من المجلس أو في حال تلبسه بجرم مشهود .

-٣-

مذكرة معدلة قدمها الفريق العربي عن المذكرات

●

١) ان الذوات المذكورة اسماؤهم ادناه يقترحون ادخال تعديلات في دستور فلسطين وفي الامر المعدل له الصادر من جلالة الملك في مجلسه الخاص لاجل انشاء حكومة دستورية يشترك الاهالي في امورها التشريعية والتنفيذية وهذه هي اسماؤهم .

٢) فاشاروا في البدء الى أن الصعوبة الجوهرية هي موجودة في صك الانتداب المبني على تصريح بلفور ١٩١٧ وهم يعلمون ان صك الانتداب يفرض على الدولة المنتدبة مسؤوليات دولية قبلت بها . وانما يرغبون في أن لا تتعارض هذه المسؤوليات

مع حقوق العرب المدنية والقومية والسياسية والدينية وان يشترك الاهالي اشتراكاً معيناً في سن القوانين وادارة البلاد .

٤) وهم راغبون في ان يدمجوا في الدستور نصاً صريحاً مفاده ان اهالي فلسطين لم يستشاروا فيما اتخذته حكومة صاحب الجلالة البريطانية في التعهدات الدولية بشأن بلادهم .

٤) اما فيما يختص بالفصل الثاني من الدستور حول المجلس التنفيذي فهم يقترحون ان يكون فيه اعضاء وطنيون لتأمين الاستفادة من اشتراك الاهالي في الامور التنفيذية .

٥) ان الفصل الثاني من الدستور في صيغته الحاضرة لا يفي برغبات اهالي البلاد وقد اقترحوا ان يكون لفلسطين برلمان يتألف من مجلس اعيان ومجلس نواب والمندوب السامي يظل محافظاً على هذه الصيغة الى ان يتم انتخاب حاكم وطني عام لفلسطين

٦) واذا كان لا يمكن ان يؤلف مجلس اعيان من الاهالي فقط فهم لا يعترضون على تأليفه من اعضاء موظفين واعضاء غير موظفين يختارهم المندوب السامي من بين اصحاب الكفاءات من اهل البلاد على ان تراعى النسبة العددية بين الطوائف وسكان الالوية في الاعضاء المعينين وعلى ان يكون هؤلاء الاعضاء ثلثي اعضاء المجلس ويبقى الاعضاء غير الموظفين في مناصبهم في مدة انعقاد البرلمان التي يقترحون ان تكون لاربع سنوات .

٧) يشكل مجلس النواب من اعضاء ينتخبون انتخاباً بنسبة عضو واحد لكل عشرين الفاً من السكان الفلسطينيين على أن يكون الناخب قد اكمل الخمسة والعشرين والنائب قد اكمل الثلاثين من عمره وعلى ان تراعى الشروط الدستورية المعتادة في كل من الناخب والنائب .

٨) وقد اقترحوا ان يكون لكل من المجلسين الحق في اقتراح القوانين . على انهم لا يعترضون على ان يكون للحكومة وحدها حق وضع مشروع الميزانية ومشاريع القوانين الخاصة بما على حكومة جلالة الملك البريطانية من المسؤوليات الدولية . اما مشاريع القوانين الاخرى فيجوز وضعها وتقديمها من قبل الاعضاء في كلا المجلسين .

٩ ـ لمجلس الاعيان ان يعدل او يرفض اي مشروع قانون يرفعه الى مجلس النواب فاذا رفض مشروع ما فلا يجب اعادته في دورة الانعقاد نفسها فان رفض ثلاث مرات متوالية في دورات ثلاث فيجب عندئذ سحبه .

١٠) والمعاملة ذاتها المذكورة في البند السابق تسري في مجلس النواب عن مشروع قانون يرفعه مجلس الاعيان .

١١) مشروع الميزانية او كل قانون خاص بتعهدات حكومة جلالة الملك الدولية ما تضعه حكومة فلسطين يرسل الى مجلس الاعيان فاذا اقره وجب ارساله الى مجلس النواب للبحث فيه وابداء المشورة بشأنه ثم يعاد الى الحكومة مصحوباً بآراء وملاحظات المجلس التي تقرر بالاكثرية وحين حصول خلاف على مشروع الميزانية تحكم لجنة مؤلفة من ستة عشر عضواً نصفها من الاعيان والنصف الثاني من النواب وقرار هذه اللجنة الذي يتخذ بالاكثرية الفصل .

١٢) وعلى هذا النحو يرسل الى مجلس النواب كل مشروع قانون تقدمه الحكومة غير مشروع الميزانية والمشاريع الخاصة بالمسؤوليات الدولية ويكون من حق مجلس النواب البحث في هذه القوانين وابداء ملاحظات تتخذ بالاكثرية فاذا قبلت الحكومة ما ابداه المجلس من المشورة والملاحظات وجب ان يعرض القانون بصيغته المعدلة ثانية على مجلس الاعيان ومجلس النواب لاقراره . أما اذا لم تقبل الحكومة بمشورة مجلس النواب او اذا اشار هذا المجلس الى ان مشروع القانون غير مقبول بأجمعه فيسحب فوراً ولا يعرض ثانية على المجلس الا في دورة ثانية وتتبع الاصول نفسها في الدورات التالية فاذا اتخذ المجلس نفس القرار بشأن ذلك القانون في ثلاث دورات من دوراته فلا يعرض ثانية على البرلمان في مدة انعقاده .

١٣) وقد اقترحوا ان لا يبقى حق حل المجلس بدون قيد وشرط . وفي حال حله ينبغي اجراء انتخابات المجلس الجديد وانعقاده في خلال ثلاثة اشهر من تاريخ حله . وينبغي ان لا يحل المجلس الجديد بنفس السبب الذي حل لاجله المجلس السابق .

١٤) ينتخب اعضاء مجلس النواب بانتخاب مباشر او على درجتين من قبل الفلسطينيين الذين تعين جنسيتهم بقانون وعلى اساس نائب واحد لكل عشرين الف من السكان الفلسطينيين ويكون من المرغوب فيه جعل فلسطين بأجمعها دائرة انتخابية واحدة للمسيحيين وكذلك لليهود . اما المسلمون فتعتبر فلسطين كذلك منطقة واحدة لتعيين عدد نوابهم في المجلس بنسبة عددهم العام . وبعد ذلك يوزع عدد النواب بين الاقضية بنسبة سكانها المسلمين واعتبار ان كل قضاء دائرة انتخابية ويجب أن يوضع قانون للانتخابات تبين فيه الاجراءات الانتخابية .

١٥) ومن المرغوب فيه ان يكون مدة انعقاد البرلمان اربع سنوات وان يعقد مرة واحدة كل سنة تستغرق اربعة اشهر بحيث تبتدىء دورته قبل اربعة اشهر من دخول السنة المالية ليتمكن من بحث مشروع الميزانية وتدقيقه . والبرلمان يجتمع في الوقت المعين القانوني من نفسه بحكم القانون على ان يجوز انعقاد المجلسين وانفضاضهما في وقت واحد

١٦) ويقترحون ان يكون لمجلس النواب حق استجواب الحكومة فيما يتعلق بأعمال دوائرها وحق وضع اقتراحات في تعديل الدستور وان لا يعقد قرض باسم فلسطين الا بعد موافقة المجلس النيابي .

١٧) ويقترحون ان توضع حكومة جلالة الملك البريطانية بفصل خاص جميع المسؤوليات الدولية التي تعهدت بها بشأن فلسطين والتي لا تتعارض مع حقوق الاهالي العرب المدنية والدينية والقومية والسياسية والاقتصادية .

١٨) ويقترحون ان يكون للبرلمان الحق في النظر في القوانين التي وضعت او جرى العمل بها قبل تأسيس الحكومة الدستورية .

١٩) ويقترحون ان يوضع نص في الدستور مفاده ان لا تجتمع عضوية مجلس النواب او عضوية الاعيان المعينين مع وظيفة حكومية اخرى وان يكون لكل من اعضاء مجلس النواب والاعيان المعينين مكافأة سنوية .

٢٠) ويوافقون على ابقاء المادة (٣٤) من الدستور القديم المختصة بامتيازات وسلطات المجلس واعضائه .

٢١ ـ ويقترحون ان يستعمل المندوب السامي صلاحياته المذكورة في الدستور بسلطات يستمدها من قوانين توضع بحسب ما هو وارد في كل من الفقرتين (١١ ١٣) من هذه المذكرة .

٢٢) ويقترحون ان يكون امر تنظيم الهجرة الى فلسطين بموجب قرار خاص يوافق عليه البرلمان تراعى فيه مصالح الاهالي العرب والبلاد الاجتماعية والصحية والاقتصادية والاخلاقية والسياسية والدينية .

٢٣) ويقترحون ان يتخذ ترتيب خاص توضع فيه كيفية استعمال اللغات الرسمية في فلسطين .

ـ ٤ ـ

« صورة الجواب المرسل للمفاوضين من المستر ملز في ١١ أغسطس ١٩٢٦ »

حضرات الافاضل المحترمين

١) اوعز الي ان اشير الى المذكرة التي قدمتموها متضمنة اقتراحات ترمي الى اشتراك اهالي فلسطين في شؤون الحكومة التشريعية والتنفيذية .

٢) وقد رفعت هذه المذكرة الى فخامة المندوب السامي فنالت لديه الاهتمام التام . وقد سر فخامته ان يرى ان هذه المذكرة تكشف القناع عن ميل بين العرب لان يعدلوا عن السياسة السلبية المحضة التي اتبعوها بشأن مصالحهم الخاصة وان يتبعوا بدلا منها خطة يتمكنون بواسطتها من وضع اقتراحات قيمة لتشكيل حكومة دستورية .

٣) وأود أن اذكر لكم أن حكومة جلالة الملك قد تعهدت بان ترقي وتشجع مؤسسات الحكم الذاتي في هذه البلاد وبالطبع ان المرغوب فيه تحقيق جميع الاماني الصحيحة التي ترمي الى هذه الغاية مما لا يتعارض مع القيام بالتعهدات الاخرى التي على جلالته .

٤) وبناء على هذه الخطة تقصد الحكومة ان توجد في اواخر الخريف المقبل مجالس بلدية ينتخبها الاهالي انتخاباً .

٥) ان مدى التوسع في الحكم الذاتي وزمان اجراء هذا التوسع يتوقفان لدرجة كبرى على كيفية قيام منتخبي البلديات بالمسؤوليات الملقاة عليهم في المناطق البلدية وعلى كيفية قيام الاعضاء المنتخبين بواجباتهم في الادارة المحلية .

٦) وفي هذه الاثناء لا يرى فخامته مانعاً من رفع اقتراحات اهالي البلاد للاشتراك في حكومة دستورية الى وزير المستعمرات غير ان فخامته قبل ان يخطو هذه الخطوة يجب ان يقتنع ان الاقتراحات المقدمة تعبر عن آراء هيئة عامة من اهالي البلاد .

٧) أما بشأن الاقتراحات التي رفعتموها الآن فمن الواضح ان كثيراً منها يتعذر العمل به وقد أمرني فخامته ان اعلمكم بأن امر تعديل الدستور لسنة ١٩٢٢ والامر المعدل له الصادر عام ١٩٢٣ يعوز ولا يوهن اذا وضعت الاقتراحات ضمن حدود يمكن العمل بها ويرى ان المذكرة الاولى التي بنيت عليها مذكرتكم وان كانت تحتوي على نقاط لا تقبل بها حكومة جلالة الملك الا انها تتضمن اساساً معقولاً للنظر فيها من قبل وزير المستعمرات اكثر مما تتضمنه مذكرتكم .

واقبلوا فائق الاحترام .

22

قضية تعديل نظام المجلس الإسلامي ونشاطي فيها وما جرى في صدد ذلك :

وفي سنة 1926 أثناء فترة عملي في النجاح، بدأت محاولة تعديل نظام المجلس الإسلامي، وكان لي في ذلك بعض النشاط، فصار مما يصلح أن يذكر في هذه المذكرات، ولا سيما أن الأمر في حد ذاته مهم بقدر ما كان للمجلس الإسلامي من الأثر في حياة فلسطين وقضيتها، ولقد ذكرت في نبذة انتخابات المجلس أن الحكومة وعدت بنظام جديد أو تعديل النظام الموجود، وفي السنة المذكورة آنفاً عينت لجنة للنظر في ذلك برئاسة الحاج أمين الحسيني وعضوية كل من أمين عبد الهادي وراغب الإمام والشيخ راغب الدجاني وعارف باشا الدجاني الداوودي ومحمد علي التميمي ومعين الماضي، ولم تجتمع هذه اللجنة مرة واحدة بصورة منظمة، والذين يجتمعون معاً منهم يتعثرون في الخطط والخطوات. وكان يقال أن الحاج أمين سبب ذلك، لأنه كان يترسم نظاماً محدد الأبعاد في ذهنه، ويرى في بعض أعضاء اللجنة معارضة ومناوأة لما يترسمه. وقد طلب أمين عبد الهادي ومعين الماضي مني أن أكتب مشروعاً لنظام أو مقترحات بسبيل ذلك، فكتبت مشروعاً مفصلاً وسلمته لمعين، وكتبت شرحاً تبريرياً لمواد المشروع.

ولقد استمر تعثر اللجنة سنتين، حتى سئم أكثر الأعضاء المنتدبين وتركوا اللجنة. وفي سنة 1928 خطا الحاج أمين خطوة، حيث اتفق هو وبعض أعضاء اللجنة وبعض أعضاء المجلس على الإجتماع في مقام النبي شموئيل لدرس ما في اليد من مشاريع ومقترحات والخروج بنتيجة إيجابية، وكنت قد توليت مأمورية أوقاف نابلس، وكان مشروعي من جملة المشاريع المطروحة بواسطة معين، فاتفقوا على دعوتي لمشاركتهم، وكان الموجودون الحاج أمين والشيخ راغب الدجاني ومعين الماضي ومحمد علي التميمي وأمين التميمي، وأظن أنه كان أيضاً الحاج سعيد الشوا.

ولقد أقمنا في مقام النبي شموئيل ثلاثة أيام ونحن نعدل ونبدل وننقح، وكان أكثر النقاش والخلاف يدور على كيفية انتخاب أعضاء المجلس والإشراف عليها ومدة الرئيس والأعضاء ومخصصاتهم، وكان الحاج أمين يود أن ينص النظام على رئاسته مدى الحياة حسب ما قرر المندوبون الثانويون في التعديل السابق على ما ذكرناه، ثم على أن يكون هو رئيس الهيئة الانتخابية العليا المشرفة على الإنتخابات، وقد أتممنا على كل حال مشروعاً متكاملاً فيه مواد تضمن وتنظم مصالح المسلمين. وكان مشروعي الذي كنت سلمته لمعين هو الأصل وأدخل عليه بعض التعديلات، ولم نر نحن والمجتمعون بأساً في جعل رئاسة الرئيس لمدى الحياة لأن ذلك يجنب البلاد معركة انتخابية شديدة بغيضة، ولم يكن في الميدان من ناحية أخرى من هو أبرز من الحاج أمين والمعين للرئاسة وطنياً ونشاطاً وحرصاً. وقد أرسل المشروع إلى الحكومة من قبل الحاج أمين الذي كان هو رئيس اللجنة التي عينتها مع لائحة فيها شرح لمدى النصوص وأسبابها الموجبة، وقد كان لي النشاط الأوفر في ما تم وضعه وصياغته من النصوص واللائحة.

حيفا ١٨ ايار ٩٢٦

سيدي الأخ الكريم السيد عزة افندي دروزه المحترم

سلام واحترام وبعد ابعثكم باسم المصلحة العامة أن تكتبوا رأيكم كلما تراءى لكم بخصوص تعديل نظام المجلس ولائحة المؤرخ في ٢٠ كانون الاول ٩٢١ وكيفية انتخاب أعضائه والذي دفعني لهذا الطلب هو ما اعتقده من حميتكم ووجدانكم الطاهر ومزيد حرصكم على حفظ حقوق الملة فضلاً عن اختباراتكم الواسعة وبانتظار الرد العاجل أرجو تفضلكم بقبول تشكراتي واحترامي سيدي

الداعي

[illegible] أمين عبد الهادي

ارسل الجواب مع لائحة ، والجواب [illegible]

[illegible] ٢٢ ايار ٩٢٦

حضرة الفاضل [illegible]

قررت اللجنة التي انتدبت لتقديم توصيتها بشأن وضع أصول لانتخاب اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى وبشأن اجراء التعديلات الضرورية في نظام المجلس المذكور ، في اليوم الثاني من اجتماعها الاول المنعقد في ٨ ذي القعدة ١٣٤٤ ــ ٢٠ ايار ١٩٢٦ ان تطلب الى حضرتكم بالاشتراك مع السادة الشيخ [illegible] [illegible]

درس حالة المدارس الاسلامية الاهلية ، التابعة منها للمجلس الاسلامي وغير التابعة له ، والبحث في توحيد مناهج التدريس وتنظيم درجات الدراسة ، وبيان القواعد التي يحسن اتخاذها لادارة تلك المدارس ، وتقديم تقرير مفصل بذلك الى اللجنة حتى ٢٠ حزيران ١٩٢٦ ، فنرجو من حضرتكم تعيين ميعاد تجتمعون فيه مع اخوانكم الآخرين لتنظيم التقرير المذكور ، ولحضرتكم الشكر والاحترام .

كاتب اللجنة

[illegible]

مشروع تعديل قانون المجلس الاسلامي الذي أرسله صاحب المذكرات بناء على طلب السيد أمين عبد الهادي عضو المجلس الاسلامي الأعلى في القدس.

صلاحيات اللجنة المعينة للبحث في تعديل
نظام المجلس الاسلامي الاعلى المؤرخ
في ٢٠ كانون الاول ١٩٢١
وتقديم التوصيات بهذا
الشأن .

....

(١) ان تضع نظاما واصولا تمكن الطائفة الاسلامية بموجبها من انتخاب هيئة اسلامية ومجلس اسلامي اعلى يعهد اليه بادارة شؤون الطائفة الاسلامية وابداء المشورة بشأن الوقت المناسب لاجراء الانتخابات .

(٢) ابداء المشورة بشأن كيفية تشكيل وعمل الهيئة الاسلامية والمجلس الاسلامي الاعلى وبيان العلاقات التي يجب ان تكون بين هاتين الهيئتين واللجان الاسلامية المحلية .

(٣) ابداء المشورة بشأن تأليف لجان الاوقاف المحلية وغيرها من اللجان لاجل الاشراف على شؤون الطائفة الاسلامية المحلية وتعيين واجبات هذه اللجان .

(٤) ابداء المشورة بشأن طريقة تعيين وعزل من يلي :
(أ) قضاة المحاكم الاسلامية الشرعية .
(ب) المفتون .
(ج) موظفو المحاكم الشرعية وادارة الاوقاف والمدارس التي يشرف المجلس الاسلامي الاعلى عليها .
(د) موظفو الخدمة السائرة الذين يعينون في المعاهد المشار اليها في الفقرة (ج) .

(٥) تقديم التوصيات بشأن اية امور اخرى لها علاقة بتنظيم وادارة شؤون الطائفة الاسلامية في فلسطين .

....

سيدي المحترم

حيث انني عينت عضوا في لجنة تعديل نظام المجلس الاسلامي الاعلى وحيث ان اللجنة لديها هذه الصلاحيات حسب البرنامج المرسل لحضرتكم صورة طي هذا الكتاب فأرجوكم ان ترسلوا لي بأسرع ما يمكن ملاحظاتكم ومطالعاتكم بموجب هذا البرنامج خدمة لمصلحة المسلمين واصلاحا للخلل واكمالا للنواقص الموجودة في نظام المجلس التي طالما شكونا منها .
انتظر من حميتكم وغيرتكم الاسراع باعطائي ملاحظاتكم الاساسية على وجه التفصيل نفع الله الامة بكم .
وبالختام اشكركم سلفا واقدم فائق التحية والاحترام سيدي .

المخلص

حيفا ٩ / ٥ / ٩٣٥

- ١ -

١ – المادة الاولى من نظام المجلس القديم تبقى على حالها

٢ – المادة الثانية تكون هكذا :

" يتألف هذا المجلس من رئيس واربعة اعضاء والرئيس ينتخب في كل عشرة اعوام مرة .

اما الاعضاء فينتخبون في كل اربع سنين مرة باعتبار واحد عن قضائي القدس والخليل

وواحد عن الضفة يافا وغزة وبير السبع وواحد عن لواء نابلس وواحد عن لواء عكا "

٣ – المادة الثالثة تبقى على حالها.

٤ – تعين طريقة انتخاب الرئيس والاعضاء في نظام خاص يحل محل نظام انتخابات المجلس

الاسلامي على ان يكون اساسه التصويت العام على درجة واحدة ، ويصادق
على هذا النظام هيئة المراقبة الوارد ذكرها في المادة التاسعة ...

٥ – المادة الخامسة في النظام القديم لا لزوم لها ~~ويستعاض عنها~~ يوضع بدلاً منها

مادة جديدة هي :

" لا ~~يجوز انتخاب العضو~~ يعاد انتخاب العضو الذي تنتهي مدته في

الدورة التالية ، على انه يجوز انتخابه بعد انقضاء دورة واحدة .

٦ – المادة السادسة لا لزوم لها . ويوضع بدلاً منها مادة جديدة هي :

" للرئيس حق المراقبة والاشراف على ادارة واجراءات اقلام المجلس وتشكيلاتها

" التي يجب ان يوضع لها قانون خاص من قبل المجلس . اما الاعضاء فانهم

يتحدون مع الرئيس في وضع الانظمة والتعليمات الداخلية وتقرير المسائل الرئيسية

التي تتناولها وظائف المجلس ولا تدخل في صلاحية الرئيس وحده (بالذات) .

٧ – تضاف مادة جديدة قبل المادة السابعة في القانون القديم هي :

" يجتمع المجلس للنظر في اعماله خمسة عشر يوماً في الشهر على الاكثر "

1/3 37/5

- ٢ -

٨ – هذه المادة بدلاً من المادة السابعة في القانون القديم التي تعدل كما يأتي :

" لرئيس المجلس ولاعضائه رواتب من الحكومة لقاء اعمالهم في شؤون المحاكم

الشرعية . وللاعضاء تخصيصات من واردات الاوقاف مقابل اعمالهم

في سائر الشؤون الاسلامية . وتصرف تخصيصات الاعضاء من مال الوقف

عن كل يوم يحضرون فيه ذاته ولا تزيد عن جنيهين عن كل يوم . اما الرئيس

فيجعل له من مال الاوقاف ايضاً راتب لا يزيد عن خمسين جنيهاً .

٩ – هذه المادة بدلاً من المادة الثامنة وتكون هكذا :

تبقى الفقرات آ ، ب ، ج ، د ، ز من البند الاول على حالها .

تعدل فقرة (و) من هذا البند كما يأتي :

و : " يعزل جميع موظفي الشرع والاوقاف وموظفي المعاهد الاسلامية التي

" يصرف عليها من مال الوقف . ويشترط في ذلك ان يكون قرار المجلس

" مستنداً الى قرار مجلس تأديبي يؤلف وفقاً لقانون خاص يضعه

" المجلس . اما قضاة الشرع فلا يجوز عزلهم الا بحكم محكمة . فاذا توجه

" على احدهم مسؤولية فالمجلس التأديبي يأخذ صفة المحقق ويعرض

" قراره على المجلس . فاذا قرر المجلس ادانته يرفع عن العمل ويحال للمحاكمة .

" وعلى المجلس عند عزل احد الموظفين على الاطلاق ان يخبر الحكومة بالامر

" مع بيان الاسباب "

– يبقى البندان الثاني والثالث من هذه المادة على حالهما .

يعدل البند الرابع كما يأتي :

" اذا رأى المجلس تحوير او اضافة بعض المواد المتعلقة بتعليمات
ادارات الاوقاف او وضع تعليمات جديدة تتعلق باعماله او بموظفيه

لا حاجة للفقرة (ه) الحالية ، وسيعاض عنها بهذه الفقرة :
(ه) وضع ميزانية الاوقاف ... بعد المصادقة عليها من هيئة المراقبة المذكورة في المادة العاشرة

مسودة مشروع تعديل نظام المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى الذي أعده محمد عزة دروزة بناءً على طلب كل من السيدين أمين عبد الهادي ومعين الماضي.

-٣-

قبله ان يقدموه ويقدم الجواب للحكومة عند طلبها . اما اذا رأى تعديل بعض القوانين ونظمة المتعلقة
دون تلك او اضافة شيء جديد فعليه ان يأخذ موافقة الهيئة الرقابية المذكورة في المادة العاشرة
لوجه قانونية . واما اذا كان التعديل او الاضافة يتناول المجلس الاسلامي هذا فيشترط
ان تكون موافقة ثلثي اعضاء الهيئة . و يعرض ذلك التعديل او الاضافة على الحكومة للمصادقة
عليه .

١٠ - تكون هذه الفقرة بدلاً من المادة التاسعة في القانون القديم مع هذا النص :
(المادة العاشرة)
يحصل على مراقبة هذا المجلس هذه القواعد :
ا - مراقبة المجلس تكون بواسطة هيئة تدعى هيئة المراقبة.
ب - هيئة المراقبة تتألف من اربعة وعشرين عضواً . ستة من لواء نابلس وستة من لواء عكا و
ستة من قضاء القدس والخليل وستة من قضاء يافا وغزة والسبع .
ج - ينتخب اعضاء هذه الهيئة كل اربع سنين مرة . وتعين طريقة انتخابهم في تقسيم انتخابات
المجلس الاسلامي .
د - تجتمع الهيئة اجتماعاً سنوياً عادياً في القدس برئاسة رئيس المجلس في اول شهر [illegible]
ويعد اجتماعها قانونياً اذا حضر اكثر من خمسة عشر عضواً .
هـ - رئيس المجلس يقدم الى الهيئة تقريراً يبين فيه اعمال المجلس ويقدم لها الحساب النهائي للسنة
المنقضية للتدقيق والمصادقة عليه ويعرض عليها مشروع الميزانية الجديدة الذي ينبغي ان
تقترن بتصديقها .
و - للهيئة الحق في سماع الشكاوى المتعلقة بأعمال المجلس واعضائه وموظفيه . فاذا
[illegible] مسؤولية فالمجلس يقيد بما يراه من التأديب . اما اذا توجهت الى هيئة
المجلس مسؤولية فرئيس هيئة المراقبة ان تنتخب لجنة تحقيقية تتألف من ثلاثة اعضاء
من اعضائها وتحقق في هيئة المجلس وموظفيه . واللجنة التحقيقية تقدم تقريرها الى هيئة
المراقبة فاذا قررت هذه اللجنة [illegible] وجاهة التهمة القانونية لفائدة العضو
تحال الاوراق التحقيقية للمحاكمة . و [illegible] لهيئة المراقبة الحق في توقيف العضو عن العمل حينما
[illegible] التحقيقية ان التهمة جنحة و في اثناء [illegible] ان التهمة جناية . وفي حال
[illegible] ينتخب هيئة المراقبة [illegible] عنه من اهالي لوائه . وهذا
يكمل مدة سلفه .

-٤-

ز - يجوز للمجلس ان يدعو لجنة المراقبة الى اجتماع غير عادي حين الضرورة كما انه يجب عليه دعوتها
اذا طلب نصف اعضائها اجتماعاً غير عادي اذا كان الطلب مستنداً الى اسباب واضحة .
ح - لاعضاء هيئة المراقبة الحق في [illegible] وترتب لهم كل يوم يحضرون فيه الجلسات [illegible]
ط - لا تجتمع عضوية هذه الهيئة ووظيفة ما من وظائف المجلس وكذلك مع الوظائف
في معيته القانونية لشخص واحد .
ي - اذا مات او استقال عضو من لجنة المراقبة فالهيئة تنتخب بأكثريتها عوضاً عنه
من منطقته والجديد يكمل مدة سلفه .
ك - يجوز لستة من اعضاء هيئة المراقبة تقديم اقتراحات فيما يتعلق بتعديل هذا النظام
او غيره من الانظمة والقوانين المتعلقة بامور المجلس والادارة او وضع شيء جديد بدلاً
عن هذه الاقتراحات تقدم الى المجلس لدرسها ثم تطرح في هيئة المراقبة .
(١٠) [illegible] المواد ١٠ و ١١ و ١٢ في القانون القديم [illegible]
هذه المادة من المادة (١٣)
(١١) تتشكل في كل مركز فيه ادارة اوقاف لجنة باسم لجنة الاوقاف المحلية تتألف من المفتي
او اكبر العلماء سناً اذا لم يكن مفتٍ ومن مأمور الاوقاف ومن اثنين من [illegible]
[illegible] وتعين طريقة انتخاب هذين العضوين في [illegible]
نظام انتخاب المجلس الاسلامي وذلك مع ان يتجدد انتخابهما كل اربع سنين مرة .
(١٢) المادة (١٤) في نص القانون القديم تبقى على حالها
(١٣) " (١٥) " " " " "
(١٤) " (١٦) " " " " "

[illegible]
الزامات ومساعدات جديدة [illegible] الاوقاف العربية والاسلامية
ان يتولى المجلس عند ادارة ومراقبة المدارس التي ينفق عليها من الاوقاف العربية والاسلامية
ويضع المجلس نظاماً خاصاً به في هذا الموضوع .
٢ - تعتبر هيئة المجلس وهيئة المراقبة هيئتين دينيتين [illegible] شرعية صالحة لتطبيقه
تكون الوظائف التشريعية من قبل الحكومة والاستشارة منه في الامور الدينية والشرعية
صفة دينية يعتمد عليها الحكومة في الاستشارة
٣ - ينبغي ان يكون مفتي القدس الشريف من العلماء الذين تخرجوا في مدارس الازهر
او غيره في البلاد الاسلامية مع الالمام بالشؤون العامة [illegible]
من [illegible] ان يجوز تعيين المفتين الاخرين من القضاة
[illegible]
٤ - الهيئة [illegible] في الانتخابات الثانية تتألف في كل لواء من هيئة مراقبة
الى الالوية [illegible] (التصويت للانتخاب) وهي ان تنتخب باكثريتها
[illegible] الانتخابات في الوقفية .
٥ - حق التصويت يعطى لكل من جميع الشؤون الاسلامية المسلمين [illegible]
٦ - كل شخص له حق التصويت ينتخب دفعة واحدة شخصاً من اللواء للعضوية [illegible]
للقضاء في هيئة المراقبة [illegible] اكثرية اصوات جميع [illegible] من المرشحين للعضوية
[illegible] عضواً ومن نال اكثرية اصوات القضاء من المرشحين لهيئة المراقبة [illegible]

[illegible] مادة لجنة الاوقاف المحلية :
[illegible] في هيئة مراقبة الاوقاف اللواء بالاكثرية
[illegible] من هذين العضوين
[illegible]

[illegible] تتألف منه هيئة المراقبة ويشترك مع
[illegible] في القضاء : القدس ، الخليل ، رام الله ، اللد ، الرملة ، يافا ، [illegible]
ان تكون الوقفية هي : [illegible]
[illegible] ، اريحا ، نابلس ، جنين ، طولكرم ، بيسان ، [illegible] ، صفد ، عكا ، حيفا ،
[illegible]

شيء عن مقام النبي شموئيل الذي اجتمعنا فيه في مناسبة البحث في تعديل النظام:

ومقام النبي شموئيل الذي اجتمعنا فيه قائم على مرتفع في قرية باسم قرية النبي شموئيل فيه عدة غرف وقاعات ومسجد وبئر ماء ومرافق، ووسط كروم كثيفة من الزيتون، وفي أسفار العهد القديم ذكر لنبي من أنبياء بني إسرائيل بهذا الإسم. وليس هناك آثار قديمة ووثائق قديمة لتؤكد أن هذا المقام هو مقام ذلك النبي، ولكن هذا مما كان في الأذهان منذ زمن يبدو أنه بعيد، وكان المتولي على هذا المقام وإمام مسجده الشيخ عبد الرحمن العلمي من القدس، وكان مضيفنا، وكان في غرف عديدة أسرة لنومنا لا أدري هل هيئت من جديد أو كانت مهيئة للضيوف والزوار وإن كنت أرجح هذا. وكان يقدم لنا ثلاث وجبات طعام وطعام مطبوخ على الغداء، وأظن أن أسرته كانت تقيم في المقام.

وكان قرب قرية النبي شموئيل قرية اسمها القباب أو القبية، فيها نزل أو دير ومزرعة لرهبان ألمان فذهبنا إليه وقضينا ليلة فيه.

ولم تبت الحكومة في المشروع، ولم يلح الرئيس عليه ونام عندها، وبقي كل شيء على حاله والرئيس يعتبر نفسه رئيساً لمدى الحياة حسب تعديل المندوبين الثانويين الذي كان وظل في نظره وفي واقع الحال شرعياً، لأن النظام الأصلي نص على أنهم هم أصحاب الصلاحية في تعديله.

***

23

وفاة والدي رحمة الله عليه وشيء عنه:

وفي أواخر مايس سنة 1927 توفي والدي رحمه الله عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بعد مرض اشتد وامتد نحو شهر، ولقد كان رحمة الله عليه ذا عقل ورأي حصيفين بمقياس ذلك الوقت، وصاحب دين وتقوى وعبادة، وصاحب نشاط أكثر من أخويه، وكان هو الذي يعمل في الكسب التجاري ويتحمل مسؤولية والده ومساعداً له. وكان يعين أخويه، وكان يقرأ ويكتب ولا بأس في خطه، وكان رقيق الحال ولكنه متجمل في معيشته ومظهره، وله صداقات ومعارف مع رجال أسر كثيرة بارزة، وكانت صداقته الحميمة الوثيقة بخاصة مع الحاج أنيس التميمي والد زوجتي الثانية المرحومة لائقة على ما ذكرته قبل. ولقد كان رحمه الله شديد المحبة لي والعطف علي، وكان يهتم بي منذ صغري ويلبي طلباتي ويحرص على أن أكون متجملاً في اللباس والحياة، وكان يشجعني على القراءة والكتابة والدرس. وهو الذي أخذني إلى الشيخ مصطفى الخياط لأقرأ عليه بعض دروس الفقه، وكان يأخذني معه إلى دواوين أصدقائه ومعارفه من الأسر البارزة حينما صرت مراهقاً واعياً، فساعد على تفتحي على الحياة والناس، وكان يأخذني معه في نزهاته الخلوية مع رفاقه، وحينما صرت أسافر إلى بلد ما للعمل في الوظيفة يأتي لزيارتي على ما ذكرت قبل، وقد بذلت كل جهدي لأوفيه بعض حقوقه علي إبان شيخوخته، وبخاصة أنه كاد أن يفقد بصره. وقد

أقمت له حفلة أربعين حافلة في مدرسة النجاح حتى تتسع للمدعوين الذين كانوا أكثر من ستين، وقدمت لهم طعاماً وقرأنا القرآن عن روحه، وتصدقت بما استطعت عنه كذلك رحمة الله عليه رحمة واسعة.

***



24

زلزال فلسطين ونابلس وما كان من سيره ونتائجه :

وفي صيف سنة 1927 حدث في فلسطين زلزال كان في نابلس أشد منه في غيرها، وقد انهارت أبنية كثيرة وبخاصة في حارة الحبلة أكبر حارات نابلس، ولعل تسمية هذه الحارة باسمها كانت نتيجة زلزال سابق، وقد انهار كثير من بيوتها كما تنهار الحبلة التي هي حجارة مصفوفة حذاء بعضها وفوق بعضها بدون ملاط وتنهار عند التحريك الشديد، وصارت البيوت المنهارة كأنها ركام حجارة، وتصدع كثير من البيوت، وانهارت بعض المخازن في الأسواق، ودفن فيها بعض من كان فيها، كما أخرج من تحت الأنقاض عدد غير قليل مكسراً ومرضوضاً، وهرع معظم أهل البيوت إلى العراء، وخرجنا نحن أيضاً من بيتنا الذي تشقق بعض جدرانه بعض الشيء ونمنا ليلتين مع سائر أسر الأسرة والجيران في بستان مجاور لنا كان فيه دباغة، ثم انتقلت أنا وأسرتي الخاصة وأسرة أخي إلى مدرسة النجاح حيث كان الوقت عطلة صيف، وكان القسم الداخلي خالياً، واشغلنا قاعة بأسرتها، وأقمنا نحو عشرين يوماً. وقد ولدت بنتنا نجاح فيها في تاريخ 27 تموز 1927 وسميناها باسمها لهذا السبب. وقد لجأ عدد من أصدقائنا ومعارفنا إلى المدرسة أيضاً، ومنهم من نقل متاع بيته وأقام معنا في قاعات النوم والطعام وغرف الدراسة، ومنهم فريد العنبتاوي وأسرته، والحاج قاسم كمال وأسرته، وجميل كمال وأسرته، والشيخ فهمي هاشم وأسرته. وكان الوهم وراء

كثير من النزوح عن البيوت بسبب ما رآه أصحابها من تصدع وتشقق ظهر أنها غير بليغة وغير مهمة، وملأ غيرنا الساحات الخارجية والبساتين المجاورة حيثما ينامون ويأكلون في العراء مع أسرهم، ومنهم من أقام بيوتاً خشبية.

وكانت حصيلة الخسائر اكثر من 25 قتيلاً تحت الأنقاض، و50 مرضوضاً أو مكسراً، ونحو 250 بيتاً مهدوماً هدماً تاماً أو شبه تام، وعشرات من المخازن، وانهدم فيما انهدم جامع النصر. وظلت نابلس بضعة أشهر مشغولة ببليتها من تنظيف أنقاض وتعزيل أمتعة وصف حجارة وترميم مساكن.

ومن طريف ما كان أن كثيراً من الناس تأملوا من الحكومة ومن البلاد العربية مساعدات للتعويض، وطاف المهندسون من طرف الحكومة والبلدية على البيوت فكانت تقاريرهم أن كثيراً من البيوت كان سليماً قابلاً للسكن ولا يحتاج إلى ترميم وإذا احتاج فإلى ترميم بسيط. ولقد أرسلت الجمعية الوطنية نداءات برقية إلى الحكومات والشخصيات العربية في سورية ولبنان ومصر والعراق والسعودية، ولكن التلبية كانت ضعيفة جداً فلم يصل مقدار المساعدات التي جاءت إلى (500) جنيه منها ما تبرع به زعيم مصر سعد زغلول بمبلغ مئة جنيه وزعت على الفقراء طعاماً وأكسية وخياماً، وخاب أمل الأملين بالتعويض والبيوت الجديدة، وطال الأمر وصاروا يعيدون النظر في موقفهم ويهونون على أنفسهم ما عظموه من صدوع وتشقق، ويسارعون إلى ترميمها والعودة لها، وأعلنت البلدية وجوب مراجعة المهندسين قبل العودة إلى البيوت، فصار الذين كانوا يحرصون على إثبات كون بيوتهم متصدعة آيلة للانهيار ويحرصون على إثبات عكس ذلك، ويلحون على المهندسين السماح لهم بالعودة إلى بيوتهم. وكانت الزلزلة من أسباب إقبال بعض الناس الميسورين قليلاً أو كثيراً على إنشاء بيوت جديدة بالأسلوب الجديد مادة وشكلاً في الجبل الشمالي في الدرجة الأولى والجنوبي، وعدنا إلى بيتنا بعد سد الصدوع والشقوق الطفيفة التي ظهرت في بعض جدران الغرف.

***

25

وفاة حافظ آغا طوقان وأثرها وشيء عنه :

ولم يمض على الزلزلة إلا أيام حتى مرض حافظ آغا طوقان بالرئة، وكان في ذلك أجله، وكنت أنا وفريد العنبتاوي مازلنا لاجئين مع أسرنا في مدرسة النجاح، فاهتممنا بمرضه وأهمنا وجزعنا، وكنا نتردد كل يوم على بيته لزيارته والسؤال عنه. وقد حزنا لموته وبكيناه، لأن صداقته قوية حميمة قامت بيننا أنا وهو وفريد العنبتاوي وأمين التميمي والدكتور مصطفى بشناق خاصة، وقد توطدت في ظل الحركة الوطنية والنشاط الوطني منذ سنة 1919، وكان وظل من أقوى أركانها في نابلس وفي فلسطين، وصار بارزاً كزعيم من زعماء الحركة الأقوياء الغيورين الذين لا مطمع لهم في نفع ولا غاية خاصة، ويساعده على هذا ما يسره الله من ثراء غير يسير. وكان يبذل من ماله في سبيل الحركة أكثر من غيره ممن هم أغنى منه. وكان في ثروته عصامياً، فقد أنشأ مع أخيه عبد الفتاح صبانة جديدة خارج المدينة قرب دير اللاتين وصارا يشتغلان بصنع الصابون بالإضافة إلى الإستمرار في الالزام بالأعشار. وكان حافظاً آغا مرناً طيب القلب فبرز ونال المحبة، وكان كل هذا في زمن الدولة العثمانية. وكان من بروزه أنه صار عضواً في مجلس إدارة المتصرفية مرة، وعضواً ممثلاً لنابلس في مجلس الولاية العمومي مرة ولقد وقع الإحتلال الإنكليزي وحافظ آغا ذو وجاهة وذو ثروة وذو عاطفة وطنية وقلب طيب ويد سمحاء، وكان انتسابه لآل طوقان ما يزيد في بروزه وقوته في عهد الإحتلال. ومنذ سنة 1918 أي منذ أوائل إحتلال نابلس ونحن وإياه وفريد العنبتاوي وإبراهيم القاسم العبد الهادي والدكتور مصطفى بشناق وأمين التميمي في صف واحد. مكونين كتلة وممثلين للتطرف في الحركة والنزاهة في القصد. وكان الحاج توفيق حماد رئيس الجمعية الوطنية وزعيم نابلس في الظاهر تحت تأثير الشيخ عمر زعيتر في كثير من المواقف، فكانت كتلتنا تقف بقدر ما يمكن ويتسع أمام أي سياسات شخصية. ولم يكن حافظ آغا سريع المبادرة والبداهية. وكان لابد لموافقته من إحاطته بمؤثر نافذ، وكان هذا المؤثر عليه هو فريد العنبتاوي وصار في المواقف الوطنية معروفاً بالجرأة والأقدام والنزاهة، وكان ديوانه مجمعاً لنا ومركزاً للحيوية الوطنية، وكنا نسميه (بيت الأمة)، أخذاً من تسمية بيت الزعيم المصري الكبير المشهور سعد زغلول، وعرف هو أن ما صار له من شهرة وبروز إنما كان بسبب التقائنا معاً، فازداد تمسكاً بنا. وكان يقف معنا حينما نختلف مع الحاج توفيق حماد والشيخ عمر زعيتر. ووقف معنا ضد إبن أسرته سليمان عبد الرزاق طوقان حينما كان حليفاً لراغب النشاشيبي ومناوئاً للحركة الوطنية.

ولقد كان لموته علينا خاصة وعلى اصدقاءه الصميمين ثم على الحركة الوطنية في نابلس وفي فلسطين بصورة عامة تأثير غير يسير، وقد فقدنا بفقده صديقاً صدوقاً، والحركة فقدت ركناً قوياً من أركانها. ولقد أوصى لمدرسة النجاح بثلاثمائة جنيه حينما عرف بدنو أجله، فكان في وصيته هذه مبتكراً للطريقة، ولو أنها قلما اتبعت بعده. وكان له مشهد جنازة عظيم، فأقفلت المدينة له. وقد اقمت له حفلة تأبين في ساحة مدرسة النجاح نوهت في خطابي فيها بأخلاقه

ووطنيته وإخلاصه وسماحة نفسه ويده وقوة مواقفه. وفعل مثلي خطباء آخرون من نابلس وغير نابلس، رحمة الله عليه رحمة واسعة.

***

26

قصة عمارة المسجد الأقصى وما بذله الحاج أمين والمجلس من جهود في سبيل ذلك:

وفي فترة عملي في مدرسة النجاح اشتد اهتمام الحاج أمين الحسيني بعمارة المسجد الأقصى، وقد بدأ اهتمامه بذلك قبل انتخابات المجلس الإسلامي الثانية، واستمر إلى ما بعد تلك الفترة، وقد سجلت ما كان في صدد ذلك من أحداث وأمور في دفاتري القديمة، حيث كانت هذه المسألة من أحداث فلسطين الإسلامية الهامة، وإن لم يكن لي نشاط مباشر فيها. وهذا ما جعلني أدون ما دونت عنها في دفاتري الأولى، وأثبته أيضاً حينما اعدت التدوين مع ما تذكرته مما لم أكن دونته قبل، ولا أجزم أن ما أورده هو كل ما كان، ولكنه يعطي صورة عن هذه المسألة التي كانت من أهم مشاغل المجلس والحاج أمين منذ سنة 1923.

ولقد لاحظ بعض المهندسين تشققاً في عضائد وسقف قبة المسجد الأقصى (غير قبة الصخرة) في سنة 1923، فنبهوا الحاج أمين إلى ذلك، فاهتم اهتماماً عظيماً حتى صار أكبر هَمٍّ له، واستدعى كبار المهندسين من تركية ومصر وأنحاء فلسطين، وطلب منهم عقد اجتماع مشاورات، وقد قرروا فعلاً وجود خطر على المسجد، ووجوب الاهتمام لتداركه، واختاروا من بينهم المهندس التركي المعماري الشهير كمال بك ليتولى الإشراف على العمل الذي كان يقتضي رفع الأركان التي تقوم عليها القبة وتجديد إنشائها، على أن تبقى القبة

قائمة. وظهر أن الأمر يحتاج إلى مبالغ كبيرة لا طاقة لصندوق الأوقاف بها، فأرسل المجلس وفداً الى الهند مؤلفاً من الشيخ محمد مراد عضو المجلس والشيخ ابراهيم الانصاري وجمال الحسيني تمكن من جمع نحو عشرين ألف جنيه، وأرسل وفداً الى الحجاز من ا لشيخ محمد مراد والشيخ محمد تفاحة، ونال من الملك حسين تبرعاً بمبلغ نحو اثني عشر ألف جنيه، ثم أرسل وفداً آخر إلى الملك لأن المبالغ لم تكف، ونال تبرعاً ثانياً بنحو خمسة وعشرين الف جنيه، وأرسل وفداً إلى الإمارات العربية الواقعة على الخليج العربي، وكان مؤلفاً من الحاج أمين نفسه ومن أمين التميمي عضو المجلس ورشيد الحاج ابراهيم، واستطاع ان يحصل على نحو (12) ألف جنيه. وذهب الحاج أمين إلى مصر واستطاع أن يحصل من الملك فؤاد على (5) آلاف جنيه، ومن الأوقاف المصرية على مبلغ مثل ذلك. وبذل المجلس جهوداً أخرى في سبيل جمع التبرع من انحاء فلسطين وسورية ولبنان، حتى بلغ مجموع ما جمع نحو مائة الف جنيه. وقامت ورشة عمل كبيرة بإشراف وجهود كمال بك التركي ومساعدة المهندس رشدي الامام الحسيني وامتدت بضع سنين منذ سنة 1924، وقد تم العمل الأصلي وهو تجديد أركان قبة المسجد الأقصى التي كان في جهة المحراب والمنبر وتزييناتها. ولم يستنفد هذا العمل إلا نحو ثلث المبلغ.

تعميرات أخرى في الحرم:

وحينئذ رأى الحاج أمين والمجلس إجراء إصلاحات وتزيينات في مسجد الصخرة وفي داخل الحرم وفي البناء الذي يتخذه المجلس والأوقاف مركزاً، وهو عند أحد أبواب الحرم، ولقد كانت رقائق القيشاني الفسيفسائية التي يحتاج اليها في تزيينات جدران المسجدين الداخلية تصنع في تركيا، ويكلف صنعها وجلبها مبالغ كبيرة، فاقترح كمال بك إنشاء مصنع خاص لها في القدس للتوفير وتم ذلك. ولقد تم كل هذا وبلغت التكاليف (75000) جنيه.

إنشاء فندق الأوقاف في مأمن الله:

ولقد خطر للحاج أمين والمجلس حينما رأوا وفراً من المال أن ينشئوا عمارة تدر ريعاً للأوقاف في أرض من مقبرة مأمن الله خارج المدينة القديمة، وكان التفكير في البدء إنشاء مخازن وفوقها مكاتب، ولكن يهودياً اسمه بارسكي تقدم بفكرة إنشاء فندق بدلاً من ذلك، وأظهر استعداده لدفع 10٪ من نسبة التكاليف أجرة سنوية، ورأى المجلس العرض مغرياً فوافق عليه، ووضعت التصاميم وبوشر بالعمل دون حساب دقيق للكلفة وكيفية تسديد ما يزيد عن المبلغ من التبرعات، وكان في ذلك الحرج الشديد، فقد بلغت اكلاف الفندق نحو (70000) جنيه، واضطر المجلس الى استدانة (30000) جنيه من البنك العثماني بفائدة 7٪، وإلى سحب نحو (12000) جنيه من أموال الأوقاف، ولم يكن المجلس قد ربط اليهودي بعقد قوي ملزم، فاقترح بعض أعضاء المجلس أن يعلن تأجير الفندق بالمزايدة، ودخل صاحب فندق فاوست الألماني منافساً لليهودي، وظهر أن عرض اليهودي أكبر من عرض الالماني، فرجح اليهودي. (وكل ما تقدم جاء في مدوناتي السابقة التي دونتها في سنة 1936 وكنت حديث عهد بالأحداث وهو مما سمعته ومن مصادر عديدة، وقرأته من الملفات حينما صرت مديراً

عاماً للأوقاف، وصار لي فرصة للإطلاع عليها في المناسبة).

الضجة التي أثارها الشيخ خليل الخالدي بسبب بناء الفندق في مقبرة مأمن الله:

ومما لم أدونه وتذكرته أن الشيخ خليل الخالدي وكان رئيس محكمة الاستئناف الشرعية أثار ضجة ضد المجلس، رغم كونه موظفاً لدى المجلس، لأنه اقتطع لهذا المشروع قسماً من مقبرة مأمن الله، زاعماً بأن ذلك حرام، وأن فيه إهانة لمن كان مدفوناً في المقبرة من صلحاء المسلمين ومجاهديهم وأوليائهم وعلمائهم. وظلت هذه الفضيحة تلاحق المجلس في مناسبات عديدة.

ومما تذكرته ولم أدونه أيضاً أن اليهودي المستأجر افلس بعد سنتين أو ثلاث، وهرب واستولى المجلس على أثاث الفندق وباعه، وصار أمر تأجير الفندق كفندق متعثر أو صار يؤجر أقساماً، وصار المجلس في حرج شديد سواء في أمر تسديد قرض البنك العثماني وفائدته، أم في أمر ما أخذه من أموال الأوقاف ولم يرد إليها. وكانت مصالح الأوقاف في حاجة شديدة إليها. لأن ما كان يرد من ريع العمارة لم يكن ليسدد هذه الأموال بل وفائدة أموال البنك.

استطراد إلى أخطاء مالية وإدارية كان يقع فيها المجلس الإسلامي وتعليق عليها:

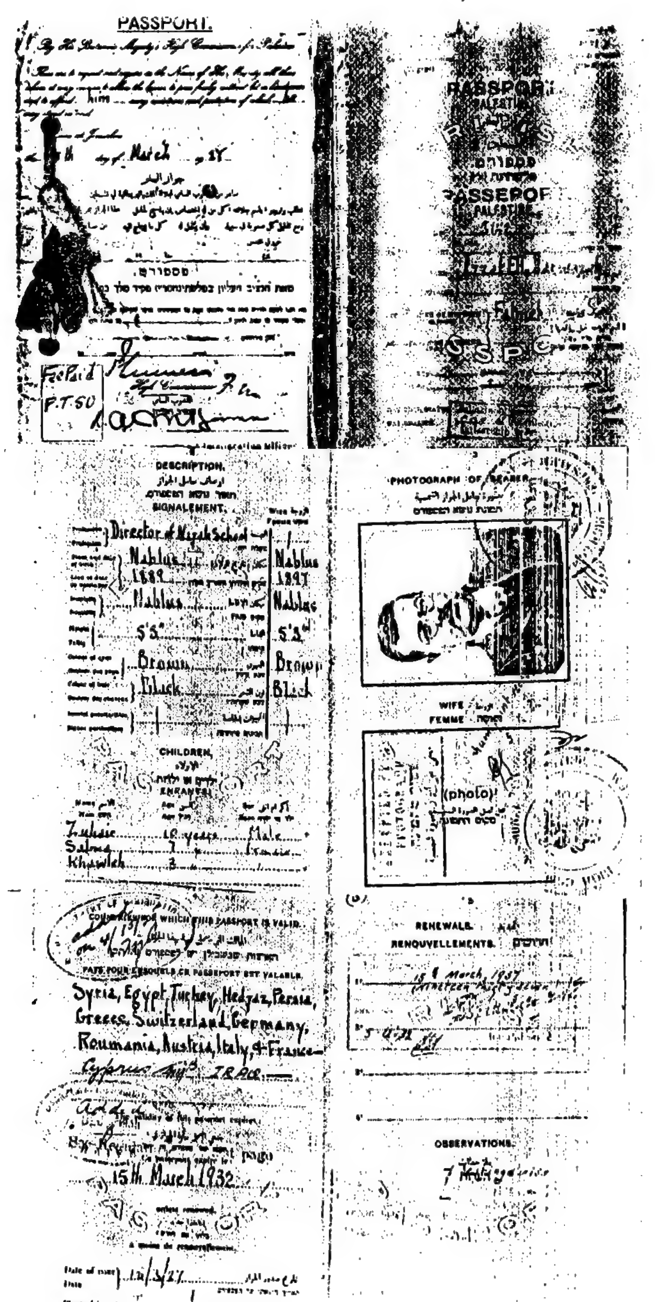
وأقول أن مشروع الفندق وما وقع المجلس فيه من أخطاء وحرج ليس هو الوحيد في حياة المجلس وأعماله، بل يمكن أن يورد أمثلة أخرى على ذلك، كالتوظيف والنفقات مثلاً، إذ كان الإخلاص والولاء الشخصي للحاج أمين وللأعضاء هو المهم في الدرجة الأولى والحامي للموظف في وظيفته. وما يكون بعد ذلك من إتقان الموظف لعمله أو أخلاله بواجبه أو اهماله له بل وسوء الإستعمال فيه غير مهم. ولم تكن حسابات المجلس وموازنته قائمة على تدقيق وجد، وكان كثيراً ما يؤمر بصرف نفقات وإحداث وظائف أثناء السنة دون أن يكون ذلك مستنداً الى موازنة أو قرارات رسمية، وبناء على خاطرة خاطفة خطرت أو مصلحة خاصة بدت، ولقد ظهر أثناء التدقيق في حسابات المجلس حينما استلمت مديرية الأوقاف العامة وكالة أولاً ثم أصالة، أن هناك مبالغ كبيرة أمر الرئيس بصرفها وصرفت دون إستناد إلى موازنة أو قرارات او موجود نقدي، وقد أدى هذا بالاضافة إلى مشروع عمارة الفندق الذي كان عبئاً مالياً باهظاً إلى ضيق شديد طرأ على المجلس، وجعله يتصرف أولاً في أموال كانت في صندوق الأوقاف أمانات واجب ردها لأصحابها، وثانياً يقصر في دفع المرتبات، وكثيراً من النفقات المستحقة بموجب الموازنة لمتعهدين وغير متعهدين في اوقات استحقاقها، وثالثاً يعمد إلى إلغاء وظائف عديدة أحدثها وأعمال كان أقدم عليها بدافع من الخواطر العابرة. ورابعاً بخفض مرتبات الموظفين.

موقف أحمد حلمي باشا عبد الباقي مراقب الأوقاف العام من هذه الأخطاء:

ولقد كان أحمد حلمي باشا تولى مهمة مديرية الأوقاف العامة باسم مراقب الأوقاف العام بضع سنين، ولقد كانت هذه الأمور تجري قبل استلامه للمهمة، ولم تكن عمارة الفندق قد بوشر بها، فلم يكن نقص مالي محسوس، وهذا إنما وقع في عهده. ولقد لمست مناقضات في موقفه حيث اطلعت على تقارير شديدة مرفوعة منه للمجلس فيها نقد لعدم تقيد المجلس بنظام

الميزانية وأرقامها وبنودها. ورأيت في نفس الوقت تصحيحياً بخط يده في ميزانية تم التصديق عليها. ولقد كان الرئيس يأمر أمين الصندوق مباشرة أو مأمور أوقاف القدس شفوياً بصرف مبالغ خارجة عن أرقام الميزانية وحدودها وتحملها، فينفذ أمين الصندوق أو مأمور الأوقاف الأمر بعلم من أحمد حلمي أحيانا وبغير علمه أحياناً، وكان أحد حلمي يحتج أحياناً ويسكت أحياناً، ويظل ذلك يتكرر. وكان عليه ان يستقيل فلم يفعل، بل لقد رأيت له هو الآخر أوامر صرف خارجة عن الميزانية والقرارات استجابة لطلب من الرئيس، أو تنفيذاً لفكرة استهوته، ولقد رأيت له أجوبة على أسئلة من الرئيس أو المجلس فيها فتاوٍ ومخارج وتسويفات لما كان يريد الرئيس أو المجلس ان يفعله و يحدثه أو ينفقه، ولا يكون له سند من ميزانية وموجود نقدي. ويظهر أن ظروفه الخاصة كانت تجعله يتحمل ذلك، ويقع فيه، وأنا أعرف شدة التزامه وتزمته، ولقد ترك حال ما تسنى له ذلك، حيث استلم مديرية البنك العربي الذي انشأه عبد الحميد شومان في سنة 1930، وترك مالية المجلس في ارتباك شديد، واستلم مهمته جمال الحسيني ولكنه لم يستطع أن يعالج الأمور، وظهر عليه الملل وقلة الاهتمام وقلة الخبرة. أيضاً، وحال ما عرض عليه ان يكون سكرتيراً للمجلس وافق وتخلى عن مهمة مديرية الأوقاف فكلفني المجلس باستلامها، ولقد وجدت ارتباكاً شديداً في مالية وأعمال مدرسة الأيتام التي كان يتولاها اسحق درويش، فطلبت من فؤاد سابا فحص حسابات المدرسة، ولبث يعمل نحو شهرين وهو غارق في متاهات الحسابات، ثم قدم تقريراً فيه مخالفات كثيرة عالجناها في جملة معالجاتنا لما كان من أخطاء ومخالفات مالية، وحتى استطعت تحت ضغط الضائقة المالية الشديدة التي كان يعانيها المجلس أن أنظّم أمور الحسابات والموازنة، وأن أوقف المخالفات، وأن الزم الجميع بنظام مالي وضعناه، فسارت أمور المجلس الحسابية والمالية بعد ذلك على مايرام مما سوف افصله فيما اكتبه بعد فترة عملي في مديرية الأوقاف العامة، وأشهد الله على أن ما شرحته لم يكن لإبراز أثري ومعالجاتي، ولكنه مما حدث ورأيت تدوينه للعبرة والتاريخ.

* * *



جواز السفر الفلسطيني الصادر باسم عزة دروزة في القدس 1927/3/15 ينتهي في 1932/3/15 برقم 5142 وقد تمدد لغاية 1937/3/15 .

27 عملي في مأمورية أوقاف نابلس:

لقد ذكرت سابقاً ظروف تعييني لمأمورية أوقاف نابلس، وكان ذلك في خريف عام 1927، وقد شغلت هذه الوظيفة نحو خمس سنين، أي إلى أواسط سنة 1932. ولقد كان مجال النشاط الموضوعي فيها محدوداً، فهو لا يعدو الإشراف على سلامة ونظافة المساجد وخدماتها المتنوعة وعلى عقارات الأوقاف وتعميرها وحسن استغلالها وجباية ريعها. ولم يكن في نابلس عقارات وقفية كبيرة، ومع ذلك فقد استغرقت في العمل كعادتي في أي عمل باشرته، وبذلت جهودي في سبيل التحسين والانتاج.

نشاطي في تحسين حالة المساجد:

ولقد كان الحاج نمر حماد الذي خلفته في العمل ركّب على أحد أحواض الجامع الكبير حنفيات لكي يتوضأ الناس بماء نظيف غير معرض للتلوث كما كان ذلك في الأحواض التي كانت موجودة في المساجد، فعممت ذلك على جميع أحواض مساجد نابلس تدريجياً حسب إمكانيات الموازنة، وكانت مراحيض المساجد في حالة مزرية من حيث البناء والمياه والمجاري فبذلت جهدي تدريجياً كذلك في ترميم وتجديد ما أمكن ترميمه وتجديده، وإصلاح أرضيته وتركيب سدادات على فتحات المراحيض لمنع الجرذان، وتركيب مواسير وحنفيات في بيوت الماء بدلاً من الأقنية. وكنت أهتم لنظافة المساجد فأدور عليها من آن لآخر وفي أوقات مختلفة لمراقبة نظافتها، وأحث الخدم على ذلك، وعنيتْ بتقوية إضاءتها، وكانت تضاء بمصابيح تشعل بالكاز معلقة بالسقوف، فاشتريت عدداً من المصابيح المسماة (لوكس)، أي ذات الضوء الأبيض القوي بالنفخ التي وصفتها سابقاً، ووزعتها على المساجد، ولم تكن الكهرباء قد جاءت لنابلس بعد.

استعادة زوايا وقفية مهملة وتحويلها الى مخازن وإبقاء بناية لمركز الأوقاف:

وكان في الشارع الطويل القبلي من الشرق أي قبل الوصول من الشرق الى ساحة جامع النصر زاوية تحت يد آل زيد، فيها محراب وقاعة، وكانت مخزناً لأخشاب وفوارغ يضعها بعض الناس، ولا يقام فيها صلاة ولا أوراد فاستعدتها بسهولة، لأن معالم وقفيتها وإسلاميتها العامة ظاهرة، ودون أي اعتراض من آل زيد، لأنهم ليس لهم أي ممارسة فيها، وحولتها إلى مخزن كبير صار يدر نحو عشرين جنيهاً سنوياً على الأوقاف. ولم يتكلف ذلك إلا نحو مائة جنيه، ثم أنشأت على سطحها بناية من ثلاثة غرف وشرفة (بلكون)، وعملت لها درجاً من الشارع، واتخذتها مركزاً للأوقاف، وكانت الأوقاف تدفع نحو خمسة وعشرين جنيهاً في السنة أجرة مركزها، ولم تتكلف العملية إلا نحو مائتي جنيه. وكان في نفس الشارع من الناحية الشمالية مكان كان يتخذ محكمة شرعية، وكان مهجوراً وفيه محراب وعلامة وقفية ظاهرة، وكان الناس يتخذونه مخزناً للفوارغ، ولم يكن لأحد دعوى وممارسة عليه فاستعدته بيسر، وأنشأت في جبهته مخزنين كبيرين وصارا يدران على الأوقاف نحو ثلاثين جنيهاً بكلفة لا تزيد عن مائة وخمسين جنيهاً. وكان بعده وقريباً منه مكان آخر

يسمى الشيخ بدران فيه محراب وفي جانب منه قبر لصالح يسمى بنفس الاسم قرب شباك يقرأ الناس له الفاتحة، ويربطون بحديد شباكه (نافذته) الخيوط والخرق، وكان هو المكان الذي يسمى كتّاب الشيخ مسعود في طفولتي، والذي ذكرته سابقاً، وينزل إليه بدرجات، ولم يكن لأحد عليه ممارسة ويد فاستعدته وأبقيت القبر في مكانه، وحولت باقيه وهو واسع إلى مخزن كبير صار يدر على الأوقاف خمسة وعشرين جنيهاً بكلفة نحو سبعين جنيهاً. وكان في نفس الشارع إلى الغرب مكان آخر مهجور، وكان يتخذ قديماً كتّاب وفيه قبر ومحراب، فاستعدته أيضاً وأبقيت القبر مكانه وأنشأت في بقيته مخزناً يؤجر بعشرة جنيهات بكلفة نحو خمسين جنيهاً.

إنشاء مخازن على أرضية جامع النصر وإعداد السطح لإنشاء مسجد جديد عليه:

وكان جامع النصر قد تصدع وانهدم على اثر الزلزلة كما ذكرت قبل. فاتفقت مع المجلس على هدمه بالمرة وملء أرضيته الواطئة العميقة ورفعها لمستوى الشارع ، وإنشاء مخازن على واجهاتها القبلية والشرقية والغربية، وانشاء مسجد جديد على سطح هذه المخازن، وإبقاء الواجهة الشمالية لإنشاء دورة مياه للمسجد الجديد. وصرنا ننفق كل ستة أشهر مبلغاً من المال على المشروع، وقد أمكن في فترة عملي مأموراً للأوقاف إنجاز إنشاء المخازن والواجهات الثلاث بعد رفع الأرضية الى مستوى ساحة المسجد والسراي والشارع القبلي والغربي، وبلغ عدد المخازن التي أنشأتها على هذه الواجهات خمسة عشر مخزناً كبيراً بأبواب واسعة مبلطة مجصصة، كان الواحد يؤجر بخمسة وعشرين جنيهاً، ووضعنا المخططات لإنشاء المسجد فوقها مع دورة مياهه في الواجهة الشمالية الأرضية، وأنشأنا من بين المخازن مطلعاً عريضاً للسطح ليكون مطلع ومدخل المسجد، ولما صرت مديراً للأوقاف العامة اتفقت مع المجلس على تخصيص مبلغ معين كل سنة لإنشاء المسجد، وانتظرنا حتى يتجمع مبلغ يمكن مباشرة البناء به باطمئنان، وخرجت من فلسطين سنة 1937 لعقد مؤتمر في بلودان للاحتجاج على تقسيم فلسطين على ما سوف أشرحه بعد، وانفجرت البلاد ببوادر الثورة من جديد بعد خروجي، ووضعت السلطات يدها على المجلس والأوقاف، وعزلت الحاج أمين من رئاسته وعزلتني من مديرية الأوقاف.

قيام المسجد حسب التخطيط بعد الحرب العالمية الثانية :

وتعثر مشروع المسجد مدة غير قصيرة، ثم بدأ يأخذ طريقه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حتى تم، وقد زرت نابلس في سنة 1964 بعد غياب سبع وعشرين سنة، فرأيت مسجداً كبيراً مشرقاً يشرح الصدر فقرّت عيناي وصليت فيه وشكرت الله، وقد أنشئت له دورة مياه حسنة، ومأذنة جديدة، وصار يعمر بالمصلين.

ضبط أراضي وقفية مهملة وبيع بعضها وإنفاق الثمن على الإنشاءآت:

وكان للأوقاف قطع عديدة من الأرض الصالحة للبناء في أطراف المدينة تائهة إن صح التعبير، فتعاقدت مع مساح وعملت لها خرائط وَثَبَّتُ يد الأوقاف عليها، وقد بعنا بإذن المحكمة الشرعية بعض مقاسمها للذين انهدمت مساكنهم في الزلزلة، وصرفنا ما أخذناه على التجديد والتعميرات المذكورة آنفاً.

اهتمامي لخطب الجمعة:

وكان الخطباء يخطبون خطباً تقليدية فارغة، فصرت أكتب خطباً أو مشاريع خطب فيها مواضيع اجتماعية وأخلاقية ووطنية وجهادية مرصعة بالآيات والأحاديث، وأنسخ منها نسخاً عديدة وأوزعها على الخطباء، وجمعتهم مرة ورجوتهم أن يحذوا حذوها فيجددوا في مواضيعهم تجديداً متفقاً مع أهداف القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة الاجتماعية والأخلاقية. ولم يذهب جهدي سدى، حيث لمست تحسساً وتجاوباً وتحسناً.

إهتمامي لمساجد القرى:

وكان معظم مساجد القرى التابعة لنابلس مهملة، في بعضها أئمة وحسب، والأئمة يعيشون على صدقات أهل القرية، فبذلت جهدي في إصلاح وتحسين هذه المساجد وتعيين أئمة يتقاضون رواتب من الأوقاف، وفي توزيع الحصر والمصابيح والمكانس على المساجد بقدر ما كانت تسمح به حالة ومالية الأوقاف، ولا أدعي أني استطعت أن أعمل كثيراً ولكني عملت ما أمكن، وكانت أقضية جنين وطولكرم وناحية بيسان تابعة في مساجدها وأوقافها لمركز نابلس، فبذلت جهدي في إيجاد حركة تعمير وإصلاح وتحسين في مساجدها. وقد أنشأت وكالة أوقاف في جنين وأخرى في طولكرم بسبيل ذلك، واهتممنا لمساجد قرى هذه النواحي، مثل اهتمامنا لمساجد قرى نابلس، ولقد دبت الحياة في أهل القرى حينما وجدوني مهتماً لمساجدهم، فصاروا يراجعونني لأجل إصلاح وترميم مساجدهم، وكنت أتفق معهم على مقاسمة النفقات، حيث يجمعون بعضها وتدفع الأوقاف بعضها. وهكذا دارت حركة إصلاحية وتعميرية في مساجد القرى بقدر الإمكان أيضاً، وكان في قضاء طولكرم أرض وقفية إسمها الغابة تجري فيها مياه من بعض الينابيع والعيون، ولكنها كانت تستنقع وتسبب البعوض والملاريا، وكانت دائرة الأوقاف قبلي اتفقت مع سلطات الانتداب الصحية على عملية تجفيف، وقد انتهت العملية فترة عملي وصلحت أقسام كثيرة من الأرض، وصار يجري فيها مياه أقنية فتروي هذه الأقسام، فصرت أؤجر هذه الأقسام لمزارعين.

ومما كان من نشاطي في مأمورية أوقاف نابلس رحلة لي إلى سورية بسبيل ريع وقف فيها لمسجد البيك في نابلس، فقد عثرت بين أوراق أوقاف نابلس على حجة وقف شرعية مشروح عليها انها مسجلة في محكمتي نابلس ودمشق الشرعيتين، أوقف فيها شخص تركي مستعرب كان ضابطاً في نابلس، ثم تقاعد وذهب الى دمشق حيث قضى بقية أيامه فيها اسمه عثمان آغا أمون، حماماً في محلة العمارة في دمشق، وجعل ثلث ريعها لمسجد (البيك) في نابلس، وثلثيه لمساجد دمشق، ولم تكن إدارة أوقاف نابلس تستوفي حقها، فكتبت لصديقي الأمير بهجة الشهابي وكان يعمل في المحاماة في دمشق رجوته أن يبحث عن الحمام، فأجابني أنها موجودة حاضرة تحت إشراف إدارة أوقاف دمشق واستغلالها، وتؤجر بنحو 40- 50 جنيهاً ذهبياً في السنة، فأرسلت اليه وكالة بصفتي مأمور أوقاف نابلس للمطالبة بحصة مسجد تابع، وجاءني جواب بأن دائرة الأوقاف مستعدة للتفاهم على ذلك، واقترح أن آتي أنا لدمشق لحل الأمر معها.

فسافرت بالسيارة من طريق القنيطرة بعد الاستئذان من المجلس في صيف عام 1928

الى دمشق، والتقيت بالأمير بهجة وجددت معه عهد الصداقة، وبحثت عن الحمام في حي العمارة وزرتها، فوجدتها حماماً أنيقاً عامراً معروفة باسم حمام أمون. وزرت بعد ذلك مديرية الأوقاف وكان يتولاها الشيخ عبد القادر الخطيب زميلنا في المؤتمر السوري العام، وقد ذكرته في سياق هذا المؤتمر والتقينا كمعارف من القديم، وقد قال لي إن دائرة الأوقاف لم تضع يدها على هذا الحمام إلا مؤخراً، وأنها أنفقت الريع على إصلاحات ضرورية، ثم تم الاتفاق على أن يرسل إلى دائرة أوقاف نابلس رأساً أو بواسطة الأمير بهجة ثلث الأجرة اعتباراً من هذه السنة.

واغتنمت فرصة مجيئي الى دمشق لأول مرة بعد خروجي منها في تموز 1920 تلك الخرجة المشؤومة، فجددت عهدي بمعالمها، وعلمت أن إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري وهاشم الأتاسي ورفاق آخرون وكلهم أصدقاؤنا من عهد فيصل، تكتلوا لتجديد الحركة الوطنية وقيادتها في سبيل تحرير ووحدة واستقلال سورية بعد فتور الثورة السورية، وأنهم باسم (الكتلة الوطنية) وأسندوا رئاستها الى ابراهيم هنانو الذي كان برز زعيماً وطنياً مجاهداً، وقد عظم نشاط هذه الكتلة تحت زعامته، (وثم برئاسة هاشم الأتاسي بعد موته، وقادت الحركة الوطنية السورية).

وعلمت أن إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري في دمشق يعقدون اجتماعاتهم مع رفاقهم، وأنهما يقيمان في فندق فيكتوريا، فذهبت لزيارتهما، واستقبلوني مع إخوانهم بحفاوة الصديق الحميم. وكانوا في اجتماع عام لهم، فقالوا لي أنت من أهل البيت وأبقوني لحضور اجتماعهم وسماع مداولاتهم، ثم دعوني معهم إلى غداء أعده لهم لطفي الحفار في منزله. وقضينا سحابة ذلك النهار نتذاكر في القضية العربية وقضية سورية وفلسطين، وما يجب علينا إزاءها. ودعاني الأمير بهجة الشهابي لقضاء أيام في مصيف بلودان فذهبنا وقضينا خمسة أيام في فندق أظن أن اسمه (الملك جورج)، وكان غاصاً بالنزلاء، ولكنا وجدنا أسرّة لنا في ملحق خشبي له، وكان فندق بلودان الكبير في جواره في هذه الأثناء في دور الإنشاء لحساب الحكومة في عهد حكومة الشيخ تاج الدين الحسني. وقد شاهدنا البنائين والعمال وهم يعملون فيها، وذهبنا الى قرية بلودان التي كانت تبعد نحو كيلومتر عن فندقنا، وكانت قرية بدائية جل بيوتها من اللبن، وهناك بعض المصطافين يستأجرون هذه البيوت بدون فرش أو بفرش بسيط، ويقضون فصل الصيف. وذهبنا الى منتزه أبي زاد، وكان في حالة بدائية. (وحينما يقارن المرء صورة مصيف بلودان اليوم بفندقه الكبير الفخم الضخم وفنادقه المتنوعة الأخرى ومقاهيه ومنتزهاته وحوانيته وشوارعه ومساجده وكنائسه ومصيفيه يندهش من التطور العظيم الذي تم خلال أربعين عاماً. وهذا ما يشاهده المشاهد المسن ويندهش له حين مقارنته بما كانت دمشق وغيرها قبل خمس وأربعين سنة وبين ما صارت اليه اليوم).

سلسة الأحداث العامة والخاصة أثناء عملي في الأوقاف:

هذا ولقد كانت أحداث خاصة وعامة عشتها وشاركت في بعضها في نابلس وخارج نابلس أثناء فترة عملي في مأمورية أوقاف نابلس، كما كان مثل ذلك في فترة عملي في مديرية مدرسة النجاح، ولقد سجلت كثيراً من هذه الأحداث



زعيم الكتلة الوطنية إبراهيم هنانو - وعلى يمينه الرئيس هاشم الأتاسي - سعد الله الجابري - ويبدو في الصورة أقطاب الكتلة في مؤتمرهم بحلب : نجيب باقي - توفيق الشيشكلي - الشيخ عبد القادر السرمني - نعيم انطاكي - جميل مردم بك - احسان الشريف - رياض الصلح - فخري البارودي - عبد الرحمن الكيالي - حسن ابراهيم باشا .

المؤتمر العربي [illegible]

في ٢٠ حزيران [illegible] مدينة القدس برئاسة الرئيس الجليل موسى كاظم باشا الحسيني

— القـــرار —

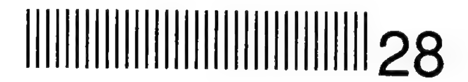
المثل

المؤتمر العربي الفلسطيني السابع المنعقد في ٢٠ حزيران ٩٢٨ بالقدس لممثل الفرق الفلسطينية العربية [illegible] الصهيونية الصادقة الآن يطالب بموجب ماله من الحق الطبيعي بانشاء حكومة ديموقراطية برلمانية • ان من واجب عصبة الامم الان ان تسعى لتشكيل حكومة برلمانية في فلسطين بموجب عهد عصبة الامم وبموجب الوعود والعهود المعطاة للعرب من الحلفاء • وبعد ان امتحنت فلسطين الحكم الاستعماري المطلق مدة عشر سنوات • ان فلسطين لا تقل في تقدمها المدني عن اخواتها من البلاد المجاورة العربية والتي تتمتع اليوم بقسط وافر بالنسبة من الانظمة البرلمانية المختلفة • ان سكان فلسطين [illegible] وان يبقوا ان يصبروا على نظام الحكم الحالي الاستعماري المطلق وهم يطالبون بما لهم من حقوق بتأسيس هيئة تمثيلية تضع دستورا لفلسطينها [illegible] ايجاد حكومة برلمانية •

والمؤتمر يقرر في ذات الوقت تأييد مقررات المؤتمرات السابقة فيما يتعلق بالمطالب الوطنية الاخرى •

أثناء مراجعتي لهذه الدفاتر، ودونت فيها مرة أخرى أشياء كثيرة لم أكن كتبتها سابقاً. وكما فعلت في الأحداث التي كانت في فترة مديريتي للنجاح سأفعل، فأسجل ما كتبت في دفاتري أو تذكرته من جديد من هذه الأحداث، وأكرر ما قلته حين سجلت أحداث فترة عملي في النجاح، من أن ما سجلته في دفاتري وما لم أسجله هو من الذاكرة، وقد يكون فيما سوف أورده ثغرات والتباسات في الوقائع والأسماء، لكن ذلك لن يغطي على ما فيها من حقائق ووقائع صحيحة بصورة عامة.

***



28 المؤتمر الفلسطيني الوطني السابع وظروف وكيفية انعقاده والتمثيل فيه:

ذكرت قبل في سياق تسجيلنا للمفاوضات التي كانت بيننا وبين ملز كيف كنا نتوق ونسعى لعقد مؤتمر جديد وطني، ليكون فيه ترميم لما طرأ على الحركة الوطنية من تصدع وفتور، وكيف كان مسعانا يتعثر بسبب نتائج انتخابات المجلس الإسلامي والمجالس البلدية، وتمازج الناس وبروز المعارضين نداً لابد من حساب حسابه في أي حركة ترميمية مثل هذه، ولقد كانت تلك المفاوضات وسيلة حسنة، فقد نشرتُ المذكرات التي تبادلناها مع ملز مع كتابه الأخير الذي يذكر فيه أن المندوب السامي كان يود أن يرسل اقتراحاتنا للوزير لو اقتنع بأنها تعبر عن رأي هيئة عامة، وكانت اقتراحاتنا سائغة في ذلك الظرف كمدخل للترميم والمطالبة بتعديل الموقف السياسي، وجرت المساعي من جديد حتى تم الاتفاق على عقد مؤتمر يحضره المجلسيون والمعارضون في عدد متساوٍ أو قريب من ذلك، وتوجه الدعوة إليه بتوقيع موسى كاظم باشا عن المجلسيين وعمر البيطار عن المعارضين ووجهت الدعوة من الزعيمين وانعقد المؤتمر في أواخر مايس 1928 برئاسة موسى كاظم في بناية مدرسة الأيتام، وعرف بالتعداد بالمؤتمر السابع، وشهده أكثر من مائة وخمسين مدعواً من مختلف الميول والأحزاب، وروعي فيهم أن يكون النصف من المجلسيين الوطنيين، والنصف من الميول والأحزاب

الأخرى. وكان مع الأسف في تركيبه أضعف مؤتمرات فلسطين، حيث حضره إلى جانب من عرف بجهاده وإخلاصه وصلابته وتطرفه أناسٌ عرفوا بموالاة الانكليز وبالتعامل مع اليهود وبضعف الوطنية والانتهازية والوصولية. وكنت أنا والحاج توفيق حماد وفريد العنبتاوي والدكتور مصطفى بشناق وإسماعيل آغا النمر ممثلين للجمعية الوطنية في نابلس، وكان عادل زعيتر وعبد اللطيف صلاح والحاج قاسم كمال والشيخ عبد الكريم صوفان ممثلين لحزب الأهالي، وحزب الأهالي كان يعدّ معارضاً وكان أحمد الشكعة وطاهر المصري يمثلان المعارضة الأصلية للمجلسية، وكان فارس المسعود وكامل عبد الهادي يمثلان حركة الزراع والقرى. وجرى النقاش في المطالب التي يجب أن يقررها المؤتمر ويتقدم بها للسلطات.

قرارات المؤتمر:

وكل ما أمكن الاتفاق عليه بين مختلف الميول وإقراره، هو طلب تعديل الدستور لإنشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي من الفلسطينيين العرب واليهود، وكانت حكومة الإنتداب قد منحت شركة يهودية استثمار معادن البحر الميت، فاقترح بعض الأعضاء الاحتجاج على ذلك، وطلبتُ توقيف تنفيذ الإمتياز إلى أن تقوم الحكومة الوطنية، وقُبل هذا الاقتراح أيضاً. ولقد خشينا نحن وزملاؤنا الوطنيون من مغبة إقتصار المطالب على هذه الاقتراحات التي قد توحي للإنكليز واليهود معاً بأننا تراجعنا عن الميثاق الوطني الذي وضع في المؤتمر الثالث، والذي فيه رفض الإنتداب ورفض وعد بلفور ورفض الهجرة اليهودية ورفض بيع الأراضي العربية لليهود، وقيام حكم وطني مستقل،

بلاغ

وزعت على بعض الناس بطاقات تتضمن دعوتهم الى قداس يقام في كنيسة القديس جورج بالقدس في ٩ كانون الاول سنة ١٩٢٨ شكراً لله على خلاص القدس ودخول المارشال اللنبي اليها ظافرا .

ان الامة العربية تحتج بشدة على منظمي هذه الدعوة المستنكرة الذين انما ارادوا بها اعطاء هذا اليوم صبغة دينية ينكرها عليهم العرب كل الأنكار .

ان الامة العربية لم تساعد الجيش الانكليزي على دخول بلادها على هذا الاساس الفاسد .

ولئن حارب العرب في صفوف الحلفاء ومكنوا الجيش البريطاني من احتلال هذه البلاد فلم يكن ذلك الا بناء على العهود المعلومة التي قطعتها حكومة جلالة ملك بريطانيا للملك حسين وبناء على وعود دولة فرنسا وانجلترا للعرب انفسهم بالاعلان الذي نشرتاه في ٥ تشرين اول ١٩١٨ والذي ضمنتا فيه للامة العربية استقلالها المنشود .

واذا اخلفت الدولتان بعهودهما ووعودهما هذه للعرب ووضعتاهم تحت حكم جائر يستمد قوته من السيف والمدفع ، فقبيح بمنظمي دعوة الاحتفال بخلاص القدس ان يشوهوا وجه الحقيقة ويفتروا على العرب وعلى انفسهم بهذه الكيفية الشائنة .

واننا نود بهذه المناسبة ان نذكر بعض الاجانب الذين يقطنون هذه البلاد ويعيشون من خيراتها انه لا يزال في نفوس العرب آباء وشمم ، وانهم اصبحوا لا يطيقون تسمدهم الحقارة في كل فرصة سانحة .

وان امناء السر يأملون ان كل عربي في هذه البلاد يمتنع عن حضور مثل هذه الحفلات التي يقصد بها اهانته واهانة آبائه واجداده الكرام .

القدس في ٢٦ جمادى الثاني ١٣٤٧
٩ كانون الاول ١٩٢٨

امناء سر اللجنة التنفيذية
المؤتمر العربي الفلسطيني السابع

مطبعة دار الايتام الاسلامية بالقدس

فقدمنا للرئيس اقتراحاً ليعرضه على المؤتمر فيه تأييد المؤتمر لجميع قرارات المؤتمرات السابقة القائمة على الميثاق الوطني، ونص على أن المطالب المقرر تقديمها للسلطات هي بادرة عملية للسير في تحقيق ذلك الميثاق، واستطعنا أن نجعل أكثرية المؤتمر تصوت على هذا الاقتراح.

ظروف وكيفية انتخاب اللجنة التنفيذية وأسماء أعضائها التي بقيت في ذاكرتي:

ثم جاء دور انتخاب اللجنة التنفيذية، وقامت مشاكل وتعقيدات بسبيل ذلك، فكل قضاء من أقضية فلسطين طلب أن يمثل فيها. وإزاء هذا الطلب الذي سوف يكون عدد المسلمين في اللجنة كبيراً، طلب المسيحيون أن يكون لهم عدد كبير متناسب أيضاً، وكان يجب أن يراعى في التسمية المجلسية الوطنية والمعارضة معاً،

وقد كان نتيجة ذلك أن تألفت من ثمانية وأربعين عضواً برئاسة موسى كاظم، ستة وثلاثون مسلمون يمثلون الأقضية الثمانية عشر في فلسطين، وهي القدس والخليل ورام الله وغزة وبئر السبع والمجدل ويافا والرملة وطولكرم ونابلس وجنين والناصرة وبيسان وطبريا وصفد وعكا وحيفا وجماعين[1]، حيث يكون من كل قضاء مسلمان، واحد يمثل الجبهة الوطنية المجلسية، وواحد يمثل الجبهة المعارضة. وعلى أن يكون للمسيحيين إثنا عشر ممثلاً يمثلون مختلف طوائفهم.

وقد سمِّيتُ أنا وعادل زعيتر عن قضاء نابلس، وأحمد الشكعة والشيخ عبد الكريم صوفان عن قضاء جماعين. ويرد لذهني أسماء ممثلي الأقضية الأخرى، سليم عبد الرحمن وهاشم الجيوسي عن طولكرم، وفهمي العبوشي وفؤاد قاسم عبد الهادي عن جنين، ورشيد الحاج إبراهيم ومعين الماضي عن حيفا، وعبد الرحمن النحوي وصبحي الخضراء عن صفد، والشيخ راغب الدجاني وعمر البيطار عن يافا، ويعقوب الغصين وشكري التاجي عن الرملة، وجمال الحسيني وعمر الصالح البرغوثي عن القدس، وصدقي الطبري عن طبريا، وخليل بسيسو ورشدي الشوا عن غزة، وفريح أبو مدين عن بئر السبع، وعبد الله جودة عن قضاء رام الله. وكان عوني عبد الهادي والشيخ عبد القادر المظفر أعضاء في اللجنة، ولكن لا أعرف أي قضاء مثلا. ويرد إلى ذهني أنه كان من أعضائها اسحق درويش وفخري النشاشيبي، ولا أعرف أي قضاء مثلا إذا كان ما ورد إلى ذهني صحيحاً. وقد أكون غلطت في بعض الأسماء التي ذكرتها، والراجح أني نسيت أسماء أخرى كانوا أعضاء في اللجنة.

وممن أتذكره من المسيحيين في اللجنة مغنم مغنم وعيسى العيسى وعيسى البندك وفؤاد سابا وشبلي الجمل والفرد روك ويعقوب فراج وإميل الغوري واسكند منسي وخليل السكاكيني، وقد أكون غلطت أيضاً في بعض هذه الأسماء، وعلى كل حال فقد كانت الأسماء تمثل المؤتمر بكل صفاته، حيث كان منها المخلص الصادق الصلب إلى جانب المعروف بضعف وطنيته وانتهازيته وموالاته للإنكليز وتعامله مع اليهود بشكل ما. وممن كان يقول بضرورة عدم التصلب والغلو والتطرف الخ..

السكرتيرون الثلاثة للجنة ومذكرتهما للسلطات:

وكان من مقتضى هذا العدد والصفات أن يكون للجنة ثلاثة سكرتيرين، فكانوا جمال الحسيني وعوني عبد الهادي ومغنم مغنم، وقد عقدت اللجنة بعد يومين جلسة تقرر فيها رفع مذكرة للحكومة الانكليزية بواسطة المندوب السامي، ولعصبة الأمم، تطالب فيها بتعديل صك الإنتداب والدستور لما فيهما من مناقضة لميثاق عصبة الأمم الذي يعترف بشخصية فلسطين وأهليتها للاستقلال بإرشاد دولة منتدبة مثل سورية والعراق والأردن، ولما فيهما في الوقت نفسه من تناقض من حيث أنهما ينصان على حفظ مركز العرب، في حين أن فيهما ما من شأنه الإخلال بهذا المركز. ثم تطالب بإنشاء حكومة وطنية فلسطينية مستقلة على أساس النسبة العددية للفلسطينيين على اختلاف أديانهم، ومسؤولة أمام برلمان فلسطيني منتخب، ويحصر مهمة الانتداب الانكليزي بمساعدة وإرشاد هذه الحكومة كما هو منصوص

---

(1) كانت جماعين في زمن الدولة العثمانية قضاء فطلب ممثلو نابلس أن يكون لها ممثلان اسوة بالأقضية لأن قراها كثيرة ووفق على ذلك.

عليه في ميثاق عصبة الأمم، وكما هو الأمر في سورية والأردن والعراق ولبنان، وقضت اللجنة سنة فاترة الهمة بسبب صفات أعضائها المتباينة، ثم دبت فيها الروح عقب ثورة البراق 1929، واستمر ذلك وقتاً ما، ثم فترت همتها، ثم دبت فيها الروح مرة أخرى في سنة 1933، ثم فترت همتها ثم تلاشت. وقام مقامها تعدد الأحزاب على ما سوف نزيده شرحاً في المناسبات الآتية.

موقف بعض النصارى من المؤتمر في صدد عددهم في اللجنة التنفيذية وتعليق عليه:

ومما جرى في المؤتمر أثناء البحث في عدد أعضاء اللجنة التنفيذية أن بعض المسيحيين ومنهم عيسى العيسى طالبوا بعدد كبير يفوق نسبتهم العددية بالنسبة لعدد المسلمين، وأثار هذا الطلب امتعاضاً في بعض الأعضاء المسلمين، فقال قائل منهم أن المسلمين كانوا دائماً يتساهلون ولا يسألون عن نسبة عدد المسيحيين في المؤتمرات واللجان والجمعيات، ويعطونهم أكبر من هذه النسبة، كما أنهم يسكتون عن العدد الكبير الذي يفوق نسبتهم أضعافاً مضاعفة في الوظائف الحكومية حباً بالتسامح والتضامن في العمل الوطني، وبرهنة على الوحدة الوطنية، وأن إثارة هذه المسألة بهذا الأسلوب تجعلهم يعيدون النظر في موقفهم من كل ذلك. ولقد انبرى غير واحد من المسيحيين وبخاصة مغنم مغنم وخليل السكاكيني للتنصل من هذا الطلب وشجبه، ثم تم الإتفاق على عدد الإثني عشر ممثلاً مسيحياً، وكان أكثر من مرة ونصف من نسبتهم العددية.

شرح لظروف كثرة موظفي النصارى:

وهذا الذي أسجله مسجل في دفتري الذي كتبته في سنة 1936، وقد سجلت تعليقاً على موقف بعض النصارى المطالب بعدد من المسيحيين أكبر من نسبتهم قائلاً أن هذا الموقف أول موقف يقفه المسيحيون ويطلبون فيه بصراحة ذلك الطلب، وأن هذا الموقف أدى إلى جعل كثير من المسلمين يخرجون من دائرة الهمس إلى دائرة التذمر العلني، مما ناله المسيحيون من مناصب ومراتب ومرتبات تزيد على نسبتهم العددية أضعافاً مضاعفة، وعلى حساب المسلمين باعتبارهم عرباً، وباعتبار نسبة الوظائف للعرب في الحكومة تجمع المسلمين والمسيحيين معاً باعتبارهم عنصراً واحداً مقابل اليهود العنصر الآخر. ولقد حاولت أنا ورفاق كثيرون من الوطنيين الوحدويين تهدئة هذه النغمة، وشرح ظروف كثرة المسيحيين التي ليست في الحقيقة نتيجة منافسة للمسلمين، وتعمد لاقصائهم عن الوظائف من جانب المسيحيين، وإنما هي نتيجة سياسة اتبعها الانكليز أملتها ظروفهم في فلسطين، فالإنكليز حينما جاءوا واحتلوا فلسطين، بدا شعور في بعض المسيحيين أن الدولة دولتهم لجامع النصرانية، وقد ذكرت كيف هتف واحد منهم هو شكري القرة في نابلس بالمسلمين قائلاً لا تخافوا يا إخواننا فالنصارى لا يمكن أن يضروكم، وسوف ترون منهم كل حماية وبر، مما أثار شعور النقمة والعزة في النابلسيين، وجعلهم يحاولون البطش به. والراجح أن الإنكليز أيضاً شعروا بجامع الوحدة الحزبية معهم، وحاولوا أن يعاملوهم على أساس ذلك. ولقد كان كثير منهم يعرف الإنكليزية أيضاً، فكان هذا وسيلة أخرى إضافة للتواصل والتعاطف، وقد أخذ الانكليز نتيجة لذلك عدداً كبيراً منهم تراجمة ومساعدين، واستمر هذا بنموّ دوائر الحكومة، حتى صار عدد كبير من النصارى موظفين حكوميين في مختلف

المجالات والمراتب. أما المسلمون فقد كانوا يتظاهرون بالعروبة والوحدة العربية، ومتعلقين بحركة فيصل وسورية، فلم يكن الإنكليز يطمئنون لهم.

موظفو المسلمين في الحكومة وتعليق على موضوعهم:

ولقد أخذوا منهم حقاً عدداً غير قليل للوظائف، ولكن ذلك كان بشأن الضرورة والتأنيس. أما الضرورة فلأن المسلمين هم الذين كانوا يتولون في الأغلب الوظائف في دوائر الحكومة العثمانية وبخاصة دوائر المحاكم والمالية والشرطة والدرك، وأما التأنيس فلأن الإنكليز جاءوا في البدء كأصدقاء وأعداء معاً، وهم في حاجة لمصالحهم الاستعمارية أن يستندوا على كل حال إلى أهل البلاد والنافذين منهم خاصة وهم المسلمون الذين كانوا الأكثرية الكبرى في العدد والملك والأرض والمصالح. غير أنهم كانوا في ذات الوقت يحرصون على أخذ العناصر اللينة أولاً، ومن العناصر ذات النفوذ من المسلمين الذين كان نفوذهم يقوم على الحكومة العثمانية وقوتها، وقد تهافتت هذه العناصر على الوظائف في العهد الانتدابي لأنها ظنت أن ذلك يحفظ لها بروزها ونفوذها. وقد ظلت هذه السياسة هي المتبعة في أغلب الأحيان، المسيحيون أولاً لأنهم موضع الثقة بجامع الحزبية الدينية، ولأنهم آلات نافعة طيعة غير ذات قوة وتقاليد في البلاد، ثم الطبقة اللينة من المسلمين التي يهمها رزقها، ثم الطبقة التي قام نفوذها على الحكومة في الزمن الغابر والتي ما زالت مستعدة لتمثيل دورها في الزمن الحاضر. وقد شجع الانكليز هذه الطبقة وجعلوا لأصحاب البيوتات والأسر العريقة مجالاً للظهور، وبمعنى آخر شجعوا ما يسمى بالارستقراطية. وكانوا يتصلون بالذين يحبون النفخة، والذين ليس منهم عليهم خطر، وصار كثير من هؤلاء يطمحون الى وظائف ومناصب الدولة وما تغدقه عليهم من مرتبات وما تتيحه لهم من بروز، ومن هؤلاء عينوا أول مجلس إستشاري حينما تبدلت الإدارة من عسكرية إلى مدنية، وهم اسماعيل بك الحسيني، وعارف باشا الدجاني الداوودي، وسليمان بك عبد الرزاق طوقان، وأمين بك عبد الهادي، وراغب بك النشاشيبي، ومحمود بك أبو خضرا، وعبد الفتاح بك السعدي. كما أنهم استمروا في هذه السياسة حتى كثر عدد أبناء الأسر العريقة في الوظائف المهمة بعض الشيء.

على أن من الواجب أن ننبه إلى أنه باستثناء مهنة التعليم التي كانت تتسع لعدد كبير جداً من شباب المسلمين، فإن نسبة المسيحيين في وظائف الحكومة ظلت أعلى بكثير من نسبتهم، وظل موظفوهم وبخاصة الكبار موضوع ثقة الحكومة أكثر من غيرهم.

استدراك في صدد موقف النصارى التضامني في الحركة الوطنية وبخاصة ضد الصهيونية:

هذا ولقد كتبنا تعليقاً في صدد موقف النصارى من الحركة الوطنية، وضعنا فيه الأمر في نصابه الحق، حينما ذكرنا حادث شكري القرة في بداية الفترة التي كانت عقب الاحتلال الانكليزي، فيحسن أن يرجع القارىء إليه بعد أن يقرأ تعليقنا، حتى لا يلتبس عليه الأمر في صددهم من جراء ما جاء في تعليقنا بناء على موقف عابر من بعضهم[1].

* * *

---

(1) ص 331 .

29

ظروف إنشاء جمعيات الشبان المسلمين في فلسطين:

في فترة عملي في مأمورية أوقاف نابلس، قامت في فلسطين حركة جمعيات الشبان المسلمين، وكان لي نشاط غير يسير فيها، وسجلت ذلك في دفاتري القديمة، ورأيت من المفيد إثباته مع ما تذكرته مما لم أكن كتبته.

ولقد سبق حركة فلسطين حركة باسم جمعيات الشبان المسلمين في مصر حيث تداعى في سنة 1926 فريق من المسلمين الغيارى المنتقين المثقفين المستنيرين الى إنشاء مثل هذه الجمعيات على غرار جمعيات الشبان المسيحيين، التي أخذت تنشأ في مصر وفلسطين وبلاد أخرى كانت محتلة من قبل الإنكليز.

شيء عن جمعيات الشبان المسيحيين وأنديتها:

وجمعيات الشبان المسيحيين هذه كانت من أعمال الجمعيات والمؤسسات التبشيرية البروتستانتية، وكان فيها بعض المغريات، إذ لها أندية وفيها مكتبات وتلقى فيها محاضرات ويقام فيها حفلات وألعاب. ويدعى إلى المحاضرة فيها رجال مشهورون في أوساطهم بالأدب والبحث والخطابة، ويعطى لهم حرية المواضيع في الغالب، إلا أن طابعها التبشيري أو الديني النصراني محسوس، إذ تفتح الحفلات والاجتماعات بآيات من الإنجيل، وإذ يتولى إدارتها قسيس ومبشرون وموظفون تابعون للمؤسسات التبشيرية. وكان انشاؤها أولاً في بريطانيا ثم في أميركا، ثم صارت عالمية منتشرة في أماكن كثيرة، وينتسب إليها كثير من كبار رجال المسيحية البروتستانتية في أمريكا وبريطانيا، وتنفق عليها النفقات الطائلة التي تجمع من التبرعات.

ومما يذكر في هذه المناسبة من ذلك، أن ثرياً أميركياً تبرع بمليون دولار لإنشاء نادٍ جديد لجمعية الشبان المسيحيين في القدس بعد الاحتلال الإنكليزي بمدة قصيرة، وكان النادي الذي كانت فيه جمعية القدس بناء عادياً، وقد أنشىء بالتبرع المذكور ناد فخم ضخم فيه القاعات العديدة، وفيه كنيسة وله حديقة فيها حوض سباحة، وله ملاعب للكرة والتنس. وألحق به فندق ومطعم فخمان، جعلت أجرتهما للناس معتدلة، وكان ينزل فيه من يأتي الى القدس، من أوروبا وأميركا، من الشبان المسيحيين للسياحة والاستطلاع، وقد استمر العمل في إنشائه بضع سنين وأثث بأثاث فخم. وأقيم حفل تدشين له حينما تم سنة 1932، دعا إليه اللورد اللنبي قائد حملة الحلفاء الذي احتل القدس في 9 كانون الأول 1917. ومن المحتمل أن تكون هذه الجمعيات أنشئت لتوعية وتثقيف الشباب المسيحيين توعية وثقافة نصرانية، ولكنها تعدت بريطانيا والولايات المتحدة، وصار ينشأ لها فروع وأندية خارجهما، ومن جملة ذلك البلاد العربية التي صارت تحت الاحتلال الانكليزي مصر والسودان أولاً، ثم العراق وفلسطين. وقد أنشىء لها فروع في كل من القدس ويافا وحيفا والناصرة ونابلس، وكان عملهما في هذه البلاد مغلفا بغلاف ثقافي اجتماعي، غير أنه كان محسوس البوادر والمظاهر، حيث كان بإدارة قسيسين ومبشرين، وحيث كانت الاجتماعات

والحفلات تفتح بآيات الإنجيل على ما ذكرنا قبل.

حركة جمعيات الشبان المسلمين في مصر السابقة لحركة فلسطين:

ومن المحتمل أن يكون المؤتمر التبشيري الذي عقد في القدس سنة 1926، وكان له ضجة ورنة على ما شرحناه سابقاً، قد حرك رجال مصر المثقفين المسلمين الغيارى إلى إنشاء جمعيات إسلامية وباسمها بقصد الدفاع عن الإسلام وتوعية وتثقيف المسلمين وبخاصة الشباب توعية وثقافة إسلامية، وكان من أبرز القائمين بهذه الحركة الدكتور عبد الحميد سعيد، وهو رجل مغربي الأصل مستقر في مصر، وربما كان مولوداً فيها، طويل القامة جسيم وسيم ملتح متطربش وثري نوعاً ما، ومثقف ثقافة إسلامية وغربية واسعة، وذو عارضة خطابية قوية وكان من أنشط مساعديه محب الدين الخطيب المؤمن الصادق وقد انضوى في جمعية الشبان المسلمين التي نشأت في مصر سنة 1927 عدد غير يسير من شباب المسلمين وكهولهم مصريين وغير مصريين ممن يتحسسون بالحس الإسلامي، ووضعوا لها دستوراً يصح أن يكون دستوراً لكل مسلم، فيه شرح وجيز ونافذ لمبادىء الإسلام السامية ومقاصده وأركانه، وواجبات المسلمين وبخاصة شبابهم في الالتزام بها والدفاع عنها ونشرها، وما سوف يكون لذلك من نشر أفضل دين وأسماه من مختلف النواحي الإيمانية والاجتماعية والسلوكية والسياسية، وأنشىء للجمعية في القاهرة نادٍ كبير فيه مكتبة حسنة وقاعات وأثث بأثاث حسن، وصار يقام فيه الاجتماعات والحفلات وتلقى فيه المحاضرات، واسترعوا بذلك انتباه الناس وحركوهم بالإحساس الديني الإسلامي ازاء ما يقوم في بلادهم من نشاط تبشيري نصراني لا ينحصر في النصارى، بل يتعداه الى غيرهم، وإلى المسلمين أيضاً، في ظل الاحتلال الانكليزي والهيمنة الانكليزية، وقد ترددت أصداء ذلك في فلسطين، ورأى الشباب الواعي من المسلمين، وأنا من الجملة، ان يحذو حذو مصر.

مؤتمر الأندية العربية في فلسطين واهتمامي لنجاحه:

ولقد كان في المدن أندية عربية عديدة، ومن الجملة نابلس، وكان لولب نادي نابلس أخي محمد علي، فحثثته على أخذ مبادرة الاتصال بالأندية الأخرى وتهيئتها لعقد مؤتمر بإسم مؤتمر الأندية العربية لبحث هذا الأمر. وتم الاتصال وتجاوبت الأندية واتفقت على عقد المؤتمر في يافا في مقر النادي العربي فيها، وجاءت الدعوات مفتوحة بدون أسماء الى أخي، فحرصنا على توزيعها على الشباب المتعلم من مختلف الميول، ونجحنا في حمل عدد كبير منهم على الاستجابة، رغم ما كانت تركته آثار المعارك الانتخابية من حزازات وحساسيات، وذهبنا من نابلس نحو خمسة عشر شاباً، وانعقد المؤتمر وشهده نحو (150) شاباً، من مدن وأندية يافا وحيفا وغزة والقدس واللد والرملة وعكا وصفد والخليل، وكان ذلك في أوائل سنة 1928.

محاضرتي في المؤتمر:

وألقيت محاضرة شرحت فيها حالة الإسلام والمسلمين، وضرورة توعية الشباب الإسلامي توعية وثقافة إسلامية للتماسك إزاء النشاط التبشيري الذي اشتد في ظل الاحتلال

الانكليزي، والذي هو رديف للاستعمار وموطداً بأسلوب ما، وذكرت ما جرى ويدر قبل سنتين في المؤتمر التبشيري البروتستانتي الذي انعقد في القدس.

موافقة المؤتمر على إنشاء جمعيات الشبان المسلمين:

ودعوت الى إنشاء جمعيات وأندية باسم جمعيات وأندية الشبان المسلمين في مدن فلسطين على غرار ما فعلته مصر، ووافق المؤتمر على الاقتراح، وقرر أن ينشيء جمعيات كجمعيات مصر مع تعديلات طفيفة، لتحول دون دخول الحزبيات والسياسات الشخصية والمحلية في هذا المشروع الإسلامي التثقيفي العام، وعاد مندوبو كل مدينة على عزم تأسيس جمعية وناد في مدينتهم، وعلى أن يجتمع مندوبوها بعد مدة ما اجتماعاً عاماً للنظر في أمر صلاتها ببعضها، وصلات جمعيات فلسطين بجمعيات مصر، ولقد اهتممنا في المؤتمر بعدم الاصطدام بين مختلف الأهواء، إذ أن النفسية التحزبية مازالت تغمر الناس من جراء ما جرى في المعارك الانتخابية التي لعب شيطان الحزبيات الشخصية والمحلية لعبته الكبرى وأنهك الناس بها، وسوغ لهم الإقدام على كل شيء مهما كان متناقضاً مع المبادىء الوطنية والأخلاقية. وكنت أكثر الناس تألماً من ذلك وأشدهم إسراعاً في التنصل منها، وبسبيل ذلك اهتممت ليشهد المؤتمر شباب من مختلف الميول في نابلس كما ذكرت، وإن كان من الحق أن أسجل أن أصابع ذلك الشيطان لم تتوقف عن الدس، واننا عانينا منها كثيراً، بالإضافة الى أصابع السلطات الإنكليزية التي لمحت ما وراء هذه الحركة من تعاضد ضدها.

ولقد بذلت جهدي مع رفاق مخلصين من الشباب، وتمكنا من جعل أربعين شاباً يوافقون على انشاء الجمعية في نابلس وحينئذ تقدمنا بطلب الرخصة وحصلنا عليها، واستأجرنا عمارة لآل النابلسي قرب المستشفى الوطني في طابق ثان فيها قاعة واسعة وعدة غرف لتكون نادياً ومركزاً للجمعية، وأثثناها بالشيء المستطاع المناسب، ثم اجتمعنا اجتماعاً عاماً تم فيه انتخاب هيئة إدارة، وانتخبت انا رئيساً، وكان من أعضاء الإدارة على ما بقي في الذاكرة راشد أبو غزالة، وراشد يعيش، والشيخ فهمي هاشم، وعادل التميمي، وآخرون لم أعد أذكرهم. وكنا منسجمين في أفكارنا وأخلاقنا وسلوكنا الوطني، ولقد حرصت أنا ورفاقي على السير بالنادي والجمعية بنشاط وإخلاص وهمة، وإبعادها عن الحزبية والسياسة المحلية والشخصية، ليكونا مثابة لجميع الناس وللطبقة المثقفة النيرة بنوع خاص.

مكتبة النادي وحفلاته الخطابية الأسبوعية:

وقد أنشأنا في غرفة من الغرف مكتبة زودناها بعدد من الكتب الإسلامية والاجتماعية والأدبية، وصرنا نقيم مساء كل خميس حفلة خطابية أخطب أنا وغيري فيها خطباً متنوعة المواضيع، بقصد التوعية الإسلامية والوطنية والإجتماعية.

دعوة خطباء كبار للخطابة فيه:

وكنا ندعو من حين لآخر بعض رجالات المسلمين والعرب للخطابة، ومن جملة من دعوناهم ولبوا وخطبوا الدكتور عبد الحميد سعيد والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي والدكتور محجوب ثابت والدكتور منصور فهمي وأمين الريحاني واسعاف النشاشيبي وخليل

السكاكيني وأحمد زكي باشا، ولقد بذل مندوبو المدن الاخرى بدورهم جهدهم لإنشاء جمعيات وأندية مماثلة.

جمعيات وأندية مماثلة في فلسطين:

وتم إنشاء جمعيات وأندية في يافا واللد والرملة وعكا وجنين وصفد وغزة وخان يونس والخليل وطولكرم والمجدل، وفي بعض القرى الكبيرة التي أذكر منها قلقيلية وسلوان، منها ما أنشأ جمعية وناديًا، ومنها من اكتفى بالجمعية دون ناد، وأخذت الجمعيات تنشط بسبيل أهدافها من التوعية والتثقيف وتحريك الوعي الاسلامي بخاصة، ومنها ما سار سيراً حسناً ومستمراً، ومنها من كان يتعثر بتأثير الحزبيات المحلية والشخصية.

تأخر القدس بسبب الحزبية ومبادرة أحمد سامح الخالدي ومحاولاته:

وتأخرت القدس فترة ما لشدة تأثرها بالحزازات الحزبية المحلية، ثم أقدم أحمد سامح الخالدي وكان مديراً لدار المعلمين الحكومية على إنشاء جمعية في القدس، ويظهر أنه لم يحاول إشراك جماعة الحاج أمين الحسيني محاولةً جادة، وبرغبة أكيدة، مما جعلهم يظهرون الجفاء والمقاطعة للمشروع. ولقد حاول أحمد سامح أن يجعل جمعية القدس أمًّا لجمعيات فلسطين، وبمثابة المركز العام، على أن يكون هو السكرتير العام، ولمحنا أنه أراد بذلك أن يثبت للإنكليز أن له مركزاً وأثراً قوياً في الأوساط الإسلامية، ولكن محاولته لم تنجح، وظلت جمعية القدس عادية كغيرها ومتعثرة بسبب ما قوبلت به من أوساط واسعة في القدس من جفاء ومقاطعة، ثم بسبب عدم إنشائها نادياً يكون ملتقى الأعضاء ومغذياً للأفكار وحافزاً للنشاط، وكان هذا من أسباب تعثر الجمعيات، التي لم تستطع إنشاء نادٍ لها، وسرعة ذبولها. خلافاً لفروع يافا ونابلس واللد والرملة وحيفا وعكا التي استطاعت أن تنشىء أندية.

انتساب الموظفين المسلمين كان من أسباب حياة الجمعيات:

ولقد كان نص عدم اشتغال الجمعية بالسياسة الواردة في دستورها من جهة، وانتساب كثير من موظفي الحكومة النصارى لجمعيات الشبان المسيحيين من جهة ثانية، مشجعاً وحافزاً لأصحاب الحس الإسلامي الوطني القومي من موظفي المسلمين على الانتساب للجمعيات وأنديتها وبنوع خاص المعلمين، وسكتت السلطات الانتدابية لأنها لم تجد مسوغاً للاعتراض والمنع، وهي تسكت عن نشاط جمعيات الشبان المسيحيين وانتساب الموظفين المسيحيين اليها، وكان انتساب الموظفين المسلمين للجمعيات من أسباب حياتها، حيث كانوا يدفعون شهرياتهم للجمعية بانتظام، ويواظبون على النادي لقضاء أوقات حسنة فيها ترفيه وفيها تثقيف وفيها لقاء مع المثقفين.

مؤتمرات الجمعيات وقراراتها:

ولقد عقدت الجمعيات مؤتمرين واحداً في آخر سنة 1928 وثاني في خلال سنة 1929، استعرض ممثلوها فيهما أعمال ونشاط جمعياتهم، وقرروا توثيق الروابط فيما بين الجمعيات بالزيارات المتبادلة، وطرح اقتراح إقامة مركز عام وسكرتيرية عامة، فلم يوافق عليه بسبب ما كان من حساسيات وحزازات وسياسات محلية، ومما تقرر في المؤتمر الثاني

وجوب بذل الجهد في انشاء مدارس اسلامية تابعة للجمعيات ذات منهج اسلامي قوي، والدعوة إلى جعل أول محرم عيداً إسلامياً عاماً باعتباره رأس السنة الهجرية، وإنشاء عيادات طبية في الأندية لمساعدة مرضى فقراء المسلمين طباً وعلاجاً، والدعوة إلى جعل أيام الجمع أيام عطلة إسلامية عامة، ومساعدة القرى التي ليس فيها مساجد على إنشاء مساجد، ونفذت غير واحدة من الجمعيات هذه القرارات ومن جملتها نابلس. وصار الوسط الاسلامي يحس بوجود الجمعيات وأثرها ونشاطها إحساساً قوياً.

مشاركات الجمعيات في النشاط العام:

ولم يقف نشاط الجمعيات عند هذا فإنها كانت ترسل إلى السلطات مذكرات بشأن حقوق المسلمين في التعليم والوظائف، وشاركت في الاحتجاج والاستنكار والاجتماعات الإسلامية حينما أخذ اليهود يتواقحون ويظهرون مطامعهم في البراق، وكانت تقيم في أنديتها حفلات تلقى فيها خطب متصلة من قُرب ومن بُعد بالحركة الوطنية والحقوق العربية، وبسياسة الحكومة المحابية لليهود الخ . . .

تجهم السلطات للجمعيات وبخاصة لجمعية نابلس وبرئاستي وما جرى في سياق ذلك:

وأخذ هذا يثير تجهم السلطات للجمعية، ولقد كنت أقوى المحركين لهذه الأمور، وكنت أمارس في الوقت نفسه مهمة سكرتيرية الجمعية الوطنية، وهي عمل سياسي مائة بالمائة، فأوعَزَتْ أولاً الى شريف صبوح مفتش معارف نابلس بالتصدي لي ومحاولة زحزحتي عن رئاسة الجمعية، وكان هو منتسباً للجمعية، فصدع بالأمر وأخذ ينتقدني لأني أخرجت الجمعية عن نطاقها وتجاوزت دستورها وغمستها بالسياسة، وأخذ يوعز لبعض أوليائه المعلمين المنتسبين للجمعية ليثيروا ضدي حملة، وكان من أشد المندفعين في هذا الأمر جمال القاسم الذي كان معلماً في قرية عصيرة، وانضم إليه فيمن انضم محمد صلاح ابن أخي عبد اللطيف صلاح بداعي ما كان بيننا وبين عمه من جفاء وتشاد نتيجة للمعارك الانتخابية. ثم داود طوقان بسبب ما كان بيني وبينه من جفاء، وبسبب المدرسة على ما شرحته قبل. وهكذا تألفت جبهة من الموظفين المنتسبين التي أخذت تبث الانتقاد ضدي وتدعو الى تصحيح مسار الجمعية التي غمستها في السياسة خلافاً لدستورها، وجعلت أعضاءها المعلمين والموظفين في حرج أمام الحكومة، وكان جهدهم مبذولاً لإقصائي عن رئاسة الجمعية، وقد طلبوا عقد اجتماع عام فاستجبت للطلب ودعوت إلى الاجتماع الذي طلبوه، واحتشد أعضاء الجمعية من معلمين وموظفين وغيرهم، ودار حوار حام بيني وبين الأربعة بنوع خاص، وصمدت لهم وفندت كل أقوالهم، وطلبوا تجديد الثقة بالرئيس وهيئة الإدارة فطرحت ذلك على التصويت، وقلت اني مستعد للتخلي عن رئاسة الجمعية اذا كان في ذلك حياة وقوة لها. ولكن الأكثرية خذلتهم وأيدت بقائي رئيساً وأيدت هيئة الادارة معي أيضاً.

أمر السلطات للموظفين المسلمين بالانسحاب من الجمعيات وأثر ذلك:

وحينئذ أصدرت السلطات أمراً يوجب على المعلمين والموظفين الانسحاب من الجمعية بداعي أنها تشتغل بالسياسة خلافاً لدستورها، فصدعوا وانسحبوا من جمعية نابلس وجمعيات

المدن الأخرى، وكان ذلك حقاً ضربة شديدة على حياة الجمعيات، لأنه حرمها من مرتبات منتظمة كان الموظفون والمعلمون يدفعونها شهرياً، وكان ذلك معولها الأكبر، وكانت السلطات متجنية في الأمر الذي أصدرته، لأن ما كان من نشاط أخذته على الجمعيات ليس في الحقيقة توريطاً سياسياً صريحاً، ولم يكن في استطاعة الجمعيات أن لا تبذله، فهو من وحي ظروف الحالة العامة في البلاد أيضاً، ولقد فكرت حقاً في الانسحاب من الرئاسة برغم تأييد الأكثرية لي قبل أن تصدر السلطات أمرها الجاني، ولكن تبينت أن ذلك لن يحمي الجمعيات من السلطات، لأني لم أكن الوحيد وراء ذلك النشاط، وهو كما قلت من وحي ظروف حالة البلاد العامة.

الاحتجاج على ذلك وعدم مبالاة السلطات:

ولقد تداعت الجمعيات الى مؤتمر عقدته في حيفا، فقرر استنكار أمر السلطات، في حين أنها تسمح لموظفيها المسيحيين في المشاركة في نشاط جمعيات الشبان المسيحيين التي تنشط في التبشير المسيحي في أوساط المسلمين بأسلوب ما، وقدمت الجمعيات احتجاجها حسب قرار المؤتمر، ودعت الهيئات الإسلامية والوطنية الى تأييدها في الاحتجاج، وتجاوبت هذه الهيئات معها، واحتجت واستنكرت، ولكن السلطات لم تبال وأصرت على موقفها، وانسحب الموظفون والمعلمون المسلمون من الجمعيات وضعفت حالة الجمعيات المادية والمعنوية، وبعد قليل كانت الحركة الدموية التي عرفت بثورة البراق ودخلت البلاد في حالة توتر شديد مستمر شغل البلاد، وكان لي في الموقف الجديد نشاط كبير، حيث كنت سكرتير الجمعية الوطنية في نابلس التي كانت في حالة انعقاد مستمرة، وكنت عضواً في اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع التي دبت فيها الحيوية بسبب تلك الثورة ونتائجها على ما سوف أشرحه بعد، فكنت أكثر من الذهاب الى القدس للمشاركة في اجتماعاتها.

تركي رئاسة الجمعية بسبب مشاغل أخرى:

فرأيت أن أتخلى عن رئاسة جمعية الشبان لأن وقتي لم يكن يتسع لكل ذلك، وكان عملي في الجمعية الوطنية وفي اللجنة التنفيذية هو عمل الساعة الملح، ولم يخلفني في الرئاسة أحد وإنما ظلت إدارتها بإشراف السكرتير وهيئة الإدارة، ولقد استمرت هي والجمعيات الأخرى في الوجود والنشاط، ولكن بريقها أخذ يقل بسبب انشغال الناس بما هو أعظم، وأخذ أكثرها يتوارى ومن جملتها جمعية نابلس بعد أن كسر نشاطها وبخاصة في سنة 1928 الجمود المخيم على الحركة العربية العامة في فلسطين، ولفتت الأنظار اليها وملأت الأسماع بنفسها، وكان من أواخر مواقفها العامة احتجاجها على ما جرى من مراسم والقي من خطابات تبشيرية في حفلة تدشين نادي الشبان المسيحيين الجديد في سنة 1932 الذي وصفناه، والذي دعا اليه اللورد اللنبي على ما ذكرنا قبل.

استمرار جمعية ونادي يافا بفضل رئيسها علي الدباغ وكلمة عنه:

وأحب أن أستثني فرع يافا وناديها، حيث استمر نشاطهما وطال عمرهما اكثر من غيرهما، بفضل رئيسها علي الدباغ، الذي كان قوي الإيمان قوي المثابرة قوي الأخلاق قوي الجأش

صلب الوطنية والدين بشوشاً ألوفاً مضيافاً، يوحي الاحترام له على كل من عرفه أو اتصل به، والإعجاب به، ولم يكن مثقفاً ثقافة واسعة، وكان رجلاً بسيطاً معلم نجارة ماهراً وله منجرة ويعيش منها وينفق كثيراً مما كان يأتيه على الجمعية وناديها، وعلى العمل العام، فكان هذا مما ساعد على بقاء حياة ونشاط جمعية يافا وناديها، وكل هذه الصفات جعلت علي الدباغ شخصية متميزة في يافا بل في فلسطين. وقد تحاببنا وتصادقنا منذ تعارفنا في سنة 1928 بمناسبة المؤتمر الذي عقدناه لأول مرة في يافا، وظللنا على صداقة ومعرفة وثيقة، وتعاونا في مختلف المواقف، وافترقنا في فلسطين لأني غادرتها في سنة 1937 ومنعت من العودة اليها، ثم التقينا في دمشق بعد النكبة، حيث جاء مع أسرته وأقام فيها، وكنا قد اتخذناها مقاماً لنا ووطناً، فجددنا عهدنا. وكان يتردد علي في كل أسبوع فنتذكر ما كان وما حل، ونفكر فيما يجب إلى أن توفاه الله في دمشق في سنة 1956 رحمة الله عليه رحمة واسعة.

كلمة عن جمال القاسم:

وجمال القاسم الذي مر اسمه هو ابن عبد الهادي القاسم من آل القاسم الإقطاعيين في القرن السابق، وكان لهم عصبة وصولة ونفوذ في قضاء جماعين على ما شرحته في مناسبة سابقة، ثم في كتابي الجزء الثاني من العرب والعروبة، وقد تجنى عليه بعض كبار أقاربه حين مات أبوه وكان صغيراً، فحجبوا عنه ميراث أبيه وخيراته وقتاً ما، فاضطر الى العمل معلماً في قرية براتب خمسة جنيهات، إلى أن كسب قضية ضد أقاربه واسترد ميراث أبيه وخيراته، فحسنت حالته. وقد استقال من التعليم بعد مدة وجاء إلي معتذراً عن موقفه تجاهي في الجمعية، وقال أنه دفع إليه دفعاً من شريف صبوح وصديقيه داود طوقان ومحمد صلاح، فقبلت عذره، وقام بيني وبينه ود انقلب الى صداقة حميمة. ولقد عيناه كاتباً للأوقاف في نابلس حينما صرت مديراً عاماً للأوقاف، وكان من العناصر الوطنية النشيطة في نابلس، واعتقل مع من اعتقل في صرفند أيام الأضراب الطويل، وافترقنا حيث غادرت فلسطين وأقمت في دمشق، وجاء هو في أواخر الخمسينات وفي الستينات الى دمشق أكثر من مرة، فكان يزورني ويتجدد عهد الود والصداقة. ولما ذهبت الى نابلس زائراً في سنة 1964 دعانا إلى بيارته في حبلة قرب قلقيلية، وأكلنا عنده الدجاج المسخن بالخبز والزيت والبصل الذي يسوى في الطابون، وهي من أكلات فلسطين القروية المشهورة، وكان أنشأ في أراضي أبيه في حبلة بيارة برتقال، ثم بيارة أخرى، وصارت البيارات تدر عليه إيراداً كبيراً، وعلّم اولاده الأربعة تعليماً جامعياً منهم المهندس ومنهم الطبيب ومنهم الجيولوجي ومنهم المحامي وبرزوا في عملهم، وجاء بعد ذلك الى دمشق، وظل يعيش بين نابلس وبياراته بعد الاحتلال اليهودي الجديد سنة 1967، الى أن وافاه أجله 1971 رحمة الله عليه.

كلمة عن أحمد سامح الخالدي:

وأحمد سامح الخالدي الذي مر ذكره هو من أسرة الخالدي المقدسية العريقة، وكانت بيت علم، ولهم مكتبة مهمة في مقياس ما قبل ستين سنة، وقد تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت واشتغل في التعليم ثم صار مديراً لدار المعلمين التي أنشئت في زمن الانتداب. وهو

قوي الشخصية والطموح ومعتد بنفسه ومجادل، وثقافته العربية والغربية واسعة، وكان وظل يحاول أن يكون زعيماً وطنياً وإسلامياً، ولكن مع احتفاظه بعمله وصلاته بالإنكليز عبر هذا العمل، بل وقد حقق بعض طموحاته فبرز من بين المثقفين العرب بروزاً كبيراً، وبرز في المجال الإسلامي والعربي كرجل متحرر داعية الى الإصلاح والتجدد، ولكنه ظل على كل حال أيضاً عند الجمهور موظفاً في الحكم الانتدابي، مع التنبيه على أن هذا لم يعد انحرافاً ولا مسبّة. وكان كثير من رجال العرب الفلسطينيين المسلمين المحترمين الحسني الأخلاق والسلوك موظفين في هذا الحكم وسائغين عند الجمهور. وقد تزوج بالسيدة عنبرة سلام بنت سليم علي سلام الزعيم البيروتي المشهور، وكانت مثقفة بدورها تجيد الإنكليزية وتخطب وتكتب بالعربية والانكليزية، وتنشط في الحركة النسائية والتجددية، وكان لها اسم ادبي وثقافي، وكان لها عبر ذلك اثر في ما حققه زوجها من طموحات، وأظن أن لسامح بعض المؤلفات في التربية والاجتماع، ولزوجته بعض المؤلفات أيضاً. وأظن أنه توفي في الستينات رحمه الله، وأنا أسن منه. ولقد التقيت به أكثر من مرة في القدس أثناء نشاطنا في جمعية الشبان المسلمين، وأثناء وجودي مديراً عاماً للأوقاف في القدس، وكنا نتبادل الأفكار والأحاديث حول شئون متنوعة إسلامية واجتماعية وعربية وثقافية، ولكن لم تنعقد بيننا صداقة حميمة.

كلمة عن شريف صبوح:

وشريف صبوح الذي ذكرنا تصديه لرئاستي بأمر السلطات من أسرة نابلسية، وأظن أنه أتم دراسته الإعدادية في نابلس في زمن الدولة العثمانية، واشتغل في التعليم في مدارسها. ولما وقع الاحتلال استمر في العمل في مدارس حكومة الانتداب العربية، وهو ذكي نشيط واسع، الحيلة وزلق اللسان ومتواضع، فكسب عطفاً بين الناس، وقد استطاع بذلك أن يكون أثيراً لدى سلطات المعارف الانتدابية في الوقت نفسه، فصار مفتشاً للمعارف في نابلس، وصار شديد الالتزام بأوامر وتوجيهات السلطات مع اصطناع اللياقة وزلاقة اللسان والرغبة في خدمة وقضاء مصالح الناس والمعلمين. وهكذا استطاع أن يمشي حالته مع الشعب ومع السلطات معاً مع إحساس الناس بأنه رجل الحكومة أولاً، وظل على هذا الحال إلى أن توفاه الله في الأربعينات رحمة الله عليه.

***

30

انتقالنا من بيتنا القديم إلى بيت أحسن موقعاً ومنظراً:

وفي فترة عملي في مأمورية الأوقاف انتقلنا من بيتنا في حارة القيسارية، فقد استوحشنا منه بعد وفاة والدي إلى رحمة الله تعالى، وكان بعيداً منعزلاً ولا منظر له، ففكرنا بتأجيره واستئجار بيت أنزه وأقرب إلى حركة البلد، ومحل عملنا، ونفذنا الفكرة فاستأجرنا بيتاً يملكه فوزي عرفات في طابق ثالث خارج البلد من ناحية جامع عاشور غرباً، وقريب إلى مركز الأوقاف والمدرسة، وكان للبيت مناظر جميلة على بساتين نابلس وجبلها من الشمال، وكان له شرفة واسعة نوعاً ما فرشناها لتكون مجلسنا في الصيف، ودفعنا أجرته (40) جنيهاً كنا نأخذ نصفها من أجرة دارنا في حارة القيسارية التي أجرناها دارتين، وكان جارنا في الطابق الثاني صديقنا الحاج حسن حماد، وقد قضينا في هذا البيت سنة، وكنت أنا وأخي وأسرتينا المكونة من عشرة أشخاص، وكان ضيقاً لاستيعابنا فصرنا نفتش على غيره اكثر اتساعاً، ثم عرض علينا بيت في الجبل الشمالي لشخص من بيت التيتى عمّره ونقص ما في يده عن اتمامه، وطلب أن نسترهنه بمائة وخمسين جنيهاً فنسكن البيت بعد إتمامه مقابل ذلك، إلى أن يرد علينا المبلغ (مال بلا فائدة وبيت بلا أجرة). وقد وجدنا العرض مناسباً جداً، ولم يكن المبلغ ميسوراً معنا فاستدناه من صندوق الأيتام في نابلس بفائدة، ورهنا مقابل القرض بيتنا في حارة القيسارية، ودفعنا المبلغ للرجل فأتم عمارته، وانتقلنا إليه في اوائل سنة 1929، وهكذا كانت أجرة البيت الجديد علينا أقل من الاجرة التي كنا نأخذها من بيتنا القديم، وكان البيت بدوره نزَهاً ذا مناظر خلابة، مطلاً على البساتين والمدينة. وقد بقينا فيه إلى أن انتقلت أنا الى القدس في سنة 1932، ودفع لنا الرجل المبلغ فسددنا به ديننا لصندوق الأيتام، واستأجر أخي بيتاً عاش فيه بمفرده، في نابلس بضعة أشهر إلى أن انتقل هو الآخر إلى عمان ليعمل في التجارة على ما سوف أشرح ظروفه بعد، وليعذرنا القارىء لأننا سجلنا هذا الحادث الشخصي، ولقد كان حادثاً مهماً في حياتنا الشخصية، ونحن نسجل أحداث حياتنا.

* * *

31

قضية كتبي دروس التاريخ العربي ودروس التاريخ القديم ودروس التاريخ المتوسط والحديث وطبعها ورواجها:

وفي فترة عملي في مأمورية الأوقاف طبعت كتبي الثلاثة (دروس التاريخ القديم) و(دروس التاريخ العربي) و(دروس التاريخ المتوسط والحديث)، ولقد كنت وأنا في المدرسة أتلقى بعض دروس بالإنكليزية، وتقدمت نوعاً ما وقرأت كتاباً مدرسياً للطلاب الصغار بالإنكليزية في تاريخ بريطانيا بأسلوب قصصي، فأعجبني الأسلوب، ورأيت أن أقتبسه، وكتبت مسودات للكتب الثلاثة المذكورة، ليكون الأول للصف الابتدائي الثالث، والثاني للصف الابتدائي الرابع، والثالث للصف الابتدائي الخامس، ويكون كتابي الذي كتبته وطبعته وأنا في المدرسة وهو (مختصر تاريخ العرب والإسلام جزآن) للصف السادس.

وفي سنة 1928 بعد استلامي لمأمورية الأوقاف رجعت الى المسودات وركزتها وهيأت أولاً (دروس التاريخ العربي)، وكلفت حمدي البظ، وكان يحسن الرسم، رسم صور خططت له أبعادها لتعبر عن بعض أحداث تاريخية عربية قديمة لها صلة بمادة الكتاب، وأرسلت المخطوطة مع الصور الى المطبعة السلفية في القاهرة لصاحبها محب الدين الخطيب صديقنا القديم الذي طبع فيها مختصر تاريخ العرب والاسلام على ما ذكرته قبل، فطبعه وصار يدرس في مدرسة النجاح، ثم في مدرسة روضة المعارف في القدس، وفي مدارس وطنية عربية حرة أخرى في فلسطين، ثم في شرق الأردن. ونفدت طبعته الأولى خلال سنة، فأعدنا طبعه ثانية ثم ثالثة ثم رابعة وخامسة وسادسة وسابعة خلال سبع سنين، وبجهد وسعي اكرم زعيتر صار مقبولاً لدى معارف العراق، وعرضوا علي طبعه طبعة ثامنة لحسابهم مع تعديل في صدد الشيعة والسنة، أي بحذف الفصل الذي يذكرهما حتى لا يظل أثر وحساسية الفرقة بين السنة والشيعة في أذهان الطلاب، فحبذت ووافقت. وكنت آنئذ في سجن القلعة في دمشق سنة 1939، وكان الاتصال في صدد ذلك مع أخي محمد علي.

وفي سنة 1930 طبعت كتاب دروس التاريخ القديم طبعته الأولى في المطبعة السلفية، وراج الكتاب أيضاً ونفدت طبعته الأولى، فطبعته مدرسة الأيتام الإسلامية في القدس طبعة ثانية، ووقف عند هذا الحد. وفي نفس السنة طبعت دروس التاريخ المتوسط والحديث طبعته الأولى في القاهرة وراج أيضاً ونفدت طبعته، فطبعته مطبعة الترقي في دمشق طبعة ثانية بإشراف ياسين عرفة، ووقف عند هذا الحد. وقد كانت الكتب الثلاثة عملاً مدرسياً وعلمياً جديداً وطريقاً نال استحساناً وقبولاً ورواجاً.

* * *

32

ثورة البراق

وفي فترة عملي في مأمورية أوقاف نابلس، وفي النصف الثاني من شهر آب 1929 كان ما يسمى ثورة البراق، وأرى أن أعرف أولاً بالبراق وماذا كان يعني بالنسبة للمسلمين واليهود، فقد يكون كثير من ناشئتنا يجهلون ذلك.

تعريف بالبراق وجدار المبكى وما كان من تقاليد في صددهما عند المسلمين واليهود:

إن كلمة (البراق) كانت تعني عند المسلمين في أصلها (الدابّة) التي روت الأحاديث أن النبي ﷺ ركب عليها ليلة اسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهذا الإسراء مذكور في آية سورة الإسراء ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾. ولسنا في صدد شرح الإسراء، وإنما نقول إنه مما روي عن البراق أنه دابة بين البغل والحمار جسماً، وأنها كانت تضع حافرها عند موقع بصرها، وهذا غير موثوق به بأحاديث نبوية صحيحة، والروايات تذكر أن الملائكة أو جبريل عليه السلام اتى بالبراق فركبه النبي ﷺ وسار معه جبريل عليه السلام، من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، وكلمة مسجد في أصلها مكان السجود والعبادة، وكان أهل مكة والعرب يصلون في فناء أو ساحة حول الكعبة ضمن المسجد الحرام، أما الأقصى فمعناها البعيد جداً. ولما ورد في الأحاديث الصحيحة أن المسجد الأقصى هو مكان العبادة القديم في بيت المقدس، فصارت جملة (المسجد الأقصى) تطلق على مسجد القدس الإسلامي.

والروايات تذكر أن النبي ﷺ حينما وصل على دابته (البراق) ومعه جبريل عليه السلام الى المسجد الأقصى، توقفت الدّابة عند الباب المعروف اليوم بباب المغاربة من أبواب الحرم القدسي الشريف، فربطها جبريل عليه السلام بحجر هناك ودخل هو والنبي ﷺ ساحة الحرم التي سميت مسجداً لأنه كان فيها معبد قديم، وأقيم مقام الحجر الذي ربطت به الدابة (البراق) غرفة يقال لها مربط البراق، وصارت هذه الغرفة والممر منها الى ساحة الحرم وجدار الحرم المحاذي لهذا الممر يعرف بالبراق أيضاً، والجدار قديم وأحجاره كبيرة ارتفاعه نحو عشرة امتار، ووراءه الداخلي ساحة الحرم القدسي. واليهود يعتقدون أنه جدار من جدران المعبد الذي أنشأه في الأصل سليمان، وليس هذا وثيقاً ولا صحيحاً، فإن معبد سليمان قد دمر قبل ملك بابل نبوخذ نصر سنة 586 ق.م، ثم أنشأ اليهود معبداً على أنقاضه دمره القائد الروماني تيطس سنة 70 ق.م، واليهود اعتادوا منذ القديم أن يأتوا الى هذا الجدار من طريق في حارة المغاربة، فيصلّوا في الساحة التي أمامه من ناحية هذه الحارة ويبكون عنده، والساحة في طول سطحي نحو عشرين متراً بطول الجدار، وبعرض سطحي نحو ثلاثة أمتار مبلّطة بالحجارة المنحوتة بشكل بلاط، وقد سمي باللغة العربية حائط المبكى. ولم يكن حينما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى مسجد «أو معبد» قائم، وإنها أنقاضٍ للمعبد المدمر، وفي وسط هذه الأنقاض صخرة كبيرة فيها فتحة، ويمكن أنها كانت مذبحاً للقرابين قديماً.

اهتمام ملوك وأمراء المسلمين بالحرم وما حوله وتسجيل وقفيته:

ويظهر أن سلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم وملوك العثمانيين من بعدهم، انتبهوا الى مطامع اليهود والنصارى في القدس والحرم الشريف الذي انشأ ملوك بني امية في ساحته المسجد الكبير الذي يسمى الأقصى، والمسجد الثاني الذي فيه الصخرة، فجعلوا جميع ما حول الحرم القدسي أوقافاً إسلامية، وسجلوا وقفها في المحاكم الشرعية. ومحل البراق واقع في حارة للمغاربة، وفيها زاوية لولي من أولياء الله المغاربة اسمه أبو مدين، وقد أوقف ملوك وأمراء المسلمين الحارة والزاوية والمساكن التي يسكنها المغاربة وقفاً إسلامياً، وسجلوها كذلك في المحاكم الشرعية بسياق ذلك التنبه. وكان في زمن الدولة العثمانية، ويمكن في زمن الدول الإسلامية، التي قبلها، يسمح لليهود الذين كانوا في فلسطين أو يأتون إليها من بلادهم الأخرى، بالمجيء إلى حائط المبكى والصلاة والبكاء عنده يومياً أو في أعيادهم ، باعتبارهم رعايا هذه الدولة، ولكن ذلك كان يتم لهم بدون مراسيم وضجة وأدوات.

مقدمات الثورة ووقت وقوعها:

بعد هذا الإيضاح الموجز نأتي الى ذكر ثورة البراق التي كانت في النصف الثاني من شهر آب/ أغسطس سنة 1929، والتي كان لها مقدمات ونتائج متنوعة، وكان لي في أثنائها نشاط كبير، وقد سجلت في دفتري القديم في سنة 1936 ما كان بقي ماثلاً في ذاكرتي من تلك الأسباب والمقدمات والنتائج والنشاط، كما ذكرت شيئاً من ذلك في الجزء الثالث من كتابي (حول الحركة العربية الحديثة الذي صار في طبعة ثانية) (الجزء الأول من كتاب القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها)، وما أسجله هنا هو من الدفتر ومن هذا الجزء ومما تذكرته أثناء تدوين هذه الجذاذات ولم اكن كتبته قبل، والتسجيلات السابقة هي حديثة عهد بالأحداث، اذ كانت بعدها ببضع سنين، وتحتل الصورة الحقيقية من الأحداث بشكل عام بقطع النظر عن تفصيلات وجزئيات قد يكون فاتنا تسجيلها.

مطامع اليهود في الجدار والحرم:

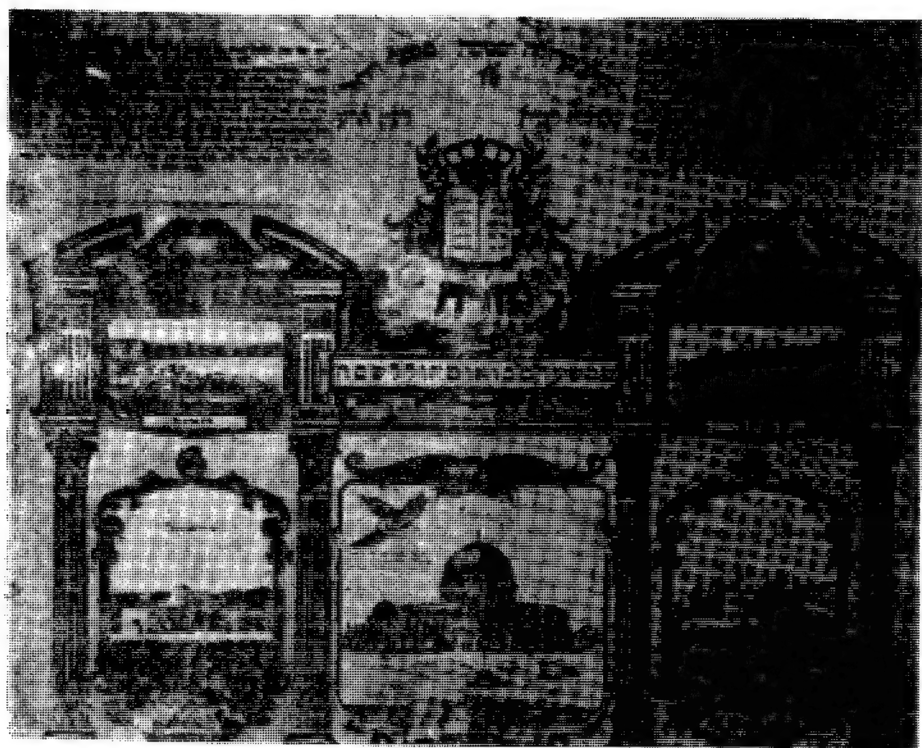
ولقد ظل اليهود بعد الاحتلال الإنكليزي على عادتهم في المجيء إلى الحائط والصلاة والبكاء عنده، ولكن باهتمام وجماعات أكثر، وصار يؤثر عن زعمائهم تصريحات تنم عن مطامع واسعة بامتلاك الجدار والممر وحارة المغاربة تارة، وبامتلاك الحرم القدسي وإعادة بناء معبد سليمان مكان مسجد الصخرة تارة، ونشروا صورة الحرم القدسي وعليه نجمة داود والشمعدانات السبعة، وكلام بالعبراني يفيد أنه سوف يتحول إلى معبد يهودي تجديداً لهيكل سليمان أو معبد سليمان القديم، ونشروا صورة فيها تخطيط للمعبد الذي ينوون إنشاءه، والصورتان في كتابنا المذكور، وأذيع تصريح لأحد لوردات اليهود الإنكليز يتمنى فيها أن يعيش حتى يرى معبد سليمان قد قام مكان الحرم، وأنه مستعد للإسهام في ذلك بكل ما يملك، ولقد كان كل هذا يحدث تلصصاً أو مواربة ثم يخفت، وكان يقابل من المسلمين بالاحتجاج والاستنكار ويقف الأمر عند ذلك

محاولة الصهيونية إثارة عواطف اليهود بسبب فتور الحركة الصهيونية في هذا الظرف:

ولقد كانت حركة النمو اليهودي الصهيوني



صورة وضعها اليهود للمسجد الأقصى المبارك وفوقه الكلمات والرسوم العبرانية والشعار اليهودي .



مطامع اليهود في فلسطين والمسجد الأقصى وقبة الصخرة صورة وصفها اليهود لمواقع فلسطينية والمسجد الأقصى وقبة الصخرة تجسيداً لمطامعهم وفوقها كلمات ورسوم عبرانية والشعار اليهودي .

المنبثقة عن وعد بلفور ممتدة إلى ما قبله، تمر في سنة 1925 و1926 و1927 في فترة ركود وضيق، بسبب قلة الأموال الميسورة للإستعمار اليهودي وقلة الأغنياء المهاجرين بأموالهم إلى فلسطين.

وكان هذا من وسائل نمو تلك الحركة، حتى لقد كثرت البطالة بين اليهود، وصار كثير من المهاجرين الجدد بل وبعض القدماء ينزحون عن البلاد إلى حيث يجدون الرزق الأوسع والأيسر، وبلغ عدد النازحين في السنوات المذكورة نحو عشرين ألفاً، أي أكثر من ضعف المهاجرين الجدد، وفي سنة 1927 أخذ زعماء الصهيونيين والمتدينين من المهاجرين والحاخامين يكثرون من التصريحات في صدد مطامعهم في البراق وفي الحرم القدسي، حيث أرادوا كما تبادر وسجلناه، بأحداث انفعال وهيجان في اليهود داخلاً وخارجاً، وكسر الفتور الطارىء على نمو الحركة الصهيونية، وجعل اليهود يتعلقون بفلسطين وتراثهم المزعوم فيها، وهذه عادة درج عليها زعماء الصهيونيين قبل الآن وبعده كلما رأوا فتوراً في همة اليهود وعزوفاً عن فلسطين، ولا مبالاة بالصهيونية، ويصل الأمر في ذلك أحياناً إلى افتعال الأذى والعدوان ضد الجاليات والمعابد والأماكن اليهودية في البلاد التي هم فيها، حتى يثيروا هؤلاء اليهود ويجعلوهم يرون في فلسطين ملاذهم وملجأهم الأمين.

جمعية حراس الهيكل اليهودية ونشاطها:

وقد ألفوا جمعية سمّوها حراس الهيكل، وأخذت هذه الجمعية تعقد الإجتماعات وتنشر الصور، ويصدر عن زعمائها التصريحات المثيرة في صدد حقهم في البراق والحرم القدسي ووجوب أخذه بأي وسيلة.

محاولة اليهود تخطي الحالة الراهنة في سنة 1928 وإحضارهم أدوات جديدة:

وفي سنة 1928 قاموا بخطوة جريئة غير معتادة، حيث جاءوا في عيد الغفران في أواسط شهر آب جماعات كبيرة إلى حد الجدار وملأوه، وأحضروا معهم كراس وستائر لفصل النساء عن الرجال، وكتب، وأثاروا ضجة صاخبة.

مظاهرة المسلمين المقابلة واحتجاجهم وتدخل السلطات:

وتحرك الحاج أمين الحسيني والجماعات الإسلامية، فقامت مظاهرة إسلامية كبيرة وقدمت احتجاجات شديدة، وسارعت السلطات إلى التدخل وأخرجت الكراسي والستائر، وطلبت من المجلس الإسلامي ومن حاخامية اليهود إبراز وثائقهم المتصلة بالبراق والجدار، وقدم المجلس وثائق تثبت أن منطقة البراق جميعها وقف إسلامي، وإن كل ما كان لليهود هو السماح لهم بالمجيء إلى الجدار أفراداً، والصلاة والبكاء عنده، وأنه لم يكن لهم في المكان من الأدوات إلا تنكة ماء عليها حنفية على مائدة خشبية صغيرة أمامها إناء، فيغسل اليهود أيديهم حسب طقوسهم دون ستائر ولا كراسي ولا نفخ بوق ولا صخب ولا ضجيج كما فعلوا في عيد الغفران، ولم يقدم اليهود أي وثائق تثبت أي شيء خلاف ما أثبته المسلمون، فأصدرت السلطات بياناً ثبتت فيه ما ثبته المجلس الإسلامي، وطلبت من اليهود الالتزام به، واغتنم المجلس فرصة ذلك فقام ببعض تعميرات في منطقة البراق احتج عليها اليهود، ولكن السلطات أقرت المجلس على عمله.

استمرار اليهود في إظهار مطامعهم:

ولم يسكت اليهود، بل ظلوا يحتجون ويشكون ويسعون لتعديل الحال الراهن الثابت، وتوسيع ممارساتهم الدينية، وظلوا يرسلون التصريحات والتهديدات ويعلنون طمعهم بالاستيلاء على جميع المنطقة.

جمعية حراسة المسجد الأقصى ونشاطها:

واهتم الحاج أمين الحسيني فألف جمعية باسم جمعية حراسة المسجد الأقصىٰ، وعهد برئاستها إلى الشيخ حسن أبو السعود، وألف لها فروعاً بمدن فلسطين، وصارت تعقد الاجتماعات وتندد بمطامع اليهود وجرأتهم، وتنبه المسلمين وتُحمّسهم وتُوعّيهم، وتنذر اليهود إذا لم يرتدعوا عن مطامعهم ويقفوا عند حدهم، وقد شهدت بعض هذه الاجتماعات ومنها اجتماع صاخب حاشد في المسجد الأقصى، وخطبت في جملة الخطباء منبهاً داعياً للاستعداد لردع اليهود وإيقافهم عند حدهم

المؤتمر الإسلامي العام الذي دعت إليه الجمعية وقراراتها:

ودعت الجمعية إلى مؤتمر إسلامي عام عقد في القدس في أواخر سنة 1928 وشهده نحو 150 من الشخصيات الإسلامية البارزة نصفهم جاءوا من لبنان وسورية وشرق الأردن تلبية للدعوة، وكنتُ ممن حضروا من مدن فلسطين، وخطبتُ في جملة الخطباء، وقرر المؤتمر أن المقدسات الإسلامية في فلسطين هي مقدسات جميع المسلمين وفي رأسها محل البراق الشريف والحرم القدسي ومسجداه الأقصى والصخرة والأوقاف الإسلامية، وأن المسلمين سيدافعون عنها إلى النهاية ويردعون اليهود عن مطامعهم الوقحة وآمالهم ودعاويهم الكاذبة.

وفد المؤتمر إلى المندوب السامي في صدد مطامع اليهود:

وقرر تقديم مذكرة للحكومة الإنكليزية بواسطة المندوب السامي باسم جميع المسلمين، يحملها وفد من المؤتمر، وكُنتُ في هذا الوفد، وعهد الوفد مهمة الحديث باسمهم إليّ، وأدرت الكلام على نقاط منها أن مكان البراق مقدس عند المسلمين وهو وقف إسلامي مطلق، وإن ما يمارسه اليهود هو منحة من المسلمين ولا يمكن أن يترتب عليها أي حق، وأن ما يبدر من زعماء اليهود من مطامع وتصريحات ودعاوٍ وقحة قد أثار المسلمين وأهاجهم، وأن اليهود إذا لم يرتدعوا ويقفوا عند حدهم فإن المسلمين سوف يستردون تلك المنحة وسوف يردعونهم ويوقفونهم عند حدهم بقوتهم. ووعد المندوب بدرس المذكرة ورفعها وإجراء المقتضى.

استمرار اليهود في مطامعهم وقرارات مؤتمرهم في زوريخ سنة 1929:

ولكن اليهود لم يرتدعوا، واستمروا يكتبون ويخطبون ويكررون أقوالهم ومطامعهم، وفي تموز سنة 1929 عقد الصهيونيون مؤتمرهم العام في زوريخ بسويسرا، وصدرت عنه تصريحات وقرارات مهيجة ومثيرة للعرب واليهود معاً، حيث قرر دعوة اليهود في الخارج إلى هجرة واسعة وسريعة إلى فلسطين، ثم تطرق لجدار المبكى، وقرر حق اليهود فيه وفي ممارسة طقوسهم الدينية بشكل كامل وواسع.

احتشاد اليهود في عيد غفرانهم في 15 آب 1929 في الجدار مع الستائر والكراسي ونفخ الأبواق ومظاهرة المسلمين المضادة:

وفي عيد الغفران هذه السنة الذي صادف

لتاريخ 15 آب، جاء اليهود في آلاف عديدة إلى الجدار، ووضعوا الستائر والكراسي ونفخوا بالأبواق، وأنشدوا النشيد الصهيوني، وكان ذلك يوم خميس. وفي صلاة الجمعة في اليوم التالي خطب خطباء من المسلمين في جمهور المصلين وحمسوهم، فخرج المصلون في مظاهرة حاشدة صاخبة، واتجهوا نحو الجدار ودخلوا الساحة ومزقوا الستائر وحطّموا الكراسي وضربوا من وجدوه من اليهود.

الاشتباكات الدموية بين العرب واليهود:

ولم تلبث أن أخذت تقع اشتباكات دموية بين اليهود والعرب في أماكن عديدة في القدس، وشاع أن ضباط الإنكليز سلّحوا اليهود فزاد هياج المسلمين، ولقد هاجم اليهود أسرة إسلامية عند مقام عكاشة في الشيخ جراح وفتكوا فيها، كما هاجموا قرية لفتة التي كانت قريبة من أحياء اليهود الجديدة خارج المدينة القديمة وعلى طريق القدس ـ يافا، واشتبكوا مع سكانها، وكانت خسائر من الطرفين. واستمرت الاشتباكات والغليان في القدس في اليومين التاليين، وانتشرت أخبارها في أنحاء فلسطين.

أخبار الاشتباكات في خارج القدس ومظاهرات عربية في نابلس وغيرها واشتباكات بين العرب واليهود:

وانتشرت أخبارها في أنحاء فلسطين، فقامت مظاهرات في نابلس وهاجم المتظاهرون (القشلة) وهي مكان للبوليس والجند خارج المدينة للشرق بقصد نهب السلاح، وقامت مظاهرات في حيفا ويافا وغيرها، وصارت تقع اشتباكات بين اليهود والعرب في هاتين المدينتين والقرى العربية والمستعمرات اليهودية المتجاورة في منطقتيهما، وهاجم اليهود إمام مسجد قريب من تل أبيب وذبحوه مع أسرته حيث كان يقيم معها في إحدى غرف المسجد.

هجوم أهل الخليل وصفد على يهودهم:

وهاج أهل الخليل وهجموا على يهودهم بالسيوف والخناجر والعصي فقتلوا نحو (68) وجرحوا نحو (50)، وكان ذلك في 23 آب، واستمر الهياج والاشتباكات في القدس ويافا وقراهما ومستعمراتهما، وهاج أهل صفد وهجموا على يهودهم بالسيوف والخناجر والعصي كذلك، وقتلوا نحو 14 وجرحوا نحو أربعين، وكان ذلك في 29 آب 1929، وتدخلت قوات السلطات بشدة وعنف وكثافة، حتى تمكنت من حجز اليهود والعرب عن بعضهم وتوقيف الاشتباكات.

حصيلة الاشتباكات الدموية:

وكانت الحصيلة نحو (130) قتيلاً وجرح (330) جريحاً من اليهود، و120 قتيلاً و220 جريحاً من العرب، وكان معظم قتلى العرب وجرحاهم برصاص وحراب وعصي البوليس ومعظم قتلى اليهود وجرحاهم من يد العرب. وكان جل القتلى والجرحى من الفريقين في المدن، ولم يقع زحف واشتباك واسعان بين القرى والمستعمرات القريبة منها، فلم يكن قتلى وجرحى كثيرون فيها، وإنما كان نهب من بعض القرى لبعض المستعمرات.

تعليق على القول بتنصل الحاج أمين والزعماء عن الثورة:

ويقول عبد الوهاب الكيالي في كتابه تاريخ فلسطين الحديث، أن الحاج أمين الحسيني والزعماء الآخرين تنصلوا من مسؤولية الثورة،

وبذلوا جهدهم في التهدئة. والحقيقة التي يجب أن تقال أن الحاج أمين كان وراء ما قام من مظاهرات وحماس وهياج خلال السنة التي سبقت ثورة البراق، ووراء ما قام من المظاهرة الصاخبة التي خرجت من المسجد الأقصى ثاني يوم الغفران وهاجمت البراق واليهود، وكانت بداية الثورة الفعلية. وكان رجال المجلس ومشايخ المسلمين التابعين للمجلس من أقوى النشيطين في ذلك، لا سيما الشيخ حسن أبو السعود رئيس جميعة حراسة المسجد الأقصى وأعضاؤها، وقد يكون الحاج أمين قال للمندوب أنه ليس له يد في الانفجار. وقد يكون حاول التظاهر بالتهدئة، وهذا هو أسلوبه الذي اصطنعه منذ توليه رئاسة المجلس الإسلامي، والذي رآه الأكسب لمصلحته ومصلحة المجلس معاً، (وهذا ما كان منه في أثناء اضراب وثورة سنة 1936 على ما سوف نشرحه بعد).

هياج اليهود وصراخهم في فلسطين وخارجها:

ولقد هاج اليهود وماجوا في فلسطين وخارج فلسطين، واتهموا السلطات الانتدابية بالتقصير في حمايتهم والغُض عن ذبح اليهود رغم ما بذلته من جهد، ورغم كون معظم قتلى العرب وجرحاهم من بوليسها. وكان المندوب السامي شانسلر غائباً عن البلاد.

منشور المندوب السامي الشديد ضد العرب:

وقبل أن يعود في أواخر آب أذاع منشوراً حمل فيه على العرب حملة قاسية، ووصفهم بالوحشية واللاإنسانية، وقال أنه كان يسعى لإدخال تعديلات دستورية تمكن البلاد من أن تخطو خطوة ما نحو الحكم الذاتي، وأنه أجل مسعاه بسبب الأعمال العربية البربرية، والراجح أن ما كان من ذلك السعي قد كان من نتيجة مباحثاتنا مع ملز، ثم مذكرة المؤتمر السابع، حيث جعل هذا وذاك السلطات الإنتدابية والحكومة الانكليزية تفكر في تعديلات دستورية ما.

رد اللجنة التنفيذية الشديد على المندوب:

ولقد قابل العرب منشورات المندوب السامي بالسخط البالغ، فأذاعت اللجنة التنفيذية بياناً فيه رد شديد على المندوب، ووصف بالحماقة ومجانبة الحق والإنصاف ومجاراة اليهود في تهويشهم والانسياق بدعايتهم. وقال البيان أن هذا جعل المندوب يعمى عما كان من اليهود من عدوان وبربرية واستفزاز وعن قتلى العرب وجرحاهم بسلاح السلطات واليهود معاً، وأذاعت نقابات المحامين والأطباء والمهندسين بيانات مماثلة.

تراجع المندوب:

وكان لهذا رد فعل في المندوب، حيث أذاع بعد يومين بياناً آخر تراجع فيه عن بيانه الأول، وقال أنه كان نتيجة تسرع وعدم إطلاع على جميع الحقائق، ووعد بأن يطلب من الحكومة البريطانية تعيين لجنة لتحقيق أسباب الإضطرابات وما جرى فيها.

مقابلة وفد اللجنة للمندوب:

وذهب وفد من اللجنة التنفيذية لمقابلته، وقدم له مذكرة إضافية، فكرر للوفد اعتذاره وما قاله في بيانه الثاني، ووعد بمجيء لجنة تحقيق خلال مدة قصيرة. ولقد كنت أنا والدكتور مصطفى بشناق في الأسبوع الأخير من آب الذي اشتدت فيه الاشتباكات في إجازة استجمامية في لبنان، فأسرعنا في العودة إلى نابلس ووجدناها هائجة مائجة، والأخبار منقطعة

عن القدس والإتصالات معطلة بين نابلس والمدن الكبيرة الأخرى.

اجتماع عام في نابلس:

وحالاً اقترحت عقد اجتماع عام، وقبل الاقتراح، وعقد اجتماع كبير في مدرسة النجاح، وخطبت فيه داعياً الى وجوب الوقوف موقف الحسم، وبالإصرار على إلغاء وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية وإيقاف اليهود عند حدهم.

وفد من القدس لنابلس:

وفي أول أيلول جاء من القدس محمد العفيفي وصبحي الخضراء، فشرحوا لنا الأحوال وسير الاضطرابات، وطلبوا التضامن في الموقف. وقد أرسلنا بعض الشبان إلى القرى لهذا الغرض، وذهبت أنا مع بعض الإخوان إلى جنين واجتمعنا مع وجوهها. وذهب وفد الى طولكرم لهذا الغرض أيضاً.

موقف صريح للدكتور صدقي ملحس:

ومما أذكر أن الدكتور صدقي ملحس اشتدت عصبيته حينما رأى في الاجتماع، الذي عقدناه في مدرسة النجاح، عبد الرحمن الحاج إبراهيم رئيس بلدية طولكرم وابنه سليماً حاضرين، حيث جاء إليه أناس عديدون من طولكرم وجنين والقرى أيضاً، وكان قد عرف بل اشتهر أنهما مع سلامة ابن عبد الرحمن الثاني يتعاملون مع اليهود في السمسرة وبيوع الأراضي، وقد ذكرت ذلك في مناسبة سابقة. وطلب إخراجهما من المؤتمر، وهو موقف لم أشهد مثله صراحة في أي اجتماع من اجتماعاتنا، وكانت المسايرة واللامبالاة هما السائدين بين الناس تجاه ذلك ولا يذكر إلا همسا.

تكرار المظاهرات في نابلس:

ولقد تكررت المظاهرات الحماسية في نابلس طيلة أسبوع الاشتباكات، وفي إحداها حاول المتظاهرون الهجوم على القشلة ونهب سلاح البوليس منها والذهاب الى القدس ونجدة أهلها، لأن اليهود كانوا كثرة كبيرة، بل أكثرية اذا ما اعتبر عددهم في القدس القديمة والقدس الجديدة الغربية معاً، وفي إحداها رجم المتظاهرون سيارة الحاكم الإنكليزي، وكان إسمه مللر وحطموها، وجرحوا مهندساً انكليزياً كان معه في السيارة.

ليونة حاكم نابلس ثم شدته:

ولقد لبث هذا الحاكم ناعماً كالحرير في هذا الأسبوع، وكظم غيظه رغم ما كان من مظاهرات وعدوان عليه، وكان يحاول أن يجارينا في صخبنا واحتجاجاتنا ومطالبنا، ويهدىء الهيجان بالحسنى. ووضع سيارته تحت أمرنا لنرسل وفداً الى القدس للإطمئنان على أهلنا وشعبنا في القدس، وللتيقن من أن الأخبار تأتي الينا مضخمة، وسايرنا فسمح بعقد الاجتماع الحاشد الصاخب الذي عقدناه في النجاح، وبالذهاب إلى القرى وطولكرم وجنين. وفي الأسبوع الثاني جاءت الى نابلس كتيبة جند إنكليزية عدد أفرادها نحو مائة مع ضباطها، فلم نلبث أن رأينا الحاكم الحريري يلبس جلد النمر كما يقولون، ويتغير، وأرسل في الليل دوريات لكبس[1] بيوت بعض المشتغلين بالحركة الوطنية ومصادرة ما عندهم من أوراق، وكنت أنا وأمين التميمي والدكتور مصطفى بشناق والدكتور صدقي ملحس وفريد العنبتاوي في جملة من كبست بيوتهم وصودرت بعض

(1) كبس ـ مداهمة غير متوقعة.

أوراقهم، ثم أمر باعتقال بعض الشباب الذين كانوا شديدي النشاط والحركة ومنهم قدري طوقان وابراهيم طوقان وجميل كمال. على أن الحاكم تراجع قليلاً عن إرهابه وأطلق سراح الشباب الذين اعتقلهم. ولقد كان السير والاتصال بين نابلس والقدس ونابلس ويافا وحيفا قد تعطل في اليومين الأولين بسبب تكهرب الجو وتوتره، والأخبار التي كانت تروى مضخمة، ثم خفت الوطأة فسافرت حالاً إلى القدس للمداولة فيما يجب عمله، والتقيت بسكرتيري اللجنة التنفيذية وبعض أعضائها في القدس.

اجتماع اللجنة التنفيذية وما جرى في صدد وفد الدعاية إلى لندن:

وقررنا عقد اجتماع للجنة، وتم هذا الاجتماع، وقد اقترح بعضهم إرسال وفد الى لندن للدعاية واستغلال الاضطرابات التي كان لها أثر قوي في العاصمة البريطانية على ما عرف من الأخبار والتعليقات الخ... التي كانت تنشرها صحفها، ومنها ما كان في جانب العرب وحقوقهم. ورشح جمال الحسيني للذهاب الى لندن، فحرك الترشيح التنافس بين الحسينية والنشاشيبية، فرشح بعضهم فخري النشاشيبي أو عزمي النشاشيبي، وسارع عوني عبد الهادي فرشح نفسه كحل وسط، وكان الموقف مضحكاً مبكياً في آن واحد، فدماء العرب تسيل والنعرة العائلية تبرز وتتحرك بقطع النظر عن أي اعتبار. وعطل هذا التنافس إقرار إرسال وفد باسم اللجنة للدعاية.

سفر جمال الحسيني الى لندن:

فما كان من جمال الحسيني إلا أن أعلن أنه سيذهب الى لندن على حسابه ليقوم بهذا الواجب الوطني، ونفذ عزيمته حيث سافر وبذل نشاطاً في الصحف والأوساط الإنكليزية فترة من الوقت.

دعوة اللجنة الى إجتماع عربي عام وقراراته:

وقد قررت اللجنة عقد اجتماع عربي عام، وتم عقده في مدرسة روضة المعارف، وخطب الخطباء طالبين الوقوف موقف الجد والعزم والإصرار على طلب الغاء وعد بلفور، لأنه سبب كل هذا البلاء، ولن تقف الاضطرابات إلا بالغائه. مع طلب قيام حكم وطني مسؤول أمام مجلس نيابي، والتزام الحكومة الانكليزية بمهمة الانتداب وفقاً لميثاق عصبة الأمم، وهي إرشاد الحكومة الوطنية المستقلة أسوة بما جرى في سورية ولبنان والعراق والأردن، وتقرر تقديم مذكرة مسهبة في هذا الأمر للحكومة الإنكليزية ولعصبة الأمم، وإصدار بيان قوي بذلك.

تضامن مختلف الميول وحيوية اللجنة التنفيذية في هذه الفترة:

ولقد كانت حركة ثورة البراق محركاً قوياً للهمم رغم كل شيء، وجعلت البارزين من مختلف الميول يتضامنون في الموقف بقدر ما يمكن، ونتيجة لذلك دبت الحيوية في اللجنة التنفيذية التي كانت كما ذكرنا مؤلفة من مختلف الميول، وصارت تعقد اجتماعات حافلة وتقرر قرارات وتصدر بيانات قوية، وإن لم تتخلص بالمرة من المنافسات والمناظرات. ومما يذكر أن الاجتماعات التي كان يبحث فيها مطالب البلاد وحقوقها وما يجب تقديمه في صدد ذلك من مذكرات ونشره من بيانات، كانت هادئة منسجمة كما يجب، ولم تكن حافلة حاشدة، في حين كانت المنافسات والمناظرات تشتد حينما كان يبحث في الأشخاص الذين يجب أن

يتولوا مهمات ما في داخل فلسطين وخارجها.

الاتفاق على المطالب العامة وانحصار التنافس في الأمور الشخصية والأسروية:

وكان كل من رأسي المتنافسين وأعني الحاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبي يبذل جهده لحشد الأنصار من أعضاء اللجنة حتى لا يتمكن أحدهما من استصدار قرارٍ لصالحه، وجعل الثاني أمام أمر واقع، فالطرفان اتفقا على قاسم مشترك، وهو المطالبة بحكم وطني مسؤول أمام مجلس نيابي بحسب نسبة الفلسطينيين، إنهاء الحكم الإنكليزي المباشر، وحصر مهمة الإنكليز بالانتداب حسب ميثاق عصبة الأمم، ولكنهما ظلا شديدي التنافس في المجال الأسروي والشخصي. وعلى كل حال، فقد كانت الحيوية وظلت قوية في اللجنة التنفيذية نحو سنة أو أكثر قليلاً.

تعيين صبحي الخضرا مديراً لمكتب اللجنة ونشاط اللجنة:

وعينت اللجنة مديراً لمكتبها وعهدت به الى صبحي الخضراء، وعينت له كاتبي يد مساعدين لكثرة ما كانت تعقده من اجتماعات وتصدر من بيانات ومذكرات، وصار المكتب يصدر نشرة أسبوعية في ما يكون من نشاطها، وما يكون من أخبار وأحوال، وصار مكتب اللجنة المؤلف من الرئيس والسكرتيرين الثلاثة يعقد اجتماعات يومية، وصارت اللجنة التنفيذية تعقد اجتماعات أسبوعية، وكنت أقضي يومين وأكثر في الأسبوع في القدس من أجل ذلك. ولقد كانت كثيرة العدد كما ذكرنا، حتى أنه حينما تقرر إيفاد وفد إلى لندن، رؤي أنه لا حاجة إلى عقد مؤتمر لذلك، وأن اللجنة بكثرة أعضائها من جهة وبكيفية تآلفها من مختلف الميول من جهة تكفي لذلك.

الثورة حركت النشاط الصهيوني كما حركت النشاط العربي:

واذا كانت ثورة البراق حركت الحركة الوطنية العربية، فيجب أن نسجل أنها حركت أيضاً النشاط الصهيوني اليهودي الذي كان فاتراً قبلها، والذي تبادر لنا أن زعماء الصهيونية أثاروا مسألة البراق الى تحريكه على ما ذكرناه قبل، وقد ساعد ظهور هتلر سنة 1930 وبعده على اشتداد هذا النشاط، واشتداد خطره على البلاد على ما سوف نشرحه.

رد فعل الثورة التأييدي في بلاد العرب:

ولقد هزت ثورة البراق الشعوب العربية خارج فلسطين، فاحتج أمير الأردن وعاهل الرياض، وقامت مظاهرات احتجاجية وتضامنية في سورية والعراق والأردن، وأخذ عدد كبير من الأردنيين يتهيأون للزحف نحو فلسطين، بل جاء منهم جماعات إلى جهة أريحا، وكان ذلك بعد توقف الإشتباكات، فأعيدوا مشكورين. وتألفت لجنة باسم لجنة إعانة منكوبي الثورة، وتبرع كثير من الميسورين لها من مختلف أنحاء فلسطين. كما ورد عليها تبرعات من سورية ولبنان والعراق والأردن، حتى بلغ ما ورد عليها (15000) جنيه. وهذا المبلغ في ذلك الوقت وبالنسبة لتاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية يعد كبيراً. وقد ساعد على تخفيف مصاب المنكوبين وأسرهم، كما ساعد على حيوية ونشاط اللجنة التنفيذية وسد شيئاً من نفقات وفدها الى لندن على ما سوف نشرحه بعد.

الاعتقالات والمحاكمات والأحكام نتيجة للثورة:

ولقد اعتقلت السلطات المئات من العرب والعشرات من اليهود وحاكمتهم، وحكمت على نحو عشرين من العرب بالإعدام، و25 بالمؤبد، وعلى المئات منهم بالسجن مدداً مختلفة، كما فرضت غرامات مالية على مدينتي الخليل وصفد وبعض القرى القريبة من يافا التي زحف بعض سكانها على المستعمرات المجاورة لها ونهبوها. وقد بدلت حكم الإعدام عن 17 إلى مؤبد، ونفذت الحكم في حزيران 1930 في ثلاثة منهم هم فؤاد حجازي من صفد، وعطا الزير وعبد القادر جمجوم من الخليل. أما اليهودي الذي كان شرطياً، وهو الذي ذبح إمام المسجد القريب من تل أبيب وأسرته على ما ذكرناه قبل فقد حكم بالإعدام ثم خفض الحكم إلى عشر سنوات. وكان لإعدام الثلاثة العرب رنة أسى شديدة، واحتفل بجنازتهم احتفالات عظيمة، وقد تركوا وصية وجهوا الخطاب فيها الى سليم عبد الرحمن الذي كان في ذلك الوقت من الشباب المتحمسين النشيطين، يوصون فيها الشعب العربي بالثبات والكفاح، ويقولون إنهم قابلوا الحكم وتنفيذه برباطة جأش وراحة ضمير لأنهم يذهبون فداء وطنهم وأمتهم رحمة الله عليهم رحمة واسعة. وقد ساعد على تخفيف مصاب المنكوبين وأسرهم، كما ساعد على حيوية ونشاط اللجنة التنفيذية.

شيء عن صبحي الخضراء ومحمد العفيفي:

ونقف قليلاً لنسجل شيئاً عن صبحي الخضراء ومحمد العفيفي، اللذين ورد اسمهما آنفا، والذين كان بيننا وبينهما صلة ود وصداقة وتعاون.

صبحي الخضراء:

ولقد كان صبحي شاباً طويلاً يقارب المترين، وكان بنيانه الجسدي متناسباً مع ذلك، وكان صارم التقاطيع عسكري السمة، وقد رأيته لأول مرة في دمشق في عهد فيصل، ولكن لم أتعرف عليه ولم أكلمه، وكان يشتغل في دائرة الأمن العام التي كان يتولى مديريتها في أوائل هذا العهد جبرائيل حداد، ويرد لذهني أنه كان التحق بجبهة فيصل حينما كانت في العقبة أثناء الحرب، وظل في دمشق إلى أن غزاها الإفرنسيون فخرج مع من خرج إلى شرق الأردن، ثم جاء الى فلسطين فأقام ردحا في صفد، ثم جاء الى القدس فأقام فيها ودرس الحقوق في معهدها، وكان وظل يواظب على مكتب محاماة عوني عبد الهادي في القدس متمرنا وموظفا فيه، ثم محاميا معه، وحينما اختير مديرا لمكتب اللجنة التنفيذية كان يقيم في القدس على هذا النحو. وفي سنة 1934 عين مأموراً لأوقاف عكا. وكنت مديراً عاماً للأوقاف وبذل جهوده في سبيل مهمته، وقام بإصلاحات عمرانية عديدة في عقارات الأوقاف ومساجد المنطقة. وقد يؤخذ عليه أنه كان فيه شيء من الخشونة، ولكن ذلك لم يكن ليغطي على جهوده ونشاطه ورجولته التي كانت هي الغالبة والتي كان ينطلق منها في أعماله وحركاته.

ولقد قرأت في كتاب الحركة العربية لسليمان موسى أن الإفرنسيين شكوا للإنكليز من تحركات السوريين في شرق الأردن، وأن الإنكليز طلبوا من فيصل الذي كان إذ ذاك في



المحكومون في مظاهرات نابلس 1930 بعد خروجهم من السجن في زيارة المحامي الأستاذ عادل زعيتر (في الوسط) لشكره على جهوده في الدفاع عنهم : من اليمين عمر النبط ، محمد علي دروزة ، جمال القاسم، فوزي الخياط ، أكرم زعيتر ، عادل كنعان ، ابراهيم الخماش .

لندن في شتاء سنة 1920 بعد خروجه من دمشق وقبل توليه لملك العراق، أن يوعز لأخيه بالهدوء والتهدئة، وأنه استجاب لطلبهم، وأن الإيعاز أرسل الى صبحي من جبرائيل حداد الذي كان مع فيصل، وأن صبحي جاء الى عمان وأبلغ الأمير عبد الله بما تلقاه، وأرسل برقية الى حداد بما فعل، حيث يفيد هذا أن الصلة ظلت قائمة بينه وبين حداد. وبعضهم يغمزه بهذه الصلة لأن حداد كان من رجال المخابرات الانكليزية، ومثل هذا الغمز كان بالنسبة للحاج أمين الحسيني على ما ذكرناه قبل. وقد قلنا أن الإنكليز كانوا أثناء الحرب وفي مبادىء هدنتها يعتبرون حلفاء للعرب ولا ضير من الاتصال بهم والعمل معهم، وهذا نقوله بالنسبة لصبحي الذي لم يلبث أن صار من الذين عرفوا بالصلابة الوطنية والوحدوية والاستقلال ومناوأة الانكليز، وتعرض من جراء ذلك لنقمتهم في مختلف مراحل النضال الوطني في فلسطين، وكان في اللجنة التنفيذية قوي الموقف ضدهم، ثم كان من مؤسسي حزب الاستقلال الذي أسسناه معاً في سنة 1932 على ما سوف نشرحه بعد، وشعاره مناوأة الإنكليز أولاً وبصراحة لأنهم أصل البلاء وأساس الداء.

ومن الإنصاف والأمانة أن أسجل أن هذا الشعار مما كان في بعض بيانات ومقالات صبحي، وظل قوي المناوأة لهم، واعتقلوه أكثر

من مرة في أثناء ثورة 36ـ 39، ثم اعتقلوه في أثناء الحرب، وظل معتقلاً إلى نهاية الحرب. واختير عضواً في اللجنة العسكرية التي ألفت للإشراف على حركة حرب التحرير الوطنية الفلسطينية وجيش الإنقاذ في سنتي 1947 و1948، وبذل جهوده في سبيل هذه المهمة، وكان يذهب الى صحراء ليبية لشراء مخلفات الحرب الألمانية والإنكليزية من قنابل وبنادق وعتاد، وأقام بعد النكبة في دمشق يجتهد مع المجتهدين في سبيل العمل الوطني التحريري، إلى أن وافاه أجله في دمشق 1954. وكان وظل إلى كل هذا مستقيماً في أخلاقه وسيرته الشخصية كل الإستقامة، ولقد تعرفت عليه في القدس أثناء دراسته للحقوق وعمله في مكتب عوني عبد الهادي، ثم في سياق عملي في مأمورية الأوقاف، وانسجمنا مع بعضنا في صداقة حميمة، وتعاونا أوثق تعاون في المؤتمر السابع، ثم في اللجنة التنفيذية، ثم في حزب الاستقلال، ثم في سياق العمل في الأوقاف. وغادرت أنا فلسطين واعتقل هو في فلسطين ثم اجتمعنا في دمشق في سنة 1947 وتعاونا معاً في سياق العمل في حرب فلسطين، وظللنا عل أوثق انسجام وصداقة الى النهاية. وأظن أنه يصغرني ببضع سنين.

محمد العفيفي:

ومحمد العفيفي هو من بيوت القدس العريقة، وقد درس دراسته الإعدادية في القدس ثم ذهب الى الآستانة، وتخرج من المدرسة الزراعية العالية في زمن الدولة العثمانية، واندمج في الحركة العربية، ورأته الهيئة المركزية للفتاة أهلاً لعضويتها فانضم إليها. واشتغل في زمن الدولة العثمانية في بعض الوظائف، ولم يؤثر عنه نشاط سياسي واسع وبعد انتهاء الحرب جاء الى القدس، واندمج في حركة النادي العربي مع الحاج أمين الحسيني وجماعته. ولما قام المجلس الإسلامي الأعلى عين مأموراً لأوقاف يافا، وكان نشيطاً في عمله. وكان تعرفي عليه في ظرف عملي مأموراً لأوقاف نابلس، وكنا نلتقي في القدس وفي يافا، وفي سياق العمل. وهو شاب ذكي ذو عقل حصيف ووطني مخلص ومستقيم الأخلاق وحسن السلوك والمعاشرة والإنسجام مع الناس، وإن لم يكن شديد الحماس والنشاط. وقد انسجمنا معا وقامت بيننا صداقة ومودة منذ ذلك الوقت، واستمرت الى النهاية. وقد نقل في أثناء عملي مديراً للأوقاف الإسلامية الى مأمورية أوقاف القدس، فتوائقت الصلة بيننا وتعاونا معاً في القدس، ثم افترقنا حيث غادرت فلسطين وأقمت في سورية. وبعد النكبة جاء هو إلى دمشق وأقام فيها ردحاً من الزمن، فتجددت صداقتنا، وكنا نتزاور ونتحاور ونجتهد مع المجتهدين في سبيل القضية. ثم عاد الى القدس وأقام فيها، وآخر مرة التقيت به في القدس سنة 1964، حيث زرت فلسطين بعد غياب سبع وعشرين سنة. وقد توفي في أواخر السبعينات وهو من جيلي أو ربما يصغرني بسنة أو سنتين.

* * *

33

قدوم الكابتن كاننغ بعد هدوء الثورة وما كان من أمره :

وأعود بعد هذا التوقف إلى ما جرى من أحداث في ظروف ما بعد ثورة البراق، فأقول إن الاشتباكات لم تكد تهدأ في فلسطين بين العرب واليهود، حتى رأينا شخصاً إنكليزياً سمى نفسه الكابتن كاننغ يهبط في فلسطين، ويتقدم إلى اللجنة التنفيذية والشخصيات العربية التي كانت تنشط وفي مقدمتهم الحاج أمين الحسيني كرجل مناصر للعرب، وكانت الأخبار تناقلت أنه ذهب إلى الأمير عبد الكريم الخطابي حينما كان يحارب الإسبانيين والإفرنسيين المحتلين لبلاد المغرب الأقصى في العشرينات من القرن الحاضر مناصراً له ولحركته. ونشرت جريدتا مرآة الشرق وفلسطين خبر قدومه الى فلسطين بأسلوب المعجب المرحب، كدليل على أن من الإنكليز شرفاء أحراراً يسارعون إلى مناصرة الحركات الوطنية التي تقوم في بلاد الشعوب المظلومة، ولو كان ذلك ضد حكومتهم، وأقيمت له حفلات شاي في القدس، وأبدى رغبته في زيارة بعض المدن الفلسطينية، وطلب مني الحاج أمين أن أرافقه إلى نابلس لأني نابلسي، ففعلت، وهتف لنابلس بخبر زيارته وضرورة الحفاوة به، فاجتمع جمهور كبير من وجوه البلاد وشبابها ومفكريها في بهو حديقة المنشية، وجئنا رأساً إلى المنشية حيث استقبله الجمهور المجتمع بالهتاف، وخطب بعض الخطباء منوهاً بالشرفاء من الانكليز وحاثاً لهم على الوقوف موقف الجد لحمل حكومتهم على وقف محاباتها لليهود، وعلى التسليم بحق العرب ومطالبهم في وطنهم الشرعي، وخطب هو الآخر مؤيداً للعرب ومطالبهم، شاجباً لسياسة حكومته ومحرضاً للعرب على الاستمرار في كفاحهم والإتحاد والتضامن، واعداً ببذل كل جهد في سبيل تصحيح مسار حكومته، ولم أخطب أنا في الحفلة.

وزار كاننغ حيفا ويافا وعكا، وجرى له فيهما ما جرى في نابلس. ثم غادر فلسطين مودعاً بحفاوة كما استقبل، ولم يعد يذكر له خبر وموقف، مما أوحى للأذهان أنه أرسل خصيصاً لخدمة الاسم الإنكليزي والصيت الإنكليزي في العدل والحقانية عن طريق المبالغة في العطف والتظاهر، لتظل قناعة الناس قائمة بوجود فريق في الإنكليز مضاد للاستعمار ومناصر لقضايا الشعوب المنكوبة، ويظل حسن الظن في الإنكليز موطداً إجمالاً. ومن الجدير بالذكر أن فخري النشاشيبي كان أشد الناس ترحيباً بالكابتن وملازمة له، ورافقه في حفلاته وتنقلاته، وبذل جهده في ما له من استقبالات وحفاوات واحتفالات، وفي الكلمة التي كتبناها عنه سابقاً، ذكرنا ما غلب على ظن كثير من الناس من علاقة فخري بالمخابرات الإنكليزية، فضلاً عن صلاته باليهود، بحيث يمكن الربط بين هذا أو ذاك. والقول أن الكابتن من المخابرات الإنكليزية التي رأت أن ترسله للتهدئة والتسكين وتحسين السمعة الإنكليزية، وإن ما كان من ذهابه إلى عبد الكريم الخطابي هو من هذا الباب أيضاً.

***

34

قدوم فيلبي بعد كاننغ وما كان بين رجال الحركة وبينه من مفاوضات ومصير ذلك:

ولم يكد كاننغ يغادر حتى جاء إنكليزي آخر هو فيلبي، وهذا لم يكن غريباً على العرب، فقد كان معتمداً للحكومة الإنكليزية لدى الأمير عبد الله في عمان في أوائل إمارته، ثم التحق بالملك عبد العزيز آل سعود ولازمه، وأظهر إسلامه، وصار يبدو عروبياً إسلامياً في زيه وأفكاره وعواطفه، وهو في الوقت نفسه بحاثة آثار على ما عرف من رحلاته الاستكشافية في جزيرة العرب، ومما نشر له من مقالات وكتب. وقد جاء إلى فلسطين متكتماً أو متصنعاً للتكتم، واتصل أول ما اتصل بأحمد حلمي باشا، وكان هذا يشغل وظيفة مراقب عام الأوقاف، وكان يحمل إليه كتاباً من فارس الخوري الذي كان بينه وبينه زمالة في وزارة المالية في العهد الفيصلي، ومع الكتاب الذي كتب على ورقة مطبوع عليها إسم فارس الخوري نص إتفاق مكتوب كذلك على ورقة مماثلة، وقال فارس في كتابه أن فيلبي جاء إلى دمشق، وطلب منه أيصاله بقادة الحركة الفلسطينية، وكتب نص الاتفاق وقال له أن فيه حلاً مرضياً للقضية الفلسطينية. وطلب فارس في كتابه من أحمد حلمي تهيئة اجتماع بين فيلبي وبين الحاج أمين ورفاقه من رجال الحركة لدراسة نص الاتفاق الذي يأمل أن يكون فيه خير لقضية فلسطين. ولقد عقدت بضعة اجتماعات مع فيلبي في بيت أحمد حلمي الذي كان قرب أحد أبواب الحرم القدسي، وكنت أنا ممن اشترك في هذه الاجتماعات التي اشترك فيها الحاج أمين الحسيني وأمين التيممي وعجاج نويهض، الذي يشغل مهمة مفتش المحاكم الشرعية في المجلس الإسلامي، والذي كان يحسن الإنكليزية. ويرد لذهني أن إسحق درويش والشيخ حسن أبو السعود كانا من جملة المشتركين فيها.

وقد نبه فيلبي في أول اجتماع إلى ضرورة بقاء خبر قدومه واجتماعاته بنا مكتوماً، وكانت الوزارة البريطانية في هذا الظرف في عهد حزب العمال ورئيسها ماكدونالد ووزير مستعمراتها باسفيلد، وقال لنا فيما قال أنه من حزب العمال، وأنه حينما علم بالاضطرابات إتصل به بعض كبار رجال الحزب الذين لهم صلة بباسفيلد، والذين كانوا يعرفون عروبية فيلبي وإسلاميته وتهيؤه في السفر إلى الحجاز، وأظهروا استعداداً للسعي في ايجاد حل مرض لقضية فلسطين، وكلفوه وهو في طريقه إلى الحجاز أن يمر بفلسطين ويدرس الحالة ويقدم لهم تقريراً واقتراحات بما يراه. وقال أنه خطر له أن يضع نص الاتفاق الذي عرضه على فارس الخوري للاستشارة، والذي جاء به مع كتاب من فارس لمناقشته مع زعماء الحركة الفلسطينية، تمهيداً لتقديم ما يتم عليه البحث، مع تقريره إلى أصدقائه، وبذل الجهد معهم في حمل حكومة العمال على قبولها. وقال أنه أطلع فارس الخوري على النص، وأن هذا اقترح بعض تعديلات عليه فوافق، وكانت هذه التعديلات بارزة في الورقة، حيث شطب فيها بعض العبارات ووضع بدلاً منها. وكاد فلبي يشعرنا أنه جاء خصيصاً، وأنه على صلة وثيقة مع باسفيلد نفسه، رغم ما كان يقوله من أنه لا

يتكلم باسم أحد، وأن المشروع من وضعه دون علم أحد من رجالات الإنكليز. وقد أوردت نص الاتفاق الذي عرضه علينا في الجزء الثالث من كتابي [(حول الحركة العربية الحديثة)، وصار (الجزء الأول) من كتابي (قضية فلسطين في مختلف مراحلها)] في طبعة ثانية.

ولقد ظننا أن الأمر جد، وأخذنا نبحث مع فلبي في النص ونعدل ونبدل فيه، وعلى ضوء ذلك قدم فيلبي نصاً جديداً قال إنه نهائي وأنه يبذل جهده لتمشيته. والنص الجديد أيضاً أوردته في كتابي الآنف الذكر، وصار أحسن من النص الأول من ناحية الحكم الوطني، ومستساغاً على ضوء حالة الوهن التي طرأت على الحركة الوطنية التي أملت على المؤتمر السابع قراره بالإكتفاء بالمطالبة بحكم وطني نيابي على ما ذكرناه قبل، ولا سيما أن قيام حكم وطني مسؤول أمام مجلس نيابي بأكثرية عربية يعد خطوة تطورية كبيرة، لأن الحكم القائم هو حكم إنكليزي مباشر، ولأن الإنكليز ظلوا يرفضون قيام حكم وطني لأنه سيعطل تنفيذ وعد بلفور والتزاماتهم نحو اليهود الواردة في صك الإنتداب.

ولقد كانت حركة نمو الوطن القومي في هذا الوقت فاترة تجر نفسها جراً، وكانت التبرعات التي ترد على الوكالة اليهودية ضئيلة، كما كان عدد المهاجرين الجدد قليلاً، وعدد النازحين عن فلسطين كبيراً بقدر الجدد وأكثر، فكان قيام حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي بأكثرية عربية كبرى كفيلاً بوقف نمو الوطن اليهودي القومي وبقائه في حدوده الخيالية الرمزية، وكان عدد اليهود القدماء والجدد في هذا الوقت نحو مائة وخمسين الفاً.

وغادر فيلبي فلسطين على وعد أن يتصل بنا.

ومن عجيب ما كان أن الحاج أمين بعد بضعة أيام فوجيء بشخص يهودي إسمه ليفي، يتصل به ويقول له أنه مراسل جريدة التايمس وأنه يحمل كتاباً من فيلبي يذكر فيه أنه جعله صلة بينه وبينه في الموضوع الذي جرت المداولة فيه، واستأذنه أن يأتي ويلتقي به ويتحدث معه. وقد رفض الحاج أمين استقباله والتحدث معه بالتالي، وأرسل إلى فيلبي كتاباً يعتب عليه ويذكر تناقضه من حيث إنه كان يظهر شدة الحرص على بقاء خبر قدومه إلى فلسطين واجتماعه مع زعماء الحركة الوطنية العربية في نطاق الكتمان الشديد، ومن تمام القصة أن فيلبي أرسل جواباً للحاج أمين يعتذر ويقول إنه يثق بليفي، وأنه رأى أن لا بد من شخص يكون صلة ووسيطاً ثم يطلب مبلغاً من المال ليقوم برحلة إلى بريطانيا لمتابعة القضية. وقد كان هذا الحادث الذي وقف عند هذا الحد لغزاً ثانياً من باب لغز زميله السابق كابتن كاننغ.

شيء عن عجاج نويهض:

وعجاج نويهض الذي مر اسمه لأول مرة في هذه المناسبة، ممن تعرفنا به وانعقدت صداقة وثيقة وتعاون بيننا وبينه، ويحسن أن نقول كلمة استطرادية عنه، ولقد التقيت به لأول مرة في القدس في المجلس الإسلامي حينما صرت مأموراً لأوقاف نابلس، وكان يشغل وظيفة مفتش المحاكم الشرعية، ويجيد الإنكليزية والعربية كتابة ونطقاً. وهو خطيب مفوه بالعربية خاصة، وكثيراً ما كان يخطب ارتجالاً ومحمساً في خطبه، ويؤثر على سامعيه تأثيراً شديداً. وثقافته العربية والغربية حسنة، وفيه ميل للجدل والمعارضة، وفيه شيء من الإعتداد بالنفس. وقد درس في برمانا وسوق الغرب، ودرس في

القدس الحقوق في معهد الحقوق الذي أنشأته إدارة الإنتداب، ونال إجازة هذا المعهد، ولا أعرف ظروف مجيئه إلى فلسطين وتعيينه مفتشاً للمحاكم الشرعية، وهو من دروز جبل لبنان. وكان المجلس ويُغمز بتعيينه مفتشاً للمحاكم الشرعية مع درزيته وعدم ثقافته ثقافة دينية إسلامية، وعدم تزييه بالزي الإسلامي الديني، وكان هذا أو ذاك مما يتناسب مع وظيفته المذكورة. هذا مع ترجيح أن درزيته كانت أنتماءً لا مذهباً دينياً بالنسبة له، وكان المجلس والحاج أمين بخاصة ينتفعون بمعرفته اللغة الإنكليزية، حيث كان يترجم ويكتب الرسائل الإنكليزية، ويترجم بين الحاج أمين وزواره من الأجانب. ولعل هذا كان مما رشحه أو رجحه لوظيفته المذكورة. ولم نلبث بعد لقائين أو ثلاثة أن صرنا أصدقاء متواثقين، وهو دون سني، وفيه صمم ولكنه أخف من صممي، وكان يبدو صلباً قوياً في وطنيته وعروبيته ووحدويته واستقلاليته وعدائه للإنكليز والإستعمار، فكان هذا مما وثق بيننا أيضاً.

وكان ينتقد أعمال المجلس وتصرفات رئيسه وأعضائه، ثم بدا له أن ينشيء مطبعة ويصدر مجلة فاستقال من وظيفته، وأنشأ مطبعة سماها العرب، وأصدر مجلة اسبوعية بنفس الاسم، وأعرف أن الحاج أمين حاول كثيراً أن يصرفه عن الإستقالة وأن يبقيه في المجلس حتى أنه أخر عرض الاستقالة على المجلس على أمل إقناعه بسحبها، ولكن ذلك لم يجد. ونفذ عزيمته وصار انتقاده وتجريحه للمجلس وبخاصة للحاج أمين صراحة بعد أن كان همساً وخاصاً، وكان ذلك في ظروف استعدادنا لإنشاء حزب الاستقلال الذي أنشأناه منفردين عن الحاج أمين، والذي كان عجاج من مؤسسيه على ما سوف أشرحه بعد، أي في سنتي 1931 و1932. وكنت أتردد على مجلته الذي كان مخزنين مفتوحين على بعضهما في إحداهما المطبعة وفي إحداهما المكتب، (في باب الجديد) في طريق نوتردام الصاعد إلى الأحياء القدسية الجديدة خارج السور.

وكنت أكتب في المجلة نبذة أسبوعية كثيراً ما تكون بعنوان (نظرات سائح في الصحف)، أعلق فيها على أخبار وأقوال الصحف، وكنت أحياناً أكتب نبذاً بتوقيعي رداً على بعض الأقوال أو توضيحاً لبعض الأمور. وصار عجاج يتعرض لنقمة الحاج أمين وأنصاره وعدائهم للمجلة وتحريضهم عليهما، ولقد تعثر عمله في المجلة والمطبعة، ولم يتحقق ما كان يأمله منها من ريع واكتفاء لأمر المعيشة، وصار يعزو ذلك لتلك النقمة، ويزداد نقداً وتجريحاً للحاج أمين وجماعته. وكان صديقاً لعوني عبد الهادي وصبحي الخضراء وعمر الصالح البرغوثي وغيرهم من شباب القدس، وصار له إسم علمي وسياسي، وكان يُدعى إلى الخطابة والمحاضرة في الأندية والمناسبات، ويحتشد الناس لسماعه.

وحينما قررنا إنشاء حزب الاستقلال كان هو من عداد مؤسسيه وهيئته المركزية، وكان شديد الحماس ضد الإنكليز وسياستهم، وكان في كل إجتماع عام يعقده الحزب يخطب خطباً نارية، وكثيراً ما كان يكتب مسودات المناشير والبيانات التي كنا ننشرها باسم الحزب وفيها حملات قارعة ضد الانكليز، وكان أكثر انتقاده للحاج أمين بسبب ما يبدو من الحاج من المسايرة للسلطات الانتدابية ورئيسها المندوب السامي، وهي المسايرة التي شرحنا ظروفها ومداها في الكلمة التي كتبناها عن الحاج أمين. ولما أعلن الإضراب العام الطويل، وصار من الضروري إنشاء لجنة عربية علناً، ورشحنا الحاج أمين

لرئاستها اشتد غضبه كثيراً. وكان في احدى غرف بيتي في القدس بحيث كنا نجتمع في غرفة ثانية مع الحاج أمين والآخرين لأجل تأليف اللجنة على ما سوف أشرحه بعد، حتى كاد ينفجر غضباً بحجة أن الرئاسة ستمنح الحاج أمين قوة ونفوذاً، زاعماً أن قوته ونفوذه شعبياً قد تضاءلا بسبب تلك المسايرة، وكان زعماً غير صحيح.

وقد ظل من جهة شديد الحماس ضد الانكليز، ومن جهة شديد التجريح للحاج أمين، ونقم عليّ وعلى معين وعلى عوني لأننا رأينا أن ظروف الإضراب وما كان يرجى من نجاحه وآثاره في قوة الحركة الوطنية وأهدافها تقتضي الانسجام مع الحاج أمين ومع اللجنة العربية العليا. وقد انسجمنا فعلاً معهم بسبيل ذلك.

ولقد كان عجاج من أوائل من اعتقلتهم السلطات حينما أخذت تعتقل النشيطين والبارزين في الحركة الوطنية أثناء الإضراب الطويل والثورة التي انبثقت منه، وبعد فك الإضراب وإطلاق سراحه من المعتقل ظل على خطه المزدوج، إلى أن قتل حاكم الناصرة الإنكليزي أندروز في ايلول 1937، واشتد التوتر المنذر بإندلاع الثورة، وعزلت السلطات الحاج أمين من رئاسة المجلس وعزلتني من مديرية الأوقاف، ووضعت يدها على المجلس والأوقاف، وحلت اللجنة العربية العليا واعتقلت ونفت أعضاءها، وحلت اللجان القومية واعتقلت المئات من أعضائها، وحاصرت الحاج أمين في الحرم بقصد اعتقاله، ولكنه استطاع الافلات والخروج من فلسطين إلى لبنان وحينئذ تحرك راغب النشاشيبي وحزبه (حزب الدفاع) وأعلن استعداده لسد الفراغ في الحركة الوطنية واستلام زمامها. وفوجيء الناس بعجاج ينحاز الى راغب ويؤيده في حركته التي قوبلت من الجمهور بغضب ومقاطعة، ودمغ بأنها من إيعاز السلطات، واندلعت الثورة وقويت في سني 1937 و1938 و1939 قوة عظيمة، وكان راغب وحزبه ضدها مما جعلها تتجهم لهم وتضطر كثيراً منهم إلى الفرار من فلسطين خوفاً على حياتهم، وقبع عجاج في بيته منزوياً.

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية فوجيء الناس بعجاج مراقب القسم العربي في إذاعة فلسطين الإنتدابية الإنكليزية، موظفاً يمارس مهمته التي كانت تأييداً للانكليز وحلفائهم محلياً وعالمياً، إلى أن انتهت الحرب، فخرج الى شرق الأردن ثم إلى لبنان، حيث أقام في بلده يكتب بعض المقالات والكتب ويلقي بعض المحاضرات.

وكان ترجم وهو في فلسطين كتاب حاضر العالم الإسلامي للمستشرق ستيوارت، واستكتب الأمير شكيب أرسلان هوامش للكتاب مسهبة عن أحوال المسلمين والإسلام في مختلف أنحاء الأرض زادت الكتاب قيمة وكبرت حجمه، وإلى ذلك ما يعزى ما لقيه من رواج انتشار، وترجم بروتوكولات حكماء صهيون وعلق عليها أيضاً، وكان عملاً نافعاً. وقد يكون له كتب أخرى لا أعرفها.

ومع ذلك فقد علمت أنه حين مغادرته فلسطين إلى شرق الأردن في أواخر الحرب كان في عسر مالي شديد.

وكان آخر عهدي به في مأتم المرحوم صبحي الخضراء في دمشق 1956، وهو بالمناسبة عديله، وزوجتاهما اختا المجاهد فؤاد سليم اللبناني الدرزي، وزارني في بيتي. وقد توفي في أواخر عام 1982 رحمة الله عليه.

***

فارس الخوري
محام
استاذ في معهد الحقوق
عضو في المجمع العلمي العربي
عضو في مجمع العلوم السياسية الاميركي

(٢)

دمشق في ٢٢ [illegible] ١٩٢٩

تدار فلسطين بواسطة حكومة جمهورية دستورية

يقوم بالتشريع مجلس نيابي منتخب باحدث طرق الانتخاب يمثل فيه العرب واليهود بنسبة عددهم الفلسطينيين المقيمين في البلاد ولا يدخل الغائبون في تحديد النسبة ولا في الانتخاب وهو بمثابة [illegible]

القوة الاجرائية تقوم بها حكومة وطنية مسؤولة امام المجلس النيابي يمثل فيها العرب واليهود ايضاً.

~~يشرف المندوب السامي البريطاني على اعمال التشريع والتنفيذ ويكون له~~ للمندوب [illegible] حق الاعتراض على كل قرار ~~يخالف تعهدات بريطانيا في انتدابها على فلسطين من جهة حقوق الاقليات~~ [illegible] وحقوق الاجانب ~~وعوائد البلاد~~

يحق للمندوب ان ينصب رقباء يعاونونه في تنفيذ المهمة

لا يمنع الاجانب عن الهجرة الى فلسطين خصوصاً العرب واليهود وانما يحق لحكومة فلسطين ان تحدد العدد المستطاع قبوله سنوياً بحسب استعداد البلاد الزراعي والاقتصادي [illegible]

لا مانع من بقاء الوكالة اليهودية مرجعاً استشارياً للحكومة الفلسطينية في المصالح التي تعود لليهود ويحق للعرب ان يؤسسوا وكالة عربية من وجه تؤازر الحكومة في مصالح العرب.

يبقى المندوب السامي مسؤولاً عن الامن العام الى ان تجد الحكومة الوطنية حالة لتحمل مسؤوليته وتخليه عن ذلك تدريجياً.

يعاد النظر في شكل الادارة [illegible] كل خمس سنوات.

[illegible]

اذا اصدرت حكومة بريطانيا بياناً بهذه الامور تعقبه ذلك حالاً التسوية.

مشروع إدارة حكومة جمهورية دستورية
أعده فارس الخوري (بخطه) أرسله
بصحبة المستشرق الانكليزي فيلبي.

-١-

١- تدار فلسطين بواسطة حكومة وطنية دستورية.

٢- تقوم بالتشريع مجلس نيابي منتخب يمثل فيه العرب واليهود بنسبة عدد السكان الفلسطينية وهو نسبة عدد السكان مع الدستور.

٣- السلطة الاجرائية تقوم بها حكومة وطنية مسؤولة امام المجلس النيابي يمثل فيها العرب واليهود الفلسطينيون.

٤- للمندوب السامي حق الرد لكل قرار او قانون يناقض تعهدات بريطانيا الدولية المتعلقة بحقوق الاقليات [illegible] والاثار الدينية والتعليمية. وفي حال الخلاف يرفع الى عصبة الامم لحله.

-٢-

٥- يحق للمندوب السامي ان [illegible] بمساعدة [illegible] تنفيذ [illegible].

٦- لا [illegible] عن الهجرة الى فلسطين [illegible] العرب واليهود [illegible] وانما [illegible] للحكومة [illegible] [illegible] الاقتصادي والاجتماعي.

٧- [illegible]

٨- يبقى [illegible] الامن العام [illegible] قوة البوليس [illegible] الوطنية.

-٢-

ونفقاتها عليها

٩- يسلم الخط الحجازي الممتد في اراضي فلسطين لادارة الاوقاف الاسلامية في فلسطين على ان تجري تسوية عادلة في الايرادات الموجودة بين المناطق الاخرى وان يقبل المجلس الاسلامي بتوحيد ادارته.

١٠- تتعهد الحكومة الوطنية بحرية الاديان ~~[illegible]~~

١١- تتقيد الحكومة الوطنية بالديون العامة وبالاتفاقات والمعاهدات ~~[illegible]~~ التي وقعت بها حكومة فلسطين والاقطار المجاورة.

١٢- يعاد النظر في هذه المواد ~~[illegible]~~ مرة كل خمس سنوات ~~[illegible]~~

المشروع المعدل المقدم من قبل الشخصيات الفلسطينية إلى (فيلبي) الانكليزي بمقابلة مشروع فارس الخوري (بخط عزة دروزة).

الصيغة الاولى

١) تدار فلسطين بواسطة حكومة جمهورية دستورية .

٢) يقوم بالتشريع مجلس نيابي منتخب يمثل فيه العرب واليهود بنسبة عدد الساكنين الفلسطينيين وهو يصادق على الدستور .

٣) القوة الاجرائية تقوم بها حكومة وطنية مسئولة امام المجلس النيابي يمثل فيها العرب واليهود الفلسطينيون .

٤) للمندوب السامي حق الرد لكل قرار او قانون يناقض تعهدات بريطانيا الدولية المتعلقة بحقوق الاقليات والاجانب والامور الدينية والعمرانية . وفي حال الخلاف يرفع الى عصبة الامم .

٥) يحق للمندوب السامي ان ينصب مساعدين وموظفين يعاونونه في تنفيذ مهمته .

٦) لا يمنع الاجانب من الهجرة الى فلسطين خصوصا العرب واليهود وانما يحق لحكومة فلسطين ان تحدد العدد المستطاع قبوله سنويا وصفاته بحسب استعداد البلاد الاقتصادي والاجتماعي .

٧) لا مانع من بقاء الوكالة اليهودية مرجعا استشاريا في المصالح التي تعود لليهود ويحق للطوائف الاخرى ان ينشئوا وكالات مساوية لها في الحقوق .

٨) يبقى المندوب السامي مسئولا عن الامن العام الى ان تصير الحكومة الوطنية قادرة على تحمل مسئولية الامن العام . ويكون الجيش تحت سلطة المندوب السامي ونفقاته على بريطانيا وتكون قوة البوليس تحت سلطة الحكومة الوطنية ونفقاتها عليها .

٩) يسلم الخط الحجازي المحدد في اراضي فلسطين لادارة الاوقاف الاسلامية في فلسطين على ان تجرى تسوية عادلة في الادوات الموجودة بين المناطق الاخرى وان يقبل المجلس الاسلامي بتوحيد ادارته .

١٠) تتعهد الحكومة الوطنية بحرية الاديان .

١١) تتعهد الحكومة الوطنية بالديون العامة وبالاتفاقات والمعاهدات التي وقعت بين حكومة فلسطين والاقطار المجاورة .

١٢) يعاد النظر في هذه المواد مرة كل خمس سنوات .

الصيغة الثانية

١) فلسطين منذ الان تدار على اساس ديموقراطي جمهوري دستوري .

٢) الهجرة الى فلسطين حرة خصوصا للعرب واليهود بشرط مراعاة مصلحة البلاد واستطاعتها الاقتصادية على هضم المهاجرين .

٣) جميع السلطة التشريعية تكون لمجلس نيابي منتخب من قبل الفلسطينيين القاطنين في فلسطين يمثل فيه العرب مسلمين ومسيحيين واليهود بنسبة عدد كل منهم . وهذا المجلس يصادق على الدستور .

٤) لكل من قطن فلسطين سنتين على الاقل بدون انفصال حق اختيار الجنسية الفلسطينية .

٥) السلطة التنفيذية منوطة بوزارة فلسطينية مؤلفة من مسلمين ومسيحيين ويهود بنسبة عددهم وتكون مسؤولة امام المجلس النيابي عن ادارة البلاد . ويجب اتخاذ الترتيبات اللازمة لتعيين المسلمين والمسيحيين واليهود في الوظائف العليا والثانوية بنسبة عددهم وكفاءتهم .

٦) يبقى المندوب السامي هو المسؤول عن الامن العام في البلاد الى ان تصبح الحكومة الوطنية قادرة على تحمل هذه المسؤولية باعتراف جمعية الامم . وتكون القوات المسلحة النظامية في البلاد تحت ادارته على شرط ان يكون للحكومة الوطنية الحق في تشكيل قوات بوليسية لاجل الادارة المحلية مؤلفة من مسلمين ومسيحيين ويهود بحسب عددهم .

٧) للمندوب السامي حق الرد لكل عمل تنفيذي من قبل الحكومة او قرار تشريعي من قبل المجلس النيابي اذا كان مخالفا لمبادئ تعهدات حكومة بريطانيا الوطنية الدولية او مضرا بحقوق الاقليات والاجانب وسلام البلاد وتقدمها . على شرط ان يكون للحكومة او المجلس النيابي حق عرض الخلاف على عصبة الامم لاجل حله .

٨) تبقى الوكالة اليهودية معترفا بها كهيئة طائفية عامة لها الحق بان تكون مرجعا استشاريا ومساعدا لجميع الامور التي لها علاقة بيهود البلاد . ويعترف بحق الطوائف الاخرى الاسلامية والمسيحية في تشكيل وكالات يكون لها نفس الصلاحية والوضعية .

٩) الحكومة الفلسطينية تكون مسؤولة عن جميع الديون والمعاهدات الدولية التي عقدت للحكم باسمها .

١٠) يعاد النظر في هذه الترتيبات مرة كل خمس سنوات . ويجب ان يقترن التحوير الذي قد يقع فيها بموافقة لجنة مجلس جمعية الامم .

Palestine. (final draft).

1. Palestine shall henceforth be administered on a democratic constitutional republican basis.

2. Immigration to Palestine shall be free, especially to Arabs and Jews, subject to due regard for the interests of the xxx country and its economic capacity to absorb such immigrants.

3. All legislative authority shall vest in a representative assembly elected by persons of Palestinian nationality resident in Palestine and comprising Arabs (Muslims and Christians) and Jews in proportion to their numbers in the population.

4. Any person who has resided continuously for a period of not less than two years in Palestine is entitled to adopt Palestinian citizenship.

5. Executive authority shall vest in a Palestinian council of ministers comprising Arabs (Muslims and Christians) and Jews in the same proportions as above and responsible to the xx representative assembly for the administration of the countr and adequate provision shall be made for the enlistment of Arabs and Jews for both the senior and junior grades of the administrative services with due regard to their numbers and qualifications.

6. The High Commissioner shall remain responsible for the public security of the country until such time as in the opinim of the League of Nations the Palestine Government shall be capable of discharging such responsibility; and the armed fx forces in the country shall be under his direct control providedx that the Palestinian Government may raise police farm forces for the purposes of the local administration, and such forces shall be composed of Arabs and Jews in proportion to their numbers.

7. The High Commissioner, on behalf of the League of Nations shall have a right of veto over any executive or legislative act of the Palestinian Government or representative assembly which is inconsistent with the proper exercise of of its international obligations by the British Government or detrimental to the rights of minorities and foreigners or injurious to the peace and prosperity of the country; provided tx that the representative assembly or Government shall have a right of appeal to the xxxxx Council of the League for the solution of any dispute.

8. The Jewish Agency shall continue to be recognised as a public body competent to advise and cooperate with the Palestinian Government in all matters affecting the interests of the Jews in the country; and the Muslim and Christian communities shall have the right to set up similar agencies with similar status and functions.

9. The Palestinian Government shall assume full responsibility for all debts and international treaties heretofore contract

Palestine. (final draft) 2.

contracted in its name.

12. These arrangements shall be subject to review and revision by the Council of the League of Nations at intervals of five years; and no basic alteration shall be made in x them otherwise than by an unanimous vote of the Council of the League.

31-10-29.

النص الانكليزي للمشروع المعدل (فيلبي).

سرية

فلسطين (الصيغة الثانية)

١- تدار فلسطين من الآن على أساس جمهوري دستوري وديموقراطي.

٢- الهجرة الى فلسطين حرة، ومفتوحة للعرب واليهود، ولكن مع اعتبار صالح البلاد وطاقتها الاقتصادية.

٣- تكون السلطة التشريعية بكاملها في مجلس تمثيلي ينتخبه أشخاص ذوو تابعية فلسطينية مقيمون فيها ويتألف هذا المجلس من عرب (مسلمين ومسيحيين) ويهود بنسبة كل منهم الى العدد العام.

٤- لكل شخص أقام في فلسطين إقامة متصلة لا تقل عن سنتين له حق التمتع بالتابعية الفلسطينية.

٥- السلطة التنفيذية تكون في مجلس وزراء فلسطيني ويتألف من عرب (مسلمين ومسيحيين) ويهود على نسبة الفئتين المذكورتين، ومجلس الوزراء يكون مسؤولاً للمجلس التمثيلي في إدارة البلاد، ويُنص خصوصاً على توظيف العرب واليهود في الوظائف العالية والثانوية في المصالح الحكومية مع اعتبار عددهم وكفاءتهم.

٦- يبقى المندوب السامي مسؤولاً عن الأمن العام في البلاد الى أن تغدو حكومة فلسطين برأي عصبة الأمم قادرة على القيام بهذا العبء. وتكون القوات المسلحة في البلاد تحت إمرته مباشرة على أن يكون باستطاعة حكومة فلسطين أن تؤلف قوات ومليس لأغراض الإدارة المحلية، من عرب ويهود على مقتضى النسبة العددية.

٧- يكون للمندوب السامي بإشراف عصبة الأمم حق (الرفض والرد)(١) ضد حكومة فلسطين والمجلس التمثيلي بشأن أي قانون أو مقرر يصدر منهما عندما يكون ذلك غير متفق مع الالتزامات الدولية المقيدة بها عصبة الأمم والموكول في رعايتها للحكومة البريطانية، أو عندما يكون مجحفاً بحقوق الأقليات والأجانب، أو منافياً لحالة البلاد في السلم والنظام، على أن يكون للمجلس التمثيلي أو للحكومة حق رفع الأمر الى مجلس عصبة الأمم للفصل فيه.

٨- تظل الوكالة اليهودية معترفاً بها هيأة عامة لها صفة أداء المشورة وتقديم المعونة لحكومة فلسطين في جميع الشؤون التي تمس مصالح اليهود في البلاد. ويكون للمؤتمرات الإسلامية والمسيحية حق تأليف وكالة لهذه مماثلة لها في الصفة والصلاحية.

٩- تأخذ حكومة فلسطين على عاتقها جميع المسؤولية من جهة الديون والمعاهدات الدولية التي عُقدت الى اليوم بشأنها.

١٠- ينفذ هذا الاتفاق [الترتيبات] تابعة لشرط المراجعة والتنقيح من قبل مجلس عصبة الأمم في نهاية كل خمس سنوات، ولا يجري عليها تبديل إلا بموافقة إجماعية من مجلس العصبة.

٢١/١٠/١٩٢٩

(١) هو الحق المعروف بـ (veto) بالعرف السياسي هو حق منع سن القانون أو منع تنفيذه أو رفضه. (المحرر)

(٨ ٨)

Allenby Hotel
Telegrams: Allenby Hotel.
Telephone: 28
P.O.B. 349

Jerusalem the Nov. 3 1929.
Palestine

٣ نوفمبر ١٩٢٩

His Eminence
The Grand Mufti
Jerusalem.

Your Eminence,

I am enclosing herewith the final draft as planned by Mr. St. John Philby together with Your Eminence when he was in Jerusalem last Wednesday, Oct. 30th in the afternoon and again later in the evening, in connection with the proposed agreement as a solution of the existing political situation in Palestine.

I was asked by Mr. Philby to carry on negotiations in his absence and to report to him to Jidda. I would appreciate it, therefore, if you would kindly inform me at your earliest convenience when and where I could meet Your Eminence.

Very sincerely your

Joseph M. Levy

سماحة المفتي الأكبر بالقدس
صاحب السماحة — مرسل طيه الصيغة
النهائية التي وضعها مستر فلبي مع سماحتكم
لما جاء في القدس يوم الاربعاء الماضي
في ٣٠ اكتوبر بعد الظهر ثم في المساء ، فيما يتعلق
بالاتفاق المقترح حلاً للحالة السياسية الحاضرة في
فلسطين . وقد طلب مني مستر فلبي ان اواصل
المفاوضات اثناء غيابه وان اعلمه بالنتيجة الى جدة
ولذلك اكون شاكراً اذا تفضلتم سماحتكم بإعلامي بأقرب
وقت ممكن متى واين استطيع الاجتماع بسماحة المفتي
يوسف م ليفي

كتاب جوزيف ليفي الى سماحة المفتي
المرفق بالصيغة التي وضعها فيلبي لمشروع
حل المسألة الفلسطينية .

جناب الصديق المستر فلبي المحترم

بعد تقديم التحيات والاحترام ابدي انه اتضح انكم كنتم في القدس وسوريا فاسفنا
[illegible] وحرماننا من مقابلتكم . ثم اخبركم ان الرئيس الحسيني وصل اليه كتاب
بامضاء المستر يوسف ليفي ارسل اليكم صورة عنه وقد استغربنا ذلك . ولكنكم كنتم
قلتم ان يبقى حديثنا مكتوماً بيننا ولم يصل الينا منكم كتاب يبين فيه الاسباب التي
جعلتكم تفاتحون هذا الرجل بالحديث وتطلبون منه ان يراجعنا ويكلمنا في الامر .
وزاد هذا الامر غرابة ان بعض الجرائد اليهودية نشر خبر قدومكم الى القدس واجتماعكم
مع بعض زعماء العرب . فلذلك رأينا قبل كل شيء ان نكتب اليكم ونطلب منكم تفسير هذا
الحادث واعطاء الايضاح الكافي عنه . لاننا خشينا ان يكون هناك لعبة يهودية
فالرجاء ان ترسلوا الينا كتاباً بأسرع ما يمكن يوضح هذه المسألة وان يكون
كتابكم صريحاً .. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

[illegible]

كتاب عزة دروزة والمفتي الى فيلبي بالاعتراض على تكليف يوسف ليفي بتسليم رسالته إليهم .

الى صاحب السعاده حضرة احمد باشا حلمي المحترم

بعد تقديم واجبات الاحترام والسؤال عن صحتكم الكريمه فقد اخذت كتابكم
بتاريخ 7 نوفمبر و فهمت مضمونه و هو انكم مستغربين لاني كنت ارسلت
صورة الشروط التي كنا وافقنا عليها بواسطة صديقي المستر ليوى الى سماحة
المفتي و السبب انه هذا الرجل بصفة ممثل جريدة نيويورك طايمس له
نفوذ على بعض كبار اليهود في اميركا وحسبت ان لا يعاكسنا في مطاليبنا و لا
ينشر شي في جريدته مخالف لقضية العربيه في ضمن جريان تحقيقات اللجنه
وكان هو طلب مني مقاله في موضوع فلسطين و فعلاً كتبت له مقاله
بينت فيها بعض افكاري و اقتراحاتي الشخصيه لاجل حل المسئله كما كنت كتبت
بعض المقالات و انا في انقلترا قبل ما اتشرف بملاقاتكم في الشام وفي القدس
و جل مقصدي اني ابث في القراء فكرة انه العرب ما عندهم التعصب العظيم
الذي يتصوره العالم الاوروبي . و لما شاف مقالتي قال انه اقتراحكم جداً
مناسب (يعني تشكيل حكومه وطنيه) ولاكنه العرب غير ممكن يوافقون عليه
ولا فائده في نشره . فبناءً على ذالك حسبت مناسب اني افهمه بشي من الحقيقه
و وصيته بزيارة سماحة المفتي و طلب مني توصيه خاص حتى لا يتردد سماحته
من مقابلته و اعطيته له نسخة الشروط لاجل تقديمها لسماحته و قلت له
ان يتوكل عني لأن رايت لزوم بوجود شخص امين يكون في القدس ارسل لكم
مكاتيب بواسطته بوقت الضروره واما من خصوص ما نشروا جرايد اليهود عني ولا
علم لدي ولا لها هذا الخبر من الشخص المذكور لاني وصيته على حفظ السر وانا
ليس [illegible] بمعنى الكلمه و ارجوكم كذالك ان تثقون به لانه يمكن في
المستقبل القريب يخدمنا خدمة مهمه واما من خصوص فكركم ان يكون لله
[illegible] في هذا الامر ارجوكم تبعدون هذا الفكر منكم لانه ما له اصل
ولا اساس و على كل حال لا اعمل مخابره مع المستر ليوى في خصوص اموركم
حتى تحملوا جوابكم على هذا الكتاب . وارسلت كتب عديده الى لورد باسفيلد
و [illegible] مرات و اتمنى ان يكون نتيجة المكاتبه خير للعموم و على كل حال كونوا
امنين من خصوص جهدي لحل المسئله بصوره ترضيكم و هذا ما لزم بيانه
و سلمني على سماحة المفتي و على كل من اصدقائي الموجودين في القدس
ودمتم امين

في 17 نوفمبر 1929 من جده

من المخلص
فلبي

كتاب فيلبي الى أحمد حلمي باشا بالاعتذار عن تكليف ليفي بالاتصال بالشخصيات الفلسطينية بخصوص مشروعه .

35

لجنـة التحقيق البـرلمـانيـة المعروفة بلجنة شو:

ولقد قلنا قبل أن المندوب السامي أخبر اللجنة التنفيذية أن الحكومة البريطانية سترسل لجنة لتحقيق أسباب الاضطرابات وما جرى فيها، وقد أعلنت الحكومة المذكورة أنها اقترحت على البرلمان أن يعين لجنة منه لتحقيق أسباب الاضطرابات المباشرة وغير المباشرة، وأن البرلمان قد اختار ثلاثة من أعضائه، واحداً من حزب المحافظين، وواحداً من حزب العمال، وواحداً من حزب الأحرار. وأن الحكومة عينت شخصاً اسمه والترشو كان قاضياً للقضاة في إحدى المستعمرات رئيساً للجنة، وعرفت اللجنة بإسمه بسبب ذلك.

جلسات اللجنة والأصول التي سارت عليها:

وقد وصلت اللجنة في أواخر تشرين الأول 1929، واتخذت بناية حكومية قريبة من كنيسة نوتردام مقراً لها، وقد عقدت عشرات الجلسات منها العلنية ومنها السرية، واستمعت في السرية لشهادات كبار موظفي الحكومة، وطلبت من الحكومة تزويدها ببيانات عن الموظفين والأراضي والقوانين والمؤسسات اليهودية والعربية.

الوكالة اليهودية ممثلة لليهود ومدعية واللجنة التنفيذية ممثلة للعرب ومدعى عليها:

ولقد اعتبرت اللجنة اليهود والعرب طرفين متخاصمين، واعتبرت الوكالة اليهودية ممثلة لليهود واللجنة التنفيذية ممثلة للعرب، وطبقت تقريباً أصول المحاكمات الإنكليزية في الإدعاء والدفاع والشهادات، وأخذ اليهود صفة المدعي، واتهموا السلطات بالتقصير في حمايتهم الذي أتاح للعرب الهجوم عليهم، بالتقصير كذلك في تنفيذ وعد بلفور وصك الإنتداب بزعمهم. وكان كل من الطرفين يأتي الشهود فيحلفون اليمين بأن لا يقولوا إلا الحق وكل الحق، ويقبل الاستماع لشهادة شهود لا يريدون حلف اليمين أيضاً كإفادة أو بيانات لها حق تقديرها، دون أن تكون حجة لطرف على طرف. وكان المتولون للإدعاء والدفاع محامين رسميين وافقت عليهم اللجنة.

محامي اليهود والعرب من الإنكليز واليهود والعرب:

وقد تعاقد اليهود مع محام إنكليزي اسمه بوويد مريمان كان مدعياً عاماً حكومياً متقاعداً، وبدا قوياً بارعاً لامعاً في هجومه ودفاعه واستنطاقاته وتعليقاته، وقد عين اليهود منهم محامين مساعدين له، على رأسهم محام مشهور اسمه الدكتور الياش. وتعاقد العرب مع محام إنكليزي اسمه ستوكر، ظهر أنه ليس من عيار بوويد، وذهب عوني عبد الهادي إلى مصر لإقناع مكرم عبيد سكرتير الوفد المصري الذي كان محامياً لامعاً مشهوراً فلم ينجح، ووجد في مصر محامياً انكليزياً إسمه سيلي لا بأس فيه فأوفدته الجالية الفلسطينية بمصر مساعداً لستوكر، فتعاقد معه فاستقام الأمر نوعاً ما. وقد تقرر أن يكون إلى جانب المحامين الانكليزيين كمحامين رسميين مساعدين كل من عوني عبد الهادي ومغنم مغنم، والآخر محام قدير ومتخرج من احدى جامعات الولايات المتحدة ووطني غيور في الوقت نفسه.

حكومة فلسطين أيضاً مدعى عليها :

ولقد اعتبرت حكومة فلسطين طرفاً في الخصومة ومدعى عليها، فأحضرت بدورها محامياً من بريطانيا وعينت معه بعض رجالها القانونيين والخبراء الانكليز كمساعدين، ولقد كان جمال الحسيني قد ذهب إلى لندن للدعاية على حسابه بدون قرار من اللجنة على ما ذكرناه قبل، ولانشغال عوني ومغنم بالمحاماة أمام اللجنة، وشغر مراكز السكرتيرين الثلاثة للجنة التنفيذية فانتدبتني وعمر الصالح البرغوتي وخليل السكاكيني، فيما يرد لبالي، لاشغال مكانهم، ومساعدة محامي العرب فيما يحتاجون اليه من أمور أيضاً، وكان صبحي الخضراء مديراً للمكتب.

ولقد شهدتُ معظم جلسات لجنة التحقيق، ولقد حاول اليهود ومحاموهم حصر التحقيقات في نطاق أسباب الاضطرابات المباشرة وما جرى فيها.

إثارة العرب للقضية من أساسها وجميع أبعادها وشرحهم ما لحق بالعرب من إجحاف وظلم :

ولكن الجانب العربي أثار القضية من أساسها وبجميع أبعادها أصولاً وفروعاً، وبذل جهده في شرح ما كان للعرب من جهاد وجهود وتضحيات، وما حصلوا عليه من عهود إنكليزية أثناء الحرب، ومحاربتهم للدولة العثمانية بقيادة الملك حسين، ومسا كان للفلسطينيين من مشاركات في كل ذلك، سواء قبل الحرب أو في أثناءها مع الملك حسين، وشمول عهود الإنكليز باستقلال العرب لفلسطين، ومناقضة صك الانتداب لميثاق عصبة الأمم، وتناقض نصوصه ذاتها في النص على حفظ مركز العرب، مع تشجيع الهجرة اليهودية والتجنيس اليهودي والاستيطان اليهودي والمشاريع اليهودية التي تخل وأخلت إخلالاً كبيراً بمركز العرب وحقوقهم، وما كان من مشاركة العرب ومنهم الفلسطينيون مشاركة واسعة في الحكم في الدولة العثمانية، حيث كانوا ركناً من أركانها يشاركونها في الوزارات والولايات والمناصب والمجالس النيابية والجيش، وكون ثورتهم عليها إنما كانت بهدف الاستمتاع بالاستقلال القومي الكامل الذي وعدهم الانكليز به مقابل تلك الثورة، وبطلان الأساس الذي يقوم عليه الانتداب، والظلم الفادح، والتناقض الصارخ معاً في صك الإنتداب، والمحاباة التي تعامل سلطات الانتداب المحلية بها اليهود في كل مجال، ومناقضة كيفية الحكم القائم لميثاق عصبة الأمم، الذي يعترف بأهلية فلسطين للاستقلال مع حاجتها إلى دولة مرشدة كسائر البلاد التي انسلخت عن الدولة العثمانية، في حين لم يقم في فلسطين حكم وطني منتدب عليه، وإن ما قام هو حكم إنكليزي مباشر، مع أن سورية ولبنان والأردن والعراق قام فيها حكم وطني بإرشاد فرنسة وبريطانيا، وما كان من إهمال تطبيق القوانين التي فيها بعض الشيء من ضمان حقوق العرب، وسن القوانين العديدة الضامنة للتفوق والنمو اليهودي إقتصادياً وصناعياً وزراعياً، وما كان من بغي اليهود ومطامعهم ودسائسهم وعنجهيتهم وتصريحاتهم وتحرشاتهم واستفزازاتهم، وما منحوه من إمتيازات ومرافق جعلت العرب تحت رحمتهم، وما منحوه من حماية ضربت صناعة العرب ونشاطهم، وما كان لهم من تفوق في الوظائف الرئيسية والثانوية يزيد أضعافاً عديدة عن نسبتهم. وقالوا أن كل هذا هو السبب الحقيقي في الإضطرابات، لأنه أثار ويثير شعور الخوف

والقلق والسخط والخيبة والمرارة واليأس في العرب، ويجعلهم يتحركون عند كل بادرة. وإن تكرر ذلك يبقى قائماً مؤكداً ما لم تزل تلك الأسباب.

شهود من رجال العرب على مختلف أبعاد القضية:

وقدموا شهوداً من رجال العرب الكبار ومن جملتهم الحاج توفيق حماد على ما كان لهم في زمن الدولة العثمانية من مركز ومشاركات واسعة في الحكم، وشرح جواباً على الأسئلة التي وجهت إليه من محامي العرب ومن اللجنة، كيف كان من العرب وزراء في الحكومة المركزية ونواب وأعيان في البرلمان العثماني وولاة ومتصرفون وقائمقامون ورؤساء إدارات في الولايات والمتصرفيات والأقضية، وقضاة وقواد وضباط كبار وموظفون كبار آخرون في الوزارات والولايات والمتصرفيات، ومجالس ولايات تشرف على شؤون الولاية المحلية من تعليم ومدارس وزراعة وتجارة وصناعة وطرق وصحة، ومجالس إدارة في الولايات والمتصرفيات والأقضية تشارك الولاة والمتصرفين والقائمقامين في إدارة البلاد والإشراف على مختلف شؤونها. وما كان في الدولة العثمانية من جامعات وكليات ومدارس عليا يؤمها شباب العرب ويتخرجون منها أطباء وقضاة ومهندسين وضباطاً وأساتذة ورؤساء إدارة، وكيف أن العرب كانوا يتطلعون الى المزيد من كل ذلك، وكون ثورتهم على الدولة إنما هو بسبيل ذلك اعتماداً على وعود الانكليز بالاستقلال التام وحكم أنفسهم بأنفسهم في وحدة عربية كبرى، وما كان من خيبة أملهم في الإنكليز، وما وقع عليهم من إجحاف وتأخر.

وقدموا شهوداً من رؤساء العمال على ما عندهم من بطالة، وعلى ما يفعله اليهود لمنعهم من العمل ومضايقتهم في رزقهم. وقدموا شهوداً من الفلاحين على ضيق ما في أيديهم من أرض، والأساليب التي يعمد اليهود إليها في الاغراء والإحتيال والتغرير لسلب ما في أيدي العرب من أراض، وما أصابهم من خسائر من المواسم بسبب مزاحمة اليهود. وشهوداً على طرد المزارعين الذين كانوا يزرعون الأراضي التي اشتراها اليهود من ملاكين كبار من فلسطين ولبنان وسورية من مئات السنين، دون أن يلقوا أي حماية من السلطات، وتشريدهم وحرمانهم من أسباب رزقهم وقراهم وبيوتهم.

وقدموا نسخاً مما صدر من زعماء اليهود من تصريحات تنم عن مطامعهم في الحرم القدسي، وفي حصر التسلح بهم، وفي التفوق العددي على العرب، وفي حكم البلاد وحدهم. وشهوداً على ما في أيديهم من سلاح، وما عندهم من منظمات عسكرية وما يقومون به من تدريب الخ.. وطالبوا في النهاية بإلغاء وعد بلفور، وصك الانتداب القائم عليه، ومنع الهجرة اليهودية، ومنع اليهود من شراء الأراضي العربية، وقيام حكم وطني مستقل يشترك فيه الفلسطينيون حسب نسبتهم.

إثارة اليهود لقضيتهم من أساسها أيضاً واتهامهم الحكومة بالتقصير بالتزاماتها:

وقابل اليهود العرب، فأثاروا هم الآخرون قضيتهم من أساسها، فادعوا دعواهم الباطلة بأن فلسطين وطنهم ووطن آبائهم وأجدادهم، وأنهم يعودون إليه لتجديد حياتهم، وأن هذا حق شرعي لهم، وأنهم جاءوا في ظل وعد بلفور وصك الإنتداب القائم عليه، والذي أقرته عصبة

الأمم، والذي التزمت فيه بريطانية بأن تجعل فلسطين في حالات إقتصادية وسياسية وإدارية من شأنها ضمان نموّ الوطن القومي اليهودي وتسهيل الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي، وإشراك الوكالة اليهودية في حكم البلاد، وتنمية مرافقها، واتهموا الحكومة البريطانية وحكومة فلسطين معاً بالتقصير في تنفيذ التزاماتها، وبالتقصير في حمايتهم، وإقدارهم على الدفاع عن أنفسهم.

إثارة اليهود لاتفاق فيصل مع وايزمن وكتاب لزعيم يهودي ورد العرب على ذلك:

وقد أثار اليهود فيما أثاروه موضوع رسالة من فيصل الى فرانكفورتر الزعيم الصهيوني في باريس، وفيها كما يزعمون نوع من الموافقة على الوطن القومي اليهودي. وتحداهم الطرف العربي بإبراز الاتفاق والكتاب. فلم يفعلوا. وكتب عوني عبد الهادي برقية للملك فيصل يخبره بمزاعم اليهود، ويطلب منه إجابة، وجاء جواب من محمد رستم حيدر سكرتير الملك يقول فيه أن جلالته لا يذكر أنه صدر منه شيء يفيد ذلك[1]. وقدم عوني البرقية كوثيقة من الوثائق العربية، وبالإضافة إلى ذلك قال محامو العرب أن فيصل لم يكن إذ ذاك ممثلاً لعرب فلسطين، وأن المؤتمر السوري العام الذي رشح فيصل لملكية سورية في حزيران 1919، وأعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية بمملكة فيصل في آذار سنة 1920 قد رفض رفضاً باتاً وعد بلفور والهجرة اليهودية، وكل مزاعم اليهود، وأن فيصل أعلن رسمياً التزامه بقرارات المؤتمر، وقبل تاج سورية على هذا الأساس، فيكون كل ما يريد اليهود أن ينسبوه الى فيصل صدقاً أو كذباً هباء وباطلاً. وقدموا صورة من قرارات المؤتمر كوثيقة من الوثائق العربية. وقال محامو العرب أيضاً أن فيصل بعد أن صار ملكاً على ذلك الأساس احتج على تجزئة سورية، وفصل فلسطين عن سورية، والانتداب الانكليزي على فلسطين، لأن ذلك مناقض لما قام عليه ملكه. وقرره المؤتمر السوري العام، وقدموا للجنة صورة من الإحتجاج كوثيقة من الوثائق العربية[2].

---

(1) تعليق على دعوى اليهود في صدد اتفاقية وكتاب فيصل: إن نص الاتفاقية ورد في كتاب يقظة العرب لانطونيوس وتاريخها كانون ثاني 1919 ومذيلة بشرح من فيصل بأن ما فيها يكون باطلاً إذا لم تتحقق المطالب العربية حسب المذكرة المقدمة للحكومة البريطانية في نفس التاريخ والمذكرة تطالب باستقلال سورية ووحدتها. ونص الكتاب الذي قيل إن فيصل أرسله لأحد زعماء اليهود وارد في كتاب (قضية فلسطين والهاشميون) تأليف أنيس الصائغ، والكتاب كتبه فيصل حسب ما جاء في كتاب الصائغ بسعي من لورانس لأن فيصلاً صرح بأنه لم يوافق على فصل فلسطين عن سورية وقيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين بعد تاريخ الاتفاقية المذكورة وقد درسنا هذين الامرين في دراسة لنا في مجموعة أبحاث لنا مخطوطة مسهبة، وانتهينا الى القول بأن المرجح أن اليهود حرفوا ما يمكن أن يكون فيصل كتبه أو قاله في ظروف خاصة، وأن فيصل وأباه كانا ينطلقان في كل ما يتعلق باليهود وفلسطين من نقطة كون فلسطين من ضمن المملكة العربية المستقلة وتحت سلطانها، وكون اليهود فيها سيكونون جزءاً من هذه الدولة وتحت ذلك السلطان.

(2) في رسالتنا المطبوعة التي نشرتها المكتبة العصرية بعنوان «صفحات مهملة ومغلوطة من سيرة القضية الفلسطينية» تمحيصات عن كل ما عُزي الى فيصل من علاقاته ومقابلاته واتفاقاته مع وايزمن ومن جملة ذلك الكتاب المزعوم وفيه التمحيصات والوافية ولم نفصلها هنا لأنها ليست من ذكرياتنا فليرجع اليها من أراد.

إثارة اليهود مسألة عدم رفض وعد بلفور في المؤتمر السابع ورد العرب:

ولم يغفل الجانب اليهودي عن استغلال ما كان من ضعف المؤتمر السابع الذي كان قراره المطالبة بحكومة وطنية، والذي لم يذكر رفض العرب لوعد بلفور وصك الإنتداب، ورد الطرف العربي على هذا بأن المؤتمر قرر تأييد قرارات المؤتمرات السابقة التي تنص على رفض وعد بلفور وصك الإنتداب والهجرة اليهودية وشراء اليهود للأراضي العربية بالإضافة الى طلب قيام حكم وطني مستقل مسؤول امام مجلس نيابي.

شهادتي أمام اللجنة:

وقد قدمني المحامون العرب كشاهد على ذلك، فقرأت أمام لجنة التحقيق قرارات المؤتمرات الفلسطينية الأول والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، ثم قرارات المؤتمر السوري العام، وقدمت نسخاً عنها كوثائق عربية. وناقشني المحامي الإنكليزي اليهودي فيها وأجبت عن كل سؤال وجه إلي بما كان يسكته ويسد عليه الكلام.

استماع اللجنة للحاج أمين في المجلس الإسلامي وما دار في جلساتها في ذلك:

ولقد رغب الحاج أمين الحسيني ورغبت اللجنة معاً في سماع إفاداته، وطلب من اللجنة أن تعقد جلساتها لذلك في قاعة المجلس الإسلامي الأعلى بسبب صفته الإسلامية، من حيث إن قوانين فلسطين تمنح امثاله حق الإدلاء بشهاداتهم في مركز عملهم. ووافقت اللجنة وعقدت في قاعة المجلس ثلاث جلسات، أدلى فيها الحاج أمين بشهادته كجواب على أسئلة وجهها إليه محامو العرب حسب أصول المحاكمات الإنكليزية، وشرح في شهادته أو جواباته ما كان من اليهود من استفزازت قديمة وحديثة ازاء محل البراق، ومحاولاتهم تجاوز ما كان من الحالة الراهنة التي يجب عليهم الإلتزام بها، وتكون زيارتهم للجدار في نطاقها، والتي لم تكن إلا منحة من المسلمين الذين هم مالكوا الجدار والممر والمنطقة كلها كوقف إسلامي مسجل في المحاكم الشرعية ومتصرف به من قبلهم كذلك. وشرح ما كان من مطامعهم وتصريحاتهم في امتلاك الحرم القدسي والجدار وإنشاء معبد لهم على أنقاضه، وقدم لهم الصور التي ينشرونها للحرم ومعبد سليمان الذي يريدون إنشائه على أنقاضه، وعليها الشمعدانات ونجمة داود، وكلمات عبرانية تفيد ذلك، وذكر لهم ما كان من توسيطهم لبعض الإنكليز والعرب لإغرائه ببيع الحرم أو الإغضاء عن تجاوزاتهم في الجدار، وذكر أنهم عرضوا عليه أربعمائة الف جنيه ثمناً أو رشوة، وناقشه محامي اليهود الإنكليزي مناقشة حامية.

تهمة المحامي الانكليزي للحاج أمين بتدبير الثورة:

وحاول أن يلصق به أسباب الثورة وما سفكه العرب من دماء اليهود في صفد والخليل وغيرها، وذكره بما كان من موقفه في موسم النبي موسى في سنة 1920، وخطابه وتهييجه العرب، وجعله إياهم يهجمون على اليهود ويسفكون دماءهم، وحكم المحكمة عليه بالسجن بسبب ذلك، ورد عليه ردوداً قوية ذكر فيها استفزازات اليهود ومظاهراتهم، وما في أيديهم من سلاح، وما عندهم من تشكيلات عسكرية، وما كان منهم من اعتداءات متنوعة على العرب والمزارعين الخ..

تعاطف أكثرية اللجنة مع العرب ومطالبهم:

وقد لمح العرب واليهود معاً أن أكثرية أعضاء اللجنة كانت متأثرة أكثر بشهادات العرب، وما أثبتوه من الإجحاف لحقهم، واختلال لمركزهم، وشدة خيبة أملهم الذي علقوه على الإنكليز، وحقانية مطالبهم. وانعكس ذلك حين مغادرة اللجنة البلاد، حيث انقبض محامو اليهود وممثلوهم عن وداعها تعبيراً عن امتعاضهم، وبادر محامو العرب الى وداعهم تعبيراً عما لمحوه من التعاطف معهم.

تقرير اللجنة وموجز ما فيه وهو في جملته لصالح العرب:

وبعد نحو شهر قدمت اللجنة تقريرها الذي عرف بتقرير شو، وترجم للعربية وبيع في مكتبات فلسطين. وقد شرحت اللجنة فيه ما عملته، ومجمل ما سمعته وما قدم لها من بيانات وشهادات، وكانت في جملته في صالح القضية العربية. وقد احتوى حقائق كثيرة عن مطامع اليهود وتصرفاتهم ومحاباة السلطات لهم، وإهمال مصالح العرب وحقوقهم، والإخلال بمركزهم، مما كان سبباً مباشراً وغير مباشر لقلق العرب والثورة بالتالي. وسجلت فيما سجلته أن إعلان اليهود لمطامعهم في مكان البراق، وإدعاءاتهم ومظاهراتهم وأبواقهم المثيرة والأدوات التي أتوا بها لتجاوز الحالة الراهنة، كان سبباً مباشراً للثورة. كما أن تظلمات العرب السياسية والاقتصادية يجب أن تعتبر أسباباً مباشرة لها أيضاً، وأن الشعور عند العرب بالعداء والبغضاء نحو اليهود قد نشأ عن خيبة آمالهم السياسية والوطنية، وخوفهم على مستقبلهم. وأن سخط العرب المقترن بالخوف اقتراناً خطيراً قد يكون سبباً لاضطرابات مقبلة، وأن المطالب التي قدمت من جانب اليهود في صدد تسهيل الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي من شأنها أن تثير مخاوف العرب وتجعلهم يتيقنون بأنهم سيحرمون يوماً من وسائل معيشتهم، ويقعون تحت سيطرة اليهود السياسية وأن المهاجرين الذين دخلوا لفلسطين أكثر مما تستطيع استيعابه، وأن المراجع اليهودية انحرفت فيما يتعلق بالهجرة انحرافاً خطيراً عن المبدأ الذي قبلته سابقاً، وهو أن تكون حسب قدرة الاستيعاب. وأن مخاوف العرب الناشئة عن الهجرة كانت مع أسباب أخرى عاملاً في اندلاع الثورة. وأن اليهود لا يهتمون في الهجرة إلا للعامل السياسي، وهو محل للنقد الشديد، وأنه وقع بين سني 1921 ـ 1929 بيوع أراض كثيرة أخرج بسببها عدد كبير من العرب من الأراضي التي كانوا يزرعونها دون أن تعد لهم أرض أخرى يزرعونها ويعيشون منها. وأن محاولات الحكومة في حماية المزارعين لم تكن جادة ولا إيجابية النتائج، وأن نصوص القانون الموضوع عام 1921 التي تنص على وجوب التثبت من عدم حرمان المزارعين من أرض يزرعونها قبل الموافقة على انتقال أرض عربية ما الى حوزة اليهود لم تطبق إلى سنة 1929 إلاّ مرة واحدة، وأنه نشأ بذلك طبقة من العرب ساخطة مستاءة تكون دائماً خطراً كبيراً على أمن البلاد، وأن مشكلة الأراضي ستبقى مصدراً دائماً للاستياء، وسبباً للإضطرابات، وأن الشعب العربي متحد في مطالبته بالحكم الوطني النيابي، وأن الاستياء الذي يشعر به من جراء حرمانه من الحكم الذاتي مما يزيد في مشاكل الحكومة.

تواصي اللجنة:

وقد أوصت اللجنة بتهدئة قلق العرب ومخاوفهم من المستقبل، بمعالجة مشكلات الأراضي والهجرة بخاصة، معالجة تزيل أسباب المخاوف وتمنع الهجرة الزائدة المؤدية إلى ازدياد طبقة المحرومين من الأرض، وتساعد على حماية المزارعين والعمال العرب، وتطمين آمال العرب في إشراكهم بشكل ما في الحكم.

نفي اللجنة دعوى اليهود بأن المفتي كان وراء الثورة:

ونفت اللجنة أن تكون الثورة مدبرة أو من صنع المفتي، (وكان هذا هو اللقب الأشهر للحاج أمين)، وأكدت أنها نتيجة لما قام به اليهود من حركات وتصرفات وأظهروه من مطامع ونالوه من محاباة، ولما رسخ في العرب من قناعة بالخطر اليهودي ولمسوه من حرمان واختلال مركز ومزاحمة لمختلف طبقاتهم، وكان رئيس اللجنة وعضوا حزبي الأحرار والمحافظين هم أصحاب هذه الاستنتاجات والتوصيات.

تحفظات عضو العمال في اللجنة:

أما عضو حزب العمال واسمه سنسل، فقد سجل بعض تحفظات على استنتاجات وتوصيات الأكثرية لصالح اليهود.

الإضراب العام القوي في ذكرى وعد بلفور أثناء وجود اللجنة:

ولقد جاءت اللجنة كما قلنا في أواخر تشرين الأول، وبعد أيام جاءت ذكرى وعد بلفور التي اعتادت البلاد أن تضرب فيها احتجاجاً، فحرصنا في مكتب اللجنة التنفيذية على أن يكون قوياً شاملاً في مناسبة وجود لجنة التحقيق، وقد كان كذلك فعلاً.

ما جرى في صدد المنشور الذي كتبه صبحي الخضراء في صدد الإضراب:

ومما كان في مناسبة ذلك وسجلته في دفتري القديم، أن مكتب اللجنة قرر إذاعة منشور احتجاجي، وكلفنا صبحي الخضراء بكتابته، وكنت أنا وعمر الصالح وخليل السكاكيني نشغل فراغ السكرتيرين كما ذكرت قبل، فأطلعني صبحي على مسودة المنشور ووافقت عليها، وكذلك فعل بالنسبة لخليل السكاكيني ووافق عليها، وطلب من عمر الصالح أن يأتي الى المكتب ليطلع عليها فطلب هذا إرسالها إليه لأنه مشغول، فأرسله إليه فأصلح بعض عباراته وأعاده. فكتب صبحي المنشور من جديد وأرسله الى المطبعة. وفاجأ البوليس المطبعة وصادر مخطوطة المنشور منها، وقدم صبحي للمحاكمة لأنه بخطه بتهمة التهييج، لأنه كان شديداً، وحكم على صبحي بإقامة جبرية في صفد لمدة سنة، وأرسل الى صفد مخفوراً. وكان لهذه المسألة ضجة ورنة وكلفت اللجنة عوني وجمال بالتحقيق في الأمر، فظهر أن عابدين الحشيمي وهو ضابط بوليس عربي كبير من أهل بعلبك كان عند عمر الصالح حينما أرسل صبحي المنشور اليه، واختلف جمال وعوني على الاستنتاج، مما اضطر عمر إلى الانسحاب من وكالة السكرتيرية. وقد استلم السكاكيني إدارة المكتب بعد إبعاد صبحي إلى صفد.

* * *

36

ارتياح العرب لتقرير اللجنة والوفد العربي إلى لندن وكيفية تأليفه:

ولقد أثار تقرير لجنة شو إرتياحاً وحماساً في العرب وفي اللجنة التنفيذية، وجعلهم ذلك يفكرون في إرسال وفد إلى لندن لمحاولة اقتطاف ثمراته، وشجعهم المندوب السامي وبعض الموظفين الانكليز على ذلك، وتم التوافق على ضرورته. ولم تر اللجنة التنفيذية ضرورة لعقد مؤتمر لإنتخاب الوفد لأنها كانت شبه مؤتمر، حيث كان عدد أعضاؤها (48)، ومؤلفة بالإضافة الى رئيسها والسكرتيرين الثلاثة الذين كانوا خارج العدد من مختلف الميول السياسية، وأيد معظم البارزين من الزعماء وغيرهم ذلك. ولقد عقدت اللجنة بضعة إجتماعات واتجهت النية إلى أن يكون الوفد من زعماء الجبهات المتنافسة، ما دامت اللجنة مؤلفة من مختلف الميول. وقد اقترحت أنا أسماء الحاج أمين وجمال وراغب وعوني وألفرد روك، ولم أذكر إسم موسى كاظم، فقد كان طاعناً في السن وتعباً من جهة، وكان وجوده في الوفد للمراسم أكثر من الجهد والعمل. ورأيت أن الحاج أمين وجمال أنفع من هذه الجهة، ويكفيان لتمثيل جبهتهم. ولكن موسى كاظم أخذ على خاطره لعدم ذكر إسمه. وأحبت جبهة المعارضة أن تتفادى ترؤوس الحاج أمين للوفد من جهة أخرى، فذكرت اسمه ليكون رئيساً للوفد الذي اتفق الجميع على أسمائه التي سميتها، وتمت الموافقة على ذلك، وصار للحسينيين ثلاثة في الوفد. وقد قدر مبلغ ألف وسبعمائة جنيه لنفقة الوفد، فوزعناها على المدن الكبرى، وكانت نابلس هي المدينة الوحيدة التي دفعت حصتها كاملة وبسهولة، أما المدن الأخرى فمنها ما لم يدفع، ومنها ما دفع أقل مما رتب عليه، وأكمل النقص من صندوق الأمانات التي كان ورد عليه نحو (15000) جنيه كما ذكرت قبل.

وما أذكره أني أنا وعمر الصالح ويعقوب فراج قمنا بجولة في مدن الشمال حيفا وعكا وصفد وطبريا والناصرة لجمع ما وزع عليها، وكانت مهمتنا شاقة.

محاولة الحاج أمين عدم دخول عوني عبد الهادي في الوفد وموقفنا تجاه ذلك وإشارة الى ما كان بين عوني والحاج أمين:

ومما دونته كذلك أن الحاج أمين لم يكن يرغب في أن يكون عوني في الوفد، فأصررت أنا ومعين الماضي وصبحي الخضرا على ذلك، وقلنا أن عوني ذو خبرة وممارسة سياسية سابقة في أوروبا مع فيصل، ثم زادت خبرته بما كان جرى أمامه ومعه في أثناء عمل لجنة شو من نقاش وبيانات ووثائق، وجعلنا الحاج أمين يتخلى عن معارضته. ولقد كان عوني ينتقد تصرفات الحاج أمين والمجلس برغم أنه كان محامياً للمجلس بمرتب، وهذا مما أثار ويثير الحاج عليه. ونذكر في هذه المناسبة أن المجلس كان في عسر مالي، وكان عوني يهمل قضايا المجلس بعض الشيء، فاغتنم الحاج أمين الفرصة واقترح إلغاء مهمة المحاماة عن المجلس بمرتب، ووافق المجلس على ذلك، فكان هذا مما زاد في نقد عوني للحاج أمين والمجلس أيضاً.



يبدو في وسط الصورة موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية، رئيس الوفد وعن يمينه سماحة الحاج أمين الحسرف مفتي فلسطين، عضو الوفد، ثم الفرد روك ، ثم راغب النشاشيبي، أعضاء الوفد وعن يسار رئيس الوفد عوني عبد الهادي، عضو الوفد والى جانبه الدكتور حسام الدين أبو السعود وسعد الخليل ، كما يظهر منيف الحسيني صاحب جريدة الجامعة العربية والشيخ سعد الدين الخطيب.
بمناسبة سفر أعضاء الوفد الفلسطيني الى لندن بعد ثورة البراق سنة 1929 .

نشاط الوفد في لندن وآثاره:

وسافر الوفد الى لندن في مارس 1930 ومكث نحو شهر، وكان عوني وجمال يرسلان رسائل بما كان يجري مع الوفد، وخلاصة ما كان أن الوفد قابل رئيس الوزارة ووزير المستعمرات، وقدم لهما مذكرات بما لحق بالعرب من إجحاف وظلم واختلال مركز سياسي واقتصادي، وطالب بإلغاء وعد بلفور ووقف الهجرة وشراء اليهود للأراضي العربية، وإنشاء حكم وطني مسؤول أمام مجلس نيابي يشترك فيه الفلسطينيون بنسبة عددهم. ولقد كان الحكم في يد وزارة العمال كما قلنا، وكان باسفيلد وزير المستعمرات متعاطفاً بعض الشيء مع العرب، إلا أن ماكدونالد رئيس الوزارة كان متعاطفاً مع اليهود أكثر، كما كان لليهود نفوذ قوي في حزب العمال وفي مجلس الوزراء بالتالي.

تصريح رئيس الوزارة في مجلس العموم بصدد القضية:

وقد ألقى ماكدونالد في مجلس العموم تصريحاً في صدد نشاط الوفد ومذكراته، قال فيه أن الحكومة ستستمر في إدارة شؤون فلسطين وفق نص صك الانتداب، لأن ذلك التزام دولي، وأنها ستلتزم العدل والمساواة نحو فريقي السكان، وأنها عازمة على إعداد القوة اللازمة من البوليس لحفظ النظام حتى لا تتكرر الاضطرابات.

بيان الوفد الاحتجاجي على التصريح:

وقد وقع التصريح على الوفد وقعاً شديداً فأذاع بياناً في الصحف شرح فيه ما ظهر أمام لجنة التحقيق من ظلم وإجحاف في العرب من جراء سياسة المحاباة التي تسير عليها السلطات الإنتدابية، وقال فيما قال في بيانه أن تصريح رئيس الحكومة جعله يعتقد بعدم احتمال أي حل فيه عدل للعرب وانصاف لهم، وأن الأستمرار على هضم حقوق العرب إكراماً للصهيونية، ونفوذ اليهود في الحكم والبرلمان، سيجعل الشعب العربي يستمر في الكفاح بكل وسيلة وبدون هوادة دفاعاً عن حقه وكيانه، وأنه سوف يشرح لجميع العرب والمسلمين في كل بلاد العرب والمسلمين ما يهدد الكيان العربي والإسلامي في فلسطين من الأخطار.

بيان الحكومة رداً على بيان الوفد:

وأذاعت الحكومة بياناً كجواب على هذا البيان، قالت فيه أن الوفد الفلسطيني قد بسط قضيته، وأن الحكومة ستنظر في مذكراته، وستدرس بواسطة الخبراء مسائل الأراضي والهجرة والعمل التي يشكو منها العرب، وتقوم بواجباتها على ضوء هذا الدرس، وأنها أبلغت الوفد في الوقت نفسه أن التغيرات التي يطلبها لا يمكن قبولها كلها لأنها تعرقل عمل الحكومة في التزاماتها بمقتضى صك الانتداب، وأنه ليس من سبيل للنظر في أي مطلب لا ينطبق على هذا الصك. وقد أذيع هذان البيانان في الصحف ونقلتهما صحف فلسطين قبل رجوع الوفد.

إضراب البلاد الاحتجاجي على موقف الحكومة البريطانية وبيان حكومة فلسطين:

أضربت البلاد احتجاجاً على موقف الحكومة البريطانية وبيانها، وأذاعت حكومة فلسطين بياناً قالت فيه أن المخاوف التي أعربت عنها الدوائر العربية بأن سياسة الحكومة البريطانية قد تعرض كيان الشعب العربي في فلسطين للخطر لا

مسوغ لها، وأن الحكومة ستقف موقف الشدة والعقوبة الصارمة ضد كل من يذيع أخباراً مضللة عن نيات الحكومة البريطانية ويخل بالقانون والنظام.

وعاد الوفد الذي ذهب على أمل أن يجد لدى حكومة حزب العمال الإنصاف والإذعان الذي لم يكن في حكومة حزب المحافظين في أواخر مارس 1930، مقتنعاً بأن السياسة الإنكليزية الاستعمارية الصهيونية المرسومة لن تتبدل بتبدل الأحزاب التي يلون الحكم، وأن المؤامرة ضد العرب محكمة مستمرة إلى أن تبلغ غايتها، أو يستطيع العرب إحباطها بكفاحهم ونضالهم، وأذاع بياناً بما فعل وحصل، وأضربت البلاد ثانية إحتجاجاً، وبادرت السلطات إلى اتخاذ تدابير شديدة لمواجهة أي تظاهر، ثم بادرت إلى تنفيذ حكم الإعدام بعد أيام قليلة (في حزيران) بكل من فؤاد حجازي الصفدي وعطا الزير ومحمد عبد القادر جمجوم الخليليين كعمل إرهابي.

* * *

37

قدوم سمبسون لدرس مسائل الأراضي والعمل والهجرة:

وبعد عودة الوفد ببضعة أيام أعلنت الحكومة الفلسطينية أن الحكومة البريطانية عينت خبيراً اسمه سمبسون لدرس مسائل الأراضي والهجرة والعمال، تنفيذاً لوعدها. ولقد جاء هذا الخبير في أوائل حزيران 1930 وطاف البلاد، واطلع على ما عند الحكومة من بيانات.

تقريره المؤيد لشكاوي العرب ومخاوفهم من تلك الأمور:

وبعد شهرين قدم التقرير الذي كتبه نتيجة لدراسته، وقد ترجم هذا التقرير إلى العربية وبيع في المكتبات ولقد جاء تقريره مؤيداً بكل قوة لكل شكاوى ومخاوف العرب، وفاضحاً لأساليب اليهود، ومما جاء في التقرير أن عدد الأسر الزراعية العربية هو 86 ألفاً، وأن نحو 30٪ لا تملك أرضاً، وأنه لو قسمت الأرض القابلة للزراعة الباقية في أيدي العرب على الأسر العربية الزراعية، لما أصاب الأسرة إلا نحو تسعين دونماً، في حين أن ما يكفي لإعاشتها حسب الأساليب الزراعية الراهنة الميسورة يجب أن لا تقل عن مائة وثلاثين دونماً، وأنه لم يعد والحالة هذه يوجد في فلسطين أرض يمكن إسكان المزيد من اليهود فيها، وأن المزارعين العرب الذين تباع الأراضي التي يعيشون منها يغدر بهم، ولا يلقون عناية راقية، وأن أكثر الأراضي التي اشتراها اليهود أصبحت كالوقف ملكاً قومياً لا ينتقل للأفراد،

وأن الذين يشتغلون فيها مستأجرون وفق شروط معينة تحرم عليهم تشغيل غير اليهود فيها، خلافاً لما كان يجري في السابق، وكما يفعل الملاكون اليهود، لأفضلية العامل العربي جهداً وطول ساعات وقلة أجر، وأن الوكالة اليهودية تعمد إلى أساليب احتيالية لجلب المهاجرين. وأن كثيراً من العمال الذين يشترط ضمان معيشتهم، لا يلبثون أن يفقدوا وسائلها ويصبحون عبئاً على البلاد ببطالتهم، وأن ذلك يؤدي في نفس الوقت إلى بطالة في العرب أيضاً، وأن الاعتبار السياسي في جلب المهاجرين هو الأكثر اعتباراً، وأن في حوزة اليهود مساحات واسعة من الأراضي متروكة بدون استغلال لعدم إمكان ذلك، وأن في فلسطين عدداً كبيراً من عمال العرب قد حرموا من أشغال كثيرة كانوا يمارسونها بسبب مزاحمة العمال اليهود، وأن ذلك زاد في بؤسهم وضيق رزقهم،

توصياته في صدد وقف الهجرة والعمال وشراء اليهود للأراضي:

وقد أوصى فيما أوصى به وقف انتقال الأراضي العربية لليهود، إلى أن يمكن تغيير أساليب الزراعة تغييراً يساعد على وفرة الإنتاج من مساحة أقل مما هي الحالة عليه الآن، إذا كان ذلك مستطاعاً. وعدم إخراج مزارع عربي من أرض يزرعها ما لم يضمن له أرض أخرى يعيش من زراعتها، وعدم السماح بقدوم عمال يهود ما دام يوجد في فلسطين عمال عاطلون من اليهود والعرب، ومراقبة تنظيم الهجرة وعدم تركها في يد المراجع والنقابات اليهودية كما تفعل السلطات الآن، حيث كانت هذه السلطات توافق على ما تقدمه المراجع والنقابات اليهودية من جداول وطلبات هجرة عمال يهود، وحيث كانت هذه المراجع والنقابات تكذب فيما تسجله من الأعمال التي تتطلب عمالاً جدد، كما أن ما كانت تذكره من أعمال صحيحة ليست دائمة ضامنة للعمال الذين يجلبون من أجلها.

إثارته موضوع إدخال اليهود لفلسطين تهريباً:

وأشار فيما أشار إليه جهد المراجع اليهودية في إدخال مهاجرين بطريق التهريب، وأوصى بوجوب تشديد المراقبة على ذلك ومنعه، لأنه مما يزيد البطالة تفاقماً.

* * *

38 الكتاب الأبيض الإنكليزي وصداه ووعود الحكومة الانكليزية فيه:

وفي تشرين الأول 1930 أصدرت الحكومة البريطانية كتاباً أبيض عقب استلامها تقرير سيمبسون، وقد عطفت في كتابها هذا على تقرير لجنة شو، ثم تقرير سمبسون، واستعرضت فيه بعض مواد صك الإنتداب وبعض فقرات من الكتاب الأبيض لسنة 1922 الذي أصدره تشرشل لأجل شرح مدى تصور الحكومة البريطانية لوعد بلفور والاستيعاب الاقتصادي، لأن في هذا الكتاب توضيحاً لهذين الأمرين من وجهة نظر الحكومة البريطانية، (وقد أوردنا الكتاب الأبيض الجديد أيضاً كملحق في الجزء الثالث من كتابنا حول الحركة العربية والجزء الأول من كتابنا القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها).

وقد اعترفت الحكومة البريطانية في كتابها هذا بما لحق بالفلاح العربي والعامل العربي من أضرار بسبب سياسة الجمعية الصهيونية واعتباراتها في شؤون العمل اليهودي والهجرة اليهودية، وقالت إن هذا متعارض مع ما سجلته وتعهدت به المراجع اليهودية المسؤولة في عام 1922 من عدم الإضرار بالعرب ، والرغبة في العيش معهم بصداقة واحترام، وعدم إجحاف بهم ومزاحمة لهم، وأن الحكومة ملزمة بواجبات مزدوجة نحو العرب واليهود، وأن واجباتها نحو اليهود ليست أقوى منها نحو العرب، وأنه لم يبق أرض زراعية ميسورة في أيدي العرب يمكن أن تنتقل إلى اليهود بدون إجحاف بهم، وأن ما بقي في أيديهم أقل كثيراً من حاجتهم إلى أن تتبدل أساليب الزراعة في حين أنه يوجد في يد اليهود مساحات واسعة غير مستغلة، وأن الفلاح العربي في حاجة شديدة إلى العناية والحماية وتحسين أحوال معيشته، وهو محروم مما يناله المزارع اليهودي بفضل المساعدات والمؤسسات اليهودية، وأن من واجبها أن لا تسمح بانتقال أراضٍ عربية جديدة يتعارض انتقالها مع خطط التحسين ومعيشة العرب، كما أن واجبها أن تسير في أمر هجرة العمال اليهود حسب الاستيعاب الحقيقي، مع ملاحظة البطالة عند العرب واليهود على السواء، وأنها تنوي إنشاء مجلس تشريعي لإشراك أهل البلاد في إدارة شؤون بلادهم في نطاق الدستور القائم، ومشابه للمجلس الذي رفضه العرب سابقاً، وأنها تأمل هذه المرة تعاون جميع طبقات السكان معها، وأنها ستتخذ جميع التدابير المستطاعة لقمع كل محاولة قد يقوم بها أي فريق من السكان للحيلولة دون تنفيذ قرارها الذي ترى أنه ليس من مصلحة أهل البلاد أن يعرقل أو يعطل ثانية.

كان الكتاب الأبيض في جملته لصالح العرب:

ولقد كان هذا الكتاب في جملته في صالح العرب، ويعترف بما ارتكب ضدهم من أخطاء ويعد بإصلاحها، وكان فيه في الوقت نفسه أشياء كثيرة تخالف وجهة نظر العرب من حيث الأسس والنتائج، ومن جملة ذلك التمسك بصك الانتداب المبنيّ على وعد بلفور والمتناقض مع ميثاق عصبة الأمم، لأنه يجعل الحكومة المنتدبة صاحبة السلطان والحكم المباشر دون أهل البلاد، وليس فيه ما يطلبه

العـرب من تعـديـلات جـذريـة في الأسس والنتائج.

رد اللجنة التنفيذية على الكتاب استدراكاً لما كان فيه مخالفاً لوجهة نظر العرب:

وقد قررت اللجنة التنفيذية وضع رد عليه، تنوه بما فيه من اعتراف الأخطاء والأضرار التي لحقت بـالعـرب، وتنتقـد إصـرار الحكـومـة البريطانية على تمسكها بالالتزامـات التي تخل بمـركـز العـرب وحقـوقهم وتهـدد كيـانهم ومستقبلهم، وتتناقض مع ميثاق عصبة الأمم.

تكرار المطالب الأساسية العربية في الرد:

وتكـرر المطلب العـربي الذي كـان العرب وظلوا يـطالبـون بـه، وهـو قيـام حكم وطني فلسـطيني مستقل مسؤول أمـام مجلس نيابي، وإلغاء وعد بلفور وصك الإنتداب القائم عليه، ومنع الهجرة اليهودية وانتقال الأراضي العربيـة لليهود، وتقول إن المجلس التشريعي الموعود على الأسس السابقة غير مجد، ولا يمكن أن يكـون فيه ضمـان لحقوق العـرب، ولا بـادرة صحيحة للحكم الذاتي المزعوم.

انفـراد عوني في طبـع الرد قبـل تصديقـه من اللجنة وما فيه من أسلوب لين:

وما جرى في صدد الرد وسجلته في دفتري أن اللجنة كلفت عوني عبد الهادي بوضع صيغة الرد، فكتبه وطبعـه قبل مـوافقة اللجنـة عليه، وكان في أسلوب ليّن غير جازم، وقال عوني أن هذا أسلوب سياسي أحسن، ولم توافق أكثرية اللجنة على وجهة نظره، لأن الوطنيين في بلاد مثل بلادنا وفي بلاء مثل بلاءنا لا يجوز أن تتقيد بمقتضيات هذا الأسلوب، من حيث أن القوي يسجـل على الضعيف نقطة ضعفـه ولينه، في حين أن الضعيف لا يستـطيـع أن يلزم القـوى بشيء.

كتـاب ملحق جـديـد للرد ليستـدرك مـا في الأسلوب السابق من ثغرات:

وقد أصررنـا في اللجنة على عـوني ليكتب ملحقاً ويطبعه أيضاً، ويذكر فيه أن الرد الأول هو حسب سياق كتاب الحكومة البريطانية الأبيض، وأنه لا يعني تغييراً وتعديلاً في مطالب العرب المقررة في مؤتمراتها. وقد كتب عوني ملحقاً وطبعه أيضاً.

سخط اليهود الشديد على الكتاب وسعة مداه:

ولقد كان سخط اليهود من الكتاب الأبيض شديداً، بل أشد من سخطهم على تقريري شو وسيمبسون، لأنه يرسم سياسة تنفيذية، فاستقال وايزمان من رئاسة الـوكالـة اليهوديـة احتجاجـاً وإعـلانـاً على عـدم التعـاون مـع الحكـومـة البريطانية، وأخذت تقوم المظاهرات في كل بلد فيه جالية يهودية، كما أخذ سيل من برقيات هذه الجاليات يتدفق على الحكومة البريطانية وعصبة الأمم احتجاجاً وسخطاً، حتى لقد قامت مئات المـظاهرات في يـوم واحد في ثمـان وأربعين دولة، وجاء منها في يوم واحد سيل من البرقيات على عصبة الأمم، مما أدهش لجنة الإنتدابات في هذه العصبة التي كانت مورد تلك البرقيات، وجعل عضواً منها اسمه (رايس) يتساءل عما إذا كانت اللجنة أمام مؤامرة دعائية عالمية على ما ذكرته وكالات الأنباء البرقية، كما حملت مئات الصحف الإنكليزية والأميركية وغيرها، فضـلاً عن اليهود وجرائـدهم في فلسطين، حمـلات شديدة على الحكومة البريطانية.

حسن ظن العرب وخيبته وشيكاً:

وظن العرب أنهم كسبوا المعركة، حتى لقد أذاعت اللجنة التنفيذية في ذكرى وعد بلفور التي جاءت بعد أيام من صدور الكتاب الأبيض، بياناً طلبت فيه من الشعب العربي التزام الهدوء مع التربص حتى يبقى اليهود وحدهم هذه المرة محتجين متظاهرين غيظاً وسخطاً، وحتى لا يستفزه اليهود وتقع مصادمات قد تجعل الحكومة الإنكليزية تؤخر تنفيذ مبادرتها. ولكن سرعان ما خاب ظنهم وأملهم، حيث أثرت الحملات اليهودية تأثيراً إيجابياً في برهة أسبوع.

وساطة ابن رئيس الوزراء ومسخ الحكومة لبيانها ببيان جديد إرضاء لليهود:

وبادر مالكولم ابن رئيس الوزارة البريطانية ماكدونالد إلى بذل مساعيه ووساطته، ونجح في استصدار بيان تفسيري فسخ بل مسخ ما جاء في الكتاب الأبيض من وعود إيجابية كانت لصالح العرب. وكان ذلك البيان في شكل كتاب من الحكومة البريطانية موجه إلى وايزمان، وجاء فيه فيما جاء أن الحكومة لم تقصد أن تربط بين هجرة العمال اليهود إلى فلسطين وبين بطالة العمال العرب، ولا أن تطلب من اليهود تعديل ما يسيرون عليه من خطط بشأن حصر العمل في مصانعهم ومزارعهم وحوانيتهم وبساتينهم في اليد اليهودية، ولا أن تحول بين اليهود وبين ما يمكن أن يتيسر لهم شراؤه من الأرض العربية. وقد أثار هذا النكوص ثائرة العرب، وسموا البيان بالكتاب الأسود، وأذاعت اللجنة التنفيذية بياناً احتجاجياً عليه، ولكن ذلك لم يجد، حيث سيطرت السياسة الإنكليزية اليهودية على الموقف، واستمرت العجلة تدور وتجري في هذا الطريق.

ولقد سجلت في دفتري القديم مسألتين: واحدة انبثقت عنَ تقرير سيمبسون، وأخرى عن الرد الذي كتبه عوني عبد الهادي على الكتاب الأبيض الإنكليزي، وكان حول المسألتين أخذ ورد، ولكل منهما صلة بالعمل الوطني والأخلاق، وجديرتان بالتسجيل للتاريخ والعبرة.

إشارة سيمبسون في تقريره إلى بيع بعض أعضاء اللجنة التنفيذية أراضيهم وسمسرتهم على الأراضي:

ونبدأ بالأولى، فنقول إنه ورد في تقرير سيمبسون إشارات إلى أن بعض أعضاء اللجنة التنفيذية العربية وغيرهم من رجال العرب السياسيين يبيعون أراضي لليهود، وأن ذلك قد يعني أن فريقاً من المشتغلين في السياسة من العرب لا يرون بأساً في انتقال قسم من الأراضي العربية لملكية اليهود.

تعيين لجنة تحقيق من قبل اللجنة للتحقيق في صدد تلك الإشارات:

ولقد أثارت هذ الإشارات علامات استفهام كبيرة، وجعلت اللجنة التنفيذية تثيرها في بعض جلساتها، وطرحت اقتراحات متنوعة لمعالجة الأمر، ومن ذلك وجوب إعلان اللجنة حل نفسها والدعوة إلى مؤتمر لانتخاب لجنة جديدة نظيفة لأنه لا يجوز أن تظل اللجنة قائمة بعملها وهي متهمة بمثل هذه التهم الخطيرة، ثم تقرر إجراء تحقيق في صدد من يقال أنهم باعوا أو سمسروا من أعضاء اللجنة وتقرر تأليف تحقيق من ثلاثة أشخاص وجرى إنتخاب سري فحاز أكثرية الأصوات أنا وعوني عبدالهادي والشيخ عبد القادر المظفر.

رسائل اللجنة للأعضاء وفي الصحف بسبيل مهمتها:

ولقد اشتغلنا في هذه القضية بضعة أشهر، وأذعنا أولاً إعلانا في الصحف طلبنا فيه من كل شخص يعرف شيئاً ما عن علاقة أحد أعضاء اللجنة التنفيذية بسمسرة أو بيع أو تسهيل نقل أرض لليهود أن يزودنا بما لديه من معلومات، وكتبنا لجميع أعضاء اللجنة التنفيذية كتابين طلبنا في واحد منها أن يذكر ما إذا كان له علاقة ما بهذه الأمور بأي شكل، وفي ثانيهما أن يكتب للجنة ما يعرفه عن مثل ذلك بالنسبة لأي عضو في اللجنة. ولم يرد إلى لجنة التحقيق إلا شيء قليل مما طلبته من الأعضاء، ولقد امتنع معظم الأعضاء عن الإجابة على الكتابين.

ولقد كانت لجنة التحقيق تفكر في خطة للبحث في المدن تقوم به هي وبعض المخلصين الموثوقين لإتمام تحقيقاتها في صدد علاقات اعضاء اللجنة التنفيقية بمسائل بيع الأراضي لليهود والسمسرة عليها. ولكن مزاج اعضاء اللجنة عوني والمظفر، وما صار بينهما من تنافر وتضاد حال دون ذلك، فاقتصر الأمر على ما جاءها من رسائل وبيانات تتعلق بشكري التاجي وسليم عبد الرحمن وفؤاد القاسم عبد الهادي وصدقي الطبري من أعضاء اللجنة التنفيذية، وسلامة وسمير عبد الرحمن وعبد الرحمن التاجي وعبد اللطيف الجيوسي ورشيد الجيوسي من غير اعضاء اللجنة. وكان الباعث على ذلك على الأغلب الأرجح حزازات شخصية ومحلية. ولقد كان هناك أناس آخرون متهمون بمثل ذلك لم يرسل أحد عنهم شيئاً.

ولقد قدمت لجنة التحقيق ما وصل إليها من رسائل وبيانات، وما كان من سؤالاتها لأصحاب العلاقة وجواباتهم إلى اللجنة التنفيذية مع تقرير. ولكن تركيب هذه اللجنة جعل الملف نائماً في أدراجها، وجعل اللجنة بعد قليل تتفكك وتتلاشى ويقوم مكانها الأحزاب.

اتهام سليم عبد الرحمن وما كان وجرى في صدد ذلك:

ومن القليل الذي ورد، تقرير أو كتاب من هاشم الجيوسي في صدد علاقة سليم عبد الرحمن بحوادث عديدة، وكان كل من هاشم وسليم عضواً في اللجنة التنفيذية، ومما ذكره هاشم حادثة بيعت فيها حصة لسليم في قطعة أرض في قرية الطيرة لليهود بموجب وكالة من سليم لأخيه سمير، وسألت اللجنة سليما بكتاب عن ذلك، فأجاب أن هذه الحصة لا تكاد تبلغ دونما واحداً، وأنه لم يبعها شخصياً، وإنما كان صدر منه توكيل عام لأخيه سمير فباعها أخوه بدون علمه مع حصص أخرى لأسرته، وأن الأرض مع ذلك لم تسلم لليهود وما زالت في يد مزارعيها بسبب ما في المسألة من عقد؛ ومما علقته في تسجيلي على كلام سليم أن ما قاله قد يكون صحيحاً، إلا أن المرجح أن توكيله لأخيه سمير كان لأجل بيع الحصة، وربما كان في الأمر حيلة أريد تمشيتها على اليهود في قطعة الأرض، وكانت حصة سليم التافهة منها مظهراً من مظاهر هذه الحيلة، وأن اسم سليم ملوّث بمسائل بيوع الأراضي والسمسرة يمثلها مع اليهود، غير أنه لم يكن موثوقاً منهم، فلم يتعاملوا معه. وقد يكون من أعماله في هذا المجال قصد الإحتيال عليهم وأخذ مال منهم.

وهناك حادث وصل إلى المحكمة قد يدل على ذلك، حيث تقدم يهودي إلى المحكمة المركزية في يافا بقضية ضد أشخاص من قرية

الطيبة بلدة سليم، احتالوا عليه ببيع قطعة أرض، وكان سليم كفيلاً عليهم في عقد البيع وعليه توقيعه بهذه الصفة، ودفع اليهودي عربوناً مقداره الف جنيه، ونصّ العقد على غرامة مقدارها عشرة آلاف جنيه يدفعها من يخل بالعقد، ثم ظهر أنه لا يوجد أرض بالاسم والموقع اللذين ذكرا في العقد، وأن أسماء المالكين الذين ذكروا كملاكين للأرض المزعومة غير حقيقية. وطلب اليهودي الحكم له برد العربون والغرامة، وغاب سليم عن الجلسة، وصدر حكم من المحكمة بإلزام سليم ومكفوليه برد العربون والغرامة لليهودي، ونشر الحكم في جريدة الحياة. ولقد كلمت سليماً بالأمر بلهجة من يلقى يده على خيانة فحاول أن يتنصل، وقال إن توقيعه على العقد مزور وأنه سيرفع دعوى بالتزوير، وسيستأنف حكم المحكمة ضده، غير أنه لم يرفع دعوى ولم يستأنف الحكم، وسوى أمره مع اليهودي بشكل ما، ووقف الأمر عند هذا الحد.

وله أخ اسمه سلامة كسيح موغل في السمسرة بأقوى قوته وجهده، وكان يعمل مع خانكين الزعيم الصهيوني المتولي أمر شراء الأراضي العربية لحساب ومؤسسة الأراضي اليهودية القومية، وأمر سلامة مشهور لا ينكره نفسه، ولا يتستر فيه، ولا يحاول أبوه وأخوته تبرئته منه أو الدفاع عنه. بل كانت الصفقات التي كان يعقدها لحساب اليهود تتم بينه وبين أصحابها العرب في بيت أبيه عبد الرحمن رئيس بلدية طولكرم، حيث كان سلامة يسكن فيه هو وأخواه سليم وسمير، وكان خانكين يأتي هذا البيت فيقيم فيه يومين وثلاثة لإتمام الصفقات، وكان ذلك يتم بعلم ومشاهدة سليم وأبيه، وكان ذلك عاملاً في قوة موقف سلامة وحصانته، وإنتشار عدوى السمسرة وبيوع الأراضي في قضاء طولكرم قبل ثورة البراق.

ولقد ذهبت أنا وفريد العنتباوي إلى طولكرم في ظرف هذه الثورة وقابلنا الأب، وطلبنا منه ردع ابنه سلامة، وكل ما قاله هو أنه ساخط غاضب على إبنه، وأنه نصحه مراراً ولكنه لم يسمع نصائحه، بل وأنه أجابه بأجوبة خشنة عاقة، وأنه طرده من بيته، وهذا ما يستطيع أن يفعله. وكان هذا الغضب من الأب في ظرف غليان ثورة البراق والخوف من الناس. وبعد أن هدأ الغليان عاد سلامة إلى بيت أبيه وإلى جرائمه فيه تحت سمع أبيه وبصره وسمع أخيه سليم عضو اللجنة التنفيذية. وقد ذكرنا قبل أن عبد الرحمن وسليما حضرا اجتماعاً عاماً في نابلس في ظرف الغليان، فأهاج ذلك الدكتور صدقي ملحس وجعله يصرخ بوجوب طردهما من الإجتماع.

اتهام فؤاد قاسم عبد الهادي وما جرى في صدد ذلك:

ومن القليل الذي ورد على لجنة التحقيق، كتاب من فهمي العبوشي، يذكر فيه خبر بيع فؤاد قاسم عبد الرحمن عبد الهادي حصة أرض له في قرية زرعين لليهود، والإثنان عضوان في اللجنة التنفيذية. وحققت لجنة التحقيق في هذا الخبر، فظهر لها أن هذا البيع كان مستوراً بستار الرهن أو البيع الوفائي، وسألت فؤاداً فلم يحاول الإنكار، وأخذ يبرر الدين الذي أخذه مقابل رهن الحصة بما كان يعانيه هو وزرّاعه من حاجة وعسر، وقد استولى اليهودي على الحصة بموجب عقد الرهن أو البيع الوفائي.

اتهام صدقي الطبري وما جرى في صدد ذلك:

ومن هذا القليل، كتاب ورد على لجنة

التحقيق بدون توقيع، ذكر مرسله فيه عملية بيع أرض ليهودي أتمها صدقي الطبري، وهو من أعضاء اللجنة التنفيذية. وسألت لجنة التحقيق صدقي الطبري بكتاب، فأرسل تقريراً شرح فيه هذه العملية، ويتلخص شرحه بأن له أرضاً للبناء في طبريا قسمها إلى مقاسم مسطرة، وأنه باع بعض هذه المقاسم ليهود من طبريا، وأن ما أخذه من ثمن ساعده مساعدة كبيرة على تحسين أملاكه وزراعته وأراضيه، وأن المقاسم ليست أرضاً زراعية. ولقد كان يقال أن صدقي الطبري باع أراضي زراعية لليهود أيضاً، ولكننا لم نستطع أن نحصل على إثبات من أحد لهذا القول.

اتهام شكري التاجي وما جرى في صدد ذلك:

ومن هذا القليل كتاب جاء إلى لجنة التحقيق من شكري التاجي، وهو عضو في اللجنة التنفيذية، ذكر فيه أنه باع في أوائل الإحتلال بعض أراضٍ لليهود، وسدد بما قبضه من ثمنها ديوناً كانت عليه، وحسّن حالته الإقتصادية ومشاريعه الزراعية الحمضية، ثم صار الشخص العربي الوحيد الذي استطاع أن يشتري بعض الأراضي من اليهود. وكان في كتابه مريباً يكاد يقول خذوني، والظاهر أنه حسب أن بعض الناس سيكتبون للجنة التحقيق عن علاقاته باليهود، فسارع إلى الكتابة حتى يكون هو المعترف بأمر قديم تطور هذا التطور. ولقد أرسلت جريدة الاقدام التي كانت تصدر في يافا إلى لجنة التحقيق اعداداً منها فيها تفصيلات دقيقة لأعمال بيع وسمسرة قام بها شكري، مستندة إلى أرقام وتواريخ رسمية، وسألته اللجنة فكانت إجاباته ثرثرة أكثر منها إيضاحاً وتبريراً. وبدا للجنة من الكلام أنه كان يُحْكِمُ عمله فلا يكون هو ظاهراً فيما كان يتمه من عمليات.

مسألة بيع خور زيدان وعلاقة شكري وعبد الرحمن التاجي بها ومالكها الجيوسي وما جرى في صددها:

ولقد كانت قصة بيع خور زيدان الذي كان يملكه عبد اللطيف الجيوسي وشركاه، والتي كانت لشكري التاجي وعبد الرحمن التاجي علاقة بها، حديث الصحف في أثناء عمل لجنة التحقيق، فسألت شكري التاجي عنها، فجاء إلى اللجنة وأبرز بعض المكاتبات التي جرت بينه وبين رشيد الجيوسي أحد الشركاء حول هذا الموضوع، وكان يحاول التنصل من هذه العملية، فإذا المكاتبات تظهر أنه كان هو وعبد الرحمن التاجي غارقين فيها فعلاً، وتتلخص هذه القصة بأن عبد اللطيف الجيوسي وشركاه تعاقدوا مع شكري وعبد الرحمن التاجي علي بيعهما خور زيدان في كفرسابا، وقبضوا منهما سلفة على الثمن، ثم تأخر إتمام الصفقة، وجرت المكاتبات حول إنهائها.

ويفهم من هذه المكاتبات أن رشيد الجيوسي أحد الشركاء كان يعرف أن الشاري الحقيقي يهودي، ويطلب من شكري السعي لدى هذا اليهودي لإتمام العمل ودفع الثمن، وحمل عمه عبد الرحمن على مكالمة مديرية الأراضي لتسهيل المعاملة. وقد كان عبد اللطيف الجيوسي أخذ تعهداً من شكري وعبد الرحمن حينما عقد عبد اللطيف وشركاه معهما عقد بيع الأرض، بأنهما سوف يحتفظان بالأرض لنفسيهما ولا يبيعانها لليهود. ولما صارت الصحف تتحدث عن أمر بيع الأراضي لليهود، أذاع نص هذا التعهد لدفع الريبة عن نفسه

وشـركائـه. ولقد بـدا للجنـة التحقيق أن هـذا التعهد كان عملاً تظاهرياً لا يعني الواقع، وإنما للتعمية، وربما لإقناع بعض الشركاء بالتساهل في الثمن، بحجة أن الأرض مباعة للعرب، لأن كتابات رشيد كانت صريحة كما قلنا، بأنه كان يعرف أن الشاري الحقيقي يهودي منذ البدء.

ومما سجلته في دفتري في صدد صفقة خور زيـدان التي كان العقـد عليها بين الجيـوسيين والتاجيين قبل بضـع سنوات من ثـورة البراق، والتي تمت أيضـاً قبلها بمـدة غير طـويلة، أن اليهود تأخروا في إتمام الصفقة بسبب ما كانوا يعـانونـه من ضيق مالي، وحينمـا تغلبـوا على ضيقهم تقدموا لإتمام الصفقة، فاجتمع شكري وعبد الرحمن مع الجيوسيين بحضـور خانكين واتموا الصفقة وقبضوا ما بقي لهم من الثمن. وذهب الجيـوسيون رأسـاً الى الطابـو وأفرغـوا الأرض لإسم مؤسسة الأراضي اليهودية القومية. وكـانت المعاملة في بـدء الأمر تجـري بـإسم شكري وعبد الرحمن التاجي، ثم قدما استدعاء سحبا به اسميهما وأعاد إلى الجيوسيين حريـة العمل، وأتم الجيوسيون العمل رأساً كما قلنـا نتيجة لذلك. وقد كتب عبد اللطيف الجيوسي وشكري التاجي مقالاً في الصحف حول هـذه المسـألة حينمـا أثيرت في منـاسبـة تحقيقـات لجنتنـا، وزعم الجيـوسي أن شكـري التـاجي خدعه أو لعب عليه، وحاول أن يتنصـل ولكن محاولته كانت فارغة، لأن شكري وعبد الرحمن أعادا الحريـة للجيوسيين ولم يكتبـا لهم امـراً بـالفـراغ لشخص آخـر حسب مـا ينص عليـه العقد، فيكون الجيوسيون ومنهم عبـد اللطيف هم الذين أفرغـوا لليهودي بـاختيارهم وبـدون إجبار، وبعد أن رد التاجيون إليهم حريتهم فلا يكون هناك خدعة ولعب..

وعلى كل حال فإن هذه التفصيلات أظهرت أن شكري التاجي وهو المعني في الكلام، لأنه مـوضـوع التحقيق بصفتـه عضـواً في اللجنـة التنفيذية، ملوث برغم محاولاته واحتياطاته لعدم إظهـار نفسـه واسمـه كشخص مـوجـود في العمليات.

إثـارة جريـدة الاقدام مسـألة وادي الحـوارث وعلاقة عوني عبد الهادي بها وحول ذلك:

وفي سياق وظروف عمل لجنة تحقيق اللجنة التنفيـذية أخـذت جـريـدة الاقـدام تشيـر إلى مـوضوع أراضي وادي الحـوارث التي استولى عليها اليهود، وعلاقة عـوني عبد الهـادي بها. وأرسلت الجريدة إليّ الأعداد التي نشرت فيها ذلك، وكان أسلوبها حملة اتهامية ضد عوني. ومـا ذكرتـه الجريـدة واقعة جـرت في محكمة الأراضي التي انعقدت في طولكـرم للنظر في بعض نقـاط متصلة باراضي وادي الحـوارث، حيث كان عرب وادي الحوارث قدموا اليها بعد إجـلائهم عن أراضيهم بـالقـوة، عقب إتمـام الفراغ، كلاماً قاسياً، ولكن الصدمة تركت في النفوس أثراً قوياً.

ومما ذكرته الإقدام أيضاً أن المحكمة أخذت تستمـع للشهـود في صـدد قضيـة العـرب المذكورة، فسأل المحامي اليهودي أحد الشهود اليهود عما إذا كان يعلم أن عوني قبض مبلغاً من المال من خانكين في قضيـة وادي الحوارث، فأجاب بالإيجاب، فكانت صدمة ثانيـة لعوني قوت أثر الصدمة الأولى. ولقد أذاع عوني بياناً أوضح فيه علاقته بمسـألة بيـع وادي الحوادث يجعله غير ذي علاقة بها، ولكن خصوم عوني ظلوا يثيرون الأمر كأنه فيه تهمة أو خيانة وطنية، فأذاع بياناً آخر نفى فيه ذلك، وأذاع أخوه فؤاد

عبد الهادي الذي كان شهد التنفيذ كوكيل عن آل التيان بياناً بدوره، بين فيه أن شهوده كان للمهنة، وأنه لم يكن ذا أثر ما في ما تم، غير أن الشيخ المظفر وهو عضو في لجنة التحقيق كما ذكرت جاء اليّ يحدثني بالأمر، وعلاقة عوني به، وواجب لجنة التحقيق فيه، لأن عوني عضو في اللجنة التنفيذية. وقد شرحت للشيخ المظفر أصل وظروف وسير هذه المسألة على النحو الذي شرحته في الكلمة التي كتبتها عن عوني في مذكراتي عن الفترة الثانية (الجزء الثاني) من هذه المذكرات، وقلت له أن هذا الشرح يجعل عوني غير ذي علاقة ببيع هذه الأرض، لأن الأرض بيعت في زمن الدولة العثمانية بالرهن الوقائي الى آل التيان، وآل التيان باعوها بالرهن الوقائي لشركة إفرنسية أو شخص إفرنسي، وهذا أقام قضية في زمن الاحتلال لأجل استيفاء دينه وخسرها في المحكمة الابتدائية، وكسبها في محكمة الاستئناف التي قررت بيع المرهون بالمزايدة لسداد الدين. وكان عوني وكيلاً لآل التيان، وكل غلطته أنه كان عليه ان ينسحب من الوكالة بعد حكم الاستئناف، وغدو البيع حتمياً، ولكنه انجر هو وأخوه فؤاد بمهنة المحاماة، وربما لأجل أخذ ما استحق لهم من أتعاب الوكالة من آل التيان الذين ينالون مبالغ جديدة نتيجة إتمام المعاملة، ولم يكن لعدم انسحابهما مع ذلك أي أثر في إتمام المعاملة الذي كان حتمياً، سواء أظلوا وكلاء أم انسحبوا من الوكالة، وأن فيما أذاعه عوني وأخوه من بيانات توضيحاً لذلك.

وبعد أن شرحت للمظفر كل هذا، قلت له أن لجنتنا مؤلفة من ثلاثة أنا وأنت وعوني، فإما أن نطلب من عوني التنازل عن عضويته، وإما أن نتمم عملنا بما يتعلق ببقية الوقائع، ونقول للجنة التنفيذية أن هناك قضية وادي الحوارث، وأن البعض يطلب النظر فيها، وأن عضوية عوني الذي له علاقة ما بهذه القضية مانعة لذلك، ونطلب منها قراراً في الأمر. واقترحت عليه أيضاً أن أتحدث أنا وهو معاً مع عوني ونسمع أقواله من جديد. وقد راوغ المظفر في الإقتراحين لأنه لم يكن ليخفى عليه أنه ليس لعوني أي عمل ايجابي أصلي في القضية يمكن أن يجعله متهماً بخيانة أو تسهيل نقل أرض عربية لليهود، وهذا هو موضوع لجنتنا.

ووقف الأمر في لجنتنا عند هذا الحد، وظلت الصحف تشير إلى قضية وادي الحوارث وتذكر عوني في سياقها رغم البيانات التي أذاعها هو وأخوه، وكان ذلك على ما كان ملموحاً بإيعاز وتعضيد من الحاج أمين وجماعته، وكانت جريدة الجامعة العربية الحسينية مسرحاً من مسارح التجريح والغمز واللمز، لأنه كان في ذلك الوقت شيء من التشاد والتضاد بين عوني والحاج أمين على ما ذكرته في سياق شرح قضية وادي الحوارث في الكلمة التي كتبتها عن عوني، ولقد ذكرت أن إجراءات عملية التنفيذ وإعلاناتها كانت تنشر في الجامعة العربية بدون تجريح، لأن ذلك التشاد والتضاد لم يكن حينئذ كما ذكرت، واعتقادي بأن الحاج أمين وجماعته لم يكن يخفى عليهم انه ليس هناك مبرر صحيح لإتهام عوني بتسهيل انتقال الأرض العربية لليهود، بسبب وكالته التي لم يكن لها أثر إيجابي في ذلك، وبأن الاعتبارات الشخصية هي التي كانت الدافع لحملة التجريح والغمز واللمز.

وثم انشغل الناس بما كان من توتر ومظاهرات ومحاكمات بسبب ازدياد سيل الهجرة اليهودية على ما سوف نشرحه بعد ولقد

كانت لجنة التحقيق تفكر في خطة للبحث في المدن تقوم به هي وبعض المخلصين الموثوقين لإتمام تحقيقاتها في صدد علاقات اعضاء اللجنة التنفيذية بمسائل بيع الأراضي لليهود والسمسرة عليها، ولكن مزاج عوني والشيخ وما صار بينهما من تنافر أو تضاد حال دون ذلك، فاقتصر الأمر على ما جاءها من رسائل وبيانات تتعلق بشكري التاجي وسليم عبد الرحمن وفؤاد القاسم عبد الهادي وصدقي الطبري. وكان الباعث على ذلك على الأغلب الأرجح حزازات شخصية ومحلية، ولقد كان هناك أناس آخرون مهتمون بمثل ذلك لم يرسل أحد منهم شيئاً. ولقد قدمت لجنة التحقيق ما وصل اليها من رسائل وبيانات، وما كان من سؤالاتها لأصحاب العلاقة، وجواباتهم الى اللجنة التنفيذية مع تقرير، ولكن تركيب هذه اللجنة جعل الملف نائماً في أدراجها، بل وجعل اللجنة بعد قليل تتفكك وتتلاشى ويقوم مقامها الأحزاب على ما سوف نشرحه.

إثارة عوني في رده لمسألة امتياز الحوله وما كان وجرى حول ذلك. مع شرح مدخل هذه المسألة:

ونأتي إلى المسألة الثانية، فنقول أن عوني عبد الهادي أثار في الرد على الكتاب الأبيض الانكليزي الذي كتبه وطبعه، مسألة امتياز الحوله، وقال أن على الحكومة إذا كان في نيتها حل هذا الامتياز ان توزع الأراضي على العرب، وحبذ الحلّ على هذا الأساس، وقد أرسل بعض اصدقاء سليم علي سلام الزعيم البيروتي المشهور وعمدة هذا الامتياز احتجاجاً على اللجنة لأن ا لردّ كتب ونشر باسمها، وقال المحتجون فيما قالوه ان عوني لم يكن بريئاً نزيهاً في اثارته هذه المسألة في ردّه، وانما صدر عن حنق فيه على سليم علي سلام بسبب خلاف على أتعاب له بذلها في سبيل تثبيت حقوق الامتياز لدى الحكومة البريطانية والحكومة الفلسطينية، وقاد احمد سامح الخالدي، وهو زوج بنت سليم علي سلام، على ما ذكرناه قبل، حملة نقد وتجريح ضد عوني، وشارك واندمج في هذه الحملة الحاج أمين والشيخ عبد القادر المظفر بتأثير ما كان من تشاد ومواقف متضادة بين الحاج أمين وعوني على ما ذكرناه سابقاً ايضاً، ولكن الحملة لم تجعل اللجنة التنفيذية ولا عوني ان يعدّلا الردّ ولا الاقتراح الوارد فيه بتوزيع الأراضي على العرب، ولاسيما ان طلب الحل لم يكن بأسلوب الجزم، وانما يأملون تحبيذ توزيع الأراضي على العرب اذا كان في نية الحكومة حل الإمتياز، فضلاً عن أن الاقتراح بالتحبيذ كانا لمصلحة العرب وان كان من الحق أن يقال أن اقحام عوني لهذه المسألة كان غريباً، ولقد كان الردّ قد طبع ونشر فصار من غير اللائق للجنة التنفيذية أن تجعل عوني يتراجع أو تكتب رداً فيه تراجع، لأن ما جاء في الرد هو لمصلحة العرب كما قلنا.

ونستطرد الى ذكر قصة هذا الامتياز فنقول ان بعض رجال بيروت الذين قاموا بالحركة الاصلاحية في زمن الدولة العثمانية. التي ذكرنا سيرتها في مناسبة سابقة، سعوا حينما جنحت حكومة الاتحاد والترقي الى الإستجابة لبعض مطالب العرب الإصلاحية إثر مؤتمر باريس للحصول على امتياز استثمار أراضي الحوله من شمالي فلسطين التي كانت مستنقعات، بقصد تجفيفها واستغلال الأراضي المجففة لمدة من الزمن، على أن توزع بعد ذلك ببدل معقول

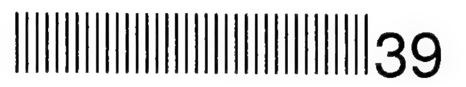
على مزارعي العرب، ووضع في الامتياز شروط لضمان عدم خروج الامتياز أو أسهم الشركة التي تؤسس لتنفيذه الى غير العثمانيين، ولقد كان الامتياز باسم محمد بيهم وميشيل سرسق زعيمي المسلمين والنصارى في بيروت آنذاك. وأذن لهما بتأسيس شركة مساهمة، فأسسوها، وكان من جملة المساهمين سليم علي سلام وأحمد مختار بيهم، وهما الزعيمان المسلمان اللذان كانا من رؤساء الحركة الإصلاحية، واللذان كانا على الأغلب الساعين للحصول على الإمتياز. وكان تاريخ الامتياز حزيران 1330 هجرية. وتقابل سنة 1332 هجرية صحيحة 1912 ميلادية صحيحة . وقد حاولت الشركة القيام ببعض اعمال التجفيف في زمن الدولة العثمانية وسارت وتوقف نشاطها في أثناء الحرب التي اندلعت بعد سنتين من تاريخ الامتياز، فلما انتهت الحرب بالإحتلال الإنكليزي ثم بالانتداب الإنكليزي، انتدبت الشركة سليم علي سلام للسعي في تثبيت حقوقها في الامتياز لدى السلطات الإنكيزية في فلسطين ولندن، وخولته في الوقت نفسه بالقيام بالعمليات الاستثمارية، وقد بذلوا جهوداً ونفقات في سبيل تثبيت الامتياز، وكان عوني من جملة من ساعد في ذلك، وصار له اتعاب لم يستوفها، وهو ما جعله يثير المسألة حسب قول القائلين. ولقد صار على الشركة من جراء ذلك ديون لسليم علي سلام، ووقع هو تحت طائلة ديون أيضاً، وزهّدت حالة الشركة المتعثرة مساهمي الشركة في إسهامهم، واتاح ذلك لسليم علي سلام أن يشتري كل أوجل هذه السهام بالديون التي كانت له على الشركة. وبما استدانه من اموال أخرى، وإتماماً للقضية نقول أن اليهود أخذوا يبذلون مساعيهم في حمل سليم علي سلام على التنازل لهم عن الإمتياز، وفي جعل الحكومة تضع عراقيل في طريق استثماره، لكي يلجأ إلى التنازل لهم عنه. وظل الأمر بين ردّ وجذب نحو اربع سنين.

تنازل سليم علي سلام لليهود عن الامتياز وما كان في صدد ذلك:

وفي تشرين الأول 1934 تم الاتفاق بينه وبين شركة تحسين الأراضي اليهودية في فلسطين، وهي مؤسسة الأراضي اليهودية القومية، على الصفقة، حيث تنازل لها عن الامتياز وباعها سهام الشركة بمبلغ جسيم قيل أنه مائتا ألف جنيه فلسطيني، والأراضي التي يشملها الامتياز في نحو خمسة وخمسين ألف دونم، وهي من أخصب الأراضي وأجودها، وقد تذرع البائع بقرب انتهاء مدة الامتياز والخوف من سقوطه واستيلاء اليهود على الأرض بواسطة الحكومة بدون ثمن، وبأنه واقع تحت طائلة ديون كبيرة، ولقد كان للتنازل والبيع ردّ فعل مرير في نفوس الوطنيين، ولم يكن ما تذرع به من مبررات، قد تكون منطقية من حيث الموضوعية، لتخفف ذلك. وقد حملت جريدة فلسطين حملة شديدة عليه كان فيها في الحق ترديد لمرارة النفوس. ولقد قاد أحمد سامح الخالدي حملة الردّ والتبرير والدفاع عن صهره. ومما يذكر في هذا الصدد أن جريدة الجامعة العربية التي كان صاحبها منيف الحسيني وهو متزوج من بيت الخالدي نشرت أسئلة لسليم علي سلام فيها تبرير لما فعله، وفي حملة شعواء على جريدة فلسطين، التي رددت مرارة نفوس الوطنيين من التنازل، وعلى بعض رجالات العرب، وعلى عوني عبد الهادي

أيضاً، وذكر فيها أسماء عدد من الذين باعوا أراضيهم لليهود أو سمسروا لها، كأنما يساق ذلك من جملة المبررات أيضاً، وكانَ ظاهراً أن لسامح الخالدي يداً في هذه المنشورات. وهكذا اندمجت جريدة الجامعة العربية في التبرير.

***



39 بداية حركة الكفاح المسلح وشيء عن الخلايا الجهادية الأولى:

وبعد قليل من تراجع الحكومة الإنكليزية عن كتابها الأبيض وإعلانها استمرارها في سياسة تنمية الوطن القومي، ومسايرة مواقف ومطالب اليهود في الهجرة والأراضي، وضربها بعرض الحائط توصيات لجنة شو وخبيرها سيمبسون، ووعودها المستندة إلى ذلك في صدد الهجرة والأراضي والحكم الذاتي على ما شرحناه قبل، أخذت تقوم حركة كفاح مسلح عربي، من حيث إنه لم يبق أمام العرب غير ذلك. انبثقت هذه الحركة من الفريق المسحوق المتضرر أكثر من غيره من التواطؤ الإنكليزي اليهودي، الذي خاب أمله بالتراجع الإنكليزي عن الوعود الموعودة بالانصاف، ولقد كان كثير من مزارعي العرب قد طردوا من الأراضي التي كانوا يزرعونها في مرج ابن عامر وغيره لما اشتراها اليهود من ملاكيها واستلموها، فجاء كثير منهم إلى حيفا في طلب الرزق والعمل، وانشأوا بيوتاً من التنك والخشب، والتقى بعضهم ببعض عمال ضاق عليهم الرزق أيضاً بسبب منافسة اليهود ومزاحمتهم وأشغالهم مكانهم في الأعمال اليهودية الزراعية والصناعية، وكانوا متدينين يحرصون على أداء واجباتهم التعبدية. وقد أطلقوا ذقونهم كعلامة مميزة، وقرروا تشكيل خلايا تجاهد ضد الإنكليز واليهود والسماسرة وباعة الأراضي والجواسيس، وقد تعاهدوا على السرية التامة، ووفروا من أقواتهم ليشتروا ما

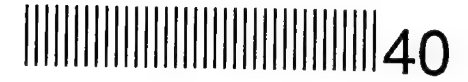


مع وفود البلاد الاسلامية في مناسبة اللجنة الدولية التي جاءت للتحقيق في قضية وثورة البراق 1929/1930 الجالسون من اليمين الى الشمال :
أمين التميمي (فلسطين) ـ أحمد حلمي عبد الباقي (فلسطين) ـ الشيخ محمد الغنيمي التفتازاني (مصر) ـ أحمد زكي باشا (مصر) ـ الحاج أمين الحسيني (مفتي فلسطين ورئيس المجلس الاسلامي الاعلامي) ـ محمد علي علوية باشا (مصر) ـ مزاحم الباجه جي (العراق) ـ مهدي مشكي (ايران) ـ صلاح بيهم (لبنان) ـ عبد الغفور الأفغاني (افغانستان) . الواقفون من اليمين الى الشمال : عبد الرؤوف رزق المصري (فلسطين) ـ زكي التميمي (فلسطين) ـ أبو بكر الأشعري (جاوه اندونيسيا) ـ فخري الحسيني (فلسطين) ـ الشيخ يعقوب البخاري (فلسطين) ـ جمال الحسيني (فلسطين) ـ الشيخ عبد القادر المظفر (فلسطين) ـ صبحي الخضراء (فلسطين) ـ عزة دروزة (فلسطين) ـ عبد القهار ـ مذكر الجاوي (جاوه ـ اندونيسيا) ـ اسحق درويش (فلسطين) .

يلزمهم من سلاح وعتاد، وأخذوا يقومون ببعض الأعمال الكفاحية مثل غزوات خاطفة على المستعمرات وقتل وجرح من يظفرون به من أهلها، ومثل ترصد بعض الجواسيس والسماسرة وضباط وأفراد البوليس الشديدي الأذى وضربهم بصورة ما.

وبوغتت السلطات بهذه الحركة وأهمّتها همّاً شديداً وجندت كل وسائلها وعملائها لكشفها، ولكنها لم تستطع، وقد حدثني فيما بعد عن هذه الحركة خليل عيسى المجاهد الذي عرف بأبي ابراهيم الكبير، وتوفيق الإبراهيم المجاهد الذي عرف بأبي إبراهيم الصغير والأول من قرية المزرعة من قضاء القدس، والثاني من قرية أندور من قضاء الناصرة، حينما تعرفت عليهما في سياق ثورة فلسطين الكبرى 1937، وتعاونت معهما ومع رفاقهما تعاوناً تاماً في تأجيج الثورة، وكانا من هذه الخلايا. وقد اشتبه البوليس بهما فاعتقلهما في عكا وعذبهما ولكنهما استطاعا أن يصمدا للعذاب والإرهاب انكاراً وتنصلاً، وتحملا معاً، ولم يكن في يد السلطات دليل حسي ضدهما، فاضطرت الى إطلاق سراحهما. ومن هذه الخلايا انبثقت حركة الشهيد القسام التي سوف نذكرها بتفصيل أكثر في مناسبتها. ومن هذه الخلايا كان عدد من المجاهدين الذين ابلوا بلاءً عظيماً في الثورة الفلسطينية الكبرى التي انبثقت في أيام الإضراب، ثم استؤنفت في سنة 1937 واستمرت الى بداية الحرب، ثم الكفاح المسلح ضد التقسيم في سنة 1947 ـ 1948، ثم في الحركات الكفاحية المسلحة التي كانت في سني 1952 ـ 1953 على ما سوف نشرحه بعد.

***



40 قدوم لجنة دولية لدرس قضية البراق وما جرى في صدد ذلك وصدى تقريرها:

وفي فترة عملي في مأمورية الأوقاف، جاءت اللجنة الدولية التي عرفت بلجنة البراق، فقد كان من جملة توصيات لجنة شو وجوب درس مسألة البراق دراسة دولية وإصدار تعليمات صريحة يقف عندها العرب واليهود معاً. ولقد ورد في صك الانتداب مادة تقضي على الدولة المنتدبة تشكيل لجنة دولية للنظر في الخلافات التي تقع على الأماكن المقدسة بين طوائف فلسطين، فكان ذلك وسيلة إلى طلب الحكومة البريطانية من لجنة الانتدابات تعيين لجنة دولية لحل الخلاف في مسألة البراق بين المسلمين واليهود، واستجابت لجنة الانتدابات وعينت لجنة مؤلفة من عضو سويسري وآخر هولندي وثالث (لم أسجل اسم بلده في الدفتر الذي سجلت فيه خبر قدوم اللجنة وعملها الذي أنقل عنه معظم ما سوف يرد في هذه النبذة. وكان تسجيلها في سنة 1931 والذهن مملوء بذلك).

ولقد وصلت اللجنة في أواخر شهر مارس 1930، واتخذت مركزاً لاجتماعاتها في جناح في دار الحكومة في باب العامود، وقد اهتم الحاج أمين ونحن معه في الأمر قبل وصول اللجنة بمدة من الزمن، حيث أخبرته الحكومة بأمرها، وأمكن إحداث حركة نشيطة حول أعمال اللجنة وقضية البراق وعلاقة ذلك بمسلمي العالم. وكانت نتيجة لذلك تهيئة جبهة دفاع قوية أمام اللجنة مؤلفة من:

(1) محمد علي باشا علوبه أحد كبار

المحامين المصريين، وصار مرة وزيراً للمعارف، ومرة وزيراً للأوقاف وعهد له بتولي النقاط القانونية والوقفية.

(2) أحمد زكي باشا العالم المؤرخ المصري الشهير، وعهد اليه بتولي النقاط التاريخية.

(3) الشيخ سليمان الجوخدار أحد كبار قضاة وعلماء المسلمين السوريين، وفايز الخوري أحد كبار المحامين السوريين وعوني عبد الهادي وفخري الحسيني المحاميين في القدس ليكونوا جبهة دفاع، وكنت أنا وجمال الحسيني وأمين التميمي مع الحاج أمين أعضاء الوفد الرسمي الذي يمثل المجلس، بالإضافة الى الشخصيات المذكورة.

ثم بذلنا الجهد لتهيئة شخصيات إسلامية عربية وغير عربية بارزة غير فلسطينية لتقدم أمام اللجنة وتؤدي شهادة باسم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بأهمية وقدسية البراق عند جميع المسلمين، وممن حضر وأدّى الشهادة بذلك أمام اللجنة بالإضافة إلى أحمد زكي باشا ومحمد علي علوية باشا والشيخ سليمان الجوخدار، رضا توفيق، الفيلسوف التركي الشهير، ومهدي رفيع مشكي من كبار تجار العجم في مصر، والشيخ عبد الغفور من كبار رجال الدين الأفغان، ومزاحم الباجه جي السياسي والوزير العراقي المشهور، وصلاح الدين بيهم أحد رجالات المسلمين البارزين في بيروت، وعبد القهار مدكر، وأبو بكر الأشعري من شباب بلاد جاوة التي تعرف اليوم بأندونيسيا، والشيخ محمد الغنيمي التفتازاني شيخ الطريقة التفتازانية ومن البارزين في الأوساط المصرية، وردفنا هؤلاء بشهود من مسلمي فلسطين علماء وأعيان أيضاً.

ولقد رأينا أن نحتاط للمبدأ الوطني، فكان أول عمل تقدمت به جبهة الدفاع أن أرسلت إليها مذكرة قالت فيها أن اشتراك المسلمين في فلسطين فلسطينيين وغير فلسطينيين في أعمال اللجنة، لا يعني أنهم قابلون بصك الانتداب الذي جاءت اللجنة بموجبه، وإنما لتنوير هيئة تريد أن تبحث في قضية تهم المسلمين، وتصدر تواص تعمل بها السلطات المسيطرة على فلسطين بدون موافقة ورضاء أهلها العرب والمسلمين، ويكون من واجب المسلمين بذل الجهد في مساعدتها لإثبات حقوقهم ومركزهم فيها.

وقد كان الفريق اليهودي أيضاً قد اهتم للأمر كما اهتممنا، وهيأ وثائق وشهوداً، وكان محاميهم الأول الدكتور الياش أحد مشاهير محاميهم الذي أثبت براعة ومقدرة محسوسة، وكانت القضية تدور بالنسبة للمسلمين حول إثبات ملكيتهم لمكان البراق ووقفيته، وقد سبق وصف مدى المنحة التي منحها المسلمون لليهود فيه من جهة، ومطامع اليهود ومحاولاتهم التوسع في المكان والممارسة بغير سند وحق من جهة أخرى، أما بالنسبة لليهود فقد كانت تدور حول علاقتهم الدينية والتقليدية التاريخية والتقديسية بهذا المكان، وحقوقهم في زيارته وإقامة شعائرهم الدينية فيه، استناداً الى ذلك وإلى حرية العبادة المضمونة لجميع الطوائف بدون قيد وشرط. ولقد كانت حجج المسلمين هي الناهضة في هذه القضية، اذ استطعنا أن نثبت أن جميع الحي بما فيه المكان وقف إسلامي خيري بموجب وثائق سجلات المحكمة الشرعية القديمة، التي ذهب أعضاء اللجنة الى مكان حفظها واطلعوا عليها وترجمت لهم، وكان تأثرهم فيها شديداً ثم أثبتنا قدسية المكان بالنسبة للمسلمين، لأنه جزء من الحرم

الشريف الذي كان مسرى رسول المسلمين بنص القرآن، وثالث الحرمين الشريفين، وأولى القبلتين للمسلمين. وأثبتنا أن زيارة اليهود للمكان ممنوحة منحاً ضيقاً بموجب أوامر محمد علي باشا الذي حكم فلسطين في القرن التاسع عشر ـ والحكومة العثمانية التي حكمتها منذ القرن السادس عشر، وأبرزنا وثيقة تذكر أن زيارة اليهود هي زيارة إفرادية من دون أدوات ولا أصوات ولا بوق ولا إزعاج، وقدمنا للجنة صورة ضبط الحالة الراهنة لزيارة اليهود عند الاحتلال الإنكليزي، التي كانت زيارة مجردة بدون أدوات ولا أصوات، باستثناء منضدة خشبية صغيرة عليها إناء ماء لغسل الأيدي، ومنضدة خشبية صغيرة عليها بعض كتب الأدعية. ومما اطلع عليه أعضاء اللجنة في المحكمة تسجيل حجة شهادة متواترة عن وقف أرض حي المغاربة الذي يدخل منه الى البراق من قبل الملك الأفضل بن صلاح الدين على المدرسة الأفضلية التي أنشأها في هذا الحي، والتي ما زالت آثارها قائمة. وقد وضع أحمد زكي باشا تقريراً تاريخياً مسهباً باللغة الافرنسية ألقاه أمام اللجنة، أثبت فيه أن حائط الحرم وجميع ما في الحرم من منشآت هو إسلامي، وفند بالحجج والنصوص التاريخية والأثرية دعوى اليهود بأن الحائط من بقايا هيكل سليمان، وهو من هذا الاعتبار مقدس عندهم. كما أن محمد علي علوبه باشا وعوني عبد الهادي أيضاً قدما بالإفرنسية دفاعاً قوياً عن وجهة نظر المسلمين وحقوقهم، وكان لكل ذلك أثر قوي في اللجنة.

أما اليهود فإن كل مدعياتهم كانت بدون أي سند، ومحصل ما قالوه إن اليهود كانوا يزورون الحائط من مئات السنين، ويقيمون طقوسهم عنده، وأنه مقام ديني مقدس عندهم لهم الحق في إقامة طقوسهم، وأن من واجب سلطات الانتداب أن تضمن لهم ذلك على أوسع نطاق. وقد حاولت اللجنة أن تجمع ممثلي المسلمين واليهود في جلسات خاصة للبحث في التوفيق بين وجهتي النظر، كما أن المندوب السامي حاول أن يساعد على عقد هذه الجلسات. ولقد استجاب الجانب الإسلامي لإلحاح اللجنة والمندوب، فعُقد نتيجة لذلك جلستان خاصتان حضرهما من جانب المسلمين الحاج أمين وأنا وأمين التميمي وجمال الحسني وعوني عبد الهادي وفخري الحسيني، ومن جانب اليهود الدكتور الياش وثلاثة آخرون بينهم حاخام. ولم يمكن الوصول الى نتيجة ما من هذه الاجتماعات، فموقف المسلمين وحقهم قويان، وحجج اليهود واهية. وحاولوا أن يخرجوها بالعاطفة، مثل التشارك في تقديس المكان وعبادة الله إله الجميع ونحو ذلك. ولقد وسط المندوب موسى العلمي، وكان سكرتيره العربي، لتقريب وجهتي النظر. وتألفت لجنة لوضع بعض المقترحات، وكان يبدو من موسى وجمال الحسيني ثم من أمين عبد الهادي ميل بشيء من المسايرة في هذه المقترحات وقبولها، غير أن الحاج أمين وأنا وأمين التميمي ظللنا متمسكين بصراحة ما للمسلمين من حقوق قوية وعدم التساهل، وكان الحاج أمين مغتاظاً مكهرباً من ما لمحه من ميل للمسايرة من موسى وجمال وأمين عبد الهادي. ولما رأى هؤلاء شدة إصرار الحاج أمين وتأييدنا لهذا الإصرار كفوا عن موقفهم. وبعد نحو شهرين أو ثلاثة سلمت اللجنة تقريرها المتضمن وجهة نظرها الى لجنة الانتدابات، وأرسلته هذه إلى الحكومة البريطانية، وأصدرت هذه الحكومة كتاباً أبيض بذلك، ذكرت فيه أن تحقيقات اللجنة أثبتت

ملكية المسلمين للمكان وتصرفهم فيه، وأنه ليس لليهود إلا ما كانوا يمارسونه عند بدء الاحتلال، وسجل في ضبط الأحوال الراهنة للأماكن المقدسة آنئذ، وهو زيارة عادية وصلاة فردية دون أدوات صلاة وجلوس ومظلات، ودون أصوات مزعجة ولا نفخ بوق، مع المنضدتين الصغيرتين اللتين على إحداهما إناء ماء وثانيهما بعض كتب الدعاء. وحظرت مرور الدواب من الممر، ووضعت تعليمات لتنظيم مسائل الأمن والزيارة.

ومع أن المجلس احتج على تثبيت ما كان يمارسه اليهود كحق، لأنه ليس هو في أصله إلا منحة من المسلمين، فقد سار الأمر على المنوال الذي قرره الكتاب الأبيض، وعد انتصاراً تاماً لوجهة نظر المسلمين في القضية. ولم تلبث أصوات اليهود أن أخذت تخفت عن البراق وقضيته وزيارتهم له وأطماعهم فيه، ولا بد من أنهم رأوا ارتفاع هذه الأصوات أضر بقضيتهم، إذ كانت سبباً في إثارة العاطفة الدينية في المسلمين ضدهم في فلسطين وفي البلاد الإسلامية، وأنها أدت إلى ثورة كبرى، في حين أن تلك العاطفة والثورة كان لها رد فعل سيء على دعايتهم ودعوتهم، فقرروا إهمال هذا الموضوع، وقد كان لهم من حركة اضطهاد هتلر لليهود الألمان شاغل جديد ووسيلة عظيمة لإثارة عاطفة الشفقة وتوجيه أغنياء الألمان اليهود إلى فلسطين، توجها كان لهم فيه نجاح باهر، حيث تدفقت أموال كثيرة على فلسطين مع هؤلاء الأغنياء، وتوسعت بذلك حركة الاستيطان والتصنيع، وظهر للعرب فيها الأخطار الحقيقية للاستعمار الانكليزي الصهيوني، وأشغلهم وأثارهم أيما إشغال وإثارة.

* * *

41

تسلح اليهود ومؤتمر العرب الفلسطينيين الاحتجاجي على ذلك وما جرى في صدد ذلك:

وفي فترة عملي في مأمورية أوقاف نابلس عقد مؤتمر في نابلس للاحتجاج على تسلح اليهود وتسليحهم. ولقد كان اليهود قبل ثورة البراق يهتمون لجلب السلاح وتوزيعه على المستعمرات للحراسة والدفاع، وأنشأوا ما يسمونه (الحرس اليهودي) ودربوه على القتال. ولقد اكتشفت عمليات عديدة لإدخالهم السلاح مهرباً في مناسبات كثيرة، وكانوا يضعونه في براميل الإسمنت وفي صناديق خلايا النحل، ويرشون موظفي المرافىء للإغضاء. ولقد سقطت مرة بعض البراميل إلى الأرض واندلق ما فيها، وإذا هو بنادق وذخيرة لها. ولكن كل ذلك كان قبل ثورة البراق في نطاق ضيق، فصاروا بعدها يتوسعون فيه. وكانوا اتهموا السلطات في فلسطين بالتقصير في حمايتهم وطالبوها بمساعدتهم على التسلح، وكان ذاك مما قالوه وطلبوه أمام لجنة شو، وذكرته اللجنة في تقريرها، وأوصت فيما أوصت به بضرورة الاهتمام لحماية المستعمرات اليهودية، وقد سارعت السلطات الفلسطينية الى تنفيذ هذه الوصية بعد صدور التقرير، فسلمت مخاتير المستعمرات صناديق فيها بنادق وذخيرة لتوزيعها بإشرافهم وعلى مسؤوليتهم، حين الحاجة، على سكان مستعمراتهم للدفاع عن أنفسهم، وعينت بعض الضباط لتدريب شبانهم، واستغل اليهود ذلك فبذلوا جهوداً كبيرة لجلب السلاح على حسابهم

وتوزيعه على المستعمرات بنطاق واسع.

وقد تسربت أنباء ذلك كله الى العرب، فأخذت الصحف العربية تذكره وتحذر منه، وأثار ذلك قلقاً في نفوس العرب. وقد قررنا في نابلس، أي جمعية نابلس الوطنية التي كنت أمارس سكريتريتها، في صيف سنة 1931 الدعوة الى مؤتمر عربي فلسطيني عام للنظر في الأمر، واستجابت مدن فلسطين للدعوة، فجاءت وفود عديدة إلى نابلس من طولكرم وجنين والقدس ويافا والخليل والناصرة وحيفا وعكا واللد والرملة وغزة الخ..

وانعقد المؤتمر في قاعة بناية القمحاوي القائمة في مدخل الشويطرة بعد البوابة الغربية، والتي كانت مركزاً ومكتباً للجمعية، وخطب فيها خطباء عديدون، وكنت ممن خطبوا، ونبه الخطباء على خطورة الأمر وما قد ينجم عنه من خطر على العرب، وقرر المؤتمر الاحتجاج على السلطات ومطالبتها بسحب السلاح والمدربين من المستعمرات، ودعوة كل عربي الى التسلح في حالة عدم استجابة الحكومة للطلب، واستمرت الصحف أياماً عديدة تكتب حول هذا الموضوع، وخشيت السلطات العاقبة، فأذاعت بياناً قالت فيه أن الأخبار مبالغ فيها كثيراً، ثم قبضت على ثلاثة ممن حضروا المؤتمر بتهمة التهييج، وهم الشيخ صبري عابدين من الخليل، والدكتور صدقي ملحس وجمال القاسم من نابلس. والأول من الخطباء، والآخران ممن كانوا متحمسين في المؤتمر للموضوع. وكان اعتقالهم ثاني يوم انفراط المؤتمر. وقامت في نابلس مساء يوم الاعتقال مظاهرة صاخبة كنت على رأسها، ووصلت الى القشلة حيث كان جمال والدكتور صدقي معتقلين فيها، واصطدمنا بالبوليس الذي حاول تفريق المظاهرة، ووقعت أنا على الأرض وجرحت في جنبي[1] جرحاً طفيفاً، وأخذت السلطات المعتقلين ليلاً إلى سجن القدس، وكان الشيخ صبري قد اعتقل في القدس.

وفي الصباح عادت نابلس الى التظاهرة، وكان على رأسها أخي محمد علي رحمة الله عليه ورفاق عديدون له من شباب النادي العربي، واصطدمت مظاهرتهم مع البوليس أيضاً ورشق المتظاهرون البوليس بالحجارة، وشج رأس ضابط بوليس إنكليزي، وأصيب آخرون من البوليس بإصابات متنوعة، كما أصيب عدد من المتظاهرين بضربات عصي البوليس، وقبضت السلطات على نحو ثلاثين من المتظاهرين وفي مقدمتهم أخي محمد علي، وضربه البوليس ضرباً مبرحاً وقدموهم للمحكمة، وحكمت هذه عليهم بسجن سنة، واستؤنف الحكم ونقض وأعيدت المحاكمة فحكمت عليهم بالسجن مدداً مختلفة، وكان حكم أخي شهراً. وأيدت محكمة الاستئناف الحكم فصار مبرماً، وكان من جملتهم عادل كنعان وواصف كمال وسبع العقاد وأسعد بلعوط المصري وآخرون لم أعد أذكرهم. وأمضوا مدة حكمهم في سجن القدس، وقد زرتهم ورأيت السلطات قد حلقت لهم شعور رؤوسهم وألبستهم ثياب السجن الغامقة، ولكن ذلك لم يكن ليؤثر على روحهم المعنوية، حيث كانوا

(1) وردتني برقية تأييدية من رجالات سورية، زعماء الكتلة الوطنية جاء فيها: «مقاومتكم رجالاً ونساءً القوة الغاشمة وجرحكم، غرّة في تاريخ الجهاد القومي». شكري القوتلي، جميل مردم بك، سعد الله الجابري، عارف النكدي، بهجة الشهابي، محمد اسماعيل، إحسان الشريف، نجيب الأرمنازي، محمد النحاس، علي ناصر الدين، رشيد الملوحي.

يرون فيما عملوه واجباً. وفي ما تم عليهم عملاً استعمارياً طبيعياً.

ثم قدم البوليس المعتقلين الثلاثة الأولين الى المحاكمة أمام حاكم إنكليزي في القدس، ومن الطريف أنهم وجهوا لي دعوة للشهادة في المحاكمة كشاهد لهم، ومثلت كذلك أمام الحاكم، وطلب مني الحاكم أن أقسم بأن أقول الحق، وأنذرني ضابط البوليس الذي كان يقوم بصفة المدعي بأني إذا لم أشهد وأقل الحقيقة سوف يتهمني بكتم الحقيقة، ويطلب محاكمتي بهذه التهمة. ثم وجه إلي الأسئلة حسب أصول المحاكمات الإنكليزية التي كانت مطبقة في محاكم فلسطين عما اذا كنت سكرتيراً للجمعية، وعما اذا كانت هي التي وجهت الدعوة إلى المؤتمر، وعما اذا كان المؤتمر قرر دعوة العرب الى التسلح، وعما اذا كان الثلاثة من شهود المؤتمر، وعما إذا كان الشيخ صبري من الخطباء.

طبعاً شهدت بما كان، ولم يكن من حاجة إلى إنذار، ولكن المدعي الضابط ظن أني قد انكر وأكتم، وأراد أن يثبت دعواه بشهادة شاهد من أهل البيت حسب قول المثل، وفوجىء الناس بشهود إثبات قدمهم الضابط المدعي من شباب نابلس هم نعيم حماد وجودة الخماش وحلمي العمد وحلمي شحادة العناني، حيث شهدوا جواباً على أسئلة الضابط بانعقاد المؤتمر، وبكون الثلاثة خطبوا خطباً مهيجة ودعواالناس الى التسلح، واتهموا الحكومة بتسليح اليهود الخ.. والثلاثة كانوا طلاباً في النجاح مع الأسف، وقد تركوا المدرسة قبل أن ينهوا فيها دراستهم. ويظهر أن دائرة البوليس استطاعت أن تغريهم وتجندهم في خدمتها، وأوعزت اليهم بحضور المؤتمر وتقديم تقارير عنه ففعلوا. ولما قرر تقديم الشيخ صبري ورفيقه للمحاكمة أتي بهم كشهود إثبات، ولم يستطيعوا أن يمتنعوا رغم ما في ذلك من فضيحة وخزي لهم ولذويهم أمام أهل مدينتهم. ولقد أحاط البوليس المحكمة بجو من الإرهاب بما أوتي من قوة واتخذه من إجراءات في إحضار المتهمين وحراستهم، وكان عدد كبير من نابلس والخليل والقدس جاءوا لحضور المحاكمة، فازداد الجو بذلك توتراً، واستمرت المحاكمة يومين، ثم قرر الحاكم الاكتفاء بالمدة التي سجنوها، على أن يقدموا تعهداً بعدم الإقدام على أعمال غير مشروعة ومخلة بالأمن، وهذه صيغة مألوفة في مثل هذه الأحوال.

وعلى كل حال فإن هذه الأحداث نبهت العرب إلى خطورة نيات ومواقف اليهود، وأوجدت في بعضهم فكرة التسلح والكفاح، وكانت مما غذى حركة الخلايا الجهادية التي سبق ذكرها.

كلمة عن الشيخ صبري عابدين:

ولقد كتبنا سابقاً شيئاً عن الدكتور صدقي ملحس وجمال القاسم، وهذه كلمة عن الشيخ صبري عابدين الذي يأتي ذكره لأول مرة، وهو من أهل الخليل ومن بيت علم، وفي دمشق أسرة كبيرة وبيت علم بهذا الاسم، وقد علمت أن بين الأسرتين الدمشقية والخليلية قرابة، وأن الدمشقية أصلها من الخليل. ومن الأسرة الدمشقية الفقيه الحنفي الشهير ابن عابدين من رجال القرن الثاني عشر الهجري، وكان فيها منصب الإفتاء لفترات عديدة.

والشيخ صبري من خريجي الأزهر، ومعه إجازة علمية منه، ولا بأس في علمه وفقهه، وهو تقي متورع ومتحمس للإسلام وللوطنية، ويحسن الخطابة في المواقف العامة في

المواضيع الإسلامية والدينية والوطنية والاجتماعية، وهو جريء على قول الحق وما يراه صواباً، وفيه شيء من العصبية، وكان في هذا الوقت في سن الشباب، وهو طبعاً ملتح ومتعمم ويلبس الجبة، وقد تعرفت عليه في ظروف مأموريتي للأوقاف، حيث كان واعظاً وموظفاً من موظفي المجلس الإسلامي، وانسجمنا وتواثقنا وظللنا نتعاون في مجال الحركة الوطنية وعلى تواثق حينما صرت مديراً عاماً للأوقاف، وكان نشيطاً في الوعظ وفي العمل الوطني، واعتقلنا معاً في صرفند إبان الإضراب الطويل ثم افترقنا، حيث خرجت من فلسطين وأظن أنه توفي في الستينات رحمة الله عليه.

وأسماء واصف كمال وعادل كنعان وسبع العقاد وأسعد بلعوط المصري تأتي لأول مرة ويحسن أن نقول كلمة عن أصحابها.

كلمة عن واصف كمال:

وواصف هو ابن الحاج سعيد كمال، وآل كمال من البيوتات النابلسية الكبيرة العدد الوجيهة، وأصلهم على ما سمعت من المغرب، ولقد كان واصف حينما صرت مديراً لمدرسة النجاح في الصف الأخير، وتخرج وذهب إلى الجامعة الأميركية في بيروت، وبعد قضاء سنة فيها بدا له أن يذهب الى لندن لدراسة الطب. ولقد أقام في لندن ست سنين، وانتسب أولاً إلى الطب فلم يستمر، ثم انتسب الى كلية العلوم السياسية، وعاد ناضجاً قوياً في لغته الانكليزية. وكان له نشاط عربي وسياسي ووطني في لندن، وكان يبذل جهده في مساعدة القادمين من البلاد العربية للدراسة والسياحة، حتى لقد صار يقال له القنصل العربي. وعاد إلى نابلس وأقام ردحاً حائراً، ثم التحق بمدرسة النجاح مدرساً للغة الإنكليزية. ونشط مع شباب نابلس في العمل الوطني، فاعتقل أكثر من مرة، وكان له نشاط أثناء الأضراب الطويل، واعتقل في صرفند لعدة أشهر. ولما استؤنفت ثورة فلسطين في أواخر سنة 1937 جاء الى دمشق وكنت فيها المسؤول عن إدارة الكفاح المسلح وتأجيج الثورة، وتعاونا معاً واتفقنا معه على أن يلتحق بجماعة المشايخ أبي إبراهيم الصغير وإخوانهم الذين كانوا يتولون الحركة الثورية في شمال فلسطين ووسطها، ليكون موجهاً مثقفاً، وقد كسب احترامهم وتقديرهم، وبذل جهده معهم في سبيل العمل الثوري. ثم نزح الى العراق حينما نشبت الحرب العالمية الثانية وكنت آنذاك قد سجنت بحكم المحكمة العسكرية الافرنسية، ولما خرجت من السجن بعد هزيمة واستسلام فرنسا التقيته في دمشق آتياً من العراق. ولما غزا الانكليز والديغوليون سورية خرجنا معاً من دمشق الى بيروت فحلب ثم الأستانة لاجئين، وبقي فيها نحو سنتين، ثم أخرجه الأتراك بضغط الإنكليز، فذهب إلى أوروبا ونشط مع من كان ينشط فيها من العرب، وفي مقدمتهم الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني في نطاق التعاون والتفاهم مع الألمان والطليان. ولما انتهت الحرب عاد مع من عاد ونشط في مجال العمل الوطني والقومي في دمشق وغيرها. ثم اشتغل في البنك العربي وصار مديراً لفرع دمشق، وظل بضع سنين على رأس هذا الفرع، وصار له مركز محترم في البنك وفي أوساط الشام إلى أن أمم البنك فنقل مديراً لفرع البنك في عمان، وظل على رأس الفرع إلى أن بلغ سن التقاعد، ثم اشتغل في عمل حر في بيروت، ونشط ومايزال ينشط فيها تجارياً

واجتماعياً ووطنياً، وكنا وظللنا أصدقاء متواثقين، وكان وظل طيب القلب نقي اليد والسريرة وطني الأخلاق قومي العاطفة ذا شخصية قوية محترمة.

كلمة عن عادل كنعان:

وعادل كنعان هو الآخر من أسرة كبيرة وجيهة فيها ثراء، وقد درس في نابلس ثم في الجامعة الأميركية في بيروت، ولكنه لم يتمم، وكان في نابلس من عداد الشباب المثقفين النشيطين البارزين في الحركة الوطنية، واعتقل أكثر من مرة. وكان من أعضاء فرع نابلس لحزب الاستقلال العربي الذي أنشأناه في سنة 1932 على ما سوف نذكره بعد، وظل ينشط في مجال الحركة الوطنية، وعمل كاتباً للأوقاف في القدس حينما كنت مديراً عاماً، واعتقل أثناء الأضراب في صرفند، وظللنا متعاونين متواثقين، وافترقنا بعد سنة 1937 وبقي هو في فلسطين، ثم التقينا بعد نهاية الحرب في دمشق حيث أقمنا وحيث كان يأتي زائراً، والتقينا في فلسطين حينما ذهبت اليه زائراً في سنة 1964، ولم أعرف له نشاطاً معيناً أثناء الحرب وبعدها، ولكنه ظل على ما عرفت على خطه القومي الوطني وينشط مع النشيطين.

كلمة عن أسعد بلعوط المصري وسبع العقاد:

وأسعد بلعوط المصري وسبع العقاد هما من الشباب المتحمسين الذين يندفعون في المظاهرات والمجالس، ويمثلون الصلابة والتطرف والجرأة في المطالب، ويؤيدون الزعماء الذين يسيرون في هذا الخط دون مبالاة بالعواقب، ومع تحملها بصبر وتضحية. والأول من أسرة كبيرة ذات حيز كبير في نابلس، وصار شيخ شباب الأحياء الشرقية من نابلس، وهو أكثر أناة وروية من السبع. والسبع أكثر منه حماساً واندفاعاً، وقد كنا منسجمين معهما في الحركة الوطنية في مختلف المواقف، وقد اعتقلا أكثر من مرة وكانا يصمدان، ويعتبران ما يقع عليهما شرفاً وفخراً.

ومن واجبي أن أذكر أنه كان في نابلس وطبعاً في المدن الأخرى عدد غير قليل من أمثالهما، كانوا عماد الحركات الشعبية الوطنية والمظاهرات الشعبية والمواقف المتصلبة المتطرفة.

* * *

42

قدوم المندوب واكهوب وما جرى في عهده وشيء من إنجازاته وبهلوانياته:

وفي أثناء فترة عملي في مأمورية أوقاف نابلس جاء مندوب سام إنكليزي جديد اسمه واكهوب، وكان له ما يمكن أن يسمى بهلوانيات بالنسبة للعرب. وقد شغل بها أوساطهم شغلاً غير قليل، جعلنا نخصه ونخص بهلوانياته بتسجيلات كثيرة في دفترنا القديم. وقد رأينا إثبات هذه التسجيلات وما قد نتذكر ما لم نكن سجلناه، لأن في ذلك صوراً متنوعة من الأعمال والأخلاق، ولقد كان من أول ما حاول إجراءه إحصاء جديد للسكان تمهيداً لانتخابات المجلس التشريعي الذي وعدت به الحكومة الإنكليزية في كتابها الأبيض، وقد وقف اليهود في طريق ذلك لأنهم رأوا فيه على كل حال خطوة ما نحو حكم ذاتي يكون للعرب فيه مجال للمبادرة والكلام، وتعمدوا تعطيله.

تعطيل اليهود لمشروع المجلس التشريعي من جديد:

وقد انساق المندوب والحكومة البريطانية معهم في قصدهم وعراقيلهم، حتى توقفت المحاولة أو تعطلت، رغم كون الحكومة الإنكليزية قد قالت في كتابها الأبيض أنها سوف تنفذ وعدها بإنشاء المجلس التشريعي، ولا تسمح بتأخيره أو تعطيله مرة ثانية.

تظاهر المندوب بالتعاطف والتقارب مع العرب:

وعمد المندوب إلى تعويض العرب عن ذلك، فصار يتظاهر بالتعاطف معهم والتقرب إليهم، وإنجاز بعض ما فيه مصلحة لهم في مظاهر وسائل ومواقف وأمور ليست من مطالبهم الأساسية، بل وكان لبعضها تأثير ومساس على المنهج الوطني العربي القويم تجاه اليهود، وتجاه الحكومة الانكليزية معاً.

إلغاؤه الأعشار:

ومما أنجزه وفيه مصلحة للعرب، الغاؤه الأعشار واستبدال ضريبة موحدة به تجمع بين الأعشار والويركو، (الويركو كلمة تركية كانت تعني ضريبة الأرض والعقارات)، وكان ذلك حقاً انجازاً مفيداً منقذاً للمزارعين من تعقيدات الأعشار وجبايتها، وما كان فيها من صور تطبيقية ومربكة.

اتفاقه مع المجلس الإسلامي وحل أزمة المجلس المالية:

ومن ذلك ونتيجة له، الاتفاق المالي مع المجلس الاسلامي الأعلى، فقد كان نصف إيرادات الأوقاف أو أكثر، أعشار قرى موقوفة كانت الحكومة الانتدابية تجبيها مع سائر الأعشار وترفعها للمجلس، وكانت تزيد وتنقص وتتأخر حسب المواسم والجباية، فكان المجلس يعاني من ذلك صعوبات ومشاكل، وقد جرت مفاوضات بينه وبين الحكومة حينما قررت الغاء ضريبة الأعشار بهدف تعيين مبلغ مقطوع تدفعه الحكومة مقابل الأعشار الوقفية، وكان المجلس أوفد أمين التميمي أحد أعضائه إلى الآستانة للبحث في سجلات الدولة العثمانية عن أوقاف فلسطين، فأحضر صوراً

مصدقة عن سجلات الأوقاف والطابو، فيها اسماء كثير من القرى والعقارات الموقوفة، وظهر ان من أسماء القرى التي أتى بها ما لم يكن يدفع عنه عشر للمجلس، وكان يدخل في خزانة الحكومة، فأدخل المجلس هذه القرى في المفاوضات، وأبرز مستندات وقفيتها المصدقة، وطالب بمبالغ إضافية عن المدة السابقة، لأن الحكومة استوفت أعشارها لنفسها، ووافقت الحكومة بالنتيجة على دفع مبلغ سنوي مقطوع قدره (23000) جنيه، ووعدت بدفع مبلغ آخر بعد الدرس تعويضاً عما لم تكن الحكومة تدفعه، وقد اغتبط الحاج أمين والمجلس بهذه النتيجة، وكان في ذلك تفريج لما كان المجلس واقعاً فيه من عجز وعسر وديون، ويسر له هذا في الوقت نفسه أن يضع موازنته ومصروفاته على أسس معلومة غير متموجة حسب المواسم والجباية كما كان سابقاً.

اهتمام المندوب لأعمال المختبرات وتحسين أساليب الزراعة:

ومما كان من المندوب السامي اهتمامه لإنشاء مختبرات زراعية، ودراسات بسبيل تحسين أساليب الزراعة والري.

اجتماعاته بالفلاحين وسؤاله عنهم ومآدبه وولائمه للوجوه:

واجتماعاته المتوالية مع الفلاحين وسؤاله عن أحوالهم، وإقامته الولائم والمآدب للأعيان والوجوه من أهل المدن والقرى والبدو، حتى لم يكن يمر شهر إلا وكان يقيم مأدبة لجماعة ما من هؤلاء، ويرد إلى ذهني أن هذه المآدب كانت تجمع بين وجوه العرب في المدن والقرى، ووجوه اليهود في المدن والمستعمرات، أو أنه كان يقيم لهؤلاء أيضاً مآدب مماثلة.

توسعه في تعيين أبناء الأسر:

ومما اهتم له هذا المندوب توسعه في تعيين أبناء الأسر البارزة من أهل المدن والقرى في الوظائف، وكان ممن عينهم في هذا الظرف مصطفى الحسيني وعبد القادر الحسيني ورجائي الحسيني ونظيف الخيري وخلوصي الخيري ورشاد الشوا وعز الدين الشوا وعزمي النشاشيبي وراسم الخالدي وثابت الخالدي وإبراهيم طوقان وفريد السعد وفوزي الغصين وغيرهم. منهم من عينه قائمقاماً، ومنهم من عينه في وظائف أخرى من درجات مرموقة، ومن هذا الباب تعيينه لموسى العلمي وهو متعلم متخرج من إحدى جامعات انكلترا سكرتيراً خاصاً عربياً له. ولقد كانت السلطات الإنكليزية في فلسطين تسير منذ البداية على هذه السياسة، التي كانت تعني فيما تعنيه استرهان الأسر البارزة في مسايرة وخدمة السلطات. ولكن واكهوب توسع فيها كثيراً، وكان يُلمَحُ سعى بعض رؤساء الأسر البارزة لنيل رضائه ونيل حظ من توسعاته هذه.

اللجان المختلطة واشتراك الوطنيين فيها:

ومما كان من واكهوب أيضاً عملية شديدة الخطورة نجح في تجريعها لرجالات العرب، وهي إنشاء لجان استشارية تجتمع وتقدم توصياتها للحكومة في صدد الزراعة والعمل والتجارة والصناعة والطرق الخ. . وكانت مختلطة من العرب واليهود، وهذا وجه خطورتها الشديدة، ومطعّمة ببعض الموظفين من ذوي الخبرة والاختصاص. ومما يؤسف له أن بعض العاملين في الحركة الوطنية ومنهم أعضاء في اللجنة التنفيذية انساقوا في هذه الخطة وجرعوها

ذهولاً أو ضعف مناعة، فاستجابوا واشتركوا في اللجان المختلطة، منهم عوني عبد الهادي، وكان في لجنة العمل، وجمال الحسيني ويعقوب فراج وكانا في لجنة الطرق، ورشيد الحاج إبراهيم في لجنة بورحيفا، وشكري التاجي في لجنة الزراعة. ومن المؤكد أنه كان هناك أشخاص بارزون آخرون لم أعد أتذكر أسماءهم جرّعوا هذه الجرعة.

بيانات المندوب وتبجحاته بأعماله أمام لجنة الانتداب:

ولقد أدلى المندوب في سنة 1932 أمام لجنة الانتدابات بياناً عن خطواته وخططه في الحكم، فكان ما فعله من كل ذلك مما احتواه بيانه، وقد نبه بخاصة على ما أوجده في اللجان المختلطة من أرضية التعاون بين العرب واليهود، وأذيع بيانه في الصحف العربية فلم يتحرك أحد من الوطنيين من أعضاء اللجان بحركة احتجاج أو استقالة، بل ظلوا في اللجان ووصل الأمر في بعضهم إلى أن يقول في ساعة عصبية وتحد حينما دعا الوطنيون إلى عدم التعاون مع الحكومة والاستقالة من اللجان المشتركة والحكومة بسبب تفاقم الهجرة تفاقماً خطيراً سنة 1933، إنه يفضل عضوية لجنة الطرق على عضوية وسكرتيرية اللجنة التنفيذية، لأنها أنفع. وذكر المندوب في بيانه كيف حل أزمة المجلس الإسلامي المالية، وكسب بذلك قلوب المسلمين. ومما يجدر تسجيله أن الحاج أمين اغتبط بما كان من المندوب من تجاوب وحل لأزمة المجلس المالية، وظل حريصاً على دوام الصلات الودية بينه وبين المندوب. ولقد انعقدت صلة الود في هذا الظرف بين الحاج أمين وبين موسى العلمي الذي عينه المندوب سكرتيراً عربياً له، وصار هذا واسطة تقريب وتعاون بين الحاج والمندوب.

نجاح المندوب في تهدئة الحركة الوطنية بالإضافة إلى عوامل أخرى:

ومهما يكن من أمر فإن المندوب قد نجح في عملياته هذه نجاحاً غير يسير في تهدئة الحركة الوطنية التي كانت قد دبت فيها الحيوية إثر ثورة البراق، وإن كانت عوامل أخرى ظهرت في صفوف المسلمين أدت إلى فتور هذه الحركة، وبخاصة في مناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي العام في أوائل سنة 1931 على ما سوف نشرحه بعد.

انفتاح باب الهجرة اليهودية الواسع في عهده وآثار ذلك:

ومن الجدير بالذكر أن باب فلسطين انفتح للهجرة اليهودية في زمن هذا المندوب أكثر من أي زمن آخر، وإن كان لحركة هتلر أثر ما في ذلك، وكان لذلك أثر شديد في تطور حالة اليهود إيجابياً، وفي الاضطرابات العربية التي أخذت تقع في سنة 1933 وبعدها على ما سوف نشرحه بعد أيضاً.

***

43

انعقاد المؤتمر الإسلامي العام في القدس:

وفي فترة عملي في مأمورية أوقاف نابلس عقد المؤتمر الإسلامي العام في القدس، وكان حدثاً هاماً في كيفيته وأهدافه ونتائجه وما ثار حوله، وقد سجلت في دفاتري القديمة أشياء كثيرة عن ذلك، وكان التسجيل في سنة 1936، وكان الذهن ممتلئاً بصوره وأحداثه المتنوعة، ومعظم ما سوف أثبته منقول من هذه الدفاتر. ولقد امتدت حركته إلى ما بعد عملي في مأمورية أوقاف نابلس أي أثناء عملي في مديرية الأوقاف العامة، غير أني لم أر ضرورة لفصل الكلام عنه وتقطيعه على الفترتين فأوردته متواصلا.

انبثاق فكرة المؤتمر لدى الحاج أمين والزعيم الثعالبي وشيء عن هذا الزعيم:

وكانت فكرة عقد مؤتمر إسلامي عام يشترك فيه مندوبون وزعماء من مختلف الأقطار الإسلامية بسبيل جعل قضية فلسطين إسلامية عامة قد انبثقت في ذهن الحاج أمين والزعيم التونسي الشهير عبد العزيز الثعالبي، الذي جاء إلى فلسطين قبل ثورة البراق بمدة ما، وقام بينه وبين الحاج أمين وبعض المشتغلين بالقضية الوطنية، وكنت وأصدقائي في جملتهم، إنسجام وصداقة وثيقة، ثم ذهب إلى أوروبا وعاد في أواسط عام 1931 إلى فلسطين بنية المكوث فيها مدة طويلة، وهيأ له الحاج أمين بيتاً قرب الحرم، وصرنا نلتقي به في بيته وفي المجلس وفي مناسبات متعددة، وكان في الحق رجلاً ناضجاً رصيناً واسع الثقافة الإسلامية والعربية والغربية، طلق اللسان طويل النفس في الكلام والتقرير- بارعاً في الإلقاء والخطابة- يستعمل الكلام الجذل الفصيح النافذ. وكان له جهد كبير في إحياء الحركة الوطنية في تونس، وأنشأ حزبها الوطني المسمى بالحزب الدستوري، وتعرض لمضايقة الإفرنسيين ومطاردتهم، مما جعله يخرج من تونس ويطوف في أوربا والبلاد العربية، ثم جاء في النهاية إلى فلسطين وأقام فيها نحو سنتين أي 1931 ـ 1933.

الحوافز على عقد المؤتمر وأهدافه:

ومن المحتمل أن تكون فكرة المؤتمر راودت الحاج أمين أولاً بمناسبة قضية البراق وشهادات ممثلي الأقطار الإسلامية أمام لجنة البراق، حيث رأى أن من الضروري والمفيد إشراك المسلمين جميعهم في همّ فلسطين العظيم وقضيتها.

الرسائل إلى الشخصيات الإسلامية للإستشارة في أمر المؤتمر:

وقد فاتح الحاج أمين الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي بذلك فحبذه، واتفقا على بقاء الجهد في سبيل ذلك سرّا إلى أن تلوح بوادر نجاحه، وعلى أن يرسل الحاج أمين بصفته رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى رسائل إلى بعض الشخصيات الإسلامية الشهيرة، مثل الأمير شكيب ارسلان وعبد الحميد سعيد ومحمد علي علوبه ومولانا شوكة علي الهندي وأمثالهم، لمفاتحتهم بالفكرة واستصلاح رأيهم فيها. وورد عليه ردود مشجعة.

وحينئذٍ دعا عدداً من إخوانه وأصدقائه من

رجال الحركة، وكنت من الجملة، وشرح لهم الفكـرة بحضور الـزعيم الثعالبي الـذي أيدهـا وحبذها فوافقوا عليها.

تأليف لجنة تحضيرية لتهيئة أسباب عقد المؤتمر ونجاحه:

وتألفت لجنة تحضيرية للدعوة وتهيئة أسباب نجـاح المؤتمر مـاديـاً ومعنـويـاً، وكـان فيهـا بالإضافة إلى الحاج أمين والزعيم الثعالبي وأنا كـل من أمين التميمي والحـاج سعيـد الشـوا وعجاج نويهض وإسحق درويش والشيخ حسن أبو السعود والشيخ اسماعيل الحافظ، وكان هذا رئيساً لمحكمة الاستئناف الشرعية، وهو رجل فاضل ناضج من طرابلس الشام، وحلمي باشا وآخرون.

نشاطي واستغراقي في اللجنة التي كنت عضواً فيها:

وكان لي نشاط قوي داخل اللجنة، وقضيت أكثر أيام كانون الأول 1931 في القدس لتهيئة أسباب انعقاد ونجاح المؤتمر، حتى لقد كان لي ولد اسمه لؤي مرض أثناء ذلك فشغلني العمل للمؤتمـر عنه، ومـات وأنا في القـدس، وكان عمـره سنة ونيفـا. وقد تقـرر أن يكون انعقـاد المؤتمر ليلة السابع والعشرين من شهـر رجب 1350، وكان يصادف ذلك آخر شهـر كانـون الأول سنة 1931، وأن تكون حفلة افتتاحه في المسجـد الأقصى ليـلاً، حيث جـرت العـادة الاحتفـال في هـذه الليلة بـذكـرى الإسـراء والمعراج النبوي، التي جـرى المسلمون على أنها هي ليلة الإسراء والمعراج.

إعداد مدرسة الروضة لاجتماعات المؤتمر:

ثم تكـون اجتماعـات المؤتمر ولجـانـه في مدرسة الروضة الملاصقة للحرم، وقد أرسلت أوراق الـدعـوة إلى عـدد كبيـر من رجـالات المسلمين.

إرسـال الـدعـوة إلى عـدد من الشخصيـات الإسلامية في مختلف الأقطار:

وقد أرسلت أوراق الدعوة إلى عدد كبير من رجالات المسلمين وأعيانهم وكتابهم وشعرائهم وعلمائهم وأدبائهم في مصـر والعراق وسـورية ولبنان وجزيـرة العرب وليبيـا وتونس والجـزائر والمغـرب والهند وجـاوا (التي صـارت تسمى أندونيسيا) وماليزيا وإيران وأفغان وسيلان وتركية وتركستان والبشنـاق في يوغـوسلافيـا الخ... وطُلب منهم الإجـابة بـالتلبيـة، وأخـذت تـرد الأجـوبـة من شخصيـات إسـلاميـة بـارزة من مختلف الأقطار بعزمهم على القدوم والاشتراك في المؤتمر.

إعـداد برنـامج عمـل المؤتمر وإقـامة وتـرفيه القادمين إليه:

وحينئذٍ دخل الأمر في دوره الجدي، وأخذت اللجنـة التحضيريـة توالي اجتمـاعاتهـا لإعداد جدول أعمال المؤتمر، وأسباب إقـامة وراحـة المدعوين، وأعدت فيما أعدت برنامج زيارات لهم إلى نابلس ويافا وحيفا والخليل.

الدسائس ضد المؤتمر في مصر وفلسطين:

ولما أخذت جـدية المؤتمـر تبدو، بـدأت الدسائس حوله وحول القائمين به، في فلسطين وفي مصر بنوع خاص.

ففي مصـر ظن الملك فؤاد أو أوليـاؤه أن المؤتمر قد يتناول موضوع الخلافـة الإسلاميـة والبت فيها. وكان هؤلاء الأولياء قد عقدوا في القاهرة قبل سنة مؤتمراً باسم مؤتمر الخلافـة، على أمل تقرير توسيـد الخلافـة للملك فؤاد،

الذي كان يظن أن هذا اللقب سيقوي مركزه المهدد، لما بينه وبين حزب الوفد المصري آنئذٍ من خلاف وتشاد، وكان هذا الحزب مستقطباً للشعب المصري، وذا مكانة قوية في العالم العربي والإسلامي معاً وقد أخفق المؤتمر بسبب ذلك التشاد بين هذا الحزب والملك، وقد أثارت صحف مصر احتمالات بحث موضوع الخلافة في المؤتمر الإسلامي المزمع عقده في القدس، فسارع الحاج أمين إلى نفي ذلك والتوكيد على أن المؤتمر هو من أجل القضية الفلسطينية. ولم يطمئن النفي والتوكيد الملك فؤاد وأولياءه، وظلوا في موقف الحذر والمناوأة، وخشي الحاج أمين أن يؤثر ذلك في انعقاد المؤتمر، فسافر إلى القاهرة وقابل الملك ثم إسماعيل صدقي رئيس الوزراء، وأكد لهما شفوياً وكتابة، والكتابة كانت بطلب منهما، بأن موضوع الخلافة مستبعد كل الاستبعاد عن المؤتمر، وحينئذٍ انفتح المجال لمشاركة مصر رسمياً في المؤتمر. ولقد جاء من مصر عدد من الشخصيات البارزة، منهم من كان موالياً للملك مثل عبد الحميد سعيد رئيس جمعيات الشبان المسلمين، والشيخ التفتازاني وسليمان فوزي صاحب جريدة أو مجلة الكشكول.

الحاضرون من مصر:

وأرسل الوفد عبد الرحمن عزام وكان من شبابه اللامعين المتشربين بالروح الإسلامية والقومية العربية معاً، وكان ممن ساهم في مقاومة الغزو الطلياني لطرابلس الغرب سنة 1912، ولمع اسمه ثم استمر في اللمعان فصار سفيراً في بغداد ووزيراً (ثم صار أول أمين عام لجامعة الدول العربية وظل يشغل هذا المنصب أكثر من عشر سنين).

وجاء في من جاء من مصر محمد علي علوبه وهو محام لامع وشغل الوزارة أكثر من مرة، وذا روح إسلامية قومية عربية، وكان جاء إلى فلسطين قبل وحضر أمام لجنة البراق الدولية ودافع عن وجهة النظر العربية الإسلامية على ما ذكرناه قبل. وجاء الشيخ إبراهيم طفيش العالم المغربي، والشيخ عبد اللطيف دراز العالم المصري المعروف، والشيخ عبد الوهاب النجار، والسيد رشيد رضا وغيرهم. ومع ما كان من تطمين الحاج أمين للملك ولإسماعيل صدقي فإنهما زودا أولياءهما الثلاثة المذكورين بتعليمات في كيفية السلوك في المؤتمر بما يتفق مع رغبات الملك إذا كان لذلك مجال فيه.

رسائل الباطنيين في صدد الخلافة وما أثارته من هواجس:

وقد عرفنا أن مما أثار مخاوف الملك فؤاد وأوليائه من المؤتمر رسائل أرسلت من جمعية سرية باطنية إلى بعض رجالات المسلمين البارزين في مصر والعراق، يطلب فيها مرسلوها وجوب إثارة موضوع الخلافة الإسلامية في المؤتمر، وإقرار توسيدها إلى مستحقيها من آل البيت، ويشجبون المؤتمر إذا ابتعد عن هذا الموضوع.

موقف المعارضين من المؤتمر لأنهم رأوه وسيلة إلى علوّ شأن الحاج أمين وما فعلوه لأجل التعكير والتشويش:

أما في فلسطين فإن المعارضين أي جبهة راغب النشاشيبي رأوا أن المؤتمر سيكون من أقوى الوسائل للدعاية للحاج أمين وبروزه وتعظيم قدره في العالم الإسلامي، فكتبوا لعبد الحميد سعيد والتفتازاني اللذين علم أنهما

سيأتيان إلى المؤتمر، يشرحون لهما ما سوف يكون من الحاج أمين من استغلال المؤتمر، ويخبرونهما بأنهما أهملا في موضوع المؤتمر إهمالاً تاماً مع أنهما صاحبي شأن كبير في فلسطين، والمؤتمر ينعقد فيها ومن أجل قضيتها.

وأخذوا يبثون هذه النقاط في الصحف الموالية لهم مثل فلسطين ومرآة الشرق، وبين أنصارهم في المدن والقرى، حتى كادوا يحوّلون مجرى المؤتمر إلى مجال نزاع وتنافس شخصي ومحلي وحزبي، مع أنه في الحقيقة كان بعيداً عن هذا المجال، وكان قصده عاماً ودعاية لفلسطين وقضيتها في الدرجة الأولى، حتى ولو كان هناك احتمال تعاظم قدر الحاج أمين وبروزه بوسيلة المؤتمر، فإن الأمور اليقينية أن ذاك لم يكن قصد المؤتمر.

مداخلة بعض الزعماء لمعالجة الأمر وذهاب جهدهم وجهد اللجنة التحضيرية سدى:

ولقد حاولنا في نطاق اللجنة التحضيرية جهدنا لتلافي الأمر، فقررنا ضم بعض المعارضين إلى اللجنة، وأرسلنا إليهم دعوة كتابية وبواسطة أصدقاء ووسطاء، فلم يستجيبوا. ومع ذلك حينما سمينا الأشخاص الذين يحسن أن نوجه الدعوة إليهم من رجالات فلسطين لحضور المؤتمر ذكرنا أسماء رجالات منهم، وأرسلنا إليهم دعوة في جملة ما أرسلنا إليهم من رجالات فلسطين، ومن جملتهم الشيخ خليل الخالدي وراغب النشاشيبي وعلي جار الله ومصطفى الخالدي ورؤساء بلديات مدن فلسطين الذين أكثرهم في جبهة المعارضة، ولكن ذلك لم يخفف مناوأتهم، لأنهم ظلوا على يقينهم أن الحاج أمين سيستغل المؤتمر لشخصه أعظم استغلال، ولم يقبلوا الدعوة ولم يحضروا.

ولما بدأ المدعوون يفدون إلى فلسطين سارعوا إلى الاتصال ببعض بارزيهم وتنبيههم إلى ما سوف يكون من الحاج أمين من استغلال للمؤتمر، ويشوهون مقاصده في الدعوة إلى المؤتمر، ويطعنون فيه وفي أعماله وتصرفاته. وحاول الزعيم الهندي مولانا شوكة علي وعبد الحميد سعيد والشيخ التفتازاني التوسط وتسوية الأمور بسبيل اشتراكهم في المؤتمر وعدم التشويش عليه، وأظهر الحاج أمين استعداداً لقبول ما يقترحه الوسطاء، ولكن جهود الوسطاء اخفقت، وظلت جبهة المعارضة على رفضها للاشتراك في المؤتمر وعلى سوء ظنها في الحاج أمين والتشويش عليه عبر المؤتمر. وقد نشروا مناشير عديدة موقعة منهم وغير موقعة، فيها طعن بالحاج أمين وأعماله وتصرفاته، وزعم بأن المؤتمر سيكون مطية لأغراضه الشخصية.

مؤتمر المعارضين المضاد بسبيل التشويش والتفكير وقراراته ومناشيره:

وقرروا عقد مؤتمر في فندق الملك داود الكبير في القدس في يوم انعقاد المؤتمر، وسموا مؤتمرهم (مؤتمر الأمة الإسلامية)، وحشدوا فيه عدداً كبيراً من الناس من مختلف مدن وقرى فلسطين، حتى فاق عدد المحتشدين في هذا المؤتمر ثلاثة أو أربعة أضعاف عدد أعضاء المؤتمر الإسلامي الأصلي. وقد شهد مؤتمرهم معظم رجال المعارضة البارزين في مدن فلسطين وقراها، بالإضافة إلى عدد كبير من الهتافين والأتباع، وانصبت أبحاثهم وخطبهم على الطعن في الحاج أمين وأعماله وتصرفاته في المجلس والأوقاف في كثير منها

تجن وبغي، وقرروا قرارات عديدة في صدد ذلك اعلنوها في مناشير أذاعوها، وكان هذا العمل في منتهى القبح والإساءة، إذ أظهروا به بشكل بارز إنقسام مسلمي فلسطين ومنازعاتهم على مسائل شخصية ومحلية، وفي وقت يأتي فيه وفود العالم الإسلامي إلى فلسطين لتأييد القضية الفلسطينية وجعلها قضية إسلامية عامة، وظلوا طيلة أسبوع انعقاد المؤتمر الإسلامي يملأون صفحات جريدة مرآة الشرق خاصة، التي كانت تصدر في القدس، بالمطاعن ضد الحاج أمين وأعماله وتصرفاته.

جهد خليل الخالدي وأحمد سامح الخالدي في التشويه والدعاية ضد الحاج أمين:

وانبرى الشيخ خليل الخالدي وأحمد سامح الخالدي بنوع خاص كرجلي علم وثقافة للإتصال برجال العلم والثقافة في المؤتمر، وطعن الحاج أمين لهم، وتسويء اسمه ومقاصده لديهم. وكان الشيخ خليل يأخذ بعض علماء الدين من مسلمي الهند والبشناق إلى مقبرة مأمن الله، ويشرح لهم تاريخها وما فيها من قبور الصالحين والأولياء، وكيف أن الحاج أمين اقتطع قسماً منها قد يكون فيه رفاتهم وعظامهم، وأقام عليه فندقاً للاستغلال يشرب فيه الخمر ويلعب فيه الميسر الخ... ولقد أدرك معظم رجال المؤتمر المقاصد السيئة والشخصية في موقف جبهة المعارضة ورجالها وتصرفاتها، وقابلوا ذلك بالاشمئزاز الممزوج بالحزن والدهشة مما كان في ذلك من مظاهر الحقد والأنانية والإساءة للقضية الوطنية والإسلامية، وزاد كل هذا في تعاطفهم مع الحاج أمين وتعظيمهم له.

جهد فخري النشاشيبي وأصابع اليهود والإنكليز وراءه:

ولقد كان فخري النشاشيبي لولب كل هذه الحركات والأشد نشاطاً وبذلاً، ولقد قيل أن اليهود بذلوا أموالاً طائلة عن طريقه للقيام بهذه الحركة التشويهية التسويئية ضد الحاج أمين وضد المؤتمر، وجميع الظواهر كانت تدل على صدق ذلك، فمما لا شك فيه أن اليهود كانوا شديدي القلق والإستياء من حركة المؤتمر وما تضمنته من دعاية كبيرة ضدهم في العالم الإسلامي، وأن ذلك يجعلهم يبذلون بذلاً واسعاً في سبيل تعكيره وتشويهه. وهذا بالإضافة إلى أنهم يعرفون أن الحاج أمين على رأس أعدائهم وأعداء قضيتهم، ومن مصلحتهم أن يشوشوا عليه تجاه العالم الإسلامي. ولقد أتى إلى مؤتمرهم (الأمة الإسلامية) بمئات الأشخاص من نابلس ويافا وغزة والخليل والشمال والقرى، وكان الملموس المحسوس أنهم لم يتكلفوا درهماً من أجور انتقالهم وإقامتهم، وكثير منهم لم يكن في وسعه الإنفاق، وكلف هذا مئات الجنيهات. ومن الراجح أن كثيراً من هؤلاء أخذوا هدايا ونقوداً للإغراء على السفر وإغراء غيرهم عليه... وكان كثير ممن جاء من أهل اللهو والشرب. وكان فخري النشاشيبي ينفق عن سعة في ظروف المؤتمر، والمعروف أنه ليس صاحب مورد يتحمل عشر نفقاته، ولم تكن صلاته باليهود فضلاً عن المخابرات الإنكليزية خفية، بل لم يكن هو نفسه يتورع، فيخفيها.

المشتركون في المؤتمر من مختلف الأقطار:

ونتحدث الآن عن المؤتمر لنقول إن الوفود أخذت تفد قبل ليلة المعراج التي تقرر أن يكون

إفتتاح المؤتمر فيها، ولقد جاء وفد كبير من رجالات الأردن، ووفد كبير من رجالات سورية، ووفد كبير من رجالات لبنان، ووفد كبير من رجالات العراق، ووفد كبير من مسلمي البشناق في يوغسلافيا، ووفد كبير من الهند، وأفراد بارزون من سيلان وجاوا وأفغان وتركستان والقفقاس وليبية وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، وأرسل إمام اليمن مندوباً عنه من وزرائه اسمه السيد محمد زبارة. ولم يأت من السعودية أحد.

ومن الأسماء التي ترد إلى ذاكرتي من رجالات المسلمين الذين قدموا من خارج فلسطين:

عمر الداعوق ومحمد علي بيهم ومحمد الفاخوري وصلاح بيهم ورياض الصلح وعلي ناصر الدين والشيخ مصطفى الغلاييني وعوني الكعكي وإبراهيم الخطيب من لبنان.

ومحمد علي العابد وشكري القوتلي وسعد الله الجابري والشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ كامل القصاب وخير الدين الزركلي والحاج أديب خير والأمير سعيد الجزائري ونبيه العظمة وعادل العظمة والشيخ سليمان الجوخدار من سورية.

والشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد رضا من جبل عامل، والمجتهد الكبير كاشف الغطاء وسعيد ثابت والشيخ بهجة الأثرى وإبراهيم الواعظ وماجد رضا وماجد القرة غولي من العراق.

ومحمد علي علوبه وعبد الحميد سعيد والدكتور الدرديري وعبد الرحمن عزام والشيخ ابراهيم طفيش والشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ عبد اللطيف دراز والسيد رشيد رضا والشيخ التفتازاني وسليمان فوزي ومحمد علي الطاهر من مصر.

ومحمد المكي الناصري ومحمد بنونة من المغرب الأقصى. وبشير السعداوي من ليبية، والاستاذ طارق من نيجيريا، ومولانا شوكة علي والشاعر المشهور محمد إقبال من الهند، والاستاذ رؤوف من سيلان، والأمير سعيد شامل الطاغستاني والسيد ضياء الدين الطباطبائي رئيس وزراء إيران في عهد الملك القاجاري الذي أطاح بعرشه إنقلاب البهلوي رضا شاه، وكان هذا من ألمع شخصيات المؤتمر وأذكاها وأنشطها.

وممن حضر إلى المؤتمر إسحق عياض أحد زعماء القازان، وموسى جار الله أحد زعماء التركستان. وجاء من الأردن الزعماء والمشايخ حسين الطراونة وسالم الهنداوي وسليمان السودى وناجي عزام وطاهر الجقه وخليل التلهوني وصالح العوران وعبد الله الداوود وغيرهم. وكان على رأس وفد مسلمي البشناق مفتيهم الأكبر، ووزير اسمه محمد علي على ما بقي في الذاكرة وآخرون.

ومعظم من تذكرنا أسماءهم وما لم نتذكره ممن هم بارزون في بلادهم علماً أو سياسة أو وطنية أو اجتماعياً أو اقتصادياً، حيث يبدو من ذلك ما كان للمؤتمر من أهمية كبيرة.

رجالات فلسطين المشتركون في المؤتمر:

وقد شهد المؤتمر نحو خمسة وعشرين من رجالات فلسطين، فبالإضافة الى أعضاء اللجنة التحضيرية التي ذكرنا بعض أسمائهم، شهد المؤتمر كمدعوين: معين الماضي ورشيد الحاج إبراهيم وصبحي الخضراء وعوني عبد الهادي والحاج توفيق حماد وفريد العنبتاوي والدكتور مصطفى البشناق وعلي رضا النحوي

والشيخ عبد القادر المظفر والشيخ سعيد الخطيب وموسى كاظم باشا الحسيني وأمين نور الله والشيخ راغب الدجاني والشيخ محمود الداوودي والشيخ محمد الصالح، وأربعة من القضاة الشرعيين منهم: الشيخ مطيع الدرويش أحمد. وأعضاء محكمة الاستئناف الشرعية ومنهم: الشيخ أمين العوري والشيخ توفيق الطيبي.

مشهد الافتتاح العظيم ليلة المعراج:

وليلة المعراج، ازدانت ساحة الحرم الواسعة بالأضواء الكثيرة والأعلام الإسلامية، واحتشد آلاف الناس مع أعضاء المؤتمر من الفلسطينيين وغير الفلسطينيين في الساحة وداخل المسجد الأقصى الكبير، وكان المشهد على غاية من الروعة والفخامة، وقد تلا الحاج أمين سيرة المعراج، ثم أذن المؤذن لصلاة العشاء، وباتفاق من كبار رجالات المسلمين تقدم المجتهد الشيعي الكبير العراقي كاشف الغطاء فأمّ الناس، وكان لذلك مغزى ووقع كبيران، حيث تمثل الوفاق الإسلامي بين السنيين والشيعيين.

خطب الحاج أمين وغيره ليلة الافتتاح:

ثم خطب الحاج أمين خطاباً قوياً شرح فيه قضية فلسطين وما تتعرض له المقدسات الإسلامية من أخطار، وصلة فلسطين بالإسلام والمسلمين مما كان سبب الدعوة الى المؤتمر وعقده في فلسطين، ثم خطب بعده كل من الإمام السيد رشيد رضا والزعيم التونسي الثعالبي، والسيد ضياء الدين الطباطبائي منوهين بقضية فلسطين وصلتها بالعالم الإسلامي، ومناشدين المسلمين للاهتمام لها واعتبارها قضية من قضاياهم المهمة والرئيسية، وخطب بعدهم عبد الرحمن عزام مبلغاً تحيات رئيس الوفد المصري مصطفى النحاس ورجال الوفد وتضامنهم مع أعضاء المؤتمر ومقاصده.

مفاجأة أحد أعضاء وفد مصر بهتاف للملك فؤاد وما جرى في صدد ذلك:

وقد حدث إثر خطاب عزام حادث غريب، حيث وقف سليمان فوزي صاحب جريدة الكشكول يهتف للملك فؤاد، فكانت مفاجأة وهرج ومرج، حتى خشي من ذلك على مصير المؤتمر وعلى حياة سليمان فوزي نفسه، لولا أنه استجار بالحاج أمين الذي سحبه من يده من وسط الجمهور ووضعه على المنبر وسلم الله وانتهت الحفلة بسلام. وكان الرأي العام العربي متعاطفاً بقوة مع حزب الوفد، ناقماً على الملك فؤاد وإسماعيل صدقي رئيس وزرائه، فكان ذلك مما جعل الجمهور يقابل موقف سليمان فوزي بالغضب والسخط. وقد عرفنا فيما بعد أن هتاف سليمان فوزي كان بتشجيع وترتيب عبد الحميد سعيد والشيخ التفتازاني الموالين للملك آنذاك، لأن عزام ذكر الوفد ولم يذكر مصر ومليكها.

إعداد قاعة وغرف الروضة إعداداً حسناً لاجتماعات المؤتمر:

وفي صباح ليلة المعراج، عقد المؤتمر جلسته الأولى في قاعة مدرسة روضة المعارف التي أعدت إعداداً حسناً، ثم استمر يعقد جلساته فيها إلى النهاية. وقد أعد في المدرسة قاعات وغرف أخرى إعداداً حسنا للجان المؤتمر، وخصصت قاعة لنشر أخبار المؤتمر على الصحف وتزويدها بها، وقاعة أخرى لتنظيم شؤون المؤتمر وتلبية طلبات وحاجات

أعضائه، وقد جرى في الجلسة الأولى اختيار المكتب.

الرئاسة للحاج أمين ونوابه الأربعة:

وتم الاتفاق بالترشيح والموافقة على أن يكون الحاج أمين رئيساً للمؤتمر، وأن يكون كل من محمد علي علوبه المصري ومحمد زبارة اليمني والطباطبائي الإيراني والشاعر محمد إقبال الهندي نوابا للرئيس، وكل من إبراهيم الواعظ العراقي والأستاذ رؤوف السيلاني وعزة دروزة والشيخ عبد القادر المظفر سكرتيرين للمؤتمر، وأحمد حلمي عبد الباقي أمين مال المؤتمر، وشكري القوتلي ورياض الصلح مراقبين. وكان لي النشاط الأقوى لأن المكتب جعل الشيخ عبد القادر المظفر مختصاً بالعلاقة بينه وبين الناس، وإبراهيم الواعظ مختصاً بحفظ الملفات وترتيبها، وكان اسم رؤوف السيلاني شكلياً لأنه لا يحسن العربية فكنت أنا المشترك الأول في صياغة القرارات وتاليها وشارعها ومقررها.

تدفق البرقيات والرسائل التأييدية للمؤتمر وما بدا من عظمة المؤتمر وأهميته:

ولقد أخذت تتدفق على المؤتمر برقيات ورسائل تأييد، ورسائل فيها اقتراحات متنوعة إسلامية من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ومن الذين دعوا وتخلفوا لأسباب قاهرة، ومن شخصيات إسلامية بارزة، حتى صار المؤتمر في من شهده وفي من أيّده وفيما ورد عليه من مقترحات وفي ما أثير فيه من مواضيع يسمو سمواً كبيراً، ويظهر بذلك ما كان من حاجة المسلمين إلى مثل هذا المؤتمر العام الإسلامي في سياق كفاحهم مع المستعمرين، وما طرأ عليهم من قطيعة، وما يتعرض له الإسلام من مؤامرات، وما تحفزهم إليه النهضة المواتية الحديثة من أسباب التواصل وعوامل التجمع والتعاون.

قرار ديمومة المؤتمر ووضع دستور له:

ولقد قرر المؤتمر وضع دستور باسم (دستور المؤتمر الإسلامي العام)، وعهد برئاسة لجنة صياغته لمحمد علي علوبه، وكنت سكرتيراً ومقرراً لها. وقد أقر المؤتمر مواد الدستور التي صاغتها اللجنة، وكان من مقتضاها أن المؤتمر مؤسسة إسلامية دائمة ينعقد كل سنة في بلد إسلامي يعين في آخر كل دور انعقاد له، وأن يكون له تشكيلات ومكاتب في كل أنحاء العالم الإسلامي لمساعدته في الجباية وفي تنفيذ القرارات.

قرار إنشاء جامعة إسلامية ودائرة معارف وشركة لإنقاذ الأراضي:

ومن جملة ما قرره المؤتمر إنشاء جامعة إسلامية كبرى مركزها القدس، واسمها جامعة المسجد الأقصى تغذيها وترعاها مؤسسة المؤتمر وتشكيلاته، وتأليف دائرة معارف إسلامية باسم (القاموس الإسلامي)، وإنشاء شركة إسلامية كبرى لإنقاذ الأراضي من خطر إنتقالها لليهود.

قرار المطالبة بالسكة الحجازية:

والمطالبة بتسليم خط سكة حديد الحجاز بدءاً من حيفا، الى إدارة إسلامية، لأنه ملك إسلامي قام بأموال إسلامية لأغراض إسلامية.

قرار المؤتمر في صدد البراق وقضية فلسطين:

وفي صدد البراق قرر المؤتمر أنه مكان إسلامي عام مقدس عند جميع المسلمين في

جميع أنحاء الأرض، وقرر استنكار كل تبديل أو تغيير في حالته وصفته.

وفي صدد قضية فلسطين الأصلية قرر المؤتمر أن فلسطين باعتبارها أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الإسلام هي مقدسة عند جميع المسلمين، وأن من حقهم وواجبهم حفظها إسلامية، ومنع كل مطمع وعدوان عليها. وطالب باستقلالها وقيام حكم فيها بأكثرية إسلامية، لأن المسلمين هم الأكثرية الكبرى فيها. وقرر رفض وعد بلفور وصك الانتداب وبطلان كل ما جرى نتيجة لهما، وطالب بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وانتقال الأراضي العربية لليهود، وبعدم محاباة اليهود في الوظائف والقوانين والمشاريع والامتيازات وقدّم القوميون العرب في المؤتمر من الفلسطينيين وغيرهم اقتراحات باستنكار الاحتلال والاستعمار والظلم الروسي في تركستان، والطلياني في ليبيه، والإفرنسي في تونس والجزائر والمغرب الأقصى وسورية ولبنان، والانكليزي في سواحل جزيرة العرب الشرقية والجنوبية والعراق والأردن ومصر والسودان. وقد شعر الحاج أمين برغبة القوميين في تقديم هذه الاقتراحات فبذل جهده لتأخير تقديمها إلى آخر جلسة، حتى لا يكون حرج عليه وعلى المؤتمر من جانب السلطات الانكليزية في فلسطين. وفي هذه الجلسة تليت الإقتراحات ووافق عليها المؤتمر. وقد تكلم في أثناء ذلك غير واحد من أصحاب الاقتراحات منددين باحتلال وتصرفات الدول المحتلة لتلك البلاد.

حادث خطاب عبد الرحمن عزام ضد إيطالية واحتجاج القنصل وإخراج السلطات إياه من فلسطين:

ومما جرى أن عبد الرحمن عزام تكلم في هذه المناسبة كلاماً شديداً ضد إيطالية وما ترتكبه السلطات الطليانية في ليبية من جرائم رهيبة ضد أهلها، ودعا الى مقاطعة إيطالية مقاطعة إسلامية عامة، فسارع القنصل الطلياني إلى الاحتجاج لدى سلطات فلسطين، وسارعت هذه السلطات إلى إنذار عبد الرحمن عزام بمغادرة فلسطين حالاً. ولم تقبل أي رجاء والتماس، فلم يكن له بد من تنفيذ الأمر وخرج من فلسطين قبل يوم واحد من إعلان ختام المؤتمر.

أعضاء أسماء اللجنة التنفيذية للمؤتمر:

ولقد نص دستور المؤتمر على انتخاب لجنة تنفيذية لتمثيل المؤتمر في فترة عدم انعقاده، وملاحقة تنفيذ قراراته والإشراف على تشكيلاته، وتهيئة انعقاد دورته التالية، وواجب عليها أن تجتمع مرة واحدة كل شهر. ونص على أن يكون لها مكتب مؤلف من رئيسها وسكرتيرها وخمسة أعضاء آخرين منها، ليكون دائم العمل. وجرت الانتخابات ففاز كل من الحاج أمين والسيد الطباطبائي ومحمد علي علوبه والسيد رشيد رضا وشكري القوتلي والأمير سعيد الجزائري ونبيه العظمة ورياض الصلح وصلاح بيهم والمجتهد كاشف الغطاء وسعيد ثابت والزعيم الثعالبي وبشير السعداوي ومحمد المكي الناصري وشوكة علي الهندي وسعيد شامل واسحق عياضي وعضو من الوفد اليوغسلافي وآخر من الوفد الأردني لم أتذكر إسميهما، والسيد محمد زبارة مندوب الإمام يحيى والحاج توفيق حماد وعوني عبد الهادي

من فلسطين، وقد أكون نسيت بعض الأسماء أو غلطت في بعض الأسماء، وعلى كل كانت اللجنة ممثلة لجميع الأقطار الإسلامية العربية وغير العربية التي شهد المؤتمر وفود منها، وكان حرص على أن تكون أكثريتها من الأقطار القريبة من فلسطين، ليتسنى نصاب كاف لاجتماعاتها. ومن هنا كان عدد أعضائها من فلسطين وسورية ولبنان بخاصة أكثر من غيرهم.

محاولة الحاج أمين استبعاد عوني عبد الهادي من اللجنة وتراجعه بسبب موقف رفاقه القوميين:

ومما سجلته في دفتري القديم أن الحاج أمين لم يرق له ترشيح عوني عبد الهادي لعضوية اللجنة لما بينهما من تضاد وتشاد، ولكننا رفاقه الاستقلاليين القوميين من فلسطين وسورية ولبنان أصررنا على ترشيحه، فلم يسعه إلا النزول على رغبتنا لأننا كنا في المؤتمر جبهة قوية، فكان منهم: من فلسطين بالإضافة اليّ معين الماضي وأحمد حلمي، ومن سورية شكري القوتلي وسعد الله الجابري وخير الدين الزركلي وعادل العظمة ونبيه العظمة والشيخ كامل القصاب والحاج أديب خير، ومن بيروت رياض الصلح وصلاح الدين بيهم.

قوة موقف هؤلاء القوميين في المؤتمر وأثره:

وكان القوميون هؤلاء أقوى جبهة في المؤتمر من حيث التفاهم ووحدة الأفكار، وكادوا يكونون الروح الذي سيرته في مناقشاتهم ومقترحاتهم ونشاطهم، وكان ينضم اليهم آخرون من البلاد العربية والإسلامية فتزداد قوتهم وأثرهم في المؤتمر، ولقد استمر المؤتمر أسبوعين.

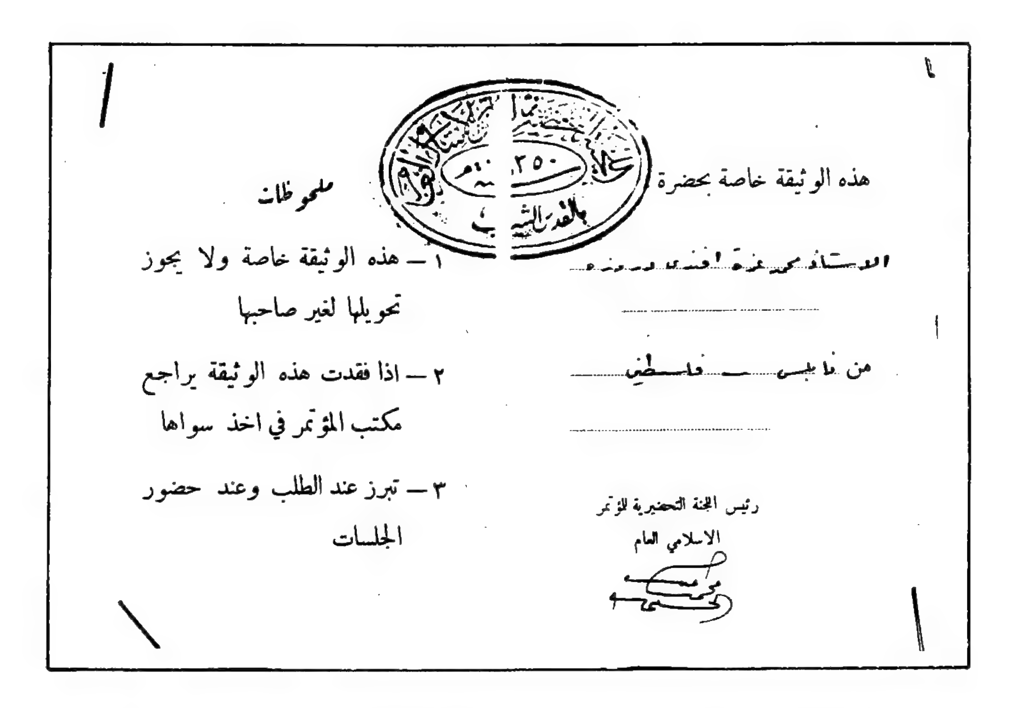
تكريم المدعوين بالحفلات والولائم العديدة وما كان يقام لهم من استقبالات حاشدة:

وكانا أسبوعين فلسطينيين حافلين عظيمين في الحقيقة، لأن فلسطين كانت منفعلة بروح المؤتمر السامية الجياشة، فأحيط الذين جاؤوا من خارج فلسطين بعناية وعطف فائقين، وأقيمت لهم الولائم في القدس من قبل المجلس الإسلامي، وفي اريحا بدعوة من الأمير عبد الله، وفي أحد بيارات وقصور وادي حنين بدعوة من آل الغصين، وفي يافا بدعوة من الوطنيين والمجلسيين، وفي نابلس بدعوة من هؤلاء أيضاً.

وكانوا يستقبلون في سفرهم إلى أماكن الدعوة في الطرق وفي المدن باستقبالات شعبية عظيمة، حيث كانت تغص الطرق بأهل القرى التي تسير الطريق في ناحيتها، وفي مداخل المدن وشوارعها بالمستقبلين، ويصبح المدعوون في وسط مواكب عظيمة، وتعلو الهتافات بتحيتهم والدعوات بنصر الله لقضية فلسطين وبعزة الإسلام والمسلمين، وبتحية الحاج أمين ورفاقه الوطنيين المجاهدين في سبيل قضية فلسطين والإسلام، مما جعل المدعوين يشعرون بما أراد أهل فلسطين إظهاره نحوهم من عطف وشعور بالامتنان. وكان للحاج أمين ورجاله وأنصاره جهد عظيم في كل ذلك، جعل المدعوين يدركون قوة شعبيته في البلاد. وكان في ذلك رد قوي عملي على ما كان من مواقف المعارضين وحركاتهم، وما فعلوه بقصد التشويش على المؤتمر والتعكير على الحاج أمين.

حادث في نابلس للتشويش وانتهائه بسلام:

ومما جرى في نابلس أن معارضيها حاولوا



هذه الوثيقة خاصة بحضرة

الاستاذ محمد عزة افندي دروزة

من نابلس — فلسطين

رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر

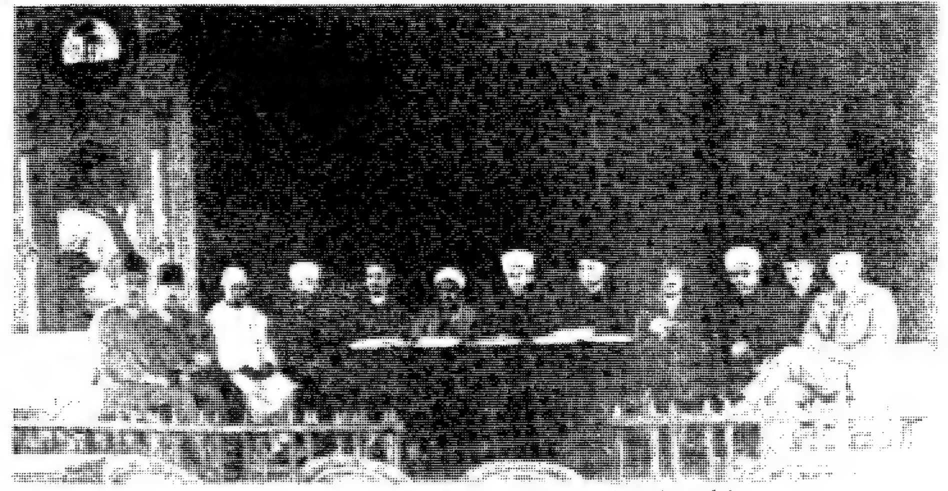
الاسلامي العام

ملحوظات

١ — هذه الوثيقة خاصة ولا يجوز تحويلها لغير صاحبها

٢ — اذا فقدت هذه الوثيقة يراجع مكتب المؤتمر في اخذ سواها

٣ — تبرز عند الطلب وعند حضور الجلسات



المكتب الدائم للمؤتمر الاسلامي العام بالقدس (ديسمبر 1931).

في الوسط: السيد محمد أمين الحسيني رئيس المؤتمر. وإلى يمينه السيد محمد محمد زبارة (اليمن)، فالسيد ضياء الدين الطباطبائي (إيران)، فالشيخ محمود الدجاني (فلسطين)، فرؤوف باشا (سيلان)، فالسيد محمد عزة دروزة (فلسطين)، فالسيد شكري القوتلي (سورية)، وإلى يساره محمد علوبة باشا (مصر)، فالشاعر الكبير محمد اقبال (الهند)، فالشيخ عبد القادر المظفر (فلسطين)، فالسيد ابراهيم الواعظ (العراق)، فالسيد رياض الصلح (لبنان).

التعكير أكثر من غيرهم، حيث دفعوا شاباً اسمه حسن الصابر للتحرش ببعض أنصار الحاج أمين والمجلس المتحمسين لإيقاع شغب ما، فتحرش بشاب متحمس وهو حسن الحجاوي، وتخاصم معه وطعنه بسكين، ولكن الأمر تلوفي بسرعة فقبض على المعتدي، وكانت الطعنة غير بليغة فشفي منها المطعون في مدة غير طويلة

حفلة ختام المؤتمر القوية ودعاء المؤتمرين في المسجد الأقصى:

وكانت حفلة ختام المؤتر قوية، حيث كرر الخطباء فيها تأييد بلادهم لفلسطين وقضيتها وأماكنها المقدسة والبراق، واعتبار أنفسهم وبلادهم شركاء أصليين في كل ذلك، ووعدونا ببذل كل جهد في تنفيذ قرارات المؤتمر وديمومته، وأقيم في الليل حفل ديني في المسجد الأقصى كما بدأ المؤتمر بذلك، دعا فيه الداعون الله عز وجل بنصر المسلمين وبلاد المسلمين وعزتها وكرامتها، وحماية فلسطين المقدسة من أخطار الاستعمار والصهيونية، وكبت أعداء الإسلام والمسلمين. وكان يجري وداع حافل للوفود حينما كانوا يستقلون وسائل سفرهم عائدين إلى بلادهم.

اختيار رئيس وأعضاء المكتب الدائم:

ثم اجتمعت اللجنة التنفيذية وألفت مكتبها حسب الدستور، الذي نص على أن اللجنة تجتمع في كل شهر مرة، ويكون لها مكتب دائم ينفذ قراراتها. وتألف المكتب من الحاج أمين رئيساً. ومن السيد ضياء الدين الطباطبائي سكرتيراً عاماً، ونبيه العظمة مساعداً له، ومن الزعيم الثعالبي ورياض الصلح وسعيد شامل أعضاء، ومحمد علي علوبه أميناً للمال.

وعين المكتب سامي السراج كاتباً. وسار العمل أياماً بنشاط كبير، وكان جيشان المؤتمر وروحه مايزالان مؤثرين، فكان لذلك أثره في هذا النشاط.

وضع خطط لتشكيل فروع المؤتمر:

وقد وضع الطباطبائي ونبيه العظمة بعض الأنظمة والتعليمات بسبيل تشكيل لجان فرعية في مدن فلسطين والمدن الإسلامية الأخرى، كما وضعا نظام جباية وتبرع، وباشرت بعض مدن فلسطين العمل وفقاً لذلك بسرعة، وكانت نابلس أولى المدن حيث ألفت فيها لجنة فرعية للمؤتمر بعد قليل من تأليف المكتب، وكنت من أقوى الذين بذلوا جهدهم في ذلك.

ترتيب بطاقات تبرع مطبوعة:

وكان من جملة نظام الجباية والتبرع بطاقات مطبوعة بخمسين ملا، وقد وزعت مجلداتها في فلسطين في بدء الأمر، وسار أمرها سيراً حسناً، حتى لقد بلغ المجموع منها في الشهر الأول نحو الفي جنيه. وقد اهتم الحاج أمين لتشجيع هذا المشروع، واستعان عليه بموظفي الأوقاف والوعاظ والقضاة والأئمة والمدرسين والخطباء ومأذوني الأنكحة.

شيء عن سامي السراج:

وبمناسبة ذكر سامي السراج لأول مرة، وقبل أن نستمر في ذكر ما جرى بعد الرحلة الإفتتاحية الأولى للمؤتمر، نرى أن نورد كلمة عنه. فهو من حماه في سوريا، وكان قد غادرها إلى عمان بعد سقوط حكم فيصل بدمشق، ومنها انتقل إلى مصر وعمل في صحافتها (جريدتا الجهاد والكوكب)، فينتصر لحزب الوفد بكتاباته، مما أغضب إسماعيل صدقي رئيس وزراء مصر،

فأصدر قراراً بطرده فجاء إلى فلسطين مطروداً، وعمل رئيساً لتحرير جريدة (الجامعة الإسلامية)، وهو كاتب بليغ ويمكن أن يكون أصغر مني ببضع سنين. وهو ذو روح مرحة وصوت حنون. وقد رأيته لأول مرة في القدس وتعارفنا وتصادقنا وظللنا متواثقين إلى النهاية، وكان حليفاً للاستقلاليين. والراجح أن السلطات اعتقلته من أجل ذلك، فكان من أوائل من أبعدتهم عن القدس، ثم أرسلتهم إلى صرفند في مايس 1936، وفي أثناء الاعتقال تم الاتفاق بين سورية وفرنسا على معاهدة الإستقلال، واستلم زعماء الحركة الوطنية مقاليد الحكم على ما سوف نشير إليه في مناسبة آتية. وصدر عفو تام عن المبعدين السوريين. فلما خرج من المعتقل في أيلول 1936 سافر إلى دمشق واندمج في عهدها الجديد، ولكنه لم يبرز كما كان يأمل، ثم صار أمين مكتبة في حماه على ما يرد لبالي، وظل في حماة إلى أن توفي في الستينات رحمة الله عليه.

تعثر خطوات المؤتمر وكسوف شمسه وأسبابه الخاصة والعامة:

على أن أمور المؤتمر لم تستمر على مايرام، وما علق عليه من آمال، وأخذت تبدر من البوادر ما ذهب ببريقه وأدى إلى ضؤولة حجمه، وقد سجلت في دفتري القديم شيئاً مما كان من ذلك ونتائجه، فقد ذهب الطباطبائي بعد أسبوعين إلى أوروبا، فانفرد نبيه العظمة بالعمل، وأراد أن يفرض نظاماً صارماً أو عسكرياً إن صح التعبير، ولم يكن هذا مما يتحمله مزاج الحاج أمين الذي اعتاد التطويل والتمطيط وعدم التقيد بالقرارات وعدم المجازفة بالخطوات والرغبة في أن يسير المكتب مع ما يبديه هو من مقترحات وخواطر ولو كانت غير سليمة أو سائغة، فأدى ذلك إلى التشاد بينه وبين نبيه، وكان محمد علي علوبه ورياض الصلح وعدا بالقدوم إلى القدس مرة في الأسبوع ولكنهما لم يفيا بوعدهما طيلة الشهر الأول، ولم يستطع نبيه أن يجعل الثعالبي يتطابق معه ضد الحاج أمين، فكتب نبيه رسائل إلى أعضاء اللجنة متذمراً من تصرفات الحاج أمين ومحاولته جعل نفسه كل المكتب وكل المؤتمر، وعدم تقيده بنصوص الدستور وإهماله ما يقدمه من مقترحات تنظيمية، وعدم اجتماع المكتب لمعالجة الأمور. ولم يكن لرسائل نبيه رد فعل إيجابي من أعضاء اللجنة فاستقال من السكرتيرية، وظل عبء المكتب على سامي السراج كموظف.

وانقضى الشهر الأول ولم يدع الرئيس اعضاء اللجنة التنفيذية إلى الاجتماع حسب نص الدستور، ولم يبد من أعضاء اللجنة بدورهم حرص واهتمام للاجتماع. ومر شهر ثان وثالث والحال على هذا، ثم أخذ الحاج أمين توكيلاً من محمد علي علوبه للشيخ محمود الداوودي ليكون نائباً عنه في عضوية المكتب وأمانة المال، ومن رياض الصلح للشيخ اسماعيل الحافظ، وكان هذا التوكيل غير سائغ حسب دستور المؤتمر، وقاطع نبيه المكتب كعضو أيضاً، فأصبح المكتب عبارة عن الحاج أمين، لأن الشيخ اسماعيل والشيخ محمود كانا ظلاً له أكثر منهما شخصيتين مستقلتين عنه، ثم خرج سامي السراج أيضاً فعهد الحاج أمين بأمور المكتب الكتابية إلى علي رشدي والشيخ فهمي غريب الموظفين في دائرة الوعظ الإسلامية. وبالإضافة إلى هذا فإنه لم يبدر أي بادرة في البلاد الإسلامية العربية وغير العربية في صدد تأسيس فروع للمؤتمر وتنظيم الجباية وتنفيذ

القرارات، وكان هذا مما وضع على عاتق رجال المؤتمر في هذه البلاد التي كانت منشغلة بهمومها، حيث كانت كلها تقريباً تحت الاحتلال والسيطرة الأجنبية، وتعاني من ذلك ما تعاني، وينشغل أولئك الرجال بذلك أكثر مما ينشغلون في أمور المؤتمر. وكان قدومهم اليه مبادرة شخصية وفردية. وهذا فضلاً عن التخلف العظيم الاقتصادي والثقافي والإجتماعي الذي كان يلف بلادهم وسكانها.

رحلة الحاج أمين وعلوبه الى البلاد الإسلامية الآسيوية بسبيل جمع التبرعات والدعاية ونتائجها الزهيدة:

وقد لمح الحاج أمين كسوف شمس المؤتمر، وكانت شمسه في الوقت نفسه، ففكر في حركة تعيد اليه بعض نشاطه ولألائه، فاقترح على محمد علي علوبه وضياء الدين الطباطبائي، بالمراسلة أن يقوم ثلاثتهم برحلة إلى بلاد الإسلام الآسيوية لتأسيس فروع للمؤتمر وجمع التبرعات لجامعة المسجد الأقصى وشراء الأراضي المعرضة للخطر اليهودي مما كان قد تقرر في المؤتمر، ثم الدعاية للقضية. وكان في صندوق المؤتمر بعض المبالغ التي يمكن الإنفاق منها على الرحلة، لأن بطاقات الخمسين ملاً ظلت رائجة وتوزع في فلسطين بفضل نشاط موظفي المجلس، وقد وافق الإثنان ووعد الطباطبائي بموافاتهم إلى أول بلد إسلامي يزورونه، حيث كان مايزال في أوروبا. وجاء محمد علي علوبه إلى القدس فسافر الإثنان ومعهما اسحق درويش وعلي محي الدين الحسيني في أواسط سنة 1931 إلى العراق أولاً حيث مكثا بضعة أيام وضعا فيها مع بعض رجالات العراق أسساً لجمع التبرعات. وتركوا اسحق في بغداد لملاحقة الأمر في العراق، وسافر الحاج وعلوبه وعلي محي الدين كسكرتير للوفد إلى الهند، حيث لبثوا نحو ثلاثة أشهر يطوفون في الولايات الإسلامية الهندية، ويتصلون بأغنياء المسلمين وبقي الإثنان وحدهما مع علي محي الدين، لأن الطبأطبائي لم يلتحق بهما كما وعد. وفي عودتهما زارا الأفغان وإيران، ولم تكن الرحلة موفقة.

تبرع نظام حيدر أباد بمائة ألف ربية وشروطه:

وكل ما كان من أثر إيجابي منها، هو وعد من نظام حيدر أباد (أي أمير ولاية حيدر أباد) بمائة الف ربية، وحيدر أباد أكبر ولاية إسلامية في الهند، وأميرها من أغنى أغنياء العالم، وكان عنده على ما يقال من الجواهر والأحجار الكريمة ما قيمته مائة مليون جنيه عدا ما في خزائنه من القناطر المقنطرة من الذهب والفضة والقصور والأملاك والأراضي الشاسعة ذات الريع الكبير. ولقد أرسل هذا النظام المبلغ بعد سنتين بواسطة الحكومة الإنكليزية التي أرسلته إلى المندوب السامي مشروطاً بإنفاقه بإشراف الحكومة المذكورة ومندوبها على عمل إسلامي بواسطة المجلس الإسلامي، وكانت قيمة المبلغ بالجنيهات نحو ستة آلاف. ولم يمكن أخذه من حكومة فلسطين إلا بصعوبة وتعهد وشروط. وبالإضافة إلى هذا المبلغ التافه، من أغنى الهنود وأحد أغنى اغنياء العالم قاطبة، فقد اكتتب أناس من الهند بما يبلغ قيمته خمسة آلاف جنيه وصل إلى القدس نحو ثلثها، وبقي الباقي في أيدي أمنائه على وعد بتحويلها لم ينجز، وقد علل الحاج أمين الإخفاق في الهند بما قام به اليهود من دسائس ودعايات جعلت

عملهم شاقاً وغير مثمر، وبما كان من جمود وعدم تشجيع الإنكليز الذين هم كل شيء في بلاد الهند، وبنوع خاص في الإمارات الإسلامية. ولم يمكن لزيارة الأفغان وإيران أي مردود مالي، ولم يكن جمع مال ذي جدوى من العراق، ولهذا أخفقت هذه الحركة في إعادة شمس المؤتمر إلى لألائها.

النزاع والقتال بين مملكتي السعودية واليمن وارتفاع الأصوات بوجوب وقف القتال والمصالحة.

وفي سنة 1933 كان النزاع والتشاد قد بلغا ذروتهما بين إمام اليمن والملك السعودي على حدود تهامة وعسير، وزحفت القوات السعودية بقيادة الأمير فيصل على اليمن، واخذت تشتبك مع القوات الإمامية، وأخذت الأصوات العربية في فلسطين وخارجها وفي الصحف ترتفع بوجوب التدخل ووقف القتال بين الأشقاء وحل الخلاف بالصلح.

رحلة الحاج أمين وهاشم الأتاسي وعلي علوبه باسم المؤتمر من أجل ذلك الى الحجاز واليمن ونجاح الوساطة:

واقترحنا على الحاج أمين أن يأخذ المبادرة بصفته رئيس المؤتمر الإسلامي العام، ورحب بالاقتراح، وسمى كرفاق له هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية السورية، ومحمد علي علوبه من مصر، والأمير شكيب ارسلان، وكتب الحاج لهم فوافقوا وتألف منهم وفد باسم وفد السلام من المؤتمر الإسلامي العام برئاسة الحاج أمين، وكلفت أنا بسكرتيرية الوفد فاعتذرت لأني كنت قيد المحاكمة في قضية المظاهرات غير المرخصة التي اشتركنا فيها على ما سوف يأتي شرحه. ووافق الملكان مبدئياً على مبادرة السلام وقدوم وفده، وذهب الوفد في خريف عام 1933 الى مكة أولاً حيث لبث نحو شهر ونيف عند الملك السعودي، وأمكن بجهوده إيقاف الحرب لأن القوات السعودية هي التي هاجمت، وأمكن حمل الملك السعودي على التساهل وحل الأمر بالصلح والتحكم. وجاء وفد إمامي، فجرت المفاوضات بين الطرفين بإشراف ورقابة الوفد، وانعقدت معاهدة صلح وتحالف بين الملكين. وقد ذهب الوفد بعد ذلك إلى اليمن زيارة شكر ومجاملة، وعاد الحاج أمين بعد رحلة استمرت شهرين ونيفاً، وكان له استقبال عظيم مرتب مكلف من قنطرة مصر إلى القدس. ومع أن هذه المبادرة منحت المؤتمر خفقة جديدة من الدم والحياة إلا أنها لم تبعث فيه حياة مستمرة. وظل الحاج أمين يتحرق على إعادة اللألاء لشمس المؤتمر.

عودة الطباطبائي والثعالبي إلى فلسطين بإلحاح من الحاج أمين لإعادة الحياة للمؤتمر:

واستطاع أن يقنع الطباطبائي الذي كان في أوروبا بالعودة إلى فلسطين واستلام المكتب وإنعاش حركة المؤتمر، وعاد فعلاً في أواخر سنة 1933 وأخذ يضع بعض الخطط بسبيل ذلك، واستطاع الحاج أمين أن يقنع الزعيم الثعالبي أيضاً بالعودة والإقامة إلى جانب الطباطبائي بسبيل ذلك أيضاً.

وصول حوالة تبرع نظام حيدر آباد وما كان من جهود وخطط في سبيل إنشاء جامعة بها وانشغال الزعماء الثلاثة بذلك بدون أي جدوى:

وفي هذه الأثناء ورد خبر من حكومة فلسطين بوصول الحوالة بتبرع نظام حيدر آباد مشروطاً

نص البيان [illegible] اذاع عن المؤتمر العربي القومي
في ١٣ كانون الاول ١٩٣١

بيان الى العالم العربي

يعرف كل من اشتغل في الحركة العربية او تتبع سيرها على اختلاف ادوارها ما كان من الجهود النبيلة التي [illegible] رجالات العرب ومفكروهم وشبانهم يقومون بها من عهد طويل ولا سيما بعد [illegible] الدستور العثماني لتكوين قضية عربية عامة غايتها تحقيق كيان عربي مستقل يشمل الأقطار العربية المختلفة ويوصل الأمة العربية إلى الاستقلال الذي تتمتع به ام العالم الحرة . وقد اتخذ العرب لجهادهم السياسي هدفاً مقدساً ظهرت آثاره في اعمال الجمعيات والاندية والمؤتمرات التي عقدوها . ثم كانت الثورة العربية الكبرى وقطعت [illegible] عهود املوا من ورائها الوصول الى غايتهم الشريفة . وقد اريقت في سبيل [illegible] الغاية الاستقلالية المقدسة اثناء الحرب العالمية الكبرى الدماء الذكية وبذلت [illegible] الضحايا الغالية . ولكن ما كادت تنكشف الحرب حتى اخذ العرب يلقون من [illegible] الاستعمارية غمطاً لحقوقهم وجهادهم وجحوداً لضحاياهم ، ويرون حلفاءهم ينصبون لهم العراقيل الحائلة بينهم وبين درك استقلالهم . وكانت نهاية ذلك ان الحلفاء ظهروا بمؤامرتهم علناً بعد ان تواطئوا عليها سراً لتجزئة بلاد العرب والكيد للقضية العربية وهي من كبريات القضايا القومية في العالم وبها تتعلق حياة امة عظيمة من اعرق ام العالم في المجد والحضارة والتاريخ وهي اليوم بنفوسها التي لا تقل عن سبعين مليوناً تشغل خير بقاع الأرض في آسيا وافريقيا .

ولقد كان أحد مظاهر هذه المؤامرة المنكرة ووسائل انجاحها اشغال اهل كل قطر من الأقطار العربية عن اخوانهم في الأقطار الأخرى بقضايا اقليمية مصطنعة واوضاع محلية متقلصة ، ونكبات متنوعة حصراً للجهود في دوائر ضيقة ومناطق محدودة ، وصرفاً لها عن الامتداد الى افق اعلى تتلاقى في مستواه العام القضية العربية مترابطة الاجزاء متضافرة الاقسام جرياً مع السنن الكونية في تهضات الام وارتقاء الشعوب . وقد استغرقت هذه الشواغل المدسوسة اوقات ابناء كل قطر بل انغمر كل فريق من العرب في بحرانها حتى كاد المستعمرون يدركون ما رموا من مؤامراتهم من جعل العرب اشتاتاً لا قضية كبيرة لهم وهي القضية التي عمل لها رجالاتهم وجمعياتهم وذهب في سبيلها ضحاياهم وأرواح شهدائهم والتي غاية غاياتها الكيان العربي موحداً مستقلا يستأنفون فيه ما كان لهم في سالف الأيام من حضارة مزدهرة اتسق عمرانها خير اتساق عرفه التاريخ وطأطأ لها العالم رأسه وملأت جنبات الدنيا علماً وخيراً ونوراً .

وذلك ما دعا فريقاً من رجالات العرب الذين سبقت لهم في الحركة العربية في ماضي ادوارها جهود معروفة الى دعوة جمهور من مندوبي البلاد العربية الذين حضروا المؤتمر الاسلامي العام المنعقد في بيت المقدس الى مؤتمر عقدوه في هذه المدينة مساء الاحد ٤ شعبان ١٣٥٠ وفق ١٣ كانون الأول ١٩٣١ بحثوا فيه ما يجب عمله لدرء النازلات الاستعمارية التي نزلت ببلادهم والقضايا الاقليمية التي غمرها بها المستعمرون واقروا المواد الآتية ميثاقاً مقدساً يكون للعرب هدفاً ولجهودهم مقصداً وغاية في مختلف اقطارهم فيستأنفون جهادهم في سبيل الاستقلال المنشود على نوره ويجرون على سننه حتى يأذن الله بادراك المحجة والاماني كاملة محققة . وهذا نص الميثاق :

المادة الاولى : ان البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ وكل ما طرأ عليها من انواع التجزئة لا تقره الامة ولا تعترف به .

المادة الثانية : توجه الجهود في كل قطر من الأقطار العربية إلى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمي الى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والاقليمية .

المادة الثالثة : لما كان الاستعمار بجميع اشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الأمة العربية وغايتها العظمى فان الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها .

ثم رأى المجتمعون ضرورة عقد مؤتمر عام في إحدى العواصم العربية للبحث في الوسائل المؤدية الى نشر الميثاق ورعايته والخطط التي ينبغي السير عليها لتحقيقه . وقد انتدبنا نحن الموقعين على هذا البيان كلجنة تنفيذية تنشر هذا الميثاق في العالم العربي وتهيء الوسائل لعقد المؤتمر وتكون صلة المراسلة بين الأقطار العربية في الشؤون المتعلقة بهذا الأمر .

وقد بدأنا العمل مستعينين بالله عز وجل تشد ازرنا الروح النامية الفياضة التي تجلت في ذلك الاجتماع الخطير والتي حيناً تظهر بعد حين في مختلف الاقطار متذمرة [illegible] وقوة من هذا الطاغوت الاستعماري الذي ارهق العرب سيطرة وتسلطاً ومزق بجموعهم بالقضايا المحلية المولدة وعطل سير جهودهم الكبرى التي يرمي اليها هذا الميثاق المقدس لانجاح هذه القضية على مقتضى هذا العهد والله من وراء القصد .

وقد وقع البيان أعضاء اللجنة التنفيذية عوني عبد الهادي وخير الدين الزركلي وصبحي الخضراء وعجاج نويهض واسعد داغر وعزة دروزه . اما الذين وقعوا الميثاق فهم :

رشيد رضا ـ محمد بهجة الاثري ـ ابراهيم الواعظ ـ خير الدين الزركلي ـ صبحي الخضراء ـ ابراهيم الخطيب ـ علي عبيد ـ محمد اسحق درويش علي ناصر الدين ـ صلاح عثمان بيهم ـ محمد العفيفي ـ رياض الصلح ـ شكري القوتلي راغب ابو السعود الدجاني ـ احمد حلمي ـ سالم الهنداوي ـ محمد عزة دروزه ـ عوني عبد الهادي ـ محمد طاهر الجقة ـ عمر الطيبي ـ محمد علي بيهم ـ معين الماضي ـ نبيه العظمه ـ صالح العوران ـ مصطفى الغلاييني ـ حسين الطراونة ـ احمد الامام ـ محمد علي الطاهر ـ عوني الكعكي ـ عجاج نويهض ـ عبد الله الداود ـ محمد طارق ـ خليل التلهوني ـ سامي السراج ـ محمد بنونه ـ سعيد ثابت ـ بشير السعداوي ـ سليمان السودي ـ محمد حسين الدباغ المكي ـ كامل الدجاني .

الجزء الثالث ص ٢١٨

- ٣٠٨ -

دفع قيمتها بالشروط المذكورة قبل، وشجع الخبر، (الثلاثي الحاج أمين والطباطبائي والثعالبي)، على السير في مشروع جامعة المسجد الأقصى دون أن ينتبهوا الى أن المبلغ ليس سنوياً، وأنه لا يمكن إنشاء عمارة كبيرة به للجامعة، فضلاً عما تحتاج إليه الجامعة من نفقات باهظة سنوياً. ولقد ألفوا لجنة علمية وأخرى دعائية لأجل المشروع، وأخذوا يضعون الخطط المتنوعة، واستمر ذلك نحو سنتين، وانهمك الزعيمان الطباطبائي والثعالبي في ذلك انهماكاً شديداً عجيباً، كأنما هم في سبيل مشروع ضخم يكلف مئات الآلاف من الجنيهات ونفقاته جاهزة بين أيديهم، وقد بدأوا جهدهم بإحضار مهندس من مصر وكلفوه بوضع مخطط لبناء جامعة ذات كليات عديدة، يتم إنشاؤها مرحلة بعد مرحلة. ثم فطنوا إلى أن المال الذي في يدهم لا يكفي لإنشاء بناء كلية واحدة، فضلاً عن تجهيزها بما تحتاج من أثاث ومعدات. وكان مستأجر فندق الأوقاف الكبير في مأمن الله قد أفلس والفندق خلا من العمل، فرأوا أن يتراجعوا ويختصروا على هذه العمارة ويقيموا فيها كلية، أو كليتين مع الحيرة في أي الكليات تبدأ، أهي كلية هندسة أم كلية شريعة، وأخذ الزعيمان يلحان على الحاج أمين، والحاج أمين يلح بدوره على المجلس، حتى استصدروا قراراً بالموافقة على تخصيص العمارة للمشروع، ثم فطنوا إلى أن المشروع يحتاج بالإضافة إلى العمارة إلى مبالغ كبيرة ليست متيسرة، وظنوا أن العمارة يمكن أن تؤجر بأجرة كبيرة، وأن من الممكن تدبير أماكن مناسبة من البنايات والمدارس الوقفية الملحقة بالحرم بدون أجرة أو بأجرة رمزية، فطلبوا من المجلس تأجير عمارة الفندق لحساب المشروع، ومساعدتهم على إشغال ما يرونه مناسباً للمشروع من بنايات الحرم، ورصد مبلغ آخر بالإضافة الى الأجرة الممكن أخذها من عمارة الفندق في ميزانية الأوقاف للمشروع.

موقف حاسم لي في الأمر:

وكنت قد توليت مديرية الأوقاف العامة، فطلب المجلس إليّ أن أبدي رأيي في الأمر كله، فاقترحت أن نعقد اجتماعاً معاً لدرس الأمر من جميع نواحيه فوافقوا، وذهبنا أنا والحاج أمين وأمين التميمي والثعالبي والطبأطبائي الى النبي شمويل، ولبثنا في ضيافة الشيخ عبد الرحمن العلمي يومين ونحن نقلب الأمر، وقد قلت لهم إن العمارات التي حول الحرم مشغول أكثرها، ولو أمكن إخلاء أو تخصيص بعضها فإنه يحتاج الى مبلغ كبير قد يفوق ما في يدهم من تبرعات حيدر أباد لترميمه وإعداده، وأن أجرة عمارة الأوقاف لو تنازل عنها المجلس فلن تزيد عن آلاف قليلة من الجنيهات، ولن تفي بتأمين نصف نفقات كلية واحدة، والأوقاف لا تستطيع أن ترصد أي مبلغ فوق تنازلها عن أجرة العمارة؛ وأن مجمل القول أن المشروع يحتاج أولاً إلى مبلغ جاهز لإعداده، ثم إلى ريع ثابت كاف لإدامة حياته، فضلاً عن تنميته، ولا يجوز أن يعالج معالجة متسرعة مؤدية الى التورط فيما لا يستطاع الوصول منه إلى نتيجة وثمرة. وقد سلموا بما قلت، ثم تواصفوا وأخذوا يخططون لمدرسة صناعية أو مصنع حدادة يتعلم فيه بعض الطلاب، ولكن هذا أيضاً بقي في نطاق الكلام. وهكذا قضوا كما قلنا سنتين في فراغ.

ولم يسع الثعالبي والطباطبائي في النهاية إلا أن ينفضوا أيديهم ويغادروا فلسطين، ولا سيما أن الأحوال فيها أخذت تتوتر بازدياد الهجرة

والمظاهرات والحركات الجهادية، ثم كانت حركة الشهيد القسام، ثم انفجار يافا في ربيع سنة 1936 والاضراب الطويل، وسحب كل هذا ذيلاً من النسيان على المؤتمر الإسلامي الذي شعّت شمسه إشعاعاً قوياً وعابراً، وشغل الناس بما همَّهم اكثر على ما سوف نشرحه بعد(1).

***

(1) اتذكر جيداً ان دستور المؤتمر وقراراته وأسماء شهوده وبرقياته واعماله قد دونت وطبعت في كراسات ولابد من ان تكون محفوظة في مكتبة الهيئة العربية العليا.



44

انعقاد المؤتمر العربي القومي إبان انعقاد المؤتمر الإسلامي وأسبابه:

وفي أثناء انعقاد المؤتمر الاسلامي عقد مؤتمر عربي قومي في القدس أيضاً، فقد اجتمع في المؤتمر الاسلامي عدد غير قليل من أبناء جمعية الفتاة وعهد فيصل من القوميين العرب، ومنهم من لم ير الآخرين منذ دمشق فرأوا في لقائهم هذا فرصة لتجديد العهد والميثاق في سبيل الحركة العربية القومية، واتفقوا على عقد مؤتمر أو اجتماع، وتم ذلك ليلة 13 كانون الأول 1931 في بيت عوني عبد الهادي، وانضم اليهم آخرون من شباب العرب ورجالاتهم القوميين من القدس وفلسطين وخارجها، ممن شهدوا المؤتمر الإسلامي أو كانوا حوله، وبلغ عدد المجتمعين نحو خمسين من مختلف أقطار العرب الآسيوية والإفريقية، وقد تداولوا ما صارت اليه البلاد العربية وما تعانيه من تجزئة واحتلال واستعمار وصهيونية ومشاكل إقليمية، وقرروا وضع الميثاق التالي.

الميثاق الذي قرره المجتمعون:

1 ـ ان البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ، وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا تقره الأمة العربية.

2 ـ توجه الجهود في كل قطر من الأقطار العربية إلى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة، ومقاومة كل فكرة ترمي الى

الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والإقليمية.

3 ـ لما كان الاستعمار بجميع أشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الأمة العربية وغاياتها، فإن الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها.

اسماء الموقعين على الميثاق:

والموقعون على هذا الميثاق من فلسطين هم عوني عبد الهادي وعزة دروزة وإسحق درويش ومحمد العفيفي ومعين الماضي وصبحي الخضراء والشيخ راغب الدجاني وكامل الدجاني وأحمد الإمام ومحمد علي الطاهر وأحمد حلمي عبد الباقي، من سورية ولبنان شكري القوتلي ورياض الصلح وصلاح عثمان بيهم ومحمد علي بيهم ورشيد رضا وإبراهيم الخطيب وعلي عبيد وعلي ناصر الدين وسامي السراج وعمر الطيبي ومصطفى الغلاييني وعوني الكعكي ونبيه العظمة وعجاج نويهض وخير الدين الزركلي. ومن العراق بهجة الأثري وسعيد ثابت وابراهيم الواعظ. ومن الأردن طاهر الجقة وحسين الطراونة وصالح العوران وسالم الهنداوي، وسليمان السودي وخليل التلهوني وعبد الله الداودي. ومن طرابلس الغرب بشير السعداوي، ومن المغرب الأقصى محمد بنونه، ومن مكة محمد حسين الدباح، ومن نيجيريا محمد طارق، ومن مصر عبد الرحمن عزام.

اللجنة التحضيرية للمؤتمر لأجل الدعوة الى مؤتمر قومي عربي عام موسع وأسماء أعضائها:

وكان التوقيع على بيان فيه المواد المذكورة، والبيان أوردت نصه ملحقاً للجزء الثالث من كتابي حول الحركة العربية مع نص بيان اللجنة التحضيرية التي انتهجها المؤتمر أو المجتمعون، حيث قرروا وجوب عقد مؤتمر قومي عربي عام موسع في إحدى العواصم العربية لبحث الوسائل المؤدية الى نشره وتحقيق الميثاق والخطط التي يجب السير عليها، واختاروا ستة أشخاص سموهم اللجنة التحضيرية هم: عوني عبد الهادي، وعزة دروزة، وصبحي الخضراء، وخير الدين الزركلي، وعجاج نويهض، وأسعد داغر. (ولقد سجلت معظم ما تقدم في دفتري القديم، وسجلت أيضاً نشاط اللجنة التحضيرية أو التنفيذية في سبيل مهمتها طيلة نحو سنتين، وهذا النشاط بدأ في أثناء عملي في مأمورية الأوقاف، واستمر في أثناء عملي في مديرية الأوقاف العامة، ولم أر تقطيعه على فترتين، بل سجلته متواصلاً كما فعلت في نشاط وأحوال المؤتمر الاسلامي العام).

نشاط اللجنة بسبيل مهمتها:

ولقد سجلت اللجنة نفسها كجمعية حسب قانون الجمعيات وأخذت ترخيصاً من السلطات، ثم عهدت بسكرتيريتها الى عجاج نويهض، وأذاعت بياناً عن الاجتماع وما تقرر فيه، وذكرت أسماء الموقعين على الميثاق الذي قرره المجتمعون في الصحف وفي نشرة خاصة.

استشارتها الشخصيات العربية البارزة:

وفي جلسة خاصة استعرضت أسماء الشخصيات القومية العربية ذات الرأي والشأن في بلادها، واختارت عدداً كبيراً من بارزيهم من مصر وسورية ولبنان وغيرها، وأرسلت اليهم البيان مع أسئلة عن رأيهم في فكرةعقد مؤتمر عربي قومي عام، التي قررها المجتمعون، وفي وقت ومكان انعقاده، وما يعن لهم من أفكار

ومقترحات حول ذلك، لتستنير بذلك اللجنة وتسير في ضوء ما يرد إليها منهم.

تنويه بنشاط نبيه العظمة في هذا السبيل:

ومما سجلته في دفتري نشاط نبيه العظمة، فهو لم يكن في عداد اللجنة التنفيذية للمؤتمر، ولكنه اهتم لشهود اجتماعاتها ومناقشاتها، وكان يشارك في ذلك، وكان ذلك مما رحبت به اللجنة وشجعت عليه. وقد أخذ يراسل من يعرفه من شخصيات العرب القوميين في مختلف الأقطار في صدد المؤتمر المزمع عقده، وحفز الهمة على عقده وانجاحه، حتى كاد نشاطه وكثرة كتبه ومراسلاته تفوق نشاط سكرتيرية اللجنة.

الأجوبة المشجعة:

وأخذت ترد أجوبة من بعض الذين أرسلت اللجنة وأرسل نبيه اليهم، وكان معظمها محبذاً لعقد المؤتمر، وبعضها ملحاً على ضرورته، وفي بعضها اقتراحات وأفكار في صدد أعمال وخطط المؤتمر .

أكثر الأجوبة اقترحت بغداد مكاناً للمؤتمر وكانت هي المؤهلة أكثر وأسباب ذلك:

وكانت أكثر الأجوبة التي تلقيناها تحبذ بغداد مكاناً لانعقاد المؤتمر، وكانت هي في الحقيقة المؤهلة أكثر من غيرها، حيث كانت سورية ولبنان وشمال أفريقية رازحة تحت كابوس الاحتلال الإفرنسي والإنكليزي، ومن المستحيل عقد مؤتمر قومي فيها، وقام شاهد قريب على ذلك بما فعلته السلطات الإنكليزية في فلسطين في عبد الرحمن عزام على ما ذكرناه قبل، والإنكليز أخف وطأة وأبرد دماً من الافرنسيين. وكانت مصر بالإضافة إلى وقوعها تحت الاحتلال وهيمنة الإنكليز تمر في هذا الوقت في حالة توتر شديد بين الملك والموالين له، وللسياسة الانكليزية من جهة وحزب الوفد من جهة أخرى، وكانت السلطة للجبهة الأولى البعيدة كل البعد عن أي تفكير قومي عربي، وكانت الفكرة العربية، إلى هذا، فيها في سبات بسبب كونها ظلت عصوراً عديدة ممتدة إلى اليوم مركز السلطات، تركية إسلامية، مستنيمة لها دون تنبيه إلى حقيقتها العربية، ولم تكن قد انفعلت واندمجت في الحركة العربية الحديثة التي جاشت في بلاد الشام والعراق في أواخر العهد العثماني وبخاصة بعد إعلان الدستور، بسبب نظامها المنفصل والهيمنة الانكليزية عليها معاً بل كانت ضدها بسبب الدعاية التركية أثناء الحرب ضد الثورة الهاشمية التي كانت متجاوبة ومنسجمة مع الحركة العربية الحديثة المذكورة، ولم يكن أي اهتمام من جانب السعودية والإمامية اليمنية للفكرة العربية القومية الحديثة والعراق، وإن كان تحت احتلال انكليزي فإن عهد فيصل أسبغ عليه صفة قومية قوية، وكانت الأخبار تتوالى على أن ضباطه ورجاله السياسيين كانوا معتزين بعهدهم أقوياء تجاه رجال وضباط الإنكليز، حتى أن هؤلاء كانوا يتحاشون أي صدام معهم. وكانت الحركة العربية القومية فيه قد جاشت في العهد العثماني وقويت، وكان من آثار ذلك الثورة العراقية ضد الإنكليز في سنتي 1919 و1920 التي أجبرت هؤلاء على التراجع عن خططهم الاستعمارية والتجاوب مع العواطف القومية العربية، وبرز من العراق كثيرون مدنيون وعسكريون متتبعون الفكرة القومية، واشترك كثير منهم في الثورة الهاشمية والعهد الفيصلي على ما ذكرناه قبل، وعاد كلهم أو جلهم إلى العراق، وصاروا من

أركان الحكم والسياسة والبروز فيه، وصار يقال بسبب ذلك كله أن العراق سوف يلعب دور بروسية في توحيد الأمة العربية، ويعلق القوميون العرب في بلاد الشام وغيرها عليه أعظم الأمال.

أجوبة مشجعة من العراق أيضاً:

ولقد ورد من الذين كتبت لهم اللجنة التنفيذية للمؤتمر، وكتب لهم نبيه من رجال العراق أجوبة مشجعة ومحبذة لعقد المؤتمر في بغداد أيضاً.

زيارة ياسين الهاشمي للقدس واقتناعه بضرورة العمل لعقد المؤتمر في بغداد:

ولقد كان ياسين الهاشمي الذي يعد أقواهم وأنضجهم متحفظاً، ثم جاء زائراً إلى فلسطين في أواسط عام 1932، واحتفلنا به في بيت المحامي فايز الحداد وجددنا عهدنا به بعد فراق عشر سنين، وتحدثنا معه في أمر المؤتمر حتى قنع بفائدته وقال بإمكان عقده في بغداد.

تأكيده بعدم تدخل الإنكليز وعدم اصطباغ المؤتمر بصفة هاشمية أيضاً:

وسألناه عن احتمال تدخل الإنكليز في أمره فنفى ذلك، وقال أن العراق متمتع باستقلاله وحريته وليس للانكليز أي تأثير عليه. وسألناه عما إذا كان من الممكن تحاشي اصطباغ المؤتمر بصبغة هاشمية بسبب وجود فيصل على رأسه حيث خطر لنا أن ذلك قد يجعل السعوديين وخصوم الهاشميين من العرب يخشون من ذلك، فأجاب بالإيجاب أيضاً.

قدوم الملك فيصل في هذه الأثناء إلى عمان وترحيبه وتأكيداته المطمئنة:

وفي نفس الظرف جاء الملك فيصل إلى عمان لقضاء بضعة أيام، وعقد مؤتمر عائلي فذهب عوني ورياض الصلح الذي كان إذ ذاك زائراً في فلسطين، وأسعد داغر الذي أخذ يتردد على فلسطين للمشاركة في نشاط اللجنة، وقابلوه وتحدثوا معه في أمر المؤتمر فحبذه وشجع عليه ورحب بعقده في بغداد، وأبدى استعداده لمساعدته مع ترك مطلق الحرية للجنة التنفيذية في دعوة من تريد، وترحيب العراق بمن يأتي للاشتراك في المؤتمر مهما كانت أفكاره، ومع ترك مطلق الحرية للمؤتمر في ما يجب بحثه من أمور ويتخذه من قرارات، ومع وعد بعدم محاولة صبغه بأي صبغة حكومية أو هاشمية.

كتاب من الهاشمي ينبيء بتحمس فيصل للمؤتمر وتأليف لجنة في بغداد لتهيئة أسباب نجاحه بأمر من الملك:

وقد ذكرت الصحف خبر مقابلة الثلاثة للملك فيصل، وما قاله ووعد به عزواً إلى الذين قابلوه. وبعد عودة فيصل إلى بغداد ورد إلى اللجنة كتاب من ياسين الهاشمي يذكر فيه أن الملك متحمس للمؤتمر ومساعدته وحريته، وأنه أمر بتأليف لجنة خاصة لتهيئة أسباب عقده في بغداد ونجاحه، مؤلفة من الهاشمي نفسه ونوري السعيد وعلي جودة وجميل المدفعي ومولود مخلص وسعيد ثابت، فاستبشرنا لكل ذلك، وأخذنا نبحث جدياً في الخطوات التالية.

موقف خير الدين الزركلي من عقد المؤتمر في بغداد وتحذيره من إثارة حساسية السعوديين بذلك:

وفيما نحن في ذلك فوجئنا بموقف اعتراضي من خير الدين الزركلي عضو اللجنة، حيث أخذ ينبه إلى ما في عقد المؤتمر في بغداد من إثارة لحساسية الملك السعودي لما بين

الأسرتين الحاكمتين من تنافس وأحقاد، وأذيع في الصحف بعض أقوال معزوة إلى الشيخ يوسف ياسين وفؤاد حمزة وكانا من رجال الملك السعودي المقربين المتعصبين له، فيها تحفظ تجاه المؤتمر وتحذير، ولمسنا أن ذلك بالتوافق مع خير الدين. ومع ذلك جنحنا في اللجنة، حباً في تلافي كل حساسية وعقبات إلى التفاهم.

استشارة لجنة بغداد في التفاهم مع الملك السعودي وموافقتها وكتابنا للشيخ يوسف وفؤاد:

واستشرنا لجنة بغداد في أمر التفاهم مع الملك السعودي في صدد عقد المؤتمر في بغداد، فلم تر هذه اللجنة مانعاً من ذلك، فكتبنا للشيخ يوسف وفؤاد رسالة أكدنا فيها صفاء النية في أمر المؤتمر، ورغبتنا الشديدة في تجنيبه لكل دعاية أو صبغة هاشمية، وما أخذناه بذلك من فيصل ورجاله من وعد، وقلنا لهما إن فكرة المؤتمر هي فكرة عربية قومية خالصة، وأن اختيار بغداد لم يكن بوحي من بغداد، وإنما هي من وحي الظروف العربية، وأننا مستعدون لعقد المؤتمر في جدة أو في مكة إذا كان الملك السعودي مستعداً للترحيب به ومساعدته وتهيئة أسباب نجاحه.

رحلة الشيخ كامل القصاب أيضاً بسبيل ذلك بطلب من اللجنة وعودته بالموافقة :

ثم بدا لنا أن نرسل وفداً إلى الرياض لمواجهة الملك نفسه وإنهاء الموقف على وجه مرض، وكلفنا شكري القوتلي والشيخ كامل القصاب وخير الدين الزركلي بالسفر من أجل هذه الغاية، وكانت صلات الشيخ وشكري بالملك السعودي حسنة. وأخيراً اقتصرت الوفادة على الشيخ كامل، فسافر وغاب نحو أسبوعين وعاد إلى حيفا حيث كان مقيماً فيها منذ خروجه من عمان في 1920 ، فذهبت اللجنة إلى حيفا للاستماع إلى ما جاء فيه، وحضر اجتماعها معه كل من شكري القوتلي ورياض الصلح ونبيه العظمة ورفيق التميمي، (وكان هذا إذ ذاك يتولى مديرية المدرسة الإسلامية في حيفا). وقد أخبرنا الشيخ أن الملك السعودي وافق في النهاية على عقد المؤتمر في بغداد، بعد أن أكد له أن فكرة المؤتمر ليست من فيصل ، وبعد أن تعهد له باسم اللجنة بأن لا يكون أي استغلال هاشمي له، وبأن لا يثار فيه أي بحث له صلة من قريب أو بعيد بالحجاز، وبعد الترحيب بأي عدد يريد أن يرسله إلى المؤتمر كممثلين له ولبلاده فيه، حيث يبدو أن حاشية الملك قد خوفته من المؤتمر وجعلته يتجهم له، وأن موقف خير الدين والأقوال المعزوة للشيخ يوسف وفؤاد حمزة كانت مظاهر ذلك.

الاتفاق على عقد المؤتمر في ربيع عام 1933 وتقرر توجيه الدعوة إلى شخصيات بارزة وإلى الأحزاب معاً:

وقد بحثت اللجنة مع الذين اشتركوا معها في هذا الاجتماع الموسع بعد أن انجلت السحابة السعودية عن سماء المؤتمر في الخطوات التالية في صدد عقد المؤتمر، وكنا آنذاك في أواخر شتاء سنة 1932 ، فاتفقنا على أن يكون موعد انعقاده في ربيع سنة 1933 ، وأن يترك تحديد التاريخ للجنة بغداد، وأن يكون المدعوون أشخاصاً بأسمائهم مختارين ممن عرفوا بقوميتهم وغيرتهم وجهادهم وجهدهم وإخلاصهم، ومن ذوي الشأن والبروز في وسطهم في الوقت نفسه في كل قطر، مع توجيه

دعوات في الوقت نفسه للأحزاب والجمعيات والأندية العربية القومية الوطنية المخلصة لإيفاد من تراه أيضاً.

وكتبنا إلى لجنة بغداد نتائج رحلة الشيخ كامل، والأسماء التي اخترناها، وفكرة إرسال دعوات للجمعيات والأحزاب والأندية القومية، وطلبنا منها تحديد التاريخ المناسب حتى نذكره في اوراق الدعوة، وأخذنا بعد ذلك نعد العدة لإرسال الدعوات ووضع التقارير والأبحاث، وطلبنا ممن نعرف اهتماماته وسعة علمه من رجالات العرب موافاتنا بما يعن لهم من أفكار وأبحاث ومقترحات.

مفاجأة ياسين الهاشمي للجنة بكتاب عتبه واستقالته من اللجنة:

وفيما نحن في ذلك فوجئنا بكتاب من ياسين الهاشمي الذي كان واسطة المراسلة بين لجنتنا ولجنة بغداد، يسأل فيه سؤال العاتب الغاضب عن سبب اهتمامنا الشديد لاستشارة ابن السعود وأخذ موافقته على عقد المؤتمر في بغداد، وعن عدم انتباهنا إلى أن ذلك مما يثير حساسية العراق ورجالها وملكها، وفيه كذلك اعتراض على توجيه الدعوة إلى أشخاص، مع أن الواجب الاقتصار على دعوة الأحزاب، وينتهي بإعلان استقالته من اللجنة، ويقول أنه أرسل نسخة من كتابه إلى الملك وأخرى إلى لجنة بغداد. وكان هذا الكتاب مباغتة ومفارقة معاً، لأننا استشرناهم في موضوع استشارة ابن السعود والتفاهم معه ووافقوا، وأخبرناهم بفكرة الجمع بين دعوة الأشخاص والأحزاب ولم يعترضوا.

كتاب للهاشمي فيه عتب ونقد وللجنة بغداد:

وقد كتبنا للهاشمي جواباً أبدينا فيه أسفنا واستغرابنا مما جاء في كتابه ومن استقالته، وذكرناه بأنه مع اللجنة على علم بما تم وموافقة، وكتبنا للجنة بواسطة سعيد ثابت كتاباً ذكرنا فيه كتاب الهاشمي الذي جاء إلينا وما فيه من مباغتة ومفارقة.

جواب لجنة بغداد بأنها هي الأخرى عاتبة ومستغربة لموقف الهاشمي ومستعدة للمضي بدونه:

وجاءنا جواب من اللجنة تذكر فيه أنها هي الأخرى مستغربة وآسفة لموقف وكتاب الهاشمي، ولا تجد لذلك أي مبرر، وأنها ما زالت مستعدة للسير معنا في طريق عقد المؤتمر، وكان الربيع قد حل ولم يبق إلاَّ أيام قليلة منه يدخل بعدها العراق في طقسه الحار.

تأجيل الموعد إلى الخريف وموت فيصل في أثناء ذلك:

فاقترحت اللجنة تأجيل عقد المؤتمر إلى الخريف، حيث يكون الطقس ملائماً، وبين الربيع والخريف وافت المنية الملك فيصل في أوروبا حيث كان ذهب أوائل الصيف، فكان ذلك صدمة شديدة لأنه كان هو المأمول الأقوى في تعضيد المؤتمر مادياً ومعنوياً. ولقد ذهبنا أنا وعوني في جملة من ذهب إلى بغداد للاشتراك في جنازة فيصل في أوائل خريف سنة 1933 بعد أن أحضر جثمانه من أوروبا.

الاصبع الانكليزي وراء كتاب الهاشمي:

والتقينا بالهاشمي والأخوان الآخرين من أعضاء اللجنة وتحدثنا معهم، وتبين لنا من كلام الهاشمي أن المندوب الانكليزي نبه فيصل إلى ما يحتمل أن يثار في المؤتمر من أبحاث ويصدر منه من قرارات تحرج العراق، وتحمله أعباء

يحسن أن لا يحملها في حياته الجديدة، فأثار هذا التنبيه في فيصل تردداً وهاجساً في أمر المؤتمر، وأفضى بذلك إلى الهاشمي، فتذرع الهاشمي بما تذرع واستقال من اللجنة.

محاولة حمل إخواننا في العراق على المضي في المؤتمر وموقفهم الميؤوس بعد موت فيصل:

وقد حاولنا حمل الاخوان في العراق على الاستمرار في أمر المؤتمر، وأن يهيئوا أسباب عقده في ربيع سنة 1934 إن أمكن، ولكنهم وبخاصة الهاشمي طلبوا تأجيل البحث والتنفيذ إلى وقت آخر، وأن الحكومة العراقية تنشغل في تركيز الأمور بعد الفراغ الذي تركه فيصل. وقال جميل المدفعي أن من الإحراج للعراق أن يطلب منه الآن أن يزج نفسه في المشاكل العربية، وأن من مصلحته تركه مدة ما يعمل لتقوية نفسه وتحسين مرافقه. وحاولنا اقناعهم بأنه ليس المطلوب زج العراق في مشاكل وإنما حمل العراق برجالاته القوميين الذين يتمتعون بشيء من الحرية والقوة، أن يكون راعياً للقضايا العربية فلم يمكن، وعمدوا إلى الوعود والمجاملات. وغاية ما أمكن أن نوري السعيد الذي كان وزيراً للخارجية آنئذ وعد بانشاء مكتب أو فرع في وزارته باسم مكتب أو فرع شؤون الأقطار العربية، وبإنشاء مكتب في كل سفارة عراقية مرتبط بمكتب الوزارة الرئيسي.

التفكير في عقد المؤتمر في غير بغداد والعوائق المادية في سبيل ذلك وجمود هذه الحركة والأمل القومي من ورائها:

ولما عدنا من مأتم فيصل، عقدنا اجتماعاً للجنة، ودعونا إليه إخواننا شكري القوتلي ورياض الصلح ونبيه العظمة، وحدثناهم بما كان من إخواننا في العراق، وبحثنا في احتمالات عقد المؤتمر في غير بغداد. وقد كانت الحالة المادية من العوائق الرئيسية لأننا كنا نأمل أن يخصص العراق مبلغاً سنوياً مهماً يضمن حياة للمؤتمر تجعله يبذل نشاطه في مختلف المجالات والأقطار، ويؤسس فروعاً له من أجل ذلك، ولم يكن هذا ممكناً من غير طريق العراق في الظروف العربية الراهنة. وهكذا جمدت هذه الحركة وخاب الأمل القومي منها.

* * *

45 الشركة الزراعية التي سعيت لتأسيسها في نابلس وأسباب ذلك:

ومما اشتغلت به في أثناء عملي في مأمورية أوقاف نابلس شركة زراعية، وكانت من مشاغلي المهمة. وقد سجلت ما كان من ذلك في دفتري القديم، ورأيت أن أثبته من جديد، وفيه صورة من صور نشاطنا المستوحى من الظروف الوطنية.

نجاح الدعوة وتأسيس الشركة وتسجيلها واختياري رئيساً لها وأسماء هيأة إدارتها:

ولقد أخذت الأفكار تتنبه إلى وجوب إعمار الأرض وإنشاء المزارع والبيارات، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأراضي العربية المعرضة للخطر اليهودي، فخطر لي أن تساهم نابلس في ذلك بتشكيل شركة زراعية، وأخذت أنا وبعض الإخوان الشباب الغيورين نبث هذه الفكرة، حتى تجاوب معها عدد كبير من الناس، فسارعنا إلى تأسيس شركة مساهمة باسم الشركة العربية الزراعية، وجعلنا رأس مالها خمسة آلاف جنيه مقسوماً الى مئتي سهم، قيمة كل سهم خمسة وعشرون جنيهاً، وجعلنا دفعها مقسطاً على خمسة وعشرين قسطاً أي جنيه في كل شهر عن كل سهم، ووضعنا للشركة نظاماً، وسجلناها لدى الحكومة. وقد اكتتب بعضهم بخمسة أسهم، والبعض بثلاثة، والبعض بسهمين وسهم. حيث تم توزيع المائتي سهم على نحو ستين مساهماً. ودعونا المساهمين الى الاجتماع لانتخاب هيئة إدارة، وفاز بالأكثرية أنا وراشد أبو غزالة وعبد الرحيم التميمي وحسن خماش ومحمد حماد، واختاروني رئيساً. وظللت أقوم بالمهمة الى أن انتقلت من نابلس الى القدس حينما عهدت إلي مديرية الأوقاف العامة في أواسط سنة 1932. ولقد كانت فكرة زراعة الموز وما ينتج عنها من ربح عاجل ووفير من جهة، وفكرة شراء أكبر مساحة ممكنة من جهة أخرى، وتوجهنا الى منطقة بيسان.

شراء ألف دونم في بيسان بعد الاستشارة والتحليل:

وقد وجدنا أرضاً مساحتها نحو ألف دونم قطعة واحدة اسمها (الواويات)، تجري اليها عين ماء قوية اسمها (الحصينات) بحصة كافية، وكان ملكاً لبعض أفراد من أسرة فخر الدين النابلسية، كانوا نزحوا الى بيسان وتعاطوا فيها التجارة والزراعة في زمن الدولة العثمانية. وقد ذهبنا وعاينا الأرض واستشرنا فيها خليل المقدادي وجمال حماد المهندسين الزراعيين، وأجرينا تحليلات كيماوية عن الأرض في مختبرات الحكومة، وتبين من كل ذلك صلاحها لزراعة الموز والبرتقال معاً، واتفقنا مع أصحابها على ثمن مقداره (400) جنيه يقبضون نصفه نقداً ويأخذون بالباقي ثمانية أسهم من أسهم الشركة، وكان هذا وذاك توفيقاً كبيراً.

تعيين محمد حماد مديراً للشركة وناظراً للزراعة:

وقد قررنا تعيين محمد حماد مديراً للشركة وناظراً للأعمال الزراعية، حيث كان متدرباً على ذلك في بيارة لأبيه الحاج توفيق في قرية زواتا.

تهيئة الأرض وتجهيزها وزرعها:

وجهزنا المزرعة بما احتاجت اليه من آلات

وأدوات، وقد بذل المدير جهده، فزرع قسماً من الأرض موزاً، وأخذ يهيء قسماً آخر لزراعة أشجار حمضية ومثمرة أخرى، واستغل قسماً آخر لزراعة زراعات موسمية من خضروات وبقول وحبوب.

زيارة المساهمين للأرض:

وقد ذهبنا أعضاء مجلس الإدارة والمساهمون معاً بعد شراء الأرض لزيارة المزرعة، وقضينا يوماً فيها وتناولنا الغداء، وذهبنا إلى نبع الماء الذي كان يبعد نحو كيلومترين، وكان غزيراً ويتكون منه بحيرة صغيرة ثم يفيض.

خسارة زراعة الموز:

ومع الأسف كانت زراعة الموز غير ناجحة، وأصيبت على سنتين متواليتين بالبرد المحرق، ومنيت الشركة بخسارة لا تقل عن (800) جنيه أكلافاً وأتعاباً وعملاً، وكان إخفاق زراعة الموز عاماً تقريباً في المنطقة، وأصيبت مزارع غيرنا بما أصاب مزرعتنا. وكان لموسى العلمي وجمال الحسيني والدكتور توفيق كنعان ولآخرين من ألمان وعرب مزارع، فاضطروا واضطررنا معهم الى نفض اليد من زراعة الموز. واهتممنا للأشجار الحمضية والمثمرة، واستغرق ذلك طوال فترة رئاستي للشركة.

حالة الشركة والمزرعة حينما تركتها وتعثرها وحلها بعد ذلك:

وكان للشركة حينما تركتها وسافرت إلى القدس مزرعة كاملة مساحتها ألف دونم، وعليها سياج من حديد، وفيها بنايات للعمال وأحواض للدواب ودار للإدارة وما تحتاج اليها من آلات وأدوات ودواب، و (180) دونماً مزروعة بالأشجار الحمضية والمثمرة الأخرى، مثل الخوخ والتفاح والدراق والرمان. ومن المؤسف أن أحوال الشركة بعد تركي لنابلس أخذت تتعثر، وصارت إدارتها ورئاستها الى الحاج حسن حماد، الذي اشترى عدداً كبيراً من سهامها بثمن بخس نوعاً ما نتيجة للتعثر. وقد قرر مجلس الإدارة نتيجة لذلك بيع المزرعة وحل الشركة.

* * *

46

حركة مؤتمر الشباب العرب وحوافزها:

وفي أثناء مأموريتي للأوقاف كانت ما يسمى بحركة شباب العرب ومؤتمر في فلسطين، وكان ذلك في ظروف نشاط اليهود للتسلح وحراسة المستعمرات في أواخر سنة 1931.

انعقاد مؤتمر في يافا وقراراته ولجنته التنفيذية برئاسة راسم الخالدي:

ولقد حفز ذلك شباب العرب وتداعوا الى اجتماع عقدوه في يافا في أوائل سنة 1932، شهده عدد كبير من الشباب من مختلف المدن والميول، وقرروا فيه تأليف منظمة سموها (مؤتمر الشباب)، للمساهمة في التوعية وتقوية الحركة الرياضية بين الشباب، والتدريب على السلاح، وأعلنوا التزامهم بالميثاق الوطني المقرر في المؤتمرات الوطنية المتتالية، وانتخبوا لجنة تنفيذية مؤلفة من راسم الخالدي وعيسى البندك وحمدي النابلسي وسعدى الشوا وسعيد الخليل ويعقوب الغصين، وآخرين لم أعد أتذكرهم، ووسدوا رئاستها إلى راسم الخالدي الذي ترأس المؤتمر، وهو شاب متزن قوي العقيدة والنشاط والأخلاق، وقرروا أن يكون مركز المؤتمر الرئيسي يافا، على أن يكون له فروع في سائر مدن فلسطين وقراها الكبرى.

استقالة راسم وحلول يعقوب الغصين محله:

وبعد قليل نشب خلاف بين راسم وهيئة المكتب فاستقال، فوسدت الرئاسة الى يعقوب الغصين الذي كان هو الآخر شاباً متحمساً نشيطاً. وإن لم يكن فيه جميع الصفات التي كانت في راسم، وصار مكتب المؤتمر الرئيسي مؤلفاً منه ومن ادمون روك وسعيد الخليل وصليبا عريضة وفريد فخر الدين ونمر المصري وآخرين.

نشاط منظمة المؤتمر المتنوع في سني 1933 و1934 و1935 و1936:

وقد ظلت هذه المنظمة تنشط في التوعية وفي الحركة الرياضية، وساهمت في مظاهرة يافا الكبرى سنة 1933، ونال رئيسها وبعض أعضاء مكتبها الأذى والضرب واعتقلوا وحوكموا مع من اعتقل وحوكم على ما سوف نزيده شرحاً بعد، ونشطت في سنة 1934 في حراسة الشواطيء والحدود لمنع دخول اليهود الذين كانوا يأتون بدون تصريحات رسمية، ويتسللون الى البلاد بمعرفة وسعي المنظمات الصهيونية، وقد اشتبكت بعض فرقها مع بعض فرق اليهود في سبيل ذلك قرب ناتانيا المطلة على البحر، وكان جرحى من الطرفين. وفي سنة 1935 عقد مؤتمر الشباب مؤتمراً شعبياً في الحولة بحضور آلاف من الناس للتوعية والتحذير من التفريط بالأرض، وأخذوا عهوداً من أهل المنطقة بذلك. وكنت في جولة في الشمال في سياق مهمتي في مديرية الأوقاف، فكنت ممن شهدوا هذا الاجتماع الحافل، وتقرر فيه إنشاء شركة لإنقاذ أراضي الحولة التي كانت معرضة للخطر الصهيوني، بعد أن اشترى الصهيونيون امتياز الحولة من سليم علي سلام على ما شرحناه قبل، واكتتب الحاضرون بخمسة عشر ألف جنيه من رأسمالها الذي جعل مائة ألف جنيه، ولكن الأحداث الخطيرة التي جرت في البلاد بعد قليل جمدت المشروع.

ولقد عقد مؤتمر الشباب اجتماعاً شعبياً كبيراً في حيفا في مايس 1935، وكان مما تناولته الخطب الدعوة إلى إنشاء مدارس زراعية وصناعية وطنية، وإرسال بعثات علمية، وتأليف نقابات عمالية في أنحاء البلاد. وكان مؤتمر الشباب يهتم فيما يهتم له لإقامة مخيمات كشفية ورياضية واستعراضات عامة في المناسبات، واستمر في نشاطه إلى الإضراب الطويل في نيسان 1936، وأسهم في تقوية الموقف، ودخل رئيسه يعقوب عضواً في اللجنة العربية العليا التي تألفت للإشراف على الإضراب وتقويته، والمطالبة بحقوق العرب عبر حركته ممثلاً لمؤتمر الشباب. ولما أخذ الموقف بعد الإضراب يتوتر، وقتل حاكم الناصرة، وقامت السلطات بحركات اعتقال وإرهاب شديدة، كان يعقوب في جملة من اعتقلتهم من أعضاء اللجنة، ونفتهم إلى سيشيل على ما سوف نشرحه شرحاً أوفى فيما بعد.

* * *

47

زيارة الأمير سعود الى فلسطين وسفري إلى الإسكندرية لاستقباله:

وفي فترة عملي في مأمورية أوقاف نابلس سافرت إلى الإسكندرية أنا والشيخ حسن أبو السعود الذي كان إذ ذاك مفتشاً للوعظ، لاستقبال ومرافقة الأمير سعود ابن الملك عبد العزيز السعودي وولي عهده إلى فلسطين، فقد كان جاء هذا الأمير الى الاسكندرية في مناسبة لم أعد أذكرها، فرأى الحاج أمين فائدة في دعوته لزيارة فلسطين تقرباً لأبيه، ولما كان من حرصه على جعل ملوك وأمراء ورجالات العرب يهتمون بفلسطين وقضيتها، فأبرق للملك يرجوه أن يوعز لابنه ويسمح له بزيارة فلسطين، واستجاب الملك وأرسل إلى الحاج أمين خبراً بذلك، فكلفني الحاج أمين أن أذهب أنا والشيخ حسن إلى الإسكندرية لنرحب بالأمير ونرافقه إلى فلسطين، وكان ذلك في صيف سنة 1931. وقد جاء الشيخ حسن الى نابلس لنسافر منها، وكنت آنئذ أشعر بمغص كلوي، فتحاملت وأخذت علاجاً مسكناً قوياً، وسافرنا بالسيارة إلى اللد، ومنها ركبنا القطار إلى القاهرة، ومن القاهرة ركبنا القطار إلى الاسكندرية. وكان الأمير نازلا في فندق سان استفانو، فذهبنا الى الفندق ونزلنا فيه، ثم ذهبنا الى الجناح الذي يقيم فيه الأمير وحاشيته، فسلمنا عليه ورحبنا به باسم الحاج أمين وفلسطين، وهو شاب طويل القامة أسمر اللون ذا لحية سوداء خفيفة بدوي الزي واللهجة،

فاستقبلنا شاكراً. وفي الصباح ركبنا جميعاً القطار الى القاهرة ومنها الى اللد ثم الى القدس بالسيارة، وكان معه فيمن كان فؤاد حمزة وحسين العويني. ومنذ وصل القطار الى غزة ثم الى اللد ثم في نقاط عديدة بين اللد والقدس على طريق السيارة، كان يقف في كل محطة وموقف ونقطة مهمة جمع من أهل القرى والمدن للترحيب بالأمير واستقباله بإيعاز وترتيب من الحاج أمين. وفي القدس كان الحاج أمين وأعضاء المجلس وجمع غفير من المشايخ وأعيان المسلمين في باب الخليل، فاستقبلوا الأمير ورحبوا به وصحبوه الى المجلس الإسلامي، فاستراح، وزار الحرم والمسجد الأقصى، وأقيمت له حفلة تكريم حافلة خطب فيها الحاج أمين وآخرون مرحبين منبهين الى ما يتهدد المقدسات الإسلامية في فلسطين، ولم يكن الأمير يحسن الكلام، ولكنه قال إنه سوف تكون قضية فلسطين ومقدساتها من أهم ما يهتم له هو ووالده ورجال مملكتهما، وقد أقام الأمير يومين ثم عاد مودعاً بحفاوة كما استقبل.

كلمة عن فؤاد حمزة وحسين العويني اللذين كانا مع الأمير سعود:

وفؤاد حمزة وحسين العويني اللذان كانا مع الأمير هما من لبنان، وكانا حينما رأيناهما لأول مرة مع الأمير سعود شابين يافعين، وثانيهما أصغر من أولهما، وقد التحقا بالحكومة السعودية في جملة من آوى إليها من شباب سورية ولبنان وفلسطين في عهد مبكر، ونالا حظوة لديها، وصارا من أعلام العرب البارزين، واستطاعا أن يكونا ثروة كبيرة كان يقال أنها تبلغ عشرات الملايين لكل واحد منهما. وكان الأول هو الأبرز في مجال الوجاهة الحكومية، حيث اشتغل في وزارة الخارجية حتى صار وكيلاً لوزيرها الأمير فيصل، وكان يرسله هذا والملك بمهمات أساسية إلى بلاد العرب وغير بلاد العرب. وظل بارزاً إلى أن توفي في الخمسينات، وأظن أنه ترك خدمة الحكومة السعودية بعد وفاة الملك عبد العزيز. وقد التقيت به بعد اللقاء العابر الخاطف مع الأمير سعود، وحينما صار بارزاً أكثر من مرة. وهو ذكي حصيف العقل رزيناً، وكان المهم عنده تنفيذ تعليمات ملكه ووزيره مع إسباغ اللياقة عليها، وكانت عواطفه حسنة نحو فلسطين وقضيتها رحمة الله عليه.

ولم يتوظف الثاني، وإنما اهتم بتكوين ثروته بأعمال متنوعة في كنف الحكومة السعودية. ولما أحرز ما أحرزه من ذلك عاد إلى بيروت، وكان ذكياً لبقاً، فبرز بين المسلمين وصار من زعمائهم بلباقته وذكائه ووافر ثروته. وقد تقلد الوزارة ورئاسة الوزارة اللبنانية أكثر من مرة. وكان أسلوبه توفيقياً إن صح التعبير، فاستطاع بذلك أن يكسب مختلف الفئات. وظل على هذا إلى أن توفي في أواخر الستينات، وقد التقيت به أكثر من مرة بعد ذلك اللقاء العابر في سياق قضية فلسطين، وكانت عواطفه حسنة نحوها رحمة الله عليه.

* * *

48

رحلة استجمام إلى مصر:

وفي أثناء مأموريتي في أوقاف نابلس، ذهبت أنا وفائق العنبتاوى والدكتور مصطفى بشناق إلى مصر في رحلة استجمام، وكان ذلك في أواسط عام 1931، وقضينا نحو عشرة أيام. وهذه ثاني مرة أزور فيها مصر، حيث زرتها سنة 1919 لأول مرة على ما ذكرت قبل، وقد استمتعنا هذه المرة أكثر من سابقتها من حيث التطواف على معالم القاهرة ومتنزهاتها، وقد زرنا الأهرامات وأبي الهول إلى جانبها، وحديقة الحيوانات وحديقة الأسماك وحديقة القردة وحديقة الأندلس والمتحف المصري، وكان يعرض فيه من جديد آثار مقبرة توت عنخ آمون الذهبية المكتشفة حديثاً، والمتحف الإسلامي الذي فيه من روائع الآثار الإسلامية والمخطوطات النادرة، ومتحف الشمع ودار الكتب والقناطر الخيرية وحمامات حلوان ومنتزهاتها وضاحية المعادي وضاحية مصر الجديدة.

وشهدنا مشهداً لا ينسى، وهو مؤتمر حزب الوفد السنوي الذي كان له الشعبية العظمى، وقد نصب للمؤتمر صيوان عظيم من قماش الخيام اتسع لنحو (3000) أو (4000) شخص، وسمعنا خطب مكرم عبيد ومحمود عباس العقاد وتوفيق دياب وغيرهم من خطباء الوفد، وكان الوفد يتزعم المعارضة لوزارة غير وفدية أتى بها الملك فؤاد، وكانت الخطب شديدة قوية، وكانت الهتافات تدوي في الصيوان كالزلزال بحياة الوفد ورئيسه النحاس وسقوط الوزارة الحليفة للإنكليز، وصدف أن كان الحاج أمين في القاهرة أيضاً.

* * *



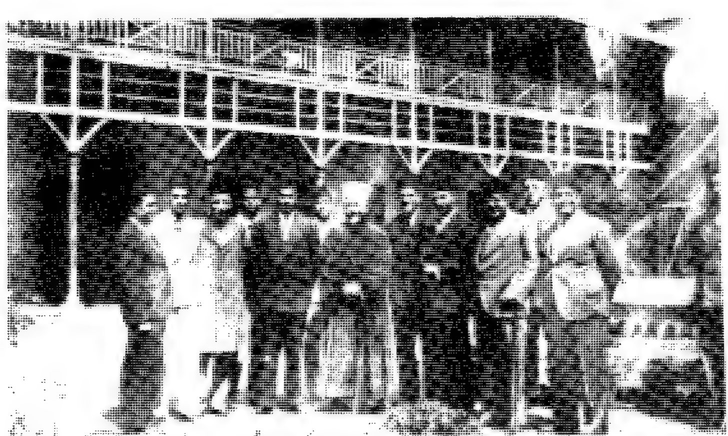
الحاج أمين الحسيني وعزة دروزة في زيارة للطلاب الأندلسيين/ القاهرة.



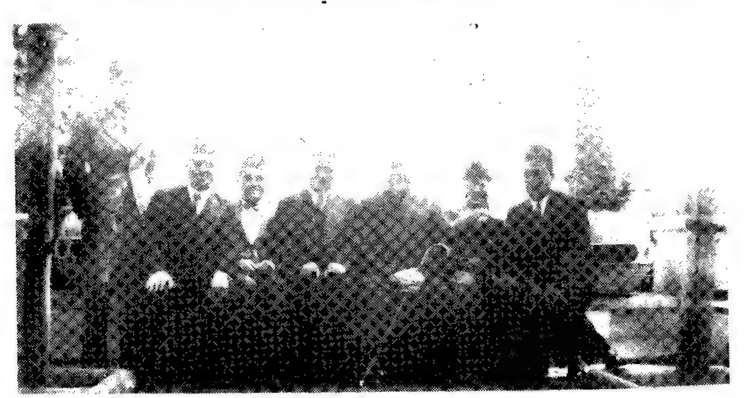
الدكتور مصطفى بشناق، عزة دروزة، أمين التميمي، فائق العنبتاوي.



الجالسون: عزة دروزة، أمين التميمي، فائق عنبتاوي، عبد اللطيف الحسيني.
الوقوف: دكتور مصطفى بوشناق - ؟؟



الحـاج أمين الحسيني ومحمد عـزة دروزة واسحق درويش في المحلة الكبرى القـاهرة (زيـارة معامـل النسيج).



وفد المجلس الاسلامي الأعلى الحاج أمين الحسيني وعزة دروزة القاهرة 1935.



في القاهرة سنة 1935 اسحق درويش، عزة دروزة، دكتور مصطفى بشناق.



القاهرة في الوسط ـ عزة دروزة اليمين ـ ثابت درويش ـ اليسار: ؟؟

49

رحلة استجمام إلى لبنان والحمّه

وفي صيف 1929 سافرت أنا والدكتور مصطفى البشناق إلى لبنان سفرة نزهة واستجمام، وقضينا نحو أسبوعين نتنقل بين مصايفه ومرابعه ومنازهه، حيث قضينا يومين في برمانا ويومين في بحمدون وأربعة ايام في زحلة ويومين في عين زحلته، وكنا ننزل في فنادقها نوماً وأكلاً، وكان السعر عن الشخص يتراوح بين ست ليرات وتسع ليرات لبنانية في اليوم، وقد ذهبنا ونحن في زحلة إلى بعلبك، فزرنا مدينتها وقلعتها العظيمة الأثرية، ودهشنا بما رأينا في هذه القلعة من آثار قديمة وأعمدة ضخمة وزينات حجرية وأقبية، وقضينا وقتاً على عين بعلبك القريبة من القلعة، ورأينا فيما رأينا عموداً ضخماً ما يزال غير تام التقاطيع في أرضه قرب العين، وذهبنا من عين زحلتة إلى منتزه نهر الباروك، وقضينا سحابة يوم فيه، وعين زحلتة تتفجر كأنها شلال. وكانت سفرة ممتعة، وفي آخر أيام رحلتنا وردتنا أخبار الصدام الذي وقع بين العرب واليهود، وتطور وصار ما عرف بثورة البراق التي شرحنا قصتها قبل، فرأينا أن نعود إلى فلسطين حيث ينتظرنا ما علينا من واجب وطني.

استجمامنا في الحمة وشيء عنها:

وفي أثناء مأموريتي في أوقاف نابلس ترددت ثلاث مرات على الحمة ذات المياه الحارة في ربيع سني 1928 و1929 و1930، حيث يكون الطقس حسناً والاستحمام في المياه الحارة المعدنية نافعاً وقد أخذت الأسرة معي وأمي وشقيقتي وأم زهير وزهير وسلمى ونجاح، وقضينا نزهة استحمام واستجمام جميلة عشرة أيام أو أكثر. والحمة تبعد عن طبريا بالشمال الشرقي نحو عشرين كيلو متراً، كنا نذهب بالسيارة بطريق طبريا، وهي في واد بين جبال الأردن وسورية، وكانت تحت حكم حكومة فلسطين. وقد حصل سليمان ناصيف على امتياز باستثمارها، وألف شركة لذلك، ولم يكن قبل سنة 1930 فيها دارات (فيللات)، وانما كان نحو عشرين غرفة متلاصقة في صفين على طرفي شارع عريض يستأجرها الزوار بربع جنيه للغرفة الواحدة عن كل ليلة بدون فرش إلا حصير في الأرض، ومصباح بترول للإضاءة. وعند إدارة الحمام خيام صغيرة وكبيرة تنصبها للزوار، وتضع في كل خيمة حصيرة ومصباح بترول، وتأخذ عن الخيمة الصغيرة خمسة قروش والكبيرة عشرة قروش فلسطينية عن كل ليلة، والزوار يأتون بأدوات ينامون عليها ويطبخون ويأكلون بها. وفي الحمة بقالان عندهما أغراض بقالية ومونة وخضروات وفواكه، وفيها لحام، يتناول الزوار حاجاتهم منهم. وكان الفلاحون يأتون بالبيض والحليب واللبن والزبدة والدجاج والخضروات أيضاً فيبيعونها للزوار.

ومياه الحمة شديدة الحرارة تبلغ درجتها نحو 40 و41 سانتيغراد، وحرارتها أقل قليلاً من حرارة حمامات طبريا، ومياهها كبريتية. وأكثر الزوار يذهبون إليها لأجل أوجاع الروماتيزما وأمراض الجلد، فالمياه الحارة تنفع للأولى، والمياه الكبريتية تنفع للثانية. ومن الناس من يذهب للاستجمام والنزهة. والمكان في موسم

الخريف والربيع وبخاصة الربيع جميل في طقسه وخضرته، ويتيح للمرء أن يتمتع بحريته في الحياة واللبس، ويعيش على سجيته. وكنا نذهب لهذا في الدرجة الأولى، عدا شقيقتي عريفة التي كانت تعاني من الروماتيزم وتضخم السيقان، فكانت لها سفراتنا استشفاء، وكانت تحرص أن تذهب مع آخرين في السنين التي لم نكن نذهب فيها من أجل ذلك.

ومياه الحمة الحارة تتدفق من سفح جبل صخري مكشوفة كشلال صغير، وترسبات الكبريت ظاهرة في مجرى الماء وفي مكان التفجير. وحوله آثار قديمة عربية ورومانية، حيث كان الناس يؤمون المكان للاستحمام على ما هو المتبادر، وعلى ما ذكرته الكتب. وفي طرف جبل الأردن الذي على ذروته قرية سوف نبع حار مثل هذا النبع حيث يتبادر أن المياه الحارة منتشرة في المنطقة ، ومن ذلك مياه طبريا. والمنطقة بركانية ، وآثار ذلك ظاهرة عليها. وقد أنشيء في مكان يبعد عن مكان التفجير فيه مغطس يجر إليه الماء الحار بقناة مغطاة، والمغطس في بناء مسقوف، ويتسع لنحو عشرين غاطساً. وحول المغطس مصطاب لخلع الثياب. وانتظار الدور، ويغطس الزوار فيه فوجاً بعد فوج، ويمكث الفوج نحو ربع ساعة، فيخرج وقد أحمر جلده وتفصد بالعرق. وقد سمي المغطس بالمقلى لأنه يقلي الأجسام، ويدفع الغاطس قرشين عن كل مرة. وقد عين للرجال أوقات وللنساء أوقات.

وعلى بعد نحو كيلو متر ينابيع من الأرض، مياه بعضها فاترة ومياه البعض الآخر ساخنة بدرجة 28 و 29 سانتيغراد، وقد أنشيء على كل منهما بركة كبيرة يغمر الماء فيها نصف الغاطس، فيغطس الناس أو يسبحون. وقد سقفت البركتان بالزينكو، وجعل لها جدران من الزينكو ومدخل، وجعل حول البركتين مصاطب ليخلع الناس ثيابهم أو يجلسون انتظاراً للدور، وكان يسمى الماء الفاتر (الريح) والماء الساخن (البلسم). وكان يقال إن الأول نافع لأمراض المعدة والأمعاء، والثاني لأمراض الكلية، وكان الناس يستحمون في البركتين ويشربون ماءها أيضاً على هذا الاعتبار، وكان رسم الغطس لكل مرة قرشين، وقد جعل للنساء أوقات وللرجال أوقات كذلك، والراجح أن ماءها يتسرب من الماء الحار ومختلط بماء بارد جوفي، فتعدلت حرارتهما. ولكن إدارة الحمام كانت حريصة على تثبيت كونهما ينبوعين خاصين نافعين للأمراض المذكورة، حتى لقد جعلت بعض الأطباء يعطونها شهادات بذلك.

وكان في مكان الحمة بحيرة ماء عذب بارد، فكنا ننصب خيامنا في العامين الأولين على شرف منها، فنعيش عيشة بدوية نستمتع بمناظر بحيرة والشجر حولها والأرض مخضرة بالربيع. وكان يأتي بعض أقاربنا فنعيش معهم عيشة عشيرة بدوية أيضاً، وكان نهر اليرموك يجري في ناحية من الوادي فنذهب أحياناً للنزهة على ضفافه. وفي سنة 1930 كانت إدارة الحمام قد أنشأت بضع دارات صغيرة (فيلات)، في الواحدة غرفة أو غرفتان وفسحة أمامها، وفي كل غرفة أو في جانب الفسحة مغطس يتسع لشخصين يجري إليه الماء الحار، وصار الساكن في الدارات يستغني بذلك عن الذهاب إلى حمام المقلى العام. ويأخذ حمامه في منزله. وقد جهزت إدارة الحمام الدارات بأسرة مفروشة وأدوات للمطبخ والسفرة والجلوس، وفرضت نصف جنيه كل يوم أجرة للدارة ذات الغرفة الواحدة، وجنيه لذات الغرفتين. وقد

أستأجرنا هذه السنة دارة بغرفتين، وقضينا نزهتنا هذه المرة براحة ومتعة. ولقد ظل طعم هذه النزهة في أسناننا كما يقال، فذهبنا مع الأسرة الى الحمة مرتين من القدس في ربيعي سنتي 1934 و 1935 حينما كنا نمارس وظيفة مديرية الأوقاف الإسلامية العامة وقد زارني خلالها بعض اصدقائي منهم رشيد الحاج ابراهيم وسعدى واحسان الجابري واسعاف النشاشيبي في (1934) وامين الريحاني في 1935 وبعد حرب 1948 حيث صارت الحمة تابعة للحكومة السورية وكنا نقيم في سورية، ذهبنا إليها مرتين من دمشق وقضينا في داراتها أياماً حلوة.

***

50

عملي في مديرية الأوقاف وكيفية تعييني والأسباب المتنوعة التي جعلتني أتولى هذه المديرية من ناحية المجلس ومن ناحيتي معاً:

وفيما يلي قصة عملي في مديرية الأوقاف الإسلامية العامة، وجل ما أسجله في هذه النبذة مسجل في دفتري القديم الذي كتبته في سنة 1936 وأنا على رأس العمل، وذهني وذاكرتي ممتلئان بأحداثه وحكاياته وبوادره، أي قبل نحو أربعين سنة. وقد رأيت إثبات معظمه لأن فيه ذكريات وإيضاحات سعيدة وضرورية شخصية وعمومية.

وأشرع من هذا التمهيد بالشرح، فأقول إني استلمت هذا العمل في أوائل سنة 1932، وكان عنوان الوظيفة (مديرية الأوقاف العامة) هو الذي كان عنوانها قبل أن يعين أحمد حلمي باشا، وكان يشغلها عارف حكمت النشاشيبي، ولا أعرف يقيناً، إن كان عمله امتداداً للعهد العثماني أم بتعيين سلطات الإنتداب في زمن الإحتلال الإنكليزي، وإن كان عندي انطباع أنه كان امتداداً. ولما أقيل أو تقاعد عارف حكمت في زمن المجلس الإسلامي، فاوض المجلس أحمد حلمي باشا الذي ذكرنا شيئاً عنه وعن ما كان من أعماله وممارساته في الوظائف المالية الرفيعة في دمشق وعمان، فشاء أن يكون عنوانه (مراقب الأوقاف العام)، وسايره المجلس. ثم أعيد العنوان السابق بعد أن استقال أحمد حلمي في أواسط سنة 1931، وعين للوظيفة جمال

الحسيني الذي قام بالمهمة بضعة أشهر ولم يملأ الفراغ ويقوم بالمهمة كما يجب، ففاوضني المجلس، وتوليت نتيجة ذلك العمل بالعنوان القديم. ولقد كنت سرت في مأمورية أوقاف نابلس التي استلمتها في أواخر سنة 1927 بنشاط وقوة أشعرت المجلس والناس بأني أشغل في العمل فراغاً لم يملأ قبلي، فالحاج نمر حماد المأمور السابق لم يكن يرتبط بعمله إلا كما يرتبط وجيه بعمل شكلي ومراسمي، فلم يكن له أوقات محددة يحضر فيها إلى المكتب ويستمر فيه، ولم يكن يدخل في صلب الأعمال والحسابات ويلاحقها ملاحقة رجل ذي علاقة وشعور بواجبات الوظيفة، فلما استلمت عمله في نابلس أصبح المكتب دائرة رسمية للدوام والعمل في أوقات العمل الرسمية المعتادة، أي من الساعة الثامنة صباحاً إلى الواحدة والنصف بعد الظهر، ولابد من التواجد في المكتب فيها إن لم يكن عمل للوظيفة خارج المكتب، وصرت لا أكتفي بتمشية الأعمال سطحياً، بل أقوم كرجل مرتبط بواجبات عليه يشعر بها من أعماقه كما هي عادتي في الأعمال التي مارستها قبل، ولم يلبث المجلس أن لمح ذلك وعرف بميزاتي عن غيري، وترجم ذلك بزيادة مرتبي ثلاثة جنيهات. ولقد كنت أقيم في القدس في أيام ثورة البراق وما بعدها، وحيوية اللجنة التنفيذية، وأيام لجنة شو، أياماً في الاسبوع، وكان جمال الحسيني، الذي كان يتولى سكرتيرية المجلس قد سافر إلى لندن للدعاية على ما ذكرته قبل، وكان الصفاء قد أخذ يعود بيني وبين الحاج أمين وجماعته بعد ذلك الجفاء والتوتر بيننا، بسبب انتخابات المجلس على ما ذكرته قبل أيضاً، فطلب مني الحاج أمين والمجلس أن أقوم بعمل جمال أيضاً، فقمت بذلك قياماً حسناً زاد في شعور المجلس بميزاتي.

ولقد كان المجلس في عسر مالي شديد سنة 1930، فاضطره ذلك في أول سنة 1931 إلى إلغاء وظيفة المراقب العام التي كان يشغلها أحمد حلمي، ثم وظيفة مأمورية أوقاف القدس اختصاراً للنفقات، وتكليف جمال الحسيني سكرتير المجلس بالقيام بالمهمتين بالإضافة إلى عمله، واستمر يقوم بذلك نحو سبعة أشهر، غير أنه لم يستطع أن يضبط الأمور، ثم فاجأ المجلس باستقالته التي قيل أنها بسبب كونه قد رشح ليكون المساعد العربي لمدير مشروع التحسين والعمران، الذي حاولت سلطات الإنتداب المضي فيه استئناساً أو استناداً لتوصية الخبير سمبسون؛ وقد فهمت هذا من تلميح بدر من الحاج أمين، ثم دل عليه طلب جمال من المجلس كتاب شكر على خدماته، والأسف على إستقالته، مع التنبيه على أن ترشيحه لتلك المهمة وأمله فيها لم يتحققا.

وبعد استقالته من عمل المجلس ازداد ارتباك العمل، فكلفني الحاج أمين بموافقة المجلس أن أساعد فياض الخضراء محاسب الأوقاف الذي كان يقوم بمهمة الأوقاف بالوكالة، ثم كلفني بموافقة المجلس باستلام مهمة هذه المديرية. وقد ترددت وتأبيت لأول وهلة، اجتهاداً بأن مأمورية أوقاف نابلس أنفع لي من الوجهة المعيشية والمالية، وخشيت من جهة ثانية أن أصطدم مع الحاج أمين الذي صرت أعرف مزاجه وعدم اهتمامه للأصول في الاعمال الحسابية والمالية والإدارية والتقيد بها، وكان الإرتباك المالي للمجلس يعزى إلى ذلك؛ ولما ألح الحاج أمين اقترحت أن أتولى العمل كوكيل على سبيل التجربة، وعلى أن تبقى لي

وظيفة نابلس، بحيث أخصص نصف أسبوع للقدس، ونصف أسبوع لنابلس. وقد رضي باقتراحي، واستأجرت غرفة مفروشة في منطقة القلعة في باب الخليل، وسار الأمر على المنوال المتفق عليه نحو أربعة أشهر، ثم ألح الحاج أمين والمجلس علي، بأن أنقطع للمديرية كأصيل لها، وأترك وظيفة نابلس. وقد ترويت ملياً في الأمر، ثم استجبت للالحاح بتأثير عوامل نفسية وشخصية متنوعة، فقد كانت الحزبية المحلية شديدة في نابلس ومحيطها.

وكنت حسب صداقتي مع أمين التميمي، عضو المجلس الذي انسجم مع الحاج أمين انسجاماً كلياً من جهة، وحسب عملي في مأمورية أوقاف نابلس من جهة أخرى، أعتبر بأني مجلسي، ويفرض علي أن أقوم بما يجب من مقتضيات هذه المجلسية من الناحية الحزبية المحلية، وكانت نفسي قد كرهت هذا الغلو في السياسة المحلية الحزبية الذي ارتبكنا فيه منذ بضع سنين، والذي أدى إلى ما أدى إليه من الفتور في الحركة الوطنية. وكانت نفسي مشمئزةً من أن أعتبر أني من أنصار المجلسية الحزبية المحلية، لأن في ذلك طعناً بكرامتي كرجل له اسم معروف في الحركة القومية العربية الاستقلالية منذ الزمن العثماني، ثم في عهد فيصل وما بعده. وعذاباً لضميري الوطني في الوقت نفسه، ولاسيما قد جاء وقت كانت هذه الحزبية ترتطم في عمل وتقف وتتدخل في كل مشروع وموقف، وصرت أميل إلى الخلاص من هذه الحالة التي استطيع أن أسميها كابوساً، وليس من سبيل لذلك إلا بالخروج والخلاص من نابلس التي لا يمكن لرجل مثلي أن يعيش فيها خالصاً من طابعها الحزبي، وكانت من أشد المدن تأثراً وعمقاً في هذا الطابع الحزبي بسبب قوة المعارضة فيها وحرارة المجلسيين. وكان سليمان عبد الرزاق طوقان وأحمد الشكعة وطاهر المصري وعبد الرحيم النابلسي ومن لف لفهم، الذين كنا وإياهم فريقاً واحداً في معركتي انتخابات المجلس الإسلامي والبلدية، قد اتجهوا تدريجياً حتى كادوا يصبحون من جماعة راغب النشاشيبي ضد الحاج أمين، ونحن أي أنا وأمين التميمي وفريد العنبتاوي والدكتور مصطفى البشناق ومن لف لفنا، انسحبنا من طريق التوافق مع جماعة راغب النشاشيبي الذي التقينا فيه في انتخابات المجلس. حالما انتهت معركتها.

ومع أننا ظللنا مدة ونحن متجافون مع الحاج أمين، فإن صلاتنا مع جماعة راغب لم تدم لأننا نعرف ضعف وطنية راغب وقدرته على التأثير في جماعته، ثم تصافينا مع الحاج أمين، وأخذت الصلات بيننا ترجع إلى ما كانت عليه، فكانت النتيجة أن تميزت الفئتان في نابلس، فئة منسجمة مع راغب وفئة منسجمة مع الحاج أمين، وكان في نابلس فئة ثالثة تشترك مع جبهتها المعارضة وتحقد علينا لموقفنا ضدها في معركتي المجلس والبلدية، وهي فئة عبد اللطيف صلاح وعادل زعيتر وأصدقاؤهم وأنسباؤهم، وكانت هذه الفئة مع تميزها كفئة خاصة، ومع أنها كانت حاقدة على سليمان وجماعته أيضاً بسبب المعركتين، فقد انقلبت صلاتها معهم إلى صداقة وتواثق حينما عدنا إلى صفائنا السابق مع الحاج أمين، رغبة منها في استغلال قوتهم الانتخابية في المستقبل، وقابل سليمان وجماعته هذا الانقلاب بارتياح، لأنهم متفقون معاً على مضادّة الحاج أمين. ولم تكن هذه المضادات والمكايدات المحلية قاصرة على الأشخاص المذكورين واجهات جماعتهم

الكبار التقليديين، فقد شملت الشباب المتنورين وأشباه المتنورين، كما شملت فئات العوام وشبابها القبضايات، فغدت الحياة في نابلس بكل ذلك صعبة قاسية لكثرة ما كان ويمكن أن يكون من احتكاكات ومكايدات في مختلف المناسبات الكثيرة، سواء منها الخاص بنابلس أو القدس، أو العام بفلسطين فكان هذا عاملاً جعلني أميل إلى قبول العمل المعروض عليَّ، وكان هناك عامل آخر، وهو أن مأمورية أوقاف نابلس ليست العمل الذي يناسب أن أقضي حياتي فيه خاملاً محصوراً في زاوية ضيقة، وكنت حدثت نفسي بتركه إذا ظللت فيه، لاني بتركه اضطر إلى ممارسة عمل ما أخلص به من صيغة الحزبية المجلسية التي البسني الناس إياها على كره مني، فقلت لنفسي أني إذا ذهبت إلى القدس فإن علاقاتي تخف، ومقتضيات هذه العلاقات تتضاءل بالتبعية. وحينئذٍ أكون في موقف أتمكن فيه من الابتعاد عن مزالق الحزبية الشخصية والمحلية ومقتضاياتها وصيغها، فترتاح نفسي وتطمئن بزوال الاشمئزاز الذي لازمها مدة طويلة في نابلس. ومن جهة ثالثة أكون قد هيأت لنفسي ولأسرتي أن تعيش مدة من الزمن في محيط قد يكون أكثر تحرراً وادعى إلى هدوء البال وقلة التبعات من محيط نابلس. وقد يكون فيه حياة اجتماعية وثقافية أوفر وأخصب، وقد يكون ملتقى لشخصيات ذات وزن علمي واجتماعي أثقل، فيكون كل هذا مما يناسب مزاجي وتطلعاتي وإسمي، فضلاً عما يمكن أن يوفر لنا من هدوء بال وقلة تبعات لم تكن لتتوفر في نابلس. والقدس وبعد هذا كله ذات طقس حسن وهواء معتدل، وأم زهير عليلة الصحة، فنكون قد هيأنا لها تبديل هواء مديد بهذه الطريقة.

الشروط التي اشترطتها لقبولي العمل وموافقة المجلس بالإجماع عليها:

وجعلني كل هذا، وقد تعبت من التنقل بين القدس ونابلس والقيام بمهمة العمل فيهما معاً، أن أقبل عرض المجلس عليَّ، مشترطاً أن يكون قراره بتعييني بالإجماع، وكان أمين عبد الهادي قد أصبح عضواً محل الشيخ محمد مراد، والشيخ محي الدين عبد الشافي عضواً محل الحاج سعيد الشوا، اللذين توفيا في هذه الظروف، وأن يوافق المجلس على ما اقترحته من مدى واجبات الوظيفة والتزاماتي نحوها ونحو المجلس، لأكون أنا والمجلس والحاج أمين خاصة على بينة ووضوح في الأمر، فوافق المجلس على ذلك، فوضعت صيغة القرار بحيث يكون لي الصلاحية والحق في الإشراف على جميع أعمال الأوقاف ومعاملاتها، وتطبيق الميزانية تطبيقاً صارماً، وعدم الخروج عنها في أي قرار ومشروع، وعدم نقل موظف أو تعيين موظف أو عزل موظف في دوائر الأوقاف إلاَّ بعد أخذ رأيي، وعدم اتخاذ أي قرار في أي أمر يتصل بعمل الأوقاف إلا بعد أخذ رأيي، وقد وافق المجلس على الصيغة بالإجماع أيضاً. ولقد كان المجلس عرض عليَّ حين طلب مني استلام المديرية قبل أشهر أن يجعل راتبي (35) جنيهاً، فلما رجوت أن أعمل بالوكالة على سبيل التجربة أبقى مرتبها على حاله وهو ثلاثون جنيهاً في ميزانية السنة، فلم أر من الفروق، وحالة المجلس المالية عسيرة، أن أطلب تنفيذ ما وعدني به من راتب زائد، ورضيت بأن يبقى على ما هو عليه في الميزانية إلى أن تحل السنة الجديدة وتضع الميزانية الجديدة على ضوء المعطيات.

نقل الأسرة إلى القدس والبيوت إلى سكناها:

وفي أواسط 1933 وبعد أن تم التعيين، استأجرت بيتاً مستقلاً في باب الساهرة على الطريق العام، وذو طراز عربي جميل وحديقة ونقلت الأسرة. وقد استأجر أخي في نابلس بيتاً آخر، ثم بحثنا عن بيت أوسع وأهدأ، فعثرنا على ما أردنا في باب الساهرة أيضاً حيث استأجرنا بيتاً طابقاً أول واسعاً وسط حديقة واسعة، وكان يسكن الطابق الفوقاني منه أمين التميمي فكان لنا وللأسرة بذلك أُنس.

تحقق معظم ما أردت من تولي العمل والخروج من نابلس نفسياً واجتماعياً ومادياً:

ولقد تحقق لي أكثر ما أردت، فهدأت نفسي من الغلو في الانغماس في السياسات المحلية الشخصية، وشعرت بالرضا من المركز الرسمي والاجتماعي الذي صار لي بالوظيفة التي هي من أكبر أو أكبر وظيفة اسلامية غير حكومية في ذلك الوقت، وتحسن مع الزمن مرتبها حتى بلغ (45) جنيهاً، وكان هذا المبلغ يضمن لنا معيشة لا بأس فيها بيتياً واجتماعياً، وتحسنت صحة أم زهير وارتفعت معنوياتها معاً، وتمتعنا مراراً بالنزهات في أطراف القدس مع الأسرة، وعشنا على كل حال في القدس نحو خمسة سنين عيشة حسنة مريحة وهادئة ومرضية نفسياً واجتماعياً.

نقل زهير الى مدرسة الروضة من النجاح:

وقد نقلت زهيرا من مدرسة النجاح في نابلس الى الكلية العربية ثم الى مدرسة روضة المعارف، وتخرج منها 1935، ثم التحق بالجامعة الأميركية في بيروت، ووجدنا لسلمى ونجاح مدارس مناسبة، وكانت الأولى في سن العاشرة والثانية في الخامسة، أما ردينة فقد كان عمرها شهران.

ما كان من عسر مالي للمجلس قبل استلامي العمل:

ولقد كان المجلس كما قلت في عسر مالي شديد، وسبب ذلك أولاً ضعف مردود جباية الأعشار الوقفية التي كانت تتولاها الحكومة وتدفعها للمجلس وتموجها، حيث كانت تدفع أقساطا. وكان تدفع ألفي جنيه في الشهر، ثم أنقصت الشهرية الى ألف وخمسمائة، ثم الى ألف، بحجة نقص الجباية، وكانت إيرادات الأعشار الوقفية في ميزانية الأوقاف هي الرقم الأكبر أو العمود الفقري تقريباً، وصار ما يجبى من العقارات وما يؤخذ من الحكومة أقل بكثير مما هو واجب الدفع من مرتبات ونفقات، وقد زاد في عسر المجلس المالي أنه، والرئيس خاصة، لم يكونوا يقفون عند أرقام ومشاريع الميزانية، وكانوا يقررون نفقات ومشاريع بدون اعتمادات. ولقد كان في صندوق الأوقاف نحو عشرة آلاف جنيه، أمانات للناس، فأنفقت على هذه المشاريع والنفقات، وعجز المجلس عن ردها لأصحابها، بل وتراكمت عليه ديون من مرتبات الموظفين التي لم يمكن دفعها، ومن نفقات أخرى تم إنجاز أعمالها بلغت نحو 19000 جنيه . ولقد وصل العسر المالي أو العوز المالي في مركز القدس بخاصة إلى درجة أنهم كانوا ينتظرون الشهرية التي كانت تدفعها الحكومة، والتي خفضت مرتين، أو أجرة عقارات ومستحقات أخرى انتظاراً شديداً، وكان كل ما يأتي من هنا وهناك يتبخر حالاً لكثرة المطلوب وقلة الوارد، وكانت هذه الحالة شديدة في مركز القدس خاصة لأن أكثر التجاوزات

للميزانية كانت تقع فيها، وكان للمراكز جبايات محلية تسدّ الى درجة ما مرتبات الموظفين والنفقات الضرورية الأخرى. ولقد بدأ هذا العسر في سنة 1929، ثم أخذ يشتد بسبب خفض الحكومة للشهريات بحجة قلة الجباية ورداءة المواسم واضطرار الحكومة الى إعفاء المزارعين من بعض ما في ذممهم من مطلوبات الأعشار.

ما كان من ارتباك في القيود والأعمال الحسابية:

ولقد كانت القيود المالية في مركز القدس مرتبكة بسبب ذلك، حتى لقد مضى أحد عشر شهراً دون أن يقدم هذا المركز جداول شهرية بحساباته، بل ودون أن يلاحق قيوده وحساباته، ودون أن يتمكن من تحقيق موجود صندوقه. ولقد كانت الحكومة تعتزم إلغاء ضريبة الأعشار واستبدالها بضريبة موحدة عنها، ومما يسمى (ويركو) الأرض، بها. وأخذت تتصل بالمجلس بسبيل ذلك، وكان أمين التميمي قد ذهب، كما ذكرت في مناسبة سابقة الى الآستانة، واستطاع أن يأتي بوثائق وقفية لم تكن تدفع الحكومة منها شيئاً للمجلس. وقد قدم المجلس للحكومة الوثائق، وطالب حق الأوقاف السابق واللاحق بها، وقد استجاب المندوب السامي واكهوب الذي أراد أن يساير بعض الرغبات العربية والإسلامية الهامشية مما شرحته سابقاً فأمر بتأليف لجنة لدرس الوثائق والمطالب. وعرفت الحكومة واللجنة بعسر المجلس المالية وديونه ونفقاته المتجاوزة، فأرادتا أن تقفا على حالة المجلس المالية قبل أن توافقا على طلباته ووثائقه ولو بصورة غير رسمية للاطمئنان، ولم يكن هناك حقاً اختلاسات، وكل ما كان نفقات بقرارات خارجة عن الميزانية لها مستنداتها ومبرراتها من وجهة نظر المجلس تقيد بإسم صرفيات موقفة ريثما توضع لها اعتمادات في الميزانية. وقد ساير المجلس الموقف ووافق على رغبة الحكومة واللجنة، حتى لا يكون أمامها في حرج أشد، وحتى لا يتعرقل عمل اللجنة ويتأخر الحل ويزداد العسر والإرتباك.

خطواتي ونشاطاتي الأولى:

ولقد استلمت عمل مديرية الأوقاف في هذه الحالة العسيرة مالياً، المرتبكة قيدياً وحسابياً، والشاذة أصولياً، وكان أهم ما يجب عمله وأسرعه، هو إنهاء حسابات مركز القدس المتأخرة، وعمل جداول تبين الإيرادات والنفقات والمستندات والتقريرات، حتى تطلع عليها اللجنة وتطمئن بعدم وجود اختلاسات وسرقات، وتدفع الحكومة بعض المبالغ وتنفرج الأزمة الخانقة وقد اقتضى هذا مني جهداً كبيراً، حتى أني قضيت ليلة في المجلس لم أذق فيها طعم النوم لأننا كنا وعدنا اللجنة بالجداول في اليوم التالي، وهذا عدا الليالي والأيام التي قضيتها واشتغلت فيها ساعات متواصلة إلى وقت متأخر أنا وفياض الخضرا محاسب الأوقاف، والشيخ عبد الرزاق الشهابي كاتب أو محاسب مركز القدس، وقدمنا الجداول، واطمأنت اللجنة وبالتالي الحكومة بعدم وجود اختلاسات، ولكنهما لمسا بقوة الشذوذ وعدم الانضباط، وحاولت الحكومة أن تفرض على المجلس الحصول على مصادقتها على ميزانية الأوقاف. ولكن المجلس رفض ذلك ووعد بعرض حساباته السنوية على فاحص حسابات قانوني، وتم الاتفاق على ذلك ثم انتهت المفاوضات بتعيين مبلغ (23000) جنيه كمبلغ مقطوع سنوي مقابل الأعشار الوقفية الراهنة،

وبوعد بالنظر في الوثائق الجديدة، وزيادة المبلغ بنسبة ما يثبت بها من حق للأوقاف، ودفع مبلغ عما سبق أيضاً. ودفعت الحكومة ما هو مستحق عن المدة التي توقف فيها الدفع أو انخفض فيها القسط. وبذلك انفرجت الأزمة وأمكن دفع المعلومات من المرتبات والديون والأمانات.

اقتباس تعليمات مالية من الحكومة وتطبيقها لضبط الأمور:

ولقد كانت القيود والأعمال الحسابية تسير بأساليب معقدة من جهة، وكيفية أحياناً من جهة أخرى، وكنت عرفت أن لدى المحاسبات الحكومية تعليمات دقيقة لضبط الأعمال الحسابية، فطلبت من رئيس اللجنة نسخة منها، وكان في قلم الأوقاف موظف من بيت الداوودي اسمه علي يعرف اللغة الانكليزية، فطلبت منه ترجمتها، وأدخلت عليها بعض تعديلات تيسيرية وطبعناها، وطبعنا النماذج والقوائم والمستندات التي تنص عليها وتصفها التعليمات، وأرسلناها مع التعليمات إلى المراكز، واهتممت لتطبيقها، فكان خطوة جادة ناجعة في سبيل الإصلاح الحسابي الأسلوبي الذي أصبحت به الأعمال تحت مراقبتي ومراقبة المحاسبة العامة للأوقاف مباشرة.

حزمي وشدتي في مراقبة الأعمال وتعمقي في الدراسات:

وقد سرت بسبيل ذلك بحزم شديد ومتابعة مستمرة، حتى نجحت في تطبيق الأسلوب من جهة وإحلال النظام في الأعمال المالية والحسابية والإدارية من جهة أخرى، وكنت لا أكتفي بتسيير ما يقع تحت العمل من أشغال ومعاملات، وبصورة سطحية ديوانية (روتينية)، بل كنت أتعمق في كل معاملة، وأنبش عن المعاملات والأشغال المتروكة، وأجعل لكل فرع من الأعمال ملفات ودفاتر.

جهدي في جعل المركز المرجع لمعاملات وأشغال الأوقاف بالنسبة للناس والموظفين وما كان عليه الأمر قبلي ونجاحي في ذلك:

وهكذا بدأ نشاط قوي في دوائر الأوقاف في المركز والملحقات وفي الإدارة والمحاسبة العامة، وكان المعتاد أن يراجع الموظفون، الحاج أمين مباشرة في كل صغيرة وكبيرة ويطلبون رأيه وتوجيهه، وكان هو يروقه ذلك ليكون قطب الرحى في كل شيء، ويصرف الأمور بتعليمات وتوجيهات كثيراً ما لا تكون منطبقة على أصول ونظام، وكان الموظفون يتخذون توجيهاته وتعليماته على علاتها سنداً مبرراً، وينفذون العمل دون اهتمام بما في ذلك من خطأ وشذوذ وضرر، فما زلت أضع يدي على كل عمل وأثير في نفوس الموظفين شعور الإحساس بالمسؤولية، حتى انقطعت هذه العادة أو كادت، ولا سيما ما كان له علاقة بالأمور المالية والحسابية. وكان المعروف عن الحاج أمين أنه يحب التدخل في كل عمل وتصريفه وفق ما تقتضيه الظروف التي يراها من وجهة نظره، والأهداف التي يهدف اليها، ولو كان فيها مخالفة للأصول ومناقضة للمصلحة. وكنت كل ما اكتشفت أغلاطاً أو شذوذاً في المعاملات والتصرفات السابقة، كانت تعزى إلى أوامر وتوجيهات الحاج أمين، وكنت من جهة أذكر ذلك له وأكشف له الخطأ والضرر في ما تم، وأظهر شخصيتي وأضع يدي على الأعمال من جهة أخرى، حتى انتظمت الأمور وأصبح من النادر أن يتدخل هو فيها. وغاية ما

كان أنه كان يسألني في ما يريده، فإما أن يكون إمكان ومحل فيجري وفق أصوله وتعليمات مني، وإما أن لا يكون فأقول له ذلك ويكف هو عن الإصرار.

علّة خليل الداودي أمين الصندوق وحسمها:

ومن العلل التي كانت في مركز الصندوق، أمين الصندوق، وأمانة الصندوق، فقد كان أمين الصندوق رجلاً ساذجاً ولكنه شديد الطاعة للحاج أمين في كل ما يطلبه، وهو خليل الداودي، وكان هذا هو ما جعله وأبقاه في هذا العمل الهام دون أن تكون أعماله وتصرفاته منتظمة وأصولية، في زمن أحمد حلمي ثم جمال من بعده، ولم يكد يكون نقد في الصندوق الحديدي الذي في يده مفتاحه، بل كان الصندوق هو جيوبه، فالأوامر تصدر إليه من الرئيس أحياناً، ومن الأعضاء أحياناً، ومن أحمد حلمي ثم جمال أحياناً، ومن مأمور أوقاف مركز القدس أحياناً بالدفع، فيخرج من جيبه ويدفع مقابل سند موقع من القابض دون اهتمام جاد بما اذا كان المبلغ المأمور بدفعه مقرراً في ميزانية، أو مستنداً إلى قرار أصولي، أو له اعتماد. بل وأحياناً دون اهتمام بكون السند الذي يأخذه من القابض أصوليا وصريحا في نصه، بل وأحياناً يدفع بدون سند قبض، ويقيد المبلغ باسم من دفعه اليه.

ورأيت من الواجب وضع حد لهذه الفوضى، وطلبت من المحاسب العام تدقيق حسابات هذا الرجل والصندوق، فوجدنا أنه مقيد مبلغاً كبيراً أظنه (500) جنيه أو أكثر مدفوعاً للحاج سعيد الشوا عضو المجلس، ليسلمه لمأمور مركز غزة دون سند قبض من الحاج، وكان الحاج سعيد قد توفي. وسألنا مركز غزة فأخبرنا أنه لم يستلم أي مبلغ منه، ووجدنا في قيوده دفعات مكررة، ووصل واحد، ووجدنا دفعات مقيدة أخرى بدون وصل، وسألنا أصحابها فمنهم من اعترف بالقبض ومنهم من لم يعترف. وصفينا حسابات الرجل فوجدنا نقصاً بقيمة (900) جنيه دون سندات قبض ودون إثبات بالدفع لأحد، واقترح الحاج أمين حل مسألته بدون قضية في محكمة، فوافقت على ذلك لأني رجحت أن الرجل ليس مختلساً ولا سارقاً، وإنما كان نقصه نتيجة سذاجته وجهله وفوضى الأمر بالدفع. ولكن شرطت تسريحه أولاً وإجباره على دفع المبلغ ثانياً. وقد كتب على نفسه سنداً به، ورهن بيته لاسم مأمور الأوقاف مقابل ذلك، على أن يسدد المبلغ أو يباع البيت وسرّح.

حزمي في تطبيق الميزانية وما كان الأمر عليه قبلي:

وسرت بحزم وبدون هوادة في تطبيق الميزانية والتدقيق في الأعمال والمعاملات، حتى أصبحت الأعمال منتظمة والنظام هو السائد، وساعد على ذلك الحرج الشديد الذي عاناه الرئيس وأعضاء المجلس عما انكشف للّجنة الحكومية من شذوذ في الإنفاق، وعدم التزام بالأصول والميزانية، كانوا على كل حال مسؤولين عنها أدبياً ومادياً، حيث جعلهم هذا يتحاشون التورط في قرارات الإنفاق والأوامر الصرفية التي لا تتحملها الحالة المالية، ولا تنطبق على أصول، وتشذ عن الميزانية المقررة، ولا سيما أني صرت أكفيهم مؤونة مراجعة الناس لهم، ووطدت نفسي كمرجع مسؤول وحيد للمسائل المالية والمعاملات المفصلة بالميزانية وإدارة الأعمال، وعرف الناس ذلك فصاروا يراجعونني دونهم، وإذا ما

راجعهم أحد أحالوه عليّ، واذا كان مطلبه شاذاً قلت له ولمن أرسله ذلك، ويقف الأمر عند هذا.

تعيين فاحص حسابات لفحص الحسابات منذ سنة 1927 ثم تنظيما سنويا وأثر ذلك:

وقد نفذنا فكرة فحص الحسابات، فاتفقنا مع فؤاد سابا على فحص حسابات المجلس لخمس سنوات سابقة، ثم من سنة 1932 وما بعدها بصورة منتظمة، وأخذ الرجل يدقق في الحسابات السابقة ويضع يده على أغلاط وأخطاء عديدة، منها ما فيه شذوذ عن الميزانية، ومنها ما هو بموجب أوامر بدون استناد الى قرارات واعتماد مصروفةً على شؤون الأوقاف، وجعلها موثق بسندات قبض وتفصيل عمل بحيث لم يكن اختلاسات ولا سرقات.

وكانت عملية فحص الحسابات مما ساعد على التدقيق في الأعمال والتزام الأصول والنظام من قبل رئيس المجلس وأعضائه ومأموري الأوقاف، مما يلاحظ أن هناك فاحصاً قانونياً غريباً على المجلس وملتزم بمهمة تجاه القانون والضمير، ولا يمكن أن يغض عما يراه من شذوذ وخلل، ويسجل كل ذلك في تقريره.

ارتباك حسابات في المدارس الإسلامية وحسمها:

ومن المسائل المهمة التي شغلت فاحص الحسابات حسابات المدارس الإسلامية، وقد ظهر أن حسابات هذه المدارس كانت مرتبكة ومتداخلة ومشوشة، وأحياناً شاذة عن الموازنة، وأحياناً بدون تدقيق وسند ومبرر، وكنت قبل أن نتفق مع فاحص الحسابات وضعت يدي على هذه المدارس وجعلتها فرعاً من الميزانية والأعمال الأخرى وكنت بدأت في تدقيق حسابات المدارس عن سنة 1931 لعلاقتها بالسنة التي استلمت العمل فيها، فلما اتفقنا مع فاحص الحسابات واضطلع بمسؤولية تدقيق الحسابات من سنة 1927، كانت حسابات المدارس داخلة في ذلك.

إنشائي صندوق توفير للموظفين وحالته:

ومن أعمالي التنظيمية إنشاء صندوق توفير للموظفين منذ بداية سنة 1933، وقد وضعت تعليماته وعرضتها على المجلس فوافق عليها، وكان من مقتضاها حسم واحد في المائة من مرتبات الموظفين، وتسليف من يكون في حاجة وضيق بسبب ما بفائدة قليلة، وتسديد القرض مقسطاً، وتحسم الأقساط من المرتب. وقد بلغ موجود الصندوق في أواسط سنة 1936 أربعة آلاف جنيه، وصار الموظف يجد لنفسه رصيداً ما في حال تركه العمل أو موته أو إقالته، من حيث إن نظام المجلس لا يسمح بترتيب معاش تقاعدي للموظفين.

تصنيف الموظفين وزيادة مرتباتهم:

ومما حاولته تصنيف الموظفين ومرتباتهم، حيث لم يكن هذا قائماً، وكانت الدرجات والمرتبات بدون قاعدة وقائمة على الصدفة والاجتهاد الشخصي أو العطف الشخصي أو الحزبي بالنسبة لرئيس المجلس وأعضائه، وقد وضعت قواعد لذلك، وكان من مقتضاها أن يكون لكل وظيفة مرتب محدد، ثم يزاد صاحبها تدريجياً كل سنتين مرة اذا كان سلوكه وجهده مرضيين بتقدير وتقرير المدير العام، وكانت الزيادة 10٪ كل مرة، وتقف حينما يصل الراتب الى مرة ونصف مما كان عليه في البدء، فالوظيفة التي يحدد مرتبها عشرة جنيهات مثلاً

يقف مرتبها عند خمسة عشر، والخمسة تزاد خلال عشر سنوات وعندما يعين موظف جديد لوظيفة يكون مرتبه هو المرتب الأول. وجعلت ذلك عاماً لجميع موظفي الأوقاف بما فيهم موظفو المساجد. وقد ظللت ألح على المجلس حتى أقر التعليمات في سنة 1936، وكنت قد استطعت أن أقنعه بزيادة المرتبات منذ سنة 1933 بنفس النسبة، ولكن ذلك لم يكن عاماً لجميع أصحاب الوظائف في الميزانية، فصار منذ سنة 1936 عاما.

موقف عجيب لأعضاء المجلس:

ومما سجلته في دفتري الذي نقلت عنه ما تقدم، أن أعضاء المجلس أصروا على أن يكون لهم حق في الزيادة بالنسبة لمرتبهم الذي يأخذونه من الأوقاف، حيث كان نصف المرتب من الأوقاف والنصف الثاني من خزينة الحكومة على حساب رسوم المحاكم الشرعية، باعتبار رئيس المجلس وأعضائه مشرفين على المحاكم الشرعية والأوقاف معا، ومرتبات المحاكم الشرعية كانت تدفع من الخزينة الحكومية مقابل الطوابع التي تطبعها الحكومة وتلصق على أوراق المحاكم ثم أصروا على قبض الزيادة الأولى وهي خمسة جنيهات شهرياً قبل أن يتم تطبيق القرار والتعليمات على الجميع، لأن ذلك كان يحتاج إلى وقت ما، وحاولت أن أقنعهم بتأجيل القبض ليكون مع الجميع، اذ أن قبضهم دون الجميع سيكون ذا وقع غير حسن عند الموظفين فلم يقتنعوا.

انطباعاتي عن رئيس وأعضاء المجلس في سياق احتكاكي بهم والعمل معهم وهذا تتمة لما كتبت عنهم سابقاً:

وقد سجلت من وحي ذلك نبذاً عن كل منهم، ولقد سبق أن كتبت عن كل منهم كلمة في مناسبات سابقة ولكن رأيت أن أثبت ما كتبت من وحي موقفهم المذكور، لأن ذلك هو انطباعاتي عنهم في سياق عملهم في المجلس واحتكاكي بهم في هذا العمل، ويكون ذلك تتمة للكلمات السابقة عنهم، وفيه صور شخصية طريفة. وفيما يلي معظم ما كتبته في دفتري استطراداً في هذه المناسبة.

أمين التميمي:

إنه حازم ومدرك وغيور على المصلحة وعلى الدوام وعلى العمل أكثر من غيره، ولكنه متناقض وذو أثرة أحياناً، فهو لا يرى بأساً في السكوت عن التناقضات والشواذ، مع علمه بذلك، وهو أصولي يُحب التزام القواعد ولكنه لا يرى أحياناً بأساً في مخالفتها إذا كانت له رغبة في أمر يصعب أن يتم أو يمكن أن يتأخر مدة ما إذا سار حسب الأصول. وهو أحياناً كثيرة ذو آراء صائبة في الأشخاص والأصول، وجريء أيضاً فيها، وقد يتكلم المرء معه بصراحة في مثل هذه الأمور، فتجد لديه نفس الصراحة، ولكنه يتناسى كل هذا أحياناً ويقع في مفارقات أو يتراجع عن آراء وأفكار له حسب الظروف، ولقد ناب عن الرئيس حينما سافر هذا الى الهند ثم الى الحجاز واليمن، فكانت إدارته حازمة ودوامه مستمراً، ولكنه صار جافاً ناشفاً كأنما انقلب الى قائد أو حاكم تركي. وكان في أسئلته وأجوبته في الأمور والوقائع قاسياً أو جافاً أكثر من المعقول واللازم.

ولما أسسنا حزب الاستقلال في فلسطين على ما سوف أشرحه بعد، كان يعلم بخطواتنا وكانت أقواله وأفكاره تدل على الرضاء والتشجيع على المضي فيها، ولكنه لم يلبث أن

تنكر للحزب تبعاً لتنكر الحاج أمين وجماعته، حتى صار هذا التنكر جفاء نحوي ونحو رفاقي في الحزب، الأمر الذي جعلني أفكر في ترك الأوقاف حينما عرض علي البنك العربي مديرية فرع عمان، ولو لم أكن كارهاً أن أكون في نطاق الأمير (الملك) عبد الله الذي كان مندمجاً في سياسة الإنكليز اندماجاً كليّاً لاستقلت وذهبت الى عمان، مع أني زميله وصديقه طيلة خمس عشرة سنة في تواثق وانسجام. وكذلك حاله مع غير واحد من أعضاء الحزب. ومع هذا فهو في أحيان كثيرة لطيف المعشر والرفقة، يستطيع المرء أن يقضي وقتاً حسناً معه، والمهم أنه كان وطنياً وعربياً غيوراً.

أمين عبد الهادي:

أمين عبد الهادي، وهو، ليس كأمين التميمي في استغلال مركزه لنفسه ولغيره، بل إنه ليس من هذا في شيء تقريباً، وتفكيره سليم، ولكنه ضعيف في المشادات والأعمال التي تقتضي ملاحقة وكدّا، ومن أكبر همه أن تكون علاقاته مع الحكومة ودوائرها وموظفيها وبخاصة الانكليز حسنة، فتراه دائماً على مواعيد معهم في حفلات الشاي عنده أو عندهم، وحريص على مجاملتهم في المناسبات، فلا يكون عيد أو موسم لهم إلا ويبادر إلى مجاملتهم كتابياً أو شخصياً حسب المقتضى، وهذا كان فيه منذ بدء الاحتلال، حتى أنه أنشأ حزباً باسم حزب التعاون مع الانكليز في بدء الاحتلال، وقدّروا له ذلك فعينوه عضواً في المجلس الاستشاري، وكانوا يختارونه عضواً في لجان متنوعة، وأخيراً عينوه عضواً للمجلس حينما فرغت دائرة الشمال بموت الشيخ محمد مراد، في حين أنه لم يكن يمثل أي فئة من الفئات التي تعاركت واهتمت لانتخابات المجلس، ولم يكن معارضاً في صف راغب النشاشيبي وجماعته، وكان من غير أهل المنطقة لأنه من منطقة نابلس، وكان في حيفا غريباً، ولم تكن له أعمال وعلاقات فيها اقتصادياً واجتماعياً، وكان يعيش فيها في عزلة اجتماعياً وشعبياً. ولقد حاول في أول عهده في المجلس أن يكون حذراً معارضاً لما كان يقع من مفارقات ويتخذ من قرارات لا يراها في محلها أصولا أو موضوعا، ونقول حاول لأنه لم يكن ثابتاً على هذا وجاداً فيه.

وحينما كان يعرف أن للحكومة مطلباً ما في المجلس أو دوائره يهتم لانجازه بجهد وهمة، حتى ليصدق من يقول أنه كان يعتبر نفسه مندوباً أو وكيلاً للحكومة. ومواقفه هينة لينة شأن من ليس له ضلع كبير في الحركة الوطنية، ويميل دائماً الى الآراء المعتدلة البعيدة عن الشدة والتصلب، والتي لا تؤدي الى اصطدام عملي أو نظري مع الحكومة. وقد قدرت له الحكومة كل هذا فجعلته كرئيس للمجلس حينما وضعت يدها على المجلس والأوقاف، وعزلت الحاج أمين من الرئاسة وأمين التميمي من العضوية، وعزلتني من المديرية العامة لما قتل حاكم الناصرة وتوترت الحالة في البلاد، وأنذرت بالإنفجار على ما سوف نشرحه بعد.

وأحب أن أستدرك أنه كان مدركاً لأخطار الصهيونية وضدها، ولم يكن مؤيداً للسياسة الانكليزية الصهيونية، ولم يكن غير وطني ولكنه كان يجنح الى الاعتدال في مواقفه من ذلك.

عبد الرحمن التاجي:

عبد الرحمن التاجي ملّاك ووجيه في حياته وتصرفاته، وفيه بساطة وسذاجة تجاه الأمور المعقدة والسياسية، واهتماماته للأمور العامة

قليلة. ويذكر الناس اسمه في حوادث بيع أراضي لليهود والسمسرة عليها، وعلاقته بهم حسنة، وهو جار لهم في بياراته. ومن جماعة راغب النشاشيبي، جمعتهم الأمزجة، ومع أنه لم يشترك في المعركة الانتخابية للمجلس الإسلامي، فقد عينته الحكومة ممثلاً للمعارضة، ومن الجائز أن جبهة المعارضة رشحته. وقد مثل المعارضة في المجلس، وظل يمثلها، غير أن أشغاله المالية وسمعته ومزاجه التجاري، لكل ذلك كان موقفه المعارض غير ذي خطورة، وكثيراً ما كان ينسجم مع مطالب ورغبات الحاج أمين ويسايرها أيضاً.

الشيخ محي الدين عبد الشافي:

الشيخ محي الدين عبد الشافي، هذا الرجل نزيه وقوي ومفكر وصريح وحر وحسن الاطلاع، وقد يعد من الأدباء أيضاً، ولكنه عنيد وضيق الصدر، وفيه اعتداد بالنفس والرأي بدون مبرر قوي، ولقد كان في أول عهد المجلس مأموراً لأوقاف غزة، فاصطدم بالحاج سعيد الشوا الذي كان عضواً في المجلس، لأن لهذا مصالح يجب إنجازها مهما كانت، والشيخ لم يكن يسايره في ذلك، فنقله المجلس الى مأمورية أوقاف الخليل، ولم تكن حالته هنا أحسن لأن للحاج أمين مصالح وأنصار في الخليل، والشيخ لم يكن يسايرهم في كل ما يريدون، فعينه المجلس قاضياً شرعياً للناصرة ثم في بيسان.

وكان ينتقد أعمال المجلس وتصرفات الحاج سعيد والحاج أمين، ويكتب مقالات في الصحف، فتفاقم الأمر بينه وبينهم فاستقال، فلما مات الحاج سعيد بذل المعارضون جهدهم في ترشيحه ثم تعيينه محله. وكان ذلك كالصاعقة على الحاج أمين، لأن أمين عبد الهادي كان معارضاً بشكل ما، وعبد الرحمن التاجي كان معارضاً أكثر، ومعروف التواثق مع راغب النشاشيبي وجماعته، فصارت أكثرية المجلس معارضة. وقد حاولت أن أقنع الحاج أمين بتقبل عضويته بقبول حسن، وكنت مأموراً لأوقاف نابلس اذ ذاك، وكان الصفاء قد عاد بيني وبين الحاج أمين، وكنت سابقاً اعرف الشيخ محي الدين ونزاهته وسلامة تفكيره وتحرره ووطنيته وغيرته، ولكن الحاج أمين كان يحقد عليه لانتقاداته له، ثم كان يعرف سلفاً أنه لا يمكن أن ينسجم معه، لأن الحاج أمين يهتم للمصالح والمآرب الخاصة، والشيخ لا يمكن أن يسايره في ذلك.

ولكن الحاج أمين بناء على ذلك أوعز لأنصاره وأنصار الحاج سعيد بالاحتجاج على تعيينه محل الحاج سعيد، وقابل الحاج أمين بنفسه المندوب السامي واستنكر تعيينه، ولكن ذلك لم يجد. وثبتت عضوية الشيخ معارضاً عنيداً دون أي تساهل ولا مسايرة، حتى فيما كان يتساهل ويساير فيه أمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي.

وكان سيء الظن فاقد الثقة في الحاج أمين في جرأته على الأعمال التي له فيها مصلحة حزبية مهما كان أمرها، وكان متشائماً جداً من هذه الناحية، ويكاد يظن أن كل ما يجري في المجلس إنما يجري من أجل هذه المصلحة. ومع أن بيني وبينه معرفة قديمة وصداقة وتواثق وانسجام في الأفكار والتفكير، فإن تشاؤمه كان يجره أحياناً الى الحذر من اقتراحاتي وتقريراتي. ومع أن أمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي كانا معارضين كما قلت، فإنهما لم ينسجما معه ولم ينسجم معهما لاختلاف الأمزجة، ومع أنه وطني في ضميره وسلوكه،

فإن ذلك لم يمنعه من الانسجام أحياناً مع راغب النشاشيبي وجماعته. في سبيل مكايدة الحاج أمين ولو على حساب الأخلاق القويمة والمصلحة الوطنية، وهذا مأخذ عليه بدون ريب. وظل على هذه الوتيرة إلى أن عزلت الحكومة الحاج أمين وأمين التميمي وعزلتني كما قلت، وقد أثبتته الحكومة في العضوية الى جانب أمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي وصار المجلس بذلك رهن أمرها.

الحاج سعيد الشوا:

الحاج سعيد الشوا توفي قبل استلامي مديرية الأوقاف العامة بقليل، ولكنني احتككت به وأنا مأمور أوقاف نابلس، فضلاً عن تعرفي به في أثناء مؤتمر فلسطين الأول سنة 1919 على ما شرحته سابقاً. وهو قوي الشخصية، وتفكيره عشائري، وفيه مع ذلك شيء من النضج الناشىء عن الزمن والتجارب. والمصلحة العليا والشخصية غالبة على تصرفاته، مع القول إن نزعته الوطنية سليمة. وقد انسجم مع الحاج أمين انسجاماً تاماً ومع الشيخ محمد مراد. وكان هذا الانسجام مما جعل الحاج أمين يحقق رغباته ومشاريعه ويجعل أفكاره هي الماشية. وكان طيعاً يماشي رغبات وأفكار ومصالح زميليه لأنهما معه في واجهة واحدة، وظل الحاج سعيد بعد الشيخ مراد لأن هذا توفي قبله، أقوى مؤيد للحاج أمين على طول الخط في كل قرار وفكر ومشروع، مع تنبيه واجب بسلامة مواقفه الوطنية السياسية.

الشيخ محمد مراد:

الشيخ محمد مراد، توفي قبل أن أشتغل في مأمورية أوقاف نابلس، ولكني احتككت به في ظروف العمل الوطني وفي ظروف عملي وفي مدرسة النجاح. ولقد كتبت عنه سابقاً كلمة، وكل ما يمكن أن أزيده هنا أن انطباعاتي عنه في سياق العمل في المجلس أنه كان مثل الحاج سعيد منسجماً مع الحاج أمين كل الانسجام، مع تنبيه واجب هو سلامة مواقفه الوطنية والسياسية مثله.

الحاج أمين الحسيني:

ولقد كتبت في دفتري القديم انطباعاتي عن الحاج أمين أيضاً نتيجة احتكاكاتي به وتعاملي معه في المجلس، فرأيت أن أثبت ذلك في هذا السياق، فيكون تتمة لما كتبته عنه سابقاً. ومما كتبته أنه لم يكن يتقيد بنظام وانتظام في عقد ومواعيد جلسات المجلس وأبحاثه ولقد كان يقدم للمجلس بطريقه (لأنه هو الرئيس) أوراق كثيرة، فما يكون عادياً أو ما يكون له فيه رأي إيجابي عرضه ومشى في المجلس وجلساته، وما كان غير مهضوم عنده أو ما كان فيه مناقضة مع رأي خاص له شخصياً أو سياسة محلية أهمله ودحره من جلسة الى أخرى دون أن يطرحه للبحث إلا بعد إلحاحات ومراجعات. وكان أحياناً في سبيل تمشيته رغباته وأفكاره ومقترحاته يساوم الأعضاء ويبادلهم بموافقات على رغباتهم وأفكارهم التي قد يكون فيها ما يتناقض مع الأولى، وليس نادراً أن مسائل وأوراق عديدة كانت تتأخر شهراً أو شهرين أو ثلاثة أو أكثر، ولا تطرح للبحث إلا بعد أن يستطيع إقناع عضوين بتمشية ما يراه ويفكره في صددها؛ وليس نادراً أن يؤخر أوراقاً ومسائل ليكون لبعض الأعضاء رغبة في تمشيتها، ولا يطرحها ويمشيها إلا بعد أن يضمن موافقتهم عل مسائل وأفكار وأوراق له في تمشيتها رغبة

ومصلحة، ورأي ايجابي، وليس نادراً أن يمر اسبوع أو اسبوعان أو ثلاثة دون عقد جلسات للمجلس بحجج متنوعة، لأن مسائل له لم يوافق عليها الأعضاء وله رغبة في تمشيتها. وكان بهذا التأخير يجعل بعض الأعضاء الذين لهم آراء إيجابية أو مصلحة أو رغبة في مسائل أخرى بين يدي المجلس يتساهلون في بعض ما يريدون لحمله على عقد الجلسات.

ولقد كان حريصاً على جمع كل شيء في يده وربطه بنفسه وتنفيذ رغباته، وقد صار أو حرص على أن يصير مرجع كل شيء وكل الناس. وصار المجلس يكتظ بمختلف الناس الذين يريدون الاجتماع به والتحدث معه في شؤونهم، سواء أكانت مما يتصل بأعمال المجلس والأوقاف أو لا يتصل، ويستغرق كل هذا وقته وجهده. وكان يهتم بتكتيل كتل مخلصة له حوله، وكان ذا حساسية شديدة بالنسبة لشخصيته ورغباته وسياسته المحلية والولاء لها، مع محاولة صبغ كل هذا بصبغة الوطنية. وكان طموحاً لسعة الاسم والنفوذ والصيت في الداخل والخارج. يضاف إلى هذا ما كان في محيطه من تيارات مختلفة موافقة ومعارضة وتزلف واستنكار ومكايد ودسائس، فكان لكل ذلك تأثير أيضا في كيان المجلس واسمه وأعماله، وكثيرا ما كان ينجم عن هذا التأثير فوضى وشلل وتعقيد. ومما سجلته في دفتري أيضاً أن الحاج أمين كان يشغل الوعاظ في الشؤون السياسية المحلية. ولقد اقترح توسيع دائرة الوعظ وزيادة عدد الوعاظ، ولم أر بأساً في الاقتراح لأنه مفيد مبدئياً وموضوعياً بالنسبة للتوعية الإسلامية والوطنية، ولكن الحاج أمين اهتم لتعيين أشخاص مرتبطين به، حتى يضمن ولاءهم به واشتغالهم في سياساته المحلية. ولقد أصبح الوعّاظ يرون أنفسهم عمّالاً له يسيرون وفق توجيهاته التي منها ما كان دعاية شخصية له ولقد وضع على رأس هذه الدائرة شخصين مصريين اسم أحدهما علي رشدي، وثانيهما الشيخ فهمي غريب، لا أدري ما الذي جاء بهما الى القدس. وكانا يحسنان الجدل، والأول أبرع وأشد في ذلك، وكان الحاج يتمسك بهما أشد التمسك، لأنهما من الأدوات التي كان يستغلها لدعاياته.

ومما سجلته في دفتري القديم أيضاً مسألة تعيين صفوة يونس الحسيني وعلي محي الدين الحسيني موظفين في المجلس دون أن يكون لهما مؤهلات وجهد في العمل الذي عُيّنا له، ولقد استطاع أن يأخذ من المجلس قراراً بإحداث وظيفة مأمور أراضي المجلس لتثبيت وتسجيل أملاك وعقارات أراضي الوقف في فلسطين وملاحقتها. واستطاع أن يأخذ قراراً بتعيين صفوة يونس الحسيني لهذه الوظيفة دون أن يسألني ويأخذ رأيي فيه، وقد فوجئت بالقرار فقلت له بصراحة إن صفوة لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل، ولكنه ظل يلح عليّ بالرجاء للموافقة أو السكوت، وأن لا أجعلها مسألة استقالة أو رفض فسكتّ ولكني لم أتعامل معه وظيفياً، وظل مرتبطاً بالرئيس، ولقد قضى في هذه الوظيفة سنتين دون أن يقوم بأي شيء جاد من واجباتها. ولقد استطاع أن يأخذ موافقة من المجلس على تعيين علي محي الدين الحسيني سكرتيراً للمجلس وليس لهذه الوظيفة صلة بعملي، ولقد كان الشاب ذا أخلاق حسنة ونشيطا، وهو متخرج من الجامعة الأميركية ولكنه لم يكن يحسن الكتابة بالعربية، وكانت وظيفته من صلب هذه الكتابة، وكان الحاج يستفيد من نشاطه في سياساته المحلية، غير

مهتم بما كان عليه محاضر المجلس من اغلاق وتشطيبات.

الموقف الصعب بين الحاج أمين وأكثرية أعضاء المجلس:

ومما سجلته في دفتري كتعليق على حالة المجلس بوجود الأعضاء الأربعة أي أمين التميمي وأمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي والشيخ محي الدين عبد الشافي، (أن الحاج أمين صار في موقف صعب، فأكثرية المجلس المتمثلة في أمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي والشيخ محي الدين معارضة، وأمين التميمي وإن كان صار منسجماً انسجاماً تاماً مع الحاج أمين بعد أن عاد الصفاء بيننا وبينه على ما شرحته سابقاً، فهو على كل حال ليس مثل الحاج سعيد الشوا والشيخ محمد مراد في مسايرة الحاج أمين في كل ما يريد ويرغب، لأنه كان يحب أن يلتزم المنطق والأصول والمعقول وما فيه صلاح أحوال المجلس الإدارية والمالية بقدر الإمكان، وكان هذا الموقف مما جعل الحاج أمين أقل حرية وأقل إصرار وإلحاحاً على تنفيذ ما يرغب).

انطلاقة الأعضاء المعارضين من نقطة كون الحاج أمين يتخذ المجلس وسيلة شخصية له:

ولقد كانت معارضة الثلاثة تنطلق أيضاً من اعتقادهم بأن الحاج أمين قد جعل من المجلس وموظفيه وميزانيته ودوائره وسائل لخدمة سياسته المحلية والشخصية، وأن مسالية المجلس والأوقاف ومعاملاتها وإدارتها لهذا السبب ترتكس في فوضى وحزبية وعدم نظام وانتظام وعدم اهتمام للمصلحة كثيراً، وبأن عليهم والحالة هذه أن يقابلوا كل مشروع واقتراح للحاج أمين بتحفظ وحذر، وأن يتأكدوا من أن يكون ما يقترحه ويطلبه أو يعرضه هو في سبيل المصلحة العامة، وليس فيه مصلحة حزبية خاصة. وكان كل هذا يؤدي الى توتر بين الحاج أمين وبينهم، ويكاد يجعل أشغال المجلس متوقفة ومشلولة. ووصل الأمر إلى أن أهمل الحاج أمين في فترة ما دعوة الأعضاء إلى جلسات، والى توقف المذاكرة في الميزانية مدة طويلة، لأن الأعضاء اقترحوا إلغاءات كثيرة لم يوافق عليها الحاج أمين، واعتبرها ضده. ومن ذلك إلغاء كتّاب مأموري الأوقاف، لأن المأمورين، كانوا حسب ظن الأعضاء يجدون بوجود كتاب عندهم وقتاً يصرفونه في الأمور الحزبية المجلسية.

شكايات الأعضاء على الحاج أمين وإنذارهم له وتدخل مصطفى الخالدي وعلي جار الله لتخفيف حدة التوتر بينهم:

وقد أرسل الأعضاء الثلاثة رسائل شكوى للمندوب ضد الرئيس وتصرفاته وإهماله لعقد جلسات للمجلس، وأرسلوا إليه إنذارات بواسطة كاتب العدل، وقد تدخل مصطفى الخالدي وعلي جار الله وهما قاضيان في المحاكم المركزية وكانا محترمين من الناس والحكومة ويتخذان موقف حياد مشوباً بالتعاطف مع الحاج أمين وبخاصة علي جار الله، وأظن أنهما في هذا الظرف كانا متقاعدين، واجتهدا في تقريب وجهات النظر بينهم وبين الحاج أمين، وكان من مطالب الأعضاء تعيين فاحص حسابات قانوني للتدقيق في حسابات الأوقاف، ووافق الحاج أمين على ذلك لأنه طلب معقول، ورفضه يثير الشك والريب. ولم ينفذ إلا بعد أن تم الاتفاق مع الحكومة على المبلغ المقطوع عن الأعشار الوقفية، وكان هذا مما طلبته

الحكومة أو وعدها به المجلس، ولعل فكرتها منهم أو من الحكومة لهم، كما أوردنا سابقاً.

كانت تلك الحالة قبل استلامي العمل وتحسنها نتيجة لطمأنينة الأعضاء بنزاهتي وجدي:

وكان هذا التوتر ومعمعة الشكاوى والإنذارات قبل تعييني للمديرية، وكانت الحالة أخف مما كانت عليه حين استلامي العمل نتيجة لمساعي الخالدي وجار الله، ولكن الحذر والتحفظ وأحياناً التوتر كان ما يزال محسوساً. وفي ظني أن استلامي لمديرية الأوقاف كان عاملاً في تخفيف الحدة أيضاً، فالمجلس بإجماعه وافق على تعييني وشروطي التي جعلت قبولي للعمل بها صادفت ارتياحاً في نفوسهم، وكان الثلاثة فاتحوني وعرضوا علي العمل اعتقاداً منهم على ما لمّحت أني أستطيع أن أحمل العبء بنزاهة وقوة، وأني لن أقترح شيئاً، ولن أقدم تقريراً، ولن أباشر عملاً إلا بعد درس وترجيح يتفق مع المصلحة العامة، بقطع النظر عن اتفاقه مع وجهة نظر الحاج أمين أو عدم اتفاقه، وأن الحاج أمين لن يستطيع أن يجعلني آلة في يده ومنفذاً لرغباته.

وقد تحقق ظنهم بفضل الله وتوفيقه، فقد التزمت بشروطي وجعلت الرئيس والأعضاء يحترمونها ويقفون عندها، وحملت من أعباء العمل هماً ولا سيما في أيامي الأولى ما لا عهد لأحد في المجلس بحمله بموضوعية وتجرد وجهد وتعمق ودراسة كل شيء.

الجهد العظيم الذي صرت أبذله وتجاوب المجلس مع معظم اقتراحاتي وطلباتي:

وأستطيع أن أقول إن الأعضاء أصبحوا مكفيين مؤونة الحذر والتحفظ، وأصبحت المعاملات التي تقدم مني تمشي بدون ذلك، و95٪ منها كان يحظى بموافقة المجلس، و5٪ كان يرجع إما للإتمام واستيفاء الدرس أو بسبب اجتهاد بريء من الأعضاء. وقد تحاشى الحاج أمين أن يتدخل في أعمالي، وأن يطلب مني ما لا تكون المصلحة العامة فيه ظاهرة. وإذا كان له رأي أو رغبة كلمني به مع ترك حرية النظر والاجتهاد لي إلا نادراً، مثل تعيين صفوت الحسيني الذي ذكرت خبره قبل. وطبعاً كانت اقتراحات ومشاريع فيها مصلحة وفائدة، فكنت أوافق عليها وأضعها في إطارها المعقول الأصولي، وأقدمها للمجلس مدروسة جاهزة فتمشي دون صعوبة.

ضبط الميزانية في أوقاتها مما لم يكن سابقاً:

وصرنا نتمكن من وضع الميزانية وتصديقها قبيل دخول السنة، في حين أنها كانت ولا سيما في السنوات الثلاث الأخيرة قبلي تتأخر أسابيع بل وأشهر بعد دخول السنة.

ضبط القيود والحسابات:

ولقد توفقنا في خلال سنتي 1932 و1933 من ضبط القيود والحسابات والحالة المالية توفيقاً كبيراً.

منع الشذوذ والفوضى في الصرفيات:

لم أسمح قط لمصروفات فوضى وكيفية وغير أصولية وخارجة على الميزانية مما كان يسمى قبلي (صرفيات مؤقتة) والتي كادت تكون كارثة لكثرتها، ولم يعد هناك تقديرات لإيرادات وهمية، لتضخيم أقلام الإيرادات لوضع أقلام مصروفات مقابلها، فتصرف المصروفات ولا تتحقق الإيرادات، ويكون عجز، وهو ما كان قبلي أيضاً، بل صرنا نقدر الإيرادات أقل من

المتوقع من باب الاحتياط، ونقدر المصروفات وفق ذلك، واستطعنا:

أولاً: تسديد جميع الديون المترتبة على المجلس للمتعهدين ورواتب الموظفين.

وثانياً: رصد مقابل نقدي للودائع والأمانات التي كانت مقيدة على الأوقاف ومتصرفاتها.

ثالثاً: توفير مبالغ احتياطية بلغت في آخر سنة 1933 تسعة آلاف جنيه، وفي آخر سنة 1934 خمسة عشر ألف جنيه، وفي آخر سنة 1935 واحداً وعشرين ألف جنيه. وكان هذا حلماً لم يسبق له مثيل في حياة المجلس نتيجة شدة الربط والضبط والتدقيق والاحتياط التي التزمتها وجعلت المجلس يلتزمها معي، وقد أوحى هذا الوفر للمجلس الإقدام على بعض عمليات شراء الأراضي المشاع المعرضة للخطر اليهودي على ما سوف أشرحه آتياً.

إنشاء مكتبة الأقصى:

ومما تم في عهد مديريتي إنشاء مكتبة الأقصى، فقد كان في بعض غرف الحرم كتب ومخطوطات متنوعة مبعثرة، فاقترح الحاج أمين جمعها وجمع أمثالها في مكتبة، فحبذت الاقتراح وقدمته للمجلس ووافق عليه وعلى إنشاء وظيفة أمين مكتبة وشراء بعض الخزائن معاً، وخصصنا قاعة كبيرة في الحرم وضعنا فيها الخزائن والكتب.

تعيين الأستاذ عادل جبر لها وشيء عنه وعن جهده:

وتم اختيار الأستاذ عادل جبر أميناً للمكتبة، واهتم هذا لجمع المبعثرات من كتب ومخطوطات في غرف الحرم والمساجد والزوايا، حتى صار في مكتبة الأقصى نحو بضعة آلاف كتاب، وصارت مرجعاً لا بأس به، وكان مما استطعنا أن نظفر به ونضعه في المكتبة أجزاء مصحف مذهبة مفضضة مزخرفة مخطوطة لها صندوق مفضض مذهب مزخرف، كانت تسمى (الربعة)، وتعود إلى القرن الرابع أو الخامس، ويعزى خطها إلى أحد ملوك بني مرين التونسيين، وكانت مع الأسف ناقصة جزئين أو ثلاثة، قيل إن بعض المستشرقين اشتروها من بعض سدنة الحرم وهربوها.

والاستاذ عادل جبر أسن مني قليلًا، وهو من يافا، حسن الثقافة والاطلاع وكاتب ذو قلم شيق، وكان يكتب بعض الفصول الأدبية والسياسية في الصحف. وبرز مثقفاً أديباً في عهد شبابه في زمن الدولة العثمانية، ثم في أوائل الإحتلال. وغدا من أدباء فلسطين المرموقين. وكان ذا أخلاق حسنة، وشعوره الوطني والقومي صادقاً، ولم يكن يغلو في النشاط والحركات، فبقي على هامش الحركة الوطنية دون تغلغل إلى أن توفي في الأربعينات رحمة الله عليه.

اكتشافه مكان انطلاق للفدائيين في زمن الصليبيين في وادي الجوز ومشاهدتي للمكان ووصفه:

ومما أذكره له أنه أخبرني أنه اكتشف أو عرف أن في وادي الجوز (وهذا مكان خارج سور القدس) مكان كان ينطلق منه الفدائيون في زمن الحروب الصليبية للعمل الفدائي، وذهبت معه لمشاهدة هذا المكان، وكان غرفة كبيرة في عمق من الأرض ينزل اليها بدرجات يمكن أن تكون في الأصل محل جمع ماء المطر، وجدرانها مجصصة تجصيصاً حسناً لا يزال محتفظاً بتماسكه وجِدّته، وعلى جدرانها كتابات

محفورة برؤوس السكاكين أو الحراب على الأرجح، أراد كاتبوها أو حافروها تسجيل انطلاقهم للجهاد. وقرأنا في إحداها (انطلق هذه الليلة حمزة بن محمد للجهاد في سبيل الله). وبعد هذه الجملة شيء منحوت يمكن أن يكون اسم اليوم والشهر والسنة لم يعد يمكن قراءته. وقرأنا جملاً عديدة مماثلة محفورة في الجدران بأسماء آخرين.

وأعود بعد هذا الإستطراد لسيرة عملي في الأوقاف فأقول إنه قد لا يكون كل شيء أصبح على ما يرام، لأن كثيراً مما كان من أعمال المجلس كان ينبع من مزاج الرئيس والأعضاء، وهذا المزاج جزء منهم، غير أني أستطيع أن أدعي أن الشؤون المالية والإدارية والديوانية المتصلة بالأوقاف في القدس والمراكز الأخرى ضبطت ضبطاً حسناً بما لا يقاس عليه بما كان قبل استلامي للمديرية.

خلافي مع المجلس في صدد الزاوية الأسعدية وموسى العلمي:

ومما سجلته في دفتري القديم خلافي مع المجلس في مسألة الزاوية الأسعدية، وما كان من إصراري على رأيي المخالف لقرار المجلس، وما كان من تراجع المجلس عن موقفه نتيجة لذلك. واستطراداً إلى ذكر تقاليد بعض الأسر في بعض الأماكن والمواسم في القدس وخارجها.

شيء عن الزاوية الأسعدية وعن الطور الذي هي فيه وأهميته عند النصارى وأديرتهم وعيدهم وتقاليدهم فيه وفي مكان الزاوية:

وتقع هذه الزاوية في الطور الذي هو أمام القدس، والمعروف بطور زيتا، وفيه قرية (الطور)، وفي ساحة ملاصقة لبناء الزاوية حجر فيه علامة تشبه القدم تقول التقاليد المسيحية إنها قدم المسيح، وأنه صعد إلى السماء من على هذا الحجر، فترك أثر قدمه عليه.

وقد وضع المسلمون يدهم عليه في زمن قديم، وبنوا حوله مسجداً صغيراً، وكان مزاراً للمسيحيين، ومفاتيحه في يد المسلمين، وتقيم الطوائف المسيحية عيداً سنوياً في هذه الساحة أظن أنه يسمى عيد الصعود، ويوجد في الساحة لكل طائفة منطقة خاصة بها. وأراضي الطور ولا سيما المجاورة لهذا المكان، يتهافت عليها المسيحيون تهافتاً دينياً، وقد تملكوا بأساليب شتى من زمن الدولة العثمانية مساحات كثيرة. ومنها ما هو قريب أو حول مكان ساحة الصعود، وابتنوا كنائس وأديرة فيما اشتروه، ومن جملة الكنائس المهمة لهم في الطور كنيسة فيها مغارة قديمة، من تقاليد المسيحيين أنها المغارة التي كان المسيح يعلم فيها تلامذته كلمات (ابانا الذي في السموات...)، وقد كتبت هذه الكلمات بنحو ثلاثين لغة على بلاطات كبيرة مزينة، ورصعت على مدار أحد جدران هذه الكنيسة الداخلية.

وفي الطور مكان للروس يسمى (المسكوبية)، قام على آثار بنايات قديمة اكتشفت في أرضية منها فسيفساء جميلة تمثل بعض الحيوانات والطيور. ولهذه الكنيسة برج عال للناقوس، يصعد إليه بسلم حديدي لولبي أو حلزوني على طريقة مآذن المساجد في نحو (100) درجة وأكثر. وقد صعدتها إلى أعلى البرج في إحدى جولاتي وكان المنظر رائعاً.

فهذه التقاليد المسيحية جعلت كما قلت للطور وأرضه أهمية، وقد فطن لها أحد المشايخ المسلمين أسمه الشيخ أسعد، فأنشأ في زمن متقدم نوعاً ما من عهد الدولة العثمانية وفي جوار

ساحة المصعد زاوية سميت بالزاوية الأسعدية. واستطاع أن يشترى بعض الأراضي المجاورة لها ويوقفها على الزاوية صيانة لإسلامية الأرض ومنعاً لتسربها للمسيحيين والأجانب.

اهتمام الملوك والأمراء المسلمين لأماكن القدس المختلفة لحمايتها من المطامع:

وهذا خطر كان يتراءى للمسلمين الطيبين القدماء من أمراء وملوك ومشايخ، فجعلهم يحيطون الحرم القدسي بعمارات جعلوها وقفاً إسلامياً، وجعلهم يوقفون كثيراً من القرى في فلسطين، فلا تباع لأحد من جهة، ويكون ريعها للخيرات والمعاهد الإسلامية من جهة أخرى.

ولاية العلمي للزاوية ونزع يدهم عنها في زمن الدولة العثمانية:

وكان رجل من آل العلمي استطاع أن يحصل على وظيفة مشيخة الزاوية والنظارة على أوقافها، وانتقلت إلى ذريته. ويظهر أن بعض المسيحيين حاولوا شراء بعض أراضي الزاوية، وأن الحكومة العثمانية لمحت أن ناظر الزاوية مستعد لإنجاز هذه المحاولة، فرفعت يده عن الزاوية وأوقافها، أو ضبطتها حسب الاصطلاح، وسلمتها لدائرة الأوقاف في القدس. وظل الأمر كذلك إلى أن قام المجلس الإسلامي، فبدا لآل العلمي أن يسعوا لاسترجاع إشرافهم على الزاوية وأوقافها، لما في ذلك من وجاهة دينية من جهة، ومنافع مادية متنوعة من جهة أخرى.

طلب موسى العلمي إعادة الولاية لأسرته وشيء عنه:

وكان موسى العلمي بارزاً في الأسرة، وهو ابن فيضي العلمي زعيم الأسرة في زمن الدولة العثمانية وصار نائباً في المجلس النيابي العثماني عن القدس، وأظن أنه كان لفترة ما رئيساً لبلدية القدس، وكان موسى قد تخرج من إحدى الجامعات الإنكليزية وصار موظفاً كبيراً في عهد الإنتداب أسوة بأبناء الأسر العريقة على ما شرحناه قبل، وفي ذهني أنه كان قبل استلامي لمديرية الأوقاف سكرتيراً عربياً للمندوب السامي واكهوب، الذي حل المشكلة المالية للمجلس، وهو أي موسى دمث، وكان يتعاطف مع القضية الوطنية والقضايا الإسلامية، وكانت صلاته حسنة مع الحاج أمين ومع أعضاء المجلس معاً، وجمال الحسيني زوج اخته. وقد استجاب موسى لرغبة وتحريض رجال أسرته، فقدم طلباً إلى المجلس بإعادة إشراف اسرته على الزاوية وأوقافها وتعيينه ناظراً عليها، وأخذ يراجع الحاج أمين والأعضاء في سبيل إنجاز ذلك، وكان الحاج أمين يداوره، فهو لا يحب أن يغضبه بسبب مركزه وتعاطفه وخدمته للمجلس، ولا يجرؤ على مسايرته في طلبه تحسباً للعواقب. وأبقى طلبه بين أوراق المجلس دون أن يطرحه للبحث، (وكان ذلك في سنة 1932)، ثم سافر الحاج أمين في أواخر هذه السنة 1932 الى الهند لجمع التبرعات لمشاريع المؤتمر الإسلامي على ما ذكرته قبل وناب عنه في الرئاسة أمين التميمي.

قرار المجلس بإجابة طلبه رغم رأيي المخالف لذلك:

وضاعف موسى جهوده في غياب الحاج أمين، مع أمين التميمي والأعضاء، حتى أقنعهم بالسير في الأمر، فطرح طلبه للبحث وقرر المجلس أولاً إحالته إليّ لإبداء رأيي. وكان رأيي أن إجابة هذا الطلب غير جائزة من وجهة نظر قانون المجلس الذي ينص على أن من

مهام المجلس وضع يده على كل ما يمكن من الأوقاف والمعاهد الإسلامية الخيرية الخارجة عنها، وهذا يعني أنه لا يجوز له أن يخرج من يده ما هو داخل فيها من ذلك، وهذا فضلاً عن أن إجابة الطلب ستكون سابقة خطيرة على الأوقاف والمعاهد الإسلامية التي تحت إشراف المجلس، وكان كثير منها تحت إشراف أسر مقدسية وغير مقدسية. وقد شرحت رأيي هذا وطلبت من المجلس ردّ الطلب. ولكن المجلس برغم ذلك وبدون أن يكون عادة أو سابقة له بإعطاء قرارات بشأن توجيه توليات ونظارات أوقاف خاصة، وبدون أن يكون ذلك من صلاحيته، لأن هذه الصلاحية منوطة بالمحاكم الشرعية، قرر تسليم الزاوية وأوقافها إلى متولٍ، وتعيين متولٍ وفقاً للأصول، وكانت هذه الصيغة هي المدخل لتعيين موسى أو أحد أفراد أسرته، وجاءني القرار من وكيل الرئيس لتنفيذه.

رفضي لتنفيذ القرار وانصياع المجلس في النهاية لرأيي وشرح رأيي هذا:

فرفضت ذلك بتقرير مسهب، وكان قانون المجلس سنداً قوياً لي، ومن العجيب أن أمين التميمي وأعضاء المجلس لم ينتبهوا له، وكان فيه نص على أن وظائف التوليات الشاغرة لا توجه على أحد، وأن الأوقاف الخيرية التي تشغر توليتها تضبط وتدار من قبل دائرة الأوقاف، وأن من وظائف المجلس الأساسية البحث عن الأوقاف الخيرية وصيانتها وضبط شواغرها واستثمارها مباشرة، وذكرتُ بالإضافة إلى نصوص القانون أن الزاوية الأسعدية وأوقافها مضبوطة منذ العهد العثماني، وأن إيراداتها تدخل في صندوق الأوقاف كسائر ايرادات الأوقاف، وأن دائرة الأوقاف التي تقوم بواجباتها نحو الزاوية بالترميم والصيانة والفرش ومرتب إمام المسجد فيها. وقلت في تقريري إن جميع الأوقاف الخيرية كانت قبل عشرات السنين في يد المتولين، فإذا نفذ القرار انفتح الباب لأسر المتولين السابقين بطلب إعادة توليتهم وأيديهم عليها.

وهذه الأوقاف صارت مجموعها هي الأساس الذي قامت عليه تشكيلات الأوقاف في زمن الدولة العثمانية ثم المجلس الإسلامي، ويضاف إلى كل هذا أن الزاوية وأوقافها ذات خطورة خاصة، وأن إخراجها من يد المجلس وتسليمها لأسرة العلمي سيعرضها للخطر، ولا سيما أن الحكم القائم ليس إسلامياً، وليس للمجلس قوة تنفيذية يستطيع منها أن يمنع تدخل السلطات ويمنع بالتالي ما قد تتعرض له الأوقاف التي تكون في أيدي متولين خصوصيين من خطر، وقلت لهم في نهاية التقرير إن المجلس لا يملك حق نزع أي وقف من يده وتسليمه الى شخص قانونيا وشرعا، وأن قراره والحالة هذه غير شرعي وغير قانوني ولا يمكنني تنفيذه. وطلبت تأليف لجنة شرعية وقانونية لدرس الموضوع من وجهة مبدئية، والموافقة على تأجيل التنفيذ على الأقل إلى أن تقدم اللجنة تقريرها إليه. وكان تقريري مسهباً وصممت على عدم تنفيذ القرار ما دمت مديراً للأوقاف مهما أدت اليه النتيجة، لما في ذلك من خطر واضح وخطأ فاضح.

ولما استلم أمين التميمي تقريري وافق على وقف التنفيذ، وأحال الأوراق إلى الشيخ توفيق الطيبي مفتش المحاكم الشرعية للتدقيق وإبداء الرأي، وكان رأي هذا مطابقاً لرأيي. وحينئذ أحال أمين التميمي المسألة مرة ثانية إلى

المجلس، وقرأ الأعضاء تقريري وتقرير الشيخ توفيق، فلم يسعهم إلا السكوت ووقف الأمر عند ذلك. وقد علمت أن أمين عبد الهادي وجمال الحسيني الذي كان اذ ذاك سكرتيراً للمجلس كانا وراء قرار المجلس الأول، وجمال ساير مصاهرته لموسى العلمي، وكان ذلك غير مبرر أخلاقياً أيضاً. وأمين عبد الهادي ساير موسى بسابق حكوميته، ووقع في التناقض لأنه كان دائماً يظهر أنه يحب التزام الأصول والقانون. وعبد الرحمن التاجي لا يهمه قانون ولا أصول. ولموسى العلمي مركز في الحكومة، فرأى أن لا يغضبه.

وأعجب ما في الأمر أن الشيخ محي الدين كان من الموافقين على القرار السابق، ومن العجب أيضاً أن يكون أمين التميمي من الموافقين عليه. وهكذا فضحت هذه المسألة تناقضات ونقاط ضعف جميع الأعضاء مع سكرتير المجلس. ولا أعرف يقيناً حقيقة موقف الحاج أمين، ولكن من جهة أرجح أنه في قرارة نفسه يفضل بقاء الزاوية في حيازة الأوقاف، ومن جهة لا أستبعد أنه لم يكن ليغضب لو نفذ قرار المجلس في غيابه وآلت ولاية ونظارة الزاوية وأوقافها الى موسى العلمي، استناداً الى ما أعرف من مزاجه، فلا يكون هو قد تحمل مسؤولية القرار ويكون موسى العلمي قد رضي.

مراجعة موسى العلمي وإنذاره للمجلس دون جدوى:

ولم يسكت موسى العلمي، فلما رجع الحاج أمين راجعه، ولكن الحاج أمين لم يكن في إمكانه أن ينقض تقريري وتقرير الشيخ توفيق، فلم يستجب للمراجعة، فأرسل موسى إخطارا للمجلس بواسطة كاتب العدل، وبإمضاء عمر الصالح البرغوني كوكيل له يهدّد بإقامة الدعوى ضد المجلس إذا لم يستجب لطلبه، ولكن المجلس ظل على موقفه، ووقف جهد موسى عند هذا الحد لأنه لا بد من أنه يعرف أن قضيته خاسرة قانونياً وشرعياً، وأن تهديده إنما كان للتهويل.

حرد موسى عليّ وعلى المجلس:

وقد حرد موسى عليّ وعلى المجلس، وصار يشكوني لبعض أصدقائي، وقاطعني ولم يكن لي صلة وثيقة به قبل، فلم أبال بذلك. وكان يوصف بدماثة الخلق وحسن المعشر بالإضافة إلى حسن النية وسلامة الطوية. ولقد كان هذا حرياً بأن يجعله لا يورط نفسه في هذه المسألة، وأن يدرك مدى خطورتها. ويظهر أنه رغم تلك الصفات الحسنة كان فيه نقطة ضعف ما، وقد تكون هذه النقطة إسم الأسرة وتقاليدها؛ وقد سمعت أنه كان يعتبر حرمان أسرته من تقاليدها، بينما تتمسك الأسر الأخرى بتقاليدها إهانة، وأنبّه على أن يد آل العلمي لم تنزع بالمرة من الزاوية الأسعدية منذ زمن الحكم العثماني، ففيها قبر لأحد أجدادهم، وواحد منهم يسكن في الزاوية مع أسرته ويقوم بخدمتها بمرتب من الأوقاف، ولكن التولية هي التي نُزعت، وحاول آل العلمي استعادتها بطريق موسى.

وتتمة للكلام عن موسى أقول إنه ظل على حرده مني ومن المجلس بقية المدة التي قضيتها مديراً للأوقاف، ولقد خرجت من القدس في أيلول سنة 1937 لأجل مؤتمر بلودان الذي تقرر عقده للاحتجاج على التقسيم، واشتد التوتر في فلسطين بعد قليل بقتل حاكم الناصرة، ووضعت السلطات يدها على المجلس وعزلتني مع الحاج أمين وأمين التميمي، ولجأ الحاج

أمين الى لبنان، وكنت أنا في دمشق وأتردد عليه.

لقاؤنا عند الحاج أمين في لبنان وتصافينا:

فالتقيت عنده في منزله في ضواحي جونية بموسى العلمي، ولا أعرف كيف ولماذا خرج هو الآخر من فلسطين، فتصافحنا وتصافينا.

جهده في سبيل الثورة واختياره عضواً عن فلسطين في مؤتمر لندن:

وكان له يد في تدبير موارد للثورة التي اندلعت في فلسطين وتأججت، وتوليتُ أنا تموينها وتأجيجها من دمشق، والحاج أمين من لبنان على ما سوف أشرحه بعد، وقد استمر في تعاونه معنا، واختارته اللجنة العربية العليا من جملة من اختارته لتمثيل فلسطين في مؤتمر لندن الذي دعت إليه الحكومة الإنكليزية فلسطين وحكومات مصر والعراق والأردن والسعودية واليمن في أواخر سنة 1939، بعد أن أعلنت إلغاء التقسيم الذي اقترحته اللجنة الملكية، ونشبت الثورة ثانية ضدها على ما سوف نزيده شرحاً.

ذهابه للعراق واتفاقه مع جمال علي قبول عرض انكليزي ونقمة الحاج أمين عليه:

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية لجأ الحاج أمين من لبنان إلى العراق، ولجأ الى العراق كثير من الفلسطينيين، وكان موسى ممن جاء الى العراق، وكان في العراق جمال الحسيني أيضاً. وأثناء الحرب، وقبل نشوب ثورة رشيد عالي الكيلاني جاء الى بغداد أحد رجالات الانكليز واسمه نيو كامب واتصل بجمال وموسى وعرض عليهما أن يتحركا أو تتحرك اللجنة العربية العليا من أجل تنفيذ الكتاب الأبيض الذي كانت الحكومة الانكليزية أصدرته عقب انقضاض مؤتمر لندن 1939 بدون نتيجة، ووعدت فيه بانشاء حكم وطني دستوري يصل خلال عشر سنين الى معاهدة بين فلسطين وبين بريطانيا، ويكون لليهود فيه الثلث، وكانت اللجنة العربية العليا رفضته لما فيه من ثغرات جعل احتمال البر بالوعد ضعيفاً أو مشكوكاً فيه. وكنت أنا آنذاك مسجوناً في دمشق بحكم من المحكمة العسكرية الإفرنسية، وحينما خرجت من السجن سمعت أن جمالاً وموسى وافقا على طلب نيو كامب، مما أثار نقمة الحاج أمين عليهما، لأن موافقتهما كانت بدون علمه ورأيه، ثم نشبت ثورة رشيد عالي ضد الإنكليز، وكان للحاج أمين والفلسطينيين ضلع كبير فيها، واستطاع الإنكليز بمساعدة الأمير عبد الله قمع الثورة، ففر الحاج أمين الى إيران ومنها الى أوروبا وقبض الإنكليز على جمال ونفوه الى روديسيا.

عودته الى فلسطين واختياره ممثلاً لها في جامعة الدول العربية:

واختفى موسى أو فَلَتَ ثم عاد سنة 1943 إلى فلسطين مع من عاد أو سمح له بالعودة من رجالات الأحزاب الفلسطينية ومنهم عوني عبد الهادي والدكتور حسين الخالدي وأحمد حلمي وإميل الغوري، واستأنف هؤلاء مع رجال الحركة الوطنية الآخرين نشاطهم؛ وفي أثناء ذلك قامت حركة المفاوضات في سبيل الوحدة العربية التي أسفرت عن إنشاء منظمة جامعة الدول العربية، وكان في ميثاقها بند ينص على اعتبار فلسطين عضواً من أعضائها، على أن يختار مجلس الجامعة ممثلاً عنها إلى أن تقوم الدولة الفلسطينية، وطلب رجال الحكومات

العربية من رجال الأحزاب الفلسطينيين إرسال شخص يمثل فلسطين في المفاوضات ثم في المنظمة فاتفقوا على موسى العلمي.

تخصيص العراق (300000) دينار للدعاية لفلسطين وإنقاذ أراضيها ووضعها في تصرف موسى:

وكانت وزارة العراق إذ ذاك برئاسة نوري السعيد، فقررت تعضيد القضية بثلاثمائة ألف دينار لإنشاء مكاتب للدعاية وشراء الأراضي المعرضة للخطر، وسمي هذا العمل (المشروع الإنشائي)، وجعلت المبلغ تحت يد موسى العلمي ممثل فلسطين في الجامعة، ويظهر أن العراق أراد إبراز موسى كزعيم بديل عن الحاج أمين الذي كان آنئذ في أوروبا، لأنه يحقد على الحاج أمين لضلوعه مع ثورة رشيد عالي، ولأنه كان يرى في موسى رجلاً معتدلاً دمثا مقبولا لدى الأحزاب الفلسطينية ولدى الإنكليز معاً؛ ولقد تقبل موسى الأمر واستلم المبلغ وأنشأ مكتباً للدعاية في لندن وآخر في نيويورك ومركزاً في القدس، وتعاقد مع بعض الملاكين على شراء بعض الأراضي، وأنشأ مكتباً وجهازاً في فلسطين باسم (المشروع الإنشائي)، وهكذا مشى المشروعان بالمال العراقي، وبدا موسى العلمي زعيماً بارزاً.

وأطلق الانكليز سراح جمال وعاد الى فلسطين سنة 1944 واستأنف النشاط السياسي مع رجال الأحزاب الأخرى، وأحيا حزبه (الحزب العربي) وما لبث أن نشب خلاف بين الأحزاب، وتدخلت الجامعة العربية وتمكنت من حله بإنشاء الهيئة العربية العليا على أساس إثنين من رجال الحزب العربي وإثنين من رجال الأحزاب الأخرى، مع ترك الرئاسة شاغرة للحاج أمين حينما يعود. وكان جمال الحسيني وإميل الغوري من الحزب العربي، وأحمد حلمي والدكتور حسين الخالدي من الأحزاب الأخرى، وكان ذلك في حزيران سنة 1946.

مطالبة الحاج أمين لموسى بالتخلي عن المشروعين والمال للهيئة العربية وما جرى بينهما بسبيل ذلك:

وبعد فترة قصيرة عاد الحاج أمين واستلم الرئاسة ووسّع الهيئة فدخلها خمسة أعضاء جدد، هم أنا ومعين الماضي ورفيق التميمي وإسحق درويش والشيخ حسن أبو السعود، وصارت الهيئة تختار من أعضائها ممثلاً لفلسطين في جامعة الدول العربية. ولم يعد موسى ممثلاً لفلسطين فيها، ولكنه ظل القيّم على المشروعين الممولين بالمال العراقي ومستمراً في النشاط بسبيلهما، فطلب الحاج أمين منه التخلي عنهما وعن ما بقي في يده من مال للهيأة العربية، ولم يوافق العراق وأنذر موسى والجامعة العربية أنه إذا تخلى عن المشروعين والمال للهيئة العربية فإنه يسحبهما منه، لأنه اعتمده شخصياً للأمر، فتمسك موسى بالمشروعين ولم يقبل بالتخلي، ولكن الحاج أمين أصرّ عليه بالتخلي ولو سحب العراق المال لأن الهيئة هي المختصة بشؤون فلسطين، وأصرّ موسى على رفضه فوقعت الواقعة بينه وبين الحاج أمين وصار هذا يحمل عليه حملات شديدة ويتهمه بالخيانة والمؤامرة على قضية فلسطين وتصفيتها. وكان بيني وبين الحاج أمين مشادّة بسببها، وقلت له إن اتهاماته له بالخيانة والمؤامرة ظالمة، وكان صديقاً وحليفاً لك ومنسجماً معك وعندما كان موظفاً في حكومة الإنكليز وبعدها، ومعتمداً من الأحزاب، ولا

يصح اتهامه بذلك، ولكنه بقي على موقفه منه، وبقي موسى على موقفه.

وظللت على صفاء معه، ولقد أجريت لي عملية جراحية في بيروت فجاء وزارني، ثم جاء الى دمشق سنة 1952 فزارني وكان هذا آخر لقاء بيننا.

مدرسة الزراعة والأيتام التي أنشأها في أريحا ومصيرها:

وعلمت أنه أنشأ بما بقي في يده من مال مزرعة في غور أريحا وجعل منها مدرسة لأيتام فلسطين وكان مشرفاً عليها، وسارت سيراً حسناً إلى الاحتلال اليهودي الجديد في حزيران 1967، حيث عطل اليهود كثيراً من أعمالها. ولا يزال مقيماً في أريحا.

تقاليد أسر القدس المدنية الأخرى:

وفي ظروف وجودي في مديرية الأوقاف عرفت تقاليد أخرى من باب تقليد آل العلمي في الزاوية الأسعدية لآل العلمي وغيرهم، وقد سجلت ذلك في دفتري ورأيت من المفيد إثباته كما يلي:

تقليد الأسرة العلمية في الخانقاه وشيء عنه وما جرى في صدده:

من ذلك تقليد لآل العلمي أيضاً، وهو ولايتهم لما يسمى باسم (الخانقاه)، وهو بناء كبير فيه غرف في دوائر عديدة، وفيه مسجدان واحد كبير نوعاً ما وواحد صغير، وفي الأصل كان كما يقال مسكناً لبطاركة الروم في عهد صلاح الدين الأيوبي وقبله، وهو متصل بكنيسة القيامة بمدخل خاص ما زال أثره إلى اليوم وهو ملاصق حجرياً بالكنيسة جدراناً وسطحاً بل وما زالت بقايا الأبنية القديمة المشابهة لأبنية الكنيسة ظاهرة التداخل بالخانقاه إلى الآن، والمتبادر أن صلاح الدين أو خلفاءه وضعوا يدهم على المكان وأنشأوا فيه هذين المسجدين والدوائر الملحقة بهما، وجعلوها أو صارت مسكناً لأصحاب الطريقة الرفاعية ومأوى للطارقين منهم على أسلوب الأديرة المسيحية، وتأثراً بها في الغالب، وأوقفوا أوقافاً عديدة للإنفاق على إطعام الطعام فيها، واستمرار عمرانها بالصلوات والأوراد والرواد المصلين المقيمين وغير المقيمين، ومنذ مئتي سنة أو أكثر تمكن أحد رجال آل العلمي من أخذ التولية والنظارة على هذا المكان وأوقافه، ويظهر أنه كان من بعضهم تلاعب حيث تواطأ بعضهم مع رجالات الكنيسة وتخلوا لهم عن بعض أقسام من الخانقاه، واعترفوا لهم أنها من أملاك أو ملحقات الكنيسة، وحيث أن بعض رجال آل العلمي اعتبروا بعض أقسام الخانقاه ملكاً عادياً لهم وتصرفوا فيها وما يزالون كذلك، ويظهر أنه كان بينهم بسبب الخانقاه ومنافعها المتنوعة تحاسد وتنازع وشكايات، فأدى ذلك إلى نزع يدهم عن ولاية ونظارة الخانقاه وأوقافها، وجعلها في نطاق إشراف وإدارة الأوقاف، وكان ذلك في زمن الدولة العثمانية، وصار الخانقاه وأوقافه تحت إشراف المجلس والأوقاف وبالتالي في العهد الانتدابي، كما كان شأن الزاوية الأسعدية.

وكان آل العلمي وظلوا يتطلعون الى إستعادة ولايتهم عليها كما كان شأنهم بالنسبة للزاوية الأسعدية، على أن الأمر في الخانقاه ظل كما هو الأمر في الأسعدية، فالتولية والنظارة المباشرة هما اللتان انتزعتا من أيديهم، وظل

بعضهم يسكنون في بعض دوائرها ويقومون بخدمة مسجديها بمرتب من الأوقاف. ولقد أقدم أحد الساكنين في ظروف قيام المجلس الإسلامي على عمل خياني فظيع من نوع ما كان سابقاً، حيث تواطأ مع رجال الدين الملاصق مباشرة للمسجد العلوي وسمح لهم بإدخال بعض الغرف القديمة المتصلة بالمسجد من جهة وبالدير والكنيسة من جهة ثانية، ويعرف باسم (الخلوة)، الى الدير، وسد باب الخلوة بالإسمنت وفتح باب جديد لها على الدير. وكان المباشر لهذه العملية (فايز العلمي)، وقد قبض مقابل ذلك كما قيل ثلاثة آلاف جنيه، وبلغ خبر ذلك للحاج أمين. ومن المحتمل أن يكون الخبر من أقاربه حسداً له على ما أخذه من المال. وقد تحمس الحاج أمين وقام بأمر فيه جرأة، حيث أرسل حشداً من الخدم والمشايخ والبنائين ليلاً إلى الخانقاه فهدموا ما بناه أصحاب الدير وأرجعوا الحالة الى ما كانت عليه، ولما بلغ الخبر الحكومة في الصباح كانت العملية منتهية، وسكت أصحاب الدير وسكتت الحكومة معهم، ولم تسأل الحاج أمين عن ما كان من تنفيذ ما نفذه بالقوة، وفاز فايز العلمي بما أخذه من مال.

وقد اطلعت على بعض الأوراق القديمة المتصلة بالخانقاه، فوجدت أن بعض آل العلمي حاولوا نفس المحاولة مع أصحاب الدير والكنيسة منذ ثلاثين أو أربعين سنة، وأن المحاولة كشفت قبل إتمامها، فكانت سبباً مباشراً لنزع التولية والنظارة، والراجح أن شيئاً من ذلك كان سبباً لنزع التولية والنظارة العلمية عن الزاوية الأسعدية وأوقافها.

تقليد الأسرة العلمية في مقام النبي شموئيل وشيء عنه:

ولآل العلمي تقليد أو وظيفة في المقام الذي يقال له النبي شموئيل، وهو في قرية بنفس الإسم، والقرية ذات موقع حربي ممتاز وتبعد عن القدس نحو 50 كيلومتراً، وفي المقام قبر يقال له قبر النبي شمويل، وفيه مسجد وغرف علوية بمثابة دار ضيافة وطعام للطارئين، وكانت ولاية هذا المقام وما أوقف عليه من أوقاف في يد آل العلمي منذ زمن قديم. وقد اطلعت على (فرمان) سلطاني فيه تخصيص مخصصات لهذا المقام، تاريخه سنة 1034 هجرية، وذكر فيه مشيخة آل العلمي له، ولم يكن لهذا المقام أوقاف دارّة في زمن المجلس الإسلامي، وكانت دائرة الأوقاف وخزينة الحكومة معاً تدفعان مرتبات شيخه ونفقات إضاءته مناصفة، والحكومة تدفع ذلك بموجب (الفرمانات) السابقة التي خصصت للمقام مخصصات على خزينة الحكومة.

وكان الشيخ عبد الرحمن العلمي هو شيخ المقام والمشرف عليه في زمني، وهو إمام المسجد، ويسكن في المقام مع أسرته. وقد ذكرت سابقاً أننا أقمنا ثلاثة أيام في ضيافة الشيخ في هذا المقام في سنة 1927 في سياق قضية تعديل قانون المجلس، والمكان مرموق من قبل اليهود لزعمهم أنه مقام وقبر النبي شمويل المعروف المذكور في تاريخهم القديم، ويزورونه ويحاولون شراء بعض الأراضي الواقعة في منطقته (ولا أعرف ماذا فعلوا بعد احتلالهم المشؤوم)، والمكان مرموق كذلك من السلطات العسكرية لمناعته وعلوه وإشرافه على الأودية والدروب المؤدية الى القدس، ومما سمعناه أن

الإنكليز لم يستطيعوا أن يفتحوا القدس إلا بعد أن استولوا على استحكامات ومواقع شمويل العسكرية العثمانية، وليس من المستبعد أن أوقاف هذا المقام التي يمكن أنها كانت أراضي زراعية وكروم زيتون، والمنطقة منطقة كروم وشجر، قد بيعت في زمن الدولة العثمانية من قبل بعض المتولين وضاعت معالمها، لأنه لا يعقل أن ينشأ مثل هذا المقام والمسجد ولا يكون منشؤوه قد أوقفوا عليه أوقافاً تكفل بنفقاته ونفقات الطارئين عليه.

وهكذا يكون هنالك ثلاث منشآت إسلامية ذات صفة واحدة ومغزى سياسي واجتماعي واحد، كانت في يد آل العلمي وما زالت يدهم بشكل ما فيها، وكل ما كان هو نزع التولية والنظارة منهم للحيلولة دون تصرفهم في أوقافها تصرفاً ضاراً يتنافى مع القصد الشريف الخطير الذي رمى اليه المنشؤون الواقفون، وبسبب ما بدا من بعضهم من مثل ذلك التصرف.

ويظهر من هذا أن آل العلمي أسرة قديمة استطاعوا أن يضعوا أيديهم على هذه المنشآت ويتمتعوا بأوقافها ومبانيها وثمراتها أمداً طويلاً.

تقليد آل الحسيني وآل يونس في مقام النبي موسى وموسمه وشيء عن ذلك:

ولآل الحسيني وآل يونس تقليد ديني هام هو تقليد ولاية مقام النبي موسى وموسمه والإشراف عليهما، والأسرتان شريكتان في هذا التقليد.

والمقام في غور أريحا، ويبعد نحو 10 أو 15 كيلومتراً عن القدس، وهو بنايات مسورة فيها غرف عديدة ومطابخ للطعام ومخازن وآبار ماء مطر ومسجد، وفي إحدى الغرف قبر يقال أنه قبر موسى عليه السلام، ومعلوم أنه كان في فلسطين موسم إسلامي يسمى موسم النبي موسى في ظرف موسم عيد فصح النصارى، حيث كان النصارى يحتشدون في منطقة القدس ثم في مدينة القدس ثم حول كنيسة القيامة في يوم الفصح، الذي هو اليوم التقليدي المسيحي لقيام المسيح من قبره وصعوده للسماء، وكان يأتي كثير من النصارى من خارج فلسطين لشهود هذا الموسم، بالإضافة إلى كثير من نصارى فلسطين الذين هم في أنحاء فلسطين الأخرى، والذين يأتون للزيارة أو الحج كما يسمونه أحياناً. وكان يأتي جماعات من الروس بالمئات والآلاف بصورة جماعية، فينزلون من البواخر إلى يافا، ثم ينطلقون مشياً من يافا إلى نابلس فالقدس، أو إلى الرملة فالقدس لشهود العيد، ورأيتهم في طفولتي وفتوتي مراراً يأتون الى نابلس، ثم يباتون في مكان دير روسي على ما يسمى بئر السامرية أو بئر يعقوب التي في أراضي قرية بلاطة التي تبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن نابلس شرقاً، وكان جماعات من أغنياء النصارى والأوروبيين أيضاً يأتون جماعياً ويتفقون مع شركة كوك فتنصب لهم الخيام خارج نابلس أو خارج الناصرة أو خارج القدس في قدومهم وعودتهم. وكان المسلمون بدورهم يحتشدون من سائر أنحاء فلسطين وبخاصة من المدن والقرى القريبة من القدس، في القدس أيضاً في هذا لموسم، فيأتون زرافات ووحدانا. وقد شهدت هذا الموسم في طفولتي مع جدي على ما شرحته سابقاً.

ومن التقاليد أن تذهب جموع المسلمين كلٌ تحت راية مدينته أو قريته إلى مقام النبي موسى هذا، فيمضوا يومين أو ثلاثة في البنايات وتحت الخيام، ويقيم المحتشدون في المقام حوله حلقات ذكر وأوراد، ويقرأون القرآن، كما يكون لهم حلقات لهو وأهازيج وطنية وشعبية، ثم

يتحـركون بعـد الأيام الثـلاثـة أو الأربعـة التي يقضونها في المقام وحوله في موكب واحد إلى القدس. وكلٌ تحت رايته، فيطوفـون في أزقة القدس هازجين مهللين مكبرين، ثم يأتون الى الحرم القدسي. وكـانوا يتحـركون من المقـام صباح الجمعة التي يكون السبت التالي لها يوم عيد الفصح المسيحي، وكثير منهم أو معظمهم يـذهب يوم السبت لشهـود النصـارى في يـوم فصحهم أمام كنيسة القيامة ومنطقتها، والمتبادر أن هذا من الترتيبات الإسلامية التي ترجع إلى عهـد الملوك الأيـوبيين وملوك الممـاليـك من بعـــدهم، والتي فيهـا معنى الحـــذر واليقـــظة الإسـلامية تجـاه الحشود النصـرانيـة، متصـل بالحروب الصليبية التي بدأت قبـل الأيوبيين، وجـاهـد فيهـــا الملوك الأيـوبيـــون ثم الملوك الممـــاليـــك حتى انتهت بتـــوطيـــد الـسلطان الإسلامي ثانيـة على فلسطين، وزوال الـدول والأمارات الصليبية. والراجح أن النصارى كانوا في أيام الدول الصليبية يأتون لشهود الفصح، ثم استمـروا بعد أن انتهت الحـروب الصليبية باتفاق أو سماح من الملوك المسلمين.

ومن التقاليد أن شخصين من فرعي المتولين يـركبـان في المـوكب القـادم من المقـــام الى القـــدس، واحـد في المقــدمـــة وواحـــد في المؤخرة، وفي عهد المجلس كان الحاج أمين يمثل آل الحسيني ويسير في مقـدمة المـوكب راكباً على فرس، والشيخ بدر يـونس يمثل آل يونس ويسير في مؤخرة الموكب راكباً على فرس أيضاً، وكان الشيخ بدر مأموراً لأوقاف القدس قبـل استـلامي للمـديـريـة العـامـة، ثم أعفي لشيخوخته ولا أعرف أنه كان للمقام أوقاف في يد أي من الأسرتين، كما لا أعرف أنه كان في إيرادات الأوقاف إيراد باسم وقف النبي موسى،

وأعتقد أنه لا بد من أنه كان له أوقافاً، وربمـا أراضي زراعيـة في أريحـا وحـولهـا تسـربت لملكيـات النـاس الـذين أنشـأوا بيـارات مـوز وبرتقال فيها.

ولقد كان المـوسم وموكبـه في زمن الدولـة العثمانية رسمياً وإسلامياً من جهة ومحليـاً من جهة أخرى، وكان شباب المدن يتنافسون فيما بينهم في كثرة العدد والاستعـداد والأهازيـج، وصبغته كانت على كل حال إسلامية دينية، ثم صارت في عهد الاحتلال الإنكليزي وطنية في أهازيجها وهتـافاتهـا. وكان الحـاج أمين يهتم للموسم اهتماماً شديـداً سواء في صـدد تأمين اشتراك الناس المخلصين له من نابلس والخليل والقدس، وهي المدن التي كان أهلها وشبابها في الدرجة الأولى يؤلفون العمود الفقـري في التحشـد، نزولاً ورجـوعـاً وإعـلانـاً. وأهميـة المـوسم كانت في الـدرجة الأولى في صعـود المـوكب من النبي موسى إلى القـدس، فكان الحـاج أمين يركب فـرساً بيضـاء ويلبس عباءة بيضاء ويسير في مقدمة الموكب وسط كثافة من المخلصين حـوله يهتفـون باسمـه، وينشـدون الأناشيد التي فيها ذكره، أو الإشارة إليه حيناً بعد حين، وكان هذا ممـا يثير معـارضيه ويجعلهم يحاولون تعكير الموكب بأسلوب ما، والشكوى والتنديد بأنه يستغل الموسم شخصياً وعائليـاً، غير أنهم كانوا يخفقون لأن للحاج أساليب بارعة في تأمين الكيفية التي تحقق له رغبته وشخصيته الدينية والوطنية وكانت من جهة أخـرى تجعل الجماهير تتوجه إليه بعفويتها دون أن تتأثر كثيراً بحركات ودعايات وأساليب المعارضين له، مع القول الحق إن المقاصد الشخصية كـانت غير خافية.

ولقد قلنا إن المـوسم كان رسميـاً أيضاً في

زمن الدولة العثمانية، وكان من التقاليد أن يشترك المتصرف في مراسم تلبيس أعلام النبي موسى التي كان يحملها رجال الأسرتين، وفي مراسم استقبال الموكب حينما يعود، وكان من التقاليد أن تنصب بلدية القدس صيوانا ينتظر فيه المتصرف ورئيس البلدية وأعضاؤها ورجال الحكومة الموكب عند صعوده لاستقباله.

واستمر هذا التقليد في زمن الانتداب أيضاً، ومن المحتمل أن يكون المتولون قد طلبوا ذلك من سلطات الإنكليز منذ الاحتلال، لتظل صبغة الموسم قوية بارزة رسمية، ولعل هذا راق لتلك السلطات ورأت فيه تثبيتا لصفة حكمها وعلاقتها بالشعب، حتى في موسم إسلامي شعبي. ولقد كان حاكم القدس يحضر في كل سنة إلى المكان الذي تكون أعلام المقام محفوظة فيه، ويشترك في تلبيس أقمشتها على عصيها، ورفعها وتسليمها لحامليها. وكان يردد الكلمات التقليدية في تسليم الأعلام بعد تلبيسها، سواء أكان يفهمها أم لا، وصار على راغب النشاشيبي الذي عين من سنة 1920 رئيساً للبلدية أن يشترك بدوره في هذه المراسم، فيأمر بنصب الصيوان، ويحضر مع الحاكم وأعضاء البلدية لاستقبال الموكب، وأصبح هذا ثقيلاً عليه بعد أن صار الحاج أمين رئيساً للمجلس، ونشب ما نشب بين الرجلين من تشاد وتضاد، لأن فيه تكريماً للحاج أمين على كل حال، وترجيحاً للمجلسية والحسينية. وكان أحياناً ينيب عنه أحد الأعضاء حتى لا يسمع هتافات الناس للحاج ولا يراه في ذروة بروزه بين الجماهير، ومما كان أنه كان في مقام النبي موسى ديوان ومطبخ خاصان لآل الحسيني، وديوان ومطبخ خاصان لآل يونس، وكان رجال كل من الأسرتين يجلسون في ديوانهم ويستقبلون الزوار، والناس يزورون هؤلاء وهؤلاء، وكان كلّ من الأسرتين يصنعون طعاماً وخبزا، ويوزع كل منهما ما يصنعه على جماعة من المحتشدين، وهكذا يبدو عمق التقليد والمحافظة عليه ورعايته.

ونقول استطراداً إن آل يونس ليسوا ذوي قربى قريبة بآل الحسيني، غير أن الاسم الذائع الذي صار لآل الحسيني في عهد افتاء الحاج أمين ورئاسة للمجلس وزعامته الوطنية والسياسية وبروزه العظيم، جعل آل يونس يلحقون كلمة (الحسيني) باسم أسرتهم، بل وأحياناً لا يهتمون لذكر يونس إلا للتعرف والتفريق فقط، وصار الناس يظنون أنهم من أسرة واحدة. وقد لمحت أن آل الحسيني لا يقرون هذا في قرارة أنفسهم، ولكنهم يسكتون عنه لأن فيه على كل حال استكثاراً على حد قول الشاعر (وإنما العزة للكاثر) .

تقليد الأسرة الداودية في مقام النبي داود وشيء عن ذلك:

وللأسرة الداودية الدجانية في القدس تقليد هام هو مشيخة مقام النبي داود، وهو مؤلف من بنايات عديدة سيرد وصفها بعد، واليهود والمسيحيون معاً يهتمون لهذا المقام اهتماماً عظيماً، ويوجد في إحدى غرفه قبر يقال له قبر داود، واليهود يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد بأنه قبر الملك النبي داود، ويهتمون له، لما لداوود من اسم وأمجاد تاريخية. والمسيحيون يعتقدون أن المائدة التي نزلت من السماء على عيسى وتلامذته نزلت عليه في هذا المكان. واسم المكان الذي تنسب إليه المائدة يسميه المسيحيون علبة صهيون، وكان اهتمامهم له عظيماً منذ القديم، واستطاعوا أن يتملكوا

ساحات واسعة حوله وينشئوا فيها كنائس وأديرة عديدة، ومنها مكان فيه بعض قبور لكبار من رجالهم الدينيين، واهتمام الكاثوليك التابعين للبابا أشد من غيرهم. ولقد كان مكان المقام في يد المسيحيين، وبنوا فيه كنيسة ما زالت آثارها ظاهرة إلى الآن، ولا ندري ما هي الظروف التي أخرجته من أيديهم وأدخلته في أيدي المسلمين، وقد أنشأ المسلمون في المكان مساجد وابتنوا حوله بنايات عديدة بدورهم، وجعلوه مزاراً ومنزلاً للمسلمين، وإقامة الطارئين منهم وإطعامهم، ليكون معموراً دائماً بالمسلمين.

والشعائر والمظاهر الإسلامية والبنايات القائمة في المكان كثيرة، منها قديم يرجع إلى 300 ـ 400 سنة، ومنها حديث يرجع إلى 150 ـ 100 و50 ـ 60 سنة. ومن ذلك جناح علوي منسوب إلى إبراهيم باشا المصري ابن محمد علي والي مصر الذي غزا فلسطين وسورية وحكمها في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، وجناح منسوب إلى السلطان عبد المجيد العثماني الذي حكم في نفس القرن، وآخر منسوب إلى السلطان عبد الحميد الثاني العثماني الذي ظل سلطاناً إلى سنة 1909، وخلع بثورة الجيش وجمعية الاتحاد والترقي. وفي المكان مسجدان واحد كبير نوعاً ما، وأحدهما علوي في قرنة منه ضريح، وثانيهما سفلي وفي قرنة منه ضريح أيضاً، والعلوي فوق السفلي تماماً.

والمسيحيون يزورون المقام، ولكن لا يسمح لهم بزيارة المسجد السفلي. أما زيارة اليهود للمكان فكانت محظورة منذ العهد العثماني.

ولآل الداوودي لقب آخر هو (الدجاني)، ويلقبان باللقبين معاً بتقديم الدجاني، وأحياناً يسقطون الدجاني ويبقون الداوودي. والراجح أن (الداوودي) جاء إليهم من وضع يدهم على مقام النبي داود، ويدهم عليه قديمة قد ترجع إلى 300 سنة أو أكثر، ومعهم براءة سلطانية قديمة بالنظارة على هذا المقام، وبمخصصات يتناولونها من خزينة الدولة لنفقات المقام ووظائفه وعمارته وإطعام الفقراء فيه، والخزينة تدفع لهم نوعين من المخصصات حسب البراءة على ما يظهر، أحدهما أعشار قرى مجدل الصادق والسامرية وبدّيا، وثانيهما باسم مرتبات من الخزينة مباشرة. ولقد صار أبناء الناظر الأول صاحب البراءة فروعاً عديدة، فصارت المخصصات بنوعيها تدفع لممثلي هذه الفروع، وصار كل من ممثلي الفروع يدفعون نصيباً في نفقات المكان وما يقدم فيه من طعام للزوار. وكانت المرتبات والمخصصات تبلغ في عهد الانتداب الإنكليزي نحو ألف ومائتي جنيه سنوياً، ومنافع المقام لآل الدجاني الداوودي لا تنحصر في هذه المرتبات والمخصصات، ففي المقام قيمون يمثلون الفروع ويتناولون رسوماً من الزوار المسيحيين والمسلمين على السواء ولو باسم هبات ونذور، ومساكنهم حول هذا المقام ومسجلة بأسمائهم كأملاك خاصة. ومن المحتمل جداً أن هذه المساكن أنشئت على عرصات كانت تابعة للمقام، وأن ما أنشأه النصارى من أديرة وكنائس حول المقام قد أنشىء على عرصات كانت تابعة للمقام أيضاً وباعها لهم بعض الداووديين بأثمان غالية وسجلت بأسماء المشترين بطريقة ما.

ومن آل الداوودي من هو ثري وفي حالة يسر، ومن المحتمل أن يكون ذلك من ذلك. ومما سمعناه أن المسيحيين حاولوا شراء علبة

صهيون منهم وعرضوا عليهم نصف مليون جنيه. وكان ذلك في زمن الدولة العثمانية. ولم تتم العملية لأنها كانت أخطر وأضخم من أن تمر بسهولة. والأسرة الداودية من الأسر الكثيرة العدد والبارزة في القدس، ومنها أثرياء كما قلنا، وربما بلغ عدد أفرادها الألف، وهو عدد كبير، ولعلها بذلك من أكبر الأسر الفلسطينية. ورجالها مختلفون في ميولهم السياسية والمحلية، فمنهم المجلسيون الموالون للحاج أمين وجماعته وسياسته المحلية وخطه الوطني، ومنهم المعارضون. وكان على رأس الموالين الشيخ محمود، وهو على ما يبدو أبرز رجال الأسرة وجاهة وثراء. وسنه غير متقدمة وأخلاقه حسنة ويده سمحة، ويوالي الحاج أمين والمجلسية والوطنية معاً عدد آخر من الأسرة متضامنين مع الشيخ محمود، ويعتبره الحاج أمين صديقاً حميماً، ويستعين به في الملمات. وعلى رأس المعارضين حسن صدقي الذي كتبنا عنه كلمة فيما سبق، وكان من الشباب النشيطين منذ بدء الاحتلال على ما ذكرناه. وننبه على أمر وهو أن في يافا أسرة تسمى باسم (الدجاني)، وهي أسرة كبيرة وجيهة بارزة في يافا وفي فلسطين، وفيها أغنياء. وفيها وظيفة الإفتاء، وكان منها عبد الله الدجاني عضو المجلس الإسلامي حين إنشائه لأول مرة في سنة 1922، ومنها الشيخ راغب الذي كتبنا عنه نبذة سابقاً، وأصلها على ما يقال من قرية (بيت دجن) القريبة من يافا، ونسبتها إليها، والمعروف أن الأسرتين الدجانيتين في يافا والقدس غير قريبتين نسباً، ويمكن أن يكون الأصل واحد من قرية بيت دجن، فصارت النسبة واحدة. وننبه على أن في منطقة نابلس قرية أخرى اسمها (بيت دجن) تبعد عن نابلس نحو 20 كيلومترا شرقاً، ويجوز أن تكون الأسرة المقدسية منها. و(دجن) معدل عن (داغون)، وهو اسم لإله من آلهة الكنعانيين أهل فلسطين القدماء، والتعدد والحالة هذه مفهوم، حيث يكون في القريتين معبدان لهذا الإله فصارتا (بيت دجن).

تقليد آل الغصين في مقام النبي صالح وموسمه:

ومما عرفناه تقليد لآل الغصين في منطقة الرملة، هو مشيخة الزاوية البسطامية في مدينة الرملة، والإشراف على موسم إسلامي يسمى موسم النبي صالح في منطقة الرملة. وللزاوية أملاك وأوقاف مهمة، وللموسم أهمية بين المواسم الإسلامية الشعبية الفلسطينية، وله يوم معين حيث يكون بعد أسبوعين من يوم عيد فصح النصارى، ويوم موسم النبي موسى الأكبر في القدس، وحيث يحتشد في ذلك اليوم جماهير من الناس من مدن يافا والرملة واللد وقراها، ويسيرون تحت الأعلام الدينية مكبرين مهللين إلى مقام النبي صالح خارج الرملة، وينفق على الموسم من أوقاف الزاوية. وكان المتولي للزاوية والموسم في زمن المجلس الإسلامي توفيق الغصين. وكان يهتم لإسباغ صبغة خطيرة على الموسم، وجعله مماثلاً لموسم النبي موسى. وكان يقيم بين يدي الموسم وليمة كبرى يدعو اليها الوجهاء والأعيان في يافا واللد والرملة والمندوب السامي وكبار الموظفين، ويكون ذلك وسيلة لشهودهم حفلة تلبيس علم الموسم والسير في موكبه.

مقام وموسم النبي روبين وشيء عنه:

وعلى ذكر موسم النبي صالح، نذكر موسماً آخر يقام في السهل المسمى بسهل روبين بين الرملة ويافا. وفي هذا السهل مقام فيه ضريح مشهور باسم قبر روبين، وهذا الموسم يقام بعد

أيام من موسم النبي صالح، حيث يحتشد الناس من يافا والرملة واللد وقراها في السهل إما تحت السماء أو تحت الخيام أو في بيوت خشبية، ويقضون أسبوعين أو ثلاثة يأكلون ويشربون ويلهون ويمرحون، ويقيمون حفلات دينية وشعبية أثناء ذلك، ويبدأ الموسم بموكب شعبي ديني كبير في يافا يسمى زفة العلم، فيسير الناس فيه نحو السهل. وكانت دائرة أوقاف يافا هي التي تشرف على هذا الموكب و(زفّته)، وتشرف على مقام النبي روبين، وتنفق عليه وترعى موسمه، ولها مطبخ في مقام النبي روبين يطبخ فيه طعام ويخبز فيه خبز ويوزع على الحشود طيلة أسبوع واحد وهي وقت الحشد الأكبر.

ومن المحتمل أنه كان لهذا المقام أسرة مشرفة عليه وعلى أوقافه التي منها سهل روبين، وهو سهل خصيب صالح للزراعة الموسمية وللشجر، ثم نزعت التولية عنها في زمن الدولة العثمانية بسبب من الأسباب المماثلة التي نزعت بسببها أيدي المتولين عن الخانقاه والأسعدية، وألحقت بأوقاف يافا، وصارت هذه الأوقاف هي المتولية للموسم، إلى أن كان الاحتلال الانكليزي فاستمر الأمر على ذلك.

وقد قضيت ليلة في سهل روبين قرب المقام وأنا في مديرية الأوقاف، وهذا الموسم في سنة 1934، وكان الحاج أمين وأمين التميمي وأصدقاء آخرون من يافا والقدس، وكان القمر بدراً والوقت بداية صيف، وقد فرشوا لنا على هضبة رملية، وكان شخص على هضبة أخرى مقابلة ماهر بالنفخ على الناي فكان ينفخ بصوت رنان حنون يثير الشجن والناس سكوت خشّع وهم ألوف، حتى لا تكاد تسمع شيء، ثم يتبعه آخر بموال بغدادي أو إبراهيمي فيه معان قوية اجتماعية وغرامية بصوت حنون رنان يثير ما يثيره نافخ الناي في الناس.

مقام وموسم سيدنا الحسين في المجدل:

والمناسبة تجر إلى ذكر موسم آخر هو موسم مقام (سيدنا الحسين)، والمقام في جوار بلدة مجدل عسقلان ومطلّ على البحر، وفيه ضريح يسمونه سيدنا الحسين، ويقولون أن رأسه مدفون فيه، ويقام موسمه بعد أسبوعي موسم روبين في يوم معين، حيث تسير جماهير المسلمين تحت الأعلام ودق الطبول والدفوف والأهازيج الدينية في موكب حاشد إلى زيارة هذا المقام، ويقضون يومهم عنده، ودائرة أوقاف غزة هي التي تشرف على هذا الموسم وعلى المقام أيضاً ولا أعرف أن له أوقافاً دارّه، ولكن الأغلب أنه كان له ذلك فضاعت معالمه.

مقام وموسم سيدنا علي في قرية الحرم قرب يافا وشيء عنه:

وكذلك تجر المناسبة إلى ذكر مقام سيدنا علي وموسمه، وهذا المقام قرب قرية اسمها الحرم تبعد عن يافا نحو عشرة كيلومترات، وهو في مكان مرتفع مطل على البحر من جهة والسهل من جهة أخرى، ويقام موسمه بعد روبين بأسبوعين، حيث يذهب جماهير المسلمين في موكب حاشد من يافا والقرى المجاورة تحت الأعلام والطبول والدفوف والأهازيج الدينية، فيزورون المقام ويقضون عنده يوماً أو يومين وبالإضافة إلى هذا الموسم في يومه المعين، فإن المقام مطروق للزيارات المستمرة، حيث كان الناس ينذرون له نذور القرابين فيأتون للزيارة وينحرون قرابينهم وفاء لنذورهم، ويتوسلون لصاحب المقام لأجل قضاء مصالحهم، أو يشكرون الله على ما كان

من انقضاء ما كانوا يتمنون. وفي المقام قبر لرجل اسمه المشهور سيدنا علي، وأنه علي بن عليل من علماء أو أولياء المسلمين من القرن الخامس، ومن نسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

صلة آل العمري بهذا المقام وسيرتهم فيه وفي أراضيه:

وهذه التبعة أوصلت آل العمري الدمشقيين إلى النظارة عليه وعلى أوقافه منذ زمن قديم، والمقام بناء كبير فيه غرف علوية وسفلية، وأروقة لإيواء الدواب، وآبار ماء ومخازن لخزن المؤنة الخ.. ويبعد المقام نحو كيلومتر عن موقع قلعة (أرسوف)، التي كان لها دور مهم في الحروب الصليبية، وما زالت أطلالها وأنقاضها قائمة تدل على أهميته، وقد هدمت عمدا من قبل الملوك الأيوبيين والمماليك بعدهم، لئلا يعود الصليبيون بحراً ويستولوا عليها ويتحصنوا فيها وتكون لهم مقفزاً.

وكان آل العمري يملكون مساحات كثيرة من أراضي قرية الحرم وقرية إحليل المجاورة لها، ويروي أهل الحرم أنهم كانوا يأتون إلى صاحب الأرض من أهل إحدى القريتين، ويسردون عليه رؤيا رأوا فيها صاحب المقام، وأمرهم بشراء أرضه، ويقولون له إن من واجبهم وواجبه تنفيذ الأمر فيستهوونه ويجعلونه يبيعهم الأرض، ويتساهل معهم في الثمن الذي كان أحياناً في زمن الدولة العثمانية مجيدياً أو نصف مجيدي أو ربع مجيدي للدونم، (والمجيدى عملة فضية قيمتها خمس الليرة العثمانية أو ربعها)، وقد باعوا معظم ما اشتروه بهذه الطريقة لليهود على ما يقوله الناس في آخر عهد الدولة العثمانية وفي أوائل الاحتلال الانكليزي بعشرات ألوف الجنيهات، وكان في عهد مديريتي مساحات غير قليلة من أراضي قرية الحرم وقفاً على المقام امتداداً من العهد العثماني، ومن المحتمل كثيراً والله أعلم أن آل العمري اقتطعوا كثيراً منها وأضافوه إلى ما اشتروه من الفلاحين، لأن الأراضي متجاورة، وباعوه فيما باعوه أيضاً. ولقد تنبهت دائرة أوقاف يافا في عهد المجلس الإسلامي الأول الى خطر بقاء التولية في أيديهم على ما بقي من أرض وقفية للمقام، وأقامت قضية ضدهم في المحكمة الشرعية، وحصلت منها على حكم بنزع التولية من أيديهم، وبجعل المقام وأوقافه تحت إشرافها، وصارت هي التي تشرف على المقام وموسمه وتؤجر أراضيه وتجبي ريعها، ولقد حاول آل العمري استعادة الولاية كثيراً قبل استلامي مديرية الأوقاف. ولما استلمت المديرية جاءني أحد رجالهم واسمه عبد اللطيف أو عبد الهادي ومعه محام دمشقي لم أعد أذكر اسمه ومعهما كتاب من صديق لي في دمشق لم أعد أذكر اسمه أيضاً، فيه توصية بهما، وحدثوني عن علاقتهم بالمقام وحقهم في استعادة التولية، ولوحوا لي بالاستعداد لتلبية ما أطلب مقابل التساهل وتحقيق رغبتهم، وسمعوا الجواب اللازم جافاً حاسماً، فانصرفوا خائبين، وكان ذلك في سنة 1934.

ولقد كان مزارعون من أهل قرية الشيخ مونس القريبة من قرية الحرم ومن عرب أبي كشك والسواركة - الذين يعيشون تحت بيوت الشعر عادة في أراضي الحرم - واضعين أيديهم على مساحات من الأراضي الوقفية يستثمرونها في زراعة الحبوب والبطيخ والشمام، ويدفعون عشرها للحكومة، ويعتبرونها وتعتبرها الحكومة معهم أنها أراضي محلولة عائدة للحكومة، فاجتهدنا لتثبيت وقفيتها ونجحنا وسجلناها وقفاً

صحيحاً واعترفنا للمزارعين بحق المزارعة، وعقدنا معهم عقوداً وصاروا يدفعون الأجرة لدائرة الأوقاف، وكانت العقود وسيلة تطمين لهم فأنشأوا بعض البيارات، وكان ذلك مفيداً لهم وللأوقاف معاً بزيادة الريع للطرفين.

استجمامي في مقام سيدنا علي:

وقد ذهبت إلى المكان أكثر من مرة بسبيل ذلك، كما ذهبت إليه مرتين للاستجمام، الأولى عندما كنت مأمور أوقاف نابلس، فقد وصف لي المكان وعلمت أن فيه فراشاً وأسرّة ومقاعد وأدوات طبخ ومائدة، فذهبت في موسم صيف عام 1931 أنا والشيخ عبد الحميد السائح وواصف كمال وأكرم زعيتر وممدوح السخن، وكانت نزهة جميلة وقضينا وقتاً حسناً نحو عشرة أيام، وتعلمنا السباحة في البحر المجاور للمقام. وذهبت مرة أخرى وأنا في مديرية الأوقاف سنة 1935، مع أم زهير وزهير والوالدة والشقيقة والبنات، حيث قضينا كذلك نحو عشرة أيام ممتعة أيضاً، والراجح أن آل العمري هم الذين أوجدوا في المكان هذه اللوازم المعيشية لإقامتهم حينما يأوون، ولضيوف يدعونهم لقضاء مدة من الصيف، حيث أن المكان يصح أن يكون مصيفاً جميلاً هادئاً.

تعليق على هذه المواسم والمقامات:

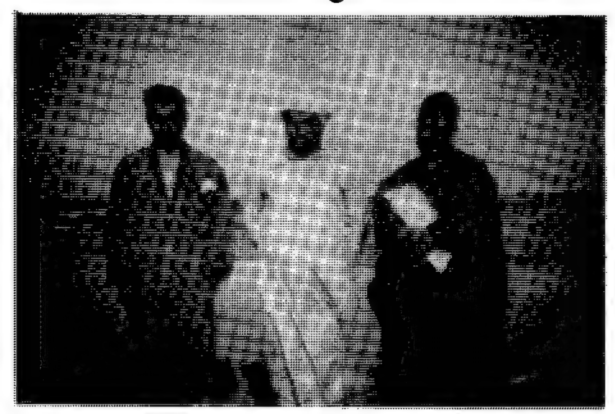
والراجح أن مواسم روبين والنبي صالح وسيدنا الحسين وسيدنا علي هي تتمة لموسم النبي موسى، فقد كان هذا الموسم في أيام فصح النصارى كما قلنا، وكان هؤلاء يأتون زرافات من الخارج، ويمكن أن يكون ذلك قبل الحروب الصليبية وفي أثنائها، ثم استمر بعدها بدون انقطاع، فكان من التنسيب الإسلامي ومنذ القديم أيضاً أن يحتشد المسلمون إزاءهم تحسباً للطوارىء أو إظهار للقوة والعزة والحماس الديني بالمقابلة، وبعد انتهاء موسم الفصح، يأخذ الآتون من الخارج بالإنسحاب من القدس نحو البحر، فصار من التنسيب الإسلامي أيضاً أن يظل التحشد الإسلامي إزاءهم في أثناء عودتهم وفي طريق عودتهم، ونذكر بالمناسبة أنه لا يكاد يكون في فلسطين قمة جبل أو هضبة مشرفة إلا وفيها مقام أو مزار باسم جذاب، وفيه قبر لولي أو رجل صالح، وفيه بئر ماء ومحراب، وغرفة أو أكثر. وليس من المستبعد أن تكون هذه المقامات في أصلها مراصد إسلامية في أيام الحروب الصليبية، كان يقيم فيها حراس أو مجاهدون، فيموت أحدهم فيدفن في المكان ويصبح مع الزمن مزاراً ومقاماً. وقد ذكرنا في سياق شرح بيئة نابلس أنه كان في الجبل الشمالي مقام من هذا النوع يعرف بعماد الدين، وفي الجبل القبلي مقام يعرف بالشيخ غانم، وفي جبل قبلي للغرب مقام يعرف بالسرى السقطي وهكذا.

والرفاق الأربعة الذين ذكرت ذهابي وإياهم للاستجمام في مقام سيدنا علي كانوا أساتذة في مدرسة النجاح آنذاك، وباستثناء الشيخ عبد الحميد فإنهم كانوا قبل ذلك من تلامذة النجاح حينما كنت متولياً لمديريتها، فعرفتهم فتياناً ثم شباناً ثم كهولاً، وتواثقنا وتصادقنا وتعاونا في مختلف الحقب، برغم أنهم كانوا أصغر مني بنحو عشرين سنة أو أقل قليلاً.

ولقد كتبت في مناسبة سابقة كلمة عن أحدهم، واصف كمال، وهذه كلمات عن الاثنين الآخرين. وعن الشيخ عبد الحميد بمناسبة ورود أسمائهم.

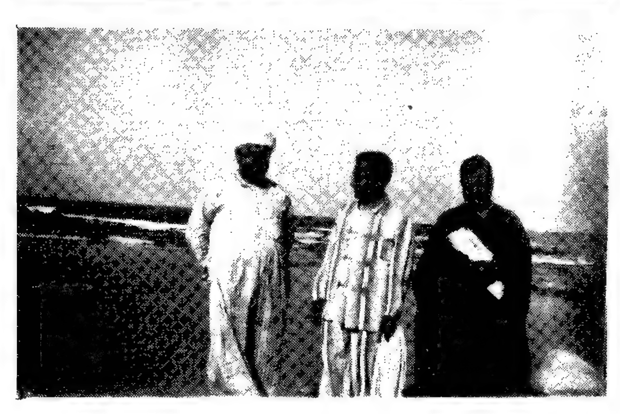


في زيارة لمعسكر فرقة كشافة الجهاد البيرة حزيران سنة 1935 .
1 ـ عزة دروزة، 2 ـ اسحق درويش، 3 ـ بهاء الدين الطباع، 4 ـ زهير دروزة .



في حرم سيدنا علي/يافا/1934/ .

1 ـ عزة دروزة .
2 ـ الشيخ عبد الحميد السائح .
3 ـ واصف كمال .



1 ـ عزة دروزة .
2 ـ أكرم زعيتر .
3 ـ الشيخ عبد الحميد السائح .

كلمة عن أكرم زعيتر:

فأكرم هو ابن الشيخ عمر زعيتر الذي كان رئيس البلدية والذي كتبنا عنه مراراً، وحينما توليت مدرسة النجاح كان في الصف الإستعدادي الثالث أو الرابع، وكان يبدو عليه ذكاء ونشاط وحركة وتحريك وحماس وطني وبلدي معاً، وأنهى دراسته في المدرسة وذهب إلى الجامعة الاميركية ولم يتم دراسته فيها، ثم انتسب إلى معهد حقوق القدس ونال إجازته. وقد اشتغل فترة في مكتب محاماة عوني عبد الهادي. ولقد تثقف عربياً وإسلامياً وصار يحسن الكتابة والخطابة بأسلوب جذل رنان، وصار حسن الحديث بارع الرواية والنكتة حاضر البديهة، وعاشر إسعاف النشاشيبي واقتبس أسلوبه أو شيئاً منه، وشارك منذ شبابه الأول في الحركة الوطنية مع شباب نابلس وغيرهم، وصار فيهم مركز وصداقات وبروز فلفت الأنظار إليه في كل ذلك.

ورأى بعض إخواننا الذين كنا نتداول معهم في أمر إنشاء حزب الاستقلال على ما سوف نشرحه بعد، ضمه إلى مؤسسي الحزب ليكون ممثلاً للشبان والانتفاع من مواهبه ونشاطه وكان أصغرنا سناً، ومنذئذ توطدت الصداقة والمودة بيننا واستمرت. ولقد استلم لفترة قصيرة شؤون الحزب الكتابية، وكان له جهد وبلاء في اجتماعات الحزب وبث أهدافه، ثم ذهب إلى العراق سنة 1933 لحضور حفلة تأبين الملك فيصل، وألقى خطاباً فيها، وقد لمح الزعيم العراقي القومي الكبير ياسين الهاشمي حيويته ونشاطه وقوة عارضته، فاقترح عليه أن يبقى ردحاً من الزمان في العراق ليسهم في الدعوة إلى القومية العربية وتقويتها. فأقام مدة في بغداد، واشتغل في مدارسها لفترة ما وبرز فيها كذلك كشاب عربي قوي ذي ذكاء ونشاط. وثقافة وقوة عارضة وخطابة وقلم رشيق، وبارع الحديث وسريع البديهة، ووطد بينه وبين كثير من شبابها صداقات ومعرفة.

وعاد بعد سنتين إلى فلسطين فاندمج في النشاط الوطني الذي كان ازداد بازدياد توتر المواقف والمظاهرات وحركة الشهيد القسام، وكان له نشاط قوي بخاصة في أوائل الإضراب الطويل مع شباب نابلس وبخاصة واصف كمال وممدوح السخن رفيقيه الوثيقين، وكان من أولى من اعتقلتهم السلطات في هذا الإضراب، وقد نفته أولاً إلى عوجة الحفير، ثم أتت به إلى صرفند، حيث كنا وكان كثير غيرنا على ما سوف أشرحه بعد، ولما انفجرت الثورة في فلسطين للمرة الثانية بعد مقتل حاكم الناصرة اندلعت الثورة فيها، كان في سورية يعمل ليوم فلسطين وهو يوم الإسراء المقرر في مؤتمر بلودان، وكنت أتولى فيها إدارة الثورة وتموينها، فتعاونا تعاوناً وثيقاً، وكان لفخري البارودي مكتب إعلامي ثقافي، فاتفقنا معه على تخصيص غرفة ومكتب لشؤون فلسطين، وعهدنا بها إلى أكرم، فكان يكتب النشرات ويوزعها على الصحف. وظل ينشط في سبيل العمل الوطني الثوري، وارسلناه إلى مصر للعمل على عقد وإنجاح مؤتمرين عقدا فيها من أجل القضية الفلسطينية وهما: المؤتمر النسائي العربي، والمؤتمر البرلماني العربي، وكان له في الأول بخاصة جهد قوي، ثم تأزمت الأمور في سورية ولبنان قبيل الحرب، فرحل إلى العراق واشتغل في معارفها وجدد صداقاته وضاعفها بما كان من نشاطه وذكائه وفصاحة لسانه وعارضيته الخطابية وقوة قلمه وبارع حديثه واستغراقه في الفكرة

القومية الاستقلالية الوحدوية. واندلعت في اثناء الحرب العالمية الثانية الثورة في العراق ضد الإنكليز، فساهم في تأجيجها مع من كان في العراق من رجال وشباب فلسطين وسورية. وحينما استطاع الإنكليز إخمادها أخذ رجال الحكم العراقي في ظلهم يطاردون الفلسطينيين والسوريين فرّ إلى سورية مع من فر منهم، والتقينا ثانية وكنت قبل قليل خارجاً من سجن الإفرنسيين بعد أن لبثت ستة عشر شهراً فيه. وجاءت قوات الإنكليز والديغوليين والأمير عبد الله غازية لسورية، فذهبنا معاً إلى حلب ثم لجأنا معاً إلى تركية وأقمنا فيها معاً نحو خمسين شهراً، وعدنا معاً إلى سورية بعد انتهاء الحرب. وعدنا معاً إلى النشاط في سبيل قضية فلسطين، وأرسلته الهيئة العربية العليا مع نصري المعلوف إلى أميركا الجنوبية للدعاية، وبذل في رحلته جهداً ونشاطاً فصلهما في كتاب كتبه وطبعه بعنوان (مهمة في قارة). واشترك في عام 1948 في مؤتمر غزة الذي قرر إعلان استقلال فلسطين وإنشاء حكومة عموم فلسطين، وسمي وزيراً للمعارف فيها. ولم تمارس هذه الحكومة مهمتها بسبب موقف الأمير عبد الله المضاد لقرارات هذا المؤتمر وضمه الضفة الغربية إلى مملكته.

وعاد إلى سورية فأقام فيها وتجنس بالجنسية السورية. وكان يبدو حائراً في أمر الاستقرار، ثم بدا له أن يتخلّى عن الجنسية السورية ويذهب إلى الاردن وفلسطين، وهناك استعاد جنسيته الاردنية الفلسطينية واستقر في نابلس، وأخذ ينشط في سبيل القضية. ولما قام الاتحاد بين العراق والاردن عرض عليه على ما علمت أن يكون وزيراً في الاتحاد فلم يستجب بسبب الظروف القائمة. وفي سنة 1961 عينته الحكومة الاردنية سفيراً في سورية بعد أن انفصمت الوحدة السورية المصرية، وبقي في هذا العمل إلى أن قامت ثورة الثامن من آذار 1963 فطلب نقله وعين سفيراً في طهران، حيث بقي مدة في هذه السفارة. ثم اختير عضواً في مجلس الأعيان، ثم اختير وزيراً للبلاط، ثم اختير وزيراً للخارجية واستقال من هذه الوزارة فعين سفيراً في لبنان، حيث بقي في هذا العمل إلى سنة 1974 حين أحيل للتقاعد.

وظل مقيماً في بيروت حيث تفرغ لنشاطه، وأخذ يراجع أوراقه ومخطوطاته ويهيئها للنشر ويكتب المقالات والبحوث وينشرها في المجلات والصحف العربية بقلمه البليغ في مختلف الشؤون العربية والإسلامية والتاريخية. وأنشأ مع بعض رفاقه مركزاً باسم المركز الثقافي الإسلامي، وكان يقام فيه الاجتماعات وتلقى فيه المحاضرات الإسلامية والعربية والتاريخية.

وقد كنا نتراسل ونتداول في مختلف الشؤون، وقد زارني أكثر من مرة في دمشق ورجوته أن يراجع أجزاء مذكراتي الثلاثة الأولى التي كانت معدة للنشر في بيروت، وقد فعل ذلك ونبهني مشكوراً إلى كثير مما غاب عني أو التبس علي من أسماء وتواريخ وأحداث واستدراكات وتصويبات، عملت بها فجزاه الله خيراً.

وقد أصدرت له مؤسسة الدراسات الفلسطينية بتيسير من البنك العربي كتابين، ضخمين جلا وأغنى بهما تاريخ الحركة الفلسطينية، أحدهما بعنوان (أوراق أكرم زعيتر) احتوى مئات الوثائق والمحاضر والبرقيات والأخبار التاريخية التي كانت قررتها الهيئات والجمعيات والشخصيات العربية والفلسطنية. والثاني بعنوان (يوميات أكرم زعيتر) ضمنها

أحداث الحركة الوطنية بين سني 1935 ـ 1939 وجلا به كثيراً من المواقف والأحداث العائدة للقضية الفلسطينية. وقد علمت أن له أيضاً مذكرات وأوراق أخرى نرجو أن يتيسر له نشرها فيزداد بذلك تاريخ قضيتنا غنىً وجلاءً. وفي 1982 غادر بيروت إلى عمان بسبب العدوان الصهيوني الغادر، حيث أقام فيها. وقد عين عضواً في مجلس الأعيان، كما عين رئيساً للجنة الملكية لشؤون القدس، وأخذ ينشط بسبيل هذين المنصبين ويرتب أوراقه ويكتب بعض الأبحاث. متعه الله بالعافية.

وقبل أن أختم كلمتي أحب أن أذكر أمراً طريفاً حيث أخبرني في إحدى رسائله أنه رأى والده في المنام وقال له: (أوصيك وأوصي أستاذك عزة بالإنصاف) وقد خطر لي أنه بعد علم أنني ذكرت والده مراراً وذكرت أسماء وشخصيات كثيرين وكتبت عنهم كلمات، أن يكون عقله الباطن قد أوحى له بهذا المنام. والإنصاف هو وقوف المرء عند الحق والحقيقة لا يتجنّى فيها على أحد. وأقرر صادقاً أني توخيت في كل ما كتبت من مذكراتي وكتبي الحق والحقيقة. والصدق والإنصاف وعدم التجني على أحد والعصمة لله وحده. وإن كان قد وقع مني خطأ أو شطط فليست متعمدة واستغفر الله على كل حال. «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا».

ممدوح السخن:

وممدوح السخن هو أيضاً من نابلس، وفي اسرته أكثر من واحد في حالة يسر ويعملون في التجارة. وكان جاداً ومجتهداً وذا أخلاق رصينة في فتوته. وظل محتفظاً بذلك وزاد صلابة في مواقفه الوطنية وما يراه من الحق دون مواربة ولا مداجاة. وقد امتاز فيما امتاز به بعدم التظاهر والضجة في حركاته ونشاطه. وقد ذهب بعد تخرجه من النجاح الى الجامعة الامريكية ونال إجازة البكالوريوس، وعاد فاشتغل في التدريس في النجاح. وكان يسهم في نطاق ميزاته تلك في الأعمال والمواقف الوطنية متعاوناً بنوع خاص مع أكرم زعيتر وواصف كمال. ولما انشأنا حزب الاستقلال انضم اليه وصار من أعضائه فرع نابلس، وظللنا معه على تعاون وانسجام، وكان له نشاط قوي في الإضراب 1936، وكان من أوائل من اعتقلتهم السلطات بسبب ذلك. ولما استؤنفت الثورة في أواخر سنة 1937 أسهم في تأجيجها في منطقة نابلس، وطلبنا منه أن ينضمّ لأبي كمال، أحد كبار قادتها من منطقة طولكرم، كموجه قومي مثقف، وبقي معه الى نهاية الثورة وأبلى أحسن البلاء. ولما خمدت الثورة ذهب الى العراق في أوائل الحرب العالمية الثانية وعمل مدرساً في مدارسها، ولما نشبت ثورة العراق 1941 ساهم فيها مع إخوانه الفلسطينيين، وتعرض بعد إخمادها للمطاردة والإعتقال. ثم عاد الى عمان واشتغل فيها مدرساً حيناً وموظفاً في إحدى الشركات حينا، وظل محتفظاً بكل خصائصه وميزاته. وقد التقيت به حينما زرت الأردن وفلسطين سنة 1964 في عمان، وجددت عهد الصداقة والمودة. وكان ذلك آخر عهدي به، حيث توفي بعد بضع سنين رحمة الله عليه.

كلمة عن الشيخ عبد الحميد السائح:

والشيخ عبد الحميد السائح هو أيضاً من أسرة نابلسية كبيرة، كان أكثر رجالها يشتغلون في الحبوب وفي التعامل مع الفلاحين. وقد أرسله ذووه إلى مصر ليدرس العلوم العربية

واللغوية في الأزهر وهو في سن الفتوة في أوائل الإحتلال الانكليزي، ودرس بضع سنين في الأزهر، ثم دخل مدرسة القضاء الشرعي العليا وتخرج منها، وعاد في أواخر العشرينات إلى نابلس شاباً ناضجاً مثقفاً ثقافة دينية وعربية حسنة وجادة، وقد علّم في مدرسة النجاح سنتين، ثم عين كاتباً للمحكمة الشرعية في نابلس، وكان يسهم في نطاق ثقافته في المواقف الوطنية خطابة وتوجيها، وتعارفنا به وتعاونا وتواثقنا معه في هذا المجال، وغادرت فلسطين وهو كاتب في المحكمة الشرعية، ثم علمت أنه عين سكرتيراً للمجلس الإسلامي، ثم قاضياً، ثم ارتقى فصار عضواً في محكمة الاستئناف الشرعية فرئيساً لها وفي غضون ذلك كان يوسع من مطالعاته وثقافته، حتى أصبح من أعلام رجال فلسطين الدينيين والاجتماعيين مع دماثة خلق وصلابة موقف ونزاهة يد وطيب سريرة ويقظة ضمير وقوة عارضة.

وقبل نكبة حزيران 1967 صار يعمل في هذه الرئاسة في القدس وفي عمان معا، وقد التقينا به في القدس حينما زرناها في سنة 1964 ودعانا الى بيته الجديد الجميل الذي أنشأه في ضاحية من ضواحي القدس، وجددنا عهد صداقتنا ومودتنا. وبعد نكبة حزيران 1967 صار هو رئيس المسلمين في الضفة الغربية المتزعم لحركة مقاومة العدو المحتل والدفاع عن حقوق المسلمين والعرب المتنوعة، وكانت له مواقف قوية ربطت به قلوب المسلمين في الضفة وخارجها، ولم يصبر العدو على ذلك فأخرجه بالقوة، وجاء إلى عمان وبرز فيها كزعيم بارز للحركة الوطنية والقضية الفلسطينية. وفي ظروف انسجام العاهل الأردني مع مقتضيات المصلحة القومية صار وزيراً للأوقاف والمقدسات والشؤون الإسلامية، وكانت له مواقف قوية، ثم اختلّ الانسجام فخرج من الوزارة، وظل وما يزال ينشط في سبيل قضية فلسطين في رأس العاملين، وقد التقينا به أكثر من مرة في دمشق والزبداني، وتداولنا وتكاتبنا في صدد القضية التي نجاهد في سبيلها معاً.

وللشيخ الفاضل نشاط قلمي بالإضافة الى ما سبق ذكره من نشاط منه القديم ومنه الحديث، ومن القديم كتب مدرسية في تعاليم الإسلام ومبادئه ونهجه، ومن الحديث مقالات عديدة نشرتها له مجلة الوعي الإسلامي، فيها تحذير وتنبيه وهتاف. وله كتاب عن مكانة القدس، وآخر عن جريمة إحراق العدو للمسجد الأقصى. أمده الله بعونه وتوفيقه وجزاه عن أمته خير الجزاء.

عودة الى سيرتي في مديرية الأوقاف وكلمة عامة عن آثارها:

وأعود بعد هذه الجولة الطويلة في تقاليد ومواسم الأسر وفلسطين التي نقلت معظمها من دفتري القديم، وأرجو أن تكون مفيدة للقارىء، فأقول إني في خلال عملي في مديرية الأوقاف بالإضافة الى ما شرحته من تنظيمات وما وطدته من نظام وضبط وربط، كنت أزور مدن فلسطين وبعض قراها مع مأموري الأوقاف، وأبذل جهدي في تحسين المنشآت والمساجد، وكنا نخصص في كل سنة مبلغاً حسناً يتراوح بين 3000 و4000 جنيه لتعمير المساجد والأملاك الوقفية معاً، حيث صار هذا ممكناً بعد الضبط والربط وتحسن الحالة المالية، وقد ازدادت إيرادات وأملاك الأوقاف بنسبة 10 و15٪ عما كانت عليه نتيجة لذلك، وقد ترسمنا أن نجعل لمسجد كل قرية مهمة إماماً ذا راتب، وسرنا في

هذا الأمر شوطاً لا بأس به.

قصة شراء المجلس الإسلامي مشاعات زيتا والطيبة والطيرة وعتيل ونشاطي في ذلك وما جرى في صدد ذلك:

وفي صيف سنة 1933 ثم في صيف سنة 1934 ثم في صيف 1935 على التوالي، قمنا بإتمام عمليات شراء مشاعات قرى زيتا والطيبة وعتيل في قضاء طولكرم وتسجيلها باسم الأوقاف في سجلات التسوية ـ الطابو الحكومية، ولقد بدأت أثر هذه العملية قبل ذلك بسنين، وسجلت في دفتر خاص أسبابها ومراحلها وما كان فيها من صور، ورأيت إثبات ما سجلت، أو خلاصة مجزية له للعبرة والتاريخ.

الحافز على ذلك وتقاليد القرى في المشاعات:

ولقد كان لانتشار السمسرة وتهافت بعض مرضى الأخلاق والوطنية عليها وعلى بيع الأراضي لليهود في سنتي 1928 و1929 رد فعل في نفوس الغيورين، جعلهم يدعون الى انقاذ الأراضي المطموع فيها من اليهود. وكان قضاء طولكرم في الدرجة الأولى من أهداف الطمع اليهودي في ذلك الحين، لأن قسماً كبيراً من سهل سارون المشهور يقع فيه، وأراضيه صالحة للأشجار الحمضية، والمياه الجوفية فيه غزيرة وقريبة، بالإضافة إلى مافيه من عيون جارية تكون أحياناً شبه نهر يجري في السهل، وفيه مساحات واسعة من الرمال والشواطىء. وقد استطاع اليهود شراء مساحات كبيرة منها كانت لآل القباني وآل التيان وغيرهم. ولقد كان من قرى الطيرة والطيبة وزيتا وعتيل وبيت ليد أراضٍ مشاع، كل منها بضعة آلاف من الدونمات، فاتجهت أنظار اليهود وسماسرتهم اليها. وكان اهتمام أهل القرى لاستثمارها بالزراعة ضعيفاً، لأنها ليست مملوكة لأحد بعينه، ولأن المساحة التي تصيب كل فرد من أفراد القرية ضئيلة ولا تحرز جهدا. ويوجد في أكثر القرى نوع من هذه الأراضي المشاعة تركت بدون تقسيم وتخصيص لانتفاعات القرية، ولعلها كانت في الأصل أوقافاً. وكانت أنصبة أهل القرى في هذه المشاعات حسب العرف، فبعضها متعارف على أن يكون لكل نسمة حية في القرية ذكراً كان أم أنثى صغيراً أم كبيراً سهم، فإذا مات انتهى سهمه فلا يرثه ورثته، ويظل الأحياء فقط هم أصحاب السهام بما فيهم هؤلاء الورثة. وبعضها متعارف على أن يكون الذكور دون الإناث أصحاب الأسهم، ويكون هذا للأحياء وحسب، وبعضها متعارف على أن يكون البالغون هم أصحاب الأسهم ما داموا أحياء رجالاً كانوا أم إناثاً.

وكان وجوه القرية ومخاتيرهايسمحون لبعض النشيطين في استثمار بعض المساحات وتخصيص ريعها لصالح البلد أو مسجدها، وكان ذلك كثيراً ما ينجم عنه خلاف ونزاع، ويبقى أكثر الأرض بدون استثمار. وعلى كل حال فإن مشاعية الأرض التي جعلت مساحة السهم الاعتبارية ضئيلة، والانتفاع به محدوداً أو معدوماً، أوحت لبعض الطامعين بيع المشاعات، وشجع على ذلك استعداد اليهود لشرائها، ولا سيما أن عمليات التسوية الحكومية التي تهدف إلى تسجيل حق كل مستحق في أرض على اسم صاحب الحق أخذت تسير قدماً، فيكثر حديث الناس في مشاعات القرى المذكورة، التي كانت تبدو أكثر الأراضي المعروضة للخطر والطمع مع الزهد فيها من

الفلاحين. وأخذ السماسرة اليهود يدورون حولها، وتقدم بعض الطامعين إلى عقد اتفاقات عليها للإتجار بها أو الإتجار بعقودهم عليها. واقترح بعض الناس أن يتقدم المجلس الاسلامي للمساهمة في إنقاذ هذه المشاعات، وأظهر كثير من أهل هذه القرى رغبتهم في ذلك، مع الالحاح والإعلان بأنهم لا يريدون إلا ثمناً رمزياً، لأن شراء المجلس لها هو انقاذ لها من اليهود وضمان لبقائها في أيدي المسلمين وفي أيدي أهلها كمزارعين. ورأى الحاج أمين أن هذا عمل وطني يعود بالخير على البلاد. وعلى اسمه بالذكر الحسن، وكان أحمد حلمي مراقب الأوقاف العام كشف أن للأوقاف في خزينة الحكومة وفراً ومطلوبات من إيراد الأعشار تبلغ نحو تسعة آلاف جنيه، يمكن أن ترصد لهذا العمل، وحينئذ عزم الحاج أمين على المضي في المشروع، وأقنع اثنين من أعضاء المجلس، وتقرر رسمياً. وقد ذكر في القرار أن الرئيس مفوض بالتعاقد والشراء ودفع العربون. ومما سجلته أن الحاج سعيد الشوا وأمين التميمي كانا معارضين لهذه العملية، لأنهما رأيا فيها تورطاً لا يصح أن يقع فيه المجلس ولا يستطيع أن يقوم بها ويسير فيها إلى نهايتها، وأن مثل هذا التورط يخل بواجبات المجلس الأساسية. وكان العضوان الموقعان هما أمين عبد الهادي وعبد الرحمن التاجي، وقد وافق الأول لأنه وعد بشراء قريته (مقيبلة) في مرج ابن عامر في جملة ما يشتريه المجلس، وأن الثاني كان يعرف قيمة الأرض، وكان يتفاوض على شراء مشاع زيتا فلم يَرَ بأسا في دخول المجلس في الميدان.

الخطوات الأولى:

وكانت الخطوة الأولى تعاقد الحاج أمين بصفته رئيس المجلس ومفوض على شراء مشاع قرية عتيل مع أربعة من زعماء قضاء طولكرم، هم عبد اللطيف أبو هنطش من قاقون، وحمدان الحاج أحمد من باقة الغربية، وعبد الجبار العمر من دير الغصون، وعلي الحاج محمد من علار، على أن يتعاقدوا هم بدورهم مع أصحاب السهام في المشاع ويتمموا معاملة تسجيلها باسم المجلس، ودفع الرئيس لهم ثلاثة آلاف جنيه سلفة أو عربوناً، ثم تفاوض بواسطة الشيخ توفيق الطيبي مفتش المحاكم الشرعية اذ ذاك، وشيخ آخر من الطيبة لم أسجل إسمه كان قاضياً في القدس، على شراء مشاع قريتهم الطيبة بسعر جنيهين وربع للدونم، وتفاوض مع زعماء قرية الطيرة بواسطة سعيد الشنطي ورفيق له من أسرته من قرية قلقيلية، وهم من المشتغلين في سمسرة الأراضي، على شراء مشاع قرية الطيرة بسعر جنيهين للدونم. ولقد كان هذان الشنطيان يشتغلان لحساب اليهود، ففسر المراقبون أن تعاقدهما مع المجلس كان نكاية باليهود بسبب خلاف وقع بينهم وبينهم على هذاالمشاع وأتعابهم فيه، ولم يكن ما عرف عنهما من العمل لحساب اليهود مانعاً دون التعاقد معهما، وقد تظاهرا بالحماس والنشاط لإتمام الصفقة، وأعلنا تنازلهما عن أتعابهما وعن عقود كانوا عقدوها مع زعماء القرية على المشاع، وبعد إتمام المفاوضات والتعاقد على مشاعي الطيبة والطيرة كخطوة أولى.

التعاقد مع أهل الطيبة والطيرة:

تألف ركب لزيارة القريتين وإتمام التعاقد مع أصحاب السهام ودفع السلفة المتفق عليها،

وكان في الركب كل من الحاج أمين، وأحمد حلمي، وعوني عبد الهادي محامي الأوقاف، وصبحي الخضراء مساعده في المحاماة، ومحمد العفيفي مأمور أوقاف يافا، وأنا بصفتي مأمور أوقاف نابلس، وكانت المنطقة تقع في نطاق عملي وأمين صندوق المجلس، وكان ذلك في أوائل عام 1929، وقوبل الركب بحفاوة وحسن استقبال واستحسان وحماس من أهل القريتين ومن أهل القضاء، وكان لزيارته ضجة ورنة. وقد جاء الركب أولاً الى قرية الطيرة، وكانت العقود مهيأة فأخذ عليها تواقيع بعض رؤساء الأسر ودفعت لهم سلفة، ثم جاء إلى الطيبة فتم مثل ذلك. ومما اذكره أننا بتنا ليلة في بيارة الحاج نمر النابلسي وكانت اكبر بيارة حينذاك، حيث كانت مساحتها ألف دونم، وفيها بيت كبير ومرتب ترتيباً جيداً. وما سجلته في دفتري أن عبد الرحمن التاجي وشكري التاجي كانا اتفقا في سنة 1929 مع حمدان الحاج أحمد زعيم باقة الغربية، ومحمد عبد الحليم وهو تاجر كبير في طولكرم، على شراء مشاع قرية زيتا لحسابهما، على أن تسجل الأرض باسميهما أو بإسم من يعينانه. وهذه هي الصيغة الدارجة في عقود الأراضي، وهي صيغة غامضة ومريبة معاً، ودفعا سلفة إلى حمدان الحاج أحمد ومحمد عبد الحليم، وتعاقد هذان نتيجة لذلك مع رؤساء أصحاب السهام في المشاع، ودفعا لهم سلفة بدورهما. وفي آب أغسطس هذه السنة، كانت ثورة البراق وانشغل الناس وتوقف السماسرة عن عملهم الأثيم مع اليهود، وتوقفت بالتالي حركة بيع الأرض لليهود، واستمر ذلك إلى أواخر سنة 1931، حيث فترت العواطف العربية ودب النشاط في اليهود نتيجة لحركة هتلر، وهجرة عدد كبير من أغنياء يهود المانيا إلى فلسطين على ما سوف نشرحه بعد. وحينئذ عاد السماسرة إلى نشاطهم المجرم، وأخذوا يمدون أنظارهم ودسائسهم إلى مشاعات عتيل وزيتا والطيبة، فأخذت الأصوات ترتفع من الغيورين في هذه القرى وغيرها منذرة بخطر اليهود وسماسرتهم، ومطالبة من المجلس المبادرة إلى إتمام ما بدأه لإنقاذ هذه المشاعات.

وكنت وقتها قد استلمت مديرية الأوقاف، وكان المجلس قد تخلص من أزمته المالية على ما شرحته سابقاً، وكانت أصابع اليهود والسماسرة بدأت تلعب في عتيل التي كان فيها سماسرة أدنياء مثل صالح الكفيري وحسني العلي، وقد ماشاهم بعض زعماء القرية ومنهم سعيد العموس، حتى لقد جرأ يهودي اسمه جوزيف يشتغل في شراء الأراضي العربية على زيارة القرية ومفاوضة بعض أهلها بإسم بعض الشركات اليهودية، واستطاع بواسطة المذكورين أن يتعاقد مع بعض أصحاب السهام، واشتدت الأصوات بالإنذار. ولقد كان الرئيس كما ذكرت قد تعاقد مع الزعماء الأربعة الذين ذكرناهم لشراء مشاع هذه القرية، وأن هؤلاء تعاقدوا بدورهم مع بعض وجوه القرية، غير أنه ظهر لنا أن العقود التي عقدوها لم تكن قوية محكمة، وأن الزعماء الأربعة تصرفوا بالقسم الأكبر من السلفة التي قبضوها من المجلس ولم يدفعوا إلا جزءاً منها، وكان أهل القرية يقولون إن المشاع هو لكل حي في القرية، وأن الوجهاء الذين تعاقد معهم الزعماء الأربعة ليسوا مفوضين وليسوا قادرين على التنفيذ، وأن التعاقد لن يكون قوياً إلا إذا كان مع أصحاب السهام، أي مع كل حي في القرية. وكانت مشاعات القرى المذكورة مسجلة في الطابو على أسماء رؤساء

الحمائل، ولم يكن للأرض قيمة ما لكل الأهالي من جهة، وللشيوع من جهة أخرى، ولأن احتمالات البيع غير واردة من جهة ثالثة، حتى إن المسجلة على أسمائهم كانوا يستغلون هذا التسجيل لأنه يقتضيهم أن يدفعوا ضرائب عن أرض لا ينتفعون بها، فلما نشطت حركة السمسرة والبيوع تحركت مطامع ورثة رؤساء الحمايل التي كانت المشاعات مسجلة على أسمائهم، وتحركت في الوقت نفسه مطامع أهل القرية، وادعى الأولون أن الأرض ملكهم، ورفض الآخرون هذا الإدعاء وقالوا إن الاسماء المسجلة هي بطريق الإعارة، وان المشاع لجميع أفراد القرية، حتى وصل أمر مشاع بيت ليد وزيتا إلى المحاكم، وأيدت هذه وجهة نظر أهل القرية وقررت نتيجة للتحقيق والتدقيق أن الأسماء المسجلة هي أسماء مستعارة. وكان هذا تأييداً للواقع، لأن المشاعات كانت مرفقاً لجميع أهل قريتها، ومشاع عتيل لم يصل إلى المحاكم، فتعاقد الزعماء الأربعة مع أصحاب القواشين (قوشان هي كلمة تركية بمعنى سند الطابو)، وتعهد هؤلاء بإقناع وإرضاء الجميع الذين هم رؤساءه أو رؤساء حامولاته، غير أنهم طمعوا فلم يجدّوا في الإرضاء والإقناع ولم ينصفوا، ولعبت الدسائس والسمسرة في أهل القرية، فأخذوا يقولون إنهم لا يعترفون برؤسائهم ولا بما تم بينهم وبين الزعماء الأربعة من تعاقد، وأخذ بعضهم يذهب إلى يافا فيتعاقد مع جوزيف اليهودي. وإزاء هذا الموقف بادرنا لمعالجة الأمر مع الأفراد بالاتفاق مع الزعماء الأربعة الذين كان موقفهم حرجاً وعجزوا عن السير في إتمام العملية.

السير في أتمام عملية مشاع عتيل وما كان في سبيل ذلك:

وذهبنا إلى القرية في ركب كان فيه الحاج أمين وأمين التميمي وعبد الرحمن التاجي وأمين عبد الهادي وفخري الحسيني ومحمد العفيفي وجمال الحسيني سكرتير المجلس وأنا والدكتور مصطفى البشناق الذي صار مأموراً لأوقاف نابلس خلفاً لي، واستقبل الركب إستقبالاً حافلاً حماسياً. وهناك اتفقنا على وضع عقود جديدة، فأخذ عليها تواقيع الأفراد رجالهم ونسائهم على السواء حتى لا يبقى مجال لليهود وسماسرتهم. وكنت قد هيأت صيغة عقد محكمة وافق عليها المحامون، واستطعنا في هذه السفرة أن نأخذ تواقيع من نحو نصف أصحاب الأسهم، وحاسبناهم على ما كانوا أخذوه من الزعماء، ودفعنا لهم من جديد جنيهاً واحداً عن كل سهم، وعدنا بعد أيام، واستطعنا أن نأخذ تواقيع من الباقي على العقود. ومن سياق هذه الزيارة الثانية والعملية كلها رأينا عجائب من الأخلاق، فمن الناس من كان متعاقداً على سهامه مع اليهودي جوزيف وقابضاً منه بعض المال، وكان متعاقداً قبل تعاقده مع اليهودي مع الزعماء الأربعة وقابضاً منهم بعض المال، وصعب على هؤلاء أن يخرجوا صفراً من عمليتنا الجديدة المباشرة، فتحايل أحدهم وجعل امرأته تتقدم للتعاقد معنا، وسايرنا الأمر لأننا رأينا في توقيع امرأته ربطاً أشد له ولها. ومن الناس من كان يسير بيننا وبين اليهودي في مساومات لأجل أن يأخذ منا رشوة أو وعداً برشوة، وكان اليهودي رشا بعض المتعاقدين مع الزعماء الأربعة، ووعد برشاو أخرى لهم، وكان ذلك يؤدي إلى التباطؤ في التعاقد وإلى التلاعب فيه، ومنهم من كان يقرأ صيغة العقد ويحاول أن يشكك فيها أو

يجد فيها ثغرة يتحجج بها عن التعاقد. ولقد ذكرنا في العقد أن الأوقاف ملزمة بأن يكون لابن قرية عتيل الأولوية في المزارعة بأجرة المثل، في حين كان نص صيغة عقد اليهودي مشدداً على وجوب تسليم الأرض وعدم المرور بها، ومقيداً للبائع بغرامة فاحشة إذا أخل في عهده. ولكن المتحذلقين أو أصحاب الضمائر الناقصة كانوا يبحثون في عقدنا عن ثغرة أو غلطة للتعطيل أو للرشوة. ولم يكن تشدد عقد اليهودي يثير فيهم خوفاً أو يحملهم على التردد، لأنه كان يدفع جنيهاً زيادة عنا، وكان سماسرته يهونون عليهم شدة عقد اليهودي.

إتمام عملية مشاع زيتا وما جرى في صددها:

وفيما الركب في عتيل في الزيارة الأولى جاء وفد من شيوخ وشبان قرية زيتا يعلنون رغبتهم في بيع مشاعهم للمجلس وتخوفهم من أيلولته لليهود في حال بقاء التعاقد بينهم وبين حمدان الحاج أحمد ومحمد عبد الحليم، اللذين كانا يعملان لحساب عبد الرحمن التاجي وشكري التاجي كما ذكرنا قبل، ويقولون إن أهل القرية لا يريدون من المجلس إلا أن يدفع السلفة التي دفعها لهم حمدان ومحمد. واستجاب الركب للرجاء، وسار وفي مقدمته الحاج أمين نحو زيتا واستقبل بحماس وحفاوة عظيمة، وهناك قطع أهل القرية عهوداً على الوفاء والجد والإخلاص، فأعطى الحاج أمين لهم وعداً بإنجاز أمرهم في أول فرصة. واستمرت مطالبتهم، وجاءت عمليات التسوية إلى زيتا قبل عتيل والطيبة والطيرة فعادت الدسائس واشتد الطلب والخوف، فاليهود من ناحية أخذوا يرسلون سماسرتهم ويغوون البسطاء ويرشون بعض الوجوه ويأخذون تواقيع بعض المساهمين على عقود، ووصل الإغراء إلى حد أن محمد عبد الحليم وهو مرتبط هو وحمدان مع عبد الرحمن وشكري التاجي تعاقد مع يهودي على بيعه ثلثي سهام المشاع الذي تعاقد عليهما مع أصحابهما وقبض منه سلفة، وربط نفسه بغرامة فادحة، وأن مختار القرية وبعض وجوهها قبضوا رشوة من اليهود، في حين أنهم كانوا قبضوا رشاوي غير يسيرة من محمد عبد الحليم وحمدان حين تعاقدا مع أهل القرية في سنة 1929 لحساب عبد الرحمن وشكري التاجي، ومنهم من كان متعاقداً معهما وقابضاً منهما سلفة على سهامه، بالإضافة إلى الرشوة الزائدة لأجل مساعدته على تيسير العمل في القرية، وأغرب من هذا أن بعض الذين كانوا يأتون إلى المجلس ويلتمسون منه التعجيل كانوا في ذات الوقت يذهبون إلى اليهود ويدخلون معهم في مساومات وينشرون الأخبار حول تدخل المجلس وحول مساومات اليهود ليوجدوا جواً ملائماً لما يهدفون إليه من منافع خاصة. وقد ذكر لنا البعض إسم سليم عبد الرحمن كواحد من المتحركين في هذا الميدان، كما أن اثنين من أهل القرية اعترفوا لي بذلك بالنسبة لأنفسهم.

وفي هذا الظرف كانت حالة المجلس المالية قد سويت وصار من الممكن أن نأخذ من الحكومة مبلغاً كبيراً، وكان الحاج أمين في رحلة في الهند، وكان وكيله أمين التميمي، فاندفع في سبيل إنجاز أمر مشاع زيتا، مع أنه كان مخالفاً في الأصل للمشروع برمته. وذهبت أنا وهو إلى بيت عبد الرحمن التاجي في بيارته في وادي حنين لنتحدث معه في الأمر لأنه هو وشكري ابن عمه أصحاب العلاقة الأولى بذلك. ومتعاقدان مع عبد الحليم وحمدان

عليه. وكان الاثنان يعلقان أهمية كبيرة على الصفقة وأرباحها الكبيرة، غير أنهما لمحا ما يحاك من دسائس، وما في مسألة المشاع من تعقيد، وما يدور في دماغ محمد عبد الحليم وحمدان من نيات مريبة بالنسبة لهما، وعرف بما تم بين محمد عبد الحليم وبين اليهود من تعاقد، فرأيا أن يتظاهرا بالمروءة ويوافقا على التنازل عن الصفقة للمجلس إذا ما دفع لهما ما خرج من يديهما مضافاً إليه فوائده القانونية منذ خروجه. وقد ذهبنا في باديء الأمر أنا وأمين التميمي وعوني عبد الهادي وأمين عبد الهادي وشكري وعبد الرحمن التاجي إلى زيتا لندرس الحالة، وهناك ظهرت صعوبات عديدة وقوية نتيجة لدسائس اليهود وأطماع الطامعين من أهل القرية، وقد وقف بعض هؤلاء يضعون العراقيل من جهة ويساوموننا على رشاو لهم من جهة ثانية، وكانت اللعبة مكشوفة إلى حد غريب، بل أن سمساراً من أهل القرية اسمه شاكر مناع معروف بالوقاحة والفسق لما قيل له انك كنت أول الموقعين على العقد مع حمدان ومحمد عبد الحليم، وأنك قبضت منهما مبالغ غير يسيرة كرشوة أيضاً، قال إن هذا المشاع له ولأمثاله بمثابة نبع يفيض للانتفاع به واللعب عليه، وأنه كان يأمل من اليهود ما لا يقل عن خمسة آلاف جنيه، وأنه وقع ذلك العقد لأن توقيعه عليه لن يفقده ذلك المبلغ من حيث أنه يعرف المصير النهائي الذي سوف يصير إليه المشاع نتيجة لذلك. أما الآن وقد جاء المجلس ووضع إصبعه فإن أمله سوف يخيب، ولذلك فإنه يقف موقفه لضمان منافعه. وقال هذه الأقوال على مسمع أهل القرية. وظلت الصعوبات والعراقيل مستمرة، وظل هذا الفاسق الوقح في غيّه ووقاحته ودسائسه.

ولقد أثار بعضهم إشكالاً جديداً في أمر هذا المشاع، حيث كان صدر قرار في سنة 1922 من محكمة بأنه (906) سهام حسب أفراد القرية في هذه السنة، وكان الإشكال هو هل يكون هذا العدد للسهام هو المعتبر، أم أن السهام يجب أن تكون حسب عدد نفوس أهل القرية حين التسجيل في التسوية. وكان القصد من إثارة هذا الإشكال البلبلة والفساد، لأن أناساً ينتفعون من التقسيم الأول أكثر من انتفاعهم من التقسيم الثاني، فأرادوا التمسك بالتقسيم الأول. وكان التقسم الثاني مغرياً لأن أناساً كثيرين ولدوا بعد التقسيم الأول، فيكون لهم في التقسيم الثاني حظ ونفع يحرمون منهما في التقسيم الأول، فبرزوا هم وأولياؤهم يتشددون في تثبيت حقهم عن طريق تثبيت التقسيم الثاني. وذهبت أنا إلى يافا واستشرت عزة نمّر القاضي المركزي، الذي كان هو القاضي الذي اشترك في تقرير القرار الأول، وكان من رأيه أن التقسيم الأول هو المعتبر لأنه مؤيد بحكم محكمة ما لم يلغ بحكم محكمة أعلى، وإلى هذا كانت الصعوبة شديدة في أمر هذا المشاع إطلاقاً، إذ كان يجب أن يؤخذ تنازل من كل فرد صغيراً كان أم كبيراً، ذكراً أم أنثى ممن كانوا حين صدور حكم المحكمة أو من ورثتهم وورثة ورثتهم، ومن وكلاء الغائبين، ومن أوصياء القاصرين. ثم بدت صعوبة أخرى في مصير تسجيل المشاع، وهو إذا تم أخذ تنازل أصحاب الأسهم على الوجه المذكور، وجاءت محكمة التسوية فقررت أن المشاع من حق المجموع، وأن حق المجموع دائم غير مقيد بزمن ولا بأشخاص الزمن، فلا يباع ولا يشترى. فماذا يكون أمر التعب الذي بذل والمال الذي وزع؟ غير أن فكرة الإنقاذ كانت مستولية على الجو والأذهان

من جهة، والخوف على الأرض إذا ترك اليهود والفلاحون وجهاً لوجه، لأن اليهود قد يستطيعون أن يتغلبوا على الصعوبات بمالهم من نفوذ وبما في أيديهم من أموال من جهة ثانية، جعلت العزم قوياً على الدخول في الأمر والسير فيه، ولو كان فيه ما هو ظاهر من مغامرة وتورط.

وقد رجعنا إلى القدس بعد الدرس، وتعاقد المجلس مع شكري وعبد الرحمن التاجي، على أن يدفع لهم أربعة آلاف جنيه كفائدة على أموالهم التي دفعوها، بالإضافة إلى أصل هذه الأموال. وتعاقد المجلس مع حمدان الحاج أحمد، ومحمد عبد الحليم على تنازلهم عن حقوقهم مقابل فروق في الثمن بلغت حصتهما فيها خمسة آلاف جنيه، ثم رجعنا إلى القرية لنتعامل مع أفرادها. وقد لبثنا نتردد عليها نحو شهرين أنا وجمال الحسيني بصفته سكرتير المجلس، والدكتور مصطفى البشناق مأمور أوقاف نابلس، ووجيه البشتاوي كاتب أوقاف نابلس، ونلاحق الأفراد ليوقعوا على العقود ويستوفوا بقية ثمن سهامهم، وقد قاسينا كثيراً وعانينا من بعضهم صنوفاً من الحيل والأطماع والوقاحة والتناقض، ولعب السمسار الفاسق شاكر مناع وأخوته وبعض أصدقائه في كل هذه المواقف، وقد أغرى بعضهم وجعله يذهب إلى الخضيرة ليسجل تنازله لليهودي أمام مأمور التسوية فيها، واستطاع أن يقنع بعضهم في إرسال نسائه إلى الخضيرة أيضاً لأجل ذلك، مع أن أهل القرية كانوا يتحرجون حين يأتي دور نسائهم للتنازل لنا، ويطلب منهن الحضور إلى مأمور التسوية الذي كان في دار المختار في القرية. ووصل أمره إلى إغراء أناس كانوا وقعوا على عقودنا وقبضوا حقهم منا وتنازلوا أمام مأمور التسوية بالذهاب إلى الخضيرة خلسة، وتسجيل تنازل ثان أمام مأمور التسوية فيها لليهودي، وتسجيل تراجعهم عن إقرارهم وتنازلهم الأول لنا.

وكان بعضهم متحمساً في بدء الحركة، فلما جاء دوره للتوقيع والتنازل أخذ يتردد ويطلب منا رشوة له عن تنازله ورشوة عن اقناعه بعض أقاربه بالتنازل لنا، ولقد تمكنا بالنهاية، مع ذلك، بالمثابرة والملاحقة والمطاولة والمسايرة والأناة من أخذ تواقيع تسعة أعشار المستحقين، وتنازلهم أمام مأمور التسوية. وظفر اليهودي بالعشر العاشر. وبلغ ما دفعناه لأهل زيتا من جديد، وما دفعناه لعبد الرحمن التاجي وشكري التاجي وحمدان ومحمد نحو ثلاثة وثلاثين ألف جنيه.

ومن واجبي أن أستدرك فأقول إن ما لاقيناه من متاعب كان من أفراد، وأن أكثر أهل القرية كانوا متعاونين مدركين أن العملية لصالحهم.

ومن الجدير بالذكر أن مشاع زيتا الذي سجّل معظمه باسم الأوقاف في هذه العملية كان يبلغ نحو تسعة آلاف دونم، وكان ملاصقاً لحدود أراضي يهود مستعمرة الخضيرة، وأن بعض وجهاء زيتا تواطؤوا مع اليهودي الذي تتلاصق أرضه بالمشاع وأقطعوه مساحة كبيرة منه تبلغ نحو ثلثه أو أكثر، وكانت صورة التواطؤ إدعاء الوجيه بأنه مالك للأرض وبيعها لليهودي، وإقامة دعوى صورية أمام محكمة الأراضي التي كان يرأسها قاض يهودي اسمه استرمزة في حيفا، واستصدار قرار وحكم منها بتثبيت ملكية البائع وشراء الشاري وتصرفه فيه.

ولقد انكشفت الحيلة لأهل القرية، وثبتت للحكومة وعزل القاضي ومأمور الطابو الذي سجل الأرض بقوة الرشوة، غير أن البيع ظل نافذاً باعتبار أن الشراء كان بحسن نية. غير أن

أهل القرية لم يتراجعوا وظلوا يلاحقون القضية التي كانت بين يدي المحاكم إلى أن خرجت من فلسطين، ومما فعله اليهودي إزاء ذلك إغراء بعض أهل القرية وإحضارهم أمام كاتب العدل وأخذ شهاداتهم أو إقرارهم بأن البائع هو صاحب الأرض الذي كان يتصرف فيها حتى يتلافى نتائج قضية أهل القرية في سبيل إبطال البيع واسترداد الأرض منه.

إتمام عملية مشاع الطيبة:

وفي ربيع سنة 1934 وصلت عمليات تسوية الأراضي الحكومية إلى قرية الطيبة، وجاء وجهاؤها وشيوخها إلى المجلس يستعجلونه بإنهاء عملية أراضيهم وتسجيلها للمجلس، فذهبنا وباشرنا العمل. ومن الانصاف والحق أن أسجل أننا لم نلق من أهل القرية ما لاقيناه في زيتا وعتيل، باستثناء حذلقة بعض المتعلمين في القرية في صدد مصير الأرض وصلة أهلها بها، ثم باستثناء إغراء شخص من يافا هو علي المستقيم الذي كان معروفاً بالسمسرة والتعامل مع اليهود لبعض أصحاب السهام في المشاع، وأخذه تواقيعهم على عقوده، وإعطائه سلفة لهم. وقد انبرى وجهاء القرية وشيوخها للأولين فأسكتوهم، وبذلوا جهدهم مع علي المستقيم حتى جعلوه ينسحب من الميدان ويمزق العقود ويأخذ ما دفعه لأصحابها من سلفة، وقد كان هؤلاء الوجوه والشيوخ يكفوننا كثيراً من العمل. فقد كنا نذهب إلى القرية ليوم واحد في الأسبوع للدفع، وكانوا في غيابنا يستحضرون أصحاب السهام ويأخذون تواقيعهم ويهيئونهم للحضور أمام مأمور التسوية للإقرار بالتنازل، وكان مأمور التسوية ثابت الخالدي. وقد أثار في بدء الأمر بعض الإشكالات، ولكنه تلقى من الدكتور حسين الخالدي (الذي تحالف مع الحاج أمين في انتخابات بلدية القدس في هذا الظرف وكسب وصار رئيساً للبلدية خلفاً لراغب النشاشيبي) إيعازاً بالتيسير، فصدع وسارت الأمور هينة، وكان جمهور أهل القرية بدورهم يصدرون عن نفس طيبة راضية مدركة بأن العملية لصالحهم ولإنقاذ أراضيهم، ولم يستطع اليهود أن يتدخلوا أو يحاولوا التدخل. وقد أنسانا موقف أهل الطيبة ما لاقيناه من مرارة من بعض أفراد أهل زيتا.

عملية تسجيل مشاع عتيل:

وبعد بضعة أشهر وعلى ما أظن في صيف عام 1934، وصلت عمليات التسوية إلى عتيل التي كنا أخذنا عقوداً من المساهمين ببيع سهامهم في المشاع على ما ذكرناه قبل، وقد لاقينا هنا ما لاقيناه في زيتا من مواقف ومكائد ومساومات بعض أهل القرية، ولقد حاول بعض وجوهها أخذ رشوة منا لتعضيد العملية وتنفيذها، وحاول السماسرة وجوزيف اليهودي من ورائهم أن يلعبوا. ولما يئس الوجوه من أخذ رشوة منا ارتشوا من اليهودي، ونظموا دفتراً بالسهام على أساس رؤساء الأسر في حين أننا كنا نريد تنظيمه على أساس كل فرد، حتى نجعل لعبة اليهودي وإغراءاته محدودة أو مشلولة. ولقد كان خبر الرشوة واليهودية شائعاً وصحيحاً، إلى درجة أن بعض أعضاء لجنة التسوية الذين كانوا من المرتشين لم يحاولوا إنكاره، وقد أحبطنا عمليتهم لأن وجوهاً مخلصين آخرين في القرية ومن أعضاء لجنة التسوية نظموا الدفتر على الطريقة التي أردناها، وسار العمل وفقاً لذلك أمام التسوية. وكان السماسرة واليهودي يبذلون جهدهم في العرقلة والتعصيب ولكنهم لم

ينجحوا، واستطعنا في النهاية إتمام عملية التسجيل لهذا المشاع أيضاً بعد إتمامها لمشاع قريتي زيتا والطيبة والحمد لله على توفيقه.

وكانت فكرة إنقاذ الأرض من الخطر اليهودي تجعلنا نتحمل ما لاقيناه من مصاعب ومكايد بنفس راضية، ونبذل الجهد للتغلب عليها باعتبار أن ذلك كفاح وطني ومعركة بيننا وبين العدو الباغي.

هذا ولم أجدني سجلت شيئاً مما كان من أمر مشاع الطيرة، الذي كان الحاج أمين قد تعاقد في سنة 1929 مع زعمائها عليه، ولم أستطع أن أتذكر ما تم في أمره حينما أخذت أعيد تدوين المذكرات في سنة 1975.

تعليق على ما كان لزعماء قضاء طولكرم وما صار أمرهم إليه:

ولقد كتبت في نهاية الدفتر القديم الذي سجلت فيه مسائل هذه المشاعات تعقيباً في صدد الزعماء الأربعة حمدان الحاج أحمد، وعبد الجبار العمر، وعبد اللطيف أبو هنطش، وعلي الحاج محمد، ورأيت من المفيد أن أثبته، وقد قلت أن المفروض أنهم أقوياء نافذون وقابضون على ناصية الحال في عملية مشاع عتيل، وهذا كان سبب تعاقد المجلس معهم. ولكن ظهر في سياق العملية أن الفلاحين قد تخلصوا من تأثيرهم وتأثير أمثالهم، ولم يعودوا يتهيبون منهم ويسيرون وفق أوامرهم ورغباتهم كما كان الأمر سابقاً، ولذلك كانت فائدتهم للمجلس محدودة، بل كان يظهر أنهم كانوا يستقوون به أكثر مما كان يستقوى بهم. ولقد كان أبو هنطش أقواهم شخصية وأشدهم شكيمة، فمات في هذا الظرف، فازدادوا ضعفاً وقلة هيبة، والأربعة هم وجهاء وزعماء ناحية الشعراوية الغربية، ويرجع نفوذهم وبروزهم إلى زمن الدولة العثمانية، حيث كانوا أذكياء متحركين ذوي عصبية ويسار، وذوي نشاط ومداخلات مع الموظفين ومع بعض زعماء ووجوه مدينتي نابلس وطولكرم، والأولى كانت مركز المتصرفية والثانية مركز القائمقامية، وصار لهم أسماء رنانة، وصار الناس يحسبون حسابهم ويتزلفون لهم. وكان من أسباب قوتهم التزامات الأعشار، فألغيت هذه الطريقة زمن الانتداب، فأخذ نفوذهم ونفوذ أمثالهم يضعف، ولكنهم ظلوا واهمين من جهة ويحاولون استغلال إسمهم الرنان القديم من جهة ثانية غير أن الواقع أثبت أن هذا لا يمكن أن يدوم، وأن الناس قد تنبهوا واستيقظوا.

ظروف إنهاء عملي في مديرية الأوقاف وعزلي من السلطات:

وأكتفي بما قدمته عن قصة عملي في مديرية الأوقاف العامة وسيرتي فيها، ولقد قضيت في هذا العمل خمس سنوات ونيفا، أي من أوائل سنة 1932 إلى خريف سنة 1937. وفي أيلول 1937 انتدبتني اللجنة العربية العليا التي قامت للإشراف على الإضراب الطويل والحركة الوطنية، والتي كنت من أعضائها على ما سوف أزيده شرحا فيما بعد، لأمثلها في مؤتمر عربي عام قررت عقده في بلودان ـ سورية بالاتفاق مع لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية، للمشاركة في رفض قرار التقسيم الذي أعلنته الحكومة الإنكليزية بناء على توصية اللجنة الملكية، والاحتجاج عليه على ما سوف أزيده شرحا فيما بعد أيضاً. وبعد خروجي بأسبوعين قتل حاكم الناصرة اندروز، وتوتر الموقف واتخذت السلطات تدابير إرهابية ذكرتها سابقاً، ومن

جملتها عزلي من مديرية الأوقاف العامة، وإصدار قانون يمنع دخولي الى فلسطين وبذلك انتهى عملي في مديرية الأوقاف، ولبثت بعيداً عن فلسطين سبعة وعشرين عاماً إلى أن جئتها زائراً لبضعة أيام سنة 1964 . وحينما سافرت إلى سورية من أجل مؤتمر بلودان، كلف فياض الخضراء المحاسب العام بالقيام مقامي، وسلمته مفاتيح صندوق مال الأوقاف الذي كان بحوزتي وفي غرفتي.

وقد علمت أن السلطات سارعت بعد عزلي إلى فتح الصندوق ومراجعة الحسابات النقدية، وهي تظن أنني لا بد من أن أكون قد أخذت ما فيه من نقد حين خروجي من فلسطين، وأنها دهشت لأنها وجدت النقد جميعه دون أي نقص، وكان هذا بالنسبة لي طبيعياً جداً.

كلمة عن فياض الخضراء محاسب الأوقاف العام:

وعلى ذكر فياض أقول إني وجدت هذا الرجل حينما استلمت المديرية محاسباً عاماً، وبقي أثناء عملي في هذه المديرية في عمله. وهو أخو صبحي وأكبر منه وهو تقي ورع إلى أقصى حد، وهو ملم بعمله، وكان يقوم به بمهارة ونشاط وأمانة وملاحقة وإخلاص، وكان ضيق الأفق نوعاً ما، وضعيفاً في الثقافة العامة، ومتزمتاً في الأمور الدينية. ولا أعرف يقيناً متى ترك الوظيفة ولا كيفية تركه لها. وقد ذهب بعد النكبة إلى المدينة المنورة وجاور قبر الرسول ﷺ متبتلاً منقطعاً للصلاة والرياضة الروحية، وجاء مرة في الخمسينات إلى دمشق وزارني، وكان وجهه يطفح نوراً، ثم عاد وعلمت أنه توفي في المدينة المنورة في الستينات رحمة الله عليه.

مأمورو أوقاف فلسطين في عهد مديريتي:

ولقد كان في فلسطين ستة مراكز فيها مأمورو أوقاف تابعون للمديرية العامة، وهي يافا ونابلس والخليل وغزة وعكا والقدس، وكانت القدس تخلو أحياناً من مأمور وتدار بواسطة المدير العام، وكان هذا راهناً في قسم من فترة عملي، وكان يتولى مأمورية يافا في عهدي محمد العفيفي، ثم تولاه سعد الدين عبد اللطيف، ومأمورية نابلس الدكتور مصطفى البشناق، ومأمورية غزة سعد الدين عبد اللطيف، ثم تولاه جميل الشهابي. ومأمورية الخليل ابراهيم سعيد الحسيني، ومأمورية عكا علي رضا النحوي ثم صبحي الخضراء.

كلمة جديدة عن الدكتور مصطفى بشناق مأمور أوقاف نابلس:

ولقد كتبت كلمة عامة عن الدكتور مصطفى البشناق، فأكتفي هنا بالقول أنه كان في عمله في أوقاف نابلس نشيطاً ومخلصاً وغيوراً ومنضبطاً، وتعاونا في سياق العمل على أحسن ما يكون، بالإضافة إلى ما كان من تعاوننا السابق في سياق مدرسة النجاح والحركة الوطنية في نابلس وتواثقنا وصداقتنا الحميمة.

كلمة جديدة عن محمد العفيفي مأمور أوقاف يافا:

ولقد كتبت أيضاً كلمة عامة عن محمد العفيفي، فأكتفي كذلك بالقول إنه كان نشيطاً حصيفاً قوي الشخصية في عمله. وقد نقل الى مأمورية أوقاف القدس التي لم يكن يشغلها أحد حينذاك، وفي أثناء عمله في القدس كان غيوراً نشيطاً، ولم أر منه ولم أسمع عنه ما يريب، وكنا متعاونين على أحسن ما يكون حين كان في يافا ثم في القدس.

كلمة عن إبراهيم الحسيني مأمور أوقاف الخليل:

وإبراهيم سعيد الحسيني الذي كان يتولى مأمورية أوقاف الخليل يرد ذكره لأول مرة، فأقول أنه ابن سعيد الحسيني خال الحاج أمين (الذي ذكرناه في سياق حقبة فيصل، وكان قد سمي وزيراً للخارجية السورية عقب إعلان سورية بملكية فيصل)، وهو أصغر مني ببضع سنين، وقد تعلم في مدارس الحكومة العثمانية في القدس، ثم ذهب إلى الآستانة لإتمام دراسته، ولا أعرف يقيناً أنه حصل على إجازة من مدرسة عالية. وأخلاقه حسنة ويده نظيفة ومنضبط يلتزم الأوامر المعطاة له، وفيه شيء من الدروشة المحببة. ولقد كان في الوقت نفسه بمثابة وكيل أو مندوب للحاج أمين في مدينة الخليل التي كانت بالنسبة للحاج ذات أهمية خاصة في السياسة المحلية، والتي كان فيها جبهة معارضة قوية بزعامة رئيس بلديتها الشيخ مخلص الحموري، فكان إبراهيم يبذل جهده بالإضافة إلى عمله في الأوقاف في تقوية الجبهة المجلسية في الخليل، ولكن ذلك لم يكن ليجعله يخلّ بواجبات وظيفته والاستغراق فيها. وكنا متعاونين معاً، وبيننا ألفة ومودة وإن لم تتوطد صداقة حميمة، ولا أعرف ماذا كان من أمره في عمله بعد عزل السلطات الحاج أمين من رئاسة المجلس ومغادرته خلسة لفلسطين في سنة 1937، وأرجح أنه أقيل أو ترك، وأظن أنني رأيته مرة عند الحاج أمين في لبنان أيام لجوئه فيه قبل الحرب العالمية الثانية، ولم أعد أراه إلا حينما زرت فلسطين في سنة 1964، حيث أقمت بضعة أيام تزاورنا أثناءها وجددنا عهد مودتنا والفتنا، وقد توفي في السبعينات.

كلمة عن سعد الدين عبد اللطيف مأمور أوقاف غزة ويافا:

وسعد الدين عبد اللطيف من القدس، وهو يصغرني ببضع سنين، ومتعلم وإن لم أعرف درجة ذلك، وكان يتولى مديرية مدرسة في غزة، ثم عين مأموراً لأوقافها، وقضى سنة أو سنتين في هذه الوظيفة في عهد مديريتي، ثم نقلناه الى مأمورية أوقاف يافا خلفاً لمحمد العفيفي الذي نقلناه إلى القدس على ما ذكرت قبل، وهو غيور نشيط ذكي وأمين ومنضبط وحسن الأخلاق والمعشر والحديث، وفيه دعابة. وقد تعاونا معه في العمل، وصار بيننا ألفة ومودة، وتركت أنا فلسطين وهو في مأمورية أوقاف يافا، وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية لجأ الحاج أمين إلى العراق، فجاء هو من فلسطين وانضم إليه، ولا أعرف هل كان أقيل أم استقال، وصار من أشد رجال الحاج ارتباطاً به ومناصرة له، واستمر كذلك إلى النهاية. ولما استطاع الحاج أثناء الحرب أن يفلت من مطاردة الإنكليز وينتقل إلى أوروبا، ذهب هو أيضاً بطريقة ما وانضم إليه. ولما عاد الحاج أمين الى مصر عاد هو الآخر وانضم اليه وعينه الحاج أمين محاسباً وأميناً لصندوق الهيئة العربية العليا، وظل إلى جانب الحاج طيلة بقائه في مصر، ثم انتقل معه إلى بيروت في أواسط الخمسينات. وقد سافر إلى القاهرة بعد وفاة الحاج أمين ولا يزال يقيم فيها.

كلمة عن جميل الشهابي مأمور أوقاف غزة:

ولما خلت مأمورية غزة بنقل سعد الدين إلى يافا، عين جميل الشهابي خلفاً له، وهو من أسرة الشهابية الوجيهة البارزة في القدس، وهو متعلم، وأظن أنه متخرج من مدرسة زراعية،

ولا أعرف درجتها. ولم يكن بأس في أخلاقه ونشاطه وانضباطه وأمانته، ولكنه فيه شيء من الحدة وروح المعارضة والملل من العمل، وقد تعاونا معه وقامت بيننا ألفة ومودة، وتركت فلسطين وهو في الوظيفة، ثم استقال أو أقيل، ولم أره بعد خروجي من فلسطين، ولا أعرف ما كان من أمره، وقد توفي في القدس.

كلمة عن علي رضا النحوي مأمور أوقاف عكا:

وعلي رضا النحوي الذي ذكرنا أنه كان مأموراً لأوقاف عكا خريج المدرسة الملكية العليا في الآستانة، وهو من أسرة صفدية وجيهة، وشغل في زمن الدولة العثمانية بعض الوظائف الإدارية، مدير ناحية ثم قائمقام، وكان في دمشق أثناء حقبة فيصل وشغل وظيفة قائمقام في أحد الأقضية السورية وفي دمشق. تعرفنا به وقامت بيننا ألفة ومودة، وكان ممدوح السيرة نزيه اليد، إلا أنه كان ضعيف الشخصية وضئيل الجسم معاً. وعاد الى فلسطين بعد سقوط العهد الفيصلي، وأخذ ينشط في ميدان الحركة الوطنية، وكان مجلسي الميول في الوقت نفسه مثل رجال أسرته. وقد عينه المجلس مأموراً لأوقاف عكا قبيل استلامي المديرية، وظل في العمل نحو سنتين، ثم انتخب رئيساً لبلدية صفد، ففضل هذا المنصب وانسحب من مأمورية الأوقاف، وظل مخلصاً للحركة الوطنية نشيطاً في مجالها، فاصطدم مع السلطات الانتدابية واستقال من البلدية. وظل ينشط في ذلك المجال الى النكبة، وخرج مع من خرج وأقام في دمشق حزيناً كسيراً إلى أن توفاه الله في الخمسينات. وكان يتردد عليّ في دمشق، وازدادت صلتنا وتواثقنا به رحمة الله عليه.

كلمة جديدة عن صبحي الخضراء مأمور أوقاف عكا:

وقد عين المجلس صبحي الخضراء خلفاً لعلي رضا النحوي حينما ترك الأوقاف، واستلم رئاسة بلدية صفد كما ذكرنا، ولقد كتبنا كلمة عامة عن صبحي فنكتفي بالقول في صدد عمله في الأوقاف أنه كان قوي الشخصية غيوراً نشيطاً، ولقد كان شديد النشاط في المجال الوطني أثناء عمله في الأوقاف، ولما انفجر الموقف بعد قتل حاكم الناصرة سنة 1937 عزلته حكومة الانتداب وطاردته واعتقلته، وما كان بعد ذلك جاء في الكلمة العامة عنه.

مشهد السيل العظيم قرب بحيرة لوط (البحر الميت):

هذا ومن المشاهد التي لا أنساها ووقعت لي في سياق عملي في مديرية الأوقاف ومتصلة به، أنه كان للأوقاف كرم كبير في عين ماء أظن أنها كانت تدعى «عين الجدي»، وكان الكرم يسمى بهذا الاسم في سفح جبل يبعد عن ساحل البحر الميت من ناحيته الجنوبية الغربية نحو كيلومتر، ويبعد عن أريحا نحو عشرة كيلومترات، حيث تقدم بعض المزارعين بطلب استئجار الكرم الذي لم يكن عامراً لمدة طويلة، لغرس أشجار تلائم البيئة، يكون للأوقاف منها ثلث الريع أو ربعه، فرأينا أن ندرس الموضوع على الطبيعة، وسافرنا أنا والحاج أمين وأمين التميمي والشيخ بدر يونس وبعض المطالبين للإيجار إلى أريحا، وعلمنا أن السيارات لا تصل إلى المكان، فهيأوا لنا خيلاً نركبها عند انتهاء الطريق المعبد، والمسافة نحو ثلاثة كيلومترات، وكان الموسم في اوائل الربيع، وقد ارتأوا أن نتغدى في

الكرم، وهيأوا لوازم طبخة رز مع الفول باللحم ليطبخوها في الكرم. ووصلنا قبل الظهر بساعتين، وتجولنا في الكرم، وهو واسع وقسم منه في الجبل وقسم منه في السهل المتصل بالبحر الميت، وفيه بعض أشجار الغابات، والعين التي فيه تنبع من الجبل وتجري نحو البحر وليست غزيرة المياه. وبينما نحن جالسون في انتظار الغذاء غيمت السماء وأخذت تنقط بنقط من المطر، فقال خبراء كانوا معنا يجب أن نعجل في الأكل والعودة قبل تساقط الأمطار حتى لا يدهمنا السيل، فقد كنا تحت سطح البحر بنحو 300 متر، وفوقنا جبال شاهقة متاخمة لمناطق بيت لحم والخليل. وأخذت نقط الماء من السماء تكثر، فأكلنا من صحوننا ونحن وقوف، ثم ركبنا الخيل للعودة حيث السيارات. وصدق الخبراء فلم نكد ننتهي من الأكل على عجل، ونركب الخيل حتى تدفقت المياه من الجبال بسيل، ولم يلبث السيل أن عظم واختلط بالبحر حتى صار البحر ممتد إلى سفح الجبل وارتفعت مياهه نصف متر أو أكثر، وخضنا بخيلنا وهدير الماء شديد والخطر محدق، حتى إن فرس الحاج أمين عثرت في السيل وأوقعته فيه ووقعت عمته عن رأسه وكاد يلقى حتفه غرقاً لولا مسارعة الرجال إلى ناحيته خوضاً بالأقدام وإمساكه وانتشاله، وسلم الله فاجتزنا منطقة السيل ووصلنا مكان السيارات، ووقفنا نلهث ونتعجب من السيل العظيم المفاجيء، بينما لم يكن في محلنا مطر عظيم، حيث يبدو أن المطر كان شديداً في الأعالي.

* * *

51

الأحداث التي كانت في فترة عملي في مديرية الأوقاف:

ولقد كانت في فترة عملي في مديرية الأوقاف الإسلامية العامة أحداث كثيرة عامة وخاصة عايشتها وشاركت فيها وسجلت أشياء كثيرة في دفاتري القديمة. وفيما يلي ما سجلته وتذكرته من جديد عن هذه الأحداث كما فعلت بالنسبة لما كان في فترتي عملي في مدرسة النجاح ثم في مأمورية الأوقاف في نابلس، مع تنبيه أكرره هنا على أني لا أكتب تاريخاً وثائقياً، وإنما أسجل ما كان من مسموعاتي ومشاهداتي ومشاركاتي وانطباعاتي، وقد يكون في الأحداث ما لم أسمعه أو أشهده أو أشارك فيه، وقد يكون في ما أسجله ثغرات في الأسماء والتواريخ، على أن ذلك لن يقلل جدوى ما أسجله ان شاء الله.

(1) نشوء حزب الاستقلال الفلسطيني وسيرته:

من أهم ما شغلني في أوائل فترة عملي في مديرية الأوقاف واستمر أثره ومداه وإن كان ضعف في السنة الثالثة من هذه الفترة، هو تأسيس حزب الاستقلال العربي.

ميوعة الحركة الوطنية وخفوتها كانتا الحافز على إنشاء الحزب:

وكان الباعث على ذلك ميوعة الموقف السياسي وخموده، أو بكلمة أخرى خفوت الحركة الوطنية، فقد عاد التشاد بين فريقي

بناء على المباحثات والمكاتبات التي جرت بين كل من السادة صبري الخضراء، رشيد الحاج
ابراهيم، معين الماضي، فهمي العبوشي، عجاج نويهض، عزة دروزة، عوني عبد الهادي
بشأن تشكيل كيان حزبي لم يبق للأحزاب الوطنية الاستقلالية مترفعا عن السياسات
الشخصية والعائلية التي سادت في البلاد في السنوات الأخيرة اجتمع المذكورون عدا
[illegible] ٢٨ [illegible] – ٢/٦/ ٩٣٢ في بيت
احمد عوني عبد الهادي.
وبعد المداولة اقروا مواد القانون الاساسي للحزب. ثم عهدوا الى عوني وعجاج وعزة
بوضع صيغته النهائية وطبعه وتحضير البيانات التفسيرية وارسالها الى [illegible] لتوقيعه
وتقديمها للحكومة.
وكذلك عهدوا اليهم بوضع بيان ينشر [illegible] والمسائل التي حفزته
للعمل والاسس التي سيسير عليها لكون بمثابة خطة الحزب وارسال البيان للاخوان الباقين
للموافقة عليه ونشره بعد ذلك [illegible]
وقد اتفقوا على ان [illegible] عوني [illegible] وعجاج [illegible]
وقد قرروا ان يكون هؤلاء الثلاثة باعتبار اقامتهم في القدس كلجنة ادارية لهيئة الحزب
تنفذ الشؤون العادية الجارية ولهم عقد اجتماعات لهيئة الحزب للبحث في الامور
المهمة [illegible]
وقد تذاكروا [illegible] واتفقوا [illegible]
[illegible] وان تترك [illegible] الى وقت آخر.

صبري الخضراء [illegible]

[illegible]

محضر الاجتماع الأول المنعقد في طبريا للبحث بتشكيل حزب الاستقلال الفلسطيني.

(بخط عزة دروزة).

بيان

حزب الاستقلال العربي

لم يبق احد لم يشعر بما طرأ على الحركة الوطنية الاستقلالية في هذه البلاد من ضعف وفتور وما وقعت فيه من اضطراب وانحلال ووهن ، وما تسلط عليها من اهواء ونزعات زعزعت أساسها ، وبدلت اغراضها ومراميها . فبعد ان كانت قضية استقلالية تحمل خواص القضية العربية الكبرى ، وتحتفظ بمزاياها الشريفة ، وتكافح الاستعمار وجها لوجه ، اصبحت قضية محلية تتأثر بالنزعات الشخصية والاهواء العائلية والقوى الانتخابية الى حد كبير . واذا كانت الحركة الوطنية وقفت في ادوارها الاخيرة موقف الكفاح ، فلم يكن ذلك منها في الاعم الاغلب موقفا صريحا لا مواربة فيه ، وانما كان موقف عجز ومسكنة ، محصورا بمقاومة القضية المصطنعة التي نكبنا بها الاستعمار ليلهينا بها عن اغراضنا المقدسة العليا .

بل لقد اصبحنا وليس لنا في هذه البلاد قضية استقلالية نكافح دونها ، ونرد الاطماع الاستعمارية عنها وصرنا الى حالة نستسيغ معها وطأة المستعمر ، ونستمرئ اساليبه ، ونتهافت على نيل رضاه بالتقرب والزلفى ونتبادل الاستنصار به ليغلب فريق منا فريقا سعيا وراء قضايا الاشخاص والاهواء .

ولما كان من الجريمة الوطنية ان تصبح قضيتنا الاستقلالية التي اسس بنيانها على هامات شهداء العرب في الاقطار العربية ، ووضعت قواعدها على مناكب المجاهدين الابرار رهن القضايا الشخصية ، وفريسة تلك النزعات والحزبيات المحلية ، وان لا يكون لفريق الاستقلاليين الذي عمل مع الجماعات العربية في ميدان القضية العربية الاستقلالية الكبرى ولمن يجري على مبادئهم وينحو نحو غاياتهم كيان مستقل ينضوون تحت لوائه لاستئناف الجهاد الوطني وفقا للمبادئ التي اعتنقت وبشر بها تبشيرا خالصا لوجه الله والامة والوطن ، فان موقعي هذا البيان اعتقدوا انه آن الاوان لاقامة مثل هذا الكيان ، والقيام بحركة وطنية خالصة على يد حزب سياسي استقلالي ، يكافح الاستعمار وما جره من نكبات كفاحا شريفا بلا مداورة ولا موارية فيه ، ويعمل على نيل حقوق الامة الاستقلالية وانهاضها ، حاذيا حذو الاحزاب الوطنية التي تعتز بالمبادئ الشريفة وتستمد منها الرشد والهدى .

وسيكون الاساس الذي يبنى عليه هذا الكيان الحزبي الاستقلالي ، التجانس في المبادئ الصحيحة ، والاخلاص وحب العمل النزيه ، والابتعاد كل الابتعاد عن الجري في طريق السياسات المحلية والشخصية والعائلية وجعل المصلحة العامة فوق كل مصلحة ، وعدم الاهتمام بتة لفكرة اكثرية او اقلية وما يتبعها من سياسات انتخابية لا يراد بها وجه الله والوطن ، وعدم الموالاة او المعاداة لاي كان الا بما يكون له من موقف او عمل يتفق او يتعارض مع مبادئ الحزب وغاياته وخططه .

وقد اجمعوا امرهم ووضعوا قانون حزبهم الذي ينشرونه على الناس مع هذا البيان ، وانهم على كل الثقة ان في البلاد فريقا كبيرا من الاحرار المخلصين يشعرون بالحاجة التي شعر بها القائمون بهذا الحزب ، ويألمون مثل المهم فيمدون اليهم يد المؤازرة والتأييد في هذه الحركة التي يرجون من ورائها الخير والخدمة الخالصة المنزهة عن كل شائبة وشين ، سائلين الله عز وجل ان يثبت اقدامهم ، ويهديهم السبيل الأقوم لخدمة القضية الوطنية الأستقلالية ، والخروج بها من هذه الدائرة الضيقة التي حصرت فيها ، وتخليصها من تلك الأهواء والنزعات التي ذهبت بنضارتها وقللت من كرامتها . والله ولي التوفيق .

بيان تأسيس حزب الاستقلال الفلسطيني : المؤسسون الموقعون على البيان،
من اليمين : محمد عزة دروزة - عجاج نويهض - فهمي العبوشي - رشيد الحاج إبراهيم - صبحي الخضراء - معين الماضي - عوني عبد الهادي.

بيان

حزب الاستقلال العربي

لم يبق احد لم يشعر بما طرأ على الحركة الوطنية الاستقلالية في هذه البلاد من ضعف وفتور ، وما وقعت فيه من اضطراب وانحلال وفوضى ، وما تسلط عليها من اهواء ونزعات زعزعت اساسها ، وبدلت اغراضها ومراميها . فبعد ان كانت قضية استقلالية تحمل خواص القضية العربية الكبرى ، وتحتفظ بمزاياها الشريفة ، تكافح الاستعمار وجها لوجه ، اصبحت قضية محلية تتأثر بالنزعات الشخصية ولاهواء العائلية والقوى الانتخابية الى حد كبير . واذا كانت الحركة الوطنية وقفت في ادوارها الاخيرة من الكفاح ، فلم يكن ذلك منها في الاعم الاغلب موقفا صريحا لا مواربة فيه ، وانما كان موقف عجز ومسكنة ، محصورا بمقاومة القضية المصطنعة التي تكيدنا بها الاستعمار ليلهينا بها عن اغراضنا المقدسة العليا .

بل لقد اصبحنا وليس لنا في هذه البلاد قضية استقلالية نكافح دونها ، ونرد الاطماع الاستعمارية عن ، وصرنا الى حالة نستسيغ معها ولاء المستعمر ، ونستمرئ اساليبه ، ونتهافت على نيل رضاه بالتقرب والزلفى ، ونتبادل الاستنصار به ليغلب فريق منا فريقا سعيا وراء قضايا الاشخاص والاهواء .

ولما كان من الجريمة الوطنية ان تصبح قضيتنا الاستقلالية التي اسس بنيانها على هامات شهداء العرب في الاقطار العربية ، ورفعت قواعدها على مناكب المجاهدين الابرار رهن القضايا الشخصية ، وفريسة تلك النزعات والحزبيات المحلية ، وان لا يكون للفريق الاستقلالي الذي عمل مع الجماعات العربية في ميدان القضية العربية الاستقلالية الكبرى ولمن يجري على مبادئهم وينحو نحو غاياتهم كيان مستقل ينضوون تحت لوائه لاستئناف الجهاد الوطني وفقا للمبادئ التي اعتنقت ونشر بها تبشيرا خالصا لوجه الله والامة والوطن فان موقعي هذا البيان اعتقدوا انه آن الاوان لاقامة مثل هذا الكيان ، والقيام بحركة وطنية خالصة على يد حزب سياسي استقلالي ، يكافح الاستعمار وما جره من نكبات كفاحا شريفا لا مداورة ولا مواربة فيه ، ويعمل على نيل حقوق الامة الاستقلالية وانهاضها ، حاذيا حذو الاحزاب الوطنية التي تعتز بالمبادئ الشريفة وتستمد منها الرشد والهدى .

وسيكون الاساس الذي يبنى عليه هذا التكتل الحزبي الاستقلالي التجانس في المبادئ الصحيحة ، والاخلاص وحب العمل النزيه ، والابتعاد كل الابتعاد عن التردي في طريق السياسات المحلية والشخصية والعائلية ، والمصلحة المطلقة فوق كل مصلحة . وعدم الاهتمام بتة لفكرة اكثرية او اقلية وما يتبعها من سياسات انتخابية لا يراد بها وجه الله والوطن ، وعدم الموالاة او المعاداة لاي كان الا بما يكون له من موقف او عمل يتسق او يتعارض مع مبادئ الحزب وغاياته وخططه .

وقد اجمعوا امرهم ووضعوا قانون حزبهم الذي ينشرونه على الناس مع هذا البيان ، واثقين كل الثقة ان في البلاد فريقا كبيرا من الاحرار المخلصين يشعرون بالحاجة التي شعر بها القائمون بهذا الحزب ، والمرجو من امثالهم ان يمدوا اليهم يد المؤازرة والتأييد في هذه الحركة التي يرجون من ورائها الخير والخدمة الخالصة المنزهة عن كل شائبة ووهن ، سائلين الله عز وجل ان يثبت اقدامهم ، ويهديهم السبيل الأقوم لخدمة القضية الوطنية الاستقلالية ، والخروج بها من هذه الدائرة الضيقة التي حصرت فيها ، وتخليصها من تلك الاهواء والنزعات التي ذهبت بنضارتها ونالت من كرامتها . والله ولي التوفيق .

بسمه

بيان

حزب الاستقلال العربي

لم يعد هناك من يشعر بالخطر على الحركة الوطنية الاستقلالية في هذه البلاد من ضعف وفتور، وما وقعت فيه من افراط وتفريط وفوضى، وما تسلط عليها من الاهواء والنزعات التي زعزعت أساسها، وبدلت اغراضها ومراميها. فبعد ان كانت قضية استقلالية تمثل عناصر القضية العربية الكبرى، وتحتفظ بمزاياها الشريفة، وتكافح الاستعمار وجهاً لوجه، اصبحت قضية كيد تتأثر بالنزعات الشخصية والاهواء العائلية والقوى الانتخابية الى حد كبير. واذا كانت الحركة الوطنية وقفت في ادوارها الاولى موقف الكفاح، فلم يكن ذلك منها في اكثر الاحيان موقفاً صريحاً لا هوادة فيه، وانما كان موقف تحرز ومسكنة محصورة في مقاومة النقمة المصطنعة التي تكفلها الاستعمار [illegible] عن اغراضها المقدسة العليا. بل لقد اصبحنا وليس لنا في هذه البلاد قضية استقلالية تكافح دونها وترد الاطماع الاستعمارية عنها، وصرنا الى حالة [illegible] منها ولاة المستعمر، [illegible] اساليبه، وتتهافت على نيل رضاه بالتقرب والزلفى، و[illegible] الاستعمار به [illegible] قضايا الاشخاص والاهواء.

ولما كان من الحرية الوطنية ان تصح قضيتنا الاستقلالية التي اسس بنيانها على هامات شهداء العرب في جميع انحاء البلاد العربية، وروت تربتها دماء المجاهدين الابرار، [illegible] القضايا الشخصية، و[illegible] تحت الحركات والاحزاب المحلية، وان لا يكون للعرب في فلسطين الذي يعمل مع الجماعات العربية في ميدان القضية العربية الاستقلالية الكبرى ولمن يجري على منوالهم، وينحو نحو غاياتهم كيان مستقل ينضوون تحت لوائه، ويستأنف الجهاد الوطني وفقاً للمبادئ التي اعتنقت ونشر بها تبشيراً خالصاً لوجه الله والامة والوطن. فان موقعي هذا البيان اعتقدوا انه آن الاوان لاقامة مثل هذا الكيان، او القيام بحركة وطنية خالصة على يد حزب سياسي استقلالي، يكافح الاستعمار ويجاهره مجاهرة كفاحاً شريفاً لا مداورة ولا هوادة فيه، ويعمل على نيل حقوق الامة الاستقلالية واهدافها حاذياً حذو الاحزاب الوطنية التي تعتز بالمبادئ الشريفة وتستمد منها الرشد والهدى.

وسيكون الاساس الذي يبنى عليه هذا الكيان الحزبي الاستقلالي التجانس في المبادئ الصحيحة والعقيدة [illegible] الشريف، والعمل الشريف، والابتعاد كل الابتعاد عن الجري في طريق السياسات المحلية والشخصية والعائلية وجعل المصلحة العامة فوق كل مصلحة، وعدم الاهتمام بتاتاً لفكرة الحزبية او الفئة وما يشبهها من سياسات انتخابية لا يراد بها وجه الله والوطن، وعدم الموالاة او المعاداة لمن كان الا بما يكون له من موقف او عمل يتفق او يتعارض مع مبادئ الحزب وغاياته وخططه.

وقد اجمعوا امرهم ووضعوا قانون حزبهم الذي سيشرعون به على الناس مع هذا البيان. والذين كل الثقة ان في البلاد فريقاً كبيراً من الاحرار المخلصين يشعرون بالحاجة التي شعر بها المؤمنون بهذا الحزب، و[illegible] شعورهم، سيمدون اليهم يد المؤازرة والتأييد في هذه الحركة التي يرجون من ورائها الخير والخدمة الخالصة المنزهة عن كل شائبة وشين. سائلين الله عز وجل ان يثبت اقدامهم ويهديهم السبيل الاقوم لخدمة القضية الوطنية الاستقلالية، والخروج بها من هذه الدائرة الضيقة التي حصرت فيها، وتخليصها من الاهواء والنزعات التي ذهبت بنضارتها وقللت من كرامتها. والله ولي التوفيق.

البيان، بخط محمد عزة دروزة.

الموقعون من اليمين: عجاج نويهض ـ محمد عزة دروزة ـ صبحي الخضراء ـ معين الماضي ـ عوني عبد الهادي ـ سليم سلامة ـ فهمي العبوشي ـ رشيد الحاج ابراهيم ـ أكرم زعيتر.

(٢)

بيان تشكيل جمعية

١ ــ اسم الجمعية حزب الاستقلال العربي
٢ ــ عنوان الجمعية القدس* (مكتب المحامي عوني بك عبدالهادي)
٣ ــ مركز الجمعية الرئيسي القدس
٤ ــ غاية الجمعية المندرج في المادتين الثالثة والرابعة من قانون الحزب المرفق مع هذا البيان .
٥ ــ الهيأة المؤسسة
هم اصحاب التواقيع على هذا البيان والمندرجة اسماءهم في قائمة اخرى على حدتها .

عضو	امين المال	مساعد امين السر العام	امين السر العام لحزب الاستقلال العربي
[signature]	محمد عزة دروزة نابلس [signature]	[signature]	[signature]
عضو	عضو	عضو	
[signature]	[signature]	[signature]	

قائمة باسماء اعضاء هيأة حزب الاستقلال العربي

الاسم	العنوان	الاهلية	الوظيفة
عوني عبدالهادي	محامي بالقدس		امين سر عام الحزب
عجاج نويهض	صحافي بالقدس		مساعد امين سر عام الحزب
عزة دروزة	نابلس		امين مال الحزب
معين الماضي	محامي بحيفا		عضو
رشيد الحاج ابراهيم	مدير البنك العربي بحيفا		"
صبحي الخضرا	عكا		"
فهمي العبوشي	جنين		"

امين السر العام لحزب الاستقلال العربي

[signature]

قانون حزب الاستقلال العربي

— ١ —

١ — اسم الحزب : (حزب الاستقلال العربي)

٢ — مركزه الرئيسي : (مدينة بيت المقدس)

٣ — مبادئ الحزب :

أ — استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً .

ب — البلاد العربية وحدة تامة لا تقبل التجزئة .

ج — فلسطين بلاد عربية . وهي جزء طبيعي من سورية .

٤ — غايات الحزب :

أ — العمل على تحقيق المبادئ الواردة في المادة السابقة بما يستطيعه بنفسه وبالاشتراك مع الهيئات الاستقلالية في الاقطار العربية .

ب — الاحتفاظ باراضي البلاد وضياع الثروة للعرب .

ج — الغاء الانتداب ووعد بلفور .

د — اقامة حكم عربي برلماني في فلسطين

هـ — انهاض البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .

— ٢ —

٥ — هيأة الحزب هي المؤسسون على هذا القانون ومن تقرر الهيأة بنسبة ارباع اعضائها ضمه اليها من حين الى آخر .

٦ — للهيأة امين سر عام ومساعد وامين مال يتولون امور الحزب الادارية والكتابية والمالية .

٧ — تشكل هيأة الحزب حسب ما تراه هيئات فرعية مؤلفة من ثلاثة اشخاص على الاقل . وهيئة الحزب هي التي تختار اعضاء هذه الهيئات وتضم اليها من تراه من حين الى آخر .

٨ — ليس لاعضاء هيئة الحزب وهيئات فروعه ان ينضموا الى حزب سياسي آخر الا باذن من هيئات الحزب .

٩ — يؤدي اعضاء هيئة الحزب وهيئات فروعه اليمين الآتية :

(اقسم بالله ان اكون مخلصاً لمبادئ الحزب وغاياته . حافظاً لمقرراته . متعاوناً
(مع اخواني فيه على تنفيذها واعلاء شأن الحزب . مشاوراً رفاقي على ما فيه
(الحق والخير والكرامة . وان لا استغل الحزب ولا اوافق على استغلاله لمآرب
(او نسب او نفوذ شخصي او عائلي) .

١٠ — للحزب اعضاء مؤازرون ومخبرون . وهم الذين يناصرون مبادئ الحزب وغاياته ومقرراته ويدفعون لصندوق الحزب اشتراكاً شهرياً لا يقل عن عشرة ملات . ويسجل هؤلاء الاعضاء في سجلات هيأة الحزب اما برأي الهيأة واما برأي هيئات الفروع .

١١ — كل من تثبت خيانته للحزب او مبادئه وغاياته يطرد من الحزب باكثرية ثلثي هيأة الحزب على ان يعطى حق الدفاع قبل ذلك .

١٢ — مالية الحزب تتكون من الاشتراكات الشهرية التي يدفعها اعضاء الحزب ومن التبرعات .

١٣ — هيأة الحزب هي التي تقرر ميزانيتها وتصادق على ميزانية فروعها .

١٤ — للحزب قانون داخلي تضعه هيأة الحزب .

رقم

دوائر حاكم القدس

سيدي

لي الشرف ان اعلمكم بوصول الاوراق المختصة بتأليف جمعية حزب استقلال العربي

وذلك بموجب المادة السادسة من قانون الجمعيات العثماني.

١) اسم الجمعية حزب استقلال العربي

٢) عنوان الجمعية القدس فلسطين

٣) رئاسة الجمعية القدس فلسطين

٤) قصد الجمعية ١) استقلال البلاد العربية استقلالا تاما (ت) البلاد العربية وحدة تامة لا تقبل التجزئة
٢) فلسطين بلاد عربية وهي جزء طبيعي من سوريا

المديرين المسؤولين

اسم	عنوان	اهليتهم	رتبة
عوني عبد الهادي	القدس	محامي	امين السر العام
عجاج نويهض	«	محرر	مساعد امين السر العام
عزة دروزة	نابلس	–	امين المال
معين الماضي	حيفا	محامي	عضو
رشيد الحاج ابراهيم	«	مدير البنك العربي	«
صبحي الخضرا	عكا		
اكرم زعيتر	نابلس	معلم	«
فهمي العبوشي	جنين		
دكتور سليم سلامة		طبيب اسنان	

وبموجب المادة السادسة من قانون الجمعيات العثماني يطلب منكم ان تنشروا هذا الوصل في احدى الجرائد وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

١٢ آب ١٩٣٢

حضرة الفاضل عوني بك عبد الهادي امين السر العام لحزب استقلال العربي القدس المحترم

د حاكم مقاطعة القدس

15069

Ref. No. 3939/826.

~~Deputy~~ District Commissioner's Offices,
Jerusalem ~~District~~.
Jerusalem

13th August, 1932.

Sir,

I have the honour to acknowledge the receipt of the statement set out below with regard to the formation of the Arab Independence Party Society which is required by Article 6 of the Ottoman Law of Societies.

1) Name of Society Arab Independence Party.

2) Address of Society Jerusalem, Palestine.

3) Headquarters of Society do.

4) Aim of Society (1) The independence of the Arab countries.
(2) The Arab Countries are one and inseparable.
(3) Palestine is an Arab country and an integral part of Syria.

5) Responsible Directors:

Name	Address	Qualifications	Position
Auni Abdulhadi	Jerusalem.	Advocate	Gen. Secretary.
Ajaj Nuweihid	Jerusalem	Editor	Asst. Gen. Secretary.
Izzat Darwaza	Nablus	-	Treasurer.
Muin el Madi	Haifa	Advocate	Member.
Rashid Haj Ibrahim.	Haifa	Manager, Arab Bank,	Member.
Subhi el Khadra	Acre	-	Member.
Fahmi Aboushi	Jenin	-	Member.
Akram Zweitar	Nablus	School master	Member.
Dr. Salim Salameh	Ramallah	Physician	Member.

I desire to draw your attention to Article 6 of the Ottoman Law of Societies which require you to publish this receipt.

I have the honour to be,
Sir,
Your obedient servant

W. Baylon
~~Deputy~~ District Commissioner,
Jerusalem ~~Division~~ District.

Auni Bey Abdulhadi,
Gen. Secretary,
Arab Independence Party,
Jerusalem.

صورة الكتاب الوارد على حزب الاستقلال

من سعادة حاكم القدس

حضرة الفاضل عوني بك عبد الهادي امين السر العام لحزب الاستقلال العربي بالقدس — المحترم

سيدي :

لي الشرف ان اعلمكم بوصول الاوراق المختصة بتأليف جمعية «حزب الاستقلال العربي» وذلك بموجب المادة السادسة من قانون الجمعيات العثماني :

١ — اسم الجمعية : حزب الاستقلال العربي

٢ — عنوان الجمعية : القدس فلسطين

٣ — رئاسة الجمعية : القدس فلسطين

٤ — قصد الجمعية : (١) استقلال البلاد العربية استقلالا تاما . (٢) البلاد العربية وحدة تامة لا تقبل التجزئة (٣) فلسطين بلاد عربية وهي جزء طبيعي من سوريا .

المديرون المسؤولون

الإسم	العنوان	الاهلية	الرتبة
عوني عبد الهادي	القدس	محام	امين السر العام
عجاج نويهض	القدس	محرر	مساعد امين السر العام
عزة دروزة	نابلس		امين المال
معين الماضي	حيفا	محام	عضو
رشيد الحاج ابراهيم	حيفا	مدير البنك العربي	عضو
صبحي الخضرا	عكا		عضو
اكرم زعيتر	نابلس	معلم	عضو
فهمي العبوشي	جنين		عضو
الدكتور سليم سلامه	رام الله	طبيب اسنان	عضو

وبموجب المادة السادسة من قانون الجمعيات العثماني اطلب منكم ان تنشروا هذا الوصل في احدى الجرائد وتفضلوا بقبول فائق الاحترام في ١٣ آب سنة ٣٢

صبحي يعقوب

عن حاكم مقاطعة القدس

جريدة الجامعة الاسلامية

المجلسيين والمعارضين إلى حدته في مناسبة المؤتمر الإسلامي على ما شرحته قبل، واستمر بعده. وكان قد توقف قليلاً إبان ثورة البراق ولجنة شو البرلمانية ورحلة الوفد إلى لندن.

عودة التهاتر بين المجلسيين والمعارضين:

فعاد الفريقان إلى المهاترات والإنفعالات الشخصية، وشغلوا بها عن الحركة الوطنية وواجباتها، في حين كانت الظروف تقضي بازدياد الانفعال بهذه الحركة.

استمرار السلطات في إهمال تواصي اللجان:

فحكومة الانتداب استمرت في إهمال تراصي لجان التحقيق في تحديد هجرة اليهود وشرائهم للأراضي العربية، فاستمر هؤلاء ينشطون في المجالين.

اشتداد الهجرة اليهودية بسبب حركة هتلر:

وكانت حركة هتلر ضد اليهود التي بدأت في سنة 1931 أخذت تشتد، وصار يهرب من المانيا من يستطيع من اليهود إلى أوروبا، واستغلت الحركة الصهيونية هذا استغلالاً عظيماً، وصارت توجه الهجرة الألمانية إلى فلسطين وتضغط على الحكومة الإنكليزية لتوسيع باب الهجرة، واستجابت هذه لهذا الضغط، فأخذ يتدفق سيل من الهجرة في سنتي 1931 و1932 بقياس كبير.

اشتداد النشاط الإستعماري اليهودي:

وكان كثير من الألمان الهاربين استطاعوا أن يهربوا أموالهم، فنشطت بذلك حركة البناء وشراء الأراضي وإنشاء البيارات والمصانع، وصارت الحركة الصهيونية تأتي بعمال من اليهود من أوروبا الشرقية لتشغيلهم في ذلك، فصار السيل أكثر تدفقاً.

استغلال خربى الذمة للموقف في السمسرة والمتاجرة بالأراضي:

ولقد رأى بعض خربى الذمة والوطنية في ذلك فرصة لهم فنشطوا في السمسرة، حتى لقد دخل في مجالها من لم يكن يخطر ببال أن يدخلوها.

شركة التاجي والنشاشيبي والبيطار للمتاجرة بالأراضي:

وحتى لقد أنشأ عبد الرحمن التاجي وعبد الرؤوف البيطار وراغب النشاشيبي وآخرون من زملائهم، شركة للمتاجرة في الأراضي.

مقالات جريدة فلسطين ومقالاتي في الرد عليها في صدد أراضي فلسطين واليهود:

وجرأت جريدة فلسطين على كتابة مقالات تضمنت آراء بعض زعماء اليهود في أمر أراضي فلسطين وتحديد مناطق للشراء والبيع فيها، وكان ذلك في مناسبة ما كانت حكومة الانتداب تحاوله من تجارب فيما سمته المشروع الإنشائي الرامي إلى تطوير أساليب الزراعة وتحسين وسائل الري، وعلم أن الجريدة كتبت هذه المقالات بإيعاز من الزعيم اليهودي خانكين الذي كان يتولى شراء الأراضي العربية لمصلحة الصندوق القومي اليهودي. ولقد أثارتني هذه المقالات، فكتبت بضع مقالات في جريدة الجامعة العربية التي كانت تصدر في القدس، أهاجم فيها فكرة مقالات فلسطين وأنبه على ما فيها من انحراف وتوجيه خطير، ولقد التقيت بعيسى العيسى صاحبها ورئيس تحريرها في عمان في مناسبة ذهابنا للسلام على الملك حسين حينما أتى به من قبرص مريضاً على ما ذكرته قبل، وجرى حديث بيني وبينه حول

امام الاستعمار وجهاً لوجه

جبهة الاستعمار المتحدة وظلمها الناشف!

للاستاذ محمد عزة افندي دروزة

واريد بالظلم الناشف ذلك الظلم الذي يوقعه الباغي على المستضعف دون مداورة ولا تستر ، ودون ما تختلج له في نفسه اية عاطفة من الاشفاق والحياء ؛ مستهتراً اشد استهتار في حقوق المستضعف وعواطفه وكيانه وآلامه ، معتبراً اياه اكثر جموداً من الجماد واقل حساسية من ادنى الحيوان .

ولقد قص علينا الزعيم التونسي المجاهد السيد الثعالبي في اماليه التي يمليها على احدى صحف مصر امثلة من هذا الظلم الناشف الذي ينزله المستعمرون على ابناء تونس تجعل المرء يظن نفسه انه انما يقرأ اقاصيص خرافية ابعد ما يكون عن الوقوع ، لولا مكانة الزعيم الكبير من الصدق والجهاد . ولولا انه في اماليه التي يمليها يقف موقف المتحدي للمستعمر صفعه في وجهه صفعاً قاسياً عنيفاً بهذه الامثلة التي يسردهـا مؤيدة بالارقام والامكنة والازمنة والاسماء .

هذه الامثلة من شأنها ان تهم الامم وتمسها مهما كانت هذه الامم بعيدة عن تونس وابناء تونس عرقاً وجنساً ودماً ولغة وديناً لو لم تكن تونس ومثيلات تونس من ضحايا الاستعمار امام جبهة استعمارية متحدة تواطأت فيها دول الاستعمار على هذا النوع من الارهاق والشدة والعنف الذي تقشعر من هوله الابدان .

وانت اذ تلتفت الى اخوات تونس في المغرب تجد ولا ريب هذا الاسلوب الناشف من الظلم هو السائد فيها سيادة فظيعة منكرة .

وما اجبار دوائر الاوقاف الاسلامية على مساعدة ارساليات التبشير الكاثوليكي بالمال لانشاء الكنائس الكاثوليكية في ديار المسلمين والعمل بكل جهد على اختطاف الاطفال من احضان الامهات والقائهم بين يدي متحمسي القسس والرهبان ، وما استلاب الاراضي الخصبة من ايدي اصحابها واقطاعها للمستعمر الافرنسي معدوداً بالمال الوفير من ميزانية البلاد لانشاء المستعمرات الدارة في تونس والجزائر ومراكش ، ثم وما تنشئة صبيان الجزائر تلك التنشئة الافرنسية الكاثوليكية الى الحد الذي يصبح فيه غريباً كل الغرب عن لغة آبائه ودينهم وتقاليدهم وعاداتهم الا امثلة لهذا النوع من الظلم الفظيع . ولست بعيد العهد عن حوادث الطليان في طرابلس الغرب وقسوتهم ومحاولتهم ابادة اهلها وتشريدهم والاستيلاء على اراضيهم واموالهم وخيراتهم وتمثيلهم فيهم افظع انواع التمثيل والقتل ...

والفلسطيني العربي يرى في كل يوم هذا الاسلوب من الظلم الناشف يقع عليه دون ما تستر او مداورة ؛ وهذه سياسة الابادة التي يشجعها المستعمر في بلاده وفيها القضاء التام على كيانه القومي والسياسي تعمل عملها المستمر

وانتقل ببصرك الى سوريا والبلاد العربية في سواحل البحر الهندي وغربي البحر الاحمر تجد هذا النوع من الظلم يصدمه في كل الظروف والحوادث ، ويكون فيه المستعمر هو الآمر الناهي المتصرف في رقاب العباد واموالهم والمهيمن على كل حركة من حركاتهم هيمنة مطلقة لا حساب فيها ولا حجاب .

تجاه هذه الجبهة المتحدة المتواطأ عليها ، لارتكاب افظع انواع الظلم والجبروت والطغيان في هذه الاقطار العربية ، تجد امماً وشعوباً متفككة العرى ، مفصولة الاجزاء ، انشغلت في مشكلات اقليمية ، خلقها لها المستعمرون تكملة للدور الدنيء الذي يمثلونه بكل قحة وجرأة . وكل ما يمنحه اهل هذه الاقطار بعضهم لبعض من مساعدة هو دعاء يدعونه في المساجد ، واحتجاج ينشرونه في الجرائد ، في حال وقوع حادثة عظيمة من المظالم ، وقد اصبحت نادرة لان الظلم قد وصل الى حد لم يعد يجعل قيمة لكلمة « حادث عظيم ». ولذلك كان تأثير هذا الدعاء والاحتجاج على المستعمرين تافهاً جداً ، واصبح كالورد الذي يتلوه الامي العلم تلاوة تقليدية دون ان يفهم معناه او يتحسس باثر له في نفسه

فاذا لم يغير العرب هذا الاسلوب من التضامن الضئيل ويخطوا به الى مجال اوسع منه يشعر المستعمرون به انهم امام جبهة متحدة تقف امام ظلمهم الناشف وتتعاون على الافلات منه فلن يكون لها منه خلاص ، انها متقهقرة امامه خطوة بعد خطوة الى ان يخذل كل ما لديه من مقاومة طبيعية قائمة ، فلا يلبث الاقطار العربية الغربية اي تونس والجزائر والمغرب الاقصى وطرابلس الغرب ان تكتسحها الاكثرية الاجنبية من الافرنسيس والطليان تستولي على اراضيها ، وتستأثر بخيراتها وتسمم ابناءها في دينهم ولغتهم وتقاليدهم وصناعتهم حتى لا يبقى لهم اقل من الحول والقيد، وسيكون الحال كذلك في فلسطين وغيرها من الاقطار العربية الشرقية بدون شك .

فعليهم ان يفكروا كثيراً فانهم امام جد ليس هو بالهزل ، وامام تواطؤ فظيع على بلادهم واراضيهم واموالهم وتقاليدهم واستقلالهم ولغتهم ودينهم

تناقض ان لنا ان نتخلص منه

الاستاذ محمد عزة دروزة

انه الكبة المزدوجة التي نكبت بها فلسطين خلقت فيها طبقة من الوطنية ليس لها مثيل في البلاد العربية الاخرى . وهي الطبقة الموالية للسلطة الاستعمارية والمناوئة للصهيونية ، ومكنت هذه الطبقة من التصدر في صفوف الحركة الوطنية وحق الكلام فيها بسبب كونها ضد الصهيونية فقط ، على رغم ما هو ثابت ثبوتاً قاطعاً من ان اصل البلاء هو الاستعمار وان السلطة الاستعمارية هي التي كانت ولا تزل سبب هذه الاخطار المفزعة التي تهدد كيان العرب عن طريق التوسع اليهودي وان المنطق يقضي بمكافحة الاستعمار وجهاً لوجه باعتبار انه هو اصل الشر ، وانه اذا اندك اندكت معه الصهيونية وذهبت كأمس الدابر .

وقد اساغت البلاد مع الاسف الشديد وجود هذه الطبقة وتصدرها في الحركة الوطنية وحق الكلام فيها . ووجدت السلطات الاستعمارية فيها خير معوان لها على ماتريد تنفيذه من اغراض ومشاريع فأمدتها بالمناصب الرسمية وشبه الرسمية واحاطتها بالرعاية والعطف ، ووظفت الاقرب والاصهار واتخذتهم كرهائن على ذويهم . واستمرأت هي الاخرى موقفها هذا ووجدت من تلك الاساغة مسوغاً للاستمرار في موالاة السلطات الاستعمارية والاتصال بها ، لتنفيذ اغراضها ومآربها ، وبث الدعاية لها فكان من ذلك كله هذا النفوذ الذي تتمتع به وهذا الموقف الذي تقفه دون مبالاة ولا استحياء .

وقد كان قرار يافا بمقاطعة الحفلات والمجاملات والمآدب واللجان الحكومية خير كاشف لهذه الطبقة جعلها تظهر بمظهرها الصحيح الذي لا لبس فيه ولا ابهام . فبعد ان تظاهرت في البطولة في الدعوة الى اللاتعاون واعلنت استعدادها لدوس مناصبها غضباً للكرامة الامة وسخطاً على سياسة الاستعمار التي كادت تحطم كيان العرب ؛ عادت تبث فكرة نقض ذلك القرار والاستهتار به باعتبار انه عمل غير مجد ، كأن الناس عدموا عقولهم ليصدقوا ان الذي لا يجرأ على مقاطعة حفلة شاي وتهنئة عيد مع ان مقاطعته هذه لا تعود عليه بخسارة مادية ولا مسؤلية قانونية يقاطع مقاطعة تؤدي به الى الخسارة المادية او المسئولية القانونية . ثم كانت هي التي تتقدم دائماً الى نقض هذا القرار بكل جرأة واستهتار .

لم تكتف هذه الطبقة بمواقفها هذه ، وتقديم المعذرة عن ذلك بطبيعة اتصالها بالسلطات الاستعمارية . بل ان طبيعة تكونها ، ولساغة وجودها في صدر الحركة الوطنية ، وما كان لها من ذلك من نفوذ وتأثير واعوان وانصار . كل ذلك جعلها تقف موقفاً اشأم من تلك المواقف ، وهو اولا الحشد والتأليب على انجاح الحفلات الحكومية واتخاذ القدرة على ذلك وسيلة من وسائل الزهو والمفاخرة مهما كان في ذلك من اهانة لكرامة الامة واسقاط لها في نظر المستعمرين . و(ثانياً) قلب كل حركة تندمر من هذه المواقف الى اعتبارات شخصية وسياسات محلية وادخال عناصر هذه الاعتبارات والسياسات فيها . و(ثالثاً) بث الابواق والاعوان بين الناس للمجادلة عما ترتكبه من آثام ، وتدفعه من مواقف مزرية ومهينة معاً .

هذا الموقف المتناقض في حركتنا الوطنية آن له ان ينتهي ولا ريب ، فهو موقف سخيف ومهين معاً .

واذا كانت طبيعة حركتنا البائسة المسكينة لا تزل تتسع لوجود طبقة توالي السلطات الاستعمارية وتتزلف اليها وتستمد منها القوة والنفوذ بما تمدها به من مناصب ووظائف ورعاية فانه آن لها على الاقل ان تضيق عن ان يكون لهذه الطبقة حق التصدر في الحركة الوطنية وتصرفها . ان اقل ما يقال في هذه الطبقة ان المصلحة فيها غالبة على ما سواها . وهي ترى ولا ريب انه لا يسعها ان تقف من السلطات الاستعمارية موقفاً قوياً جريئاً ، وان تقاطعها وان تدعو الى مقاطعتها ما دامت متصلة بها في مناصبها وجاهها ومصالحها . وقد يسوغ منطق حركتنا البائسة المسكينة هذا العذر . فانا والحالة هذه ان اطلب من هذه الطبقة ان تضحي بمناصبها ومصالحها او ان تقف في موقف المجازف فيها لاننا لا نزال بعيدين جد البعد عن هذا النوع من التضحية مهما تظاهرنا فيه وتداعينا اليه . ولكن الشيء الذي لا يجوزه المنطق هو ان تظل هذه الطبقة صاحبة شأن في الحركة الوطنية وصفوفها [illegible] يعقد اجتماع ولا تؤلف لجنة الا وتكون متصدرة فيها . لأن من طبيعة الحركة الوطنية مكافحة الاستعمار والمستعمرين ، فاشراك هذه الطبقة لا يخلو من ان يكون احراجاً لها واخراجاً عن طبائعها وهذا لا يجوز [illegible] او ان يكون استهتاراً بتلك الحركة وعدم الجد فيها وهو ما ينبغي [illegible] على اي حال ، لان بؤس حركتنا ومسكنتها اما اتتا اليها من [illegible] الموقف المتناقض ؟

محمد عزة دروزة

العرب

«أصحاب المصالح الحقيقية» إلى أين؟

العدد ٤١ السنة الأولى – ٢٤ حزيران ١٩٣٣

يريدون أن يشقوا للاستعمار طريقاً جديداً ليرموا بالقضية الوطنية في الصميم

للأستاذ محمد عزة دروزة

«أصحاب المصالح الحقيقية» تعبير من التعابير التي يخلقها ويبتدعها الاستعمار؛ ويرفعها على ألسنة عماله وأبواقه في كل بلاد نكبت بمواصفات لخصومة الاستعمار المنعقد عليها؛ والدعوة إلى مخالفته وجهاً لوجه بغير مهاودة ولا مواربة.

ويقصد من هذا التعبير كبار الملاك والأغنياء والأسر الكبيرة التي تستمد وجودها من حوادث الأيام الغابرة سيما من العهد الإقطاعي.

ولا نزال نذكر تلك الحملة التي روجتها الدعاية الاستعمارية باسم «أصحاب المصالح الحقيقية» على ألسنة الطغاة والأعوان في مصر حينما اشتد ساعد الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول، وكيف كانوا يعيرون سعداً بأنه فلاح! وبأن أنصاره هم جماهير الفلاحين والعامة التي لا مصالح حقيقية لها، لأنها ليست صاحبة أملاك واسعة ولا ثروة هائلة ولا جاه عريض! ولا أنساب متصلة بحوادث التاريخ مما كان [illegible]

وقد [illegible] هذه الدعاية [illegible] الحركة الوطنية القوية التي اعتنقت [illegible] السواد الأعظم من الجماهير والبائسين.

وليس من المعقول [illegible] أن لا يكون لفلسطين البائسة نصيب من هذه الدعاية [illegible] حركة وطنية جديدة قوية ونشيطة يرمي القائمون بها إلى توجيه الرأي العام العربي إلى خصومة المستعمرين وكفاحهم وجهاً لوجه لاعتبارهم أصل الشر ومصدر البلاء؛ بعد أن سلكت فلسطين مدة طويلة وهي تسعى لأن تكون خصومتها الصهيونية فقط، بحيث استطاع المستعمرون أن يجهروا ذلك بصراحة وطمأنينة على لسان لجنة شو! وقد أخذت هذه الحركة الجديدة تشتد يوماً بعد يوم حاملة لواء الدعوة إلى كفاح المستعمر واعتباره الخصم الحقيقي الذي يجب أن توجه إليه الخصومة والكفاح وقد بدأ أثر هذه الحركة يتغلغل في نفوس الشعب وخاصة في نفوس الشباب [illegible]

هذا [illegible] في الأخيرة في بعض الصحف العربية المحلية التي يعرف الناس [illegible] [illegible] الأسبوع [illegible] مؤتمر [illegible] الشأن في البلاد [illegible] الكاتب [illegible] والأسر [illegible]

[illegible] الوطنية التي قامت على المؤتمرات والسياسة [illegible] «أصحاب المصالح الحقيقية» فيها أركاناً وعمداً، فلم يخل منهم مؤتمر ولا وفد؛ ولا هيئة عامة أو خاصة. وإذا كان هناك نقص في الحركة الوطنية أو ضعف فهم من الذين يحملون تبعة هذا النقص إن لم نقل إنهم هم الذين يجب أن يحملوا تبعته حملاً تاماً.

وإذا فرضنا كما هو الواقع أن هذا النوع من الناس لا يكونون أكثر من واحد في المائة وأن الباقي من الأهالي هم من طبقة الكادحين والعمال والمتوسطين؛ ظهرت لك ناحية أخرى من النواحي الخبيثة السامة المدسوسة التي تشتمل عليها هذه الفكرة؛ إذ تكون قد رمت في ما رمت إليه إلى ترسيخ السيادة الإقطاعية والرأسمالية في البلاد وعدم اعتبار السواد الأعظم وقضية البلاد شيئاً مذكوراً على حين أن القضية الوطنية هي في الحقيقة قضية هذا السواد الأعظم لأنه هو الذي في حاجة إلى العناية والعطف والعدل وحماية القانون؛ ولأنه هو الذي تقع عليه تبعات وشرور الاستعمار والصهيونية في بلادنا في الدرجة الأولى؛ لا أولئك الذين لهم من ثرواتهم وأملاكهم وجاههم العريض وعلاقاتهم المتصلة بالمستعمرين تارة وبالصهيونية تارة أخرى ما يجعلهم دائماً في نجوة من الكارثة ووقعها.

ولكن [illegible] طبقات بلادنا [illegible] من أي منها السماسرة وباعة الأرض، ومن أي منها الذي يستمد جاهه ونفوذه [illegible] [illegible]

السماسرة وجميع الأرض التي يرتكبها [illegible] ومن أي منها الذين تنزع من أفواههم اللقمة الباقية لأنهم يحرمون [illegible] اليهود ويستغلون في المزارع الناشئة في الميدان الاقتصادي على القوت.

أما أن الذين يشتغلون في الحركة الوطنية وهم من غير تلك الطبقة الثرية السرية، لا يملكون أن يعطوا سيقانهم للريح كما يقول صاحب المثل فهو من السخف في مكان عظيم. فالذي يستطيع أن يترك الدار حتى من بناها، هو الغني السري الذي يكون له من المال ما يساعده على الانتقال وأظن أن كثيرين سمعوا من مثل هؤلاء الأغنياء الملاكين الكبار قولهم: «إذا اشتد الأمر أبيع أملاكي وأذهب فأعيش في سويسرة أو مصر» أما السواد الأعظم من الشعب، أما الذين لا يملكون أرضاً وليسوا أصحاب ثروة، فهم الذين يبقون في البلاد وهم الذين يسقطون في المعركة ضحايا الظلم واللؤم. ومن الطبيعي جداً أن يقود هؤلاء الحركة الوطنية لأن همها همهم وغرمها غرمهم قبل كل شيء وبعد كل شيء. أما إذا قادها أولئك الذين يسمون اليوم باسم الاستعماري الجديد «أصحاب المصالح الحقيقية» فإنهم لن يلبثوا أن يجروها في أحضان المستعمرين ويسلموها دونما شرط ولا قيد إلا إذا ظلوا قادرين في الأرض يجبى إليهم الخراج وتوزع عليهم الأسلاب [illegible]

[illegible]

محمد عزة دروزة

مجلة العرب/ القدس/ السنة الأولى 24 حزيران 1933.

مقالاته ومقالاتي، وحاول أن يبرىء نفسه من سوء النية ويزعم أن ما كتبه هو من قبيل الاجتهاد، وقد رددت عليه بأن مثل هذه المقالات لا يمكن أن يكون من قبيل الاجتهاد، لأن الانحراف والخطورة فيها ظاهران لا لبس فيهما، ولم يستطع أن يستمر معي في الحوار لأنه كان مكشوفاً. ومن المؤسف أني لم أحتفظ بأصول مقالاتي ولا بنسخ الجريدة التي نشرت فيها.

كلمة عن جريدة فلسطين وتناقضاتها وخطتها:

ولقد استطردت إلى تسجيل شيء عن عيسى العيسى وجريدته في هذه المناسبة، وها أنا أثبت ما سجلته:

إن عيسى العيسى وجريدته كانا متقلبين مع الظروف، ولقد كانت الجريدة قد انشئت في زمن الدولة العثمانية بعد إعلان الدستور العثماني، وكانت مناوئة للصهيونية ومطامعها ونشاط رجالها ولكن دون أن تثبت على ذلك (كجريدة الكرمل وصاحبها)، حيث كانت أحياناً تشتد وأحياناً تتراخى، وصار هذا ديدنهما في زمن الانتداب. وقد لوحظ لها مواقف متناقضة عجيبة، فلقد كانت من مؤيدي الخط الوطني وأشد أعداء راغب النشاشيبي وجماعته، ثم صارت من أقوى أنصارهم ومؤيدة لخطتهم المتهاودة، وكان ذلك منها تجاه الأمير عبد الله، حيث كانت في بدء الأمر من أشد أعدائه، ثم صارت من أقوى المادحين لخططه وسيرته. وكانت من أشد أنصار الحاج أمين وجماعته، ثم صارت من أشد أعدائهم. وكانت تغرق حيناً في مدح الإنكليز وأساليبهم وموظفيهم، فإذا ما أحست من الناس تنكراً نكصت وتراجعت. وكانت من أشد الدعاة إلى مقاطعة مشروع روتنبرغ الذي هو امتياز كهرباء عموم فلسطين، ثم سكتت عنه. وهي ماهرة في الدس والوقيعة والمكر والدوران دون أي خجل ولا مواربة.

وصارت على كل حال بعد انشقاق الحركة الوطنية وتبلور فريقي المجلسية والمعارضة من أنصار المعارضة ضد المجلسية، وضد ما كانت تمثله المجلسية في الحركة الوطنية وسيأتي كلام في مناسبات أخرى.

أثر مجاملات المندوب السامي وتظاهره بالعطف في ميوعة الموقف:

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ذكر الظروف التي جعلتنا ننشىء حزب الإستقلال، فأقول إن ما شرحناه في مناسبة سابقة من تصرفات المندوب السامي واكهوب من إقامة الولائم وعقد اللقاءات والأقوال المعسولة والتظاهر بالعطف على بعض المشاريع العربية، وتشكيل اللجان المشتركة وتعيين ابناء الأسر، وحل مشكلة المجلس الإسلامي المالية كان مما يجري في هذه الظروف ويجعل الحركة الوطنية اكثر ميوعة وخفوتاً، ويقوي ظاهرة الازدواجية في الوطنية التي كانت منذ بدء الانتداب، ونعني بها اعتبار مناوأة الصهيونية تجعل صاحبها في عداد الوطنيين ولو لم يكن مناوئاً للانكليز وانتدابهم على ما شرحته قبل.

مقالاتي في صدد ميوعة الموقف وأثرها:

ولقد حملني هذا على كتابة بضع مقالات أخرى في جريدة الجامعة العربية أيضاً بعنوان **(اين نحن من ايماننا الوطني واهدافنا الاستقلالية)**، حتى لقد ردّدت صحف سورية صدى هتافي في المقالات مؤيدة، لأنها كانت تعبر عن ضمير عربي عام.

أحاديثنا مع المخلصين في صدد تصحيح الموقف:

وصرنا أنا والإخوان القوميين في اللجنة التنفيذية وغيرها ممن كانوا وظلوا على خطهم القومي الوطني السليم المناهض للاستعمار الإنكليزي والصهيونية معاً، مثل معين الماضي وصبحي الخضراء ورشيد الحاج إبراهيم وفهمي العبوشي وعوني عبد الهادي وأمين التميمي ورفيق التميمي والحاج أمين الحسيني واسحق درويش والشيخ حسن أبي السعود ومنيف الحسيني نكثر الحديث حول الموقف ونتألم منه، ونبدي قلقنا من تفاقم الموقف، ونفكر في عمل نصحح به مسار الحركة الوطنية، ونجدد عهد العمل القومي المناوىء للإنكليز والصهيونية معاً.

اقتراح الحاج أمين بتكوين حلقة ومزاج الحاج أمين الذي أوصى به وعدم جدواه:

وقد اقترح الحاج أمين تكوين حلقة تضم المخلصين لهذا الخط، تعمل في سبيل ذلك بدون تشكيل كيان سياسي ظاهري ورسمي. وكان هذا من أساليب الحاج أمين ومزاجه، حيث كان يحب أن لا يظهر مباشرة في أي عمل أو حركة، مع حرصه على أن يكون وراء كل عمل وحركة، وموجهاً لهما وموحياً بهما تفادياً من الاصطدام مع السلطات على ما شرحته في اللمعة التي كتبتها عنه. ويزعم أن ذلك هو المتفق مع وقار صفته كرئيس ديني.

حتى لقد قلت له مرة ليت المجلس الإسلامي لم يكن، لأنه كان من عوامل ضعف الحركة الوطنية، وأنه اذا كان عاد بشيء من الفائدة بحفظ حقوق المسلمين وكرامتهم وإشرافهم على أوقافهم ومساجدهم ومحاكمهم الشرعية مباشرة بدون تدخل الإنكليز، فإنه كان.

أولاً: سبباً من أسباب اتجاه المسلمين الى هذا المجلس وامتلاء فراغهم به وانشغالهم عنه، وبذل قواهم ونشاطهم وآمالهم حوله، مع أنه بالنسبة لسلطة الحكم ومداه، وهو ما كان الانكليز وظلوا يتحكمون فيه، شيء تافه لا يسد شيئاً من الحاجة والمصلحة والفراغ. ويكفي أن نذكر أن موازنة الأوقاف أو ما كان يسمى (دولة الأوقاف) لم تكن تبلغ خمسين ألف جنيه، في حين كان موازنة الحكم تبلغ خمسة ملايين جنيه أو أكثر.

وثانياً: كان سبباً في إيجاد موضوع يتشاد حوله أهل البلد الواحد دون الحكم، وتثور حزبياتهم وحساسياتهم في سياقه، وهو ما كان يتمثل في تياري المجلسية والمعارضة، شغلا الناس عن الحكم الأجنبي الرازح على أعناقهم وأموالهم، والمهدد لهم بأفدح الأخطار وعن مقارعته. ولو لم يكن هذا المجلس لكان المعارضون الموالون للانكليز والذين لكثير منهم صلات وتعامل مع اليهود، أو الذين لا هم لهم إلا منافعهم الشخصية انكشفوا وجهاً لوجه أمام الجمهور، وعرفت حقائقهم وسقطوا أو ديسوا بالأقدام. ولما كانوا وجدوا ستاراً يتسترون وراءه بعض التستر أو كله، ولكان في الميدان وطنيون مخلصون صادقون، وغير وطنيين مكشوفين متواطئين مع الأعداء، وكان هذا يعود على الحركة الوطنية بأعظم الفائدة..

وثالثاً: كان سبباً من أسباب انشغال الحاج أمين وجماعته من العاملين المخلصين للحركة الوطنية في المشادات والمكايدات الحزبية المحلية، واضطرارهم الى بذل الأموال والجهود

العظيمة، ثم من أسباب اتساع الحوصلة والمعدة لهضم مفارقات ومسايرات ما كان يمكن أن تبلع وتهضم من وجهة نظر المبادىء الوطنية والأخلاق. وقد أدى هذا الى ضعف ثقة الناس في الزعماء الوطنيين، وضعف الضمير الوطني الأخلاقي، وسيادة الاعتبارات الشخصية والسياسات المحلية، والاصطدام بها والخضوع لها في كثير من المواقف.

اتجاه التفكير إلى انشاء حزب سياسي يضطلع بالتصحيح:

ولم تكن فكرة تكوين الحلقة التي طرحها الحاج أمين لتصل إلى مستوى الموقف الذي كان يتطلب عملاً قوياً؛ وأخذت الأفكار تتجه إلى وجوب وأفضلية تشكيل حزب سياسي يضطلع بمهمة تصحيح مسار الحركة الوطنية ويخلصها مما ألمّ بها من ميوعة وخفوت وازدواجية.

مداولاتنا مع الحاج أمين وجماعته في صدد ذلك:

ولقد ساير الحاج أمين وجماعته الخصوصيون فكرة الحزب، غير أنه لم يمكن الاتفاق على السير فيها في النهاية.

أفكاري في المدى الذي يمكن أن يقوم عليه الحزب المطلوب:

ولقد كان رأيي في تشكيل الحزب:

(1) أن لا يكون قائماً على عمليات إنتخابية، لأن التجارب أثبتت أن هذه العمليات في بلادنا ووضعنا هي اللغم الذي ينسف الهيئات التي تقوم عليها، ويجعلها ميداناً للتشاد والفساد، ولا سيما أن الحزب لا يقوم في بلد مستقل يستهدف منشؤوه الى تسنم الحكم ونتيجة انتخابات نيابية.

(2) أن لا يكون قائماً على فكرة تكثير الأتباع الحزبيين المتنسبين انسياقاً وراء الاعتبارات والسياسات المحلية، وأن لا يهتم بالتالي بما إذا كان من هذه الناحية أقلية في البلاد أم أكثرية، وإنما يكون اهتمامه لتمثيل سيادته، وأن يكون قوياً في هذه المبادىء.

(3) أن يكون أعضاؤه نتيجة لذلك مختارين اختياراً من العاملين المخلصين للمبادىء الوطنية والقومية والغيورين على التزامها، ومن المنسجمين في الوقت نفسه مع بعضهم صداقة وثقة وأفكارا وجهادا، وأن لا يدخله أي شخص عرف عنه لوثة في وطنيته وسلوكه الأخلاقي.

(4) أن يكون صريح المنهج والإعلان في مكافحة الاستعمار الانكليزي مع مكافحة الصهيونية، ليعيد الحركة الوطنية الى أصلها القومي الاستقلالي.

(5) أن يتعهد أعضاء الحزب بعدم زجه وزج أنفسهم في تيارات السياسات المحلية والشخصية.

ولم تكن هذه الأفكار تعجب الحاج أمين، لأنها بعيدة عن مزاجه، فاعترض عليها وصار يبدي ملاحظات متسقة مع مزاجه، وصار جماعته الخصوصيون وخاصة إسحق درويش والشيخ حسن أبا السعود ومنيف الحسيني يؤيدونه في اعتراضه وملاحظاته، حتى اعتقدت أنه لا يمكن الاتفاق معهم على إنشاء حزب يقوم على هذه الأفكار.

رأي جمال الحسيني في مدى الحزب المطلوب:

ولقد كان من رأي جمال الحسيني أن من الواجب أن يكون للحزب الذي يحسن إنشاؤه قوة تأييدية جماهيرية ليؤثر في الرأي العام

والحكومة، وأن هذا رهن بإدخال أعداد كبيرة من الناس، ومن البارزين في المدن والقرى ولو بشيء من التساهل وعدم التدقيق في أخلاقهم وسلوكهم. وقد قلت له إن هؤلاء لا يحجمون عن موالاة الحكومة وموالاة المربيين، والنفعيين، أو المسايرة في أمور ومواقف كثيرة قد تكون مناقضة لمبادىء الحزب، ولكنه لم يقتنع. وكانت أفكاره متسقة مع مزاج الحاج أمين، فرأى فيها مخرجاً للاعتراض على أفكاري، ومع ذلك فإن الحاج أمين لم يقطع الحبل. وقد اجتمعنا مرة أنا وهو والشيخ حسن أبو السعود وإسحق درويش وأمين التميمي للبحث في الأمر، واتفقنا على بعض الأفكار. ومن جملة ذلك أن تكون هيأة الحزب التأسيسية وأركانه من العاملين في الحركة الوطنية والمتشبعين بالفكرة القومية.

بعض الأسماء التي ساقها الحاج أمين لهيئة تأسيس الحزب:

فلما جاء دور تسمية الأسماء الصالحة لأن تكون هيئة تأسيسية وأركاناً، ذكر الحاج أمين وجماعته مجموعة عجيبة من الأسماء ليس لكثير منها أي جهد بارز أو غير بارز في الحركة الوطنية والفكرة القومية، وكل مزاياهم أنهم أقارب ومخلصون للحاج أمين، وليس عليهم مأخذ أخلاقي ووطني مثل سعيد بك الحسيني وابنه إبراهيم والشيخ سعد الدين الخطيب والشيخ موسى العيزراوي والشيخ محمد الصالح وعبد اللطيف الحسيني والشيخ محمود الداوودي الخ . . . حيث بدا أن كل الهمّ هو ضمان هيمنة الحاج أمين على الحزب. وانفض الاجتماع دون نتيجة، ومع ذلك لم يقطع الحاج الحبل لأنه كان حريصاً على أن لا ننفك عنه.

اجتماعنا معه في طبريا لاستمرار المداولة:

وكانت فرصة عيد وموسم ربيع، فاقترح أن نقضيها في طبريا ونتحدث في الأمر، فوافقنا على الاقتراح وذهبنا أنا وهو واسحق ومعين الماضي ورشيد الحاج إبراهيم وبحثنا الأمر بصراحة وجد.

تعذر الاتفاق مع الحاج أمين وقرارنا إنشاء الحزب بدونه ودون جماعته:

ولم نصل الى نتيجة، حيث ظلت الأفكار في مدى الحزب متباينة، وتأكدنا أنا ومعين ورشيد من أن مزاج الحاج أمين أبعد من أن يقبل حزباً على الأفكار التي سقتها، والتي كان معين ورشيد موافقين عليها. وحينئذ قررنا الانفراد عنه والمضي في إنشاء حزب قائم على الأفكار المذكورة. واستعرضنا فيما بيننا أسماء عديدة ليكون أصحابها عماد الحزب ومؤسسيه:

(1) اتفاق على ضم فهمي العبوشي:

واتفقنا على فهمي العبوشي من جنين، وكان زميلاً لنا في اللجنة التنفيذية ومن ذوي الصلابة الوطنية والمبادىء القومية والنزعة الاستقلالية والجرأة في القول ويحسن الخطابة.

(2) ضم عجاج نويهض:

ثم على عجاج نويهض، الذي كان قد ترك المجلس وأنشأ مجلة العرب، والذي كان يبدو أن فيه الصفات التي في فهمي بل قد يفوقه حماسة وقدرة خطابية، فضلاً عن قوته في اللغتين العربية والانكليزية.

(3) ضم صبحي الخضراء:

واتفقنا كذلك على صبحي الخضراء الذي كنا نرى فيه المزايا المتسقة مع الأفكار التي رأينا أن يقوم الحزب عليها، وكان هو أول من فاتحناه

في أمر الحزب فاستجاب وذكر لنا اسم عوني.

(4) التردد في أمر عوني بسبب مزاجه:

وكان شيء من التردد في أمر عوني لأننا كنا نلمح فيه مزاجاً ما قد لا يتسق مع جميع الأفكار المذكورة، فهو ميال إلى تمطيط الأمور، ويجنح الى مجاملة من يرتاب في وطنيتهم، وإلى إنشاء صلات ولو بريئة مع الانكليز، ويسمي كل هذا مرونة وكياسة ولباقة، وليس من مزاجه أن يقف من أحد أو من موضوع كفاحي مبدئي موقف حزم مستمر، والى هذا ففيه ميل وطموح إلى البروز كزعيم من زعماء الحركة الوطنية، وفيه شيء من نعرة الأسرة العريقة (آل عبد الهادي)، وفيه اعتداد بالنفس كسياسي حاذق ومحام وكصاحب اسم معروف في الحركة العربية السياسية ومثقف ثقافة أوروبية عالية، ويريد من معارفه والمتعاملين معه أن يسلموا له بكل هذه المزايا، والاعتداد بالنفس بسببها، وأن يكون ذلك مغنياً له عن الجهد الذي تقتضيه الأعمال الوطنية والمقتضيات الحزبية والكفاحية، وأن لا يدقق في محاسبته في ما قد يبدر منه من مفارقات غير سائغة بسبب هذا كله. وكان يُخشى أن يكون الحزب بسبب هذا المزاج موضع نقد وتجريح.

إصرار نبيه العظمة على ضم عوني والاتفاق على ذلك:

ولكن نبيه العظمة الذي كان يقيم في القدس وكنا نشركه في الحديث في أمر الحزب وكان محبذا لإنشائه، أصر على أخذ عوني لما يتمتع به من اسم كأحد رجال جمعية الفتاة والحركة العربية وعهد فيصل، وقال إن من الممكن التغلب على مزاجه وحمله على السير بجد وهمة، وتم الاتفاق عليه أيضاً وفاتحناه هو الآخر واستجاب.

وقد تذاكرنا في ضم أشخاص آخرين وخطر على بالنا عادل زعيتر من نابلس ورشدي الشوا من غزة وكامل الدجاني من يافا.

(5) الاتفاق على ضم أكرم زعيتر وسبب ذلك:

وذكر اسم أكرم زعيتر، وكان شاباً قد أخذ يلمع كخطيب وكاتب ووطني نشيط متحمس، وقيل انه يكون نموذجاً للشباب في الحزب. وكان لأكرم في نابلس حركات وتحريكات حزبية محلية، غير أني لم أرد أن أجعل ذلك سبباً لاستبعاده، لأني كنت عازماً على التخلي عن كل نزعة شخصية وجعل الحزب بريئاً من ذلك، ما دام الإخوان يرون فيه قوة للحزب فلا مانع. وفوتح هو الآخر فقابل العرض بحماس ووافق.

(6) ترشيح أكرم حربي الأيوبي وحمدي الحسيني وتأييد رفيق التميمي لحربي والاتفاق عليهما أيضاً:

واقترح[1] أن يدخل الحزب كمؤسس كل من حمدي الحسيني من غزة، وحربي الأيوبي من يافا، وأثنى على صلابتهما وأخلاقهما الوطنية وروحهما القومية، وقال إنه متلازم معهما في العمل الوطني، وكان حربي رئيس كتاب بلدية يافا ورئيسه عاصم السعيد أحد أركان المعارضة، ولكنه كان يبدو حرّاً أبيّا جريئاً على النقد متحمساً في الوطنية.

وجاءني كتاب من رفيق التميمي الذي كان في هذا الظرف مديراً للمدرسة الثانوية في يافا، والذي كان على معرفة بحركتنا وعزيمتنا على

(1) لم يذكر الكاتب اسم صاحب الاقتراح، ولعله المقصود من سياق الحديث أكرم زعيتر.



ذكرى حفلة حزب الاستقلال العربي في فلسطين، مدينة نابلس 1932 .الجالسون من اليسار: الدكتور سليم سلامه - رشيد الحاج ابراهيم - عزة دروزة - اكرم زعيتر - محمد علي دروزة .الوقوف من اليسار: أحمد الشقيري - عجاج نويهض - فهمي العبوشي - صبحي الخضراء - علي ناصر الدين - ماجد القطب .

انشاء حزب يقوم على أفكار ومناهج سليمة قوية ومحبذاً لذلك، يرشح فيه بدوره حربيا لعضوية الحزب التأسيسية، ويثني على صلابته وحماسته ووطنيته، فقررنا ضمه إلينا وفاتحناه ووافق.

وكان خطر لبالنا رشدي الشوا في غزة، الذي كان من جمعية الفتاة منذ العهد العثماني، ولكنه كان في هذه الأثناء قد ورث زعامة أبيه العشائرية، وصار مزاجه لا يتسق مع مزاج الحزب، فأخذنا بترشيح أكرم، وقررنا ضم حمدي الحسيني من غزة، وفاتحناه ووافق هو الآخر.

(7) اقتراح الأمير عادل أرسلان ضم مسيحي، وتسميته الدكتور سليم سلامة والاتفاق على ضمه:

واقترح الأمير عادل أرسلان الذي صار يتردد على فلسطين بعد خمود ثورة سورية، والذي كنا على صلة وثيقة به، وكان من المحبذين هو الآخر لإنشاء الحزب مثل نبيه، أن يكون في عداد أعضاء الحزب المؤسسين عضو مسيحي، وسمى لنا الدكتور سلامة وأثنى على أخلاقه وصفاء وطنيته فوافقنا على ضمه كذلك. ومما أذكره في صدده أن جريدة فلسطين حينما ذكرت أعضاء الحزب المؤسسين بعد إنشائه وإعلانه، وصفت الدكتور أنه بمثابة خرزة زرقاء في الحزب، (والخرزة الزرقاء تتخذ في الأفكار الغيبية الأسطورية كواقية من الحسد ومنع الإصابة بالعين).

الاكتفاء بالأحد عشر شخصاً كمؤسسين للحزب:

وهكذا صرنا أحد عشر شخصاً: أنا ومعين ورشيد وعوني وصبحي وفهمي وعجاج وأكرم وحربي وحمدي وسليم، وقررنا الإكتفاء بهذا العدد الآن، واعتبارهم عمدة الحزب ومؤسسيه والشروع في الظهور.

اجتماعنا وإقرارنا للقانون:

فاجتمعنا في بيت عوني، واتفقنا على قانون الحزب الذي كنت وضعت مسودة له، وكانت المبادىء التي ذكرناها فيه: استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً ـ البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ ولا تقبل التجزئة ـ فلسطين بلد عربي وجزء طبيعي من سورية.

وكانت الخطط التي ذكرناها فيه: العمل على تحقيق المبادىء الواردة سابقاً ـ التضامن والتشارك في هذا السبيل مع الهيئات الإستقلالية في الأقطار العربية ـ الاحتفاظ بأراضي بلاد العرب ومنابع الثروة العربية للعرب ـ إلغاء الانتداب ووعد بلفور ـ إقامة حكم عربي برلماني في فلسطين ـ العمل على إنهاض البلاد سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً.

ومما ذكرناه في نظامه الداخلي: إنشاء هيئات فرعية مؤلفة من ثلاثة أعضاء على الأقل، على أن تختار هيئة الحزب التأسيسية أعضاء هذه الهيئة ـ هيئاة الحزب التأسيسية تضم اليها من تراه ـ ليس لأعضاء الحزب المؤسسين والفرعيين أن ينتسبوا إلى حزب سياسي آخر إلا بإذن من هيئة التأسيس ـ أعضاء الحزب المؤسسون والفرعيون يؤدون يميناً بهذه الصيغة:

«أقسم بالله أن أكون مخلصاً لمبادىء الحزب وخططه ونظامه الداخلي خاضعاً لمقرراته متضامناً مع اخواني فيه على تنفيذ المبادىء والخطط وعلى إعلاء شأن الحزب، متعاوناً وإياهم على ما فيه الحق والخير والكرامة، وأن لا أستغل الحزب ولا أوافق على استغلاله

لمآرب أو مطلب أو نفوذ شخصي أو عائلي».

وكل من ثبتت خيانته للحزب ومبادئه وخططه يطرد منه بقرار تتخذه هيئة التأسيس بأكثرية ثلثيها، على أن يمنح حق الدفاع عن نفسه أمام الهيئة.

ترديدنا اليمين:

وبعد أن تم الاتفاق على صيغة القانون أقسمنا أمام بعضنا بصوت واحد اليمين، وكنت أتلوه وأنا وهم نردده.

تفادي إيجاد رئاسة للحزب والاكتفاء بسكرتير عام يمثله:

ولقد كان عوني يحاول أن يجعل للحزب رئاسة يتولاها هو، وبذل جهده في تحبيذ رئاسة للحزب، وبذلت جهدي لتفادي ذلك والاكتفاء بسكريتير عام يكون هو المعتمد للحزب رسمياً، وتم الإتفاق على ذلك وسجل هذا في نظام الحزب.

الاتفاق على عوني سكرتيراً عاماً وعلى عجاج مساعداً له:

ورشح صبحي عونياً للسكرتيرية، ورشحت عجاجاً، وكانت الأكثرية في جانب عوني، على أن يكون عجاج مساعداً له. وأريد بذلك أن يكون، تمثيل الحزب لعوني لأنه هو الأوجه الأبرز، ويكون عجاج هو السكرتير العملي وهكذا صار.

اختياري لأمانة المال:

وكلفت بأن أكون أمين مال للحزب ووافقت، وهكذا أصبح مكتب الحزب مؤلفاً من عوني ومن عجاج ومنّي.

تقديم علم للحكومة وعدّ الحزب قائماً رسمياً وفعلاً:

وقدمنا علماً للحكومة بإنشاء الحزب مع نسخة من قانونه الذي كان يشتمل على نظامه الداخلي أيضاً، وأخذنا وصلاً باستلام ذلك حسب القانون النافذ، فأصبح الحزب قائماً.

البيان الذي تقرر إذاعته بإنشاء الحزب وأسباب ذلك:

وكنت أعددت مشروع بيان بإعلان قيام الحزب وأسباب ذلك، ذكرت فيه ما آلت إليه حالة الحركة الوطنية والمبادىء القومية من خفوت وميوعة وازدواجية بسبب السياسات المحلية والشخصية والأسرية، وما أخذ بتهديد البلاد من أخطار جدية، وما اقتضاه ذلك من وجوب تصحيح مسار الحركة بحزب قوي عربي لا يشتغل بالسياسات المحلية، ويركز نشاطه على مكافحة الاستعمار الإنكليزي والصهيونية معاً، فتلوت المشروع في الاجتماع بعد اليمين، وأقررناه بعد تعديلات اقترحها بعض الإخوان ووزعناه على الصحف موقعاً بأسمائنا الأحد عشر كمؤسسين للحزب، ثم طبعنا القانون والنظام والبيان في كراس صغير ووزعناه، (ونص البيان مثبت في الصفحة 99 وبعدها في الجزء الثالث من كتابنا حول الحركة العربية ونسخة من الكراس موجودة في خزانتنا)، فأصبح الحزب جدياً وقائماً فعلاً وظهوراً. ولقد كتبنا كلمات في السابق عن عوني ورشيد ومعين وصبحي وعجاج وأكرم، وهذه كلمات عن الأربعة الباقين.

كلمة عن فهمي العبوشي:

فهمي العبوشي هو من أسرة العبوشي البارزة الوجيهة في جنين، وقد ذهب بعد دراسته

بيـــان الى الامـــة

حزب الاستقلال العربي في فلسطين

ان حزب الاستقلال العربي في فلسطين الذي يقيم اليوم اجتماعه الوطني الكبير في مدينة نابلس، بمناسبة ذكرى صدور وعد بلفور المشؤوم بتاريخ ٢ نوفمبر، يتقدم ببيانه هذا ليجدد العهد على الكفاح والجهاد في سبيل حرية هذه البلاد العربية، وانقاذها من مخالب الاستعمار والصهيونية التي جرها هذا الاستعمار وراءه، وانقاذها من أثقال يستعين بها على استمرار بقائه فيها بحكمها بالاساليب الاستعمارية الظالمة.

•••

لقد سلخت هذه البلاد العربية اربعة عشر عاما وهي تحت سلطة الاستعمار الانكليزي، تتدهور عاما بعد عام من حضيض الى حضيض، وتبتعد يوماً بعد يوم عن الغاية المقدسة العليا التي رمى اليها العرب حينما اشتركوا، ومنهم اهل هذا القطر من البلاد العربية، في الحركة العربية والثورة العربية، وأراقوا دماءهم وقاسوا انواع المظالم والارهاق، وهي الاستقلال والوحدة العربية، التي أخذت الاقطار العربية الاخرى تقترب منها يوماً بعد يوم محطمة في سبيل الوصول اليها القيود واحداً بعد آخر. وانه على الرغم من الصرخات المدوية التي بحت بها الامة ولا تزال تبحها استنكاراً للسياسة الغاشمة المسلطة عليها، واحتجاجاً على الظلم الفادح النازل بها بحرمانها من حقها الصريح في الحرية والاستقلال، واستهدافها للاخطار القومية والاجتماعية والاقتصادية المنبثة عن سياسة الاستعمار والنزوة الصهيونية، لا تزال البلاد تحت عبء هذه السياسة ونتائجها الظالمة.

واذا اردنا ان نستعرض نتائج هذه السياسة واخطارها رأينا منظراً من افظع المناظر، وشهدنا رواية من اشد الروايات هولا، تمثل في هذه البلاد ضد مصالح اصحابها العرب وقوميتهم وكيانهم لم يشهد التاريخ اشد فظاعة وهولا منها:—

١ — ان الموازنة المالية في هذه البلاد جعلت لتشكيلات واسعة لا تحتملها طبيعة البلاد بوجه، وللمبالغ التي تنفق على هذه الموازنة هي اضعاف ما ينفق على مثيلاتها في البلاد العربية الاخرى، والموظفون الانكليز ثم الموظفون الغرباء ثم الموظفون اليهود يلتهمون جزءاً كبيراً من هذه الميزانية على غير ما حاجة فنية او علمية. وتلك هذه الميزانية تنفق انفاقاً على الحراب التي تحمي المشروع الصهيوني الذي يعتبر بحق افظع مشروع سجله التاريخ في اعظم حوادثه وظروفه.

٢ — وعلى الرغم من ان الخبراء الانكليز قد اثبتوا بالارقام التي لا تدحض ان الاراضي العربية لا تكفي الآن اهل البلاد العرب لمعيشتهم وحاجاتهم، وعلى الرغم من زيادة التناسل العظيمة زيادة جعلت تتحول الى مشكلة خطيرة هائلة في المستقبل القريب بسبب عدم كفاية الارض للعرب، وعلى الرغم من تعالي الصرخات بوجوب وضع تشريع يمنع انتقال اراضي العرب لليهود، حماية للكيان العربي من الانهيار والفناء، لا تزال السلطة الانكليزية لاهية عن ملاحظة هذا الخطر، من حيث هي مسيرة بتأثير اليهود والسياسة الصهيونية، وبذلك لا يزال اليهود يقتنصون فرصة الاملاق الذي اصيب به العرب من جراء سياسة الاستعمار، فيبتلعون المساحات الواسعة من الاراضي العربية، حتى احدق الخطر الهائل بكيان العرب احداقا رائعاً.

٣ — وانه فوق البطالة الضاربة اطنابها في البلاد واستغلاق ابواب الرزق امام الآلاف من العرب العاطلين، لا تزال السلطة الانكليزية فاتحة باب الهجرة على مصراعيه لدخول شذاذ آفاق اليهود، مما ادى الى استفحال امر البطالة، ودفع العرب عن كسب قوتهم، هذا الى ما تسرب الى هذه البلاد من المبادئ الاجتماعية الخطرة كالشيوعية والاباحية والالحاد مما يحمله اولئك الشذاذ وبثت آثاره وظهرت شروره.

٤ — ولقد كان من جراء هذه السياسة الاستعمارية ان ارهق الاهلون بالضرائب الفادحة فاصبح يصيب النفس ضعف ما يصيب اختها في البلاد العربية الاخرى، وقد كان قانون ضريبة (الويركو) اسوأ مثل قدمته هذه السياسة بتطبيقه على ما قبله، وبجعل الضريبة خمسة عشر في المائة، وقد كانت ضرائب العشر وضرائب المواد التموينية والحاجات الضرورية من اكبر الضربات التي رفعت اسعار المعيشة وجعلت الاهالي على حافة الافلاس، وكانت عاملا من عوامل الاضطرار الى الخروج عن الاراضي لليهود. هذا الى الازمات الاقتصادية الخانقة التي لم تعمد هذه السلطات الى معالجتها وتفريجها بوسيلة من الوسائل الناجعة.

٥ — وها هي البلاد تقاسي اليوم ازمة شديدة في التعليم، وها هم ابناؤها يتسكعون في الازقة محرومين من دور العلم بينما ادارة المعارف وغيره مكتظة بذوي الرواتب الكبيرة الذين ليس للبلاد من حاجة اليهم الا رغبتهم في استمرار الوظائف والرتبات، من عرق جبين الاهالي البائسين. وقد كان من جراء هذا الاهمال ان حرم خمسة اسداس الأولاد الذين هم في سن العلم مما يسجل به اكبر عار على السلطة الانكليزية القائمة في البلاد.

٦ — وقد عمدت هذه السلطة الى وضع مشروع لقانون المعارف تريد به ان يتشرب ابناء الامة روح الولاء لسلطة صب... وحكمهم بالحديد والنار وهيأت لهم اسباب الفناء والدمار.

٧ — وكذلك وضعت مشروع قانون للمطبوعات ارادت به كم الافواه وتحطيم الاقلام والتهديد بالجزاء الصارم ا... الصوت بالدفاع عن حقوق الامة والبلاد عن طريق الصحافة.

٨ — وقد سيطر على التشريع والادارة في هذه البلاد اناس غرباء عنها لا يفهمون روحها ولا احتياجاتها وتقاليدها العربية المتناقضة مع مصلحة الامة واحتياجاتها وروحها.

كل ذلك وهناك من ابناء هذه الامة من لا يزال يتطوع لتوطئة سنا كبها للاستعمار، وترويضها على الاساليب الاستعمارية، وب... واعتبارها ذات الصفة الشرعية في البلاد، وهناك ايضاً من لا يزال يتزلف الى السلطات الاستعمارية فيشترك في لجانها، ويتمم بحفلاتها، وماد... هذا الى اولئك الابناء العاقين الذين هم حرب على امتهم وبلادهم باجترامهم جرائم السمسرة والجاسوسية ومساعدة السياسة الاست... بلوغ الوطر والتضييق على خناق الامة والقضاء الاخير عليها.

•••

ان حزب الاستقلال العربي الذي يرى كل هذا بعين تقطر دماً، وقلب يتقطع اسى، يبتهج ان تجدد الامة املها والا تستسلم روح هذه الامة الجبارة وعقيدتها الاستقلالية، ومقتها للاساليب الاستعمارية واعوانها. وانه استمداداً من هذه الروح القوية الفياضة يعلن السياسة الاستعمارية الغاشمة، التي فشلت فشلاً شائناً وافلست افلاساً تسجل بها كبر الاثم والعار على القائمين بها حولت من حق هذه واستقلالها في بلادها، وانها لن ترضى عن ذلك بديلاً.

وانه وهو مؤمن كل الايمان بهذا الحق ومعتقد كل الاعتقاد في اعتصام الامة بعقيدتها الاستقلالية، يدعو كل عربي في هذه الـ... الاستعمار واساليبه، وضد الصهيونية وغزوها وضد الخائنين من ابنائها بكل قوة وثبات وعزم وايمان، ويدعو كل عربي ليعلن معه ان هذه البلا... الا اذا منع بيع الاراضي لليهود منعاً باتاً، واقفل باب الهجرة اليهودية اقفالاً تاماً، واستلم ابناء البلاد الحكم، ونالت البلاد استقلالها التام.

يا اهل فلسطين! لقد جد الجد، وسارت الركبان، فاين انتم من اخوانكم ابناء البلاد العربية. كنتم في القدمة فما بالكم تأخرتم. اين... على الاعقاب، فابدأوها قضية استقلالية لا لين فيها ولا هوادة. الوطن وطنكم، وشرف الامة العربية بين ايديكم. فاحفظوا الامانة... كل عربي فليعمل ليعمل واجبه. اما الوطن فباق وأما الافراد فزائلون. فلنتعاهد على الجهاد في سبيل الحرية والوحدة العربية.

ان يوم ٢ نوفمبر عار ابدي، فيجب على كل عربي ان يجاهد ليمحوه من سجل التاريخ والسنين. ولتحي سورية الجنوبية، عربية حـ...

(هيئة حزب الاستقلال في فلسطين)

بيان حزب الإستقلال بمناسبة مهرجان نابلس في ذكرى 2 نوفمبر 1932 (ذكرى وعد بلفور).

من حزب الاستقلال العربي في فلسطين

ايها العرب :

اعتاد الانكليز ان يقيموا في مثل هذا اليوم من كل سنة احتفالا بذكرى احتلالهم القدس ، تأييداً لفكرة الفتح والاستعمار التي ستروها واخفوها طول الحرب الكبرى ، واعلنوا ما يناقضها العالم اجمع .

« وحزب الاستقلال العربي » رأى من واجبه ان يقيم في هذا اليوم ، وفي مثله من كل سنة مقبلة ، اجتماعا وطنياً يندد فيه بفكرة الفتح والاستعمار التي يقيم المستعمرون في هذه البلاد احتفالاتهم باحدى ذكرياتها ، ويجدد العهد في مثل هذا اليوم على مكافحة الاستعمار باصله وفرعه ، واستنكار اساليبه الفاحشة ، وخططه المنافية لمصلحة العرب ، والمطالبة بحق العرب الطبيعي في الحرية والاستقلال والاتحاد مع الاقطار العربية الاخرى ، ويعلن الحزب للملأ اجمع ان الانكليز قد نقضوا ما قطعوه للعرب من عهود ومواثيق ، وخالفوا ما نشروه في بلاد العرب من مناشير وبيانات، وانزلوا بالعرب الضربات الموجعات التي تهدم كيانهم القومي وتجعلهم فريسة سائغة لاستعمار الانكليز ، والقذف الصهيوني التي سلطوه عليهم.

وها هي بين ايديكم بعض هذه العهود والمواثيق والمناشير والبيانات لتذكروا الى اي حد وصل الاستهتار عند الانكليز بعهودهم ومواثيقهم ، والى اي درجة بلغوا في نقضها وخرقها ، وكيف انهم يحكمونكم حكماً استعمارياً مباشراً ، من حيث يحاولون وضعكم تحت نير اليهود ، وكيف انهم يسنون لكم القوانين الصارمة لاخفات أصواتكم باستنكار الظلم الواقع عليكم والتنديد بهذا الاستعمار الفظيع ونكباته القاتلة ، وكيف انهم يرهقونكم بالضرائب الفادحة ليحصوا اموالكم للمشروع الصهيوني ، يفعلون كل هذا من حيث وعدوكم بالاستقلال والحرية والوحدة ، وقد اعترفوا بما بذلتموه من دماء وتضحيات في سبيل الحرية والاستقلال مما كان سبباً في النتائج الفاصلة المنصورة التي احرزوها في الحرب الكبرى ، وقد اذاعوا انهم لا يقصدون فتحاً ولا استعماراً وانما يرمون الى تحريركم ومساعدتكم في استقلالكم وحكم انفسكم بانفسكم وفق رغباتكم ومطلق اختياركم . . .

ان « حزب الاستقلال العربي » يطلب من كل عربي كريم ان يذكر هذا ولا ينساه ، ويهيب به الى مواصلة الكفاح ضد هذا الاستعمار الفظيع وتلك الصهيونية المجرمة ، وعلى التوسل بكل وسيلة الى الخلاص منهما حتى يتخذل الباطل امام الحق وتحق الكلمة على الظالمين .

ايها العرب :

ان الميدان واسع امامكم والمجال رحب للعمل لاخذ حقوقكم ، فادخلوها بقلوب ملؤها الايمان والاباء ، ولا تهنوا ولا تحزنوا ، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

ايها الانكليز :

ليس مما يشرفكم ان تحتفلوا بذكرى الفتح والاستعمار .

هذه عهودكم ومواثيقكم وبياناتكم ومنشوراتكم فاقرأوها .

اننا لن نطمع في ، بجرحكم اذا قرأتموها عن اساليبكم البيدة للعرب والهادمة لكيانهم القومي . ولا عن المؤامرة التي حبكتموها مع الصهيونيين فقد انكشف عن نياتكم الستار وعرفكم العرب حق المعرفة، فلن يطلبوا اليكم ولن يخدعوا بكم وانتم الذين نكثوا عهودهم وخانوا بعهودهم ، لردعهم عن لجنى ما اجترحوه ضمير يحس ، ووجدان يتألم . . .

الا ان هذا يوم يقسم العرب فيه جهد ايمانهم ان لا يتخلوا عنكم ، ولن يناوئوكم ، وان يساجلوكم الخصومة، بالمشروع من السبل والواضح من الاساليب، حتى تخرجوا من ديارهم ، وتنزحوا عن اوطانهم ، وتعود اليهم حريتهم ، وتحقق امانيهم ، وينالوا لوازم ، وتتحقق وحدتهم ،

والله بالله رالبين، كفيل . هيأة الحزب

•••

مع هذا البيان الوثائق التالية

(١) (بالفطوغراف) المنشور الذي القته الطيارات الانكليزية على الجيش التركي في فلسطين . (٢) (بالفطوغرافات) الكتاب الذي ارسله المعتمد الانكليزي الى جلالة الملك حسين لمناسبة نشر الوثائق الرسمية عن المعاهدة السرية التي كانت معقودة بين فرنسا وبريطانيا وروسية بتقسيم البلاد العربية . (٣) صورة من المنشور العسكري الذي وزعه الفلد مارشال اللنبي قائد جيوش الحلفاء بتاريخ ٢٨ تموز ٩١٨ . (٤) التصريح البريطاني الافرنسي المنشور في فلسطين والبلاد العربية الاخرى في ٨ نوفمبر ١٩١٨ .

(١)

الى الضباط والجنود العرب

في الجيش التركي في فلسطين .

أصدر شريف مكة وملك الحجاز الحالي منشوراً الى الضباط والجنود العرب في الجيش العثماني وطلب منا أن نبلغكم اياه فنحن واغتنموا الفرصة لتهربوا وتأتوا الينا . وسنستقبلكم كأصدقاء مرحبين بكم وستلاقون منا معاملة حسنة .

وستجدون منا مقربين من قبل شريف مكة وملك الحجاز الحالي فيستقبلونكم وتساعدوهم أنتم في تحرير العرب ؟

الجيش الانجليزي في فلسطين

الى جميع العرب

وسوام من الضباط والرجال الموجودين في الجيش العثماني

سمعنا بمزيد الاسف أنكم تحاربوننا ، نحن الذين نجاهد في سبيل المحافظة على احكام الدين الاسلامي الشريف من التغيير و[illegible] ولتحرير العرب قاطبة من حكم الاتراك .

ونحن نعتقد أن الحقيقة الخالصة لم تصل اليكم . لذلك ارسلنا لكم هذا الاشعار ممهوراً بمهرنا لنؤكد لكم أننا نحارب لا[illegible] شريفتين وهما : حفظ الدين ، وحرية العرب عامة .

ولقد أرسلنا الاوامر المشددة الى عموم رؤساء ورجال قبائلنا بأن ماهو أسرت جيوشنا اي واحد منكم يجب أن يسلموكم بالحسنى الى أولادي حيث يرحبون بكم ويحسنون وفادتكم .

لقد كانت المملكة العربية مستعبدة تحت سلطة الاتراك مدة طويلة، فقتلوا من قتلوا من اخوانكم ، وصلبوا من صلبوا من رجال[illegible] نسائكم وعيالكم ، بعد تحريضهم ، فكيف تطيقون الصبر بعد ذلك وتتحملون عناء الاستمرار معهم ، وترضون بسلوكهم ؟ !

هلموا للانضمام الينا ، نحن الذين نجاهد لاجل الدين وحرية العرب، حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد اسلافكم ان شا[ء الله] والله الهادي الى سواء السبيل ؟

شريف مكة المكرمة ،
وملك البلاد العر[بية]
(الختم) الحسين [بن علي]

(٢)

***

جدة في ٨ فبراير سنة ١٩١٨ ◆ ٢٧ – ٤ – ١٣٣٦

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم

بعد بيان ما يجب بيانه من الاحتشام والتوقير . قد امرني جناب فخامة نائب جلالة الملك ان ابلغ جلالتكم البرقية التي وصلت نظارة الخارجية البريطانية بلندن وتضمنتها حكومة جلالة بريطانية العظمى باسم جلالتكم وهذا نصها بالحرف الواحد : --

ان الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالتكم في ارسالكم التحريرات التي ارسلها القائد التركي في سوريا الى سمو ا[لامير] جعفر باشا الى جناب فخامة نائب جلالة الملك ، كان لها اعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ، وان الا[...] اتخذتموها جلالتكم في هذا الصدد لم تكن الا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التي كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحـ[ـجاز] وحكومة جلالة ملك بريطانية العظمى ، ومما لا يحتاج الى دليل ان السياسة التي تنسج عليها تركيا هي ايجاد الارتياب والشـ[ـقاق]

تترس ذلك الارتياب بلن توسوس للعرب ان دول الحلفاء يرغبون في الاراضي العربية وتلقي باذهان دول الحلفاء انه يمكن ارجاع العرب عن مقعدم ولكن اقوال الدساسين لن تقوى على ايجاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم الى فكر واحد وغرض واحد .

لن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفائها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدي الى تحرير الامم المظلومة وهي مصممة لن تقف بجانب الامم العربية في جهادها لان تبني عالماً عربياً التي يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني وتجتث التنافس العنصري التي احدثته السلطات الرسمية التركية . وان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تكرر وعدها السابق بخصوص تحرير الامم العربية وان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد سلكت مسلك سياسة التحرير وتقصد ان تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بان تحفظ العرب الذين تحرروا ، من السقوط في وهدة الدمار وتساعد العرب الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم (انتهى)

وفي الختام التمس قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والامنيات؟

نائب المعتمد البريطاني بجدة

الكولونيل باست

(صورة الوثيقتين رقم ١ و ٢ بالفطوغراف)

الى الضباط والجنود العرب

الى جميع العرب

(٣) منشور عسكري من المارشال اللنبي قائد جيوش الحلفاء

بتاريخ ٢٨ تموز ٩١٨

اني اشكر الاخلاص العظيم الذي ابداه جلالة ملك الحجاز الحسين بن علي لقضية دول الاتفاق . ولا استطيع ان اضبط نفسي من الثناء العاطر على البراعة التي اظهرها سمو الامير فيصل في القيادة ومعاونته القلبية وعلى اعمال البسالة والمهارة التي عملها الجيش العربي والتي ساعدت جيوش الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على النتائج الفاصلة في الحرب .

(٤) التصريح البريطاني الافرنسي المنشور في فلسطين والبلاد العربية الاخرى المؤرخ

٨ نوفمبر ٩١٨

ان الغاية التي ترمي اليها كل من فرانسة وبريطانيا العظمى في خوض غمار الحرب في الشرق من جراء اطماع المانيا هي تحرير الشعوب التي طالما رزحت تحت اعباء استبداد الاتراك تحريراً نهائياً وتأسيس حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغبة نفس السكان اختيارهم . ولتنفيذ هذه الغايات قد اتفقت كل من فرانسا وبريطانيا العظمى على تشجيع ومساعدة انشاء حكومات وادارات من سوريا والعراق وقد حررها الحلفاء فعلا وفي الاقطار التي يسعى الحلفاء في تحريرها والاعتراف بهذه الاقطار بمجرد تأسيسها تأسيسا فعليا . وان فرنسة وبريطانيا العظمى لا ترغبان في وضع نظامات خاصة لحكومات هذه الاقطار بل لا هم لهما الا ان تضمنا ... الوطنيون سيراً معتدلا وان تضمنا سير العدل ... مشاريعهم وان تساعدا على تعميم التعليم وا...

المحررة .

بيان حزب الاستقلال لمناسبة احتفاله في القدس بذكرى فتح القدس 1917 واحتلالها من قبل البريطانيين .

بيـــــــــــان الى الامه العربيه

من

حزب الاستقلال العربي في سوريا الجنوبية

يقدم اللورد اللنبي الى هذه البلاد بدعوة من جمية الشبان المسيحية في القدس ليخطب في الحفلة الكبرى يوم افتتاح نادي هذه الجمية وهو النادي الذي اقيم وانشيء بعد الحرب لغايات ظاهرة معروفة في هذه البلاد، و بلغت تكاليفه المالية مآت الالوف من الجنيهات، وظلت هذه الجمية تدأب وتجد في بنائه وتشييده عدة سنوات!

وان قدوم اللورد اللنبي اليوم الى هذه البلاد العربية، ليظهر على رؤوس الاشهاد على رأس اكبر مؤسسة تبشيرية، مشتقة بلحمتها وسداها، وخطتها وغايتها، من لب الاستعمار وروحه، بعد دخوله الاول اواخر سني الحرب العامة على رأس حملة عسكرية كانت تدعي انها تخوض تلك الحرب من اجل حريات الشعوب واستقلالها وحريتها، ليثير في نفس كل عربي ابي، اشد الذكريات الما، واعمق الانفعالات التي يرى من خلالها صور الاغراء والخديعة، بارزة جلية!

وكيف لا تكون هذه الذكريات مؤلمة، وترددها جارحاً مثيراً، وقد كان الجيش العربي يحارب وجيش «الحلفاء» جنباً الى جنب، في سبيل حرية العرب واستقلالهم، باذلا الدماء والارواح لادراك الغاية القومية المقدسة، وهي وحدة العرب وانشاء كيان مستقل لهم، تؤلف سورية الجنوبية منه جزءاً عزيزاً غير منفصل عنه بحال. ولو لا اعتقاد العرب بان الحلفاء يراعون ما يعاهدون عليه، ولو علم العرب وقتئذ بان الحلفاء وفي طليعتهم بريطانيا، انما كانوا يخادعون العرب، يصادقونهم في الظاهر ويتآمرون على اقتسام بلادهم في الباطن، لمـــا كان يسيراً على اي جيش من جيوش الحلفاء ان يغزو هذه البلاد مهما عظمت قوته، وكثرت اسلحته! فقد قاتل العرب في سبيل استقلالهم، وغلوا في دفع الثمن لهذا الاستقلال غلواً كبيراً، وكانت طيارات الحلفاء تمطر من الجو المناشير المتضمنة دعوة العرب الى الالتحاق بالثورة، والاشتراك في حركة التحرير والانقاذ، واستنهاض العرب في مختلف اقطارهم ليعملوا على تحقيق امانيهم، ثم لا ينسى العرب، ولا ينسى اللورد اللنبي، ذلك المنشور الخطير الذي نشره هو في طول البلاد وعرضها اول الاحتلال المشؤوم، وفيه يعد اهل البلاد العرب انهم صائرون الى حكم انفسهم بانفسهم، طبق امانيهم ورغباتهم، اجل! لن ينسى العرب ذلك القتال الذي قاتلوه في الحرب الكبرى في جانب الحلفاء، جانب جيوش بريطانيا التي كان يقودها اللورد اللنبي، وتحت امرة امراء العرب المجاهدين، ولما انتصر الحلفاء، قابل العرب هذا الانتصار بالابتهاج والارتياح، باعتباره انتصاراً لهم، وفوزاً احرزوه في قضيتهم هو حرية بلادهم واستقلالهم ووحدتهم!

ولكن العرب ما عتموا ان وجدوا ان هناك مكيدة مدبرة ضدهم، ومؤامرة مصطنعة على حساب قضيتهم، فأخذوا يصطدمون بالحقائق المرة واحدة بعد اخرى، حتى كشف الغطاء، وبان كل خفي مستور، وظهرت النيات المبيتة، وتجلت الروح الاستعمارية الخبيثة التي كانت تسترها ظروف الحرب وخدعتها! واذا بالعرب يسمعون وزراء بريطانيا يخطبون في الاندية الرسمية والمحافل الاجتماعية ان الحرب الصليبية قد انتهت حلقتها الاخيرة باستيلاء اللورد اللنبي على «المدينة المقدسة» و«الارض المقدسة»، واذا هم يقرأون في كتب القوم ومؤلفاتهم هذه المعاني بعبارات واضحة واساليب جلية مختلفة، واذا هم فوق كل ذلك، امام مؤامرة يهودية انكليزية فظيعة، لم يشهد التاريخ لها مثيلا في الغدر والخيانة والظلم، ثم امام مؤامرة صليبية تبشيرية، فتعقد المؤتمرات التبشيرية في بلادهم، وتدعى في هذه المؤتمرات دول الاستعمار الى اغتنام الفرصة في بسط سلطانها على البلاد العربية الاسلامية بتقوية الحركة التبشيرية وشد ازرها!

وها هي سورية الجنوبية، ترى اللورد اللنبي القائد العسكري السياسي بالامس، سائق مآت الالوف الى ميادين القتال، حيث تسفك الدماء، وتزهق الارواح، يحج اليوم الى «المدينة المقدسة» داعياً من دعاة الحركة التبشيرية البريطانية ليرأس مهرجاناً كبيراً في افتتاح ناد هو اعظم [illegible] تستمد قوته التبشيرية الظاهرة والخفية من السلطات الاستعمارية، ويثير القائد الكبير، الحربي البارحة السلمي اليوم، بقدومه هذا القدم لاجل هذه الغاية، في نفس الامة العربية مختلف الذكريات المؤذية والانفعالات الجارحة المنبعثة عن المظاهر الصليبية الاستعمارية اليهودية معاً.

فحزب الاستقلال العربي في فلسطين، وهو يتمثل هذه التطورات والانقلابات في قضية العرب عامة وفلسطين خاصة، يغتنم لمناسبة مقدم اللورد اللنبي، مردداً ما اصاب العرب من خيبة في آمالهم، وغمط لحقوقهم، وضياع لدماء شهدائهم وارواح ضحاياهم. صرخة استنكار ومقت لكل ما اقترفه الحلفاء، وبريطانيا من غدر، ونقض للوعد والعهد، وتخييب لآمال العرب، ويلفت حزب [الاستقلال] العربي نظر اللورد اللنبي الى هذه التصرفات المخزية المهلكة، والمؤامرات الفظيعة التي رُمي بها العرب، وجعلتهم يعتقدون ان المبادئ التي كان يبشر بها الحلفاء، ويعبئون جيوشهم للذود عنها كما كانوا يأفكون، لم تكن وقتئذ وليست هي الان سوى وسائل لتحقيق مطامع الفتح والاستعمار، وتسخير الامم الضعيفة لاشباع مطامعهم وجشعهم، وهذا ما حمل العرب على انتزاع كل ثقة للمستعمرة التي حالفوها امداً، ووقفوا على حقيقة نسيجها، والتي بعد كل ما رأوا منها باتوا يضمرون لها المقت والسخط، والاشمئزاز.

وان الامة العربية، المستفيقة بعد الخديعة، الجادة غير الهازلة في العمل لاخذ حقوقها، وابتناء استقلالها وكيانها، الوافرة العهد امام الله وعلى مسمع ومشهد من العالم اجمع انها ان تترك سبيل المقارعة والكفاح حتى تمتلك كامل امرها بيدها، وتتمم [illegible] الاستقلالي العربي الحر، هي تهزأ بعد اليوم بكل ما يتقنه المستعمرون من اقامة مثل هذه المظاهر الخادعة، مهما افرغ عليها من ابهته واحاطها بصور عنجهيته وجبروته، وتسير هذه الامة الكريمة الى الامام بقوة جبارة، لتصل الى ما وضعته نصب عينيها من غاية شريفة نبيل، وهو استقلال العرب الذي تحيا به حضارتهم السابقة فتعاد سيرتها الاولى كما عرفها العالم عهدها الاول شريفة طاهرة، [illegible] يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على البشر اجمعين، مؤسسة على الفضائل الانسانية الحقة!

وعاشت سورية الجنوبية، بلاداً عربية للعرب!

حزب الاستقلال العربي في فلـ

بيت المقدس: ١٤ ذي الحجة ١٣٥١

٩ نيسان ١٩٣٣

مطبعة «العرب»

بيان حزب الاستقلال بشأن دعوة اللورد اللنبي لتدشين جمعية الشبان المسيحية في القدس.

الإبتدائية إلى بيروت ودخل في مدرسة الشيخ عباس الإسلامية الشهيرة التي ذكرناها سابقاً، ولا بأس في ثقافته، وهو من جيلي. وهو قومي عربي استقلالي وحدوي، وأخلاقه حسنة وصلب في مواقفه وجريء في الكلام ويحسن الخطابة وذو حصافة وترو، وقد كان يمثل جنين في اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع، وكنا نعرفه قبلها، ولكن صلاتنا توثقت في أثناء وجودنا معاً في اللجنة منذ سنة 1928، وصرنا أصدقاء حميمين. وقد ظل محتفظاً بكل صفاته المذكورة وساهم في مختلف نشاط واجتماعات الحزب والمواقف الوطنية الأخرى التي كان يشارك فيها وإن لم يكن مندفعاً مثلنا، ولذلك لم يتعرض لما تعرضنا له نحن وأكثر أعضاء الحزب، من اعتقالات في أثناء المظاهرات ثم في أثناء التوتر الشديد والثورة في سنتي 1936 ـ 1939، ولكنه ظل على خطه القومي الوطني الصلب السليم. ولقد صار بالانتخاب رئيساً لبلدية جنين، ولكنه اصطدم مع السلطات واستقال ووقعت النكبة في سنة 1948 وظل في جنين تحت إدارة الحكم الهاشمي ولكنه لم يتغير. ووقع الاحتلال اليهودي المشؤوم في سنة 1967 وظل في جنين، ولم يتغير إلى أن وافاه أجله في سنة 1972 رحمة الله عليه. وقد افترقنا عن بعضنا في فلسطين في سنة 1937، حيث خرجت منها وبقيت خارجها، وقد زار دمشق مرتين بعد النكبة وقبل الاحتلال اليهودي الثاني، وزارني وجددنا عهد صداقتنا وذكرياتنا. وفي سنة 1964 زرت نابلس فجاء وسلم عليّ ودعاني إلى جنين ولبيت دعوته، وكان ذلك آخر عهدي به وجاهياً.

كلمة عن حمدي الحسيني:

وحمدي الحسيني هو من الأسرة الحسينية الغزية، وليست ذات قرابة قريبة بالأسرة الحسينية المقدسية. وأسرته بارزة في غزة وفيها منصب الإفتاء، وكان مفتيها في زمن الدولة العثمانية الشيخ عارف، وكان هو وابنه مصطفى قوميين نشيطين فاعدمهما جمال في جملة من أعدمه من رجالات العرب القوميين. وحمدي حسن الثقافة لغوياً واجتماعياً، وصلب في مواقفه ومجادل عنيد، وقد اعتنق الشيوعية عن دراسة كما قال، وزار موسكو في فترة من الفترات ولكنه لم يندمج في حزب شيوعي محلي أو عالمي فيما أعلمه. وكان لا ينتسب إلى ما يسمى مؤسسة السلم العالمية. وأنا أسن منه، وكان لي معرفة وصداقة مع أخيه الشيخ شكري على ما ذكرت في مناسبة سابقة. والتقيت به قبل تأسيس الحزب، ولكن لم تتوطد بيننا معرفة وصداقة وثيقة إلا عبر الحزب.

وقد شارك في نشاط الحزب في غزة وغيرها بدون اندفاع، وكان له نشاط قوي في أثناء الإضراب، فكان من جملة من اعتقلته السلطات ونفته من غزة إلى صرفند، وافترقنا في فلسطين فلم أره إلا سنة 1958 حيث جاء إلى دمشق في ظروف قيام الوحدة السورية المصرية، وكادت يساريته تطغى على قوميته وتجعله مناوئاً لهذه الوحدة والوحدة العربية عامة، لأن الشيوعيين وقفوا منها موقف المناوأة بحجة وجوب الكفاح في سبيل العمال والاستيلاء على وسائل الإنتاج، ولأن الشيوعية والقومية متناقضتان. وقد ناقشته في موقفه وقلت له إن العرب الآن في كفاح ضد الاستعمار والصهيونية، وهذا يجب أن يتقدم على كل شيء، وأن يؤجل العمل للنظام الاقتصادي إلى ما بعد التحرر من الإستعمار والصهيونية الذي يجب أن تحشد له كل القوى بقطع النظر عن شيء آخر. والتقيت

به في الزبداني سنة 1974 وكان اهدأ وأرصن مما عهدته فيه، فجددنا عهد صداقتنا ومودتنا، ولا يزال حياً في غزة وأنا أكتب هذه الجذاذات من جديد في أواخر عام 1976.

كلمة عن حربي الأيوبي:

وحربي الأيوبي كان من سني، ولا بأس في ثقافته، شديد الإنفعال والنقد والمهاجمة لكل من ظن أنه متهاود أو مريب، كثير الإدعاء للصلابة في المواقف والمبادىء، ولكنه لم يكن له فيما أعلم مواقف كفاحية عملية. وكنت التقيت به قبل إنشاء الحزب، ولكن لم تتوطد بيننا معرفة وصداقة إلا عبر الحزب. وقد شارك في نشاط الحزب ولكن ليس باندفاع وحماس وجد، مع استمراره في الصلابة والتظاهر بالحماس. وكان كما قلت سكرتيراً لبلدية يافا، وظل فيها إلى أيام النكبة، فخرج وجاء إلى بيروت وأقام فيها صاخباً على الجميع شاتماً للجميع، متشائماً على ما كان يبلغني، لأني لم ألتق به إلى أن وافته منيته في الستينات رحمة الله عليه.

كلمة عن الدكتور سليم سلامة:

الدكتور سليم سلامة لم يكن لنا معرفة به، وقد ضممناه إلينا بتوصية من الأمير عادل الذي أثنى على أخلاقه وصفاء وطنيته، وكان فعلاً كما وصفه بعد أن انضم إلينا، وانسجم معنا، أخلاقه دمثة ووطنيته صافية، وهو عروبي قومي وحدوي، وكان ضد حكم الإنكليز وانتدابهم، فضلاً عن شدة مناوأته للصهيونية وفهمه لأخطارها، وهو حسن الثقافة عربياً وغربياً ويجيد اللغة الإنكليزية، وهو طبيب أسنان وأظنه متخرج من الجامعة الأميركية. وهو إلى هذه الصفات دمث لين العريكة مرح الروح، وعرفنا بطريقة زوجته التي كانت بدورها وطنية نشيطة ذكية. وكان انسجامه في الحزب ومبادئه ونشاطه حسنا بدون انفعال وحماس، فلم يتعرض لما تعرض له أعضاء الحزب من اعتقالات. وقد ظل هو وزوجته محتفظين بخطهما القومي الوطني، وغادرنا فلسطين وهو فيها، وجاء الزوجان فسكنا في دمشق بعد النكبة، والتقينا فيهما وكنا نتزاور ونجدد ذكريات صداقتنا ونتداول في أبعاد قضيتنا، وقد ترجم وهو في دمشق بعض كتب عن الإنكليزية بطلب من مركز الثقافة الإميركية، وقد ألم به مرض أقعده أو شله، ثم توفي في الخمسينات على ما أظن.

وننبه على أننا سجلنا في دفترنا القديم انطباعات أخرى عن بعض أعضاء الحزب المؤسسين وأمزجتهم من وحي سيرتهم في الحزب، نثبتها في ما بعد لتكون تتمة لما كتبناه عنهم بصورة عامة.

موقف المعارضين من الحزب لأول وهلة:

وبعد هذا نأتي إلى سيرة الحزب فنقول:

أولاً: إن تأليف الحزب وظهوره قوبلا بدهشة وارتياب من قبل المعارضين، ومنهم من ظن أن للحاج أمين أصبعاً في هذه الحركة، لأني أنا وصبحي موظفان في الأوقاف وصديقان حميمان للحاج أمين ومتعاونان معه دائماً حسب ما كانوا يرون، ولأن بين الحاج أمين ورشيد ومعين كذلك صداقة وتعاون وطيد، ولأنه من غير المعقول في رأيهم أن لا نكون نحن الأربعة مجلسيين بالمعنى الحزبي المحلي المفهوم.

وثانياً: إن تأليف الحزب وإعلانه قوبلا من الحاج أمين بدهشة وتجهم معاً، واعتبر الحاج أمين وجماعته الصميمون، أننا في البيان الذي أذعناه ساوينا بينهم وبين المعارضين في الجهد

الوطني والتقصير في الواجبات الوطنية وأن بياننا كان حملة قاسية أو شتيمة جارحة لهم. وثبتت هذه الأفكار في الأوساط المجلسية التي لنا فيها أصدقاء كثيرون، وفيها من هم مخلصون للحركة والمبادىء القومية والوطنية مثلنا وأصحاب نشاط فيها، وأهل لأن يكونوا معنا في الحزب، فكان في ذلك محاولة لقطع الطريق سلفاً بيننا وبينهم. ولقد اعتبر الحاج أمين تأليف الحزب بالصيغة التي تم تأليفه بها كأنما هو لمناوأته خاصة. وأعتقد أن لعوني أثراً في ذلك، لما كان بين عوني وبينه من تضاد وتشاد على ما شرحته في الكلمتين اللتين كتبتهما عنهما.

وقد سجلت ما تقدم في دفتري القديم كانطباع لما كان، وسجلت بالإضافة إليه تعليلاً لموقف الحاج أمين المتجهم من الحزب ولبثّه الدعاية ضده في الأوساط المجلسية والصديقة بأنه تعبير عن امتعاضه من انفصالنا عنه رسمياً في الحركة الوطنية، وظهورنا بكيان حزبي خاص، حاسباً في ذلك إضعافاً لجبهته ودعايته وأثره في الحركة الوطنية، لأننا كنا نعمل معاً فيها، وكان يتركز علينا فيها بصورة قوية، وينتفع من مواقفنا وقوتنا واسمنا القومي والوطني، وصلاتنا برجالات القومية العربية في الأقطار الأخرى، فضلاً عن ما كان يربطنا به من صداقة حميمة ستتأثر من دون ريب بهذا الإنفصال في العمل الوطني، وليس بين جماعته من يقدر أن يشغل الفراغ الذي سوف يخلو منا في صفه. وهو يعرف أن ما كان له من اسم داوٍ في الحركة الوطنية والأوساط القومية العربية في فلسطين والأقطار الأخرى يعود قسم غير قليل منه إلى وجودنا في صف واحد نحن وإياه، وأن انفصالنا عنه سيفسر مع ما فيه من إضعاف له كما قلنا تفسيراً غير موافق لإسمه. وازعجه بعد نص البيان، الذي اعتبره تعريضاً به، وجود عوني وأكرم وحربي وحمدي في عداد مؤسسي الحزب وهم أضداده ومحرجوه في مختلف المواقف والمناسبات. ولقد فوتحت أنا وصبحي ورشيد ومعين من جماعة الحاج أمين، ومن الحاج أمين في ذلك كله معاتبين مستغربين، وحاولنا أن نبرهن على عدم صحة استنتاجاتهم، سواء في صدد محتويات البيان، أم في ظنهم بتأثرنا بعوني أو انزعاجهم من وجود عوني وأكرم وحمدي وحربي في عداد مؤسسي الحزب، وأن نؤكد لهم أن الحزب سيكون حزباً وطنياً بعيداً عن الاشتغال في السياسات المحلية والشخصية.

دعاية الحاج أمين وجماعته ضد الحزب رغم ذلك وآثارها:

ولكن هذه المحاولة التي تكررت منا كانت تذهب سدى وقويت دعايتهم ضد الحزب وضد مجلة العرب التي كان عجاج أصدرها قبل تأليف الحزب، واعتبرت بعد قيامه كأنها جريدة الحزب بين الأوساط المجلسية التي كانت على كل حال متسمة بالوطنية والإخلاص للحركة الوطنية بصورة عامة، حتى كاد يصبح من المتعذر أن نستفيد من أصدقائنا الكثيرين في هذه الأوساط في ما نريد أن نقوم به من نشاط في سبيل بث مبادىء الحزب والعمل في سبيل خططه المرسومة، بل إن الموقف بيننا وبين الحاج أمين وأخصائه الأقربين كاد يكون موقف جفاء وتنكر، وصرنا نتبادل التفسير لكل ما نكتبه أو يكتب في صالح الحزب، ولكل ما يكتبونه أو يقولونه تفسيراً فيه سوء ظن وريبة.

بوادر من مواقف ضد الحزب من المجلسيين والمعارضين:

ومما حدث وفيه شيء من ذلك، أن مجلة العرب نشرت سؤالاً بعد ما سرنا في الحزب ببضعة أشهر في صدد ما نسب لموسى كاظم باشا من بيع أراضي له لليهود، ونشرت جواباً لإبن موسى كاظم فيه تصحيح، ولم يكن في السؤال شيء من التهجم. ونشر جواب ابن موسى كان ينبغي أن يوقف الأمر عند حده، ولكن الأمر لم يقف عند حده.

مقال تعريض بعوني:

وبادر بعضهم إلى نشر مقالات فيها تعريض بعوني عبد الهادي وصلته بأرض وادي الحوارث التي انتقلت ملكيته لليهود، وشعرنا أن القصد من ذلك هو ضرب الحزب في شخص عوني. وقد لمحنا أن للشيخ عبد القادر المظفر يداً في هذه المقالات، مع أنه يعرف أبعاد القضية وتهافت زعم دعوى أثر عوني في انتقال الأراضي لليهود على ما شرحناه في مناسبات سابقة.

كذلك مما حدث أن الشيخ عبد القادر أقام وليمة شاي للأمير عادل أرسلان وكنت مدعواً إليها. وألقى خطاباً لا يمت للحفلة والمحتفى به بسبب، وهاجم فيه (من يتكلم بالوطنية دون أن يعمل)، ولمحنا قصد التعريض بالحزب لأن الحزب أقام بعض الحفلات الخطابية على ما سوف نذكره بعد، وكان المعروف أن الشيخ من أنصار الحاج أمين الصميمين والمتحركين بيده وفي سبيله.

ومما حدث وفيه تعبير عن الحقد ضد الحزب أنه طرأ على البلاد حالة توتر شديد في أوائل سنة 1933 بسبب سيل الهجرة اليهودية المتدفق وإهمال تواصي اللجان، واجتمعت اللجنة التنفيذية وقررت عقد اجتماع عام لبحث الأمر، وانعقد الاجتماع، وكان ممن حضره الحاج أمين وراغب وجمع كبير من أنصارهما، وارتفعت أصوات بالدعوة إلى عدم التعاون مع السلطات، وكنا نردد هذه الدعوة في حفلاتنا ومنشوراتنا، وأيدناها في الاجتماع طبعاً، وتقرر إيفاد وفد للمندوب السامي يبلغه عزم العرب على إعلان عدم التعاون مع السلطات إذا استمر تدفق هذا السيل، وظلت تواصي اللجان مهملة من قبلها. وتقرر أن يكون عوني ورشيد وفهمي.

موقف لجمال الحسيني:

فما كان من جمال الحسيني إلا أن هتف قائلاً إن موقف حزب الاستقلال مشين، لقبول أعضائه الذهاب مع الوفد لمقابلة المندوب، وكان هتافه ينم عن حقد شديد ضد الحزب دون أي منطق، حيث أراد أن يعتبر ذهاب أعضاء الوفد للمقابلة تعاوناً مع أن الحزب يدعو إلى عدم التعاون.

وكانت المقابلة عملاً وطنياً قوياً، لأن القرار هو إنذار الحكومة بخطوات إجرائية ضدها إذا هي استمرت في موقفها المنحاز لليهود، وليس لنقد ذلك أي معنى إلاّ تعبير عن حقد أعمى. ولقد قابلت هتافه بهتاف قاس وصوت عال، وقلت: «ليس في هذا الموقف شين، وإنما الشين على الذين اعتادوا أن يرقصوا في الظلام، وأن جمالاً قبل أي أحد لا يحق له أن ينتقد اشتراك أعضاء الحزب في المقابلة الإنذارية، لأنه سجل في محضر اللجنة التنفيذية حينما أثير فيها مسألة استقالة أعضاء اللجنة من عضويات اللجان المشتركة المختلطة، وأنه يفضل البقاء في لجنة الطرق (وكان هو عضواً فيها)، على البقاء في عضوية

اللجنة التنفيذية وسكرتيريتها. (وكان هذا حدث فعلاً على ما سوف نزيده شرحاً فيما بعد.

اتهام الحزب في تحدي الحاج أمين في اجتماع سينما أبولو في يافا:

ومما حدث كذلك وفيه تعبير عن الحقد على الحزب، أنه تقرر أن يعقد اجتماع عام في يافا بعد مرور الشهر المقرر كمهلة للمندوب السامي في الإنذار الذي بلغه وفد الاجتماع إليه، وعقد الاجتماع فعلاً في يافا في شهر مارس 1933، لأن الحكومة لم تغير موقفها، في سينما أبولو، واشتركنا في الاجتماع، وقد تجلت روح العداء الحزبي بين المجلسيين والمعارضين بأجلى مظاهرها فيه، حيث حاول المعارضون تمثيل دور حماسي في صدد عدم التعاون، فقام عاصم السعيد رئيس بلدية يافا وأعلن استعداده واستعداد راغب النشاشيبي وزملائه الآخرين من رئاسات البلديات للاستقالة إذا استقال الحاج أمين من رئاسة المجلس، وارتفعت أصوات تطالب الحاج أمين بالاستجابة لهذا التحدي، وكانت لحظة توترت فيها الأعصاب، واشتد اللجاج ثم السباب، وكاد يقع ضرب بين أنصار الفئتين. وبقينا نحن جماعة الحزب حياديين أو متفرجين، فأخذت الأوساط المجلسية تغمزنا وتنتقدنا، بل واتهمونا بأننا المحرضون للمعارضين على تحديهم لإحراج الحاج أمين. ولقد كان صوت أحمد الشقيري في الاجتماع من أقوى الأصوات التي ارتفعت مطالبة باستقالة الحاج أمين، وكان يجلس قريباً منا في الاجتماع، فكان ذلك مما ساقه المجلسيون كبرهان على ضلعنا في موقف الإحراج والتحدي، وكوننا نحن الذين شجعنا الشقيري على موقفه. وكان هذا غير صحيح يقيناً.

بيان مشترك من المظفر وعمر البيطار في تحدينا:

ومن عجيب ما كان ذيلاً لهذا الموقف، أن عمر البيطار والشيخ عبد القادر المظفر أذاعا بياناً مشتركاً، الأول من أركان المعارضة، والثاني من أركان المجلسيين. طلبا فيه من حزب الاستقلال تطبيق اللاتعاون على نفسه أولاً، وذلك باستقالتي أنا وصبحي الخضراء من الأوقاف، دون أن يخجلا من المفارقة والخروج على المنطق، لأن عملنا ليس حكومياً وتعاونياً مع السلطات. وهكذا التقت المعارضة والمجلسية اللتين كان بينهما ما كان من تشاد وتضاد شديدين، كما كان من أسباب ما اعترى الحركة الوطنية من فتور وخفوت وميوعة وازدواجية على مناوأة وتجريح الحزب الذي برز منفصلاً عنهما، ليحاول تصحيح مسار الحركة ويبعدها عن السياسات المحلية الشخصية ومهاتراتها.

تعليق على موقف الخصمين اللدودين ضد الحزب:

ولقد كان موقف الحاج أمين وجماعته من الحزب منطلقاً من كون الحزب بمثابة انشقاق عنهم من جماعة وطنية كانت متعاونة معهم. وفي هذا تجريح وتهوين واحراج لهم. وكان موقف المعارضين منطلقاً من كونهم كانوا يجدون من مواقف وتصرفات الحاج أمين وجماعته وسيلة لتبرير معارضتهم، في حين أن الحزب جاء لدفع الولاء والمسايرة للإنكليز والميوعة في الموقف الوطني، وهم المعنيون بذلك في الدرجة الأولى فأغاظهم ذلك.

شكوى الحاج أمين للأمير عبد الله بأننا مناوئين له:

ومما حدث كذلك أن زعيماً بدوياً اسمه ابن رفادة تمرد على ابن السعود بتحريض من الأمير عبد الله، فنشر الحزب بياناً استنكر التمرد، فعاتب الأمير عبد الله الحاج أمين على بياننا وما فيه من تعاطف مع ابن السعود، فتنصل الحاج أمين من البيان وقال للأمير إن الحزب الذي أذاعه قد قام لمناوأته.

وفي رحلة للأمير الى بغداد شكانا للملك فيصل، وذكر له مناوأتنا للحاج أمين، وجاءنا كتب من ياسين الهاشمي وسعيد ثابت يعاتبوننا فيها على ما قام بيننا وبين الحاج أمين من تناقض وتناكر. وقد لمحنا فيما كان يجري من أحاديث بيننا وبين بعض أصدقائنا السوريين والعراقيين الذين كانوا يزورون فلسطين أن الحاج أمين وجماعته كانوا يشكوننا لهم، ويفسرون تأليف حزبنا بقصد مناوأة الحاج أمين وإحراجه.

كلام الملك فيصل لنا في صدد ذلك:

ولقد مر الملك فيصل في أواسط عام 1932 بالقدس وسلّمنا عليه، ودعاني وعوني لمرافقته الى عمان، وخلا بنا فعاتبنا على ما كان من فرقة بيننا وبين الحاج أمين وما نقوم به من مناوأة وإحراج له، وطلب منا الكف عن ذلك. وقد شرحت للملك ظروف ودوافع إنشاء الحزب، الوطنية والقومية والكفاحية والتصحيحية. والتفسير الخاطىء الذي يفسر الحاج أمين به بروز الحزب، وما يفعله هو وأنصاره من مناوأة وعرقلة للحزب وتشويه لمقاصده البريئة التي قصدناها من تأليفه.

محاولاتي إبعاد الحزب عن المهاترات وأثرها:

ومن الحق في هذه المناسبة أن أقول إن عوني وحمدي وحربي وعجاج لم يكونوا يسكتون عن نقد الحاج أمين ومواقفه المتناقضة، وقد حاولت ونجحت إلى حد كبير في محاولتي منذ بروز الحزب أن أبعده وأبعد إخواني المذكورين بخاصة عن الوقوف في موقف مهاترات شخصية والنزول إلى ميدان السياسة المحلية والشخصية، وكنت أظل أذكّرهم بالقصد الذي رمينا إليه، وأننا في حالة ابتعادنا عن هذا القصد نكون كسائر الناس، غير أن موقف الحاج أمين وجماعته من الحزب بالتنكر له والتهجم عليه وبث الدعاية السيئة التشويهية ضده والجفاء الذي بدا منهم نحونا جميعاً، كل ذلك جعل بعضنا مضطرين إلى المقابلة بالمثل. ولكن بدون تصريح صريح وبدون اسم الحزب، وبأسلوب نقد تقصير الزعامات في واجبها الوطني الذي كانت تدعي أنها تقوم وتتظاهر به.

موقف جريدة فلسطين ومرآة الشرق والجامعة العربية من الحزب:

ولقد كانت جريدة فلسطين وجريدة مرآة الشرق اللتان كانتا لسان حال جبهة المعارضة، وجريدة الجامعة العربية التي كانت لسان حال جبهة المجلسية، تلتقي معاً في غمز الحزب والاستخفاف به وبما كان يدعو اليه ويقيم من أجله الاجتماعات وينشر المنشورات وقد كتبت مرآة الشرق مقالاً قالت فيه: **إن هؤلاء الذين يدعون إلى مكافحة الإنكليز ليس لهم مصالح حقيقية في فلسطين ولا يهمهم إن تخرب.**

مقالي في جريدة العرب رداً على مرآة الشرق:

فكتبت مقالاً في مجلة العرب قلت فيه: إن

القضية الوطنية هي في الحقيقة قضية السواد الأعظم من الشعب، لأنه هو الذي تقع عليه أعباء وشرور الاستعمار والصهيونية في الدرجة الأولى، ونحن اذ نستكشف طبقات شعبنا نعرف بالبداهة من أي منها السمسار وبائع الأرض، ومن أي منها ذلك الذي يستمدّ نفوذه وجاهه ومركزه من السلطات الإستعمارية، مقابل ما يمنحه لها من الولاء والطواعية والخضوع. ثم من أي منها الذين تواروا تحت أطباق الثرى وفي ظلمات السجون في سبيل بلادهم، ومن أي منها الذي يشردون كل يوم عن أراضيهم تنفيذاً لجريمة السمسرة وبيع الأراضي التي يرتكبها السماسرة والملاكون الذين هم طلاب النفوذ والوجاهة الذين يسايرون السلطات ويخضعون لها في سبيل ذلك من جملة ما يراد نعتهم بأصحاب المصالح الحقيقية في البلاد وبالاقلام المريبة والصحف المشبوهة، وأن الذي يستطيع أن يترك الدار تنعي من بناها هو الغني السري الذي يكون له من المال ما يساعده على الانتقال، أما الذين ليس لهم ثراء فهم الذين يبقون في الميدان، وهم الذين يسقطون في المعركة ضحايا الظلم واللؤم.

(هذا المقال نشرته مجلة العرب في عددها 21 حزيران 1933)[1].

علاقاتي الرسمية والشخصية بالحاج أمين وجماعته بعد نشوء الحزب:

هذا ولقد حرصت شخصياً أولاً على عدم الاندفاع والانغماس في المهاترة، وثانياً على الاحتفاظ بعلاقات شخصية معقولة مع كل من الحاج أمين ورفاقه الصميمين الذين هم رفاقي وأصدقائي مثل اسحق درويش والشيخ حسن أبي السعود ومنيف الحسيني، وهذا كان بالنسبة لعملي الرسمي مع الحاج أمين أيضاً. ولقد كان الحاج أمين يكظم نفسه ويعاملني كذلك، ولكن رفاقه الآخرين كانوا أقل منه كظماً وأظهر جفاء وتحفظاً.

موقف أمين التميمي رغم كونه محبذاً للحزب سابقاً نتيجة لموقف الحاج أمين:

ولقد صار هذا شأن أمين التميمي، مع أني كنت أحدثه بما نحن في صدده من تأليف الحزب وأشخاصه، وكان من المحبذين لذلك المشجعين له، حيث صار هو الآخر لا يتحاشى في أحاديثه معي من التعريض بالحزب وتكوينه وأشخاصه. والظاهر أن المجالس الخصوصية التي كان يحضرها مع الحاج أمين وشلته الخاصة، كان لسيرة الحزب فيها النصيب الأوفر، فكان أمين يتشرب من ذلك وينسى ما كنا نتشارك به من نقد للحالة التي وصلت إليها قضية البلاد، ومن وجوب تأليف حزب لتصحيح مسارها.

ومن الحق أن أسجل أن مقابلة الحزب بما قوبل به من المعارضين والمجلسيين معاً لم يكن غريباً، لأن الحزب في الحقيقة قام بسبب الميوعة التي أصابت الحركة الوطنية نتيجة لأمزجة الطرفين ومواقفهم، وكان بكلمة أخرى تعبيراً صادقاً ضد ذلك، ولم يكن هذا ليذهب عنا فقبلنا التحدي من الطرفين، وأخذنا نبذل جهدنا في السير في ما عزمنا عليه من خطة تصحيحية للمسار الوطني.

ما لمسناه من تشجيع من قطاعات واسعة في البلاد:

وشجعنا على ذلك أن قطاعات كبيرة من

---

(1) صورة نص المقال في صفحة 802.

شباب ورجالات البلاد المنغمسين كثيراً في السياسة الحزبية المحلية، والذين كانوا متأملين مما صارت اليه الحركة الوطنية من فتور وميوعة، قد ارتاحوا لما جاء في بياننا من نقد وعزيمة، ووقفوا موقف المترقب لما يكون معنا.

اهتمامنا لإنشاء فروع للحزب:

هذا ولقد اهتممنا لإنشاء فروع للحزب في المدن الرئيسية في فلسطين كخطوة من خطوات التنظيم بعد قليل من إعلام الحكومة وإعلان بيان الحزب.

إنشاء فرع في يافا بترشيح من حربي الأيوبي:

ولقد رشح حربي الأيوبي لفرع يافا أسماء بعض الشباب، وأثنى على إخلاصهم وأخلاقهم وحماسهم وصلابتهم، منهم هاشم السبع وابراهيم الشنطي ورفيق شهاب الدين واسماعيل الطوباسي، فوافقنا وفوتحوا فوافقوا، وحلفوا يمين الحزب وصاروا هيئة فرع الحزب في يافا.

انشاء فرع في نابلس بترشيحي:

ورشحت أنا من نابلس أخي محمد علي والدكتور صدقي ملحس وعادل كنعان وممدوح السخن وعادل التميمي لهيئة فرع نابلس فووفق عليهم، وفوتحوا فوافقوا، وحلفوا يمين الحزب وصاروا هيئة فرع الحزب في نابلس.

إنشاء فرع في حيفا بترشيح من رشيد:

ورشح رشيد الحاج ابراهيم ثلاثة شبان من حيفا، أذكر منهم مطلق عبد الخالق ورمزي عامر، ولم أعد أتذكر الآخر، وأثنى على أخلاقهم وحماسهم.

انشاء فرع في غزة بترشيح من حمدي الحسيني:

ورشح حمدي الحسيني ثلاثة شبان من غزة وأثنى على أخلاقهم وحماسهم، وهم رأفة البورنو وخضر الجعفراوي وسامي الحسيني، فتمت الموافقة على هؤلاء وأولئك، وفوتحوا ووافقوا، وحلفوا اليمين فصاروا هيئة الحزب في حيفا وغزة.

إنشاء فرع في جنين بترشيح من فهمي العبوشي:

ورشح فهمي العبوشي بدوره ثلاثة شبان من جنين، وأثنى عليهم، وقد نسيت أسماءهم، فتمت الموافقة عليهم وفوتحوا فوافقوا، وحلفو اليمين وصاروا هيئة الحزب في جنين.

لم يزد أعضاء الحزب مؤسسين وفروعاً عن ثلاثين بسبب التزمت الذي التزمناه:

واقتصر الأمر على ذلك، بحيث لم يزد عدد أعضاء الحزب مؤسسين وفروع عن نحو ثلاثين، وكان ذلك نتيجة التزمت الذي التزمناه، والخوف من أخذ أناس مائعين.

نزاع أعضاء فرع يافا واشتداده واضطرارنا الى الغاء الفرع بسببه:

ومع ذلك لم نلبث أن تلقينا صدمة من فرع يافا، جعلتنا نلغيه بعد بضعة أشهر، فقد شب خلاف وخصام بين هاشم السبع وإبراهيم الشنطي وكلاهما في الأصل من قلقيلية، وكان بعض أقارب إبراهيم متهمون بالسمسرة على بيع الأراضي لليهود، وكان هاشم شابا متحمساً وهو ابن أحد وجوه قلقيلية الوطنيين المخلصين، فكان يغمز بابراهيم وذويه، وصار الخصام علنياً في الصحف، وانقسم أعضاء الفرع بعضهم مع

إبراهيم وبعضهم مع هاشم، وكان حربي يثني على إبراهيم ويقول إنه لا علاقة له بما يتهم به ذووه، وأنه نظيف. وكان يحاول التوفيق بين المتخاصمين فلم يستطع، واشتد الأمر فلم يكن من علاج إلا بإنهاء وجود الفرع، حتى لا يلحق بالحزب معرة ما يجري بين أعضائه، (وما تقدم سجل في دفتري القديم).

كلمة عن جريدة الدفاع التي أصدرها ابراهيم الشنطي:

وفي هذا الدفتر استطراداً إلى جريدة الدفاع التي أصدرها إبراهيم الشنطي، ورأيت إثباته لأن فيه لمعة عن إبراهيم الذي صار له بها حيز ونشاط واسم صحافي في فلسطين. ولقد كان ابراهيم محرراً في جريدة الجامعة الإسلامية التي كان يصدرها الشيخ سليمان التاجي في يافا، ثم انفصل منها وأنشأ جريدة الدفاع، وكان وراء ذلك شكري التاجي وهو أخو الشيخ سليمان، وكان بين الأخوين شيء من الخصومة والمقاطعة، وكان شكري ذا نشاط وحيوية، ولكنه كان دائماً يوحي بالريبة في نشاطه وحيويته بسبب ما كان ملموحاً عنه من تعامله الخفي مع اليهود. وكان ذلك من أسباب ومواضيع حملة هاشم السبع أيضاً، حيث اتهم إبراهيم بأنه أنشأ جريدته بأموال السماسرة. ولقد كانت خطة الجريدة عجيبة، حيث كانت من طرف خفي تساير المعارضين وتكيل لبعضهم في مناسبات عامرة المدح، وتهاجم من طرف خفي كذلك المجلسيين والحاج أمين، وتحاول الغض منهم وتجريحهم أيضاً. وكانت تبدو أحياناً متطرفة في الدعوة الوطنية وأحياناً مائعة، ولقد نشأ شيء من صلة الصداقة والتعامل بين عوني عبد الهادي وبين إبراهيم، وساعد عوني إبراهيم مادياً في بعض أزمات الجريدة، وكانت تلك الصلة وهذه المساعدة سبباً للقول بأن جريدة الدفاع هي في ذات الوقت تنطق بلسان حزب الاستقلال، كما كانت سبباً لغمز الحزب من المجلسيين والبرهنة على عدائه لهم، ولم يكن لذلك أصل، وإنما هو بسبب مزاج عوني الخاص الذي يجعله يجامل ويساير في مواقفه وحالات لا تتحمل المجاملة والمسايرة، وظلت الجريدة على خطتها، وظلت صلة عوني بابراهيم قائمة في الوقت نفسه.

بوادر نشاط الحزب وجنوحنا للتعويض عن محدودية الأعضاء إلى عقد الاجتماعات العامة:

وفي صدد نشاط الحزب أقول إننا جنحنا الى طريق نعوّض بها ما كان من محدودية حجم الحزب العددية من جهة، وتكون وسيلة للتوعية وتصحيح مسار الحركة الوطنية من جهة أخرى، وهي عقد اجتماعات عامة ونشر المنشورات.

الاجتماعات التي عقدت في يافا ونابلس والقدس وحيفا وعكا:

ولقد كان أول اجتماع عام لنا في يافا، ثم عقدنا إجتماعاً ثانياً في نابلس، وثالثاً في القدس، ثم يافا للمرة الثانية، ثم في عكا ثم في حيفا، أي ستة إجتماعات خلال سنة ونصف.

إقبال الناس على الإجتماعات:

وكانت القاعات التي تعقد فيها الإجتماعات في هذه المدن تكتظ بالناس من مختلف الميول والفئات، وكنا نعلن موعد الاجتماع ومكانه مسبقاً في الصحف وفي بيانات خاصة مطبوعة.

خطب الأعضاء وغيرهم فيها بالتوعية والحملة الصريحة على الإنكليز والصهيونية:

وكان يخطب في الاجتماع الأعضاء القادرون على الخطابة وبخاصة أنا وعجاج وفهمي

وأكرم، وكان يخطب أحياناً عوني وصبحي ورشيد وحمدي، وكان يخطب غيرنا بالاتفاق معنا أو بتكليف منا، وكانت الخطب تدور حول سياسة الانتداب وسيئات الإستعمار وعدم شرعتيهما والغدر الإنكليزي للعرب، وحق الشعب العربي الفلسطيني في الحرية والاستقلال، والحكم الوطني البرلماني وما كان من مشاركاته في الجهاد في سبيل ذلك منذ زمن الدولة العثمانية، وحول محاباة السلطات الصارخة لليهود وما أدت إليه من أضرار فادحة لحقوق العرب ومركزهم. وكان الخطباء ينبهون الشعب عبر الاجتماعات إلى ما ألم بالحركة الوطنية من ميوعة، وإلى ما يحدث من تعاون فئات عديدة مع السلطات، وما كان لذلك من آثار سيئة، وإلى الحث على الرجوع إلى مبادىء الحركة الوطنية والصلابة فيها وفي الكفاح في سبيلها بدون هوادة وتساهل الخ . . .

اهتمام السلطات لأيام الإجتماعات وما كان يثيره ذلك من توتر:

وكانت أيام الاجتماعات أيام حركة وتوتر في البلدة التي يعقد فيه بما كانت السلطات تحشده من قوات في الشوارع وحول قاعات الاجتماعات تحسباً للطوارىء والمظاهرات الصاخبة، وكنا نهيىء منشورات بالآلاف ونوزعها في أثناء الإجتماعات في تلك المعاني، وكانت الإجتماعات تعقد أحياناً في مناسبات معينة مثل يوم ذكرى وعد بلفور ومثل ذكرى يوم احتلال القدس وذكرى شهداء العرب، وأحياناً بدون مناسبات معينة.

اجتماع القدس في ذكرى إحتلال القدس وأثره في السلطات:

ولقد كان اجتماع القدس في مناسبة ذكرى احتلال القدس الذي تم في 9 كانون الأول 1917، وقد حضره موسى كاظم باشا، بالإضافة إلى جمع غفير من مختلف فئات أهل القدس، ولقد كانت السلطات إعتادت أن تقيم حفلة دينية بمراسم معينة في هذه المناسبة، وتدعو إليها وجوه البلاد، فنشر الحزب قبل أيام من يوم الإجتماع بياناً يستنكر هذه المراسم وينبه إلى ما فيها من جرح لعواطف المسلمين، ويذكر فيه بما قاله الجنرال اللنبي في يوم احتلاله القدس (الحرب الصليبية انتهت اليوم). ونشرت الصحف البيان، وكان لذلك أثر في عدول السلطات هذه السنة من إقامة تلك المراسم الدينية. وقد نشر الحزب يوم الإجتماع بياناً آخر حسب العادة ندد فيه بالإحتلال الإنكليزي، وذكر بالغدر الإنكليزي للعرب، وطالب الإنكليز بالجلاء وقيام حكم وطني مستقل يحكم البلاد. (وفي الجزء الثالث من كتابنا حول الحركة العربية نص المنشور الذي اذاعه الحزب في ذكرى وعد بلفور، والاجتماع العام الذي عقده في نابلس في 2 تشرين الثاني 1932 في مناسبة ذلك، ونص المنشور الذي أذاعه كذلك في ذكرى احتلال القدس، والإجتماع الذي عقده في 9 كانون الأول 1932 في القدس في مناسبة ذلك أوردناهما كنماذج لمناشير الحزب)[1].

موقف الحزب من تدشين بناية جمعية الشبان المسيحيين في القدس:

ولقد كان احتفال تدشين بناية جمعية الشبان المسيحيين في القدس، ودعوة الجنرال اللنبي

---

(1) صور نماذج عن بيانات الحزب صفحات: 811 ـ 812 ـ 813 ـ 814.

لحضوره، ودعوة وجوه البلاد لحضوره كذلك، مناسبة لنشر الحزب بياناً حمل فيه حملة على معاني هذه العملية الإستعمارية والتبشيرية والصليبية، وقد تعاون الحزب في حملته هذه مع جمعيات الشبان المسلمين التي كان لها تكتل ولجنة تنفيذية برئاسة رشيد الحاج إبراهيم، حيث نُشر باسمها بيان مماثل لبيان الحزب. وقد أدت الحملة إلى مقاطعة معظم المدعوين من المسلمين وكثير من المدعوين المسيحيين للحفلة، وهزت أعصاب الإنكليز هزاً عنيفاً، وهزت بنوع خاص أعصاب الجنرال اللنبي، حتى جعلته يحاول التنصل من معنى جملته التي قالها حينما احتل القدس.

بيان الحزب بالدعوة إلى مقاطعة الحفلات والمجاملات وأثره:

ومما كان من نشاط الحزب إذاعته بياناً في تشرين الأول 1932، فيه هتاف ونداء إلى ضمير كل عربي في فلسطين بصدد سياسة الحفلات والمجاملات التي اصطنعها المندوب السامي واكهوب وانغمر فيها جل زعماء العرب على ما ذكرناه قبل، وقال الحزب في ندائه إن مسايرة هذه السياسة ستحمل المستعمر على الاعتقاد بضعف روح المقاومة الوطنية، وتطمعه في الإستمرار على أساليبه التي اشتدت أخطارها وهددت كيان العرب السياسي والإقتصادي، وأن من واجب كل عربي أن يذكر دائماً ما يقاسيه الوطن من حرمان وشقاء، وأن لا يعرض كرامة أمته وعزة قومه للمهانة والإحتقار بارتكابه إثم التهافت على هذه الحفلات، وأن يثبت للملأ صدق الكفاح الذي تكافحه هذه البلاد ضد الإستعمار والصهيونية وفي سبيل الإستقلال والحرية. وكان لهذا النداء وقع حسن في قطاعات واسعة من مختلف الفئات في المدن والقرى، وكان له أثر إيجابي، حيث أخذ الذين اعتادوا استجابة الدعوات إلى الحفلات بالإنقباض عنها، وحيث اضطر المندوب السامي إزاء ذلك إلى تجميد كثير من حفلاته وقص أطرافها.

منشورات الحزب إلى رجالات العرب خارج فلسطين عن قضية فلسطين ودعوة إلى الإهتمام بها:

كذلك أذاع الحزب فيما أذاع منشوراً وجهه إلى رجال العرب وهيئاتهم وصحفهم في الأقطار العربية، شرح فيه حالة فلسطين السيئة ومرامي المؤامرة الإستعمارية للصهيونية ومظاهرها الرهيبة الراهنة والآتية، وأهاب بالعرب إلى النظر إلى هذه القضية نظرة الجد، ويعملوا على إنقاذ فلسطين وحماية بلادهم معها من تلك المؤامرة الكبرى، (في الجزء الثالث من كتابنا حول الحركة العربية نص هذا المنشور).

إرسال كراس الحزب إلى رجالات العرب خارج فلسطين وتلقي تشجيعهم:

وكان الحزب عقب بروزه أرسل الكراس الذي احتوى نظامه، والبيان الذي أذاعه في الحوافز على تأليف الحزب ومراميه، إلى كثير من رجالات سورية ولبنان والعراق والأردن ومصر، الذين كان بين كثير منهم وبين فريق من أعضاء الحزب معرفة وتواثق وزمالة عمل وصداقة حميمة منذ عهد فيصل، ووردت على الحزب من عدد منهم كتب مشجعة محبذة واعدة بالتضامن، وظل الحزب على صلة بهم، حيث كان يرسل إليهم وإلى صحف سورية ولبنان ومصر والعراق ما ينشره من بيانات ومنشورات.

مذكرة أخرى لرجالات العرب وحكوماتهم بما يتهدد البلاد من أخطار بسبب اشتداد تيار الهجرة:

وأرسلنا إليهم فيما أرسلناه مذكرة أخرى، شرحنا فيها الأخطار المحدقة بفلسطين من جراء اشتداد الهجرة اليهودية ومحاباة الإنكليز وإهمالهم لتواصي لجانهم، واستشرناهم في إرسال وفد من الحزب لشرح الأمور لهم، وعقد اجتماعات عامة في بلادهم، وجعل قضية فلسطين قضية عربية عامة، كما جعلها اليهود من ناحيتهم قضية يهودية عالمية، وأرسلنا نسخة من مذكرتنا إلى ملوك العرب وحكوماتهم، وكنا نعتزم على إرسال وفد يطوف في بلاد العرب تحقيقاً لذلك، ولكن ما طرأ على الحزب من فتور على ما سوف نشرحه بعد جمّد العزيمة.

اهتمام الحزب لتوثيق صلاته وتنسيق نشاطه مع الحركة الوطنية الأردنية:

ولقد اهتم الحزب بخاصة لتوثيق صلاته برجال الحركة الوطنية في شرق الأردن جارة فلسطين الدنيا وشريكتها في بلائها، حيث كانت هناك حركة وطنية معارضة لسياسة الأمير الإنكليزية، وكان لها مؤتمر لجنة تنفيذية رئيسها حسين الطراونة، وسكرتيرها الدكتور صبحي أبو غنيمة. وطلبنا منهم إرسال وفد للقدس للإتفاق معهم على التنسيق والتعاون.

قدوم وفد من اللجنة التنفيذية الأردنية واتفاقنا معه على التنسيق:

وجاء وفد مؤلف من رئيس اللجنة وسكرتيرها المذكورين ومعهما سليمان السودي أحد أعضائها، واجتمعنا بهم، وتم الاتفاق فعلاً على التضامن والتعاون والتنسيق بين نشاطهم ونشاطنا في ميدان الحركة الوطنية الفلسطينية والأردنية المشتركة.

موقف الحزب من عملية تأجير الأمير عبد الله أرض الغور لليهود وأثره:

ولقد كان الأمير عبد الله استوهب من المجلس النيابي الأردني أراضي غور أبي عبيدة لتكون له مزارع، ثم سارع وأجرها لليهود لمدة تسع وتسعين سنة، وقبض منهم سلفة الأجارة، وكان ذلك نتيجة محاولات يهودية للتسرب إلى شرق الأردن بالتواطؤ مع الأمير، مما شرحناه في الجزء الثالث من كتابنا حول الحركة العربية ص95 و96 شرحاً يغنينا عن إعادته هنا، وقد تم عقد الإجارة بعد قيام الحزب، فأسهم الحزب في إثارة الضجة ضد ذلك، ثم ناشد الملك فيصل بالتدخل لمنع تنفيذ العملية، وأثمرت المناشدة حيث ضغط الملك على أخيه وجعله يجمدها.

إسهام الحزب في مؤتمرات واجتماعات اللاتعاون:

ولقد كان من آثار نشاطنا ودعوتنا من جهة، وبسبب اشتداد تدفق سيل الهجرة واستمرار السلطات في التصامم عن سماع احتجاجاتنا، أخذت الأصوات ترتفع بوجوب إعلان عدم التعاون مع السلطات، وعقدت إجتماعات ومؤتمرات فلسطينية من أجل ذلك، فأسهم الحزب فيها وجوداً وتأييداً مما سوف نزيده شرحاً في النبذة الخاصة التي عقدناها على هذه الإجتماعات والمؤتمرات.

آخر اجتماع عام للحزب هو اجتماع حيفا في أيلول 1933:

وكان آخر إجتماع عام عقده الحزب في

أيلول 1933 في حيفا، وكان اجتماعاً قوياً صاخباً.

قرار إيفاد عوني إلى جنيف:

وقد عقدت هيئة الحزب بعده اجتماعا قررت فيه إيفاد عوني الى جنيف لتقديم احتجاج للجنة الانتداب على سيل الهجرة المتدفق وسياسة المحاباة الانكليزية المستمرة، وإن لم يتم سفر عوني لأسباب خاصة.

بحثنا في هذا الاجتماع في إقامة مظاهرات عامة:

ومما هو مسجل في دفتري القديم عن هذا الإجتماع أن هيئة الحزب تداولت في أمر الدعوة إلى مظاهرات عامة تبدأ في نابلس احتجاجاً على تدفق الهجرة واستمرار السلطات في غيّها وعدم مبالاتها بصرخات الاحتجاج والقلق، ثم نقوم بمظاهرات في مدن فلسطين الأخرى أسبوعاً بعد أسبوع.

بحث هذا الأمر في اللجنة التنفيذية وتضامن الحزب معها فيه:

ومن الصدف أن هذا الأمر كان في نفس الوقت يبحث في اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع ويتقرر فيها، ولقد كان أعضاء الحزب في اللجنة مقاطعين لاجتماعاتها بسبب ما طرأ عليها من جمود وميوعة، وعلمنا بقرارها المذكور ونحن في حيفا، فبادرنا إلى الإبراق إليها بأننا متضامنون معها في قرارها، وكان فيها من أعضاء الحزب أنا وعوني ورشيد وفهمي وصبحي ومعين، ثم اشتركنا في المظاهرات، وتحمل بعضنا نتائجها من ضرب وشج وسجن ومحاكمة على ما سوف يأتي شرحه بعد.

بوادر الحزب القومية خارج فلسطين:

ولقد كان الحزب يغتنم الفرص للإسهام في بعض الأعمال القومية خارج فلسطين أيضاً انطلاقاً من كونه حزباً قومياً عاماً.

مناشدته ملكي السعودية واليمن بوقف الحرب بينهما:

وكان من ذلك مناشدته برقياً لملكي اليمن والسعودية حينما نشب النزاع ثم الحرب بينهما بسبب حدود تهامة وعسير لوقف الحرب، وحل النزاع بالصلح والتحكيم والتفاهم، وهو الذي اقترح على الحاج أمين الحسيني بصفته رئيس المؤتمر الإسلامي أن يسعى للوساطة والتحكيم.

فاستجاب واستجاب الملكان، وسافر وفد برئاسة الحاج أمين، وتم حل الخلاف على ما شرحناه في نبذة المؤتمر الإسلامي.

جمع الحزب تبرعات لشهداء الجيش العراقي في تمرد التياريين:

ولما قامت حركة تمرد التياريين بين الأكراد في العراق، وذهب ضحيتها شهداء من الجيش العراقي، جمعنا تبرعات منا ومن أصدقائنا لأرامل وأيتام الشهداء، بلغت خمسين ديناراً وأرسلناها مواساة وتعزية.

تهنئة الحزب للسعودية:

ولما أتمت (المملكة العربية السعودية) تشكيلاتها، وأعلنت وجودها الاستقلالي التام بهذا الاسم، بادر الحزب إلى تهنئتها وتمنى الكرامة والعزة للعرب بها، وورد جواب شكر إليه من الحكومة السعودية. ولما تم حل الخلاف بين ملكي اليمن والسعودية أرسلنا برقيات تهنئة ودعوة لهما بالخير والقوة والسداد،

وورد جواب بالشكر أيضاً.

استنكار الحزب لتمرد ابن رفادة ضد السعودية:

ولقد حرك الأمير عبد الله متمرداً اسمه بن رفادة ضد ابن السعود، وأخذ هذا يقوم ببعض أفعال مزعجة، فأذاع الحزب بياناً باستنكار الحركة، ومناشدة زعماء العرب بالتضامن وإزالة الضغائن والتهاتر فيما بينهم.

استمرار الحزب في نشاطه خمسة عشر شهراً وآثار ذلك:

وهكذا ظل الحزب نحو خمسة عشرة شهراً يواصل نشاطه، متحدياً ما كان من مواقف مناوئة وعرقلة وتجهم وقفها إزائه المعارضون والمجلسيون معاً، وكان لذلك آثاراً إيجابية في تحقيق ما رمى اليه من توعية وتصحيح لمسار الحركة الوطنية، وتحريكها من خمودها وتخليصها من ميوعتها، مما سلم به كل المراقبين للأحداث. ومما كان منه دعوة اللاتعاون مع السلطات والمظاهرات الاحتجاجية غير المرخصة الصاخبة، واشتداد التوتر نتيجة لذلك، الذي انفجر أولاً في حركة الشهيد القسام، ثم في الإضراب الطويل وثورته العارمة، مما سوف يكون موضوع شروح خاصة فيما بعد.

فتور الحزب عن النشاط وآثار هذا النشاط:

ولقد أخذ الفتور يدب في الحزب، ثم جمد عن النشاط لأسباب عديدة داخلية وخارجية ومادية وغير مادية. ونقول إنه وإن كان حزب الاستقلال فتر وجمد في سنة 1934، فإنه لا يمكن لأحد أن يشك أنه كان له تأثير في تيار المناوأة للإنكليز واللاتعاون معهم، الذي قوي بعد تلك السنة. ولقد ظل بدون شك ماثلاً للأذهان ويعتبر موجوداً يحسب حسابه في المواقف والمناسبات التي جرت في السنين 1934 و1935 و1936 وما بعدها، وبقي اسمه موجوداً في الحساب والأذهان.

ومن الجدير بالذكر أن معظم مؤسسي الحزب قد اعتقلتهم السلطات في صرفند في فترة الإضراب الطويل 1936، وكذلك معظم أعضاء الفروع أيضاً كانوا معتقلين، وهذا يكفي لإبراز ما كان للحزب من إعتبار لدى الحكومة الإنكليزية ومن اهتمام وانتباه.

تعيين أكرم زعيتر كاتباً بمرتب وعدم جدوى ذلك:

واقترحت على الأقل تعيين كاتب لحفظ وتنظيم الأمور الكتابية، وقبل اقتراحي وتقرر تعيين أكرم زعيتر بمرتب عشر جنيهات، وكتبنا نحن الخمسة الدافعون على أنفسنا كمبيالات بمرتب سنة كاملة ندفعها مقسطة كل شهر عشرة جنيهات مرتباً لأكرم. ولكن أكرم لم يضطلع جدياً بالعمل، فقد سافر إلى بغداد للاشتراك في حفلة تأبين الملك فيصل، وبناء على رغبة أبداها الزعيم العربي الكبير ياسين الهاشمي لأجل تقوية الدعاية للقومية العربية. كما كتب لنا ولإخوان آخرين في القدس يستشيرنا بذلك، وكتبنا له محبذين هذه الرغبة والاستجابة والبقاء، فكلف بالعمل في معارف العراق، وبقي نحو سنة أو أكثر، وهكذا أخفق مشروع تنظيم المكتب، واستمر تعثره وكان لذلك أثره في فتور النشاط الحزبي.

أمزجة أركان الحزب من أسباب ذلك وشيء عنها:

وكانت أمزجة إخواننا في هيئة الحزب

المؤسسة التي انكشفت أكثر في سياق العمل، من أسباب تعثر الحزب وفتور نشاطه.

ولقد كان مزاج عوني الذي شرحته سابقاً مسيطراً عليه في مختلف المواقف. وقد عانينا فيه كثيراً، وكان سبباً لتذمر إخوانه وبخاصة حمدي وعجاج، حتى كادا ينفضان يدهما من الحزب بسبب ذلك. وكان لرشيد مزاج يقرب من مزاج عوني، ويجعله يتصرف تصرفات لا يراها الإخوان سليمة، ويراها هو من مقتضيات زعامته في حيفا كما يقول، وكان لحربي مزاج غريب فيما هو يتظاهر في التطرف إلى أبعد حد، حتى إنه ينتقدني وينتقد صبحي لأنهما موظفان في المجلس ومتعاونان مع الحاج أمين، بينما هو كاتب عند عاصم السعيد رئيس بلدية يافا، الذي كانت له مواقف واتصالات مريبة وأحد كبار أركان المعارضة. وكان متطرفاً في عدم الاشتراك مع أي هيئة في البلاد في عمل أو موقف وطني، لأنها مقصرة مريبة، حتى إنه حاول أن يمنعنا من الاشتراك في اجتماع اللاتعاون الكبير الذي انعقد في يافا، مع أنه كان خطوة من خطوات الكفاح ضد الانكليز، وأثراً من آثار نشاط الحزب، وحاول بنفس الحجة أن يمنعنا من الاشتراك في مظاهرات يافا غير المرخصة، لأنها بقرار اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع. وكان أكرم في فوران شبابه ونشاطه، ويجنح إلى المبالغة في التحرك، فكان يثير نقداً لدى بعض الإخوان. وكان حمدي وعجاج كثيرا النقد والتجريح مع عدم الجد والاكتراث، وكان بينهم وبين معين وصبحي شيء من الجفاف، فكان كل هذا مما يترسب في النفوس، حتى أدى إلى التعثر والفتور. ولست أزعم أني كنت بريئاً من العيوب، فلا بد من أن يكون لي نصيب منها. ولقد كنت أزعم نفسي أني أكثر الإخوان جدية واكتراثاً للحزب، وأزعم أني أنا حزب الاستقلال، وأنني أقوى شخص رغبة في قيامه وحياته وسيرته، وأني كنت أحرص الأعضاء على كل ذلك. فلما رأيت ما رأيت من الأعضاء سرى ذلك إليّ واعتراني فتور وملل أيضاً.

ولقد ظللنا مع ذلك كله نكابر ونستمر في النشاط إلى أيلول 1933، حيث كان آخر اجتماع عام عقدناه في حيفا في أواسط هذا الشهر، وقامت بعد ذلك المظاهرات غير المرخصة التي قررتها اللجنة التنفيذية، وتبع ذلك محاكمات بعض أعضاء اللجنة وغيرهم بسبب ما وقع من اصطدام دموي في مظاهرة يافا بنوع خاص، واستمر الانفعال بذلك طيلة سنة 1934، فركد نشاط الحزب وخفتت شعلته التي سطعت في وقت قصير سطوعاً قوياً، وشغلت جزءاً مهماً في الأفكار، وأثرت تأثيراً محسوساً في توجيه الحركة الوطنية نحو كفاح الإستعمار، أو جعلت هذا المعنى على الأقل يعود إلى البحث والتساؤل بصراحة، بعد أن لبث بضع سنين غامضاً وخافتاً.

بقاء اسم الحزب وآثاره ومظاهر ذلك:

على أن اسم الحزب وصيته واسمه وأثره ظل باقياً مشعوراً به. وحينما قامت الأحزاب بعد فتوره في سنة 1934 ظل يذكر ويشارك كشخصية سياسية مرموقة في الآراء والكفاح، وحينما رؤيت ضرورة إقامة لجنة عربية عليا للإشراف على حركة الإضراب العام الذي أعلنته البلاد في نيسان 1936، وتقرر أن تكون ممثلة لأحزاب فلسطين، كان الحزب ممن تمثل فيها، وكل ما كان من أمر أنه لم يعد يعقد اجتماعات خاصة وعامة في سنة 1934 وبعدها، ولقد قامت في سنة 1934 أحزاب

جديدة في فلسطين على ما سوف نشرحه بعد. وكان بينها شيء من التعاون في صدد مشروع مجلس تشريعي كانت السلطات تفكر في عرضه، ولكن الحزب لم ير أن يشترك في هذا التعاون الذي كان يتناقض في نظره مع شعار اللاتعاون، ولكن حينما أعلن الإضراب العام أذاع أركانه بياناً يؤيدون فيه هذا الإضراب الذي كان شعاره منسقاً مع الميثاق الوطني، وهو منع الهجرة، ووقف بيوع الأراضي لليهود، وإنشاء حكم وطني نيابي، والاستمرار في الإضراب إلى أن توقف الهجرة كبادرة لذلك. وحينما كانت اللجنة العربية العليا تقرر قرارات فيها تأييد لهذا الشعار ودعوة الى الصمود والمزيد من اللاتعاون، وكان ممثل الحزب فيها يتضامن مع هذه القرارات، وظل هذا ديدن ممثل الحزب فيها حينما انفجرت الثورة من جديد في أواخر سنة 1937 وبعدها على ما سوف نشرحه بعد.

تفنيد زعم أثر فيصل وموته في الحزب:

ولقد قال عبد القادر ياسين في كتابه (كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام 1948)، أن الحزب نجح فكرياً، حيث سادت شعاراته، إلا أنه فشل تنظيمياً، وأنه اعتمد على مساعدة الملك فيصل الذي نصحه الاستعمار البريطاني بعدم التدخل في القضية الفلسطينية، ثم ما لبث أن توفي فذوى الحزب وتوقف نشاطه، ولو أنه اعتمد على الجماهير وارتبط بها لما انتهى إلى هذه النهاية، وأثر الحزب وشعاراته في الحركة الوطنية. وقد ذكر فيما كتب عن تاريخ قضية فلسطين من كتب أخرى، وبعض هذه الكتب ذكرت اعتماد الحزب على الملك فيصل أيضاً، وهذا القول جزاف ليس في الحقيقة واليقين في شيء، وليس له أي سند، فلم يكن للملك فيصل أي دخل أو أثر في قيام الحزب ونشاطه وتمويله وفتوره، ونقول هذا صدقاً كل الصدق ويقيناً كل اليقين ونحن الأخبر بدخائل الأمور، ولا نقوله هرباً من نسبة الحزب إلى فيصل واعتماده على مساعدته له، فليس في هذا مسبّة ما.

وإن حزب الاستقلال حركة فلسطينية قومية بحتة قامت للدعوة لمناوأة الاحتلال الانكليزي الذي كان رأس البلاء، وكل ما كان من اسمه أنه تطابق في الاسم مع حزب الاستقلال الذي قام بدمشق في عهد الحكم الفيصلي. وكل ما كان أيضاً هو من وجود عدد من مؤسسي الحزب أعضاء في حزب دمشق. ولم يكن للملك فيصل أي يد في إنشائه ولا في سيرته ولا في حياته المادية، ولم يتلق منه أي دفعة سياسية أو توجيه سياسي أو مساعدة مالية. ولقد كان بين فيصل وبين الحزب اتصالات في مناسبات مختلفة، لأن غير واحد من أعضائه كان صديقاً له وله صلات وثيقة معه في عهد حكم الشام.

ولقد مات الملك فيصل في صيف عام 1933، واستمر الحزب في نشاطه بعد وفاته مدة طويلة أي إلى أواخر 1934.

كلمة عن عبد الحميد شومان:

كان عبد الحميد شومان من أقوى المؤازرين لحزب الاستقلال وأشدهم تعاوناً معهم ورفداً لهم. وقد مر اسمه أكثر من مرة فصار من رجال فلسطين البارزين، ومن المناسب تثبيت كلمة عنه فنقول: انه فلاح من بيت حنانيا القريبة من القدس، وكان هو وظل يذكر منشأه ويفخر به، وهو من عمري ولم ينل شيئاً من التعليم، كان يشتغل في التحجير في قريته، وكان بعض أهل

قريته والقرى المجاورة يذهبون الى أميركا فذهب هو أيضاً مثلهم وذلك قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، واشتغل ونشط هناك بالبيع المتجول ثم بالبيع المستقر حتى استطاع أن يدخر ثروة بلغت نحو ثلاثين ألف جنيه استرليني، وجاء الى فلسطين سنة 1928، وانبثق في ذهنه فكرة إنشاء بنك عربي، وكان طلعة حرب باشا الاقتصادي المصري النشيط ينشط في هذا المضمار، وقد أنشأ بنك مصر وشركات مصرية أخرى وصار لها رواج ونجاح، وصار له اسم. وقد نفذ شومان فكرته بالتشارك والتعاون أولاً مع أحمد حلمي عبد الباقي الذي كان ذا خبرة مالية ومصرفية وممارسات وظائفية مالية في زمن الدولة العثمانية وبعدها، وفي عهد فيصل وفي الحكومة الأردنية بعده على ما ذكرنا في الكلمة التي كتبناها عنه. وقد سعى شومان قبل أن يخطو خطوته في تأسيس شركة مساهمة كبيرة هي التي يقوم عليها البنك، ولكن سعيه لم ينجح إلا في نطاق ضيق، ولم يمنعه ذلك من أن يخطو خطوته بالتشارك والتعاون مع بعض المتمولين من عائلته في فلسطين وأصدقاء عرب له، ومن عائلته في أميركا. وقام البنك العربي في القدس برأسمال ثلاثين ألف جنيه فيما أذكر، معظمه من ماله، وصار الناس يودعون ودائعهم فيه ويدفع لهم عنها فائدة مخفضة، ثم يداينها. ويداين ماله بفائدة تجارية، وكان ثمرة ذلك في نهاية السنة الأولى أن ربح البنك الصافي بلغ مقدار رأس ماله أو قريب منه، وكان هذا نجاحاً عظيماً. واختلف مع أحمد حلمي رغم أنه تزوج إحدى بناته، فانفصل هذا عن البنك العربي، وصار شومان مدير البنك العام، وأخذ ينشىء للبنك فروعاً في مدن فلسطين ثم في الأردن، وظل البنك يسير قدماً ويقوى يوماً بعد يوم حتى بلغ الشأن العظيم الذي له اليوم، حيث صار فعلاً من أعظم المنشآت المصرفية العربية الخاصة، وانتشرت فروعه في كثير من المدن العربية، وصار له وكالات في الخارج، وانبثق عنه مصرف في سويسرا - زيورخ، وصارت معاملات البنك تدور في نطاق مئات الملايين من الجنيهات. وكان لحيوية ونشاط ودأب وصلابة عبد الحميد شومان الفضل الأكبر في كل ذلك، والرجل الى هذا وطني صلب في وطنيته، وحدوي استقلالي قومي، سمح اليد تجاه كلّ مشروع وعمل وطني وانساني، حتى لقد كان يحرص على أن يكون مصرفه الأكثر دفعاً من غيره، وكان جريئاً على قول الحق والإصرار عليه مستقيم الأخلاق بل صارماً فيها، طيب النفس بسيط الحياة غير معقد وغير متزمت وغير متعجرف، ولم يبطره ما صار له ولمؤسسته من شأن ومركز عظيمين.

وقد تعرفنا عليه عقب قليل من عودته وبداية نشاطه في فلسطين، وانسجمنا معاً في صداقة حميمة وثيقة، واستمر ذلك بيننا الى النهاية. ورغم أنه أقام في أمريكا أكثر من خمس عشرة سنة، فإنه ظل يحافظ على لهجته العربية القروية، حتى إن لغته الإنكليزية الأميركية كانت تشابه بهذه اللهجة، وكان يحب النكتة ويتحملها وهو رياضي الروح والسيرة. ولقد كان صديقاً حميماً لمعظم أعضاء حزب الاستقلال قبل إنشائه، وصار شديد التعاطف معهم ومع الحزب بعد انشائه، ويكاد يكون من أركانه، لولا أنه أراد أن يبقى غير رسمي فيه بسبب البنك الذي أنشأه وجعله عربياً للجميع.

وكان ممن اعتقلتهم السلطات الانتدابية أيضاً بعد انفجار سنة 1937 في معتقل عكا، وقد اعتدى السجانون عليه بالضرب الشديد بسبب

مواقفه الصلبة في المعتقل أيضاً.

وقد وقّع مع الاستقلاليين بياناً في تأييد الإضراب وأهدافه على ما ذكرناه قبل، وكان يساعد الحزب مادياً مساعدة حسنة، وساهم مساهمة فعالة في الإضراب، وبسبب كل ذلك كان ممن اعتقلتهم السلطات وأرسلتهم الى صرفند في الشهر الثالث من الإضراب.

وقد ظل على كل مبادئه وأخلاقه ثم نشاطه ودأبه وحيويته، رغم أنه صار طاعناً في السن إلى أن توفاه الله في سويسرة سنة 1974 عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، وكان فيها مستجماً مستشفياً. وأتي بجثمانه إلى عمان ومنها نقل الى القدس حيث دفن بجوار المسجد الأقصى رحمة الله عليه.

كلمة عن الدكتور صبحي أبي غنيمة:

ولقد مر كذلك اسم الدكتور صبحي أبي غنيمة في سياق أخبار نشاط الحزب، ولقد كان بارزاً في الحركة الوطنية الأردنية في أوائل الثلاثينات، وظل بارزاً. ولقد كان شاباً ذكياً متحركاً، وهو أصغر مني بنحو عشر سنين وهو من أربد، وقد درس دراسته الثانوية في دمشق ثم ذهب الى ألمانيا وتخرج منها طبيباً، وعاد ففتح عيادته في عمان في أوائل الثلاثينات، واندمج في الحركة الوطنية المعارضة لسياسة الأمير عبد الله المنسجمة مع السياسة الإنكليزية، وصار سكرتيراً للجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الأردني ومن أقوى محركيها. ولم يطق الانكليز والأمير بقاءه في الأردن فضيقوا عليه، فانتقل إلى دمشق في أواسط الثلاثينات وفتح عيادة فيها، وصار معتمداً للحركة الوطنية الأردنية فيها، وموئل رجالها. ولما انفجرت الثورة ثانية في فلسطين، وخرجنا من فلسطين ومنعنا من العودة اليها، وأقمنا في دمشق نشتغل في تأجيج الثورة، جدّدنا عهدنا مع الدكتور وتعاونا معه في سبيل ثورة فلسطين والحركة الوطنية الأردنية معاً، لما بين ذلك من ترابط وثيق، حتى لقد اتفقنا معه على أن تقوم في الأردن حركة مسلحة ضد الإنكليز، وتكون في الوقت نفسه رديفة لحركة الثورة الفلسطينية التي هي ضدهم، ولا سيما أن حكومة الأمير والضباط الانكليز في الأردن كانوا يضعون العراقيل في طريق مدد ونمو ثورة فلسطين، وكانت موانع حالت دون تحقيق ذلك الاتفاق الذي هيأنا نحن والدكتور كثيراً من أسباب تنفيذه مالاً وسلاحاً ورجالاً.

واستمر التعاون والتواثق بيننا وبين الدكتور طيلة أيام الثورة، وافترقنا في أيام الحرب حيث سجنّا في دمشق، ثم خرجنا منها لاجئين الى تركية. كما ذهب هو لاجئاً الى المانيا ثم جاء الى تركية، ولما انتهت الحرب وعدنا الى دمشق وجددنا صداقتنا وعهدنا مع الدكتور، وبعد نكبة فلسطين ظل هو ينشط في ميدان الحركة الوطنية الأردنية المعارضة لسياسة الأمير الذي صار ملكاً، وأصبح زعيماً بارزاً من زعماء هذه الحركة وموئلاً لرجالها وحركتها، وكان بين الملك عبد الله والملك السعودي تشاد ومكايدة، فكان ذلك وسيلة لقيام صلة وثيقة بين الدكتور كزعيم وموئل أردني في سورية وبين الملك السعودي، وصار هذا يمد الدكتور بما يساعده على إدامة معارضته ومناوأته. ولقد كان الدكتور طموحاً للبروز، وعرف الملك الأردني فيه ذلك فغازله واستدعاه وعرض عليه التعاون، وقبل الدكتور العرض حتى شاع أن الملك عبد الله وعده بإسناد رئاسة حكومته إليه، غير أن الأمر لم يصل إلى نهاية إيجابية؛ وقد أثار هذا

عجب الناس، لأن الدكتور كان شديد المعارضة والعداء للملك عبد الله وخططه وسياسته. ومما قيل إن الملك أحب أن يمكر بالدكتور؛ وقد عرف نقطة ضعفه في البروز؛ وكان من هدف المكر التعكير بين الدكتور والعاهل السعودي ووقف مدده له، وحصل منه على وثيقة فيها تعهد بالسير وفق السياسة التي يرسمها، ثم سرب أخبار ذلك ووقف الأمر عند هذا الحد. وعاد الجفاء ثانية بينه وبين الملك عبد الله. وتسامح الملك السعودي وظل يمد الدكتور ويحركه الى أن اغتيل الملك عبد الله. وصار المُلك الى طلالِ ابنه، الذي حاول أن يسير في سياسة مخالفة لسياسة أبيه، فأدى ذلك الى هدوء المكايدات بين الهاشميين والسعوديين، وسير الصلات نحو التعاون، ثم نحو التواصل، وفي سنة 1968 بوغت الناس بخبر غزل بين الملك حسين وبين الدكتور، وأثمر الغزل هذه المرة، حيث عيّن الملك الدكتورَ سفيراً له في سورية، وكان الدكتور على ما سمعت يتوق كثيراً الى إشغال هذا المنصب، ومن سوء حظه أنه قضى فترة سفارته التي امتدت نحو ثلاث سنين في حرج وتوتر بسبب ما كان بين الملك حسين وحكوماته من ناحية وحكام سورية من ناحية من جفاء، لأن هؤلاء الحكام جاءوا نتيجة ثورة ضد انفصال الوحدة السورية المصرية الذي كان الملك حسين مؤيداً له على ما ذكرته في النبذة التي كتبتها عن شكري القوتلي رحمة الله عليه. واستمر الجفاء مشتداً بينهم.

والدكتور شاعر وأديب بالإضافة إلى براعته في الطب، وقد صار عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق، وله بعض المؤلفات الفلسفية والاجتماعية، وهو ذو روح خفيفة ونكتة ويد سمحة. وقد توفي في دمشق سنة 1971 وهو في منصب السفارة رحمة الله عليه.

كلمة عن الحاج حسين الطراونة:

والحاج حسين الطراونة رئيس اللجنة التنفيذية الأردنية الذي ذكرنا اسمه مع الدكتور صبحي، هو زعيم أسرة بارزة في الكرك، وهذه هي المرة الثانية التي رأيناه فيها، حيث رأيناه لأول مرة في المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد في أواخر عام 1931، وكان من الوفد الأردني الذي اشترك فيه، وكان رجلاً وقوراً ناضجاً عروبياً استقلالياً وحدوياً، وكان صاحب عزيمة وصلابة في مواقفه.

ولما تداعى رجالات الأردن الوطنيون إلى تنظيم كيان سياسي لهم معارض لسياسة الأمير والإنكليز، وعقدوا مؤتمراً في عمان في أوائل الثلاثينات، اختاروه لصفاته المذكورة رئيساً للمؤتمر، ثم رئيساً للجنة التنفيذية. وظل على رأس هذه اللجنة والحركة الوطنية صلباً قوياً في مواقفه إلى أن توفاه الله في أواخر الثلاثينات رحمة الله عليه.

وقد كنا رفقاء سفر في السيارة التي حملتنا الى بغداد للاشتراك في تشييع جنازة الملك فيصل رحمة الله عليه في خريف عام 1933، وعدنا كذلك في سيارة واحدة، وكان ذلك آخر عهدنا به. وهو حسن المعشر والحديث، بالإضافة الى صفاته المذكورة. وكان ممن منحهم الملك عبد الله رتبة الباشوية في سياق عشرات ممن منحهم هذه الرتبة للتأليف والتأنيس، سواء كانوا موالين له أو معارضين.

كلمة عن سليمان السودي:

وسليمان السودي ثالث الثلاثة الذين جاؤوا الى القدس بدعوة من الحزب وذكرنا اسمه، وهو زعيم أسرة بارزة من قضاء عجلون، وقد

عرفناه لأول مرة في المؤتمر السوري العام في دمشق سنة 1919، حيث كان ممثلاً لقضاء أربد في هذا المؤتمر، وقامت بيننا ألفة ومودة وتعاون. والتقينا به أكثر من مرة في مناسبات عديدة آخرها في دمشق سنة 1938، حيث كان ممن اتفقنا معهم على القيام بالحركة المسلحة في الأردن على ما ذكرت في نبذة الدكتور صبحي. عروبي استقلالي وحدوي صلباً في مواقفه حسن المعشر قريباً الى القلب طيب السريرة، وأظنه توفي في الأربعينات رحمة الله عليه.

رحلتي لأول مرة الى بغداد للاشتراك في جنازة الملك فيصل مع ركب فيه الأمير عبد الله وكثير آخرون:

وفي فترة عملي في مديرية الأوقاف، وفي سنتها الأولى 1933 توفي الملك فيصل في أوروبا، وكان يستجم بعد تعب مرير في حركة تمرد التيارين الأكراد في شمال العراق مما لا يدخل تفصيله في مذكراتنا.

وكان فيصل جاء في الربيع الى فلسطين والتقينا به وصحبناه الى عمان بناء على طلبه على ما شرحناه قبل، وقد شق موته على المشتغلين بالحركة العربية، لأنه كان مرتجى في قوة هذه الحركة، وعماداً من أعمدتها القومية، فرأينا من واجب الوفاء أن نذهب إلى بغداد للاشتراك في تشييع الجنازة. ولعلنا نجد فرصة للحديث مع إخواننا من رجال العراق في أمر المؤتمر العربي الذي كنا نبذل جهدنا في سبيل عقده، فذهبت أنا وعوني عبد الهادي في موكب من السيارات كان فيه الأمير عبد الله أيضاً وعدد من رجالات الأردن الرسميين والوطنيين، ومن هؤلاء عادل العظمة والحاج حسين الطراونة رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الأردني، وهذه أول مرة أذهب فيها الى بغداد.

وكانت رحلة شاقة، فمعظم الطريق ترابي أو رملي، والمعبّد منه قليل، والطقس حار، ونحن في السيارة خمسة إثنان عند السائق وثلاثة في الداخل مع أغراضنا وحقائبنا والرحلة تمتد أكثر من عشرين ساعة لا يمكن أن يرتاح فيها مسافر في سيارة معدّة في الأصل لتحمل ثلاثة ركاب فقط اثنان في الداخل وواحد مع السائق.

وقد توقف الركب في الرطبة لبضع ساعات للاستجمام والطعام، والرطبة من مراكز العراق الأمامية، وفيها غرف عديدة على جوانب ساحة مسوّرة ومكشوفة، ومنها بئر غزير المياه، وفيها موظفون للجمارك ودرك، وفي بعض غرفها بعض أسرّة، وفيها مطعم ومخزن فيه ما قد يحتاج إليه المسافرون، وهي في وسط صحراء قاحلة.

لقاؤنا مع الأمير عبد الله في الرطبة:

ولقد أحب الأمير أن يجتمع بنا، وكان شيء من الجفاء بيننا وبينه بسبب تأجيره لأراضي الغور، وشكوانا للملك فيصل واستنكارنا لتمرد ابن رفادة الذي كان له أصبع فيه، ولم نر بأساً في لقائه، فاجتمعنا به أنا وعوني وعادل العظمة الذي كان مقيماً في عمان يشتغل في المحاماة وينشط مع الناشطين في الحركة الوطنية الأردنية المعارضة لسياسة الأمير والانكليز، وقد قال لنا بعد أن عزّيناه بأخيه (عفا الله عما سلف، وأنه يجب أن يعقد بيننا وبينه وبين إخواننا الاستقلاليين الآخرين من رجالات العرب القدماء عهداً جديداً، وأن يكون موضع ثقتنا كما كان أمرنا مع فيصل). وقلنا له إننا كنا نحبّ أن نخلص وتمحضه ثقتنا لمواقفه من الحركة

العربية وحسن تعاطفه مع رجالها، وأن هذا سوف يكون له منا ومن سائر أخواننا اذا سار كذلك، فوعد ولكنه لم يبر بوعده بسبب ما كان من انسجامه المستمر في السياسة الانكليزية الصهيونية على ما شرحناه قبل.

وقد اشتركنا في موكب الجنازة الذي كان موكباً مهيباً، وأقمنا في بغداد نحو أسبوع.

زيارتنا للملك غازي:

وقد ذهبنا الى القصر، فسلمنا على الملك غازي وعزّيناه، وكان شاباً يبدو عليه الطيبة وروح أبيه العربية.

لقاؤنا مع الأصدقاء وأحاديثنا معهم وكلامهم لنا:

وأقيمت لنا حفلة استقبال في أمانة العاصمة والتقينا فيها بكثيرمن رجالات العراق من أصدقائنا وإخواننا القدامى من عهد دمشق وغيرهم، وسمعنا منهم ورأينا في وجوههم وحياتهم ونشاطهم وشعورهم ما أدخل التطمين على قلوبنا بالعزم على حفظ العزة والكرامة العربية ورعاية الحركة العربية وقضية فلسطين بخاصة، ولكنهم طلبوا منا أن لا نحرجهم بطلبات عاجلة حتى تتركز الأمور وتسير العجلة وينسد الفراغ نوعاً ما، وكان هذا أيضاً كلام أصدقائنا الذين كانوا في لجنة المؤتمر العربي ياسين الهاشمي وجميل المدفعي وعلي جودة ومولود مخلص ونوري السعيد في أحاديثنا الخاصة معهم، ولا سيما في صدد عقد المؤتمر العربي، حيث كان رأيهم تأجيل البحث فيه إلى فرصة مناسبة أخرى.

هيئة بغداد وجسورها:

ولم تكن بغداد لتفرق كثيراً عن دمشق في معالمها وأسواقها وشوارعها، وكان نهر دجلة يشقها، فكان العبور منه يتم على جسور راكبة على قوارب.

زيارة قبر أبي حنيفة في الأعظمية:

وقد زرنا ضريح الإمام أبي حنيفة في جامع الأعظمية، وكانت المحلة التي فيها هذا الجامع تسمى باسم الأعظمية، والراجح أن ذلك بسبب قبر أبي حنيفة لأنه كان من ألقابه الإمام الأعظم.

زيارة مقام الإمام الكاظم وهيأته:

وزرنا مقام الإمام الكاظم في محلة تبعد عن المدينة نحو نصف ساعة وتسمى (الكاظمية)، وكان مقاماً مهيباً، وكان الضريح ومنارة المسجد وأبوابه مطعمة بالذهب والفضة، والشيعيون ركّع سجّد مبتهلون في ساحاته وباحاته، وكثير منهم يعتمرون بعمائم خضراء، وبعضهم بعمائم سوداء، ويكادون يطلبون من كل زائر أن يسجد وأن يبتهل مثلهم في المقام ولصاحب المقام.

وبعد انتهاء الأسبوع عاد الموكب، فقاسينا في رحلة الإياب ما قاسيناه في رحلة الذهاب.

*

(2) اجتماعات اللاتعاون وأسبابها:

وفي فترة عملي في مديرية الأوقاف، انعقدت اجتماعات ومؤتمرات عامة فلسطينية للدعوة الى عدم التعاون مع السلطات، ولقد كانت حركة هتلر الألماني في 1931 سبباً لتدفق سيل المهاجرين اليهود على فلسطين في هذه السنة وبعدها، وأثار ذلك القلق في التوتر في الأوساط العربية، لأن الناس صاروا يرون الخطر عياناً بعد أن كان نظرياً. وكانت اجتماعات وخطابات ومناشير ونداءات حزب الاستقلال تعمل عملها الإيجابي، وصار الظرف يتطلب

موقفاً إيجابياً ما، وانعكس ذلك على اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع، فاجتمعت للبحث في الأمر، واقترح أعضاء الحزب الذين هم في اللجنة، وكانوا ستة أنا وعوني ورشيد وصبحي وفهمي ومعين، أن تسير البلاد في طريق اللاتعاون مع السلطات الحكومية، ما دامت لا ترعوي عن انحيازها ومحاباتها، ولا تستمع لصرخات واحتجاجات العرب ولا لتواصي لجانها، على أن يبدأ أعضاء اللجنة بأنفسهم أولاً فيستقيل من هو عضو في لجنة حكومية، ويمتنع من يدعى الى حفلة أو اجتماع حكومي من حضورهما، ويتوقف عن مجاملة الإنكليز من كان يجاملهم في مناسبات اجتماعية وغير اجتماعية، ثم تدعو اللجنة غيرها ممن هم في اللجان أو ممن يدعون الى اجتماعات، أو من اعتادوا مجاملة الإنكليز في المناسبات أن يحذوا حذو أعضائها، ثم تعلن اللجنة أن ذلك بدء عمل وانذار للسلطات سوف تعقبه خطوات أخرى في طريق اللاتعاون.

تجاوب أعضاء اللجنة ومواقفهم وموقف عجيب لجمال الحسيني من الاقتراح:

ولقد تجاوب أعضاء اللجنة التنفيذية مع هذا الاقتراح ووافقوا عليه، ومن عجيب ما وقع أن جمال الحسيني وقف منفعلاً غاضباً صارخاً قائلاً إنه يفضل البقاء في لجنة الطرق الحكومية على البقاء في عضوية اللجنة التنفيذية وسكرتيريتها، وسجّل ذلك في محضر الجلسة وغادرها. وكان موقفاً مذهلاً عجيباً.

قرار اللجنة دعوة رجالات العرب الى اجتماع عام للنظر في الاقتراح:

ولكن هذا الموقف لم يمنع أكثرية اللجنة من تقرير رأيها الموافق للاقتراح، بل زادها حماساً، حيث قررت دعوة البارزين من رجالات العرب على اختلاف ميولهم الى اجتماع عام يعقدونه مع اللجنة وفي مقرها لبحث الأمر واتخاذ الخطوات الضرورية لتلافي الخطر المتفاقم.

استقالة بعض أعضاء اللجنة من اللجان الحكومية والامتناع عن حضور الاجتماعات والحفلات:

وسارع بعض أعضاء اللجنة إلى تنفيذ القرار، فاستقالوا من اللجان الحكومية المشتركة التي كانوا أعضاء فيها ومن جملتهم رشيد الحاج ابراهيم وعوني عبد الهادي عضوي الحزب، وكان الأول في لجنة مرفأ حيفا والثاني في لجنة العمل. كما أخذ أعضاء اللجنة ينقبضون عن حفلات واجتماعات الحكومة والمجاملات في المناسبات، وحذا آخرون من غير أعضاء اللجنة حذوهم.

انعقاد الاجتماع العام بحضور كثير من زعماء المجلسيين والمعارضين معاً:

ولقد تم عقد الاجتماع العام الذي قررت اللجنة الدعوة إليه في أوائل سنة 1933، وحضره عدد كبير من رجالات العرب البارزين من مجلسيين ومعارضين وفي جملتهم الحاج أمين وراغب، وطرحت في الاجتماع فكرة اللّاتعاون مع السلطات على مختلف المستويات، وقبلت الفكرة مبدئياً، على أن يبدأ التنفيذ بعد إنذار السلطات بذلك.

قرار إيفاد وفد إنذاري للمندوب ومقابلته له ووعده:

وتقرر إيفاد وفد للمندوب السامي يطلب منه باسم العرب وقف الهجرة اليهودية وانتقال

الأراضي العربية لليهود كمطلبين عاجلين يجب تنفيذهما خلال شهر، وفي حالة عدم الاستجابة بعد شهر يعقد اجتماع عام آخر يتقرر فيه الخطوات وتنفيذها، وسمي للوفد كل من عوني ورشيد وفهمي وعيسى البندك وهاشم الجيوسي وعادل زعيتر فيما يرد لذاكرتي، على أن يكون برئاسة موسى كاظم باشا. وذهب الوفد وقابل المندوب وأبلغه الإنذار، ووعد المندوب برفع الأمر الى الحكومة البريطانية. ومما كان أثناء اجتماع المندوب بالوفد أن المندوب يسأل عما اذا كان بينهم أناس من أعضاء حزب الاستقلال، فأجيب بالإيجاب، وسمى له أسماء أعضاء الحزب الذين كانوا مع الوفد. واشتراك أعضاء الحزب في الوفد هذا هو الذي أثار جمال الحسيني واعتبره مناقضاً لدعوة الحزب الى اللاّتعاون، وقد ذكرنا هذا في سياق مواقف المجلسيين والمعارضين من الحزب، ونبهنا على ما في موقفه من مفارقة وحقد، وما كان من ردي عليه، فلم نر ضرورة للإعادة.

استمرار السلطات في محاباتها وتدفق الهجرة:

ولقد انقضى الشهر ولم يكن أي استجابة من جانب السلطات، حيث ظلت الهجرة في تدفقها، وبيوع الأراضي العربية لليهود في سيرها، فاجتمعت اللجنة التنفيذية وتداولت في الأمر وقررت تنفيذ ما كان تقرر في الإجتماع، وهو الدعوة إلى اجتماع عام كبير يدعى إليه رجالات البلاد لبحث الأخطار التي تهدد البلاد، واتخاذ ما يقتضيه الأمر من مواقف وخطوات.

اجتماع عام كبير ثان في يافا حضره زعماء المعارضين والمجلسيين أيضاً:

وقد تم عقد الاجتماع فعلاً في يافا في قاعة سينما أبوللو في مارس سنة 1933، وشهده بالإضافة إلى أكثرية أعضاء اللجنة التنفيذية جمع غفير من رجالات البلاد وشبابها، وفيهم رؤساء المجاسيين والمعارضين وعلى رأسهم الحاج أمين وراغب.

مداولات حزب الاستقلال في الأمر:

ولقد عقدنا نحن أعضاء حزب الاستقلال اجتماعاً في الليلة التي سوف يعقد الاجتماع العام صباحها في بيت حربي الأيوبي، للبحث في الأمر وإقرار الخطة التي يجب أن يسير عليها أعضاء الحزب في الاجتماع، ودام اجتماعنا الى ما بعد منتصف الليل، واحتدم الجدل والنقاش فيه، لأنه كان المطلوب منا أن يكون موقفنا متناسباً مع دعوتنا إلى الكفاح مع المستعمر بصراحة وقوة أكثر من غيرنا. ومع الأسف تلجلج أكثر من واحد من إخواننا، وأخذوا يذكرون ما قد يترتب على المواقف الشديدة الجادة من أخطار ومضاعفات، وانكشفت أمزجتهم، حتى اضطررت أن أقول لهم إننا إما أن نقف موقفاً قوياً شديداً وصريحاً يتناسب مع دعوتنا، وإما أن نعترف أننا لا نفترق عن بقية الناس. وأن حملتنا عليهم ونعتنا إياهم بأنهم يسايرون السلطات، حتى لا يصطدموا معها ويفقدوا مراكزهم ويتعرضوا للأخطار كاذبة، إذ نحن أيضاً نسوق أقوالهم ونبرر مواقفهم، وكان النقاش يدور بيننا حول تقديمنا إقتراحات قوية للاجتماع، منها إعلان عدم دفع الضرائب، وعدم التقاضي أمام المحاكم، وعدم العمل في الأعمال شبه الرسمية ومنها البلديات، ثم مقاطعة دوائر الحكومة. ولم نستطع أن نصل إلى قرار جدي في هذا النطاق مع الأسف، وانتهى نقاشنا إلى الاكتفاء بأن

نقترح كخطوة أولى مقاطعة حفلات الحكومة ودعواتها ولجانها، على أن يعقد اجتماع آخر يقرر فيه خطوات أخرى على ضوء نتائج هذه الخطوة.

ما جرى في الاجتماع العام:

وذهبنا في الصباح إلى الإجتماع وكنت خجلاً من تفاهة الموقف الذي سوف نقفه، ولقد كان اجتماعاً حافلاً كما قلت، ولعله كان الوحيد من نوعه الذي اجتمعت فيه جميع الميول ورؤوسها البارزين، بقصد اتخاذ موقف شديد تجاه السلطات، والذي كان معبراً حقاً عن الشعور بالخطر الذي يشعره جميع العرب على اختلاف ميولهم ومستوياتهم، من جراء تدفق الهجرة والاستمرار في انتقال أراضي العرب لليهود ومحاباة السلطات لليهود، وقد تكلم عدد من المجتمعين من مختلف الفئات وبعض أعضاء الحزب وأنا من الجملة، وحملنا على السلطات وشرحنا ما يتعرض له العرب وفلسطين من أخطار شديدة سياسية واقتصادية واجتماعية من جراء تدفق سيل الهجرة واستمرار بيوع الأراضي لليهود وعدم مبالاة السلطات باحتجاجات العرب وصرخاتهم، وكان بعض الخطباء وأنا من الجملة يدعون إلى الوقوف موقفاً قوياً مناسباً مع موقف السلطات، وإلى مقاطعة هذه السلطات بأساليب متنوعة.

تلاوة اقتراحات حزب الإستقلال ومداه:

وتلا أحد أعضاء الحزب وأظنه رشيد الحاج ابراهيم اقتراحاً من الحزب في وجوب المقاطعة واللاتعاون، على أن يبدأ ذلك بالحفلات والمجاملات واللجان، ثم يتدرج إلى الإقتناع عن دفع الضرائب والمقاطعة الشاملة للمحاكم والدوائر.

هتاف أحمد الشقيري بالمطالبة باستقالة رئيس المجلس ورؤساء البلدية:

وفي غمرة هذا الصخب الحماسي ارتفع صوت من الصفوف الخلفية، وكان صوت أحمد الشقيري الذي كان يجلس فيه الصف الذي يجلس فيه أعضاء حزب الإستقلال، صارخاً بوجوب استقالة كل من رئيس المجلس الإسلامي الأعلى وأعضائه ورؤساء البلديات من وظائفهم كبادرة جادة على عدم التعاون، وقد هزت كلمته الحفل هزاً شديداً كأنها قنبلة انفجرت بدوي شديد.

اعلان عاصم السعيد الموافقة والاستعداد للاستقالة مع رؤساء البلديات إذا استقال الحاج أمين:

وسارع عاصم السعيد رئيس بلدية يافا فأعلن أنه هو ورؤساء البلدية الأخرون ومن جملتهم راغب النشاشيبي مستعدون للاستقالة، إذا كان الحاج أمين يستقيل من رئاسة المجلس.

ما أحدثه هذا أو ذاك من ارتباك في الاجتماع:

وسارع الحاج أمين وأنصاره إلى القول إن هذا الموقف هو مكيدة ضده فقط، لأن رؤساء البلديات هم أنصار السلطات، ولسوف يتوافقون معها بأسلوب ما بعد أن تنفذ مكيدتهم التي يريدون بها هدم الكيان الإسلامي والمصالح الإسلامية التي يمثلها المجلس الإسلامي ورئيسه، وحمل بعض أنصار الحاج أمين على أحمد الشقيري، وذكر الناس أنه ابن الشيخ أسعد الشقيري أحد أركان المعارضة المتواطئة مع السلطات، وسمعنا منهم من يقول إن بعض أعضاء حزب الاستقلال هم الذين حرضوا أحمد الشقيري على موقفه بقصد إحراج الحاج أمين بصورة خاصة، وكانت لحظة اشتد فيها التهاتر

والتراد بين أنصار المعارضة والمجلسية، حتى كاد يقع مضاربة بينهم. وتدخل بعض المستقلين وبذلوا جهدهم حتى وقف التهاتر وهدأت الضجة، ثم قرأ أحدهم اقتراحاً مؤيداً لاقتراح الحزب، فيه إقرار مبدئي بعدم التعاون، تكون خطوته الأولى استقالة كل عضو من اللجان المشتركة، وامتناع كل عربي عن استجابة الدعوات إلى حفلات، وعن المجاملات في المناسبات المتنوعة، على أن يعقد اجتماع عام آخر يقرر فيه الخطوات التالية على ضوء نتائج هذه الخطوة، وارتفعت أصوات عديدة بالموافقة على هذا الاقتراح وأعلن انفضاض الاجتماع.

ولقد سجلت هذه الوقائع في سنة 1936 في دفتري القديم.

المعارضون كانوا أول الناقضين:

وسجلت بعدها ما يلي:

1 ـ إن المعارضين الذين حاولوا التحدي والوقوف موقف المتطرف في الإجتماع كانوا أول الذين خرقوا الاقتراحات الهزيلة المقررة، حيث ظلوا يقيمون حفلات للإنكليز في بيوتهم، ويشهدون حفلات مع الإنكليز في بيوتهم، وكان عاصم السعيد في طليعة الذين خرقوا ذلك، وكانت جريدة فلسطين تغمز بالقرارات وقلة جدواها وتهون نقضها، وكانت في ذلك الوقت لسان حال المعارضين.

2 ـ إن المجلسيين كانوا اشد تماسكاً وأقوى ضبطاً للنفس في هذا المضمار، ولم يقدم أحد منهم على مخالفة تلك القرارات إلا بعد مدة من الزمن، وبعد أن نقضها المعارضون علناً ومكرراً في مختلف المناسبات، مع شعورهم الحرج. ومحاولتهم للتبرير. وقد أثبت المعارضون بخرقهم للقرارات صحة ما قاله المجلسيون من أن تطرفهم وتحديهم إنما كان بسبيل المكر والكيد للحاج أمين.

إخفاق دعوة اللاتعاون نتيجة لنية الهيئات وأمزجة الزعماء:

وهكذا أخفقت حركة اللاتعاون وهزلت نتيجة بنية الهيئات التي كانت تتزعم العمل الوطني، والشخصيات البارزة التي كانت في ميدانه وأمزجتهم وأهوائهم ومصالحهم الخاصة، وينسحب هذا على بعض أعضاء حزب الإستقلال.

كلمة عن أحمد الشقيري وكتبه وما فيها من تجني وتبجح بما كان من بروزه وأمجاده:

وبمناسبة ذكر أحمد الشقيري نستطرد إلى تسجيل كلمة عنه، وقد شغل حيزاً كبيراً في الحركة الفلسطينية وبخاصة بعد الخمسينات، وأول مرة رأيناه فيها في القدس سنة 1932، وكان شاباً يبدو عليه الذكاء الشديد والحيوية، وفيه جرأة على الكلام وبديهة الخاطر وذلاقة لسان مع خفة الروح وحسن المعشر ولذع النقد، وكل هذا أفاده فيما بعد فيما كان له من بروز، وكان يدرس الحقوق في معهد حقوق القدس الحكومي، ويتردد على مكتب عوني عبد الهادي، وكان يتحبب لصبحي الخضراء الذي كان يدرس الحقوق ويتردد على هذا المكتب أيضاً، ومع أنه كان يبدو قريباً من حزبنا حتى لقد أقام لنا وليمة في بيته في عكا حينما عقدنا اجتماعاً عاماً للحزب فيها في أوائل عام 1933، وخطب فيه مؤيداً فإنه لم يرشح من قبل أحد ليكون عضواً في الحزب، كما أنه هو نفسه لم يبد رغبة في ذلك. وظل قريباً بعيداً عنه في آن واحد، والمرة الأولى والوحيدة التي سمعت

فيها وجاهياً يخطب، كانت خطبة في اجتماع الحزب في عكا، وكان متحمساً حسن النبرة فصيحاً، وسمعته من الإذاعة وكان متحمساً حسن النبرة فصيحاً، والذين سمعوه يخطب يقولون إنه خطيب قدير. وهو يجيد الإنكليزية، وقد تعلّمها في مدارس إنكليزية في فلسطين وبيروت، وعلمت أنه كان يخطب بها في هيئة الأمم حينما كان يمثل سورية ثم السعودية فيها في الخمسينات والستينات، وأن خطبه كانت قوية نافذة، وعلمت أن خطبه هذه مطبوعة في مجموعات عديدة، حيث يكون قد خطب عشرات الخطب.

ويحدثنا الشقيري في كتابه (أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية) عن نشأته العربية والوطنية وشربه ذلك من ديوان أبيه منذ عهد الدولة العثمانية، وما كان يدور فيه من كلام عن الوحدة العربية والعمل العربي، ويبرىء والده مما نسب إليه من التهم إزاء الحركة العربية ورجالها في زمن جمال باشا السفاح التركي، وكلامه في هذا الصدد برّاً بوالده ولكنه غير متفق مع الحقائق والوقائع. ومذكرات جمال باشا ومدير مخابراته عزيز بك وكتاب الرحلة العلمية. وقد ألممنا بشيء من ذلك في كتابنا نشأة الحركة العربية (انظر ص 335 وبعدها)، ولم نكن لنتعرض لذلك في كلمتنا عنه لولا ما ساقه في كتابه عنه، ولا نريد أن نسهب فيه هنا. وقد كتبنا عن أبيه كلمة ذكرنا فيها ما هو معروف مشهور من حقائق مواقفه في زمن الدولة العثمانية، ثم في زمن الانتداب الإنكليزي.

ويحدثنا في ذلك الكتاب عن عمله في جريدة مرآة الشرق، وتحويلها إلى خلية وطنية، وكل الناس يعلمون أن هذه الجريدة وصاحبها كانا وظلّا موالين للإنكليز ومنسجمين مع سياستهم دون أي شذوذ في أي ظرف. وفي كتابه عن نشاطه في العمل الوطني وعلاقته بفوزي القاوقجي والحاج أمين ورجالات فلسطين قبل إضراب وثورة نيسان 1936 وفي أثنائهما وبعدهما، وقبل الحرب العالمية وفي أثنائها، ما يغص بالحلق من مبالغات. وقد حلا له أن يصور نفسه في كل هذه الظروف كأنه قطب من الأقطاب التي يدار حولها، ومن الوطنيين المبرزين الذين يرجع إليهم ويصدر عنهم، وقد لمسنا ما هو غير صحيح من ذلك يقيناً فمثلاً ذكره لاجتماع وطني سنة 1944 في حيفا، شهده معين الماضي، وجرى الحديث فيه عن تجديد الحركة الوطنية، ومعين الماضي في هذه السنة كان يقيناً في الآستانة منذ سنة 1941 إلى آخر سنة 1945. ومن ذلك ذكره أن جميل مردم وزير خارجية سورية عرض عليه أن يكون في الهيئة العربية العليا في بلودان سنة 1946 فاعتذر؛ ولم يكن هو يقيناً من الشخصيات المطروحة في هذا الموضوع قط، وكان التشادّ بين رؤساء ورجالات الأحزاب البارزين، وكان الجهد في التوفيق بينهم، ولم يكن هو من ذلك في شيء، حيث كان كاتباً أو مديراً لمكتب دعاية أنشأه موسى العلمي فى القدس، وكان موسى ممثلاً للأحزاب في جامعة الدول العربية قبل الحديث عن انشاء الهيئة العربية العليا، ولم يكن هو نفسه مطروحاً لأن التشاد كان بين فريقي جمال الحسيني والدكتور حسين الخالدي وأحمد حلمي، وكنت أنا في بلودان مراقباً للأمر، ولم أكد ألمح أو أشعر بوجود السيد الشقيري، فضلاً عن احتمال طرح اسمه ليكون عضواً في الهيئة. . ولما رجع الحاج أمين من أوروبا إلى مصر سنة 1946 بعد إنشاء الهيئة العربية العليا، جاء أحمد الشقيري

إليـه زائراً مسلّمـا إلى الإسكندريـة والتقينا بـه هناك، ولقد استلم الحاج أمين رئاسة الهيئة التي تركت شاغرة له، وتقرر ضم أشخاص آخـرين إليه، واختير كل من عزة دروزة ومعين الماضي ورفيق التميمي والشيـخ حسن أبـو السعـود وإسحق درويش، ولم يكن أحمد الشقيري ليرد على البال في هذا الصدد. ولست أقول كل ما تقدم بقصد التنقص وإنما لتقرير واقع الحال في ذلك الحين، ولأن السيد أحمد حلا له أن يقول ما يريده جزافاً.

وهذان المثالان قد يبرّران لمن يريد أن يقول (وما يدرينا أن يكون كثير مما ذكره عن مواقفه ونشاطه في الميـدان الوطني والعـربي من هذا القبيل)، ولقد كنت في ميدان العمل الـوطني منذ بدايته الأولى الى سنة 1948 ثم فيما بعد، فلم ألمس له أي نشاط قـوي خاص في هـذا الميدان، ولم يشترك في مظاهرات يافا والقدس العـاصفة الـدموية سنة 1933، وكـان معظم المتحـركين في الميـدان الـوطني من مختلف الفئات، معارضين ومجلسيين، بـل ومشبوهين معتقلين أثناء إضراب وثورة فلسطين سنة 1936 في صرفند، ولم يكن منهم، وكل أمره أنه أمر باقامة جبرية في سمخ لفترة قصيرة، ثم أعيدت اليه حريتـه، ولم يكن له وجـود ملموس أثنـاء الثورة الكبرى 1937 ـ 1939. وعلمت فيمـا بعـد أنه كـان يقضي معظم أوقـاته آنـذاك في بيـروت. ولقـد اعتقلت السلطات مئـات من النشيطين والمتحركين في العمل الوطني أثنـاء هـذه الثـورة وأثنـاء الحـرب ولم يكن منهم، وأسجل أني لم أسمع عنه انحرافاً وطنياً، وأني لا أريـد أن أنفي أن يكون لـه مشاركـات مـع الشباب في العمل الوطني في مختلف الظروف وقبل الإضراب وبعده، ولكن ما يذكره عن نفسه من ذلك مبالغات غير مهضومة، وغيـر سائغـة وغير متسقة، مع ما كان معلوماً وراهناً.

ولو اقتصر أحمد الشقيري على ذكر نشاطه وأمجاده وبروزه بعد سنة 1948 لكان خيراً له وأجدى، لأنه حقاً برز وشغل حيزاً في العمـل الـوطني والعـربي والفلسـطيني منـذ بـدايـة الخمسينات، وصار لـه أمجاد مـذكورة. ولقـد استطاع بذلاقـة لسانـه وحيويتـه وواسع حيلتـه ومـواهبـه أن يحـوز على رضـاء الحكـومـات السورية، فانتدبتـه ممثلاً لهـا أمام هيئـة الأمم لبعض الوقت، وكان له مواقف قوية في الدفاع عن الحقوق العربية وفلسطين، ثم رشحته هذه الحكـومات لمنصب مسـاعد السكـرتيـر العـام لجـامعة الـدول العربيـة، حيث قضى في هذا المنصب بضع سنين الى جانب عبـد الرحمن عزام ثم عبد الخالق حسونـة، أميني الجامعـة العامين اللذين توليا الأمانة العامة قبل محمـود رياض أمينها الثالث الحالي، واستمر في البروز عبـر ذلك. وكـان له نشـاط في سبيـل قضيـة فلسـطين، وجـرى بيني وبينـه مكـاتبـات في صددها. وهـو في هذا المنصب مـع اختلاف مستمـر بينه وبين الأمينين معـاً لا أعرف سببـه ومـداه، ثم حاز تـوجه الحكـومـة السعـوديـة، فانتدبته ممثلاً لها في هيئة الأمم المتحدة، حيث لبث بضع سنين أيضاً. وكان له مواقف مشهورة في الدفاع عن القضايا العربية وقضية فلسطين، وصار عبر ذلك كله من أعلام العرب وبارزيهم في ميـدان هـذه الهيئـة، وصـار لـه من ذلـك صداقات وثيقة مع رجالات العرب وغير العرب البـارزين، ثم اختلف مع الحكـومة السعـودية بسبب ما كان بينها وبين مصر بزعامة جمال عبد الناصر من خلاف وتشاد، وعرف أن سبب هذا الاختلاف هو عدم مطاوعته في ما كانت تريده

منه من مواقف في خلافها وتشادها هذا؛ وهذه حسنة تسجل له حرية الإرادة والرأي والشجاعة.

وفي سنة 1963 أخذ يدعو الى تجديد النشاط والعمل في قضية فلسطين، وكتبت له في صدد ذلك كتاباً مؤيداً وطالباً منه الجد في الأمر. وجاء إلى دمشق من بيروت وزارني وأبدى استعداده للسير في تنظيم العمل والإعداد له، ولكنه ظل يدور ويلف دون نتيجة، حتى كتبت له كتاباً ونشرت مقالاً في صدد ذلك (انظر كتابي في سبيل فلسطين والوحدة العربية من وحي النكبة ولأجل معالجتها ص 122 ـ 123).

وفي سنة 1964 صار ممثلاً لفلسطين في جامعة الدول العربية، وقد رشحته الهيئة العربية العليا لذلك بالاشتراك مع اسحق درويش واميل الغوري، حينما خلا مركز فلسطين بموت ممثلها أحمد حلمي الذي كان يتصف بصفة رئيس حكومة عموم فلسطين، ولكن مجلس الجامعة اختاره لحدته دونهما، وعهد إليه هذا المجلس حينما عقد على مستوى قمة الملوك والرؤساء في سنة 1964 بإنشاء كيان فلسطيني مجدداً. وعارض الحاج أمين حصر اختياره، ثم عارض جهوده في سبيل إنشاء الكيان المجدّد معارضة شديدة وصلت إلى اتهامه بالخيانة، فتدخلت وناشدت الحاج أمين بعدم المعارضة وتأييد الجهد حتى يقوم الكيان، (انظر كتابنا المذكور آنفاً ص 139)، وبذل السيد الشقيري جهده حتى نجح في جمع مؤتمر فلسطيني كبير في القدس في حزيران 1964، وترأس هذا المؤتمر بترشيح المجتمعين، وقرر إنشاء الكيان باسم (منظمة التحرير)، ووضع ميثاقاً جديداً شاملاً قوياً، واختار السيد الشقيري ليكون رئيساً للمنظمة واللجنة التنفيذية التي هي أداة تنفيذ ميثاقها، واستمر في جهده حتى تم قيام الكيان وتأسيس جيش التحرير لفلسطين، وغدا السيد الشقيري خلال ذلك بارزاً قوي النشاط في الميدان العربي والفلسطيني، وسجل حقاً نصراً ومجداً شخصياً. واختلف مع الملك حسين وصمد له، وأيده معظم الفلسطينيين والحكومات، ولكنه لم يخط خطوة واحدة في سبيل العمل التحريري، وظل يدور ويلف حول ذلك، حتى كتبت له كتاباً معاتباً وحاثاً (انظر كتابي المذكور آنفاً ص 158 و162 و162 ـ 164 و164 ـ 167). وزارني هو وقائد جيش التحرير اللواء المدني، وقلت لهما إن الكلام قد استنفد، وإن عليهم أن يتحركوا وإلا سقطوا وخابت الآمال فيهم وفي الكيان الجديد، ووعدوا ولم يفعلوا شيئاً غير الكلام والوعود والحل والترحال، والتصريحات مع الإشارات الى ما في طريقهم من عقبات واعتبارات. وظل أمرهم على ذلك إلى ما بعد نكبة حزيران 1967 المشؤومة الجديدة، وصار الموقف يتطلب عملاً جاداً ولا يتحمل لفاً ودوراناً، وجاء إليّ بعض أعضاء اللجنة التنفيذية ومنهم الدكتور أسامة النقيب متذمرين من لفه ودورانه ومنذرين بالإنفجار داخل اللجنة التنفيذية. ثم قويت المعارضة أو انفجرت فاضطر إلى الاستقالة في سنة 1969. ومنذئذ جمد بروزه ولمعانه ونشاطه، وجلس يكتب مذكراته التي منها الكتاب الذي ذكرته سابقاً. وقد قرأت له واحداً آخر، ورأيته يسير فيه في نفس الأسلوب الذي سار فيه في كتابه الأول من تبجح ومبالغة غفر الله له.

وقد توفي في عمان عام 1979 ودفن في غور أبي عبيدة.

*

(3) المظاهرات غير المرخصة:

وفي فتـرة عملي في مـديـريـة الأوقـاف الإسلامية العـامـة، كـانت المـظاهـرات غيـر المرخصة، وهي من أحداث فلسطين الهـامة، وقـد سجلت في دفتري القـديم هذا الحـدث وسيره ونتائجه بشيء من التفصيل، ورأيت أن أثبت معظم ذلك مع ما أكون تذكرته ولم أكن قد سجلته.

أسبابها:

لقد استمر تدفق الهجرة اليهودية واشتد قلق العرب وشعورهم بـالخطر، وصـار لدى بعض المخلصين العاملين في الميدان الـوطني يقين بوجوب القيام بحركة احتجاجية قوية ضد ذلك. ولقـد فكر حـزب الاستقلال في الأمـر وتداول الدعوة إلى مظاهرات عامة احتجاجية تبـدأ من نابلس وتقوم بعد ذلك في غيرها على ما ذكرناه في سياق ذكر آخر اجتماع للحزب في حيفا في أيلول 1933.

قرار اللجنة التنفيذية بإقامة المظاهرات:

ولقد دعيت اللجنة التنفيـذية في هـذا الجو إلى الانعقاد في أيلول 1933، وأخذ أعضاؤها يتداولون في الأمر، ولم نكن نحن وإخواننا من أعضاء الحزب وأعضاء اللجنة حاضرين، لأننا كنا نهيء لاجتماع احتجاجي عام في حيفا، وكنا قد انقطعنا عن اللجنة بسبب ما طرأ عليها من فتـور. ومما علمنـاه أن عيسى البندك قـال إن جماعة حـزب الاستقلال على قلتهم ينشـطون أكثر من اللجنة نشاطاً مجدياً في ما يقيمونه من اجتماعات ويخطبون من خـطب ويذيعـون من مناشير وبيانات، فقال جمال الحسيني إن هذا النشاط هو كـلام بكلام، واقتـرح على اللجنة الدعوة إلى مظاهرات عامة إحتجـاجية، وكـان هذا مما يشعر بوجوبه الكثيرون من المخلصين، فوافقت اللجنة على ذلك.

تعيين يوم الجمعة 13 أيلول لأول مظاهرة في القدس:

وعينت يوم الجمعة 13 أيلول 1933 موعداً لمـظاهرة أولى تقـام في القـدس، يتبعهـا في الأسابيع التالية مظاهرات في المـدن الأخرى، وكنا (اعضاء حزب الاستقلال) في حيفـا نقيم فيها اجتماعنا الأخير حينئذ، ونتداول في خطوة مماثلة على ما ذكرناه سابقاً، فأبرقنا للجنة نعلنها تضـامننا معهـا في قرارهـا، ثم أذعنا بيـاناً في الصحف بذلك، فكان لبياننا وبرقيتنا أثر حسن أضاع قيمة التحدي الذي أراد جمال الحسيني أن يتحدّانا بـه بسائق حقده وغيظه من الحزب على ما عرفنـاه بعد، ولقـد كان مقتضى قـرار اللجنـة أن تكون المـظاهـرات بـدون رخصـة حكـومية لتكـون تحـديـاً للسلطات فضـلاً عن معناها الاحتجاجي.

تحمس الناس للقرار:

ولقــد تحمّس النـاس للقـرار واستعـدوا للاشتراك في المـظاهرات في مختلف المـدن وبمختلف الميـول، لأن شعور القلق والخـطر كان عاماً، وأخذ الموقف يتوتر في القدس التي سوف تبدأ فيها المظاهرات.

تحسبات السلطات ومحاولاتها:

وتحسبت السلطات للعواقب، فجنحت إلى شيء من المسـايـرة للمـوقف، فقبلت مبـدئيـاً بالمظاهرة، وحاولت بواسطة بعض المتعـاملين معها أن تحمل اللجنة التنفيذية على طلب إذن بهـا مع وعـد باعـطاء الإذن، ورفضت اللجنة

ذلك، وكظمت السلطات غيظها من هذا الرفض، وطلبت حصر سير المظاهرة في داخل المدينة وعدم خروجها الى خارجها من أبوابها، حتى لا يقع صدام بين المتظاهرين واليهود. وجنح بعض أعضاء اللجنة هذه المرة الى الموافقة كحل وسط، وبذلوا جهدهم لإقناع بقية أعضاء اللجنة به، وكان يعقوب فراج وعيسى البندك ممن بذلوا جهدهم في ذلك.

احتياطات السلطات:

ومع أن معظم أعضاء اللجنة وافقوا على ذلك، فإن السلطات احتاطت، فوضعت قوات بوليس عربية وانكليزية كبيرة على أبواب القدس القديمة، فضلاً عن قوات أخرى هيأتها لمواكبة المظاهرة في داخل المدينة أيضاً.

خروج المظاهرة في اليوم المعين من الحرم:

وفي اليوم المعين لمظاهرة القدس أي يوم الجمعة 13 أيلول 1933، احتشد الناس في ساحة الحرم وداخل المسجدين (الأقصى والصخرة المشرفة) للصلاة، ثم خرجوا بمظاهرة حاشدة غاصة من باب السلسلة.

اشتراك معظم أعضاء اللجنة وكثير من زعماء ووجوه البلاد وجماهير غفيرة من الناس:

وكان يتقدم المظاهرة عدد غير يسير من أعضاء اللجنة التنفيذية جاءوا من مختلف أنحاء فلسطين، وكان منهم أعضاء اللجنة الستة من الحزب، أنا وعوني عبد الهادي وفهمي العبوشي ورشيد الحاج ابراهيم ومعين الماضي وصبحي الخضراء). وسار في الطليعة رئيسها الشيخ الوقور موسى كاظم الحسيني، واشترك مع اللجنة عدد كبير من شيوخ القدس وأعيانها، وجاء عدد كبير آخر من شيوخ ووجهاء مدن عديدة ولاسيما نابلس والخليل ورام الله والبيرة وبيت لحم ويافا واللد والرملة القريبة من القدس، بالإضافة الى جمهور كبير من أهل القدس والقرى المجاورة لها. وكان اشتراك المشايخ والأعيان مع أعضاء اللجنة التنفيذية ذا معنى قوي زاد في حماس الجماهير، ولأنهم لم يعتادوا اشتراك هذه الطبقة فيما كان يجري من مظاهرات عامة. وكانت هتافات المتظاهرين تدوي بسقوط الانكليز ووعد بلفور والصهيونية، وبالمطالبة بوقف الهجرة، وبالحكم الوطني المستقل.

سير المظاهرة داخل السور:

وسارت المظاهرة من باب السلسلة إلى باب الخليل، ثم تحول سيرها حسب الاتفاق المبدئي ونتيجة لمداخلة بعض ضباط البوليس العرب إلى طريق كنيسة القيامة، ولقد كان الحماس قوياً، وكان المتظاهرون يريدون الخروج من باب الخليل إلى خارج السور، فبذل العقلاء كما يقال جهدهم في التغلب على الحماس والتحول المطلوب، وسارت المظاهرة من طريق كنيسة القيامة إلى باب الجديد، وهنا طلب من المتظاهرين أن يتفرقوا، وجاء حاكم اللواء كامبل وقابل موسى كاظم في وسط المظاهرة وبعض أعضاء اللجنة لإقناعهم بذلك، غير أنه لم يكن حينئذ في الإمكان كبح الجماح.

تدفق بعض المتظاهرين من باب الجديد وتدخل البوليس وتفرق المظاهرة وما كان من إصابات فيها:

فتدفق جمهور كبير من المتظاهرين من باب الجديد الى خارج السور ومعهم عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية متأثرين بحماس الجمهور،

وحينئذ تدخل البوليس وأخذ يفرق المتظاهرين بالقوة واستعمل هراواته، وأصيب جمال الحسيني وآخرين من أعضاء اللجنة وغيرها بضربات من الهراوات، وجرح بعض المتظاهرين ومنهم فريد فخر الدين، ووقع موسى كاظم على الأرض من الزحام. فجاء ضابط بوليس مع بعض أنفار فأخذوه برفق ووضعوه في مدرسة اللاتين لئلا يصاب بأذى.

حركة فخري النشاشيبي أثناء سير المظاهرة:

ولقد كان في وسط الموكب المتحمس فخري النشاشيبي وكثير من الشبابْ، فلما بدأ البوليس باستعمال هراواته لتفريق المظاهرة تراجعوا بعرض واحد، وبصورة تلقي الرعب في الجمهور السائر خلف حلقات الهازجين والهاتفين، حتى لقد ظن كثير من المراقبين وقالوا إن هذا التراجع بهذا الشكل كان مقصوداً لإخلال نظام المظاهرة وإرباكها، لما يعرفونه من عمالة فخري للإنكليز واليهود معاً. وعلى كل حال فإن التراجع أخلّ بنظام المظاهرة وأربكها فعلاً، ولقد تراجع أكثر المتظاهرين إلى شوارع وأزقة المدينة داخل السور، ولم يخرج من باب الجديد إلا شرذمة استمرت إلى باب العامود من طريق دير الراهبات الكبير ولم يلبث هؤلاء أن تفرقوا.

اجتماع اللجنة بعد المظاهرة، وقرارها بإقامة مظاهرة ثانية في يافا بعد شهر:

وبعد تفرق المظاهرة ذهب أعضاء اللجنة التنفيذية المشتركون فيها وكنت منهم إلى بيت موسى كاظم باشا، وهناك تداولنا في أمر متابعة تنفيذ القرار إلى أن ترعوي السلطات وتوقف الهجرة اليهودية كبادرة، واقترح بعضهم أن تقوم مظاهرات عامة في كل مدينة في يوم واحد، وأبدى آخرون رأيهم في احتمال عدم تنفيذ ذلك أولاً، وثانياً أن هذا يعني عدم اجتماع معظم أعضاء اللجنة في مظاهرة، مع أن هذا كان من أسباب الحماس والنجاح في مظاهرة القدس. وأخيراً تقرر أن تقوم المظاهرة الثانية في يافا في 13 تشرين الأول 1933، أي بعد شهر، وأن يعهد للهيئات الوطنية في يافا بتعيين سير المظاهرة واتخاذ التدابير والترتيبات المقتضية لإنجاحها بالاتفاق مع أعضاء اللجنة في يافا، ولقد تغيب بعض أعضاء اللجنة عن مظاهرة القدس، فأوجب المجتمعون في قرارهم إشتراك جميع الأعضاء في مظاهرة يافا، وإسقاط كل من يتخلف عنها.

استعداد السلطات ليوم يافا ومحاولاتها وإنذاراتها:

وقبيل اليوم المعين لمظاهرة يافا أخذت السلطات تقوم باستعدادات كبيرة، فأذاعت السلطات نشرة فيها المواد القانونية التي تحظر إقامة مظاهرات بدون ترخيص، والتي تعطي البوليس صلاحية تفريقها بالقوة واعتقال القائمين بها، وأرسلت نسخاً من هذه النشرة إلى بعض أعضاء اللجنة بيد موظفين رسميين ليأخذوا منهم اعترافاً باستلامها، وحشدت قوات إضافية كبيرة من البوليس والجند الإنكليزي، وأخذت من جهة ثانية تتحكك بالقائمين بترتيب المظاهرة فيها، وكان عماد هذا هيأة مؤتمر الشباب، لإقناعهم بإلغائها أو تحديد حجمها وسيرها على الأقل، بحيث يقتصر على اجتماع وخطب في المسجد يوم الجمعة، وعلى وفد عنهم يأتي الى الحاكم يحمل الاحتجاج والمطالب. ولقد عين المرتبون للمظاهرة طريقاً طويلة لسيرها، ولكنها

ليست خطيرة على الأمن، لأنها ستمر من العجمي وشارع الصلاحي الى شارع جمال باشا، ولا يكون فيها احتمال اصطدامها مع اليهود. وكنت أنا في يوم 12 تشرين أول 1933 في عتّيل اشتغل في مسألة تسجيل سهام مشاعها على ما ذكرته سابقاً، فتركت العمل وسارعت إلى يافا، وذهبت الى مكتب جمعية يافا أو مؤتمر الشباب الذي كان هو المتولي لترتيب المظاهرة، والتقيت هناك بزملاء عديدين من أعضاء اللجنة التنفيذية ومن العاملين في الميدان الوطني، وكان الحماس والتوتر معاً مخيمين على الجو. ولقد جاء يافا فعلا عدد كبير من أعضاء اللجنة، كما جاءت وفود كثيرة من مدن فلسطين المختلفة وقرى يافا المجاورة، وجاء وفد من سورية وآخر من الأردن أيضاً.

وفي صباح يوم الجمعة زاد التوتر والتجمع والغليان، فمن جانب السلطات زيدت الاستعدادات حتى كانت ساحة السراي كأنها ساحة حرب، وكان بوليس عربي وإنكليزي وجند إنكليزي، وكان من هؤلاء الراكب، وعلى رؤوسهم جميعاً الخوذات وفي أيديهم الهراوات وفي أوساطهم المسدسات وعلى أكتاف كثير منهم البنادق. وقد أقامت السلطات أسلاكاً شائكة في مداخل طرق وأزقة عديدة، وأقامت عليها حراسة شديدة، وكل هذا زاد في التوتر وفي الحماس. وأخذ الناس يتجمعون حول مكتب مؤتمر الشباب الذي اجتمع فيه أعضاء اللجنة التنفيذية وأعضاء مؤتمر الشباب وهيئات يافا الأخرى، لبحث سير المظاهرة. ورفضت الأكثرية اقتراحات السلطات بالاقتصار على الإجتماع والخطب في المساجد وإرسال وفد بالاحتجاج والمطالب، وكان بعض أعضاء اللجنة يميل إلى قبول هذه الاقتراحات، ومنهم عمر البيطار ومغنم مغنم وعيسى البندك، وكنت أنا وجمال الحسيني وعمر الصالح البرغوتي وفهمي العبوشي وآخرون من أعضاء اللجنة وأعضاء مكتب الشباب والهيئات نصرّ على أن تسير المظاهرة في الطريق المقررة لها، ثم ذهبنا من المكتب الى الجامع الكبير لصلاة الجمعة، حيث كان المقرر أن تخرج المظاهرة من الجامع بعد الصلاة، وكانت الأزقة والطرق المؤدية إلى الجامع تعج بالجمهور المتهيج المتحمس المتوتر.

صدام قبل المظاهرة أثار التوتر:

ووقع صدام بين البوليس وثلة من الناس، قتل نتيجة له عربي برصاص البوليس وجرح ضابط بوليس إنكليزي قبل الصلاة، فكان مما زاد الهياج والتوتر بين الجمهور وبين السلطات المسلحة.

خروج موكب المظاهرة من المسجد بحماس وحشد عظيم:

وبعد انتهاء صلاة الجمعة انتظم موكب المظاهرة أمام باب الجامع وسار بحماس ونظام شديدين، والهازجون يهزجون بالأناشيد الوطنية، والجمهور يردد أهازيجهم، وفي وسط الموكب موسى كاظم يحيط به أعضاء اللجنة التنفيذية والهيئات الوطنية والمشايخ والأعيان من مدنيين وقرويين، وظل الموكب سائراً إلى مدخل ساحة السراي، وكان هناك طريق نحو العجمي وطريق نحو السراي، وجرى شيء من التشاد بين المتظاهرين، حيث كان فريق منهم يحاول السير نحو السراي، وفريق يحاول تحويل السير نحو العجمي، وقوي الفريق الأول وسار الموكب نحو السراي.

تدخل البوليس والصدام بينه وبين المتظاهرين:

وكان مع البوليس أوامر بتفريق المظاهرة اذا سارت نحو السراي، فهاجم المتظاهرين لتفريقهم، واستعمل في بدء الأمر هراواته، فقوبل من الجماهير برشق الحجارة وبالعصي، وكانت كوكبة من خيالة البوليس الانكليزي في المقدمة تحرَّج موقفُها من رشق الجماهير، فما كان منها إلا أن أخذت تطلق الرصاص من بنادقها. وحينئذ أخذ الجمهور يفر ويكر في الأزقة مع استمراره في مهاجمة البوليس بالعصي والحجارة، وعلا كثير منهم سطوح المنازل والمخازن يقذفون البوليس منها بالحجارة أيضاً.

وقوع قتلى وجرحى عديدين وتفرق المظاهرة:

واشتد الحرج، واشتد البوليس في إطلاق النار، وصار يقع قتلى وجرحى على الأرض مضرجين بدمائهم، وكانت ساعة رهيبة حقاً. وطبعاً تفرقت المظاهرة كموكب من شدة النيران. وذهبنا أنا وكثير من زملائي الذين كنت معهم في الموكب الى مكتب مؤتمر الشباب، وفي طريقنا الى المكتب كانت الأزقة والطرق والأرصفة مكتظة بالناس الفارين من الموكب والشوارع.

استمرار البوليس في المطاردة والضرب:

ولكن البوليس الإنكليزي خاصة، لم يكتف بتفريق المظاهرة وإجلاء المتظاهرين عن الشوارع الرئيسية، بل دخل الأزقة والطرق الضيقة لمطاردة الناس الذين كانوا مكتظين فيها، لأنهم لم يكن لهم منفذ ميسور وسهل منها.

إصابتي بضربة شجت رأسي:

وكان البوليس يضرب بهراواته الضخمة الطويلة ذات اليمين وذات الشمال، فأصابتني ضربة منه وأنا أمام باب مكتب الشباب، فإذا الدم يسيل من رأسي، ومددت يدي إلى رأسي فلمست شبه جورة صغيرة، وكان في المكتب عيادة لطبيب، فأدخلت إليها، وكان هناك أدمون روك وغيره من شباب المؤتمر، فضمد الطبيب جرحي، وكان يجيء أثناء ذلك جرحى آخرون فتضمد لهم جراحهم، وبعد التضميد رجعت إلى مكتب مؤتمر الشباب.

اجتماع فريق من أعضاء اللجنة والاقتراح بإقامة مظاهرة ثالثة في نابلس:

وكان أعضاء اللجنة التنفيذية يتواردون إلى مكتب مؤتمر الشباب واحداً بعد آخر، ويصفون ما وقع، وكل واحد يصف ويعلّق حسب ما رأى، وحاولنا أن نعقد جلسة للّجنة التنفيذية فلم يمكن، لأن الحاضرين كانوا أقل من النصاب المقرر لانعقاد الجلسة، فكتبنا اقتراحاً ووقعناه من الحاضرين بإقامة مظاهرة ثالثة في نابلس في 13 تشرين الثاني 1933 استمراراً لمتابعة تنفيذ القرار ولتحدي السلطات معاً.

مداهمة البوليس لمكتب مؤتمر الشباب الذي كان فيه الأعضاء وإخراجهم وغلق الأبواب ومصادرة ورقة الاقتراح:

واذ نحن في المكتب جاء بعض ضباط البوليس مع بعض أفراد من البوليس العربي والإنكليزي، وطلبوا منا الخروج من المكتب، وكانت ورقة اقتراحنا على المنضدة فتناولها، وبعد خروجنا اغلقوا باب النادي وختموه بالشمع الأحمر.

تضميد جرحى:

وفيما أنا سائر صادفت بعض أفراد كشافة

عربية جوالة كانوا ينشطون في واجبهم الإنساني من إسعاف للجرحى ونقل للشهداء، ورأوا رأسي مربوطاً بالضماد، فأخذوني إلى مركزهم وضمدوا جرحي ثانية، ثم أخذوني إلى عيادة الدكتور خليل أبي العافية، حيث قطب جرحي ثلاث قطبات وضمده تضميداً فنياً نظيفاً.

اعتقالي في أثناء عودتي من يافا إلى القدس:

وخرجت من عيادته، فركبت سيارة ذاهبة إلى القدس أنا وفهمي العبوشي زميلنا في الحزب وفي اللجنة التنفيذية، وكان ممن جاء إلى يافا واشترك في المظاهرة وفي الاقتراح بإقامة مظاهرة ثالثة في نابلس؛ وفي الرملة اعترض السيارة بوليس عربي، وطلب مني النزول قائلاً إن لديه أمراً باعتقال كل مجروح. ثم عاد فسمح لي باستئناف السفر بالسيارة، فواصلت السيارة سيرها، وحينما وصلت إلى مخفر أبي غوش أوقفها بوليس المخفر وطلب مني النزول، وسألني عن اسمي، ولما قلت له اسمي، قال إن لديه أمراً باعتقالي. وأمر السيارة باستئناف سيرها إلى القدس بدوني، وبقيت في المخفر ساعتين، ثم جاءت سيارة رسمية فيها ثلاثة أنفار من البوليس الإنكليزي. فأخذوني إلى القدس، حيث سلموني للسجن المركزي في القدس، وقد فتشني مأمور السجن وضبط ما معي من نقود ومفاتيح وأوراق وأدخلني إلى غرفة كبيرة وأعطاني حرامين، وقال لي افرش أحدهما وتغطى بالآخر. وكانت معي حقيبة فيها منامتي (البيجاما)، فخلعت بدلتي ولبست المنامة ووضعت الحقيبة كمخدة، وتمددت ونمت غير عابىء بشيء.

اعتقال عوني والإتيان به إلى حيث كنت:

وبعد قليل أيقظني صوت في الغرفة وإشعال المصباح فيها، فإذا بعوني عبد الهادي في الغرفة وحوله بعض الجنود ومدير السجن، وقال لي إنهم أتوا به من بيته، وأتوا له منه بفراش، وتحدثنا قليلاً ونمنا. وفي الصباح جاء مدير السجن وأعطى عوني سجاير، وأحضر لنا خبزاً وزيتوناً ولبنة وشاياً دون أن يكلمنا بشيء. وفي الظهر أتى إلينا بغداء لحمة كستلاتا ولبنة وفاكهة وزيتون، ثم نقلنا بعد الغداء الى غرفة أحسن نوراً وهواء وفيها سريران لي وله، ووضعوا على سريري فرشة قش بالإضافة إلى الحرامين، وعلى سريره فراشه الذي اتى به من بيته.

إضراب البلاد العام وتوترها:

وعلمنا من خدم السجن وهم مساجين، بالإشارات والألغاز أن جميع فلسطين مضربة، والتوتر سائداً فيها، والحالة غير عادية، وطلبت من مأمور السجن إحضار فراش وبعض حاجيات لي من بيتي فبادر إلى التلبية.

مجيء فؤاد عبد الهادي وفخري الحسيني إلى السجن وأخذهما توكيلاً عنا:

وجاء بعد الظهر إلى السجن فؤاد أخو عوني وفخري الحسيني كمحاميين، وأخذا توكيلاً منا للسعي في إخراجنا بالكفالة، ولم يسمح لهما بالتحدث معنا بأي كلام غير ذلك، غير أن هيأتهما دلتنا على صدق ما أخبرنا به الخدم من كون الحالة في البلاد غير عادية، وحضر في صباح اليوم التالي قاضي إنكليزي أحيل إليه طلب الإفراج عنا بالكفالة، وتقدم أمامه عابدين الحشيمي وهو ضابط بوليس كشاهد.

قرار قاضي إنكليزي باستمرار توقيفنا اسبوعاً:

وبعد أن أقسم اليمين سأله عما اذا كان خروجنا من السجن بالكفالة سائغاً، فقال بأنه

سيكون ذا أثر سيء على الأمن العام. ثم استمع لشهادة بوليس آخر بعد القسم، فشهد أني وعوني كنا من قادة المظاهرة في يافا، وبناء على الشهادتين قرر دوام توقيفنا أسبوعاً وعدم الموافقة على خروجنا بالكفالة.

استمرار الإضراب والتوتر ومظاهرات في مدن عديدة:

وعلمنا من خدم السجن أن البلاد مضربة لثاني يوم، وأن الناس أعلنوا أنهم سيستمرون في اضرابهم إلى أن نخرج من السجن، وأن هناك معتقلين آخرين غيرنا في عكا من قياديي العمل الوطني، وأن مظاهرات قامت في بعض مدن فلسطين، وكان اشتباك بين المتظاهرين والبوليس وكان جرحى من الطرفين، وجاء فؤاد عبد الهادي فأخبرنا أنهم استأنفوا قرار القاضي الإنكليزي، ولم يمكن أن نتعاطى معه أي حديث، ولكن هيئته كانت أيضاً دالة على خطورة الحالة في فلسطين جميعها. ولقد ظن عوني ليلة الاعتقال وثاني يوم أن الناس قد لا يهتمون بأمرنا، وبدا عليه شيء من التبرم، فلما رأى اهتمام السجن بنا وعلم بما في البلاد من توتر هدأ روعه.

طعامنا وحياتنا أثناء التوقيف:

وفي الأيام الثلاثة الأولى، كانت إدارة السجن تأتينا بالطعام من فندق قريب، لأن حالة التوتر كانت سائدة في القدس والحركة في شوارعها واقفة والسير فيها خطر، ويظهر أن الحالة هدأت، حيث علمنا أن إدارة السجن أرسلت خبراً إلى بيتي وبيت عوني بإرسال الطعام إلينا، فصار يأتينا من بيوتنا وعلى الأغلب من بيت عوني، وطلبنا مصحفاً وبعض الكتب وطاولة زهر، فلبت إدارة السجن طلبنا، وأحضرت لنا من بيوتنا، فصرنا نقضي وقتنا بالقراءة واللعب والحديث. وقد قضينا في السجن أسبوعاً.

حفظي الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن:

وفي أثنائه حفظت الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن، وكانت عملية الحفظ مشرقة وملهمة، والحفظ رهن بالتكرار المستمر، فإذا ترك القارىء ذلك لبضعة أيام لا لبضعة أشهر لا يلبث أن ينسى أو يخطىء في الآيات والمقاطع والقوافي المشاكلة، وبعد الأيام الثلاثة الأو[لى] سمح بزيارة شخص واحد لكل منا في كل يوم

زيارات الناس المحدودة لنا:

فزارنا بعض أصدقائنا وإخواننا، وجاءت مرة زوجتي ام زهير وام مازن زوجة عوني، وكان رقيب من السجن على الزيارة حتى لا يكون حديث غير حديث الصحة والبيت والأولاد، ولكن الزائرين كانوا يحاولون إفهامنا بالإشارات والألغاز بما يسود البلاد والناس من توتر واضطراب.

توجيه تهمة الفساد إلينا:

وفي الأيام الأولى جاء ضابط بوليس عربي، وأظن انه شوقي سعد ليأخذ إفادتنا، ووجه إلينا تهمة التواطوء على الاعتداء على القانون وقوات البوليس والحكومة بنية الفساد، وسألنا رأينا في هذه التهمة، فقال عوني إننا غير مجبرين على الإجابة والإدلاء بكلام للبوليس، ولنا أن نحتفظ بما نريد قوله للمحكمة فقط، فكتب ضابط البوليس محضراً بما وجهه إلينا من تهمة وسؤال وبرفضنا الإجابة عليهما وانصرف.

إطلاق سراحنا بعد اسبوع بالكفالة:

وصباح السبت 20 تشرين الأول 1933

أطلق سراحنا بالكفالة إلى حين المحاكمة. وتقاطر الناس على بيتنا للسلام والتهنئة ممن نعرف وممن لا نعرف، وتلقينا عشرات البرقيات المشجعة، وقد أحسسنا بأن الحالة المعنوية في البلاد كانت قوية، ومما نتج عن ذلك:

أولاً: أن شهداء يافا من العرب (27)، وأن ضعف هذا العدد كانوا جرحى، ومنهم كان جرحه خطيراً، وأن بوليساً عربياً قتل، وأن عدداً من البوليس العربي والإنكليزي مجروحون. .

ثانياً: أن أول من قبض عليه كان يعقوب الغصين وإدمون روك وصليبا عريضة وسعيد الخليل، والأول رئيس مؤتمر الشباب والثلاثة من لجنة المؤتمر، وأن الضابط فرادي ضربهم في سجن يافا ضرباً مبرحاً حتى أدماهم، وأن جسم يعقوب كان محتقناً باللون الأزرق من شدة الضرب، وأنهم أرسلوا من يافا إلى سجن عكا بأسلوب قاسي لا إنساني، وحرموا من الأكل والشرب إلى أن وصلوا إلى عكا. .

ثالثاً: أن جمال الحسيني اعتقل وهو في طريقه إلى القدس مثلي، وأرسل إلى عكا، وأنه ضرب عقب اعتقاله أيضاً، وان إرسالي إلى سجن القدس كان بسبب كون اعتقالي تأخر قليلاً عن إعتقال الخمسة السابقين الذين كانوا جمعوا معاً وأرسلوا إلى عكا، وهذا كان شأن عوني أيضاً، حيث تم اعتقاله في القدس متأخراً. .

رابعاً: أن شائعة انتشرت في نابلس وغيرها بأني قتلت في المظاهرة، فقامت في نابلس في ليلة السبت مظاهرة وفرقها البوليس، ولكن الناس عادوا متظاهرين في الصباح وقتل البوليس شاباً اسمه عزمي قرقش في مظاهرة الصباح، وقامت مظاهرات في حيفا والقدس وغزة أيضاً، وأن البوليس كان عنيفاً لئيماً مع المتظاهرين، وكان يطلق النار جزافاً، وان بعض الناس جرحوا نتيجة لذلك.

خامساً: أن بعض الوطنيين أطلقوا النار على بيت المندوب السامي وعلى معسكرات الجنود والبوليس في القدس وغيرها مراراً، وأن ذلك أقلق الإنكليز قلقاً شديداً لأنهم رأوا العداء موجهاً إليهم مباشرة وهذا ما كانوا يكابرون فيه.

سادساً: أن الإضراب الذي استمر اسبوعاً كان عفوياً نتيجة ما وقع في يافا من قسوة واستشهاد عدد كبير من العرب وجرح عدد كبير آخر واعتقال وضرب الزعماء، ولقد كان ما فعلته السلطات في يافا حقاً أكثر مما تقتضيه الحالة، سواء في الاستعداد أو في كيفية التدخل والتفريق واستعمال القسوة والنار، والراجح أنها فعلت ذلك بسبب ما رأته من إصرار العرب على تحديها وكسر هيبتها وقيامهم بمظاهراتهم رغماً عنها، وربما كانت تعتقد باحتمال استعمالهم العنف. ولعلها أرادت بذلك إشعارهم بما سوف يلقونه من عنف وقسوة إذا ما حدثتهم أنفسهم بالكفاح ضد الإنكليز مباشرة. ومما علمناه أن اللجنة التنفيذية اجتمعت ونحن في السجن، وأن شيئاً من الوجوم والتردد كان يسود عليها. وقد قررت الاحتجاج على ما وقع في يافا، وترددت في أمر تقرير إقامة مظاهرة ثالثة في نابلس، وعلمت أن أحمد الشكعة وعادل زعيتر عضوي اللجنة من نابلس كانا سبب هذا التردد، حيث حذرا من عواقب قيام مظاهرة في نابلس. ولم يتخذ قرار ما في ذلك سلباً أو إيجاباً.

اجتماع اللجنة وقرارها بإقامة مظاهرات عامة في كل مدن فلسطين يوم عيد الفطر:

وبعد خروجنا من السجن بأيام، عقدت اللجنة اجتماعاً، وكان كثير من الأعضاء يتصنعون الجرأة تصنعاً، وقد أمكن أخذ قرار بإقامة مظاهرات عامة في يوم واحد في جميع المدن، وكان اليوم المعين هو يوم عيد الفطر، وكان بيننا وبينه شهران. وقد رضينا بهذا القرار على كره، لأن نفسية اللجنة لم تكن تتحمل أكثر من ذلك.

تنفيذ القرار بتساهل من جانبي اللجنة والسلطات:

ولقد نفذت البلاد القرار، حيث أقامت جميع مدن فلسطين مظاهرة في يوم العيد، وكان تساهل من جانبي اللجنة والسلطات معاً لئلا تتكرر مأساة يافا، فقد سعت السلطات لحمل اللجنة على طلب ترخيص وأبدت استعدادها لمنح الترخيص، ولم تر اللجنة بأساً من طلب الترخيص تجاه سعي السلطات ووعدها، وكانت معنويات الناس محبذة لهذا الموقف. وكان يظن أن تفشل المظاهرات أو يكون المشتركون فيها قليلين تخوفاً وتحسباً وتهرباً من الخطر. وكان يوم العيد بارداً جداً وسبقه يوم مطر وثلج.

شيء عن مظاهرة القدس التي اشتركنا فيها:

وفي القدس، حيث كنت، احتشد الناس رغم المطر والثلج في الحرم، وبعد صلاة العيد خرجوا في مظاهرة حاشدة إلى النبي داود، وجاء عدد كبير من المسيحيين إلى الحرم وخرجوا مع المسلمين في المظاهرة، واشترك فيها عدد من المشايخ والوجوه المدنية وأعضاء اللجنة التنفيذية في القدس، وكنت أنا من الجملة. وقد كان اشتراك المشايخ بإيعاز أو تشجيع من الحاج أمين، ولكنه هو لم يشترك بحجة وقار وحشمة المركز الديني.

خطاب جمال الحسيني:

وحينما وصلت المظاهرة إلى النبي داود، ألقى جمال الحسيني خطاباً حماسياً، وقال فيما قال إن هناك خططاً تنظيمية جديدة لتجديد نشاط الحركة الوطنية وضمان استمرارها، وكان في لهجته شيء من التبجح بل والتحدي، ثم طلب من الناس الاكتفاء بما كان من مظاهرتهم إلى النبي داود والتفرق، وبادر كثير من الناس للاستجابة فتفرقوا وتفرق معهم من كان متردداً أو راغباً عن الاستمرار في التظاهر، وكان ذلك خاتمة هذه العملية الوطنية الفريدة القوية التي هزت الناس والأفكار والسلطات هزاً شديداً من دون ريب.

إجراءات محاكمة المتهمين في المظاهرة في يافا:

وبعد قليل كانت إجراءات محاكمة عدد مختار من قواد مظاهرة يافا المشتركين فيها، وكان في سير المحاكمة وما أثير في سياقها من الدعايات والتجريحات ما شغل الناس عن نتائج المظاهرات، بل أضاع على الوطن هذه النتائج. وكان ذلك مما قصدته السلطات بدون ريب، وأسهم عملاؤها العلنيون والمستترون فيه مما سوف نزيده شرحاً بعد.

ولقد عهد إلى قاضٍ انكليزي اسمه بودلي مهمة التحقيق، وعقد هذا جلسات تحقيق في يافا.

أسماء المتهمين الرئيسيين:

ومن الذين سجلت في دفتري أسماءهم من المتهمين من اللجنة التنفيذية بالإضافة إليّ،

عوني عبد الهادي وجمال الحسيني والشيخ عبد القادر المظفر وسليم عبد الرحمن، ومن مؤتمر الشباب يعقوب الغصين وأدمون روك وصليبا عريضة وسعيد الخليل وفريد فخر الدين، وكان جميع هؤلاء اعتقلوا وخرجوا بالكفالة. وقد ذكرت في دفتري أن السلطات كانت اعتقلت عدداً من المتظاهرين من غير أعضاء اللجنة التنفيذية ومؤتمر الشباب، وأطلقت سراحهم بالكفالة، فقدّمتهم كذلك للتحقيق، ولم أسجل أسماءهم مع الأسف. وقد أخذ القاضي يستجوب المتهمين واحداً بعد آخر، وكان يعقد في الأسبوع ثلاث جلسات أو جلستين، واستمر التحقيق نحو شهرين. وكان جميع المتهمين مجبرين على حضور كل جلسة، سواء منهم من حقق معه ومن لم يحقق، ولقد كان أعداد غير قليلة من المواطنين بارزين وغير بارزين وشباب وكهول يتزاحمون على حضور جلسات التحقيق في أوائلها، منهم من كان يأتي للمواساة والتشجيع، ومنهم من كان يأتي لشهود التحقيق، ومعرفة ما يجري فيه.

المحامون الذين تطوعوا للدفاع:

وتطوع للدفاع عدد كبير من المحامين، وسجلوا أسماءهم لدى المحكمة، منهم فائز الحداد وفخري الحسيني وراغب الإمام، وكانوا يحضرون الجلسات الأولى بكثرة أيضاً.

شهود النيابة ضد المتهمين لإثبات التهمة المنسوبة إليهم:

ولقد قدمت النيابة أولاً شهوداً من أفراد البوليس وضباطه، لإثبات اشتراك المتهمين في المظاهرة، وكون المظاهرة غير مرخصة وبالتالي غير قانونية، وكونها بنية الفساد، ويقصد بذلك (الإخلال بالأمن)، وكون ذلك منهم عن عمد وتصميم، وأنهم قادوا المظاهرة برغم إعلان الحكومة عدم قانونيتها وتبلّغهم ذلك الإعلان شخصياً، وأنهم مسؤولون عما جرى في المظاهرة من رجم البوليس ومقاومة له، وما أدى إليه ذلك من إراقة دماء ووقوع قتلى وجرحى من الأهالي والبوليس معاً. وكان الدفاع لا ينكر اشتراك المتهمين بالمظاهرة، ولكنه يركز على أنها كانت تعبيراً عن قلق الشعب من لامبالاة السلطات باحتجاجاته وصرخاته ضد ما يتهدده من أخطار عظيمة من جراء تدفق الهجرة اليهودية على بلاده، ومحاباة السلطات لليهود في مشاريعهم المتنوعة، وعلى أن ما كان من صدام بين المتظاهرين والبوليس إنما كان بسبب تحرش البوليس وعنفه بدون ضرورة، وبسبب توتر الجو في الأسبوع الذي قامت فيه المظاهرة، وبما اتخذته السلطات من إجراءات شديدة كبيرة بنية قمع المظاهرة بالقوة مهما أدى إليه ذلك. ولقد تخلل الدفاع سفسطات ومداورات من المحامين ما كان ينبغي أن تكون في سؤال الشهود والمتهمين والتعقيب على أجوبتهم بقصد نقض شهاداتهم.

استشهاد البوليس ببعض خدم الفنادق وموقف هؤلاء الوطني في المحكمة:

وظهر أن البوليس حاول إرغام بعض خدم الفنادق التي كان ينزل فيها بعض المتهمين، وإغرائهم بتسجيل إفادات عن المتهمين مطابقة للتهم ومؤيدة لها، ثم أتى بهؤلاء الخدم ليؤدوا شهاداتهم مع القسم بتأييد إفاداتهم السابقة أمام القاضي، ولكن الخدم فاجأوا البوليس بشهادات مناقضة أو مكذبة للتسجيلات السابقة، ووقع في حرج، وقرأ التسجيلات السابقة أمام القاضي، فقال الخدم إنها ليست صحيحة، وإن الحقيقة

هي ما يقولونه بعد القسم أمام القاضي، فكان موقفهم رائعاً محموداً نمّ عن أصالة الحس الوطني في الطبقات الشعبية.

استجواب المتهمين واعترافي واعتراف جمال:

وجاء بعد ذلك دور أخذ إفادات المتهمين أو استجوابهم من قبل القاضي، وقد اعترفت أنا باشتراكي في المظاهرة، وقررت أني أعتبرها مشروعة بقطع النظر عن كونها غير موافقة لقوانين السلطة، وعن كونها جرت بدون موافقتها، وبأني من الذين شجعوا اتجاه المظاهرة في طريقها الطويل، مع تقريري بأنه لم يكن هناك نية ما باستعمال العنف ومهاجمة البوليس، وكانت أقوال جمال الحسيني مثل أقوالي.

موقف الشيخ المظفر:

ولقد كان للشيخ عبد القادر المظفر موقفان، ففي دور السؤال والجواب قرر أن اشتراكه في المظاهرة كان عادياً مثل سائر الناس، وفي آخر التحقيق ألقى خطاباً حماسياً في الدفاع عن مشروعية المظاهرة والحملة على سياسة الحكومة.

مداورات المحامين:

وكانت إفادات الآخرين متنوعة، فمنهم من ساير المحامين في قصد التفلت من المسؤولية، ومنهم من اعترف بالإشتراك مع نفي قصد العنف والصدام وتحميل مسؤولية ذلك للبوليس.

عوني غاب عن التحقيق وطلب من القاضي الإذن له مع عدم اعتراضه على ما يقدم ضده:

ومما كان من عوني أنه استأذن القاضي في الجلسة الأولى بالغياب عن التحقيق مع اعتباره موجوداً وغير معترض على ما يرد في حقه من شهادات، وقد وافق القاضي على ذلك فظل غائباً عن التحقيق طيلة الأيام التي جرى فيها.

موقف جريدة فلسطين من المتهمين والمحاكمة ووقع ذلك:

ومن عجيب ما كان أن جريدة فلسطين بعد أن كانت تنوه بالمتهمين وتشجعهم وتصفهم بالأحرار، أخذت بعد بضع جلسات من التحقيق تهوّن من شأنهم وتهزأ بهم، وتورد أقوال بعضهم التي كانت في الحقيقة من تلقينات المحامين بقصد إفراغ التهمة من مضمونها والتفلت من المسؤولية حسب سفسطات ومداورات المحامين المهينة، وكان لِمَا صارت تنشره الجريدة وقع وأثر سيئان على المتهمين وعلى الناس وعلى القضية برمتها وبعد انتهاء التحقيق انقلب القاضي إلى قاضي محكمة.

الحكم على المتهمين الرئيسيين أي أعضاء اللجنة وأعضاء مؤتمر الشباب بعشرة أشهر وغير الرئيسيين بثلاثة أشهر:

وأصدر حكماً بالسجن عشرة أشهر مع الأشغال الشاقة عليّ وعلى كل من عوني وجمال وسليم عبد الرحمن ويعقوب الغصين وسعيد الخليل وصليبا عريضة وأدمون روك وفريد فخر الدين والشيخ عبد القادر المظفر، وحكم على المتهمين الآخرين بالحبس ثلاثة أشهر مع الأشغال الشاقة أيضاً، حيث اعتبر الأولين هم القادة المستحقون للجزاء الأشد.

استئناف الحكم وطلب نقل القضية إلى القدس:

واستأنف المحامون الحكم وطلبوا نقل المحاكمة استئنافياً إلى المحكمة المركزية في

القدس، لأن رئيس محكمة يافا المركزية أدلى ببيانات فيها رأيه بصدد المظاهرة، وهذا ما يمنع رؤيته للقضية. وقبل الاستئناف.

هيئة محكمة القدس:

وأحيلت القضية إلى محكمة القدس المركزية، وكانت مؤلفة من رئيس انكليزي وعضوين عربيين، هما ماجد عبد الهادي وعلي حسنة. وكانت المحاكمة تناظر بين المحامين والنيابة في النقاط القانونية.

وبعد انتهاء الترافع أعطت المحكمة رأيها في تخيير المتهمين بين إعطاء سندات تعهد بالسلوك الحسن، وبين السجن، وأعلنت تأجيل الجلسة للنطق بالحكم إلى اليوم التالي، وخرجنا وتحدثنا مع بعضنا في الأمر، وكان رأيي ورأي جمال وعوني عدم إعطاء السندات واختيار السجن، لأن في إعطاء السندات تراجعاً عن موقف وطني. واجتمعنا ثانية (المحكومون من أعضاء اللجنة ومؤتمر الشباب) في مكتب المحامي أبكاريوس، وتداولنا في الأمر، فكررت رأيي في اختيار السجن، وكان جمال وعوني وسليم من هذا الرأي أيضاً. وكان يبدو على يعقوب الغصين ورفاقه أعضاء لجنة مؤتمر الشباب وجوم وتردد، وكانوا يقولون إن البقاء خارج السجن أنفع للقضية من السجن.

موقف الشيخ عبد القادر المظفر:

ولم يبد الشيخ المظفر رأياً صريحاً وحاسماً، وكان في كلامه أقرب إلى إفهام سامعيه إلى أنه يميل إلى إعطاء السند، لأنه كان يقول إنه لا يجوز لأحد أن يضغط على أحد، وأن المسألة لا يجوز أن تسير بالعاطفة والحماس، وأن كل واحد يجب أن يزن حالته، فإذا رآها لا تتأثر بالحبس فليقدم عليه، وكان المعروف أنه كان يشتغل في إنشاء عمارة، فكنا نظن أنه يريد أن يقدم لنفسه عذراً بإعطاء السند، حتى لقد قال جمال إنه حاول إقناعه بعدم التردد وبضرورة إختيار السجن.

تصميمي أنا وعوني وجمال على اختيار السجن:

وغدونا في اليوم التالي إلى المحكمة لنخبرها بما تم رأينا عليه، ولم يكن عندي شك في أننا سندخل السجن. وقد خرجت من البيت على هذا الأساس مودعاً بعد أن سويت بعض أموري الخاصة، وذهبت تواً إلى مكتب عوني، وكنت اتفقت أنا وهو وجمال على الاجتماع في المكتب، وجاء جمال وعدنا إلى الحديث، وقال عوني إنه علم أن مدة الحبس ستكون أربعة أشهر إذا أصررنا على رفض التعهد، فاعتبرنا الأمر بسيطاً واتفقنا على اختيار السجن نحن الثلاثة على الأقل لكرامتنا وكرامة البلاد وكرامة الحركة الوطنية نفسها.

موقف يعقوب الغصين:

وفيما نحن في مكتب عوني جاء سليم عبد الرحمن وصليبا عريضة وأدمون روك وسعيد الخليل وفريد فخر الدين ويعقوب الغصين وأظهروا استعدادهم وتصميمهم هم الآخرون على اختيار السجن، باستثناء يعقوب الذي كان حائراً وميالاً إلى إعطاء التعهد، وإنما يريد وسيلة يتشجع بها، وكان يهمس برأيه ويحاول أن يبثه في رفاقه ويفت من تصميمهم على اختيار السجن، ثم ذهبنا إلى المحكمة وكانت غاصّة بالناس، وكان الشيخ عبد القادر المظفر يجلس في جانبي، فسألته عن رأيه، فقال إنه لم يكوّن رأيه بعد، ثم سألني عن رأيي ورأي

الأخوان فقلت له إني من ناحيتي مصمم على اختيار السجن، وأن جمالاً وعونياً مصممان في الغالب على ذلك، وأن جماعة المؤتمر مصممون في الغالب على ذلك باستثناء يعقوب، فقال لي ولماذا كلمة (في الغالب)، فقلت له لأني سمعت من عوني كلمة خاطفة قد تدل على أنه في قرارة نفسه يفضل إعطاء التعهد ويخشى أن يؤثر الحبس على عمله كمحام، وإني لا أعرف يقيناً ما في نفس جمال، وأني أخشى بأن يتأثر الشباب بيعقوب الغصين.

ولقد خرجت لقضاء حاجة، فمررت بيعقوب ورأيته متردداً واجماً، فلمته على ذلك وقلت له إننا أنا وجمال مصممون على اختيار السجن، فقال لي إنهم يقولون ذلك ولا يعنونه، وظننت أنه يقول هذا للاعتذار والتفلت، وكان هذا قبل افتتاح الجلسة.

إعلان المحامي أمام المحكمة بأننا أنا وجمال وعوني وسليم عبد الرحمن اخترنا السجن والآخرون وافقوا على إعطاء التعهد:

ثم أعلن فتح الجلسة فوقف المحامي ابيكاريوس وقال إن عزة وعوني وجمال وسليم عبد الرحمن يرفضون إعطاء التعهد. والباقون موافقون، واعتقدت أن المحامي لم يقل هذا عن الباقين إلا بعد أن قالوا له ذلك، ولو لم نسمع منهم ولم يعترض أحد منهم على قول المحامي بما فيهم الشيخ عبد القادر الذي ظل ساكتاً بدوره.

إبداء رئيس المحكمة استعدادها لتعديل نص التعهد، حتى لا يكون مانعاً من الواجب الوطني:

فسأل الرئيس لماذا يرفض الرافضون، فأجابه أبيكاريوس لأنهم يرون في التعهد مانعاً للاستمرار في واجبهم الوطني، وهم يريدون الاستمرار فيه، فقال الرئيس إن التعهد لا يمنعهم من القيام بواجبهم الوطني، وإن المحكمة مستعدة لذكر ذلك في صلب القرار، فقال جمال ويجب أن يذكر ذلك بصراحة في سند التعهد أيضاً، فوافق الرئيس على ذلك.

موافقة جمال وعوني على التعديل:

وحينئذ قال جمال إذا كان الأمر كذلك فأنا مستعد لإعطاء السند، وقال عوني ثم سليم مثله. وظللت أنا ساكتاً سكوت حيرة وذهول فاعتبر سكوتي موافقة.

إعلان المظفر برفض التعهد والحكم بسجنه ستة أشهر:

وحينئذ قام المظفر، فقال إني أرفض إعطاء التعهد، وأراد أن يلقي خطاباً فلم يسمح له الرئيس بذلك، وكان موقف المظفر عجيباً وغير متوقع، ثم عدل نص السند تعديلاً متسقاً مع ذلك، وذكر في النص «أن الموقع يتعهد بأن يأتي إلى المحكمة في كل وقت يطلب منه لاستماع الحكم عليه إذا ما خالف تعهده بحسن سلوكه خلال سنتين أو يدفع مائة جنيه غرامة، وأن هذا التعهد لا يمنع الموقع من القيام بأي عمل سياسي قانوني».

توقيع المتهمين على التعهد المعدل:

ووقع الجميع على هذا النص، وظل المظفر مصراً على الامتناع عن التوقيع، وكان يأمل على ما فهمناه من المحامي فائز الحداد أن يحكم بغرامة بسيطة يدفعها ويكسب جولة وطنية على رفاقه، ولكن المحكمة حكمت عليه بالسجن ستة أشهر، وسيق إليه، وكان لهذه النتيجة على

نفسي أولاً تأثير كاسف، لأني كنت أفضل لي ولرفاقي وبخاصة جمال وعوني السجن، وكانت موافقتهما في الجلسة مباغتـة اسكتتني ذهولاً. وانسحبت الموافقة علي بهذا السكوت.

اختلاف آراء الناس في أمر إعطاء التعهد:

ولقد اختلف أثر ذلك عند الناس، فمنهم من لم ير بأساً فيما وقع بعد تعديل النص، ولا سيما أن التعهد بمثابة تأجيل الحكم ثم تبديله بغرامة إذا ما خالفه الموقع ولم يلب دعوة المحكمة، وأن الوطني في مثل هذه الحالة خارج السجن أنفع منه في السجن، وأن السجن ليس هو غاية وإنما وسيلة. فإذا كان هناك مندوحة عنه على الدوام على العمل الوطني فذلك أفضل وأجدى. ومنهم من رأى في توقيع التعهد على كل حال رخاوة ورغبة في تفادي الأذى والحبس في سبيل الوطن وأسوة سيئة، وقد يكون له أثر سلبي على الحركة الوطنية ورجالها الذين يجب أن يوطنوا أنفسهم على السجن وغيره، وأن يتلقوا ذلك كنتيجة متوقعة جداً لنشاطهم وجهودهم. وفي الحق إن لكل رأي من الرأيين وجاهة، وأنا في قرارة نفسي كنت من الرأي الثاني، ولكن انجررت إلى الموقف إنجراراً بتأثير موقف جمال وعوني وظروف المحاكمة وتطمين رئيس المحكمة.

ولقد كان قبول التوقيع غير كبير الأهمية والمدى بعد أقوال رئيس المحكمة وتعديل النص لولا موقف المظفر المفاجىء غير المتوقع، بعد أن كانت أقواله وأحواله تشير إلى ميله إلى عدم دخول السجن أولاً، وثانياً لولا التضخيم الصحفي العجيب المريب لقبول التعهد.

موقف جريدة فلسطين في هذا الأمر:

ولقد اتخذت جريدة فلسطين في الدرجة الأولى توقيع التعهد وسيلة لحملة لاذعة على (الأحرار)، وكان هذا عنوان المتهمين طيلة أيام التحقيق والمحاكمة، وموقفهم الذي وصفته بأنه مشين، وقد بدأت حملتها ضدهم قبل الحكم كما ذكرنا قبل بأسلوب الغمز واللمز، متخذة مداورات المحامين الشكلية وانسياق المتهمين معها حجة لتبرير غمزها ولمزها، وقد حاولت أن تصور المظفر بطلاً أو البطل الوطني الوحيد الذي (أثبتت التجربة صلابته وقوة جوهره)، وشاركت جريدة الدفاع زميلتها فلسطين في الحملة واللذع وإن كانت أقل شدة وألبق أسلوباً، والناس كانوا يعرفون أصابع الإنكليز واليهود والمعارضة وراء جريدة فلسطين، وعلّلوا أسلوبها بالرغبة في تهوين أثر العمل الوطني وتشويه ما كسبه المتهمون من اسم وسمعة بين الناس، وما كان للمظاهرات من أثر إيجابي في انتعاش الحركة الوطنية، وذهبوا إلى القول إن ذلك كان تواطؤاً بينها وبين الإستخبارات الإنكليزية التي يؤكد كثير من الناس علاقة جريدة فلسطين وصاحبها وبخاصة مديرها داود العيسى بها. وأن ما كان من تنويههما بالشيخ المظفر هو من قبيل ذر الرماد، ولقد كان للحملة أثر سلبي حقق ما أريد منها، وكاد أن يسحب ذيل النسيان على عملية المظاهرات الرائعة الفريدة في تاريخ حركة الكفاح الوطني الفلسطيني. ومعظم ما مر مسجل في دفتري القديم الذي كتبته في سنة 1936 والذهن ممتلىء بالصورة، وما ذكرته من مواقف وأقوال كان هو الواقع وليس من قبيل التهوين أو التبرير أو التنويه.

*

(4) إعلان السلطات الانتخابات البلدية الثانية في فلسطين وخلفيات ذلك:

وفي فترة عملي في مديرية الأوقاف جرت انتخابات جديدة للبلديات، وكان ذلك سنة 1934، حيث دعت السلطات إلى تجديد انتخابات البلديات بحجة تقوية ما كانت تسميه دون خجل بمؤسسات الحكم الذاتي، والراجح أنه هالها ما كان من موقف التمرد والتحدي الموجه لها مباشرة بصراحة وقوة في المظاهرات، فعمدت إلى هذه الوسيلة، كما فعلت في موضوع المجلس الإسلامي وانتخاباته الثانية، بسبيل ضرب الروح القوية والتضامن العربي القوي الذي بدأ في رفض الدستور واحباط انتخابات المجلس التشريعي على ما شرحناه قبل، ولم تر ما كان من جهد عملائها الصحفيين في مرمطة المتهمين في المظاهرات وتجريحهم كافياً لطمس بريق ذلك الموقف. ولقد حققت مآربها هذه، كما حققته في السابق، حيث كانت الانتخابات البلدية فعلاً مثار توتر وتهاتر بين الأحزاب المحلية، فازداد الصف العربي الذي لم يكن متماسكاً في الأصل تصدعاً، وعادت الحركة الوطنية التي لمعت لحظة ما في ظروف المظاهرات إلى الخفوت والفتور).

أشد المعارك كانت في القدس بين المجلسية والمعارضة وتحالف الحاج أمين مع الأسرة الخالدية:

وكانت انتخابات بلدية القدس بخاصة من أشدها، حيث كان قوّاد معركتها زعماء المجلسية والمعارضة، وقد صمم الحاج أمين على زحزحة راغب عن رئاسة بلدية القدس مهما كلف الأمر، وعمد بسبيل ذلك الى شق جبهة المعارضة، حيث فاوض الأسرة الخالدية على التحالف معه وترشيح أحد أركانها الدكتور حسين لهذه الرئاسة، وقد قبل الخالديون العرض، رغم أنهم كانوا من أركان جبهة المعارضة، ومنهم من كان من أشد معارضي الحاج أمين ومناوئيه ومجرحيه، لأن رئاسة البلدية في القدس منصب مغرٍ من شأنه أن يشبع رغبات البروز والزعامة التي كانت محركة لرجالات الأسرة الخالدية، وبنوع خاص لأحمد سامح وأخيه الدكتور حسين، وتألفت نتيجة لذلك جبهة انتخابية قوية في القدس، وشهدنا معركتها الحامية، حيث كنا مقيمين فيها، وكان الحاج أمين قائدها الذي واصل الليل بالنهار واتخذ كل الأسباب الكفيلة بالانتصار.

انتصار الحاج أمين والخالديين حلفاؤه وتوسد الدكتور حسين رئاسة بلدية القدس:

وقد انتصر الحاج أمين فعلًا، وتوسد الدكتور حسين رئاسة البلدية، ومنذئذ صار الدكتور وأسرته وأنصارهم حلفاء للحاج أمين مع احتفاظهم بشخصيتهم في الوقت نفسه على ما سوف نشرحه بعد، وكانت رئاسة البلدية وسيلة ومساعدة لهذا الاحتفاظ. وقد فاز مع الدكتور حسين معظم الذين تم الاتفاق على ترشيحهم لعضوية البلدية لأن المعركة كانت شاملة.

شيء عن معارك الانتخابات في المدن الأخرى:

وقد اقتصر تسجيلي في دفتري القديم على معركة القدس، لأني كنت مراقباً شخصياً لها، وكانت هي الأشد، وفي ذاكرتي عن الانتخابات

في نابلس أنه جرى اتفاق على تزكية قائمة المجلس القديمة برئاسة رئيسها سليمان عبد الرزاق طوقان.

وعلى كل حال، فإن معركة الانتخابات أعادت المهاترات بين المعارضة والمجلسية الى شدتها، وأدت إلى اشتداد الفتور في النشاط الوطني والتصدع في الصفوف العربية، وهذا ما رمت إليه السلطات بهذه المكيدة من دون ريب.

ومما كان من أحداث متصلة بذلك في هذا الظرف أن جريدة الجامعة الإسلامية بيافا التي كان يصدرها الشيخ سليمان التاجي الفاروقي، نشرت كتاباً بخط الأمير شكيب أرسلان إلى الحاج أمين الحسيني، يذكر فيه اهتمام الحكومة الإيطالية (وكانت تحت سيطرة الزعيم المشهور موسوليني المناوىء لبريطانيا وحلفائها والمتحالف مع المانيا)، بقضية فلسطين واستعدادها لمدّ يد المساعدة للحاج أمين بسبيل ذلك، فأحدث ذلك ضجة شديدة في مختلف الأوساط وفي الدوائر الانكليزية معاً. وخط الأمير فريد وحيد، فساعد هذا وذاك على تصديق الناس للكتاب، وسارع الحاج أمين الى تكذيبه، ثم سارع الأمير شكيب الى إنكاره الكتاب وتوكيد كونه مزوّراً عليه. وقد عرف فيما بعد أن شاباً من أسرة الأنصاري التي تتولى سدنة الحرم وكان من أولياء فخري النشاشيبي هو الذي زور الكتاب بترتيب وإيعاز من فخري.

*

(5) نشوء الأحزاب السياسية في فلسطين في سني 1934 و1935

وفي فترة عملي في مديرية الأوقاف، نشأت في فلسطين أربعة أحزاب سياسية، ومن المفارقة أن نشوء هذه الأحزاب كان بعد فتور نشاط حزب الاستقلال.

وقد كتبنا ذكرياتنا عن هذا الحادث في مسودات كتابنا (حول الحركة العربية الحديثة)، التي كتبناها في أثناء هجرتنا الى تركية في سني 1941 ـ 1945، وقد طبعت أجزاء هذا الكتاب في سني 1952 ـ 1955، وكان ما ذكرناه مجملاً عن هذا الحدث في الجزء الثالث منه، ولقد عايشنا نشوء هذه الأحزاب، وكانت لدينا انطباعات متنوعة عنها، فرأينا أن نتوسع في ما أجملناه عنها في الجزء المذكور، وقد استثرنا ذاكرتنا من جهة، ولم نر من جهة أخرى بأساً في الاستعانة بما ورد عنها في مصادر مطبوعة أخرى، فصار كل هذا حصيلة هذه النبذة عن نشوء الأحزاب.

مناهج الأحزاب الجديدة وخلفياتها وأسبابها:

ولقد كانت مناهج هذه الأحزاب وطنية، أي متفقة مع الميثاق الوطني، ولكن السياسة المحلية والشخصية هي التي كانت وراءها، في حين أن حزب الاستقلال قد أنشىء لمعارضة هذه السياسة التي كانت تتحكم بالحركة الوطنية، والسبب الظاهري لنشوء الأحزاب الأربعة هو تصدع بنيان اللجنة التنفيذية وعدم إمكانها أن تسد أي فراغ في الميدان الوطني، ولقد كان هذا المعنى قائماً منذ نشأتها، وإنما كانت تكابر فيه. ولم تستطع ثورة البراق التي تحركت عبرها بعض الشيء على ما شرحناه في مناسبتها أن تجعلها تتماسك، حيث جاءت المهاترات التي كانت في ظروف المؤتمر الإسلامي فقضت على التماسك الظاهري الذي ظهر عليها في ظروف ثورة البراق وبعدها

بقليل، وكذلك لم تستطع مظاهرات سنة 1933 أن تفعل ذلك، رغم أن هذه المظاهرات انبثقت عنها، بل هي الحدث الوحيد الكبير الذي انبثق عنها، حيث جاءت معركة انتخابات البلدية، فقضت على التماسك الظاهري الذي ظهر عليها في ظروف المظاهرات. ويرد إلى ذاكرتي أن إنشاء الأحزاب كان من الخواطر التي دار عليها كلام بين فريق من اعضاء اللجنة التنفيذية في اجتماع من اجتماعاتها. وكان أعضاء اللجنة بالإجمال فاترين عن الاستجابة لما يرسله مكتب اللجنة اليها من دعوة الى الاجتماعات، فقيل فيما قيل في هذا الاجتماع إن الأفضل نفض اليد من هذه اللجنة، وبذل الجهد والنشاط في سبيل قضايا الوطن بواسطة أحزاب متجانسة الأشخاص والعناصر ميولاً ومبادىء. وقد ذكر جمال الحسيني ذلك في بيانه الذي أذاعه حينما أنشأ المجلسيون الحزب العربي ووسّدت رئاسته اليه. (انظر كتاب الحركة الوطنية الفلسطينية من سنة 1917 الى سنة 1936 تأليف عادل غنيم ص 281).

المجلسيون تحركوا أولاً والمعارضون ظهروا أولاً:

ولقد كان أول من تحرك في ميدان إنشاء الأحزاب جماعة المجلسيين فيما اذكر، ولكن جماعة المعارضين سبقوهم في الظهور، حيث كان الأولون ترسموا أن يكون حزبهم كبيراً جماهيرياً، فاقتضى ذلك مشاورات ومساع أخذت منهم وقتاً ما، في حين اكتفى المعارضون باتفاق الزعماء منهم في مختلف المدن في مرحلة إنشاء حزبهم الأولى.

حزب الدفاع وفروعه وأركانه ومنهجه:

ولقد أعلن المعارضون تأسيس حزبهم في كانون الأول 1934 وسموه (حزب الدفاع)، وكان مركزه القدس، وقام له فروع في نابلس ويافا والرملة وعكا وغزة، ووسّدت رئاسته لراغب النشاشيبي، وتألفت هيئته المركزية من يعقوب فراج والحاج نمر النابلسي ومغنم مغنم وحسن صدقي الدجاني وعبد الرحمن التاجي وعمر البيطار وعاصم السعيد وسليمان طوقان والشيخ مصطفى الخيري وعادل الشوا وعيسى العيسى، وكان منهجه المعلن هو الميثاق الوطني المشهور، أي رفض وعد بلفور والهجرة اليهودية وبيع الأراضي لليهود، وانشاء حكم وطني نيابي، ولكن المتبادر لجميع الناس من غيرهم أن ذلك كان ستاراً شكلياً، لأن سلوك كثير من المنتسبين للحزب بل من هيئته المركزية كان مريباً، سواء في صلاتهم وتعاملهم مع الإنكليز أو مع اليهود، فضلاً عن أنه كان من ديدن نشاطهم المستمر، معارضة وتجريح الحاج أمين الحسيني والمجلس الإسلامي والاستعداء عليهما، بل كان هذا من أهم عقد تجمعهم ومظاهر نشاطهم.

الحزب العربي ومداه ومنهجه وأركانه وميزته على غيره:

وفي شباط 1935 أعلن المجلسيون بروز حزبهم الذي سموه (الحزب العربي)، وكان رئيسه الرسمي جمال الحسيني وزعيمه الفعلي الحاج أمين، وكان مركزه القدس، وكان مكتبه مؤلفاً من جمال والفرد روك وفريد العنبتاوي وابراهيم درويش والشيخ محمد علي الجعبري ويوسف ضيا الدجاني، وقام له بدوره فروع في نابلس ويافا وغزة والخليل وصفد وحيفا، وكان منهجه الميثاق الوطني المذكور مع زيادة (السعي في سبيل الوحدة العربية واعتبار

فلسطين جزءاً منها)، فهو من حيث المدى المنهجي مثل حزب الاستقلال، وفي حين كان حزب الدفاع حزب رؤساء بلديات وملاكين وشخصيات مفردة. وبذل (الحزب العربي) جهده في ضم عدد كبير من جماهير الشعب الى عضويته، ونجح في ذلك نجاحاً غير يسير، فكان حزباً شعبياً جماهيرياً أيضاً، وكان يضم كثيراً من الرجال الذين كانت مبادئهم ومواقفهم وطنية مخلصة مع اتسامهم بالمجلسية، وبهذا كله امتاز هذا الحزب عن حزب الدفاع. وكان يجبي من أعضائه اشتراكات غير يسيرة تساعده على البروز والنشاط.

حزب الإصلاح وأركانه ومداه ومنهجه:

ثم أعلن في حزيران 1935 بروز حزب ثالث هو (حزب الإصلاح)، وكان أبرز وأقوى رجاله ومحركيه الدكتور حسين الخالدي رئيس بلدية القدس، وكان المتبادر الواضح أنه حزبه، وأنه أراد بعد أن صار رئيساً لبلدية عاصمة البلاد أن يكرس بروز شخصيته الخاصة تجاه البلاد وتجاه السلطة معاً، وأن لا يظن أنه مندمج في زعامة وجبهة الحاج أمين بسبب ما قام بينهما من تحالف، وقد استطاع الدكتور حسين بمساعدة أخيه أحمد سامح وبقية رجال أسرته أن يضم عدداً من المثقفين والأصدقاء والأنصار إلى الحزب، وكان كثير منهم في السابق من جبهة المعارضة الأصلية، إلا أنهم لم يكونوا منغمسين فيها إلى درجة المهاترة التي كانت تصل اليها جبهة راغب النشاشيبي، ولم يكن بين هذا الحزب وبين الحزب العربي تشاد وتضاد كما كان بين الحزب العربي وحزب الدفاع، بل كان أحياناً انسجام وتناسق، لأن التحالف بين الأسرة الخالدية وأنصارها وبين الحاج أمين استمر بشكل ما بعد بروز الأحزاب. وكان لحزب الإصلاح بدوره فروع في يافا وغزة ورام الله، وكان يضم عدداً من المثقفين والموظفين العرب الكبار المتقاعدين من أصدقاء الدكتور وأخيه أحمد سامح، وممن كان في جبهة المعارضة، ولم يكونوا منغمسين فيها إلى حد التهاتر كما قلنا، وكان منهجه أيضاً الميثاق الوطني مع نص: (مقاومة الوطن القومي اليهودي بكل الوسائل الممكنة والسعي لعقد معاهدة بين العرب والانكليز على غرار المعاهدة الانكليزية العراقية)، ولم يكن له رئيس، وانما كان له ثلاثة سكرتيريون هم الدكتور حسين ومحمود أبو خضرة وشبلي الجمل، وكان المعروف المسلّم به أن الدكتور حسين هو زعيم الحزب، وتألفت لجنته التنفيذية بالإضافة الى السكرتيرين الثلاثة من كل من إسحق البديري وفهمي الحسيني والدكتور سعد الله قسيس وحسني خليفة، وهذا كان رئيس بلدية عكا، والحاج نمر حماد والمحامي جورج صلاح وابراهيم حقي التاجي وعيسى البندك والدكتور يعقوب برتقش.

حزب الكتلة الوطنية ومداه ومنهجه:

وفي تشرين الأول 1935 أعلن بروز حزب رابع هو (حزب الكتلة الوطنية)، وقد قام في نابلس، وكان أقوى رجاله بل ومحركه عبد اللطيف صلاح عضو المجلس الإسلامي السابق الذي كان أنشأ في سنة 1927 حزب الأهالي في نابلس على ما شرحناه قبل، وقد استطاع أن يضم إلى حزبه هذا عدداً من أصدقائه وأنصاره الحزبيين الذين كانوا يناصرونه في نشاطه وسياسته الشخصية، وفي إبان انتخابات المجلس الاسلامي وبعده، وكان وإياهم قبل انشاء الحزب يؤلفون جبهة معارضة لحسابهم،

معارضة لجبهة المعارضة الأصلية التي كان يتزعمها سليمان طوقان رئيس بلدية نابلس، والتي كانت مندمجة مع جبهة راغب النشاشيبي ثم حزب الدفاع الذي أنشأه، ومعارضته في الوقت نفسه للمجلسيين الذين كان منهم في نابلس جبهة كبيرة وقوية، ثم استطاع أن يضم إليه أشخاصاً عديدين من مدن أخرى ممن يعدون معارضين، ولكن ليسوا مندمجين في جبهة معارضة راغب النشاشيبي. وكان عبد اللطيف هو رئيس الحزب، وتألفت لجنته التنفيذية منه ومن عبد الله مخلص في حيفا، وعبد الله متري وشفيق عسل المحامي في القدس، وحمدي النابلسي في يافا. وكان منهاجه الميثاق الوطني مع (الوحدة العربية)، وكان واضحاً أنه من باب حزب الإصلاح، أي حزب شخصي سياسي محلي يتألف من معارضين للمجلس غير متهاترين، وغير معارضة لجبهة راغب النشاشيبي ولقد حاولت الأحزاب الجديدة اثبات وجودها وتبريره، فكانت تقدم المذكرات والاحتجاجات وتنشر البيانات. في مختلف المناسبات والأحداث.

توقف نشاط اللجنة التنفيذية نتيجة لظهور الأحزاب:

ونتيجة لقيام الأحزاب، توقفت اللجنة التنفيذية عن الاجتماعات والنشاط، ولم تنعقد منذ أوائل سنة 1934، ولقد شعر القائمون على رأس الأحزاب بالفراغ الناجم عن ذلك، وبأن الناس كانوا يتوقون إلى قيام كيان متضامن.

رابطة الأحزاب ومداها وبعض مظاهر نشاطها:

اتفق الأحزاب فيما بينهم على تأليف رابطة أو لجنة مندوبين منهم، يجتمعون في الظروف الضرورية للبحث فيما يعرض من أحداث، محاولين بذلك سد الفراغ. ولم يشترك جماعة حزب الاستقلال في هذه الرابطة أو اللجنة، واقتصرت على الأحزاب الأربعة مع ممثل خاص عن منظمة مؤتمر الشباب التي كان يرأسها يعقوب الغصين التي شرحنا سابقاً ظروف نشأتها ونشاطها. ولقد كانت الهجرة اليهودية مستمرة في تدفقها، كما كان النشاط الصهيوني قوياً في ظروف نشأة الأحزاب فكان لذلك وسيلة لنشاطها ونشاط رابطتها.

وعلى أثر اكتشاف كميات هائلة من الأسلحة المهربة من بلجيكا الى تل أبيب، وعلى أثر ما جرى في حفلة صهيونية أقيمت في لندن، خطب فيها وزير المستعمرات مالكولم مكدونلد محيّياً الصهيونية مؤكداً أنه لو لم يعط وعد بلفور لوجب اعطاؤه. . . . الخ كما شرب واكهوب المندوب السامي، في الحفلة نخب الصهيونية. . . الخ، تألفت في نابلس لجنة تولت الدعوة الى اجتماع شعبي كبير في 2 نوفمبر 1935 في الذكرى الثامنة عشرة لوعد بلفور، وحضرت الاجتماع وفود من أنحاء فلسطين وشرقي الأردن ولبنان ومصر وسورية، وكنت أحد خطبائها، دعونا فيها إلى الرجوع بالقضية من قضية يهودية الى قضية عربية استقلالية. كما خطب فيها أكرم زعيتر وميشيل متري وعبد الرحيم محمود. وتليت كلمات عبد الرحمن عزام وجميل مردم بك وفخري البارودي، واتخذت فيه قرارات خطيرة ومهمة تتعلق بالسلاح والدعوة إلى الإضراب يوم وصول المندوب السامي الى فلسطين عائداً من لندن. ومن العجيب أن ممثلي الأحزاب اجتمعوا في القدس، وقرروا الدعوة إلى تأجيل الإضراب، وأنه ليس من المصلحة القيام بعمل خاص والإضراب قبل عودة المندوب وجوابه

على مذكرة الأحزاب. ولكن لجنة نابلس أصرت على الإضراب، وأصدرت بياناً أعلنت فيه المضي في الإضراب رغم قرار الأحزاب، واستجابت الأمة، فكان الإضراب في 1935/11/13 أي يوم وصول المندوب السامي بالبحر الى يافا عاماً شاملاً، وكان هذا الإجماع رغم قرار الأحزاب نذيراً باحتقان الجو الوطني وبحوادث مقبلة.

اقتراح السلطات من جديد فكرة انشاء مجلس تشريعي وموقف الأحزاب منه:

وكانت رابطة الأحزاب قدمت مذكرة للسلطات طلبت فيها وقف الهجرة وبيوع الأراضي وإنشاء حكم وطني، وردت السلطات برد يفيد تعذر الاستجابة الى هذه المطالب. ثم اقترحت إحياء فكرة المجلس التشريعي ليتسنى للعرب المشاركة في الحكم بطريقة، وسلمت للأحزاب مشروعاً مفصلاً لدرسه، ولم يكن في مداه وصلاحياته وبنيته يفرق فرقاً جوهرياً عن المجلس التشريعي الذي رفضته البلاد في سنة 1922 إلا بكثرة أعضائه، مع حفظ النسبة بحيث يكون مجموع الأعضاء الإنكليز واليهود أغلبية، وفيه بعض صلاحيات شكلية جديدة خاضعة لإعتراض المندوب السامي. وقد اختلف مندوبو الأحزاب في أمر هذا المجلس، حيث رحب به ممثلو حزب الدفاع، وطلبوا الدخول في مفاوضات مع السلطات بشأنه، في حين عارضه ممثلو الحزب العربي.

رفض اليهود للاقتراح:

ولقد عرض المشروع في الوقت نفسه على الوكالة اليهودية، فكان موقفها منه رفضاً وتعطيلاً، وأراد المندوب السامي تخفيف وقع الرفض اليهودي على العرب، فأخبر ممثلو الأحزاب بأن وزير المستعمرات مستعد لاستقبال وفد منهم والإستماع لوجهة نظرهم ومناقشتهم فيها.

فكرة إرسال وفد عربي الى لندن من جديد وتوقفها بسبب الإضراب الطويل:

ووافق ممثلو الأحزاب على ذلك، واجتمعوا في 18 نيسان 1936 لاختيار وفد منهم، .فلم يتفقوا، ثم انفجرت ثاني يوم ثورة يافا التي أعقبها إعلان الإضراب الطويل، فدخلت البلاد في حالة جديدة على ما سوف يأتي شرحه.

*

(6) حركة الشهيد القسام:

وفي فترة عملي في مديرية الأوقاف كانت حركة الشهيد الشيخ عز الدين القسام وعصبته الأبرار، وكانت من أبرز ظواهر تطور الكفاح الوطني في فلسطين.

شيء عنه:

والشيخ عز الدين سوري من جبلة إحدى مدن لواء اللاذقية، وكان اشترك في حركة الكفاح السوري في جبال اللاذقية التي يقال لها جبال العلويين والنصيرية أيضاً ضد الإفرنسيين في حقبة فيصل، واستمرت قليلاً بعدها، ولما فترت جاء إلى حيفا واستقر فيها. وكان ذا علم ديني وحماس ديني ونزعة عربية استقلالية وروح ثورية. وكان بارعاً في الوعظ نافذاً الى القلوب فيه فعينه المجلس الإسلامي الأعلى موظفاً واعظاً.

لقائي به في حيفا واستحسانه حزب الاستقلال وكلمة عن ذلك بسبب إنكار بعضهم له:

ولقد التقيت به في حيفا في إحدى زياراتي

لها بعد إنشاء حزب الاستقلال، وحدثته عن الحزب وأسباب إنشائه وأهدافه، فاستحسن ذلك، ووافق على أن يكون مؤازراً له. وكانت حيفا مركزاً هاماً من مراكز العمال العرب، الذين كان كثير منهم من مشردي مزارعي القرى التي بيعت لليهود واجلوا عنها بمختلف الوسائل، دون أن يلقوا من السلطات حماية، وكان لهؤلاء العمال حي خاص مساكنه من التنك والخشب، وقد أوحت لهم حالتهم وحالة البلاد معاً بواجب الجهاد، وصار يتكون منهم خلايا أو حلقات جهادية متدينة وسرية ضيقة النطاق محكمة التنظيم والترابط، وكان كل فرد منها يجهز نفسه بنفسه، ويقومون بأعمال جهادية متنوعة ضد اليهود والإنكليز وخائني العرب من سماسرة وباعة أراضي وجواسيس، وصارت ميزتهم أو شارتهم إطلاق لحاهم حتى صاروا يوسمون باسم المشايخ. وقد أشرنا في مناسبة سابقة إلى ذلك نقلاً عن خليل عيسى المسمى أبي إبراهيم الكبير، وتوفيق الإبراهيم المسمى بأبي إبراهيم الصغير، وسليمان عبد الجبار المسمى بأبي علي، وأحمد التوبه المسمى بأبي غازي، وأحمد الصفوري المسمى بأبي محمود، الذين عرفناهم ورفاقهم وتعاونا معهم في أثناء ثورة سني 1937 ـ 1939.

تردد أفراد الخلايا على مجالس وعظ الشيخ والتواثق معه:

وكان كثير من أفراد هذه الخلايا أو الحلقات يترددون على مجالس وعظ الشهيد القسام، فقامت بينه وبين عدد منهم صلات وثيقة، وكانت فكرة الجهاد تقوى في الجميع، بسبب ما كان يشتد من أخطار الصهيونية من سيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومحاباة السلطات لليهود واشتداد نشاط هؤلاء في الاستملاك والاستقرار والاستعداد.

خروج القسّام على رأس فريق منهم إلى أحراش يعبد للاستعداد للعمل الجهادي:

فكان كل هذا مما جعل الشيخ القسّام يتفق مع رهط من مريديه على عمل جهادي علني، فتجهزوا وخرجوا إلى آخر أحراش يعبد في قضاء جنين في تشرين الثاني 1935، وكان عددهم أحد عشر شخصاً مع شيخهم وقائدهم.

أسماؤهم:

وهم بالإضافة إلى الشيخ القسّام: يوسف الزيباوي من قرية الزيب، ومحمد حنيفة وهو مصري، والشيخ نمر السعدي من قرية الغابة التابعة لشفا عمرو، وأسعد المفلح من أم الفحم، وحسن الباير من برقين، وأحمد عبد الرحمن جابر من عنبتا، وعربي البدوي من قبلان، ومحمد اليوسف من سبسطية، ومحمد أبو قاسم خلف من حلحول، ومعروف الحاج جابر من يعبد. وأخذوا يركزون أنفسهم ويدعون إخوانهم إلى الإنضمام إليهم.

علم السلطات بحركتهم ومبادرتها لقمعها قبل تفاقمها:

وعلمت السلطات من جواسيسها بحركتهم الخطيرة، فسارعت إلى قمعها قبل اتساع نطاقها وبروزها إلى ميدان الجهاد العلني فأرسلت قوة مختلفة من إنكليز وعرب إلى الأحراش وطوقتها، ثم أنذرت الجماعة بالإستسلام وتسليم سلاحهم. ورأى هؤلاء أنهم لابد من الدخول في المعركة مع هذه القوة قبل الأوان، ولو لم يكن أي تكافؤ في القوة والاستعداد للمعركة المفاجئة، وتبادل الطرفان النار

واستشهد الشيخ واثنان من رفاقه هما يوسف الزيباوي وحنيفة المصري، وجرح اثنان هما الشيخ نمر السعدي وأسعد المفلح، واعتقل الأحياء بما فيهم المجروحون وكان ذلك في 1935/11/20.

استشهاد محمد أبو قاسم خلف قبلهم في حادث آخر:

ولقد كان محمد أبو قاسم خلف المعروف بالحلحولي قد خرج من الأحراش لأمر ومعه بندقيته، فالتقى بدورية من البوليس الانكليزي وتبادل معها النار، فاستشهد نتيجة لذلك قبل يومين من الاشتباك. ومن المحتمل أن يكون هذا مما جعل السلطات تشعر بخطورة الحركة وتجمّع المجاهدين، ولقد استطاع معروف الحاج جابر أن يفلت من الطوق، ولكن الجواسيس أخبروا به القوة فتعقبته واعتقلته.

تأثير الحادث في الأفكار:

ولقد كان للحادث أثر بليغ في نفوس العرب، فأثار عواطفهم وأهاج أعصابهم بحدته وما انطوى فيه من خطورة وإقدام، وقابلوه بمظاهرة جياشة من الإكبار والانفعال، وقد انزعجت السلطات أيما انزعاج من الحادث أولاً، ومن مظاهر الإكبار والانفعال والعطف ثانياً، حتى إنها بعد أن وصفتهم في البيان الذي أذاعت به خبر الصدام مع الجماعة بوصف عصابة أشقياء، عادت إلى التهدئة فصارت تذكرهم بوصف (عصبة) وحسب، وتحاشت من ذكرهم بسوء، وسلّمت جثث الشهداء لذويها، وأغمضت العين عن الاحتفال بدفنهم.

مشهد الاحتفال الكبير بدفنهم وتفنيد ما قيل في نفي ذلك:

وكان الاحتفال بدفنهم مشهداً كبيراً اشترك فيه وفود كثيرة من مختلف أنحاء البلاد، وكنت أنا ممن جاء من القدس واشتركت فيه. ولقد قرأت مقالاً لكاتب زعم أنه لم يكن مشهد دفنهم كبيراً، ولم يشهد أحد من رجال الأحزاب والحركة الوطنية مشهد دفنهم. وقال عبد القادر ياسين في كتابه كفاح الشعب الفلسطيني هذا أيضاً، وقال إنه لم يكن إلا أكرم زعيتر من حزب الاستقلال. وهذا وذاك غير صحيح، فقد كان موكباً مهيباً، وجاء إلى حيفا عدد كبير من الناس من القدس ونابلس وعكا ويافا وصفد وجنين، وفيهم عدد من رجال الأحزاب والحركة الوطنية، وكنت أنا وأكرم وصبحي الخضراء ممن جاء من حزب الاستقلال من خارج حيفا، واشترك في الموكب رشيد الحاج إبراهيم ومعين الماضي من أعضاء الحزب، وكانا في حيفا. ولقد كان الحادث نموذجاً جديداً للجهاد، ومثلاً عالياً على التضحية والإقدام مجردين من كل شهوة أو غرض دنيوي، وغدا اسم القسام وعصبته لا يذكر إلا مع التكريم والإجلال. وكان الحادث من الحوافز النفسية القوية للأحداث التي تلته بعد أشهر قليلة أثناء الإضراب الطويل الذي اعلنته البلاد في نيسان 1936 على ما سوف نشرحه بعد.

محاكمة المعتقلين من إخوان القسام بعد سنة والتسجيل الذي كنا كتبناه عن ذلك:

ولقد كان لحركة القسّام فصل أخير هو محاكمة المعتقلين من الأحياء، وقد وجدت تسجيلاً لي لذلك في دفتر من دفاتر اليوميات التي كنت أكتبها في ظروف الإضراب الطويل،

وكنت نسيتها فلم أثبت ذلك التسجيل في ما كتبت عن حركة الشهيد القسام في الجزء الثالث من كتابي حول الحركة العربية الحديثة، كما أني لم أطلع على ما جاء فيه في مصدر آخر، ولم أذكر في التسجيل المصدر الذي سجلت عنه ما سجلت، وكنت على الأغلب أقرأ صحف فلسطين وأسجل عنها، ولابد من أن تكون واحدة من هذه الصحف أو أكثر أوردت الخبر فنقلته عنها، وهذا نص التسجيل حرفياً:

يومية الثلاثاء 4 شعبان 1355 ـ 20 تشرين الأول 1936.

أمس الاثنين جرت محاكمة المتهمين بحركة القسّام الجهادية وقد انعقدت المحكمة في الناصرة برئاسة قاض بريطاني وعضوية قاض بريطاني وقاضيين عربيين.

اسماء المتهمين:

والمتهمون هم المشايخ محمد يوسف المحمد واحمد الحاج حسن وحسن الباير ونمر السعدي واسعد المفلح وعربي البدوي.

المحامون عنهم:

وحضر كل من محمود الماضي وعمر الصالح البرغوتي وجورج صلاح وعبد الرحمن النحوي ونجيب الطيبي كمحامين عنهم.

جلسة محكمة أولى لمحاكمتهم على قتل شاويش يهودي قبل خروجهم إلى يعبد:

وعقدت المحكمة جلستين أو محاكمتين، في الأولى لأجل محاكمتهم على قتل شاويش يهودي اسمه روزنفيلد بتاريخ 7 تشرين الأول 1935، وقد اعترف الأربعة الأولون بالتهمة، وقالوا إن ما فعلوه هو في سبيل الواجب. وكان قتل الشاويش عملية جهادية سابقة على الخروج الى يعبد، التي كان يقوم بها خلايا الجهاد، وقد حكمت المحكمة بالسجن عليهم أربعة عشر عاماً، وبرأت الشيخين الآخرين لعدم ثبوت اشتراكهما، وطلب والد الشاويش اليهودي الحكم بالدية عن ابنه، فحكمت المحكمة على الشيخ احمد الحاج حسن بدفع (250) جنيهاً دية (وليس في التسجيل الذي انقله حرفياً من دفتر يومياتي ايضاح لاختصاص هذا الشيخ وحده بالدية).

انعقاد جلسة أخرى للمحاكمة على يوم الصدام:

ثم انعقدت المحكمة مرة أخرى لمحاكمة المشايخ المذكورين، مضافاً إليهم معروف الحاج جابر وداود علي الحطاب بتهمة التآمر على القيام بعمل حربي ضد فريق من سكان فلسطين وقتلهم بوليس بريطاني في تاريخ 20 تشرين الثاني 1935 وهو تاريخ استشهاد القسام وصحبه.

اعترافهم وكلمة الشيخ نمر السعدي:

وقد اعترفوا جميعهم بالتهمة، وقال أحدهم الشيخ نمر السعدي (أنا اعترف بأني صديق القسام، وأعتقد أن الشيخ عز الدين على حق وليس على باطل، وأنه لم يكن له غاية شخصية).

إعلان النيابة اكتفاءها بالحكم الأول بالنسبة للأربعة الأولين:

وقد أعلنت النيابة أنها تكتفي بالنسبة للأربعة المحكومين في الحكم الأول ما حكموا به.

الحكم على الباقي بالسجن سنتين والتوصية بمعاملة ممتازة لهم لأنهم رجال دين:

وحكمت المحكمة على الأربعة الآخرين

بالسجن سنتين، وأوصت بمعاملة جميع المحكومين معاملة خاصة ممتازة لأنهم رجال دين، وقد وصفت الصحف المجاهدين بأنهم كانوا إبان المحاكمة رابطي الجأش أقوياء النفس.

خطاب الشيخ أسعد المفلح للناس بعد الحكم:

وقالت إن الشيخ أسعد المفلح خاطب الجمهور بعد صدور الحكم قائلاً لا تخافوا. نحن لا نخاف أحداً غير الله ولا تهمنا القوة ما دمنا مؤمنين بحقنا. وهكذا ضربوا للناس مثلاً عالياً برباطة الجأش عند المحاكمة، كما ضربوه بخروجهم للجهاد في سبيل الله.

أسباب خفة الأحكام:

والذي تبادر للناس أن الحكم الهين الذي حكمت به المحكمة على المتهمين على الفريقين في حكمها الأول والثاني، كان بتأثير جو البلاد وثورتها، ورغبة في عدم إثارة التوتر، وكانت المحكمة والحكم بعد قليل من فك الإضراب الطويل وتوقف الأعمال الثورية.

* * *

بعونه تعالى انتهى
المجلد الأول والذي احتوى الأجزاء
الأول والثاني والثالث
ويليه المجلد الثاني
والذي يتضمن الأجزاء الرابع والخامس
وفيها مسيرة الاضراب البطولي 1936 وتشكيل
اللجنة الملكية البرلمانية والكتاب الأبيض
ووفد اللجنة العربية العليا إلى
ملك العراق والسعودية
ووفد بعثة الحج لغاية أيلول 1937

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث



Pride of Islam is initiated from Pride of Arabisim.», As pride of Islam, and its spreadness was under the emblem and unity of Arabs, and as much as they would be strong and liberated from obstacles they would be great service to Islam strength and spreadness.

He registered, in detailed memories, all what he had witnessed, observed, contributed, and participated in a very true unique method, apart of bias, emotion and linguistic phrasings, covering a century epoch, from his actual, active leadership contribution and continual active prominent struggler in prominent societies, political and thought gatherings which activated in defence of nationalisim, facing the Mandate and zionisim colonization, playing his nationalistic role silently, without anticipating dignity, appearance, power or influece, affording all his efforts, ability, activity and concerns to national aims never changed due to age, sickness or changeable circumstances which non of his colleagues, pioneers and leaders who participated in the national movements have registered these happenings, inclusivly, as he had done.

Publishing these memories and registrations will reveal some still concealed sides of Palestinian National Movements proceedings in particular and other Arab Movements in common, They will be beneficial and of great interest to research fellows, they cover his life career (97 years) deep inward National struggle movements activating in its makeing. It includes observations and registrations of daily happenings, personal, family affairs, employment career parties, societies and different, local and global important and non important events.

The sincere importance of these memories, autobiography, besides the unique position of its writer, will make it one of the main rare true and confident historical resourses, since it is difficult to doubt the aims of the memories, or accuse the aims, sinserity and devotion of the writer and being objective and neutral.

* * *

MOHAMMED IZZAT DARWAZEH

BORN IN NABLUS 1305 H. - 1887 A D
DIED IN DAMASCUS 1404 H. - 1984 A D

MOHAMMED IZZAT DARWAZEH was one of those who accompanied the Arab Political Movements since the begining of the century. He was not a simple observer of events or eyewitness to its evolution, but he was deep inward the national movements, facing the Mandate and Zionisim, playing a leading role and stirrer of events, stilly and silently, enforcing and supporting, in cooperation with his colleagues, armed struggle movements, in line of unification against partition conditions and artificial boundaries. He contributed in founding, establishing, promoting and activating Arab National Struggle and Unification societies and parties in Syria (Southern and Northern) before 1920 and in Palestine (Southern Syria) after 1920. His career life cannot be seperated from struggle and unification national movements.

MOHAMMED IZZAT DARWAZEH in depth and broadness of his career is a unique feature. He lived, almost a century, giving, efforting, supporting, struggling, thinking and writing, without a break, thus being an eyewitness for his epoch happenings political, intellectual, cultural and literatural. He explored all these fields as journalist, critic, translater, novel, story and theatre writer, historian, theoligist, wrote in KORAN and HADITH, and explained KORAN (TAFSIR EL-KORAN), wrote in natioal social affairs, Arab history ancient and modern, in the view of a nationalist, realistic scholar. He boundened himself to verified thinking and scholastic method, faithful to his beleives, without prejudice, very proud to his nation, boundened to humanity truthness and rights without bias or fascination.

He was one of the few modern Arab awakening pioneers who realised the secret of the eternal bindings between ISLAM and ARABISIM in different aspects, languistic, thought, culture, and legacy: «Pride of Arabisim is initiated from pride of Islam, and



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود

تلفون البناية : 340131/2 تلفون مباشر : 350331 ص . ب . 113-5787 بيروت ، لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم	:	1993 - 10 - 1000 - 204
التنضيد	:	سامو برس – بيروت
الطباعة	:	دار صادر – بيروت

Mohammed Izzat Darwazeh

97 Years

Autobiography

A long side with Arab movments
and Palestinians cause
Memories and Registrations

Volume I



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI